الإرشاد إلى أسباب النجاة

والوسائل الناجعة لحياة طيبة نافعة

الجزء الأول

الدكتور
عبد القادر محمد المعتصم دهمان

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر

الإرشاد إلى أسباب النجاة

والوسائل الناجعة لحياة طيبة نافعة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤٤٥ هـ، ٢٠٢٣م

رقم الإيداع : ٢٣١٦٦٦١

الرقم الدولي : ٥ - ٦٥٢ - ٩٩٧ - ٩٧٧ - ٩٧٨



@DarElollaa

Dar_Elollaa@hotmail.com

الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .

01050144505 - 0225117747




المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .

01007868983 -0502357979

الإرشاد إلى أسباب النجاة

والوسائل الناجعة لحياة طيبة نافعة

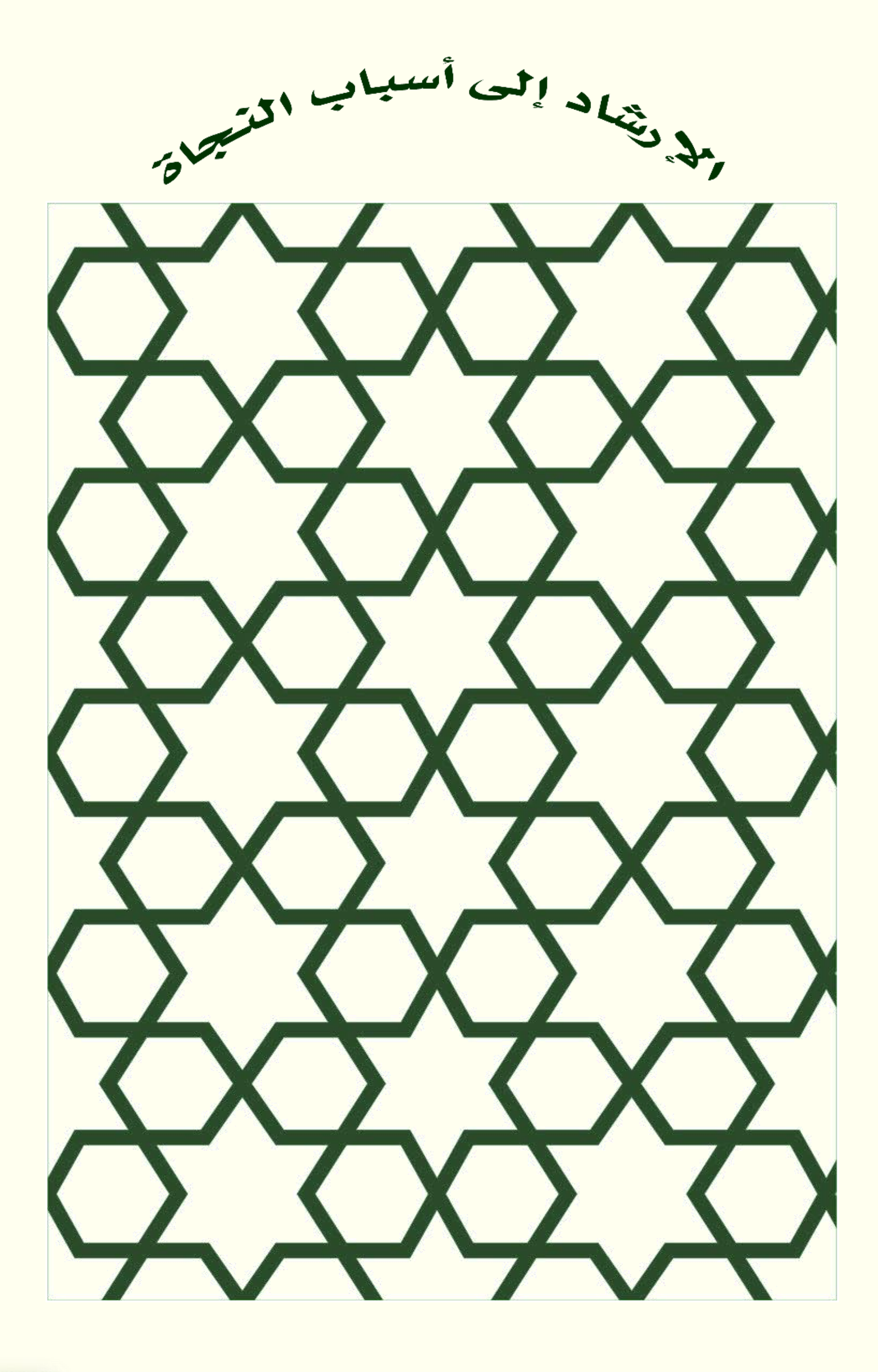
الجزء الأول

الدكتور
عبد القادر محمد المعتصم دهمان



﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾

الإرشاد إلى أسباب النجاة



بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة :

الحمدُ لله مُسْبغ العطايا والنِّعم، وصاحب الفضل والمنن، ومُسْدل الستر على العصاة المنيبين، وموفِّق الأبرار من عباده المهتدين، وواهب ما لا يحصى من الخير العميم، وكاشف الغمّ، وفارج الهمّ عن عباده الصَّالحين، وهو العليم الفتاح، وفالق الحَبّ والإصباح، ومُجْرِي الفُلْك بأمره، ومبدع الكون بقدرته وإرادته، ومقدِّر الأقدار، ومصرِّف الرِّياح، وهادي العباد إلى سبل السَّعادة والفلاح، وفاطر السماوات والأرض، وخالق الأجساد والأرواح، ومخرج الحيَّ من الْمَيِّتِ، ومُخْرِجُ الْمَيِّتِ من الْحَي، ومحيي الأرض بعد موتها، وإليه يرجع الأمر كله، وهو العالم بما هو كائن، وبما مضى وراح، قد أحاط بكل شيء علمًا، وأرشد العباد إلى سبل الفلاح، فشرع لهم ما فيه الخير والصَّلاح، وهو الرَّحيم بعباده، وذو العفو والصَّفح والسَّماح، بَصَّرَ عبادَه الأبرار، بحقيقة هذه الدار، وبأنها صائرة إلى بوار، وبأن الآخرة هي دار القرار، وبأنها خيرٌ وأبقى، لمن عمل صالحًا، وسلك نهج الأبرار، فأعرض عن الدَّنايا والأقذار، واقتفى هدي سيِّد الأبرار، وأئمةٍ في الزِّهد كبار، واجتهد في طاعة القهار، مجتنبًا أعمال أهل النار، وشاكرًا لواهب

غفار، ومسبِّحًا بالعشيِّ والإبكار، ومغتنمًا لحظات يتسارع انقضائها، مؤذنة بقرب الرَّحيل عن هذه الدَّار.

وقد خلق الله عَزَّوَجَلَّ العباد ضعفاء، وكتب عليهم الموت والفناء، فمنهم من اهتدى إلى الحق قبل الفوت، فاغتنم المهلة قبل الرَّحيل والموت، فكان في أخراه من السُّعداء، ومنهم من سَلَك طريق الغواية، فسقط في أودية الضَّلال، وتشعُّبَات الظُّنون والأوهام، وغفل عن حقيقة ضعفه وحاجته، وعن عاقبته ومآله، فانحرف عن الصراط، فكان من أهل الشقاء.

والله عَزَّوَجَلَّ هو الموفِّق والهادي إلى دار السَّلام، وذو الفضل والإحسان والإنعام، أحمده حمد الشاكرين، على كل حال، وفي كلِّ وقت وحين، وأصلِّي وأسلِّم على رسوله الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهديه، واستن بسنته، إلى يوم الدين.

أما بعد:

فلا بدَّ لطالب النَّجاة والسَّعادة من سلوكِ سبيلِ الأبرار، من الصَّالحين الأطهار، في اجتنابِ أعمال أهل النَّار، والاحترازِ عن نهج المفسدين الفجار، واتخاذِ أسباب الوقاية من المزالق والمضلَّات، ومن الخوض في فتنٍ عاتيات.

ولزوم نهج المصلحين من أرباب البصائر والصلاح، في الاستقامة والثبات على صراط الله عَزَّوَجَلَّ المستقيم، وشرعه الحكيم، من الفعل والتَّرك، والتحلي والتخلي، والفقه

والعمل، حتى يحيا في الدُّنيا حياةً طيبةً نافعة، ويجازى في الآخرة بأحسن ما كان يعمل، فيكون من الفائزين بخيري الدنيا والآخرة.

وقد حذَّرنا الشَّارع من أعمال أهل النَّار، وأرشد العباد إلى أعمال تصلح أحوالهم، وتنجيهم من الأهوال والآفات، وسوء العاقبة، وتقيهم في الآخرة من عذاب النار.

فينبغي على كل مكلَّف عاقل يطلبُ الهدايةَ والنَّجاةَ والتوفيق أن يفقهَ ما قد يكون سببًا لشقائه فيتجنبه، وما يكون طريقًا لسعادته فيسلكه، وأن يتخذَ من الأسباب ما ينجيه من النَّار في الآخرة، ويبعده عنها، فمن أراد الله عَزَّوَجَلَّ به خيرًا وفقه لذلك، فرزقَهُ بصيرةً وفرقانًا، فأبصرَ الحقَّ، وأنصفَ الخلق، وتجاوزَ العقباتِ التي تحولُ دونَ الهداية؛ للارتقاءِ إلى يفاعِ الاستبصار، ولاستنقاذِ النَّفسِ من دَرَكَاتِ النَّار.

وقد كنت قد أفردت بالبحث: ما تُوعد عليه بالنار، مع بيان أسباب الوقاية والنجاة، كما أفردت ذكر العقبات التي تَصُدُّ عن الهداية، مع بيان سبل الوقاية والعلاج منها، وجاء هذا الكتاب متمِّمًا لأسباب النجاة العامة، ومذكِّرًا بالأعمال الجليلة التي خصت بمزيد من الفضل، والتي هي من أسباب النجاة، وحسن العاقبة، ورفعة الدرجات في الآخرة.

وقد كنتُ قد كتبتُ شيئًا من بعض موضوعاته قديمًا، فرأيت أن أتمه؛ لما رأيت من كونه مكملًا لتلك الأعمال السابقة، والله عَزَّوَجَلَّ أسأل أن يكون نافعًا، ومثمرًا، وأن يكون أثرًا باقيًا.

وبناء على ما ذكرت فإن هذا المصنف يكون متقدِّمًا ومتأخِّرًا على اعتبار اللاحق مما أضيف، والسابق مما تقدم.

وقد شرعت في إتمامه والعوائق كثيرة، راجيًا من الله عَزَّوَجَلَّ إتمامه في مدة يسيرة.

والإنسان منقلب في حياته من قوة إلى ضعف، ومنتقل لا محالة من الحياة الدنيا الفانية، إلى الدار الآخرة الباقية.

وعسى أن يكون المنقلب بعد انقباض فسحة الأمل، وظهور الفساد في البر والبحر إلى انفراج وسعة، وفرج ونصر قريب.

وهذا زمان الصَّبر، والنفس في وَجَلٍ، من مكرٍ وإيذاء وطغيان، وحرب من سلاحٍ وإعلام، وشكٍّ من مضلٍّ وحيران، وغربة عن أهلٍ وأوطان، وفي غمرة إفساد وطغيان، وجهل وتشويش وادِّهان، وصولجان ظالم فتان، يميد الحق في جوقة الظلام، فيعتلي منبر الضَّلال، كلُّ أفاك جبان، وقد تلاطمت فتن، وترحَّلت آمال، وفشا فقر وحرمان، فلا يطلب الحق في هذا الزمان، ويبصره من غير شائبة إلا موفَّق من الرحمن، على علم وبصيرة واتباع، لما أنزل من هديٍ وفرقان، واجتناب لمسالك كلِّ شيطان، من إنسٍ وجانٍّ.

وفي تزاحم المشاغل والشواغل تعِنُّ لطالب الهداية خلسات من أظلاع نور الحق، كأنها بروق، تنير ظلمة الزمان، وتبعث في النفس آمالًا، من سكون نفس، ونور بصيرة، وزيادة اطمئنان، في خضم غربة، وفي وسط الزحام.

والمؤمن في حياته -على قصرها، وسرعة انقضائها- متقلب ما بين سرورٍ وهمٍّ وأحزان، وسعة وفقر وحرمان، وخيانة من قريب وخذلان، ووصل وصَدٍّ ونكران،

وجحود وإيذاء وهِجْرَان، ولكنه يركن في كلِّ ما يعتريه من النوازل إلى ركن ركين، فيجد السكينة والأمان، ولا يخذل على مرِّ الزَّمان، فهو في تقلب أحواله مطمئن بذكر ربه عَزَّوَجَلَّ، واثق بوعده، من فرج ونصر وإكرام.

وإذا ما حان الأجل، وأزف الرَّحيل عن دنيا المظالم والأحزان، استبشر بلقاء ربه وعدله، ورحمته وفضله، فاليوم عنده هو يوم الانعتاق وإطلاق السراح، وطي ما مضى وراح، والتحرر من قفص الحياة، إلى فضاء رحب، لا يبقى فيه أسير الجسد، حيث ينقلب إلى خير جوار، وإلى ساحة عدل إحسان، حيث لا ظلم، ولا بغي، ولا طغيان.

أسأل الله جلَّ في علاه حسن الخاتمة، وأن يكرمني ومن انتفع بهذا المصنف بأعالي الجنان.

ولا أُبَرِّىءُ نفسي من التَّقصير والخطأ والنقص في كلِّ ما طغى به القلم، مما زلَّت فيه القَدَم، معتذرًا بنحو ما قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وظُنَّ به خيرًا وسامح نسـيجه ... بالاغضاء والحسنى وإن كان هلهلا
وسَلِّمْ لإحدى الحسنيين إصابة ... والأُخرى اجتهاد رام صوبًا فأمحلا
وإن كان خرق فادركه بفضلة ... من الحلم وليصلحه من جاد مقولا [(١)]

وبما قال آخر: "والمأمول من الأحباء المتحلين بحلي الإنصاف، المتخلين عن رذيلتي: البغي والاعتساف، إذا عثروا على شيء فيه زلت القدم، أو طغى به القلم،

(١) متن الشاطبية (ص:٧).

أن يصلحوه بما يقتضيه المحل؛ فإن الإنسان منشأ النسيان والزلل، متمنيًا من الناظرين أن ينظروا بعين الإنصاف؛ فإن الإنصاف خير الأوصاف"[1].

وقد أوليت عناية لما ورد من أحاديث وأقوال من حيث التخريج، والتوثيق، والتحرير.

أما تخريج الأحاديث فيأتي على النَّحو التَّالي: إذا كان الحديث في الصَّحيحين، فإني أقتصر عليهما في التَّخريج، وإن كان في أحدهما دون الآخر، فإني أخرجه منه وأكتفي. وأمَّا إذا لم يكن الحديث موجودًا في الصَّحيحين أو أحدهما فإِنِّي أسعى جاهدًا إلى تخريجه من المسانيد والسنن، وقد اعتمدت الترتيب على حسب تاريخ الوفاة، وذكر رقم الحديث فقط بالنسبة لكتب الحديث المرقمة بين مقفيين [**]، وذكر الجزء والصفحة بالنسبة للأحاديث غير المرقمة بين قوسين (**)، وإذا كثرت الطرق أكتفي بذكر أصحها.

وإذا ذكر في غير موضع فإني أكتفي بالتوثيق باعتبار أول ورود له فيما عدا الصحيحين.

وفي حالة الزيادة على أول ورود فلنكتة لا تخفى على أولي البصائر.

أمَّا الحكم على الحديث فإنني أذكرُ درجةَ الحديث إن لم يكن في الصَّحيحين. وإذا تكرَّر ذكر الحديث الشَّريف في مواطنَ لاحقة، فإنَّني أكتفي بالإشارة لتقدُّمه، وكذلك إذا تكرَّر ذكرُ الأثر أو القول فإنَّني أكتفي بالإشارة إلى تقدُّمه.

(١) مغني الطلاب، لمحمود حسن المغنيسي شرح متن إيساغوجي، لأثير الدين الأبهري (ص:٤٨-٤٩).

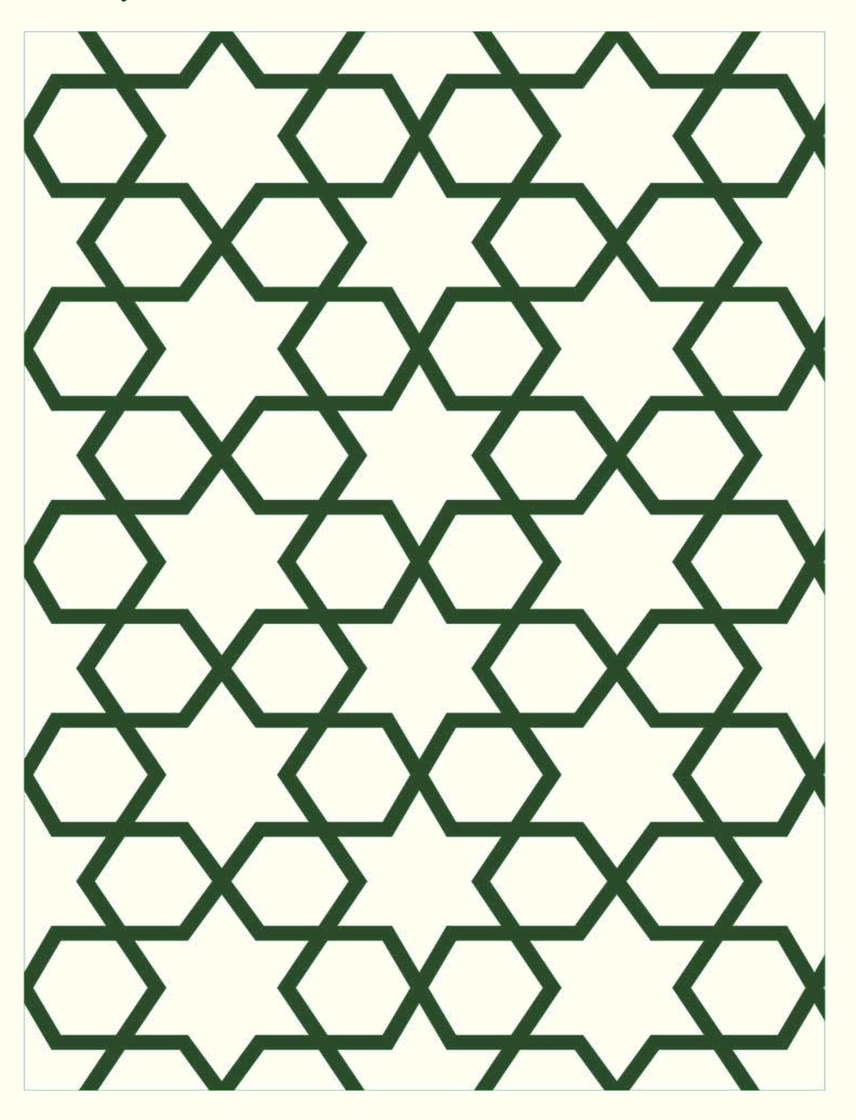
وقد التزمت توثيقَ الأشعار، والأمثال، والأقوال من مصادرها الأصلية، مع تحرير نسبة القول إلى صاحبه، وأن يختم الاقتباس بذكر المرجع الَّذي قد اقتبس منه في الحاشية. وذكر مادة كل لفظ عند الرجوع إلى المعاجم مع ذكر الجزء ورقم الصفحة.

والقوسان المقفيان [**] للإدراج والأرقام.

والقوسان الهلاليان (***) للجزء والصفحة، وللكلمات التي قد تحتاج إلى بيان.



الإرشاد إلى أسباب النجاة

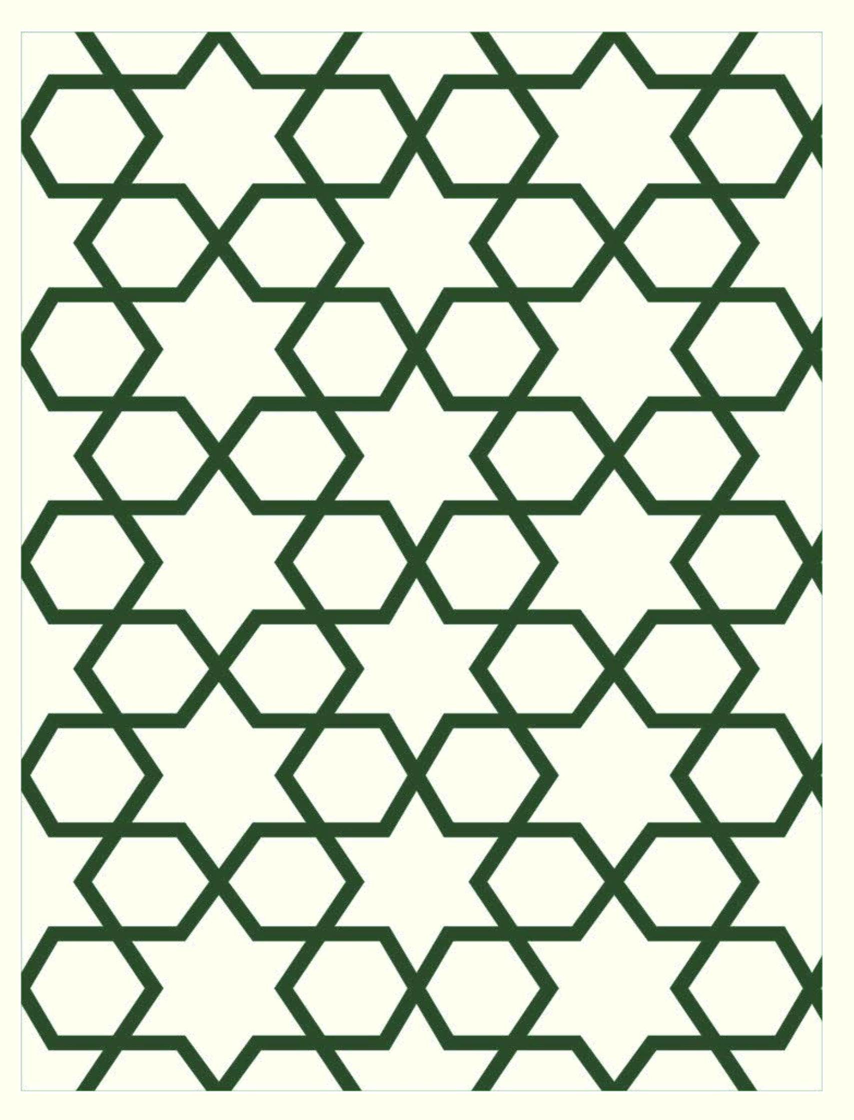




المبحث الأول:

الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ

الإرشاد إلى أسباب النجاة



أولًا: الإيمان ينيرُ بصيرةَ المؤمن، ويحقق الطمأنينة:

إنَّ الإيمانَ بالله عَزَّوَجَلَّ، والتمسكَ بالعقيدة، والتفقه في الدين ينيرُ بصيرة المؤمن، ويقطع الشكوك التي تشتت فكره، ويفتح أمامه أبواب الأمل المتجدِّد، ويحقِّقُ الطمأنينة، والرَّاحة النفسية، ويباعد بينه وبين القلق والحيرة، والهم والحزن، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨]، فالمشرك تتخطفه الشياطين والأهواء، ويهوي في مزالق الضلال، كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١].

والمشرك شرُّ الخلق عند الله جَلَّوَعَلَا، وأسوأ الخلق حالًا؛ لأنَّه منكر للحق بعد معرفته وقيام الدليل عليه، فهو مهلك لنفسه، وجالب الهلاك والشرور إلى غيره، وقد توعده الله عَزَّوَجَلَّ بالخلود في نار جهنم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ﴿٦﴾﴾ [البينة: ٦].

فمن أشركَ بالله عَزَّوَجَلَّ فقد ضلَّ عن الحق والهداية، وبعد عن سبيل الرشاد؛ لانغماسه في الضلال الذي أعمى بصيرته، وسلوكه سبيل الغواية، وهو ضلال بعيد، يفسد العقل، ويكدِّر صفاء الروح، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء:١١٦].

والشرك محبط للعمل، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام:٨٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ

إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ [الزمر:٦٥].

وفي الحديث: «**كل ذنب عسى الله أن يغفره إلّا من مات مشركًا، أو مؤمنًا قتل مؤمنًا متعمدًا**» (١).

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، أي: يسترها بعفوه -ولو بلا توبة إذا شاء- إلا الشرك"(٢).

والشرك أكبر الكبائر، كما جاء في الحديث: عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**» ثلاثًا، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين** -وجلس وكان متكئًا فقال- **ألا وقول الزور**»، قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت (٣).

---

(١) الحديث مروي عن معاوية، وعن أبي الدرداء، وعن عبادة بن الصامت. حديث معاوية: أخرجه أحمد [١٦٩٠٧]، والنسائي [٤٢٧٠]، والطبراني [٨٥٨]، والحاكم [٨٠٣١]، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه الديلمي [٤٧٦٠]. حديث أبي الدرداء: أخرجه أبو داود [٤٢٧٠]، والبيهقي [١٥٦٣٩]. حديث عبادة بن الصامت: أخرجه البزار [٢٧٣٠]، قال الهيثمي: "رواه البزار، ورجاله ثقات".

(٢) فيض القدير (٦/٢).

(٣) صحيح البخاري [٢٦٥٤، ٥٩٧٦، ٦٢٧٣]، مسلم [٨٧].

ثانيًا: تعريف الإيمان وبيان أركانه وشعبه:

والإيمان هو في اللغة: التصديق والاطمئنان.

وفي الاصطلاح هو (**الإيمان بالله** عَزَّوَجَلَّ، **وملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر كله، واليوم الآخر**)، أي: القيامة؛ لأنه آخر الأيام، ويشمل: البعث، والحساب، والجنة والنار، والحوض، والصراط، والميزان.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾ [البقرة:٢٨٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [النساء:١٣٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٍ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٥٢﴾ [النساء:١٥٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة:١٧٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات:١٥].

وفي الحديث: قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره**» رواه الشيخان.

وفي لفظ عندهما: «**الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ولقائه، ورسله، وتؤمن بالبعث الآخر**».

وروى الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره حديث: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه**» (١).

وعن رِبْعِيّ بن حِرَاشٍ عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، وبالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر**» (٢).

---

(١) أخرجه الترمذي عن جابر [٢١٤٤]، وقال: "هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث: عبد الله بن ميمون، وعبد الله بن ميمون منكر الحديث. كما أخرجه ابن جرير: عن جابر". ولكن الحديث قد ورد مفرقًا في أحاديث.

(٢) أخرجه الطيالسي [١٠٨]، وأحمد [٧٥٨]، وعبد بن حميد [٧٥]، وابن ماجه [٨١]، والترمذي [٢١٤٥]، وقال: "حدثنا محمود بن غيلان قال: حدثنا النضر بن شميل، عن شعبة، نحوه، إلا أنه قال: ربعي، عن رجل، عن علي. حديث أبي داود، عن شعبة عندي أصح من حديث النضر، وهكذا روى غير واحد، عن منصور، عن ربعي، عن علي، حدثنا الجارود، قال: سمعت وكيعا، يقول: بلغنا أن ربعيا لم يكذب في الإسلام كذبة" اهـ. وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم في (السنة) [١٣٠]، والبزار=

قال الإمام جلال الدين السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمؤمن حقًّا من كملت فيه شعب الإيمان، وهي بضع وستون أو وسبعون:

الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وصفاته، وحدوث ما دونه، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، والقدر، والإيمان باليوم الآخر، ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ، والحب في الله عَزَّوَجَلَّ، والبغض فيه، ومحبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واعتقاد تعظيمه، وفيه: الصلاة عليه، واتباع سنته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والإخلاص، وفيه: ترك الرياء والنفاق، والتوبة، والخوف والرجاء، والشكر، والوفاء، والصبر، والرضا بالقضاء، والحياء، والتوكل، والرحمة، والتواضع، وفيه: توقير الكبير، ورحمة الصغير، وترك الكبر والعجب، وترك الحسد، وترك الحقد والغضب.

والنطق بالتوحيد، وتلاوة القرآن، وتعلم العلم وتعليمه، والدعاء والذكر، وفيه: الاستغفار، واجتناب اللغو، والتطهر حسًّا وحكمًا، وفيه: اجتناب النجاسات، وستر العورة، والصلاة فرضًا ونفلًا، والزكاة كذلك، وفك الرقاب، والجود، وفيه: الإطعام والضيافة، والصيام فرضًا ونفلًا، والاعتكاف، والتماس ليلة القدر، والحج والعمرة، والطواف، والفرار بالدين، وفيه: الهجرة، والوفاء بالنذر، والتحري في الأيمان، وأداء الكفارات، والتعفف بالنكاح، والقيام بحقوق العيال، وبر الوالدين، وتربية الأولاد، وصلة الرحم، وطاعة السادة، والرفق بالعبيد، والقيام بالإمرة مع العدل، ومتابعة الجماعة، وطاعة أولي الأمر، والإصلاح بين الناس، وفيه: قتال الخوارج، والبغاة،

=[٩٠٤]، وأبو يعلى [٥٨٣]، وابن حبان [١٧٨]، والحاكم [٩٠] وصححه، ووافقه الذهبي. كما أخرجه: تمام [١٤٤٢]، والبيهقي في (القضاء والقدر) [١٨٩]، والضياء [٤٤٠].

والمعاونة على البرِّ، وفيه: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، والجهاد، وفيه: المرابطة، وأداء الأمانة، ومنها: الخمس، والقرض مع وفائه، وإكرام الجار، وحسن المعاملة، وفيه: جمع المال من حله، وإنفاق المال في حقِّه، وفيه: ترك التبذير والسرف، ورد السلام، وتشميت العاطس، وكف الضرر عن الناس، واجتناب اللهو، وإماطة الأذى عن الطريق"[(١)].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تكلف جماعة حصر هذه الشعب بطريق الاجتهاد، وفي الحكم بكون ذلك هو المراد صعوبة، ولا يقدح عدم معرفة حصر ذلك على التفصيل في الإيمان"[(٢)].

وقد أجاد الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تلخيص ما أوردوه من ذكر (شعب الإيمان)، وما تتفرع عنه، حيث قال: "ولم يتفق من عد الشعب على نمط واحد، وأقربها إلى الصواب: طريقة ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن لم نقف على بيانها من كلامه، وقد لخصت مما أوردوه ما أذكره، وهو أن هذه الشعب تتفرع عن أعمال القلب وأعمال اللسان، وأعمال البدن:

فـ: **(أعمال القلب)** فيه المعتقدات والنيات، وتشتمل على أربع وعشرين خصلة: الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، ويدخل فيه: الإيمان بذاته، وصفاته، وتوحيده بأنه ليس كمثله شيء، واعتقاد حدوث ما دونه، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشره،

---

(١) من تحقيقنا لمتن (نُقاية العلوم)، للإمام السيوطي (١/٩٤-٩٥)، وتفصيل ذلك في شرحه: (إتمام الدراية شرح نُقاية العلوم) (٢/٤١٨)، ط: دار الضياء، الكويت.

(٢) فتح الباري (١/٥٢)، انظر: إكمال المعْلم بفوائد مسلم (١/٢٧١-٢٧٣).

والإيمان باليوم الآخر، ويدخل فيه: المسألة في القبر، والبعث، والنشور، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار، ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ، والحب والبغض فيه، ومحبة النبي صَلَّٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، واعتقاد تعظيمه، ويدخل فيه: الصلاة عليه، واتباع سنته، والإخلاص، ويدخل فيه: ترك الرياء، والنفاق، والتوبة، والخوف والرجاء، والشكر، والوفاء، والصبر، والرضا بالقضاء، والتوكل، والرحمة، والتواضع، ويدخل فيه: توقير الكبير، ورحمة الصغير، وترك الكبر والعجب، وترك الحسد، وترك الحقد، وترك الغضب.

و(**أعمال اللسان**) وتشتمل على سبع خصال: التلفظ بالتوحيد، وتلاوة القرآن، وتعلم العلم، وتعليمه، والدعاء، والذكر، ويدخل فيه: الاستغفار، واجتناب اللغو.

و(**أعمال البدن**) وتشتمل على ثمان وثلاثين خصلة، منها:

*ما يختص بالأعيان**: وهي خمس عشرة خصلة: التطهير حسًّا وحكمًا، ويدخل فيه: اجتناب النجاسات، وستر العورة، والصلاة فرضًا ونفلًا، والزكاة كذلك، وفك الرقاب، والجود، ويدخل فيه: إطعام الطعام، وإكرام الضيف، والصيام فرضًا ونفلًا، والحج والعمرة كذلك، والطواف، والاعتكاف، والتماس ليلة القدر، والفرار بالدين، ويدخل فيه: الهجرة من دار الشرك، والوفاء بالنذر، والتحري في الأيمان، وأداء الكفارات.

*ومنها: **ما يتعلق بالاتباع**: وهي ست خصال: التعفف بالنكاح، والقيام بحقوق العيال، وبر الوالدين، وفيه: اجتناب العقوق، وتربية الأولاد، وصلة الرحم، وطاعة السادة، أو الرفق بالعبيد.

ومنها: **ما يتعلق بالعامة**: وهي سبع عشرة خصلة: القيام بالإمرة مع العدل، ومتابعة الجماعة، وطاعة أولي الأمر، والإصلاح بين الناس، ويدخل فيه: قتال الخوارج والبغاة، والمعاونة على البر، ويدخل فيه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، والجهاد، ومنه: المرابطة، وأداء الأمانة، ومنه: أداء الخمس، والقرض مع وفائه، وإكرام الجار، وحسن المعاملة، وفيه: جمع المال من حله، وإنفاق المال في حقه، ومنه: ترك التبذير والإسراف، ورد السلام، وتشميت العاطس، وكف الأذى عن الناس، واجتناب اللهو، وإماطة الأذى عن الطريق، فهذه تسع وستون خصلة، ويمكن عدها تسعًا وسبعين خصلة باعتبار إفراد ما ضم بعضه إلى بعض مما ذكر -والله أعلم-"(١).

فهذا الأمور المذكورة التي أمر بها الشرع لا صلاح للنفس، ولا حياة لها إلا بها، وعليها مدار صلاح الأسرة والمجتمع في حاضره ومستقبله، ومهما أراد المسلمون العزة بغير ما أعزَّهم الله عَزَّوَجَلَّ به أذلهم الله.

ثالثًا: الإيمان ينجِّي العبد من الأهوال والآفات والعذاب في الآخرة:

وقد جاء ذلك مبينًا في آيات كثيرة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥﴾ [البقرة:٢٥]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

(1) فتح الباري، لابن حجر (١/٥٢-٥٣).

يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة:٢٧٧]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [آل عمران:٥٧]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء:٥٧]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء:١٢٢]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء:١٢٤]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء:١٧٣]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [المائدة:٩]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس:١٠٢-١٠٣]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٩]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً

ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الكهف:٨٨]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه:١١٢]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنبياء:٩٤]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل:٥٣]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾﴾ [العنكبوت:٩]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ﴾ [العنكبوت:٥٨]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الروم:١٥]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [لقمان:٨]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص:٢٨]. قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [غافر:٤٠]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ﴾ [غافر:٥٨]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾﴾ [فصلت:٨]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت:١٨]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾﴾ [الشورى:٢٢]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ﴾ [الشورى:٢٣]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۚ﴾ [الشورى:٢٦]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠﴾ [الزخرف:٦٨-٧٠]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾ [الجاثية:٢١]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ٣٠﴾ [الجاثية:٣٠]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ٢﴾ [محمد:٢]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [محمد:١١]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾ [البروج:١١]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾ [البينة:٧-٨].

والآيات في ذلك كثيرة، وكذلك الأحاديث.

رابعًا: توحيد لله عَزَّوَجَلَّ:

إن من أصول العقيدة، وأعظم أسباب النجاة: تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّوَجَلَّ، واعتقاد أنَّ كُلَّ ما يصيب الإنسان من فتنة وبلاء إنما هو بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقَدَرِه، قال

الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [التغابن:١١]. قال علقمة: عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه قال: في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾: «**هو الذي إذا أصابته مصيبة رَضِيَ وعَرَفَ أنها من الله** عَزَّوَجَلَّ»(١).

فينبغي التعامل مع الحوادث والنوازل من منطلق إيماني؛ فإن ذلك من آثار التحقق بالإيمان، وبلوغه من العبد مبلغًا مؤثرًا، كما جاء في الحديث: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه**»(٢).

وعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرًا له**»(٣).

فلا بُدَّ من تجريد التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، والعلم بأن كل شيء لا يضر ولا ينفع إلا بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس:١٠٧]،

---

(١) صحيح البخاري (٦/١٥٥).

(٢) أخرجه البزار [٤١٠٧]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢١١]. قال الهيثمي (١/٥٨): "رواه البزار، وقال: إسناده حسن". وفي لفظ: «لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه». قال الهيثمي (٧/١٩٧): "رواه أحمد، والطبراني، ورجاله ثقات، ورواه الطبراني في (الأوسط)".

(٣) صحيح مسلم [٢٩٩٩].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك**»[1]، فإذا جرَّدَ العبدُ التوحيدَ فقد خرج من قلبه خوفُ ما سواه، وكان عدوُّه أهونَ عليه من أن يخافه مع الله عَزَّوَجَلَّ، بل يفرد الله عَزَّوَجَلَّ بالمخافة، ويرى أن إعماله فكره في أمر عدوه، وخوفه منه، واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرَّدَ توحيدَه لكان له فيه شغل شاغل، والله عَزَّوَجَلَّ يتولَّى حفظه، والدفع عنه؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يدافع عن الذين آمنوا.

فالتوحيد حصن الله عَزَّوَجَلَّ الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين، قال بعض السلف: (من خاف الله عَزَّوَجَلَّ خافه كل شيء، ومن لم يخف الله عَزَّوَجَلَّ أخافه الله عَزَّوَجَلَّ من كل شيء).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ هو أعظم الفساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، ومخالفة أمره. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١]، قال عطية [2] في الآية: ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله عَزَّوَجَلَّ المطر،

---

(١) أخرجه أحمد [٢٦٦٩]، والترمذي [٢٥١٦]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٢٥٥٦]، والحاكم [٦٣٠٣]، وقال: "هذا حديث كبير عال من حديث عبد الملك بن عمير، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا"، وأخرجه أيضًا: الضياء [١٣].

(٢) انظر: الكشف والبيان، للثعلبي (٤/٢٤٠)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي (٢/٣٧٧)، تفسير البغوي (٢/١٩٩)، الخازن (٢/٢١١).

ويهلك الحرث بمعاصيكم. وقال غير واحد من السَّلف: إذا قحط المطر فالدواب تلعن عصاة بني آدم فتقول: اللهم العنهم فبسببهم أجدبت الأرض، وقحط المطر. وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ وإقامة معبود غيره، أو مطاع متبع غير الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فإن أمر بمعصيته فلا سمع ولا طاعة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أصلح الأرض برسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ودينه، وبالأمر بالتوحيد، ونهى عن فسادها بالشرك به، ومخالفة رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ومن تدبَّر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه: توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وعبادته، وطاعة رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. وكل شَرٍّ في العالم وفتنة وبلاء وقَحْط وتسليط عدو وغير ذلك؛ فسببه: مخالفة الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والدعوة إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ. ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي غيره عمومًا وخصوصًا -ولا حول ولا قوة إلا بالله-"(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ في موضع آخر: "والشرك أعظم الفساد، كما أن التوحيد أعظم الصلاح، فأصل الصلاح: التوحيد والإيمان، وأصل الفساد: الشرك والكفر"(٢).

والإيمان: قول وعمل ونية، فلا بدَّ من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، ولا بدَّ من العمل بما أمر، ومن البعد عما نهى، ومن النية والاحتساب والاستقامة والثبات.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٢٤-٢٥)، وانظر: بدائع الفوائد، لابن القيم (٣/١٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/١٦٢).

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمشهور عن السلف وأهل الحديث أن الإيمان: قول وعمل ونية، وأن الأعمال كلها داخلة في مسمى: (الإيمان)"(١).

وأعظم أسباب النَّجاة والأمن والسعادة: تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّوَجَلَّ، الذي هو حَقُّ الله عَزَّوَجَلَّ على العبيد، والبعد عن البدع والضَّلالات، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٢].

والمراد بالظلم ها هنا: الشرك؛ لما روي في (الصحيح): أن الآية لما نزلت شقَّ ذلك على الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وقالوا: أَيُّنَا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ليس ما تَظُنُّونَ إنما هو ما قال لقمان لابنه:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان:١٣]»(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: قيل يا رسول الله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه، أو نفسه**»(٣).

(١) جامع العلوم والحكم (١/١٠٤)، وانظر: الكواكب الدراري، لشمس الدين الكرماني (١/٧٦)، الكشف والبيان، للثعلبي (٣/٢١٣)، تفسير سفيان الثوري (ص:١٥)، الأحكام الشرعية الكبرى، لابن الخراط (١/٩٥)، الحاوي الكبير، لأبي الحسن الماوردي (١٥/٣١٤).

(٢) صحيح البخاري [٣٢، ٤٦٢٩، ٦٩٣٧].

(٣) أخرجه البخاري [٩٩، ٦٥٧٠].

وهذه الشفاعة إنما هي لمن وحّدَ الله عَزَّوَجَلَّ، مخلصًا له الدين، ولا تكون لمن أشرك بالله عَزَّوَجَلَّ. وسيأتي تفصيل ذلك في بيان (أسباب السعادة، وتفاوت مراتبها).

خامسًا: صيانة الإيمان:

إنَّ نور الإيمان يدفعُ عن المسلم ما ينتابه من صنوف الوحشة، وما يناله من النوازل، وما يصيبه من أنواع البلاء، وهو قائم على ركائز من الثقة بالله جَلَّ وَعَلَا، والتوكل عليه، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق:٢-٣].

ومن أراد سلوك طريق السعادة فلا بدَّ له من صيانة النفس، بالتزام تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، والعناية والارتقاء بها وفق منهج الله عَزَّوَجَلَّ الذي فيه صلاحها وسعادتها. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾ [النحل:٩٧].

إنَّ الحياة الطَّيِّبة الهنيَّة، والسَّعادة الدَّائمة الرَّضيّة: مطلبٌ ينشده كلُّ البشر، فما من إنسان إلا ويحبُّ أن يكون من السُّعداء، ويكره أن يكون في زمرة الأشقياء، ولكنَّ قليلًا من السَّاعين من يسلك سبل السَّعادة، ويراعي أسبابها الحقيقيَّة، فلقد تنوَّعت مشارب النَّاس في البحث عن السَّعادة، فمنهم من توهَّمها في كثرة المال، وتعدُّد الذُّرِّية، ومنهم من يتخيَّلها في المنصب والجاه، وتحقيق الرَّغبات الشَّخصيَّة...إلى غير ذلك. ولقد ضلَّ كثيرون طريقها، وظلَّت نفوسهم حائرةً، ثم باءوا في النِّهاية بالصَّفقة الكاسدة الخاسرة، ففرعون أغواه ملكه، وقارون أشقاه ماله، وهامان أرداه سلطانه، وكم من

مشهورٍ عاش منكسرًا عليلًا! وكم من مخذول قد ظنَّه النَّاس سعيدًا، وهو في غاية البؤس الشقاء!

فمن الناس من شغلهم النعيم الدنيوي العاجل، فأفنوا في سبيله أنفسهم، وضيَّعوا حقوقًا وواجبات. وقد توعَّد الله عَزَّوَجَلَّ من يؤثر الدنيا على الآخرة فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات:٣٧-٣٩]، وقال في المقابل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات:٤٠-٤١].

فمن أراد أن يسلك طريق السعادة فعليه أن يخالف النفس والهوى والشيطان، وأن يتبع منهج الله عَزَّوَجَلَّ القويم، وشِرعته المباركة، التي أنزلها ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، فذلك السبيل الذي ينجو به الناس من الغواية، وسلطان الهوى، فلا سبيل إلا بالاتباع، ولا نجاة إلَّا بالانقياد.

والإنسان يعترضه في سيره وطريقه في هذه الدنيا أعداء من الإنس والجن؛ كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام:١١٢]، وإذا كان هذا الإنسان مؤمنًا بالله عَزَّوَجَلَّ كثر أعداؤه، وتعددت سبل إغوائهم، ليتحقق اختباره، ومن هؤلاء الأعداء: إبليس، والدنيا، والنفس الأمارة بالسوء، والهوى الباطل.

وأنشد بعضهم:

إني بليتُ بأربع يرمينني ... بالنبل قد نصبوا علي شراكا
إبليس والدنيا ونفسي والهوى ... من أين أرجو بينهن فكاكا

يا رب ساعدني بعفو إنني أصبحت لا أرجو لهن سواكا

وقال آخر:

إني بليت بأربع ما سلطوا إلا لعظم بليتي وشقائي

إبليس والدنيا ونفسي والهوى كيف الخلاص وكلهم أعدائي؟

قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمن أطاع مولاه، وجاهد نفسه وهواه، وخالف شيطانه ودنياه، كانت الجنة نزله ومأواه، وممن تمادى في غيِّه وطغيانه، وأرخى في الدنيا زمام عصيانه، ووافق نفسه وهواه، في مناه ولذاته، وأطاع شيطانه في جمع شهواته، كانت النار أولى به، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات:٣٧-٤١]"(١).

قال أبو القاسم القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن أصل المجاهدة وملاكها: فطم النفس عن المألوفات، وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات، وللنفس صفتان مانعتان لها من الخير: انهماك في الشهوات، وامتناع عن الطاعات، فإذا جمحت عند ركوب الهوى وجب كبحها بلجام التقوى، وإذا حرنت عند القيام بالموافقات يجب سوقها على خلاف الهوى.."(٢).

قال بعض الأئمة: "جهاد النفس داخل في جهاد العدو؛ فإن الأعداء ثلاثة: رأسهم الشيطان، ثم النفس؛ لأنها تدعو إلى اللذات المفضية بصاحبها إلى الوقوع في

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص:٨٨٠).

(٢) الرسالة القشيرية (٢١٨/١).

الحرام الذي يسخط الرب جَلَّوَعَلَا، والشيطان هو المعين لها على ذلك، ويزينه لها، فمن خالف هوى نفسه قمع شيطانه، فمجاهدته نفسه: حملها على اتباع أوامر الله عَزَّوَجَلَّ، واجتناب نواهيه، وإذا قوي العبد على ذلك سهل عليه جهاد أعداء الدين، فالأول: الجهاد الباطن، والثاني: الجهاد الظاهر.

وجهاد النفس أربع مراتب:

١ – حملها على تعلم أمور الدين.

٢ – ثم حملها على العمل بذلك.

٣ – ثم حملها على تعليم من لا يعلم.

٤ – ثم الدعاء إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، والجهاد في سبيله.

وأقوى المعين على جهاد النفس: جهاد الشيطان بدفع ما يلقي إليه من الشبهة والشك، ثم تحسين ما نهي عنه من المحرمات، ثم ما يفضي الإكثار منه إلى الوقوع في الشبهات. وتمام ذلك: من المجاهدة أن يكون متيقظًا لنفسه في جميع أحواله؛ فإنه متى غفل عن ذلك استهواه شيطانه ونفسه إلى الوقوع في المنهيات"[(١)].

فمن أراد سلوك طريق السعادة فلا بد له من تغذية روحه بالإيمان، وتطهيرها مِنَ الأَوْضَار وَالأَدْرَان، والعناية بالنفس وصيانتها، والارتقاء بها وفق منهج الله عَزَّوَجَلَّ الذي فيه صلاحها وسعادتها.

---

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر (١١/٣٣٨).

وغياب الإيمان هو سبب الشَّقاء والنَّكد، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٣-١٢٤]، وكما جاء في الحديث: «**من كانت الآخرة هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ في قلبه وجَمَعَ له شَمْلَهُ، وأَتَتْهُ الدُّنيا وهي رَاغِمَة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وَفَرَّقَ عليه شَمْلَهُ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له**»[1].

سادسًا: طاعة الله عَزَّوَجَلَّ سببٌ للفوز والنَّجاة والحياة الطيبة:

إن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وطاعة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سببٌ للفوز بالجنة والنَّجاة من النَّار في الآخرة، ولحياة نافعة ومثمرة وطيبة في الدنيا، كما أن معصية الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سببٌ للعذاب ودخول النَّار في الآخرة، وسبب لحياة الشقاء والضنك والضيق والتنغيص في الدنيا، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:١٣-١٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور:٥٢]،

(1) الحديث مروي عن أنس، وعن زيد بن ثابت. حديث أنس: أخرجه هناد (٣٥٥/٢)، والترمذي [٢٤٦٥]، وأبو نعيم في (الحلية) (٣٠٧/٦). حديث زيد بن ثابت: أخرجه الطيالسي [٦١٧]، وأحمد [٢١٥٩٠]، وابن ماجه [٤١٠٥]. وابن حبان [٦٨٠]، والطبراني في (الكبير) [٤٨٩١]، وتمام [١٤٦١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٥٥]. قال العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:١٧٣٢): "أخرجه ابن ماجه من حديث: زيد بن ثابت بإسناد جيد".

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٧﴾ [الفتح:١٧].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى**»، قالوا: يا رسول الله، ومَنْ يَأْبَى؟ قال: «**مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى**»(١).

وكما أن للتقوى مراتب، فكذلك فإن التوحيد مراتب، تتفاوت بحسب القرب من الله عَزَّوَجَلَّ، وقوة الإيمان به جَلَّ وَعَلَا، وبحسب بعد العبد عن الضلال والزيغ والشك، وعن الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وعن سائر مظاهره وأنواعه.

وإن السعادة والحياة الطيبة لا تكون إلا بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإن في الاستجابة لأمرهما: صيانة النفس عما يضرها في الدنيا والأخرة، وفيه: صلاح النفس وسعادتها في الدنيا والآخرة، حيث يحيا العبد حياة طيبة نافعة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء:٦٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

---

(١) صحيح البخاري [٧٢٨٠].

[الأنفال:٢٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحياة النافعة إنما تحصل باستجابة لله عَزَّوَجَلَّ، ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية، مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات. فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ظاهرًا وباطنًا. فهؤلاء هم الأحياء -وإن ماتوا-، وغيرهم أموات -وإن كانوا أحياء الأبدان-؛ ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"(١).

"وإطلاق الحياة على حال الأمة المعنوية الشريفة في الأشخاص والأمم، والموت على مقابلها، معهود في القرآن، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ﴾ [الأنفال:٢٤]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [الأنعام:١٢٢]"(٢).

والمسلم يدعو ربه جَلَّوَعَلَا في كلِّ صلاة فيقول: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة:٦].

قال أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فالذي أمِر محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمّتُه أن يسألوا ربَّهم جَلَّوَعَلَا من الهداية للطريق المستقيم، هي الهداية للطريق الذي وَصف الله جلَّ ثناؤه صفتَه.

(١) الفوائد، لابن القيم (ص:٨٨).

(٢) تفسير المنار (٢/٣٦٣).

وذلك الطريق هو طريق الذي وَصفهم الله عَزَّوَجَلَّ بما وصفهم به في تنزيله، ووعد من سَلكه فاستقام فيه طائعًا لله عَزَّوَجَلَّ، ولرسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أن يورده مواردهم، والله لا يخلف الميعاد"(١).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّأَتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء:٦٦-٦٨].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ يعني: ما يذكَّرون به من طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والانتهاء إلى أمره، ومن متابعة الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وطاعته، والانقياد لما يراه ويحكم به، ظاهرًا وباطنًا؛ لأنه الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى. وسميت أوامر الله عَزَّوَجَلَّ ونواهيه: (مواعظ)؛ لاقترانهما بالوعد والوعيد.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في عاجل دنياهم، وآجل معادهم.

﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ أي: تحقيقًا لإيمانهم، وأبعد من الاضطراب فيه، وأمنع لهم من الضلال، وأبعد من الشبهات، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد:١٧]، وأثبت لهم في أمورهم، و﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ لعزائمهم وآرائهم، وأقوى لهم على أعمالهم؛ لهدايتنا إياهم صراطًا مستقيمًا، يعني: طريقًا لا اعوجاج فيه، وهو دين الله عَزَّوَجَلَّ القويم الذي اختاره لعباده وشرعه لهم، وهو الإسلام.

وقيل: معناه أكثر انتفاعًا؛ لأن الانتفاع بالحق يدوم ولا يبطل؛ لاتصاله بثواب الآخرة، والانتفاع بالباطل يبطل ويضمحل، ويتصل بعقاب الآخرة.

---

(١) تفسير الطبري (١/١٧٨).

ومن يعمل الصالحات مخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ فإنه سيحيا حياة طيبة في الدنيا، ويجزى في الآخرة بأحسن ما كان يعمل، كما قال الحق جَلَّوَعَلَا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧].

وإنَّ الاستجابة لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، وللرسول صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أساس الحياة الطيبة، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٢٤].

كما جاء التعبير عن السعادة بنفي الشقاء، والضلال، وبإثبات ما يقابل الحياة الطيبة من الضنك والضيق والتنغيص في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه:١٢٣-١٢٤]. فالحياة الطيبة والسعادة مقرونة باتباع هدى الله عَزَّوَجَلَّ، والشقاء الذي مقرون بالإعراض عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، فتولى عنه ولم يقبله ولم يستجب له، ولم يتعظ به، فينزجر عما هو عليه مقيم من خلافه أمر ربه جَلَّوَعَلَا.

﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج؛ لضلاله، وإن تنعم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن

حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة [(١)].

ومن يرد الله عَزَّوَجَلَّ أن يهديه للإيمان به، وبرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وما جاء به من عند ربه جَلَّوَعَلَا: شرح الله صدره، فانشرح أي وسعه لقبول الإيمان والخير، ووفقه لذلك، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام:١٢٥]، وهو كناية عن جعل النفس قابلة للحق، مهيأة لحلوله فيها، مصفاة عما يمنعه وينافيه.

وبذكر الله عَزَّوَجَلَّ تطمئن القلوب، وتسكن فلا تضطرب بولوج الشك إليها، ويستقر فيها اليقين، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨] فطمأنينة القلب، وانشراح الصدر من السعادة، ولا يتحقق ذلك إلا بذكر الله عَزَّوَجَلَّ، والاهتداء للإسلام، والعمل بما شرعه الله عَزَّوَجَلَّ لعباده مما فيه صلاح حالهم، وفلاحهم في الحال والمآل.

والذين صدَّقوا الله عَزَّوَجَلَّ، وأقرّوا بوحدانيته، وما بعث به محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وتمسكوا بالنور المبين الذي أنزله إلى نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فسيرحمهم الله عَزَّوَجَلَّ، فيدخلهم الجنة، ويزيدهم ثوابًا، ومضاعفة في الأجر، ورفعة في الدرجات، ويهديهم طريقًا واضحًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على

(١) انظر: تفسير بن كثير (٥/٣٢٢-٣٢٣).

منهاج الاستقامة، وطريق السلامة في الاعتقاد والعمل، وعلى صراط الله عَزَّوَجَلَّ المستقيم، المفضي إلى روضات الجنات، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ١٧٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾ [النساء:١٧٤-١٧٥]. يقول الله عَزَّوَجَلَّ مخاطبًا جميع الناس، ومخبرًا بأنه قد جاءهم منه برهان عظيم، وهو الدليل القاطع للعذر، والحجة المزيلة للشبهة، من دلائل العقل، وشواهد النقل، ولم يبق لكم عذر ولا علة.

ومن هداه الله عَزَّوَجَلَّ للحق فهو على نور وبينة، ولا يستوي من ضل وانحرف عن الحق، فهو يتخبط في ظلمات الجهل والزيغ، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلۡكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٢٢﴾ [الأنعام:١٢٢]، فهذا مثل الذي هداه الله عَزَّوَجَلَّ بعد الضلالة، وبصَّره بنور الحجج والآيات، ومنحه التوفيق لليقين، الذي يميز به بين الحق والباطل، والمهتدى والضال، بمن كان ميتًا، فأحياه الله عَزَّوَجَلَّ، وجعل له نورًا يمشى به في الناس، مستضيئًا به، فهو نور من ربه جَلَّوَعَلَا، وبينة.

ومن بقي على الضلالة بالخابط في الظلمات، لا ينفك منها، ولا يتخلص، فهو متحيِّر على الدوام.

وإنَّ الإيمانَ بالله عَزَّوَجَلَّ إيمانًا لا يخالطه شِركٌ ولا شَكٌّ هو ركيزة النجاة، وعنوان الهداية والفلاح، فإذا لم يكن المرء مسلمًا موحدًا فعمله مردود، وقد خاب سعيه، وضل عن سبيل الرشاد، فلا قبول للأعمال من غير إيمان، وتوحيد لله عَزَّوَجَلَّ، وعمل ونية. قال

الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران:٨٥].

وفي الحديث: عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا قلت: يا رسول الله، ابْنُ جُدْعَانَ كان في الجاهليَّة يصِلُ الرَّحِم، ويُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فهل ذاك نَافِعُه؟ قال: «**لا يَنْفَعُهُ، إنَّهُ لم يقل يومًا: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدِّين**»(١)، أي: لم يكن مصدِّقًا بالبعث، ومن لم يصدِّق به كافر، ولا ينفعه عمل. قال القاضي عياض رَحِمَهُٱللَّهُ: "وقد انعقد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم، ولا يثابون عليها بنعيم، ولا تخفيف عذاب، لكن بعضهم أشدُّ عذابًا من بعض بحسب جرائمهم"(٢).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٩١﴾ [آل عمران:٩١]، أي: من مات على الكفر فلن يقبل منه خير أبدًا، ولو كان قد أنفق ملء الأرض ذهبًا فيما يراه قربة. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٣٦﴾ [المائدة:٣٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٨﴾ [الرعد:١٨] إلى غير ذلك من الآيات(٣).

---

(١) صحيح مسلم [٢١٤].

(٢) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم (٣٨٧/١)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٨٧/٣).

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٧٢/٢).

وجاء في الحديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يَدْخُلُ أهل الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وأَهْلُ النَّارِ النَّارَ**»، ثم يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: «**أَخْرِجُوا من النَّار من كان في قلبه مِثْقَالُ حَبَّة من خَرْدَلٍ من إيمَان**..» الحديث[1].

وفي رواية: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يَخْرُجُ من النَّارِ من قال: لا إله إلَّا الله، وفي قلبه وَزْنُ شَعِيرَة من خَيْر، ويَخْرُجُ من النَّار من قال: لا إله إلَّا الله، وفي قلبه وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْر، ويَخْرُجُ من النَّار من قال: لا إله إلَّا الله، وفي قلبه وَزْنُ ذَرَّةٍ من خَيْر**» قال أبو عبد الله: قال أبان، حدثنا قتادة، حدثنا أنس، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من إيمان**» مكان: «**من خير**»[2].

فمن أسباب الوقاية من النَّار: توحيد الله عَزَّ وَجَلَّ، وقول المسلم مخلصًا وموقنًا: (لا إله إلا الله)، كما جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ما من أَحَدٍ يشهدُ أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمَّدًا رسول الله، صِدْقًا من قلبِه، إلَّا حرَّمَهُ اللهُ على النَّار**»[3].

وعن عُبَادَةَ بن الصَّامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعتُ رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من شَهِدَ أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمَّدًا رسول الله، حَرَّمَ اللهُ عليه النَّار**»[4].

---

(١) صحيح البخاري [٢٢، ٦٥٦٠]، مسلم [١٨٤].

(٢) صحيح البخاري [٤٤]. و«برة» قمحة. و«ذرة» النملة الصغيرة. وقيل: أقل شيء يوزن. وقيل غير ذلك.

(٣) صحيح البخاري [١٢٨]، مسلم [٣٢].

(٤) صحيح مسلم [٢٩].

وجاء في الحديث: عن موسى بن طلحة، قال: حدثني أبو أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ أعرابيًا عرض لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في سَفَرٍ، فأَخَذ بِخِطَامِ ناقته -أو بزمامِهَا- ثم قال: يا رسول الله -أو يا محمد- أخبرني بما يُقَرِّبُنِي من الجنَّة، وما يُبَاعِدُنِي من النَّار، قال: فَكَفَّ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم نظر في أصحابه، ثم قال: «**لقد وُفِّقَ، أو لقد هُدِيَ**»، قال: كيفَ قلتَ؟ قال: فأعاد، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتُقيم الصَّلاة، وتُؤتِي الزَّكاة، وتَصِلُ الرَّحِم**»[1].

وفي رواية: عن أبي أيُّوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجلٌ إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: دُلَّني على عملٍ أَعْمَلُهُ يُدْنِيني من الجَنَّة، ويُبَاعِدُنِي من النَّار، قال: «**تعبدُ اللهَ لا تُشْرِكُ به شيئًا، وتقيمُ الصَّلاة، وتُؤْتِي الزَّكاةَ، وتصِلُ ذا رَحِمِك**» فلمَّا أدبرَ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن تمَسَّكَ بما أُمِرَ به دخلَ الجنَّة**». وفي رواية ابن أبي شيبة: إن تَمَسَّكَ به[2].

سابعًا: محبة الإيمان، وكراهية الكفر، والفسوق، والعصيان:

إنَّ الإيمان يستنقذ الإنسان من ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والهداية، وهو أعظم ما يجلب له النفع والسعادة، ويدفع عنه الضر والشقاء، فالعاقل يحب الإيمان، ويحب الطاعة التي تقربه من الله عَزَّوَجَلَّ، وتصلح حاله، وترتقي به في الدنيا،

(١) صحيح مسلم (١٢) [١٣].

(٢) صحيح مسلم (١٤) [١٣].

والتي ينال بها الأجر والمثوبة ورفعة الدرجات في الآخرة، فلا يغفل عن أعمال ترتقي به إلى المعالي، ويتنافس في ذلك مع أهل الرَّشاد، وأرباب الهمم العالية. ويكره ما يقابل ذلك من: الجهل، والكفر، والضلال، والفسوق، والعصيان.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ [الحجرات:٧].

قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ﴾، أي: قربه وأدخله في قلوبكم، ثم زينه فيها بحيث لا تفارقونه، ولا يخرج من قلوبكم؛ وهذا لأن من يحب أشياء فقد يمل شيئًا منها إذا حصل عنده وطال لبثه، والإيمان كل يوم يزداد حسنًا، ولكن من كانت عبادته أكثر وتحمله لمشاق التكليف أتم، تكون العبادة والتكاليف عنده ألذ وأكمل؛ ولهذا قال في الأول: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ﴾، وقال ثانيًا: ﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾، كأنه قرَّبه إليهم، ثم أقامه في قلوبهم[1].

قال ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ: "فإذا رسخ الإيمان في القلب، وتحقق به، ووجد حلاوته وطعمه أحبه وأحب ثباته ودوامه، والزيادة منه، وكره مفارقته، وكان كراهته لمفارقته أعظم عنده من كراهة الإلقاء في النار"[2].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ [الحجرات:٧]، وهو أعظم ما يجلب الضر والشقاء، ويدفع النفع والسعادة، فالعاقل يكره ذلك، ويحب ما يقابله.

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١٠٢/٢٨).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب (٥٦/١).

إنَّ الإيمان الكامل إقرار باللسان، وتصديق بالجنان وعمل بالأركان، فكراهة الكفر في مقابلة محبة الإيمان، وتزيينه في القلوب هو التصديق بالجنان، والفسوق وهو الكذب في مقابلة الإقرار باللسان، والعصيان في مقابلة العمل بالأركان.

ويرى الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المراد من الإيمان في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمْ﴾: أحكام الإسلام، وليس الاعتقاد. -وسيأتي بيان ذلك-.

ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ أي: هؤلاء الذين هذه صفاتهم هم السالكون طريق السعادة، ولم يميلوا عن الاستقامة.

ومن دعاء النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين**»(١).

إنَّ العبد قد يكابد التكليف في أوَّل الأمر، فإذا اعتاده، وواظب على الطاعات بصدق وإخلاص فإنه سيجد لذة وحلاوة عظيمة.

ومن يتذوق حلاوة الإيمان فإنه سيحيا حياة طيبة، وهب حياة السعداء، التي ينال من خير الدنيا، وخير الآخرة، فأي توفيق وفوز أعظم من هذا؟

---

(١) أخرجه أحمد [١٥٤٩٢]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٩٩]، والبزار [٣٧٢٤]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٣٧٠]، والطبراني [٤٥٤٩]، والحاكم [٤٣٠٨] وقال: "صحيح على شرط الشيخين" ووافقه الذهبي. كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (١٢٧/١٠). قال الهيثمي (١٧٦/٦): "ورجال أحمد رجال الصحيح".

والإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ له حلاوةٌ لا يتذوق طعمها إلَّا المؤمنون الصادقون الذين يتصفون بصفات تؤهلهم لذلك، وليس كل من ادعى الإيمان يجد هذه الحلاوة.

وأعظم سبيل لتذوق حلاوة الإيمان، من انشرح الصدر، والتلذذ بالطاعة: محبة الله عَزَّوَجَلَّ، ومحبة رسوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأن تكون علاقة الإنسان مع غيره قائمة على الإيثار والمحبة.

وقد جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَاللَّهُعَنْهُ، عن النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**»(١).

وفي رواية: «**ثلاث من كن فيه وجد طعم الإيمان: من كان يحب المرء لا يحبه إلا لله**» الحديث(٢).

وفي رواية: «**من أحبَّ -أو من سرَّه- أن يجد طعم الإيمان فليحب المرء لا يحبه إلَّا لله** عَزَّوَجَلَّ»(٣).

---

(١) صحيح البخاري [١٦، ٢١، ٦٠٤١، ٦٩٤١]، مسلم [٦٧].

(٢) صحيح مسلم [٤٣].

(٣) أخرجه الطيالسي [٢٦١٧]، وابن الجعد [١٧٠٨]، وإسحاق بن راهويه [٣٦٦]، وأحمد [٧٩٦٧]، والبزار [٩٦٠٩]. قال الهيثمي (١/٩٠): "رواه أحمد والبزار، ورجاله ثقات". كما أخرجه الحاكم [٧٣١٢]، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: الشهاب [٤٤٠]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٨٥٧٦].

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أخبرني أبو سفيان بن حرب: «**أن هرقل، قال له: سألتك هل يزيدون أم ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون، وكذلك الإيمان حتى يتم، وسألتك هل يرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فزعمت أن لا، وكذلك الإيمان، حين تخالط بشاشته القلوب لا يسخطه أحد**»(١).

ثامنًا: وسائل تقوية الإيمان:

وهناك وسائل تقوي الإيمان في نفس العبد، وتعين على الثبات والاستقامة، ومن هذه الوسائل:

١ - استشعار عظمة الله عَزَّوَجَلَّ وقدرته، واطلاعه على أعمال العباد، وما تُكنه صدورهم، وما تنطوي عليه ضمائرهم، وأنه يعلم السِّرَّ وأخفى، وما كان وما هو كائن، ولا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٧٧﴾ [البقرة:٧٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٩﴾ [آل عمران:٢٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾ [الأنعام:٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ

(١) صحيح البخاري [٧، ٥١، ٢٩٤١].

﴿٥٩﴾ [الأنعام:٥٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ يَثۡنُونَ صُدُورَهُمۡ لِيَسۡتَخۡفُواْ مِنۡهُۚ أَلَا حِينَ يَسۡتَغۡشُونَ ثِيَابَهُمۡ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾﴾ [هود:٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد:٨-٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿١٩﴾﴾ [النحل:١٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡتُمُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنبياء:١١٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الحج:٧٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان:٣٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر:٦٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر:١٩]..إلى غير ذلك من الآيات الكريمة. فمن أسباب الثبات والوقاية من الزيغ: مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ في السِّر والعلن.

٢ – المسارعة إلى الأعمال الصالحة، ولا سيما في زمان انتشار الفتن والظلم والفساد، وغلبة الهوى على النفوس والطباع؛ فإن الثبات على الحق في مثل ذلك الوقت أفضل وأعظم.

٣ – التعويل على الله جَلَّوَعَلَا في كلِّ أمر، والتفويض إليه في كل حال، والالتجاء إليه جَلَّوَعَلَا، ولزوم طريق الهداية، وكثرة الدعاء، وأن يسأل العبد ربه عَزَّوَجَلَّ دائمًا الاستقامة والثبات على دينه في سائر الأحوال، في حال السراء والضراء، وفي حال

الشدة والرَّخاء، فيكون عابدًا شاكرًا لله عَزَّوَجَلَّ في حال السراء، وصابرًا مُحْتَسِبًا في حال الضراء.

وإن كثرة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم أسباب الحفظ من المعصية؛ لأن الذِّكرَ يُذَكِّرُ العبدَ بالله جَلَّوَعَلَا وصفاته، وعظمته، فيكون حاضرًا مع الله عَزَّوَجَلَّ، ومستحضرًا لما يعتقده عن الله عَزَّوَجَلَّ، فيحجزه ذلك عن المعصية.

وقد كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يسأل ربه جَلَّوَعَلَا الثبات، كما جاء في الحديث: عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يكثر أن يقول: «**يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك**»، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يُقَلِّبُهَا كيف يشاء**»(١).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٠٤٠٥]، وأحمد [١٢١٠٧]، والبخاري في (الأدب) [٦٨٣]، والترمذي [٢١٤٠]، وقال: "وفي الباب عن النواس بن سمعان، وأم سلمة، وعبد الله بن عمرو، وعائشة، وأبي ذر، وهذا حديث حسن، وهكذا روى غير واحد، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن أنس، وروى بعضهم عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وحديث أبي سفيان عن أنس أصح". وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم [٢٢٥]، والبزار [٧٥٠٨]، وأبو يعلى [٣٦٨٧]، والآجري في (الشريعة) [٧٣١]، والحاكم [١٩٢٧]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٢٢/٨)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٤٢]، والضياء [٢٢٢٢]، وقال: "إسناده صحيح". وقال الهيثمي (١٧٦/١٠) عن حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي رفعه: "رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح".

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الإيمان لَيَخْلَقُ في جَوْفِ أحدكم كما يَخْلَقُ الثوب، فسلوا الله تعالى أن يجدد الإيمان في قلوبكم**»(١).

وقد أرشد الله عَزَّ وَجَلَّ العباد إلى أن من خير الدعاء: أن يقول العبد: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران:٨].

٤ – طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والاستجابة لأمرهما؛ فإن في ذلك: صيانة للنفس عما يضرها في الدنيا والأخرة، وفيه: صلاحها وسعادتها.

٥ – الثبات على عمل صالح يدوم ولا ينقطع، ويعين على ذلك: الاعتدال في الفهم والسلوك، والبعد عن الغلو والتطرف.

وفي السنة ما يفيد: أن القليل من العمل الذي يدوم ولا ينقطع خير من الكثير الذي ينقطع؛ فبدوام القليل تدوم الطاعة، ويثمر ذلك العمل، بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافًا كثيرة. وقد سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيُّ العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: «**أدومه وإن قل**»(٢).

٦ – النَّظر والتأمل في خلق الله جَلَّ وَعَلَا، وآياته في الخلق، والاعتبار بحال السابقين.

٧ – شكر الله جَلَّ وَعَلَا على نعمه، والإخلاص في عبادته، والإكثار من الذكر والدعاء.

---

(١) أخرجه الطبراني في (الكبير) [٨٤]، والحاكم [٥]، وقال: "رواته ثقات" ووافقه الذهبي. قال الهيثمي (٥٢/١): "رواه الطبراني في (الكبير)، وإسناده حسن".

(٢) صحيح مسلم [٧٨٢، ٢٨١٨].

٨ – قراءة القرآن الكريم وتدبُّره، والنَّظرُ في آياته نظر تفكر واعتبار:

إن من الوسائل التي تقوي الإيمان في نفس العبد، وتعين على الثبات والاستقامة: المحافظة على قراءة القرآن، وتدبُّر آياته.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان:٣٢].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ لنقوي به قلبك؛ لتزداد بصيرة في فؤادك، كأنه كلما نزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالوحي ازداد هو بصيرة وقوة، وقد أنزل الله عَزَّوَجَلَّ القرآن في ثلاث وعشرين سنة، فحين أكمل الله عَزَّوَجَلَّ ما أراد إنزاله عليه من الوحي أدركت النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوفاة (١).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾ [آل عمران:٤٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١١١﴾ [يوسف:١١١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ٤٩﴾ [هود:٤٩].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ: "إن من أخبار الغيب ما لم تشاهده، ولم تعاينه، ولكنا نوحيه إليك ونعرِّفكه؛ لنثبِّت به فؤادك، ونشجع به قلبك، وتصبر على ما نالك

(١) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٤/١٨)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣/٣٤٠).

من الأذى من قومك في ذات الله عَزَّوَجَلَّ، وتعلم أن من قبلك من رسل الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، إذ صبروا على ما نالهم فيه، وأخذوا بالعفو، وأمروا بالعُرف، وأعرضوا عن الجاهلين، فازوا بالظفر، وأُيِّدوا بالنَّصر، ومُكِّنوا في البلاد، وغلبوا من قَصَدوا من أعدائهم، وأعداء دين الله عَزَّوَجَلَّ. يقول الله جَلَّوَعَلَا لنبيه محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فبهم، يا محمد، فتأسَّ، وآثارهم فقُصَّ"(١).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠].

ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾ [يوسف: ١١١].

ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وكلَّ قصَّةٍ ذكرها الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه فيها الموعظةُ والاعتبار، فالسَّعيد من اعتبر بغيره، والشَّقيُّ من اعتبر به غيره. وفيها: وعد الله عَزَّوَجَلَّ من اعتبر بما قصه الله عَزَّوَجَلَّ على عباده، وتبشيره بحسن المثوبة، ووعيد من لم يعتبر، وإنذاره بسوء العقوبة، والوعد يشمل ما للأمَّة وما للأفراد، فيعمُّ نِعَمَ الدُّنيا والآخرة وسعادتهما، والوعيد -كذلك- يشمل نقمهما وشقاءهما..

---

(١) تفسير الطبري (١٦/٢٨٣).

كما يستفادُ من قصص من وقف عند حدود الله عَزَّوَجَلَّ، وأخذ بأحكام دينه، ومن أخبار الَّذين تعدَّوا حدوده، ونبذوا أحكام دينه ظهريًّا: الاعتبار بالعاقبة والمآل، فيكون ذلك دافعًا لاختيار طريق المحسنين، ويكون المؤمن على بيِّنة وحذر.

قال أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي حَثِّ الله عَزَّوَجَلَّ عباده على الاعتبار بما في آي القرآن من المواعظ والبيِّنات بقوله عَزَّوَجَلَّ لنبيِّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [ص:٢٩]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٢٧ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٢٨﴾ [الزمر:٢٧-٢٨]، وما أشبه ذلك من آي القرآن، الَّتي أمر الله عَزَّوَجَلَّ عبادَه، وحثَّهم فيها على الاعتبار بأمثال آي القرآن، والاتِّعاظ بمواعظه ما يدلُّ على أنَّ عليهم معرفةَ تأويل ما لم يُحجب عنهم تأويله من آيه؛ لأنَّه محالٌ أن يُقال لمن لا يفهمُ ما يُقال له ولا يعقِل تأويلَه: (اعتبرْ بما لا فَهْم لك به ولا معرفةَ من القِيل والبيان والكلام) إلا على معنى الأمر بأن يفهمَه ويفقَهَه، ثمَّ يتدبَّره ويعتبرَ به.

فأمَّا قبلَ ذلك، فمستحيلٌ أمرُه بتدبُّره وهو بمعناه جاهل. كما محالٌ أن يقال لبعض أصناف الأمم الَّذين لا يعقلون كلامَ العرب ولا يفهمونه لو أنشد قصيدة شعرٍ من أشعار بعض العرب ذاتَ أمثالٍ ومواعظ وحِكم: (اعتبر بما فيها من الأمثال، وادَّكر بما فيها من المواعظ) إلا بمعنى الأمر لها بفهم كلامِ العرب ومعرفتِه، ثمَّ الاعتبار بما نبهها عليه ما فيها من الحِكم.

فأمَّا وهي جاهلةٌ بمعاني ما فيها من الكلام والمنطق فمحالٌ أمرُها بما دلَّت عليه معاني ما حوته من الأمثال والعِبَر. بل سواء أمرُها بذلك وأمرُ بعض البهائم به إلا بعدَ

العلم بمعاني المنطق والبيان الَّذي فيها. فكذلك ما في آي كتاب الله عَزَّوَجَلَّ من العِبَر والحِكم والأمثال والمواعظ، لا يجوز أن يقال: (اعتبرْ بها) إلا لمن كان بمعاني بيانه عالما، وبكلام العرب عارفًا، وإلا بمعنى الأمر -لمن كان بذلك منهُ جاهلًا- أنْ يعلم معاني كلام العرب، ثمَّ يتدبَّره بعدُ، ويتَّعظ بحِكمَه وصُنوف عِبَرِه. فإذْ كان ذلك كذلك - وكان الله عَزَّوَجَلَّ قد أمر عباده بتدبُّره وحثَّهم على الاعتبار بأمثاله- كان معلومًا أنَّه لم يأمر بذلك من كان بما يدُلُّ عليه آيُه جاهلًا. وإذْ لم يجز أن يأمرهم بذلك إلا وهُمْ بما يدلهم عليه عالمون، صحَّ أنَّهم - بتأويل ما لم يُحجَبْ عنهم علمه من آيه الَّذي استأثر الله عَزَّوَجَلَّ بعلمه منه دون خلقه - الَّذي قد قدَّمنا صفَته آنفًا- عارفون. وإذْ صَحَّ ذلك فسَدَ قول من أنكر تفسيرَ المفسِّرين -من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وتنزيلِه- ما لم يحجب عن خَلقه تأويله"(١).

ونخلصُ إلى أنَّ الاعتبار هو المؤدِّي إلى استخلاص العِبَر والحِكم..، وقد يكون ذلك بمجرد قراءة بعض النُّصوص، وقد يحتاج في نصوصٍ أخرى إلى النَّظر في كتب التَّفسير، وإلى التَّأمُّل والتَّفكر، وإلى استخدام آليات التَّأويل، كاللُّغة، والعلوم المساعدة الأخرى...فيفهم العامّي منه: المعنى القريب، ويفهم العالِمِ: عمق المعنى.

وإنَّ موعظة القرآن نافعةٌ لكلِّ من تجرَّد عن العناد والمكابرة، فمن لم يتَّعظ بها فلأنَّه لم يشأ أن يتَّعظ.

---

(1) تفسير الطَّبري (١/٣٦-٣٧).

٨ – الاستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ من شرِّ الشيطان الرجيم الذي يوسوس في صدور الناس، ويزين لهم ما فيه هلاكهم وشقائهم.

٩ – الاستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ من الفتن ما ظهر منها وما بطن، من الفتن ما ظهر منها وما بطن:

وقد كان النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ من الفتن، وأمر أمته باتخاذ أسباب الوقاية من الفتن، واللجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ والدعاء والاستعاذة به جَلَّوَعَلَا خير أسباب الوقاية من الفتن:

ففي (الصحيح): «**تَعَوَّذُوا بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**تَعَوَّذُوا بالله من جَهْدِ البلاء، ودَرَكِ الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء**»(٢).

وعن مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: تعوذوا بكلمات كان النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يتعوذ بهن: «**اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وعذاب القبر**»(٣).

---

(١) صحيح مسلم [٢٨٦٧].

(٢) صحيح البخاري [٦٦١٦].

(٣) صحيح البخاري [٦٣٧٤].

وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول في دعائه: «**اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون**»[(١)].

١٠ - الصبر على الابتلاء.

١١ - تزكية النفس واتهامها ومحاسبتها والتنقيب عن عيوبها ونقائصها؛ فإن محاسبة النفس هو طريق استقامتها وكمالها وفلاحها وسعادتها.

قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن عاقبة من سلك طريق التزكية: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾ [طه: ٧٥-٧٦]، أي: فهذه الدرجات العُلى التي هي جنات عدن على ما وصف الله عَزَّوَجَلَّ هي ثواب من تزكى، يعني: من تطهر من الذنوب، فأطاع الله عَزَّوَجَلَّ فيما أمره، ولم يدنس نفسه بمعصيته فيما نهاه عنه.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس:٧-١٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ

---

(١) الحديث رواه غير واحد، وهو مروي عن ابن عباس، ومعاذ بن جبل وغيرهما. حديث ابن عباس: أخرجه أحمد [٣٤٨٤]، وعبد بن حميد [٦٨٢]، والترمذي [٣٢٣٣]، وقال: "حسن غريب". حديث معاذ بن جبل: أخرجه الترمذي [٣٢٣٥]، وقال: "حسن صحيح".

﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ١٧﴾ [الأعلى: ١٠-١٧]، أي: "قد نجح وأدرك طلبته من تطهَّر من الكفر ومعاصي الله عَزَّوَجَلَّ، وعمل بما أمره الله عَزَّوَجَلَّ به، فأدَّى فرائضه"[(١)].

وقيل: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤﴾ يحتمل أن يكون بمعنى: الطهارة من الشرك والمعاصي.

أو بمعنى: الطهارة للصلاة.

أو بمعنى: أداء الزكاة، وعلى هذا قال جماعة: إنها يوم الفطر.

والمعنى: أدَّى زكاة الفطر، ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ في طريق المصلى إلى أن يخرج الإمام، وصلى صلاة العيد[(٢)].

وقوله جَلَّوَعَلَا مخبرًا عن مصير من سلك طريق الشقاء: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ١٣﴾ أي: حياة تنفعه؛ لأنه ما تزكى، فلا صدق، ولا صلى.

ولما ثبت لهذا المذكور الشقاء الأعظم؛ لأنه لم يزك نفسه، ولم يخش الله عَزَّوَجَلَّ.

فجمع الاجتناب، والاجتلاب بالتزكية بالتبتل بالأبواب، والملازمة للأعتاب، بامتثال الأمر، واجتناب النهي بالمجاهدات، المقربات إليه جَلَّوَعَلَا، المنجيات، بعد ما حذر من المهلكات؛ للمسارعة في محابه ومراضيه؛ اجتماعًا على العبادة الموصلة للخالق جَلَّوَعَلَا بعد حصول الكمال والتكميل؛ فإنه لا بد في الحياة الطيبة بعد الانتماء

(١) تفسير الطبري (٢٤/٣٧٣).

(٢) انظر: تفسير ابن جزي (٢/٤٧٥)، الكشاف (٤/٧٤٠).

إلى ذي الجاه العريض، والاقتداء بمن لا يزيغ، من الارتباط بطريقة مثلى، يحصل بها الاغتباط؛ ليصل بها إلى المقصود، ويعمِّر أوقاته بوظائفها؛ لئلا يحصل له خلل، ولا ضياع لنفائس الأوقات، ولا غفلة[1].

١٢ - الإكثار من ذكر الموت، وسماع المواعظ التي ترغب في الآخرة.

١٣ - اختيار الأخلاء الصالحين الذين يذكِّرونَ الإنسانَ كلما غَفَل، ويعينونه على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والتفقه في دينه، وعلى تحري الحلال، واجتناب الحرام.

وإن من أعظم ما يعين على الثبات: الرفقة الصالحة، وملازمة العلماء الربانيين، الذين يذكرون العبد كلما غفل، ويعينونه وينصحونه.

ولقد حذَّر الله جَلَّوَعَلَا من صحبة أهل الشر والفساد، وأمر بصحبة أهل الفضل والرشاد والصلاح، فقال عزَّ من قائل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:١١٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف:٢٨].

وأخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن ندم أهل النار؛ بسبب صحبتهم لأهل الفساد، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢١/٤٠٢-٤٠٣)، بتصرف.

أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الصافات: ٥٠ - ٦١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام: ٦٨]، فهذا تنفير من صحبة أهل السوء والباطل.

وفي الحديث: «**لا تصاحبْ إلَّا مؤمنًا، ولا يأكلْ طعامك إلَّا تقي**»(١).

وفي (الصحيح): عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا**

(١) أخرجه ابن المبارك [٣٦٤]، والطيالسي [٢٣٢٧]، وأحمد [١١٣٣٧]، والدارمي [٢١٠١]، وأبو داود [٤٨٣٢]، والترمذي [٢٣٩٥]، وقال: "حسن". كما أخرجه: أبو يعلى [١٣١٥]، وابن حبان [٥٥٤]، والطبراني في (الأوسط) [٣١٣٦]، والحاكم [٧١٦٩]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٨٩٣٧].

مقبلًا بقلبه إلى الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرا قط، فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة» (١).

١٤ – البيئة الصالحة في البيت والحي والمدرسة والمسجد.

١٥ – مجاهدة النفس والهوى والشيطان، أن يتخير العلاج المناسب لكل ما يعتلج في نفسه من محفزات الشهوة، والبواعث على المعصية من نحو: التأمل والنظر في العاقبة والآثار المترتبة على المعاصي في الدنيا والآخرة.

١٦ – الخوف من سوء الخاتمة:

من أراد أن يسلك طريق السلامة والنجاة فينبغي أن يحذر سوء الخاتمة؛ فإن الإنسان لا يعلم ما يختم له، ولا سيما إذا كان مترددًا بين الحق والباطل، ولم يسلك طريق النجاة الذي بينه الله عَزَّوَجَلَّ لعباده، بل كان تائهًا بين طرق ملتوية.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام:١٥٣].

---

(١) صحيح البخاري [٣٤٧٠]، مسلم، واللفظ له [٢٧٦٦].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار**»(1).

نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ السلامة والعافية وحسن الخاتمة.

١٧ – الثقة بوعد الله عَزَّ وَجَلَّ لعباده الصالحين بحسن العاقبة:

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:١٢٨]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه:١٣٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥-١٠٦]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص:٥-٦]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [القصص:٨٣]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر:٧٤]. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق:٢-

(١) صحيح البخاري [٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤]، مسلم [٢٦٤٣].

٣]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤﴾ [الطلاق:٤]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥﴾ [الطلاق:٥].

١٨ – الاستعانة على الثبات بالصبر، والصلاة، والإكثار من النوافل:

إن من أعظم أسباب الثبات على دين الله عَزَّوَجَلَّ: الصبر، والصلاة، وسائر الطاعات التي تقرب العبد من الله عَزَّوَجَلَّ.

١٩ – حسن الظنِّ بالله عَزَّوَجَلَّ، والثقة بما أعدَّه لعباده الصابرين المتقين، من الأجر الجزيل، والثواب العظيم في الآخرة.

٢٠ – شكر الله عَزَّوَجَلَّ على نعمه؛ فإن الشكر من أسباب نعم الله عَزَّوَجَلَّ على العبد، ولا يخفى أن الثبات والاستقامة من أعظم النعم التي يمنها الله عَزَّوَجَلَّ على العبد، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ۝٧﴾ [إبراهيم:٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٧٣﴾ [النمل:٧٣].

٢١ – أن ينظرَ الإنسانُ في أمور الدُّنيا إلى من هو دونه، وأن يتطلَّع إلى من هو فوقه في البرِّ والطَّاعات؛ فإن ذلك أدعى لأن يَتَقَالَّ علمه وعبادته، ويسلك سبيل المهتدين، من التَّبصر في أمور الدين، ومن التنافس في صالح الأعمال، ومن الصَّبر على البلاء، والنَّظر إلى ما أعدَّه الله عَزَّوَجَلَّ لعباده الصَّالحين. ففي أمور الدنيا وزخارفها ينظر إلى من هو أسفل منه؛ فإن ذلك حقيقٌ بأن يشكرَ نعمة الله جَلَّوَعَلَا عليه، ولا يزدريها. وينظر إلى من هو أعلى منه في الدِّين، والعلمِ، والدَّعوة، والجهاد، والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، وخصال الخير، والأخلاق الفاضلة، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا نَظَرَ أحدُكُم إلى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ في المال والخَلْق، فَلْيَنْظُرْ إلى مَنْ هو أَسْفَلَ منه**»[١].

وفي رواية: «**انْظُرُوا إلى مَنْ أَسْفَلَ منكم، ولا تَنْظُرُوا إلى مَنْ هو فَوْقَكُمْ، فهو أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ**»[٢].

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا الحديث جامع لمعاني الخير؛ لأن المرء لا يكون بحال تتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهدًا فيها إلا وجد من هو فوقه، فمتى طلبت نفسه اللحاق به استقصر حاله، فيكون أبدًا في زيادةٍ تُقَرِّبُه من ربِّه، ولا يكون على حَالٍ خَسِيسَةٍ من الدنيا إلا وجد من أهلها من هو أَخَسُّ حَالًا منه، فإذا تَفَكَّرَ في ذلك علم أن نعمة الله عَزَّوَجَلَّ وصلت إليه دون كثير ممن فُضِّلَ عليه بذلك من غير أَمْرٍ أَوْجَبَهُ، فَيُلْزِمُ نفسه الشُّكْرَ، فَيَعْظُمُ اغتباطه بذلك في معاده"[٣].

وقال غيره: "في هذا الحديث دواء الداء؛ لأن الشخص إذا نظر إلى من هو فوقه لم يَأْمَنْ أن يُؤَثِّرَ ذلك فيه حَسَدًا. وَدَوَاؤُه: أن ينظر إلى من هو أسفل منه؛ ليكون ذلك داعيًا إلى الشُّكر"[٤].

---

(١) صحيح البخاري [٦٤٩٠]، مسلم [٢٩٦٣].

(٢) صحيح مسلم [٢٩٦٣].

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/١٩٩)، فتح الباري، لابن حجر (١١/٣٢٣).

(4) فتح الباري، لابن حجر (١١/٣٢٣).

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**أمرني خليلي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بِحُبِّ المساكين، وَالدُّنُوِّ منهم، وأمرني أن أَنْظُرَ إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي**» الحديث [(١)].

٢٢ - رسوخ الإيمان بقضاءِ الله عَزَّ وَجَلَّ وقَدَرِهِ في النَّفس، وأن يدرك كلُّ مكلَّفٍ أن الجزع لا يرفع البلاء، وأنه لا رادَّ لقضاء الله عَزَّ وَجَلَّ وقدره، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

٢٣ - أن يدرك أن الجزع لا يرفع البلاء.

٢٤ - أن لا يغترَّ العبد بما يحصلُ له من زيادة المال، وأن لا يغتر بالإمهال، بل يسارع في كل حال إلى شكر الله عَزَّ وَجَلَّ، ويجتنب: العجب، والكبر، وسائر الأخلاق السيئة، ويكون حاله بين الخوف والرَّجاء، مسلمًا لأمر الله جَلَّ وَعَلَا في كلِّ حالٍ من الشدَّة أو الرَّخاء، وراضيًا بحكمه.

---

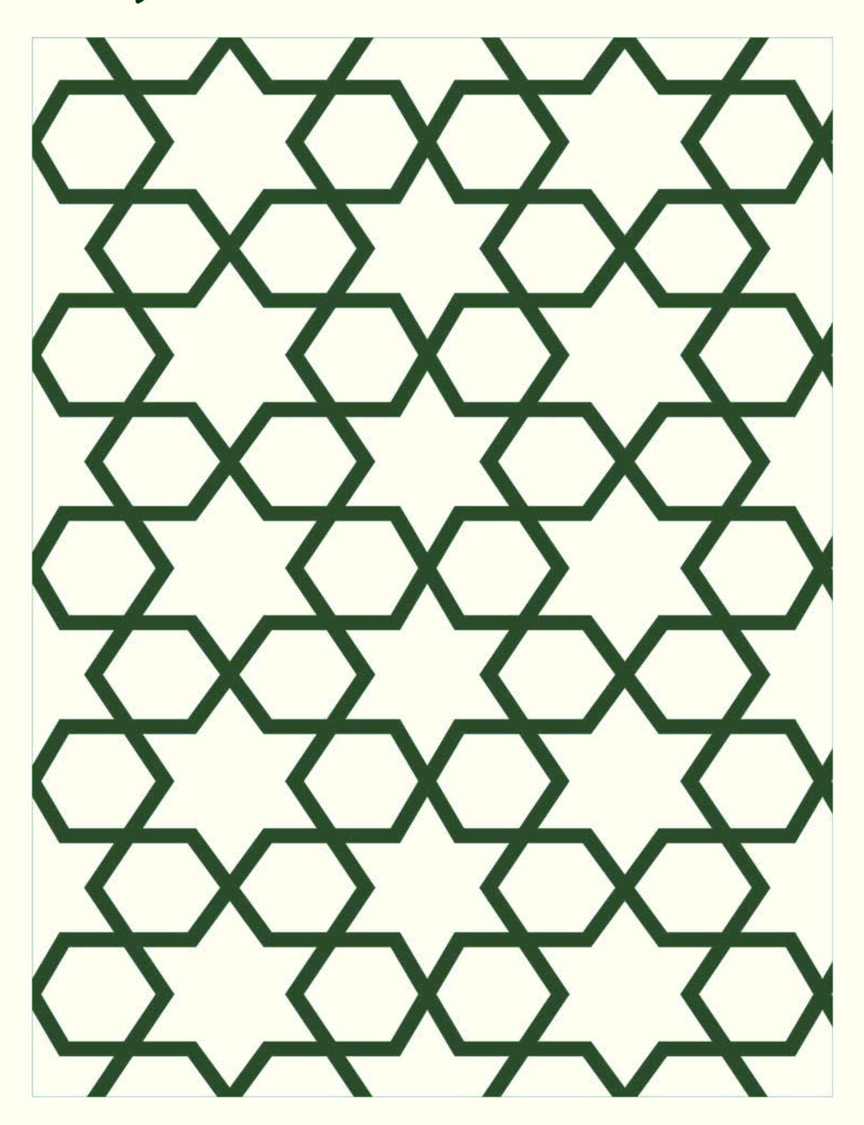
(١) أخرجه أحمد [٢١٤١٥]، وابن حبان [٤٤٩]، والطبراني في (الصغير) [٧٥٨]، والبيهقي في (السنن) [٢٠١٨٦]. قال الهيثمي (٢٦٥/٧): "رجاله رجال الصحيح، غير سلام أبي المنذر، وهو ثقة".



المبحث الثاني:

حقيقة دار الفناء
والاستعداد لدار البقاء

الإرشاد إلى أسباب النجاة



إنَّ الإسلام قد ربط الإنسانَ بغاياتٍ ومقاصدَ سامية، وهو يحقق توازنًا بين الروحية والمادية، وهو وسط بينهما، بين الدين والدنيا، بين القيم والحاجات، بين الغريزة والعقل، الإنسان كما أراده الله عَزَّوَجَلَّ ليس الذي ينقطع عن العالم، وينسحب من الحياة، ويتفرغ للعبادة، ويتعطل فلا يعمل، ويتقشف فلا يتمتع، ويتبتل فلا يتزوج، ويتعبد فلا يفتر، ليله قائم، ونهاره صائم، وهو منقطع عن الدنيا، ومتعطل عن الإنتاج، وبعيد عن النبوغ، ومتخلِّف عن مواكبة التَّطور، والترقي في العلوم المتنوعة.

كما أنه ليس كصاحب الجنتين، يفخر على صاحبه منتفخًا بثروته، مختالًا بجنته قائلًا: ﴿أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ۝٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ۝٣٥﴾ [الكهف:٣٤-٣٥]. فأرسل الله عَزَّوَجَلَّ على جنته حسبانًا من السماء، فأصبحت صعيدًا زلقًا، وأصبح ماؤها غورًا.

وليس كقارون الذي آتاه الله عَزَّوَجَلَّ من الكنوز ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾، فبغى على قومه، واغترَّ بماله، وعزا الفضل إلى نفسه فقال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص:٧٨]، فخسف الله عَزَّوَجَلَّ به وبداره الأرض، الإنسان الحق ليس هذا ولا ذاك.

ومن مظاهر التوازن في الشريعة الإسلامية: موقفها من الروحية والمادية، أو بعبارة أخرى: موقفها من الدين والدنيا.

لقد وجدت في التاريخ جماعات وأفراد كل همهم: إشباع الجانب المادي في الإنسان، وعمارة الجانب المادي في الحياة، دون التفات إلى الجوانب الأخرى.

وهذه النزعة المغالية في المادية وفي قيمة الدنيا، جديرةٌ بأن تولِّدَ الترفَ والطغيانَ، والتكالبَ على متاع الحياة، والغرورَ والاستكبارَ عند النعمة، واليأس والقنوط عند الشدة.

نرى ذلك واضحًا فيما قصَّه الله عَزَّوَجَلَّ علينا من مصارع الأفراد والأقوام الذين عاشوا للدنيا وحدها، ولم يلقوا للدين بالًا، ولا للآخرة حسابًا، ولا للروح مكانًا.

وفي الطرف المقابل لهذه النزعة وأصحابها، وجد آخرون من الأفراد والجماعات من نظروا إلى الدنيا نظرة احتقار وعداوة، فحرَّموا على أنفسهم طيبات الحياة وزينتها، وعطَّلوا قواهم عن عمارتها، والإسهام في تنميتها وترقيتها، واكتشاف ما أودع الله عَزَّوَجَلَّ فيها.

عرف ذلك في برهميَّة الهند، ومانويَّة فارس، وبدا ذلك بوضوح وجلاء في نظام الرهبانية الذي ابتدعه النصارى، فعزلوا جماهير غفيرة عن الحياة، والتمتع بها، والانتاج فيها.

وبين هاتين النزعتين قام الإسلام، يدعو إلى التوازن والاعتدال، فصحح مفهوم الناس عن حقيقة الإنسان، وعن حقيقة الحياة.

والرسول الكريم صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يأكل من طيبات هذه الحياة، ولا يحرمها على نفسه، ولكنه لم يجعلها شغل نفسه، ولا محور تفكيره.

وكان النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حريصًا على توجيه أصحابه إلى التوازن المقسط بين دينهم ودنياهم، بين حظ أنفسهم وحق ربهم، بين متعة البدن ونعيم الروح، فإذا رأى في بعضهم غلوًّا في جانب، قوَّمه بالحكمة، وردَّه إلى سواء الصراط.

ولما رأى في بعض أصحابه إفراطًا في التعبد والصيام والقيام، على حساب جسمه وأهله، قال له: «**إن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لزورك عليك حقًّا**» (١).

وقال للجماعة الذين التزم أحدهم أن يصوم فلا يفطر، والتزم ثانيهم أن يقوم فلا ينام، والتزم الثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج أبدًا: «**أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**» (٢).

وحين أقبل أبو عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمال من البحرين، فسمعت الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بقدوم أبي عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فوافت صلاة الصبح مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما صلى بهم الفجر انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين رآهم، وقال: «**أبشروا وأملوا ما يسركم، فو الله لا الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم**» (٣).

وهكذا تعلم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن يوازنوا بين مطالب دنياهم وآخرتهم، وأن يعملوا للدنيا كأحسن ما يعمل أهل الدنيا، ويعملوا للآخرة كأحسن ما يعمل أهل الآخرة، ولم يشعروا بتعارض قط بين عملهم لدينهم، وعملهم لدنياهم، بل شعروا

---

(١) صحيح البخاري [١٩٧٥، ٦١٣٤].

(٢) صحيح البخاري [٥٠٦٣].

(٣) صحيح البخاري [٣١٥٨، ٤٠١٥، ٦٤٢٥].

بالوحدة والانسجام والامتزاج كانت شعائرهم وواجباتهم الدينية تعطيهم زادًا وشخصية قوية، يواصلون بها الكفاح لدنياهم، وكانت أعمالهم الدنيوية عونًا لهم على أداء فرائضهم الدينية، كانوا يعتقدون أنهم في عبادتهم ومساجدهم ليسوا مقطوعين عن الدنيا، كما أنهم في مزارعهم ومتاجرهم وحرفهم غير بعيدين عن الدين، فأعمالهم هذه عبادة إذا صحت فيها النية، والتزمت حدود الله عَزَّوَجَلَّ(١).

والحاصل أن هناك توازنًا بين القيم الروحية، والقيم المادية، وأن أيَّ طغيان لأحدهما على الآخر يؤدي إلى خلل كبير في الحياتين -الروحية والمادية- معًا.

ومتى خرجت الدنيا عن كونها وسيلة تحولت إلى لهو ولعب، وفقدت القيم الأخلاقية والإنسانية، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت:٦٤]، يعني: باعتبار من آثرها، وتكالب على حطامها.

وفي المقابل فإنَّ هناك آيات تتحدث عن مهمة أساسية للإنسان في هذه الحياة، وهي مهمة إعمار الأرض، واستثمار الخيرات التي أودعها الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون.

فالمراد من حُبِّ الدنيا بالمعنى الصحيح: عِمَارتها (٢) ونشر الخير والسلام والمحبة فيها.

---

(١) بتصرف عن مقالة في (مجلة الأزهر)، السنة الثامنة والأربعون، جزء: [٨]، شوال [١٣٩٦هـ].

(٢) عمارة الارض: إحياؤها بالبناء أو الغرس أو الزرع والعمل الصالح. قال ابن فارس: "يقال: عَمَّر الناس الأرض عِمَارة، وهم يعمرونها، وهي عامرة معمورة. وقولهم: عامرة، محمول على عَمَرَت الأرض، والمعمورة من عُمِرَتْ. والاسم والمصدر: العمران: واستعمر الله عَزَّوَجَلَّ الناس في الأرض ليُعَمِّروها. مقاييس اللغة، مادة: (عمر) (٤/١٤١).

فالإسلام لا يعرف المؤمن إلَّا كادحًا عاملًا مؤديًا دوره في الحياة، آخذًا منها، معطيًا لها، مستجيبًا لما أراده الله عَزَّوَجَلَّ من بني آدم حين جعلهم خلفاء في الأرض، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]. فلم يقل: إنه عَمَّرَ الأرض لكم، ولكنه عَزَّوَجَلَّ خلق هذا الكون، وأودع فيه الثروات والخيرات والإمكانات، وحثَّهم على عمارتِهَا، واكتشافِ ما فيها من الخيرات، بإصلاحها وإحيائها، وإشاعة الحياة والنَّماء فيها، وذلك لا يكون إلَّا بالتقدم العلمي، والعمل الدؤوب، والتعاون بأن يقوم كل فرد بما يمكنه من جهد (١). فلا يجوز أن يعمل البعض، ويظل آخرون كَلًّا عليهم، فيأخذون ولا يعطون، ويستهلكون ولا ينتجون. فهذا ليس من العدل.

فالمتعطِّل عن الكسب والكدح (٢) في الحياة عالة على غيره، ولو اقتدى به المسلمون لفسدت الأرض، وأمسوا عبيدًا لغيرهم من الأقوياء العاملين.

كذلك ينبغي أن تكون الريادة لهذه الأمة في مجالات العمل والتقدم العلمي؛ فإن تقليد الآخرين هو عين التقهقر والانحطاط.

"ولقد علمتنا التَّجارِب أن المقلدين من كلِّ أمة المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها، وطلائع لجيوش الغالبين، وأرباب الغزوات، يمهدون لهم السبل، ويفتحون لهم الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم.

---

(١) (الجهد) -بفتح الجيم وضمها-: الطاقة.

(٢) (الكَدْح): العمل والسعي والكد والكسب.

وتستطيعون أن تروا مصداق هذه الكلمات إذا نظرتم إلى واقعنا المعاصر، إلى المبشرين بالنظريات الغربية الذين يريدون أن يجعلوا من أمتنا مسخًا مشوهًا للفكر الغربي"[(١)].

ومن الأحاديث التي فيها: الحثُّ على عمارة الأرض وتنميتها -حتى ولو كانت في آخر أيامها- قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة**[(٢)] **فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها**»[(٣)].

وهو مبالغة في الحثِّ على غرس الأشجار، وحفر الأنهار؛ لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعدود المعلوم عند خالقها جَلَّ وَعَلَا، فكما غرس لك غيرُك فانتفعت به، فاغرس لمن يجيء بعدَك؛ لينتفعَ -وإن لم يبق من الدنيا صُبَابَة-[(٤)].

---

(١) الأعمال الكاملة، لجمال الدين الأفغاني، أ.د محمد عمارة (ص:٥٣٣).

(٢) "(الفَسِيلُ): صغار النخل، وهي: الوَدِيُّ، والجمع: فُسْلَان، مثل: رغيف ورغفان، الواحدة: فَسِيلَة، وهي التي تقطع من الأُمِّ، أو تقلع من الأرض فتغرس. و(رجل فَسْل): رديء. المصباح المنير، مادة: (فسل) (٤٧٣/٢).

(٣) أخرجه أحمد [١٢٩٨١]، وعبد بن حميد [١٢١٦]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٤٧٩]، والبزار [٧٤٠٨]. قال الهيثمي (٦٣/٤): "رواه البزار، ورجاله أثبات ثقات، لعله أراد بقيام الساعة: أمارتها". وأخرجه أيضًا: ابن الأعرابي في (معجمه) [١٧٩]، والضياء [٢٧١٤]، وقال: "إسناده صحيح".

(٤) فيض القدير (٣٠/٣). و(الصَّبَابة) -بالفتح-: رقة الشوق وحرارته. و(الصُّبَابة) -بالضم-: بقية الماء واللبن وغيرهما تبقى في الإناء والسقاء. والمعنى: وإن لم يبق من الدنيا إلا الوقت اليسير.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة**»(١).

وفي رواية: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السَّبُعُ منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يَرْزَؤُهُ أحد إلا كان له صدقة**»(٢).

ففيه: حثٌّ على عمارة الأرض، ولو كان المنتفع من الزرع البهائم لنال الزارعَ الأجرُ. ولكن عمارة الأرض لا تعني: الركون إلى الدنيا، والغفلة عن الآخرة، ولكن المسلم يقف موقف الموازنة بين المتطلبات الدنيوية -وما تقتضيه من الوفاء بالحقوق تجاه الآخرين-، وبين العمل للآخرة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص:٧٧].

والأحاديث الدالة على التقلل من الدنيا والزهد بها(٣) كثيرة، فمنها: قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف**

(١) صحيح البخاري [٢٣٢٠]، مسلم [١٥٥٣].

(٢) صحيح مسلم [١٥٥٢]. قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ولا يرزؤه» أي: لا ينقصه ويأخذ منه.

(٣) يعني: من حيث اعتبار ما يصيب المكلف منها بسبب جعله إياها غاية، واتباعه هواه وشهواته.

تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء» (١)، وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يزال قلب الكبير شابًّا في اثنتين: في حب الدنيا وطول الأمل»** (٢).

وفي رواية: «**قلب الشيخ شاب على حب اثنتين: حب العيش، والمال»** (٣).

وفي رواية: «**يهرم ابن آدم وتَشِبُّ منه اثنتان: الحرص على المال، والحرص على العمر»** (٤).

كما أن (حبَّ الدنيا) من أسباب انحطاط الهمم عن طلب الهداية.

وقد بيَّن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن حبَّ الدنيا والتنافس عليها من أسباب الضعف، والاختلاف، والتَّفرق، وضياع العمر. وحذَّرنا من هذا المرض الخطير الذي يصيب الأفراد والجماعات حيث قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**»، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم،**

---

(١) صحيح مسلم [٢٧٤٢].

(٢) صحيح البخاري [٦٤٢٠]. قوله: «قلب الكبير»، أي: الشيخ. «في اثنتين»، أي: في خصلتين. «شابًّا» سماه شابًّا؛ لقوة استحكامه في محبة المال. (وطول الأمل) المراد بالأمل هنا: طول العمر.

(٣) صحيح مسلم [١٠٤٦]. قال الإمام النووي: "هذا مجاز واستعارة، ومعناه: أن قلب الشيخ كامل الحب للمال، محتكم في ذلك، كاحتكام قوة الشاب في شبابه. قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وتشب منه اثنتان» -بفتح التاء وكسر الشين-، وهو بمعنى: قلب الشيخ شاب على حب اثنتين" شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٧/١٣٨).

(٤) صحيح مسلم [١٠٤٧].

وليقذفن الله في قلوبكم الوهن»، فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: «**حب الدنيا، وكراهية الموت**» (١).

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لثوبان: «**كيف بك يا ثوبان إذا تداعت عليكم الأمم كتداعيكم على قصعة الطعام تصيبون منه؟**»، قال ثوبان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، أمن قلة بنا؟ قال: «**لا، أنتم يومئذ كثير، ولكن يلقى في قلوبكم الوهن**»، قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: «**حبكم الدنيا وكراهيتكم القتال**» (٢).

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج يومًا، فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر، فقال: «**إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض - أو مفاتيح الأرض- وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها**» (٣).

كما أنَّ حبَّ الدنيا والطمعَ فيها، والحرصَ على ما فيها من متاعٍ زائل يورثُ الهموم والأحزان.

---

(١) أخرجه الطيالسي [١٠٨٥]، وابن أبي شيبة [٣٧٢٤٧]، وأحمد [٢٢٣٩٧]، وأبو داود [٤٢٩٧]، وابن الأعرابي [٢١٧٠]، وأبو نعيم في (الحلية) (١/١٨٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٨٧].

(٢) أخرجه أحمد [٨٧١٣]، قال الهيثمي (٧/٢٨٧): "رواه أحمد والطبراني في (الأوسط) بنحوه، وإسناد أحمد جيد".

(٣) صحيح البخاري [١٣٤٤، ٣٥٩٦، ٤٠٨٥، ٦٤٢٦، ٦٥٩٠]، مسلم [٢٢٩٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وانما تحصل الهموم والغموم والأحزان من جهتين:

إحداهما: الرغبة في الدنيا والحرص عليها.

والثاني: التقصير في أعمال البرّ والطاعة"(١).

إن الْمُنْهَمِكَ في الدنيا، الْمُكِبَّ على غرورها، الْمُحِبَّ لشهواتها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت، فلا يذكره، وإذا ذُكِّرَ به كرهه ونفر منه، أولئك هم الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [الجمعة: ٨].

ثم إن الناس -كما قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ- إما منهمك، وإما تائب مبتدئ، وإما عارف منته.

أما المنهمك فلا يذكر الموت، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه، ويشتغل بمذمته، وهذا يزيده ذكر الموت من الله عَزَّوَجَلَّ بعدًا.

وأما التائب فإنه يكثر من ذكر الموت؛ لينبعث به من قلبه الخوف والخشية، فيفي بتمام التوبة. وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة، وقبل إصلاح الزاد، وهو معذور في كراهة الموت، ولا يدخل هذا تحت قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من كره لقاء الله كره الله لقاءه**»؛ فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما يخاف فوت لقاء الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقصوره وتقصيره، وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلًا بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه، فلا يعد كارهًا للقائه.

---

(١) عدة الصابرين (ص:٢٥٦).

وعلامة هذا: أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا.

وأما العارف فإنه يذكر الموت دائمًا؛ لأنه موعد لقائه لحبيبه، والْمُحِبُّ لا ينسى قَطُّ موعد لقاء الحبيب. وهذا في غالب الأمر يستبطئ مجيء الموت، ويحب مجيئه؛ ليتخلص من دار العاصين، وينتقل إلى جوار رب العالمين.

كما روي عن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أنه لما حضرته الوفاة قال: حبيب جاء على فاقة[1]، لا أفلح من ندم؛ اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إليَّ من الغنى، والسقم أحب إليَّ من الصحة، والموت أحب إليَّ من العيش، فسهل عليَّ الموت حتى ألقاك.

فإذن: التائب معذور في كراهة الموت.

وهذا معذور في حب الموت وتمنيه.

وأعلى منهما رتبة: من فوَّض أمره إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فصار لا يختار لنفسه موتًا ولا حياة، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه جَلَّوَعَلَا، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا، وهو الغاية والمنتهى[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٧٢٠٣]، والحاكم [٨٥٣٣] وصححه، ووافقه الذهبي. كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٢٨٢/١)، وابن عساكر (٢٩٧/١٢). ونحوه عن معاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وقد أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٢٣٩/١)، وانظر: جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٢٢٦/١)، وسيأتي ذكر ذلك في (حياة البرزخ).

(٢) إحياء علوم الدين (٤٤٩/٤-٤٥٠).

ثم إن أنجع طريق في ذكر الموت: أن يُكْثِرَ ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله، فيتذكَّر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم، وكيف تبدَّدت أجزاؤهم في قبورهم، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم، وأنه مثلهم وستكون عاقبته كعاقبتهم. فملازمة هذه الأفكار مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب، فيستعد له، ويتجافى عن دار الغرور، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقته.

وقال عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديًا أو رائحًا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، تضعونه في صدع من الأرض، قد توسد التراب، وخلف الأحباب، وقطع الأسباب [(١)].

وليس الموت نهاية لرحلة الإنسان -كما يظن الملاحدة- حيث قالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۝٢٩﴾ [الأنعام:٢٩]، ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٢٤﴾ [الجاثية:٢٤]، فالموت ليس الخاتمة الأبدية لرحلة الإنسان، وإنما ينتقل الإنسان من حياة إلى أخرى، هذه هي الحقيقة عرفها المسلمون من كتاب ربهم جَلَّ وَعَلَا، ومن سنة نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغابت عن كثيرين، حتى عاينوا الحقيقة عند حضور الموت، وتمنوا الرجوع إلى الدنيا، كما أخبر الحق جَلَّ وَعَلَا عن عاقبتهم بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩

(١) إحياء علوم الدين (٤/٤٥٢)، موعظة المؤمنين (ص:٣٢١).

لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٤]. وأخبر عن تحسرهم بقوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر:٥٦-٥٩].

وينتقل الإنسان بعد الموت إلى دار البرزخ، وهي الدار الفاصلة بين الدنيا والآخرة، ينتقل من دار الزرع إلى دار الحصاد، من دار الفناء إلى دار البقاء، من دار التكليف إلى دار الثواب والعقاب، وسيأتي بيان ذلك مفصلًا في (حياة البرزخ).

والذين يركنون إلى الدنيا، ويطمئنونَ إليها، ويُكثرونَ من التمتع بنعيمها، يُضَيَّقُ عليهم يوم القيامة، كما جاء في الحديث: عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: تَجَشَّأَ رَجُلٌ عند النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**كُفَّ عنَّا جُشَاءَكَ؛ فإنَّ أَكْثَرَهُمْ شِبَعًا في الدُّنْيا أطْوَلُهُمْ جُوعًا يوم القيامة**»(١)، كان ذلك الرَّجلُ يُخْرِجُ الْجُشَاءَ من صَدْره، وهو صوتٌ مع ريحٍ يَخْرُجُ منه عند الشِّبَعِ.

---

(١) الحديث مروي عن: ابن عمر، وأبي جحيفة، وغيرهما. حديث ابن عمر: أخرجه ابن ماجه [٣٣٥٠]، والترمذي [٢٤٧٨]، وقال: "حسن غريب" وأخرجه أيضًا: الطبراني في (الأوسط) [٤١٠٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٥٢٥٩]. حديث أبي جحيفة: أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٣٧٤٦،=

وقيل: عند امتلاء الْمعِدَة.

والنهي عن الْجُشَاءِ هو النهي عن الشبع؛ لأنه السبب الجالب له. كما أخبر أنَّ أصحابَ المال الكثير، والمتاع الدنيويِّ الواسعِ يكونونَ أقلَّ الناس أجرًا يوم القيامة، ما لم يكونوا قد بذلوا أموالَهم في سُبُلِ الخيرات، كما جاء في (الصحيحين): عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرجت ليلة من الليالي، فإذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمشي وحده، وليس معه إنسان، قال: فظننت أنه يكره أن يمشي معه أحد، قال: فجعلت أمشي في ظِلِّ الْقَمَر، فالتفت فرآني، فقال: «**من هذا؟**»، فقلت: أبو ذَرٍّ، جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، قال: «**يا أَبَا ذَرٍّ، تَعَالَهْ**»، قال: فَمَشَيْتُ معه سَاعَةً، فقال: «**إِنَّ الْمُكْثِرِينَ هُمُ الْمُقِلُّونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا من أَعْطَاهُ اللهُ خَيْرًا، فَنَفَحَ فِيهِ يَمِينَهُ وَشِمَالَهُ، وبَيْنَ يَدَيْهِ وَوَرَاءَهُ، وعَمِلَ فيه خَيْرًا**»(١).

والمراد بالخير الأوَّل: المال، كقوله جَلَّ وَعَلَا عن الإنسان: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾، أي: المال.

و(نفح): أي: ضرب يديه فيه بالعطاء.

والمراد بالخير الثّاني: طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ، والمراد بيمينه وشماله: جميع وجوه المكارم والخير.

=٨٩٢٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٥٢٥٤]. قال الهيثمي (٣٢٣/١٠): حديث: أبي جحيفة "رواه البزار بإسنادين، ورجال أحدهما ثقات".

(١) صحيح البخاري [٦٤٤٣]، مسلم [٩٤].

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾ [العاديات:٨]. الخير في الأصل عامٌّ، كما جاء في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧﴾ [الزلزلة:٧]، ولكنَّه هنا خاصٌّ بالمال، فهو من العامِّ الّذي أريد به الخاصُّ، أو من قصر العامِّ على بعض أفراده؛ لأنَّ المال فردٌ من أفراد الخير، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ إِن تَرَكَ خَيۡرًا ٱلۡوَصِيَّةُ﴾ [البقرة:١٨٠]، أي: مالًا؛ لأنَّ عمل الخير يصحبه معه ولا يتركه.

وفي معنى هذا وجهان:

الأوَّل: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾ [العاديات:٨]، أي: بسبب حبِّه الخير لشديدٌ بخيلٌ، أي: شديد البخل. كما قال طرفة:

أرى الموت يَعْتامُ الكرامَ ويَصْطَفي   عَقيلةَ مالِ الفاحشِ المتشدِّدِ(١)

والوجه الثَّاني: وإنَّه لشديد حبِّ المال.

قالهما ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقال: كلاهما صحيحٌ، والواقع أنّ الثّاني يتضمَّن الأوَّل؛ لأنَّ من أحبَّ المال حبًّا جمًّا سيحمله حبُّه على البخل. ويشهد للوجه الثَّاني، قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠﴾ [الفجر:١٩-٢٠].

وفي هذا النَّصِّ مذمَّة حبِّ المال، وهو جبلَّةٌ في الإنسان، إلَّا من هذَّبه الإسلام، وإنما ينصبُّ الذَّمُّ على شدَّة الحبِّ التي تحمل صاحبها على ضياع الحقوق، أو تعدِّي

---

(١) ديوان طرفة بن العبد (ص:٢٦). و(يعتام): يختار، و(عقيلة مال): يأخذ صفوته وخياره، و(الفاحش المتشدد): شديد البخل.

الحدود[1]، أي: هو لحب المال، وإيثار الدنيا وطلبها شديد وقوي، وهو لحب عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، وشكر نعمه، وأداء حقه وحق العباد ضعيف متقاعس. وحب المال هو الذي حمله على تضييع الحقوق، وتعدي الحدود، حيث قدَّم شهوة نفسه على رضا ربّه. وكل هذا لأنه قد قَصُر نظره على هذه الدَّار، وغَفَلَ عن الدار الآخرة؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ حاثًّا له على الخوف من يوم الوعيد: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾ [العاديات:٩-١١]. فالمكثرون في الدنيا هم المقلُّونَ يوم القيامة. وقلَّةُ الحسناتِ تؤخرهُم، وتجعلُ الآخرينَ يتقدمونَهم، بعدما أن كانوا في الدنيا مُقَدَّمين، كما جاء في الحديث: عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْأَكْثَرُونَ هُمُ الْأَسْفَلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَنْ قَالَ بِالْمَالِ، هَكَذَا، وَهَكَذَا، وَكَسَبَهُ مِنْ طَيِّبٍ**»[2].

وأصله في (الصحيحين) باللفظ الذي تقدم.

وهو عند أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ بلفظ: «**الأكثرون هم الأسفلون يوم القيامة، إلا من قال بالمال هكذا وهكذا، وهكذا وهكذا، وقليل ما هم**»[3].

وأخبرنا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الذين أثقلوا أنفسهم بالنَّعيمِ الدنيوي، والغنى والثَّراء لا يستطيعونَ أن يتجاوزوا في يوم القيامة العقباتِ والأهوال، كما جاء في

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٤٦٧)، أضواء البيان (٩/٦٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه [٤١٣٠]، قال البوصيري في (الزوائد) (٤/٢٢٠): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات" وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٣٣٣١].

(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [٢١٣٩٩].

الحديث: عن أُمِّ الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قُلْتُ لأبي الدَّرْدَاءِ: مَالَكَ لا تَطْلُبُ [أي: مالًا أو منصبًا] كما يَطْلُبُ غَيْرُكَ؟ فقال: لأنِّي سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إِنَّ أَمَامَكُمْ عَقَبَةً كَؤُودًا، لَا يَجُوزُهَا الْمُثْقَلُونَ**»، فأنا أُحِبُّ أن أَتَخَفَّفَ لتلك العقبة.

فقوله: «**الْمُثْقَلُونَ**»: أي: الحَامِلُونَ ثِقَلَ المال والذنوب، ومُؤْنَةَ الجاه، وسَعَةَ الحال، ولذا قيل: فاز الْمُخِفُّونَ وهلك الْمُثْقَلُونَ. وتلك العقبة هي الموت، ثم البعث، ثم الوقوف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، ثم الحساب، ثم الجنة أو النار. وكما أن أَمَامَ الإنسان عقبات أخروية فأمامه قبلها عقبات دنيوية.

وقد جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»[1].

وعند الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره**»[2].

قال ذو النون المصري رَحِمَهُ اللَّهُ: حق لابن آدم أن تبكي عليه السموات والأرض؛ لخفاء السابقة، وإبهام العاقبة، ومطالبة الشريعة، وثقل التكليف، وسقوط العذر، وكثرة ما أمامه من العقبات[3].

---

(١) صحيح مسلم [٢٨٢٢].

(٢) صحيح البخاري [٦٤٨٧].

(٣) انظر: فيض القدير (٢/٤٣٠).

وكلما غدا المطلوب رفيعًا كلما صعب مسلكه، وكثرت عقباته، فلا يتحقق الاختبار في الدنيا إلا مع عقبات يبصرها الباحث عن الحقِ والنَّجاة، والمخلص في سيره إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: «**عقبة**» أي: مرقى صعبًا من الجبال. و«**كؤودًا**» أي: شاقة فاصلة بينكم وبين دخول الجنة. قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمراد بها الموت والقبر والحشر وأهوالها وشدائدها، شبهها بصعود العقبة، ومكابدة ما يلحق الرجل من قطعها.

«**لا يجوزها**» أي: لا يتجاوز تلك العقبة على طريق السهولة.

وقول أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**فَأُحِبُّ أن أَتَخَفَّفَ**»، أي: بتركِ الطَّلَب، والصَّبْر على قِلَّةِ الْمُؤْنَة. ((**لِتِلْكَ الْعَقَبَة**))؛ لئلَّا يَحْصُلَ لي التَّعَبُ فيها"[١].

إن الناس كلما انفتحت عليهم الدنيا، وصاروا ينظرون إليها، فإنهم يخسرون من الآخرة بِقَدْرِ ما ربحوا من الدنيا؛ ولذلك قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ**»، يعني: ما أخاف عليكم الفقر، فالدنيا ستفتح. «**وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»[٢]. وصدق الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالذي أهلكَ الناس اليوم: التنافسُ في الدنيا، وكونهم كأنهم إنما خلقوا لها لا أنها خلقت لهم، فاشتغلوا بما خلق لهم عما خلقوا له.

---

(١) انظر: الكاشف عن حقائق السنن (٣٢٩٩/١٠)، مرقاة المفاتيح (٣٢٥٩/٨).

(٢) صحيح البخاري [٤٠١٥، ٦٤٢٥]، مسلم [٢٩٦١].

ومن الناس من يذل نفسه لأجل المال، ويطلب من الناس وعنده ما يغنيه. وقد جاء في ذلك وعيد شديد، فقد جاء في الحديث: عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَلَهُ مَا يُغْنِيهِ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَسْأَلَتُهُ**[١] **فِي وَجْهِهِ خُمُوشٌ، أَوْ خُدُوشٌ، أَوْ كُدُوحٌ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا يُغْنِيهِ؟ قَالَ: «**خَمْسُونَ دِرْهَمًا، أَوْ قِيمَتُهَا مِنَ الذَّهَبِ**»[٢].

وعند ابن خزيمة: عن حبشي بن جنادة السلولي قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من سأل وله ما يغنيه فإنما يأكل الجمر**». وقال زيد بن أخزم: من سأل من غير فقر، فإنما يأكل الجمر[٣].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**تَعِسَ**[٤] **عَبْدُ الدِّينَارِ، والدِّرْهَم، والقَطِيفَة، والخَمِيصَة، إن أُعْطِيَ رَضِيَ، وإن لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ**»[٥].

وأخبر الله جَلَّ وَعَلَا عن حال من شغله المتاع العاجل، وغفل عن الدار الآخرة حتى باغته الموت بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا

(١) أي: أثرها.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٩١]، وأحمد [٤٢٠٧]، وابن ماجه [١٨٤٠]، وأبو داود [١٦٢٦]، والترمذي [٦٥٠]، وقال: "حسن". وأخرجه أيضًا: البزار [١٩١٣]، والنسائي [٢٥٩٢]، والحاكم [١٤٧٩]، والشاشي [٤٧٨]، والطبراني في (الأوسط) [١٦٨٦]، والبيهقي [١٣٢٠٧].

(٣) صحيح ابن خزيمة [٢٤٤٦].

(٤) أي: شقي.

(٥) صحيح البخاري [٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥].

عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر:١-٨]. ولم يذكر المتكاثر به؛ ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون، من متاع الحياة الدنيا، وقد خلا عن الإخلاص والشكر والطاعة.

فاستمرت غفلتكم ولهوتكم وتشاغلكم عن طاعة ربكم، وعما ينجيكم من سخطه عليكم. ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ يعني: حتى صرتم إلى المقابر، فدفنتم فيها، وسيأتي بيان ذلك في (حياة البرزخ).

قال أبو حازم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "عجبًا لقوم يعملون لدار يرحلون عنها كل يوم مرحَلة، ويَدعون أن يعلموا لدارٍ يرحلون إليها كلَّ يوم مرحلة"(١).

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ الدار الآخرة للذين لا يتعالون على الخلق، ولا يركبون الضلال، ولا يأنفون من اتباع الحق، ولا يفسدون في الأرض فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾ [القصص:٨٣]. قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "جمع بين إرادة الفساد والعلو وبين أَنَّ الدَّارَ الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعًا فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود:١٥-١٦]. وهذا أيضًا متناول بعمومه لحب الجاه؛ فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا، وأكثر زينة من زينتها"(٢).

---

(١) صفة الصفوة (٣٩٠/١).

(٢) إحياء علوم الدين (٢٧٨/٣).

"وإذا نفى الله عَزَّوَجَلَّ عنهم إرادة العلو والفساد، فهو من باب أولى ألا يكون منهم علو ولا فساد، فهم لا يعلون في الأرض، ولا يفسدون، ولا يكون منهم علو ولا فساد، فهم لا يعلون في الأرض، ولا يفسدون، ولا يريدون ذلك؛ لأن الناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

١ – قسم علا وفسد وأفسد، فهذا اجتمع في حقِّه الإرادة والفعل.

٢ – وقسم لم يرد الفساد ولا العلو فقد انتفى عنه الأمران.

٣ – وقسم ثالث يريد العلو والفساد ولكن لا يقدر عليه. فهدا الثالث بين الأول والثاني، لكن عليه الوزر؛ لأنه أراد السوء، فالدار الآخرة إنما تكون ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: تعاليًا على الحق، أو على الخلق، ﴿وَلَا فَسَادًاۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾"[1].

إنَّ الإنسان يجازى في الآخرة على أعماله التي قدمها في الدنيا. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ﴾ [آل عمران:٣٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ۝١٨٥﴾ [آل عمران:١٨٥].

فمن أُبعد عن النَّار فقد ظفر بالخير، وحصل له الفوز المطلق.

---

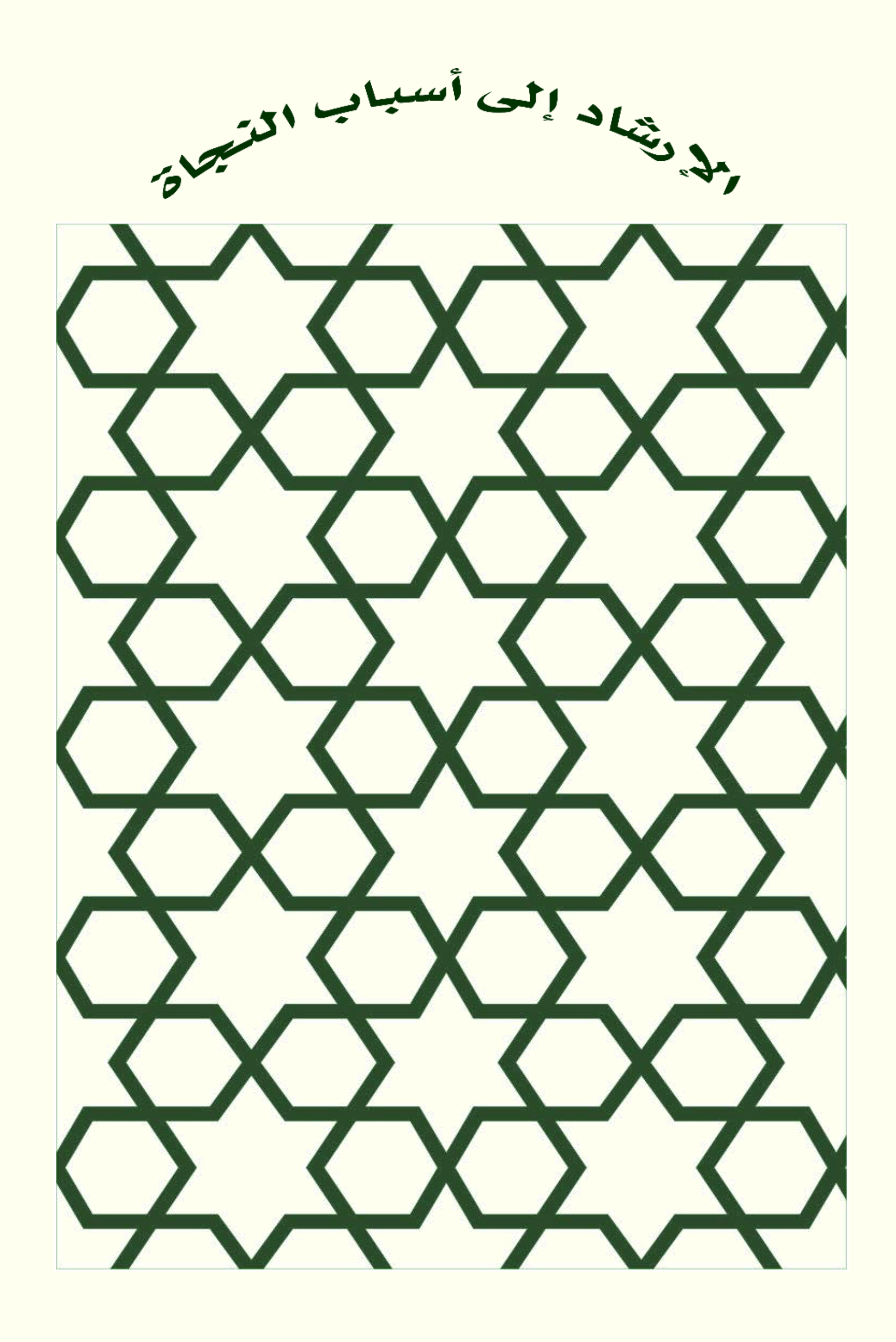
(١) شرح رياض الصالحين، لمحمد بن صالح العثيمين (٥٣٩/٣).

وعبَّر عن النَّجاة من النَّار بالزَّحزحة؛ لأنَّ الذي يعمل الصَّالحات يُبعد عن السُّقوط فيها، ويهوي بها آخرون؛ لأنَّ أعمالهم في الدُّنيا تسوق إليها، فهي تخالفُ أمرَ الله جَلَّ وَعَلَا بالاستقامة على طاعته، واجتنابِ ما حذَّرنا منه في الدنيا من الذُّنوب والمعاصي.

المبحث الثالث:

لباس التقوى

الإرشاد إلى أسباب النجاة



أولًا: تعريف التقوى:

والتقوى في اللغة هي: الوقاية والصيانة، بمعنى: أن يجعل الإنسان بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية.

والتقوى في الاصطلاح: صيانة المرء نفسه عما يضره في الآخرة، وذلك بالتزام ما أمر به الشارع، والانتهاء عما نهى، والعمل الصالح.

وعرَّفها الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: التقوى التي أعدَّ الله عَزَّوَجَلَّ الجنة لأهلها هي: "اتقاءُ الشركِ فما دونه، من كل ذنب نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه، أو تضييع واجب مما افترضه الله عَزَّوَجَلَّ"(١).

وعرَّفها الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: "حدُّ التقوى الجامع: تنزيه القلب عن شرٍّ لم يسبق عنك مثله، بقوة العزم على تركه، حتى يصير ذلك وقاية بينك وبين كل شرٍّ"(٢).

وكلمة: (التقوى) تقتضي عند إفرادها: "فعل ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به، وترك ما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه، وتقتضي عند اقترانها بفعل المأمور: الانتهاء عن المحظور"(٣).

فتقوى العبد لربه جَلَّوَعَلَا بمعنى: أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من غضب الله عَزَّوَجَلَّ وسخطه وقاية؛ تَقيه من ذلك، بفعل طاعته، واجتناب معاصيه. وتقوى الله عَزَّوَجَلَّ بمعنى: أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يُكفر. وهي: الخوف من الجليل، مع الرَّجاء والمحبة، والعمل بالتنزيل، والاستعداد ليوم الرحيل.

---

(١) الرعاية لحقوق الله، لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (ص:٣٤).

(٢) منهاج العابدين (ص:١٣٠).

(٣) مدارج السالكين (١/٣١٣).

ثانيًا: بيان مراتب التقوى:

ومراتب التقوى متعددة:

فأولاها (وهي أدناها): التوقي عن الشرك.

والثانية: التزام ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ، واجتناب ما نهى عنه من الكبائر، ومن ذلك: عدم الإصرار على الصغائر.

والثالثة: اتقاء الشبهات:

وقد أرشد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى البعد الشبهات؛ حتى لا يصادف المسلمُ الحرامَ المحض، فيعثر ويضل، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فمن اتقى الشُّبُهَاتِ استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشُّبُهَاتِ وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حِمَى، ألا وإن حِمَى الله محارمه**»(١).

فينبغي لمن أراد السلامة والعافية أن يتقي الشبهات؛ براءة لدينه وعرضه، وأن يأخذ بالأحوط ما أمكن، حتى يكون أبعد عن الحرام وما يوصل إليه، ويسعد بالحلال، فيحيا حياة طيبة، وينجو في الآخرة من النيران.

والرابعة: أن تكون محبَّة الله عَزَّوَجَلَّ مقدَّمة على جميع محابِّ العبد، وأن العبد مراقبًا لمولاه جَلَّ وَعَلَا في جميع الأحوال، وأن يكون أمر الله عَزَّوَجَلَّ ونهيه، مقدَّمًا على كلِّ أمرٍ ونهي.

---

(١) صحيح البخاري [٥٢]، صحيح مسلم [١٥٩٩].

وقد قيل: إنَّ أعلى مراتب التقوى: الإعراض عما سوى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد جعل البعضُ التقوى على ثلاث مراتب:

الأولى: وقاية النفس عن الكفر، وهذه المرتبة للعموم.

الثانية: وقاية النفس عن المعاصي، وهي للخواص.

الثالثة: وقاية النفس عما سوى الله عَزَّوَجَلَّ، وهي لخواص الخواص(١).

وقد فصل القول في ذلك: الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (منهاج العابدين)(٢).

والألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره)(٣).

وسيأتيك مزيد من البيان في مبحث الإخلاص وبيان رتبه.

"وإذا أضيفت التقوى إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فإن المعنى: اتقوا سخطه وغضبه، وهو أعظم ما يتقى، وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران:٢٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾ [المدثر:٥٦]، فهو جَلَّوَعَلَا أهل أن يخشى ويهاب، ويجل ويعظم في صدور عباده، حتى يعبدوه ويطيعوه؛ لما يستحقه من الإجلال والإكرام، وصفات الكبرياء والعظمة، وقوة البطش، وشدة البأس.

وتارة تضاف التقوى إلى عقاب الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى مكانه، كالنار، أو إلى زمانه، كيوم القيامة، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۝١٣١﴾ [آل عمران:١٣١]،

---

(١) انظر: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (١/١١٣)، المجالس الوعظية (١/٤٦٢).

(٢) انظر: منهاج العابدين (ص:١٢٩-١٣٠).

(٣) انظر: روح المعاني (١/١١١).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة:٢٨١]، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة:٤٨]"(١).

ثالثًا: بيان مكانة التقوى:

أرشد الله جَلَّ وَعَلَا العباد إلى أن خير ما يستصحب ليوم المعاد: التقوى، فقال: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة:١٩٧].

والإنسان لا بدَّ له من زاد في سفره الطويل في الدنيا، ويحتاج فيه إلى الطعام والشراب وإلى ما يلزمه من المركب، والسفر من الدنيا إلى الآخرة، لا بدَّ فيه كذلك من الزاد، وهو تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، والعمل بطاعته، واتقاء المحظورات. وهذا الزاد الذي يحمله إلى الدار الآخرة، من تقوى الله عَزَّوَجَلَّ والعمل الصالح، أفضل من الزاد الأول؛ لأنَّ زاد الدنيا قد يوصل إلى مراد النفس وشهواتها، أو يكون معينًا على بلوغ نفع آني ومرحلي، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم في الآخرة. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ [الأعراف:١٦٩]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَمَثُوبَةٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ خَيۡرٞۚ﴾ [البقرة:١٠٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾ [الحشر: ١٨-١٩].

(١) جامع العلوم والحكم (١/٣٩٨-٣٩٩).

والعباد صائرون إلى الله عَزَّوَجَلَّ بعد الممات، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾ [الزخرف:١٢-١٤]، أي: لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرنا الأكبر. وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبَّه بالزاد الدنيوي على الزاد الأخروي في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]، وباللباس الدنيوي على الأخروي في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦]. لما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ اللباس الحسي نبَّه العباد مرشدًا إلى اللباس المعنوي، وهو تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، وذكر أن ذلك خير لهم وأنفع من اللباس الحسي، فكما يحرص العبد على اللباس الحسي؛ ليواري به سوءَته، ويستر به عيوبه الظاهرة، فالأولى به كذلك أن يحرص على ما هو أنفع له، وهو لباس التقوى الذي يقيه من عذاب النار في الآخرة، ويستر عيوبه الباطنة، و﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾؛ لأن الظاهر محلُّ نَظَر الخلق، والباطن محلُّ نَظَر الحقِّ جَلَّوَعَلَا، والعيوب الباطنة أفحش من العورات الظاهرة.

قال أبو العتاهية:

إذا الْمَرْءُ لم يَلْبَسْ ثِيَابًا من التُّقى ... تَقَلَّبَ عُرْيَانًا وإِنْ كان كَاسِيا(١)

---

(١) ديوان أبي العتاهية (ص:٤٨٢)، ط:١، دار بيروت للطباعة والنشر [١٤٠٦هـ].

قال أبو علي الفارسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معنى الآية: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ خير لصاحبه إذا أخذ به، وأقرب له إلى الله عَزَّوَجَلَّ مما خلق من اللباس والرياش الذي يتجمل به، وأضيف اللباس إلى التقوى كما أضيف إلى الجوع في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل:١١٢]"(١)، أي: فهو استعارة مكنية وتخييلية، بأن يتوهم للتقوى حالة شبيهة باللباس تشتمل على جميع بدنه، بحسب الورع والخشية من الله عَزَّوَجَلَّ، اشتمال اللباس على اللابس، أو من قبيل: (لجين الماء)(٢).

وإن من عيوب النفس: اشتغالها بإصلاح الظَّاهِر الذي هو موضع نظر الخلق، وغفلتها عن إصلاح الباطن الذي هو موضع نظر الله عَزَّوَجَلَّ، والذي هو أولى بالإصلاح من الظَّاهِر. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء:١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات:١١].

---

(١) الحجة للقراء السبعة، لأبي علي الفارسي (١٣/٤).

(٢) أي: فيكون تشبيهًا مؤكدًا، وليس استعارة. وقد أخذ من قول الشاعر: (والرِّيحُ تَعْبَثُ بِالْغُصُونِ وقد جَرَى***ذَهَبُ الأَصِيلِ على لُجَيْنِ الْمَاءِ). قال في (معاهد التنصيص) (٢/٩٥-٩٩): "البيت من (الكامل)، ولا أعرف قائله. و(عبث الريح بالغصون) عبارة عن إمالتها إياها، و(الأصيل): هو الوقت من بعد العصر إلى الغروب، ويوصف بالصفرة. والشاهد في البيت: حذف أداة التشبيه، ويسمى: التشبيه المؤكد، وهو هنا تشبيه صفرة الأصيل بالذهب، وبياض الماء وصفائه باللجين، وهو الفضة" وانظر: المطول (ص:٣٤٤).

وقد أخرج (مسلم) من حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**»، وأشار بأصابعه إلى صدره[1].

وفي رواية عند (مسلم) أيضًا: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»[2]. وسيأتيك بيان ما يستفاد من الحديث مفصلًا في (أعمال القلوب).

ومحل التقوى هي: القلوب الطاهرة، ومنها تصدر: الطاعات الظاهرة.

فالقلب هو موضع نظر الرب جَلَّ وَعَلَا.

وإنَّ لباس التقوى يقي الإنسان من النَّار، ويقرب العبد من الرحمن جَلَّ وَعَلَا.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "التقوى كنزٌ عزيز، فلئن ظفرتَ به، فكم تجدُ فيه من جوهرٍ شريف، وعِلْقٍ نفيس، وخيرٍ كثير، ورزقٍ كريم، وفوزٍ كبير، وغُنْمٍ جسيم، وملك عظيم، وكأنَّ خيرات الدنيا والآخرة جمعت فجعلت تحت هذه الخصلة الواحدة التي هي: التقوى، فتأمل ما في القرآن من ذكرها، كم علَّقَ بها من خيرٍ، وكم وعد عليها من ثواب وأجرٍ، وكم أضاف إليها من سعادة.

وأنا أعُدُّ لك من جملتها اثنتي عشر خصلة:

---

(١) صحيح مسلم (٣٣) [٢٥٦٤].

(٢) صحيح مسلم (٣٤) [٢٥٦٤].

أولها: المدحة والثناء: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝١٨٦﴾ [آل عمران:١٨٦].

الثاني: الحفظ والحراسة من الأعداء: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [آل عمران:١٢٠].

الثالث: التأييدُ والنُّصرة: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل:١٢٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝١٩٤﴾ [البقرة:١٩٤].

والرابع: النجاة من الشدائد: والرزق من الحلال: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق:٢-٣].

والخامس: إصلاح العمل: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

والسادس: غفران الذنوب: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ [الأحزاب:٧١].

والسابع: محبة الله جَلَّوَعَلَا: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٤﴾ [التوبة:٤].

والثامن: القبول: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة:٢٧].

والتاسع: الإكرام والإعزاز: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات:١٣].

والعاشر: **البشارة عند الموت**: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس:٦٣-٦٤].

والحادي عشر: **النجاة من النار**: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [مريم:٧٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧﴾ [الليل:١٧].

والثاني عشر: **الخلود في الجنة**: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾ [آل عمران:١٣٣].

فهذا بيان كلِّ خيرٍ[1] وسعادةٍ في الدارين تحت خصلة واحدة، وهي التقوى، فلا تنس نصيبك منها أيها الرجل منها.

ثم الذي يختص بهذا الشأن من أمر العبادة ثلاثة أصول:

أحدها: **التوفيق والتأييد أوَّلًا**: وهو للمتقين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ [النحل:١٢٨].

والثاني: **إصلاح العمل، وإتمام التَّقصير**: وهو للمتقين، كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ [الأحزاب:٧١].

والثالث: **قبول العمل**: وهو للمتقين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة:٢٧].

ومدار العبادة على هذه الأصول الثلاثة: التوفيق أوَّلًا حتى يعمل، ثم الإصلاح للتقصير حتى يتمَّ، ثم القبول إذا تمَّ.

---

(١) في نسخة: "كله خير".

وهذه الثلاثة التي يتضرع فيها العابدون إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويسألون فيقولون: ربنا وفقنا لطاعتك، وأتمم تقصيرنا، وتقبل منا، وقد وعد الله عَزَّوَجَلَّ ذلك كله على التقوى، وأكرم بها المتقي، سأل أو لم يسأل، فعليك بهذه التقوى إن أردتَ عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، بل أردت سعادة الدنيا والعقبى"(١).

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢]: هو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر(٢).

قيل: إن هذه الآية لما نزلت قالوا: «**يا رسول الله من يقوى لهذا**» فنزلت قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، فنسخ هذه بناء على أن الأمر في الآيتين

---

(١) منهاج العابدين (ص:١٢٢-١٢٥).

(٢) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [٢٢]، وابن وهب في (التفسير) (١٢١/١)، وعبد الرزاق الصنعاني في (التفسير) (٤٠٧/١)، وابن أبي شيبة [٣٤٥٥٣]، وأبو داود في (الزهد) [١٤٥]، والنسائي في (الكبرى) [١١٨٤٧]، وابن أبي حاتم في (التفسير) (٧٢٢/٣)، والحاكم، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. قال الهيثمي حديث: عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: "رواه الطبراني بإسنادين، رجال أحدهما رجال الصحيح، والآخر ضعيف". كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٧/ ٢٣٨)، وقد رُوِيَ مرفوعًا. قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ (٨٧/٢): "والأظهر أنه موقوف". وانظر: تفسير القرآن، لابن المنذر (٣١٧/١)، الدر المنثور (٢٨٣/٢).

للوجوب[1]، وعلى اختلاف المراد من التقويين. والحق أن هذا بيان لا نسخ، كما حققه المحققون، ولكن شاع عند المتقدمين إطلاق النسخ على ما يشمل البيان[2].

وتقوى الله عَزَّوَجَلَّ هي النَّافعة في الدَّارين، وهي الرَّافعة في الدَّارين، وهي الموصلة إلى خير الدَّارين، وهي الدَّافعة لشرِّ الدَّارين.

والتقوى وصية الله عَزَّوَجَلَّ للأولين والآخرين، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١]، "يعني: أنها وصية قديمة ما

---

(١) قال ابن أبي حاتم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثنا أبو زرعة، حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء -هو ابن دينار- عن سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران:١٠٢]، قال: لما نزلت الآية اشتد على القوم العمل، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم، وتقرحت جباههم، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ تخفيفًا على المسلمين: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، فنسخت الآية الأولى. تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٣/٧٢٢). وروي عن أبي العالية، وزيد بن أسلم، وقتادة، والربيع بن أنس، والسدي، ومقاتل بن حيان نحو ذلك. انظر: تفسير ابن كثير (٨/١٤٠-١٤١)، التلخيص قي تفسير القرآن، لموفق الدين أبي العباس الكواشي (ص:١٦٠)، وانظر ذلك مفصلًا في (تفسير الطبري) (٧/٦٧-٦٩). وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في (ناسخه) من طريق: علي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران:١٠٢]، قال: لم تنسخ ولكن ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: أن يجاهدوا في الله عَزَّوَجَلَّ حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا لله بالقسط، ولو على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم. الدر المنثور (٢/٢٨٣)، تفسير ابن المنذر (١/٣١٨)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٣/٧٢٢)، تفسير الطبري (٧/٦٧).

(٢) التحرير والتنوير (٤/٣٠).

زال يوصي الله عَزَّوَجَلَّ بها عباده، لستم بها مخصوصين؛ لأنهم بالتقوى يسعدون عنده، وبها ينالون النجاة في العاقبة"[١].

قال بعض العارفين: هذه الآية هي رحى آي القرآن؛ لأن جميعه يدور عليها[٢].

قال الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أليس الله عَزَّوَجَلَّ أعلم بصلاح العبد من كلِّ أحد؟ أوليس هو هو أنصح له، وأرحم وأرأف من كلِّ أحد؟ ولو كانت في العالم خصلةٌ هي أصلح للعبد، وأجمعُ للخير، وأعظمُ للأجر، وأجلُّ في العبودية، وأعظم في القَدْر، وأولى بالحال، وأنجحُ في المآل[٣] من هذه الخصلة التي هي: (التقوى) لكان الله عَزَّوَجَلَّ أمر بها عبادَه، وأوصى خواصَّه بذلك؛ لكمال حكمته، وسعة رحمته، فلما أوصى بهذه الخصلة الواحدة، وجمع الأولين والآخرين من عباده في ذلك، واقتصر عليها، علمت أنها الغاية التي لا متجاوز عنها، ولا مقصد دونها، وأنه جَلَّوَعَلَا قد جمع كل نصحٍ ودلالة، وإرشادٍ وتنبيهٍ وتأديب، وتعليمٍ وتهذيبٍ في هذه الوصية الواحدة، كما يليق بحكمته ورحمته، وعلمتَ لأن هذه الخصلة، التي هي: (التقوى)، هي الجامعةُ لخير الدنيا والآخرة، الكافية لجميعِ المهمات، المبلِّغة إلى أعلى الدرجات في العبودية"[٤].

---

(١) الكشاف (٥٧٤/١)، وانظر: الرعاية لحقوق الله، لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (ص:٣٤).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٤٠٨/٥).

(٣) في نسخة: "وأنجح للآمال".

(4) منهاج العابدين (ص:١٢٦).

ولما كان أصل التقوى لله عَزَّوَجَلَّ: الخوف منه، وعد الله عَزَّوَجَلَّ المتقين بالأمن عوضًا مما أخافوا أنفسهم به من عقابه، وأزال عنهم الخوف والحزن(١)، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٥﴾ [الأعراف:٣٥]، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس:٦٢-٦٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦﴾ [الحجر:٤٥-٤٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ۝٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ۝٥٤ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾ [الدخان:٥١-٥٥].

وفي الحديث: «**يقول الله** عَزَّوَجَلَّ: **وعِزَّتي لا أجمعُ على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمنين، إذا أَمِنَني في الدنيا أَخَفْتُهُ يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا أَمَّنْتُهُ يوم القيامة**» (٢).

(١) انظر: الرعاية لحقوق الله، لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (ص:٣٥).

(٢) الحديث مروي عن الحسن مرسلًا، وعن أبي هريرة. حديث: الحسن رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٥٧]، والبزار [٨٠٢٨]، عن الحسن مرسلا. حديث: أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٥٨]، والبزار [٨٠٢٩]، وابن حبان [٦٤٠]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٥٩]، وابن عساكر في (معجمه) [١٤٢٨]. قال الهيثمي (١٠/٣٠٨): "رواهما البزار، عن شيخه: محمد بن يحيى بن ميمون، ولم أعرفه، وبقية رجال المرسل رجال الصحيح، وكذلك رجال المسند غير محمد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث". وقال العراقي (ص:١٥١٠): "أخرجه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الشعب من حديث: أبي هريرة، ورواه ابن المبارك في (الزهد)، وابن أبي الدنيا في كتاب: (الخائفين) من رواية: الحسن مرسلًا".

ولم تكرر وصية في الكتاب والسنة كما كررت الوصية بالتقوى فيهما، ووعد المتقي فيهما بالفرج والنصر، وجزيل الأجر.

وقد وصَّى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته بالتقوى في مناسبات كثيرة، فمن ذلك: ما جاء في الحديث: عن العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: وعظنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع؟ فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «**أوصيكم بتقوى الله والسمع؛ فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**» (١).

ومن وصايا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اتَّقِ اللَّهَ حيثما كنتَ، وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحسنةَ تمحُها، وخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ**» (٢).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتق الله**» وذلك بالإتيان بجميع الواجبات، والانتهاء عن سائر المنكرات؛ فإن التقوى أساس الدين، وبه يرتقي إلى مراتب اليقين، ثم التحقيق

---

(١) أخرجه أحمد [١٧١٤٤]، والدارمي [٩٦]، وأبو داود [٤٦٠٧]، والترمذي [٢٦٧٦] وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه: وابن حبان [٥]، والطبراني في (الكبير) [٦١٧]، والحاكم [٣٢٩]، وقال: "صحيح ليس له علة"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن) [٢٠٣٣٨].

(٢) أخرجه أحمد [٢١٣٥٤]، والدارمي [٢٨٣٣]، والترمذي [١٩٨٧]، وقال: "حسن صحيح"، وأخرجه أيضًا: البزار [٤٠٢٢]، والحاكم [١٧٨]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه: أبو نعيم في (الحلية) (٤/٣٧٨)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٦٦٣].

أن التقوى أدناها: التبرؤ عن الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وأعلاها: الإعراض عما سواه، وما بينهما مراتب بعضها فوق بعض، من ترك المحظور، ثم المكروه، ثم المباح مما لا يعني، ولله دَرُّ من قال:

مـن عَـرَفَ الله فـلم تُغْنِهِ ... مـعرفةُ الله فـذاك الشَّـقِي
مـا يصنع العبد بِعِزِّ الْغِنَى؟ ... فـالْعِزُّ كُـلُّ الْـعِزِّ لِلْمُتَّقِي

و«**حيثما كنت**» أي: أي: في السر والعلانية، وفي الشدة والرخاء؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ عالم بسر أمرك، كما أنه مطلع على ظواهرك، فعليك برعاية دقائق الأدب في حفظ أوامره ومراضيه، والاحتراز عن مساخطه ومساويه(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اتَّقِ اللَّهَ حيثما كنتَ**» هذه كلمة جامعة. وفي قوله: «**حيثما كنتَ**» تحقيق لحاجته إلى التقوى في السر والعلانية.

ثم قال: «**وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحسنةَ تمحُها**»، فإنَّ الطبيب متى تناول المريض شيئًا مضرًا أمره بما يصلحه. والذنب للعبد كأنه أمر حتم. فالكيس هو الذي لا يزال يأتي من الحسنات بما يمحو السيئات. وإنما قدم في لفظ الحديث: «**السَّيِّئَة**» -وإن كانت مفعوله-؛ لأن المقصود هنا: محوها، لا فعل الحسنة، فصار كقوله في بول الأعرابي: «**صبُّوا عليه ذَنُوبًا من ماء**» (٢). وينبغي أن تكون الحسنات من جنس السيئات؛ فإنه أبلغ في المحو والذنوب يزول موجبها بأشياء:

---

(١) مرقاة المفاتيح (٨/٣١٧٧-٣١٧٨).

(٢) والحديث في (صحيح الإمام البخاري) [٢٢٠، ٦١٢٨]: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: إن أعرابيًا بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دعوه، وَأَهْرِيقُوا على بوله ذَنُوبًا=

أحدها: التوبة.

والثاني: الاستغفار من غير توبة؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد يغفر له إجابة لدعائه، وإن لم يتب، فإذا اجتمعت التوبة والاستغفار فهو الكمال.

الثالث: الأعمال الصالحة المكفرة.."[(١)].

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات، فيرتفع إليه نور من الطاعات، وترك الشهوات، فتنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة، وإليه الإشارة بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحسنةَ تمحُها**»، فإذن لا يستغني العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه، بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات.."[(٢)].

وقال في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧]: "معناه: عن قرب عهد بالخطيئة، بأن يتندم عليها، ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها، قبل أن يتراكم الرين على القلب، فلا يقبل المحو؛ ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحسنةَ تمحُها**»؛ ولذلك قال لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لابنه: يا بني

=من ماء، أو سَجْلًا من ماء؛ فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين». وعند مسلم [٢٨٤]: عن أنس بن مالك، يذكر أن أعرابيًا قام إلى ناحية في المسجد فبال فيها، فصاح به الناس، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دعوه»، فلما فرغ أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَنُوبٍ فَصُبَّ على بوله». و«أهريقوا»: صبوا. و«سجلًا»: الدلو المتلئة ماء. و«ذنوبًا»: الدلو الكبير الممتلىء ماء.

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٦٥٥).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/١٠).

لا تؤخر التوبة؛ فإن الموت يأتي بغتة، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسويف كان بين خطرين عظيمين:

أحدهما: أن تتراكم الظلمة على قلبه من المعاصي، حتى يصير رينًا وطبعًا، فلا يقبل المحو.

الثاني: أن يعاجله المرض أو الموت، فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو، فما هلك من هلك إلا بالتسويف، فيكون تسويده القلب نقدًا، وجلاؤه بالطاعة نسيئة، إلى أن يختطفه الموت، فيأتي الله عَزَّوَجَلَّ بقلب غير سـليم، ولا ينجو ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء:٨٩]، فالقلب أمانة الله عَزَّوَجَلَّ عند عبده، والعمر أمانة الله عَزَّوَجَلَّ عنده، وكذا سائر أسباب الطاعة، فمن خان في الأمانة ولم يتدارك خيانته فأمره مخطر"[١].

وخير الدعاء وأنفعه للعبد: ما كان الرشيد الذي يستضاء فيه بأنوار الوحي، وهو الذي جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وفيما أرشد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته إليه من جوامع كلمه، ومن ذلك: سؤال التقوى، كما في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكِّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**» [٢].

ومن دعاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى**» [٣].

---

(١) المصدر السابق (١٢/٤).

(٢) صحيح مسلم [٢٧٢٢].

(٣) أخرجه مسلم [٢٧٢١].

ومن دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السفر: «**اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى**» الحديث (١).

وبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن التقوى هي السبيل الموصل إلى رضوان الله عَزَّ وَجَلَّ، وهي أعظم ما يدخل الناس الجنة، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: «**تقوى الله، وحسن الخلق**» الحديث (٢).

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تحت عنوان: (فائدة جليلة): "جمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ وحسن الخلق؛ لأن تقوى الله يصلح ما بين العبد وبين ربه جَلَّ وَعَلَا، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه"(٣).

والتقوى هي وصية الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لأقوامهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون:٢٣]، ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [الشعراء:١٠٦-١٠٨]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّآ

(١) أخرجه مسلم [١٣٤٢].

(٢) أخرجه أحمد [٧٩٠٧]، والبخاري في (الأدب) [٢٩٤]، وابن ماجه [٤٢٤٦]، والترمذي [٢٠٠٤] وقال: "صحيح غريب". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٤٧٦]، والحاكم [٧٩١٩] وقال: "صحيح الإسناد". ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٥٠٢٥].

(٣) الفوائد، لابن القيم (ص:٥٤).

أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نوح:١-٣].

وقال عن هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٢٥ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٢٦﴾ [الشعراء:١٢٤-١٢٦]، وقال عن صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٤٢ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٤٣ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٤٤﴾ [الشعراء:١٤٢-١٤٤]، وقال عن لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٦١ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٦٢ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٦٣﴾ [الشعراء:١٦١-١٦٣]، وقال عن شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٧٨ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٧٩﴾ [الشعراء:١٧٧-١٧٩]، وقال عن إلياس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٢٤﴾ [الصافات:١٢٣-١٢٤].

والتقوى من أعظم علامات محبة الله عَزَّوَجَلَّ للعبد، كما جاء في الحديث: «**إن الله يحب العبد التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ**»(١).

وأكرم الناس عند الله عَزَّوَجَلَّ منزلة، وخيرهم مكانة هم المتقون، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

وفي الحديث: عن أبي نَضْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حدثني من سمع خطبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وسط أيام التشريق فقال: «**يا أيها الناس، إن ربكم واحد وأباكم واحد، ألا لا**

(١) صحيح مسلم [٢٩٦٥].

فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أسود على أحمر، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى، أَبَلَّغْتُ؟»، قالوا: بَلَّغَ رسولُ الله ﷺ.." الحديث(١).

وفي (الصحيح): عن أبي هريرة رضي الله عنه: قيل يا رسول الله: من أكرم الناس؟ قال: «**أتقاهم**»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أذهب الله عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، والناس بنو آدم وآدم من تراب**»(٣).

---

(١) أخرجه أحمد [٢٣٤٨٩]. قال الهيثمي رحمه الله (٣/٢٦٦): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح". ونحوه عن أبي سعيد رضي الله عنه، بلفظ: «إن ربكم واحد، وأباكم واحد، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى». قال الهيثمي (٨/٨٤): "رواه الطبراني في (الأوسط)، والبزار بنحوه إلا أنه قال: «إن أباكم واحد، وإن دينكم واحد، أبوكم آدم، وآدم خلق من تراب». ورجال البزار رجال الصحيح".

(٢) صحيح البخاري [٣٣٥٣، ٣٣٧٤، ٣٣٨٣، ٣٤٩٠، ٤٦٨٩]، صحيح مسلم [٢٣٧٨].

(3) أخرجه ابن وهب في (جامعه) [٣٠]، وأحمد [٨٧٣٦]، وأبو داود [٥١١٦]، والترمذي [٣٩٥٦]، واللفظ له، وقال: "هذا حديث حسن صحيح". وقال: "وسعيد المقبري قد سمع من أبي هريرة، ويروي عن أبيه أشياء كثيرة، عن أبي هريرة. وقد روى سفيان الثوري، وغير واحد هذا الحديث عن هشام بن سعد، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ نحو حديث أبي عامر، عن هشام بن سعد". كما أخرجه البزار [٨٥٢٦]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٣٤٥٨]، والبيهقي في (الكبرى) [٢١٠٦٢].

و"(العبية) بضم العين المهملة وكسرها، وتشديد الباء الموحدة وكسرها، وبعدها ياء مثناة تحت مشددة أيضًا هي: الكبر والفخر والنخوة"(١).

والمعنى: "أن الناس رجلان: (مؤمن تقي)، وهو الخير الفاضل وإن لم يكن حسيبًا في قومه، و(فاجر شقي) فهو الدني وإن كان في أهله شريفًا رفيعًا"(٢).

فدلَّ الكتاب والسنة على أن أكرم الناس عند الله عَزَّوَجَلَّ: أتقاهم.

فهذا هو مقياس التفاضل بين الناس، وليس بالحسب، ولا بالنسب، ولا بكثرة المال، ولا بالجاه، ولا بالشهرة، فقد كان سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فارسيًّا، وبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حبشيًّا، وصهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ روميًّا، وكان أبو لهب -وهو عم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عربيًّا قرشيًّا.

وقد رفع الإسلام سلمان، وبلالًا، وصهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ووضع الكفر أبا لهب.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في محكم آياته: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون:١٠١-١٠٣].

---

(١) الترغيب والترهيب، للحافظ المنذري (٣/٣٥٩)، وقال التُّورِبِشْتِي: "«عبية الجاهلية» أي: نخوتها، يقال: رجل فيه عبية، و(عبية) بضم العين وكسرها، أي: كبر وتجبر. والمحفوظ عن اهل الحديث بتشديد الباء، وذكر أبو عبيد الهروي عن بعض أهل اللغة أنه من (العبء) يعني: الحمل الثقيل، ثم قال: وقال الأزهري: بل هو مأخوذ من (العبء)، وهو النور والضياء. يقال: هذا عبء الشمس، وأصله: عبوء الشمس. وعلى هذا فالتشديد فيه كما هو في (الذرية) من الزرء بالهمز، والجوهري أورده في باب المضاعف" الميسر في شرح مصابيح السنة (٣/١٠٦٢)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٧/٣٠٧٣).

(٢) معالم السنن (٤/١٤٨).

وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيرًا ما يوصي أصحابه بالتقوى، وقد روى مسلم في (صحيحه): عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أَمَّرَ أميرًا على جيش، أو سرية، أوصاه في خاصَّته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: «**اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا**..» الحديث[1].

ولا يتقبل العمل إلا من المتقين، المخلصين في أعمالهم، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة:٢٧].

رابعًا: ثمرات التقوى:

وللتقوى ثمرات عظيمة في حياة الإنسان، فهي تثمر صلاحًا، واستقامة، واستقرارًا، وسلامة من آفات كثيرة؛ فإن تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ، ومراقبته في السر والعلن، وتحقيق العبودية له، وإخلاص العبادة له من أهم الأسباب التي تحصِّنُ المسلم من الشرور والآفات، وهي سبب لتفريج الكروب عند النوازل والخطوب.

فمن اتَّقى الله عَزَّ وَجَلَّ تولَّى الله جَلَّ وَعَلَا حفظه، ولم يكله إلى غيره، ووفقه للخير، وجعل له فرجًا ومخرجًا، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ﴾ [الطلاق:٢-٣]. وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾﴾ [الطلاق:٤]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟

(١) صحيح مسلم [١٧٣١].

﴿وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف:٩٦]. فالتقوى من أعظم أسباب التمكين والعزة في الدين والدنيا، والبركة في الرزق والوقت والعمل، وتنزل الرحمات، وعموم الفضل والبركات، ولا سيما عند الشدائد والملمات، كما قال جَلَّوَعَلَا في آية أخرى: ﴿۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ١٥٦﴾ [الأعراف:١٥٦].

ومن اتقى الله عَزَّوَجَلَّ كان الله معه وفي عونه، ولن يخذله، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل:١٢٨]. فمن اتقى الله تولَّى حفظه، ولم يكله إلى غيره، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [آل عمران:١٢٠]، وقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لعبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجَاهَكَ**»(١). فمن حفظ الله عَزَّوَجَلَّ حفظه الله، ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله عَزَّوَجَلَّ حافظه وأمامه فممن يخاف، وممن يحذر؟

فالتقوى ترفع عنهم الخوف والحزن يوم القيامة، فلا يمسهم السوء، ولهم البشرى في الدنيا، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٤﴾ [يونس:٦٢-٦٤]. يقول تعالى ذكره: ألا إن

---

(١) أخرجه أحمد [٢٦٦٩]، والترمذي [٢٥١٦]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٢٥٥٦]، والحاكم [٦٣٠٣]، وقال: "هذا حديث كبير عال من حديث عبد الملك بن عمير، عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا"، وأخرجه أيضًا: الضياء [١٣].

أولياء الله عَزَّوَجَلَّ لا خوف عليهم في الآخرة من عقاب الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله رضي عنهم، فآمنهم من عقابه، ولا هم يحزنون على ما فاتهم من الدنيا. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف:١٩٦]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس:٦٢-٦٤]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية:١٩]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [مريم:٩٧].

ومن يتقي الله عَزَّوَجَلَّ يجعل له نورًا يفرق به بين الحق والباطل، وينور قلبه، ويشرح صدره، ويوفقه للحق، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال:٢٩]. قال ابن جزي رَحِمَهُٱللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي: تفرقة بين الحق والباطل، وذلك دليل على أن التقوى تنوِّر القلب، وتشرح الصدر، وتزيد في العلم والمعرفة" (١). وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾ [البقرة:٢٨٢].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مرشدًا أهل الكتاب الذين آمنوا بالتَّوراة والإنجيل إلى تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، والإيمان برسوله الخاتم، محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

(١) تفسير ابن جزي (١/٣٢٥).

رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ [الحديد:٢٨]، فالمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ آمنوا بمحمد صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ أي: نصيبين. ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾؛ لإيمانكم بمحمد صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإيمانكم بمن قبله، فيكون لهم ذلك النور الذي يسعى بين أيديكم يوم القيامة، أو يكون لكم الهدى والرشاد، ويؤيد الأول: أنه مذكور في هذه السورة، ويؤيد الثاني: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام:١٢٢].

والتقوى من أسباب التذكر والتبصر، وطرد وساوس الشيطان، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف:٢٠١].

وقال مبينًا حسن عاقبة التقوى في الدنيا والآخرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنفال:٢٩].

وقال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَاۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًاۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه:132]، وقال: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:١٢٨].

وقال جَلَّوَعَلَا عن حسن عاقبة التقوى في الآخرة: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾ [آل عمران: ١٩٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾﴾ [مريم:٦٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ

نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ [القصص:٨٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠﴾ [الزمر:٢٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾ [الزمر:٧٣-٧٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥﴾ [الطلاق:٥]. فهي سبب في النجاة والفلاح، وتكفير السيئات، ورفعة الدرجات، والفوز بالنعيم في الجنات. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢﴾ [النور:٥٢].

والجنة بما فيها من النعيم إنما أعدت للمتقين، كما أخبر المولى جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران:١٣٣]، كما أن النار أعدت للكافرين، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ٢٤﴾ [البقرة:٢٤]، وقال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾ [آل عمران:١٣١].

والتقوى هي خير ضمان لصلاح الأولاد وبرّهم، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةٗ ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيۡهِمۡ فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدًا ٩﴾ [النساء:٩].

وقد أرشد الشارع إلى خير الدعاء الذي فيه فلاح العبد، وصلاح ذريته، مبينًا حسن العاقبة والمآل لمن اتقى الله عَزَّوَجَلَّ، واستقام على طاعته، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [الفرقان:٧٤-٧٦].

وبين الحق جَلَّوَعَلَا أن التقوى من أسباب النجاة من أهوال القيامة، ومن عذاب النار، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم:٧١-٧٢]. وقال جَلَّوَعَلَا في بيان أن التقوى سبب في نجاة العبد من الهلاك والعذاب والسوء: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر:٦٠-٦١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت:١٨].

فالتقوى أعظم جُنَّة تقي العبد من تلك الأهوال، وتنجيه من النار.

وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن التقوى من أعظم أسباب الوقاية من النَّار، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الليل:١٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [البقرة: ٤٨]، أي: لا يغني أحد عن أحد، كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ﴾ [الأنعام:١٦٤]، وقال: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ

يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ [عبس:٣٧]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ﴾ [لقمان:٣٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة:٢٨١]، أي: اتقوا يومًا الوقوف فيه طويل، والحساب فيه ثقيل، إلا على من عمل صالحًا؛ فإنه يكون أقرب إلى رحمة الله عَزَّوَجَلَّ وعفوه ومغفرته، كما قال في آية أخرى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران:١٣١-١٣٢].

وإن من أسباب العافية والهداية: امتثالُ ما أمَرَ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ به، واجتناب ما نَهى الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ عنه، واتقاء ما تُوعِّد عليه بالنَّار، في الكتاب وصحيح الأحاديث والآثار، وقد جاءت الآيات مُحَذِّرةً من النَّار، وآمرةً باتقائها. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة:٢٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣١]. وقد دلت الآية على أن المؤمن الذي يتقي النَّار بفعل المأمور واجتناب المحظور لا يُعذَّب بها.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا حال أهل النَّار، آمرًا العباد باتقائها: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾ [الزمر:١٦].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم:٦].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أنَّ الزَّمان لا يثبت على حال، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، فتارة فقر، وتارة غنى، وتارة عز، وتارة ذل، وتارة يفرح الموالي، وتارة يشمت الأعادي. فالسعيد من لازم أصلًا واحدًا على كل حال، وهو تقوى الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنه إن استغنى، زانته، وإن افتقر، فتحت له أبواب الصبر، وإن عوفي، تمت النعمة عليه، وإن ابتلي، جملته. ولا يضره إن نزل به الزمان أو صعد، أو أعراه، أو أشبعه، أو أجاعه؛ لأن جميع تلك الأشياء تزول وتتغير، والتقوى أصل السلامة، حارس لا ينام، يأخذ باليد عند العثرة، ويواقف على الحدود. والمنكر من غرته لذة حصلت مع عدم التقوى، فإنها ستحول، وتخليه خاسرًا.

ولازم التقوى في كل حال، فإنك لا ترى في الضيق إلا السعة، وفي المرض إلا العافية، هذا نقدها العاجل، والآجل معلوم"(١).

وقد أخرج الحاكم: عن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم:٦]، قال: «**علموا أنفسكم وأهليكم الخير**»(٢)، وقد دلَّ على أن العبدَ يبدأ بإصلاح نفسه، ثم الأقرب فالأقرب.

قال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾: "أي: فقِّهوهم، وأدِّبوهم، وادعوهم إلى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وامنعوهم عن استحقاق العقوبة

---

(١) صيد الخاطر (ص:١٣٧).

(٢) أخرجه الحاكم في (المستدرك) وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي. قال الحافظ في (الفتح) (٨/٦٥٩): "رواته ثقات". وأخرجه كذلك البيهقي في (شعب الإيمان) [٨٣٣١].

بإرشادهم وتعليمهم. ودلت الآية: على وجوب الأمر بالمعروف في الدين للأقرب فالأقرب.

وقيل: أظهروا من أنفسكم العبادات؛ ليتعلَّموا منكم، ويعتادوا كعادتكم. ويقال: دلُّوهم على السُّنَّة والجماعة. ويقال: علِّموهم الأخلاق الحسان. ويقال: مروهم بقبول النصيحة"(١).

وفي معنى هذه الآية قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع**» (٢).

قال الفقهاء رَحِمَهُمُٱللَّهُ: وهكذا في الصوم؛ ليكون ذلك تمرينًا لهم على العبادة؛ لكي يبلغوا وهم مستمرون على العبادة والطاعة، ومجانبة المعصية وترك المنكر (٣).

والصيام يعزز شعور المراقبة فهو جُنَّة ووجاء. وقل مثل ذلك في سائر العبادات والتكاليف؛ فإن لها مقاصد سامية ترتقي بالمكلف، وتصلح أحواله.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُٱللَّهُ: "فواجبٌ على كلِّ مسلم أن يعلِّمَ أهله ما بهم الحاجة إليه من أمر دينهم، وينهاهم عما لا يحلُّ لهم"(٤).

---

(١) لطائف الإشارات (٣/٦٠٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٨٢]، وأحمد [٦٦٨٩]، وأبو داود [٤٩٥]، والخرائطي في (مكارم الأخلاق [٤٥٧]، والدارقطني [٨٨٧]، والحاكم [٧٠٨]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٠/٢٦)، والبيهقي في (السنن الكبرى) [٣٢٣٣]، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. قال الإمام النووي في (رياض الصالحين) (ص:١٢٦): "رواه أبو داود بإسناد حسن".

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٨/١٨٩).

(٤) الاستذكار (٣/٧٢).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ محذرًا مِن النَّار مَنْ خالف أمره فسلكَ طريق الشَّقاء، ومبينًا للعباد أن التقوى هي سبيلُ النَّجاة من النَّار: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤﴾ [الليل:١٤]، أي: تتلظى وتتوهج. ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥﴾ [الليل:١٥]، أي: لا يعذب بها إلا الأشقى، وهو: ﴿ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦﴾ [الليل:١٦]، يعنى: كفر. ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨﴾ [الليل:١٧-١٨]، أي: إن الأتقى هو يعطى الزكاة المفروضة، ويتطهر من الذنوب. قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قرأ عمر بن عبد العزيز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الصلاة، فلما بلغ: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ١٤﴾، خنقته العَبْرة فسكت، ثم قرأ فنابه ذلك، ثم قرأ فنابه ذلك، فتركها وقرأ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١﴾ [الطارق:١] [1].

خامسًا: صيانة النفس والجسد:

إن مما يدخل في معنى التقوى: صيانة النفس والجسد عما يضر بهما.

وإن من صور الخيانة: خيانة النفس، وذلك بعدم صيانتها عما يضر بها في المآل؛ وخيانة الجسد يكون كذلك بعدم صيانته عما يلحق الضر به، وعدم اتخاذ أسباب الوقاية من ذلك من نحو: الإهمال في معالجة الأمراض، والتعرض لمسبباتها، كإهمال النظافة والطهارة، ومخالطة أصحاب الأوبئة.

ومن ذلك: تناول ما يضر بالجسد من الأكل والشرب، من نحو: أكلِ المال الحرام، وشربِ المسكرات، والتدخين، ونحو: التهاون فيما يجب تناوله من الدواء

(١) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢/٣٤٤)، البيان والتحصيل (١٧/٥٧٠).

والطعام في وقت المرض، وفيما يجب البعد عنه، فكثير من مرضى السكر -مثلًا- يكثر من تناول السكر الذي يلحق به الضرَّ ويعرضه لمضاعفات المرض.

ومن ذلك: الانتحار، وهو من كبائر الذنوب؛ لأن الإنسان لا يملك نفسها، وإنما هي ملك لخالقها وبارئها جَلَّوَعَلَا.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥].

ومن ذلك: مخالطة أصحاب الأوبئة:

وفي الحديث: «**لا يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ**»[١]، أي: لا يورد صَاحِبُ الْإِبِلِ الْمِرَاضِ إِبِلَهُ على إِبِلِ صاحب الإبل الصِّحَاحِ، فالْمُمْرِضُ: صاحب الإبل الْمِرَاضِ، والْمُصِحُّ: صَاحِبُ الإبل الصِّحَاحِ.

وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وفِرَّ من المجْذُومِ كما تَفِرُّ من الأَسَد**»[٢].

وعن عمرو بن الشريد، عن أبيه، قال: كان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنا قد بايعناك فارجع**»[٣].

وعن عامر بن سعد، أخبره أن رجلًا سأل سعد بن أبي وقاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن الطاعون، فقال أسامة بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أنا أخبرك عنه، قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**هو عذاب أو رِجْزٌ أرسله الله على طائفة من بني إسرائيل، أو ناس كانوا**

---

(١) صحيح البخاري [٥٧٧١]، مسلم [٢٢٢١].

(٢) صحيح البخاري [٥٧٠٧].

(٣) صحيح مسلم [٢٢٣١].

قبلكم، فإذا سمعتم به بأرض، فلا تدخلوا عليه، وإذا دخلها عليكم، فلا تخرجوا منها فرارًا» [1].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد يسقم الإنسان؛ لمصاحبة السقيم من جهة أن الرائحة كانت سببًا في المرض، والله عَزَّوَجَلَّ قد يعمل الأسباب، وقد يبطلها"[2]. فيمرض من يمرض بسبب المخالطة، ولا يصاب آخرون؛ لأن الأمر بيد الله عَزَّوَجَلَّ، ومن حكمة الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الحياة: ربط الأسباب بمسبباتها.

أما قول إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء:٨٠]، فهو من باب الأدب مع الله عَزَّوَجَلَّ، حيث أسند المرض إلى نفسه، والشفاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ تأدبًا. كما قال الخضر عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف:٧٩]، يعني: السفينة، فأسند ذلك إلى نفسه، وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف:٨٢]، فأسند ذلك إلى ربه جَلَّ وَعَلَا.

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما قال إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿مَرِضْتُ﴾ دون: (أمرضني)؛ لأنَّ كثيرًا من أسباب المرض يحدث بتفريط من الإنسان في مطاعمه ومشاربه. ومن ثم قالت الحكماء: لو قيل لأكثر الموتى: ما سبب آجالكم؟ لقالوا: التخم"[3]؛ ذلك لأن أكثر أسباب المرض وإن كانت في الحقيقة من الله عَزَّوَجَلَّ، إلا أنها تحدث من التفريط في الأكل والشرب، وعدم الوقاية من الحر والبرد والمخالطة.

---

(١) صحيح البخاري [٣٤٧٣]، وأخرجه مسلم [٢٢١٨]، واللفظ له.

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٤٧٢/٢).

(٣) الكشاف (٣١٩/٣)، وانظر: مفاتيح الغيب (٥١٢/١٤)، غرائب القرآن (٢٧٤/٥).

وقال ابن الرومي:

عَدُوُّكَ من صديقك مستفادٌ فلا تَسْتَكْثِرَنَّ مِن الصِّحَابِ
فإنَّ الدَّاءَ أكثرَ ما تراه يكون من الطَّعام أو الشَّرَابِ [(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيتعاطى العبد أسباب المرض حتى يمرض، فيعاقبه الله عَزَّوَجَلَّ بزيادة المرض؛ لإيثاره أسبابه، وتعاطيه لها"[(٢)].

وإذا كانت العناية بالجسد واجبة فإن العنايةَ بأمراض القلوب أولى، وهي مقدَّمةٌ على العناية بالأمراض التي تصيب الجسد.

وفي الوقت الذي يخشى فيه العالم من تفشي المرض والوباء الذي قد يفتك بأبدانهم، فإن قلوب كثير منهم تمتلئ بأمراض هي أشد فتكًا، وأعظم ضررًا بدينهم ودنياهم وآخرتهم، من نحو: الحسد، والكبر، والغرور، والخيانة، والغش، والبخل، وسوء الخلق.. إلى غير ذلك. «**وإن في الجسد مضغة: إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[(٣)]، فكما نحرص على وقاية أبداننا فلنكن أشد وقاية لقلوبنا.

ومن خيانة الجسد: خيانة السمع، والبصر، واليدين والرجلين، وسائر الجوارح، وذلك باستعمالها فيما حرَّم الله جَلَّوَعَلَا على العباد، من نحو: النظر إلى المحرمات،

(١) ديوان ابن الرومي (١/١٤٩).
(٢) شفاء العليل (ص:٩٩).
(٣) صحيح البخاري [٥٢]، مسلم [١٥٩٩].

والتجسس، والبطش والظلم، والإيذاء وإلحاق الضرر بالآخرين، والمشي إلى أماكن الفجور بقصد المعصية، ومن ذلك: عدم ستر العورة على وفق الشرع...إلى غير ذلك.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء:٣٦].

ومن خيانة النفس: الجهل بما يجب على المكلف معرفته، وحملها على الكفر أو المعاصي، ولا سيما معاصي الخلوات.

ومن خيانة النفس: عدم الإخلاص في العمل والعبادة، والإعراض عن الهدى، والغفلة عن آيات الله عَزَّوَجَلَّ في الخلق، وعن الغاية من الوجود، وعن المآل والعاقبة، والتفريط في تحري الحق، واتباع الهوى والشهوات، والرضا عن النفس، وعدم الارتقاء بها في مدارج الكمال.

والحاصل أن من أورد نفسه المهالك فقد خانها، ولم يصنها.

ومن نظر إلى المآل والعاقبة صان نفسه، وارتقى بها، واتبع السبل الموصلة إلى سعادتها.

وقد فصَّلتُ القولَ في ذلك في كتاب: (الخيانة صورها وأحكامها وآثارها في ضوء الكتاب والسنة).

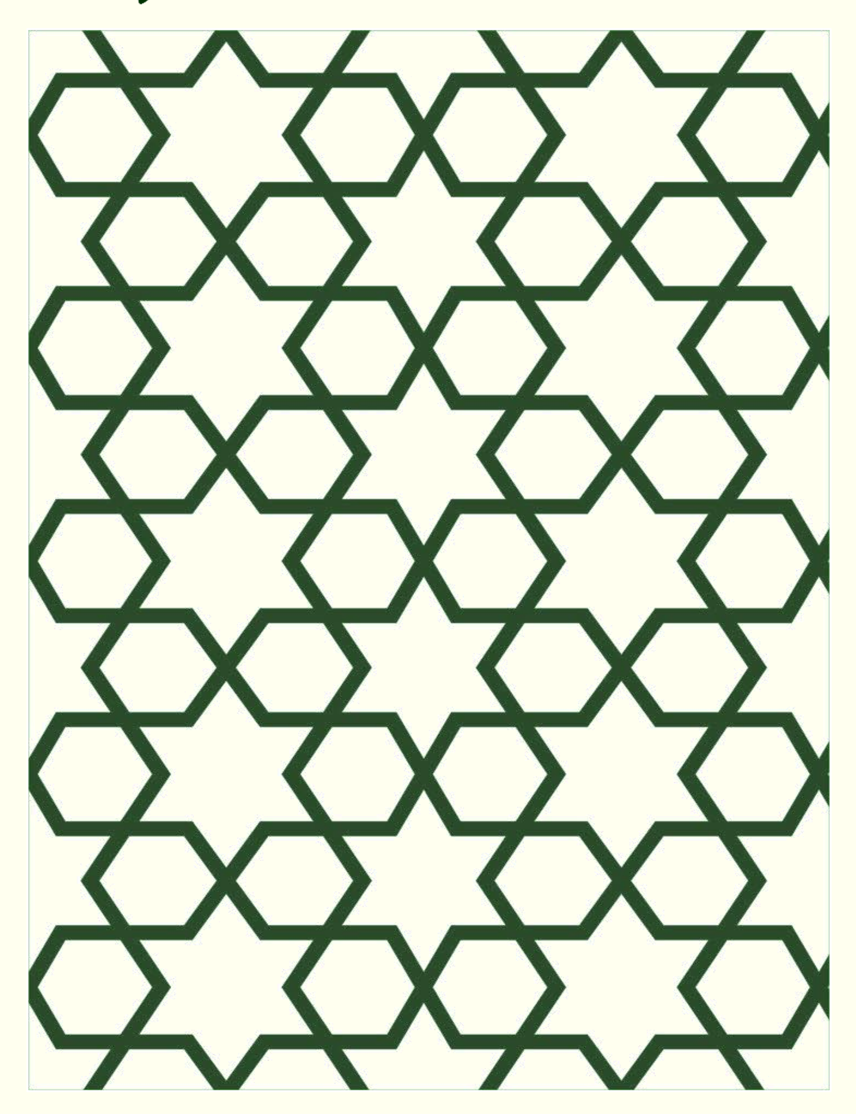
الإرشاد إلى أسباب النجاة



المبحث الرابع:

الاستقامة والثبات وملازمة الصراط

الإرشاد إلى أسباب النجاة



أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ أن نسأله الهدية إلى الصراط المستقيم، فقال معلِّمًا للعباد أن يقولوا في صلاتهم ودعائهم: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة:٦-٧]، وسؤال الهداية يتضمن: معرفة الحق، والتوفيق للعمل به، فيكون المعنى، كما ذكر ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفّقنا للثبات على ما ارتضيتَه ووَفّقتَ له مَنْ أنعمتَ عليه من عبادِك، من قولٍ وعمل، وذلك هو الصِّراط المستقيم؛ لأن من وُفّق لما وفق له من أنعم الله عَزَّوَجَلَّ عليه من النبيّين والصديقين والشهداء، فقد وُفّق للإسلام، وتصديقِ الرسلِ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، والتمسكِ بالكتاب، والعملِ بما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به، والانزجار عمَّا زَجره عنه، واتّباع منهج النبيّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنهاج أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وكلِّ عبدٍ لله عَزَّوَجَلَّ صالحٍ، وكل ذلك من الصراط المستقيم"(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة:٦]: "والصراط المستقيم يتضمن: معرفة الحق، والعمل به"(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والهداية: معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله عَزَّوَجَلَّ عالما بالحق عاملًا به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء"(٣).

---

(١) تفسير الطبري (١/١٧١).

(٢) منهاج السنة النبوية (١/١٩).

(٣) شفاء العليل (ص:٥٣).

ومن زرع في حياته خيرًا من قول أو عمل، حصد في الآخرة الكرامة، ومن زرع شرًّا من قول أو عمل، حصد غدًا الندامة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر:٢٣-٢٤].

ومن الخير: الدعاء بما أرشد إليه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جوامع كلمه مما يعمُّ خير الدنيا والآخرة، ومن ذلك: ما روته أم المؤمنين عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: دخل عَلَيَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا أُصَلِّي، وله حاجة، فأبطأت عليه، قال: «**يا عائشة: بِجُمَلِ الدُّعَاء وجوامِعِه**»، فلما انصرفت قلت: يا رسول الله، وما جُمَلُ الدُّعاء وجوامعُهُ؟ قال: «**قولي: اللهم إني أسألك من الخير كله، عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل، وأسألك مما سألك به محمد** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وأعوذ بك مما تعوذ منه محمد** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وما قضيت لي من قضاء فاجعل عاقبته رُشْدًا**» (١).

وهذا من جوامع الكلم والدعاء. وقيل: هو أجمع ما ورد في الدعاء (٢)؛ فإن فيه سؤال كل خير، والاستعاذة من كل شر.

---

(١) أخرجه الطيالسي [١٦٧٤]، وابن أبي شيبة [٢٩٣٤٥]، وإسحاق بن راهويه [١١٦٥]، وأحمد [٢٥٠١٩]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٣٩] واللفظ له، وابن ماجه [٣٨٤٦]، وأبو يعلى [٤٤٧٣]، وابن حبان [٨٦٩]، والطبراني في (الدعاء) [١٣٤٧]، والحاكم [١٩١٤]، وصححه، والبيهقي في (الدعوات الكبير) [٢٠٢].

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح (١٧٣٩/٥).

قال الحليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا من جوامع الكلم التي استحب الشارع الدعاء بها؛ لأنه إذا دعا بهذا فقد سأل الله عَزَّوَجَلَّ من كل خير، وتعوذ به من كل شر.."(١).

وقال الأمير الصنعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحديث تضمن الدعاء بخير الدنيا والآخرة، والاستعاذة من شرهما، وسؤال الجنة وأعمالها، وسؤال أن يجعل الله كل قضاء خيرًا، وكأن المراد سؤال اعتقاد العبد أن كل ما أصابه خير، وإلا فإن كل قضاء قضى الله عَزَّوَجَلَّ به خير، وإن رآه العبد شرًّا في الصورة. وفيه: أنه ينبغي للعبد تعليم أهله أحسن الأدعية؛ لأن كل خير ينالونه فهو له، وكل شر يصيبهم فهو مضرة عليه"(٢).

ومن جوامع الكلم من دعائه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما جاء عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله، يقلبها كيف يشاء**» (٣).

ومن جوامع الكلم من دعائه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما جاء في (الصحيح): «**اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**» (٤). أرشد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته

---

(١) فيض القدير (٢/١٢٨).

(٢) سبل السلام (٢/٧١٧).

(٣) تقدم.

(٤) صحيح مسلم [٧٧٠].

إلى هذا الدعاء؛ لما فيه الخير وحسن العاقبة، فلا خير أعظم من الهداية، وإصابة الحق، والثبات على صراط الله عَزَّوَجَلَّ المستقيم، الذي شرعه لعباده.

وقد أجمع السلف على أنَّ الإيمان: قول وعمل، يزيد وينقص. ثم إنه إذا أطلق دخلت فيه الأعمال؛ لقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمان بضع وسبعون –أو بضع وستون– شعبة، فأفضلها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»(1).

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مذهب جماعة أهل السنة: أن الإيمان قول وعمل، قال أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهو قول مالك، والثوري، والأوزاعي رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، ومن بعدهم من أرباب العلم والسنة، الذين كانوا مصابيح الهدى، وأئمة الدين من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم. وهذا المعنى أراد الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ إثباته في كتاب: (الإيمان)، وعليه بوَّب أبوابه كلها، فقال: باب: أمور الإيمان، وباب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، وباب: إطعام الطعام من الإيمان، وباب: من الإيمان: أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وباب: حب الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الإيمان، وباب: الصلاة من الإيمان، وباب: الزكاة من الإيمان، وباب: الجهاد من الإيمان، وسائر أبوابه"(2).

---

(١) صحيح مسلم [٣٥]. وعند الإمام البخاري [٩]، وعند مسلم في رواية: «الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء شعبة من الإيمان».

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/٧٩)، وانظر: وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١/١٤٧).

وقال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مذهب جماعة أهل السنة من سلف الأمة وخلفها: أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص [1]، بدليل قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ [الفتح:٤]، ونحوها من الآيات.

قال بعض العلماء: نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص، والإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة ثمراته -وهي الأعمال- ونقصانها.

قالوا: وفي هذا توفيق بين ظواهر النصوص التي جاءت بالزيادة، وبين أصل وضعه في اللغة، وهذا الذي قاله هؤلاء وإن كان ظاهرًا فالأظهر -والله أعلم-: أن التصديق يزيد بكثرة النظر، وتظاهر الأدلة؛ ولهذا يكون إيمان الصِّدِّقين أقوى من إيمان غيرهم، بحيث لا تعتريهم الشُّبَهُ، ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيّرة -وإن اختلفت عليهم الأحوال-، فأما غيرهم من المؤلَّفة ومن قاربهم فليسوا كذلك، وهذا لا يمكن إنكاره.

ولا يُشَكُّ في أنَّ نفس تصديق أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لا يساويه آحاد تصديق الناس؛ ولهذا قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (صحيحه): قال ابن أبي مُلَيْكَةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل [2]. وأما إطلاق اسم: (الإيمان) على الأعمال

(١) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٥٦/١-٥٧).

(٢) ذكره الإمام البخاري في (صحيحه) (١٨/١) مُعلقًا.

فمتفق عليه عند أهل الحق، ودلائله أكثر من أن تحصر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ﴾ [البقرة:١٤٣](١).

وقال الشيخ أبو المظفر السمعاني رَحِمَهُٱللَّهُ: "والإيمان في الشريعة يشتمل على الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان.

وقيل: الإيمان مأخوذ من الأمان، فسمى المؤمن: مؤمنًا؛ لأنه يؤمن نفسه من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، والله عَزَّوَجَلَّ مؤمن؛ لأنه يؤمن العباد من عذابه"(٢).

قال الفخر الرازي رَحِمَهُٱللَّهُ في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١]: "أصناف العبودية ثلاثة أقسام: التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح، فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ إشارة إلى عبودية اللسان. وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ إشارة إلى عبودية الجوارح والأعضاء، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إشارة إلى عبودية القلب والفكر والروح، والإنسان ليس إلا هذا المجموع، فإذا كان اللسان مستغرقًا في الذكر، والأركان في الشُّكر، والجنان في الفكر، كان هذا العبد مستغرقًا بجميع أجزائه في العبودية، فالآية

---

(١) شرح الأربعين حديثًا النووية، للحافظ ابن حجر (ص:٩٠-٩١)، بتحقيق: الدكتور رياض منسي العيسى، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١/١٤٤-١٥٠).

(٢) تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (١/٤٣)، وانظر: معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (١/٨١-٨٢).

الأولى دالة على كمال الربوبية، وهذه الآية دالة على كمال العبودية، فما أحسن هذا الترتيب في جذب الأرواح من الخلق إلى الحق، وفي نقل الأسرار من جانب عالم الغرور إلى جناب الملك الغفور"(١).

وقال في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ [الحجرات:٧] "الكفر والفسوق والعصيان في مقابلة الإيمان الكامل؛ لأن الإيمان الكامل المزين، هو أن يجمع التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان"(٢).

فإذا حبب إليهم الإيمان، الجامع للخصال الثلاث، لزم كراهتهم لأضدادها، فلذلك قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ﴾ الذي هو مقابلة التصديق بالجنان، والفسوق الذي هو مقابلة الإقرار باللسان، والعصيان الذي هو مقابلة العمل بالأركان.

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تهذيب الآثار): "المعنى الذي به يستحق العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إتيانه بهذه المعاني الثلاثة: (التصديق بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالجوارح)، وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أنه لو أقرَّ وعمل على غير علم منه ومعرفة بربه جَلَّ وَعَلَا أنه لا يستحق اسم: (مؤمن)، وأنه لو عرفه وعمل وجحد بلسانه وكذب وأنكر ما عرف من توحيد ربه جَلَّ وَعَلَا أنه غير مستحق اسم: (مؤمن)، وكذلك لو أقر بالله عَزَّ وَجَلَّ وبرسله عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ولم يعمل الفرائض لا يسمى: مؤمنًا بالإطلاق، وإن كان في كلام العرب قد يجوز أن يسمى بالتصديق: مؤمنًا، فهو

(١) مفاتيح الغيب (٩/٤٥٩).

(٢) المصدر السابق (٢٨/١٠٢).

غير مستحق ذلك الاسم في حكم الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:٢-٤]، فأخبرنا الله عَزَّوَجَلَّ أن المؤمن من كانت هذه صفته"(١).

وفي (شرح السُّنة): "إن الإيمان قول، وعمل، وعقيدة، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية. واتفقوا على تفاضل أهل الإيمان في الإيمان وتباينهم في درجاته"(٢).

وقد قال يحيى بن سلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين سئل بالقيروان: ما أدركت النّاس يقولون في الإيمان؟ فأجاب: أدركت مالكًا، وسفيان الثوري رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ، وغيرهم يقولون: الإيمان قول وعمل (٣).

فيجب على كل من أراد النجاة: أن يسلك طريق السلامة، الذي يأمن فيه من الزيغ والضَّلال في الاعتقاد والسُّلوك، وأن يستقيم على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وعبادته حتى يأتيه الموت وهو على ذلك، وقد قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر:٩٩].

---

(١) تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأخبار، لابن جرير الطبري (٢/٦٨٤).
وانظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/٥٨)، شرح النووي على صحيح مسلم (١/١٤٦)، حاشية الطيبي على الكشاف (٧/١٤-١٥).

(٢) شرح السنة، للبغوي (١/٣٩-٤٠).

(3) التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه، ليحيى بن سلام (ص:٦٠-٦١).

والاستقامة مصدر استقام، قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاستقامة: الاعتدال. يقال: استقام له الأمر. وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ [فصلت:٦]، أي: في التَّوجه إليه دون الآلهة. وقومت الشيء فهو قويم، أي: مستقيم"(١).

وقال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاستقامة: هي كون الخط بحيث تنطبق أجزاؤه المفروضة بعضها على بعض على جميع الأوضاع.

وفي الاصطلاح: هي الوفاء بالعهود كلها، وملازمة الصِّراط المستقيم برعاية حدِّ التَّوسط في كلِّ الأمور، من الطَّعام والشَّراب واللباس، وفي كلِّ أمر ديني ودنيوي، فذلك هو الصِّراط المستقيم. والاستقامة: أن يجمع بين أداء الطاعة واجتناب المعاصي، وقيل: الاستقامة ضد الاعوجاج، وهي مرور العبد في طريق العبودية بإرشاد الشرع والعقل. والاستقامة: المداومة. وقيل: الاستقامة: ألا تختار على الله شيئًا"(٢).

وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاستقامة: هي سلوك الصراط المستقيم، وهو الدين القيم من غير تعريج عنه يمنة ولا يسرة، ويشمل ذلك فعل الطاعات كلها، الظاهرة والباطنة، وترك المنهيات كلها كذلك، فصارت هذه الوصية جامعة لخصال الدين كلها"(٣).

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (قوم) (٥/٢٠١٧).

(٢) التعريفات (ص:١٩)، بتصرف يسير، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٤٩).

(٣) جامع العلوم والحكم (١/٥١٠).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاستقامةُ كنايةٌ عن التَّمسُّكِ بأمر الله عَزَّوَجَلَّ فعلًا وتركًا"(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود:١١٢]. فجعل الاستقامة في مقابل اتباع الهوى والطُّغيان والضَّلال. قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فأمره أن يستقيم هو ومن تاب معه، وأن لا يجاوزوا ما أمروا به، وهو الطُّغيان، وأخبر أنه بصير بأعمالكم، مطلع عليها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى:١٥]"(٢). والطغيان أصله: التَّعاظم والجراءة وقلَّة الاكتراث(٣). قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والظَّاهر أنَّ هذا أمرٌ بالدَّوام على الاستقامة، وهي لزوم المنهج المستقيم، وهو المتوسط بين الإفراط والتفريط، وهي كلمة جامعة لكل ما يتعلق بالعلم والعمل وسائر الأخلاق، فتشمل العقائد والأعمال المشتركة بينه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين سائر المؤمنين، والأمور الخاصَّة به عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من تبليغ الأحكام، والقيام بوظائف النبوة، وتحمل أعباء الرسالة وغير ذلك"(٤).

---

(١) فتح الباري (١٣/٢٥٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٥٠٩).

(٣) التحرير والتنوير (١٢/١٧٧).

(٤) روح المعاني (٦/ ٣٤٥).

وفي الحديث: عن سفيان بن عبد الله الثَّقفيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، وفي رواية: غيرك قال: «**قل: آمنت بالله ثمَّ استقم**»(١).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا من جوامع كلمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مطابق لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت:٣٠]، أي: وحَّدوا الله وآمنوا به، ثمَّ استقاموا فلم يحيدوا عن توحيدهم ولا أشركوا به غيره، والتزموا طاعته إلى أن توفوا على ذلك"(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "الاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين. وهي القيام بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد. والاستقامة تتعلق بالأقوال، والأفعال، والأحوال، والنيات. فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله، وعلى أمر الله"(٣).

وذكر الإمام الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ خمسة أوجه من معاني الاستقامة في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١﴾ [فصلت:٣٠-٣١] على النحو التالي:

---

(١) صحيح مسلم [٣٨].

(٢) إكمال المعلم، للقاضي عياض (٢٠١/١)، وانظر: شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٩/٢).

(٣) مدارج السالكين (١٠٦/٢).

"**أحدها**: ثمَّ استقاموا على أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ ربَّهم وحده، وهو قول أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ومجاهد.

الثّاني: استقاموا على طاعته وأداء فرائضه، قاله: ابن عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا والحسن وقتادة رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.

الثّالث: على إخلاص الدِّين والعمل إلى الموت، قاله أبو العالية والسدي رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.

الرّابع: ثمَّ استقاموا في أفعالهم كما استقاموا في أقوالهم.

الخامس: ثمَّ استقاموا سرًّا كما استقاموا جهرًا.

قال: ويحتمل سادسًا: أنَّ الاستقامة أن يجمع بين فعل الطَّاعات واجتناب المعاصي؛ لأنَّ التَّكليف يشتمل على أمر بطاعة يبعث على الرَّغبة، ونهي عن معصية يدعو إلى الرَّهبة"(١).

وفي (الكشاف): "أي ثم ثبتوا على الإقرار ومقتضياته"(٢). قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأراد أن من قال: ربي الله جَلَّ وَعَلَا، فقد اعترف أنه عَزَّوَجَلَّ مالكه ومدبر أمره ومربيه، وأنه عبد مربوب بين يدي مولاه، فالثبات على مقتضاه: أن لا تزل قدمه عن طريق العبودية قلبًا وقالبًا، ولا يتخطاه، وفيه يندرج كل العبادات والاعتقادات"(٣).

---

(١) تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٥/١٧٩-١٨٠).

(٢) الكشاف (٤/١٩٨).

(٣) روح المعاني (١٢/٣٧٢).

فإذا تمهد لك ذلك علمتَ أن ما يقابل طريقَ الاستقامة: طرقٌ ملتويةٌ، ومتاهاتٌ مُضِلَّة، وإنما تنشأُ التَّأويلاتُ المضِلَّة لمفهوم الاستقامة عن جهلٍ مركب، أو سوءِ فهمٍ، عن مكابرة في ركوب الضلال؛ لمصالح وغايات دنيوية.

إن الثبات على دين الله عَزَّوَجَلَّ يعني: عدم الزيغ، وعدم الركون إلى الباطل، وملازمة الصراط المستقيم.

والله عَزَّوَجَلَّ يعين العبد الذي يطلب الهداية والثبات، مخلصًا له الدين، ويستمسك بصراط الله عَزَّوَجَلَّ المستقم، الذي إليه تصير الأمور، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ [إبراهيم:٢٧].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فأخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنه ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بإيمانهم. ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ أحوج ما يكونون إليه في الدنيا والآخرة، وأنه يضل الظالمين، وهم المشركون، عن القول الثابت، فأضل هؤلاء بعدله؛ لظلمهم، وثبت المؤمنين بفضله؛ لإيمانهم.

وتحت قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ [إبراهيم:٢٧] كنز عظيم من وفق لمظنته وأحسن استخراجه واقتناءه وأنفق منه فقد غنم، ومن حرمه فقد حرم، وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله عَزَّوَجَلَّ له طرفة عين، فإن لم يثبته، وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ لأكرم خلقه عليه عبده ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ

شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ [الإسراء:٧٤]، وقال جَلَّوَعَلَا لأكرم خلقه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ [الأنفال:١٢].

قال: فالخلق كلهم قسمان: موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت، ومادة التثبيت أصله ومنشؤه من القول الثابت، وفعل ما أمر به العبد، فبهما يثبت الله عَزَّوَجَلَّ عبده، فكل من كان أثبت قولًا، وأحسن فعلًا كان أعظم تثبيتًا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾ [النساء:٦٦]، فأثبت الناس قلبًا: أثبتهم قولًا، والقول الثابت هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب.

فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له، وأثبت القول: كلمة التوحيد ولوازمها، فهي أعظم ما يثبت الله عَزَّوَجَلَّ بها عبده في الدنيا والآخرة؛ ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبًا، والكاذب من أمهن الناس، وأخبثهم، وأكثرهم تلوثًا، وأقلهم ثباتًا، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الإخبار، وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك؛ ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة"(١).

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/١٣٥-١٣٦).

المبحث الخامس:

العبادات

الإرشاد إلى أسباب النجاة

توطئة:

لا بدَّ لكلٍّ من أراد النَّجاة من العلم الذي يتعيَّن عليه ولا يصح إيمانه وعمله إلا به، فلا يتحقق الإيمان وما يقتضيه من الإذعان والعمل إلا بمعرفة أصول الإيمان، وأركان الإسلام، وما يلزم المكلف من الفقه في العبادات أو المعاملات، حتى تكون عبادته وجميع معاملاته على وفق منهج الله عَزَّوَجَلَّ الذي شرعه لعباده.

وأما العلم بتفاصيل العلوم الشرعية وفروعها، وجزئيات المسائل، والتعمق في العلوم، والتخصص فيها، فتندرج تحت فروض الكفاية.

أولًا: تعريف العبادة وبيان أقسامها وشروطها:

١ – تعريف العبادة في اللغة:

أصل العبادة في اللغة: الْخُضُوعُ والذُّلُّ، من قولهم: طريق مُعَبَّد: أي: مذلل. يقال: عَبَد الله عَزَّوَجَلَّ عبادَة وعبودية، أي: انْقَادَ له وخضع.

وعَبَدْتُ اللَّهَ عَزَّوَجَلَّ أَعْبُدُهُ عِبَادَةً، وهي: الانقيادُ والخضوعُ، والفاعل: عَابِدٌ، والجمع: عُبَّادٌ، وعَبَدَةٌ، مثلُ: كافر، وكُفَّار، وكَفَرَة، ثم استعمل فيمن اتَّخَذَ إلهًا غير الله عَزَّوَجَلَّ، وتَقَرَّبَ إليه فقيل: عابِدُ الْوَثَنِ والشَّمْس، وغير ذلك.. [(١)].

وفي (الصحاح): "(الْعَبْدُ) خلاف الحُرِّ، والجمع: (عَبِيدٌ) مثل: كَلْبٍ وكَلِيب، وهو جمع عَزِيزٌ، و(أَعْبُدٌ) و(عِبَادٌ) و(عُبْدَانٌ) -بالضم- كَتَمْرٍ وتُمْرَان، و(عِبْدَانٌ)

(١) انظر: المصباح المنير، مادة: (عبد) (٢/٣٨٩)، جمهرة اللغة (١/٢٩٩).

-بالكسر- كَجَحْشٍ وجِحْشَان. و(عِبِدَّانٌ) -بالكسر وتشديد الدَّال- و(عِبِدَّى) -بالكسر وتشديد الدَّال- مقصور وممدود، و(مَعْبُودَاءُ) -بالمدِّ- و(عُبُدٌ) -بضمَّتين- مِثْلُ: سَقْفٍ وَسُقُفٍ.

و(التَّعْبِيدُ) التَّذْلِيلُ. يقال: طريقٌ (مُعَبَّدٌ). و(التَّعْبِيدُ) أيضًا: (الِاسْتِعْبَادُ)، وهو اتِّخَاذُ الشَّخْصِ عَبْدًا، وكذا: (الِاعْتِبَادُ). و(الْعبادة): الطَّاعة. و(التَّعَبُّد): التَّنَسُّك [1].

وفي (العين): العبد: المملوك. وجماعتهم: العبيد، وهم العباد أيضًا، إلا أن العامة اجتمعوا على تفرقة ما بين عباد الله والمماليك، فقالوا: هذا عبد من عباد الله عَزَّوَجَلَّ، وهؤلاء عبيد مماليك.

ولا يقال: عبد يعبد عبادة إلا لمن يعبد الله عَزَّوَجَلَّ. ومن عبد من دونه إلها فهو من الخاسرين.

وأما عبد خدم مولاه فلا يقال: عبده. وأما عبد خدم مولاه فلا يقال: عبده. ويقال للمشركين هم عبدة الطاغوت، ويقال للمسلمين: عباد الله، يعبدون الله. والعبد: الإنسان حرًّا أو رقيقًا. والعبد: المملوك، وجمعه: عَبِيد، ورجلٌ عابِدٌ من: قوم عَبَدَةٍ، وعُبُدٍ، وعُبَّدٍ، وعُبَّاد [2].

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (عبد) (٥٠٢/٢)، مختار الصحاح (ص:١٩٨).

(٢) العين، مادة: (عبد) (٤٨/٢)، تهذيب اللغة (١٣٩/٢)، المحكم والمحيط الأعظم (٢٦/٢)، المخصص (٦٢/٤).

٢ - تعريف العبادة في الاصطلاح:

العبادة في الاصطلاح قيل هي: (**فعل يأتي به المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه** جَلَّ وَعَلَا، **وابتغاء لمرضاته**). قاله غير واحد [(١)].

وقيل هي: (**الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع، المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض؛ ولذلك اختص بها الرب** جَلَّ وَعَلَا، **فهي أخص من العبودية؛ لأنها التذلل**) [(٢)]. وقد فسر البعض العبادة بأنها: فعل ما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، والعبودية بالرضا بما فعل الله عَزَّوَجَلَّ [(٣)].

وقيل: العبودية: الوفاء بالعهود، وحفظ الحدود، والرضا بالموجود، والصبر على المفقود [(٤)]. وقالت الحكماء: العبودية: ترك العصيان، وملازمة الذل والانكسار [(٥)].

---

(١) انظر: الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب (٢/٧٩)، التعريفات، للجرجاني (ص:١٤٦)، الفروق، للقرافي (٢/٢٩)، شرح التلويح على التوضيح (١/٢٨٥)، كشف الأسرار شرح أصول البزدوي (٢/٢٨٠)، التقرير والتحبير (١/١٣٥).

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٣٥).

(٣) انظر: تفسير أبي السعود (١/١٦-١٧)، روح البيان (١٠/٥٠٧)، روح المعاني (١٥/٤٥٨).

(٤) انظر: الكشف والبيان، للثعلبي (٣/٣٠٤)، التعريفات، للجرجاني (ص:١٤٦)، ورواه البيهقي في (الزهد الكبير) [٧٤٦]: عن أبي الحسين الفارسي يقول: سمعت ابن عطاء يقول: (العبودية في أربع خصال: الوفاء بالعهود، والحفظ للحدود، والرضا بالموجود، والصبر عن المفقود)" اهـ. وانظر: الرسالة القشيرية (٢/٣٤٩).

(٥) الكشف والبيان، للثعلبي (٣/٣٠٤).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وحقيقة العبودية: الحب التام، مع الذل التام، والخضوع للمحبوب. تقول العرب: طريق معبد، أي: قد ذللته الأقدام وسهلته"[1].

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفصيل النشأتين): "(العبادة): **(فعلٌ اختياريٌّ منافٍ للشهوات البدنية، تصدر عن نية يراد بها: التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ طاعةً للشريعة)**.

فقولنا: (فعلُ اختياريٌّ): يخرج منه: الفعل التسخيري والقهري، ويدخل فيه: الترك الذي هو على سبيل الاختيار؛ فإن الترك ضربان:

١ - ضرب على سبيل الاختيار، وهو فعل.

٢ - وضرب هو العدم المطلق، لا اختيار معه، بل هو عدم الاختيار، وليس بفعل.

وبقولنا: (مناف للشهوات البدنية): يخرج منه: ما ليس بطاعة.

وأما الأفعال المباحة، كالأكل والشرب، ومجامعة المرأة، فليس بعبادة من حيث إنها شهوة، ولكنها قد تكون عبادة إذا تحري بها حكم الشريعة.

وإنما قيل: (تصدر عن نية يراد بها: التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ)؛ لأنها إن خلت عن نية، أو صدرت عن نية لم يقصد بها التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، بل أريد بها: مراءاة، لم تكن أيضًا عبادة.

(١) مدارج السالكين (٣/٣٢).

وإنما قيل: (طاعة للشريعة)؛ لأن من أنشأ من نفسه فعلًا ليس بسائغ في الشريعة لم يكن عبادة، وإن قصد به التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فالعبادة إذًا فعل يجمع هذه الأوصاف كلها"[١].

وقال الشيخ أبو المظفر، منصور بن محمد المروزي السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العبادة: **(اسم لنوع فعل ابتلى الآدمي بفعله؛ تعظيمًا** لله عَزَّوَجَلَّ، **مختارًا لطاعته، على خلاف هوى نفسه، لا على سبيل الإكراه والجبر؛ لأنه يجازى على وفاق فعله، ولا جزاء يستقيم في الحكم مع الجبر؛ فإنه لا فعل للمجبر على الحقيقة فلا يستحق الجزاء)**"[٢].

وقال الإمام السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**(العبادة: فعل خلص لله** عَزَّوَجَلَّ **بالاختيار؛ تعظيمًا له بإذنه)**"[٣].

وفي (تفسير الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "العبادة: **(التعظيم لأمر الله** عَزَّوَجَلَّ، **والشفقة على خلق الله** جَلَّوَعَلَا)، فإن هذين النوعين لم يخل شرع منهما، وأما خصوص العبادات فالشرائع مختلفة فيها بالوضع، والهيئة، والقلة والكثرة، والزمان والمكان، والشرائط والأركان"[٤].

---

(١) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (ص:٨٥).

(2) قواطع الأدلة في الأصول (٣٧٨/٢).

(٣) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم (ص:٧٥).

(٤) مفاتيح الغيب (١٩٣/٢٨).

قال الشيخ ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذه اصطلاحات لا مشاحة فيها"(١).

والعبادة في الاصطلاح -كما عرَّفها ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: "**(هي اسم جامع لكل ما يحبُّه الله** عَزَّوَجَلَّ **ويرضاه، من: الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة)**.

فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلك حب الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخشية الله عَزَّوَجَلَّ، والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله عَزَّوَجَلَّ" (٢).

ومن العلماء من قال: (العبادة) هي (الطاعة). قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كل ما كان طاعة، ومأمورًا به، فهو عبادة عند أصحابنا والمالكية والشافعية. وعند الحنفية: العبادة: ما كان من شرطها النية (٣).

وقال أبو الوليد الباجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(العبادة: هي الطاعة، والتذلل لله** عَزَّوَجَلَّ **بإتباع ما شرع)**.

---

(١) التحرير والتنوير (١/١٨٠).

(٢) انظر: العبودية، لابن تيمية (ص:٤٤)، مجموع الفتاوى (١٠/١٤٩).

(٣) انظر: المسودة في أصول الفقه (ص:٥٧٦)، شرح الكوكب المنير (١/٣٨٤-٣٨٥)، التحبير شرح التحرير (٢/٩٩٩).

قال: قولنا: (هي الطاعة) يحتمل معنيين:

أحدها: امتثال الأمر، وهو مقتضاه في اللغة، إلا أنه في اللغة واقع على كل امتثال لأمر الآمر في طاعة أو معصية، لكننا قد احترزنا من المعصية بقولنا: (والتذلل لله عَزَّوَجَلَّ)؛ لأن طاعة الباري جَلَّوَعَلَا لا يصح أن تكون معصية.

والثاني: أن الطاعة إذا أطلقت في الشرع فإنها تقتضي القربة، وطاعة الباري جَلَّوَعَلَا دون طاعة غيره"(١).

ومن العلماء من فرق بين العبادة، والطاعة، والقربة، فقال أبو هلال العسكري: "الفرق بين الطاعة والعبادة: أن العبادة: غاية الخضوع، ولا تستحق إلا بغاية الإنعام؛ ولهذا لا يجوز أن يعبد غير الله عَزَّوَجَلَّ. ولا تكون العبادة إلا مع المعرفة بالمعبود.

والطاعة: الفعل، ذلك الواقع على حسب ما أراده المريد متى كان المريد أعلى رتبة ممن يفعل ذلك، وتكون للخالق والمخلوق.

والعبادة لا تكون إلا للخالق.

والطاعة في مجاز اللغة تكون اتباع المدعو الداعي إلى ما دعاه إليه وإن لم يقصد التبع(٢)، كالإنسان يكون مطيعًا للشيطان وإن لم يقصد أن يطيعه، ولكنه ابتع دعاءه وإرادته"(٣).

---

(١) الحدود في الأصول، لأبي الوليد الباجي (ص:٥٧-٥٨).

(٢) أي: لا يشترط أن يصحب الطاعة قصد الاتباع.

(٣) الفروق اللغوية (ص:٢٢١).

وذكر شيخ الإسلام زكريا الأنصاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن (**الطاعة**): فعل ما يثاب عليه، توقف على نية أو لا، عرف ما يفعله لأجله أو لا.

و(**القربة**): فعل ما يثاب عليه بعد معرفة من يتقرب إليه به، وإن لم يتوقف على نية.

و(**العبادة**): (**ما يثاب على فعله، وما يتوقف على نية**)، فنحو: الصلوات الخمس، والصوم، والزكاة، والحج، من كل ما يتوقف على النية؛ قربة، وطاعة، وعبادة. وقراءة القرآن، والوقف، والعتق، والصدقة، ونحوها مما لا يتوقف على نية قربة وطاعة لا عبادة. والنظر المؤدي إلى معرفة الله عَزَّوَجَلَّ طاعة، لا قربة، ولا عبادة" اهـ. قال أبو العباس الحموي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (غمز عيون البصائر): وقواعد مذهبنا لا تأباه [١].

وقال ابن النجار الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكل قربة، وهي: ما قصد به التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ على وفق أمره أو نهيه طاعة، ولا عكس، أي: وليس كل طاعة قربة، لاشتراط القصد في القربة دون الطاعة، فتكون القربة أخص من الطاعة –والله أعلم–"[٢].

والعبادة تشمل العبادات القلبية، كالمحبة، والخوف، والرجاء، والتوكل.

وتشمل العبادات القولية، كالذكر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقراءة القرآن.

---

(١) انظر: غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر (٧٨/١)، رد المحتار على الدر المختار (١٠٦/١)، الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، لزكريا الأنصاري (ص:٧٧).

)2(شرح الكوكب المنير (٣٨٥/١).

وتشمل العبادات الفعلية، كالصلاة، والصوم، والحج.

وتشمل العبادات المالية، كالزكاة، وصدقة التطوع.

وتشمل كذلك الشريعة كلها، فإن العبد إذا اجتنب المحرمات، وفعل الواجبات والمندوبات والمباحات؛ مبتغيًا بذلك وجه الله عَزَّوَجَلَّ كان فعله ذلك عبادة يثاب عليها.

ثانيًا: درجات العبادة:

ذكر الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ درجات العبادة في قوله: "ثم قال أهل التحقيق: العبادة لها ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: أن يعبد الله عَزَّوَجَلَّ طمعًا في الثَّواب، أو هربًا من العقاب، وهذا هو المسمى بالعبادة، وهذه الدرجة نازلة ساقطة جدًّا؛ لأن معبوده في الحقيقة هو ذلك الثواب، وقد جعل الحق وسيلة إلى نيل المطلوب، ومن جعل المطلوب بالذات شيئًا من أحوال الخلق، وجعل الحق وسيلة إليه فهو خسيس جدًّا.

والدرجة الثانية: أن يعبد الله عَزَّوَجَلَّ لأجل أن يتشرف بعبادته، أو يتشرف بقبول تكاليفه، أو يتشرف بالانتساب إليه، وهذه الدرجة أعلى من الأولى، إلا أنها أيضًا ليست كاملة، لأن المقصود بالذات غير الله جَلَّوَعَلَا.

والدرجة الثالثة: أن يعبد الله عَزَّوَجَلَّ لكونه إلهًا وخالقًا، ولكونه عبدًا له"(١).

---

(١) مفاتيح الغيب (١/٢١٤).

ويقال: إن درجات العبادة وإن كانت متفاوتة، من حيث إن المرتبة الثالثة أشرف من الأولى والثانية؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ هو المقصود فيها بالذَّات، إلا أن العبادة لا بد أن تكون قائمة على أركان ثلاثة، هي: (المحبة، والخوف، والرجاء)، وتكون المحبة هي رأس هذه الأركان -كما سيأتيك بيانه-

والتحقيق أن يقال: إن حقيقة العبادة المستجمعة للأركان الشروط، والتي هي نهج الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحين: **(أن يكون العبد مخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ في عبادته، عالما بما تصح به العبادة، متبعًا غير مبتدع، وأن تكون المحبة رأس الأمر، وأساس الاتباع، وأن تكون كذلك طمعًا في ثوابه، وخوفًا من عقابه؛ لكونه إلهًا، وخالقًا، ومنعمًا متفضلًا، ولكون المخلوق عبدًا له، خاضعًا لأمره، ومنقلبًا إليه، وإلى ما أعدَّ للعابد من نعيمٍ، أعلاه: لذة النَّظر إلى وجهه الكريم، حيث يعز العبد الصالح ويكرم)**.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ﴾ [يونس:٢٦].

ويتبين مما تقدم أن أعلى مراتب العبودية:

١ – أن يكون الحق مقصودًا لذاته في العبادة.

٢ – أن يكون أساس الاتباع والعبادة: المحبة.

٣ – ينبغي أن تكون العبادات القلبية قائمة على أركان ثلاثة، هي: (المحبة، والخوف، والرجاء).

فلو قال: بعض مراتب العبادة أشرف من بعض من حيث كون المحبة مقدَّمة على الخوف والرجاء لكان أولى من قوله عن الدرجة الأولى: إنها نازلة وساقطة جدًّا؛ إذ إنها ليست كذلك في حالة اجتماعها مع الأركان الأخرى، بل هي وصف محمود في القرآن والسنة، وهي نهج الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والعلماء والصالحين -كما تقرر بيان ذلك في غير موضع-.

ولذلك تعقبه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: "وما ادعاه الفخر رَحِمَهُ اللَّهُ في سقوط الدرجة الأولى، ونزول مرتبتها قد غلب عليه فيه: اصطلاح غلاة الصوفية، وإلا فإن العبادة للطمع والخوف هي التي دعا إليها الإسلام في سائر إرشاده، وهي التي عليها جمهور المؤمنين، وهي غاية التكليف، كيف وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، فإن بلغ المكلف إلى المرتبتين الأخريين فذلك فضل عظيم، وقليل ما هم، على أنه لا يخلو من ملاحظة الخوف والطمع في أحوال كثيرة، نعم إن أفاضل الأمة متفاوتون في الاحتياج إلى التخويف والإطماع بمقدار تفاوتهم في العلم بأسرار التكليف ومصالحه، وتفاوتهم في التمكن من مغالبة نفوسهم، ومع ذلك لا محيص لهم عن الرجوع إلى الخوف في أحوال كثيرة، الطمع في أحوال أكثر. وأعظم دليل على ما قلنا: أن الله جَلَّ وَعَلَا مدح في كتابه المتقين في مواضع جمة، ودعا إلى التقوى، وهل التقوى إلا كاسمهما بمعنى: الخوف والاتقاء من غضب الله عَزَّ وَجَلَّ. قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾ [الإسراء:٥٧].

والمرتبة الثالثة هي التي أشار لها قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن قال له: كيف تجهد نفسك في العبادة وقد غفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**» [1]؛ لأن من الظاهر أن الشكر هنا على نعمة قد حصلت، فليس فيه حظ للنفس بالطمع في المزيد؛ لأن الغفران العام قد حصل له، فصار الشكر لأجل المشكور لا غير، وتمحض أنه لا لخوف ولا طمع"[2]. وسيأتي مزيد بيان في (الشكر).

والحاصل أن للعبادة أركانًا لا تصح بدونها، وهاك إجمال هذه الأركان:

١ – أن تكون العبادات قائمة على (المحبة، والخوف، والرجاء)، فهذه أركان العبادات القلبية –كما تقرر في غير موضع–.

٢ – أن تجمع العبادة: غاية الحبِّ وغاية الذُّلِّ والخضوع.

٣ – إخلاص العبادة لله عَزَّ وَجَلَّ.

٤ – اتباع الشرع فيما أمر به ونهى عنه من غير ابتداع.

٥ – لا بدَّ في العبادة من العلم الذي تصح به، فلا تصح العبادة إلا بالعلم والعمل.

أما ما ينقل عن بعض الغلاة من قوله: أنا أعبد الله عَزَّ وَجَلَّ ليس طمعًا في جنته، ولاخوفًا من ناره، وإنما أعبده حبًّا فهو خلاف ما كان عليه الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهم أكمل الناس عبادة؛ فإنهم عبدوا الله عَزَّ وَجَلَّ محبة، وخافوا من عذابه، ورجوا رحمته، يقول الله عَزَّ وَجَلَّ في حقِّ الرُّسل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحين والأخيار: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ

---

(١) صحيح البخاري [١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١]، مسلم [٢٨١٩].

(٢) التحرير والتنوير (١/١٨١).

فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة:٢١٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٥﴾﴾ [الأنعام:١٤-١٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحۡشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ لَيۡسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام:٥١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد:٢١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ۩ ﴿٥٠﴾ ۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل:٤٩-٥١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء:٥٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ﴿٣﴾﴾ [طه:١-٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٨﴾﴾ [النور:٣٧-٣٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا

﴿يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ [يس:١١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر:٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٢ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٣﴾ [الزمر:١١-١٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمن:٤٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [ق:٤٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان:٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النازعات:٢٦]، جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة:٧-٨].

فهذا ما شرعه الله عَزَّوَجَلَّ للعباد، وخير أسوة للناس رسل الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب:٢١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ۚ﴾ [الممتحنة:٦]. هكذا حال أولياء الله عَزَّوَجَلَّ من الرسل والأخيار والعلماء الربانيين، يعبدون الله عَزَّوَجَلَّ محبةً وخوفًا ورجاء وإخلاصًا.

وقد تقدم أن المحبة والخوف والرجاء من أعمال القلب، ومن شعب الإيمان اللازمة، فمن لا يخاف الله عَزَّوَجَلَّ لا يرجى منه خير.

ومحبة الله هي أعظم منازل العبادة، وليست هي كل العبادة -كما تقرر- . قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥]، وقال جَلَّوَعَلَا عن الملائكة: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء:٢٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠﴾ [النحل:٥٠]. فمن أراد التوفيق والهداية والنجاة فينبغي أن يجمع بين المحبة والخوف والرجاء.

وفي الحديث: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال بما يطيقون، قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه، ثم يقول: «**إن أتقاكم وأعلمكم بالله أنا**»[(١)].

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قد عَلِمْتُمْ أَنِّي أَتْقَاكُمْ لِلَّهِ وأَصْدَقُكُمْ وأَبَرُّكُمْ**»[(٢)].

عن عمر بن أبي سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سأل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُقَبِّلُ الصَّائِمُ؟ فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سل هذه**» لِأُمِّ سلمة فأخبرته، أن رسول الله

---

(١) صحيح البخاري [٢٠].

(٢) صحيح البخاري [٧٣٦٧]، مسلم [١٢١٦].

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصنع ذلك، فقال: يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال له رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أما والله، إني لأتقاكم لله، وأخشاكم له**»(١).

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: صنع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا ترخص فيه، وتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه، فوالله إني أعلمهم بالله وأشدهم له خشية**»(٢).

وفي لفظ عند مسلم: رخص رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أمر، فتنزه عنه ناس من الناس، فبلغ ذلك النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فغضب حتى بان الغضب في وجهه، ثم قال: «**ما بال أقوام يرغبون عما رخص لي فيه، فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية**».

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يسألون عن عبادة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليهم، فقال: «**أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**»(٣).

---

(١) صحيح مسلم [١١٠٨].

(٢) صحيح البخاري [٦١٠١، ٧٣٠١]، مسلم [٢٣٥٦].

(٣) صحيح البخاري [٥٠٦٣]، مسلم [١٤٠١].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن رجلًا جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستفتيه، وهي تسمع من وراء الباب، فقال: يا رسول الله، تدركني الصلاة وأنا جنب، أفأصوم؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأنا تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم**»، فقال: لست مثلنا، يا رسول الله، قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «**والله، إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقي**»(١).

وعلى قدر معرفة العبد لعيوب نفسه، ومعرفته بجلال ربه جَلَّ وَعَلَا، تكون قوة خوفه؛ ولذا كان العلماء من أكثر الناس خوفًا من الله عَزَّ وَجَلَّ، كما الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ۗ﴾ [فاطر:٢٨].

ومن الروايات الدَّالة على خشية النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند سماعه لآيات القرآن الكريم: ما جاء في الحديث: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اقرأ عَلَيَّ**»، قلت: يا رسول الله، آقْرَأُ عليك، وعليك أنزل، قال: «**نعم**» فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء:٤١]، قال: «**حَسْبُكَ الآن**»، فالتفت إليه، فإذا عيناه تَذْرِفَان (٢).

---

(١) صحيح مسلم [١١١٠].

(٢) صحيح البخاري [٤٥٨٣، ٥٠٥٠].

وعن عبد الله بن الشِّخِّير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**أتيت رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وهو يُصلِّي، ولجوْفِه أَزيزٌ كأَزيزِ المرْجَلِ من البُكَاء**» (١).

و(الأزيز) -بفتح الألف بعدها زاي مكسورة ثم تحتانية ساكنة ثم زاي أيضًا-: وهو صوت القدر. قال في (النهاية): هو أن يجيش جوفه، ويغلي من البكاء.

و (المرجل) -بكسر الميم وسكون الراء وفتح الجيم-، قدر من نحاس، وقد يطلق على كل قدر يطبخ فيها. ولعله المراد في الحديث (٢).

وفي رواية أبي داود: «**كأزيز الرحا**» يعني: الطاحون (٢).

ومن الروايات الدَّالة على خشية الصحابة الكرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ما جاء في الحديث: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خطب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: «**لو تعلمون ما أعلم لَضَحِكْتُم قليلًا، ولَبَكَيْتُم كثيرًا**»، قال: فَغَطَّى أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجُوهَهُم لهم خَنِينٌ (٣).

وقوله: «**خَنِين**» قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "هو بالخاء المعجمة، هكذا هو في معظم النسخ، ولمعظم الرواة، ولبعضهم بالحاء المهملة، وممن ذكر الوجهين القاضي،

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٠٩]، وأحمد [١٦٣١٧]، وأبو داود [٩٠٤]، والنسائي [١٢١٤]، وأبو يعلى [١٥٩٩]، وابن خزيمة [٩٠٠]، وابن حبان [٦٦٥]، والحاكم [٩٧١]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: تمام [١٦١٩]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢/٢١١)، والبيهقي [٣٣٥٦].

(٢) نيل الأوطار (٢/٣٧٥)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة (أزز) (١/٤٥).

(3) صحيح البخاري [٤٦٢١]، مسلم [٢٣٥٩].

وصاحب التحرير، وآخرون. قالوا: ومعناه بالمعجمة: صوت البكاء، وهو نوع من البكاء دون الانتحاب. قالوا: وأصل الخنين: خروج الصوت من الأنف كالحنين بالمهملة من الفم. وقال الخليل هو صوت فيه غنة"(١).

وعن عائشة -أم المؤمنين- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها قالت: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في مرضه: «**مُرُوا أبا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاس**» قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قلت إن أبا بكر إذا قام في مَقَامِكَ لم يُسْمِعِ النَّاسَ من البكاء، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاس، فقالت عائشة: فقلت لحفصةَ: قولي له: إن أبا بكر إذا قام في مَقَامِكَ لَمْ يُسْمِعِ النَّاسَ من البكاء، فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاس، فَفَعَلَتْ حَفْصَة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَهْ إِنَّكُنَّ لَأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ**» (٢).

وفي رواية: قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إنَّ أبا بكرٍ رَجُلٌ رَقِيقٌ، إذا قَرَأَ غَلَبَهُ البكاء (٣).

وفي رواية: قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إنَّ أبا بكرٍ رَجُلٌ أَسِيفٌ إن يَقُم مَقَامَكَ يبكي، فلا يَقْدِرُ على القراءة (٤). و(أسيف) يعني: سريع الحزن والبكاء.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأُبَيّ: «**إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أن أَقْرَأَ عَلَيْكَ:** ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البينة:١]» **وسَمَّانِي؟** قال: «**نَعَمْ**،» فَبَكَى.

---

(1) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/١١٢-١١٣).

(٢) صحيح البخاري [٦٧٩، ٧١٣، ٧٣٠٣]، مسلم [٤١٨].

(٣) صحيح البخاري [٦٧٨، ٦٨٢، ٣٣٨٥]، مسلم [٤١٨، ٤٢٠].

(4) صحيح البخاري [٦٦٤، ٧١٢، ٧١٣، ٣٣٨٤]، مسلم [٤١٨].

وفي رواية: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأُبَيّ: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن**»، قال أُبَيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: آللهُ سَمَّانِي لك؟ قال: «**اللهُ سَمَّاكَ لِي**» فجعل أُبَيٌّ يبكي، قال قتادة: فَأُنْبِئْتُ أنَّه قرأ عليه: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [البينة: ١](١).

وعن إبراهيم بن عبد الرَّحمن بن عوف أن عبد الرَّحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُتِيَ بِطَعَامٍ وكان صائمًا، فَقَالَ: «**قُتِلَ مصعبُ بن عُمَيْرٍ وهو خَيْرٌ مِنِّي، كُفِّنَ فِي بُرْدَة، إن غُطِّيَ رَأْسُه، بَدَتْ رِجْلاَه، وإن غُطِّيَ رِجْلاَهُ بَدَا رَأْسُه.**

-وأُرَاهُ قال: **وقُتِلَ حمزةُ وهو خَيْرٌ مِنِّي-. ثم بُسِطَ لنا من الدُّنيا ما بُسِطَ.**

-أو قال: **أُعْطِينَا من الدُّنيا ما أُعْطِينَا-، وقد خَشِينَا أن تكون حَسَنَاتُنَا عُجِّلَتْ لنا**»، ثم جَعَلَ يَبْكِي حتى ترك الطَّعَام(٢).

وعن العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**وعظنا رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **موعظة بليغة، ذرفت منها العيون..**» الحديث(٣).

(1) صحيح البخاري [٣٨٠٩، ٤٩٥٩، ٤٩٦٠]، مسلم [٧٩٩].

(٢) صحيح البخاري [١٢٧٥، ٤٠٤٥].

(٣) تقدم.

ومن الروايات الدَّالة على نهج الأبرار في اتخاذ أسباب الوقاية من النَّار: ما جاء عن كعب الأحبار رَحِمَهُ ٱللَّهُ من قوله: "لَأَنْ أَبْكِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ حتى تَسِيلَ دُمُوعِي على وَجْنَتِي أَحَبُّ إليَّ من أن أَتَصَدَّقَ بوزني ذهبًا"(١)، أو "بجبلٍ من ذَهَبٍ"(٢).

وعن أبي معشر قال: رأيت عون بن عبد الله في مجلس أبي حازم يبكي، ويمسح وجهه بدموعه. فقيل له: لم تمسح وجهك بدموعك؟ قال: بلغني أنه لا تصيب دموع الإنسان مكانًا من جسده إلا حرَّم الله عَزَّوَجَلَّ ذلك المكان على النَّار (٣).

والآثار عن السلف الدالة على مدى خوفهم من الله عَزَّوَجَلَّ، واتخاذهم أسباب الوقاية من النار، وذلك بإخلاص العمل لله عَزَّوَجَلَّ، والخشية منه جَلَّوَعَلَا كثيرة (٤).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف العلماء الربانيين: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ [الأحزاب:٣٩]. وفي ذلك ما فيه من التمييز بين العلماء وبين الأدعياء -كما سيأتي بيان ذلك-.

---

(١) ذكره ابن أبي شيبة في (مصنفه) [٣٥٥٤٤]، وأبو داود في (الزهد) [٤٥٧]، وأبو نعيم في (الحلية) (٥/٣٦٦). وانظر: جامع العلوم والحكم (٢/ ٩٢).

(٢) ذكره أبو نعيم في (الحلية) (٥/٣٦٦).

(٣) صفة الصفوة (٢/ ٥٩)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٢٨).

(٤) انظر: مختصر قيام الليل (ص:١٤٢-١٤٦)، إحياء علوم الدين (٤/١٥٧-١٨٩)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٢٦-٤١).

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يلجُ النَّارَ رجلٌ بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضَّرْع، ولا يجتمع غُبَارٌ في سبيل الله ودخانُ جهنم**» [(١)].

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**عَيْنَان لا تَمَسُّهُمَا النَّار: عَيْنٌ بَكَتْ من خَشْيَة الله، وعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ في سبيل الله** عَزَّوَجَلَّ» [(٢)].

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ليس شيء أحَبَّ إلى الله من قَطْرَتَيْن وأَثَرَيْن، قَطْرَةٌ من دموعٍ في خشية الله، وقَطْرَةُ دَمٍ تُهَرَاق في سبيل الله، وأمَّا الأَثَرَان: فَأَثَرٌ في سبيل الله، وَأَثَرٌ في فَرِيضَة من فرائض الله** عَزَّوَجَلَّ» [(٣)].

فمن أعظم أسباب الوقاية من النار: خشية الله عَزَّوَجَلَّ، والجهاد في سبيله، كما بيناه في كتاب: (نهج الأبرار)، وكذا: الرباط في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ -كما سيأتي-.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [١٩٣٦٤]، وأحمد [١٠٥٦٠]، وهناد [٤٦٥]، والترمذي [١٦٣٣]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه النسائي [٣١٠٨]، والحاكم [٧٦٦٧] وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٧٧٩].

(٢) الحديث مروي عن ابن عباس، وعن أنس. حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أخرجه الترمذي [١٦٣٩] وقال: "حسن". حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخرجه أبو يعلى [٤٣٤٦]. قال الهيثمي (٥/٢٨٨): "رواه أبو يعلى والطبراني في (الأوسط) بنحوه إلا أنه قال: (لا يريان النار). ورجال أبي يعلى ثقات". والحديث له طرق أخرى.

(٣) أخرجه الترمذي [١٦٦٩]، وقال: "حديث حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: الطبراني في (الكبير) [٧٩١٨].

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من خشية الله** عَزَّوَجَلَّ» «**من**» فيه تعليلية، أي: لخشية الله عَزَّوَجَلَّ الداعية إلى امتثال الأوامر، واجتناب النواهي [1]؛ فإن الغالب من الخشية: امتثال الطاعة، واجتناب المعصية [2].

وينبغي أن يكون ذلك حال العلماء، كما جاء: عن عبد الأعلى التيمي قال: إن من أوتي من العلم ما لا يبكيه لخليق أن قد أوتي من العلم ما لا ينفعه؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ نعت أهل العلم فقال: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾ [الإسراء:١٠٩] [3]؛ لما يزيدهم علمًا ويقينًا بأمر الله عَزَّوَجَلَّ على ما حصل عندهم من الأدلة [4].

والخوفَ من الله عَزَّوَجَلَّ مطلوب في السرِّ والعلانية من غير يأسٍ ولا قنوط، وهو الذي يُنَمِّي في العبد شعورَ المراقبة، ويحمله على الطَّاعة، فيلزم طريق الاستقامة، ويبادر إلى التوبة، ولا ينتهك محارمَ الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يقصِّر في أداء حقوق الله جَلَّوَعَلَا، وحقوق

(١) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٤/٣٦٤).

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح (٦/٢٤٧٨).

(٣) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٢٥]، والقاسم بن سلام في (فضائل القرآن) (ص:١٤٠)، وابن أبي شيبة [٣٥٣٦٠]، والدارمي [٢٩٩]، وابن جرير في (التفسير) (١٧/٥٧٩)، وأبو نعيم في (الحلية) (٥/٨٨)، وانظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٢٨٢)، المرشد الوجيز، لأبي شامة (ص:١٩٥). قال السيوطي: "أخرجه ابن المبارك، وابن أبي شيبة، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم" الدر المنثور (٥/٣٤٧).

(٤) انظر: روح المعاني (٨/١٨٠).

العباد، ويتحرَّر من آفات النَّفس، ويُخَالِق الناس بخلق حسن، فهذا هو الخوف المحمود الذي دعا إليه الشارع.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الخوف سوط الله عَزَّوَجَلَّ يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل؛ لينالوا بهما رتبة القرب من الله جَلَّ وَعَلَا"(١).

وقال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكل ما دل من الآيات والأحاديث على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف؛ لأن الخوف ثمرة العلم"(٢).

وفي الحديث: «**يقول الله** عَزَّوَجَلَّ: **وعِزَّتِي لا أجمعُ على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمنين، إذا أَمِنَنِي في الدنيا أَخَفْتُهُ يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا أَمَّنْتُهُ يوم القيامة**» (٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**سبعةٌ يُظِلُّهُم الله في ظِلّه، يوم لا ظِلَّ إلّا ظِلُّه**»، وذكر منهم: «**ورجُلٌ ذكَرَ الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **خاليًا ففاضت عيناه**» (٤).

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/١٥٧).

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٢٩).

(٣) تقدم.

(٤) صحيح البخاري [٦٦٠، ١٤٢٣، ٦٤٧٩، ٦٨٠٦]، مسلم [١٠٣١].

ومن الأحاديث الدَّالة على أن البكاء من خشية الله عَزَّوَجَلَّ سبب للنجاة والفوز: ما جاء في الحديث: وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله ما النَّجَاةُ؟ قال: «**امْلِكْ عليكَ لسانَكَ، ولْيَسَعْكَ بيتُكَ، وابْكِ على خطيئتك**» (١).

وعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طُوبَى لمن مَلَكَ لِسَانَه، ووَسِعَهُ بَيْتُه، وبكى على خطيئته**» (٢).

ثالثًا: مقام العبودية:

إنَّ الدنيا ليست دار قرار، ولكنها دار ابتلاء واختبار، والعبودية لله عَزَّوَجَلَّ تقتضي التكليف، وهو من الاختبار الذي يحقِّق في العبد أهدافًا سامية؛ لأن التكليف إذعان لشرعة الله عَزَّوَجَلَّ، العالِمِ بأحوال عباده، وبما هو أصلح وأنفع لهم، ذلك الإذعان الذي يخرج المكلَّف إلى حدِّ الإنسانية، وإلى مقام العبودية.

قال فخر الدين الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الإلهية توجب الهيبة والعزة، والعبودية توجب الخضوع والذلة، وهذا أعلى المقامات، وأشرف الدرجات، وهذا هو المسمى: بالعبودية،

---

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٣٤]، وابن وهب في (جامعه) [٣٧٤]، وأحمد [٢٢٢٣٥]، والترمذي [٢٤٠٦]، وقال: "حديث حسن". وأخرجه أيضًا: الطبراني [٧٤١]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢/٩)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٨٤]. وللحديث أطراف أخرى.

(٢) أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٢٣٤٠]، و (الصغير) [٢١٢]. وفي (الشاميين) [٥٤٨]. قال الهيثمي (١٠/ ٢٩٩): "رواه الطبراني في (الأوسط) و (الصغير)، وحسن إسناده". وأخرجه أيضًا: الديلمي [٣٩٣٠].

وإليه الإشارة بقول المصلي في أول الصلاة: أصلي لله عَزَّوَجَلَّ، فإنه لو قال: أصلي لثواب الله، أو للهرب من عقابه فسدت صلاته.

واعلم أن العبادة والعبودية مقام عال شريف، ويدل عليه آيات:

الأولى: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر:٩٧-٩٩].

والاستدلال بها من وجهين:

أحدهما: أنه قال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر:٩٩]، فأمر محمدًا عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بالمواظبة على العبادة إلى أن يأتيه الموت، ومعناه: أنه لا يجوز الإخلال بالعبادة في شيء من الأوقات، وذلك يدل على غاية جلالة أمر العبادة.

وثانيهما: أنه قال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧﴾ [الحجر:٩٧]. ثم إنه جَلَّوَعَلَا أمره بأربعة أشياء: التسبيح: وهو قوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾.

والتحميد: وهو قوله: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، والسجود: وهو قوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨﴾. والعبادة، وهي قوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾، وهذا يدل على أن العبادة تزيل ضيق القلب، وتفيد انشراح الصدر، وما ذاك إلا لأن العبادة توجب الرجوع من الخلق إلى الحق، وذلك يوجب زوال ضيق القلب.

الآية الثانية: في شرف العبودية: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]. ولولا أن العبودية أشرف المقامات لما وصفه الله عَزَّوَجَلَّ بهذه الصفة في أعلى مقامات المعراج.

ومنهم من قال: العبودية أشرف من الرسالة؛ فبالعبودية ينصرف من الخلق إلى الحق، وبالرسالة ينصرف من الحق إلى الخلق، وأيضًا بسبب العبودية ينعزل عن التصرفات، وبالرسالة يقبل على التصرفات، واللائق بالعبد الانعزال عن التصرفات، وأيضًا العبد يتكفل المولى جَلَّ وَعَلَا بإصلاح مهماته، والرسول هو المتكفل بإصلاح مهمات الأمة، وشتان ما بينهما.

الآية الثالثة: في شرف العبودية: أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أول ما نطق قال: ﴿إِنِّى عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، وصار ذكره لهذه الكلمة سببًا لطهارة أمه عَلَيْهَا السَّلَامُ، ولبراءة وجوده عن الطعن، وصار مفتاحًا لكلِّ الخيرات، ودافعًا لكلِّ الآفات.

الآية الرابعة: قوله جَلَّ وَعَلَا لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ [طه: ١٤]، أمره بعد التوحيد بالعبودية؛ لأن التوحيد أصل، والعبودية فرع، والتوحيد شجرة، والعبودية ثمرة، ولا قوام لأحدهما إلا بالآخر، فهذه الآيات دالة على شرف العبودية.

وكل شرف، وكمال، وبهجة، وفضيلة، ومسرة، ومنقبة، إنما حصلت للعبد بسبب العبودية، فثبت أن العبودية مفتاح الخيرات، وعنوان السعادات، ومطلع الدرجات، وينبوع الكرامات، فلهذا السبب قال العبد: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥] ..."[1]، إلى آخر ما ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ.

(١) بتصرف واختصار من (مفاتيح الغيب) (١/٢١٤-٢١٥)، وانظر: غرائب القرآن (١/١٠٦).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن العبادة لله عَزَّوَجَلَّ هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خلق الخلق لها، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات:٥٦].

وبها أرسل جميع الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، كما قال نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وكذلك قال هود وصالح وشعيب عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وغيرهم لقومهم.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ﴾ [النحل:٣٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ٩٢﴾ [الأنبياء:٩٢]، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾ [المؤمنون:٥١-٥٢].

وجعل ذلك لازمًا لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الموت، كما قال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر:٩٩].

وبذلك وصف ملائكته وأنبياءه عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ٢٠﴾ [الأنبياء:١٩-٢٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف:٢٠٦].

وذمَّ المستكبرين عنها بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر:٦٠] (١).

ونعت صفوة خلقه بالعبودية له، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الإنسان:٦]، وقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ۝٦٣﴾ [الفرقان:٦٣] الآيات.

وقال في وصف الملائكة بذلك: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨] ... إلى غير ذلك.

وقد نعت الله عَزَّوَجَلَّ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالعبودية في أكمل أحواله فقال في الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء:١]، وقال في الإيحاء: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم:١٠]، وقال في الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾ [الجن:١٩]، وقال في التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣].. إلى غير ذلك (٢).

---

(١) وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۝١٧٢ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝١٧٣﴾ [النساء:١٧٢-١٧٣].

(٢) انظر: العبودية، لابن تيمية (ص:٤٤- ٤٧)، مجموع الفتاوى (١٠/١٤٩-١٥٢).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العبادة تتضمن: كمال الحب المتضمن معنى: الحمد، وتتضمن: كمال الذل المتضمن معنى: التعظيم، ففي العبادة: حبه وحمده على المحاسن، وفيها: الذل له الناشئ عن عظمته وكبريائه. ففيها: إجلاله وإكرامه. وهو جَلَّ وَعَلَا المستحق للجلال والإكرام، فهو مستحق غاية الإجلال، وغاية الإكرام"(١).

رابعًا: أنواع العبادة:

١ – عبادة التسخير وعبادة بالاختيار:

عبادة بالتسخير هي: التي لا يمكن لمخلوق الاستنكاف عنها.

أما عبادة بالاختيار فهي التي أمر به المكلف في الشرائع.

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(عبادة بالتسخير) للإنسان، والحيوانات، والنبات، والجماد، كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤].

و(عبادة بالاختيار)، وهي لذوي النطق(٢)، وهي المأمور بها في نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٣٦].

والعبد يقال على أربعة أضرب:

الأول: عبد بحكم الشرع، وهو الإنسان الذي يصح بيعه وابتياعه.

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٢٥١).

(٢) المراد بالنطق هنا: التفكير، يعني بذلك: المكلفين.

الثاني: عبد بالإيجاد، وذلك ليس إلا لله عَزَّوَجَلَّ، وإياه قصد بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ٩٣﴾ [مريم:٩٣].

والثالث: عبد بالعبادة والخدمة، والناس في هذا ضربان:

الأول: عبد مخلص لله عَزَّوَجَلَّ، وهو المقصود بنحو قوله:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣﴾ [الإسراء:٣].

والثاني: عبد للدنيا وأعراضها، وهو المعتكف على خدمتها ومراعاتها، وإياه قصد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بقوله: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينار، والدِّرهم**»"(١).

٢ - الدعاء بمعنى: العبادة:

جاء في الحديث: عن النعمان بن بشير رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر:٦٠]، قال: «**الدعاء هو العبادة**»، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر:٦٠]، -إلى قوله جَلَّوَعَلَا-: ﴿دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] (٢).

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (عبد) (ص:٥٤٢-٥٤٣)، وقد تقدم تخريج الحديث.

(٢) الحديث مروي عن عن النعمان بن بشير، وعن البراء بن عازب. حديث: النعمان بن بشير: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٢٩٨]، والطيالسي [٨٣٨]، وابن أبي شيبة [٢٩١٦٧]، وأحمد [١٨٣٥٢]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٧١٤]، وابن ماجه [٣٨٢٨]، وأبو داود [١٤٧٩]، والترمذي [٢٩٦٩]، وقال: "حسن صحيح" واللفظ له، وأخرجه أيضًا: البزار [٣٢٤٢، ٣٢٤٣]، والنسائي في (الكبرى) [١١٤٠٠]، وابن حبان [٨٩٠]، والطبراني في (الكبير) [١٩١]، و(الصغير)=

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾، يقول: إن الذين يتعظمون عن إفرادي بالعبادة، وإفراد الألوهة لي.

وقد قيل: إن معنى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿عَنۡ عِبَادَتِي﴾، أي: عن دعائي [1]. قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والدعاء بمعنى العبادة كثير في القرآن الكريم. ويدل عليه: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾"[2]. قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ "فوضع الدعاء موضع العبادة؛ ليؤذن بأن الدعاء مخ العبادة.."[3].

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والدعاء عبادة، بل قالوا: إنه أفضل العبادة؛ لما فيه من الإخلاص، واليقين، والرجاء"[4].

=[١٠٤١]، والحاكم [١٨٠٢]، وقال: "صحيح الإسناد"، كما أخرجه: أبو نعيم في (الحلية) (١٢٠/٨)، والقضاعي [٢٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٠٧٠]، والبغوي في (شرح السنة) [١٣٨٤]. حديث: البراء بن عازب: أخرجه أبو يعلى [٣٢٨]، والخطيب (٢٧٩/١٢). قال الحافظ في (الفتح) (٤٩/١): "«الدعاء هو العبادة» أخرجه أصحاب السنن بسند جيد" اهـ. وإن مما لا شك فيه أن الاستكبار عن عبادة عَزَّوَجَلَّ ودعائه يستلزم غضب الله عَزَّوَجَلَّ على من لا يدعوه. ودعاء العبد لربه جَلَّوَعَلَا ليس من باب إعلامه بحاجته إليه؛ ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧﴾ [طه:٧]، وإنما من باب: إظهار عبوديته وحاجته إليه وفقره.

(١) انظر: تفسير الطبري (٤٠٨/٢١).

(٢) الكشاف (١٧٥/٤).

(٣) حاشية الطيبي على الكشاف (٥٣٤/١٣)، وقد روي عن أنس أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «الدعاء مخ العبادة»، وقد أخرجه الترمذي [٣٣٧١] وقال: غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث: ابن لهيعة. كما أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٣١٩٦].

(٤) الاستذكار (٢٢٤/٤).

وفي (الفتح): "قال الشيخ تقي الدين السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الأولى حمل الدعاء في الآية على ظاهره، وأما قوله بعد ذلك: عن ﴿عَنۡ عِبَادَتِي﴾ فوجه الربط: أن الدعاء أخص من العبادة، فمن استكبر عن العبادة استكبر عن الدعاء، وعلى هذا فالوعيد إنما هو في حقِّ من ترك الدعاء استكبارًا، ومن فعل ذلك كفر.

وأما من تركه لمقصد من المقاصد فلا يتوجه إليه الوعيد المذكور، وإن كنا نرى أن ملازمة الدعاء والاستكثار منه أرجح من الترك؛ لكثرة الأدلة الواردة في الحث عليه. قلت: وقد دلت الآية الآتية قريبًا في السورة المذكورة أن الإجابة مشترطة بالإخلاص، وهو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ [غافر:٦٥]. وقال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معنى حديث النعمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن تحمل العبادة على المعنى اللغوي؛ إذ الدعاء هو إظهار غاية التذلل والافتقار إلى الله عَزَّ وَجَلَّ والاستكانة له، وما شرعت العبادات إلا للخضوع للباري، وإظهار الافتقار إليه؛ ولهذا ختم الآية بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي﴾ [غافر:٦٠] حيث عبر عن عدم التذلل والخضوع بالاستكبار، ووضع ﴿عِبَادَتِي﴾ موضع: دعائي، وجعل جزاء ذلك الاستكبار: الصغار والهوان"[1].

---

(١) فتح الباري، لابن حجر (١١/ ٩٥)، حاشية الطيبي على الكشاف (١٣/٥٣٤).

وقالوا: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدعاء هو العبادة**» معناه: أنه معظم العبادة، وأفضل العبادة، كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحج عرفة**» (١)، وفي لفظ: «**الحج عرفات**»، أي: ركنه الأكبر.

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: «**الدعاء هو العبادة**» أتى بضمير الفصل، والخبر المعرف باللام؛ ليدل على الحصر، وأن العبادة ليست غير الدعاء؛ مبالغة، ومعناه: أن الدعاء معظم العبادة، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحج عرفة**»، أي: معظم أركان الحج: الوقوف بعرفة؛ لما حكم بأن الدعاء هو العبادة الحقيقية التي تستأهل أن تسمى: عبادة من حيث إنه يدل على أن فاعله مقبل بوجهه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، معرض عما سواه، لا يرجو ولا يخاف إلا منه. وقد استدل عليه بالآية؛ فإنها تدل على أنه

---

(١) أخرجه الطيالسي [١٤٠٥]، وابن أبي شيبة [١٣٦٨٣]، وأحمد [١٨٧٧٣]، وابن حميد [٣١٠]، والدارمي [١٩٢٩]، وابن ماجه [٣٠١٥]، وأبو داود [١٩٤٩]، والترمذي [٨٨٩، ٢٩٧٥]، وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه: ابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٩٥٧]، والنسائي في (السنن) [٣٠١٦]، وفي (الكبرى) [٣٩٩٨]، وابن الجارود [٤٦٨]، وابن خزيمة [٢٨٢٢]، وابن حبان [٣٨٩٢]، والدارقطني [٢٥١٦]، والحاكم [٣١٠٠]، والديلمي [٢٧٥٩]، والبيهقي في (الكبرى) [٩٤٦٧]، وغيره، والبغوي في (شرح السنة) [٢٠٠١]. قال العلامة شمس الدين السخاوي: "أخرجه: "أحمد، وأصحاب السنن، وابن حبان، والحاكم، والدارقطني، والبيهقي، كلهم من حديث: عبد الرحمن بن يعمر الديلمي، قال: شهدت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو واقف بعرفات، وأتاه ناس من أهل نجد، فقالوا: يا رسول الله كيف الحج؟ فقال: «الحج عرفة، من جاء قبل صلاة الفجر من ليلة جمع، فقد تم به حجه». ولفظ أحمد، وفي رواية لأبي داود: «من أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر، فقد أدرك الحج»، وألفاظ الباقين نحوه، ورواه الدارقطني والبيهقي: الحج عرفة، الحج عرفة" المقاصد الحسنة (ص:٣٠١-٣٠٢).

أمر مأمور به، إذا أتى به المكلف قبل منه لا محالة، وترتب عليه المقصود ترتب الجزاء على الشرط، والمسبب على السبب، وما كان كذلك كان أتم العبادات وأكملها، وتقرب منه الرواية الأخرى؛ فإن مخ الشيء: خالصه (١).

وقد قيل: العبادة ليست غير الدعاء مقلوب، وصوابه: أن الدعاء ليس غير العبادة اهـ. قال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهو خطأ، والصواب الأول؛ لأنه الدال على المبالغة بطريق الحصر المطلوبة المستفادة من ضمير الفصل، وإتيان الخبر المعرف باللام، كما هو مقرر في علم: (المعاني والبيان)"(٢).

ومما جاء الدعاء فيه بمعنى العبادة: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطور:٢٨]، أي: إنا كنا في الدنيا من قبل يومنا هذا ندعوه: نعبده مخلصين له الدين، لا نشرك به شيئًا (٣).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿نَدۡعُوهُۖ﴾ أي: نعبده، ونسأله الوقاية (٤).

فجمع بين المعنيين: المجازي والحقيقي.

فقوله: (نعبده) أي: الدعاء بمعنى: العبادة مجازًا، وقد تقدم بيان القرينة والنكتة من كلام الطيبي وغيره.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٧٠٨/٥)، وانظر: قوت المغتذي على جامع الترمذي (٨٢٨/٢)، فيض القدير (٥٤٠/٣).

(٢) مرقاة المفاتيح (١٥٢٧/٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٢/ ٤٧٧)، تفسير القرطبي (٧٠/١٧).

(٤) الكشاف (٤١٢/٤).

وقوله: (أو نسأله الوقاية) أي: أنه باق على حقيقته وأصله. قال الشيخ القونوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قدم الأول؛ لأنه هو المقصود، وأنه الأصل في النجاة، مع أنه مجاز مشهور ملحق بالحقيقة"(١).

ويتبين مما سبق أن الدعاء يطلق على العبادة وعلى السؤال، ولكن إطلاقه على العبادة على سبيل المجاز باعتبار أنه معظم العبادة أو أفضلها، والنكتة على ما تقدم: المبالغة في بيان فضله ومكانته، فكأنه هو العبادة كلها.

وقول الشيخ القونوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه مجاز مشهور ملحق بالحقيقة، يعني: أنه جار على القاعدة: بأن المجاز إذا كثر أو اشتهر لحق الحقيقة، أي: صارت الحقيقة ملغيَّة، وينصرف الذِّهن إلى المعاني المجازيَّة، نحو: (أكلتُ من الشَّجرة)، فالمجاز المعروف: أكلتُ ثمر الشَّجرة، والذِّهن منصرف عن المعنى الحقيقي إلى المجازي، ولكن لا يمنع من إرادة المعنى الحقيقي، لأنَّه لا يمنع أن يأكل أوراق الشَّجرة. ومن ذلك لفظ: (الغائط) لما يخرج من الإنسان؛ فإنَّ لفظة: (الغائط) إنما وضعت في اللُّغة أوَّلا لمكانٍ منخفض من الأرض يقصد عند الحاجة؛ ليستتر به، فنقل اسم المكان، وجعل كنايةً عن الخارج، واشتهر بحيث لا يتبادر عند الإطلاق في الإفهام إلاَّ هو دون المكان، فكأنَّه لحق الحقيقة، فيترجح المجاز إذا كثر استعماله حتى يكون أغلب استعمالًا من الحقيقة، ويسمى: مجازًا راجحًا، والحقيقة مرجوحة على اختلاف بين أهل العلم. قد فصلت القول فيه في كتاب: (مجاري الكناية).

(١) حاشية القونوي على البيضاوي (١٨/٢٥٠).

ولكن ثمة فرقًا بين ما ذكره الشيخ القونوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من إجراء القاعدة -الآنفة الذكر- في إطلاق الدعاء على العبادة، وبين ما يصح أن يكون من مصاديق هذه القاعدة، فلا يستقيم قوله؛ لأن المعنى الحقيقي للعبادة ليس مهجورًا -كما هو بين- بل هو الأصل، وما الدعاء إلا فرد من أفرادها، فإذا أطلق عليه هذا المسمى فإنما هو للمبالغة في التعظيم وبيان المكانة، فلا يعدو أن يكون من قبيل المجاز المرسل.

وعلى هذا فإن العلاقة بين الدعاء والعبادة هي العموم والخصوص المطلق.

وبناء على ما تقدم فيصح أن يقال: إن قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ [الطور:٢٨] يراد منه: العبادة والسؤال معًا على النحو الذي ذكره جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والذي نقله عنه غير واحد من المفسرين.

فالعبادة تشمل العبادات: (القلبية، والبدنية، والمالية).

والمسألة: بأن يسأل العبدُ اللهَ عَزَّوَجَلَّ ما ينفعه من خير الدنيا والآخرة، أو يسأله أن يدفع عنه ما يضره في الدنيا والآخرة.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة:١٨٦]، أي: أنا أجيب دعاءكم مع أني غني عنكم على الإطلاق، فكونوا أنتم مجيبين دعوتي مع افتقاركم إليَّ من جميع الوجوه. فالمراد هنا: دعاء المسألة، وقيل: الدعاء في الآية هو العبادة.

فتنبه إلى هذا التحرير، وإلى ما سيأتيك من فروق أخرى ذات صلة، من نحو: الفرق بين الدعاء والاستغفار، وبين الاستغفار والتوبة.. إلى غير ذلك.

وقول البعض إن قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ [الطور:٢٨] يشمل: دعاء العبادة، ودعاء المسألة، فهو يشمل دعاء العبادة على اعتبار ما تتضمنه العبادة من السؤال، فدعاء العبادة يشمل: الصلاة، والصدقة، والصيام، والحج، وبر الوالدين، وغير ذلك، لأن كل عابد إنما يسأل الله عَزَّوَجَلَّ القبول والأجر بلسانه أو بقلبه، فعمله متضمن للسؤال؛ ولذلك توسع في الإطلاق، فقيل: إن قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ يشمل: دعاء العبادة، ودعاء المسألة؛ لأنهم لا يسألون إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يلجئون إلا إليه.

وقد فصلت القول في تعريف الدعاء في اللغة والاصطلاح، مع بيان الفرق بينه وبين الأمر والالتماس في كتاب: (دراسة لأساليب النداء في القرآن الكريم).

٣ – العبادة والتوحيد:

إن الأمر بالعبادة يأتي في القرآن الكريم مقترنًا بالتوحيد، وقيل: إن العبادة تأتي بمعنى: التوحيد، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦]، أي: وحِّدوه، ولا تشركوا به شيئًا.

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واعلم أن العبادة عبارة عن كل فعل وترك يؤتى به؛ لمجرد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بذلك، وهذا يدخل فيه: جميع أعمال القلوب، وجميع أعمال الجوارح، فلا معنى لتخصيص ذلك بالتوحيد.

قال: ولما أمر بالعبادة بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أمر بالإخلاص في العبادة بقوله: ﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾، لأن من عبد مع الله غيره كان مشركًا، ولا يكون مخلصًا؛ ولهذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]"(١).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة:٣١].

قال أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦]: "يعني بذلك جلَّ ثناؤه: وذِلُّوا لله بالطاعة، واخضعوا له بها، وأفردوه بالربوبية، وأخلصوا له الخضوع والذلة، بالانتهاء إلى أمره، والانزجار عن نهيه، ولا تجعلوا له في الربوبية والعبادة شريكًا تعظمونه تعظيمكم إياه"(٢).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يأمر تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه هو الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات، فهو المستحق منهم أن يوحدوه، ولا يشركوا به شيئًا من مخلوقاته، كما قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ لمعاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «**يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟**»، قال: الله ورسوله أعلم، قال: «**أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، أتدري ما حقهم عليه؟**»، قال: الله ورسوله أعلم، قال: «**أن لا يعذبهم**» (٣).

---

(1) مفاتيح الغيب (١٠/٧٥)، وانظر: معالم التنزيل (١/٦١٤)، زاد المسير (١/٤٠٤)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٢/١٠٨).

(٢) تفسير الطبري (٨/٣٣٣-٣٣٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/٢٩٧)، والحديث أخرجه البخاري [٧٣٧٣]، ومسلم [٣٠].

*ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾ [الحج:٧٧]، أي: وحدوه وأطيعوه. ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ أي: أكثروا من الطاعات والخيرات ما استطعتم، وبادروا إليها (١).

٤ - العبادة بمعنى: الطاعة، والخضوع لله عَزَّوَجَلَّ، والتزام أمره:

*ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا حكاية عن قيل إبراهيم عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [مريم:٤٤].

*ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠﴾ [يس:٦٠].

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١﴾ [سبأ:٤٠-٤١].

*وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ عباده أن يقولوا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ [الفاتحة:٥]، وجاء في التفسير: أن قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ بمعنى: نحن نعبدك، والعبادة: هي الطاعة مع التذلل والخضوع، وسمي العبد عبدًا؛ لذلته وانقياده.

يقال: طريق معبد: أي: مذلل، ومعناه: نعبدك خاضعين (٢).

---

(1) انظر: بحر العلوم (٢/٤٧١)، معالم التنزيل (٣/٣٥٢). زاد المسير (٣/٢٥١).

(٢) انظر: تفسير أبي المظفر السمعاني (١/٣٧)، ومعالم التنزيل، للبغوي (١/٧٥).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره للآية: إن "العبادة في الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة، والخضوع، والخوف"(١).

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّ أصلَ العبادة: التذلُّلُ والخضوع. وسُمِّيَت وظائفُ الشَّرعِ على المكلَّفين: عباداتٍ؛ لأنَّهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذلِّلين لله عَزَّوَجَلَّ"(٢).

وفي الحديث ما يدل على أن أصل العبودية: التذلُّلُ والخضوع والتزام أمر الله عَزَّوَجَلَّ، فمن ذلك: ما جاء عن عبد الله -يعني: ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما أصاب مسلمًا قَطُّ همٌّ ولا حُزْنٌ فقال: اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمُك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله عَزَّوَجَلَّ همه، وأبدله مكان حُزْنِهِ فرحًا**» (٣).

---

(١) تفسير ابن كثير (١/١٣٤).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/١٨١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٢٩]، وأحمد [٣٧١٢]، والبزار [١٩٩٤]، وأبو يعلى [٥٢٩٧]، والشاشي [٢٨٢]، وابن حبان [٩٧٢]، والطبراني في (الكبير) [١٠٣٥٢]، والحاكم [١٨٧٧]، والبيهقي في (الدعوات) [١٨٤]. قال الهيثمي (١٠/١٣٦): "رجاله رجال الصحيح، غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان" وأبو سلمة الجهني: هو موسى بن عبد الله، وهو ثقة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التحقيق بمعنى قوله: «**إني عبدك**»: التزام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة، وامتثال أمر سيده، واجتناب نهيه ودوام الافتقار إليه، واللجوء إليه والاستعانة به، والتوكل عليه، وعياذ العبد به، ولياذه به، وأن لا يتعلق قلبه بغيره؛ محبة وخوفًا ورجاء. وفيه أيضًا: أني عبد من جميع الوجوه: صغيرًا وكبيرًا، حيًّا وميتًا مطيعًا وعاصيًا، معافى ومبتلى، بالروح، والقلب، واللسان، والجوارح. وفيه أيضًا: أن مالي ونفسي ملك لك؛ فإنَّ العبد وما يملك لسيده. وفيه أيضًا: أنك أنت الذي مننت عليَّ بكلِّ ما أنا فيه من نعمة، فذلك كله من إنعامك على عبدك. وفيه أيضًا: أنّي لا أتصرف فيما خولتني من مالي ونفسي إلا بأمرك، كما لا يتصرف العبد إلا بإذن سيده، وإني لا أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة، ولا نشورًا، فإن صحَّ له شهود ذلك فقد قال: إني عبدك حقيقة.

ثم قال: «**ناصيتي بيدك**»، أي: أنت المتصرف فيَّ، تصرِّفني كيف تشاء، لست أنا المتصرِّف في نفسي..."[١].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال العلماء: أصل العبادة: الطاعة. وكل عبادة فلها معنى قطعًا؛ لأن الشرع لا يأمر بالعبث، ثم معنى العبادة قد يفهمه المكلف وقد لا يفهمه، فالحكمة في الصلاة: التواضع والخضوع، وإظهار الافتقار إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والحكمة في الصوم: كسر النفس، وقمع الشهوات، والحكمة في الزكاة: مواساة المحتاج،

(١) انظر: الفوائد، لابن القيم (ص:٢٢-٢٦).

وفي الحج: إقبال العبد أشعث أغبر من مسافة بعيدة إلى بيت فضله الله عَزَّوَجَلَّ كإقبال العبد إلى مولاه ذليلًا.

ومن العبادات التي لا يفهم معناها: السعي، والرمي، فكلف العبد بهما؛ ليتم انقياده؛ فإن هذا النوع لا حظَّ للنفس فيه، ولا للعقل به، ولا يحمل عليه إلا مجرد امتثال الأمر، وكمال الانقياد"[1].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ما ذكره الشيخ النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من أن حكمة السعي والرمي غير معقولة المعنى غير صحيح فيما يظهر لي –والله تعالى أعلم–، بل حكمة الرمي، والسعي معقولة، وقد دل بعض النصوص على أنها معقولة، أما حكمة السعي: فقد جاء النص الصحيح ببيانها، وذلك هو ما رواه البخاري في (صحيحه): عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في قصة ترك إبراهيم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ هاجر، وإسماعيل عَلَيْهِمَاٱلسَّلَامُ في (مكة)، وأنه وضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، وفي الحديث الصحيح المذكور: «**وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت، وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى**»، أو قال: «**يتلبط، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، ونظرت**

---

(١) المجموع شرح المهذب (٨/٢٤٣).

هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا، ففعلت ذلك سبع مرات» قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فذلك سعي الناس بينهما**» الحديث[1]. وهذا الطرف الذي ذكرنا من هذا الحديث سقناه بلفظ البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في (صحيحه)، وقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث: «**فذلك سعي الناس بينهما**»، فيه الإشارة الكافية إلى حكمة السعي بين الصفا والمروة؛ لأن هاجر سعت بينهما السعي المذكور، وهي في أشد حاجة، وأعظم فاقة إلى ربها جَلَّ وَعَلَا؛ لأن ثمرة كبدها، وهو ولدها إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ تنظره يتلوى من العطش في بلد لا ماء فيه، ولا أنيس، وهي أيضًا في جوع، وعطش في غاية الاضطرار إلى خالقها جَلَّ وَعَلَا، وهي من شدة الكرب تصعد على هذا الجبل، فإذا لم تر شيئًا جرت إلى الثاني، فصعدت عليه؛ لترى أحدًا، فأمر الناس بالسعي بين الصفا والمروة؛ ليشعروا بأن حاجتهم وفقرهم إلى خالقهم ورازقهم كحاجة وفقر تلك المرأة في ذلك الوقت الضيق، والكرب العظيم إلى خالقها ورازقها، وليتذكروا أن من كان يطيع الله عَزَّ وَجَلَّ كإبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لا يضيعه، ولا يخيب دعاءه، وهذه حكمة بالغة ظاهرة دلَّ عليها حديث صحيح وقد قدمنا في حديث: البيهقي المذكور حكمة الرمي أيضًا، فتبين بذلك أن حكمة السعي والرمي معروفة ظاهرة، خلافًا لما ذكره النووي رَحِمَهُ اللَّهُ -والعلم عند الله عَزَّ وَجَلَّ-"[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن خصائص الإلهية: العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما: غاية الحب، مع غاية الذل. هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل

(١) صحيح البخاري [٣٣٦٤].

(٢) أضواء البيان (٤/٤٨٠-٤٨١)، وانظر ما ذكره من بيان حكمة الرمي (٤/٤٧٩-٤٨٠).

الخلق فيها بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين. فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله عَزَّوَجَلَّ فقد شبهه به في خالص حقِّه، وهذا من المحال أن تجيء به شريعة من الشرائع، وقبحه مستقر في كل فطرة وعقل، ولكن غيرت الشياطين فطر الخلق وعقولهم وأفسدتها عليهم، واجتالتهم عنها، ومضى على الفطرة الأولى من سبقت له من الله عَزَّوَجَلَّ الحسنى، فأرسل إليهم رسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وأنزل عليهم كتبه بما يوافق فطرهم وعقولهم، فازدادوا بذلك نورًا على نور، ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور:٣٥]"[١].

وقال: "والعبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، والعرب تقول: طريق معبد، أي: مذلل، والتعبد: التذلل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعًا له لم تكن عابدًا له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابدًا له حتى تكون محبًّا خاضعًا"[٢].

خامسًا: العبادة علم وعمل:

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "العبادة ضربان: علم وعمل. وحقهما أن يتلازما؛ لأن العلم كالأُس، والعمل كالبناء، وكما لا يغني أُس ما لم يكن بناء، ولا يثبت بناء ما لم يكن أسٌّ، كذلك لا يغني علم بغير عمل، ولا عمل بغير علم، ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر:١٠].

قال: والعلم ضربان: نظري وعملي:

---

(١) الجواب الكافي (ص:١٣٦-١٣٧).

(٢) مدارج السالكين (١/٩٥-٩٦).

١ - فالنظري: ما إذا علم كفى ولم يحتج فيه بعده إلى عمل، كمعرفة وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ، ومعرفة ملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ومعرفة السماوات، وما أشبه ذلك.

٢ - والعملي: ما إذا عُلم لم يغن حتى يعمل به، كمعرفة الصلاة، والزكاة، والجهاد، والصوم، والحج، وبرِّ الوالدين.

والأعمال ثلاثة أضرب:

١ - منها: ما يختص بالقلب.

٢ - ومنها ما يختص بالبدن.

٣ - ومنها: ما يشارك فيه البدن القلب.

والعلم أيضًا إذا نظر إليه وهو مكتسب فاكتسابه عمل. وإذا نظر إليه وقد اكتسب وتصوِّر في القلب خرج في تلك الحال عن أن يكون عملًا.

ومن وجه آخر ضربان: واجب، وندب:

١ - فالواجب يقال له: العدل.

٢ - والندب يقال له: الإحسان.

وهما المذكوران في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل:٩٠].

فالفرض والعدل: تحري الإنسان لما إذا عمله أثيب، وإذا تركه عوقب.

والندب والإحسان: تحري الإنسان لما إذا عمله أثيب، وإذا تركه لم يعاقب.

والإنصاف من العدل، والتفضل من البر والإحسان، فالإنصاف هو مقابلة الخير من الخير، والشرِّ من الشرِّ بما يوازيه.

والتفضل والبر هو مقابلة الخير بأكثر منه، والشر بأقل منه.

فالإحسان والتفضل احتياط في العدالة، والإنصاف ليؤمن به من وقوع خلل فيه، وذلك إذا زدت في إعطاء ما عليك ونقصت في أخذ ما لك فقد احتطت وأخذت بالحزم، كدفع زيادة زكاء إلى الفقير وترك ما أُحل لك أن تتناول من مال اليتيم. فالعدالة إن كانت جميلة فالتفضل أحسن منها؛ ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ فيمن استوفى حقه فتحرى العدالة: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾ [الشورى:٤١]، وقال جَلَّوَعَلَا بعده: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧]؛ إشارة إلى أن الإحسان حسن، والتفضل أحسن.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فالإنسان إنما يكون محسنًا متفضلًا بعد أن يكون عادلًا منصفًا.

فأما من ترك ما يلزمه، ثم تحرى ما لا يلزمه فإنه لا يقال له: متفضل، ولا يجوز تعاطي التفضل إلا لمن كان مستوفيًا وموفيًا لنفسه، فأما الحاكم المستوفي والموفي لغيره فليس له إلا تحري العدالة والنَّصَفَة"[١].

وتفصيل القول في العدل والإحسان سيأتي في موضعه، وقد تقرَّر في غير موضع بيان أهمية العمل بالعلم، كما سيأتيك شيء من التفصيل والإحالة في مبحث: (طلب العلم وتحري الحق، والتلازم بين العلم والعمل).

(١) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (ص:٨٦-٨٨).

سادسًا: أقسام العبادات:

١ - العبادات القلبية: كالمحبة، والخوف، الرجاء، والتوكل، والخشوع، والإنابة، والإخلاص، والنية.

ولا بد من اقتران أعمال القلوب بسلامة النية والقصد، بأن تكون خالصة لله عَزَّوَجَلَّ، لا يقصد بها إلا وجهه جَلَّوَعَلَا.

ويدخل في ذلك: الإيمان، والتسليم، وسلامة الاعتقاد.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة:١٧٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ [النساء:١٥٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد:٢١].

ولا بدَّ من اقتران الاعتقاد بالعمل -كما جاء بيان ذلك في غير موضع-. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال:٢-٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٧٤﴾ [الأنفال:٧٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾ [الحجرات:١٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ۝٧﴾ [الحديد:٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْۖ﴾ [الحديد:١٩].

٢ – العبادات القولية: كالنطق بالشهادتين، والذكر، والدعاء، وتلاوة القُرآن، والدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ونشر العلم النافع، والنصيحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولا بد من اقترانها بالنية حتى تكون نافعة للعبد.

٣ – العبادات الذاتية الشخصية: كالصلاة والصوم:

ولذلك قالوا: لا يجوز أن يصلي أحد عن أحد، وقال أكثر الفقهاء: لا يجوز أن يصوم أحد عن أحد، كبطل رياضي عنده مبارة قريبة، فهو يعد نفسه، فإذا كان مشغولًا لا يصح أن يبعث أحدًا مكانه للتمرين. ولكن من عجز عن الصوم الواجب لمرض أو شيخوخة فهو يفطر ويدفع الفدية. فلا يُصامُ عن أحدٍ في حياته، وقد نقل الإجماع على ذلك غير واحد، وأما الميت ففي الصيام عنه خلاف ينظر في مظانه.

٤ - **العبادات المالية**: كالزكاة، والصدقة:

فالزكاة الواجبة من العبادات المالية التي تجوز فيها النيابة، وتقبل الوكالة.

فإذا كانت الزوجة -مثلًا- عندها مال كثير، ولكنها بخيلة فقالت لزوجها: أخرج الزكاة عني، فرضي، جاز ذلك.

وتجري الوكالة فيها فإذا كان الشخص الذي ستدفع إليه الزكاة بعيدًا لا يستطيع المؤدي زكاة ماله أن يصل عليهن جاز له أن يوكل غيره.

وزكاة الفطر يجب عليه أداؤها على المعيل المكلف بالنفقة، فيخرجها عن نفسه، وعن كل من تلزمه نفقتهم من أولاده الصغار، وأولاده الكبار العاجزين عن الكسب، وعن زوجته.

وأما الخادم والخادمة والأجير ممن له أجرة معلومة، ففطرته على نفسه، ولا تجب على سيده، ولكن لو أحب أن يخرجها عنه أو عنها فله ذلك، وهو عمل طيب، لكن ينبغي أن يعلمه بذلك قبل إخراجها من أجل النية من الخادم أو الخادمة أو الأجير.

٥ - **عبادات بدنية ومالية معًا**: كالحج:

فهل هو عبادة ذاتية كالصلاة لا يقبل الإنابة أم أنه عبادة مالية مثل: الزكاة يجوز أن ينوب فيها شخص عن آخر؟

قال الفقهاء: الحج فيه الشبهان:

أ. شبه الصلاة: فهو يشبه الصلاة؛ لأن فيه عبادة ذاتية من نية، ووقوف بعرفة، وطواف، ورمي للجمرات.

ب. شبه الزكاة: لأن فيه نفقات مالية.

ولذلك أشبه الأمرين، فعند العجز الكامل يقبل الإنابة، فمن بلغت به الشيخوخة أو المرض مبلغًا لا يستطيع فيه الذهاب إلى الحج فله أن ينيب غيره.

وبدون عجز كامل لا يقبل الإنابة: فإذا كان قادرًا أو مرضه آني يقبل الشفاء فلا ينوب عنه أحد.

سابعًا: العبادات: شخصية ومتعدية:

ومن الممكن تقسيم العبادات باعتبار آخر إلى شخصية ومتعدية، فالشخصية تقدم ذكرها.

والمتعدية كالبر، والصلة، والإحسان إلى الخلق -كما سيأتي- وصنائع المعروف.

ويقال أيضًا: منها: ما له خاص، كالصلاة ونحوها، ومنها ما هو اجتماعي، كصلة الرحم، واتباع الجنازة، وعيادة المريض، وقضاء حوائج...إلى غير ذلك.

ثامنًا: مقصد العبادة:

إنَّ لكل عبادة مقصد ومعنى شرعت لأجله؛ لأن الشرع لا يأمر بالعبث -كما تقدم-.

إنَّ العبودية لله عَزَّوَجَلَّ لها مقاصد سامية، وهي تحقُّق في العبد معنى: التكليف، وهو الإذعان لشرعة الله عَزَّوَجَلَّ، ذلك الإذعان الذي يخرج المكلَّفَ إلى حدِّ الإنسانية، وإلى مقام العبودية، فالصَّلاة ليست مجرَّد حركاتٍ يؤديها الإنسان دون أن يكون لها الأثر النَّاجع في المكلَّف، فقد بيَّن الحقُّ عَزَّوَجَلَّ أنها تورث المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، فتزكو نفس العبد، وتعلو همته، ويبتعد عما يسخط الله عَزَّوَجَلَّ من قول أو فعل؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر الله عَزَّوَجَلَّ مراقبه، والشعور بالمراقبة يحمل العبد على ترك كل فعل قبيح.

قال الله عَزَّوَجَلَّ عن الصلاة: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

فالصلاة تطهر الروح، وتزكي النفس؛ لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتربي في المصلي ملكة مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ وخشيته لدى الإساءة، وحبه والرجاء فيه عند الإحسان، وتذكره دائمًا بكماله المطلق، فتوجه همته دائمًا إلى طلب الكمال.

والنفوس في حاجة إلى مذكِّر يرقى بها إلى العالم الروحي، ويخلعها من عالم الحس، ويوجهها إلى مراقبة من برأها وفطرها حتى تطهر من تلك الأرجاس والأدران، وتترفع عن البغي والعدوان، وتميل إلى العدل والإحسان، ذلك المذكر هى الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتنفي الجزع والهلع عند المصايب، وتعلِّم البخيل الكرم والجود (١).

---

(١) انظر: تفسير المنار (٦/٢١٤)، تفسير المراغي (٢/٢٠١).

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ الطهارة شرطًا للدخول في الصلاة، ومقدمة لها تطهر البدن وتنشطه، فيسهل بذلك العمل من عبادة وغيرها. وفيها تنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها فبواطنهم بذلك أولى.

وفي (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسلُ منه كُلَّ يوم خمسَ مَرَّاتٍ، هل يَبْقَى من دَرَنِهِ شيءٌ؟**»، قالوا: لا يبقى من دَرَنِهِ شيء، قال: «**فذلك مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْس، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخطايا**»(١).

وكذلك سائر العبادات لها مقاصد سامية. فالصيام —مثلًا– يعزز شعور المراقبة فهو جُنَّة ووجاء. وقل مثل ذلك في سائر العبادات والتكاليف؛ فإن لها مقاصد تسمو بالمكلف، وتصلح أحواله.

والعبادة سبب للتبصُّرِ والتَّفطن، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن بلاغه إنما يعيه قوم عابدون حيث قال: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾ [الأنبياء:١٠٦].

والحاصل أن العبودية لله عَزَّوَجَلَّ شرفٌ وعزةٌ، وعطاء وإحسان، وقد وُصِفَ بها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سياق ذكر حادثة (الإسراء). قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء:١].

ووصِفَ بها الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾ [الأنبياء:٧٣].

---

(١) صحيح البخاري [٥٢٨]، مسلم [٦٦٧].

وَوَصْفُ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بالعبوديَّة مشعرٌ بأنهم قد حصَّلوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد في الطاعة، والإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنَّ التَّحقق بالعبودية لله عَزَّوَجَلَّ يسمو بالروح، ويطهرُّ النَّفْسَ، ويرتقي بالإنسان. والله عَزَّوَجَلَّ غنيٌّ عن عباده، وهم الفقراء إليه، وحاجتهم الدنيويَّة، وكذلك الأخرويَّة هي التي تحوجهم إلى هذه الدينونة له بالعبادة. وهذا مما لا يختلف فيه اثنان.

وأخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن بلاغه إنما يعيه قوم عابدون في قوله: ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ١٠٦﴾ [الأنبياء:١٠٦].

"فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يأمر الخلق وينهاهم، لا لأنه تضره معصيتهم، ولا تنفعه طاعتهم، بل نفع طاعتهم لهم وضرر معصيتهم عليهم، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء:٧]، وقال: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت:٤٦]، وقال: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر:١٥]"[1]. وقال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ٣٨﴾ [محمد:٣٨].

وفي (صحيح مسلم): عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه عَزَّوَجَلَّ أنه قال: «**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم،**

---

(١) أضواء البيان (١/ ٢٠٣).

وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا» الحديث (١).

أما العبودية للبشر فهي نقيصةٌ وذلٌّ؛ لأنَّ السيِّدَ يريد أن يأخذ خير عبده، وقد أرسل الله عَزَّوَجَلَّ الرسل عَلَيهِمُ السَّلَامُ لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن الظلمات إلى النور، والناس سواسية لا فضل لأحد إلا بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فلا ينبغي لمسلم قد رسخت في نفسه العقيدة الصحيحة أن يذل نفسه إلا لله عَزَّوَجَلَّ.

ومن حِكَم الخلق: الابتلاءُ والاختبار (٢).

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦]: "التحقيق -إن شاء الله- في معنى هذه الآية الكريمة: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾، أي: إلا لآمرهم بعبادتي وأبتليهم، أي: أختبرهم بالتكاليف، ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، وإنما قلنا إن هذا

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٧٧].

(٢) الشَّرع فيه تكاليف، وفيه ما يَشُقُّ على النُّفُوس، وهذا هو السَّبب في تسمية الأحكام بالتَّكليف؛ لأنَّ الجنة حُفَّت بالمكاره، وقد يكون ذلك في بداية الأمر، فإذا اعتاده وأدرك ما فيه من المصلحة والصِّلة والمقصد فإنَّه يتلذَّذ بالطَّاعة. والتكليف من أهم مستلزمات العبودية لله جَلَّ وَعَلَا؛ إذ لا معنى للعبودية لله جَلَّ وَعَلَا إن لم يكن ثمة تكليف. وقد استلزم التكليف تحمل المشاق ومجاهدة النفس والأهواء. ولو ترك الناس لدعوى الإسلام ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ على ألسنتهم فقط، لاستوى الصادق والكاذب. ولكن الفتنة والابتلاء، هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت:١-٣].

هو التحقيق في معنى الآية؛ لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، فقد صرح جَلَّوَعَلَا في آيات من كتابه أنه خلقهم؛ ليبتليهم أيهم أحسن عملًا، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم.

قال جَلَّوَعَلَا في أول (سورة هود): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]. ثم بين الحكمة في ذلك فقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧﴾ [هود:٧].

وقال جَلَّوَعَلَا في أول (سورة الملك): ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك:٢]. وقال جَلَّوَعَلَا في أول (سورة الكهف): ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف:٧].

فتصريحه جَلَّوَعَلَا في هذه الآيات المذكورة بأن حكمة خلقه للخلق، هي ابتلاؤهم أيهم أحسن عملًا، يفسر قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾، وخير ما يفسر به القرآنَ: القرآنُ.

ومعلوم أن نتيجة العمل المقصود منه لا تتم إلا بجزاء المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.."(١).

ويعلم من مجموع النصوص أن القصر في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات:٥٦] ليس قصرًا حقيقيًّا. وقد بيَّن ذلك الإمام محمد الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره) فقال: "فالحصر المستفاد من قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا

(١) انظر: أضواء البيان (٧/٤٤٥-٤٤٦).

خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ قصر علة خلق الله عَزَّوَجَلَّ الإنس والجن على إرادته أن يعبدوه. والظاهر أنه قصر إضافي، وأنه من قبيل قصر الموصوف على الصفة، وأنه قصر قلب (١) باعتبار مفعول: ليعبدون، أي: إلا ليعبدوني وحدي، أي: لا

---

(١) القصر إما حقيقيٌّ، وهو أن يختصَّ المقصورُ بالمقصور عليه بحسب الحقيقة والواقع، بألا يتعدَّاه إلى غيره أصلًا، نحو: (لا إله إلَّا الله)، فإنّنا نقصر وصف الإلهية الحق على موصوف هو الله وحده، هذا من قصر الصفة على الموصوف، وهو قصر حقيقي. وإما إضافيٌّ، وهو أن يختص المقصور بالمقصور عليه بحسب الإضافة والنسبة إلى شيء آخر معين، لا لجميع ما عداه، نحو: (ما خليل إلَّا مسافر)، فإنك تقصد قصر السفر عليه بالنسبة لشخص غيره، كمحمود مثلًا وليس قصدك أنه لا يوجد مُسافر سواه؛ إذ الواقع يشهد ببطلانه. وينقسم القصر باعتبار طرفيه: (المقصُور والمقصور عليه) -سواء أكان القصر حقيقيًّا أم إضافيًّا إلى نوعين: (أ) قصر صفة على موصوف: هو أن تحبس الصفة على موصوفها وتختص به، فلا يتَّصف بها غيره، وقد يتَّصف هذا الموصوف بغيرها من الصفات. مثاله من الحقيقي: (لا رازق إلَّا الله). ومثاله من الإضافي، نحو: (لا زعيم إلَّا سعد). ب. قصر موصوف على صفة، هو أن يحبس الموصوف على الصفة ويختصّ بها، دون غيرها، وقد يشاركه غيره فيها. مثاله من الحقيقي، نحو: (ما الله إلَّا خالق كلّ شيءٍ). ومثاله من الإضافي، قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران:١٤٤]. وينقسم القصر الإضافي بنوعيه السابقين على حسب حال المخاطب إلى ثلاثة أنواع. (أ) قصر إفراد: إذا اعتقد المخاطب الشركة، نحو: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء:١٧١] ردًّا على من اعتقد أنَّ الله ثالث ثلاثةٍ. (ب) قصر قَلب: إذا اعتقد المخاطب عكس الحكم الذي تثبته نحو: (ما محمد إلا قائم) في الموصوف على الصفة لمن يعتقد اتصافه بالقعود دون القيام، ونحو قولنا: (ما تاجر إلَّا محمد) في قصر الصفة على الموصوف لمن يعتقد أن التَّاجر عبد الله. وسمى قصر قلب؛ لأنه يقلب -أي: يعكس- حكم المخاطب الذي كان معتقدًا إياه ويثبت له غيره. (جـ) قصر تعيين: إذا كان المخاطب يتردّد في الحكم: نحو قولنا: (ما محمد إلَّا مدرس) ولا يعرف على التعيين وظيفته، وذلك في قصر الموصوف على الصفة. ومثل قولنا: (ما مزارع إلَّا إبراهيم) وذلك في قصر الصفة على الموصوف=

ليشركوا غيري في العبادة، فهو رد للإشراك، وليس هو قصرًا حقيقيًّا؛ فإنا وإن لم نطلع على مقادير حكم الله عَزَّوَجَلَّ من خلق الخلائق، لكنا نعلم أن الحكمة من خلقهم ليست مجرد أن يعبدوه؛ لأن حكم الله عَزَّوَجَلَّ من أفعاله كثيرة لا نحيط بها. ألا ترى أن الله عَزَّوَجَلَّ ذكر حكمًا للخلق غير هذه، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ﴾ [هود:١١٨- ١١٩].. بَلْهَ [١] ما ذكره من حكمة خلق بعض الإنس والجن كقوله في خلق عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّاۚ﴾ [مريم:٢١]"[٢].

والحاصل أن لله عَزَّوَجَلَّ حِكَمًا من الخلق عُلِمَ بعضها.

والإنسان السوي المتحقق بمعنى: (الإنسانية) من خلال السير على النهج الذي جاء به الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يحبه، وهو جَلَّوَعَلَا يحبُّه؛ لإحسانه؛ ولرجوعه إلى الله عَزَّوَجَلَّ وإنابته. بل ويعنيه على سلوك طريق الهداية، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محمد:١٧]، ويحبُّه؛ لطهارته؛ ولاحترازه عن المعاصي؛ ولتوكله على الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولعدله، ولمحبته لإخوانه...الخ.

=لمن ظن أن المزارع إما إبراهيم أو أحمد من غير أن يعرفه على التعيين. وسمي قصر تعيين؛ لأنك عينت له إحدى الصفتين وأبقيت الأخرى أو أحد الوصفين وأبقيت الآخر.

(١) (بَلْهَ) بمعنى: دع عنك أو فضلًا عن..، وهي مبنية على الفتح، وقيل: معناها: سوى.

(٢) التحرير والتنوير (٢٧/٢٧).

فإذا خالف منهج الله عَزَّوَجَلَّ فاعتدى أو ظلم، أو أفسد في الأرض، أو كفر بالله عَزَّوَجَلَّ، أو تكبَّر، أو خان، أو جهر بالسوء، أو أسرف، أو بطر فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يحبه؛ لفعله ذلك.

وقد جاء القول في ذلك مفصلًا في كتاب: (المحبة صورها وأحكامها في ضوء الكتاب والسنة).

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واعلم أن من أهم المباحث: البحث عن سر العبادة، وتأثيرها وسر مشروعيتها لنا، وذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ خلق هذا العالم ليكون مظهرًا لكمال صفاته جَلَّ وَعَلَا: الوجود، والعلم، والقدرة. وجعل قبول الإنسان للكمالات التي بمقياسها يعلم نسبة مبلغ علمه وقدرته من علم الله عَزَّوَجَلَّ وقدرته، وأودع فيه الروح والعقل اللذين بهما يزداد التدرج في الكمال؛ ليكون غير قانع بما بلغه من المراتب في أوج الكمال والمعرفة، وأرشده وهداه إلى ما يستعين به على مرامه؛ ليحصل له بالارتقاء العاجل رقي آجل لا يضمحل، وجعل استعداده لقبول الخيرات كلها عاجلها وآجلها متوقفًا على التلقين من السفرة الموحى إليهم بأصول الفضائل.

ولما توقف ذلك على مراقبة النفس في نفراتها وشرداتها، وكانت تلك المراقبة تحتاج إلى تذكر المجازي بالخير وضده، شرعت العبادة لتذكر ذلك المجازي؛ لأن عدم حضور ذاته، واحتجابه بسبحات الجلال يسرب نسيانه إلى النفوس، كما أنه جعل نظامه في هذا العالم متصل الارتباط بين أفراده فأمرهم بلزوم آداب المعاشرة والمعاملة؛ لئلا يفسد النظام، ولمراقبة الدوام على ذلك أيضًا شرعت العبادة؛ لتذكر به، على أن

في ذلك التذكر دوام الفكر في الخالق وشؤونه وفي ذلك تخلق بالكمالات تدريجًا فظهر أن العبادة هي طريق الكمال الذاتي والاجتماعي مبدأ ونهاية، وبه يتضح معنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات:٥٦]، فالعبادة على الجملة لا تخرج عن كونها محققة للمقصد من الخلق، ولما كان سر الخلق والغاية منه خفية الإدراك عرفنا الله عَزَّوَجَلَّ إياها بمظهرها وما يحققها؛ جمعًا لعظيم المعاني في جملة واحدة وهي جملة: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾....الخ"(١).

تاسعًا: بيان أركان الإسلام:

جاء في الحديث: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت**» (٢).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "مباني الإسلام الخمس كل واحد منها يكفر الذنوب والخطايا ويهدمها"(٣).

وقال: "أفضل الأعمال بعد الإيمان الجهاد معنيين:

(١) التحرير والتنوير (١/١٨٢).

(٢) صحيح البخاري [٨]، مسلم [١٦].

(3) لطائف المعارف (ص:٦١).

أحدهما: أن يقال: إنما كان ذلك حيث كان الجهاد فرض عين، فكان حينئذ أفضل الأعمال بعد الإيمان، وقرينًا له، فلما نزلت الرخصة وصار الجهاد فرض كفاية تأخر عن فرض الأعيان.

وقد اختلف ابن عمر رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا وعبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا في عد الجهاد من فرائض الإسلام، فعده عبد الله بن عمرو رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا منها بعد الحج، وأنكر ذلك ابن عمر رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا عليه، وقال: فرائضه تنتهي إلى الحج.

وقد روى اختلافهما في ذلك أبو عبيد رَحِمَهُاللَّهُ في كتاب: (الناسخ والمنسوخ) (١) وغيره.

وعدَّ حذيفة بن اليمان رَضِيَاللَّهُعَنْهُ الجهاد من سهام الإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأضافهما إلى مباني الإسلام الخمس، وجعلها ثمانية سهام، وكأنه جعل الشهادتين سهمين.

والثاني -وهو أشبه-: أن النبي صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان إذا سئل عن أفضل الأعمال، فتارة يذكر الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لدخوله في مسمى الأعمال.. وتارة

---

(1) قال أبو عبيد: حدثنا علي بن معبد، عن أبي المليح الرقي، عن ميمون بن مهران قال: كنت عند ابن عمر رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا، فجاء رجل على عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا، فسأله عن الفرائض وابن عمر جالس حيث يسمع كلامه، فقال: «الفرائض: شهادة ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصيام رمضان، والجهاد في سبيل الله»، قال: فكأن ابن عمر غضب من ذلك، ثم قال: «الفرائض: شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصيام رمضان» وترك الجهاد.." الناسخ والمنسوخ، لأبي عُبيد القاسم بن سلام (ص:٢٠٢).

يذكر أعمال الجوارح؛ لأن المتبادي إلى الفهم عند ذكر الأعمال مع الإطلاق: أعمال الجوارح، دون عمل القلب واللسان، فكان إذا تبين له أن ذلك هو مراد السائل ذكر الصلاة له، كما ذكرها في حديث: ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1]؛ فإن الصلاة أفضل أعمال الجوارح، وحيث أجاب بذكر الإيمان، أو بذكر الصلاة، فإنما مقصوده: التمثيل بأفضل مباني الإسلام، ومراده: المباني بجملتها؛ فإن المباني الخمس كالشيء الواحد، وكل من

(١) يعني: حديث: عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سألت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قال: ثم أي؟ قال: «ثم بر الوالدين»، قال: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قال: حدثني بهن، ولو استزدته لزداني. صحيح البخاري [٥٢٧، ٥٩٧٠]، مسلم [٨٥].
وقدَّم في الحديث: برَّ الوالدين على الجهاد؛ إشارةً إلى أن حقوق العباد اللَّازمة (التي هي من فروض الأعيان) تقدَّم على التطوع بالجهاد. فتح الباري، لابن رجب (٢١٦/٤). يعني: من باب تقديم فرض العين على فرض الكفاية. ويدل عليه حديث: عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستأذنه في الجهاد، فقال: «أحيٌّ والداك؟»، قال: نعم، قال: «ففيهما فجاهد» صحيح البخاري [٣٠٠٤، ٥٩٧٢]، مسلم [٢٥٤٩]. قال البغوي في (شرح السنة): "هذا في جهاد التطوع لا يخرج إلَّا بإذن الأبوين إذا كانا مسلمين. فإن كان الجهاد فرضًا متعينًا، فلا حاجة إلى إذنهما، وإن منعاه عصاهما وخرج. وإن كان الأبوان كافرين، فيخرج دون إذنهما، فرضًا كان الجهاد أو تطوعًا، وكذلك لا يخرج إلى شيء من التطوعات كالحج والعمرة والزيارة، ولا يصوم التطوع إذا كره الوالدان المسلمان أو أحدهما إلا بإذنهما، وما كان فرضًا فلا يحتاج فيه إلى إذنهما، وكذلك لا يخرج إلى جهاد التطوع إلا بإذن الغرماء إذا كان لهم عليه دين عاجل، كما لا يخرج إلى الحج إلا بإذنهم، فإن تعين عليه فرض الجهاد لم يُعرِّجْ على الإذن" انظر: شرح السنة، للبغوي (٣٧٨/١٠). ولو منعه أبواه الكافران عن الخروج للجهاد الكفائي، مخافة عليه، ومشقة لهما بخروجه وتركهما، فعند الحنفية: لهما ذلك، ولا يخرج إلا بإذنهما برًا بهما وطاعة لهما، إلا إذا كان منعهما له لكراهة قتال أهل دينهما، فإنه لا يطيعهما ويخرج له. انظر: حاشية ابن عابدين (٢٢٠/٣).

دخل في الإسلام بالإقرار بالشهادتين أو بالصَّلاة -على رأي من يرى فعلها إسلامًا-، فإنه يؤمر ببقية المباني، ويلزم بذلك، ويقاتل على تركه جيمعًا: (الصلاة، والزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت)..."[1].

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقول ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا لهذا السائل عن الغزو: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذكر حديث: «**بُني الإسلام على خمس**»، يُستدل به على سقوط فرض الجهاد، وأنه ليس من مباني الإسلام، وإنما هو من فروض الكفايات، وهو قول جماعة من العلماء أن فرضه نسخ بعد فتح مكة، وذكر أنه مذهب ابن عمر والثوري وابن شبرمة، ونحوه لسُحنون من أصحابنا، إلا أن ينزل العدو بقومٍ، أو يأمر الإمام بالجهاد، ويستنفر الناس فتلزمهم طاعته. وقال الداودي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لما فتحت مكة سقط فرض الجهاد عمن بَعُد من الكفار، وبقي فرضه على من يليهم، وكان أوَّلًا فرضًا على الأعيان..."[2].

وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**بُنِيَ الإسلام على خَمس**»، يعني: أن هذه الخمس أساسُ دين الإسلام، وقواعدُه عليها تنبني، وبها تقوم. وإنما خَصَّ هذه بالذكر، ولم يذكُر معها الجهاد، مع أنه به ظهر الدين، وانقمع به عُتَاةُ الكافرين؛ لأنَّ هذه الخمس فرضٌ دائم على الأعيان، ولا تسقطُ عمَّن اتَّصَفَ بشروط ذلك، والجهادُ من فروض الكفايات، وقد يسقُطُ في بعض الأوقات، بل وقد صار جماعة كثيرةٌ إلى أنَّ فرضَ الجهاد قد سقَطَ بعد فتح مكَّة، وذُكرَ أنَّه مذهبُ ابنِ عمر،

---

(1) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب (٤/٢١٤-٢١٥).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (١/٢٢٧).

والثوري، وابن سِيرِينَ، ونحوُهُ لسُحنُون من أصحابنا، إلا أن ينزلَ العَدُو بقوم، أو يأمر الإمامُ بالجهاد، فيلزمُ عند ذلك.

وقد ظهَرَ مِن عدولِ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن جواب الذي قال له: ألا تغزو؟ إلى جوابه بقول النبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُنِيَ الإسلامُ على خمس**»، أنَّه كان لا يرى فرضيَّةَ الجهاد في ذلك الوقت خاصَّة، أو على أنَّهُ يرى سقوطَهُ مطلقًا؛ كما نُقِلَ عنه.

وحديث: ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا هذا قد روي من طرق: ففي بعضها: «**شهادة أن لا إله إلا الله**»، وفي بعضها: «**على أن تعبَدَ اللهُ، وتكفَرَ بما دونه**»، فالأُولَى نَقلٌ للفظ، والأخرى نقلُ بالمعنى، والأصل نقل اللفظ، وهو المتفق عليه.

وقد اختُلِفَ في جواز نقل الحديثِ بالمعنى مِنَ العالِمِ بمواقعِ الكلم، وتركيبها على قولين: الجواز، والمنع. وأما مَن لا يَعرِف، فلا خلافَ في تحريمِ ذلك عليه"(١).

الركن الأول: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله:

١ - بيان أعظم أركان الإسلام:

إن أعظمَ وأجلَّ أركان الإسلام: (شهادة: أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله)، فهي التي تدخل العبد دائرة الإسلام، إذا كان معتقدًا بها، وإذا كانت مستوفية للشروط، وهي سبيل للفوز بالجنة، والنجاة من النار.

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/١٦٨-١٦٩).

والنصوص الواردة في فضل هذه الشهادة ومكانتها كثيرة جدًّا؛ مما يدل على أنها الركن الأعظم، والأساس الأقوم، والعروة الوثقى، وأنها أعلى شعب الإيمان، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣]، ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران:١٨]، ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ۚ﴾ [الأنعام:١٠٢]، ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ [الأنعام:١٠٦]، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ﴾ [الأعراف:١٥٨]، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [التوبة:٣١]، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ [التوبة:١٢٩]، ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [هود:١٤]، ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد:٣٠]، ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ [النحل:٢]، ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه:٨]، ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾﴾ [طه:١٤]، ﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾﴾ [طه:٩٨]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥]، ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ﴾ [القصص:٧٠]، ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ ۘ لَا إِلَٰهَ إِلَّا

هُوَۚ﴾ [القصص:٨٨]، ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٣﴾ [فاطر:٣]، ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ﴾ [غافر:٦٥]، ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد:١٩]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾ [الحشر:٢٢]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٣﴾ [التغابن:١٣]، ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا ٩﴾ [المزمل:٩]...والآيات في ذلك كثيرة.

"قال طائفة من العلماء: إن كلمة التوحيد سبب مقتض لدخول الجنة وللنجاة من النار، لكن له شروط، وهي: الإتيان بالفرائض، وموانع، وهي: إتيان الكبائر.

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ للفرزدق: إن للا إله إلا الله شروطًا، فإياك وقذف المحصنة.

وروي عنه أنه قال: هذا العمود، فأين الطنب، يعني: أن كلمة التوحيد عمود الفسطاط، ولكن لا يثبت الفسطاط بدون أطنابه، وهي: فعل الواجبات، وترك المحرمات.

وقيل للحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن ناسًا يقولون: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال: من قال: لا إله إلا الله، فأدَّى حقَّها وفرضها، دخل الجنة [(١)].

---

(١) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢٠٨/١).

وقيل لوهب بن منبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان، فتح لك، وإلا لم يفتح لك"[2].

ومراده بالأسنان: الأعمال المنجية المنضمة إلى كلمة التوحيد، وشبهها بأسنان المفتاح من حيث الاستعانة بها في فتح المغلقات، وتيسير المستصعبات.

وقول الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أراد بها القواعد التي بني الإسلام عليها، تعقبه في (المصابيح): بأن من جملة القواعد: كلمة الشهادة التي عبر عنها بالمفتاح، فكيف تجعل بعد ذلك من الأسنان؟!(٣).

وقال المهلب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا خلاف بين أئمة المسلمين أنه من قال: لا إله إلا الله، ومات عليها أنه لا بد له من الجنة، ولكن بعد الفصل بين العباد، ورد المظالم إلى أهلها[4].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفضائل هذه الكلمة وحقائقها وموقعها من الدين: فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون، وهي حقيقة الأمر كله"[5].

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٢/٧١).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/٥٢٢).

(٣) انظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٢/٣٧٢)، التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح، للزركشي (١/٣٠١)، مصابيح الجامع، لمحمد بن أبي بكر، بدر الدين الدماميني (١/٩٨)، (٣/٢٠٢).

(٤) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣/٢٣٦).

(٥) مجموع الفتاوى (٢/٢٥٦).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمان بضع وسبعون -أو بضع وستون- شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**» (١).

وعن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لنا معاذ في مرضه: قد سمعت من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شيئًا كنت أكتمكموه، سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله وجبت له الجنة**» (٢).

وعن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله، دخل الجنة**» (٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مسير، قال: فنفدت أزواد القوم، قال: حتى هم بنحر بعض حمائلهم، قال: فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول الله، لو جمعت ما بقي من أزواد القوم، فدعوت الله عليها، قال: ففعل، قال: فجاء ذو البر ببره، وذو التمر بتمره، قال: وقال مجاهد: وذو النواة بنواه، قلت: وما كانوا يصنعون بالنوى؟ قال: كانوا يمصونه ويشربون عليه الماء، قال: فدعا عليها قال: حتى

---

(١) صحيح مسلم [٣٥].

(٢) أخرجه أحمد [٢٢٠٣٤]، وأبو داود [٣١١٦]، والبزار [٢٦٢٦]، والشاشي [١٣٧٢]، والطبراني في (الكبير) [٢٢١]، والحاكم [١٢٩٩]، وقال: "صحيح الإسناد"، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣]. قال الحافظ ابن حجر: "أخرجه أحمد، وأبو داود، والحاكم من حديث: معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأعله ابن القطان بصالح بن أبي عريب، وأنه لا يعرف، وتعقب بأنه روى عنه جماعة، وذكره ابن حبان في الثقات" التلخيص الحبير (٢/٢١١).

(٣) أخرجه مسلم [٢٦].

ملأ القوم أزودتهم، قال: فقال عند ذلك: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما، إلا دخل الجنة**» (١).

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أو عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -شك الأعمش- عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك، فيحجب عن الجنة**» (٢).

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له يومًا: «**من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه، فبشره بالجنة**» (٣).

وعن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**» (٤).

واللفظ عند مسلم: «**من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله، وابن أمته، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، وأن النار حق، أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء**» قال: وحدثني أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثنا مبشر بن إسماعيل، عن الأوزاعي،

---

(١) صحيح مسلم [٢٧].

(٢) صحيح مسلم [٢٧].

(٣) صحيح مسلم [٣١].

(٤) صحيح البخاري [٣٤٣٥].

عن عمير بن هانئ، في هذا الإسناد بمثله، غير أنه قال: «**أدخله الله الجنة على ما كان من عمل**»، ولم يذكر: «**من أي أبواب الجنة الثمانية شاء**» (١).

وعن الصنابحي قال: دخلت على عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو في الموت في الموت، فبكيت، فقال: مهلًا، لم تبكي؟ فوالله لئن استشهدت لأشهدن لك، ولئن شفعت لأشفعن لك، ولئن استطعت لأنفعنك، ثم قال: والله ما من حديث سمعته من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكم فيه خير إلا حدثتكموه، إلا حديثًا واحدًا، وسوف أحدثكموه اليوم، وقد أحيط بنفسي، سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: «**من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، حرم الله عليه النار**» (٢).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رديفه على الرحل، قال: «**يا معاذ بن جبل**»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «**يا معاذ**»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثًا، قال: «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، صدقًا من قلبه، إلا حرمه الله على النار**»، قال يا رسول الله: أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: «**إذا يتكلوا**»، وأخبر بها معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند موته تأثمًا (٣).

---

(١) صحيح مسلم [٢٨].

(٢) صحيح مسلم [٢٩].

(٣) صحيح البخاري [١٢٨]، مسلم [٣٢]. قال الهروي في تفسير غير هذا الحديث: تأثم الرجل: إذا فعل فعلًا يخرج به من الاثم، وكذلك تحنث: ألقى الحنث عن نفسه، وتحرج: ألقى الحرج عن نفسه. قال الإمام: والأظهر عندي أنه لم يرد فى هذا الحديث هذا المعنى؛ لأن في سياقه ما يدل على خلافه.=

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: أتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو نائم عليه ثوب أبيض، ثم أتيته فإذا هو نائم، ثم أتيته وقد استيقظ فجلست إليه، فقال: «**ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة**» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «**وإن زنى وإن سرق**» قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال:

=قال القاضي: لعله لم ير هذا التفسير بيِّنًا لما ورد أول الحديث: «ألا أبشِّر الناسَ؟» قال: «لا تبشرهم فيتكلوا»، فأي إثم في كتم ما أمر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكتمه؟ لكني أقولُ: لعل معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يفهم من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النهي، لكن كسر عزمه عما عرض عليه من بشراهم به، بدليل حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا قلبه فبشره بالجنة» ثم لما قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ= للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أخشى أن يتكل الناس عليها، فخلهم يعملوا، قال: «فخلهم»، أو يكون معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلغه بعد أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك لأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحذر أن يكتم علمًا علمه، ويأثم بذلك، فأخبر به. أو يكون حمل النهي على إذاعته، وهذا الوجه ظاهر، وقد اختاره الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رَحِمَهُ اللَّهُ فقال: منعه من التبشير العام؛ خوفًا من أن يسمع ذلك من لا خبرة له، ولا علم فيغتر ويتكل، وأخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الخصوص من أمن عليه الاغترار والاتكال من أهل المعرفة؛ فإنه أخبر به معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فسلك معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا المسلك، فأخبر به من الخاصة، من رآه أهلًا لذلك. قال: وأما أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالتبشير فهو من تغير الاجتهاد، وقد كان الاجتهاد جائزًا له، وواقعًا منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند المحققين، وله مزية على سائر المجتهدين بأنه لا يقر على الخطأ في اجتهاده...الخ. انظر ذلك مفصلًا في (المعلم بفوائد مسلم)، للإمام أبي عبد الله المازري (١/٢٩١)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (١/٢٦١)، شرح النووي على صحيح مسلم (١/٢٤٠-٢٤١).

«**وإن زنى وإن سرق**» ثلاثًا، ثم قال في الرابعة: «**على رغم أنف أبي ذر**» قال: فخرج أبو ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يقول: وإن رغم أنف أبي ذر (١).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: حدثني محمود بن الربيع، عن عِتْبَانَ بن مالك، قال: قدمت المدينة، فلقيت عتبان، فقلت: حديث بلغني عنك، قال: أصابني في بصري بعض الشيء، فبعثت إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أني أحب أن تأتيني فتصلي في منزلي، فَأَتَّخِذَهُ مُصَلًّى، قال: فأتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن شاء الله من أصحابه، فدخل وهو يصلي في منزلي وأصحابه يتحدثون بينهم، ثم أسندوا عُظْمَ ذلك وَكُبْرَهُ إلى مالك بن دُخْشُمٍ، قالوا: وَدُّوا أنه دعا عليه فهلك، ودوا أنه أصابه شَرٌّ، فقضى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصلاة، وقال: «**أليس يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟**»، قالوا: إنه يقول ذلك، وما هو في قلبه، قال: «**لا يشهد أحد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فيدخل النار، أو تطعمه**»، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأعجبني هذا الحديث، فقلت لابني: اكتبه فكتبه(٢).

---

(١) صحيح البخاري [٥٨٢٧]، مسلم [٩٤]. وفي لفظ: «من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق» وهو كذلك في (الصحيحين).

(٢) والحديث بهذا اللفظ في (صحيح مسلم) [٣٣]. وقد أخرج الإمام البخاري في (صحيحه) نحوه [١١٨٦، ٥٤٠١]. و(عظم) بضم العين وإسكان الظاء، أي: معظمه. و(كبره) فبضم الكاف وكسرها لغتان فصيحتان مشهورتان ذكرهما القاضي عياض وغيره، لكنهم رجحوا الضم. ومعنى قوله: (أسندوا عظم ذلك وكبره): أنهم تحدثوا وذكروا شأن المنافقين وأفعالهم القبيحة، وما يلقون منهم، ونسبوا معظم ذلك إلى مالك. ومالك بن دخشم هذا من الأنصار، ذكر أبو عمر بن عبد البر اختلافًا بين العلماء في شهوده العقبة، قال: ولم يختلفوا أنه شهد بدرًا وما بعدها من المشاهد، قال: ولا يصح عنه النفاق،=

وفي رواية: عن عِتْبَانَ بن مالك الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: غدا عَلَيَّ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**لن يُوَافِيَ عَبْدٌ يوم القيامة يقول: لا إله إلَّا الله، يبتغِي به وجهَ الله، إلَّا حرَّمَ اللهُ عليه النَّار**»(١).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله، ونفسه، إلا بحقه وحسابه على الله**» الحديث(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قيل يا رسول الله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن**

=فقد ظهر من حسن إسلامه ما يمنع من اتهامه، هذا كلام أبي عمر رَحِمَهُ اللَّهُ. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد نص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على إيمانه باطنًا، وبراءته من النفاق بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في رواية البخاري: «ألا تراه قال: لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله عَزَّوَجَلَّ»، فهذه شهادة من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له بأنه قالها مصدقًا بها، معتقدًا، صدقها متقربًا بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وشهد له في شهادته لأهل بدر بما هو معروف، فلا ينبغي أن يشك في صدق إيمانه. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢٤٣/١)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر (١٣٥٠/٣-١٣٥١)، المنتقى شرح الموطأ (٣٠٦/١)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٦٩/٤).

(١) صحيح البخاري [٦٤٢٣، ٦٩٣٨]، و«يوافي»: يأتي.

(٢) صحيح البخاري [١٣٩٩، ١٤٠٠، ٦٩٢٤، ٦٩٢٥، ٧٢٨٤]، مسلم [٢٠]، وسيأتي.

هذا الحديث أحد أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه، أو نفسه»(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يَخْرُجُ من النَّارِ من قال: لا إله إلَّا الله، وفي قلبه وَزْنُ شَعِيرَة من خَيْر، ويَخْرُجُ من النَّار من قال: لا إله إلَّا الله، وفي قلبه وَزْنُ بُرَّةٍ مِنْ خَيْر، ويَخْرُجُ من النَّار من قال: لا إله إلَّا الله، وفي قلبه وَزْنُ ذَرَّةٍ من خَيْر**»، قال أبو عبد الله: قال أبان، حدثنا قتادة، حدثنا أنس، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من إيمان**» مكان: «**من خير**»(٢).

وعن أبي إسحاق عن الأغَرِّ أبي مسلمٍ، قال: أشهد على أبي سعيد، وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنهما شهدا على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**من قال: لا إله إلا الله والله أكبر، صَدَّقَهُ رَبُّهُ، فقال: لا إله إلا أنا، وأنا أكبر، وإذا قال: لا إله إلا الله وحده قال: يقول الله: لا إله إلا أنا وحدي، وإذا قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، قال الله: لا إله إلا أنا وَحْدِي لا شريك لي، وإذا قال: لا إله إلا الله له الملك وله الحمد، قال الله: لا إله إلا أنا، لي الملك ولي الحمد، وإذا قال: لا إله إلا الله ولا**

(١) أخرجه البخاري [٩٩، ٦٥٧٠].

(٢) صحيح البخاري [٤٤]. و«برة» قمحة. و«ذرة» النملة الصغيرة، وقيل: أقل شيء يوزن، وقيل غير ذلك.

حول ولا قوة إلا بالله، قال الله: لا إله إلا أنا، ولا حول ولا قوة إلا بي، وكان يقول: من قالها في مرضه ثم مات لم تَطْعَمْهُ(١) **النَّار»**(٢).

قال العلامة السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: «**مَنْ رُزِقَهُنَّ**» على بناء المفعول، ورجع نائب الفاعل إلى «**مَنْ**»، أي: من أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ هذه الكلمات عند الموت، ووَفَّقَهُ لها لم تَمَسَّهُ النَّار، بل يدخل الجنة ابتداء مع الأبرار، اللهم اجعلنا ممن رَزَقْتَهُ إِيَّاهُنَّ"(٣).

وعند مسلم: عن يحيى بن عمارة، قال: سمعت أبا سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لقنوا موتاكم لا إله إلا الله**»(٤). ورواه كذلك عن أبي حازم، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(٥).

---

(١) وفي رواية: "لم تمسَّه".

(٢) أخرجه عبد بن حميد [٩٤٣]، وابن ماجه [٣٧٩٤]، والترمذي [٣٤٣٠]، وقال: "هذا حديث حسن". كما أخرجه البزار [٨٢٧٣]، وقال: "وهذا الحديث قد رواه عن أبي إسحاق، عن الأغر غير واحد". وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [٩٧٧٥]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٣١]، وأبو يعلى [١٢٥٨]، وابن حبان [٨٥١]، والطبراني في (الأوسط) [٢٩٥٨]، و(الصغير) [٢٣٤]، والحاكم [٨٥١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٥٤].

(٣) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢/٤١٩).

(4) صحيح مسلم [٩١٦].

(5) صحيح مسلم [٩١٦].

وعند ابن حبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**لَقِّنُوا مَوْتَاكُمْ لا إلهَ إلَّا الله؛ فإنَّهُ من كان آخِرُ كَلِمَتِهِ لا إلَهَ إلَّا اللهُ عند الموت دخلَ الجنَّة يومًا من الدَّهْر، وإن أصابه قبل ذلك ما أصابه**»(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معناه: من حضره الموت، والمراد: ذَكِّرُوه لا إله إلا الله؛ لتكون آخر كلامه، كما في الحديث: «**من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة**». والأمر بهذا التلقين أمر ندب، وأجمع العلماء على هذا التلقين، وكرهوا الإكثار عليه والموالاة؛ لئلا يضجر بضيق حاله وشدة كربه، فيكره ذلك بقلبه، ويتكلم بما لا يليق.."(٢).

٢ - حديث البطاقة:

جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يقول: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله سَيُخَلِّصُ رجلًا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة؛ فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله،**

---

(١) أخرجه ابن حبان بسند صحيح [٣٠٠٤]، كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (١٣/٣٩٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٢١٩).

فيقول: احضر وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السِّجِلَّاتِ، فقال: إنك لا تظلم، قال: فتوضع السِّجِلَّاتِ في كَفَّةٍ والبطاقة في كَفَّةٍ، فطاشت السِّجِلَّاتِ وثَقُلَتِ البطاقة، فلا يَثْقُلُ مع اسم الله شيء»(1).

قيل: هذا الحديث يدل على فضل كلمة التوحيد إذا مشفوعة بالاعتقاد والعمل، ومستوفية للشروط، من الصدق، والإخلاص، واليقين، وصفاء النية، والبعد عن جميع أنواع الشرك.

وقد تقدم قول الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن ناسًا يقولون: من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال: من قال: لا إله إلا الله، فأدَّى حقَّها وفرضها، دخل الجنة.

وقيل لوهب بن منبه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة؟ قال: بلى ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان، فتح لك، وإلا لم يفتح لك.

ومراده بالأسنان: الأعمال المنجية المنضمة إلى كلمة التوحيد -كما تقدم-.

فكلمة: (لا إله إلا الله) سبب لدخول الجنة، والنجاة من النار، إذا توفرت الشروط، وانتفت الموانع.

فالمنافقون يقولون: (لا إله إلا الله)، ولكنها لا تنفعهم، وهم في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم يقولونها بألسنتهم فقط، من غير اعتقاد لمعناها، وعمل بمقتضاها.

---

(1) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) (٢/١٠٩)، وأحمد [٦٩٩٤]، وابن ماجه [٤٣٠٠]، والترمذي [٢٦٣٩]، وقال: "حسن غريب". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٢٢٥]، والطبراني في (الكبير) [١٤٦١٤]، والحاكم [٩]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٢٧٩]، والبغوي في (شرح السنة) [٤٣٢١].

ومن أهل العلم من حمل هذا الحديث على حال إيمانية عالية، ويقين راسخ، ويقين، وصدق، وإخلاص، وإلا، فكل مسلم يشهد الشهادتين، ولكن منهم من يدخل النار بذنوبه؛ حتى يطهَّر منها، ثم يدخل الجنة.

قال الحكيم الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فهذا عبد كثرت سيئاته حتى غمرته، فأدركه غوث تلك الكلمة، وليست تلك بأول مما قالها، ولكنها كانت مقالة طاهرة خرجت من زكاوة قلبه، في ساعة من عمره، فأنجته، فحاطت ذنوبه وهدمتها، وطاشت بالسجلات يوم الوزن؛ لوزن تلك الكلمة. وإنما ثقلت؛ لعظم نورها؛ لأنها خرجت من نور استنار قلبه بالنطق بها، وإذا أراد الله عَزَّوَجَلَّ بعبد خيرًا منَّ عليه في ساعة من عمره، ونبهه، فإذا انتبه انفتح قلبه، واستنار صدره من تلك الفتحة، فإذا انفتح القلب خرج النور إلى الصدر، فأشرق، فأي كلمة نطق بها في ذلك الوقت فإنما ينطق على شرح الصدر، والمعاينة لصورة تلك الكلمة، تسمى: كلمة الإخلاص، وكلمة يقين، تثقل في الوزن يوم الوزن، وتكون سببًا لنجاة صاحبها، وهذا لا يكون في شهادة التوحيد؛ إذ لو كان لها لاستوى الناس فيها"(١). فهذه الشهادة– على ما قاله الحكيم الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ– ليست شهادة التوحيد؛ لأن من شأن الميزان: أن يوضع في إحدى كفتيه شيء، وفي الأخرى ضده، فتوضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة، ومن المستحيل أن يؤتى لعبد واحد بكفر وإيمان معًا، فيستحيل أن توضع شهادة التوحيد في الميزان، أما بعد

(١) نوادر الأصول (١/٣٧٨).

الإيمان فإن النطق بهذه الكلمة الطيبة حسنة فتوضع في الميزان كسائر الحسنات. وأيد ذلك بقوله جَلَّ وَعَلَا في الحديث: «**إن لك عندنا حسنة**» دون أن يقول جَلَّ وَعَلَا: إيمانًا.

وجوز أن يكون المراد هذه الكلمة إذا كانت آخر كلامه في الدنيا[١].

وجوز غيره أن تكون كلمة التوحيد، ومنع لزوم وضع الضد في الكفة الأخرى؛ ليلزم المحال فتدبر[٢].

وفي (المرقاة): قوله: «**إن لك عندنا حسنة**» أي: واحدة عظيمة مقبولة تمحو جميع ما عندك. قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء:٤٠]. وإذا قال الله جَلَّ جَلَالُهُ ولا إله غيره لشيء عظيم فهو عظيم.

وفي (المرقاة) كذلك: "ثم هذا الحديث يحتمل أن تكون البطاقة وحدها غلبت السجلات، وهو الظاهر المتبادر، ويحتمل أن تكون مع سائر أعماله الصالحة، ولكن الغلبة ما حصلت إلا ببركة هذه البطاقة.

---

(1) قال أبو عبد الله القرطبي في (التذكرة): "ويجوز أن تكون هذه الكلمة هي آخر كلامه في الدنيا، كما في حديث: معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من كان آخر كلامه في الدنيا: لا إله إلا الله؛ وجبت له الجنة» [وقد تقدم] ... وقيل: يجوز حمل هذه الشهادة على الشهادة التي هي الإيمان، ويكون ذلك في كل مؤمن ترجح حسناته، ويوزن إيمانه كما توزن سائر حسناته، وإيمانه يرجح سيئاته، كما في هذا الحديث، ويدخله النار بعد ذلك فيطهره من ذنوبه، ويدخله الجنة بعد ذلك... انظر: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص:٧٢٩-٧٣١).

(2) روح المعاني (٤/٣٢٤).

«**فلا يثقل مع اسم الله شيء**» والمعنى: لا يقاومه شيء من المعاصي، بل يترجح ذكر الله عَزَّوَجَلَّ على جميع المعاصي. قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥].

فإن قيل: الأعمال أعراض لا يمكن وزنها، وإنما توزن الأجسام، أجيب: بأنه يوزن السجل الذي كتب فيه الأعمال، ويختلف باختلاف الأحوال، أو أن الله عَزَّوَجَلَّ يجسم الأفعال والأقوال فتوزن، فتثقل الطاعات، وتطيش السيئات؛ لثقل العبادة على النفس وخفة المعصية عليها؛ ولذا ورد: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**» (١)" (٢).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا وأمثاله مما يبين أن الأعمال توزن بموازين تبين بها رجحان الحسنات على السيئات، وبالعكس، فهو ما به تبين العدل. والمقصود بالوزن: العدل، كموازين الدنيا. وأما كيفية تلك الموازين فهو بمنزلة كيفية سائر ما أخبرنا به من الغيب"(٣).

وقال: "قوله: «**وثقلت البطاقة**» فهذا لما اقترن بهذه الكلمة من الصدق، والإخلاص، والصفاء، وحسن النية؛ إذ الكلمات والعبادات وإن اشتركت في الصورة الظاهرة فإنها تتفاوت بحسب أحوال القلوب تفاوتًا عظيمًا. ومثل هذا الحديث الذي

---

(١) صحيح مسلم [٢٨٢٢]، وقد تقدم.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٥٣١/٨-٣٥٣٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٠٢/٤).

في حديث: المرأة البغي التي سقت كلبًا فغفر الله عَزَّوَجَلَّ لها[1]؛ فهذا لما حصل في قلبها من حسن النية والرحمة إذ ذاك، ومثله: قوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم القيامة**»[2]"[3].

٣ – شروط شهادة: لا إله إلا الله، محمد رسول الله:

بناء على ما تقدم من قول الحسن رَحِمَهُٱللَّهُ وغيره من أن للا إله إلا الله شروطًا، فيمكن إجمال تلك الشروط على النحو التالي:

أ. إن هذه الشهادة لا تكون نافعة للعبد، ورافعة له إلا إذا كان مع اعتقاد معناها، والعمل بمقتضاها، من فعل الواجبات، وترك المحرمات.

---

(١) الحديث في (الصحيحين)، وسيأتي.

(٢) الحديث في صحيح الإمام البخاري: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بلفظ: «إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالًا، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالًا، يهوي بها في جهنم» صحيح البخاري [٦٤٧٨]. وهو عند مالك، والترمذي وغيرهما: عن بلال بن الحارث المزني بلفظ: «إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت فيكتب الله له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه» وقد صححه الترمذي وغيره.

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٧٣٥).

وإن الإتيان بهذه الشهادة من غير عمل أشبه بمفتاح ليس له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان، فتح لك، وإلا لم يفتح لك، والمراده بالأسنان: الأعمال المنجية المنضمة إلى كلمة التوحيد، فلا تنفع هذه الشهادة من غير عمل بمقتضاها من نحو: التوبة، والإنابة، ورد المظالم إلى أهلها، والصدق، والإخلاص، وحسن النية.

ب. إن هذه الشهادة وإن كانت أعلى شعب الإيمان فينغي لطالب النجاة أن يحرص على الإتيان بشعب الإيمان التي جاء الشارع ببيانها، والتي تقدم ذكرها في (الإيمان).

ج. يشترط العلم بما تقتضيه هذه الشهادة من نفي وإثبات:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ [محمد:١٩]. والمعنى: فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى التواضع، وهضم النفس باستغفار ذنبك وذنوب من هم على دينك.

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فالأمر في قوله: "﴿فَٱعۡلَمۡ﴾ كناية عن طلب العلم وهو العمل بالمعلوم، وذلك مستعمل في طلب الدوام عليه؛ لأن النبيء صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قد علم ذلك وعلمه المؤمنون، وإذا حصل العلم بذلك مرة واحدة تقرر في النفس؛ لأن العلم لا يحتمل النقيض، فليس الأمر به بعد حصوله لطلب تحصيله، بل

لطلب الثبات، فهو على نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء:١٣٦]"(١).

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: فاعلم يا محمد أنه لا معبود تنبغي أو تصلح له الألوهة، ويجوز لك وللخلق عبادته، إلا الله عَزَّوَجَلَّ الذي هو خالق الخلق، ومالك كل شيء، يدين له بالربوبية كل ما دونه"(٢).

وهذا خطاب للنبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، وكل واحد من الأمة داخل معه فيه. واحتج بهذه الآية من قال من أهل السنة: إن العلم والنظر قبل القول، والإقرار في مسألة أول الواجبات. وبوب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العلم قبل القول والعمل؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [محمد:١٩] الآية (٣).

قال ابن المنير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل فلا يعتبران إلا به فهو متقدم عليهما؛ لأنه مصحح للنية المصححة للعمل فنبه الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذلك حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم: إن العلم لا ينفع إلا بالعمل تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه. وقوله البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فبدأ بالعلم) أي: حيث قال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ثم قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]"(٤).

---

(1) التحرير والتنوير (١٠٥/٢٦).

(2) تفسير الطبري (١٧٣/٢٢).

(٣) انظر: المحرر الوجيز (١١٦/٥). وسيأتي بيان ما أورده الإمام البخاري في باب: (العلم قبل القول والعمل في (العلم).

(٤) فتح الباري، لابن حجر (١٦٠/١)، عمدة القاري (٣٩/٢).

يعني: أن الشيء يعلم أوَّلًا، ثم يقال ويعمل به، فالعلم مقدم عليهما بالذات، وكذا مقدم عليهما بالشرف؛ لأنه عمل القلب، وهو أشرف أعضاء البدن (١).

قال المهلب رَحِمَهُ اللَّهُ: "العمل لا يكون إلا مقصودًا لله عَزَّوَجَلَّ إلا بمعنى متقدم عليه، وهو علم ما وعد الله عليه من الثواب، وإخلاص العمل لله عَزَّوَجَلَّ، فحينئذ يكون العمل مرجو النفع؛ إذ تقدمه العلم، ومتى خلا العمل من النية، ورجاء الثواب عليه، وإخلاص العمل لله عَزَّوَجَلَّ فليس بعمل، وإنما هو كفعل المجنون الذي رفع عنه القلم. وقد بين ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**إنما الأعمال بالنيات**»"(٢).

وقال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد استدل بالآية من قال بوجوب النظر، وإبطال التقليد في العقائد، ومن قال بأن أول الواجبات: المعرفة قبل الإقرار"(٣).

وقال جَلَّ وَعَلَا في آية أخرى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف:٨٦].

قال يحيى بن سلام رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: "وقلوبهم مخلصة بشهادة لا إله إلا الله، يعلمون أنها الحق"(٤).

وقال أبو الحسن الواحدي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومعنى: ﴿شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزخرف:٨٦]: شهد أنه لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وهم يعلمون بقلوبهم ما شهدوا به بألسنتهم، وفي هذا دليل على أنه لا يتحقق إيمان، وشهادة حتى يكون ذلك عن علم بالقلب؛ لأن

---

(١) الكواكب الدراري، لشمس الدين الكرماني (٢/٢٩-٣٠).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/١٥١).

(٣) الإكليل في استنباط التنزيل، للسيوطي (ص:٢٣٨).

(4) تفسير يحيى بن سلام (٢/٧٥٨).

الله عَزَّوَجَلَّ شرط مع الشهادة العلم، وقد قال أصحابنا: إن شرط الإيمان: طمأنينة القلب على ما اعتقده، بحيث لا يتشكك إذا شكك، ولا يضطرب إذا حرك"(١).

وقيل: إنَّ قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ فيه وجهان:

أحدهما: يعني أن الشهادة بالحق إنما هي لمن شهد في الدنيا بالحق وهم يعلمون أنه الحق، فتشفع لهم الملائكة، قاله الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الثاني: أن الملائكة لا تشفع إلا لمن شهد أن لا إله إلا الله، وهم يعلمون أن الله عَزَّوَجَلَّ ربهم"(٢).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولما كان من لوازم الإيمان التصديق قالوا: الإيمان هو التصديق، وقال: ولا يكون التصديق قالوا: الإيمان هو التصديق، وقال: ولا يكون التصديق إلا عن علم؛ ولذلك قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾، فالإيمان: اسمٌ لثلاثة أشياء: علمٌ بالشيء، وإقرارٌ به، وعملٌ بمقتضاه إن كان لذلك المعلوم عملٌ كالصلاة والزكاة. هذا هو الأصل، ثم قد يستعمل في كل واحدٍ من هذه الثلاثة فيقال: فلانٌ مؤمن، أي: أنه مقرٌ بما يحصن دمه وماله؛ وبذلك حكم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الجارية، فسألها ما سألها، ثم قال: «**أعتقها فإنها مؤمنة**» (٣).

(1) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٤/٨٤).
(٢) تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٥/٢٤٢).
(٣) أخرجه مسلم [٥٣٧].

ويقال: مؤمنٌ، ويراد به أنه يعرف الأدلة الإقناعية التي يحصل معها سكون النفس، وإياه عنى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قال: لا إله إلا الله مخلصًا دخل الجنة**» [(١)]"[(٢)].

وقد تقدم حديث: عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله، دخل الجنة**» [(٣)].

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "حقيقةُ العلم: هي وضوحُ أمرٍ ما، وانكشافُهُ على غايته، بحيثُ لا يَبقَى له بعد ذلك غايةٌ في الوضوح.

ولا شكَّ في أنَّ من كانت معرفتُهُ بالله عَزَّ وَجَلَّ، ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كذلك، كان في أعلى درجات الجَنَّة، وهذه الحالةُ هي حالةُ النبيِّين والصِّدِّيقين. ولا يلزمُ فيمن لم يكن كذلك ألَّا يدخل الجَنَّة؛ فإنَّ من اعتقد الحقَّ وصدَّقَ به تصديقًا جازمًا لا شَكَّ فيه ولا ريب، دخل الجَنَّة، كما قدَّمناه، وكما دَلَّ عليه قولُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**من لَقِيَ اللهَ وهو يشهَدُ أن لا إلهَ إلاَّ الله، وأَنِّي رسولُ الله غيرَ شَاكٍّ فيهما، دخَلَ الجَنَّةَ**» [(٤)]، وكما قال: «**من كَانَ آخِرَ قوله: لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ دخَلَ الجَنَّةَ**» [(٥)].

---

(١) أخرجه البزار [٧] عن أبي سعيد، كما أخرجه الطبراني في (الدعاء) [١٤٧٨]. قال الهيثمي (١٧/١): "رواه البزار، ورجاله ثقات، إلا أن من روى عنهما البزار لم أقف لهما على ترجمة".

(٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني (٧٩/١)، حاشية الطيبي على الكشاف (٨٤/٢)، حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي (٢٩٣/١).

(٣) أخرجه مسلم [٢٦].

(٤) تقدم.

(٥) تقدم.

فحاصلُ هذين الحديثين: أنَّ من لقي الله عَزَّوَجَلَّ وهو موصوفٌ بالحالة الأولى والثانية دخلَ الجنَّة؛ غير أنَّ هناك فرقًا بين الدرجتين، كما بين الحالتين، كما صرَّحت به الآياتُ الواضحات؛ كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [المجادلة:١١]"(١).

د. يتبين مما تقدم أنه يشترط كذلك مع العلم: **اليقين الجازم الذي لا يعتريه شك**، كما ذلك مبينًا في قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**من لَقِيَ اللهَ وهو يشهَدُ أن لا إلهَ إلاَّ الله، وأَنِّي رسولُ الله غيرَ شاكٍّ فيهما، دخَلَ الجنَّةَ**» (٢)

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥﴾ [الحجرات:١٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المدثر:٣١].

وقال جَلَّوَعَلَا في وصف المنافقين المرتابين: ﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥﴾ [التوبة:٤٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ [التوبة:١١٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩﴾ [العنكبوت:٤٨-٤٩]،

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/١٩٦-١٩٧).

(٢) تقدم.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾﴾ [هود:١١٠].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن شك من شك من قوم صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾﴾ [هود:٦٢].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [يونس:١٠٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا مخبرًا عن الشاكين المنقادين لإبليس: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾ [سبأ:٢٠-٢١].

وقال جَلَّ وَعَلَا مبينًا للعباد شرعته التي جاء بها الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾ [الشورى:١٣-١٤].

وقال جَلَّوَعَلَا في بيان عاقبة الغافلين الشَّاكين: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝١٠﴾ [الدخان:٩-١٠]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء:١].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من حديث طويل أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعثه بنعليه، وقال: **«اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فمن لَقِيتَ من وَرَاءِ هذا الْحَائِطَ يَشْهَدُ أن لا إله إلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بها قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بالْجَنَّة»** الحديث [1].

هـ. ومن شرط هذه: الشهادة القبول والإذعان:

إن شرط هذه الشهادة: التحقق بها، ولا يكون إلا بالقبول والإذعان، والتسليم والانقياد، وقد بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ عاقبة الذين يستكبرون عن هذه الشهادة فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ۝٢٣﴾ [الصافات:٢٢-٢٣]،............ إلى أن قال: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ۝٣٤ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ۝٣٦ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣٧ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ۝٣٨ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٣٩﴾ [الصافات:٣٤-٣٩]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْۖ إِنَّ هَٰذَا

(١) صحيح مسلم [٣١].

لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾﴾ [ص:٥-٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ﴾ [لقمان:٢٢]. فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُسْلِمْ﴾ أي: ينقاد مخلصًا موحدًا. وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ﴾ قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العروة: الإيمان. وقال السدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإسلام. وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وسعيد ابن جبير والضحاك رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ: لا إله إلا الله، وروي عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ مثله (١).

قال القاضي أبو محمد ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذه عبارات ترجع إلى معنى واحد"(٢).

وقيل: المراد: القرآن. وقيل: الحب في الله عَزَّ وَجَلَّ والبغض فيه.

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة:٥]: "أشار في هذه الآية الكريمة إلى تحقيق معنى: (لا إله إلا الله)؛ لأن معناها مركب من أمرين: نفي وإثبات. فالنفي: خلع جميع المعبودات غير الله عَزَّ وَجَلَّ في جميع أنواع العبادات. والإثبات: إفراد رب السماوات والأرض وحده بجميع أنواع

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٥/٤٢١-٤٢٢)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٢/٤٩٦)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٤/١٩٩)، النكت والعيون (٤/٣٤٣)، تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (١/٢٦٠)، تفسير ابن كثير (١/٦٨٤)، الدر المنثور (٢/٢٢-٢٣)، البحر المحيط في التفسير (٢/٦١٧)، معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (١/٢٧٢).

(٢) المحرر الوجيز (١/٣٤٤)، وانظر: تفسير القرطبي (٣/٢٨٢).

العبادات على الوجه المشروع. وقد أشار إلى النفي من (لا إله إلا الله) بتقديم المعمول الذي هو ﴿إِيَّاكَ﴾. وقد تقرر في الأصول في مبحث: (دليل الخطاب) الذي هو مفهوم المخالفة. وفي المعاني في مبحث: (القصر): أن تقديم المعمول من صيغ الحصر. وأشار إلى الإثبات منها بقوله: ﴿نَعْبُدُ﴾"[1].

و. ومن شروط هذه الشهادة: الصدق:

فالصفة الفارقة بين المؤمن والمنافق هي: الصدق المنافي للكذب، كما جاء ذلك مبينًا في نصوص الكتاب والسنة.

وفي (الصحيحين) من حديث: أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رديفه على الرحل، قال: «**يا معاذ بن جبل**»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك، قال: «**يا معاذ**»، قال: لبيك يا رسول الله وسعديك ثلاثًا، قال: «**ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، صدقًا من قلبه، إلا حرمه الله على النار**» الحديث[2]، وقد تقدم.

(١) أضواء البيان (١/٧).

(٢) تقدم.

ز. ومن شروط هذه الشهادة: الإخلاص:

وفي الحديث: «**لن يُوَافِيَ عَبْدٌ يوم القيامة يقول: لا إله إلَّا الله، يبتغِي به وجهَ الله، إلَّا حرَّمَ اللهُ عليه النَّار**»[١]. وفي لفظ: «**فإن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله**»، والحديث متفق عليه. وفي الحديث: «**أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه، أو نفسه**»[٢].

وسيأتي الحديث عن الإخلاص في مبحث مطول؛ لأهميته.

ح. ومن شروط هذه الشهادة: محبة الله عَزَّوَجَلَّ، ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

وقد تقرر بيان ذلك في غير موضع.

٤ - الطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله عَزَّوَجَلَّ:

أ. تدبر آيات الله عَزَّوَجَلَّ في الخلق.

ب. تدبر أسماء الله عَزَّوَجَلَّ الخالق وصفاته الدالة على العظمة والجلال، وأنه ليس كمثله شيء.

ج. تدبر صفات العبد ومدى ضعفه وحاجته.

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه البخاري [٩٩، ٦٥٧٠]، وقد تقدم.

د. العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير.

هـ. العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة.

و. التأمل في عناية الله عَزَّوَجَلَّ وتوفيقه لعباده الصالحين.

ز. تدبر ما أعده الله عَزَّوَجَلَّ لعباده الصالحين من النعيم المقيم في الآخرة.

ح. التأمل في تخبط الكافرين في معرفة الحق، وانحطاط أخلاقهم في السلوك والمعاملات.

ط. معرفة أوصاف من عبد من دون الله عَزَّوَجَلَّ، وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة، ولا نشورًا.

ي. تدبر آيات القرآن الكريم، وسنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والتمسك بهما، والاهتداء بهما إلى صحيح الاعتقاد، وخالص التوحيد.

الركن الثاني: الصلاة:

١ - بيان مكانة الصلاة:

إن الصلاة هي الرُّكن الثاني من أركان الإسلام، وهي عمود الدِّين، وهي الصِّلة الدائمة بين العبد وربه جَلَّ وَعَلَا.

والصلاة دليلٌ على محبَّة العبدِ لربِّه عَزَّوَجَلَّ، وتقديره لنعمه التي لا تُحصى.

وهي تنمي في العبد شعور المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، فتنهاه عن الفحشاء والمنكر والبغي، كما أخبر الحق عَزَّوَجَلَّ عن ذلك بقوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت:٤٥]؛ لأنها تجعَل العبد دائمًا مراقبًا لله عَزَّوَجَلَّ في أعماله وأقواله وأحواله.

والمواظبة على الصلاة عنوان فلاح المؤمن في الدنيا والآخرة، وقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ عباده الأخيار بأنهم ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩٢﴾ [الأنعام:٩٢]، ووصفهم بأنهم: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ [المعارج:٢٣]، وبأنهم مهتمون بالصلاة، وحريصون على أدائها في أوقاتها. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ۝١٠٣﴾ [النساء:١٠٣].

والصلاة هي الفريضة الوحيدة التي فرضت ليلة (الإسراء والمعراج) في السماء السابعة، وبدون واسطة، فأصبحت الركن الثاني من أركان الإسلام، وعماد الدين، من تركها وأهملها فكأنه هدم دينه وأضاعه. وفي هذا دليل على أهمية الصلاة؛ ولذلك شدَّد الإسلام عليها كلَّ التشديد، وأمر بالقيام بها في السفر والحضر، والأمن والخوف، والصحة والمرض. إنَّ الصلاة هي المعراج الروحي لكل مسلم، فهي صلة بين العبد وربه عَزَّوَجَلَّ. هذه الفريضة التي تجعل المرء على موعد مع ربه عَزَّوَجَلَّ، وقد فرضت أول ما فرضت خمسين صلاة، ثم مازال النبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يسأل ربَّه التخفيف بإشارة أخيه

موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى خفَّفَ الله عَزَّوَجَلَّ عنهم هذه الصلوات إلى خمس. فهي خمس في الفرض، وخمسون في الأجر؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها.

والصلاة تمد المؤمن بقوة روحية تعينه على تحمل الشدائد والمكاره، فقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن خير ما يستعان به على ذلك: الصبر والصلاة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝٤٥﴾ [البقرة:٤٥]. وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة(١).

وكان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة، كما في حديث: صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما حكاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نبي من الأنبياء السابقين: «**فقام إلى الصلاة، وكانوا إذا فزعوا، فزعوا إلى الصلاة**»(٢).

والصلاة هي الغذاء الروحي الذي يعين على مقاومة الجزع إذا مسَّ الإنسانَ الضُّرُ، والمنع والإمساك إذا مَسَّهُ الخيرُ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ [المعارج:١٩-٢٣]، أي: إلا الذين يطيعون الله بأداء ما افترض عليهم من الصلاة، وهم على أداء ذلك مقيمون لا يضيعون منها شيئًا.

---

(١) جاء في الحديث: عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر، صلَّى» أخرجه أحمد [٢٣٢٩٩]، وأبو داود [١٣١٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢٩١٢]. قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) (١٧٢/٣): "أخرجه أبو داود بإسناد حسن".

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٤٨٠]، وأحمد بإسناد صحيح [١٨٩٣٧]، والبزار [٢٠٨٩]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٣٧٥]، وابن حبان [١٩٧٥]، والضياء [٥٢]، وقال: "إسناده صحيح".

والصلاة تعلم العبد التواضع والشكر، وتملأ قلبه بالرحمة، وفيه تدريب على النظام.

وصلاة الجماعة مظهر من مظاهر الوحدة والمساواة بين المسلمين، وتقوية لروابط المحبة فيما بينهم، فهي سبب لتآلف القلوب، ووحدة الكلمة.

الصلاة التي هي سنام الطاعات، والمحافظة عليها من أسباب التوفيق في الدنيا، كما أنها من أعظم المنجيات من العذاب في الآخرة كما دلَّت النُّصوص على ذلك. وقد وردت كذلك أحاديث لفضلِ صلواتٍ مخصوصة، والنَّص على أنها من المنجيات من النَّار.

وقد توعد الله عَزَّوَجَلَّ تارك الصلاة بالعذاب في الآخرة فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾ [مريم:٥٩]. يقال لعَقِب الخير: خلَفٌ -بفتح اللام-، ولعقب شر خلْفٌ -بالسكون- أي فعقَبهم وجاء بعدهم عَقِبُ سوء[1].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومعنى الآية الكريمة: أن هذا الخلف السيئ الذي خلف من بعد أولئك النبيين الكرام كان من صفاتهم القبيحة: أنهم أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات.

واختلف أهل العلم في المراد بإضاعتهم الصلاة، فقال بعضهم: المراد بإضاعتها: تأخيرها عن وقتها، وممن يروى عنه هذا القول ابن مسعود، والنخعي، والقاسم بن

(١) تفسير أبي السعود (٥/٢٧٢).

مخيمرة، ومجاهد، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم، وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: إن هذا القول هو الصحيح.

وقال بعضهم: إضاعتها الإخلال بشروطها، وممن اختار هذا القول الزجاج، وقال بعضهم: المراد بإضاعتها جحد وجوبها، ويروى هذا القول وما قبله عن محمد بن كعب القرظي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقيل: إضاعتها: إقامتها في غير الجماعات، وقيل: إضاعتها: تعطيل المساجد والاشتغال بالصنائع والأسباب.

قال مقيده -عفا الله عنه وغفر له-: وكل هذه الأقوال تدخل في الآية؛ لأن تأخيرها عن وقتها، وعدم إقامتها في الجماعة، والإخلال بشروطها، وجحد وجوبها، وتعطيل المساجد منها كل ذلك إضاعة لها، وإن كانت أنواع الإضاعة تتفاوت"[1].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾، أي: أقبلوا على شهوات الدنيا وملاذِّها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنُّوا بها، فهؤلاء سيلقون غيًّا؛ أي: خسارًا يوم القيامة، وقدِ اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة ها هنا، فقال قائلون: المرادُ بإضاعتها تركها بالكلية، وقال غيرهم كالأوزاعي: إنما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركًا كان كفرًا.

وقال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قرأ عمرُ بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾، ثم قال: لم تكن إضاعتهم تركها، ولكن أضاعوا الوقت.

---

(١) أضواء البيان (٣/٤٤٤).

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذلك عند قيام الساعة، وذهاب صالحي أمَّة محمد صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينزو(١) بعضهم على بعض في الأزقَّة.

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عطَّلوا المساجد، ولزموا الضيعات(٢).

وقال سعيد بن المسيب -إمام التابعين- رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر، ولا يصلي العصر إلى المغرب، ولا يصلي المغرب إلى العشاء، ولا يصلي العشاء إلى الفجر، ولا يصلي الفجر إلى طلوع الشمس، فمن مات وهو مصرٌّ على هذه الحالة ولم يتب توعده الله عَزَّ وَجَلَّ بغي، وهو واد في جهنم، بعيد قعره، خبيث طعمه(٣).

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾، أي: عذابًا مضاعفًا شديدًا. وقد ذكروا في الغي وجوها: أحدها: أن كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد(٤). وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو على حذف المضاف، أي: يلقون جزاء الغي، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَلْقَ أَثَامًا ۝٦٨﴾ [الفرقان:٦٨]، أي: مجازاة الآثام. وثالثها: غيًّا عن طريق الجنة. ورابعها: الغي واد في جهنم يستعيذ منه أوديتها(٥).

---

(١) (نزا): وثب.

(٢) تفسير ابن كثير (٥/٢٤٤- ٢٤٥).

(٣) انظر: الوسيط، للواحدي (٣/١٨٨)، تفسير البغوي (٣/٢٣٩-٢٤٠)، الكشف والبيان (٦/٢٢٢).

(٤) انظر: الكشاف (٣/٢٦).

(٥) تفسير الرازي (٢١/٥٥٢)، غرائب القرآن (٤/٤٩٥)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣/٣٣٦)، معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٤/٣٤١)، المحرر الوجيز (٤/٢٢-٢٣).

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والوجهان الأولان أقرب، فإن كان في جهنم موضع يسمى بذلك جاز، ولا يخرج من أن يكون المراد ما قدمنا؛ لأنه المعقول في اللغة"(١).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم:٤٢-٤٣].

وقد قيل: السجود في هذا الموضع: الصلاة المكتوبة(٢).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المرسلات:٤٧-٤٨]. قيل: عُني بالركوع في هذا الموضع: الصلاة(٣).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن أصحاب الجحيم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر:٤٢-٤٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون:٤-٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائمًا أو غالبًا، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل هذا كله"(٤).

(١) تفسير الرازي (٢١/٥٥٢).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٣/٥٦٠)، معالم التنزيل (٥/١٤٢)، الدر المنثور (٨/٢٥٦).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٤/١٤٥)، المحرر الوجيز (٥/٤٢١).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/٦٨١).

وقد جاء عن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنهما قالا: الحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾، ولم يقل: (في صلاتهم)[1].

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون:٩].

قيل: المراد بذكر الله في هذه الآية: الصلوات الخمس[2].

وجاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عَمَلِه: صَلَاتُه، فإن صَلُحَتْ فقد أَفْلَحَ وأَنْجَح، وإن فَسَدَتْ فقد خابَ وخَسِر**»[3].

ومما يدل على أن الصلاة من المنجيات: ما أخرجه ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن يزيد بن أبي مريم، قال: مرَّ عمر بمُعاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ثلاث، وهنَّ المنجيات: الإخلاص، وهو الفطرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ

(١) انظر: تفسير الطبري (٦٣٣/٢٤)، الكشف والبيان (٣٠٥/١٠)، تفسير ابن كثير (٤٦٨/٨)، الدر المنثور (٦٤٣/٨)، أضواء البيان (١١٥/٩)، الإتقان في علوم القرآن (١٦٧/٢)، معترك الأقران (٣٨٩/١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٤١٠/٢٣)، الوجيز، للواحدي (ص:١١٠٠)، معالم التنزيل (١٠١/٥)، الكشاف (٥٤٤/٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه [١٤٢٥]، والنسائي [٤٦٥]، والترمذي [٤١٣]، وقال: "حسن غريب من هذا الوجه، وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه". وللحديث طرق أخرى.

ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الروم:٣٠]، والصلاة: وهي الملة، والطاعة: وهي العصمة. فقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: صدقت[١].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**»[٢].

وفي رواية: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**»[٣]، أي: وهو جاحد لها على قول كثير من أهل العلم، وإلا فهو فاسق إذا تهاون في أداء الصلاة من غير إنكار وجحد.

وفي (صحيح البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ) أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: «**من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**»[٤].

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أنه: ذكر الصلاة يومًا فقال: «**من حافظ عليها؟ كانت له نورًا، وبرهانًا، ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ**

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/٩٨)، وانظر: المحرر الوجيز (٤/٣٣٧)، تفسير ابن كثير (٦/٣١٦)، الدر المنثور (٦/٤٩٣)، كنز العمال [٤٤٢٧٦]، درء تعارض العقل والنقل (٨/٣٧٤)، أحكام أهل الذمة، لابن القيم (٢/ ٩٦٥)، شفاء العليل (ص:٢٨٧).

(٢) صحيح مسلم [٨٢].

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٠٣٩٦]، وأحمد [٢٢٩٣٧]، وابن ماجه [١٠٧٩]، والترمذي [٢٦٢١]، وقال: "حسن صحيح غريب". وأخرجه أيضًا: النسائي [٤٦٣]، وابن حبان [١٤٥٤]، والحاكم [١١]، وقال: صحيح الإسناد. قال الذهبي: "صحيح ولا تعرف له علة". وأخرجه أيضًا: البيهقي [٦٤٩٩].

(٤) صحيح البخاري [٥٥٣].

عليها لم يكن له نور، ولا برهان، ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون، وفرعون، وهامان، وأبي بن خلف»(١).

"وفيه أنه لا انتفاع للمصلي بصلاته إلا إذا كان محافظًا عليها؛ لأنه إذا انتفى كونها نورًا وبرهانًا ونجاة مع عدم المحافظة انتهى نفعها"(٢).

وهذا وعيد شديد لمن يصلي ويترك، فلا بدَّ من محافظة المسلم على الصلاة حتى تكون له يوم القيامة نورًا وبرهانًا ونجاة.

وفي (صحيح مسلم): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا وَيْلَه**(٣) -وفي رواية أبي كريب: **يا ويلي**- **أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرتُ بالسجود فأبيتُ فَلِيَ النار**». حدثني زهير بن حرب، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش بهذا الإسناد، مثله غير أنه قال: «**فعصيتُ فَلِيَ النار**»(٤).

وفي (صحيح مسلم): عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها؟** -أو- **يميتون**

---

(1) أخرجه أحمد [٦٥٧٦]، قال الهيثمي (٢٩٢/١): "رجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: عبد بن حميد [٣٥٣]، والدارمي [٢٧٦٣]. والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢٥٦٥].

(٢) نيل الأوطار (٣٦٤/١).

(٣) هو من آداب الكلام، وهو أنه إذا عرض في الحكاية عن الغير ما فيه سوء، واقتضت الحكاية رجوع الضمير إلى المتكلم صرف الحاكي الضمير عن نفسه؛ تصاونًا عن صورة إضافة السوء إلى نفسه. شرح النووي على صحيح مسلم (٧١/٢).

(٤) صحيح مسلم [٨١].

الصلاة عن وقتها؟»، قال: قلت: فما تأمرني؟ قال: «**صل الصلاة لوقتها، فإن أدركتها معهم، فصل، فإنها لك نافلة**»(١).

٢ - الوقاية من آفات ترك الصلاة والعلاج:

أ. تقوية الوازع الإيماني من خلال سماع الدروس الدينية والمواعظ المفيدة، ومجالسة العلماء والصالحين.

ب. تعليم الأهل والأولاد أحكام الصلاة وفضلها، وحثهم على أدائها في وقتها: وقد جاء في الحديث: «**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع**»(٢).

قال الفقهاء: وهكذا في الصوم؛ ليكون ذلك تمرينًا لهم على العبادة؛ لكي يبلغوا وهم مستمرون على العبادة والطاعة، ومجانبة المعصية وترك المنكر (٣).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: "فواجبٌ على كلِّ مسلم أن يعلِّمَ أهله ما بهم الحاجة إليه من أمر دينهم، وينهاهم عما لا يحلُّ لهم"(٤).

---

(١) صحيح مسلم [٦٤٨].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٨٢]، وأحمد [٦٦٨٩]، وأبو داود [٤٩٥]، والخرائطي في (مكارم الأخلاق [٤٥٧]، والدارقطني [٨٨٧]، والحاكم [٧٠٨]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٠/٢٦)، والبيهقي في (السنن الكبرى) [٣٢٣٣]، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. قال الإمام النووي في (رياض الصالحين) (ص:١٢٦): "رواه أبو داود بإسناد حسن".

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٨/١٨٩).

(٤) الاستذكار (٣/٧٢).

ج. أن يفقه المكلف مكانة الصلاة وفضلها وأحكامها، وأن يسأل أهل العلم عما جهله منها:

إنَّ المحافظةَ على الصَّلاة عمومًا يُعَدُّ من المنجيات من العذاب كما دلَّت النُّصوص على ذلك. وقد وردت أحاديث لفضلِ صلواتٍ مخصوصة، والنَّص على أنها من المنجيات من النَّار.

فمن الأحاديث الدالة على أن المحافظة على الصَّلاة عمومًا من المنجيات: ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الميت إذا وضع في قبره إنه ليسمع خَفْقَ نِعَالِهِمْ حين يُوَلُّونَ عنه، فإذا كان مؤمنًا كانت الصَّلَاةُ عند رأسه، والزَّكَاةُ عن يمينه، والصَّوم عن شماله، وفعلُ الخيرات، والمعروفُ، والإحسانُ إلى النَّاس عند رجليه**» الحديث(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عَمَلِهِ صَلَاتُه، فإن صَلُحَتْ فقد أَفْلَحَ وأَنْجَح، وإن فَسَدَتْ فقد خابَ وخَسِرَ**»(٢).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في (المصنف) [٦٧٠٣]، وابن أبي شيبة [١٢٠٦٢]، وابن حبان [٣١١٣]، والطبراني في (الأوسط) [٢٦٣٠]، والبيهقي في (إثبات عذاب القبر) [٦٧]، قال الهيثمي (٣/٥١-٥٢): "رواه الطبراني في (الأوسط)، وإسناده حسن".

(٢) أخرجه ابن ماجه [١٤٢٥]، والنسائي [٤٦٥]، والترمذي [٤١٣]، وقال: "حسن غريب من هذا الوجه، وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه". وللحديث طرق أخرى.

وفي (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسلُ منه كُلَّ يوم خمسَ مَرَّاتٍ، هل يَبْقَى من دَرَنِهِ شيءٌ؟**»، قالوا: لا يبقى من دَرَنِهِ شيء، قال: «**فذلك مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْس، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخطايا**»[(١)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الصَّلَاةُ الخَمْس، والجُمْعَة إلى الجُمْعَة، كَفَّارَةٌ لما بَيْنَهُنَّ، ما لم تُغْشَ الكبائر**»[(٢)].

وعن حَنْظَلَةَ الأُسَيْدِيِّ، أنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من حافظ على الصَّلوات الخَمْسِ، على وُضُوئِهَا، ومواقيتِهَا، وركوعِهَا، وسجودها، يراها حقًّا للهِ عليه، حُرِّمَ على النَّار**»[(٣)].

وفي الحديث: «**حَرَّمَ الله على النَّار أن تأْكُلَ أَثَرَ السُّجود**»[(٤)]. إلى غير ذلك من الأحاديث، وهي كثيرة.

*ومن الأحاديث الدَّالة على فضل صلواتٍ مخصوصة، والنَّصِ على أنها من المنجيات من النار: ما جاء في (صحيح مسلم) عن أبي بكرِ بنِ عُمَارَةَ بن رُؤَيْبَة، عن

---

(١) صحيح البخاري [٥٢٨]، مسلم [٦٦٧].

(٢) صحيح مسلم [٢٣٣].

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٨٣٢]، وأحمد [١٨٣٤٦]، والطبراني [٣٤٩٤]. قال الهيثمي (٢٨٩/١): "رواه أحمد والطبراني في (الكبير)، ورجال أحمد رجال الصحيح". كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٢٥٦٦].

(٤) صحيح البخاري [٧٤٣٧]، مسلم [١٨٢].

أبيه، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لن يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها**»، يعني: الفجر والعصر(١).

وفي (الصحيحين): «**من صَلَّى البَرْدَيْن دخل الجنَّة**»(٢).

قوله: «**البَرْدَيْن**»: تثنية برد، بفتح الباء الموحدة وسكون الراء، والمراد بهما: صلاة الفجر والعصر(٣).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "قال كثير من العلماء: هما الفجر والعصر، وسُمِّيا بذلك؛ لأنهما يفعلان في وقتي البرد"(٤).

وقال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: "لأنهما يصليان في بردي النهار، وهما طرفاه حين يطيب الهواء وتذهب سَوْرَةُ الحرِّ"(٥).

وقال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: "أي: الفجر والعصر، وخصمهما؛ لكونهما شاقين، فمن واظب عليهما واظب على غيرهما بالأولى"(٦).

وعن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كنا عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنظر إلى القمر ليلة -يعني: البدر- فقال: «**إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر، لا تُضَامُّونَ**

---

(١) صحيح مسلم [٦٣٤].

(٢) صحيح البخاري [٥٧٤]، مسلم [٦٣٥].

(٣) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٢/٥٣)، عمدة القاري (٥/٧١)، مرعاة المفاتيح (٢/٣٣١).

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢/٢٦٢).

(٥) انظر: غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي (١/١٨٥-١٨٨)، فتح الباري، لابن حجر (٢/٥٣)، عمدة القاري (٥/٧١). و(سَوْرَة الحر): وُثُوبُه واشتداده.

(٦) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/ ٣٠٣).

في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغْلَبُوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا»، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق:٣٩]، قال إسماعيل: افعلوا لا تفوتنكم(١).

وعن أُمِّ حَبِيبَةَ -زوج النَّبِيِّ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من حافظ على أربع ركعاتٍ قبل الظُّهر، وأربعٍ بعدها، حَرُمَ عَلَى النَّارِ»(٢).

د. الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ في سائر الأعمال:

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن كان العمل موافقًا للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله عَزَّ وَجَلَّ فهو مردود على فاعله، وهذا حال المنافقين والمرائين، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون:٤-٧]، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠]"(٣).

هـ. تذكر الموت والآخرة، والتزود من دار الفناء لدار البقاء.

---

(١) صحيح البخاري [٥٥٤، ٥٧٣، ٤٨٥١، ٧٤٣٤]، مسلم [٦٣٣].

(٢) أخرجه أبو داود [١٢٦٩]، والترمذي [٤٢٨]، وقال: "حسن صحيح غريب". وأخرجه أيضًا: النسائي [١٨١٦]، والطبراني في (الكبير) [٤٤١]، و(الأوسط) [٣٠٨٣]، والشاميين [١٢٦٣]، والحاكم [١١٧٥]، والبيهقي في (السنن) [٤٢٦٤].

(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٥).

و. الاهتمام بمواقيت الصلاة، والتعود على النظام، واحترام المواعيد. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النساء:١٠٣]، فلا يجوز تأخير الصلاة عن وقتها إلا لعذر شرعي من نوم أو إغماء أو نسيان أو نحوه.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾: "مسوق مساق التعليل للحرص على أدائها في أوقاتها. والموقوت: المحدود بأوقات، والمنجم عليها، وقد يستعمل بمعنى المفروض على طريق المجاز. والأول أظهر هنا"(١).

ز. الابتعاد عن الذنوب والمعاصي، ومجاهدة النفس والهوى والشيطان.

ح. تدبر الآيات، ومطالعة سيرة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وحاله في صلاته، وحال أصحابه الكرام رضوان الله عليهم، وحال السلف الصالح في صلاتهم وقراءتهم أو سماعهم لآيات القرآن الكريم، فقد جاء عن عبد الله بن الشِّخِّير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: رأيت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء(٢).

و«**الأزيز**» -بفتح الألف بعدها زاي مكسورة ثم تحتانية ساكنة ثم زاي أيضًا-: وهو صوت القدر. قال في (النهاية): هو أن يجيش جوفه، ويغلي من البكاء.

و«**المرجل**» -بكسر الميم وسكون الراء وفتح الجيم-، قدر من نحاس، وقد يطلق على كل قدر يطبخ فيها. ولعله المراد في الحديث.

---

(١) التحرير والتنوير (٥/١٨٩).

(٢) أخرجه أحمد [١٦٣١٧]، وأبو داود [٩٠٤]، والنسائي [١٢١٤]، وأبو يعلى [١٥٩٩]، وابن خزيمة [٩٠٠]، وابن حبان [٦٦٥]، والحاكم [٩٧١]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: تمام [١٦١٩]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢/٢١١)، والبيهقي [٣٣٥٦].

وفي رواية أبي داود: «**كأزيز الرحا**» يعني: الطاحون[1].

وعندما مرض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واشتد عليه المرض قال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**»، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إنه رجل رقيق، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، قال: «**مروا أبا بكر فليصل بالناس**» فعاودته، فقال: «**مروه فيصلي، إنكن صواحب يوسف**»، فصلَّى بالنَّاس في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة ذات الرقاع، فأصيبت امرأة من المشركين، فلما انصرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قافلًا، وجاء زوجها وكان غائبًا، فحلف أن لا ينتهي حتى يهريق دما في أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخرج يتبع أثر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنزل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منزلًا، فقال: «**من رجل يكلؤنا ليلتنا هذه؟**»، فانتدب رجل من المهاجرين، ورجل من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول الله، قال: «**فكونوا بفم الشعب**»، قال: وكانوا نزلوا إلى شعب من الوادي، فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب، قال الأنصاري للمهاجري: أي الليل أحب إليك أن أكفيكه؟ أوله أو آخره؟ قال: اكفني أوله، فاضطجع المهاجري فنام،

---

(١) نيل الأوطار (٢/٣٧٥)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة (أزز) (١/٤٥).

(٢) صحيح البخاري [٦٦٤، ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٢، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٦، ٣٣٨٤، ٣٣٨٥، ٧٣٠٣]، مسلم [٤١٨، ٤٢٠]. و«صواحب يوسف» أي: مثل صواحبه في التظاهر على ما يردن من كثرة الإلحاح فيما يمكن أن يكون.

وقام الأنصاري يصلي، وأتى الرجل، فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة القوم(١)، فرماه بسهم، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، وثبت قائمًا، ثم رماه بسهم آخر، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، وثبت قائمًا، ثم عاد له بثالث، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، ثم ركع وسجد، ثم أهب(٢) صاحبه، فقال: اجلس فقد أُوتِيت، فوثب، فلما رآهما الرجل عرف أن قد نذروا(٣) به فهرب، فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء، قال: سبحان الله، ألا أهببتني، قال: كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها حتى أُنْفِذَهَا، فلما تابع الرمي ركعت فَأُرِيتُكَ، وايم الله، لولا أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها(٤)، أو أُنْفِذَهَا(٥).

ط. أن يبادر المكلف إلى الصلاة برغبة منه ومحبة لشرع الله عَزَّوَجَلَّ:

يجب على كل مسلم محبَّة ما شرع الله عَزَّوَجَلَّ من أحكام؛ فمن أبغض شريعة الرسول عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو أبغض شعيرة من شعائر الإسلام، أو أبغض أيَّ طاعة مما يتعبد به الناس في دين الإسلام فإنه يبطل عمله؛ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ

---

(١) ربيئة القوم: -بفتح راء وكسر موحدة وياء ساكنة وهمزة بعدها، وقد تشدد الياء وتترك الهمزة تخفيفًا-، وهو الرقيب والجاسوس والحارس الذي يكون في طليعة القوم.

(٢) (أهبَّ) بتشديد الباء، أي: أيقظ.

(٣) (نذروا به) -بفتح نون وكسر ذال معجمة-، أي: شعروا به، وعلموا بمكانه.

(٤) أي: الصلاة.

(٥) أخرجه أحمد [١٤٧٠٤]، وأبو داود [١٩٨]، وابن خزيمة [٣٦]، وابن حبان [١٠٩٦]، والدارقطني [٨٦٩]، والحاكم [٥٥٧]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي [٦٦٣].

اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:٩]. ولا شكَّ أنَّ الشَّرع فيه تكاليف، وفيه ما يَشُقُّ على النُّفُوس، وهذا هو السَّبب في تسمية الأحكام بالتَّكليف؛ لأنَّ الجنة حُفَّت بالمكاره، وقد يكون ذلك في بداية الأمر، فإذا اعتاده وأدرك ما فيه من المصلحة والصلة والمقصد فإنه يتلذَّذ بالطَّاعة. والرَّسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**أرحنا يا بلال بالصَّلاة**»(١).

ويقول: «**وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**»(٢).

ولا بد في التكليف من الاصطبار –ولا سيما في بداية الأمر قبل أن يعتاده– كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه:١٣٢].

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»(٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "معناه: أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة، مكلف بفعل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من

---

(١) قال في (الكشف): "رواه أبو داود عن سالم بن أبي الجعد قال: قال رجل: ليتني صليت فاسترحت، فكأنهم عابوا ذلك عليه، فقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها». ولأبي داود عن محمد بن الحنفية أنه قال: انطلقت أنا وأبي إلى صهر لنا في الأنصار نعوده فحضرت الصلاة فقال لبعض أهله: يا جارية: ائتوني بوضوء لعلي أصلي فأستريح، قال: فأنكرنا ذلك عليه، فقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «قم يا بلال فأرحنا بالصلاة»"كشف الخفاء [٣١٢]. والحديث له أطراف كثيرة.

(٢) أخرجه أحمد [١٢٢٩٣]، والنسائي [٣٩٣٩]، وأبو يعلى [٣٤٨٢]، والطبراني في (الأوسط) [٥٢٠٣]، و(الصغير) [٧٤١]، والحاكم [٢٦٧٦]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٣٤٥٤]، كلهم عن أنس. كما أخرجه الطبراني في (الكبير) [١٠١٢] عن المغيرة.

(٣) صحيح مسلم [٢٩٥٦].

هذا، وانقلب إلى ما أعد الله عَزَّوَجَلَّ له من النعيم الدائم، والراحة الخالصة من النقصان. وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل في الدنيا -مع قلته وتكديره بالمنغصات- فإذا مات صار إلى العذاب الدائم، وشقاء الأبد"(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولا يزال العبد يعاني الطاعة و يألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله عَزَّوَجَلَّ برحمته عليه الملائكة تؤُزُّهُ إليها أزًا، وتحرضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها. ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها، حتى يرسل الله عَزَّوَجَلَّ إليه الشياطين، فتؤزه إليها أزًا.

فالأول قويٌّ جنَّدَ الطَّاعَةَ بالمدد، فكانوا من أكبر أعوانه، وهذا قوي جنَّدَ المعصية بالمدد فكانوا أعوانًا عليه"(٢).

---

(١) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٨/ ٩٣).

(٢) الجواب الكافي (ص:٥٦).

الركن الثالث: الزكاة:

١ - بيان مكانة الزكاة وما جاء في فضلها وعقوبة تاركها:

إن من بين أركان الإسلام العظيمة ركن الزكاة، وهو ثالث أركان الدين كما جاء في الحديث: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت**»(١).

قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللَّهُ: "الزكاة في اللغة لمعنيين:

أحدهما: النماء.

والثاني: الطهارة.

فمن الأول: قولهم: زكاة الزرع. ومن الثاني: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

وسمي هذا الحق زكاة بالاعتبارين. أما بالاعتبار الأول: فبمعنى أن يكون إخراجها سببًا للنماء في المال، كما صح في الحديث: «**ما نقص مال من صدقة**»(٢).

---

(١) صحيح البخاري [٨]، مسلم [١٦].

(٢) أخرجه مسلم بلفظ: «ما نقصت صدقة من مال». وسيأتي، والحديث: أخرجه أحمد [١٨٠٣١]، وابن حميد [١٥٩]، والترمذي [٢٣٢٥]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: البزار [١٠٣٢]، وأبو يعلى [٨٤٩]، والطبراني [٨٥٥]. قال الهيثمي (١٠٥/٣): "رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، وفيه رجل لم يسم، وله عند البزار طريق عن أبي سلمة عن أبيه، وقال: إن الرواية هذه أصح".

ووجه الدليل منه: أن النقصان محسوس بإخراج القدر الواجب، فلا يكون غير ناقص إلا بزيادة تبلغه إلى ما كان عليه، على المعنيين جميعًا، أعني: المعنوي والحسي في الزيادة، أو بمعنى: أن متعلقها الأموال ذات النماء. وسميت بالنماء؛ لتعلقها به أو بمعنى: تضعيف أجورها، كما جاء في الحديث: «**إن الله يربي الصدقة حتى تكون كالجبل**»[1].

وأما بالمعنى الثاني: فلأنها طهرة للنفس من رذيلة البخل، أو لأنها تطهر من الذنوب. وهذا الحق أثبته الشارع لمصلحة الدافع والآخذ معًا. أما في حق الدافع: فتطهيره وتضعيف أجوره. وأما في حق الآخذ: فلسد خلته"[2].

ويظهر فضل الزكاة من أوجه: منها: اقترانها بالصلاة في مواضع كثيرة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

وفي (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: لما توفي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ واستخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لأبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله، ونفسه، إلا بحقه وحسابه على الله**»، فقال أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: والله لأقاتلن من فَرَّقَ بين الصلاة، والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى

(١) متفق عليه، وسيأتي.

(٢) إحكام الإحكام (١/٣٧٤-٣٧٥).

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقاتلتهم على منعه، فقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فو الله، ما هو إلا أن رأيت الله عَزَّ وَجَلَّ قد شرح صدر أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للقتال، فعرفت أنه الحق(١).

ومنها: أنها ثالث أركان الإسلام الخمسة -كما تقدم-.

ومن حيث هي فريضة أفضل من سائر الصدقات، كما جاء في الحديث القدسي: «**وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه**»(٢).

(١) صحيح البخاري [١٣٩٩، ١٤٠٠، ٦٩٢٤، ٦٩٢٥، ٧٢٨٤]، مسلم [٢٠]، واللفظ له. قوله: «وحسابه على الله» معناه: أي فيما يستسرون به ويخفونه دون ما يخلون به في الظاهر من الأحكام الواجبة. وأما (العقال) فقد اختلفوا في تفسيره، فقال أبو عبيد القاسم بن سلام: العقال صدقة عام. وقال غيره: العقال الحبل الذي يعقل به البعير وهو مأخوذ مع الفريضة؛ لأن على صاحبها التسليم، وإنما يقع قبضها برباطها" معالم السنن (٢/١٢). وقال الإمام النووي: ذهب كثير من المحققين إلى أن المراد بالعقال: الحبل الذي يعقل به البعير، وهذا القول يحكى عن مالك وابن أبي ذئب وغيرهما، وهو اختيار صاحب التحرير، وجماعة من حذاق المتأخرين. قال صاحب التحرير: قول من قال: المراد صدقة عام تعسف وذهاب من طريقة العرب؛ لأن الكلام خرج مخرج التضييق والتشديد والمبالغة فيقتضي قلة ما علق به العقال وحقارته، وإذا حمل على صدقة العام لم يحصل هذا المعنى. قال النووي: وهذا الذي اختاره هو الصحيح الذي لا ينبغي غيره. قال الشوكاني: وكذلك أقول أنا. ثم اختلفوا المراد بقوله: «منعوني عقالا» فقيل: قدر قيمته في زكاة الذهب والفضة والمعشرات والمعدن والركاز والفطرة والمواشي في بعض أحوالها، وهو حيث يجوز دفع القيمة. وقيل: زكاة عقال إذا كان من عروض التجارة. وقيل: المراد المبالغة ولا يمكن تصويره ويرده ما تقدم. وقيل: إنه العقال الذي يؤخذ مع الفريضة؛ لأن على صاحبها تسليمها برباطها. شرح النووي على صحيح مسلم (١/٢٠٨-٢٠٩)، نيل الأوطار (٤/١٤٦). وعند البخاري [٧٢٨٤]: قال ابن بكير، وعبد الله عن الليث: عناقًا، وهو أصح. و(العناق): الأنثى من أولاد المعز ما لم يتم لها سنة.

(٢) صحيح البخاري [٦٥٠٢].

والمحافظة على أداء فريضة الزكاة بنفس طيبة من أسباب دخول الجنة، ورفعة الدرجات، كما جاء في الحديث: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة: من حافظ على الصلوات الخمس، على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن، وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلًا، وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه، وأدى الأمانة**»، قيل: يا نبي الله، وما أداء الأمـانـة؟ قال: «**الغسل من الجنابة، إن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها**»[(١)].

وعن عمرو بن مرة الجهني قال: جاء رجل من قضاعة إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إني شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وصليت الصلوات الخمس، وصمت رمضان وقته، وآتيت الزكاة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من مات على هذا كان من الصديقين والشهداء**»[(٢)].

---

(١) أخرجه أبو داود [٤٢٩]، ومحمد بن نصر المروزي في (الوتر) (ص:٢٧٢)، والطبراني كما في (مجمع الزوائد) قال الهيثمي (٤٧/١): "رواه الطبراني في (الكبير) وإسناده جيد". وقال أيضًا المنذري (١٤٨/١): "إسناده جيد". وأخرجه أيضًا: وأبو نعيم في (الحلية) (٢٣٤/٢).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٢٥٥٨]، والبزار كما في (كشف الأستار) [٢٥]، وابن خزيمة [٢٢١٢]، وابن حبان [٣٤٣٨]، والطبراني في (الشاميين) [٢٩٣٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٣٤٥]. قال الهيثمي (٤٦/١): "رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح خلا شيخي البزار، وأرجو إسناده أنه إسناد حسن أو صحيح".

وقد شرعت الزكاة لحكم عظيمة، ومصالح جمة تعود على الأفراد والمجتمعات بالخير والفضل العظيم، فهذا الحق أثبته الشارع لمصلحة الدافع والآخذ معًا -كما تقدم-.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]. فالزكاة تطهر النفس من درن الشح والبخل، وهي سبب لحصول النماء والبركة في المال.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة:٢٧٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾ [الروم:٣٩].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**ما نقصت صدقة من مال**» (١).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما تَصَدَّقَ أحد بصدقة من طيب، ولا يقبل الله إلا الطَّيِّب، إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فتَرْبُو في كَفِّ الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل، كما يُرَبِّي أحدكم فَلُوَّهُ أو فَصِيلَه**» (٢).

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٨٨].

(٢) صحيح البخاري [١٤١٠، ٧٤٣٠]، صحيح مسلم، واللفظ له [١٠١٤]. قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «فتَرْبُو في كَفِّ الرحمن» قيل: إن المراد بذلك تعظيم أجرها، وتضعيف ثوابها. قال: ويصح أن يكون على ظاهره، وأن تعظم ذاتها، ويبارك الله جَلَّوَعَلَا فيها، ويزيدها من فضله حتى تثقل في الميزان. وهذا الحديث نحو قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة:٢٧٦]. قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله». قال أهل اللغة: (الفلو): المهر، سمي بذلك؛ لأنه فلي عن أمه، أي: فصل=

فليست الزكاة محض مال يؤخذ من الجيوب، بل غرس للرحمة والرأفة في القلوب.

وإن منع الزكاة بخلًا بها وحرصًا وجشعًا من أكبر الكبائر، وأقبح المنكرات؛ ولذلك جاء الوعيد الشديد في حق تارك الزكاة، وقد أخبرت النصوص أن عذابهم بها على وجوه:

منها: أن يمثل لصاحب المال مالُه شجاعًا أقرع له زبيبتان، فيطوق عنقه، ويأخذ بلهزمتي صاحبه، قائلاً له: أنا مالك، أنا كنزك، كما جاء في (صحيح البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ): عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من آتاه الله مالًا، فلم يُؤَدِّ زكاته مُثِّلَ له ماله يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان يُطَوَّقُهُ يوم القيامة، ثم يأخذ بِلِهْزِمَتَيْه** -يعني: بِشِدْقَيْه- **ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك**».

ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُمۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۗ﴾ [آل عمران:١٨٠]» (١).

و(الشجاع الأقرع): الذي تَمَعَّطَ شَعْرُهُ؛ لِكَثْرَةِ سُمِّه، و(الزبيبتان): نُقْطَتَانِ سَوْدَاوَانِ على عَيْنَيْه، وهو أخبثُ الْحَيَّات.

ومنها: أن يؤتى بالمال نفسه الذي منع زكاته، فإن كان من الذهب والفضة جعل صفائح من نار، ثم عذب به صاحبه، وإن كان المال حيوانًا -إبلاً أو بقرًا أو

=وعزل. و(الفصيل): ولد الناقة إذا فصل من إرضاع أمه، فعيل بمعنى مفعول، كجريح وقتيل بمعنى مجروح ومقتول، وفي (الفلو) لغتان فصيحتان أفصحهما وأشهرهما: فتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو، والثانية: كسر الفاء وإسكان اللام وتخفيف الواو. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٩٩).

(١) صحيح البخاري [١٤٠٣، ٤٥٦٥].

غنمًا- أرسل على صاحبه فعذب به، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة:٣٤-٣٥](١).

وفي (صحيح مسلم): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يُؤَدِّي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة، صُفِّحَتْ له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة، وإما إلى النار»**.

قيل: يا رسول الله، فالإبل؟ قال: **«ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها، ومن حقها حَلَبُهَا**(٢) **يوم وِرْدِهَا، إلا إذا كان يوم القيامة، بُطِحَ**(٣) **لها بِقَاعٍ**(٤)

---

(١) القيامة الكبرى (ص:١٤٢-١٤٢).

(٢) هو بفتح اللام على اللغة المشهورة. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٦٤/٧).

(٣) بطح قال جماعة: معناه: ألقي على وجهه. وقال القاضي: ليس من شرط البطح كونه على الوجه، وإنما هو في اللغة بمعنى: البسط والمد، فقد يكون على وجهه، وقد يكون على ظهره، ومنه سميت: بطحاء مكة؛ لانبساطها. إكمال المعلم، للقاضي عياض (٢٥٩/٣-٢٦٠)، شرح النووي على صحيح مسلم (٦٤/٧-٦٥).

(٤) القاع: المستوي من الأرض. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٦٤/٧)، الصحاح، للجوهري، مادة: (قوع) (١٢٧٤/٣).

قَرْقَرٍ [(١)]**، أَوْفَرَ ما كانت** [(٢)]**، لا يَفْقِدُ منها فصيلًا واحدًا، تَطَؤُهُ بأخْفَافِهَا وتَعَضُّهُ بأفواهها، كلما مَرَّ عليه أولاها رُدَّ عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار».**

قيل: يا رسول الله، فالبقر والغنم؟ قال: «**ولا صاحب بقر، ولا غنم، لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر، لا يفقد منها شيئًا، ليس**

---

(١) و(القرقر): المستوي أيضًا من الأرض، الواسع، وهو بفتح القافين. إكمال المعلم (٣/٢٥٩)، شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٦٤).

(٢) قال في (طرح التثريب): قوله: "«أوفر ما كانت» أي: عند مانع زكاتها؛ لأنها قد تكون عنده على حالات: مرة هزيلة، ومرة سمينة، ومرة صغيرة، وأخرى كبيرة، فتأتي يوم القيامة على أوفر أحوالها عنده؛ زيادة في عقوبته بقوتها، وكمال خلقها، فتكون أثقل في وطئها. وأيضا فيأتي جميعها لا يفقد منها شيئًا، حتى (الفصيل) وهو بفتح الفاء وكسر الصاد: ولد الناقة إذا فصل عن أمه، وقد تجب فيه الزكاة إما لبلوغه حولًا، وإما لبناء حوله على حول أمه، وهذا الذي ذكرته هو الظاهر، وذكر معه والدي في شرح الترمذي احتمالين آخرين: أحدهما: أنها تأتي أوفر ما كانت في الدنيا مطلقًا فقد تكون عند صاحبها الذي منع زكاتها هزيلة في جميع مدتها عنده، وتسمن بعد ذلك عند غيره، أو تكون قبل أن يملكها سمينة، فتحشر على أتم حالاتها؛ تغليظًا عليه. الاحتمال الثاني: أنها تجيء على أعظم حالات الإبل مطلقًا -هي وغيرها-، وكذلك البقر والغنم. ويدل له قوله بعد ذلك: «ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء». وفي حديث جابر عند مسلم أيضًا: «ليس فيها جماء ولا منكسر قرنها» وربما كان في بقره وغنمه في الدنيا ما هو بهذه الصفة من النقص فأخبر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنها تأتي تامة الخلقة؛ تغليظًا عليه" طرح التثريب في شرح التقريب (٤/١٢-١٣). وقال الإمام النووي: "في الرواية الأخرى: «أعظم ما كانت» هذا للزيادة في عقوبته بكثرتها وقوتها وكمال خلقها، فتكون أثقل في وطئها، كما أن ذوات القرون تكون بقرونها؛ ليكون أنكى وأصوب لطعنها ونطحها". شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٦٥).

فيها عَقْصَاء، ولا جَلْحَاء [(١)]، ولا عَضْبَاء، تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها [(٢)]، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار».

قيل: يا رسول الله، فالخيل؟ قال: «**الخيل ثلاثة: هي لرجل وِزْرٌ، وهي لرجل سِتْرٌ، وهي لرجل أجر، فأما التي هي له وزر فرجل ربطها رِيَاءً وفَخْرًا ونِوَاء [(٣)] على أهل الإسلام، فهي له وزر. وأما التي هي له ستر، فرجل ربطها في سبيل الله، ثم لم يَنْسَ حق الله في ظهورها ولا رقابها [(٤)]، فهي له ستر. وأما التي هي له أجر، فرجل**

(١) قال أهل اللغة: (العقصاء): ملتوية القرنين، و(الجلحاء): التي لا قرن لها والعضباء التي انكسر قرنها الداخل. شرح النووي على صحيح مسلم (٦٥/٧)، وانظر: طرح التثريب (١٣/٤).

(٢) (الظلف) للبقر والغنم والظباء، وهو المنشق من القوائم، و(الخف) للبعير، و(القدم) للآدمي، و(الحافر) للفرس والبغل والحمار. شرح النووي على صحيح مسلم (٦٥/٧).

(٣) أي: مناوأة ومعاداة.

(٤) قال الإمام النووي: "استدل به أبو حنيفة على وجوب الزكاة في الخيل. ومذهبه: أنه إن كانت الخيل كلها ذكورًا فلا زكاة فيها، وإن كانت إناثًا أو ذكورًا وإناثًا وجبت الزكاة. وهو بالخيار إن شاء أخرج عن كل فرس دينارًا، وإن شاء قومها وأخرج ربع عشر القيمة. وقال مالك والشافعي وجماهير العلماء: لا زكاة في الخيل بحال؛ لحديث: «ليس على المسلم في فرسه صدقة» صحيح البخاري [١٤٦٣، ١٤٦٤]، مسلم [٩٨٢]. وتأولوا هذا الحديث على أن المراد أنه يجاهد بها. وقد يجب الجهاد بها إذا تعين. وقيل: يحتمل أن المراد بالحق في رقابها الإحسان إليها والقيام بعلفها وسائر مؤنها. والمراد بظهورها: إطراق فحلها إذا طلب منه إعارته، وهذا على سبيل الندب وقيل: المراد حق الله مما يكسبه من مال العدو على ظهورها، وهو خمس الغنيمة. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٦٦/٧)، وانظر: طرح التثريب (١٤/٤)، تفسير القرطبي (٧٨/١٠).

ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام، في مَرْجٍ وروضة(١)، فما أكلت من ذلك المرج، أو الروضة من شيء، إلا كتب له، عدد ما أكلت حسنات، وكتب له، عدد أرواثها وأبوالها، حسنات، ولا تقطع طِوَلَهَا(٢) فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا، أو شَرَفَيْنِ(٣)، إلا كتب الله له عدد آثارها(٤) وأرواثها(٥) حسنات، ولا مر بها صاحبها على نهر(٦)، فشربت منه ولا يريد أن يسقيها(٧)، إلا كتب الله له، عدد ما شربت، حسنات».

---

(١) قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المرج): الأرض الواسعة ذات نبات كثير، تَمْرُجُ فيه الدواب، أي: تُخَلَّى تَسْرَح مخْتلطة اهـ. و(الروضة) أخص من المرعى. النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/٣١٥)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٤/١٢٦٥).

(٢) هو بكسر الطاء وفتح الواو. ويقال: طيلها –بالياء– كذا جاء في (الموطأ). والطول والطيل: الحبل الذي تربط فيه. شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٦٦)، وفي (المرقاة) (٤/١٢٦٦): "حبلها الطويل الذي شد أحد طرفيه في يد الفرس، والآخر في وتد أو غيره؛ لتدور فيه، وترعى من جوانبها، ولا تذهب لوجهها".

(٣) «فاسْتَنَّتْ» –بتشديد النون– أي: عدت ومرجت ونشطت لِمَرَاحِهَا أو نشاطها. «ولا راكب عليها شرفا» أي: شوطًا أو ميدانًا أو موضعا عاليًا من الأرض، أو ذهابًا إلى إخراج المرج أو مع العود إلى مَحَلِّهَا. «أو شرفين» وإنما سمي شرفًا؛ لأن الدابة تعدو حتى تبلغ شرفًا من الأرض، أي: مرتفعًا فتقف عند ذلك وقفة، ثم تعدو ما بدا لها. مرقاة المفاتيح (٤/١٢٦٦).

(٤) أي: بعدد خطاها.

(٥) أي: في تلك الحالة.

(٦) بفتح الهاء وسكونها.

(٧) بفتح الياء وضمها.

قيل: يا رسول الله، فالْحُمُر؟ قال: «**ما أنزل علي في الْحُمُر شيء، إلا هذه الآيَةَ الْفَاذَّةُ**[1] **الجامعة**: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة:٧- ٨]»[2].

هذا بالنسبة لعقوبته الأخروية. أما بالنسبة للعقوبة الدنيوية فقد جاء في الحديث: «**ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين**»[3]، أي: بالجدب والقحط.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال: أقبل علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله، وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم**

---

(١) القليلة النظير والجامعة، أي: العامة المتناولة لكل خير ومعروف. ومعنى الحديث: لم ينزل علي فيها نص بعينها، لكن نزلت هذه الآية العامة. شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٦٧).

(٢) صحيح مسلم [٩٨٧].

(٣) أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٤٥٧٧]. قال الهيثمي (٣/٦٦): "رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: تمام في (الفوائد) [٩٤٠].

عدوا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم» (١).

وفي رواية: عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما نقض قوم العهد قط، إلا كان القتل بينهم، ولا ظهرت الفاحشة في قوم قط، إلا سلط الله عليهم الموت، ولا منع قوم الزكاة، إلا حبس الله عنهم القطر»** (٢).

ومن منع الزكاة وهو في قبضة الإمام تؤخذ منه قهرًا؛ لقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله، ونفسه، إلا بحقه وحسابه على الله»** (٣). ومن حق المال: الزكاة. قال أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بمحضر الصحابة: الزكاة حق المال (٤). وقال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: والله لو

---

(١) أخرجه ابن ماجه واللفظ له [٤٠١٩]، والبزار [٦١٧٥]، والحاكم [٨٦٢٣]، وقال: "صحيح الإسناد". وأخرجه أيضًا: أبو نعيم (٣٣٣/٨)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٠٤٢]، وابن عساكر (٢٦٠/٣٥). قال الهيثمي (٣١٧/٥): "رواه البزار ورجاله ثقات".

(٢) أخرجه البزار [٤٤٦٣]، والحاكم [٢٥٧٧]، واللفظ له، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن) [٦٣٩٧]، وفي (شعب الإيمان) [٣٠٤٠]. قال الهيثمي (٢٦٩/٧): "رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير رجاء بن محمد وهو ثقة".

(٣) تقدم.

(٤) تقدم.

منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه (1). وأقره الصَّحابة على ذلك، والحكم مبسوط في مظانه.

٢ - الوقاية من آفات ترك الزكاة والعلاج:

أ. أن يفقه المكلف أحكام الزكاة، وأن يسأل أهل العلم عما جهله منها.

ب. اليقين الجازم بأن هذه الدنيا وما فيها عرض زائل، وما فيها من النِعم والمتاع إنما هو ابتلاء واختبار:

ينبغي على طالب العلم والهداية أن يحذر الاغترار بالدنيا بما فيها، ويبتعد عن الأسباب المؤدية للانهماك فيها، أو الزيادة على الحاجة؛ فإنها عرض زائل، وحال حائل، وما فيها من النعيم أو من السرور محفوف بالأحزان والتنكيد، فما من فرح في الدنيا إلا ويتلوه ترح وحزن.

فهذا نعيم الدنيا الذي يُرى ويُحَسُّ، ولكنَّه لا يدوم، فهو في وشك الزوال، ومظنة الترحال، وما عند الله عَزَّوَجَلَّ أعظمُ وأبقى. ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧﴾ [النساء:٧٧].

قال الشاعر:

أشـــد الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا (2)

---

(١) تقدم.

(٢) ديوان المتنبي (ص:١٤٠).

يعني: أن السرور الذي تيقن صاحبه الانتقال عنه هو أشدُّ الغمِّ؛ لأنه يراعي وقت زواله، ولا يطيب له ذلك السرور، وهذا من أبلغ الكلام وأوعظه.

وإنما يُعْنى العاقل بسرور لا ينقطع، فيعمل في الدنيا صالحًا؛ ليحيا حياة طيبة، ثم يوفى الأجر والثواب في الآخرة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧].

وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم جملة من الشهوات والملذات التي يستمتع بها الناس في حياتهم الدنيا، وتتطلبها الغرائز الإنسانية على سبيل الامتنان والتذكير بها، إلَّا أنه بين أن هناك ما هو أولى منها، وهو ما عند الله عَزَّوَجَلَّ في الآخرة؛ حثًّا للإنسان على عدم الاسترسال والإغراق في هذه الشهوات التي تحول بينه وبين ما هو أولى، كما أن الاسترسال في الشهوات له مضار ظاهرة وباطنة وحسية ومعنوية وفردية واجتماعية، فلا ينبغي لهم أن يجعلوا كل همهم في هذا المتاع القريب العاجل، بحيث يشغلهم عن الاستعداد لما هو خير منه في الآجل. قال عزَّ من قائل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران:١٤-١٥].

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ المالَ قوامًا للأمم، ومعززًا للدين، ووسيلة لإقامة ركنين من أركانه(١)، ومن أعظم أسباب التقرب إليه. فعلى المؤمن المتقي ألا يفتنَ بهذه الشهوات،

---

(١) يعني: الزكاة والحج.

ويجعلَها أكبرَ همه، والشاغلَ له عن آخرته، فإذا اتقى ذلك، واستمتع بها بالقصد والاعتدال، والوقوف عند حدود الله عَزَّوَجَلَّ، فهو السعيد في الدارين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝٢٠١ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ۝٢٠٢﴾ [البقرة:٢٠١-٢٠٢] (١)، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ﴾ [القصص:٧٧].

وينبغي على المكلف أن يعلم أن كل شيء في هذه الحياة الدنيا من النِعم والمتاع إنما هو ابتلاء واختبار، فالمال ظل زائل، وعارية مستردة، والدنيا مهما طالت فهي قصيرة، ومهما عظمت فهي حقيرة.

ومن ثم فلا ينبغي أن ينسيه هذا المال أو الجاه ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وافتقاره إليه. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر:١٥]، وعليه أن يعلم بأن هذا اليقين هو أساس الإيمان الصادق، وأنه منه، (أي: اليقين من الإيمان) بمنزلة الروح من الجسد.

ولأن كل شيء -من النعم والمتاع- ابتلاء واختبار من الله عَزَّوَجَلَّ، فقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ المال من أعظم أنواع الابتلاء؛ وذلك لما يحقق من المصالح.

(١) بتصرف عن (تفسير المنار) (٣/٢٠٢).

وفي الحديث: عن ابن كعب بن مالك الأنصاري، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»(١).

وعن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعطاني، ثم سألته، فأعطاني، ثم سألته، فأعطاني ثم قال: «**يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى**»(٢).

قال العلماء: "إشراف النفس: تطلعها إليه، وتعرضها له، وطمعها فيه. وأما طيب النفس فذكر القاضي فيه احتمالين؛ أظهرهما: أنه عائد على الآخذ، ومعناه: من أخذه بغير سؤال ولا إشراف وتطلع بورك له فيه. والثاني: أنه عائد إلى الدافع،

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٣٧٦]، وأحمد [١٥٧٨٤]، والدارمي [٢٧٧٢]، والترمذي [٢٣٧٦]، وقال: "حسن صحيح"، وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٣٢٢٨]، والطبراني [١٨٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧٨٣]. قوله: «بأفسد لها» أي: بأكثر فسادًا للغنم. «والشرف» أي: الجاه، معطوف على المال. واللام في قوله: «لدينه» لام البيان، كهي في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣]، كأنه قيل لمن؟ قال: لمن أراد. وكذا هنا، كأنه قيل: بأفسد لأي شيء؟ فقيل: لدينه. ولا يصح جعلها متعلقة بأفسد؛ لأنه لا يجوز تعلق حرفي جرٍّ بلفظ واحد، ومعنى واحد بعامل واحد إلا على سبل البدل" انظر: دليل الفالحين، لابن علان (٤/٤١٩-٤٢٠). وفيه مبالغة في الذم لمن جعل المال والجاه غاية.

(٢) صحيح البخاري [١٤٧٢،٢٧٥٠، ٣١٤٣]، مسلم [١٠٣٥].

ومعناه: من أخذه ممن يدفع منشرحًا بدفعه إليه طيب النفس لا بسؤال اضطره إليه أو نحوه مما لا تطيب معه نفس الدافع.

وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كالذي يأكل ولا يشبع**» فقيل: هو الذي به داء لا يشبع بسببه. وقيل: يحتمل أن المراد التشبيه بالبهيمة الراعية. وفي هذا الحديث وما قبله وما بعده: الحث على التعفف والقناعة والرضا بما تيسر في عفاف -وإن كان قليلًا- والإجمال في الكسب، وأنه لا يغتر الإنسان بكثرة ما يحصل له بإشراف ونحوه؛ فإنه لا يبارك له فيه، وهو قريب من قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة:٢٧٦]"(١).

فالمال وسيلة وليس غاية؛ لأنه متى أصبح غاية قضى على صاحبه؛ لأنه سيعيش لاهثًا خلفه، طالبًا للزيادة، خائفًا من زواله، فيورث صاحبه من الهموم والغموم والأحزان، وتنفتح أمامه أبواب الفتن والفساد بسبب المال. فمهما كان غنيًا فإن فقره بين عينيه، والآفات محدقة بماله، وبجسده من المرض إلى الموت. قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**» (٢).

---

(١) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٢٦/٧)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٢٩٨/٣).

(٢) الحديث مروي عن أنس وعن زيد بن ثابت. حديث أنس: أخرجه هناد (٣٥٥/٢)، والترمذي [٢٤٦٥]، وأبو نعيم في (الحلية) (٣٠٧/٦). حديث زيد بن ثابت: أخرجه الطيالسي [٦١٧]، وأحمد [٢١٥٩٠]، وابن ماجه [٤١٠٥]. وابن حبان [٦٨٠]، والطبراني في (الكبير) [٤٨٩١]، وتمام=

فينبغي على المسلم أن يتذكر دائمًا أن التوسعة في الرزق ليست إلا اختبارًا له من مولاه جَلَّ وَعَلَا، وليست دليلًا على الرضا، فقد نفى القرآن الكريم أن تكون كثرة المال أو الولد دليلًا على رضى المولى عَزَّ وَجَلَّ، وإنما العمل الصالح هو الوسيلة للحصول على هذا الرضوان والقرب من الله عَزَّ وَجَلَّ. يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾ [سبأ:٣٧]، ويقول: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال:٢٨]، أي: بلاء واختبار، يحملكم على كسب الحرام، ومنع حق الله تعالى، فلا تطيعوهم في معصية الله عَزَّ وَجَلَّ. وقد قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [المنافقون:٩].

ج. أن يطهر المسلم نفسه عن أدران الشح، وأن يتعوَّد على الإحسان في جميع الأحوال:

إن الموفق من يوق شُحَّ نفسه، فيخالفها فيما يغلب عليها من حبِّ المال، وبغض الإنفاق، وهو الفائز بالسعادتين.

وقد أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ عن الإنسان أنه لحب الخير لشديد، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾ [العاديات:٨]. والخير هنا: المال اتفاقًا [1].

=[١٤٦١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٥٥]. قال العراقي في (المغني عن حمل الأسفار (ص:١٧٣٢): "أخرجه ابن ماجه من حديث: زيد بن ثابت بإسناد جيد".

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٥/٣٩٨).

ومعناه: وإنه لأجل حب المال لبخيل ممسك، أو إنه لحب المال لقوي، وهو لحب عبادة الله عَزَّوَجَلَّ ضعيف، أي: إنه لأجل حب المال بخيل؛ فلذلك يحتجب به غارزًا رأسه في تحصيله وحفظه وجمعه ومنعه، مشغولًا به عن الحق، معرضًا به عن جنابه.

وفي الحديث: «**إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلَّا من أعطاه الله خيرًا، فنفح فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه، وعمل فيه خيرًا**»(١).

ومن أدل الآيات على أن حب المال غريزة في النفس مقتضية للحرص على المنع -الذي هو البخل-: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر:٩].

ومن الآيات التي تحذر من حب المال مع الحرص والطمع: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفجر:١٩-٢٠]، أي: حبًّا كثيرًا مع حرص وطمع. ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١﴾ إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٦﴾ الآيات [الفجر:٢١-٢٦]، وهي ردع عن أكل التراث، وعن حب المال؛ فماذا يفيد أكل حقوق الغير عند دخول القبر؟ وماذا يجدي حب المال عند المآل؟ وماذا يفيد النعيم الزائل عند العذاب الدائم؟

(١) صحيح البخاري [٦٤٤٣]، مسلم [٩٤]. والمراد بـ: «يمينه وشماله»: ما سبق أنه جميع وجوه المكارم والخير. و«نفح» -بالحاء المهملة-، أي: ضرب يديه فيه بالعطاء والنفح: الرمي والضرب.

فينبغي أن يطهر المسلم نفسه عن أدران الشح وأوضار التخلف، وعن حب المال الذي كان التخلف بسببه، وعن سائر الأخلاق الذميمة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١٠٣﴾ [التوبة:١٠٣].

والحق أن شهوة حب المال عمت غالب الخلق حتى فُتِنوا بالدنيا وزهرتها، وصارت غاية قصدهم، فلها يطلبون، وبها يرضون، ومن أجلها يغضبون، وبسببها يوالون، وعليها يعادون. فكم قطعت أرحام في سبيلها، وسفكت دماء بسببها، ووقعت فواحش من أجلها، ونزلت القطيعة وحلَّت البغضاء، وفُرِّق بين الأخ وأخيه، وتقاتل الأب مع ابنه، وتعادى الأصحاب والخلان.

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**إذا فتحت عليكم فارس والروم، أي قوم أنتم؟**»، قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ، قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أو غير ذلك، تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض**» (١).

وقد بين الحق جَلَّوَعَلَا أن الإيمان ليس بالادعاء، وإنما هو مجموعة من الصفات ينبغي أن يتصف الإنسان حتى يكون مؤمنًا، ومنها: بذل المال، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾

(١) صحيح مسلم [٢٩٦٢].

[الأنفال:٢-٤]، ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران:١٣٤]، وفي ذلك إشارة إلى أن النفوس يجب أن تكون كريمة مهما ألحَّ عليها الفقر، وأن تتعوَّدَ الإحسان بقدر الطاقة، كما قال جَلَّوَعَلَا في آية أخرى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ [الطلاق:٧].

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**سبق درهم مائة ألف درهم**»، قالوا: وكيف؟ قال: «**كان لرجل درهمان تصدق بأحدهما، وانطلق رجل إلى عرض ماله، فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها**» (١). فالنفس التي تجود بنصف ما تملك، ولا يتبقى لها إلا درهم، خير من أخرى تنفق جزءًا ضئيلًا مما تملك، ويتبقى لها المال الكثير.

والجهاد يكون بالمال والنفس يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة:٤١].

ولذلك فإنك ترى أن الشارع جعل من أهم علامات التقوى: بذل المال، وإعانة المحتاج، محذرًا من الشح، مبينًا عاقبته، فقال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**» (٢).

---

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) (٢/٢٣)، وابن زنجويه في (الأموال) [١٣٣٦]، والبزار [٨٨٩٧]، والنسائي [٢٥٢٧]، وابن خزيمة [٢٤٤٣]، وابن حبان [٣٣٤٧]، والحاكم [١٥١٩]، وقال: "صحيح على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: البيهقي [٧٧٧٩].

(٢) صحيح مسلم [٢٥٧٨].

د. أن يحمد الله عَزَّوَجَلَّ ويشكره على ما أنعم به عليه، وأن ينظر إلى كل عطاء على أنه اختبار من الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠].

هـ. أداء حق الله عَزَّوَجَلَّ في هذا المال: ويتمثل ذلك في إخراج الزكاة، والصدقة والبر، والإحسان إلى الفقراء والمساكين.

و. أن ينفق المال على حبه:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة:١٧٧]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، ويقول: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان:٨-٩]، أي: على حبِّ الله عَزَّوَجَلَّ، أو حب المال، أو حب الإيتاء. يريد: أن يعطيه وهو طيب النفس بإعطائه (١).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾، أي: أخرجه، وهو محب له، راغب فيه. نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف، كما ثبت في (الصحيحين) من حديث: أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل

---

(١) انظر: الكشاف (١/٢١٩)، تفسير النسفي (١/١٥٣).

إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: «**أن تَصَدَّقَ وأنتَ صحيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الفقر، وتَأْمُلُ الغِنَى**»[1].

ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩] نمط آخر أرفع من هذا، وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له"[2].

والإيثار من أسمى معاني الإحسان، وهو يحقق مفهوم الجسد الواحد من التآلف والتعاون والتعاضد، يطهر النفس من آفات الشح.

ومن الآيات الدالة على أسمى معاني الإيثار قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحشر:٩]. فبين الحق عَزَّوَجَلَّ أن هذا الإيثار ليس عن غنى عن المال، ولكنه عن حاجة وخصاصة، فالإيثار: هو تقديم حاجة الغير على حاجة النفس، سخاءً وتفضلًا. وهذا لا يكون إلَّا من نفوس مهيأة للتضحية..

و(الإيثار): ضد الأثرة، وهي: حب النفس حبًّا يعميها عن كل شيء، فلا يرى المرء إلَّا ذاته، ولا يعمل إلَّا من خلال هذه الذات، وما يحقق لها من نفع ذاتي لا يشاركها فيه أحد.

---

(١) صحيح البخاري [١٤١٩]، مسلم [١٠٣٢].

(٢) تفسير ابن كثير (٤٨٦/١)، بتصرف.

و(الخصاصة): الحاجة، والفقر الذي يعجز الإنسان عن إدراك الضروري من مطالب الحياة.

ز. أن يطالع سير الصحابة والسلف الصالح رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ في بذل المحبوبات في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ والإيثار:

وآثار السلف في بذل المحبوبات في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ كثيرة، فمن ذلك: ما جاء في (الصحيحين): عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رجلًا أتى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلَّا الماء، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من يضم أو يضيف هذا؟**»، فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقالت: ما عندنا إلَّا قوت صبياني، فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: «**ضحك الله الليلة، أو عجب، من فعالكما**[(١)]»، فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر:٩] [(٢)].

---

(١) في (صحيح مسلم) [٢٠٥٤]: «صنيعكما».

(٢) صحيح البخاري [٣٧٩٨، ٤٨٨٩]، مسلم [٢٠٥٤]. قوله: (رجل) هو أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. «أصبحي»: أوقدي. «يريانه»، أي: يتظاهران بذلك. قوله: «طاويين»، حال تثنية طاو، وهو الجائع الذي يطوي ليله بالجوع. ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾: يختارون ويفضلون. ﴿خَصَاصَةٌۚ﴾: =

وفي الحديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحن في سفر مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ جاء رجل على راحلة له، قال: فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالًا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كان معه فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد، فليعد به على من لا زاد له**»، قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل[1].

ح. الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ في سائر الأعمال:

إن من الآيات الدالة على الإخلاص لله جَلَّ وَعَلَا في إنفاق المال؛ ابتغاء مرضاته وحده، وعدم الرياء فيه: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة:٢٦٤]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ﴾ [البقرة:٢٧١]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان:٨-٩]. والنصوص في ذلك كثيرة.

=حاجة. و﴿يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾: يخالف هواها ويغلبها على ما أمرته بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ وعونه من (الوقاية)، وهي الحفظ من الشح البخل والحرص.

(١) صحيح مسلم [١٧٢٨].

فلا يوجد دينٌ يحثُّ أبناءَه على التَّحَابُب والمودة والإيثار كدين الإسلام. والنماذج الدَّالة على الإيثار من النصوص ومن حياة السلف كثيرة، ولو طبق الناس ما جاء في الآيات والأحاديث من معاني الإيثار لم يبق محتاجٌ.

ط. البعد عن الصفات المذمومة المهلكة من نحو التكبر والعظمة والظلم والاستعلاء والغرور والحسد، والبغي، والغل، والخداع، والمكر إلى غير ذلك.

ورياضة النفس بحملها على الفضائل، والنأي بها عن الرذائل، ورياضة الجسد، وذلك بالإكثار من الطاعات والنوافل، والتخفف من التنعم بملذات الدنيا، وتزكية النفس واتهامها ومحاسبتها والتنقيب عن عيوبها ونقائصها، فإن محاسبة النفس هو طريق استقامتها وكمالها وفلاحها وسعادتها.

ي. استحضار ما جاء من النصوص في فضل الإنفاق، وما جاء في ذمِّ الشح والبخل.

ك. مكافحة البطالة، وشغل الوقت بما ينفع من العلم والعمل.

ل. صحبة أهل الخير والعدل والفضل والزهد.

م. تجنب الشبع، وحمل النفس على القصد أو التقلل من المأكل والمشرب والملبس والمركب، والتوسط في ذلك من غير إسراف ولا تقتير.

ن. التفكر في آثار الإسراف وعواقبه المترتبة على البدن والقلب والفكر والسلوك.

س. دوام النَّظر في سُنَّة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرته العطرة، فهو خير قدوة في الزهد، وفي القصد والاعتدال، وفي التطلع إلى الآخرة مع عدم إغفال الحقوق والواجبات، وفي العناية بالنهوض والريادة لهذه الأمة في سائر المجالات.

ع. تذكر الموت والآخرة.

الركن الرابع: صوم رمضان:

١ - تعريف الصوم:

الصِّيَامُ والصَّوْمُ: مصدر صام. صام الرجل صَوْمًا وصِيَامًا. قيل: هو مطلق الإمساك في اللُّغَة، ثم أُسْتُعْمِلَ في الشَّرْعِ في إمساكٍ مخصوص. قال أبو عبيدة: كُلُّ ممسكٍ عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم. يقال: صامت الخيل: إذا أمسكت عن السير. وصامت الريح: إذا أمسكت عن الهبوب. ورجل صائمٌ وصَوَّام مبالغة.

والعرب تسمي كل ممسك: صائمًا، ومنه: الصوم في الكلام. وفي التنزيل: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم:٢٦] (١).

وهو في الشرع: عبارة عن الإمساك عن أشياء مخصوصة، في زمن مخصوص، من شخص مخصوص، بنية مخصوصة (٢).

---

(١) انظر: العين، مادة: (صوم) (١٧١/٧)، الصحاح، للجوهري (١٩٧٠/٥-١٩٧١)، تهذيب اللغة (١٨٢/١٢)، المصباح المنير (٣٥٢/١)، المخصص (٥٩/٤)، المحيط (٢٣٧/٢)، المطلع على ألفاظ المقنع (ص:١٨٢)، وانظر: روح المعاني (٤٥٣/١)، البحر المحيط في التفسير (١٧٢/٢)، غرائب القرآن (٤٩٤/١).

(٢) انظر: روح المعاني (٤٥٣/١)، المطلع على ألفاظ المقنع (ص:١٨٢).

وقيل: الإمساك عن أشياء مخصوصة، وهي: الأكل، والشرب، والجماع، بشرائط مخصوصة [١].

وقيل: "هو ترك الأكل والشُّرب والجماع من الصُّبح إلى الغروب بنيَّةٍ من أهله"[٢].

وفي (المقدمات): "إمساك عن أشياء مخصوصة، في أزمان معلومة على وجوه مخصوصة، فهو إمساك عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، مع اقتران النيات به على اقتران وجوهها، من فرض واجب، أو تطوع غير لازم، أو كفارة يمين، أو غيره، فمتى انخرم وجه من هذه الوجوه لم يكن صائمًا شرعًا، وإن صحَّ أن يسمَّى: صائمًا في اللغة -على ما قدمناه-"[٣].

وقال الشيخ نظام الدين النيسابوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصيام في الشرع: عبارة عن الإمساك عن أشياء مخصوصة تسمى: المفطرات، كالأكل والشرب والوقاع، في زمان مخصوص، هو من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس. ولا بد في صحته من النية، وأن يقع في غير يومي العيد بالاتفاق، وفي غير أيام التشريق عند الأكثرين. ويوافقه الجديد من قول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن غير يوم الشك بلا ورد ونذر وقضاء

---

(١) بدائع الصنائع (٢/٧٥).

(٢) انظر: كنز الدقائق (ص:٢١٩)، وانظر: تبيين الحقائق (١/٣١٢)، البحر الرائق (٢/٢٧٨)، رد المحتار على الدر المختار (٢/٣٧١)، درر الحكام (١/١٩٦).

(٣) المقدمات الممهدات، لأبي الوليد محمد بن رشد القرطبي (١/٢٣٧- ٢٣٨).

وكفارة). ولا بد للصائم من الإسلام، والنقاء عن الحيض والنفاس، ومن العقل كل اليوم، ومن انتفاء الإغماء في جزء من اليوم"(١).

٢ - مكانة صيام رمضان وما جاء في فضله:

*__إنَّ من بين أركان الإسلام العظيمة: ركن الصيام:__ وهو رابع أركان الدين، كما جاء في الحديث: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت**» (٢).

وقد ورد في صيام رمضان آيات كريمة، وأحاديث عظيمة تدلُّ على تمام الإكرام من الله عَزَّ وَجَلَّ، فمن الأحاديث: ما جاء في (الصحيحين): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنَّةٌ، فإذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يَرْفُثْ** (٣) **ولا يَصْخَب** (٤)**، فإن سَابَّهُ أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤ صائم. والذي نفس محمد**

(١) غرائب القرآن (١/٤٩٤).

(٢) صحيح البخاري [٨]، مسلم [١٦].

(٣) (الرفث): الجماع وما دونه من التعريض به، وذكر ما يفحش من القول.

(٤) «يصخب» من الصخب وهو الخصام والصياح، وأن يكثر لغطه. وعند مسلم: «ولا يسخب»، قال الإمام النووي: "هكذا هو هنا بالسين، ويقال بالسين والصاد، وهو الصياح، وهو بمعنى الرواية الأخرى: «ولا يجهل، ولا يرفث»". شرح النووي على صحيح مسلم (٨/٣١)، وانظر: إكمال المعلم، للقاضي=

بيده، لَخُلُوفُ فم الصائم(١) **أطيب عند الله، يوم القيامة، من ريح المسك. وللصائم فرحتان يَفْرَحُهُمَا: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه»** (٢).

فقوله: «**كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به**» بيان لعظم فضله؛ لأن الكريم إذا تولى الجزاء بنفسه اقتضى عظم قدر الجزاء، وسعة العطاء.

قال القاضي ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لما كان الصوم نوعًا من الصبر حين كان كفًّا عن الشهوات، قال الله جَلَّ وَعَلَا: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي، وأنا أجزي به**» (٣). قال أهل العلم: كل أجر يوزن وزنًا، ويكال كيلًا إلا الصوم؛ فإنه يحثى حثيًا، ويغرف غرفًا؛ ولذلك قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها٤. فلا شك أن كل من سلم فيما أصابه، وترك ما نهى عنه فلا مقدار لأجره، وأشار بالصوم إلى أنه من ذلك الباب، وإن لم يكن جميعه -والله أعلم-"(٥).

=عياض (٤/٥٨). والرواية الأخرى: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «الصيام جنة فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم مرتين» أخرجه البخاري [١٨٩٤]. واللفظ عند (مسلم) [١١٥١]: «إذا أصبح أحدكم يومًا صائمًا، فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ شاتمه أو قاتله، فليقل: إني صائم، إني صائم».

(١) (الخلوف): تغير رائحة الفم من أثر الصيام لخلو المعدة من الطعام.

(٢) صحيح البخاري [١٩٠٤، ٧٤٩٢]، مسلم [١١٥١].

(3) تقدم.

(٤) سيأتي في (الصبر).

(٥) أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي (٤/٧٦-٧٧)، وسيأتي في (الصبر).

وصيام رمضان من أسباب دخول الجنة، ورفعة الدرجات، كما جاء في الحديث: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة: من حافظ على الصلوات الخمس، على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن، وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلًا، وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه، وأدى الأمانة**»، قيل: يا نبي الله، وما أداء الأمانة؟ قال: «**الغسل من الجنابة، إن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها**» (١).

وعن عمرو بن مرة الجهني قال: جاء رجل من قضاعة إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إني شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وصليت الصلوات الخمس، وصمت رمضان وقمته، وآتيت الزكاة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من مات على هذا كان من الصديقين والشهداء**» (٢).

لقد اختص الله عَزَّوَجَلَّ بعض الأزمنة وشرفها بمزايا وفضائل دائمة مستمرة غير منقطعة، وخصَّها بقرب تؤدى فيها، وضاعف لعباده الأجر فيها، وحثهم على التعبد له فيها، كشهر رمضان، والعشر الأواخر منه، وليلة القدر

---

(١) أخرجه أبو داود [٤٢٩]، ومحمد بن نصر المروزي في (الوتر) (ص:٢٧٢)، والطبراني كما في (مجمع الزوائد) قال الهيثمي (٤٧/١): رواه الطبراني في (الكبير) وإسناده جيد". وقال أيضًا المنذري (١٤٨/١): "إسناده جيد". وأخرجه أيضًا: وأبو نعيم في (الحلية) (٢٣٤/٢).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٢٥٥٨]، والبزار كما في (كشف الأستار) [٢٥]، وابن خزيمة [٢٢١٢]، وابن حبان [٣٤٣٨]، والطبراني في (الشاميين) [٢٩٣٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٣٤٥]. قال الهيثمي (٤٦/١): "رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح خلا شيخي البزار، وأرجو إسناده أنه إسناد حسن أو صحيح".

وقد فاضَل الحقُّ عَزَّوَجَلَّ بين الأزمنة كما فاضَلَ بين الأمكنة، وكما فاضَلَ بين الخلائق. فمن الأزمنة الفاضلة من أيام الأسبوع: يوم الجمعة، ومن أيام السنة: يوم عرفة، ومن ليالي السنة: ليلة القدر، ومن شهور السنة: شهر رمضان.

وقد نصَّ العلماء على أن الأعمال الصالحة يتضاعف ثوابها؛ لشرف الزمان، أو شرف المكان، أو بهما معًا، وكذا المعصية يتضاعف وزرها في الأماكن المفضلة، كمكة -شرفها الله جَلَّوَعَلَا-، وفي الأزمنة المفضلة، كرمضان وغيره.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّ الله جَلَّوَعَلَا إذا أحبَّ عبدًا استعمله في الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال، وإذا مقته استعمله في الأوقات الفاضلة بسيء الأعمال؛ ليكون ذلك أوجع في عقابه، وأشد لمقته؛ لحرمانه بركة الوقت، وانتهاكه حرمة الوقت"[١].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العمل المفضول في الوقت الفاضل يلتحق بالعمل الفاضل في غيره، ويزيد عليه لمضاعفة ثوابه وأجره"[٢].

وقال ابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الآداب الشرعية): "زيادة الوزر كزيادة الأجر في الأزمنة والأمكنة المعظمة"[٣].

---

(١) إحياء علوم الدين (١/١٨٨).

(٢) لطائف المعارف (ص:٢٦١).

(٣) الآداب الشرعية (٣/٤٣٠).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المعاصي في الأيام المعظمة والأمكنة المعظمة تغلظ معصيتها وعقابها بقدر فضيلة الزمان والمكان"(١).

ومن فضائل شهر رمضان:

أ. **نزول القرآن الكريم**: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦﴾ [الدخان:٣-٦]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾ [القدر:١].

ب. **غفران الذُّنوب، وتكفير السيئات**: كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من صام رمضان، إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**» (٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر**» (٣).

---

(١) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٣/٤١٢).
(٢) صحيح البخاري [٢٠١٤]، مسلم [٧٦٠].
(٣) صحيح مسلم [٢٣٣].

ج. **استجابة الدعاء**: كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم**»، وذكر منهم: «**الصائم حين يفطر**» (١).

د. **فيه ليلة القدر**: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾ [القدر:١-٥].

هـ. **تُصَفَّدُ فيه الشياطين**: كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وَصُفِّدَتِ الشياطين**» (٢). وفي لفظ: «**وسلسلت الشياطين**» (٣).

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه [٣٠٠]، وأحمد [٨٠٤٣]، وابن ماجه [١٧٥٢]، والترمذي [٣٥٩٨]، وقال: "هذا حديث حسن". وأخرجه أيضًا: ابن خزيمة [١٩٠١]، وابن حبان [٣٤٢٨]، والبيهقي [٦٣٩٣].

(٢) صحيح مسلم [١٠٧٩]. و(الصفد) هو الغل، أي: أوثقت بالأغلال.

(٣) صحيح البخاري [١٨٩٩، ٣٢٧٧]، مسلم (٢) [١٠٧٩]. و«سلست الشياطين»: شدت بالسلاسل، ومنعت من الوصول إلى بغيتها من إفساد المسلمين بالقدر الذي كانت تفعله في غير رمضان.

و. العمرة فيه يعدل ثوابها ثواب حجة مع النبي ﷺ:

كما جاء في الحديث: «**عمرة في رمضان تَقْضِي حَجَّةً أو حَجَّةً معي**» (١).

ز. الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة:

جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أَيْ رَبِّ! مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ والشَّهَوَاتِ بالنَّهار فَشَفِّعْنِي فيه، يقول القرآن: منعته النوم بالليل، فشفعني فيه**»، قال: «**فيشفعان**» (٢).

ح. الصيام وقاية من الذنوب والمعاصي، وسبب في التوبة، ووقاية من عذاب النار، ووقاية من عذاب البرزخ:

وقد تقدم قوله ﷺ كما في (الصحيحين): «**والصيام جُنَّةٌ**»؛ لأنه يورث مراقبة العبد لله عز وجل، ولأنه يكسر الشهوة، ويضعف القوة.

---

(١) صحيح البخاري [١٨٦٣].

(٢) أخرجه أحمد [٦٦٢٦]، قال الهيثمي (٣٨١/١٠): "رواه أحمد، وإسناده حسن على ضعف في ابن لهيعة، وقد وثق". كما أخرجه الحاكم [٢٠٣٦]، وقال: "صحيح على شرط مسلم". أخرجه أيضًا: أبو نعيم في (الحلية) (١٦١/٨)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٨٣٩]. قال الهيثمي (١٨١/٣): "رواه أحمد والطبراني في (الكبير)، ورجال الطبراني رجال الصحيح".

جاء في الحديث: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قال ربنا** عَزَّ وَجَلَّ: **الصيام جُنَّةٌ يَسْتَجِنُّ بها العبد من النار، وهو لي وأنا أجزي به**»[١].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الصيام جُنَّةٌ، وحِصْنٌ حَصِينٌ من النَّار**»[٢].

وعن عثمان بن أبي العاص قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**الصِّيَامُ جُنَّةٌ كَجُنَّةِ أحدكُمْ من القتال**»[٣].

وأصل (الْجُنَّة) بالضم: التُّرس، شبه الصوم به؛ لأنه يحمي الصائم عن الآفات النفسانية في الدنيا، وعن العقاب في الأخرى. قال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: و(الْجُنَّة) بالضم: التُّرس، وبالكسر: الجنون، وبالفتح: الشَّجر الْمُظلُّ[٤]، وأُطلق على البستان؛

---

(١) أحمد [١٤٦٦٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٢٩٢]. قال الهيثمي (٣/١٨٠): "رواه أحمد، وإسناده حسن". وأخرجه البزار [٢٣٢١]، والطبراني في (الكبير) [٨٣٨٦]. من طريق: الحسن، عن عثمان بن أبي العاص.

(٢) أخرجه أحمد [٩٢٢٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٢٩٣]، قال الهيثمي (٣/١٨٠): "رواه أحمد. قلت: هو في الصحيح، خلا قوله: «وحصن حصين من النار» وإسناده حسن".

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٨٨٩١]، وأحمد [١٦٢٧٣]، وابن ماجه [١٦٣٩]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [١٥٤٢]، والبزار [٢٣٢١]، والنسائي [٢٢٣٠]، والروياني [١٥٢٢]، وابن خزيمة [١٨٩١]، وابن حبان [٣٦٤٩]، والطبراني [٨٣٦٠]، وأبو نعيم في (الحلية) (٦/٢٦٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٢٩٥].

(٤) وقد جمعت هذه المعاني بقول من قال: (جزاءُ الصومِ للصُوَّامِ جَنَّة***وتصفيدٌ لِمُرَّادٍ وجِنَّة)، (وإن رسولنا قد قال فيهِ***ألا صوموا فإنَّ الصومَ جُنَّة).

لما فيها من الأشجار، وعلى دار الثواب؛ لما فيها من البساتين. وثلاثتها مأخوذ من الجَنِّ بمعنى: الستر.

وإنما جُعل الصوم جُنَّةً؛ لأنه يقمع الهوى، ويردع الشهوات التي هي أسلحة الشيطان؛ فإن الشِّبعَ مجلبةٌ للآثام، منقصةٌ للإيمان، ولهذا قال المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما ملأَ ابن آدمَ وعاءً شرًّا من بطنِهِ**»(١)؛ فإن من ملأ بطنَه انتكست بصيرته، وتشوَّشتْ فكرته؛ لما يستولي على معادن إدراكه من الأبخرة الكثيرة الصاعدة من مَعِدَتِهِ إلى دماغِه، فلا يتأتَّى له نظرٌ صحيحٌ، ولا يتَّفق له رأيٌ صالحٌ، ولعلَّه يقع في مداحضَ فيزيغ عن الحقِّ، ويغلب عليه الكسَل والنعاس، فيمنعه مِن وظائف العبادات، وقويت قوى بدنه، وكثرت المواد والفضول فيه، فينبعث غضبه وشهوته، ويشتد شبقه؛ لدفع ما زاد على ما يحتاج إليه بدنه، فتوقعه بسبب ذلك في المحارم"(٢).

وقال في (النهاية): قوله: "«**الصوم جنة**» أي: يقي صاحبه ما يؤذيه من الشهوات. و(الجنة): الوقاية"(٣).

---

(١) أخرجه أحمد [١٧١٨٦]، وابن ماجه [٣٣٤٩]، والترمذي [٢٣٨٠]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [٦٧٣٧]، وابن حبان [٦٧٤] والطبراني [٦٤٤]، والحاكم [٧١٣٩]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي.

(٢) تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة (١/٦٧-٦٨)، بتصرف يسير، وانظر: فيض القدير (٤/٢٤٢)، شرح الأربعين النووية، لعبد الرؤوف الْمُناوي (ص:٩٨-١٠٠).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (جنن) (١/٣٠٨).

وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الصيام من المنجيات من العذاب في البرزخ، كما جاء في الحديث: واللفظ عند ابن حبان: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الميت إذا وضع في قبره إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه فإن كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة، والصلة، والمعروف، والإحسان إلى الناس عند رجليه.**

فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه فتقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلي مدخل».

واللفظ عند الطبراني في (الأوسط): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نفسي بيده، إنه ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإن كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصوم عن شماله، وفعل الخيرات والمعروف والإحسان إلى الناس من قبل رجليه، فيؤتى من قبل رأسه، فتقول الصلاة: ليس قبلي مدخل، فيؤتى عن يمينه، فتقول الزكاة: ليس من قبلي مدخل، ثم يؤتى عن شماله، فيقول الصوم: ليس من قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل**

رجليه، فيقول فعل الخيرات والمعروف والإحسان إلى الناس: ليس من قبلي مدخل» (١).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تالله لو قيل لأهل القبورِ تمنَّوْا لَتَمَنَّوْا يومًا مِنْ رمضان"(٢)؛ لأنَّ رمضان هو سيد الشهور، وتضاعف فيه الحسنات والأجور. وقد دلت الأحاديث على أنَّ الصلاةَ، والزكاةَ، والصيامَ، وفعلَ الخيراتِ، من الصدقةِ، والصلةِ، والمعروفِ، والإحسانِ إلى الناسِ من أسباب النجاة من عذابِ القبر وكُرَبِه وفِتَنِه.

ورمضان موسم الخير، تضاعف فيه الحسنات، وترجى فيه المغفرة، والمحروم حقًا في هذا الشهر من حرم رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، من أدرك رمضان ولم يغفر له، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**رَغِمَ أَنْفُ رجل ذكرت عنده فلم يُصَلِّ عَلَيَّ، ورَغِمَ أَنْفُ رجل دخل عليه رمضان ثم انْسَلَخَ قبل أن يُغْفَرَ له، ورَغِمَ أَنْفُ رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة**» (٣). وقوله: «**رَغِمَ**

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في (المصنف) [٦٧٠٣]، وابن أبي شيبة [١٢٠٦٢]، وابن حبان [٣١١٣]، والطبراني في (الأوسط) [٢٦٣٠]، والحاكم [١٤٠٣]، والبيهقي في (إثبات عذاب القبر) [٦٧]، قال الهيثمي (٣/٥١ -٥٢): "رواه الطبراني في (الأوسط)، وإسناده حسن".

(٢) التبصرة (٢/٧٨).

(٣) أخرجه أحمد [٧٤٥١]، والترمذي [٣٥٤٥]، وقال: "حسن غريب". وأخرجه أيضًا: البزار [٨٤٦٥]، وابن حبان [٩٠٨].

أَنْفُ»: أي: لَصِقَ بِالرُّغَام، وهو التُّراب، كناية عن غاية الذل والهوان، وهو إِخْبَارٌ أو دعاء.

وإنما تنال رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بالإقبال عليه والاجتهاد في طاعته وعبادته. جاء في الحديث: عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن في الجنة بابا يقال له: الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل معهم أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيدخلون منه، فإذا دخل آخرهم، أغلق فلم يدخل منه أحد**» (١).

والصيام جُنَّة ووجاء، شرع لتصفية مرآة القلب والعقل، ولرياضة النفس بحبسها عن شهواتها، ولكبحها عن الاسترسال في اللذات، وإمساكها عن خسيس العادات. فهو تصفية للقلب من كدورات البشرية، وتشبه بالملائكة الروحانية، وتعرض لنفحات الله عَزَّوَجَلَّ ورحماته، ومغفرة للذنوب، وإجابة للدعوات، واكتساب للحسنات، وتنقية لصحائف الأعمال من المخالفات، وخضوع لله عَزَّوَجَلَّ، وتعود على الصبر والمكاره، ومواساة للفقراء والمساكين، وحفظ للسان والجوارح، وتنظيم للوقت، وقوة للجسد، وتقوية للإرادة، فهو قيادة للنفس، فمن لم يستطع أن يقود نفسه هيهات أن يقود غيره!! ومن لم ينتصر على نفسه هيهات أن ينتصر على عدوه!!

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن ما في الصوم من كبت وحرمان ليس هدفه هذا الكبت والحرمان، وإنما الصوم وسيلة إلى غاية نبيلة.

---

(١) صحيح البخاري [١٨٩٦]، مسلم [١١٥٢].

إنه التدريب على السيادة والقيادة، قيادة النفس وضبط زمامها، وكفها عن أهوائها ونزواتها، بل إنه التسامي بتلك القيادة إلى أعلى مراتبها. فلقد كنت في بحبوحة الإفطار إنما تحمى جوفك عن تناول السُّحت والخبيث، فأصبحت في حظيرة الصوم تفطمه حتى عن الحلال الطيب. ولقد كنت بالأمس تكف لسانك عن الشتم والإيذاء، فأصبحت اليوم تصونه حتى عن رد الإساءة وعن إجابة التحريش والاستفزاز، فإن خاصمك أحد أو شاتمك، لم تزد على أن تقول: (إني صائم، إني صائم)، هكذا ملكت بالصوم زمامي شهوتك وغضبك.. وإنه لصبر يجر إلى صبر، ونصر يقود إلى نصر. فلئن كان الصوم قد علمك أن تصبر اليوم طائعًا مختارًا في وقت الأمن والرخاء، فأنت غدًا أقدر على الصبر والمصابرة، في البأساء والضراء وحين البأس، ولئن كان الصوم قد علمك كيف تنتصر اليوم على نفسك، فلقد أصبحت به أجدر أن تنتصر غدًا على عدوك. وتلك عاقبة التقوى، التي أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يرشحك لها بالصيام.

إن هذا الهدف الذي صورناه وحدَّدناه، إنما يقوم في منتصف الطريق، الذي رسمه الله عَزَّوَجَلَّ للصائمين، وإن في نهاية هذا الطريق، هدفًا آخر، بل أهدافًا أخرى أهم وأعظم.

إن شريعة الصوم عبادة ذات شطرين، وليس شطرها الأول إلا تمهيدًا وإعدادًا لشطرها الثاني، إنها شجرة جذعها الصبر، وأغصانها الشكر، وأوراقها وثمارها الذكر والفكر.

وإن من تأمل كلمة التقوى التي عبَّر عنها القرآن في حكمة الصيام يجدها منطوية على هذين الشطرين، فهي في شطرها الأول: كف وانتهاء، وابتعاد واجتناب، لكنها في شطرها الثاني: إقبال واقتراب، وإنشاء وبناء.

وهذا الجانب الإيجابي هو الشطر الثاني لشريعة الصوم، ولما جعل الله عَزَّوَجَلَّ شهر الصوم موسمًا لانطلاق الروح من عقالها، فتح للأرواح بابين تندفق منهما: بابًا إنسانيًّا، وبابًا ربانيًّا.

فأما انطلاق الروح من الباب الإنساني فذلك أنه أرشدنا إلى أن يكون زهدنا في الطعام والشراب ليس قبضًا وإمساكًا بالحفظ والادخار، بل بسطًا وسخاء بالبذل والإيثار.

وأما انطلاق الروح من الباب الثاني فذلك أن الإسلام فتح فيه للطاعة مسالك مسلوكة: تسبيح وتحميد، وتكبير وتمجيد، تضرع وابتهال، ودعاء وسؤال، ركوع وسجود، وقيام وتشمير ونهوض"(١).

وفي الصوم خصيصة ليست في غيره، وهي إضافته إلى الله عَزَّوَجَلَّ حيث يقول جَلَّوَعَلَا: «**الصوم لي وأنا أجزى به**»، وكفى بهذه الإضافة شرفًا، كما شرف البيت بإضافته إليه في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج:٢٦]. وإنما فضل الصوم لمعنيين:

أحدهما: أنه سر وعمل باطن، لا يراه الخلق، ولا يدخله رياء.

---

(١) انظر: الصوم تربية وجهاد، د. محمد عبد الله دراز (ص:٤٥-٥٠)، مقالات الإسلاميين في الصيام (ص:٢٦٥-٢٦٦)، مجلة التمدن الإسلامي، ج (٢١-٢٤)، مجلد [٢٩]، سنة [١٣٨٢هـ]، (ص:٤٥٣-٤٥٤).

الثـاني: أنه قهر لعدو الله؛ لأن وسيلة العدو الشهوات، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب، وما دامت أرض الشهوات مُخْصِبَةٌ، فالشياطين يترددون إلى ذلك المرعى، وبترك الشهوات تضيق عليهم المسالك [(١)].

وأهم مقاصد الصيام أنه يورث المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ والتقوى؛ إذ هو يكف النفس عن كثير مما تتطلع إليه، حيث إنه ينمي في الصائم شعور المراقبة لله تعالى، فالإنسان الذي يخلو بنفسه لا يمنعه شيء عن الأكل والشرب سوى شعوره بأن الله جَلَّوَعَلَا مطلع عليه في كل ما يصنع، فيبتعد عما يسخط الله تعالى من قول أو عمل، وهذا معنى قول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**والصِّيَامُ جُنَّة**».

أما إذا كان الصيام قد أصبح عند الكثيرين عادة، أو أنه يصوم لنصيحة طبيب لا عن عقيدة وإيمان واحتساب فإن الصيام لا يثمر في نفسه تلك الثمرات الناشئة عن المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، فإذا انعدم شعور الصائم بالمراقبة فليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، وهذا معنى قول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**» [(٢)]، وقوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من صام رمضان، إيمانًا واحْتِسَابًا..**» الحديث، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة:١٨٣]. فليس

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص:٤٣).

(٢) صحيح البخاري [١٩٠٣، ٦٠٥٧].

المراد: مجرَّد الإمساك عن الطعام والشراب والجماع دون ما يحقق الصيام من الأثر في الصائم، وهو التقوى، وهي صيانة المرء نفسه عما يضر في الآخرة.

وقد فرض الله عَزَّوَجَلَّ الصيام على أمة محمد صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما فرضه على من قبلها من الأمم؛ لأن الصيام يمتاز عن بقية العبادات بأنه مدرسة تدريبية فعالة تحمل المسلم على ترك الماديات والشهوات والعادات السلوكية المنحرفة، فتسموا روح الصائم، وتزكو نفسه، ويشرق قلبه، وعند ذلك يجد لذَّة العبادة، ويتذوق حلاوة الطاعة.

وليس كالصوم شيءٌ يصلحُ النفوسَ، ويحملها على أمهات الفضائل، ويجملها بمكارم الأخلاق، ويزيدها تحرزًا عن كل خلق قبيح. فبالصوم يكون المسلم عفيفًا مهذبًا لا يسب ولا يغتاب. وينبغي أن يكون هذا حاله بعد الصيام؛ لأنه قد استفاد من هذه المدرسة. وفي الحديث: «**فإذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يَرْفُثْ ولا يَصْخَب، فإن سَابَّهُ أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤ صائم**»[1].

وأما تأثير الصوم في المجتمعات فيتجلى في تحقيق الشعور والحس المرهف بالمساواة بين الناس، فالصائم عندما يجوع يتذكر الفقير فيواسيه، فتظهر وحدة المسلمين، وتماسكهم، وتعاطفهم.

وإذا كان في الصوم فرصة لتقوية الروح ففيه كذلك فرصة لتقوية البدن، فإن كثيرًا مما يصيب الناس من أمراض إنما هو بسبب بطونهم التي يتخمونها بكل ما تشتهي، وقد قال النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطن، بحسب ابن آدم**

---

(١) تقدم.

أكلات يقمن صلبه، فإن كـان لا محـالة فثلث لطعامه، وثلث لشـرابه، وثلث لنفسـه» (١).

وإذا كان البطن مستنقع البلايا فإن الحمية رأس الدواء، وليس كالصوم فرصة تستريح فيها المعدة، ويتخلص الجسد من كثير من فضلاته الضارة.

وفي الصوم تقوية للإرادة، وتربية على الصبر، فالصائم يجوع وأمامه شهي الطعام، ويعطش وبين يديه بارد الماء، ويعف وإلى جانبه زوجته، لا رقيب عليه في ذلك إلا ربه، يتكرر ذلك خمس عشرة ساعة أو أكثر كل يوم، وتسعة وعشرين أو ثلاثين يومًا في كل عام، عدا النوافلَ والكفارات والقضاء والمنذورات.

فأي مدرسة تقوم بتربية الإرادة الإنسانية، وتعليم الصبر الجميل كمدرسة الصوم التي يفتحها الإسلام إجباريًّا للمسلمين في شهر رمضان. وحسبك أن تسمع نداء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للشباب: **«يا معشر الشباب، من استطاع الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجَاءٌ»** (٢).

إن الإسلام ليس دين استسلام وخمول وكسل، بل هو دين جهاد وكفاح متواصل، وهمة عالية. وأول عدة الجهاد: الصبر والإرادة القوية، فمن لم يجاهد نفسه هيهات أن يجاهد عدوا، ومن لم ينتصر على نفسه وشهواتها هيهات أن ينتصر على

---

(١) أخرجه أحمد [١٧١٨٦]، وابن ماجه [٣٣٤٩]، والترمذي [٢٣٨٠]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [٦٧٣٧]، وابن حبان [٦٧٤] والطبراني [٦٤٤]، والحاكم [٧١٣٩]، وقال: "صحيح الإسناد". ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح البخاري [١٩٠٥، ٥٠٦٥، ٥٠٦٦]، مسلم [١٤٠٠].

عدوه. ومن لم يصبر على جوع هيهات أن يصبر على فراق أهل ووطن من أجل هدف كبير.

والحاصل أن لفرض الصيام حِكمًا اجتماعية، من اجتماعِهم على عبادة واحدة، في وقت واحد، وصبرِهم جميعًا، قويِّهم وضعيفَهم، شريفَهم ووضيعَهم، غنيَهم وفقيرَهم، على معاناتِها وتحملِها، مما يسبب ربْطَ قلوبهم، وتآلف أرواحهم، ولَمَّ كلمتهم. كما أنه سبب عطف بعضهم على بعض، ورحمةِ بعضهم بعضًا، حينما يُحِس الغنيَ ألم الجوع، ولَدْغَ الظَّمأ فيتذكر أن أخاه الفقير يعاني هذه الآلام دَهْرَه كله، فيجود عليه من ماله بشيء يزيل الضغائن والأحقاد، ويحل محلها المحبةُ والوئام.

ومنها، حكم أخلاقية تَربوِية، فهو يعلِّم الصبر والتحمل، ويقوي العزيمة والإرادة، ويُمَرِّن على ملاقاة الشدائد وتذليلها، والصعاب وتهوينها.

ومنها: حكم صِحِّيَّة، فإن المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء كما تقدم.

٣ – عقوبة من أفطر في رمضان من غير عذر:

ومَن ترَك صِيام رمضان بغير عذر فلا يخلو إمَّا أنْ يترُكَه جحودًا، أو كسَلًا، فإن تركه ترَكَه جُحودًا فهو كافر؛ لأنَّه أنكَر أمرًا مجمعًا معلومًا من الدِّين بالضَّرورة، ورُكنًا من أركان الإسلام، وأمَّا مَن ترَكَه كسَلًا فهو فاسق، وقد ورد في حقِّه وعيد شديد.

ويتساهَلُ البعضُ بتعمُّد الإفطار في رمضان، فيفطر أيامًا منه من غير عذر، ويفطر البعض رمضان كله وهو في عافية من الأمراض، وسلامة من الأعذار، ولكنه يتبع النفس والهوى والشيطان.

والأخطَرُ من ذلك مَن يُجاهِرُ بالإفطار في رَمضان منتهكًا حرمة الشهر، وحرمة المجتمع، فتجدُه يتحدَّى مشاعرَ المسلمين الصائمين، فيُدخِّن ويأكُل ويشرَب في العمل أو في الشارع.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**من أفطر يومًا من رمضان من غير رخصة من الله لقي الله به، وإن صام الدهر كله إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه**» [1].

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في (الكبائر): "وعند المؤمنين مقرر أن من ترك صوم رمضان بلا مرض ولا غرض [2] أنه شر من الزاني، والمكَّاس، ومدمن الخمر، بل يشكون في إسلامه، ويظنون به الزندقة والانحلال" [3].

وقد ورد الوعيد الشديد فيمن أفطر في نهار رمضان من غير عذر كما جاء في الحديث: عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**بينا أنا نائم إذ أتاني رجلان فأخذا بِضَبْعَيَّ فأتيا بي جَبَلًا وَعْرًا، فقالا لي: اصْعَدْ حتى إذا كنتُ في سَوَاءِ الجَبَل، فإذا أنا بِصَوْتٍ شَدِيد، فقلتُ: ما هذه الأصواتُ؟ قال: هذا عُوَاءُ أهلِ النَّار، ثم انْطَلَقَ بي فإذا أنا بقوم مُعَلَّقِينَ بِعَرَاقِيبِهِمْ، مُشَقَّقَة أَشْدَاقُهُمْ، تَسِيلُ أَشْدَاقُهُمْ دَمًا، فقلتُ: من هؤلاء؟ فقيل: هؤلاء الذين يُفْطِرُونَ قَبْلَ تَحِلَّةِ صَوْمِهِمْ، ثم انْطَلَقَ بي، فإذا بِقَوْم أَشَدِّ شيءٍ انْتِفَاخًا، وأَنْتَنِهِ رِيحًا، وأَسْوَئِهِ**

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) [٧٤٧٦]، والطبراني في (الكبير) [٩٥٧٤]. قال الهيثمي (٣/١٦٨): "رواه الطبراني في (الكبير)، ورجاله ثقات".

(٢) أي: بلا عذر يبيح ذلك.

(٣) الكبائر، للذهبي (ص:١٥٧)، بتحقيق: مشهور بن حسن.

مَنْظَرًا، فقلت: من هؤلاء؟ قِيلَ: الزَّانُونَ وَالزَّوَانِي، ثم انْطَلَقَ بِي، فإذا بنسَاءٍ تَنْهَشُ ثَدْيَهُنَّ الْحَيَّاتُ، قلتُ: ما بال هؤلاء؟ قيل: هَؤُلَاءِ اللَّاتِي يَمْنَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ أَلْبَانَهُنَّ، ثم انْطَلَقَ بِي، فإذا أنا بِغِلْمَانٍ يَلْعَبُونَ بين نَهْرَيْن، فقلتُ: من هؤلاء؟ فقيل: هؤلاء ذَرَارِيُّ المؤمنين، ثم شَرَفَ بِي شَرَفًا، فإذا أنا بثلاثةٍ يشربونَ من خَمْرٍ لهم، فقلتُ: من هؤلاء؟ قالوا: هذا إبراهيمُ، وموسى، وعيسى وهم ينتظرونكَ» (١).

والحديث يفيد الوعيد الشديد في حقِّ من أفطر في نهار رمضان من غير عذر، وأن العذاب واقع بهم، فيُرَوْنَ مُعلَّقين بعَراقِيبهم كما يُعلِّق الجزَّارُ الذبيحةَ، وقد شُقَّتْ أشداقهم، والدم يسيل منها.

وقوله: «**قَبْلَ تَحِلَّةِ صَوْمِهِمْ**» معناه: يفطرون قبل وقت الإفطار، أي: قبل تحقق دخول وقته.

قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذه عقوبة من صام ثم أفطر عمدًا قبل حلول وقت الإفطار، فكيف يكون حال من لا يصوم أصلًا؟! نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة"(٢).

قال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وظاهر أن مثل ذلك: ترك واجب مضيق من نذر وكفارة، فيكون كبيرة كالإفطار منه بغير عذر، وظاهر -والله أعلم- أن حكمة كثرة ما جاء من الوعيد في ترك الصلاة والزكاة دون الصوم: أنه لا يتركه كسلًا مع

---

(١) أخرجه: ابن خزيمة [١٩٨٦]، وابن حبان [٧٤٩١]، والطبراني [٧٦٦٧]، والحاكم [٢٨٣٧]، وقال: "حديث صحيح على شرط مسلم" ووافقه الذهبي.

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٦٧١/٧- ١٦٧٢).

القدرة عليه إلا الفذ النادر، بخلاف ترك الصلاة والزكاة فإنه كثير في الناس، بل أكثر الناس يتهاونون بالصلاة والزكاة، ومع ذلك يثابرون على الصوم، ومن ثم تجد كثيرين يصومون وهم لا يصلون وكثيرين لا يصلون إلا في رمضان دون غيره"(١).

أما عقوبة من أفطر عمدًا في رمضان من غير عذر في الدنيا فقد اختلف العلماء فيها، فقال الحنفية: إن تارك الصوم كتارك الصلاة، إذا كان عمدًا كسلًا، فإنه يحبس حتى يصوم. وقيل: يضرب في حبسه. كما جاء في (البحر): "والمفطر في رمضان يعزر ويحبس"(٢).

وقال الخطيب الشربيني الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ووجوبه معلوم من الدين بالضرورة، فمن جحد وجوبه فهو كافر، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، أو نشأ بعيدًا عن العلماء. ومن ترك صومه غير جاحد من غير عذر كمرض وسفر كأن قال: الصوم واجب عليَّ ولكن لا أصوم، حبس ومنع الطعام والشراب نهارًا؛ ليحصل له صورة الصوم بذلك"(٣).

وقال: أبو اسحاق الشيرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن أفطر في رمضان بغير جماع من غير عذر وجب عليه القضاء، والإمساك بقية النهار؛ لأنه أفطر بغير عذر، فلزمه إمساك بقية النهار، ولا تجب عليه الكفارة، وإن بلغ ذلك السلطان عذَّره؛ لأنه محرَّم ليس فيه

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٣٢٤/١).

(٢) البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٤٦/٥)، وانظر: رد المحتار على الدر المختار (٦٧/٤).

(٣) الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (٢٣٤/١) مغني المحتاج (١٤٠/٢)، حاشية البجيرمي على الخطيب (٣٧٢/٢)، نهاية الزين في إرشاد المبتدئين (ص:١٨٤).

حدٌّ ولا كفارة، فثبت فيه التعزير، كالمباشرة فيما دون الفرج من الأجنبية"(١). وبه قال أحمد وداود رَحِمَهُمَاٱللَّهُ(٢).

وفي (منح الجليل): "وجب تأديب ومعاقبة الشخص المفطر في أداء رمضان عمدًا، اختيارًا، بلا تأويل قريب، بما يراه الإمام من ضرب، أو سجن، أو منهما معًا. وإن كان فطره بموجب حدٍّ كزنا وشرب مسكر حُدَّ وأُدِّب، وإن كان رجمًا قُدِّم الأدبُ. واستظهر بعضهم سقوط الأدب بالرجم؛ لإتيان القتل على الجميع"(٣).

ومفهومه: أنه إن كان الحدُّ جلدًا، فإنه يُقدَّم على الأدب. فإن جاء المفطر عمدًا قبل الاطلاع عليه، حال كونه تائبًا، قبل الظهور عليه، فلا يؤدب (٤).

وقال ابن جُزَي رَحِمَهُٱللَّهُ: "وأما العقوبة فهي للمنتهك لصوم رمضان، وذلك بقدر اجتهاد الإمام، وصورة حاله"(٥). ولعل هذا القول هو الأقرب إلى مقاصد التشريع.

---

(١) المهذب في فقه الإمام الشافعي (٣٣٦/١-٣٣٧)، وانظر: حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء (١٦٥/٣).

(٢) انظر: حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء (١٦٥/٣).

(٣) منح الجليل شرح مختصر خليل (١٥٤/٢)، وانظر: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (٥٣٧/١).

(٤) انظر: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، للدردير (٥٣٧/١)، جواهر الإكليل (١٥٤/١)، منح الجليل (٤١٢/١-٤١٣)، شرح الزرقاني بحاشية البناني (٢١٥/٢-٢١٦).

(٥) القوانين الفقهية، لابن جزي الغرناطي (ص:٨٤).

٤ - الوقاية والعلاج من آفات الإفطار من غير عذر:

أ. العلم بأركان الإسلام، وأن الصيام رابعها.

ب. معرفة فضل الصيام، وأحكامه وآدابه، وتعليمها للأولاد والطلاب.

ج. العلم بعاقبة من ترك صيام شهر رمضان من غير عذر، أو ترك صيام يوم أو أيام منه من غير عذر.

د. مراقبة الله جَلَّ وَعَلَا في سائر الأحوال، وأنْ يتذكَّر العبد أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ مُطَّلعٌ على السرائر.

هـ. تذكر الموت والآخرة.

و. الاستعانة على الصيام بالإكثار من النوافل.

ز. حضور مجالس العلماء التي تذكر بالآخرة، والتفقه في الدين، ومن ذلك: تعلم آداب الصيام وأحكامه.

ح. الاستعانة على الصيام بأكلة السَّحر:

جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تسحروا؛ فإن في السحور بركة**»[1].

ويستحب تأخير السحور؛ لأنه أقرب إلى حصول المقصود منه من حفظ القوى، والتقوي به على النشاط، كما جاء في الحديث: عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**تسحرنا مع النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **ثم قام إلى الصلاة**»، قلت: كم كان بين الأذان

(١) صحيح البخاري [١٩٢٣]، مسلم [١٠٩٥].

والسحور؟ قال: «**قدر خمسين آية**»[1]. وفي رواية: «**قدر خمسين أو ستين**»، يعني: آية [2].

قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيه دليل على استحباب السحور للصائم. وتعليل ذلك بأن فيه بركة. وهذه البركة: يجوز أن تعود إلى الأمور الأخروية؛ فإن إقامة السنة توجب الأجر وزيادته. ويحتمل أن تعود إلى الأمور الدنيوية؛ لقوة البدن على الصوم، وتيسيره من غير إجحاف به. و(السحور) بفتح السين: ما يتسحر به. وبضمها الفعل. هذا هو الأشهر.

و(البركة) محتملة لأن تضاف إلى كل واحد من الفعل والمتسحر به معًا"[3].

ط. تدريب الأولاد منذ الصغر على الصيام.

ي. الإكثار من الجلوس في المساجد:

---

(١) صحيح البخاري [١٩٢١]، مسلم [١٠٩٧].

(٢) صحيح البخاري [٥٧٥].

(٣) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام (٩/٢). قال ابن الملقن: "ويجوز أن تكون البركة بمجموع الأمرين: وحاصل البركة في السحور يتنوع أنواعًا: **أولها**: اتباع السنَّة والاقتداء. **ثانيها**: مخالفة أهل الكتاب في الزيادة في الأكل على الإفطار. **ثالثها**: التقوي به والنشاط للصوم سيما الصبيان. **رابعها**: التسبب للصدقة على من يسأل إذ ذاك. **خامسها**: التسبب لذكر الله والدعاء وللرحمة فإنه وقت الإجابة. **سادسها**: التسبب في حسن الخلق؛ فإنه إذا جاع ربما ساء خلقه. **سابعها**: تجديد نية الصوم فيخرج من خلاف من أوجب تجديدها إذا نام ثم تنبه. ثم قال: أجمع العلماء على استحباب السحور، وأنه ليس بواجب، وإنما الأمر به أمر إرشاد، وهو من خصائص هذه الأمة". الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملقن (١٨٧/٥-١٨٨).

أخرج ابن أبي شيبة عن أبي المتوكل، أن أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأصحابه كانوا إذا صاموا جلسوا في المسجد [1]. وقالوا: نطهر صيامنا [2].

ي. صحبة الصالحين، وأصحاب الهمم، والبعد عن صحبة المجاهرين بالمعاصي.

ك. البعد عن أماكن الشبهات، والإعلام الهابط.

ل. الواجب على أفطر من رمضان من غير عذر، أن يتوبَ إلى الله جَلَّ وَعَلَا توبةً نصوحًا، وأن يندمَ على ما فات، ويعقد العزم على عدم العود، وأن يقضيَ الأيام التي أفطرها إذا كان الإفطارُ عاريًا عن الجماع، وإلا فإنه يقضي ويكفر.

م. مخالفة النفس والشيطان والهوى.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٨٨٨١].

(٢) حلية الأولياء (١/٣٨٢).

الركن الخامس: الحج:

١ - مكانة الحج وما جاء في فضله:

إن الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام -كما تقدم-، وشعيرة عظيمة من شعائر الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة:١٩٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران:٩٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ٢٨ ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ٢٩ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ٣١ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ٣٢﴾ [الحج:٢٧-٣٢].

إن الله عَزَّوَجَلَّ قد فرض الحج إلى بيتِه العتيق لِحكمٍ عظيمة، وأسرارٍ سامية، وغاياتٍ نبيلة، ينبغي على المسلم أن يعيَها؛ ليعظُم أجره، وليتمَّ عمله، وليحقق بذلك ما شُرع الحج لأجله من المقاصد العظيمة، والأهداف النبيلة.

الحجُّ فرضُ عين على كل مسلم ومسلمة، بالغ، عاقل، مستطيع، جاحده يكفر، وتاركه مع الاستطاعة يفسق، وهو الركن الخامس من أركان الإسلام -كما تقدم-.

وأكثر العلماء على أنه واجب على الفور لا على التراخي متى توفرت شروطه؛ لأن الإنسان لا يدري من مستقبل أيامه شيئًا، ولا يعلم ما يجد عليه من أمر الله عَزَّوَجَلَّ وقضائه، ولا يضمن لنفسه في مستقبل الأيام أجلًا ولا صحة ولا رزقًا.

ويجب على المسلم أن يحج مرة واحدة في عمره، فإذا بعد ذلك كان ذلك تطوعًا منه، وقد صحَّ في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خطبنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج، فحجوا**»، فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لو قلت: نعم لوجبت، ولما استطعتم**»، ثم قال: «**ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه**»(١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن الأقرع بن حابس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، الحج في كل سنة، أو مرة واحدة، قال: «**بل مرة واحدة، فمن زاد فهو تطوع**»(٢).

---

(١) صحيح مسلم [١٣٣٧].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [١٥٦٧٤]، وعبد بن حميد [٦٧٧]، وابن ماجه [٢٨٨٦]، وأبو داود [١٧٢١]، والدارقطني [٢٦٩٩]، والحاكم [٣١٥٥]، وقال: "حديث صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (الكبرى) [٨٦١٧] وغيره.

والحج أشهر معلومات، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة:١٩٧].

وفي (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "باب قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة:١٩٧]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة:١٨٩]: وقال ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أشهر الحج: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: من السنة: أن لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج، وكره عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن يحرم من خراسان، أو كرمان"(١).

قال شمس الدين الكرماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: (من السنة) أي: من الشريعة؛ إذ هو واجب ولا ينعقد الإحرام بالحج إلا في أشهره عند الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢)، وأما عند غيره: فلا يصح شيء من أفعال الحج إلا فيها"(٣).

---

(١) صحيح البخاري (٢/١٤١-١٤٢).

(٢) "فلو أحرم به في غير أشهره، كرمضان، انعقد عمرة عند الشافعية؛ لأن الإحرام شديد التعلق واللزوم، فإذا لم يقبل الوقت ما أحرم به انصرف إلى ما يقبله، وهو العمرة. وقال المالكية والحنفية: ينعقد حجًّا، ولا يصح شيء من أفعاله إلا فيها، لكنه يكره. قال الحنفية: لأنه لا يأمن في التقديم وقوع محظور. وقال المالكية: لأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما أحرم به في أشهره" إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٣/١٢٤).

(٣) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (٨/٨٦).

وأجاز الحنفية الإحرام بالحج قبل أشهر الحج، مع الكراهة؛ لكون الإحرام شرطًا عندهم، فجاز تقديمه على الوقت، إلا أنه لا يجوز له شيء من أفعاله إلا في هذه الأشهر. فعلى هذا القول يكون معنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾، أي: معظم الحج يقع في هذه الأشهر، كما جاء في الحديث: عن عبد الرحمن بن يعمر قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحَجُّ عَرَفَةُ، من جاء ليلة جمع قبل طلوع الفجر فقد أدرك الحج. أيام منى ثلاثة،** ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٢٠٣]»، وفي لفظ: «**الحج عرفات**» الحديث [(١)]، فقوله: «**الحج عرفة**» أي: عِمَادُه، وأعظم أركانه عرفة.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾: (الرفث): الجماعُ، وما دونه من قول الْفُحْش.

﴿وَلَا فُسُوقَ﴾: يعني: السباب، أو التنابز بالألقاب، أو المعاصي كلها.

والحج عبادة وليس عادة، ومما يؤسف له أن كثيرًا من الناس قد حرَّفوا أوامر ربهم، فحوَّلوا العبادة إلى عادة، وصيَّروا الدِّين مجرَّد أشكالٍ ومظاهر، وذلك بإفراغهم العبادات عن معانيها الجوهرية. أصبحت اليوم عند الكثيرين مظهرًا للتباهي والتفاخر، والتمتع بالألقاب، ووسيلة سهلة لإيهام الناس بورع صاحبها، وليس هذا مقصد العبادة، بل هو على النقيض مما شرعت العبادة لأجله.

---

(١) أخرجه أحمد، وأصحاب السنن، وقال الترمذي: "حسن صحيح"، كما أخرجه ابن حبان، والحاكم، والدارقطني، والبيهقي، كلهم من حديث: عبد الرحمن بن يعمر الديلمي. وقد تقدم تخريجه مفصلًا.

فالحج -مثلًا- بمثابة عملية تطهير كاملة للإنسان مما اقترفه من ذنوب وآثام. وأيُّ منفعةٍ أعظمُ مِنْ أن يرجعَ العبدُ مِن ذنوبِه كيوم ولدتْه أمُّه، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من حَجَّ هذا البيت، فلم يَرْفُثْ، ولم يَفْسُقْ، رجع كما وَلَدَتْهُ أُمُّه**»(١)، فقد تعلَّم الحاجُّ من تلك الرحلة ما تعلَّم، وتركت في نفسه من الآثار ما تركت، وهو يجدد فيها علاقته مع الله عَزَّوَجَلَّ، وينعكس ذلك على سلوكه مع الخلق.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**العُمْرَةُ إلى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لما بينهما، وَالحَجُّ المبرور ليس له جزاءٌ إلَّا الجنَّة**»(٢).

وسيأتيك بيان المراد من (الحج المبرور)، والمراد من (بر الحج) في (أعمال البر).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تابعوا بين الحَجِّ والعُمْرَة؛ فإنهما ينفيان الفَقْرَ وَالذُّنوب، كما ينفي الكيرُ خَبَثَ الحديد، والذَّهب، والفِضَّة، وليس لِلْحَجَّة المَبْرُورَةِ ثَوَابٌ إلَّا الجنَّة**»(٣).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تابعوا بين الحَجِّ والعُمْرَة**» أي: قاربوا بينهما، إما بِالْقِرَانِ، أو بفعل أحدهما بعد الآخر، فإذا اعتمرتم فحجوا، وإذا حججتم فاعتمروا.

---

(١) صحيح البخاري [١٥٢١، ١٨١٩، ١٨٢٠]، مسلم [١٣٥٠].

(٢) صحيح البخاري [١٧٧٣]، مسلم [١٣٤٩].

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [١٢٦٣٨]، وأحمد [٣٦٦٩]، والترمذي [٨١٠] وقال: "حسن صحيح غريب". وأخرجه: البزار [١٧٢٢]، والنسائي [٢٦٣١]، وأبو يعلى [٤٩٧٦]، وابن خزيمة [٢٥١٢]، وابن حبان [٣٦٩٣]، والطبراني [١٠٤٠٦]، وأبو نعيم في (الحلية) (١١٠/٤). وللحديث طرق أخرى.

«**فإنهما**» أي: الحج والاعْتِمَار.

«**ينفيان الفَقْر**» أي: يزيلانه، وهو يحتمل الفقر الظاهر، بحصول غنى اليد، والفقر الباطن، بحصول غنى القلب، ويحتمل كليهما.

«**والذُّنُوب**» أي: يمحوانها.

«**كما يَنْفِي الْكِيرُ**»، وهو ما ينفخ فيه الحداد؛ لاشتعال النار؛ للتصفية.

«**خَبَثَ الحديد والذَّهب والفضَّة**» أي: وسخها المشبه بوسخ المعصية.

والحج وسيلة لتعارف المسلمين وتعاونهم على اختلاف أقطارهم، وألوانهم، ولغاتهم، يتبادلون أواصر المحبة والإخاء، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ [الحج:٢٨].

وإن من أعظم مقاصد الحج: تحقيق توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وإخلاص العبودية له، والبراءة من الشرك ومظاهره، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج:٢٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١].

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أن تلبية رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**لَبَّيْكَ اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**»[1].

---

(١) صحيح البخاري [١٥٤٩]، مسلم [١١٨٤].

وإن من أعظم مقاصد الحج: تحقيق تقوى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولذا تكررت الوصية بالتقوى في آيات الحج من (سورة البقرة)، و(سورة الحج)، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة:١٩٧].

ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٥ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٧﴾ [الحج:٣١-٣٧].

ويشرع الاستغفار في الحجِ، وعقب إكمال أعماله؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة:١٩٩]؛ والمؤمن يحرص أن يكون عمله خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ، فهو يستغفر الله عَزَّوَجَلَّ من أيّ تقصير، أو نقص.

وسيأتي بيان ذلك في (الاستغفار).

وإن من أعظم مقاصد الحج: إقامة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولذا تكررت الوصية بذكره جَلَّوَعَلَا في آيات الحج في (سورة البقرة)، وفي سورة الحج، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ [البقرة:١٩٨]، وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًاۗ﴾ [البقرة:٢٠٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍۚ﴾ [البقرة:٢٠٣]، وقال: ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ﴾ [الحج:٢٨].

وفي الحَجِّ: تهذيبٌ للنفوس، وتكميلها بالأخلاق الفاضلة، وتطهيرٌ للقلوب من الأحقادِ والأهواء، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّۗ﴾ [البقرة:١٩٧].

ومن مقاصد الحج العظيمة: استشعار منَّة الله عَزَّوَجَلَّ على عبده بالهداية، والتوفيق للطاعة، ولا سيما لأداء هذا الركن العظيم، والعمل الجليل، والسلامة من اتباع طرق أهل الضلال، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ [البقرة:١٩٨].

ويشرع في أيام الحج المباركة: ذكرُ الله عَزَّوَجَلَّ، وشكرُه على ما رزق من بهيمة الأنعام، كما يشرع: التهليل، والتكبير، والتحميد؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ٢٨﴾ [الحج:٢٧-٢٨].

وفي الحديث: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ، وَلَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الْعَمَلِ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الْأَيَّامِ الْعَشْرِ، فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ، وَالتَّكْبِيرِ، وَالتَّحْمِيدِ**»(١).

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: واذكروا الله في أيام معلومات: أيام العشر، والأيام المعدودات: أيام التشريق. وكان ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وأبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: يخرجان إلى السوق في أيام العشر يكبران، ويكبر الناس بتكبيرهما. وكبر محمد بن علي خلف النافلة. وكان عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يكبر في قبته بمنى فيسمعه أهل المسجد، فيكبرون ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى تكبيرًا، وكان ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يكبر بمنى تلك الأيام، وخلف الصلوات، وعلى فراشه، وفي فسطاطه ومجلسه، وممشاه تلك الأيام جميعًا، وكانت ميمونة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: تكبر يوم النحر، وكن النساء يكبرن خلف أبان بن عثمان، وعمر بن عبد العزيز ليالي التشريق مع الرجال في المسجد"(٢).

وفي الحج تجديد الصلة بإمام الملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ [الحج:٧٨]، عندما أتم بناء الكعبة أمره الله عَزَّ وَجَلَّ أن يؤذن في الناس بالحج، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا

---

(١) الحديث مروي عن ابن عباس، وعن ابن عمر: حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: الطبراني [١١١١٦]، قال الهيثمي (١٦/٤): هو في (الصحيح) باختصار التسبيح، وغيره. رواه الطبراني في (الكبير)، ورجاله رجال الصحيح". مجمع الزوائد (١٦/٤-١٧). حديث: ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أخرجه ابن أبي شيبة [١٣٩١٩]، وأحمد [٥٤٤٦]، وعبد بن حميد [٨٠٧]، وأبو عوانة في (مستخرجه) [٣٠٢٤]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٤٧٥]. قال البوصيري في (إتحاف الخيرة) (١٧٠/٣-١٧١): "رواه أبو بكر بن أبي شيبة، وعبد بن حميد، وأبو يعلى، والبيهقي في (الشعب) بسند صحيح".

(٢) صحيح البخاري (٢٠/٢).

وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج:٢٦]. قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ أي: أريْنَاهُ أصلهُ؛ لِيَبْنِيَه، وكان قد دَرَسَ بالطُّوفان وغيره.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج:٢٧]، أي: يأتوك مشاة على أقدامهم أو ركبانًا على جمل هزيل قد أتعبه وأنهكه بعد المسافة. ﴿يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾﴾: من كل طريق بعيد.

وقد كان السابقون يتكبدون مشاق السفر ومخاطره لأجل أداء هذا الركن العظيم. ذكر بعض المفسرين: عن محمد بن ياسين القاضي أنه قال: رأيت في الطواف كهلًا قد أجهدته العبادة، واصفرَّ لونه، وبيده عصًا وهو يطوف معتمدًا عليها، فتقدَّمت إليه وجعلت أسائله فقال لي: من أين أنت؟ قلت: من خراسان قال: في أي ناحية تكون خراسان؟ -كأنَّه جهلها- قلت: ناحية من نواحي المشرق، فقال: في كم تقطعون هذا الطريق؟ قلت: في شهرين وثلاثة أشهر، قال: أفلا تحجُّون كلَّ عام فأنتم من جيران هذا البيت؟ فقلت له: وكم بينكم وبين هذا البيت؟ فقال: مسيرة خمس سنوات، خرجت من بلدي ولم يكن في رأسي ولحيتي شيبٌ، خرجت وأنا شاب فاكتهلت. فقلت: هذا والله الجهد البيّن والطاعة الجميلة والمحبة الصادقة، فضحك في وجهي، وأنشأ يقول:

زُرْ مَن هَوَيْتَ وإن شطتْ بِكَ الدارُ ... وحالَ من دُونه حُجُبٌ وأستارُ
لا يَمْنَعَنَّكَ بُعْدٌ عنْ زِيارتِه ... إنَّ الْمُحبَّ لمنْ يهواه زوَّارُ (١)

(١) انظر: تفسير الثعلبي (الكشف والبيان) (١٩/٧)، تفسير النسفي (٤٣٦/٢). وانظر: زهر الأكم في الأمثال والحكم، للحسن بن مسعود اليوسي (١٤٤/١).

وعن علي بن عبد الحميد الغضائري الحلبي، يقول: سمعت سَرِيًّا السَّقَطِيَّ، ودققت عليه الباب فقام إلى عِضَادَتِيَ الباب فسمعته يقول: اللهم اشغل من شغلني عنك بك، فكان من بركة دعائه أني حججت أربعين حجة من حلب على رجلي ماشيًا ذاهبًا وجائيًا (١).

ومن حكم الحج: أنه إذا رأي في ذلك الموقف ازدحام الخلق، وارتفاع الأصوات فإنه يتذكر مشهدًا من مشاهد يوم القيامة، عندما يساق الناس حفاة عراة على أرض بيضاء عفراء، ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه:١٠٦-١٠٧].

وعندما يلبس ثياب الإحرام يتذكر الكفن والموت، أكبر واعظ قدره الله عَزَّوَجَلَّ على مخلوقاته.

وفي رمي الجمار يتذكر قصة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وهذه الذكرى من أهم مقاصد الحج؛ لأن فيها تجديد الصلة بإمام الملة إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وإن أشد المواطن اتصالًا بهذه الذكرى رمي الجمار، حيث ظهر الشيطان لإبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يوسوس له، ويحاول أن يصرفه عن امتثال أمر الله عَزَّوَجَلَّ عندما أمره بذبح ولده إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ففتح له كل باب لمعاودة النظر في ذلك الأمر الإلهي، بقصد التأويل بما لا يحقق طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ اتجه بكل عزمه إلى تنفيذ أمر الله عَزَّوَجَلَّ، ولعن الشيطان وزجره.

---

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم (١٠/١١٧)، صفة الصفوة (٢/٣٩٢)، سير السلف الصالحين، لإسماعيل بن محمد الأصبهاني (ص:١١٤١)، طبقات الأولياء، لابن الملقن (ص:١٦٤).

٢ - الوقاية من آفات التسويف في أداء ركن الحج:

أ. إن من أخطر أمراض النفس: التسويف، وهو تأجيل الأعمال، ومن ذلك: تأجيل أداء الواجبات والحقوق مع القدرة، ويقابله: المبادرة والمسارعة على الفور عند الاستطاعة، والمسوف ربما يفوت أداء ركن الحج؛ لأن الإنسان لا يملك رزقًا، ولا صحَّة، ولا أجلًا، وهو لا يأمن بعد أن كان قادرًا أن تمنعه النوازل أو الآفات عن أداء ركن الحج.

وفي الحديث: «**استمتعوا من هذا البيت؛ فإنه قد هدم مرتين، ويرفع في الثالثة**» [1].

والأمر بالاستمتاع به يشمل: النظر إليه، والطواف به، والصلاة فيه، وهذه من منافع الحج والعمرة التي تترك أثرًا عظيمًا في النفس، فينبغي على طالب الهداية والنجاة، القادر على أداء ركن الحج: أن يعجل، وأن لا يؤجل ويسوف، فربما تمنعه الآفات أو النوازل على أداء الحج، فيفوته ذلك الركن العظيم، وما فيه من الخير.

والتَّسويف يؤول في كثير من الأحيان إلى تخلُّفِ العبد عن أداء الحقوق والواجبات، وهو من أسباب الإخفاق، والقصور عن طلب المعالي، وعن المنافسة في فعل الخير.

---

(١) أخرجه البزار [٦١٥٧]، وابن خزيمة [٢٥٠٦]، وابن حبان [٦٧٥٣]، والطبراني في (الكبير) [١٤٠٣٣]، والحاكم [١٦١٠]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضا: أبو نعيم في (تاريخ أصبهان) (٢٠٣/١)، والضياء في (المختارة) [٢٢٤]. قال الهيثمي (٢٠٦/٣): "رواه البزار والطبراني في (الكبير)، ورجاله ثقات". وذكره ابن أبي شيبة [١٤١٠٨] موقوفًا.

والتسويف من أسباب سوء العاقبة، والندم في وقت لا ينفع فيه، كما نبَّه الحق جَلَّ وَعَلَا إلى ذلك في غير آية، ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾ [النساء:٤٧]، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، وقوله: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ ﴿٣١﴾﴾ [إبراهيم:٣١]، وقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الروم:٤٣]، وقوله: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر:٥٤-٥٩]، وقوله: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى:٤٧]، وقوله: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون:١٠-١١].

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ العباد بالمسارعة إلى فعل الخيرات، واتقاء المحظورات؛ لنيل القربات، وإدراك جنته التي عرضها الأرض والسماوات، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران:١٣٣]، فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ﴾ أي: بادروا وأقبلوا. ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: إلى ما يستحق به العبد المغفرة، كالإسلام، والطاعة، والتوبة، والإخلاص. وقد بين الله عَزَّوَجَلَّ صفات أولئك الذين يستحقون هذه المغفرة، وهذا الإكرام عقب هذه الآية، حيث قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران:١٣٤-١٣٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [الحديد:٢١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَاۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقُۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر:٣٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة:١٠-١٢]، والسابقون هم المبادرون إلى فعل الخيرات كما أمروا.

وينبغي على من أراد السلامة والعافية والنجاة: أن يبادر إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة:

وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاثًّا أُمَّتَه على المبادرة والمسارعة إلى الخيرات قبل فوات الأوان: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**» (١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "معنى الحديث: الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة، كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر..."(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم أو أمر العامة**» (٣).

قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في (المفهم): "قوله: قوله: «**خاصة أحدكم**» يعني: الموانع التي تخصه مما يمنع العمل، كالمرض، والكِبَر، والفقر المنسي، والغنى المطغي، والعيال والأولاد، والهموم والأنكاد، والفتن والمحن.. إلى غير ذلك مما لا يتمكن الإنسان مع شيء منه من عمل صالح، ولا يسلم له، وهذا المعنى هو الذي فصله في حديث آخر، حيث قال: وفي الحديث: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: حياتك قبل موتك،**

---

(١) صحيح مسلم [١١٨].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/١٣٣).

(٣) صحيح مسلم [٢٩٤٧].

وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك» [1]. قوله: «**أمر العامة**»: يعني: الاشتغال بهم فيما لا يتوجه على الإنسان فرضه؛ فإنهم يفسدون من يقصد إصلاحهم، ويهلكون من يريد حياتهم، لا سيما في مثل هذه الأزمان التي قد مرجت فيها عهودهم، وخانت أماناتهم، وغلبت عليهم الجهالات والأهواء، وأعانهم الظلمة والسفهاء"[2].

فإذا كانت الفتن واقعة لا محالة فإن الاستعداد لها يكون بالعلم والعمل، والعلم يبصر المسلم بصور الفتن وأنواعها، فلا يسقط فيها، بل يبادر إلى الأعمال الصالحة، ويسأل الله عَزَّوَجَلَّ السلامة والعافية.

---

(١) الحديث مروي عن ابن عباس، وعن عمرو بن ميمون مرسلًا. حديث ابن عباس: أخرجه الحاكم [٧٨٤٦] وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧٦٧] وقال البيهقي: "هكذا وجدته في كتاب: (قصر الأمل)، وكذلك رواه غيره عن ابن أبي الدنيا، وهو غلط، وإنما المعروف بهذا الإسناد ما أخبرنا...فذكر حديث: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس..» الحديث. قال البيهقي: وأما المتن الأول، يعني: حديث: (اغتنم خمسًا) فعبد الله بن المبارك إنما رواه في كتاب عن جعفر بن برقان، عن زياد بن الجراح، عن عمرو بن ميمون الأودي مرسلًا. حديث عمرو بن ميمون المرسل: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [٢]، وابن أبي شيبة [٣٤٣١٩]، والنسائي في (الكبرى) [١١٨٣٢]، وأبو نعيم في (الحلية) (٤/١٤٨)، والقضاعي [٧٢٩]. والبيهقي في (الآداب) [٨٠٩]، قال الحافظ في (الفتح) (١١/٢٣٥): "أخرجه ابن المبارك في (الزهد) بسند صحيح من مرسل: عمرو بن ميمون". وقال العراقي: "إسناده حسن". وعزاه العجلوني (١/١٦٧) لأحمد في (الزهد) والبيهقي عن عمرو بن ميمون مرسلًا.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٣٠٨-٣٠٩).

والمراد من هذا أن هذه الأشياء كلها تعوق عن الأعمال، فبعضها يشغل عنه، إما في خاصة الإنسان، كفقره وغناه ومرضه وهرمه وموته، وبعضها عام، كقيام الساعة، وخروج الدجال، وكذلك الفتن المزعجة كما جاء في حديث: «**بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم**»(١).

عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: "إياك والتسويف؛ فإنك بِيَوْمِكِ ولسْتَ بِغَدِكَ.."(٢).

وأوصى بعض الحكماء ابنه، فقال له: يا بني! إياك والتسويف لما تهم به من فعل الخير؛ فإن وقته إذا زال لم يعد إليك، واحذر طول الأمل؛ فإنه هلاك الأمم(٣).

ب. إن من يثق بالله عَزَّوَجَلَّ يعلم أن ما ينفقه في الحج والعمرة فإن الله عَزَّوَجَلَّ سيخلفه، وقد أخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ -كما تقدم- «**أن الحج والعمرة ينفيان الفقر والذنوب..**»، فالحج من أسباب غنى اليد والنفس، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ [الطلاق:٢-٣].

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/٣٨٨).

(٢) الزهد والرقائق، لابن المبارك [٨] (١/٤)، الزهد، لهناد [٥٠٢] (١/٢٨٩)، قصر الأمل، لابن أبي الدنيا [٢١٩] (١/١٤٤).

(٣) المجالسة وجواهر العلم (٥/١٦٦)، قصر الأمل، لابن أبي الدنيا [٢١٨] (١/١٤٤).

وفي الحديث: «**من كانت الآخرة هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ في قلبه وجَمَعَ له شَمْلَهُ، وأَتَتْهُ الدُّنيا وهي رَاغِمَة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وَفَرَّقَ عليه شَمْلَهُ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّرَ له**» (1).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي؛ أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى، وأَسُدَّ فَقْرَكَ، وإلَّا تَفْعَلْ؛ مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا، ولم أَسُدَّ فَقْرَكَ**»(2). وعند الحاكم والبيهقي رَحِمَهُمَا اللَّهُ: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الشورى:٢٠]، ثم قال: «**يقول الله** عَزَّوَجَلَّ: **ابن آدم، تفرغ لعبادتي..**» الحديث.

قوله: "«**تفرغ لعبادتي**» أي: تفرغ من مهامك لعبادتي حتى أقضي مهامك، ومن كان الله عَزَّوَجَلَّ قاضيًا لمهامه يستغني به عن خلقه؛ لأنه الغني على الإطلاق، وهو المعنى بقوله: «**أملأ صدرك غِنًى**»، وإن لم تتفرغ، واشتغلت بغيري لم أسد فقرك؛ لأن

---

(1) الحديث مروي عن أنس، وعن زيد بن ثابت. حديث أنس: أخرجه هناد (٢/٣٥٥)، والترمذي [٢٤٦٥]، وأبو نعيم في (الحلية) (٦/٣٠٧). حديث زيد بن ثابت: أخرجه الطيالسي [٦١٧]، وأحمد [٢١٥٩٠]، وابن ماجه [٤١٠٥]. وابن حبان [٦٨٠]، والطبراني في (الكبير) [٤٨٩١]، وتمام [١٤٦١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٥٥]. قال العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:١٧٣٢): "أخرجه ابن ماجه من حديث: زيد بن ثابت بإسناد جيد".

(2) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٦٩٩]، وأحمد [٨٦٨١]، وابن ماجه [٤١٠٧]، والترمذي [٢٤٦٦] وقال: "حسن غريب". كما أخرجه: ابن حبان [٣٩٣]، والحاكم [٣٦٥٧]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٥٦].

الخلق فقراء على الإطلاق، فيزيد فقرك على فقرك وهو المراد بقوله: «**ملأت يدك شُغْلًا**»، فاليد عبارة عن سائر جوارحه؛ لأن معظم الكسب إنما يتأتى من اليد"[1].

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ما أُبَالِي على أَيِّ حالٍ أَصْبَحْتُ، على ما أُحِبُّ أو على ما أَكْرَهُ، لِأَنِّي لا أَدْرِي الْخَيْرَ فيما أُحِبُّ أو فيما أَكْرَهُ**»[2].

ج. معالجة أمراض النفس من نحو: التسويف، والبخل، والتي قد تمنع الإنسان من فعل الخير، وتحمله على ترك ما يجب عليه من واجبات.

د. العلم بأركان الإسلام، ومكانتها، وأن الحج خامسها.

هـ. معرفة فضل الحج، وأحكامه، وآدابه.

و. العلم بعاقبة من ترك الحج من غير عذر.

ز. صحبة الصالحين، وأصحاب الهمم العالية.

ح. التأمل في همم السلف الصالح، وما كانوا يكابدون من المشاق لأجل أداء ركن الحج، ومسارعتهم إلى فعل الخيرات، واغتنام الأوقات، وعمارتها بالطاعات.

ط. مخالفة النفس والشيطان والهوى.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٢٨٢/١٠).

(٢) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [٤٢٥]، وأبو داود في (الزهد) [٩٦]، والدولابي في (الكنى والأسماء) [٩٦]، وانظر: شرح السنة، للبغوي (٣٠٦/١٤)، إحياء علوم الدين (٣٤٦/٤).

عاشرًا: مكانة العبادات القلبية:

إن من عيوب النفس: اشتغالها بإصلاح الظَّاهِر الذي هو موضع نظر الخلق، وغفلتها عن إصلاح الباطن الذي هو موضع نظر الله عَزَّوَجَلَّ، والذي هو أولى بالإصلاح من الظَّاهِر. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء:١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ﴾ [الحجرات:١١].

وقد أخرج (مسلم) من حديث: أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم**»، وأشار بأصابعه إلى صدره(١).

وفي رواية عند (مسلم) أيضًا: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**»(٢).

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: "ويستفاد من هذا الحديث فوائد:

إحداها: صرف الهمة إلى الاعتناء بأحوال القلب وصفاته، بتحقيق علومه، وتصحيح مقاصده وعزومه، وتطهيره عن مذموم الصفات، واتصافه بمحمودها، فإنَّه لما كان القلب هو محل نظر الله عَزَّوَجَلَّ، فحق العالم بقدر اطلاع الله عَزَّوَجَلَّ على قلبه أن

(١) صحيح مسلم (٣٣) [٢٥٦٤].
(٢) صحيح مسلم (٣٤) [٢٥٦٤].

يفتش عن صفات قلبه وأحوالها؛ لإمكان أن يكون في قلبه وصف مذموم يمقته الله عَزَّوَجَلَّ بسببه.

الثانية: أن الاعتناء بإصلاح القلب وبصفاته مقدم على الأعمال بالجوارح؛ لتخصيص القلب بالذكر مقدمًا على الأعمال، وإنَّما كان ذلك لأن أعمال القلوب هي المصححة للأعمال؛ إذ لا يصح عمل شرعي إلا من مؤمن عالم بمن كلفه، مخلص له فيما يعمله، ثمَّ لا يكمل ذلك إلا بمراقبة الحق فيه، وهو الذي عبر عنه بالإحسان، حيث قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه**»(١)، وقد تقدَّم قوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**» (٢).

الثالثة: أنه لما كانت القلوب هي المصححة للأعمال الظاهرة، وأعمال القلب غيب عنا، فلا يقطع بمغيب أحد؛ لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة، فلعل من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله عَزَّوَجَلَّ من قلبه وصفًا مذمومًا لا تصح معه تلك الأعمال، ولعل من رأينا عليه تفريطًا أو معصية يعلم الله من قلبه وصفًا محمودًا يغفر له بسببه، فالأعمال أمارات ظنية لا أدلة قطعية، ويترتب عليها: عدم الغلو في تعظيم من رأينا عليه أفعالًا صالحة، وعدم الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالًا

---

(١) صحيح البخاري [٥٠، ٤٧٧٧]، مسلم [٨، ٩، ١٠].

(٢) صحيح البخاري [٥٢]، مسلم [١٥٩٩]، وقد تقدم.

سيئة، بل تحتقر وتذم تلك الحالة السيئة، لا تلك الذات المسيئة، فتدبر هذا؛ فإنَّه نظر دقيق"(١).

"فيا عجبًا ممن يهتم بوجهه الذي هو نظر الخلق فيغسله وينظفه من القذر والدنس، ويزينه بما أمكن؛ لئلا يطلع فيه مخلوق على عيب، ولا يهتم بقلبه الذي هو محلُّ نظر الخالق جَلَّ وَعَلَا، فيطهره ويزينه؛ لئلا يطلع ربه جَلَّ وَعَلَا على دنس أو غيره فيه"(٢).

وفي (لمعات التنقيح): "أن قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لا ينظر**» أي: نظر الرحمة. «**إلى صوركم**» المجردة عن السيرة المرضية. «**وأموالكم**» العارية عن الخيرات والإنفاق في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ. «**ولكن ينظر إلى قلوبكم**» التي هي محل التقوى. «**وأعمالكم**» التي يتقرب بها إليه جَلَّ وَعَلَا"(٣). وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "نظر الله عَزَّ وَجَلَّ: مجازاته ومحاسبته، فلا يكون إلا على القلوب دون الصور الظاهرة"(٤).

ومما يدل كذلك على أنه لا ينبغي أن يُقْطَعَ بعيب أحد؛ لما يرى عليه من صور أعمال الطاعة الظاهرة، أو المخالفة الظاهرة: حديث: أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بالأبواب، لو أقسم على الله لَأَبَرَّهُ**»(٥).

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي (٦/٥٣٨-٥٣٩)، وانظر: تفسير أبي عبد الله القرطبي (١٦/٣٢٦-٣٢٧).

(٢) انظر: فيض القدير (٢/٢٧٧).

(٣) لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح (٨/٥٢٣).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/١٢١).

(٥) صحيح مسلم [٢٦٢٢، ٢٨٥٤].

وفي رواية: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كم من أشعث أغبر ذي طِمْرَيْنِ، لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره منهم: البراء بن مالك**» (١).

و(الأشعث) يعني: مغبر الرأس، ومتفرق الشعر. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: هو "الْمُلَبَّدُ الشَّعر، الْمُغَبَّرُ، غير مدهون ولا مرجل.

و«**مدفوع بالأبواب**» أي: لا قَدْرَ له عند الناس، فهم يدفعونه عن أبوابهم، ويطردونه عنهم؛ احتقارًا له.

«**لو أقسم على الله لَأَبَرَّهُ**» أي: لو حلف على وقوع شيء أوقعه الله عَزَّ وَجَلَّ؛ إكرامًا له بإجابة سؤاله، وصيانته من الحنث في يمينه، وهذا لعظم منزلته عند الله عَزَّ وَجَلَّ، وإن كان حقيرًا عند الناس. وقيل: معنى القسم هنا: الدعاء، وإبراره: إجابته"(٢).

وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ عمن زين ظاهره وأهمل باطنه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة:٥]، فهؤلاء زينوا ظواهرهم، وأهملوا بواطنهم، فتعهدوا الأعمال الظاهرة، وما تعهدوا القلوب، مع أن القلب هو الأصل؛ إذ لا ينجو يوم القيامة ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٩].

فالقلوب هي محلُّ التقوى، وأوعية الجواهر، وكنوز المعرفة، وميزان التفاضل بين الخلق، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا

---

(١) أخرجه الترمذي [٣٨٥٤]، وقال: "حسن غريب من هذا الوجه". و«ذي طمرين» -بكسر فسكون- تثنية: طمر، وهو الثوب الخلق. و«لا يؤبَهُ لهُ»، أي: لا يبالى به، ولا يلتفت إليه لحقارته.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/١٧٤-١٧٥)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٨/٤٩).

وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [الحجرات:١٣]. وعمارة القلب هي العمارة النافعة، والميت في قبره كذلك، ليست بزخرفة القبر، ولا التربة، ولا تزويقها، وإنما العمارة بالصدقة عن ساكنها، وأفعال القرب عنه[١].

فالتقوى محلُّها القلب، وتظهرُ آثارها على الجوارح بعمل الطاعات، والانكفاف عن المحرمات.

وفي الحديث: «**المسلم أخو المسلم، لا يَظْلِمُهُ، ولا يَخْذُلُهُ، ولا يَحْقِرُهُ، التقوى هاهنا**»، ويشير إلى صدره ثلاث مرات[٢].

فإذا برَّ القلبُ واتقى برَّت الجوارح، وإذا فجرَ القلب، فجرت الجوارح. وفي ذلك ما يدل على أنَّ ميزان التفاضل بين الخلق، وما يحدد مدى قربهم من الله عَزَّوَجَلَّ، وإكرام الله عَزَّوَجَلَّ لهم إنما هو بحسب تقواهم، فربَّ من يحتقره الناس لضعفه، وقلة حظِّه من الدُّنيا هو أعظم قدرًا عند الله عَزَّوَجَلَّ ممن له قدر في الدنيا، فإنما الناس يتفاوتون بحسب التقوى.

وصلاح القلب إنما يكون بالعقيدة الصحيحة، والأخلاق الفاضلة، وسلوك طريق الاستقامة، والسلامة من الزيغ.

قال الشيخ عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُٱللَّهُ: "ليس المقصود من القلب: مادته وصورته، وإنما المقصود: النفس الإنسانية المرتبطة به.

---

(١) تسلية أهل المصائب (ص:١٩٠).

(٢) صحيح مسلم (٣٢) [٢٥٦٤].

وللنفس ارتباط بالبدن كله، ولكن القلب عضو رئيسي في البدن، ومبعث دورته الدموية، وعلى قيامه بوظيفته تتوقف صلوحية البدن، لارتباط النفس به، فكان حقيقًا لأن يعبر به عن النفس على طريق المجاز.

وصلاح القلب -بمعنى: النفس- بالعقائد الحقة، والأخلاق الفاضلة، وإنما يكونان بصحة العلم، وصحة الإرادة، فإذا صلحت النفس هذا الصلاح صلح البدن كله، بجريان الأعضاء كلها في الأعمال المستقيمة. وإذا فسدت النفس من ناحية العقد، أو ناحية الخلق، أو ناحية العلم، أو ناحية الإرادة، فسد البدن، وجرت أعمال الجوارح على غير وجه السداد.

فصلاح النفس هو صلاح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع، والعناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس، إما مباشرة وإما بواسطة. فما من شيء مما شرعه الله عَزَّوَجَلَّ لعباده من الحق والخير والعدل والإحسان إلا وهو راجع عليها بالصلاح. وما من شيء نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه من الباطل والشر والظلم والسوء إلا وهو عائد عليها بالفساد.

فتكميل النفس الإنسانية هو أعظم المقصود من إنزال الكتب، وإرسال الرسل عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ، وشرع الشرائع"[1].

---

(١) آثار ابن باديس (١/٢٣٢-٢٣٣)، تفسير ابن باديس (ص:٧٣-٧٤).

فينبغي على الإنسان أن يشتغل بتحسين ظاهره بالأعمال الصالحة، وباطنه بالإخلاص، فإنه محل نظر الله عَزَّوَجَلَّ منه، فلا عبرة بحسن الظاهر، وزخرف اللسان، مع خبث الجنان.

إن أعمال القلوب لها منزلة عظيمة، وثواب جزيل، وهي مقدمة على على أعمال الجوارح؛ وأعمال الجوارح تابعة لها، ومبنيَّةٌ عليها، ولهذا يُقال: القلبُ ملكُ الأعضاء، وبقيةُ الأعضاء جنوده.

فإذا كان يجب على المؤمن أن يطهر ظاهره، فباطنه أحق بذلك وأولى، كما دلت على ذلك النصوص، نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال:١١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ يعني: من الذنوب. و﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ أي: من الأقذار، فالتطهر شامل للطهارتين الحسية والمعنوية، أي: المتطهرين من الأقذار والأحداث، ومن الفواحش والمنكرات.

وإن أعمال القلوب هي التي تبعثُ على الأعمال الصالحة، وتُرغِّب في الدار الآخرة، وتزجُر عن الأعمال السيئة، وتُزهِّدُ في الدنيا، وتكبَحُ جماحَ النفس العاتية.

ومعنى استقامة القلب: توحيده لله عَزَّوَجَلَّ، وتعظيمه، ومحبته، وخوفه ورجاؤه، ومحبة طاعته، وبُغض معصيته.

فأعمال القلوب -كما تقرَّر في غير موضع- أشرف عند الله عَزَّوَجَلَّ من أعمال الجوارح؛ لأن القلب محلُّ نَظَر الحقِّ جَلَّوَعَلَا من العبد، ولأن العبادات القلبية هي الأساس لما بعدها من أعمال الجوارح.

والإسلام -كما تقرَّر في غير موضع- ليس مجرَّد ادِّعاء يدعيه الإنسان بلسانه فقط، ولكنه اعتقاد وقول وعمل.

وإذا أخلص المسلم القصد والنية، وصَدَقَ في إسلامه وتوجُّهِهِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، أَسلَمَت جَوَارِحُهُ وأذعَنَت وانقادت، ورَقَّ قَلبُهُ وانشرح صدرُهُ، فجملت أَخلاقُهُ، وحسُنَ تعاملهُ، واستقامت حياتُهُ.

وإنَّ الأعضاء والجوارح في هذا الجسد، رعيَّةٌ تتبَعُ مَلِكًا وقائدًا، ذلكم الملِكُ والقائد هو القلب، فهو سَيِّدُ الجوارح وآمرُهَا وناهيها، فإذا أَسلَمَ وصَدَقَ في توجُّهه إلى الله عَزَّوَجَلَّ أذعَنَتِ الجوارح وانقادت لله عَزَّوَجَلَّ، وإذا استعصى القلبُ وتكبَّرَ وتَعَالى جمحتِ الأعضاءُ وفسدت وأفسَدَت، فبصلاح القلب يصلح باقي الجسد، وبفساده يفسد باقيه، كما قال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ألا وإن في الجسد مضغة: إذا صَلَحَتْ صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»(١).

وقد أكرم الله عَزَّوَجَلَّ العباد بنعمٍ لا تحصى، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:٣٤].

ومن هذه النعم: نعمة الجوارح التي أوجب الله عَزَّوَجَلَّ شكرها. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ

(١) صحيح البخاري [٥٢]، مسلم [١٥٩٩]، وقد تقدم.

وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل:٧٨]. فمن شكر نِعَم الله عَزَّوَجَلَّ: أن نحفظ هذه الجوارح، وأن نستعملها فيما أمرنا به الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فمن حق الجوارح: أن يستخدمها المكلَّف ويوظِّفها فيما يرضي خالقها جَلَّ وَعَلَا، وأن يشكر المنعم بها عليه.

وقد جمعت هذه الجوارح السبعة في حديث: أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كتب على ابن آدم نصيبه من الزنا، مدرك ذلك لا محالة، فالعينان زناهما النظر، والْأُذُنَانِ زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، والقلب يهوى ويَتَمَنَّى، ويُصَدِّقُ ذلك الفرج ويُكَذِّبُهُ**» (١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد مثلت النفس مع صاحبها بالشريك في المال، فكما أنه لا يتم مقصود الشركة من الربح إلا بالمشارطة على ما يفعل الشريك أولًا، ثم بمطالعة ما يعمل، والإشراف عليه ومراقبته ثانيًا، ثم بمحاسبته ثالثًا، ثم بمنعه من الخيانة إن اطلع عليه رابعًا، فكذلك النفس: يشارطها أولا على حفظ الجوارح السبعة التي حفظها هو رأس المال، والربح بعد ذلك. فمن ليس له رأس مال، فكيف يطمع في الربح؟ وهذه الجوارح السبعة، وهي: العين، والأذن، والفم، واللسان والفرج، واليد، والرجل: هي مراكب العطب والنجاة، فمنها عطب من عطب بإهمالها. وعدم حفظها، ونجا من نجا بحفظها ومراعاتها فحفظها أساس كل خير، وإهمالها أساس كل شر. قال

(١) صحيح مسلم [٢٦٥٧]، واللفظ له، كما أخرجه البخاري مختصرًا [٦٢٤٣، ٦٦١٢].

عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:٣٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ۝٣٧﴾ [الإسراء:٣٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦﴾ [الإسراء:٣٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء:٥٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠﴾ [الأحزاب:٧٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨].

فإذا شارطها على حفظ هذه الجوارح انتقل منها إلى مطالعتها والإشراف عليها ومراقبتها، فلا يهملها، فإنه إن أهملها لحظة رتعت في الخيانة ولا بد، فإن تمادى على الإهمال تمادت في الخيانة حتى تُذهب رأس المال كله، فمتى أحس بالنقصان انتقل إلى المحاسبة، فحينئذ يتبين له حقيقة الربح والخسران، فإذا أحَسَّ بالخسران وتيقنه استدرك منها ما يستدركه الشريك من شريكه: من الرجوع عليه بما مضى، والقيام بالحفظ والمراقبة في المستقبل، ولا مطمع له في فسخ عقد الشركة مع هذا الخائن، والاستبدال بغيره، فإنه لا بد له منه فليجتهد في مراقبته ومحاسبته، وليحذر من إهماله"(١).

فينبغي على طالب التوفيق والهداية: أن يحفظ جوارحه عن معصية الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يستعملها في طاعة الله جَلَّوَعَلَا، وأن لا يشرد عن نهج الصالحين، حتى يكون في حفظ الله جَلَّوَعَلَا وكَلَاءَته، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما**

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/٧٩-٨٠).

تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»(١).

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المراد بهذا الكلام أن من اجتهد بالتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالفرائض، ثم بالنوافل قربه إليه، ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد الله عَزَّوَجَلَّ على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله عَزَّوَجَلَّ، ومحبته، وعظمته، وخوفه، ومهابته، وإجلاله، والأنس به، والشوق إليه، حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدًا له بعين البصيرة"(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن تأمل الشريعة في مصادرها ومواردها علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح وهل يميز المؤمن عن المنافق إلا بما في قلب كل واحد منهما من الأعمال التي ميزت بينهما؟ وهل يمكن أحد الدخول في الإسلام إلا بعمل قلبه قبل جوارحه؟ وعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم، فهي واجبة في

---

(١) صحيح البخاري [٦٥٠٢]، قوله: «ما ترددت»: كناية عن اللطف والشفقة، وعدم الإسراع بقبض روحه. و(مساءته): إساءته بفعل ما يكره.

(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (ص:٣٤٥- ٣٤٦).

كل وقت؛ ولهذا كان الإيمان واجب القلب على الدوام. والإسلام واجب الجوارح في بعض الأحيان، فمركب الإيمان: القلب، ومركب الإسلام: الجوارح"(١).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:٢-٤]: "جمع بين أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل، وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة"(٢).

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله: ﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾ [العاديات:٩-١١]: "إنما خص أعمال القلوب بالتحصيل دون أعمال الجوارح؛ لأن أعمال الجوارح تابعة لأعمال القلوب؛ فإنه لولا البواعث والإرادات في القلوب لما حصلت أفعال الجوارح؛ ولذلك جعلها الله عَزَّوَجَلَّ الأصل في الذّم فقال: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة:٢٨٣]، والأصل في المدح فقال: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢]، و[الحج:٣٥]"(٣).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأعمال الظاهرة تدخلها آفات كثيرة، وما لم تسلم منها لم تكن مقبولة؛ ولهذا كانت أعمال القلب المجردة أفضل من أعمال البدن المجردة، كما

---

(١) بدائع الفوائد (١٩٣/٣).
(٢) الكشاف (١٩٦/٢).
(٣) مفاتيح الغيب (٢٦٣/٣٢-٢٦٤).

قال بعض السلف: قوة المؤمن في قلبه، وضعفه في جسمه، وقوة المنافق في جسمه، وضعفه في قلبه"[١].

ويغفل كثير من الناس عن الاهتمام بأعمال القلوب، ويهتمون بعبادات الجوارح، مع أن العبادات القلبية مُقدَّمة على أعمال الجوارح -كما تقدم-.

وإن سلامة القلب والعناية به من أهم أسباب النجاة يوم القيامة، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ليس الاعتبار بأعمال البر بالجوارح، وإنما الاعتبار بلين القلوب، وتقواها، وتطهيرها عن الآثام، سفر الدنيا ينقطع بسير الأبدان، وسفر الآخرة ينقطع بسير القلوب. قال رجل لبعض العارفين: قد قطعت إليك مسافة قال: ليس هذا الأمر بقطع المسافات، فارق نفسك بخطوة وقد وصلت إلى مقصودك، سير القلوب أبلغ من سير الأبدان، كم من واصل ببدنه إلى البيت وقلبه منقطع عن رب البيت، وكم من قاعد على فراشه في بيته وقلبه متصل بالمحل الأعلى.

جسمي معي غير أن الروح عندكم ... فالجسم في غربة والروح في وطن

قال بعض العارفين: عجبًا لمن يقطع المفاوز والقفار ليصل إلى البيت، فيشاهد فيه آثار الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ كيف لا يقطع هواه؛ ليصل إلى قلبه!"[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٢/٢٤٥).

(2) لطائف المعارف (ص:٢٥١).

حادي عشر: تنوع العبادات القلبية:

العبادات القلبية: هي العبادات التي تتعلق بقلب الإنسان -كما تقدم-، مثل: الاعتقاد، والنية، ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ، وتوحيده، وخوفه، ورجاؤه، ومحبة طاعته وشرعه، وبُغض معصيته، ومعرفة صفاته، وتعظيمه، وتعظيم أمره، ومهابته، وإجلاله، والأنس به، والشوق إليه، وشكره، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والصدق، والإخلاص، واليقين، والتفكُّر، والخشوع، والمراقبة، والوَرَع، والصبر، والزهد، والقناعة، والإيثار، والحياء.

ومحبة رسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتعظيمه وتوقيره، واعتقاد أنه خير أسوة للناس، وأن سنته خير السنن وأنفعها، وأنه مبين للناس ما نزل إليهم.

ومحبة أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وآل بيته رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، واعتقاد أن زوجاته أمهات المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُنَّ.

ومحبة العلماء الرَّبانيين، والصديق الصالح، وعباد الله عَزَّوَجَلَّ الصالحين، ومحبة المساكين، ومحبة فعل الخيرات، والأعمال الصالحة، وإرادة الخير والهداية للناس، والعطف والرحمة، ومحبة الوالدين، والأرحام، ومحبة الأولاد، وإرادة الخير والصلاح لهم، ومحبة الأماكن والأزمنة الفاضلة.

ومن أكثر الأعمال القلبية فائدة، وأعلاها مكانة: محبة الله عَزَّوَجَلَّ، ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما سيأتي-.

وقد تقدَّم أن المؤمن حقًّا من كملت فيه شعب الإيمان، وهي تتفرع -كما ذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ- عن أعمال القلب، وأعمال اللسان، وأعمال البدن. فأعمال القلب فيه: المعتقدات والنيات، وتشتمل على أربع وعشرين خصلة: الإيمان

بالله، ويدخل فيه: الإيمان بذاته، وصفاته، وتوحيده بأنه ليس كمثله شيء، واعتقاد حدوث ما دونه. والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، والقدر خيره وشره، والإيمان باليوم الآخر، ويدخل فيه: المسألة في القبر، والبعث، والنشور، والحساب، والميزان، والصراط، والجنة والنار. ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ، والحب والبغض فيه. ومحبة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، واعتقاد تعظيمه، ويدخل فيه: الصلاة عليه، واتباع سنته، والإخلاص، ويدخل فيه: ترك الرياء والنفاق، والتوبة، والخوف والرجاء، والشكر، والوفاء، والصبر، والرضا بالقضاء، والتوكل، والرحمة، والتواضع، ويدخل فيه: توقير الكبير، ورحمة الصغير، وترك الكبر والعجب، وترك الحسد، وترك الحقد، وترك الغضب.... الخ"[1].

فإذا خلا القلب من هذه الصفات أصبح بلا أخلاق، ولا إنسانية، كالميت الذي لا روح فيه، فيكون أضل من الأنعام، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف:١٧٩].

(١) انظر: فتح الباري (١/٥٢-٥٣)، وانظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (١/٢٧١-٢٧٣).

ثاني عشر: أركان العبادات القلبية:

تقدم أنَّ العبادات القلبية ينبغي أن تكون قائمة على أركان ثلاثة، هي: (المحبة، والخوف، والرجاء).

وأعظم أركان العبادات القلبية: محبة العبد لله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، تلك المحبة التي تثمر ثمارًا عظيمة في دنيا العبد الفانية، وفي أخراه الباقية، وتصلح حاله في تعامله مع الخلق.

وقد أجمعت الأمة على أن حب الله عَزَّوَجَلَّ وحب رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فرض [(١)].

قال ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: "محبة الله عَزَّوَجَلَّ، بل محبة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله، وأجلِّ قواعده؛ بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين، كما أن التصديق به أصل كل قول من أقوال الإيمان والدين"[(٢)].

وهذه المحبة من شروط الإيمان؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤].

---

(١) نقل الإجماع الإمام الغزالي في (إحياء علوم الدين) (٢٩٤/٤)، وقد نقله عنه نجم الدين ابن قدامة في (منهاج القاصدين) (ص:٣٧٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٤٨/١٠-٤٩)، وانظر: أمراض القلب وشفاؤها (ص:٥٩)، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن قيم الجوزية (١٩٦/٢).

ولقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده**»(١).

إنَّ محبة الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليست مجرد الاتباع، بل هي أساس الاتباع وباعثه، وهي واجب من الواجبات.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة:٢٤] جاءت هذه الآية تفضح كذب المدعين، وتختبر حبَّ الإنسان لله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقوله في هذه الأشياء إذا كانت ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يدل على أن محبة هذه الأشياء في الأصل لا حرج فيها، فالإنسان يحب والده، ويحب ولده، ويحب أخاه، ويحب قبيلته، ويحب ماله، ويحب تجارته، ويحب مسكنه. فأصل المحبة لهذه الأشياء مباح؛ لأنها من المحبة الطبيعية، لكن إنما يأتي اللوم إذا قدَّم محبة هذه الأشياء على محبة الله عَزَّ وَجَلَّ فأخَّرته هذه الأشياء عن طاعة الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن الهجرة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) صحيح البخاري [١٤، ١٥]، انظر: إحياء علوم الدين (٢٩٤/٤)، مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي (ص:٣٧٣).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي الآية دليل على وجوب حب الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا خلاف في ذلك بين الأمة، وأن ذلك مقدم على كل محبوب"(١).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأصل الأشياء وموجدها ومخترعها هو الله عَزَّوَجَلَّ الذي جعلها أشياء، فلو عرف كل شيء ولم يعرف الله عَزَّوَجَلَّ فكأنه لم يعرف شيئًا. وعلامة المعرفة: المحبة؛ فمن عرف الله جَلَّ وَعَلَا أحبه. وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات"(٢).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان لزوم محبة النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فكفى بهذا حضًا وتنبيهًا ودلالة وحجة على التزام محبته ووجوب فرضها، وعظم خطرها، واستحقاقه لها صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ قرع الله عَزَّوَجَلَّ من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦۗ﴾ [التوبة:٢٤]، ثم فسقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله"(٣).

وقد بيّن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن مقياس الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ امتلاء القلب بمحبة النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحيث تغدو متغلبة على محبة الولد والوالد والناس أجمعين، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لا يؤمن أحدكم، حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**»(٤) ليس نفيًا لأصل الإيمان، وإنما هو نفيٌ لكمال الإيمان، أي: لا يكمُل

(١) تفسير القرطبي (٨/٩٥)، وانظر: الاستقامة، لابن تيمية (١/٢٦٣-٢٦٤).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/٦٣).

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/٤٣).

(٤) صحيح البخاري [١٥]، مسلم [٤٤].

إيمان أحدكم. هذا إذا كان يحب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولكن لا يقدم محبته على محبة غيره من الخلق. أما إذا كان الإنسان لا يحب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصلًا، بل يبغض الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهذا كافر. أما الذي يحب الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكنه يقدِّم محبة ولده ووالده على محبة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهذا ناقصُ الإيمان، بل لا يكمُل إيمان العبد، ولا يتم حتى يكون الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحبَّ إليه من نفسه التي بين جنبيه، وأحب إليه من ولده الذي هو بضْعَةٌ منه وجزءٌ منه، وأحب إليه من والده الذي هو أصله والمحسِن إليه، وأحب إليه من النَّاس أجمعين أيًّا كانوا.

وهذا يقتضي أن الإنسان يقدِّم طاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على طاعة غيره: فإذا أمرك الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمر وأمرك والدك أو ولدك أو أحد من النَّاس بأمر يخالف أمر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يجب عليك معصية هذا الآمر وطاعة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال عبد الله بن هشام: كنا مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلَّا من نفسي، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك**» فقال له عمر: فإنه الآن، والله، لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الآن يا عمر**» (١).

---

(١) صحيح البخاري [٦٦٣٢]، مسلم [١٤٠٠]. قال الخطابي: "حب الإنسان نفسه طبع، وحبه غيره اختيار بتوسط الأسباب، وإنما أراد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله لعمر حب الاختيار؛ إذ لا سبيل إلى قلب الطباع وتغييرها عما جبلت عليه. يقول: لا تصدق في حبي حتى تفني في طاعتي نفسك، وتؤثر رضاي على هواك، وإن كان فيه هلاكك". وقال الحافظ في (الفتح) (١١/٥٢٨): "فعلى هذا فجواب عمر=

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من أشد أمتي لي حُبًّا، ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله**» (١).

ومحبة الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير ما يعده الإنسان للقاء الله عَزَّ وَجَلَّ، فهي سبب دخول الجنة، والنجاة من النار، ففي حديث: أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رجلًا سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: «**وماذا أعددت لها**»، قال: لا شيء، إلَّا أني أحب الله ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**أنت مع من أحببت**»، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فما فرحنا بشيء، فرحنا بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنت مع من أحببت**»، قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**فأنا أحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبا بكر، وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم**» (٢).

وفي رواية: قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، قال: «**أنت مع من أحببت**» (٣).

=أوَّلًا كان بحسب الطبع، ثم تأمل فعرف بالاستدلال أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحب إليه من نفسه؛ لكونه السبب في نجاتها من المهلكات في الدنيا والأخرى، فأخبر بما اقتضاه الاختيار؛ ولذلك حصل الجواب بقوله: «الآن يا عمر»، أي: الآن عرفت فنطقت بما يجب" أعلام الحديث (٤/٢٢٨٢)، وانظر: شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٢/١٥)، طرح التثريب في شرح التقريب (٦/٢٢٨-٢٢٩).

(١) صحيح مسلم [٢٨٣٢].

(٢) صحيح البخاري [٣٦٨٨]، مسلم [٢٦٣٩].

(٣) صحيح البخاري [٦١٧١]، مسلم [٢٦٣٩].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحبَّ قومًا ولم يلحق بهم؟

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المرء مع من أحب**» (١).

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومحبة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على درجتين:

إحداهما: **فرض**: وهي المحبةُ التي تقتضي قبول ما جاء به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من عند الله عَزَّ وَجَلَّ، وتلقِّيه بالمحبة والرِّضا والتعظيم والتسليم، وعدم طلب الهدى من غير طريقه بالكليَّة، ثم حسن الاتباع له فيما بلَّغه عن ربِّه من تصديقه في كلِّ ما أخبر به، وطاعته فيما أمر به من الواجباتِ، والانتهاء عمَّا نهى عنه من المحرَّمات، ونصرة دينه والجهاد لمن خالفه بحسب القدرة، فهذا القدر لا بدَّ منه، ولا يتمُّ الإيمان بدونه.

والدرجة الثانية فضل: وهي المحبة التي تقتضي حسن التَّأسِّي به، وتحقيق الاقتداء بسنته في أخلاقه وآدابه ونوافله وتطوعاته وأكله وشربه ولباسه وحسن معاشرته لأزواجه وغير ذلك من آدابه الكاملة وأخلاقه الطاهرة، والاعتناء بمعرفة سيرته وأيامه، واهتزاز القلب عند ذكره، وكثرة الصلاةِ عليه لما سكن في القلب من محبَّته وتعظيمه وتوقيره، ومحبة استماع كلامه، وإيثاره على كلام غيره من المخلوقين. ومن أعظم ذلك: الاقتداء به في زهده في الدُّنيا والاجتزاء باليسير منها، ورغبته في الآخرة"(٢).

---

(١) صحيح البخاري [٦١٦٩، ٦١٧٠] مسلم [٢٦٤٠].

(٢) استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس، لأبي الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي (ص:٨٥).

و"محبة السنة وسيلة إلى محبة صاحبها، فمن لم يحصل له كمال محبته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فليواظب على سنته فيحصل محبته بالاضطرار"(١).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن محبته: نصرة سنته، والذب عن شريعته، وتمني حضور حياته، فيبذل نفسه وماله دونه"(٢).

ولأن يكون الحب هو الباعث الأساس على الاتباع فذلك أسمى من أن يكون ترغيبًا وترهيبًا.

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا شك أن داعي العبادة التعظيم والإجلال، وهو إما عن محبة أو عن خوف مجرد، وأهمه ما كان عن محبة؛ لأنه يرضي نفس فاعله"(٣).

لقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ الرجال الذين يصلحون لدينه بأنهم قوم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ﴾ [المائدة:٥٤].

وقد فصلتُ القول في ذلك في كتاب: (المحبة صورها وأحكامها في ضوء الكتاب والسنة).

ومن أراد التوفيق والهداية والنجاة فينبغي أن يجمع بين المحبة والخوف والرجاء.

---

(١) بريقة محمودية، للخادمي (٧٨/١).

(٢) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، للقاضي عياض (٢٠٤/١).

(٣) التحرير والتنوير (١٨٢/١-١٨٣).

إنَّ جمهرة الناس تسيرهم مشاعرُ الرَّغبة والرَّهبة والوعد والوعيد؛ لأنَّ خوف الإنسان من عاقبة أمر يولِّد عنده الدافعية لاجتنابه والابتعاد عنه، فمثلًا: إذا خُوِّف الطالب من عاقبة الإهمال، وهي الرسوب والفشل، ونظرة الناس إليه يحملُه هذا الخوفُ على الجدِّ والاجتهاد، ويحرِّضُ الدافعيةَ عنده لاستدراك ما فاته؛ ولذلك فإن خوف الله عَزَّوَجَلَّ والعاقبة من أسباب التبصر والتذكر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ [طه:١-٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝٢٦﴾ [النازعات:٢٦]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾ [النازعات:٤٥]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ۝٤٥﴾ [ق:٤٥]، وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ [الأعلى:١٠].

وفي قولِ الله عَزَّوَجَلَّ عن الزنا –مثلًا–: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ [الإسراء:٣٢] تنفيرٌ من الزنا عن طريقِ الخوفِ من العاقبة، فذلك الخوف من العاقبة والمآل يحمل الإنسان على تجنب ذلك الفعل، والبعد عن الأسباب الموصلة إليه.

ومن التخويف من سوء العاقبة: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم:٥٩] إلى غير ذلك.

ذلك الخوف من سوء العاقبة من الأسباب التي تحمل العاقل على التقوى، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ۝١٦﴾ [الزمر:١٦].

ومن أسباب تذكر أولي الألباب، وإنابتهم إلى الواحد القهار. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود:١٠٣].

إنَّ خوفَ الله عَزَّوَجَلَّ من عناصر الإيمان الأولى، تدرك ذلك من آيات وثَّقت الصلة بين الخوف والإيمان، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل:٥١].

ويتعرض المؤمن في حياته لمخاوف شتى من نحو: ما يقع عليه من ظلم ظالم، وقهر، وبغي، وتهديد، وإيذاء وتعذيب، ولكنَّ خوفَ الناس، وخوفَ الشيطان، وكلَّ خوفٍ يتلاشى إذا كان المسلمُ راسخَ الطمأنينةِ بالله عَزَّوَجَلَّ، واثقًا بوعده، يتلاشى أمامَ إجلالِ الله عَزَّوَجَلَّ، وإعظامِ أمره. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران:١٧٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ [الزمر:٣٦].

ولما طلب الله عَزَّوَجَلَّ من اليهود أن يدينوا دينَ الحق كان الخوفُ من أول ما كلِّفوا به. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾ [البقرة:٤٠].

وعندما وعد الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين بالنصر على الأعداء ربط وعده بهذه الرهبة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم:١٣-١٤].

وبيَّن أنه على قدر معرفة الله عَزَّوَجَلَّ تكون خشيته، فلذلك كان العلماءُ الربانيونَ أكثرَ الناس خشيةً: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

ومع وعد المؤمنين بحسن العقبى في الآخرة أكد أن ذلك لا يتمُّ إلا مع خشية الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ۝٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ۝٣٢ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ۝٣٣﴾ [ق:٣١-٣٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة:٧-٨]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦﴾ [الرحمن:٤٦].

ولكن مع هذا الخوفِ لا يقنطُ الإنسان من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [الزمر:٥٣]. فإنَّ المرء في هذه الدنيا لا يُفْلِتْ من غيمةٍ إلا لتحتويه أخرى، ولولا شعاع الرجاءِ في قلبه لغابَ في الظلام، وهذا الرجاء يومضُ من الإيمان بالغيب، والثقةِ فيما عند الله عَزَّوَجَلَّ، ومن ثم فإن الماديين لا يعرفونه؛ لأنهم محجوبونَ بالأسباب الظاهرة، ويستمدونَ أحكامَهم من عَالَم المحسوسات.

إن الخوف والرجاء هما الجناحان اللذان يرتقي بهما السالك إلى سُدَّة النجاة، ولا ينفعُ واحدٌ منهما دون الآخر، بل هما صِنوان، وبمثابةِ كفتي الميزان.

فمن الاغترار: التمادي في الذنوب مع رجاءِ العفو، وتوقُّع القرب من الله جَلَّوَعَلَا بغير طاعة، وانتظارُ زرع الجنة بِبَذْر النار. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: «**وعِزَّتي لا أجمعُ على**

عبدي خوفين، ولا أجمع له أمنين، إذا أَمِنَني في الدنيا أَخَفْتُهُ يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا أَمَّنْتُهُ يوم القيامة» (١).

ولا بدَّ من تحقيق التَّكافؤ والتَّوازن بين الخوف والرَّجاء؛ حتى تستقيم حياة المؤمن في الدُّنيا، ويفوز بالنَّعيم في الآخرة.

فلا يغلِّبُ العبدُ جانبَ الرجاء؛ لئلا يفضي به ذلك إلى الأمنِ من مكرِ الله؛ فيكونَ من الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩٩﴾ [الأعراف:٩٩]. ولا يغلِّبُ جانبَ الخوف؛ لئلا يفضي به إلى اليأسِ من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ فيكونَ من الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم حكاية عن قيل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر:٥٦]. ومن الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم حكاية عن قيل يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف:٨٧]. قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ قومًا ألهتهُمُ الأمانيُّ حتى خرجوا من الدنيا بغيرِ توبة، يقول أحدهم: إني لأحسنُ الظنَّ بربي، وكَذَبَ لو أحسنَ الظنَّ لأحسن العمل (٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القلب في سيره إلى الله عَزَّوَجَلَّ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف

---

(١) تقدم.

(٢) انظر: كشف المشكل، لابن الجوزي (٣/٣٢٣)، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي (ص:١٢٨)، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص:٢٨).

استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف، هذه طريقة أبي سليمان وغيره، قال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن غلب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب، فالمحبة هي المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه"[1].

وجاء في الحديث: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل على شَابٍّ وهو في الموت، فقال: «**كيف تَجِدُكَ؟**»، قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمَنَهُ مما يخاف**» [2].

---

(١) مدارج السالكين (١/٥١٣)، وانظر: تنوير المستبصر الفائز ببيان أحكام الجنائز، مطلب في معنى: المحتضر، لإبراهيم بن يوسف البولوي، تحقيق ودراسة وشرح: د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، مصطفى محمود سليخ (ص:٣٥)، المحبة صورها وأحكامها (ص:٢٦-٢٧).

(٢) الحديث مروي عن أنس وعن عبيد بن عمير مرسلًا. حديث: أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخرجه عبد بن حميد [١٣٧٠]، وابن ماجه [٤٢٦١]، والترمذي [٩٨٣]، والبزار [٦٨٧٤]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٨٣٤]، وأبو يعلى [٣٣٠٣]، وأبو نعيم في (الحلية) (٦/٢٩٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧٠]، والضياء [١٥٨٧]. حديث: عبيد بن عمير: أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧١]. قال المنذري (٤/١٣٥): "رواه الترمذي، وقال: "حديث غريب، وابن ماجه، وابن أبي الدنيا، كلهم من رواية جعفر بن سليمان الضبعي عن ثابت عن أنس. قال الحافظ: إسناده حسن؛ فإن جعفرًا صدوق صالح احتج به مسلم، ووثقه النسائي، وتكلم فيه الدارقطني وغيره". وفي (تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج)، لابن الملقن (١/٥٨٣): "رواه الترمذي بإسناد جيد، وقال: غريب، وأن بعضهم رواه مرسلًا".

ثالث عشر: المحافظة على عبادة الخفاء والعزلة في وقت تشرع فيه:

إنَّ أحبَّ الأعمال التي تقرِّبُ العبدَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وترفعُه عنده درجاتٍ، وتنجِّيْه من النَّوازلِ والشَّدائدِ والكُرُبَات: ما كان منها خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ، وبعيدًا عن الرِّياء.

ومن هذه الأعمال التي هي أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن الرِّياء: عبادةُ الخفاء.

فلا يَتقربُ العبد إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ في الخلوة إلا وهو يوقن أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ يعلمُ سرَّه ونجواه، وما أعلنه وما أخفاه، وهذا سبيلٌ يُبَلِّغُ العبدَ: مرتبةَ الإحسانِ العالية، التي عرفها النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لجبريل عَلَيْهِٱلسَّلَامُ لَمَّا جاء لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُم، فقال: يا رسول اللَّه، ما الإحسان؟ فقال رسول اللَّه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» (١).

وإنَّ عبادة الخفاء هي دليل صدق العبد وإخلاصه؛ لأنَّ فيها: طهارة القلب من النفاق، حيث يغيب العبد عن الخلق، ولا يشهد على عمله إلا الخالق جَلَّوَعَلَا، وهي من علامات محبة الله عَزَّوَجَلَّ للعبد، كما جاء في الحديث: «**إن الله يُحِبُّ العبدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ**» (٢).

والمراد بالغنى: غنى النفس، وهو الغنى المحبوب، وقيل: المراد غنى المال. والمال غير محذور لعينه، بل لكونه يَعُوق ويَشْغَلُ عن الطَّاعات، ويفتح أمام العبد أبواب الشهوات.

---

(١) صحيح البخاري [٥٠، ٤٧٧٧]، مسلم [٨، ٩، ١٠].

(٢) صحيح مسلم [٢٩٦٥].

ولكن كم من غنيٍّ لم يشغلْه غناهُ عن الله عَزَّوَجَلَّ؟ وكم من فقير شَغَلَه فقره عن الله جَلَّوَعَلَا؟

والله عَزَّوَجَلَّ يبتلي كل عبد مكلَّف بما يبتليه؛ ليتحقق فيه معنى: العبودية والتكليف، ثم يحاسب الله عَزَّوَجَلَّ كل عبد على ما عمله. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم:٧٧-٨٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم:٩٥].

فالتحقيق أنه لا يطلق القول بتفضيل الغني على الفقير على العموم، وعكسه.

و«**الخفي**» -بخاء معجمة- أي: الخامل الذكر، قد اعتزل الناس؛ ليتفرغ للتعبد في الخفاء، ولِيتَجنَّبَ ما يترتَّبُ على المخالطةِ في بعض الأحوال من المحاذير والآثار.

ففي الحديث: إشارة إلى أن أحب العمل: ما كان خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ.

ومَثَلُ (عبادة الخفاء) كَمَثَلِ من يشتري لنفسه ذهبًا خالصًا، يدَّخره لوقت الأزمات، فيتنفع منه في أشدِّ أوقات حاجته.

والشارع يُرغِّب في (عبادة الخفاء)، كصلاة المرء النَّافلة في بيته، ودعاء الخفاء، كما يرغِّبُ في (عباداتٍ ظاهرة)، كصلاةِ الجماعة، وحضور الجنائز، وحِلَق العلم، ومخالطة الصالحين، وأرباب الهمم العالية، ويوجب صلاة الجمعة؛ ليكون العبد مخلصًا في سائر عباداته وأحواله، ما ظهر منها للعباد وما لم يظهر.

ومن الترغيب في (عبادة الخفاء): ما جاء في (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**سبعةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ في ظِلِّهِ يوم لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ**»، وذكر

منهم: «**ورجلٌ تَصَدَّقَ بصدقةٍ فأخفاها؛ حتى لا تعلم يمينُه ما تنفقُ شمالُه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**» (١).

كما حثَّ الشارع على صلاة النافلة في البيت، كما جاء في الحديث: «**صلوا أيها الناس في بيوتكم؛ فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة**» (٢).

ومن (عبادة الخفاء): الصيام.

وقد تقرر في (عبادة الصيام) أن من أهمِّ مقاصده: أنه يورث المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ والتقوى؛ إذ هو يكف النفس عن كثير مما تتطلع إليه، حيث إنه ينمي في الصائم شعور المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، فالإنسان الذي يخلو بنفسه لا يمنعه شيء عن الأكل والشرب سوى شعوره بأن الله جَلَّوَعَلَا مطلع عليه في كل ما يصنع، فيبتعد عما يسخط الله عَزَّوَجَلَّ من قولٍ أو عمل، وهذا معنى قول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنَّةٌ**»(٣).

أما إذا كان الصيام قد أصبح عند الكثيرين عادة، أو أنه يصوم لنصيحة طبيب لا عن عقيدة وإيمان واحتساب فإن الصيام لا يثمر في نفسه تلك الثمرات الناشئة عن المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، فإذا انعدم شعور الصائم بالمراقبة فليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، وهذا معنى قول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من لم يدع قول الزور والعمل به،**

---

(١) صحيح البخاري [٦٦٠، ١٤٢٣، ٦٤٧٩، ٦٨٠٦]، مسلم [١٠٣١]، وقد تقدم.

(٢) صحيح البخاري [٧٣١، ٦١١٣، ٧٢٩٠]، مسلم [٧٨١].

(٣) صحيح البخاري [١٩٠٤، ٧٤٩٢]، مسلم [١١٥١].

فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»(١)، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من صام رمضان، إيمانًا واحْتِسَابًا..**»، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٨٣﴾ [البقرة:١٨٣]. فليس المراد مجرَّد الإمساك عن الطعام والشراب والجماع دون ما يحقق الصيام من الأثر في الصائم، وهو التقوى، وهي صيانة المرء نفسه عما يضر في الآخرة.

ويدخل في (عبادة الخفاء): المحافظة على الوضوء، كما جاء في الحديث: «**لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**»(٢).

وقد نُقل عن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: خيرُ العمل: أخْفاه، وأمْنَعُه من الشيطان، وأبعدُه من الرِّياء (٣).

وعبادة الخفاء دليل صدق العبد في سيره إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وعنوان الإخلاص، وعلامة المحبة، وأثر من آثار الإيمان؛ ولذلك فإنها لا تكون إلا من نفوس طيبة، وقلوب نقية، ونيات صافية، ولا يفعلها المنافق، ولا المرائي بفعله، ولا المدعي الكاذب.

وعبادة الخفاء من خير ما يعده العبد من الزَّاد ليوم المعاد.

---

(١) صحيح البخاري [١٩٠٣، ٦٠٥٧].

(٢) الحديث مروي عن ثوبان، وقد أخرجه الطيالسي [١٠٨٩]، وأحمد [٢٢٣٧٨]، والدارمي [٦٨١]، وابن ماجه [٢٧٧]، قال البوصيري (٤١/١): "هذا الحديث رجاله ثقات أثبات، إلا أنه منقطع بين سالم وثوبان، فإنه لم يسمع منه بلا خلاف، لكن له طرق أخرى متصلة". وأخرجه الروياني [٦١٤]، وابن حبان [١٠٣٧]، والطبراني [١٤٤٤]، والحاكم [٤٤٧]، والبيهقي [٣٨٤].

(٣) انظر: تاريخ دمشق (٤٠٤/٤٨)، سير السلف الصالحين، لإسماعيل الأصبهاني (ص:١٠٣٦).

وقد صحَّ عن قيس بن أبي حازم أنه قال: سمعت الزبير بن العوام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: «**أَيُّكُمُ استطاع أن يكون له خَبِيئَةٌ من عملٍ صالحٍ فَلْيَفْعَلْ**»(١). وفي لفظ: «**من استطاع منكم أن يكون له خَبْءٌ..**»(٢). وقوله: «**أن يكون له خَبْءٌ**» أي: شيء مخبوء، أي: مدخر. يقال: له خبيئة خبأها ليوم حاجته، وله خبايا. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل:٢٥]. و(أخرج خبءُ السماءِ خبءَ الأرض)، أي: المطرُ النباتَ. وواحدةُ (الخَبَايَا): خبِيئة، وهي: اسم المخبوء.

وقال ابن الأثير رَحِمَهُٱللَّهُ: "الخبء كل شيء غائب مستور. يقال: خبأت الشيء أخبؤه خبأ: إذا أخفيته، والخبء والخبي، والخبيئة: الشيء المخبوء.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١١٠٩]، وابن الجعد في (مسنده) [٦٨٢]، وأبو داود في (الزهد) [١١٢]، وابن الأعرابي في (معجمه) [١٢٠٧]، والضياء في (المختارة): [٨٨٣]، وقال: "سئل الدارقطني عنه فقال: يرويه إسحاق بن إسماعيل الطالقاني: عن ابن فضيل، عن إسماعيل عن قيس، عن الزبير مرفوعًا إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولم يتابع على رفعه. ورواه شعبة، وزهير، ويحيى القطان، وهشيم، وعلي بن مسهر، وابن عيينة، وأبو معاوية، وعبدة، ومحمد بن يزيد: عن إسماعيل عن قيس عن الزبير موقوفًا، وهو الصحيح". وانظر: فيض القدير (٥٤/٦). وأخرجه القضاعي [٤٣٤]: عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٦٢٥، ٣٤٧٥١].

ومنه: «**ابتغوا الرزق في خبايا الأرض**»(١) هي جمع: خبيئة، كخطيئة وخطايا، وأراد بالخبايا: الزرع؛ لأنه إذا ألقى البذر في الأرض فقد خبأه فيها"(٢).

وقد بين الشارع أن من أفضل القربات: الصدقة لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ ما كان منها على سبيلِ الخفاءِ فهو خيرٌ، وأنفعُ للعبد، وأكرمُ له؛ لأن عمله يدخل في (عبادة الخفاء)، وهي كذلك خير للمتصدَّق عليه، وأكرم له، فيكونُ عمل المتصدِّق على سبيل الخفاء أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن الرياء، وفي كلٍّ خير إن خلا عن الرِّياء، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ﴾ [البقرة:٢٧١].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع؛ لأن الإخفاء فيها أفضل من الإظهار، وكذلك سائر العبادات، الإخفاء أفضل في تطوعها؛ لانتفاء الرياء عنها، وليس كذلك الواجبات، بيد أن علماءنا قالوا: إن هذا على الغالب مخرجه.

---

(١) أخرجه: أبو يعلى [٤٣٨٤]، والطبراني في (الأوسط) [٨٩٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١١٧٨] بسند ضعيف: عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا. قال البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا إن صح فإنما أراد به الحرث وإثارة الأرض للزرع". قال الهيثمي (٦٣/٤): "رواه أبو يعلى، والطبراني في (الأوسط)، وفيه: هشام بن عبد الله بن عكرمة. ضعفه ابن حبان". وقال ابن الجوزي في (العلل المتناهية) (٦٠٣/٢): "قال ابن طاهر المقدسي: هذا الحديث لا أصل له من حديث: رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقال أبو عبد الرحمن النسائي: وهو حديث منكر، وقد روى من قول عروة".

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (خبأ) (٣/٢).

والتحقيق فيه: أن الحال في الصدقة تختلف بحال المعطي لها، والمعطى إياها، والناس الشاهدين لها، أما المعطي فله فيها فائدة: إظهار السنة، وثواب القدوة. قلت: هذا لمن قويت حاله، وحسنت نيته، وأمن على نفسه الرياء، وأما من ضعف عن هذه المرتبة فالسر له أفضل. وأما المعطى إياها فإن السر له أسلم من احتقار الناس له، أو نسبته إلى أنه أخذها مع الغنى عنها وترك التعفف. وأما حال الناس فالسر عنهم أفضل من العلانية لهم، من جهة أنهم ربما طعنوا على المعطي لها بالرياء، وعلى الآخذ لها بالاستغناء، ولهم فيها تحريك القلوب إلى الصدقة، لكن هذا اليوم قليل"(١).

كما حثَّ الشارع على (دعاء الخفاء) الذي يخلص العبد فيه التوجه إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾ [الأعراف:٥٥].

يقول تعالى ذكره: ادعوا، أيها الناس، ربَّكم وحده، فأخلصوا له الدعاء، دون ما تدعون من دونه. ﴿تَضَرُّعٗا﴾، أي: تذلُّلًا واستكانة لطاعته. ﴿وَخُفۡيَةًۚ﴾، أي: بخشوع قلوبكم، وصحة اليقين منكم بوحدانيته فيما بينكم وبينه، لا جهارًا ومراءاةً، وقلوبكم غير موقنة بوحدانيته وربوبيته، كما هو فِعْل أهل النفاق.

وعن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إنْ كانَ الرَّجل لقد جمع القرآن، وما يشعرُ جارُه، وإن كان الرجل لقد فَقُه الفقهَ الكثير، وما يشعرُ به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّوْر وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في السرِّ فيكون علانية أبدًا! ولقد كان المسلمون

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٣/٣٣٢).

يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوت، إن كان إلا همسًا بينهم وبين ربهم جَلَّ وَعَلَا، وذلك أن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥].

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ عن زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم:٣]، فذكَرَ أنه توجَّه إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بدعاءٍ خفيٍّ، وأن الله جَلَّ وَعَلَا قد رضي فعلَه، واستجاب دعائه.

"يقول حين دعا ربه عَزَّ وَجَلَّ، وسأله بنداء خفي، يعني: وهو مُسْتَسِرٌّ بدعائه ومسْألَتِه إيَّاهُ ما سَأَل؛ كراهة منه للرياء.

وقد جاء: عن قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾، أي: سرًّا، وإن الله يعلم القلب النقيَّ، ويسمع الصوت الخفيَّ"[(١)].

قال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "راعى سنة الله عَزَّ وَجَلَّ في إخفاء دعوته، لأنَّ الجهر والإخفاء عند الله جَلَّ وَعَلَا سيان، فكان الإخفاء أولى؛ لأنه أبعد من الرياء، وأدخل في الإخلاص. وعن الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: نداء لا رياء فيه..."[(٢)].

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: (راعى سنة الله عَزَّ وَجَلَّ)، يعني: راعى زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ سنة العبودية مع المعبود جَلَّ وَعَلَا في إخفاء دعائه.

قوله: (نداءً لا رياء فيه)، فيكون الإخفاء ملزومًا للإخلاص الذي هو: عدم الرياء؛ لأن الإخفاء أبعدُ من الرياء. ولما كنى عن عدم الرياء بالخفاء عُلم أن لا اعتبار للظاهر، وأن الأمر يدور على الإخلاص حتى إنه لو نادى جهرًا بلا رياء دخل فيه،

(١) انظر: تفسير الطبري (١٢/٤٨٥)، (١٨/١٤٢).
(٢) الكشاف (٣/٣).

أو نادى سرًّا بلا إخلاص خرج منه، وفي الجمع بين النداء والإخفاء: إيماءٌ إلى هذا المعنى.

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ [مريم:٣] (١): أشار بالنداء إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه تصور نفسه بعيدًا منه بذنوبه وأحواله السيئة.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ﴾ [فصلت:٤٤]، فاستعمال النداء فيهم تنبيه على بعدهم عن الحق، وقوله: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَـٰنِ﴾ [آل عمران:١٩٣]، فالإشارة بالمنادي إلى العقل، والكتاب المنزل، والرسول المرسل، وسائر الآيات الدالة على وجوب الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، وجعله مناديًا للإيمان؛ لظهوره ظهور النداء، وحثه على ذلك كحث المنادي.

فإن قلت: كيف جمع بين النداء وهو رفع الصوت، وبين ﴿خَفِيًّا ۝٣﴾ وهو خفتُ الصوت؟ قلت: جعل ﴿خَفِيًّا ۝٣﴾ مجازًا عن الإخلاص لا كناية؛ لأن المجاز ينافي إرادة الحقيقة، والنداء عبارة عن إظهار الاستكانة، وإبداء التضرع والخشوع"(٢).

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (ندا) (ص:٧٩٧).

(٢) الكشاف (٣/٣)، حاشية الطيبي على الكشاف (٩/٥٦١-٥٦٢)، وانظر: حاشية ابن التمجيد على البيضاوي (١٢/١٨٧).

وقيل: إنما نادى خفيًا؛ لئلا يلام على طلب الولد في إبان الكبر والشيخوخة (١)، أو لأن ضعف الهرم أخفى صوته.

واختلف في سنه حينئذ، فقيل: ستون، وقيل: سبعون، وقيل: خمس وسبعون، وقيل: خمس وثمانون، وقيل: تسع وتسعون (٢).

وذكر الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فوائد في قصة زكريا عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في (سورة مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ)، منها: تعليم آداب الدعاء وهي من جهات:

أحدها: قوله: ﴿نِدَآءً خَفِيًّا ٣﴾، وهو يدل على أن أفضل الدعاء ما هذا حاله ويؤكد قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، ولأن رفع الصوت مشعر بالقوة والجلادة، وإخفاء الصوت مشعر بالضعف والانكسار، وعمدة الدعاء: الانكسار، والتبري عن حول النفس وقوتها، والاعتماد على فضل الله عَزَّوَجَلَّ وإحسانه.

---

(١) قال الجوهري: "وَإِبَّانُ الشيء -بالكسر والتشديد: وقته وأوانه، وقال: الكبرُ في السن، وقد كبر الرجل يَكْبَرُ كِبَرًا، أي: أسن، والاسم: الكَبْرَةُ -بفتح الكاف وسكون الباء-. يقال: علت فلانًا كَبْرَةٌ" الطيبي (٥٦٢/٩)، الصحاح، للجوهري، مادة: (ابن) (٢٠٦٦/٥)، ومادة: (كبر) (٨٠١/٢).

(٢) انظر: الكشاف (٣/٣)، مفاتيح الغيب (٥٠٧/٢١)، تفسير البيضاوي (٥/٤). وفي (حاشية القونوي على البيضاوي) (١٨٨/١٢): "وقد مرَّ في (آل عمران) أن سنه كان تسعًا وتسعين، وسن امرأته كان ثمانية وتسعين، وهذا هو الظاهر الراجح؛ إذ ما ذكره من وهن العظم الخ. يناسبه؛ إذ ما ذكره المصنف هنا سوى الأخير لا يلائمه؛ إذ العادة قاضية أن من كان سنه ستين أو سبعين، أو خمسة وسبعين لا يبلغ هذه المرتبة، لا سيما صاحب النبوة، وذو القوة القدسية".

وثانيها: أن المستحب: أن يذكر في مقدمة الدعاء: عجز النفس وضعفها، كما في قوله جَلَّ وَعَلَا عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم:٤]، ثم يذكر كثرة نعم الله عَزَّوَجَلَّ على ما في قوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤﴾ [مريم:٤].

وثالثها: أن يكون الدعاء لأجل شيء متعلق بالدين، لا لمحض الدنيا[1]، كما قال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي﴾ [مريم:٥]. وأن يكون الدُّعاء بلفظ: (يا ربِّ) ونحوه، إلى غير ذلك"[2].

---

(١) قال الحافظ ابن كثير: "وجه خوفه: أنه خشي أن يتصرفوا من بعده في الناس تصرفًا سيئًا فسأل الله عَزَّوَجَلَّ ولدًا يكون نبيًّا من بعده؛ ليسوسهم بنبوته بما يوحى إليه، فأجيب في ذلك، لا أنه خشي من وراثتهم له ماله؛ فإن النبي أعظم منزلة، وأجل قدرًا من أن يشفق على ماله إلى ما هذا حده، وأن يأنف من وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد؛ ليحوز ميراثه دونهم وهذا وجه. الثاني: أنه لم يذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجارًا يأكل من كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالًا، ولا سيما الأنبياء؛ فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا. الثالث: أنه قد ثبت في (الصحيحين) من غير وجه: أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «لا نورث ما تركنا صدقة». وفي رواية عند الترمذي بإسناد صحيح: «نحن معشر الأنبياء لا نورث» وعلى هذا فتعين حمل قوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي﴾ [مريم:٥-٦]، على ميراث النبوة؛ ولهذا قال: ﴿وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم:٦]، كقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل:١٦]، أي: في النبوة؛ إذ لو كان في المال لما خصه من بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة؛ إذ من المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل: أن الولد يرث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها، وكل هذا يقرره ويثبته ما صح في الحديث: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»". تفسير ابن كثير (٣/٣٦٤-٣٦٥).

(٢) تفسير الرازي (٢١/٥١٩).

قال ابن المنير الإسكندري رَحِمَهُ اللَّهُ في (الانتصاف): "وحسبك في تعين الإسرار في الدعاء: اقترانه بالتضرع في الآية. فالإخلال به كالإخلال بالضراعة إلى الله عَزَّوَجَلَّ في الدعاء. وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى، فكذلك دعاء لا خفية ولا وقار يصحبه. وترى كثيرًا من أهل زمانك يعتمدون الصراخ والصياح في الدعاء، خصوصًا في الجوامع، حتى يعظم اللغط ويشتدُّ، وتستكُّ المسامع وتستدُّ، ويهتز الداعي بالناس، ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين: رفع الصوت في الدعاء، وفي المسجد، وربما حصلت للعوامِّ حينئذ رقة لا تحصل مع خفض الصوت، ورعاية سمت الوقار، وسلوك السنة الثابتة بالآثار. وما هي إلا رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء والأطفال، ليست خارجة عن صميم الفؤاد؛ لأنها لو كانت من أصل، لكانت عند اتباع السنة في الدعاء. وفي خفض الصوت به، أوفر وأوفى وأزكى. فما أكثر التباس الباطل بالحق، على عقول كثيرة من الخلق! اللهم أرنا الحقَّ حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه"(١).

والحاصل أن الدعاء سرًّا أبعد عن الرياء، وأقرب إلى الصفاء والإخلاص –على ما تقدم–.

وقد قيل: إن أنواع الاعتداء بالدعاء كثيرة، منها –كما تقدم–: الجهر الكثير المفرط (٢).

---

(١) الانتصاف، لابن المنير (٢/١١٠).

(٢) انظر: أحكام القرآن، لابن الفرس (٣/٥٢-٥٣).

وفي (الصحيح): عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سَفَر، فَجَعَلَ النَّاسُ يجهرونَ بالتَّكبير، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أيها الناس ارْبَعُوا على أنفسكم؛ فإنكم لا تدعون أَصَمَّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، وهو معكم**» (١).

قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: «**اربعوا على أنفسكم**»، يريد: أمسكوا عن الجهر، وقفوا عنه، وأصل هذه الكلمة من قولك: ربع الرجل بالمكان: إذا وقف عن السير وأقام به. ويقال للرجل: ارْبَعْ على نفسك، واربع عليك، أي: قف. وقيل: معناه: ارفق بنفسك. ويقال: معناه: انتظر"(٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "(ارْبَعُوا) -بهمزة وصل، وبفتح الباء الموحدة- معناه: ارْفُقُوا بأنفسكم، واخفضوا أصواتكم؛ فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه وأنتم تدعون الله عَزَّوَجَلَّ، وليس هو بأصم، ولا غائب، بل هو سميع قريب، وهو معكم بالعلم والإحاطة. ففيه: الندب إلى خفض الصوت بالذكر إذا لم تدع حاجة إلى رفعه؛ فإنه إذا خفضه كان أبلغ في توقيره وتعظيمه، فإن دعت حاجة إلى الرفع رفع، كما جاءت به أحاديث"(٣).

---

(١) صحيح البخاري [٢٩٩٢، ٤٢٠٥، ٦٣٨٤، ٦٦١٠، ٧٣٨٦]، مسلم [٢٧٠٤].

(٢) أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (١٤٢٤/٢)، وانظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (ربع) (١٢١٢/٣).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٢٦/١٧).

وروى ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ: عن ابن جريج رَحِمَهُ اللَّهُ: أن من الدعاء اعتداءً، يُكره رفعُ الصوتِ والنداءُ والصياحُ بالدعاء، ويُؤمر بالتضرُّع والاستكانة[1]. وأخرج ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ مثله: عن زيد بن أسلم رَحِمَهُ اللَّهُ، حيث كان يرى أن الجهر بالدعاء الاعتداء[2].

وفسره أبو مجلز رَحِمَهُ اللَّهُ بسؤال منازل الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وفسره سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ بالدعاء على المؤمن والمؤمنة بالشر، اللهم اخزه والعنه، ونحو ذلك؛ فإن ذلك عدوان. أخرج ذلك: ابن أبي حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ في (التفسير)[3].

قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ولا يخفى أن هذا جميعه مما يشمله الاعتداء"[4].

وفي (تفسير أبي المظفر السمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ): "قيل: من الاعتداء في الدعاء: أن يسأل لنفسه درجة ليس من أهلها؛ بأن يسأل درجة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وليس بنبي، ودرجة الشهداء، وليس بشهيد"[5].

---

(١) تفسير الطبري (٤٨٧/١٢). قال في (الدر المنثور) (٤٧٦/٣): "أخرجه ابن جرير، وأبو الشيخ: عن ابن جريج".

(٢) روى ابن أبي حاتم: "عن عبد الرحمن بن أبي الرجال، عن زيد بن أسلم في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف:٥٥]، قال: كان يرى أن الجهر بالدعاء الاعتداء" تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١٥٠٠/٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١٥٠٠/٥).

(٤) الإكليل في استنباط التنزيل (ص:١٣٠).

(٥) تفسير أبي المظفر السمعاني (١٨٩/٢).

قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإن منه: ما ذهب جمع إلى أنه كفر، كطلب دخول إبليس وأبي جهل وأضرابهما الجنة، وطلب نزول الوحي.. ونحو ذلك من المستحيلات؛ لما فيه من طلب إكذاب الله عَزَّوَجَلَّ نفسه" (١).

وفي (تبيين المحارم): "ومن أنواع الدعاء ما هو كفر، كأن يدعو بالمغفرة لمن مات كافرًا، وتعين موته على الكفر، كأبي جهل، وفرعون، ونمرود وأحزابهم؛ فإن النص القاطع المجمع عليه يدل على أن الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء:٤٨]، فالدعاء بالمغفرة لمن مات كافرًا يستلزم تكذيب النَّص القاطع، وهو كفر، ولو دعا لكافر حي بأن يقول: اللهم اهده للإيمان، اللهم اجعله مسلمًا، ونحو ذلك، يجوز له ذلك" وتفصيل ذلك في (تبيين المحارم) (٢). وفي (تفسير أبي السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝﴾ [الأعراف:٥٥]، أي: لا يحب دعاء المجاوزين لما أمروا به في كل شيء، فيدخل فيه: (الاعتداء في الدعاء) دخولًا أوليًّا. وقد نبَّه به على أن الداعي يجب أن لا يطلب ما لا يليق به، كرتبة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، والصعود إلى السماء. وقيل: هو الصياح في الدعاء، والإسهاب فيه"(٣).

وفي الحديث: «**سيكون قوم يعتدون في الدعاء**».

وفي رواية: عن أبي العلاء، قال: سمع عبد الله بن المغفل ابنا له، وهو يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة، قال: يا بني، إذا سألت، فاسأل الله

---

(١) روح المعاني (٣٧٩/٤).

(٢) انظر: تحقيقنا لـ: (تبيين المحارم)، لسنان الدين يوسف بن عبد الله الأماسي، باب: (التعدي في الدعاء).

(٣) تفسير أبي السعود (٢٣٣/٣).

الجنة، وتعوذ به من النار، فإني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**يكون في آخر الزمان قوم يعتدون في الدعاء والطهور**» (١).

قال التُّورِبِشْتِي رَحِمَهُ اللَّهُ في (شرح المصابيح): "أنكر الصحابي على ابنه في هذه المسألة؛ لأنه طمع ما لم يبلغه عملًا وحالًا، حيث سأل منازل الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والأولياء، وجعلها من باب: (الاعتداء في الدعاء)؛ لما فيها من التجاوز عن حدِّ الأدب، ونظر الداعي إلى نفسه بعين للكمال"(٢).

وأما (التعدِّي في الطُّهور): فهو أن يغسِلَ الأعضاءَ أكثرَ من ثلاثِ مرَّات، أو أسرفَ في إراقةِ الماءِ في الاستنجاء والوضوء والغُسْل (٣).

وذهب بعضهم إلى أن رفع الصوت بالدعاء لا بأس به، ودعاء المعتدين الذي لا يحبه الله عَزَّوَجَلَّ هو: طلب ما لا يليق بالداعي، كرتبة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، والصعود إلى السماء.

قال الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفصل آخرون فقالوا: الإخفاء أفضل عند خوف الرياء، والإظهار أفضل عند عدم خوفه، وأولى منه: القول بتقديم الإخفاء على الجهر فيما إذا خيف الرياء أو كان في الجهر تشويش على نحو مصل، أو نائم، أو قارئ، أو

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٤١١]، وأحمد [١٦٨٠١]، وابن ماجه [٣٨٦٤]، وأبو داود [٩٦]، والروياني [٨٩٧]، وابن حبان [٦٧٦٤]، والطبراني في (الدعاء) [٥٩]، والحاكم [٥٧٩]، والبيهقي في (السنن) [٩٤٧]، من حديث: عبد الله بن مغفل.

(٢) الميسر في شرح مصابيح السنة، للتُّورِبِشْتِي (١/١٤٨)، وانظر: فيض القدير (٤/١٣٠).

(٣) المفاتيح في شرح المصابيح (١/٤٠٤).

مشتغل بعلم شرعي، وبتقديم الجهر على الإخفاء فيما إذا خلا عن ذلك، وكان فيه قصد تعليم جاهل، أو نحو إزالة وحشة عن مستوحش، أو طرد نحو: نعاس أو كسل عن الداعي نفسه، أو إدخال سرور على قلب مؤمن، أو تنفير مبتدع عن بدعة، أو نحو ذلك، ومنه: الجهر بالترضي عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، والدعاء لإمام المسلمين في الخطبة. وقد سنَّ الشافعية الجهر بآمين بعد الفاتحة، وهو دعاء، ويجهر بها الإمام والمأموم عندهم.

وفرق بعضهم بين رفع الصوت جدًّا، كما يفعله المؤذنون في الدعاء بالفرج على المآذن، وبين رفعه بحيث يسمعه من عنده، فقال: لا بأس في الثاني غالبًا ولا كذلك الأول. والظاهر أن المراد بالمعتدين: المجاوزون ما أمروا به في كل شيء، ويدخل فيها: المعتدون في الدعاء دخولا أوليًّا -كما تقدم-. وقد اختلف العلماء في كفر من دعا على آخر بسلب الإيمان، أو الموت كافرًا، وهو من أعظم أنواع الاعتداء، والمفتي به: عدم الكفر"(١).

وفي (تبيين المحارم): "اختلف العلماء في الدعاء، الإخفاء أفضل فيه أم العلانية؟

ذهب كثيرون (٢) إلى أن الدعاء خفية أفضل.

وقيل: العلانية أفضل؛ لترغيب الغير في الاقتداء به.

وقيل: إن خاف على نفسه الرياء فالإخفاء أفضل، وإلا فالعلانية أفضل.

---

(١) روح المعاني (٣٧٩/٤).

(٢) في نسخة: "الأكثرون".

وقيل: إن كان معه جماعة حاضرين بعضهم وقع أبعد منه بحيث لا يرونه يدعو فالعلانية أفضل، يسمعون دعاءه، فيؤمنون وإلا فالإخفاء أفضل، والأكثرون على أن الإخفاء أفضل في الدعاء والذكر، مع أن أكثر المفسرين في هذه الآية قالوا: قيل: المراد بالاعتداء: رفع الصوت، والنداء، والصياح.

واعلم أن رفع الصوت في الدعاء، وقراءة القرآن، إنما يجوز إذا لم يكن هناك موانع، فأما إذا كان موانع، بأن يشوش على المصلين، والذاكرين، والطائفين، والمتفكرين، والمشغولين بأورادهم، والمدرسين العلم، فكل من كان في عبادة فإن رفع الصوت بهذه الأشياء في هذه المواضع منهي عنه عند الأئمة الأربعة" اهـ.

وفي الحديث: عن فروة بن عمرو البياضي أن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج على الناس وهم يصلون، وقد علت أصواتهم بالقراءة، فقال: «**إن المصلي يناجي ربه** عَزَّ وَجَلَّ **فلينظر بما يناجيه، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن**» (١).

وقد ورد أن من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من يدخر لنفسه عبادات في السرِّ، يخلصون فيها لله عَزَّ وَجَلَّ، ويدخرونها ليوم المعاد، كبلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد دلَّ على ذلك: ما جاء عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رأيتني دخلت الجنة، فإذا أنا بالرميصاء، امرأة أبي طلحة، وسمعت خشفة، فقلت: من هذا؟ فقال: هذا بلال،**

---

(١) أخرجه مالك في (الموطأ) [٢٦٤]، وأحمد [١٩٠٢٢] قال الهيثمي: (٢/٢٦٥): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح"، وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [٣٣٥٠]، والبيهقي في (السنن) [٤٧٠٤]، وانظر: نتائج الأفكار، لابن حجر (٢/١٧).

ورأيت قصرًا بفنائه جارية، فقلت: لمن هذا؟ فقال: لعمر، فأردت أن أدخله فأنظر إليه، فذكرت غيرتك»، فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بأبي وأمي يا رسول الله أعليك أغار؟[(١)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لبلالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند صلاة الفجر: «**يا بلال حدثني بأرجى عمل عملته في الإسلام؛ فإني سمعت دَفَّ نَعْلَيْكَ بين يَدَيَّ في الجنة**»، قال: ما عملت عملًا أرجى عندي: أني لم أتطهر طهورًا، في ساعة ليل أو نهار، إلا صليت بذلك الطهور ما كتب لي أن أصلي. قال أبو عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**دَفَّ نَعْلَيْكَ**»، يعني: تحريك[(٢)].

وعن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: أصبح رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فدعا بلالًا فقال: «**يا بلال بم سبقتني إلى الجنة؟ ما دخلت الجنة قط إلا سمعت خشخشتك أمامي، دخلت البارحة الجنة فسمعت خشخشتك أمامي، فأتيت على قصر مربع مشرف من ذهب، فقلت: لمن هذا القصر؟ فقالوا: لرجل من العرب، فقلت: أنا عربي، لمن هذا القصر؟ قالوا لرجل من قريش، فقلت: أنا قرشي، لمن هذا القصر؟ قالوا: لرجل من أمة محمد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فقلت: أنا محمد لمن هذا القصر؟ قالوا:**

---

(١) صحيح البخاري [٣٦٧٩]، مسلم [٢٤٥٧].

(٢) صحيح البخاري [١١٤٩]، مسلم [٢٤٥٨]. وعند مسلم: «فإنِّي سمعت اللَّيلة خَشْفَ نعليك» الحديث.

لعمر بن الخطاب. فقال بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **يا رسول الله ما أذنت قط إلا صليت ركعتين، وما أصابني حدث قط إلا توضأت عندها، ورأيت أن لله عليَّ ركعتين»**(١).

قال ابن التين رَحِمَهُ اللَّهُ: إنما اعتقد بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلك؛ لأنه علم من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الصلاة أفضل الأعمال، وأن عمل السر أفضل من عمل الجهر.

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في (الفتح): والذي يظهر أن المراد بالأعمال التي سأله عن إرجائها: الأعمال المتطوع بها، وإلا فالمفروضة أفضل.

وقال المهلب رَحِمَهُ اللَّهُ: فيه أن الله عَزَّ وَجَلَّ يعظم المجازاة على ما يسره العبد من عمله(٢).

وجاء في (مقاصد الرعاية) في (تفضيل عمل السر على عمل العلانية): "اختلف العلماء في ذلك:

فقالت فرقة: عمل السرِّ أفضل من عمل العلانية؛ للقدوة، وغير القدوة.

وعمل العلانية للقدوة أفضل من عمل العلانية لغير القدوة.

---

(١) أخرجه أحمد [٢٣٠٤٠]، والترمذي [٣٦٨٩]، واللفظ له، وقال: "حسن صحيح غريب. قال: ومعنى هذا الحديث: «أني دخلت البارحة الجنة» يعني: رأيت في المنام كأني دخلت الجنة، هكذا روي في بعض الحديث، ويروى عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «رؤيا الأنبياء وحي»" اهـ. والحديث أخرجه أيضًا: ابن خزيمة [١٢٠٩]، وابن حبان [٧٠٨٦]، والحاكم [١١٧٩، ٥٢٤٥]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي.

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٣٤/٣)، وانظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٤٣/٣)، عمدة القاري (٢٠٧/٧)، نيل الأوطار (٨٦/٣).

والفرق بينهما أنه في إظهار عمل السر لا يأمن الرياء، فيمكنه أن يحفظ عمله عن الرياء بإسراره وإخفائه، وحفظ إخلاص العمل أولى من المخاطرة به.

وأما عمل العلانية فلا يقدر على التحرز فيه من الرياء.

وقالت طائفة: عمل السر أفضل من عمل العلانية لغير القدوة، وعمل العلانية للقدوة أفضل من عمل السرِّ؛ لأن من تسبب إلى خير أو سن سنة حسنة أجر على ذلك أجرين، أو أجورًا كثيرة على عدد المقتدين به، ورُوِيَ: «**إن الرجل ليعمل العمل، فيكتب له عمل صالح معمول به في السِّرِّ يُضَعَّفُ أجره سبعين ضعفًا**»(١).

وعمل السر: ما شرع إسراره من أول أمره، كالنوافل، والأذكار.

وعمل العلانية: ما شرعت العلانية في أول أمره، أو ما لا يتأتى عمله إلا في العلانية، كعيادة المرضى، وتشييع الجنائز، وحضور الأعياد.

---

(١) أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٣٩٤]: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وضعفه فقال: "هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين". قال الحافظ العراقي: "حديث: (تفضيل عمل السر على عمل الجهر بسبعين) ضعفه البيهقي في الشعب من حديث: أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إن الرجل ليعمل العمل، فيكتب له عمل صالح معمول به في السر يضعف أجره سبعين ضعفًا»، قال البيهقي هذا من أفراد بقية عن شيوخه المجهولين، وروى ابن أبي الدنيا في كتاب: (الإخلاص) من حديث: عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بسند ضعيف: «يفضل الذكر الخفي الذي لا تسمعه الحفظة على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين درجة»" المغني عن حمل الأسفار (ص:١٢٠٤). وحديث: عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا -الآنف الذكر- أخرجه أبو يعلى [٤٧٣٨]، بسند ضعيف، والبيهقي في (شعب الإيمان) من طريق: ابن أبي الدنيا [٥٥١]، وقال: "تفرد به معاوية بن يحيى الصدفي، وهو ضعيف" وانظر: مجمع الزوائد (٨١/١٠).

فالإسرار بأعمال السر أولى، إلا رجاء الاقتداء لمن يأمن الرياء، وعمل العلانية مع مجاهدة النفس من خطرات الرياء أولى من تركه مخافة الرياء.."[1].

والأَوْلى بالعبد -كما تقرر- أن تكون له خبيئة من عمل صالح يدخرها، مضافة إلى أعماله الظاهرة المطلوبة، وهذه الخبيئة لها أثر ونفع من أكثر من جهة، كالسلامة من الرياء -كما تقرَّر-، والتعود على الإخلاص في سائر الأحوال من غير التفات على الناس.

والإنسان بحاجة بين الفينة والأخرى إلى وقفة محاسبة يختلي فيها مع نفسه، فيستدرك ما فاته، ويراجع ما صدر منه من أخطاء وزلات، فيتدارك النقص، ويقوم الاعوجاج.

ومن الأوقات الفاضلة في (عبادة الخفاء): الخلوة وقت النزول الإلهي، لمناجاة الله عَزَّوَجَلَّ، وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب، والتأدب بأدب العبودية بين يديه.

ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

وفي الأسحار نسمات ينالها المقربون، ففي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا مضى شطر الليل، أو ثلثاه، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا، فيقول: هل من سائل يعطى؟ هل من داع يستجاب له؟ هل من مستغفر يغفر له؟ حتى ينفجر الصبح**»[2]، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ

---

(١) مقاصد الرعاية لحقوق الله عَزَّوَجَلَّ أو مختصر رعاية المحاسبي (ص:١٠١-١٠٢)، بتصرف يسير، الرعاية لحقوق الله، لأبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي (ص:٢٦٦).

(٢) صحيح مسلم [٧٥٨].

﴿إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾ [آل عمران:١٦-١٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ١٨﴾ [الذاريات:١٧-١٨].

وقد كان السَّلَفُ يفرحون بقدوم (فصل الشِّتَاء)؛ لِقِصَرِ نَهَارِهِ لِلصَّائم، وطُولِ لَيْلِهِ للقائم، فيتقربون إلى الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الفصل بعبادتين من (عبادات الخفاء)، وهما: الصيام والقيام، مضافتين إلى جليل أعمالهم الظاهرة؛ ولذلك كانوا يعدُّون هذا الفصل من فصول العام غنيمةً باردة، يرْتعون فيه في بساتين العبادات، ويَسْرَحُون فيه في ميادين الطَّاعَاتِ والقُرُبَات، ويسبغون فيه الوضوء مع شدَّةِ البرد؛ رجاء محو الخطايا والسيئات، وطمعًا في رفعة الدرجات. كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسُول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ألا أَدُلُّكُمْ على ما يَمْحُو اللَّهُ به الْخَطَايَا، ويرفَعُ به الدَّرجَاتِ؟**»، قالوا: بلى يا رسولَ اللَّه، قال: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ على الْمَكَارِه، وكَثْرَةُ الْخُطَا إلى المساجِد، وانتظار الصَّلَاةِ بعد الصَّلَاة، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**» (١).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فذلك الرباط**» إنما هو تشبيه بالرباط في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ انتظار الصلاة إنما هو سبيل من السبل المنجية (٢)، كما سيأتيك في بيان فضل الرباط، وأنه من المنجيات من العذاب.

---

(١) صحيح مسلم [٢٥١].

(٢) المحرر الوجيز (١/٥٦٠)، وانظر: تفسير القرطبي (٤/٣٢٣-٣٢٤)، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص:٤١٨).

وقد قيل إن المخلص: من يخفي حسناته كما يخفي سيئاته، فهذا من قبيل المدح والثناء لمرتبة عالية من مراتب الإخلاص تحمل العبد على إخفاء جليل أعماله التي يتقرب بها إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد تقدم بيان ذلك في بيان ثمرات: (عبادة الخفاء).

وقد يحتاج المكلف إلى العزلة والخلوة في بعض الأحوال، حيث لا يكون للمخالطة أثر نافع، بل قد يترتب على المخالطة -والحالة هذه- مخاطر وآثار مضرّة.

وقد تدفع العزلة في بعض الأحوال شرًّا أو بلاء قد يصب من بلغ شهرة بين الناس؛ ولذلك قال الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: **(ومن عُرِفَ خُصَّ بالبلاء)** (١).

وقال ابن عطاء رَحِمَهُ اللَّهُ في (الحكم): **(ادْفِنْ وجودَك في أرضِ الخمولِ، فما نَبَتَ مما لم يُدْفَنْ لا يَتِمُّ نَتَاجُه)**، أي: ادفن نفسك، أي: شهرتها في الخمول، الذي هو كالأرض للميت في التغطية التامة بأن لا تتعاطى أسباب الشهرة؛ فإن الخمول مما يعين على الإخلاص، بخلاف حب الظهور؛ فإنه من جملة القواطع القاصمة للظهور.

(فما نبت) من الحَب، (مما لم يدفن) في الأرض لا يتم نتاجه، بل يخرج مصفرًا.

وأنشد بعضهم:

عِشْ خاملَ الذِّكْرِ بين الناسِ، وارضَ به ... فذاك أسلمُ للدنيا، وللدين

مَنْ عاشرَ النَّاسَ لم تسلمْ ديانَتُهُ ... ولم يزَلْ بين تحريكِ وتسكين(٢)

---

(١) انظر: روح المعاني (١/١٤٥).

(٢) انظر: إيقاظ الهمم (ص:٥٣).

وقال ابن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **(ما نَفَعَ القلبَ شيءٌ مثل عُزْلَةٍ يدخلُ بها مَيْدَانَ فكرة)** [1].

ولا يخفى أن الشهرة قد تجلب علائق من حظوظ النفس تصحب الأعمال، ربما يعسر على كثيرين التحرر منها، أو معالجتها.

والعبد بحاجة بين الفينة والأخرى إلى عُزْلَةٍ يتحرر فيها من حظوظ النفس.

ومما يدل على هذا المعنى المثمر: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بالأبواب، لو أقسم على الله لَأَبَرَّهُ**»[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مُغْبَرَّةٍ قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في السَّاقَةِ كان في السَّاقَةِ، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ**»، وقال: فتعسًا: كأنه يقول: فأتعسهم الله، طُوبَى: فُعْلَى من كُلِّ شيء طيب، وهي ياء حولت إلى الواو، وهي من يطيب [3].

---

(١) انظر: إيقاظ الهمم (ص:٥١-٥٧)، شرح الشيخ الشرنوبي (ص:٢٤-٢٥). شرح ابن عباد (ص:٤٨)، و(ص:١١٤).

(٢) تقدم.

(٣) صحيح البخاري [٢٨٨٧].

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سمعه يقول: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«حوضي كما بين عدن وعمان، أبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحًا من المسك، أكوابه مثل نجوم السماء، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا، أول الناس عليه ورودًا: صعاليك المهاجرين»**، قال قائل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: **«الشَّعِثَةُ رُؤوسُهُمْ، الشَّحِبَةُ وجُوهُهُمْ، الدَّنِسَةُ ثِيَابُهُمْ، لا يُفْتَحُ لهم السُّدَدُ، ولا يَنْكِحُونَ الْمُتَنَعِّمَاتِ الذين يُعْطُونَ كُلَّ الذي عليهم، ولا يَأْخُذُونَ الذي لهم»** (١).

وعن أبي سَلَّامٍ الأسود، قال: بلغ عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه يُحَدِّثُ عن ثوبان حديث: أبي الأحوص، قال: فبعث إليه فحمل على البريد، قال: فلما انتهى إليه فدخل عليه سلم وقال: يا أمير المؤمنين لقد شقَّ على رِجْلِي مَرْكَبِي من البريد، قال: فقال عمر كالمتوجِّع: ما أردنا المشقَّةَ عليك يا أبا سلَّام، ولكن بلغني حديث تحدِّثُه، عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحوض فأحببت أن تشافهني به مشافهةً. قال أبو سلَّام: سمعت ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) أخرجه أحمد [٦١٦٢]، والطبراني في (الكبير) [١٤١٠٤]: عن عمر بن عمرو الأحموسي، عن المخارق بن أبي المخارق، قال: سمعت عبدالله بن عمر.. قال الهيثمي (٣٦٦/١٠): "رواه أحمد، والطبراني من رواية: عمرو بن عمر الأحموسي، عن المخارق بن أبي المخارق، واسم أبيه: عبد الله بن جابر، وقد ذكرهما ابن حبان في (الثقات)، وشيخ أحمد: أبو المغيرة من رجال الصحيح". قال المنذري في (الترغيب والترهيب) (٢٢٧/٤): "رواه أحمد بإسناد حسن. قوله: «الشحبة» بفتح الشين المعجمة، وكسر الحاء المهملة، بعدها باء موحدة، هو من الشحوب، وهو تغير الوجه من جوع أو هزال أو تعب. وقوله: «لا تفتح لهم السدد» أي: لا تفتح لهم الأبواب".

«حوضي ما بين عَدَنٍ إلى عُمَانَ الْبَلْقَاء، ماؤه أشدُّ بياضًا من اللَّبن، وأحلى من العسل، وأكوابه عددُ النُّجوم، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدًا، أوَّل الناس ورودًا عليه: فقراء المهاجرين، الشُّعْثُ رُءوسًا، الدُّنْسُ ثِيَابًا، الذين لا يَنْكِحُونَ الْمُنَعَّمَات، ولا تُفْتَحُ لهم السُّدَدُ»، قال: فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«لكني قد نَكَحْتُ الْمُنَعَّمَات -فاطمةَ بِنْتَ عبد الْمَلِك- وفُتِحَتْ لِي السُّدَدُ، لا جَرَمَ أَنِّي لا أغْسِلُ رَأْسِي حتى يَشْعَثَ، ولا ثَوْبِيَ الذي يَلِي جَسَدِي حتى يَتَّسِخَ»**(١).

وعن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: مَرَّ رجل على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال لرجل عنده جالس: **«ما رأيك في هذا؟»**، فقال: رجل من أشراف الناس، هذا والله حَرِيٌّ إن خطب أن يُنْكَحَ، وإن شفع أن يُشَفَّعَ، قال: فسكت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم مرَّ رجل آخر، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما رأيك في هذا؟»** فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حَرِيٌّ إن خطب أن لا يُنْكَحَ، وإن شفع أن لا يُشَفَّعَ، وإن قال أن لا يسمع لقوله، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«هذا خَيْرٌ من مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هذا»** (٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفي الحديث: أن السيادة بمجرد الدنيا لا أثر لها، وإنما الاعتبار في ذلك بالآخرة، وأن الذي يفوته الحظ من الدنيا يعاض عنه بحسنة

---

(١) أخرجه ابن ماجه [٤٣٠٣]، والترمذي [٢٤٤٤]، والحاكم [٧٣٧٤]، واللفظ له، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح البخاري [٥٠٩١، ٦٤٤٧].

الآخرة. قال: ويتبين من سياق طرق القصة أن جهة تفضيله إنما هي لفضله بالتقوى"(١).

وقال الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فهذان رجلان أحدهما من أشراف القوم، وممن له كلمة فيهم، وممن يجاب إذا خطب، ويسمع إذا قال، والثاني بالعكس، رجل من ضعفاء الناس ليس له قيمة، إن خطب فلا يجاب، وإن شفع فلا يشفع، وإن قال فلا يسمع.

فقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: **«هذا خير من ملء الأرض مثل هذا»**، أي: خير عند الله عَزَّوَجَلَّ من ملء الأرض من مثل هذا الرجل الذي له شرف وجاه في قومه؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ ليس ينظر إلى الشرف، والجاه، والنسب، والمال، والصورة، واللباس، والمركوب، والمسكون، وإنما ينظر إلى القلب والعمل، فإذا صلح القلب فيما بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ، وأناب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وصار ذاكرًا لله جَلَّوَعَلَا، خائفًا منه، مخبتًا إليه، عاملًا بما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا هو الكريم عند الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا هو الوجيه عنده، وهذا هو الذي لو أقسم على الله لأبره. فيؤخذ من هذا فائدة عظيمة، وهي أن الرجل قد يكون ذا منزلة عالية في الدنيا، ولكنه ليس له قدر عند الله عَزَّوَجَلَّ، وقد يكون في الدنيا ذا مرتبة منحطة، وليس له قيمة عند الناس، وهو عند الله عَزَّوَجَلَّ خير من كثير ممن سواه"(٢).

---

(١) فتح الباري (١١/٢٧٨).

(٢) شرح رياض الصالحين (٣/٥٢-٥٣).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد تنازع الناس أيما أفضل: الفقير الصابر أو الغني الشاكر؟ والصحيح: أن أفضلهما أتقاهما؛ فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة"(١).

وهذا البيان جد نفيس، وهو الذي تؤيده النصوص في الكتاب والسنة -كما تقرر في غير موضع-.

وقد تقدم أن الله عَزَّوَجَلَّ لا ينظر إلى صور الناس الظاهرة، ولا إلى أجسادهم وأموالهم، ولكن ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في النص على أن مقياس التفاضل بين الناس إنما هو التقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٢ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ۝١٠٣﴾ [المؤمنون:١٠١-١٠٣]. وقد تقدم كذلك حديث: «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أسود على أحمر، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى**».

وأما ما جاء في العزلة عند وقوع الفتن، واختلاط الأمور: فقد أرشد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى ما ينبغي فعله عند وقوع الفتن، واختلاط الأمور، ومتى يجب اعتزال

(١) مجموع الفتاوى (٢١/١١).

الفتنة والناس، فمن ذلك: ما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ويل للعرب من شر قد اقترب، أفلح من كف يده**»(١).

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: "والإمساك في الفتنة سنة ماضية، واجب لزومها، فإن ابتليت فقدم نفسك دون دينك، ولا تعن على فتنة بيد ولا لسان، ولكن اكفف يدك ولسانك وهواك، -والله المعين-"(٢).

وأرشد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته عن كيفية التعامل مع الواقع عندما لا يكون أمرُ النَّاس مستقيمًا، ينقضون العهود، ويخونون الأمانات، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: بينما نحن حول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ ذكر الفتنة، فقال: «**إذا رأيتم الناس قد مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، وكانوا هكذا**»، وشبك بين أصابعه، قال: فقمت إليه، فقلت: كيف أفعل عند ذلك، جعلني الله فداك؟ قال: «**الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ بما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة**»(٣).

---

(١) أخرجه نعيم بن حماد في (الفتن) [٣٤٤]، وابن أبي شيبة [٣٧٢٥٢]، وأحمد [٩٦٩١] بإسناد صحيح، وأبو داود [٤٢٤٩]، وأبو نعيم في (الحلية) (٨/٢٦٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٩٤٥]، والديلمي [٧١٤٢].

(٢) طبقات الحنابلة (١/٢٧)، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ص:٨٩).

(٣) أخرجه أحمد من غير وجه، وابن ماجة [٣٩٥٧]، وأبو داود [٤٣٤٣]، والنسائي في (الكبرى) [٩٩٦٢]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٢٠٥]، والطبراني (١٣/٩)، [٤]، وأخرجه أيضًا: الحاكم [٧٧٥٨] وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. والحديث قد روي عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من غير وجه. قال العراقي (ص:٦٩٨): "أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بإسناد حسن".

وعند أبي داود بلفظ: «**كيف بكم وبزمان**»، أو «**يوشك أن يأتي زمان يغربل الناس فيه غربلة، تبقى حثالة من الناس، قد مرجت عهودهم، وأماناتهم، واختلفوا، فكانوا هكذا**»، وشبك بين أصابعه، فقالوا: وكيف بنا يا رسول الله؟ قال: «**تأخذون ما تعرفون، وتذرون ما تنكرون، وتقبلون على أمر خاصتكم، وتذرون أمر عامتكم**». قال أبو داود: هكذا روي عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير وجه [(١)].

قوله: «**يغربل الناس فيه**» -على بناء المفعول-، أي: يذهب خيارهم، ويبقي شرارهم وأراذلهم. و«**حثالة**» -بضم الحاء المهملة والثاء المثلثة-: الرديء من كل شيء، والمراد: سفلة الناس وأراذلهم. «**قد مرجت**» -بكسر الراء- على بناء الفاعل، أي: اختلطت وفسدت. فقلت فيهم أسباب الديانات.

وقوله: «**فكانوا هكذا**»، وشبك بين أصابعه. أي: يموج بعضهم في بعض، ويلتبس أمر دينهم، فلا يعرف الأمين من الخائن، ولا البر من الفاجر.

قوله «**عليك بما تعرف**»، أي: ألزم وافعل ما تعرف كونه حقًّا، واترك ما تنكر أنه حق، أي: ألزم. أمر نفسك واحفظ دينك، واترك الناس، ولا تتبعهم. وقيل: «**على خَاصَّتِكُمْ**»، أي: على من يختص بكم من الأهل والخدم [(٢)].

---

(١) سنن أبي داود [٤٣٤٢].

(٢) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٤١٤/١١)، حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٤٦٨/٢)، مرقاة المفاتيح (٣٣٩٤/٨).

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كثر الأشرار وضعف الأخيار. والإملاك: السد والإحكام، يعني سد لسانك، ولا تتكلم في أحوال الناس كيلا يؤذوك"(١).

وكذلك روي عن طائفة من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المائدة:١٠٥]، قالوا: لم يأت تأويلها بعد، إنما تأويلها في آخر الزمان (٢).

وروي عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة، ولم تُلبَسوا شيعًا، ولم يَذُق بعضكم بأس بعض، فأمروا وانهوا. فإذا اختلفت القلوب والأهواء، وأُلبستم شيعًا، وذاق بعضكم بأس بعض، فامرؤ ونفسه، فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية (٣).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن الزمان إذا كثر فيه الشر، وتعذرت فيه السلامة، طابت العزلة. والجليس الصالح -إذا وجد- خير من العزلة والوحدة"(٤).

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١١/٣٤١٤).

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/٢٥٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١١/١٤٤)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٤/١٢٢٧)، تفسير ابن كثير (٣/٢١٤)، الدر المنثور (٣/٢١٦)، السنن الكبرى، للبيهقي [٢٠١٩٤].

(٤) الاستذكار، لابن عبد البر (١/٣٨٦).

وقد بوب الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ على أن (العزلة راحة للمؤمن من خُلَّاطِ السوء) (١)، ورَوَى حديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يوشك أن يكون خيرَ مال المسلم غَنَمٌ يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجِبَال، ومَوَاقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بدينه من الفتن**» (٢).

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(شعف الجبال): رؤوسها وأعاليها، واحدتها شعفة، وفيه بيان فضيلة العزلة أيام الفتن، وأنها للدين عصمة"(٣).

وقال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا الحديث يدل على إباحة الانفراد والاعتزال عند ظهور الفتن؛ طلبًا لإحراز السلامة في الدين؛ خشية أن تحل عقوبة فتعم الكل، وهذا كله من كمال الدين"(٤).

وقد بوب الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابًا بعنوان: (الفرار من الفتن من الدين) (٥)، قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وليس في الحديث إلا الإشعار بفضل من يفر بدينه من الفتن، لكن لما جعل الغنم خير مال المسلم في هذه الحال دل على أن هذا الفعل من خصال الإسلام، والإسلام هو الدين. وأصرح من دلالة هذا الحديث الذي خرجه في أول (الجهاد) من رواية الزهري، عن عطاء بن يزيد، عن أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قيل: يا

(١) صحيح البخاري (٨/١٠٣).

(٢) صحيح البخاري [١٩، ٣٣٠٠، ٣٦٠٠، ٦٤٩٥، ٧٠٨٨].

(٣) معالم السنن (٤/٣٤٣)، أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) (١/١٥٤).

(٤) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/٧١).

(٥) صحيح البخاري (١/١٣).

رسول الله أي الناس أفضل؟ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله**»، قالوا: ثم من؟ قال: «**مؤمن في شعب من الشِّعَابِ يَتَّقِي الله، ويدع الناس من شَرِّهِ**»(١). وليس في هذا الحديث: ذكر الفتن. وخرجه أبو داود، وعنده: سئل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أي المؤمنين أكمل إيمانا؟**»(٢) فذكره. وهذا فيه دلالة على أن (الاعتزال عن الشر) من الإيمان.

وفي (المسند)، و(جامع الترمذي): عن طاووس، عن أم مالك البهزية قالت: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خير الناس في الفتنة: رجل معتزل في ماله، يعبد ربه، ويؤدي حقه، ورجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله**»(٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**أظلتكم فتن، كقطع الليل المظلم، أنجى الناس منها: صاحب شاهقة يأكل من رَسْلِ غنمه، أو رجل من وراء الدروب آخذ بعنان فرسه يأكل من فيء سيفه**»(٤).

---

(١) صحيح البخاري [٢٧٨٦، ٦٤٩٤]، مسلم [١٨٨٨].

(٢) سنن أبي داود [٢٤٨٥]، وأخرجه أيضًا: الحاكم [٢٣٩٠]، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي.

(٣) فتح الباري، لابن رجب (١/١٠٥-١٠٦). والحديث أخرجه: أخرجه أحمد [٢٧٣٥٣]، والترمذي [٢١٧٧]، وقال: "وفي الباب عن أم مبشر، وأبي سعيد، وابن عباس، وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وقد رواه الليث بن أبي سليم، عن طاووس، عن أم مالك البهزية، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". وأخرجه أيضًا: الطبراني في (الكبير) [٣٦٠].

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في (مصنفه) [٣٧٢٦٣]، والبزار [٨٢٥٣]، والحاكم [٢٤٦٠]، وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي.

وعن شعبة عن خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم قال: قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**خذوا حظكم من العزلة**»(١). قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: وما أحسن قول الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ نفع الله ببركته: مكابدة العزلة أيسر من مداراة الخلطة. وقال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ لو لم يكن في العزلة إلا السلامة من الغيبة، ومن رؤية المنكر الذي لا يقدر على إزالته لكان ذلك خيرًا كثيرًا"(٢).

وقال القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ: وأمّا الفرار والعزلة في الفتنة فواجبٌ، وفيه النَّجاة إنَّ شاء الله عَزَّوَجَلَّ. وأمَّا إذا كانت الدَّعة، ولم يكن زمان فتنة، فمخالطة النَّاس والجماعة، وحضور الجمعة والجنائز، وحِلَق العلم أفضل من العُزلة"(٣).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما الانقطاع، فينبغي أن تكون العزلة عن الشرِّ لا عن الخير، والعزلة عن الشر واجبة على كل حال". وقال: "ما أعرف للعالم قط لذة، ولا عزًّا ولا شرفًا، ولا راحةً، ولا سلامة أفضل من العزلة؛ فإنه ينال بها: سلامة بدنه،

---

(١) أخرجه وكيع بن الجراح في (الزهد) [٢٥٣]، وابن المبارك في (الزهد) (٣/٢)، وابن أبي الدنيا في (العزلة [١٣]، وابن أبي عاصم في (الزهد) [٨٤]، والخطابي في (العزلة) (ص:١١)، والبيهقي في (الزهد الكبير) [١٢٠]، وانظر: إحياء علوم الدين (٢٢٢/٢)، التمهيد، لابن عبد البر (٤٤٥/١٧-٤٤٦)، روضة العقلاء (ص:٨١)، عمدة القاري (٨٢/٢٣)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٢٣٨/١٠)، التبصرة، لابن الجوزي (٢٨٨/٢).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٣٣١/١١)، العزلة، للخطابي (ص:٢٦).

(٣) المسالك في شرح موطَّأ مالك، للقاضي أبي بكر بن العربي (٥٣٣/٧).

ودينه، وجاهه، عند الله عَزَّوَجَلَّ، وعند الخلق؛ لأن الخلق يهون عليهم من يخالطهم، ولا يعظم عندهم قدر المخالط لهم"(١).

وذكر الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن مجامع فوائد العزلة -في وقت تشرع فيه- تنحصر في ست فوائد:

الأولى: التفرغ للعبادة والفكر، والاستئناس بمناجاة الله عَزَّوَجَلَّ عن مناجاة الخلق، والاشتغال باستكشاف أسرار الله جَلَّوَعَلَا في أمر الدنيا والآخرة، وملكوت السماوات والأرض؛ فإن ذلك يستدعي فراغًا، ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إليه.

الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالبًا بالمخالطة، ويسلم منها في الخلوة، وهي: الغيبة، والنميمة، والرياء، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة، والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا.

الثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات، وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها، والتعرض لأخطارها، وقلما تخلو البلاد عن تعصبات، وفتن، وخصومات، فالمعتزل عنهم في سلامة منها.

الرابعة: الخلاص من شرِّ الناس؛ فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة، ومرة بسوء الظن والتهمة، وتارة بالنميمة، أو الكذب، فربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال ما لا

(١) صيد الخاطر (ص:٥٦)، (ص:٢٤٥).

تبلغ عقولهم كنهه، فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم يدخرونها لوقت تظهر فرصة للشرِّ، فإذا اعتزلتهم استغنيت من التحفظ عن جميع ذلك.

الخامسة: أن ينقطع طمع الناس عنك، وينقطع طمعك عن الناس:

فأما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد، فإن رضا الناس غاية لا تدرك، فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى.

وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضًا فائدة جزيلة؛ فإن من نظر الى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه، وانبعث بقوة الحرص طمعه، ولا يرى إلا الخيبة في أكثر الأحوال، فيتأذى بذلك. ومهما اعتزل لم يشاهد، وإذا لم يشاهد لم يشته، ولم يطمع.

السادسة: الخلاص من مشاهدة الثقلاء، والحمقى، ومقاساة حمقهم وأخلاقهم"[1].

---

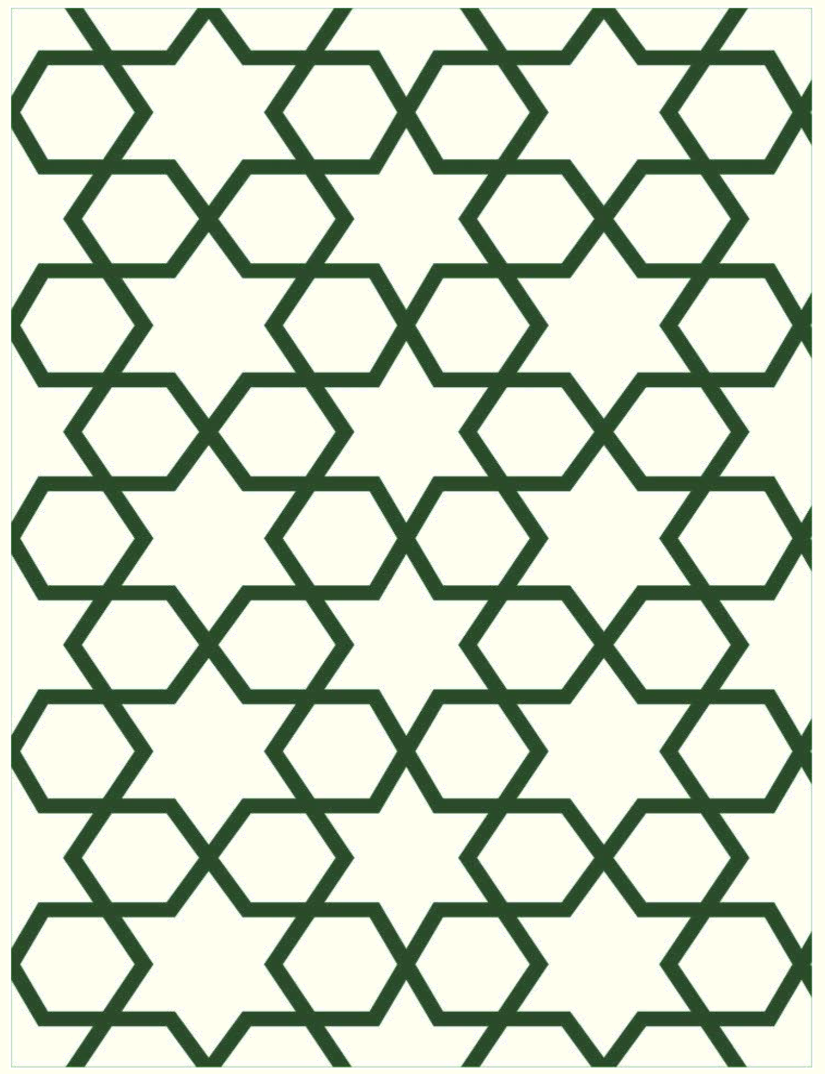
(١) انظر ذلك مفصَّلًا في (إحياء علوم الدين) (٢/٢٢٦-٢٣٦)، وانظر: طرق العزلة وحكمها في (منهاج العابدين) (ص:٩٦)، طبعة الرسالة.



المبحث السادس:

إخلاص العمل والقصد والنية

الإرشاد إلى أسباب النجاة



أولًا: تعريف الإخلاص:

١ - الإخلاص لغة:

يقال: (خَلَصَ الشيءُ خُلُوصًا): إذا صار خالِصًا، و(خلَصَ فلان إلى فلان)، أي: وصل إليه، وخَلَصَ الشَّيْء خلاَصًا: نجا، وأَخْلَصه وخَلَّصه. والْخَلاَصُ يكونُ مصدرًا للشَّيْء الخالِص.

و(خَلَصَ الْمَاءُ من الْكَدَر): صَفَا، وَخَلَّصْتُهُ -بالتَّثْقِيل-: مَيَّزْتُهُ من غيره.

و(خلاصةُ الشَّيء): ما صَفَا منه، مأخوذٌ من خُلَاصَةِ السَّمْن، وهو ما يُلْقَى فيه تَمْرٌ أو سَوِيقٌ؛ لِيَخْلُصَ به من بَقَايَا اللَّبَن[1].

قال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(خلص الشيء يخلص خلوصًا): "إذا ذهب عنه الشائب من غيره"[2].

وأَخْلَص لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ دِينَه: أَمْحَضَه. وأَخْلَصَ الشيءَ: اختاره.

وقرئ: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر:٤٠]، و﴿الْمُخْلَصِينَ﴾.

قال ثعلب: يعني بالْمُخْلِصين: الذين أخلصوا العبادة لله عَزَّوَجَلَّ. وبالْمُخْلَصِين: الذين أخلصهم الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) انظر: العين، مادة: (خلص) (١٨٦/٤)، تهذيب اللغة (٦٤/٧)، الصحاح، للجوهري (١٠٣٧/٣)، المصباح المنير (١٧٧/١).

(٢) التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (٢٠١/١٢).

ونحوه قول الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المخلص): -بفتح اللام- هم الذين صفاهم الله عَزَّوَجَلَّ عن الشرك والمعاصي، -وبكسرها-: هم الذين أخلصوا العبادة لله عَزَّوَجَلَّ، فلم يشركوا به ولم يعصوه.

وقيل: من يخفي حسناته كما يخفي سيئاته [(١)].

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا﴾ [مريم:٥١]،وقرئ: ﴿مُخْلِصًا﴾ -بكسر اللام-. واسْتَخْلَصَ الشَّيْءَ: كأَخْلَصَه. والخالِصةُ: الإخلاص. ولذلك قيل لسورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص:١]: (سورة الإخلاص). قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "سميت به؛ لأنها خالصة في صفة الله عَزَّوَجَلَّ خاصة، أو لأن اللافظ بها قد أخلص التوحيد لله جَلَّوَعَلَا"[(٢)].

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ [الأنعام:١٣٩]، قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أما قوله: ﴿خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ فهو على ضربين: أجودهما: أن يكون أنَّثَ الْخَبَرَ، وجعل معنى: (ما) التأنيث؛ لأنها في معنى الجماعة، كأنَّهم قالوا: جَمَاعَةً مَا في بُطُون هذه الأنعام خالصة لذكورنا، وُيرَدُّ ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾ على لفظ: (ما)، وقال بعضهم: أنثَه لتأنِيث الأنعام، والذي في بطون الأنعام ليس بمنزلة بعض الشيءِ، لأن قولك: (سَقَطَتْ بعض أَصَابعه) بعض أصابع: (إِصْبَعٌ) وهي واحدة منها، والذي في بطون

(١) انظر: التعريفات، للجرجاني (ص:٢٠٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (خلص) (٢/٦١).

الأنعام: مَا في بَطْن كل وَاحِدَ غيرها. ومَنْ قال: يجوز على أن الجملة: أنعام، فكأنه قال: وقالوا: الأنعام التي في بطون الأنعام خَالِصَةٌ لذكورنا.

قال: والقول الأول أبين؛ لقوله: ﴿وَمُحَرَّمٌ﴾؛ لأنه دليل على الحمل على المعنى في (ما) على اللفظ"[1].

و(كلمة الإخلاص): التوحيد.

وأخلصه النصيحة والحب، وأخلصه له.

وهم يتخالصون: يخلص بعضهم بعضًا.

والخالص من الألوان: ما صفا ونصع، أي لون كان.

والإخلاصة: الزبد إذا خلص من الثفل.

والخلوص: الثفل الذي يكون أسفل اللبن[2]. قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الخالص كالصافي، إلا أن الخالص هو ما زال عنه شوبه بعد أن كان فيه، والصافي قد يقال لما لا شوب فيه"[3].

ويتبين مما تقدم أن مدار الإخلاص في اللغة قائم على الصفاء الذي زال عنه الشائب الذي يخالط الشيء.

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق الزجاج (٢/٢٩٤-٢٩٥).

(٢) المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده، مادة: (خلص) (٥/٥٨-٥٩).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (خلص) (ص:٢٩٢).

٢ – تعريف الإخلاص في الاصطلاح:

معنى الإخلاص: أن يكون قصد الإنسان في حركاته، وسكناته، وعباداته الظاهرة منها والباطنة، خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ، لا يريد بعمله شيئًا من حطام الدنيا، ولا ينتظر ثناء الناس عليه.

قال الإمام الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معنى الإخلاص: إفراد النية لله عَزَّوَجَلَّ، وحسن القصد إليه.

وقال: الإخلاص: سر بين العبد وبين الله عَزَّوَجَلَّ، لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله[(١)].

وقال الإمام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الإخلاص: أن يفعل المكلف الطاعة خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ وحده، لا يريد بها تعظيمًا من الناس ولا توقيرًا، ولا جلب نفع ديني، ولا دفع ضرر دنيوي"[(٢)].

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فحقيقة الإخلاص: التبري عن كل ما دون الله عَزَّوَجَلَّ"[(٣)].

وقال أبو القاسم القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الإخلاص: تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين.

ويقال: الإخلاص: فقد رؤية الأشخاص.

---

(١) انظر: الأعمال الكاملة للجنيد البغدادي، طبعة دار الشروق (ص:٢٥٨)، رسائل الجنيد (ص:١٢٩)، طبعة دار اقرأ، وانظر: تفسير القرطبي (٢/١٤٦).

(٢) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/١٤٦).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (خلص) (ص:٢٩٣).

ويقال: هو أن يلاحظ محل الاختصاص.

ويقال: هو أن تنظر إلى نفسك بعين الانتقاص[1].

وقال الأستاذ القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإخلاص: إفراد الحق جَلَّ وَعَلَا في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ دون شيء آخر من تصنع لمخلوق، أو اكتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب به إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

ويصح أن يقال: الإخلاص التوقي عن ملاحظة الأشخاص"[2].

وعن حذيفة المرعشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: الإخلاص: أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن.

وقال السيد الجليل أبو محمد سهل بن عبد الله التستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نظر الأكياس في تفسير الإخلاص فلم يجدوا غير هذا: أن تكون حركته وسكونه في سره وعلانيته لله عَزَّ وَجَلَّ، لا يمازجه شيء، لا نفس ولا هوى ولا دنيا.

وعن الأستاذ أبي علي الدقاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: الإخلاص: التَّوَقِّي عن ملاحظة الخلق[3]، والصدق: التنقي عن مطاوعة النفس، فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له.

---

(١) لطائف الإشارات (٣/٢٣٢)، وانظر: الرسالة القشيرية (٢/٣٥٩).

(٢) الرسالة القشيرية (٢/٣٥٩).

(٣) قال الشيخ زكريا: "بأن لا يفرح برؤيتهم لما هو فيه من العمل؛ ليمدحوه، أو يصلوه، أو لئلا يستقصوه. قال الشيخ مصطفى العروسي: وهذا تصوير لبعض ما صدقات: عدم ملاحظة الخلق. انظر: شرح=

وعن ذي النون المصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: ثلاث من علامات الإخلاص: استواء المدح والذم من العامة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة.

وعن القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: أقل الصدق: استواء السر والعلانية.

وعن سهل التستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره. قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأقوالهم في هذا غير منحصرة [(١)].

وعرَّف الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإخلاص بأنه: تجريد قصد التَّقرُّبِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ عن جميع الشَّوَائِب [(٢)].

وقال صاحب (المنازل) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الإخلاص تصفية العمل من كل شوب"[(٣)]. "أي: لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس، إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم أو خدمتهم، ومحبتهم، وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب، التي عقد متفرقاتها هو إرادة ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ بعمله، كائنًا ما كان". قاله ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)].

=الشيخ زكريا الأنصاري للرسالة القشيرية مع حاشية نتائج الأفكار القدسية، للشيخ مصطفى العروسي (٣/٢٣٤).

(١) الأذكار، للإمام النووي (ص:٧-٨)، وانظر: بستان العارفين، للإمام النووي (ص:٢٨)، التبيان في آداب حملة القرآن (ص:٣٢).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/٣٧٩).

(٣) منازل السائرين، لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي (ص:٤٠-٤١).

(٤) مدارج السالكين (٢/٩٣).

وقال الشريف الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الإخلاص: في اللغة: ترك الرياء في الطاعات. وفي الاصطلاح: تخليص القلب عن شائبة الشوب المكدر لصفاته، وتحقيقه: أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه، وخلص عنه يسمى: خالصًا، ويسمى الفعل المخلص: إخلاصًا؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ [النحل:٦٦]. فإنما خلوص اللبن ألا يكون فيه شوب من الفرث والدم.

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجلهم شرك، والإخلاص: الخلاص من هذين.

والإخلاص: أن لا تطلب لعملك شاهدًا غير الله عَزَّوَجَلَّ.

وقيل: الإخلاص تصفية الأعمال من الكدورات.

وقيل: الإخلاص: ستر بين العبد وبين الله عَزَّوَجَلَّ لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوًى فيميله"(١).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي: خالصًا. ويسمى الفعل الْمُصَفِّي الْمُخَلِّصُ: إِخْلَاصًا. والإخلاص يُضَادُّهُ: الإشراك، فمن ليس مخلصًا فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات.

قال: وحقيقة النية ترجع إلى إجابة البواعث، فمهما كان الباعث واحد على التجرد سمي الفعل الصادر عنه: إخلاصًا بالإضافة إلى المنوي، فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص(٢)، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ فهو مخلص،

---

(١) التعريفات (ص:١٣-١٤).

(٢) أي: في الاصطلاح اللغوي.

ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ عن جميع الشوائب.

ومن كان باعثه: مجرد الرياء فهو معرض للهلاك، ولسنا نتكلم فيه؛ إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب: (الرياء) من (ربع المهلكات).

وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب، ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر، إما من الرياء، أو من غيره من حظوظ النفس. ومثال ذلك: أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر، أو ليتخلص من عدو له، أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله، أو يتعلم العلم؛ ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال، أو ليكون عزيزا بين العشيرة..إلى غير ذلك.

فمهما كان باعثه التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور، فقد خرج عمله عن حدِّ الإخلاص، وخرج عن أن يكون خالصًا لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، وتطرق إليه الشرك.

وبالجملة كل حظٍّ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس، ويميل إليه القلب، قلَّ أم كثر، إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه، وزال به إخلاصه؛ فإن الخالص من العمل هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا لا يتصور إلا من محب لله عَزَّوَجَلَّ، لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار؛ ولذا كان علاج الإخلاص: كسر حظوظ النفس، وقطع الطمع عن الدنيا، والتجرد للآخرة، بحيث يغلب ذلك على القلب، فإذ ذاك يتيسر الإخلاص.

وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، ويكون فيها مغرورًا؛ لأنه لا يرى وجه الآفة فيها. فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق، وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر"(١).

ويلاحظُ أن الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وما عرف عنه من الزهد والورع قد حمل الإخلاص على معنى قد يعز وجوده عند كثير من الناس؛ إذ لا فرق عنده بين أن يشوب العمل رياء أو شيء من حظوظ النفس حتى يخرج عن حدِّ الإخلاص؛ ولذلك كان بعض ما أورده محلَّ نظر عند طائفة من أهل العلم فيما يتصل بشيء من مصالح النفس التي ليس لها إدراك، ولا تصلح للتعظيم.

وممن بحث هذه المسألة: أبو العباس القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الفروق)، وأبو إسحاق الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الموافقات) في كلام مطول.

قال أبو العباس شهاب الدين القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وتحقيق هذه القاعدة وسرُّها وضابطها:

١ - أن يعمل العمل المأمور به، والمتقرب به إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ويقصد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يعظمه الناس، أو يعظم في قلوبهم، فيصل إليه نفعهم، أو يندفع عنه ضررهم، فهذا هو قاعدة أحد قسمي الرياء.

(١) انظر ذلك في (إحياء علوم الدين) (٤/٣٧٩-٣٨١).

٢ - والقسم الآخر: أن يعمل العمل لا يريد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ ألبتة، بل الناس فقط، ويسمى هذا القسم: (رياء الإخلاص)، والقسم الأول: (رياء الشرك) لأن هذا لا تشريك فيه، بل خالص للخلق، والأول للخلق ولله جَلَّوَعَلَا.

وأغراض الرياء ثلاثة: (التعظيم، وجلب المصالح الدنيوية، ودفع المضار الدنيوية)، والأخيران يتفرعان عن الأول؛ فإنه إذا عظم انجلبت إليه المصالح، واندفعت عنه المفاسد، فهو الغرض الكلي في الحقيقة، فهذه قاعدة: (الرياء) المبطلة للأعمال المحرمة بالإجماع.

وأما مطلق التشريك، كمن جاهد؛ ليحصل طاعة الله عَزَّوَجَلَّ بالجهاد، وليحصل المال من الغنيمة، فهذا لا يضره، ولا يحرم عليه بالإجماع؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ جعل له هذا في هذه العبادة، ففرق بين جهاده؛ ليقول الناس: إنه شجاع، أو ليعظمه الإمام، فيكثر إعطاءه، من بيت المال، فهذا ونحوه رياء حرام، وبين أن يجاهد؛ ليحصل السبايا، والكراع، والسلاح من جهة أموال العدو، فهذا لا يضره مع أنه قد أشرك، ولا يقال لهذا: رياء، بسبب أن الرياء؛ ليعمل أن يراه غير الله عَزَّوَجَلَّ من خلقه، والرؤية لا تصح إلا من الخلق، فمن لا يرى ولا يبصر لا يقال في العمل بالنسبة إليه: رياء، والمال المأخوذ في الغنيمة ونحوه لا يقال: إنه يرى أو يبصر، فلا يصدق على هذه الأغراض لفظ: (الرياء)؛ لعدم الرؤية فيها، وكذلك من حج وشرك في حجه غرض المتجر، بأن يكون جل مقصوده أو كله: السفر للتجارة خاصة، ويكون الحج إما مقصودًا مع ذلك، أو غير مقصود، ويقع تابعًا اتفاقًا، فهذا أيضًا لا يقدح في صحة الحج، ولا يوجب إثمًا ولا معصية، وكذلك من صام؛ ليصح جسده، أو ليحصل له زوال مرض

من الأمراض التي ينافيها الصيام، ويكون التداوي هو مقصوده، أو بعض مقصوده، والصوم مقصوده مع ذلك، وأوقع الصوم مع هذه المقاصد لا تقدح هذه المقاصد في صومه، بل أمر بها صاحب الشرع في قوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: »**يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء**«(١)، أي: قاطع، فأمر بالصوم لهذا الغرض، فلو كان ذلك قادحًا لم يأمر به عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في العبادات وما معها.

ومن ذلك: أن يجدد وضوءه وينوي التبرد، أو التنظيف. وجميع هذه الأغراض لا يدخل فيها تعظيم الخلق، بل هي تشريك أمور من المصالح ليس لها إدراك، ولا تصلح للإدراك، ولا للتعظيم، فلا تقدح في العبادات، فظهر الفرق بين قاعدة: (الرياء في العبادات)، وبين قاعدة: (التشريك في العبادات) غرضًا آخر غير الخلق مع أن الجميع تشريك. نعم لا يمنع أن هذه الأغراض المخالطة للعبادة قد تنقص الأجر، وأن العبادة إذا تجردت عنها زاد الأجر، وعظم الثواب، أما الإثم والبطلان فلا سبيل إليه، ومن جهته حصل الفرق لا من جهة كثرة الثواب وقلته"(٢).

وقد بحث الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في (الموافقات) المسألة بحثًا مطولًا، فمن ذلك قوله: "لو كان شأن العبادة أن يقدح في قصدها قصد شيء آخر سواها، لقدح فيها: مشاركة القصد إلى عبادة أخرى، كما إذا جاء المسجد قاصدًا للتنفل فيه، وانتظار الصلاة، والكف عن إذاية الناس، واستغفار الملائكة له، فإن كل قصد منها شاب

---

(١) صحيح البخاري [١٩٠٥، ٥٠٦٥، ٥٠٦٦]، مسلم [١٤٠٠].

(٢) الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق) (٣/٢٢-٢٣).

غيره، وأخرجه عن إخلاصه عن غيره، وهذا غير صحيح باتفاق، بل كل قصد منها صحيح في نفسه، وإن كان العمل واحدًا؛ لأن الجميع محمود شرعًا، فكذلك ما كان غير عبادة من المأذون فيه؛ لاشتراكهما في الإذن الشرعي، فحظوظ النفوس المختصة بالإنسان لا يمنع اجتماعها مع العبادات، إلا ما كان بوضعه منافيًا لها، كالحديث، والأكل، والشرب، والنوم، والرياء، وما أشبه ذلك، أما ما لا منافاة فيه، فكيف يقدح القصد إليه في العبادة؟ هذا لا ينبغي أن يقال، غير أنه لا ينازع في أن إفراد قصد العبادة عن قصد الأمور الدنيوية أولى؛ ولذلك إذا غلب قصد الدنيا على قصد العبادة كان الحكم للغالب، فلم يعتد بالعبادة، فإن غلب قصد العبادة فالحكم له، ويقع الترجيح في المسائل بحسب ما يظهر للمجتهد"[(١)].

وعلى أية حال فمن أراد تحصيل الأجر الأعظم فينبغي عليه أن يجتهد في التحرر من حظوظ النفس ما أمكنه، وأن يثق بالله عَزَّوَجَلَّ ورحمته وعدله.

ثانيًا: علامات الإخلاص:

قال ذو النون المصري رَحِمَهُ اللَّهُ -كما تقدم-: ثلاث من علامات الإخلاص:

١ - استواء المدح والذم من العامة.

٢ - ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال.

(١) الموافقات (٢/٣٧٢-٣٧٣).

٣ - ونسيان اقتضاء ثواب الأعمال في الآخرة [١].

وعن أبي القاسم القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: الصدق نهاية الأحوال، وهو استواء السِّرِّ والعلانية [٢].

وعنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الصدق عماد الأمر، وبه تمامه، وفيه نظامه، وأقله: استواء السر والعلانية.

وقال التستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه، أو غيره.

وقال الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب اطلاع الناس على مثقال ذرة من حسن عمله [٣].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وعلامة المخلص: أن يكون في جلوته كخلوته.."[٤].

وسئل بعض الحكماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ من المخلص؟ فقال: المخلص الذي يكتم حسناته كما يكتم سيئاته [٥].

---

(١) انظر: الرسالة القشيرية (٢/٣٦٢-٣٦٦)، الأذكار، للإمام النووي (ص:٧)، بستان العارفين (ص:٢٧)، منجد المقرئين، لابن الجزري (ص:٩).

(٢) لطائف الإشارات (٢/٧١).

(٣) فيض القدير (٤/٣٤٣)، الرسالة القشيرية (٢/٣٦٣)، الأذكار، للإمام النووي (ص:٧)، بستان العارفين (ص:٢٧).

(٤) صيد الخاطر (ص:٤٣٤).

(٥) انظر: إحياء علوم الدين (٤/٣٧٨)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٨٣).

قال العلامة ابن أبي شريف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (حواشي شرح العقائد): الصدق استعمله الصوفية بمعنى: استواء السرِّ والعلانية، والظاهر والباطن، بألا تكذب أحوال العبد أعماله، ولا أعماله أحواله، وجعلوا الإخلاص لازمًا أعم، فقالوا: كل صادق مخلص، وليس كل مخلص صادقًا اهـ.

وفي (شرح رسالة القشيري)، للشيخ زكريا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سئل الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أهما واحد أو بينهما فرق؟ فقال: بينهما فرق: الصدق أصل، والإخلاص فرع، والصدق أصل كل شيء، والإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في الأعمال، والأعمال لا تكون مقبولة إلا بهما اهـ.

وفي (حاشية الشيخ مصطفى العروسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ): قال: "إن بين الإخلاص والصدق تلازم، معناه: أنه متى تحقق الإخلاص لزمه مصاحبة الصدق، وكذا إذا ثبت الصدق لزمه مقارنة الإخلاص، فيهما يكون الترقي"(١).

ونحوه قول الشريف الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصدق أصل؛ وهو الأول، والإخلاص فرع؛ وهو تابع. وفرق آخر: الإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في العمل"(٢).

---

(١) شرح الشيخ زكريا الأنصاري للرسالة القشيرية مع حاشية نتائج الأفكار القدسية، للشيخ مصطفى العروسي (٣/٢٣٤-٢٣٥)، دليل الفالحين (١/٢٠٧). وفصل الإمام الجنيد القول في ذلك. انظر: الأعمال الكاملة للجنيد البغدادي، طبعة دار الشروق (ص:٢٥٦)، رسائل الجنيد (ص:١٢٥)، طبعة دار اقرأ، وانظر: آداب النفوس، للحارث المحاسبي (ص:٩٤).

(٢) التعريفات (ص:١٣-١٤).

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما [1].

وقال الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "من أراد أن يعلم من نفسه أنه مراء أو مخلص فعلامة كونه مرائيًا: أن يحب الحمد على الطاعة، ويكره الذم، فيفعل الطاعة؛ خوفًا من الذم.

وإذا أخلص العمل لله عَزَّوَجَلَّ، أو علم علمًا لا يعلمه الناس لم يقنع بعلم الله منه ذلك، وهاج قلبه لمحبة إطلاع الناس عليه، فأحب الناس إليه من يمدحه على ذلك.

وإن طالب نفسه بطاعة خفية ثقلت عليه ولم تطاوعه على ذلك، ولا تتمنى طاعة لا يعلم بها أحد.

وينفي الرياء بأن يعمل العبد العمل لا يريد به إلا الله جَلَّوَعَلَا؛ اقتصارًا على علم الله الذي بيده النفع والضر، فقد يعمل العمل في السر بجوارحه أو بقلبه كالفكر الذي يهيج البكاء والأحزان فتجزع نفسه من خفاء ذلك عن الناس فتقول له: كيف تخفي مثل هذه الفضيلة عن الناس، ولو علموا بها لقمت عندهم مقامًا عظيمًا؟

ولا يعلم العبد أن في ذلك ضعة قدره عند ربه عَزَّوَجَلَّ حتى يلزم قلبه الإخلاص فيقنع بعلم الله عَزَّوَجَلَّ، فإن اطلع عليه منع قلبه من الارتياح إلى اطلاعهم عليه، فإن

---

(١) انظر: الأذكار، للإمام النووي (ص:٧)، التبيان في آداب حملة القرآن، للإمام النووي (ص:٣٢)، المجالس الوعظية، للسفيري (١/١٢٥)، الزواجر (ص:٦٩)، الرسالة القشيرية (١/٤١)، الآداب الشرعية، لابن مفلح (١/٢٦٦).

غلبته على الارتياح رد عليها بالكراهة والإباء، وامتنع من الركون إليه، ولا يزال حذرًا حتى يفرغ من العمل، فإذا فرغ من العمل منع نفسه من طلب التسميع به، فإن كان العمل ظاهرًا كتشييع الجنائز، وطلب العلم، والتطوع يوم الجمعة في المسجد، فليوطن نفسه على أن تقنع بعلم الله عَزَّوَجَلَّ، ولا ينظر إلى علم من لا يضر ولا ينفع ولا يلتفت إليه"(١).

قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإخلاص: أن يخلص العبد دينه وعمله فلا يشرك به في دينه ولا يرائي بعمله(٢).

وقال بعضُ الحُكماء: "مثلُ من يعمل رياءً وسُمعة كمثَلِ من ملأ كيسَه حصًى، ثم دخل السوق؛ ليشتري به، فإذا فتحه بين يدي البائع افتضح، وضرب به وجهه، فلم يحصل له به منفعةٌ سوى قول الناس: ما أملأَ كيسه! ولا يُعطَى به شيئًا، فكذلك مَن عمِل للرياء والسُّمعة، لا منفعةَ له في عمله سوى مقالة الناس، ولا ثوابَ له في الآخرة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان:٢٣]، أي: الأعمال التي قصد بها غير الله عَزَّوَجَلَّ يبطل ثوابها صارت كالهباء المنثور، وهو الغبار الذي يرى في شعاع الشمس"(٣).

---

(١) مقاصد الرعاية لحقوق الله عَزَّوَجَلَّ، لابن عبد السلام (ص: ٨٤- ٨٥)، وانظر: الرعاية لحقوق الله عَزَّوَجَلَّ، للحارث المحاسبي (ص:٢٢٨-٢٢٩).

(٢) انظر: الكشف والبيان (٦/٢)، تفسير البغوي (١٧٤/١).

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٦٩/١).

ثالثًا: فضيلته الإخلاص وحقيقته:

١ – الإخلاص أساس قبول الأعمال:

إن أعظم أصل تبنى عليه العبادات في الإسلام هو تحقيق الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ، فهو أساس قبول الأعمال؛ ولهذا كانت الحاجة إلى معرفة هذا الأصل العظيم من أجَلِّ المطالب، وأعلى المقاصد.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر:٢-٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ [الزمر:١١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ۝١٤﴾ [الزمر:١٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥].

أمر الله عَزَّوَجَلَّ العباد بالإخلاص في الدين، وما يتضمنه من الشرائع الظاهرة والباطنة، وذلك بإفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة. وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، "أي: جاعلين دينهم خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ، وجاعلين أنفسهم خالصة له في الدين. ﴿حُنَفَآءَ﴾: مائلين عن جميع العقائد الزائغة إلى الإسلام"(١).

(١) انظر: حاشية نتائج الأفكار القدسية، للشيخ مصطفى العروسي (٣/٢٣١).

وفي هذا دليل على وجوب النية في العبادات؛ فإن الإخلاص من عمل القلب، وهو الذي يراد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ، لا غيره"(١).

وكلما أخلص المرء لله عَزَّوَجَلَّ لم يتعثر في سيره، وأُعطي توفيقًا بقدر ما في قلبه من الصدق والإخلاص.

"وحقيقة الإخلاص: سلامته من وصفين، وهما: الرياء والهوى؛ ليكون خالصًا، كما وصف الله عَزَّوَجَلَّ الخالص من اللبن، فكان بذلك تمام النعمة علينا، فقال: ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ [النحل:٦٦]، فلو وجد فيه أحد الوصفين من فرث أو دم لم يكن خالصًا، ولم تتم النعمة به علينا، ولم تقبله نفوسنا، فكذلك معاملتنا لله عَزَّوَجَلَّ إذا شابها رياء بخلق، أو هوى من شهوة نفس، ولم تكن خالصة لم يتم بها الصدق والأدب في المعاملة ولم يقبلها الله عَزَّوَجَلَّ منَّا، فاعتبروا"(٢).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال السوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإخلاص: فقد رؤية الإخلاص؛ فإن من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص" (٣).

---

(١) انظر: أحكام القرآن، للكيا الهراسي (٤/٤٣١)، تفسير القرطبي (٢٠/١٤٤)، الإكليل في استنباط التنزيل (ص:٢٩٥).

(٢) قوت القلوب في معاملة المحبوب، لأبي طالب المكي (٢/٢٦٨).

(٣) قال ابن القيم: "فنقصان كُلِّ مُخْلِصٍ في إخلاصه: بِقَدْرِ رُؤْيَةِ إخلاصه. فإذا سقط عن نفسه رؤيةُ الإخلاص، صار مُخْلِصًا مُخْلَصًا" مدارج السالكين (٢/٩١).

وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل؛ فإن الالتفات إلى الإخلاص والنظر إليه عجب، وهو من جملة الآفات.

والخالص: ما صفا عن جميع الآفات، فهذا تعرض لآفة واحدة.

وقال سهل رَحِمَهُ اللَّهُ: الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله عَزَّوَجَلَّ خاصة. وهذه كلمة جامعة، محيطة بالغرض.

وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ: الإخلاص صدق النية مع الله عَزَّوَجَلَّ.

وقيل لسهل رَحِمَهُ اللَّهُ: أي شيء أشد على النفس؟ فقال: الإخلاص؛ إذ ليس لها فيه نصيب.

وقال رويم رَحِمَهُ اللَّهُ: الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضًا في الدارين. وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلًا وعاجلًا.."[1].

وقيل: الإخلاص: استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن. والرياء: أن يكون ظاهره خيرًا من باطنه. والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه أعمر من ظاهره.

وقيل: الإخلاص: نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق جَلَّ وَعَلَا. ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله عَزَّوَجَلَّ.

وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ اللَّهُ: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرة الوساوس والرياء.."[2].

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/٣٨١)، وانظر: مدارج السالكين (٢/٩١)، فيض القدير (٦/٤٣).

(٢) انظر: مدارج السالكين (٢/٩٢-٩١)، الرسالة القشيرية (٢/٣٦٢).

وفي (حاشية الشيخ مصطفى العروسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "الإخلاص هو روح سر القبول، ومن أعظم أسباب بلوغ المأمول، ومن أمارات السعادة الأبدية، حيث يحقق الرضا من ربِّ البرية؛ إذ الموصوف به من أهل العنايات، وممن منح أعظم الكرامات، وقد أشار صاحب: (الحكم العطائية رَحِمَهُ ٱللَّهُ) إلى ذلك حيث قال: **(الأعمالُ صُوَرٌ قائمةٌ، وأرواحُها: وجودُ سِرِّ الإخلاصِ فيها)** [1]. قلت: فلا عبرة حينئذ بصورة لا روح فيها، كما أنه لا قيام لروح دون صورتها"[2].

فمن عمل عملًا بلا إخلاص كان كمن أهدى جارية ميتة للأمير، يبتغي بها الثواب، وهو لا يستحق على ذلك إلا أنواع العقاب [3].

قال ابن عباد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إخلاص كل عبد على حسب رتبته ومقامه"[4]. وقال ابن عجيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأعمال كلها أشباح وأجساد، وأرواحها: وجود الإخلاص فيها، فكما لا قيام للأشباح إلا بالأرواح، وإلا كانت ميتة ساقطة، كذلك لا قيام للأعمال البدنية والقلبية إلا بوجود الإخلاص فيها، وإلا كانت صورًا قائمة، وأشباحًا خاوية لا عبرة بها.

قال: والإخلاص على ثلاث درجات: درجة العوام، والخواص، وخواص الخواص، فإخلاص العوام: هو إخراج الخلق من معاملة الحق، مع طلب الحظوظ

---

(١) الحكمة العاشرة من حكم ابن عطاء الله. انظر: شرح ابن عباد (ص:١١١).

(٢) نتائج الأفكار القدسية (٣/٢٣١).

(٣) شرح الشيخ عبد المجيد الشرنوبي على الحكم (ص:٢٣).

(٤) شرح ابن عباد (ص:١١١-١١٣).

الدنيوية والأخروية، كحفظ البدن والمال، وسعة الرزق والقصور والحور. وإخلاص الخواص: طلب الحظوظ الأخروية دون الدنيوية. وإخلاص خواص الخواص: إخراج الحظوظ بالكلية، فعبادتهم: تحقيق العبودية، والقيام بوظائف الربوبية، أو محبَّة وشوقًا إلى رؤيته"(١).

"فمن حصن قلبه بالإخلاص استحق القبول، وكان من الخواص، ومن حصن قلبه من الأغيار امتلأ بالعلوم والأنوار، ونبعت منه العلوم والأسرار"(٢).

وبعد أن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في (سورة النساء) صفات المنافقين بين أن توبتهم من النفاق لا تكون إلا مع إخلاص دينهم لله عَزَّوَجَلَّ، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ [النساء:١٤٦]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ١١٠﴾ [الكهف:١١٠]، نزلت فيمن يعمل لله عَزَّوَجَلَّ، ويحب أن يحمد عليه(٣).

---

(١) إيقاظ الهمم في شرح الحكم (ص:٤٩-٥٠).

(٢) إيقاظ الهمم (ص:٤٣٧).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٨/ ١٣٦)، تفسير ابن كثير (٥/٢٠٥)، التفسير البسيط (١٤/١٧٨)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/٤٤٨٥)، الكشف والبيان (٦/٢).

وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثٌ لا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِم: إخلاصُ العمل لله، ومُنَاصَحَةُ أَئِمَّة الْمُسْلِمِينَ، ولُزُومُ جماعتهم**» [١].

ونحوه: عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ثلاث لا يُغِلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله** عَزَّ وَجَلَّ، **ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة**» [٢].

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "«**لا يُغِلُّ**» -بكسر الغين المعجمة، وتشديد اللام على المشهور، و(الياء) تحتمل الضم والفتح، فعلى الأول: من (أَغَلَّ): إذا خان. وعلى الثاني: من (غَلَّ): إذا صار ذا حقد وعداوة"[٣].

---

(١) الحديث مروي عن غير واحد من الصحابة. وقد أخرجه أحمد، والترمذي، والحاكم، وغيرهم، وصححه الحاكم وغيره من غير طريق.

(٢) أخرجه الطيالسي [٦١٦]، وأحمد [٢١٥٩٠]، وابن ماجة [٢٣٠]، وفي (الزوائد) (٣٢/١): "إسناده صحيح". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٦٨٠]. قال الهيثمي (٢٤٧/١٠): "روى ابن ماجه بعضه. رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله وثقوا" وللحديث طرق أخرى فقد روي عن أبي سعيد الخدري، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، والنعمان بن بشير، وجبير بن مطعم، وأبي الدرداء، وأبي قرصافة جندرة بن خيشنة، وغيرهم من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. وبعض أسانيدهم صحيح كما ذكر المنذري في (الترغيب والترهيب) (٢٣/١).

(٣) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١٠٢/١-١٠٣).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "«**لا يُغِلُّ**»: معناه لا يكون القلب عليهن ومعهن غليلًا أبدًا، يعني: لا يقوى فيه مرض، ولا نفاق: إذا أخلص العمل لله عَزَّوَجَلَّ، ولزم الجماعة، وناصح أولي الأمر"(١).

قال أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يُروَى: «**يَغِلُّ**» و«**يُغِلُّ**». فمن قال: «**يَغِلُّ**» -بالفَتْح- فإنه يجعلُه من الغِلِّ، وهو الضِّغْنُ والشَّحْناء. ومن قال: «**يُغِلُّ**» بضمِّ الياء جعله من الخيانة من الإغلال"(٢).

وقال أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أما وجه الكلام وإعرابه فعلى ما ذكره أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وأما تأويله ومعناه فإنه يريد -والله أعلم-: أن هذه الخلال الثلاث مما لا يخالج القلب ريب أنهن بر وطاعة؛ لأنها من المعروف الذي تعرفه النفوس وتسكن إليه القلوب"(٣).

قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "«**يُغِلُّ**» هو من الإغلال: الخيانة في كل شيء.

ويروى «**يغل**» بفتح الياء، من الغل، وهو الحقد والشحناء: أي: لا يدخله حقد يزيله عن الحق.

وروي «**يغل**» -بالتخفيف-، من الوغول: الدخول في الشرِّ.

---

(١) التمهيد، لابن عبد البر (٢١/٢٧٧).

(2) غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام (١/١٩٩-٢٠٠).

(3) غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي (١/٥٨٥).

والمعنى: أن هذه الخلال الثلاث تستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر"(١).

وعن مصعب بن سعد، عن أبيه، أنه ظَنَّ أن له فضلًا على من دونه من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال نبيُّ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما ينصرُ الله هذه الأُمَّة بضعيفها، بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم**»(٢).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "والإخلاص يضاده: الإشراك، فمن ليس مخلصًا فهو مشرك إلا أن الشرك درجات"(٣).

فالإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ هو أساس قبول الأعمال، ومعيارها الدقيق، ومقياسها الصادق الذي يميز طيبها من خبيثها، وصحيحها من فاسدها، ومقبولها من مردودها، ونافعها من ضارها، وهو السبيل للفوز بالجنة، والنجاة من النار. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ٦٥﴾ [الزمر:٦٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ١١٠﴾ [الكهف:١١٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًاۚ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِۖ إِن كُنتُمْ

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (غلل) (٣/٣٨١).

(٢) أخرجه النسائي في (السنن) [٣١٧٨]، وفي (الكبرى) [٤٣٧٢]، وأبو نعيم في (الحلية) (٥/٢٦)، والشاشي [٧٠]، وتمام [٦٩٩]، والبيهقي في (الكبرى) [٦٣٨٩]. وهو عند البخاري [٢٨٩٦] بلفظ: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم».

(3) إحياء علوم الدين (٤/٣٧٩).

تَعۡلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨١-٨٢]، قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله عَزَّوَجَلَّ وحده لا شريك، له، ولم يشركوا به شيئًا هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة"(١).

وإن من أهم أسباب الوقاية من الرياء: إخلاص العمل والقصد والنية لله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة:٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر:٣].

والإخلاص هو أساس أعمال القلوب؛ لأن الأعمال بالمقاصد والنيات، والقلب هو ملكُ الجوارح، وهي له تبَعٌ، فإن صلح القلب صلحت الجوارح كلها، وإن فسد القلب فسدت الجوارح كلها، والقلب هو محلُّ نظر الرب جَلَّوَعَلَا من العبد.

قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن "مما يَتَفَرَّعُ على معنى الآية: إخلاص المؤمن الْمُوَحِّدِ في عبادة ربِّه جَلَّوَعَلَا، أي: أن يعبد الله لأجله، أي: طلبًا لرضاه، وامتثالًا لأمره، وهو آيِلٌ إلى أحوال النِّيَّةِ في العبادة المشار إليها بقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكلِّ امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»** (٢).

والإخلاص في العبادة: أن يكون الدَّاعِي إلى الإتيان بالمأمور وإلى ترك الْمَنْهِيِّ: إرضاء الله عَزَّوَجَلَّ، وهو معنى قولهم: لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، أي: لقصد الامتثال بحيث لا يكون

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٩٤).

(٢) صحيح البخاري [١، ٥٤، ٢٥٢٩، ٥٠٧٠، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣]، مسلم [١٩٠٧].

الْحَظُّ الدُّنْيَوِيُّ هو الباعث على العبادة، مِثْلَ أن يَعْبُدَ الله؛ ليمدحه الناس بحيث لو تَعَطَّلَ المدح لترك العبادة. ولذا قيل: الرِّيَاءُ الشِّرْكُ الأصغر، أي: إذا كان هو الباعث على العمل، ومثل ذلك أن يقاتل لأجل الغنيمة فلو أَيِسَ منها ترك القتال، فأما إن كان لِلنَّفْسِ حَظٌّ عاجل وكان حاصلًا تبعًا للعبادة وليس هو المقصود فهو مُغْتَفَرٌ، وخاصة إذا كان ذلك لا تخلو عنه النفوس، أو كان مما يعين على الاستزادة من العبادة"(١).

والرياء يذهب بمقاصد العبادات وغاياتها وآثارها، ويفرغها من حقيقتها وجوهرها، فتصبح من غير إخلاص جوفاء لا تحقق آثارها في القلب، ولا تدفع إلى العمل الصالح.

وقد قال الله جَلَّ وَعَلَا حكايةً عن المخلصين في إطعامهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩]، وكما قال في الأتقى الذي ينفق ماله ابتغاء وجه ربه عَزَّوَجَلَّ؛ ليتطهر بإنفاقه، لا ليرائي به ويستعلي، ولا ردًّا لجميلٍ، ولا طلبًا لشكر أحد: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾﴾ [الليل:١٨-٢١].

إن الرياء يذهب بمقاصد العبادات وغاياتها وآثارها، ويفرغها من حقيقتها وجوهرها، فتصبح من غير إخلاص جوفاء لا تحقق آثارها في القلب، ولا تدفع إلى العمل الصالح.

(١) التحرير والتنوير (٢٣/٣١٨).

وقال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥]: "الإخلاص هنا يراد به: التوحيد، وترك الشرك، أو ترك الرياء، وذلك أن الإخلاص مطلوب في التوحيد، وفي الأعمال، وهذا الإخلاص في التوحيد من الشرك الجلي، وهذا الإخلاص في الأعمال من الشرك الخفي.

واعلم أن الأعمال ثلاثة أنواع: مأمورات، ومنهيات، ومباحات:

فأما (**المأمورات**) فالإخلاص فيها عبارة عن خلوص النية لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، بحيث لا يشوبها بنية أخرى، فإن كانت كذلك فالعمل خالص مقبول، وإن كانت النية لغير وجه الله عَزَّوَجَلَّ، من طلب منفعة دنيوية، أو مدح أو غير ذلك فالعمل رياء محض مردود، وإن كانت النية مشتركة ففي ذلك تفصيل فيه نظر واحتمال.

وأما (**المنهيات**) فإن تركها دون نية خرج عن عهدتها، ولم يكن له أجر في تركها، وإن تركها بنية وجه الله عَزَّوَجَلَّ حصل له الخروج عن عهدتها مع الأجر.

وأما (**المباحات**) كالأكل، والنوم، والجماع، وشبه ذلك فإن فعلها بغير نية لم يكن فيها أجر، وإن فعلها بنية وجه الله جَلَّوَعَلَا فله فيها أجر، فإن كل مباح يمكن أن يصير قربة إذا قصد به وجه الله جَلَّوَعَلَا، مثل: أن يقصد بالأكل: القوة على العبادة، ويقصد بالجماع: التعفف عن الحرام"[١].

وقد قسَّم العلماءُ العباداتِ إلى قسمين: محضة وغير محضة.

(١) تفسير ابن جزي (٢/٥٠١-٥٠٢).

وقالوا في العبادات المحضة: لا بد من استحضار النية فيها -فرضًا كانت أو نفلًا- كالصلاة والزكاة والصوم والحج، وما تستند إليه هذه العبادات، من الإيمان والإسلام، لقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»، فإذا تخلفت النية بطلت العبادة؛ لأن النية شرط لصحة كل عبادة.

وقالوا في العبادات غير المحضة، كإزالة النجاسة، وقضاء الديون، ورد المظالم، وأداء الحقوق، والنفقات، ونحو ذلك: لا يشترط في صحة وقوعها: النية، ولكن لا ثواب فيها بدون نية، وكل عمل من الأعمال العادية يريد به العبد التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ كالأكل والشرب، لا يحصل به الأجر إلا بنية التقرب به إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

وليس في ترك النية كفارة، وإنما يترتب على تركها: بطلان العمل إذا كانت شرطا في صحته، وعدم حصول الأجر فيه إذا لم تشترط له.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والنية في كلام العلماء تقع بمعنيين:

أحدهما: بمعنى تمييز العبادات بعضها عن بعض، كتمييز صلاة الظهر من صلاة العصر -مثلًا-، وتمييز صيام رمضان من صيام غيره، أو تمييز العبادات من العادات، كتمييز الغسل من الجنابة من غسل التبرد والتنظف، ونحو ذلك، وهذه النية هي التي توجد كثيرًا في كلام الفقهاء في كتبهم.

والمعنى الثاني: بمعنى: تمييز المقصود بالعمل، وهل هو الله عَزَّوَجَلَّ وحده لا شريك له، أم غيره، أم الله عَزَّوَجَلَّ وغيره، وهذه النية هي التي يتكلم فيها العارفون في كتبهم في كلامهم على الإخلاص وتوابعه، وهي التي توجد كثيرًا في كلام السلف المتقدمين.

وقد صنف أبو بكر بن أبي الدنيا رَحِمَهُ ٱللَّهُ مصنفا سماه: كتاب: (الإخلاص والنية)[1]، وإنما أراد هذه النية، وهي النية التي يتكرر ذكرها في كلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تارة بلفظ النية، وتارة بلفظ الإرادة، وتارة بلفظ مقارب لذلك، وقد جاء ذكرها كثيرًا في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ بغير لفظ النية أيضًا من الألفاظ المقاربة لها"[2].

ويتبين مما تقدم: أن المقصود من النية:

١ – تمييزُ العبادات بعضها عن بعض.

٢ – تمييزُ العبادات من العادات.

٣ – تمييز المقصود بالعمل.

وقال الإمام السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان ما شرعت النية لأجله: "المقصود الأهم منها: تمييز العبادات من العادات، وتمييز رتب العبادات بعضها من بعض، كالوضوء والغسل، يتردد بين التنظف والتبرد، والعبادة، والإمساك عن المفطرات قد يكون للحمية والتداوي، أو لعدم الحاجة إليه، والجلوس في المسجد، قد يكون للاستراحة، ودفع المال للغير، قد يكون هبة، أو وصلة لغرض دنيوي، وقد يكون قربة كالزكاة، والصدقة، والكفارة، والذبح قد يكون بقصد الأكل، وقد يكون للتقرب بإراقة الدماء، فشرعت النية؛ لتمييز القرب من غيرها، وكل من الوضوء، والغسل، والصلاة، والصوم، ونحوها

---

(١) والكتاب مطبوع في (دار البشائر) بتحقيق: إياد خالد الطباع، سنة [١٤١٣هـ]،

(٢) انظر ذلك في (جامع العلوم والحكم) (١/٦٥-٦٦).

قد يكون فرضًا ونذرًا ونفلًا، والتيمم قد يكون عن الحدث، أو الجنابة، وصورته واحدة، فشرعت؛ لتمييز رتب العبادات بعضها من بعض"(١).

وقال ابن نجيم رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان ما شرعت لأجله: "المقصود منها: تمييز العبادات من العادات، وتمييز بعض العبادات عن بعض، كما في (النهاية) و(فتح القدير)، كالإمساك عن المفطرات.

قد يكون حمية، أو تداويًا، أو لعدم الحاجة إليه.

والجلوس في المسجد قد يكون للاستراحة، وقد يكون قربة.

ودفع المال قد يكون هبة، أو لغرض دنيوي، وقد يكون قربة، زكاة، أو صدقة.

والذبح قد يكون لأكل، فيكون مباحًا، أو مندوبًا، أو للأضحية، فيكون عبادة، أو لقدوم أمير، فيكون حرامًا أو كفرًا على قول.

ثم التقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ يكون بالفرض، والنفل، والواجب.

فشرعت؛ لتمييز بعضها عن بعض"(٢).

فتفرَّع على ذلك فروع كثيرة مبسوطة في مظانها.

(١) انظر ذلك في (الأشباه والنظائر)، للسيوطي (ص:١٢).

(٢) انظر ذلك في (الأشباه والنظائر)، لابن نجيم (ص:١٢)، وانظر: غمز عيون البصائر (١/١٠٥)، حاشية ابن عابدين (١/١٠٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد تظاهرت أدلة الشرع وقواعده على أن القصود في العقود معتبرة، وأنها تؤثر في صحة العقد وفساده[1]، وفي حلِّه وحرمته[2]، بل أبلغ من ذلك، وهي أنها تؤثر في الفعل الذي ليس بعقد تحليلًا وتحريمًا، فيصير حلالًا تارة، وحرامًا تارة، باختلاف النية والقصد، كما يصير صحيحًا تارة، وفاسدًا تارة باختلافها، وهذا كالذبح؛ فإن الحيوان يحل إذا ذبح لأجل الأكل، ويحرم إذا ذبح لغير الله عَزَّوَجَلَّ، وكذلك الحلال يصيد الصيد للمحرم، فيحرم عليه، ويصيده للحلال فلا يحرم على المحرم، وكذلك الرجل يشتري الجارية ينوي أن تكون لموكله فتحرم على المشتري، وينوي أنها له فتحل له، وصورة العقد واحدة، وإنما اختلفت النية والقصد"[3].

وقال ابن علان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والنية واجبة أول كل فعل شرعي؛ لتوقف صحته عليها، ودوام استحضارها إلى آخره سنة محبوبة.

وأما التروك، كترك نحو: الزنى، فلا يتوقف عليها، نعم لا بد في حصول الثواب من قصد الترك على وجه الامتثال، وإنما وجبت النية في الصوم مع أنه من باب التروك؛ لأنه ملحق بالأفعال؛ إذ القصد منه: قمع النفس عن معتاداتها وقطعها عن عاداتها"[4].

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الطاعات مرتبطة بالنيات في أصل صحتها، وفي تضاعف فضلها. أما الأصل، فهو أن ينوي بها عبادة الله عَزَّوَجَلَّ لا غير، فإن نوى الرياء

---

(١) أي: قضاء.

(٢) أي: ديانة.

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/٨٩-٩٠).

(٤) دليل الفالحين (٤٩-٥٠).

صارت معصية. وأما تضاعف الفضل، فبكثرة النيات الحسنة؛ فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوى بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب؛ إذ كل واحدة منها حسنة، ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها.

مثال ذلك: القعود في المسجد؛ فإنه طاعة، ويمكن أن ينوى بها نيات كثيرة: منها أن ينوي بدخوله انتظار الصلاة، ومنها: الاعتكاف، وكف الجوارح، فإن الاعتكاف كف وهو في معنى: (الصوم)، ومنها: دفع الشواغل الصارفة عن الله عَزَّوَجَلَّ بالانقطاع إلى المسجد، وإلى ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فيه، ونحو ذلك، فهذا طريق تكثير النيات، فقس على ذلك سائر الطاعات؛ إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة.."[1].

وإذا كان الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ هو نهج الأبرار للوقاية من النَّار فإن ما يقابله من الرياء من أسباب ولوج النَّار.

فينبغي على كل مسلم أن يصحِّحَ النيَّةَ، ويخلصَ القصدَ لله عَزَّوَجَلَّ في سائر عباداته وأعماله وأقواله وأحواله. وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ مرشدًا العباد إلى إخلاص النية والقصد لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٢- ١٦٣].

والمخلص لا يهتم ولا يحب أن يطَّلعَ الناس على شيءٍ من عمله الذي يتقرَّب به إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ فلذلك صلح قلبه، وحسن عمله، فجوزي بأحسن الجزاء.

(١) انظر ذلك في (إحياء علوم الدين) (٤/٣٧٠)، وانظر: مختصر منهاج القاصدين (ص:٣٦٢).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الناس كلهم محرومون إلا العالمون، والعالمون كلهم محرومون إلا العاملون، والعاملون كلهم محرومون إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم. وكما أن من خرب بيته، وضيع ماله، وترك نفسه وعياله جياعًا يزعم أنه ينتظر فضل الله عَزَّوَجَلَّ بأن يرزقه كنزًا يجده تحت الأرض في بيته الخرب يعد عند ذوي البصائر من الحمقى والمغرورين، وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وفضله، فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله عَزَّوَجَلَّ وهو مقصر عن الطاعة، مصر على الذنوب، غير سالك سبيل المغفرة، يعد عند أرباب القلوب من المعتوهين.."(١).

ولما غاب الإخلاص عن حياة كثير من الناس، غابت الأخلاق الفاضلة فظهر: الرياء، وحب الشهرة، والغش والخداع، والاحتيال، والمداهنة، والنفاق، والغرور، والعجب، والكبر، وغير ذلك من ذميم الأخلاق.

ومن الآيات الدالة على الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ في إنفاق المال؛ ابتغاء مرضاته وحده، وعدم الرياء فيه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة:٢٦٤]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ﴾ [البقرة:٢٧١]، وقوله: ﴿وَيُطْعِمُونَ

(١) إحياء علوم الدين (٤/٤٥-٤٦).

ﭐلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان:٨-٩]. والنصوص في ذلك كثيرة.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾ [الحج:٣٧]، أي: ولكن يصيبه تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى الامتثال لأمر الله عَزَّوَجَلَّ، وتعظيمه والتقرب إليه، والإخلاص له[1].

وقيل: "كان المشركون يُلطِّخون جدار الكعبة بدماء القرابين فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾، أَيْ: لن يصل إلى اللَّهَ لُحُومُهَا ولا دِمَاؤُهَا. ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾، أي: النِّيَّةُ والإخلاص وما أريد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ"[2]. "والنَيْل لا يتعلق بالبارئ جَلَّوَعَلَا، ولكنه عبر عنه تعبيرًا مجازيًّا عن القبول"[3].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [آل عمران:٢٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٤﴾ [الملك:١٣-١٤]. "فلا يعزب عن علمه جَلَّوَعَلَا: ﴿مِثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس:٦١]، ولا يغيب عنه شيء جَلَّوَعَلَا. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (١٠٨/٦).

(٢) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن الواحدي (ص:٧٣٤)، وانظر: الكشف والبيان، للثعلبي (٣٤/٧). ويروى عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنهم كانوا في الجاهلية ينضحون بدماء البدن ما حول البيت، فأراد المسلمون أن يفعلوا ذلك فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ هذه الآية. انظر: معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٤١٥/٤) تفسير القرطبي (٦٥/١٢).

(٣) تفسير القرطبي (٦٥/١٢).

وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾ [الحشر:٢٢]. وفي الآيات: تنبيه للموفق على الإخلاص، وتحذير له من الرياء، ولا يغتر بخفائه ظاهرًا؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ عالم بخفيات الأمور، لا تخفى عليه وساوس الصدور"(١).

ومن الأحاديث الدالة على أهمية الإخلاص ومكانته: حديث: ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يوم الفتح -فتح مكة-: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية**»(٢).

وعن عطاء بن أبي رباح، قال: زرت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا مع عبيد بن عمير الليثي، فسألناها عن الهجرة فقالت: «**لا هجرة اليوم، كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله** عَزَّوَجَلَّ، **وإلى رسوله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ **مخافة أن يفتن عليه، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام، واليوم يعبد ربه حيث شاء، ولكن جهاد ونية**»(٣).

وعن أبي عبد الله جابر بن عبد الله الأنصاريِّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قَالَ: كُنَّا مع النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في غَزَاةٍ، فقال: «**إنَّ بالمدينة لَرِجَالًا ما سِرْتُمْ مَسِيرًا، ولا قَطَعْتُم واديًا، إلا كانوا معكم حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ**»(٤).

وفي رواية: «**إلاَّ شَرَكُوكُمْ في الأجر**»(٥).

---

(١) دليل الفالحين (١/٥١).

(٢) صحيح البخاري [١٨٣٤، ٢٧٨٣، ٢٨٢٥، ٣٠٧٧، ٣١٨٩]، مسلم [١٣٥٣].

(٣) صحيح البخاري [٣٩٠٠، ٤٣١٢]، مسلم [١٨٦٤].

(٤) صحيح مسلم [١٩١١].

(٥) صحيح مسلم [١٩١١].

ورواهُ البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة، فقال: «**إن بالمدينة أقواما، ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم**»، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة، حبسهم العذر**»(١).

وعن أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضبًا، ويقاتل حَمِيَّةً، فرفع إليه رأسه، قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائمًا، فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله** عَزَّوَجَلَّ»(٢).

وعن أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النَّار**»، قلت: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنَّه كان حريصًا على قَتْل صاحبه**»(٣).

---

(١) صحيح البخاري [٤٤٢٣].

(٢) صحيح البخاري [١٢٣، ٢٨١٠، ٣١٢٦، ٧٤٥٨]، مسلم [١٩٠٤].

(٣) صحيح البخاري [٣١، ٦٨٧٥]، مسلم [٢٨٨٨]. والحديث محمول على ما إذا كان القتال بينهما من غير تأويل سائغ. أما ما وقع بين بعض الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ فقد كان عن تأويل سائغ، القصد منه: إصلاح الدين والدنيا، فالمصيب منهم له أجران، والمخطئ له أجر. وهي مرحلة زمنية قد مضت، فينبغي للمسلم أن يعيش الحاضر، ويستفيد من دروس الماضي، وأن يعرف للصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ قدرهم، ويقدر جهدهم في الإصلاح، وحرصهم على نشر الدين وإصلاح أحوال الناس، ويتجنب الطعن أو إثارة الفتن بين المسلمين. وقوله: «حريصًا» أي: عازمًا، وهو لا ينافي حديث: «من هم بسيئة فلم يعملها، لم تكتب»؛ لأن الهم دون العزم، فالعزم أقوى، بدليل حمله هنا لآلة القتل.

وفي (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من صام رمضان، إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من اتبع جنازة مسلم، إيمانًا واحتسابًا، وكان معه حتى يصلى عليها ويفرغ من دفنها، فإنه يرجع من الأجر بقيراطين، كل قيراط مثل أحد، ومن صلى عليها ثم رجع قبل أن تدفن، فإنه يرجع بقيراط**»(٢).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيما يروي عن ربه عَزَّ وَجَلَّ قال: قال: «**إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هَمَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة**»(٣)...إلى غير ذلك.

وقد نظم بعضهم مراتب القصد بقوله:

مراتبُ الْقَصْدِ خمسٌ: هاجِسٌ ذَكَرُوا ... فخاطِرٌ فحديثُ النَّفْسِ فاستمعا
يـليه هَـمٌّ فَـعَـزْمٌ كُـلُّـهـا رُفِـعَــتْ ... سوى الأخير ففيه الأَخْذُ قد وَقَعا

(١) صحيح البخاري [٢٠١٤]، مسلم [٧٦٠].
(٢) صحيح البخاري [٤٧].
(٣) صحيح البخاري [٦٤٩١]، مسلم [١٣١].

والمراد بالهمّ: ترجيح الفعل دون عزم وتصميم؛ لأنه الذي يكتب في الخير، ولا يكتب في الشر، وأما العزم والتصميم فيكتب في الخير والشر، وأما الهاجس والخاطر وحديث النفس، فلا يؤاخذ الإنسان بها، لا في خير ولا في شر.

والقاعدة الشرعية أن (الأمور بمقاصدها)، فيعتبر ما يحصل عنها من المصالح والمفاسد.

فربَّ أمرٍ مباح أو مطلوب لمقصد ممنوع باعتبار مقصد آخر.

وفي الحديث: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يغزو جيش الكعبة، فإذا كانوا ببيداء من الأرض، يخسف بأولهم وآخرهم**»، قالت: قلت: يا رسول الله، كيف يخسف بأولهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم، ومن ليس منهم؟ قال: «**يخسف بأولهم وآخرهم، ثم يبعثون على نياتهم**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما يبعث الناس على نياتهم**»(٢).

---

(١) صحيح البخاري [٢١١٨].

(٢) أخرجه أحمد [٩٠٩٠]، وابن ماجه [٤٢٢٩]، والبزار [٩٣٥١]، وأبو يعلى [٦٢٤٧]، وتمام [٢٣٧]، والشهاب القضاعي [٥٧٨]. وفي إسناده: ليث بن سليم. وهو ضعيف. قال البوصيري: "وله شاهد من حديث: جابر بن عبد الله رواه مسلم في (صحيحه) وغيره" مصباح الزجاجة (٢٤٣/٤). وقال المنذري (٢٥/١): "رواه ابن ماجه بإسناد حسن، ورواه أيضًا من حديث: جابر، إلا أنه قال: «يحشر الناس..»". وقال الحافظ العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:٩٢١):" أخرجه ابن ماجه من حديث: جابر، دون قوله: «إنما»، وله من حديث أبي هريرة: «إنما يبعث الناس على نياتهم» =

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمن مات على شيء بعث عليه، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر. وفيه: أن الأمور بمقاصدها، وهي قاعدة عظيمة مفرع عليها من الأحكام ما لا يخفى"(١).

وعن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قبل وفاته بثلاث، يقول: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن**»(٢).

وعن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**يبعث كل عبد على ما مات عليه**» (٣).

وعن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يَبْلُغُ به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى أصبح كتب له ما نوى، وكان نومه صدقة عليه من ربه** عَزَّ وَجَلَّ»(٤).

=وإسنادهما حسن، ومسلم من حديث عائشة: «يبعثهم الله على نياتهم»، وله من حديث: أم سلمة: «يبعثون على نياتهم».

(١) فيض القدير (٣/٧).

(٢) صحيح مسلم [٢٨٧٧].

(٣) صحيح مسلم [٢٨٧٨].

(٤) ابن ماجة [١٣٤٤]، والبزار [٤١٥٣]، والنسائي [١٣٤٤]، وابن خزيمة [١١٧٢]، والحاكم [١١٧٠]، والبيهقي في (الكبرى) [٤٧٢٤]. قال الحافظ العراقي (ص:٤٠٩): "أخرجه النسائي، وابن ماجه، من حديث: أبي الدرداء بسند صحيح". وقال المنذري (٢٨/١): "رواه النسائي، وابن ماجه بإسناد جيد".

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "«**حتى يصبح كتب له ما نوى**»؛ لأن الأعمال بالنيات، وفيه أن الأمور بمقاصدها"(١).

وقد ذكر الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (رياض الصالحين)، أحاديث كثيرة في: (الإخلاص وإحضار النية في جميع الأعمال والأقوال والأحوال البارزة والخفية)(٢).

٢ - الإخلاص في الدعاء:

إنَّ كلَّ إنسانٍ محتاجٌ إلى الإخلاص في الدُّعاء حتى الكافر إذا أصابته ورطة، ووقع به ما لم يكن بحسبانه، مما لا يستطع أحد دفعَه عنه إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، توجَّه لله عَزَّوَجَلَّ مخلصًا في دعائه، بأن ينجيه الله عَزَّوَجَلَّ من هذا الهول والكرب، وأنه سيقابل نعمة الإنجاء وذلك الفضل بالتوبة، والشكر لله عَزَّوَجَلَّ على سائر نعمه، والثبات على محبته وطاعته.

إن الإخلاص في الدُّعاء هو مفتاح الإجابة عند وقوع الكرب العظيم، والأمر الجلل، فلا ملجأ، ولا مغيث، ولا منجّي من الشَّدائد والكربات، ولا سامع للدعوات إلا هو، ولا مناص، ولا منجا للعبد من ذلك الكرب العظيم إلا بالرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والإخلاص في الدعاء، فلا يملك الأمر إلا هو جَلَّوَعَلَا، ولا رافع له إلا هو جَلَّوَعَلَا، بفضله وكرمه، وإمهاله للعبد، لعله يستعتب.

وقد أخرج ابن جرير: عن يزيد بن أبي مريم، قال: مرَّ عمر بمُعاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ثلاث، وهنَّ المنجيات:

---

(١) فيض القدير (٦/٢٣).

(٢) انظر: رياض الصالحين (ص:٢٩-٣٣).

الإخلاص، وهو الفطرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم:٣٠]، والصلاة: وهي الملة، والطاعة: وهي العصمة. فقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: صدقت(١).

ولكن الإنسان كفور بنعم الله عَزَّوَجَلَّ، لا يعرف قدر الله عَزَّوَجَلَّ، ومدى ضعفه وحاجته إليه، إلا وقوع الملمات والشدائد، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾﴾ [عبس:١٧-٢٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس:٢١-٢٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء:٦٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان:٣٢].

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/٩٨)، وانظر: المحرر الوجيز (٤/٣٣٧)، تفسير ابن كثير (٦/٣١٦)، الدر المنثور (٦/٤٩٣)، كنز العمال [٤٤٢٧٦]، درء تعارض العقل والنقل (٨/٣٧٤)، أحكام أهل الذمة، لابن القيم (٢/ ٩٦٥)، شفاء العليل (ص:٢٨٧).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [العنكبوت:٦٥-٦٦].

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ﴾ [يونس:٢٣]، أي: مما نزل بهم وغشيهم من الشدة والكربة، والفاء للدلالة على سرعة الإجابة.

﴿إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [يونس:٢٣]، أي: سارعوا إلى ما كانوا عليه من التكذيب، والشرك، والإفساد في الأرض، والجراءة على الله عَزَّوَجَلَّ.

قال أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى ذكره: فلما أنجى الله عَزَّوَجَلَّ هؤلاء الذين ظنُّوا في البحر أنهم أحيط بهم، من الجهد الذي كانوا فيه، أخلفوا الله ما وعدُوه، وبغوا في الأرض، فتجاوزوا فيها إلى غير ما أذن الله لهم فيه، من الكفر به، والعمل بمعاصيه على ظهرها"(١).

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فظاهر أن هذه لا تدل على استجابة كرامة، ولكنها لتسجيل كفرهم ونكرانهم. وقد يتوهم في بعض الأحوال أن يدعو الكافر فيقع ما طلبه، وإنما ذلك لمصادفة دعائه وقت إجابة دعاء غيره من الصالحين، وكيف يستجاب دعاء الكافر وقد جاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: استبعاد استجابة دعاء المؤمن الذي يأكل الحرام، ويلبس الحرام، في حديث مسلم: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ذكر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رجلًا يطيل السفر أشعث أغبر، يَمُدُّ يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وَغُذِيَ**

---

(١) تفسير الطبري (١٥/٥٣).

بالحرام، فأنى يستجاب له؟» [1]؟! ولهذا لم يقل الله عَزَّوَجَلَّ: فلما استجاب دعاءهم، وإنما قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ﴾ [العنكبوت:٦٥]، أي: لأنه قدر نجاتهم من قبل أن يدعوا، أو لأن دعاءهم صادف دعاء بعض المؤمنين"[2].

عجيب شأن هذا الإنسان الضعيف الفقير المحتاج الذي لا يعرف الله عَزَّوَجَلَّ إلا في أحلك الظروف، وأشد الأحوال، فيتجه إليه بخالص الدعاء، فيستجيب الله عَزَّوَجَلَّ دعائه، ولكن هذه الاستجابة -كما تقدم- ليست استجابة كرامة، ولكنها لتسجيل كفرهم ونكرانهم، وفي ذلك ما فيه من الإعلام بفائدة الإخلاص، وأنه مثمر للخير، ورافع للبلاء بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

فينبغي أن تقابل تلك الاستجابة بالإنجاء مع نعم الله عَزَّوَجَلَّ على العبد التي لا تعد ولا تحصى، بدوام الشكر، لا بالجحود والنكران، حتى يدوم فضل الله عَزَّوَجَلَّ على العبد، وحتى لا يقع العبد في استدراج يهلكه، ويسجل عليه كفره وجحوده، فيستحق العذاب.

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ﴾ [يونس:٢٣]، أي: إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم، ولا تضرون به أحدًا غيركم، كما جاء في الحديث: عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما من ذَنْبٍ أَجْدَرُ أن يُعَجِّلَ الله** عَزَّوَجَلَّ **لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يَدَّخِرُ له في الآخرة من البَغْيِ،**

---

(١) صحيح مسلم [١٠١٥].

(٢) التحرير والتنوير (٢٤/١٦٦-١٦٧).

وقطيعة الرحم» [(١)]. وقال ﷺ: «**بابان معجلان عقوبتهما في الدنيا: البغي، والعقوق**» [(٢)].

وقوله: ﴿مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، أي: إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة الفانية.

﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ﴾، أي: مصيركم ومآلكم. ﴿فَنُنَبِّئُكُم﴾، أي: فنخبركم بجميع أعمالكم، ونوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه [(٣)].

ومن سنن الله عَزَّوَجَلَّ: أن المكر السيء يحيق بأهله، وأن الجزاء من جنس العمل، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱسۡتِكۡبَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّيِٕۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾ [فاطر:٤٣]، أي: لا يحيط وبال المكر السيء إلا بمن مكره ودبره، كما قيل: من حفر حفرة لأخيه وقع فيها.

---

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [٧٢٤]، والطيالسي [٩٢١]، وابن الجعد [١٤٨٩]، وأحمد [٢٠٣٩٨]، وهناد [١٣٩٨]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٢٩]، وابن ماجه [٤٢١١]، وأبو داود [٤٩٠٢]، والترمذي [٢٥١١]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه البزار [٣٦٧٨]، والخرائطي في (مساوئ الأخلاق) [٢٦٦]، وابن حبان [٤٥٥]، والحاكم [٣٣٥٩]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي [٢١٠٨٢].

(٢) أخرجه الحاكم [٧٣٥٠]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البخاري في (الأدب المفرد) [٨٩٥] بلفظ: «وبابان يعجلان في الدنيا: البغي، وقطيعة الرحم».

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٥٩)، بتصرف يسير.

قال بعض السلف: ثلاث من كُنَّ فيه كُنَّ عليه: المكر والبغي والنكث. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس:٢٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح:١٠].

وقال مكحول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أربع من كن فيه كن له، وثلاث من كن فيه كن عليه، فالأربع اللاتي له: فالشكر، والإيمان، والدعاء، والاستغفار، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء:١٤٧]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال:٣٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان:٧٧].

وأما الثلاث اللاتي عليه: فالمكر والبغي والنكث، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [الفتح:١٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر:٤٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس:٢٣]"(١).

وقليل من عباد الله عَزَّوَجَلَّ شكور لنعمه الوافرة، يقابل ذلك الإحسان والفضل بالاجتهاد فيما يرضي ربه جَلَّوَعَلَا، ويصبر على ما أصابه من البلاء، شاكرا لله عَزَّوَجَلَّ في السراء والضراء، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ:١٣]، وقال عن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء:٣].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/٤٢٦-٤٢٧)، حلية الأولياء (٥/١٨١)، تاريخ دمشق (٦٠/٢٢٥-٢٢٦).

وأشد الناس بلاء الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ثم الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ(1)، وقد صبروا على ما أصابهم من البلاء، وأخلصوا لله عَزَّوَجَلَّ في العبادة والدعاء، ففرج الله عَزَّوَجَلَّ عنهم ما أصابهم، فكانوا على العهد شاكرين ومنيبين لله عَزَّوَجَلَّ في كل حال. والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ خيرة عباده الذين هداهم الله عَزَّوَجَلَّ، فكانوا قدوة لكل من اقتفى أثرهم، وسار على هديهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام:٩٠]. وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن صبرهم وإخلاصهم في الدعاء، فقال عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧].

وقال عن أيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وزكريا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٣-٩٠]. وسيأتيك مزيد بيان في (بيان مكانة الصبر).

(١) سيأتي ذكر ما جاء في ذلك من الحديث وتخريجه.

وقد جاء في الحديث: عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: «**لما كان يوم فتح مكة أمن رسول الله** ﷺ **الناس، إلا أربعة نفر وامرأتين وقال: اقتلوهم، وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، عكرمة بن أبي جهل، وعبد الله بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، فأما عبد الله بن خطل فأدرك وهو متعلق بأستار الكعبة، فاستبق إليه سعيد بن حريث، وعمار بن ياسر، فسبق سعيد عمارًا، وكان أشب الرجلين فقتله، وأما مقيس بن صبابة فأدركه الناس في السوق فقتلوه، وأما عكرمة فركب البحر، فأصابتهم عاصف، فقال أصحاب السفينة: أخلصوا، فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئًا هاهنا. فقال عكرمة: والله لئن لم ينجني من البحر إلا الإخلاص، لا ينجيني في البر غيره، اللهم إن لك عليَّ عهدًا، إن أنت عافيتني مما أنا فيه أن آتي محمدًا** ﷺ **حتى أضع يدي في يده، فلأجدنه عفوًا كريمًا، فجاء فأسلم**» الحديث [1].

فالإخلاص نافع للعبد، في التحرر من الرياء ومن حظوظ النفس حتى يكون العمل خالصًا لله عَزَّ وَجَلَّ، ومثمرًا للخير.

*ويدخل في هذا باب: (الإخلاص):

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٦٩١٣]، والبزار [١١٥١]، والنسائي [٤٠٦٧]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [١٥٠٦]، وفي (شرح معاني الآثار) [٥٤٧٥]، وأبو يعلى [٧٥٧]، والشاشي [٧٣]، والبيهقي [١٦٨٧٩]، والضياء [١٠٥٥]. قال الهيثمي (٦/١٦٩): "قلت: رواه أبو داود وغيره باختصار، ورواه أبو يعلى، والبزار، ورجالهما ثقات".

أ. دعاء المظلوم والمضطر:

*ومن ثمرات الإخلاص: استجابة دعاء المظلوم والمضطر؛ لأنهما أخلصا في دعائهما، وفرَّغا قلبيهما عن كل ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد جاء في الحديث: ما يدل على أن من كمال الإخلاص: أن يفرغ العبد القلب عن كل ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ، وأن ينصرف بكليته إلى الله عَزَّوَجَلَّ. قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما منكم رجل يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ، فيتمضمض، ويستنشق فينتثر، إلا خرت خطايا وجهه، وفيه وخياشيمه، ثم إذا غسل وجهه كما أمره الله، إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين، إلا خرت خطايا يديه من أنامله مع الماء، ثم يمسح رأسه، إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين، إلا خرت خطايا رجليه من أنامله مع الماء، فإن هو قام فصلى، فحمد الله وأثنى عليه وَمَجَّدَهُ بالذي هو له أهل، وفَرَّغَ قلبه لله، إلا انصرف من خطيئته كهيئته يوم ولدته أمه»**(١).

والمضطر قد فرَّغ قلبه عن كل ما سوى الله عَزَّوَجَلَّ، وتوجَّه إليه مخلصًا في الدعاء، فكان دعائه أدعى إلى الإجابة، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في حقِّه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل:٦٢]. والمضطر هو الذي أحوجته شدة من الشدائد، وألجأته إلى اللجأ والضراعة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) صحيح مسلم [٨٣٢].

و"(الضرورة): الحالة المحوجة إلى اللجإ. و(الاضطرار): افتعال منها. يقال: اضطرَّه إلى كذا.

والفاعل والمفعول: مضطر. والمضطر الذي أحوجه مرض، أو فقر، أو نازلة من نوازل الدهر إلى اللجإ والتضرع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، واللام فيه للجنس لا للاستغراق، فلا يلزم منه إجابة كل مضطر"(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإذا جَمَع مع الدعاء: حضور القلب وجمعِيَّتَهُ بكُلِّيَّتِهِ على المطلوب، وصادف وقتًا من أوقات الإجابة الستة، وهي:

---

(١) الكشاف (٣/٣٧٦-٣٧٧)، تفسير البيضاوي (٤/١٦٥). وفي (مفاتيح الغيب): "فإن قيل: قد عم المضطرين بقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ وكم من مضطر يدعو فلا يجاب؟ جوابه: قد بينا في (أصول الفقه): أن المفرد المعرف لا يفيد العموم، وإنما يفيد الماهية فقط، والحكم المثبت للماهية يكفي في صدقه ثبوته في فرد واحد من أفراد الماهية. وأيضًا فإنه جَلَّوَعَلَا وعد بالاستجابة ولم يذكر أنه يستجيب في الحال، وتمام القول في شرائط الدعاء، والإجابة مذكور في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]" مفاتيح الغيب (٢٤/٥٦٥). ويدل على ذلك حديث: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم، ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها» أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩١٧٠]، وأحمد [١١١٣٣]، وعبد بن حميد [٩٣٧]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٧١٠]، والبزار كما في (كشف الأستار) [٣١٤٣]، وأبو يعلى [١٠١٩]، والطبراني في (الأوسط) [٤٣٦٨]، والحاكم [١٨١٦]، وقال: "صحيح الإسناد". وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٧١٠]. قال الهيثمي (١٠/١٤٨-١٤٩): "رواه أحمد، وأبو يعلى بنحوه، والبزار، والطبراني في (الأوسط)، ورجال أحمد وأبي يعلى وأحد إسنادي البزار رجاله رجال الصحيح، غير علي بن علي الرفاعي، وهو ثقة".

الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر.

وصادف خشوعًا في القلب، وانكسارًا بين يدي الرب جَلَّوَعَلَا، وذلًّا له، وتضرعًا، ورِقَّة. واستقبل الداعي القبلة. وكان على طهارة.

ورفع يديه إلى الله عَزَّوَجَلَّ. وبدأ بحمد الله عَزَّوَجَلَّ، والثناء عليه.

ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم قدم بين يدي حاجته: التوبة والاستغفار.

ثم دخل على الله عَزَّوَجَلَّ، وألح عليه في المسألة، وتملقه، ودعاه، رغبة ورهبة.

وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده.

وقدم بين يدي دعائه صدقة؛ فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبدًا، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها مظنة الإجابة، أو أنها متضمنة للاسم الأعظم"(١).

وقال: "وكثيرًا ما تجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم، فيكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله عَزَّوَجَلَّ، أو حسنة تقدمت منه جعل الله جَلَّوَعَلَا إجابة دعوته؛ شكرًا لحسنته، أو صادف وقت إجابة، ونحو ذلك، فأجيبت دعوته، فيظن الظان أن السرَّ في لفظ ذلك الدعاء، فيأخذه مجرَّدًا عن تلك الأمور التي قارنته من

---

(١) الجواب الكافي (ص:١٢).

ذلك الداعي، وهذا كما إذا استعمل رجل دواء نافعًا في الوقت الذي ينبغي استعماله على الوجه الذي ينبغي، فانتفع به، فظن غيره أن استعمال هذا الدواء بمجرده كاف في حصول المطلوب، كان غالطًا، وهذا موضع يغلط فيه كثير من الناس"(١).

قال المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تذكرته): "يستجاب الدعاء في أوقات، منها: عند القيام إلى الصلاة، وعند لقاء العدو في الحرب، وإذا قال مثل ما يقول المؤذن ثم دعا، وبين الأذان والإقامة، وعند نزول المطر، ودعوة الوالد لولده، والمظلوم حتى ينتصر، ودعوة المسافر حتى يرجع، والمريض حتى يبرأ، وفي ساعة من الليل، وفي ساعة من يوم الجمعة، وفي الموقف بعرفة، ودعوة الحاج حتى يصدر، والغازي حتى يرجع، وعند رؤية الكعبة، ودعاء تقدمه الثناء على الله عَزَّوَجَلَّ، والصلاة على نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ودعاء الصائم مطلقًا، ودعاؤه عند فطوره، ودعاء الإمام العادل، ودعاء عبد رفع يديه إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والدعاء عند خشوع القلب واقشعرار الجلد، ودعاء الغائب للغائب"(٢).

وإن الدعاء أعظم وأمضى سلاح يملكه المظلوم، ولو يعلم الظالم قوة وأثر هذا السلاح ما تجرأ على الظلم، وقد جاء في الحديث: عن معاذ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: بعثني رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض**

---

(١) الجواب الكافي (١/١٥).

(٢) فيض القدير (٣/٣٠١).

عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» [(١)].

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استعمل مولى له يدعى هُنَيًّا على الحِمَى، فقال: «**يا هُنَيُّ اضْمُمْ جناحك عن المسلمين، واتق دعوة المظلوم، فإن دعوة المظلوم مستجابة..**» الحديث [(٢)].

وفي رواية: «**اتقوا دعوة المظلوم؛ فإنها تحمل على الغمام، يقول الله جلَّ جلاله: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين**» [(٣)].

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين**» [(٤)].

---

(١) صحيح البخاري [١٤٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧]، صحيح مسلم [١٩].

(٢) صحيح البخاري [٣٠٥٩]. و(الحِمَى): موضع يعينه الحاكم ويخصصه لرعي مواشي الزكاة وغيرها مما يرجع ملكه إلى بيت مال المسلمين، ويمنع عامة الناس من الرعي فيه.

(٣) أخرجه الدولابي في (الكنى والأسماء) [١٨٢٩]، والخرائطي في (مساوئ الأخلاق) [٥٩٨]، والدينوري في (المجالسة) [٣١٧٣]، والطبراني [٣٧١٨]. قال الهيثمي (١٠/١٥٢): "فيه من لم أعرفه". لكن قال المنذري (٣/١٣٠): "لا بأس بإسناده في المتابعات". وأخرجه أيضًا: القضاعي [٧٣٣]. وللحديث أطراف أخرى.

(٤) أخرجه إسحاق بن راهويه [٣٠٠]، وأحمد [٨٠٤٣]، وابن ماجه [١٧٥٢]، والترمذي [٣٥٩٨]، وقال: "حديث حسن". وأخرجه أيضًا: ابن خزيمة [١٩٠١]، وابن حبان [٣٤٢٨]، والبيهقي=

ودلَّ الحديث على أن الله جَلَّ وَعَلَا يمهل الظالم ولا يهمله. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۝٥٨﴾ [الكهف:٥٨].

وفي الحديث: عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه**»، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢﴾ [هود:١٠٢][(١)].

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لَيُمْلِي**» أي: ليمهل، و(الإملاء): الإمهال والتأخير، وإطالة العمر، «**للظالم**»؛ زيادة في استدراجه؛ ليطول عمره، ويكثر ظلمه، فيزداد عقابه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٧٨﴾ [آل عمران:١٧٨]. ووقوع العفو عن بعض أفراد الظلمة يكون مع تعويض المظلوم فهو نصر أيضًا، وفيه: تحذير شديد من الظلم، وأن مراتعه وخيمة، ومصائبه عظيمة[(٢)]. "فمن الاستدراج: أن يملى للإنسان في ظلمه، فلا يعاقب سريعًا؛ حتى تتكدس عليه المظالم، فإذا أخذه الله عَزَّ وَجَلَّ لم يفلته، أخذه أخذ عزيز مقتدر"[(٣)].

=[٦٣٩٣]. والحديث فيه: أبو مدلة، قال الذهبي: لا يكاد يعرف، قال الدارقطني: متروك. انظر: ميزان الاعتدال (٥٧١/٤). ولكن الحديث حُسن بطرقه وشواهده.

(١) صحيح البخاري [٤٦٨٦]، مسلم [٢٥٨٣].

(٢) انظر: فيض القدير (١٤١/١)، (٢٦٤/٢).

(٣) شرح رياض الصالحين، لمحمد بن صالح العثيمين (٤٩٨/٢).

والمظلوم لَمَّا لحقته نار الظلم، واحترقت أحشاؤه، خرج منه الدعاءُ عن التضرع، وصار مُضطرًا، فيقبل الله عَزَّوَجَلَّ دعاءه.

ويرفع الله عَزَّوَجَلَّ دعوة المظلوم ويَفْتَحُ لها أبواب السَّمَاء، فيقول الله جَلَّوَعَلَا: «**وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين**»، يعني: لا أضيعُ حقَّ المظلوم، ولا أردُّ دعائه، ولو مضى زمانٌ طويل؛ لأني حكيمٌ، لا أعجِّل عقوبة العباد، فلعلهم يرجعون عن الظلم والذنوب، إلى ردِّ الحقوق، وإرضاءِ الخصومِ، وإلى التوبة.

وفي رواية: «**اتقوا دعوة المظلوم؛ فإنها تصعد إلى السماء كأنها شَرَار**» (١).

وقوله: «**كأنها شرار**»: كناية عن سرعة الوصول؛ لأنه مضطر في دعائه، وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]. وكلما قوي الظلم قوي تأثيره في النفس، فاشتدت ضراعة المظلوم، فقويت استجابته. والشرر: ما تطاير من النار في الهواء. شبه سرعة صعودها بسرعة طيران الشرر من النار (٢).

وفي رواية: «**دعوة المظلوم مستجابة، وإن كانت من فاجر ففجوره على نفسه**» (٣).

---

(١) أخرجه الحاكم [٨١]، وقال: "رواة هذا الحديث متفق على الاحتجاج بهم"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: الديلمي [٣٠٧].

(٢) فيض القدير (١/١٤٢).

(٣) أخرجه الطيالسي [٢٤٥٠]، وابن أبي شيبة [٢٩٣٧٤]، وأحمد [٨٧٩٥]، قال الهيثمي (١٠/١٥١): "إسناده حسن". وأخرجه أيضًا: الخرائطي في (مساوئ الأخلاق) [٥٨٨]، والطبراني في (الدعاء) [١٣١٨]، والشهاب القضاعي [٣١٥]. والحديث في سنده: أبو معشر، وهو ضعيف؛ لسوء حفظه، لكن حديثه يصلح للمتابعة، وهذا منه؛ ولذا حسنه الهيثمي، وابن حجر في (الفتح) (٣/٣٦٠).

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "«**دعوة المظلوم مستجابة**» أي: يستجيبها الله عَزَّوَجَلَّ، يعني: فاجتنبوا جميع أنواع الظلم؛ لئلا يدعو عليكم المظلوم فيجاب. «**وإن كان فاجرًا ففجوره على نفسه**»، ولا يقدح ذلك في استجابة دعائه؛ لأنه مضطر، ونشأ من اضطراره: صحة التجائه إلى ربه جَلَّوَعَلَا، وقطعه قلبه عما سواه. وللإخلاص عند الله عَزَّوَجَلَّ موقع، وقد ضمن إجابة المضطر بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]. ويحتمل أن يريد بالفاجر: الكافر. ويحتمل أن يريد: الفاسق"(١).

وأثر الاستجابة قد لا يظهر في الحال؛ لكون المجيب جَلَّوَعَلَا حكيمًا (٢).

ولله در القائل:

أتهزأ بالدُّعاء وتزدريه ... وما يدريك ما صنع الدعاء
سهام الليل لا تُخطِي ولكن ... لها أمدٌ وللأمد انقضاء
فيمسكها إذا ما شاء ربي ... ويرسلها إذا نفذ القضاء

ولآخر:

لا تظلمنَّ إذا ما كنت مقتدرا ... فالظلم ترجع عقباه إلى الندم
تنام عيناك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

ولآخر:

أيحسب الظالم في ظلمه ... أهمله القادر أم أمهلا
ما أهملوا بل لهم موعد ... لن يجدوا من دونه موئلا

---

(١) فيض القدير (٣/٥٢٦).

(٢) انظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢/٤٣٩).

وقال آخر:

وإني لأدعـو الله والأمر ضيق ... عليَّ فـمـا ينفـك أن يتفرجا

ورب فتى سـدت عليه وجوه ... أصاب لها في دعوة الله مخرجا (١)

قال بعض الأدباء: ليس للجائرِ جَار، ولا تَعْمُرُ له دار. وقال بعض البلغاء: أقرب الأشياء: صَرْعَةُ الظَّلُوم، وأنْفَذُ السِّهَام: دعوةُ المظلوم (٢).

ب. دعوةُ الوالد على ولده، ودعوة الصائم، ودعوةُ المسافر، ودعوة الإمام العادل:

ويدخل في باب الإخلاص في الدعاء: دعوةُ الوالد على ولده، ودعوة الصائم، ودعوةُ المسافر، ودعوة المظلوم -كما تقدم-، ودعوة الإمام العادل، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاث دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده**» (٣).

---

(١) انظر: بهجة المجالس، لابن عبد البر (٢٧٤/٣).

(٢) انظر: أدب الدنيا والدين (ص:١٤٠).

(٣) أخرجه الطيالسي [٢٦٣٩]، وابن أبي شيبة [٢٩٨٣٠]، وأحمد [٧٥١٠]، وابن حميد [١٤٢١]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٣٢]، وابن ماجة [٣٨٦٢]، وأبو داود [١٥٣٦]، والترمذي [١٩٠٥]، وقال: "حديث حسن". كما أخرجه: ابن حبان [٢٦٩٩]، والشهاب القضاعي [٣١٦]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٠٥٩]. وليس في رواية أبي داود: "على ولده"، وكذا في إحدى=

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين**» (١).

فهذه الدعوات مستجابات عند الله عَزَّ وَجَلَّ إذا توفرت شروطها؛ لأنها لا تكون إلا صادقة.

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا شك فيهن**»، أي: في استجابتهن، وهو آكد من حديث: «**لا ترد**»، وإنما أكد به؛ لالتجاء هؤلاء الثلاثة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بصدق الطلب، ورقة القلب، وانكسار الخاطر (٢).

قال العلامة المظهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "اعلم أن سرعة قَبولِ الدعاء إنما تكونُ لصلاح الداعي، أو لتصرُّعه في الدعاء"(٣).

فالمظلوم مضطر -كما تقدم-.

=الروايات عن أحمد. وعند الطيالسي، وابن ماجة، والبيهقي في (الدعوات الكبير): "ودعوة الوالد لولده".

(١) تقدم.

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح (١٥٣٥/٤).

(٣) المفاتيح في شرح المصابيح (١٣١/٣).

والوالد صحيح الشفقة والرحمة على ولده، كثير الايثار له على نفسه، فلا يصدر عنه الدعاء إلا وقد بلغ به الأمر مبلغًا عظيمًا في العقوق وجحود الفضل، أجيبت دعوته؛ لصدق توجهه، وعظيم إخلاصه، وتقاسُ على الوالد الوالدة.

قال العلامة المظهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دعوة الوالد على ولده**»، يعني: دعاء الشرّ، وإنما يكون قبول هذا الدعاء إذا صدر عن الولد عقوقٌ، أي: مخالفة أمر الوالد فيما يجب على الولد طاعته به، فإذا خالفه الولد، يكون الوالدُ مظلومًا، فيستجابُ دعاؤه، كما ذكرنا في المظلوم، وتقاسُ على الوالد الوالدة.

وقيل: بل دعاءُ الوالدِ أسرعُ إجابةً من دعاء الوالدة؛ لأن الوالدةَ لها رحمةٌ وشفقةٌ بالولد، لا تريد قبول دعائها"[1].

وقد نهى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوالد أن يدعو على ولده إلا بخير، فقال: «**لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يُسْأَلُ فيها عطاءٌ، فيستجيب لكم**»[2]، أي: لا تدعوا دعاءَ سُوءٍ على أنفسكم، ولا على أولادكم، ولا على أموالكم؛ مخافةَ أن توافق دعوتُكم ساعةَ إجابة، فيُستجاب دعاؤكم السوء.

---

(١) المصدر السابق (١٣٢/٣).

(٢) صحيح مسلم [٣٠٠٩]. وقوله: «فيستجيب» منصوب؛ لأنه جواب «لا توافقوا». وقال الطيبي: "قوله: «فيستجيب» نصب على أنه جواب النهي من قبيل: (لا تدن من الأسد فيأكلك)، أي: على مذهب الكسائي. ويحتمل أن يكون مرفوعًا، أي: فهو يستجيب" الكاشف عن حقائق السنن (١٧٠٧/٥).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: «**لا توافقوا**» نهي للداعي، وعلة للنهي، أي: لا تدعوا على أنفسكم، وعلى أولادكم؛ كي لا توافقوا ساعة الإجابة فتندموا"(١)، ولا تنفعكم الندامةُ؛ يعني: لا تدعوا بسوء، بل ادعوا بخير (٢).

فعلى الوالدين أن يتجنبا الدعاء على أولادهم إلا بخير؛ فإن الملائكة يؤمنون على دعائهم، كما جاء في (قصة جريج وأمه): قال: «**ولو دَعَتْ عليه أن يُفْتَنَ لَفُتِنَ**»(٣).

والذي ينبغي هو الدعاء لهم بالهداية والصلاح والرشاد.

ومن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ أنه لا يستجيب دعاء الوالدين على أولادهما إذا كان في وقت الغضب والضجر، كما جاء في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس:١١]، أي: لو يعجل الله عَزَّوَجَلَّ للناس الشرَّ كما يحبون تعجيل الخير لهلكوا سريعًا.

قال السلف: هو دعاء الإنسان على نفسه وولده وأهله في حال الغضب، لو استجابه الله عَزَّوَجَلَّ لأهلكه، وأهلك من يدعو عليه، ولكنه لا يستجيبه؛ لعلمه أن الداعي لم يقصده. وهذا من حِلم الله عَزَّوَجَلَّ ولطفه ورحمته بعباده.

---

(١) الكاشف عن حقائق السنن (١٧٠٧/٥).

(٢) المفاتيح في شرح المصابيح (١٢٢/٣).

(٣) صحيح مسلم [٢٥٥٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يخبر جَلَّ وَعَلَا عن حلمه ولطفه بعباده: أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم، أو أموالهم، أو أولادهم في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم منهم: عدم القصد إلى إرادة ذلك؛ فلهذا لا يستجيب لهم -والحالة هذه-؛ لطفًا ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم، أو لأموالهم، وأولادهم بالخير والبركة والنماء" [(١)].

وفي تفسير ابن ابي نجيح: عن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو قول الإنسان لولده وماله إذا غضب عليهم: (اللهم لا تبارك فيه والعنه)، فلو يعجل لهم الاستجابة في ذلك كما يستجاب في الخير لأهلكهم [(٢)].

وعن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾ [يونس:١١]، قال: هو دعاء الرجل على نفسه وماله بما يكره أن يستجاب له.

وذكر عن معاوية بن هشام، عن شريك عن سالم عن سعيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: ﴿۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ﴾ قال: هو الرجل يدعو على نفسه: (اللهم اخزه، اللهم افعل به كذا وكذا)، فلو عجل الله عَزَّوَجَلَّ لهم ذلك، كما يعجل الله لهم: (اللهم ارزقني) لقضي إليهم الأجل [(٣)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٢٥١/٤-٢٥٢).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١٩٣٢/٦)، تفسير الطبري (٣٤/١٥-٣٥)، التفسير البسيط (١٣٣/١١)، وانظر: إغاثة اللهفان (ص:٣٢)، وانظر: روضة المحبين (ص:١٥٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١٩٣٢/٦)، وانظر: تفسير الطبري (٣٥/١٥).

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يريد: أن الناس عند الغضب وعند الضَّجر، قد يدعون على أنفسهم وأهلهم وأولادهم بالموت وبالخزي، وتعجيل البلاء، كما قد يدعونه بالرزق، والرحمة، وإعطاء السُّؤل. يقول: فلو أجابهم الله عَزَّوَجَلَّ إذا دعوه بالشر الذي يستعجلونه استعجالهم بالخير، ﴿لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾، أي: لهلكوا.

وفي الكلام حذف؛ للاختصار، كأنه قال: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ إجابتهم بالشر الذي يستعجلونه استعجالهم بالخير، لهلكوا"(١).

وقيل: نزلت في الذين قالوا: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقيل غير ذلك.

و«**دعوة الصائم حتى يفطر**»، و(الصائمُ) يقبل دعاؤه؛ لأنه فَرَغَ من عبادةٍ محبوبةٍ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهي الصوم، كما قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حكايةً عن الله عَزَّوَجَلَّ: أنه قال: «**الصَّومُ لي**»، ومراده: كامل الصوم، الذي راقب الله عَزَّوَجَلَّ في صيامه، وصان جميع جوارحه عن المخالفات، فيجاب دعاؤه؛ لطهارة ظاهره وباطنه، وتحققه بالتقوى التي هي مقصد الصيام الذي يرتقي بالعبد، فيقبل عمله، ويثاب عليه، كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾﴾ [البقرة:١٨٣]، وإن لم يتحقق العبد بالتقوى لم يثمر صيامه،

---

(١) تأويل مشكل القرآن (ص:٢٢٥-٢٢٦).

كما جاء في الحديث: «**رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر**»(١).

و«**دعوة المسافر**»، أي: سفرًا مندوبًا أو مباحًا، حتى يرجع إلى أهله.

*وكان ذلك جبرًا لمقاساته وعثاء السفر.

قال العلامة المظهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "*وأما المسافر فيحتمل أن يكون دعاؤه بخير لمن يطعمه طعامًا، ويخدمه، فيدعو له، فيُقبل دعاؤه؛ لأن الغالبَ من حال المسافر: أن يكون مُحتاجًا، ومُضطرًا إلى طعام، فإذا أطعمه أحدٌ، يكون دعاءُ المسافر له عن الصدق وخلوص النية، فتسرعُ إجابته.

*ويحتمل أن يكون دعاؤه بشرًّ لمن يؤذيه، ويمنع حقَّه من الطعام والماء عند الاضطرار، فيُقبل دعاؤه؛ لأنه مضطرٌ منكسرُ القلب"(٢).

فتحصل من ذلك ثلاثة أقوال.

وأما «**الإمام العادل**» فهو كل من ولي شيئًا من أمور المسلمين، فعدل فيه. وكان دعاؤه مستجابًا؛ لأنَّ عدله أفضلُ العبادات؛ لأنه يستطيع أن يظلم العباد، ويبطش بهم، فلما عدل عن ذلك إلى العدل والرحمة بالخلق، كان مخلصًا لله عَزَّوَجَلَّ في تحريه العدل، فأثيب على ذلك بحسن الجزاء، وإجابة الدعاء.

---

(١) تقدم.

(٢) المصدر السابق (١٣٢/٣)، وانظر: دليل الفالحين (٤٦٨/٦).

ج. دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب:

*ويدخل في باب الإخلاص: دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب، كما جاء في الحديث: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من دعا لأخيه بظهر الغيب، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل**»(١).

وعن صفوان -وهو ابن عبد الله بن صفوان، وكانت تحته الدرداء-، قال: قدمت الشام، فأتيت أبا الدرداء في منزله، فلم أجده ووجدت أم الدرداء، فقالت: أتريد الحج العام، فقلت: نعم، قالت: فادع الله لنا بخير؛ فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «**دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين، ولك بمثل**»(٢)، أي: مثل ما دعوت به له.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بظهر الغيب**» فمعناه: في غيبة المدعو له، وفي سره؛ لأنه أبلغ في الإخلاص.

قوله: «**بمثل**» هو بكسر الميم وإسكان الثاء هذه الرواية المشهورة. قال القاضي: ورويناه بفتحها أيضًا. يقال: هو مثله ومثيله بزيادة الياء، أي: عديله سواء. وفي هذا: فضل الدعاء لأخيه المسلم بظهر الغيب، ولو دعا لجماعة من المسلمين حصلت هذه

(١) صحيح مسلم [٢٧٣٢].
(٢) صحيح مسلم [٢٧٣٣].

الفضيلة، ولو دعا لجملة المسلمين فالظاهر حصولها أيضًا. وكان بعض السلف إذا أراد أن يدعو لنفسه يدعو لأخيه المسلم بتلك الدعوة؛ لأنها تستجاب ويحصل له مثلها"(١).

وعند البزار من حديث: عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب لا يرد**»، أي: لأنه إلى الإخلاص أقرب (٢).

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "دعاء السر أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن الرياء"(٣).

وقد تقدم الحديث مفصلًا عن (عبادة الخفاء)، وما لها من الفضل.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٤٩/١٧)، وانظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (٢٢٨/٨-٢٢٩)، الكاشف عن حقائق السنن، للطيبي (١٧٠٧/٥).

(٢) أخرجه البزار [٣٥٧٧]، وقال: "وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن عمران بن حصين إلا من هذا الوجه، بهذا الإسناد، وخالد بن جميل بصري". وقد سكت عنه الهيثمي فلم يتعقبه. قال الحافظ العراقي: وهو في مسلم بلفظ دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجابة. فيض القدير (٥٢٥/٣).

(٣) فيض القدير (٥٢٧/٣).

رابعًا: رتب الإخلاص:

وقد بين هذه الرتب الإمام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وله رتب:

منها: أن يفعلها خوفًا من عذاب.

ومنها: أن يفعلها تعظيمًا لله عَزَّوَجَلَّ، ومهابة وانقيادًا وإجابة، ولا يخطر له عرض من الأعراض، بل يعبد مولاه جَلَّوَعَلَا كأنه يراه، وإذا رآه غابت عنه الأكوان كلها، وانقطعت الأعراض بأسرها، وأمر العابد أن يعبد الله عَزَّوَجَلَّ كأنه يراه، فإن لم يقدر على تقدير نظره إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فليقدر أن الله عَزَّوَجَلَّ ناظر إليه، ومطلع عليه، فإن ذلك يحمله على الاستحياء منه، والخوف، والمهابة، وهذا معلوم بالعبادات: أن النظر إلى العظماء يوجب مهابتهم، وإجلالهم، والأدب معهم إلى أقصى الغايات، فما الظن بالنظر إلى رب السماوات جَلَّوَعَلَا؟ وكذلك لو قدر إنسان في نفسه أن عظيمًا من العظماء ناظر إليه، ومطلع عليه، لم يتصور لأن يأتي برذيلة، وأنه يتزين له بملابسة كل فضيلة"(١).

قال الشيخ زكريا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: درجات الإخلاص ثلاث: (عليا، ووسطى، ودنيا)، فالعليا: أن يعمل العبد لله عَزَّوَجَلَّ وحده؛ امتثالًا لأمره، وقيامًا بحقِّ عبوديته، والوسطى: أن يعمل لثواب الآخرة، والدنيا: أن يعمل للإكرام في الدنيا، والسلامة من آفاتها اهـ.

وتعقبه الشيخ مصطفى العروسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الأولى، فقال: وأعلى منها: أن يعمل محبة لله عَزَّوَجَلَّ وإجلالًا.

---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/١٤٦-١٤٧).

وتعقبه كذلك في الثانية، فقال: وأعلى منها: أن يعمل امتثالًا لأمره، وقيامًا بحق عبوديته"(١).

وقيل: أنواع الإخلاص تختلف باختلاف الأشخاص:

١ - **فإخلاص العباد**: سلامة أعمالهم من الرياء الجلي والخفي، وكل ما فيه حظ للنفس، فلا يعملون العمل إلا لله عَزَّوَجَلَّ؛ طلبًا للثواب، وهربًا من العقاب.

٢ – **وإخلاص المحبين**: هو العمل لله عَزَّوَجَلَّ؛ إجلالًا وتعظيمًا؛ لأنه جَلَّوَعَلَا أهل لذلك، لا لقصد شيء مما ذكر.

٣ – **وأما إخلاص المقرَّبين**: فهو شهودهم انفراد الحق بتحريكهم وتسكينهم، مع التبري من الحول والقوة، فلا يعملون إلا بالله عَزَّوَجَلَّ، ولا يرون لأنفسهم عملًا (٢).

قال يوسف بن الحسين: كنت قاعدًا بين يدي ذي النون رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وحوله ناس، وهو يتكلم عليهم، والناس يبكون، وشاب يضحك. فقال له ذو النون: ما لك أيها الشاب؟ الناس يبكون وأنت تضحك، فأنشأ يقول:

كلهم يعبدون من خوف نار ... ويرون النَّجاة حظًّا جزيلًا
ليس لي في الجنان والنار رأي ... أنا لا أبتغي بحبي بديلًا (٣)

---

(١) شرح الشيخ زكريا الأنصاري للرسالة القشيرية مع حاشية نتائج الأفكار القدسية، للشيخ مصطفى العروسي (٢٣٢/٣).

(٢) انظر: شرح الشيخ عبد المجيد الشرنوبي على الحكم (ص:٢٣)، طبعة دار ابن كثير.

(٣) صفة الصفوة، لابن الجوزي (٤٥٠/٢)، فيض القدير (٥٢/٥).

ولا يخفى أن المحبة هي رأس العبادات القلبية، -كما تقرَّر ذلك في غير موضع-، ولكن العبادات القلبية لا تتم إلا باستكمال أركانها الثلاثة: (المحبة، والخوف، والرجاء)، فلا تكفي المحبة دون الخوف والرجاء.

أما ما تقدم نقله عن حال المقربين فيحمل على أنهم جعلوا المحبة رأس تلك العبادات، لا أنهم تركوا الخوف والرجاء، وإنما غاية الأمر أنهم غلَّبوا المحبة، وجعلوها أساس الاتباع.

وما ينقل عن بعض الغلاة من قوله: أنا أعبد الله ليس طمعًا في جنته، ولاخوفًا من ناره، وإنما أعبده حبًّا فهو خلاف ما كان عليه الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهم أكمل الناس عبادة؛ فإنهم عبدوا الله عَزَّوَجَلَّ محبة، وخافوا من عذابه، ورجوا رحمته، يقول الله عَزَّوَجَلَّ في حقِّ الرُّسل والأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحين والأخيار: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وقد تقدم أن المحبة الخوف والرجاء من أعمال القلب، ومن شعب الإيمان اللازمة، فمن لا يخاف الله عَزَّوَجَلَّ لا يرجى منه خير.

ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ هي أعظم منازل العبادة، وليست هي كل العبادة، وقد تقدم تفصيل ذلك، وتحرير هذه المسألة في بيان (درجات العبادة).

خامسًا: ثمرات الإخلاص:

١ - رضا الله عَزَّوَجَلَّ، وقبول العمل، والنجاة والفلاح يوم القيامة:

إن أعظم ثمرة من ثمرات الإخلاص هي: رضا الله عَزَّوَجَلَّ التي ينشدها كل طالب هداية، فلا يذهب عمله هباء منثورًا، بل يثاب عليه ويؤجر، وينجو من الأهوال والكربات يوم القيامة.

وفي الحديث: عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أرأيت رجلًا غزا يلتمس الأجر والذكر، ماله؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا شيء له**» فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا شيء له**» ثم قال: «**إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا، وابتغي به وجهه**»"(١).

وعن الضحاك بن قيس قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **يقول: أنا خير شريك، فمن أشرك معي شريكًا فهو لشريكي. يا أيها الناس، أخلصوا أعمالكم لله؛ فإن الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **لا يقبل من الأعمال إلا ما خلص له، ولا تقولوا: هذا لله وللرحم؛ فإنها للرحم وليس لله منها شيء، ولا تقولوا: هذا لله ولوجوهكم؛ فإنها لوجوهكم وليس لله فيها شيء**» (٢).

---

(١) أخرجه النسائي [٣١٤٠]، والطبراني في (الكبير) [٧٦٢٨]، و(الأوسط) [١١١٢]. قال الحافظ العراقي: "إسناده حسن" المغني عن حمل الأسفار (ص:١٧٥٤)، وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) (٢٨/٦): "إسناده جيد". ونحوه قول المنذري في (الترغيب والترهيب) (٢٤/١).

(٢) أخرجه البزار كما في (كشف الأستار عن زوائد البزار) [٣٥٦٧]، والدارقطني [١٣٣]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٤١٧]، والضياء في (المختارة) [٩٢]، قال الهيثمي (٢٢١/١٠): "رواه البزار=

ومما يدل على أن الإخلاص من المنجيات من العذاب في الآخرة: ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن أول الناس يُقْضَى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيء، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجْهِهِ حتى أُلْقِيَ في النار، ورجل تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار**»(١).

=عن شيخه: إبراهيم بن مجشر، وثقه ابن حبان وغيره، وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح".
وقد توبع من سعيد بن سليمان الواسطي.

(١) صحيح مسلم [١٩٠٥].

وما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى به وجهُ الله عَزَّ وَجَلَّ لا يَتَعَلَّمُهُ إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة**»، يعني: ريحها [(١)].

وحديث: جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تَعَلَّمُوا العلمَ؛ لِتُبَاهُوا به العلماء، ولا لِتُمَارُوا به السفهاء، ولا تَخَيَّرُوا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار**» [(٢)].

وجزاء الإخلاص يتكفل به الله عَزَّ وَجَلَّ، كما دلت على ذلك النصوص، وفي المقابل فإن جزاء المرائين في أعمالهم أن يقال لهم: «**اذْهَبُوا إلى الذين كنتم تُرَاءُونَ في**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٦١٢٧]، وأحمد [٨٤٥٧]، وابن ماجه [٢٥٢]، وأبو داود [٣٦٦٤]، وأبو يعلى [٦٣٧٣]، وابن حبان [٧٨]، والحاكم [٢٨٨]، وقال: "صحيح سنده ثقات رواته على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٤]. قال الإمام النووي: "رواه أبو داود بإسناد صحيح. والأحاديث في الباب كثيرة مشهورة" رياض الصالحين (ص:٤٥٨). وقال العراقي (ص:٧٤): "أخرجه أبو داود، وابن ماجه، بإسناد جيد".

(٢) أخرجه ابن ماجه [٢٥٤]، قال البوصيري في (زوائده) (٣٧/١): "هذا إسناد رجاله ثقات على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٧٧]، والحاكم [٢٩٠]، وتمام [٨١٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٥]. قال العراقي (ص:٧٢): "أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح". وقوله: «لا تعلموا» أي: لا تتعلموا بالتاءين فحذفت إحداهما. «ولا تخيروا به المجالس» أي: لا تختاروا به خيار المجالس وصدورها. قوله: «فالنار» أي: فله النار أو فيستحق النار، والنار مرفوع على الأول منصوب. حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١١١/١).

الدُّنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً؟!» [(١)] -كما سيأتيك بيانه في (خطر الرياء) -.

ومما ينص على حسن جزاء المخلصين يوم القيامة: قوله جَلَّ وَعَلَا حكايةً عن المخلصين في إطعامهم: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ۝١٢﴾ [الإنسان:٨-١٢].

ومما يدل على أن الإخلاص من المنجيات: ما أخرجه ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن يزيد بن أبي مريم، قال: مرَّ عمر بمُعاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: ما قوام هذه الأمة؟ قال معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ثلاث، وهنَّ المنجيات: الإخلاص، وهو الفطرة ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الروم:٣٠]، والصلاة: وهي الملة، والطاعة: وهي العصمة. فقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: صدقت[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد [٢٣٦٣٠، ٢٣٦٣٦]، والطبراني في (الكبير) [٤٣٠١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٤١٢]، قال العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:١٢٠٣): "أخرجه أحمد والبيهقي في (الشعب) من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورجاله ثقات، ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج". وقال الحافظ المنذري (٣٤/١): "حديث محمود بن لبيد هذا رواه أحمد بإسناد جيد، وابن أبي الدنيا، والبيهقي في (الزهد) وغيره".

(٢) تفسير الطبري (٩٨/٢٠)، وانظر: المحرر الوجيز (٣٣٧/٤)، تفسير ابن كثير (٣١٦/٦)، الدر المنثور (٤٩٣/٦)، كنز العمال [٤٤٢٧٦]، درء تعارض العقل والنقل (٣٧٤/٨)، أحكام أهل الذمة، لابن القيم (٢/ ٩٦٥)، شفاء العليل (ص:٢٨٧).

٢ – النجاة من الشدائد والكروب في الحياة الدنيا، وإجابة الدعاء:

وقد تقدم بيان ذلك في (ثمرات الإخلاص في الدعاء).

ويدل على ذلك بالإضافة إلى ما تقدم: ما جاء في (الصحيح): عبد الله بن عمر رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**انطلق ثلاثة رهط ممن كان قبلكم حتى أووا المبيت إلى غار، فدخلوه**[١]**، فانحدرت صخرة من الجبل، فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فقال رجل منهم: اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق**[٢] **قبلهما أهلًا، ولا مالًا، فنأى**[٣] **بي في طلب شيء يومًا، فلم أرح**[٤] **عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين وكرهت أن أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا، فلبثت والقدح على يدي، أنتظر استيقاظهما حتى بَرِقَ الفجر**[٥]**، فاستيقظا، فشربا غبوقهما، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة، فانفرجت شيئا لا يستطيعون الخروج**»، قال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وقال الآخر: اللهم كانت لي بنت عم، كانت أحب الناس إلي، فأردتها عن**

---

(١) التجأوا إليه؛ ليبيتوا فيه.

(٢) أي: ما كنتُ أُقَدِّم عليهما أحَدًا في شُرْب نَصِيبِهما من اللَّبَن الذي يَشْرَبانه. و(الغَبُوق): شُرْب آخِر النهار مُقَابِل: الصَّبُوح، واسم الشراب: الغبق.

(٣) أي: بَعُد.

(٤) أرجع.

(٥) وفي لفظ وهو عند الشيخين أيضًا: «والصِّبْية يتضاغوْن» أي: يصيحون ويستغيثون من الجوع.

نفسها، فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين، فجاءتني، فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت حتى إذا قدرت عليها، قالت: اتَّقِ الله ولا تَفُضَّ الخاتمَ إلَّا بِحَقِّه[1]**، فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها، وهي أحب الناس إلي، وتركت الذهب الذي أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها»**، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وقال الثالث: اللهم إني استأجرت أجراء، فأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين فقال: يا عبد الله أد إلي أجري، فقلت له: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق، فقال: يا عبد الله لا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله، فاستاقه، فلم يترك منه شيئا، اللهم فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة، فخرجوا يمشون»**[2].

وهذا الحديث فيه عبرة لكل مؤمن يريد النجاة مما ألم به من شدة أن يتوجه إلى الله عَزَّوَجَلَّ بخالص الدعاء، فهؤلاءِ قد سألوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ بصالح أعمالِهم حينَ نزلتْ فيهم هذه الشِّدَّة العظيمة.

---

(١) الخاتم كناية عن بكارتها. وقولها: «بحقه» أي بالزواج المشروع لا بالزنى.

(٢) صحيح البخاري [٢٢١٥، ٢٢٧٢، ٢٣٣٣، ٥٩٧٤]، ومسلم [٢٧٤٣].

وطبيعة الأسئلة التي سألها هؤلاء الرِّجال الثلاثة المؤمنون بالله عَزَّوَجَلَّ، الواثقون به، حينَ قالوا: «**لا ينجِّينا منْ هذا الكربِ إلَّا أن نسألَ اللهَ بصالحِ أعمالنا**» تدل على أن كل واحد منهم قد بحث عن أخلص عمل قدمه؛ لعلمه بأن أفضل الأعمال التي تنفع في وقت الشدة، فصار كلُّ واحدٍ منهم يبحثُ عن عمل صالح عمله، وكان خالصًا لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، فكان واحد كان منهم يقول: «**اللهمَّ إنْ كنتُ فعلتُ هذا ابتغاءَ وجهكَ**...»، أي: لا من أجلِ مدحِ النَّاسِ، ولا خوفًا من ذمِّهم.

ولم يقل أحد منهم: (اللهمَّ إنَّكَ تعلمُ أنِّي كنتُ أُصلِّي كذا وكذا)، و(وأصوم كذا وكذا..)، وهذا من عميقِ فهمهم لدين الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولذلك سألوا اللهَ عَزَّوَجَلَّ بأعمالٍ نفعُها، ومنع ضررها مُتَعَدٍّ إلى الغير، ممَّا يدل على أنَّ أفضل الأعمال، وأعلاها مكانةً عندَ الله عَزَّوَجَلَّ: ما كان فيه نفعٌ لعبادِ الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن ثمرات صنائع المعروف في الدنيا: أنها تقي مصارع السوء، وترد الآفات والهلكات عن أصحابها، فعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر**»[1].

(١) أخرجه الطبراني في (الكبير) [٨٠١٤]، قال المنذري في (الترغيب والترهيب) (١٥/٢): "رواه الطبراني في (الكبير)، وإسناده حسن"، ونحوه قول الهيثمي في (مجمع الزوائد) (١١٥/٣)، والسخاوي في (المقاصد) (ص:٤١٩).

ففي صنائع المعروف خلاصٌ من مصارع السوء، فكم من مسلمٍ نجاه الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم الشدائد التي لا يقدر على كشفها إلا الله عَزَّوَجَلَّ بسبب فعله للخير!

فإذا أردتَ من الله عَزَّوَجَلَّ أن يُعينكَ فأعِنْ عبادهُ، وإذا أردتَ من الله عَزَّوَجَلَّ أن يرحمكَ فارحَمْ خلقه، وإذا أردتَ من الله عَزَّوَجَلَّ أنْ يكشِفَ عنكَ الضُّرَّ، ويدفع عنك الشرَّ والبلاء فاصنع الخير، وأحسن إلى المحتاج.

قال صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»(١).

وقد جاء بيان ذلك مفصلًا كتاب: (الإحسان وبيان ثمرات صنائع المعروف).

وفي الحديث: استحبابُ الدُّعاء حالَ الكرب، والتوسلُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ بصالح العمل.

وفيه: فضيلةُ برِّ الوالدين، وفضلُ خدمَتِهما، وإيثارُهما على من سواهما.

وفيه: فضلُ العفاف، وقبح الزنا.

وفيه: فضلُ حسنِ العهد، وأداءِ الأمانة، والسماحةِ في المعاملة، وأن الله عَزَّوَجَلَّ يكرمُ أولياءَه الذين آمنوا وكانوا يتقون.

---

(١) أخرجه الحميدي [٦٠٢]، وابن أبي شيبة [٢٥٣٥٥]، وأحمد [٦٤٩٤]، والبخاري في (التاريخ الكبير) (١٩٤/٧)، وأبو داود [٤٩٤١]، والترمذي [١٩٢٤]، قال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: الطبراني [١٤٣١٧]، والحاكم [٧٢٧٤]، وصححه، ووافقه الذهبي، كما أخرجه: البيهقي [١٧٩٠٥]، والديلمي [٣٣٢٨].

وفيه: أن صنائع المعروف تقي مصارع السوء.

٣ – الحفظ والإعانة عند وقوع الابتلاء:

إن الله عَزَّوَجَلَّ يحفظ عبده المخلص عند وقوع الابتلاء، ويثبته وينجيه، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ [الأنفال:١١-١٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۖ﴾ [إبراهيم:٢٧].

وقال جَلَّوَعَلَا عن يوسف عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف:٢٤].

فعباد الله عَزَّوَجَلَّ المخلصين لا سبيل للشيطان لإغوائهم، كما قال جَلَّوَعَلَا حكاية عن الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر:٣٦-٤٢].

٤ – طهارة القلب من الصفات الذميمة، كالحقد والغل والخيانة:

كما جاء في الحديث: عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ثلاث لا يُغِلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله** عَزَّ وَجَلَّ، **ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة**»(١).

والمعنى: أن هذه الخلال الثلاث تستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر –كما تقدم–.

٥ – مغفرة الذنوب، ومضاعفة الحسنات، ورفعة الدرجات:

إن إخلاص النية في فعل الخير، ودفع الضر والشرِّ عن الخلق قد يكون سببًا لمغفرة الذنوب، كما جاء في الحديث ما يدل على ذلك، فمن ذلك: ما صحَّ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بينما رجل يمشي بطريق وجدَ غُصْنَ شَوْكٍ على الطَّريق فَأَخَّرَهُ، فشكر الله له فغفر له**»(٢).

---

(١) تقدم.

(٢) صحيح البخاري [٦٥٢، ٢٤٧٢]، مسلم [١٩١٤].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَيْنَمَا كَلْبٌ يُطِيفُ**(١) **بِرَكِيَّةٍ**(٢)**، كَادَ يَقْتُلُهُ العَطَش، إذ رَأَتْهُ بَغِيٌّ**(٣) **مِنْ بَغَايَا بني إسرائيل، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا**(٤) **فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لها به**»(٥).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها، فغفر لها، وإلا فليس كل بغي سقت كلبًا يغفر لها. وكذلك هذا الذي نحى غصن الشوك عن الطريق، فعله إذ ذاك بإيمان خالص، وإخلاص قائم بقلبه، فغفر له بذلك؛ فإن الأعمال تتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص"(٦).

---

(١) قوله: «يطيف»: بضم أوله من أطاف يطيف، يعني: طاف يطوف طوفًا، وهو الدوران حول الشيء. يقال: (أطفت بالشيء): إذا أدمت المرور حوله.

(٢) «بِرَكِيَّة»: بفتح الراء، وكسر الكاف، وتشديد التحتانية: البئر مطوية أو غير مطوية. وغير المطوية يقال لها: جُبٌّ، وقَلِيب، ولا يقال لها: بِئْرٌ حتى تُطْوَى. وقيل: (الرَّكِيُّ): البِئْرُ قبل أن تُطْوَى فإذا طويت فهيك (الطَّوِيُّ). فتح الباري (٥١٦/٦)، انظر: عمدة القاري (٥٤/١٦)، منحة الباري (٥٥٥/٦)، وانظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (قلب) (٢٠٦/١)، العين (١٧١/٥)، تهذيب اللغة (١٤٤/٩).

(٣) قوله: «بغي»: بفتح الموحدة، وكسر المعجمة، هي: الزانية. وتجمع على: بغايا. عمدة القاري (٥٤/١٦)، فتح الباري (٥١٦/٦).

(٤) «موقها»: بضم الميم، وسكون الواو بعدها قاف، هو: الخف. وقيل ما يلبس فوق الخف. ويقال له: الجرموق أيضًا، وهو فارسي معرب. عمدة القاري (٥٤/١٦)، فتح الباري (٥١٦/٦)، الصحاح، للجوهري (١٤٥٤/٤).

(٥) صحيح البخاري [٣٤٦٧]، مسلم [٣٤٦٧].

(٦) منهاج السنة النبوية (٢٢١/٦).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قال رجل: لَأَتَصَدَّقَنَّ بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يد سارق، فأصبحوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ على سارق فقال: اللهم لك الحمد، لَأَتَصَدَّقَنَّ بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يدي زانية، فأصبحوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ الليلة على زانية، فقال: اللهم لك الحمد، على زانية؟ لَأَتَصَدَّقَنَّ بصدقة، فخرج بصدقته، فوضعها في يدي غَنِيٍّ، فأصبحوا يتحدثون: تصدق على غني، فقال: اللهم لك الحمد، على سارق وعلى زانية وعلى غَنِيٍّ، فأتي فقيل له: أما صدقتك على سارق فلعله أن يَسْتَعِفَّ عن سرقته، وأما الزانية فلعلها أن تَسْتَعِفَّ عن زناها، وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله**» (١).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفيه: أن نية المتصدق إذا كانت صالحة قبلت صدقته ولو لم تقع الموقع"(٢).

وقال: أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ويستفاد منه: صحة الصدقة وإن لم توافق محلًّا مرضيًا، إذا حسنت نية المتصدق. فأما لو علم المتصدق أن المتصدق عليه يستعين بتلك الصدقة على معصية الله عَزَّوَجَلَّ لحرم عليه ذلك؛ فإنه من باب التعاون على الإثم والعدوان"(٣).

---

(١) صحيح البخاري [١٤٢١]، مسلم [١٠٢٢].

(٢) فتح الباري (٣/٢٩١).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/٦٨).

وقال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ودل ذلك أن صدقة الرجل على السارق والزانية والغنى قد تقبلها الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنها إذا كانت سببًا إلى ما يرضى الله جَلَّوَعَلَا، فلا شك في فضلها وقبولها"(١).

وفيه: أن الصدقة كانت عندهم مختصة بأهل الحاجات من أهل الخير؛ ولهذا تعجبوا من الصدقة على هؤلاء.

وفيه: استحباب إعادة الصدقة إذا لم تقع الموقع، وهذا في صدقة التطوع، أما الواجبة، فلا تجزئ على غني وإن ظنه فقيرًا، خلافًا لأبي حنيفة ومحمد رَحِمَهُمَاٱللَّهُ حيث قالا: تسقط، ولا تجب عليه الإعادة(٢).

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة:٢٧٠]: "بيانه من وجوه:

أحدها: أنه جَلَّوَعَلَا عالم بما في قلب المتصدق من نية الإخلاص والعبودية، أو من نية الرياء والسمعة.

وثانيها: أن علمه بكيفية نية المتصدق يوجب قبول تلك الطاعات، كما قال: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة:٢٧]، وقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة:٧-٨].

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣/٤٢٢).

(٢) انظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٣/٢٣-٢٤)، منحة الباري (٣/٥٠٩).

وثالثها: أنه جَلَّ وَعَلَا يعلم القدر المستحق من الثواب والعقاب على تلك الدواعي والنيات، فلا يهمل شيئًا منها، ولا يشتبه عليه شيء منها"[1].

ومن أخلص في عمله ضاعف الله عَزَّوَجَلَّ له الحسنات والدرجات، فقد يكون العمل يسيرًا، ولكن أجره يعظم بالنية الصالحة، كما جاء في (الصحيحين): أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ولست تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله، إلا أجرت بها، حتى اللقمة تجعلها فِي فِي امرأتك**»[2].

وعن ابن المبارك رَحِمَهُ اللهُ أنه قال: "رُبَّ عمل صغير تُكثِّره النية، ورُبّ عمل كثير تُصغِّره النية"[3].

وعن بعض السلف قال: من سرَّه أن يكمل له عمله فليحسن نيته[4].

٦ – قوة الأمة ونصرها على أعدائها، وحفظها من كيد الأعداء ومكرهم:

إن إخلاص العمل من أسباب: قوة الأمة، ونصرها على أعدائها، وحفظها من كيد الأعداء ومكرهم، كما جاء في الحديث: عن مصعب بن سعد، عن أبيه، أنه

---

(١) مفاتيح الغيب (٧/٦٠).

(٢) صحيح البخاري [٤٤٠٩]، مسلم [١٦٢٨].

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٨/٤٠٠)، جامع العلوم والحكم (١/٧١)، الطبقات الكبرى (١/٥١). وعزاه أبو طالب المكي في (قوت القلوب) (٢/٢٦٨)، وأبو حامد الغزالي في (الإحياء) (٤/٣٦٤) إلى بعض السلف.

(٤) انظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب (٢/٢٧٥)، جامع العلوم والحكم (١/٧١).

ظن أن له فضلًا على من دونه من أصحاب النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال نبي الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إنَّما يَنْصُرُ الله هـذه الأمَّةَ بضـعيفها، بـدعـوتهم وصـلاتهم وإخلاصهم**» (١).

سادسًا: بيان خطر الرياء:

إن الرياء هو الشرك الأصغر الخفي الذي يتسلل إلى أعمال فيفسدها.

وقد نهى الله عَزَّوَجَلَّ عن الإشراك في عبادته فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُٱللَّهُ: "نزل فيمن يقصد بعبادته وجهَ الله عَزَّوَجَلَّ وحمدَ الناس (٢). فكن حذرًا مُتَّقِيًا من هذا الشرك، واستشعر الخجلة في قلبك إن وصفت

(١) أخرجه النسائي في (السنن) [٣١٧٨]، وفي (الكبرى) [٤٣٧٢]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٦/٥)، والشاشي [٧٠]، وتمام [٦٩٩]، والبيهقي في (الكبرى) [٦٣٨٩]. وهو عند البخاري وغيره [٢٨٩٦] بلفظ: «هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم» دون ذكر الإخلاص.

(٢) روى ابن أبي شيبة في (مصنفه) [٣٤٨١١]: عن شهر بن حوشب، قال: جاء رجل إلى عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقال: رجل يصلي يبتغي وجه الله عَزَّوَجَلَّ ويحب أن يحمد، قال: «ليس بشيء، إن الله يقول: أنا خير شريك، فمن كان له معي شريك فهو له كله، لا حاجة لي فيه»، وانظر: تفسير الطبري (١٣٦/١٨)، الكشف والبيان (٢٠٣/٦)، تفسير ابن كثير (٢٠٥/٥)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٤٤٨٥/٦). وفي (البسيط): "قال سعيد بن جبير في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠]: ولا يرائي، ونحو هذا قال مجاهد، وموسى بن عقبة. هذا الذي ذكرنا قول الجمهور، وروى الوالبي عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أن هذه الآية أنزلت في المشركين الذين عبدوا مع الله عَزَّوَجَلَّ غيره، وليست في المؤمنين. والصحيح الذي عليه الناس، وقد بين ذلك ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فيما=

نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة عن هذا الشرك؛ فإن اسم: (الشرك) يقع على القليل والكثير منه"(١).

وقال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يحتمل أن يريد: الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وهو عبادة غيره، فيكون راجعًا إلى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾ [الكهف:١١٠]، أو يريد الرياء؛ لأنه الشرك الأصغر، واللفظ يحتمل الوجهين، ولا يبعد أن يحمل على العموم في المعنيين -والله أعلم-"(٢).

ومن الناس من يقصد بعبادته وجهَ الله عَزَّوَجَلَّ، وحمدَ الناس، وقد جاء التحذير من ذلك أيضًا في الحديث الذي رواه أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«قال الله** تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: **أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه»**(٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمن عمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير. والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه، ويأثم به"(٤).

=روى عنه عطاء، وهو أنه قال: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ﴾، ولم يقل: ولا يشرك بربه؛ لأنه أراد العمل الذي يعمل الله عَزَّوَجَلَّ، ويحب أن يحمد عليه" التفسير البسيط (١٤/١٧٧-١٧٨)، وانظر: التفسير الوسيط (٣/١٧٢).

(١) إحياء علوم الدين (١/١٦٧).

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (١/٤٧٦).

(٣) صحيح مسلم [٢٩٨٥].

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/١١٦).

وقد جاء في كثير من النصوص التحذير من الرياء وبيان عاقبته؛ وما ذاك إلا لأن المرائي قد استعمل العبادةَ فيما لَم تُشرَع لأجْله.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن الرياء حرام والمرائي عند الله عَزَّوَجَلَّ ممقوت، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار"(١).

فمن كان يريد بعمله الدنيا العاجلة ولها يعمل ويسعى، وإياها يبتغي، فإنه يعجل له في الدنيا ما يشاء من بسط الدنيا عليه، أو تقتيرها لمن أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يفعل ذلك به، أو إهلاكه بما يشاء من عقوباته؛ لأنَّه لم يُخلص العمل لله عَزَّوَجَلَّ، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ۝١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ۝١٩﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾ [هود:١٥-١٦].

والرياء خطره عظيم، فهو محبط للعمل الذي لابسه، وهو من العوائق التي تعرقل سير العبد إلى الله جَلَّوَعَلَا. وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٦٤﴾ [البقرة:٢٦٤]. إن القلب الصلد المغطَّى بالرياء، مثله كمثل

(١) إحياء علوم الدين (٣/٢٩٣).

صفوان عليه تراب، إنه حجر لا خصب فيه ولا ليونة، يغطيه تراب خفيف، يحجب صلادته عن العين، كما أن الرياء يحجب صلادة القلب الخالي من الإيمان..ثم جاء المطر الغزير فذهب بالتراب القليل! فانكشف الحجر بجدبه وقساوته، ولم ينبت زرعه، ولم يثمر ثمرة، كذلك القلب الذي أنفق ماله رئاء الناس، فلم يثمر خيرًا ولم يعقب مثوبة. فهذا مثل ضربه الله عَزَّوَجَلَّ لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن الذي يَمُنُّ بصدقته وَيُؤْذِي، يعني: أن الناس يرون في الظاهر أنَّ لهؤلاء أعمالًا كما يُرَى التراب على هذا الصَّفْوَان، فإذا كان يوم القيامة اضمحل كُلُّهُ وَاضْمَحَلَّ؛ لأنَّه لم يكن لله جَلَّوَعَلَا، كأنّه لم يكن كما أذهب الْوَابِلُ ما كان على الصَّفْوَان من التراب.

﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾: أجرد لا شيء عليه.

﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾: على ثواب شيء.

﴿مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ عملوا في الدنيا؛ لأنهم لم يعملوه لله عَزَّوَجَلَّ وطلب ما عنده، وإنَّما عملوه رياءَ الناس، وطلبَ حمدهم فصار ذلك معظم من أعمالهم"(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَابٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٞ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعۡصَارٞ فِيهِ نَارٞ فَٱحۡتَرَقَتۡۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَتَفَكَّرُونَ ٢٦٦﴾ [البقرة:٢٦٦].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما جعل جل ثناؤه البستانَ من النخيل والأعناب الذي قال جل ثناؤه لعباده المؤمنين: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمۡ أَن تَكُونَ لَهُۥ﴾: مثلًا لنفقة المنافق

---

(١) انظر: الكشف والبيان (٢/٢٦٢)، تفسير البغوي (١/٣٦١)، الخازن (١/٢٠٠).

التي ينفقها رياء الناس، لا ابتغاء مرضاة الله، فالناس -بما يظهر لهم من صدقته، وإعطائه لما يُعْطَى وعمله الظاهر يثنون عليه ويحمدونه بعمله ذلك أيام حياته. في حُسْنِهِ كحسن البستان، وهي الجنة التي ضربها الله عَزَّوَجَلَّ لعمله مثلًا، من نخيل وأعناب، له فيها من كل الثمرات؛ لأن عمله ذلك الذي يعمله في الظاهر في الدنيا، له فيه من كل خير من عاجل الدنيا، يدفع به عن نفسه ودمه وماله وذريته، ويكتسب به المحمَدة وحسن الثناء عند الناس، ويأخذ به سهمه من المغنم مع أشياء كثيرة يكثر إحصاؤها، فله في ذلك من كل خير في الدنيا، كما وصف جل ثناؤه الجنة التي وصف مثلًا لعمله، بأن فيها من كل الثمرات.

ثم قال جل ثناؤه: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾، يعني: أن صاحب الجنة أصابه الكبر، ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾: صغارٌ أطفال. ﴿فَأَصَابَهَا﴾، يعني: فأصاب الجنة: ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ﴾، يعني: بذلك أنَّ جنته تلك أحرقتها الريح التي فيها النار، في حال حاجته إليها، وضرورته إلى ثمرتها بكبره، وضعفه عن عمارتها، وفي حال صغر ولده وعجزه عن إحيائها والقيام عليها. فبقي لا شيء له، أحوج ما كان إلى جنته وثمارها، بالآفة التي أصابتها من الإعصار الذي فيه النار.

يقول: فكذلك المنفق ماله رياء الناس، أطفأ الله نوره، وأذهب بهاء عمله، وأحبط أجره حتى لقيه، وعاد إليه أحوج ما كان إلى عمله، حين لا مُسْتَعْتَبَ له، ولا إقالة

من ذنوبه ولا توبة، واضمحل عمله كما احترقت الجنة التي وصف جل ثناؤه صفتها عند كبر صاحبها وطفولة ذريته أحوجَ ما كان إليها فبطلت منافعها عنه"(١).

وقد قيل في المثل الذي ضربه الله عَزَّوَجَلَّ في الحسرة لسلب النعمة من المقصود به؟ ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه مثل للمرائي في النفقة ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليها.

والثاني: هو مثل للمفرِّط في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لملاذ الدنيا يحصل في الآخرة على الحسرة العظمى.

والثالث: هو مثل للذي يختم عمله بفساد(٢).

وقد قيل في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ١٠﴾ [فاطر:١٠]: هم أهل الرياء لا يصعد عملهم. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وشهر بن حوشب رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: هم المراؤون بأعمالهم، يعني: يمكرون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله، وهم بُغَضَاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ"(٣).

---

(١) تفسير الطبري (٥/٥٤٢-٥٤٣)، وانظر: الكشف والبيان (٢/٢٦٦)، تفسير الراغب الأصفهاني (١/٥٦١).

(٢) النكت والعيون (١/ ٣٤١).

(٣) تفسير ابن كثير (٦/٥٣٧). وانظر: انظر: تفسير الطبري (٢٠/٤٤٦)، تفسير البغوي (٣/٦٩٠)، زاد المسير (٣/٥٠٨)، الدر المنثور (٧/١٠)، الكشف والبيان (٨/١٠٢)، تفسير القرطبي (١٤/٣٣٢)، فتح القدير، للشوكاني (٤/٣٩٢)، روح المعاني (١١/٣٤٩).

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أقسام العمل إذا كان لغير الله جَلَّ وَعَلَا:

"واعلم أن العمل لغير الله جَلَّ وَعَلَا أقسام:

١ - فتارة يكون رياءً محضًا بحيث لا يراد به سوى مراءاة المخلوقين (١)؛ لغرض دنيوي، كحال المنافقين في صلاتهم، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون:٤-٧]. وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة أو الحج، وغيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط وأن صاحبه يستحق المقت من الله عَزَّ وَجَلَّ والعقوبة.

٢ - وتارة يكون العمل لله عَزَّ وَجَلَّ ويشاركه الرياء فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه أيضًا وحبوطه. وفي (صحيح مسلم): عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يقول الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**»(٢).

٣ - وأما إن كان أصل العمل لله عَزَّ وَجَلَّ ثم طرأت عليه نية الرياء فلا يضره، فإن كان خاطرًا ودفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه، فهل يحبط به عمله أم

---

(١) قال الجوهري: "يقال: (راءى) فلان الناس يرائيهم (مراءاة)" الصحاح، مادة: (رأى) (٢٣٤٩/٦).

(٢) صحيح مسلم [٢٩٨٥]، وقد تقدم.

لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى وهو مروي عن الحسن البصري رَحِمَهُٱللَّهُ وغيره.

وذكر ابن جرير رَحِمَهُٱللَّهُ أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل يرتبط آخره بأوله، كالصلاة والصيام والحج، فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر وإنفاق المال ونشر العلم، فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه، ويحتاج إلى تجديد نية"[1].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: "إن كان العمل موافقًا للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو مردود على فاعله، وهذا حال المنافقين والمرائين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ [الماعون:٤-٧]، ولهذا قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠]"[2].

قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُٱللَّهُ: "والمرائي في صلاته قد يكون منافقًا، وقد يكون غير منافق. فالرياء أعم من جهة، والنفاق أعم من جهة أخرى، أي: قد يرائي في عمل ما، ويكون مؤمنًا بالبعث والجزاء وبكل أركان الإيمان، ولا يرائي في عمل آخر، بل

(١) باختصار عن (جامع العلوم والحكم) (١/٧٩- ٨٣).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٥).

يكون مخلصًا فيه كل الإخلاص. والمنافق دائمًا ظاهره مخالف لباطنه في كل شيء، لا في الصلاة فقط. ولكن جاء النص: بأن المراءاة في الصلاة من أعمال المنافقين"(١).

والشرك الخفي المحتمل قد يتسلل إلى عبادات فيفسدها. وقد رُويَ أنَّ من الشرك ما هو أخفى من دبيب النمل.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولذلك عجز عن الوقوف على غوائله سماسرة العلماء فضلًا عن عامة العباد، وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها. وإنما يبتلى به العلماء، والعباد المشمرون عن ساق الجد؛ لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم مهما نهروا أنفسهم وجاهدوها، وفطموها عن الشهوات، وصانوها عن الشبهات، وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى الظاهر بالخير، وإظهار العمل والعلم فوجدت مخلصًا من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق، ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فنازعت إلى إظهار الطاعة، وتوصلت إلى إطلاع الخلق، ولم تقنع باطلاع الخالق، وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه للشهوات، وتوقيه للشبهات، وتحمله مشقات العبادات، أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء، وبالغوا في الإعزاز، ونظروا إليه بعين الاحترام، وتبركوا بلقائه، ورغبوا في بركته ودعائه وفاتحوه بالسلام والخدمة وقدموه في المجالس والمحافل وتصاغروا له فأصابت النفس في ذلك لذة هي من أعظم اللذات وشهوة هي أغلب الشهوات فاستحقرت فيه ترك المعاصي

(١) أضواء البيان (١١٦/٩).

والهفوات واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات فهو يظن أن حياته بالله عَزَّوَجَلَّ، وبعبادته المرضية، وإنما حياته؛ لهذه الشهوة الخفية التي يعمى عن دركها إلا العقول النافذة القوية، ويرى أنه يخلص في طاعة رب العالمين، وقد أثبت اسمه في جريدة المنافقين، وهو يظن أنه عند الله عَزَّوَجَلَّ من المقربين. وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون"(١).

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والرياء ينقسم قسمين: فإن كان الرياء في عقد الإيمان فهو كفر ونفاق، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار. وإن كان الرياء لمن سلم له عقد الإيمان من الشرك، ولحقه شيء من الرياء في بعض أعماله، فليس ذلك بمخرج من الإيمان إلا أنه مذموم فاعله؛ لأنه أشرك في بعض أعماله حَمْدَ المخلوقين مع حَمْدِ ربه، فَحُرِم ثواب عمله ذلك" (٢).

والرياء (شرك خفي) و(شرك أصغر) -كما تقدم-. وإنما سُمِّيَ: شركًا خفيًّا؛ لأن صاحبه يُظهرُ أن عمله لله عَزَّوَجَلَّ، وقد قصدَ به غيرَه، أو جعل له شريكًا فيه.

والنياتُ والمقاصدُ وأعمال القلوب لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ. والعبدُ مطالب ببذل الجهد في التخلص من الرياء، والبعد عن أسبابه، وإخلاص القصد لله عَزَّوَجَلَّ، وقد جاء في الحديث: عن أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: خرج علينا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن نتذاكر المسيح الدجال، فقال: «**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح**

(١) إحياء علوم الدين (٣/٢٧٤-٢٧٥)، فيض القدير (٤/١٧٣).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/١١٣).

الدجال؟»، قال: قلنا: بلى، فقال: «**الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يصلي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ؛ لما يَرَى من نَظَرِ رَجُلٍ**»(١). فدلَّ على أن خطر الرياء أعظم من خطر المسيح الدجال. وفي رواية: خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**يا أيها الناس: إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ**»، قالوا: يا رسول الله وما شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قال: «**أَنْ يقومَ أحدُكُم يُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا لِيَنْظُرَ النَّاسُ إليه، فذلك شِرْكُ السَّرَائِرِ**» (٢).

فإذا كان الناس ينظرون إلى المرائي فإنه يتقن صلاته ويحسنها، وإذا كان بعيدًا عن أعين الناس فإنه يتساهل ويتعجل.

وفي الحديث: «**إن أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **لهم يوم القيامة: إذا جُزِيَ النَّاسُ بأعمالهم: اذْهَبُوا إلى الذين كنتم تُرَاءُونَ في الدُّنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً؟!**» (٣).

---

(١) أخرجه أحمد [١١٢٥٢]، وابن ماجه [٤٢٠٤]. قال البوصيري في (زوائده) (٤/٢٣٧): "هذا إسناد حسن". وأخرجه أيضًا: الحاكم [٧٩٣٦]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٤١٣].

(٢) الحديث مروي عن جابر وعن محمود بن لبيد. حديث جابر: أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى) [٣٥٨٥]، وفي (شعب الإيمان) [٣١٤١]. حديث محمود بن لبيد: أخرجه ابن أبي شيبة [٨٤٠٣]، وابن خزيمة [٩٣٧]، والديلمي [٨١٦٤]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢٨٧٢].

(٣) أخرجه أحمد [٢٣٦٣٠، ٢٣٦٣٦]، والطبراني في (الكبير) [٤٣٠١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٤١٢]، قال العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:١٢٠٣): "أخرجه أحمد والبيهقي في (الشعب) من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورجاله ثقات، ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد=

وفي رواية: عن شداد بن أوس، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا نَعُدُّ على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الرِّياء: الشرك الأصغر (١).

وعن عبد الله بن يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«يا نَعَايَا العرب، يا نَعَايَا العرب، إن أخوف ما أخاف عليكم: الزنا، والشهوة الخفية»** (٢). وقد قيل لأبي داود السجستاني رَحِمَهُ اللَّهُ: وما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرئاسة (٣).

وعن سلمة، قال: سمعت جندبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ به، ومن يُرَائِي يُرَائِي الله به»**(٤).

وعند مسلم: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى الله به»**(٥).

=عن رافع بن خديج". وقال الحافظ المنذري (٣٤/١): "حديث محمود بن لبيد هذا رواه أحمد بإسناد جيد، وابن أبي الدنيا، والبيهقي في (الزهد) وغيره".

(١) أخرجه البزار [٣٤٨١]، والطبراني في (مسند الشاميين) [٢١٤٦]، والحاكم [٧٩٣٧]، وصححه، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٤٢٤].

(٢) قال الهيثمي (٢٥٥/٦): "رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح غير عبد الله بن بديل بن ورقاء، وهو ثقة". وقال المنذري (١٨٦/٣): "رواه الطبراني بإسنادين أحدهما صحيح". قوله: «يا نعايا العرب»: كأنه يقول: قد ذهبت العرب ينعيهم.

(٣) الطيوريات (٤٠٥/٢)، مجموع الفتاوى (٢١٥/١٠).

(٤) صحيح البخاري [٦٤٩٩، ٧١٥٢].

(٥) صحيح مسلم [٢٩٨٦].

والمعنى: من عمل لغير الله عَزَّوَجَلَّ يراءي به الناس جازاه الله جَلَّوَعَلَا على ذلك بأن يفضحه ويظهر ما يبطنه ويستره(١).

وقوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وَمَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ**»: -بتشديد الميم فيهما- أي: من شَهَرَ نفسه بكرمٍ أو غيره؛ فخرًا، أو رياء، شَهَرَهُ الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة بين أهل الْعَرَصَات، وعلى رؤوس الأشهاد، بأنه مُرَاءٍ كَذَّابٌ، بأن أَعْلَمَ الله عَزَّوَجَلَّ الناسَ بريائه وسُمْعَتِهِ، وَقَرَعَ بابَ أسماع خلقه، فيفتضحُ بين الناس(٢). فكان من جزائه ما هو من جنس عمله، وعلى قصده ومراده، فقد أراد فخرًا وشهرة ورياء، فجوزي فضيحة وعقابًا.

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال العلماء معناه: من راءى بعمله وسمعه الناس؛ ليكرموه ويعظموه ويعتقدوا خيره سمع الله عَزَّوَجَلَّ به يوم القيامة الناس وفضحه.

وقيل: معناه من سمع بعيوب الناس وأذاعها أظهر الله عَزَّوَجَلَّ عيوبه.

وقيل: أسمعه المكروه.

وقيل: أراه الله عَزَّوَجَلَّ ثواب ذلك من غير أن يعطيه إياه؛ ليكون حسرة عليه.

وقيل: معناه: من أراد بعمله الناس أسمعه الله عَزَّوَجَلَّ الناس، وكان ذلك حظه منه"(٣).

---

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢/٤٧)، وانظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٢٠٨)، فتح الباري، لابن حجر (١١/ ٣٣٦)، عمدة القاري (٢٣/٨٦).

(٢) انظر: المفاتيح في شرح المصابيح (٤/٧٤)، مرقاة المفاتيح (٥/٢١١٠).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/ ١١٦).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر**»(١).

ومن الأحاديث التي تنصُّ على الوعيد الشديد في حق المرائين: ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن أول الناس يُقْضَى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيء، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجْهِهِ حتى أُلْقِيَ في النار، ورجل تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار**»(٢).

---

(١) أخرجه ابن ماجه [١٦٩٠]، قال البوصيري في (زوائده) (٢/٦٩): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات".
وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [٣٢٣٦].

(٢) صحيح مسلم [١٩٠٥].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى به وجهُ الله** عَزَّ وَجَلَّ **لا يَتَعَلَّمُهُ إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة»**، يعني: ريحها[1].

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لا تَعَلَّمُوا العلمَ؛ لِتُبَاهُوا به العلماء، ولا لِتُمَارُوا به السفهاء، ولا تَخَيَّرُوا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار»**[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٦١٢٧]، وأحمد [٨٤٥٧]، وابن ماجه [٢٥٢]، وأبو داود [٣٦٦٤]، وأبو يعلى [٦٣٧٣]، وابن حبان [٧٨]، والحاكم [٢٨٨]، وقال: "صحيح سنده ثقات رواته على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٤]. قال الإمام النووي: "رواه أبو داود بإسناد صحيح. والأحاديث في الباب كثيرة مشهورة" رياض الصالحين (ص:٤٥٨). وقال العراقي (ص:٧٤): "أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد جيد".

(٢) أخرجه ابن ماجه [٢٥٤]، قال البوصيري في (زوائده) (٣٧/١): "هذا إسناد رجاله ثقات على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٧٧]، والحاكم [٢٩٠]، وتمام [٨١٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٥]. قال العراقي (ص:٧٢): "أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح". وقوله: «لا تعلموا» أي: لا تتعلموا بالتاءين فحذفت إحداهما. «ولا تخيروا به المجالس» أي: لا تختاروا به خيار المجالس وصدورها. قوله: «فالنار» أي: فله النار أو فيستحق النار، والنار مرفوع على الأول منصوب. حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١١١/١).

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما [(١)].

وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإخلاص: أن يخلص العبد دينه وعمله فلا يشرك به في دينه ولا يرائي بعمله [(٢)].

وقال بعضُ الحُكماء: "مثلُ من يعمل رياءً وسُمعة كمثَلِ من ملأ كيسَه حصًى، ثم دخل السوق؛ ليشتري به، فإذا فتحه بين يدي البائع افتضح، وضرب به وجهه، فلم يحصل له به منفعةٌ سوى قول الناس: ما أملأَ كيسه! ولا يُعطَى به شيئًا، فكذلك مَن عمِل للرياء والسُّمعة، لا منفعةَ له في عمله سوى مقالة الناس، ولا ثوابَ له في الآخرة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان:٢٣]، أي: الأعمال التي قصد بها غير الله عَزَّوَجَلَّ يبطل ثوابها صارت كالهباء المنثور، وهو الغبار الذي يرى في شعاع الشمس"[(٣)].

---

(١) انظر: الأذكار، للإمام النووي (ص:٧)، التبيان في آداب حملة القرآن، للإمام النووي (ص:٣٢)، المجالس الوعظية، للسفيري الشافعي (١/١٢٥)، الزواجر (ص:٦٩)، الرسالة القشيرية (١/٤١)، الآداب الشرعية، لابن مفلح (١/٢٦٦).

(٢) انظر: الكشف والبيان (٢/٦)، تفسير البغوي (١/١٧٤).

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٦٩).

سابعًا: إجمال مضار الرياء:

الرياء محبط للعمل ومضيع للأجر والثواب، وسبب لمقت الله عَزَّوَجَلَّ، وهو من الكبائر المهلكة.

الرياء خطره عظيم على الفرد والمجتمع، وقد تقدم أنه أخطر على المسلمين من المسيح الدجال، وجاء في حديث آخر ما يدل على أنه أشد فتكًا من الذئبِ في الغنم، فعن ابن كعب بن مالك الأنصاري، عن أبيه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال، والشرف لدينه**»[1]. فمقصود الحديث: أن الحرص على المال والشرف، والمراد به: الجاه والمنصب أكثر إفسادًا للدين من إفساد الذئبين للغنم؛ لأن ذلك الأشر والبطر يستفز صاحبه، ويأخذ به إلى ما يضره وذلك مذموم؛ لاستدعائه العلو في الأرض

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٣٧٦]، وأحمد [١٥٧٨٤]، والدارمي [٢٧٧٢]، والترمذي [٢٣٧٦]، وقال: "حسن صحيح"، وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٣٢٢٨]، والطبراني [١٨٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧٨٣]. قوله: «بأفسد لها»، أي: بأكثر فسادًا للغنم. «والشرف»، أي: الجاه، معطوف على المال. واللام في قوله: «لدينه» لام البيان، كهي في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ [البقرة:٢٣٣]، كأنه قيل لمن؟ قال: لمن أراد. وكذا هنا، كأنه قيل: بأفسد لأي شيء؟ فقيل: لدينه. ولا يصح جعلها متعلقة بأفسد؛ لأنه لا يجوز تعلق حرفي جرٍّ بلفظ واحد، ومعنى واحد بعامل واحد إلا على سبل البدل" انظر: دليل الفالحين، لابن علان (٤/٤١٩-٤٢٠). وفيه مبالغة في الذم لمن جعل المال والجاه غاية.

والفساد المذمومين شرعًا [1]. يعني: أنه يحرص على المال وعلى الشرف فيفسد دينه بحرصه ذلك، وقصد الرياء والسمعة، وعدم إخلاصه في العمل والعبادة.

الرياء من أسباب العذاب في الآخرة كما تقدم، بل قد يكون من أسباب مضاعفة العذاب وشدته، كما تقدم في حديث: «**أول من تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة**».

والرياء من أسباب الذل والصغار والهوان؛ ذلك أن المرائي لا يسلم أن يفضح في الدنيا، فيظهر الله عَزَّوَجَلَّ للناس ما يبطنه فيسقط من أعين الناس كما تقدم في حديث: «**من سمَّع سمَّعَ الله به، ومن يُرائي يُرائي اللهُ به**»، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٩﴾ [التوبة:٤٩].

وقد جاء في الحديث: ما يدل على أن الرياء يحرم المرائي الثواب الآخرة، وهو من أسباب الذل والصغار، وأن من يقابله من الإخلاص من أسباب النجاة والرفعة والتمكين: فعن أُبَيِّ بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**بَشِّرْ هذه الأُمَّةَ بالسَّنَاءِ والرِّفْعَة، والدِّين، والنَّصْر، والتَّمْكِينِ في الأرض، فمن عَمِلَ منهم عَمَلَ الآخرة لِلدُّنْيَا، لم يكن له في الآخرة نَصِيبٌ**»[2].

---

(١) فيض القدير (٥/٤٤٥)، وانظر: انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٢١٥).

(٢) أخرجه أحمد [٢١٢٢٠]، قال الهيثمي (١٠/٢٢٠): "رواه أحمد وابنه من طرق، ورجال أحمد رجال الصحيح". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٤٠٥]، والحاكم [٧٨٦٢]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: أبو نعيم في (الحلية) (٩/٤٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٤١٤]، والضياء [١١٥٤]. قوله: «بالسَّناء»، أي: بارتفاع المنْزلة والقَدْر.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠﴾ [الشورى: ٢٠].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّمَا يَنْصُرُ الله هذه الأُمَّةَ بضعيفها، بدعوتهم، وصلاتهم وإخلاصهم**»(١).

والرياء من أسباب زيادة انغماس المرائي في الضلال كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝١٠﴾ [البقرة: ٩-١٠].

ثامنًا: الوقاية من الرياء والعلاج:

١ - الإخلاص في جميع الأعمال والأقوال والأحوال.

٢ — عدم ترك الطَّاعات خوفًا من الرياء:

لا ينبغي ترك العمل المشروع خوف الرياء. قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن من الناس من يترك العمل؛ خوفًا من أن يكون مرائيًا به، وذلك غلط، وموافقة للشيطان، وجر إلى البطالة وترك للخير، فما دمت تجد باعثًا دينيًا على العمل فلا تترك العمل، وجاهد خاطر الرياء، وألزم قلبك الحياء من الله عَزَّوَجَلَّ إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين، وهو مطلع على قلبك، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك، وعقوبة لنفسك فافعل، فإن قال لك الشيطان: أنت

(١) تقدم.

مراء فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهية الرياء وإبائه وخوفك منه وحيائك من الله عَزَّوَجَلَّ، وإن لم يبق باعث ديني، بل تجرد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك"(١).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا ينبغي أن يترك الذكر باللسان مع القلب؛ خوفًا من أن يظن به الرياء بل يذكر بهما جميعًا، ويقصد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ، وذكر قول الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك. قال: فلو فتح الإنسان عليه باب ملاحظة الناس والاحتراز من تطرق ظنونهم الباطلة لانسد عليه أكثر أبواب الخير"(٢).

وقال الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ليس ترك العمل خوف الرياء إخلاص، وإنما الإخلاص: إيقاع الطاعة خالصة لله عَزَّوَجَلَّ دون الناس.

وقد تترك العمل؛ مخافة الرياء، فيوهمك الشيطان أنك مراء بترك العمل؛ لينغص عليك العيش فيما تعمله، وفيما تتركه.

مثال ذلك: أن يكون في قراءة أو تعليم أو ذكر أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، فيوهمك أنك مراء بذلك فتتركه، فيوهمك أنك مراء بالصمت، وأن يقال: إنما صمت خيفة من الرياء، فتغيب عن الناس خوفا من الرياء فيوهمك أنك مراء بالهروب منهم والاعتزال عنهم، وأنهم يقولون: إنما فرَّ بدينه؛ خوفًا من الرياء، فتستحلي النفس

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/٣٢٢)، موعظة المؤمنين (١/٢٤١).

(٢) الأذكار، للإمام النووي (ص:٩).

أن تقول الناس: إنما فرَّ بدينه؛ خوف الرياء، ولا خلاص لك من مثل ذلك إلا بالكراهة والإباء.

فإن أشكل عليك أمرك فإن وجدت نفسك مائلة إليه من غير كراهة ولا إباء فقد صدقك الشيطان فيما أخبرك به من أنك مراء، فإن لم تنفك عن خطرة الرياء ولم يجد من نفسك الكراهة والإباء، فإن كان ذلك العمل نفلًا فدعه، وإن كان فرضًا لزمك أن تجاهد نفسك على حسب إمكانك في استحضار نفسك الكراهة والإباء.

وإن دخلت في الفرض على الإخلاص فأوهمك أنك مراء فلا تصغ إليه ولا تلتفت عليه؛ لأنك تحققت الإخلاص، وشككت في الرياء، واليقين لا يزال بالشك"[1].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فأما ترك الطاعات؛ خوفًا من الرياء، فإن كان الباعث له على الطاعة غير الدين، فهذا ينبغي أن يترك؛ لأنه معصية لا طاعة فيه.

وإن كان الباعث على ذلك الدين، وكان ذلك لأجل الله تعالى خالصاً، فلا ينبغي أن يترك العمل، لأن الباعث الدين.

وكذلك إذا ترك العمل؛ خوفًا من أن يقال: إنه مراءٍ، فلا ينبغي ذلك؛ لأنه من مكائد الشيطان. قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا أتاك الشيطان وأنت في الصلاة فقال: إنك مراءٍ، فزدها طولًا. وأما ما روي عن بعض السلف أنه ترك العبادة؛ خوفًا من الرياء، كما روي عن إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن إنسانًا دخل عليه وهو يقرأ في

---

(١) مقاصد الرعاية لحقوق الله عَزَّوَجَلَّ (ص: ٧٤).

المصحف، فأطبق المصحف وترك القراءة، وقال: لا يراني هذا أني أقرأ كل ساعة، فيحمل هذا على أنهم أحسوا من نفوسهم بنوع تزين فقطعوا"(١).

قال ابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهو كما قال، ومن هذا قول الأعمش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كنت عند إبراهيم النخعي، وهو يقرأ في المصحف فاستأذن رجل فغطى المصحف، وقال: لا يظن أني أقرأ فيه كل ساعة، وإذا كان لا يترك العبادة خوف وقوعها على وجه الرياء فأولى أن لا يترك خوف عجب يطرأ بعدها"(٢).

٣ - استحضار مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ للعبد في كل ما يقول ويعمل، في السر والعلانية، في الجلاء والخفاء، كأنه بين يديه جَلَّوَعَلَا، ومن استشعر عظمة الله عَزَّوَجَلَّ ومراقبته للعبد هان في نظره كل أحد.

٤ – المحافظة على عبادة الخفاء:

وقد تقدم الحديث عن أهمية (عبادة الخفاء) مفصلًا.

٥ - مجاهدة النفس وتزكيتها وتفقد أحوالها ونفاذ البصيرة والخوف والحذر:

تقدَّم أن الرياء هو الشرك الخفي الذي يتسلل إلى بعض العبادات والأعمال فيفسدها، وهو أخفى من دبيب النمل.

فينبغي لطالب العلم والهداية أن يكون على حذر وبينة. قال الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فما خفِي لم يُعرف إلا بشدَّة التفَقُّد، ونفاذ البصيرة بمعرفته له حين يعرِض،

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص:٢٢٥).

(٢) الآداب الشرعية، لابن مفلح (ص:٢٦٦-٢٦٧).

وإلا لم ينفع التفقُّد لما لا يُعرف، فبالخوف والحذر يَتفقَّد العبد الرِّياء، وبمعرفته يبصره حين يعرِض فلا غنى بك عن معرِفة الرياء"(١).

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يزال الرجل بخير ما علم بالذي يفسد عليه عمله (٢).

ومن أراد أن يسلك طريق السعادة فعليه أن يخالف النفس والهوى والشيطان، وأن يتبع منهج الله عَزَّوَجَلَّ القويم، وشِرعته المباركة، التي أنزلها ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، فذلك السبيل الذي ينجو به الناس من الغواية، وسلطان الهوى، فلا سبيل إلا بالاتباع، ولا نجاة إلَّا بالانقياد. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "سمعت شيخنا –يعني: ابن تيمية– يقول: جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين؛ فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولًا حتى يخرج إليهم"(٣). "فمن قهر هواه عز وساد، ومن قهره هواه ذل وهان وهلك وباد"(٤).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت:٦٩].

ومجاهدة النفس والهوى تقرّب العبدَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فيكون في حفظ الله جَلَّوَعَلَا ورعايته. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مخالفة الهوى تقيم العبد في مقام من لو أقسم على الله عَزَّوَجَلَّ لأبره، فيقضي له من الحوائج أضعاف أضعاف ما فاته من هواه". وقال: "إذا

---

(١) الرعاية لحقوق الله، للحارث المحاسبي (ص:١٦٠).

(٢) الزهد والرقائق، لابن المبارك [١٥٠٠]، الزهد، لأحمد بن حنبل [١٥٩٠]، مصنف ابن أبي شيبة [٣٥١٨٩].

(٣) روضة المحبين (ص:٤٧٨).

(٤) غذاء الألباب، للسفاريني الحنبلي (٢/ ٤٥٨).

تأملت السبعة الذين يظلهم الله عَزَّوَجَلَّ في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى"(١).

فلا ينبغي للمسلم أن يسترسل في اتباع رغبات النفس؛ فإن الاسترسال في متابعة النفس والهوى له مضار ظاهرة وباطنة وحسية ومعنوية وفردية واجتماعية.

وتزكية النفس تكون بتهذيبها وتأديبها ومخالفتها ومحاسبتها واتهامها، وتدريبها على الأخلاق الفاضلة، وأن يقود المكلف نفسه لا أن تقوده، فمن لم يتنصر على نفسه وشهواتها كيف سينتصر على عدوه؟ وكيف سيصل إلى هدف هو أسمى من مُتَعٍ ولذَّاتٍ آنيَّةٍ فانية؟!

وقد قيل: مخالفة النفس رأس العبادة، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها بمهلكاتها، كالكبر والعجب والحسد وطول الأمل. وكيف يصح لعاقل الرضا عن النفس والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف:٥٣]؟!(٢).

وقد بين الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المحاسبة تكون لمستقبَل الأعمال ولمستدبرها. فقال: المحاسبة في مستقبل الأعمال: "النظر بالتثبت قبل الزلل؛ ليبصر ما يضره مما ينفعه، فيترك ما يضره على علم، ويعمل بما ينفعه على علم. والمحاسبة الثانية في مستدبر الأعمال، وقد نطق بها الكتاب والسنة، وقالت بها علماء الأمة"(٣).

---

(١) روضة المحبين (١/٤٨٤-٤٨٥).

(٢) انظر: المنفرجتان (ص:٧٥-٧٦)، الرسالة القشيرية (١/٢٨٣)، بريقة محمودية، للخادمي (٢/٧٢).

(٣) انظر ذلك مفصلًا في (الرعاية لحقوق الله) (ص:٤٨-٥٥).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا يقدر أحد أن قمع الرِّياء إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوَّة الشِّهوات، ويكون ذلك بأمرين:

أحدهما: قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه.

والثاني: دفع ما يخطر منه في الحال:

المقام الأول في قلع عروقه وأصوله:

وأصله: حب المنزلة والجاه، وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول وهي: حب لذة المحمدة، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس، فهذه الثلاثة هي التي تحرك المرائي إلى الرياء. وعلاجه: أن يعلم مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه، وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله تعالى، وما يتعرض له من العقاب والمقت الشديد والخزي الظاهر. فمهما تفكر العبد في هذا الخزي، وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة، وبما يحبط عليه من ثواب الأعمال فإنه يسهل عليه قطع الرغبة عنه، كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكن إذا بان له أن فيه سما أعرض عنه. ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله لأجل حمدهم، ولا يزيده حمدهم رزقًا، ولا أجلًا، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته، وهو يوم القيامة.

وأما الطمع فيما في أيديهم فبأن يعلم أن الله جَلَّوَعَلَا هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأن الخلق مضطرون فيه، ولا رازق إلا الله، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد؟! وقد يصيب وقد يخطئ، وإذا أصاب فلا تفي لذته بألم منته ومذلته.

وأما ذمهم فلم يحذر منه، ولا يزيده ذمهم شيئًا ما لم يكتب الله عليه، ولا يعجل أجله، ولا يؤخر رزقه، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة، ولا يبغضه إلى الله إن كان محمودًا عند الله عَزَّوَجَلَّ، فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرا، ولا نفعا، فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته، وأقبل على الله قلبه، والعاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه، فهذا من الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء.

وأما الدواء العملي فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات، وإغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش فلا تنازعه نفسه إلى طلب علم غير الله به.

المقام الثاني في دفع العارض منه أثناء العبادة:

وذلك لا بد أيضًا من تعلمه، فإن من جاهد نفسه بقلع مغارس الرياء، وقطع الطمع، واستحقار مدح المخلوقين وذمهم، فقد لا يتركه الشيطان في أثناء العبادة، بل يعارضه بخطرات الرياء، فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق دفع ذلك بأن قال: ما لك وللخلق علموا أو لم يعلموا والله عَزَّوَجَلَّ عالم بحالك؟ فأي فائدة في علم غيره؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد ذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرضه للمقت الإلهي، وخسرانه الأخروي"[1].

٦ - معالجة دواعي الرياء وكسر أسبابه:

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/٣١٠)

إن من أهم أسباب الوقاية من آفات الرياء: معالجة أسبابه وكسر أسبابه، ومما يعين على ذلك:

أ. تذكير النفس بما يحرم المرائي من التوفيق وصلاح القلب بسبب الرياء.

ب. الخوف من مقت الله عَزَّوَجَلَّ إذا اطلع على قلب العبد وهو معتقد الرياء.

ج. تذكير النفس بما يفوت أو ينقص من ثواب العباداتِ والأعمال بسبب الرياء، فإن المرائي يبذل الجهد والمال في العباداتِ والأعمال فيذهب ذلك سدى، ويضيع عليه الثواب كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣].

د. تذكير النفس بعقاب الله عَزَّوَجَلَّ وسخطه وعذابه الأليم في الآخرة بسبب الرياء.

هـ. تذكير النفس بأن المرائي لا يأمن أن يعجل الله عَزَّوَجَلَّ له بعض العقوبات، ولا يمهله فيفضحه في الدنيا، وينكشف حاله، فيمقته من كان يتودد إليه بريائه.

و. تذكير النفس بقبيح ما يحبب إلى العباد، وهو مما يوجب بغض الله جَلَّوَعَلَا وسخطه.

ز. تذكير النفس بأن رضا الناس غاية لا تدرك، ومطلوب لا يملك، فقد يرضي بعضهم ما يسخط الآخرين[1]. فمن تعلَّق بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن يجلبوا

---

(١) انظر ذلك مفصلًا في (الرعاية لحقوق الله)، للحارث المحاسبي (ص:١٧٣-١٧٨)، مقاصد الرعاية لحقوق الله (ص:٦١).

له منفعة أو يدفعوا عنه ضرًّا، فإنه قد يخذل من جهتهم، ولا يتحقق مقصوده، أما إذا توجه إلى الله عَزَّوَجَلَّ بصدق الافتقار إليه فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يكون معه.

ح. البعد عما يورث الرياء من الأخلاق المذمومة.

٧ – النظر في عواقب الرياء ونتائجه، وفي فوائد الإخلاص وعوائده.

٨ – اللجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ وإخلاص الدعاء، والاستعاذة به جَلَّوَعَلَا من مرض الرياء وآفاته:

وقد جاء في الحديث: عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ كان يقول في دعائه: «**اللهم إني أعوذ بك من شَرِّ ما عَمِلْتُ، وشر ما لم أَعْمَلْ**»(١).

٩ – تعلق العبد بالله عَزَّوَجَلَّ، وثقته به، ويقينه بأن النفع والضر بيده وحده:

فلا أحد يملك النفع والضرر إلا الله عَزَّوَجَلَّ وحده لا شريك له، حتى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ قال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ

(١) صحيح مسلم [٢٧١٦]. وقد روي عن أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنهُ فقال: خطبنا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ ذات يوم، فقال: «أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل»، فقال له من شاء أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟، قال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم». أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٥٤٧]، وأحمد [١٩٦٠٦]، والطبراني في (الأوسط) [٣٤٧٩]. قال البوصيري: "رواه أحمد بن حنبل والطبراني. ورواته إلى أبي علي محتج بهم في الصحيح، وأبو علي وثقه ابن حبان ولم أر أحدًا ضعفه. ورواه أبو يعلى بنحوه من حديث حذيفة إلا أنه قال فيه: «يقول كل يوم ثلاث مرات». إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٦/٥٠٨).

﴿١٨٨﴾ [الأعراف:١٨٨]، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن:٢٠-٢٢]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ﴾ [الرعد:١٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ﴾ [الفتح:١١].

وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: كنت خلف رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يومًا، فقال: «**يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجَاهَكَ، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**»(١).

وفي القرآن الكريم لما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ السحرة قال: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [البقرة:١٠٢].

فمن أسباب العافية والهداية والوقاية من آفات الرياء: رسوخ الإيمان بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره، وأنه الله جَلَّوَعَلَا هو الضار النافع، وهو الغني والناس كلهم

---

(١) أخرجه أحمد [٢٦٦٩]، والترمذي [٢٥١٦]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٢٥٥٦]، والحاكم [٦٣٠٣]، وقال: "هذا حديث كبير عال من حديث عبد الملك بن عمير، عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا". وأخرجه أيضًا: الضياء [١٣].

مفتقِرون إليه كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر:١٥].

ومن أسباب العافية والهداية والوقاية من آفات الرياء: ذكرُ الله عَزَّوَجَلَّ على الدَّوام، والاستعانةُ به، واللجوءُ إليه في كشف الضُّر والسوء كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

١٠ – حسن الظنِّ بالله جَلَّ وَعَلَا، والثقة بما أعده لعباده الصالحين المتقين.

١١ – أن يحذر السالك خطوات الشيطان، وتزينه للمعاصي والشهوات.

١٢ – التفقه في الدين، وملازمة العلماء والصالحين.

١٣ – تذكر الموت والآخرة:

فينبغي للعاقل أن يتذكر الموت والحساب في الآخرة كلما رأى من نفسه طموحًا إلى الدنيا، وانشغالًا بها، واغترارًا بها، وأن ما يؤمله فيها قد يحصل وقد لا يحصل، وإن حصل فإن مآله إلى زوال، وأن الآخرة خير وأبقى. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٨-١٩]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة:٢٠-٢١]، وقال: ﴿إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾ [الإنسان:٢٧].

وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنت خلف رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومًا، فقال: «**يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ**

الله تجده تُجَاهَكَ، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف» [1].

"ولا بد للإنسان من شيئين: طاعته بفعل المأمور، وترك المحظور. وصبره على ما يصيبه من القضاء المقدور. فالأول هو: التقوى، والثاني هو: الصبر"[2].

وفي القرآن الكريم لما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ السحرة قال: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢].

فمن أسباب العافية والهداية والوقاية من آفات الرياء: رسوخ الإيمان بقضاء الله وقدره، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الضار النافع، وأنه جَلَّ وَعَلَا هو الغني والناس كلهم مفتقِرون إليه كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

ومن أسباب العافية والهداية والوقاية من آفات الرياء: ذكرُ الله عَزَّوَجَلَّ على الدَّوام، والاستعانةُ به، واللجوءُ إليه في كشف الضُّر والسوء كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

---

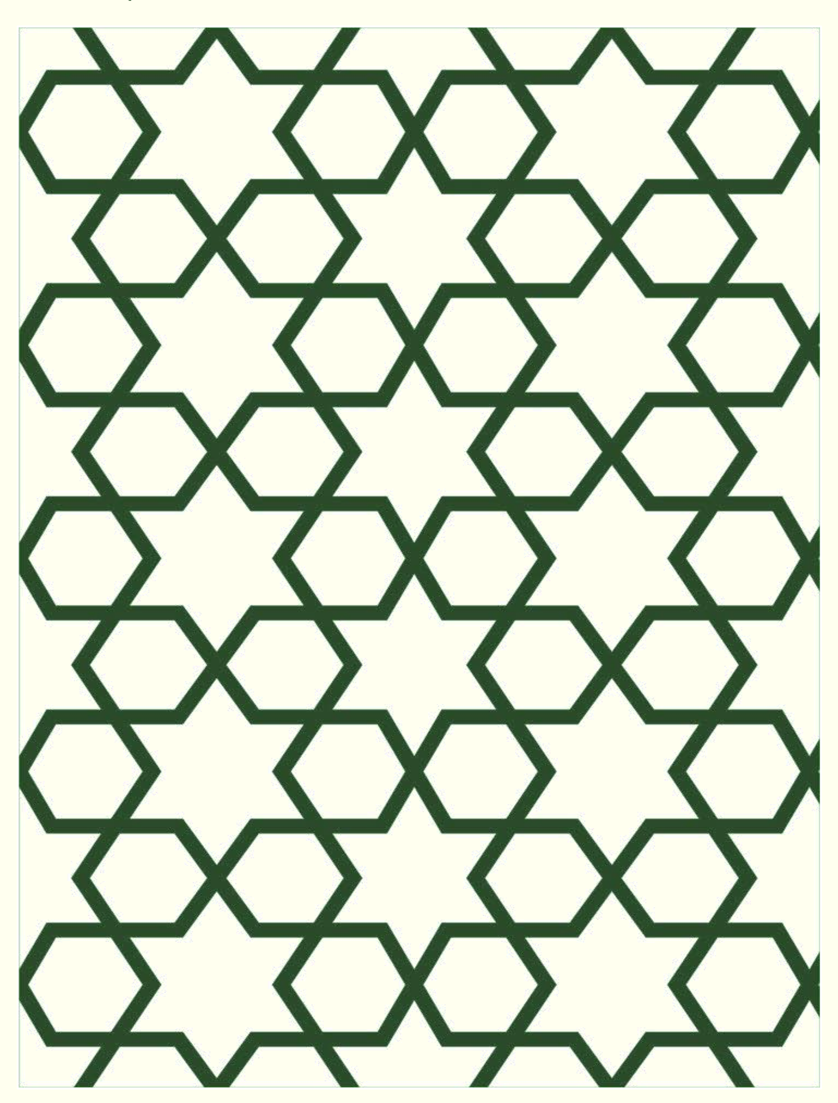
(١) أخرجه أحمد [٢٦٦٩]، والترمذي [٢٥١٦]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٢٥٥٦]، والحاكم [٦٣٠٣]، وقال: "هذا حديث كبير عال من حديث عبد الملك بن عمير، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا". وأخرجه أيضًا: الضياء [١٣].

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٦٦٧).

المبحث السابع:

الإحسان
وصنائع المعروف
وأعمال البر

الإرشاد إلى أسباب النجاة



أولًا: الإحسان من المنجيات من سوء العاقبة:

إن من أعظم المنجيات من سوء العاقبة: الإحسان إلى النفس وإلى الخلق، والإحسان في العبادة.

وقد أوصى الله عَزَّوَجَلَّ عباده بالإحسان فقال جَلَّوَعَلَا: فقال: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ [النحل: ٩٠].

قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: هذه أجمع آية في القرآن لخير يمتثل، ولشر يجتنب (١).

وعن قتادة رَحِمَهُٱللَّهُ: ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله عَزَّوَجَلَّ به في هذه الآية، وليس من خلق كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه وقدح فيه، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها (٢).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) [٦٠٠٢]، وابن جرير الطبري في (التفسير) (١٧/٢٨٠)، والطبراني في (الكبير) [٨٦٥٨]، والحاكم [٣٣٥٨]، وقال: "على شرط الشيخين" ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في [٢١٧٣]. وانظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٣/١٩٧)، تفسير القرطبي (١٠/١٦٥)، فضائل القرآن، لأبي العباس المستغفري (٢/٧٦٢)، أحكام القرآن، لابن العربي (٣/١٥٥)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٩/٢٥٨).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٧/٢٨٠-٢٨١)، بحر العلوم (٢/٢٨٨)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٣/٧٩)، تفسير ابن كثير (٤/٥٩٦)، الدر المنثور (٥/١٦٠)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/٤٠٧٣)، أحكام القرآن، لابن العربي (٣/١٥٥).

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد قالت العلماء: إن أجمع آية للبر، والفضل، ومكارم الأخلاق: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل:٩٠]"(١).

وقال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء، وهدى ورحمة للعالمين"(٢).

وقال: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة:١٩٥]، وقال: ﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ [القصص:٧٧]، أي: أطع الله عَزَّوَجَلَّ واعبده كما أنعم عليك. وأوَّل المخلوقات التي يجب أن تحسنَ إليها: نفسك، فأقبلْ عليها وأدبها، وسِرْ بها في طريق الخير والهدى، وجنبْها المعاصي والردى، فعندما تحمل نفسك على تطبيق شرائع الإسلام، وعندما ترسخ في النفس قواعد الإيمان، عندها ترقى إلى درجة الإحسان. هذه المنزلة التي تصل إليها بإتقانك للعبادات، واستحضارك عظمةَ الله عَزَّوَجَلَّ، وخوفَك منه؛ لأنك على يقين أن الله عَزَّوَجَلَّ عليك رقيب. فإذا أنعم الله عَزَّوَجَلَّ عليك بذلك، فينبغي أن ينعكسَ على أخلاقك ومعاملاتك مع الآخرين، أن تقابلَ الإحسان بالإحسان، ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن:٦٠]، بل أن تقابل الإساءة بالإحسان.

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢٤/٣٣٤).

(٢) تفسير البيضاوي (٣/٢٣٨).

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ مقابلةَ الإساءة بالإحسان، وحُسْنَ الخُلق سببًا يكون به العدوُّ صديقًا، وتتمكَّنُ فيه صداقةُ الصديق، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت:٣٤]. إن كل إساءة تقابل بالإحسان سوف يكون له من الأثر الطيب ما يمحو أثرها، ويعالج ما أحدثته من صدع وجفاء. يعني: أنك إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إلى مصافاتك ومحبتك. ومقابلة السيئة بالحسنة مرتبة عظيمة لا يرتقي إليها من عباد الله – عز وجل – إلَّا من امتلك زمام نفسه.

ومن أخلاق النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه: «**لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح**» (١).

وحسن الخلق ولين الجانب من المنجيات من العذاب في الآخرة، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ألا أخبركُم بمن يَحْرُمُ على النَّار، أو بمن تَحْرُمُ عليه النَّار، على كلِّ قريبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ**» (٢).

---

(١) صحيح البخاري [٤٨٣٨].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٤٠٩]، وأحمد [٣٩٣٨]، والترمذي [٢٤٨٨]، وقال: "حسن غريب". كما أخرجه أبو يعلى [٥٠٥٣]، وابن حبان [٤٦٩]، والطبراني في (الكبير) [١٠٥٦٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٠٧٣٨]، والبغوي في (شرح السنة) [٣٥٠٥].

والمعنى: تَحْرُمُ على كُلِّ سَهْلٍ طَلْقٍ حليمٍ لَيِّنِ الجانب، قريب من النَّاس بمجالستهم في محافل الطاعة[1]، وحسن ملاطفته لهم. سهل الخلق، أي: في قضاء حوائج الناس، وتسهيل أمورهم، سمح في تعامله.

ومن الخير العظيم لطالب التوفيق والعافية: أن يمتثل ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به عباده من الإحسان إلى النفس والخلق.

والإحسان له جوانب متعددة، فهو إحسان الإنسان إلى نفسه، وذلك بحملها على ما فيه الخير والصلاح والفلاح لها في الحال والمآل، كما تشمل الإحسان للوالدين، والأقربين، والزوجة، والأولاد، وكذلك الإحسان إلى الناس جميعًا، بتقديم العون والنصح، وحسن المعاملة، والمساهمة في أعمال الخير، كما لا يقف مفهوم الإحسان في الإسلام على إحسان المرء لنفسه، وللآخرين من أبناء جنسه، ولكنه يعم كذلك الإحسان إلى الحيوان والعناية بالنبات -كما سيأتي-. والإحسان كما يكون إلى النفس، وإلى الخلق، يكون كذلك في العبادة، وهاك بيان جهات الإحسان وصوره:

---

(١) انظر: مرقاة المفاتيح (٣١٧٩/٨).

ثانيًا: إجمال بيان مراتب الإحسان وذكر صوره:

١ - الإحسان في العبادة:

الإحسان في العبادة هو الإخلاص والإتقان، أي: أن تخلص لله عَزَّوَجَلَّ في العبادة مع تمام الإتقان، كأنك تراه وقت عبادتك، فإن لم تقدر على ذلك فلا أقلَّ من أن تتذكر أن اللهَ عَزَّوَجَلَّ يشاهدُك، ويرى منك كل صغير وكبير. وهذا معنى قول النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**» (١).

والإحسان في العبادة على مرتبتين:

وإن الإحسان في العبادة على مرتبتين -كما في الحديث-:

الأولى: أن تعبد الله عَزَّوَجَلَّ كأنك تنظر إليه من شدة اليقين والإيمان.

والمرتبة الثانية: وهي أقل منها، أن تعبد الله عَزَّوَجَلَّ وأنت تعلم أنه يراك ويطلع عليك، فلا تعصيه ولا تخالف أمره عَزَّوَجَلَّ. وهذه مرتبة الإحسان، وهي أعلى مراتب الدين، وقبلها مرتبة الإيمان، وقبلها مرتبة الإسلام.

والله عَزَّوَجَلَّ يحبُّ المحسنين، كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة:١٩٥].

---

(١) صحيح البخاري [٥٠، ٤٧٧٧]، مسلم [٨، ٩، ١٠].

٢ - الإحسان إلى النفس:

والإحسان إلى النفس يكون بحملها على الطريق الصحيح، فينبغي على من أراد النجاة والعافية في دنياه وأخراه: أن يصون نفسه عن المحرمات، وأن يصون جسده عما يُلحِق الضر به، كإهمالِ معالجة الأمراض، والتعرض لمسبباتها، من نحو: إهمال النظافة والطهارة.

٣ - الإحسان إلى الوالدين والأقربين والزوجة والأولاد والجار:

ومنها: إحسانك للوالدين والأقربين والزوجة والأولاد والجار..، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾ [النساء:٣٦].

٤ - الإحسان إلى الناس جميعًا:

ومنها: إحسانك للناس جميعًا: بأن تقدم لهم العون وتعاملهم بالرحمة قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**» (١).

---

(١) أخرجه الحميدي [٦٠٢]، وابن أبي شيبة [٢٥٣٥٥]، وأحمد [٦٤٩٤]، والبخاري في (التاريخ الكبير) (١٩٤/٧)، وأبو داود [٤٩٤١]، والترمذي [١٩٢٤]، قال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: الطبراني [١٤٣١٧]، والحاكم [٧٢٧٤]، وصححه، ووافقه الذهبي، كما أخرجه: البيهقي [١٧٩٠٥]، والديلمي [٣٣٢٨].

ومن مظاهر الإحسان إلى أفراد هذه الأمة: المساهمة في بناء المستشفيات، والجمعيات الخيرية، ومعاهد العلم التي ينتفع بها الفقراء. ومساعدة الفقراء في أوقات الأزمات ونزول البلاء والأوبئة، مساعدة كل مريض لا يملك ثمن العلاج، والمساهمة في إعانة كل محتاج، وفقير منقطع عن أهله ووطنه، ويتيم فَقَدَ حنان وإعانة أبيه وأمه.

*ولقد تأثر السلف بمفهوم الإحسان فكان الخلفاء والأمراء يخرجون في الليالي المظلمات؛ ليحسنوا إلى من يحتاج إلى الإحسان كما ورد عن أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين حمل الطعام بنفسه ووضعه أمام بيت من الفقراء فيه امرأة مع صبية جياع، فأشبعهم بعد جوع.

ولنا في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ مواقف مع المرسلين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في رياض الإحسان.

فحين دخل إخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ عليه، وهم في حالة من الضر والمجاعة: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ وَتَصَدَّقۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجۡزِي ٱلۡمُتَصَدِّقِينَ ٨٨﴾ ما قالوا ذلك إلا بعد أن غمرهم بإحسانه من قبل، إنه الإحسان لمن أساء إليه، ورماه في البئر صبيًا، ومع هذا لم يتناسى الإحسان في ساعة الإحسان، لكنه أحب أن يعلمهم أنهم في رحاب أخيهم فسألهم عن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وما فعلوا به.. ﴿قَالَ هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ ٨٩﴾.. لقد أعطاهم درسًا في الإحسان: ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾. إنه الإحسان يتجلى لنا بقدسيته حين عفا عنهم وهو قادر على معاقبتهم ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾.

نِعْمَ النهجُ سلوك سياسة الإحسان، يحدثنا عن تاريخ الفتوح الإسلامية عما كان يجده المسلمون من المعونات التي كان يتقدم بها إليهم طوعًا كثير من أصحاب الملل الأخرى لقاء ما يصيبون من إحسان المسلمين إليهم، ولنشرهم العدل والمحبة والتسامح والأخلاق الفاضلة.

ونلاحظ أن هناك عبارات جرت على الألسنة مجرى الأمثال، وهي لو أخذت على علاتها لأورثت النفس زهدًا في الإحسان، وشكًا في نتائجه، يقولون: (اتق شر من أحسنت إليه).

وأكثر من ذلك قولهم: (خيرًا تعمل شــرًّا تلقى).

والإحسان إنما تسوء نتائجه عندما تتخطى به مواضعه؛ إذ ليس كل إنسان يثمر عنده المعروف، وإن الكريم يقتله الإحسان ويسترقه، فهو أسير الإحسان، فالإنعام والبرُّ واللطفُ معانٍ تسترقُّ مشاعرَه، وتستولي على أحساسيه.

قال أبو الفتح علي بن محمد البستي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

أحسن إِلَى النَّاس تستعبد قُلُوبهم فطالما استعبد الْإِنْسَان إِحْسَان [1]

والوغد اللئيم يبطره الإحسان ويطغيه، كما قال المتنبي:

إذا أنتَ أَكْرَمْتَ الكريمَ مَلَكْتَهُ وإن أنتَ أكرمتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا [2]

---

(١) قصيدة عنوان الحكم، علي بن محمد البُستي [٧] (ص:٣٦).

(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي (ص:٣٦١).

فإذا أنت أكرمت الكريم ارتهنت شكره، واستوجبت ملكه؛ لأنه يعترف بفضلك، ولا يدفع وجوب حقك. وإذا أنت أكرمت اللئيم زاد إكرامك له في تمرده، وأطغاه ما تحاوله مِن تألفه.

ووضعُ الندى في موضع السيف بالعلى
مضرٌ كوضع السيف في موضع الندى

ثم أكد ذلك، فقال: ووضع العفو في موضع العقوبة، والندى في موضع السيف، مخل بالسيادة، ومضر بالرئاسة؛ كما يخل بذلك وضع العقوبة في موضع العفو، ووضع الكرم في موضع السيف، وإنما الصواب في وضع الأشياء مواضعها، وحملها على حقيقة مقاصدها؛ لتحل الصنائع في محلها، وتوضع النعم عند أهلها، ويعدل بها، عمن لا يقوم بشكرها (١).

ثم قال:

وقيَّدتُ نفسي في ذراكَ محبَّةً ومن وَجَدَ الإحسانَ قيدًا تقيَّدا (٢)

ثم قال: وقيدت نفسي في ذراك وأرضك، وقصرتها على إحسانك وفضلك، ومن وجد الإحسان قيدًا تقيد به، وألزم نفسه إياه، ولم يختر لها مقصودًا سواه (٣).

وللإحسان ثمرات عظيمة تتجلى في المحبة والتآلف، وتماسك بنيان المجتمع وحمايته من الخراب والتَّهلكة، ووقايته من الآفات.

---

(١) انظر: شرح شعر المتنبي، لأبي القاسم ابن الإفلِيلي (٢/٢٠١).
(٢) ديوان أبي الطيب المتنبي (ص:٣٦٢).
(٣) شرح شعر المتنبي (٢/٢٠٦).

ثالثًا: تفصيل ما جاء في بعض صور الإحسان العالية:

١ – الإيثار:

إنَّ من أعظم وأسمى معاني الإحسان: الإيثار، وهو يحقق مفهوم الجسد الواحد، من التآلف والتَّعاون والتَّعاضد، والإيثارُ محبَّة صادقة، وخُلُقٌ منبثق من العقيدة.

ومن الآيات الدالة الإيثار قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]. فبين الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أن هذا الإيثار ليس عن غنى عن المال، ولكنه عن حاجة وخصاصة، فالإيثار: **(هو تقديم حاجة الغير على حاجة النفس، سخاءً وتفضلًا)**.. وهذا لا يكون إلَّا من نفوس مهيأة للتضحية.

و(الإيثار): ضد الأثرة، وهي: حب النفس حبًّا يعميها عن كل شيء، فلا يرى المرء إلَّا ذاته، ولا يعمل إلَّا من خلال هذه الذات، وما يحقق لها من نفع ذاتي لا يشاركها فيه أحد.. و(الخصاصة): الحاجة، والفقر الذي يعجز الإنسان عن إدراك الضروري من مطالب الحياة.. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ الآية [البقرة:١٧٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان:٨- ٩].

وآثار السلف في بذل المحبوبات في سبيل الله كثيرة، فمن ذلك: ما جاء في (الصحيحين): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلَّا الماء، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يضم أو يضيف هذا؟**»، فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالت: ما عندنا إلَّا قوت صبياني، فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**ضحك الله الليلة، أو عجب، من فعالكما**(١)» فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر:٩](٢).

وفي الحديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بينما نحن في سفر مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ جاء رجل على راحلة له، قال: فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالًا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كان معه فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهر له،**

---

(١) في (صحيح مسلم) [٢٠٥٤]: "صنيعكما".

(٢) صحيح البخاري [٣٧٩٨، ٤٨٨٩]، مسلم [٢٠٥٤]. قوله: (رجل) هو أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. «أصبحي»: أوقدي. «يريانه»، أي: يتظاهران بذلك. قوله: «طاويين»، حال تثنية طاو، وهو الجائع الذي يطوي ليله بالجوع. «يؤثرون»: يختارون ويفضلون. ﴿خَصَاصَةٌ﴾: حاجة. ﴿يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾: يخالف هواها ويغلبها على ما أمرته بتوفيق الله عَزَّ وَجَلَّ وعونه من (الوقاية)، وهي الحفظ من الشح البخل والحرص.

ومن كان له فضل من زاد، فليعد به على من لا زاد له»، قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل[1].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان:٨- ٩].

فهذا التعبير يدل على الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ في العمل؛ ابتغاء مرضاته وحده، وعدم الرياء فيه.

فلا يوجد دينٌ يحثُّ أبناءَه على التَّحَابُب والمودة والإيثار كدين الإسلام.

والنماذج الدَّالة على الإيثار من النصوص ومن حياة السلف كثيرة.

ولو طبق الناس ما جاء في الآيات والأحاديث من معاني الإيثار لم يبق محتاجٌ.

٢ - الإحسان إلى الوالدين:

إنَّ الوالدين هما أحقُّ النَّاس بحسن الصحبة، وجميل البرِّ والإحسان؛ لعظيم فضلهما، وشدة عنايتهما، وحرصهما على صحة وراحة وسعادة الأولاد في جميع المراحل.

وإنَّ محبة الوالدين، والإحسان إليهما فريضةٌ مقدسة، وواجبٌ إنساني، وأدبٌ اجتماعي، تقتضيه الفطرة، وهي أسمى معاني البرِّ والوفاء، ومن مقابلة الإحسان بالإحسان، وإن كان إحسان الوالدين أعظم وأسمى، لا يبلغ ذراه الأولاد، فإن أحسنوا

---

(١) صحيح مسلم [١٧٢٨].

إلى الوالدين فهو الإحسان ومقابلة المعروف بما يدخل في وسع الأولاد من ردِّ جميلهما البالغ في الإحسان كلَّ مبلغ.

وقد اهتمَّ الإسلامُ بالوالدين اهتمامًا بالغًا، وجعل طاعتهما والبر بهما من أفضل القربات. ونهى عن عقوقهما، وشدَّد في ذلك غاية التشديد.

وقد جعلَ الشارع برَّ الوالدين من أعظم الأعمال وأحبها إليه، فقد سئل النبي ﷺ: أي العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: «**الصلاة على وقتها**»، قيل: ثم أي؟ قال: «**ثم بر الوالدين**»، قيل: ثم أي؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» [1].

وقدم في الحديث: برَّ الوالدين على الجهاد؛ إشارةً إلى أن حقوق العباد اللَّازمة (التي هي من فروض الأعيان) تقدم على التطوع بالجهاد [2]، يعني: من باب تقديم فرض العين على فرض الكفاية. ويدل عليه حديث: عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فاستأذنه في الجهاد، فقال: «**أحيٌّ والداك؟**»، قال: نعم، قال: «**ففيهما فجاهد**» [3].

قال البغوي رحمه الله في (شرح السنة): "هذا في جهاد التطوع لا يخرج إلَّا بإذن الأبوين إذا كانا مسلمين. فإن كان الجهاد فرضًا متعينًا، فلا حاجة إلى إذنهما، وإن منعاه عصاهما وخرج.

---

(١) صحيح البخاري [٥٢٧، ٥٩٧٠]، مسلم [٨٥]: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب (٤/٢١٦).

(٣) صحيح البخاري [٣٠٠٤، ٥٩٧٢]، مسلم [٢٥٤٩].

وإن كان الأبوان كافرين، فيخرج دون إذنهما، فرضًا كان الجهاد أو تطوعًا، وكذلك لا يخرج إلى شيء من التطوعات كالحج والعمرة والزيارة، ولا يصوم التطوع إذا كره الوالدان المسلمان أو أحدهما إلا بإذنهما، وما كان فرضًا فلا يحتاج فيه إلى إذنهما، وكذلك لا يخرج إلى جهاد التطوع إلا بإذن الغرماء إذا كان لهم عليه دين عاجل، كما لا يخرج إلى الحج إلا بإذنهم، فإن تعين عليه فرض الجهاد لم يُعَرّجْ على الإذن"[1].

وبرُّ الوالدين واجب على كل مسلم ومسلمة. ويطلق البر على الإحسان بالقول اللين اللطيف الدال على الرفق والمحبة، وتجنب غليظ القول الموجب للنفرة، واقتران ذلك بالشفقة والعطف والتودد والإحسان بالمال وغيره من الأفعال الصالحات [2].

ويكون بر الوالدين بالإحسان إليهما بالقول اللين الدال على الرفق بهما والمحبة لهما -كما تقدم-، وبمناداتهما بأحب الألفاظ إليهما، كيا أمي ويا أبي، وليقل لهما ما ينفعهما في أمر دينهما ودنياهما، ويعلمهما ما يحتاجان إليه من أمور دينهما، وليعاشرهما بالمعروف. أي: بكل ما عرف من الشرع جوازه، فيطيعهما في فعل جميع ما يأمرانه به، من واجب أو مندوب، وفي ترك ما لا ضرر عليه في تركه، ولا يحاذيهما

---

(١) انظر: شرح السنة، للبغوي (١٠/٣٧٨). "ولو منعه أبواه الكافران عن الخروج للجهاد الكفائي، مخافة عليه، ومشقة لهما بخروجه وتركهما، فعند الحنفية: لهما ذلك، ولا يخرج إلا بإذنهما برًا بهما وطاعة لهما، إلا إذا كان منعهما له لكراهة قتال أهل دينهما، فإنه لا يطيعهما ويخرج له" حاشية ابن عابدين (٣/٢٢٠).

(٢) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي (٢/١٠٦)، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (٢/٢٩٠).

في المشي، فضلًا عن التقدم عليهما، إلَّا لضرورة نحو ظلام، وإذا دخل عليهما لا يجلس إلَّا بإذنهما، وإذا قعد لا يقوم إلَّا بإذنهما، ولا يستقبح منهما نحو البول عند كبرهما أو مرضهما؛ لما في ذلك من أذيتهما.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وبر الوالدين فرض لازم، وهو أمر يسير على من يسره الله له. وبرهما: خفض الجناح، ولين الكلام، وألا ينظر إليهما إلا بعين المحبة والإجلال، ولا يعلو عليهما في مقال، إلا أن يريد إسماعهما، ويبسط أيديهما في نعمته، ولا يستأثر عليهما في مطعمه ولا مشربه.

ولا يتقدم أحد أباه إذا مشى معه، ولا يتقدمه في القول في مجلسه، فيما يعلم أنه أولى به منه.

ويتوقى سخطهما بجهده، ويسعى في مسرتهما بمبلغ طاقته.

وإدخال الفرح عليهما من أفضل أعمال البر. وعليه أن يسرع إجابتهما إذا دعواه، أو أحدهما، فإن كان في الصلاة النافلة خففها وتجاوز فيها، وأسرع إجابتهما. ولا يقل لهما إلَّا قولًا كريمًا"[١].

والبرُّ بالوالدين فرضُ عينٍ -كما سبق بيانه-، ولا يختصُّ بكونهما مسلمين، بل حتى لو كانا فاسقين أو كافرين يجبُ برُّهما والإحسان إليهما -ولو كانا مُشْرِكَيْن- ما لم يأمرا بشرك أو ارتكاب معصية فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ﴾ [العنكبوت:٨]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِن

(١) الكافي في فقه أهل المدينة (٢/١١٣٧-١١٣٨).

جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لقمان:١٥].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٨﴾ [الممتحنة:٨].

وفي (الصحيح): عن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا، قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدوا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ومدتهم مع أبيها، فاستفتت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمت علي وهي راغبة [(١)] أفأصلها؟ قال: «**نعم صليها**» [(٢)].

هذا وفي الدعاء بالرحمة الدنيوية للوالدين غير المسلمين حال حياتهما خلاف. ذكره القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ.

أما الاستغفار لهما فممنوع؛ استنادًا إلى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾ [التوبة:١١٣]؛ فإنها نزلت في استغفاره صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لعمه أبي طالب، واستغفار بعض الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ لأبويه المشركين. وانعقد الإجماع على عدم الاستغفار لهما بعد

---

(١) «وهي راغبة» جملة حالية: أي: راغبة عن الإسلام وكارهة له. وقيل معناه: طامعة فيما أعطيها من الإحسان وحريصة عليه.

(٢) صحيح البخاري [٣١٨٣، ٥٩٧٩].

وفاتهما وحرمته، وعلى عدم التصدق على روحهما. أما الاستغفار للأبوين الكافرين حال الحياة فمختلف فيه؛ إذ قد يسلمان [1]، وسيأتي تفصيل ذلك في الاستغفار.

وأما الإحسان إلى الوالدين المسلمين بعد وفاتهما فيكون بصدق الدعاء لهما، وأداء الصدقة عنهما [2]، وحفظ وصيتهما، وإنفاذ عهودهما، والإحسان إلى من كان من أهل ودهما ومعارفهما، ونحو ذلك.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي (٢٤٥/١٠)، الفواكه الدواني (٣٨٤/٢)، الشرح الصغير وحاشية الصاوي عليه (٧٤١/٤)، شرح إحياء علوم الدين (٣١٦/٦).

(٢) وفي الحديث: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رجلًا قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن أمي افْتُلِتَتْ نفسها، وأظنها لو تكلمت تصدقت، فهل لها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: «نعم». صحيح البخاري [١٣٨٨]، مسلم [١٠٠٤]، وعن ابن عباس: أن رجلًا قال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن أمه توفيت أينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: «نعم»، قال: فإن لي مخرافًا وأشهدك أني قد تصدقت به عنها. صحيح البخاري [٢٧٧٠]. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: (افتلتت نفسها): "ضبطناه: نفسها ونفسها بنصب السين ورفعها فالرفع على أنه مفعول ما لم يسم فاعله، والنصب على أنه مفعول ثان. قال القاضي: أكثر روايتنا فيه النصب. وقوله: (افتلتت) بالفاء هذا هو الصواب الذي رواه أهل الحديث وغيرهم. قالوا: ومعناه: ماتت فجأة. وكل شيء فعل بلا تمكث فقد افتلت ويقال افتلت الكلام واقترحه واقتضبه إذا ارتجله. (وأظنها لو تكلمت) أي: لو قدرت على الكلام". انظر: شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٨٩/٧)، وانظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (٢٧٨/٣)، حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١٦٠/٢). و"(المخراف): بكسر الميم وسكون الخاء المعجمة، وفي آخره فاء، وهو اسم للحائط؛ فلذلك انتصب على أنه عطف بيان، ووقع في رواية عبد الرزاق: (مخرف) بدون ألف. قال القزاز: (المخراف): جماعة النخل، بفتح الميم وبكسرها: الزنبيل الذي يخترف فيه الثمار. وقال ابن الأثير: (المخرف) بالفتح يقع على النخل، وعلى الرطب. وقال الخطابي: (المخراف): الثمرة سميت مخرافًا؛ لما يجتني من ثمارها، كما يقال: امرأة مذكار. قال: وقد يستوي هذا في نعت الذكور والإناث،=

"ويقال: إنَّ الحقَّ أمر العباد بمراعاة حقِّ الوالدين، وهما من جنس العبد.. فمن عجز عن القيام بحقِّ جنسه أنَّى له أن يقوم بحقِّ ربه؟"(١).

ومن برهما: صلة أهل ودهما، ففي (الصحيح): «**إن أَبَرَّ الْبِرِّ: صلةُ الولد أهل ود أبيه**» (٢).

فإن غاب أو مات يحفظ أهل وده ويحسن إليهم، فإنه من تمام الإحسان إليه.

وقد سلك القرآن الكريم مسلكًا عاطفيًّا للإقناع بضرورة الإحسان إلى الوالدين، فصوَّرَ ما تعانيه الأم في حملها وفي ولادتها وفي إرضاعها، وصوَّرَ للمؤمن مرَّة أخرى منظرها وقد شاب رأسها وانحنى ظهرها، وخص هذه الحالة -أعني: حالة الكبر والشيخوخة- بالذكر؛ لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بره أكثر من ذي قبل؛ لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر. فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل؛ لأنه قد يظنُّ أنَّهما صارا كلًّا عليه، فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يليا منه؛ فلذلك خص هذه الحالة بالذكر. وأيضًا: فطول المكث للمرء يوجب الاستثقال عادة، ويحصل الملل، ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه.

=ويقال: (المخراف): الشجرة وهو الصواب، وتكلموا فيه كثيرًا. والحاصل أن (المخراف) هنا: اسم حائط سعد ابن عبادة كما ذكرنا" عمدة القاري، للإمام العيني (٥٢/١٤).

(١) انظر: لطائف الإشارات (٣٤٤/٢).

(٢) صحيح مسلم [٢٥٥٢].

وأكَّد القرآن الكريم على ضرورة الإحسان إلى الوالدين تأكيدًا لا تجد نظيرًا له في الديانات الأخرى، فقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بعبادته وتوحيده وجعل برَّ الوالدين مقرونًا بذلك، كما قرن شكره بشكرهما. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤]. ومع ما ذكرتُ من ذلك المسلك العاطفي من حيث ضرورة الإحسان والطاعة، إلَّا أنه بين حدود تلك الطاعة، فليست تلك الطاعة مطلقة، فطاعة الوالدين لا تراعى في ركوب كبيرة، ولا في ترك فريضة، وتلزم طاعتهما في المباحات، وتستحسن في ترك الطاعات المندوبة (١). قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ﴾ [لقمان:١٥].

وقد اعتبر القرآن عقوق الوالدين، والخروج عن طاعتهما ومرضاتهما: معصية وتكبرًا وشقاء، حيث قال جَلَّوَعَلَا عن يحيى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤﴾ [مريم:١٤]، وقال عن عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢﴾ [مريم:٣٢]. فعقوق الوالدين من أعظم الذنوب التي يعجل الله عَزَّوَجَلَّ عقوبتها في الدنيا قبل الآخرة، فهو نكران للجميل، وكفران بالنعمة، ومقابلةٌ للإحسان بالإساءة، قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**بابان معجلان عقوبتهما في الدنيا: البغي، والعقوق**» (٢).

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٤/٣٤٩)، تفسير القرطبي (١٤/٦٤)، الجواهر الحسان (٤/٣٢١).

(٢) أخرجه الحاكم [٧٣٥٠]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البخاري في (الأدب المفرد) [٨٩٥] بلفظ: «وبابان يعجلان في الدنيا: البغي وقطيعة الرحم».

والحاصل أن محبة الوالدين وما تقتضيه من الوفاء لهما -ولا سيما في حال الشيخوخة والكبر- من أعظم أنواع البر والإحسان، وهي من أوجب الحقوق، وأقدس الواجبات.. ومما يؤسف ما يحصل من عقوق الأولاد، أو من تفضيلٍ للزوجة على الأم في العطاء والبرِّ والمحبة، فمن ذلك: تقديم كلام زوجته على كلام أمه، وكذلك من يشتري لزوجته -مثلًا- ما لا يشتري لأمه، وإن اشترى لأمه اختار الأردأ وما قيمته أقل مما اشتراه لأمه، وذلك من الجحود ونكران الإحسان.

وهاك إجمال مقتضيات الإحسان إلى الوالدين في حياتهما:

أ. طاعتهما في غير معصية.

ب. الإحسان إليهما في جميع الأحوال.

ج. التواضع لهما، ولين الكلام، والتزام الأدب معهما.

د. النفقة عليهما.

هـ. استئذانهما في الجهاد الكفائي، وفي السفر وغيره.

و. إرضاؤهما بالإحسان إلى من يحبان.

ز. إبرار قسمهما.

ح. عدم شتمهما أو التسبب في ذلك.

أما إجمال مقتضيات الإحسان إلى الوالدين بعد موتهما فهي على النحو التالي:

أ. الصلاة عليهما.

ب. الاستغفار لهما.

ج. إنفاذ عهدهما.

د. صلة أرحامهما وأهل ودهما.

هـ. الصدقة عنهما.

٣ - الإحسان إلى الأرحام:

يهدف الإسلام إلى بناء مجتمعٍ إسلاميٍّ متراحم متعاطف، تسودُه المحبَّةُ والإخاء، ويهيمن عليه حبُّ الخير والعطاء، وقد أوجبَ الشارعُ: برَّ الأرحام، وهو بمعنى: صلتهم والإحسان إليهم، وتفقد أحوالهم، والقيام على حاجاتهم ومواساتهم. والمحبة أعظم أنواع البر، وهي تقتضي ما تقدم من أوجه الإحسان، وما سيأتي بيانه.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ الآية [البقرة:١٧٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء:١]، أي: واتقوا إضاعة حق الأرحام، فصلوها بالبر والإحسان، ولا تقطعوها. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ﴾ [النساء:٣٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل:٩٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء:٢٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور:٢٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الروم:٣٨].

وفي الحديث: «**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم؛ فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر**»(١).

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله خلق الخلق، حتى إذا فرغ من خلقه، قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فهو لك**»، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فاقرؤوا إن شئتم**: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد:٢٢]»(٢).

---

(١) الحديث مروي عن أبي هريرة، وعن العلاء بن خارجة. حديث أبي هريرة: أخرجه أحمد [٨٨٦٨]، والترمذي [١٩٧٩]، وقال: "غريب". وأخرجه أيضًا: الحاكم [٧٢٨٤]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. حديث العلاء بن خارجة: أخرجه الطبراني [١٧٦]. قال الهيثمي (١٥٢/٨): "رجاله قد وثقوا". و«مَثْرَاة في المال»: بفتح الميم وسكون المثلثة. وفي (النهاية): مَثْرَاة: -مَفْعَلَةٌ- من الثَّراء، وهو الكثرة، أي: سبب لكثرة المال، وهو خبر ثان. «مَنْسَأَةٌ» -بفتح الهمزة- مَفْعَلَةٌ من النَّسَاء، وهو التأخير. «في الأثر»: -بفتحتين- أي: الأجل، والمعنى: أي: سبب لتأخير الأجل وموجب لزيادة العمر، وقيل: باعث دوام واستمرار في النسل، والمعنى: أن يمن الصلة يفضي إلى ذلك. وسمى الأجل أثرًا؛ لأنه يتبع العمر. قال أبو بكر ابن العربي في (العارضة): أما (المحبة) فالإحسان إليهم، وأما (النسأ في الأثر) فبتمادي الثناء عليه وطيب الذكر. انظر: عارضة الأحوذي، لابن العربي (١١١/٨)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٣٠٩٢/٧)، فيض القدير (٢٥٢/٣)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (ثرا) (٢١٠/١).

(٢) صحيح البخاري [٥٩٨٧]، مسلم [٢٥٥٤].

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه**» (١).

فهذه ثلاث فوائد لصلة الرحم:

١- المحبة بين الأهل.

٢- الزيادة في المال.

٣- التأخير في الأجل.

وعن أبي أيوب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رجلًا قال: أخبرني عن عمل يدخلني الجنة؟ فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصل الرحم**» (٢). فصلة الرحم هنا جاءت مع الصلاة والزكاة؛ لبيان أهميتها.

وقطيعة الأرحام من موانع محبة الله عَزَّ وَجَلَّ للعبد، ومن أسباب العقاب في الآخرة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة:٢٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد:٢٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد:٢٢-٢٣].

---

(١) صحيح البخاري [٢٠٦٧، ٥٩٨٥، ٥٩٨٦]، مسلم [٢٥٥٧]. و(بسط الرزق): توسيعه وكثرته، وقيل: البركة فيه. و«ينسأ»: يؤخر. و«أثره»: بقية عمره.

(٢) صحيح البخاري [٥٩٨٣]، مسلم [١٣].

وفي الحديث: عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن رجل من خثعم قال: أتيت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو في نفر من أصحابه قال: قلت: أنت الذي تزعم أنك رسول الله؟ قال: «**نعم**»، قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «**إيمان بالله**»، قال: قلت: يا رسول الله، ثم مه؟ قال: «**ثم صلة الرحم**»، قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أبغض إلى الله؟ قال: «**الإشراك بالله**»، قال: قلت: يا رسول الله، ثم مه؟ قال: «**ثم قطيعة الرحم**».. الحديث [1]. فقد جاءت قطيعة الرحم هنا مع الأعمال التي يبغضها الله عَزَّوَجَلَّ، وبعد الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لبيان خطرها، وعظيم أثرها.

وفي الحديث: «**لا يدخل الجنة قاطع**» [2]، أي: قاطع رحم. والمراد به هنا: من استحلَّ القطيعة، أو أيَّ قاطع. والمراد: لا يدخلها قبل أن يحاسب ويعاقب على قطيعته.

فهذه النصوص تدل على أن صلةَ الأرحام وبرَّها واجب، وقطيعتها محرمة في الجملة، إلا أنها درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها: ترك الهجر، والصلة بالكلام والسلام.

(١) أخرجه أبو يعلى في (مسنده) [٦٨٣٩]، قال الهيثمي (١٥١/٨): "رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، غير نافع بن خالد الطاحي، وهو ثقة".

(٢) صحيح البخاري [٥٩٨٤]، مسلم [٢٥٥٦].

"واختلفوا في الرحم، فقيل: كلُّ ذي رحم محرم. وقيل: كلُّ وارث. وقيل: هو القريب، سواء كان محرمًا أو غيره، ووصل الرحم: تشريك ذوي القربى في الخيرات، وهو قد يكون بالمال، وبالخدمة، وبالزيارة ونحوها"(١).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة. والأحاديث في الباب تشهد لهذا، ولكن الصلة درجات بعضها أرفع من بعض، وأدناها: ترك المهاجرة، وصلتها بالكلام -ولو بالسلام-.

ويختلف ذلك باختلاف القدرة والحاجة، فمنها: واجب، ومنها: مستحب. ولو وصل بعض الصلة ولم يصل غايتها لا يسمى: قاطعًا. ولو قصر عما يقدر عليه وينبغي له لا يسمى: واصلًا. قال: واختلفوا في حد الرحم التي تجب صلتها [كما تقدم]، فقيل: هو كل رحم محرم بحيث لو كان أحدهما ذكرًا والآخر أنثى حرمت مناكحتهما، فعلى هذا لا يدخل: أولاد الأعمام، ولا أولاد الأخوال. واحتج هذا القائل: بتحريم الجمع بين المرأة وعمتها، أو خالتها في النكاح ونحوه، وجواز ذلك في بنات الأعمام والأخوال. وقيل: هو عام في كل رحم من ذوي الأرحام في الميراث، يستوي المحرم وغيره، ويدل عليه قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثم أدناك أدناك**» (٢). هذا كلام القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ"(٣).

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني (١١/ ١٨١).

(٢) صحيح مسلم [٢٥٤٨]. والحديث رواه: أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رجل: يا رسول الله من أحق الناس بحسن الصحبة؟ قال: «أمك، ثم أمك، ثم أمك، ثم أبوك، ثم أدناك أدناك».

(٣) إكمال المعلم، للقاضي عياض (٨/ ١٠)، شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١١٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا القول الثاني هو الصواب، ومما يدل عليه: الحديث في أهل مصر: «**فإن لهم ذمة ورحمًا**» (١)، وحديث: «**أَبَرُّ البِرِّ أن يَصِلَ الرَّجلُ أهل وُدِّ أبيه**» (٢) مع أنه لا محرمية، والله أعلم"(٣).

والحاصل أن صلة الرحم تقوي المودَّة، وتزيد المحبَّة، وتوثق عُرى القرابة، وتزيل العداوة والشّحناء. والصلة مصلحة للأحوال، فمن لم يك نافعًا لأهله وأقاربه فلن ينتفع به غيرهم من باب أولى.

وطرقها ميسرة، وأبوابها متعدِّدة، فمن بشاشةٍ عند اللقاء، ولين في المعاملة، إلى طيب في القول، وطلاقة في الوجه، ومشاركة في الأفراح، ومواساة في الأتراح، وإحسان إلى المحتاج، وبذل للمعروف، ونصح وصفح، وعيادة للمريض. والمعنى الجامع لذلك كلِّه: إيصال ما أمكن من الخير، ودفع ما أمكن من الشر؛ فإن صلة الرحم أمارةٌ على كرم النفس، وسعة الأفق، وطيب المنبت، وحسن الوفاء. كما أن قطيعة الرحم سببٌ

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٤٣]. والحديث رواه: أبو ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحمًا»، أو قال: «ذمة وصهرًا، فإذا رأيت رجلين يختصمان فيها في موضع لبنة، فاخرج منها». (القيراط): قال العلماء: القيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما، وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به. «ذمة»: الذمة هي: الحرمة والحق، وهي هنا بمعنى: الذمام. «ورحمًا»؛ لكون هاجر أم إسماعيل عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ منهم. «وصهرًا»؛ لكون مارية أم إبراهيم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ منهم.

(٢) صحيح مسلم [٢٥٥٢].

(٣) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٦/ ١١٣).

للذلة والصَّغار، والضَّعف والتفرُّق، ومجلبة للهمِّ والغمِّ، كما أنها سبب في سخط الله عَزَّوَجَلَّ.

ومحبَّة الأقارب والعشيرة والمتاع والنِّعم -وإن كان مغروزًا في النفوس- لكن لا ينبغي أن يقدَّم حبُّها على حبِّ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وشرعه والجهاد في سبيله.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾ [التوبة: ٢٤].

فمن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ في دين الفطرة أنه لم يذم حب الأهل والأقارب والأزواج، ولا حب المال والكسب والاتجار، ولم ينه عن ذلك؛ لأنها من المحبة الطبيعية، وإنما جعل من مقتضى الإيمان: إيثار حب الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على حب ما ذكر، وكذلك الجهاد في سبيله إذا وجب.

وقد ذكر أهلُ العلم أنَّ هناك آدابًا لصلة الرَّحم ينبغي أن يحرص عليها المسلم؛ حتى تتحقق (مقاصدُ الصلة) من: الأُلفة، والتعاضد، والمحبة، والتعاون على البر والتقوى، منها:

الإخلاص والنية الصالحة والاحتساب، والبدء بالأقرب، وأن يقدم في صلته: أتقاهم لله عَزَّوَجَلَّ، وأن لا تكون الصلة على وجه المكافأة، وإنما ابتغاء وجه الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يقتصر في صلته على من يبادلونه الصلة، فقد قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**ليس**

الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها» (١)، أي: إن الذي يصل غيره مكافأةً له على ما قدم من صلة، ومقابلةً له بمثل ما فعل ليس بواصل حقيقة؛ لأن صلته نوع معاوضة ومبادلة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا يلزم من نفي الوصل ثبوت القطع فهم ثلاث درجات؛ (مواصل ومكافئ وقاطع)؛ فالواصل: من يتفضل ولا يتفضل عليه، والمكافئ: الذي لا يزيد في الإعطاء على ما يأخذ، والقاطع: الذي يتفضل عليه ولا يتفضل. وكما تقع المكافأة بالصلة من الجانبين كذلك تقع بالمقاطعة من الجانبين، فمن بدأ حينئذ فهو الواصل، فإن جوزي سمي من جازاه: مكافئًا، والله أعلم"(٢). وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي، فقال: «**لئن كنت كما قلت، فكأنما تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك**» (٣). ففي الحديث: الحث على صلة ذي الرحم الذي هذه صفته، ومقابلة

---

(١) صحيح البخاري [٥٩٩١].

(٢) فتح الباري (١٠/٤٢٤).

(٣) صحيح مسلم [٢٥٥٨]. «وتسفهم»: -بضم التاء وكسر السين المهملة وتشديد الفاء-. و«المل»: -بفتح الميم وتشديد اللام- هو الرماد الحار، أي: كأنما تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المحسن إليهم، بل ينال أجر الصلة والتحمل للأذى، وبالمقابل ينالهم إثم عظيم بتقصيرهم في حقه، وإدخالهم الأذى عليه.

الإساءة بالإحسان، فعسى أن ينقلب حاله. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت:٣٤].

ومن أخلاق النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه: «**لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح**»(١)، فهو (يعفو)، أي: في الباطن (ويصفح)، أي: في الظاهر عن صاحب السيئة.

٤ - الإحسان إلى الحيوان:

لا يقف مفهوم الإحسان في الإسلام عند إحسان المرء لنفسه ولغيره من أبناء جنسه، ولكنه يشمل المخلوقات بما في ذلك: الإحسان إلى الحيوان، والعناية بالنبات.

وقد كانت المجتمعات في المجتمعات الجاهلية لا ترى أن للحيوان نصيبًا من الرفق، أو حظًّا من الرحمة، ولا تزال بعض المجتمعات المعاصرة تلهو بقتل الحيوان أو تعذيبه في أعيادها، وفي أفراحها، وفي رياضاتها.

أما التشريعات الإسلامية فتبين أن عالم الحيوان له خصائصه وطبائعه وشعوره، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ﴾ [الأنعام:٣٨].

وقد دلَّ على أن لهذا العالم خصائصه وطبائعه: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل:١٨].

---

(١) صحيح البخاري [٤٨٣٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝٢٤ أَلَّا يَسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ۝٢٦﴾ [النمل:٢٠-٢٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النحل:٦٨-٦٩].

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام:٣٨]، أي: فهي مشابهة لكم في حيث استقلالها بخصائص وطبائع تخصها، وهي مشابهة لكم في الخلق، والموت، والبعث، والاحتياج إلى مدبر يدبر أمرها، وفي كونها دالة على الصانع، ومسبحة له، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤]، أي: يسبح بلسان القال أو الحال، حيث يدل على الصانع جَلَّ وَعَلَا، وعلى قدرته وحكمته وتنزيهه عمَّا لا يجوز عليه، فبالنظر إلى هذا المعنى، لا يجوز التعرض لها بالقتل والإفناء، إلا إذا كان لدفع مضرة، كقتل الفواسق الخمس -كما سيأتيك-، أو جلب منفعة، كذبح الحيوانات المأكولة كما جاء ذلك مبينًا في النصوص.

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أن نملة قرصت نبيًا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح؟**» (١).

ومن الأحاديث الدالة على أن عالم الحيوان له خصائصه وشعوره: ما جاء عن عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أردفني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم خلفه، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حديثًا لا أُحَدِّثُ به أحدًا من الناس، قال: وكان أَحَبَّ ما استتر به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحاجته هَدَفًا أو حَائِشَ نَخْلٍ، فدخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ إليه، وَذَرَفَتْ عيناه، فأتاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فمسح ذِفْرَاهُ، فسكن، فقال: «**من رَبُّ هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟**» قال: فجاء فتىً من الأنصار فقال: هو لي يا رسول الله فقال: «**ألا تَتَّقِي الله في هذه البهيمة التي مَلَّكَكَ الله إياها؛ فإنه شكا لي أنك تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُه**» (٢).

---

(١) صحيح البخاري [٣٠١٩]، مسلم، واللفظ له [٢٢٤١].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣١٧٥٦]، وأحمد [١٧٤٥]، وأبو داود [٢٥٤٩]، وأبو يعلى [٦٧٨٧]، والطبراني في (الكبير) [١٩٣]، وأبو عوانة [٤٩٧]، والحاكم [٢٤٨٥] وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٥٨١٤]، والضياء [١٣٥]. قوله: «هدفا» كل ما كان له شخص مرتفع من بناء وغيره. «أو حائش نخل» هو النخل الملتف المجتمع كأنه لالتفافه يحوش بعضه بعضًا. وقال الخطابي: (الحائش): جماعة النخل الصغار. «حائطًا» أي: بستانًا. «وذرفت» أي: جرت. و«ذفراه» قال الخطابي: (الذفرى من البعير): مؤخر رأسه، وهو الموضع الذي يعرف من قفاه. وقال في (النهاية) ذفرى البعير: أصل أذنه، وهي مؤنثة، وهما ذفريان، وألفها للتأنيث. و«تدئبه» أي: تكده وتتعبه في العمل. انظر: معالم السنن (٢/٢٤٨)، كشف المشكل (٤/١٢)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/١٦١).

وإن تعذيب الحيوان والقسوة عليه من أسباب ولوج النار، كما جاء في الحديث:

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض**»[1].

وفي رواية: عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى صلاة الكسوف، فقام فأطال القيام، ثم ركع فأطال الركوع، ثم قام فأطال القيام، ثم ركع فأطال الركوع، ثم رفع، ثم سجد، فأطال السجود، ثم رفع، ثم سجد، فأطال السجود، ثم قام، فأطال القيام، ثم ركع فأطال الركوع، ثم رفع فأطال القيام ثم ركع، فأطال الركوع، ثم رفع، فسجد، فأطال السجود، ثم رفع، ثم سجد، فأطال السجود، ثم انصرف، فقال: «**قد دنت مِنِّي الجنة، حتى لو اجْتَرَأْتُ عليها، لجئتكم بِقِطَافٍ من قطافها، ودنت مِنِّي النار حتى قلتُ: أَيْ رَبِّ، وأنا معهم؟ فإذا امرأة -حَسِبْتُ أنه قال:- تَخْدِشُهَا هِرَّة، قلت: ما شأن هذه؟ قالوا: حَبَسَتْهَا حتى ماتت جوعًا، لا أطعمتها، ولا أرسلتها تأكل - قال نافع: حسبت أنه قال: من خَشِيش أو خَشَاش الأرض**»[2].

---

(١) صحيح البخاري [٢٣٦٥، ٣٣١٨، ٣٤٨٢]، مسلم [٢٢٤٢].

(٢) صحيح البخاري [٧٤٥]. و«تخدشها»: تقشر جلدها. و«خشاش» -بفتح الخاء المعجمة-: حشرات وهوام الأرض. وقيل: صغار الطير. وحكى القاضي: فتح الخاء وكسرها وضمها والفتح هو المشهور. وقال الجوهري: هو الحية ونحوها مما في الأرض. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٦/٢٠٧)، إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم (٨/٤٧)، الصحاح، مادة: (خشش) (٣/١٠٠٤).

*ومن أنواع التعذيب المنهي عنها: صبر البهائم: كما صحَّ عن هشام بن زيد، قال: دخلت مع أنس، على الحكم بن أيوب، فرأى غلمانًا، أو فتيانًا، نصبوا دجاجة يرمونها، فقال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تُصْبَرَ البهائم (١) –بضم أوله–: أي تحبس لترمى حتى تموت، وأصل الصبر: الحبس.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قال العلماء: صبر البهائم أن تحبس وهي حية؛ لتقتل بالرمي ونحوه، وهو معنى [قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]: «**لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا**» (٢)، أي: لا تتخذوا الحيوان الحي غرضًا ترمون إليه كالغرض من الجلود وغيرها. وهذا النهي للتحريم، ويدل على ذلك ما ورد من لعن من فعل ذلك، كما في حديث: ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(٣)، ولأن الأصل في تعذيب الحيوان، وإتلاف نفسه، وإضاعة المال: التحريم (٤).

وتصير ميتة لا يحل أكلها ويخرج جلدها عن الانتفاع به.

(١) صحيح البخاري [٥٥١٣]، مسلم [١٩٥٦].

(٢) صحيح مسلم [٥٨] عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) والحديث في (الصحيحين): عن سعيد بن جبير، قال: كنت عند ابن عمر، فمروا بفتية، أو بنفر، نصبوا دجاجة يرمونها، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا عنها، فقال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: من فعل هذا؟ إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن من فعل هذا. صحيح البخاري [٥٥١٥]، مسلم [١٩٥٨]. ونحوه عن المغيرة بن شعبة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر على نفر من الأنصار يرمون حمامة فقال: «لا تتخذوا الروح غرضًا». أخرجه الطبراني في (الكبير) [٩٠٥]، و(الأوسط) [٢٠٨٢]. قال الهيثمي (٣١/٤): "رواه الطبراني في (الأوسط)، و(الكبير)، وإسناده حسن".

(٤) نيل الأوطار (٩٩/٨)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٠٧/١٣-١٠٨)،

وعن أبي صالح الحنفي عن رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أُرَاهُ ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-، قال سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من مَثَّلَ بذي روح، ثم لم يتب مَثَّلَ الله به يوم القيامة**» (١).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ عليه حمار قد وُسِمَ في وجهه فقال: «**لعن الله الذي وَسَمَه**» (٢).

وفي رواية: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَّ عليه بحمار قد وُسِمَ في وجهه، فقال: «**أما بَلَغَكُمْ أني قد لعنت من وَسَمَ البهيمة في وجهها، أو ضربها في وجهها؟**»، فنهى عن ذلك (٣).

وعند الطبراني في (الكبير): عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لعن من يسم في الوجه (٤).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما الضرب في الوجه فمنهي عنه في كل الحيوان المحترم من الآدمي والحمير والخيل والإبل والبغال والغنم وغيرها، لكنه في الآدمي أشد؛

---

(١) أخرجه أحمد [٥٦٦١]، وابن الجعد [٢٢٦٤]. قال الهيثمي (٣٢/٤): "رواه أحمد، ورجاله ثقات".

(٢) صحيح مسلم [٢١١٧].

(٣) أخرجه أبو داود بسند صحيح [٢٥٦٤].

(٤) أخرجه الطبراني في (الكبير) [١١٩٢٦]. قال الهيثمي (١١٠/٨): "رواه الطبراني، ورجاله ثقات".

لأنه مجمع المحاسن مع أنه لطيف؛ لأنه يظهر فيه أثر الضرب، وربما شانه [1]، وربما آذى بعض الحواس.

وأما الوسم في الوجه فمنهي عنه بالإجماع"[2].

وقال في (المجموع): "الوسم على الوجه منهي عنه بالاتفاق، وهو من أفعال الجاهلية"[3].

***ويدخل في هذا الباب: التحريش بين الحيوانات:**

والتحريش: الإغراء بين القوم، أو البهائم، كالكلاب، والثيران، والجمال، والكباش، والديوك، وغيرها، بتهييج بعضها على بعض. ووجه النهي: أنه إيلام للحيوانات، وإتعاب لها بدون فائدة، بل مجرد عبث [4].

***ومن أقبح أنواع التعذيب: التحريق بالنار**: وهو غير جائز في شريعتنا، وقد علل الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا بأنه لا يُعَذِّبُ بالنَّار إلا ربُّ النَّار [5].

---

(١) قال الجوهري: "الشين: خلاف الزين. يقال: شانه يشينه. والمشاين: المعايب والمقابح" الصحاح، مادة: (شين) (٥/٢١٤٧).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/٩٧).

(٣) المجموع شرح المهذب (٦/١٧٧).

(٤) انظر: الصحاح، مادة: (حرش) (٣/١٠٠٠)، نيل الأوطار (٨/٩٩).

(٥) الحديث مروي عن حمزة بن عمرو الأسلمي، وعن أبي هريرة. حديث: حمزة بن عمرو الأسلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أخرجه عبد الرزاق [٩٤١٨]، وسعيد بن منصور [٢٦٤٣]، وأحمد [١٦٠٣٤]، وأبو داود [٢٦٧٣]، وأبو يعلى [١٥٣٦]، والطبراني [٢٩٩٦]. حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أخرجه أبو داود [٢٦٧٤]. قال الهيثمي (٦/٢٥١): "رواه الطبراني والبزار وفيه: سعيد البراد ولم أعرفه، وبقية رجاله=

"وتمضي الشريعة في تشريع الرحمة بالحيوان: فتُحَرِّم المكْث طويلًا على ظهره وهو واقف؛ فقد قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي**» (١).

وتحرم إجاعته وتعريضه للضَّعف والهُزال؛ فقد مرَّ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بِبَعِيرٍ قد لصق ظهره ببطنه، فقال: «**اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة**» (٢).

وفي لفظ: «**اتقوا الله في هذه البهائم، ثم اركبوها صحاحًا، وكلوها** (٣) **سمانًا**» (٤).

=ثقات". قال البزار: "قد روي من وجوه، وسعيد البراد بصري، روى عنه حماد بن زيد وسعيد". كشف الأستار (٢/٢١١).

(١) أخرجه أحمد [١٥٦٢٩]، والدارمي [٢٧١٠]، والحارث [٨٨٦]، وابن خزيمة [٢٥٤٤]، وابن حبان [٥٦١٩]، والطبراني [٤٣٢]، والحاكم [٢٤٨٦] وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٠٣٣٦]. قال الهيثمي (١٠/١٤٠): "رواه أحمد، وإسناده حسن".

(٢) أخرجه أبو داود بإسناد صحيح [٢٥٤٨]، وابن خزيمة [٢٥٤٥].

(٣) في بعض النسخ: "واركبوها".

(٤) أخرجه أحمد [١٧٦٢٥]، قال الهيثمي (٣/٩٦): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح". وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٢٠٧٤]، وابن حبان [٥٤٥]، والطبراني في (الكبير) [٥٦٢٠]، وفي (الشاميين) [٥٨٤].

كما يحرم إرهاقه بالعمل فوق ما يَتَحَمَّل. وقد جاء في الحديث -كما تقدم- أن النبي ﷺ قال لصاحب الجمل: «**ألا تَتَّقِي الله في هذه البهيمة التي مَلَّكَكَ الله إياها؛ فإنه شكا لي أنك تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُه**»(١).

كما يحرم التَّلَهِّي به في الصيد، واتخاذه هدفًا لتعليم الإصابة، كما جاء في الحديث: عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قال: «**لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا**»(٢).

وفي رواية: عن سعيد بن جبير رحمه الله، قال: مر ابن عمر رضي الله عنهما بفتيان من قريش قد نصبوا طيرًا، وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر رضي الله عنهما: «**من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا**»"(٣).

قال الإمام النووي رحمه الله: "هذا النهي للتحريم؛ لقوله ﷺ: «**لعن الله من فعل هذا**»؛ ولأنه تعذيب للحيوان، وإتلاف لنفسه، وتضييع لِمَالِيَّتِه، وتفويت لذكاته إن كان مُذَكًّى، ولمنفعته إن لم يكن مُذَكًّى"(٤).

والحاصل أنَّ الرفق بالحيوان وعدم ظلمه، أو تعذيبه، أو تحميله فوق طاقته، أو تجويعه، أو ضربه إلى غير ذلك هو عين الإحسان الذي أوجبه الخالق عز وجل.

---

(١) تقدم.

(٢) صحيح مسلم [٥٨].

(٣) صحيح مسلم [١٩٥٨]. بتصرف عن كتاب: (من روائع حضارتنا) د. مصطفى السباعي (ص:١٧٩).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/١٠٨)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٦/٢٦٥٠).

وكما أن تعذيب الحيوان والقسوة عليه من أسباب العذاب في الآخرة فإن الرحمة والرفق بالحيوان من أسباب دخول الجنة، كما في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خُفَّه، ثم أمسكه بِفِيه، فسقى الكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ له**(١) **فغفر له**»، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرًا؟ فقال: «**نعم، في كل ذات كبد رطبة أجر**»(٢).

وقد أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإحسان هيئة الذبح وهيئة القتل، كما جاء في الحديث: عن شَدَّاد بن أوس، قال: ثِنْتَان حَفِظْتُهُمَا عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا الْقِتْلَة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبْحَ، ولْيُحِدَّ أحدُكُمْ شَفْرَتَه، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَه**»(٣).

وفي لفظ: «**فإذا قَتَلْتُمْ فأَحْسِنُوا القِتْلَةَ، وإذا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ**».

وهذا يدل على وجوب الإسراع في إزهاق النفوس التي يباح إزهاقها على أسهل الوجوه. قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "والإحسان في قتل ما يجوز قتله من الناس والدواب:

---

(١) أي: أثنى عليه فجزاه على ذلك بأن قبل عمله وأدخله الجنة.

(٢) صحيح البخاري [١٧٣، ٢٣٦٣، ٢٤٦٦، ٦٠٠٩]، مسلم [٢٢٤٤].

(٣) صحيح مسلم [١٩٥٥].

إزهاق نفسه على أسرع الوجوه وأسهلها وأوحاها [١] من غير زيادة في التعذيب، فإنه إيلام لا حاجة إليه.

و(القتلة) و(الذبحة) -بالكسر- [٢]، أي: الهيئة. والمعنى: أحسنوا هيئة الذبح، وهيئة القتل. وهذا يدل على وجوب الإسراع في إزهاق النفوس التي يباح إزهاقها على أسهل الوجوه. وقد حكى ابن حزم الإجماع على وجوب الإحسان في الذبيحة"[٣].

ومن الإحسان: أن لا تستعمل الدَّوَاب إلا فيما جرت العادة باستعمالها فيه:

ويدل على ذلك: ما جاء في (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الصبح، ثم أقبل على الناس، فقال: «**بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث**»، فقال الناس:

---

(١) الوحا: السرعة والعجلة، يمد ويقصر. يقال: (الوحا الوحا) أي: السرعة السرعة، أو البدار البدار. انظر: المحكم والمحيط الأعظم (٣٨/٤)، النهاية في غريب الحديث والأثر (١٦٣/٥)، مختار الصحاح (ص:٣٣٤)، لسان العرب (٣٨٢/١٥)، مادة: (وحي).

(٢) «فأحسنوا الذِّبْحَةَ» بوزن: فعلة، رواية عند: أحمد والترمذي والنسائي والبيهقي وغيرهم.

(٣) جامع العلوم والحكم (٣٨٢/١).

سبحان الله بقرة تَكَلَّم، فقال: «**فإني أومن بهذا، أنا وأبو بكر، وعمر**» -وما هما ثَمَّ-[(١)]. الحديث[(٢)].

إن من العجائب والغرائب التي حدَّث عنها رسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما وقع لرجلٍ من قبلنا قد امتطى ظهر بقرةٍ، كما يمتطي النَّاس ظهور الخيل والحمير والبغال فتباطأت له، فضربها لتسرع في سيرها، فإذا بالبقرة تلتفت اليه، وتكلمه بكلام البشر قائله له، مستنكره ركوبه لها مخالفًا سنه الله عَزَّ وَجَلَّ في خلقه فيها: «**إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث**»، وكأنها تقول له: أنت ظالم لي بركوبك لي؛ لأنك استعملتني فيما لم يخلقني الله عَزَّ وَجَلَّ له، ذلك أن الظلم: وضع الشيء في غير موضعه.

واسْتُدِلَّ به على أنَّ الدَّوَابَّ لا تُسْتَعْمَلُ إلَّا فيما جرتِ العادةُ باستعمالها فيه. ويحتمِلُ أن يكونَ قولُها: «**إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ**»؛ للإشارة إلى معظم ما خُلِقَتْ له؛ لأنَّها كذلك تُذْبَحُ وتؤكل، وتستخدم لدر اللبن. وقال الله عَزَّ وَجَلَّ عن الخيل والبغال والحمير: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ [النحل:٨].

فقال الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ متعجبين، وإنه لموضع تعجب: سبحان الله، بقره تتكلم! ولكن تعجبهم لم يكن تكذيبًا للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحاشاهم أن يكذبوه، ولكنهم سمعوا

---

(١) (وما هما ثم) -بفتح المثلثة- أي: ليسا حاضرين. قال العلماء: إنما قال ذلك ثقة بهما؛ لعلمه بصدق إيمانهما، وقوة يقينهما، وكمال معرفتهما؛ لعظيم سلطان الله عَزَّ وَجَلَّ، وكمال قدرته. ففيه فضيلة ظاهرة لأبي بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/١٥٦)، وانظر: فتح الباري (٦/٥١٨).

(٢) صحيح البخاري [٣٤٧١، ٣٦٦٣]، مسلم [٢٣٨٨].

منه ما هو مخالف للمألوف المشاهد، فقال لهم مؤكدًا الخبر: إنه يؤمن بذلك، ويؤمن به أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ولم يكونا موجودين في ذلك اليوم معه في المسجد عندما حدَّث بهذا الحديث، قال ذلك عنهما في غيبتهما؛ لعلمه بعظيم تصديقهما للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعظيم يقينهما وإيمانهما بقدره الله عَزَّ وَجَلَّ، ففيه فضيلة ظاهرة لهما.

*وما استغربه الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هو تكليم الحيوانات للبشر بكلام البشر، أما أن يكلم البشر الحيوان بلغته فذلك أمر آخر، فقد كان سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ يفقه لغة الطير والحيوان.

وقد كلَّمت بعض الحيوانات رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما جاء في حديث: عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.. الآنف الذكر. وقد تقدَّم أن عالم الحيوان له خصائصه وطبائعه.

ومما جاء في ذلك: ما صحَّ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**نَزَلَ نَبِيٌّ من الأنبياء تحتَ شجرة، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأُخْرِجَ من تحتها، ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار، فأوحى الله إليه: فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً**» (١).

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَّ نَمْلَةً قَرَصَتْ نَبِيًّا من الْأَنْبِيَاءِ، فَأَمَرَ بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأُحْرِقَتْ، فَأَوْحَى اللهُ إليه: أَفِي أَنْ قَرَصَتْكَ نملةٌ أهلكتَ أمَّةً من الْأُمَمِ تُسَبِّحُ؟**» (٢).

---

(١) صحيح البخاري [٣٣١٩]، مسلم (١٤٩، ١٥٠) [٢٢٤١].

(٢) صحيح البخاري [٣٠١٩]، مسلم (١٤٨) [٢٢٤١].

والحديث يفيد أن النبي بشر يغضب، وقد يتصرف في بعض الأحيان تصرفًا يعاتب عليه، ومن ذلك: ما تصرفه هذا النبي، فإنه غضب من النملة، وعزم على معاقبة قرية النمل كلها، وأمر أتباعه بإخراج متاعه من تحت تلك الشجرة، ثم أشعل النار في قرية النمل. إن مقتضى العدل والإنصاف أن لا يؤخذ البريء بجريرة المسيء. لقد اعتدت على نبي الله نملة فإن كان لا بد من العقاب فلتعاقب تلك النملة دون غيرها. وفيه أن النمل أمة من الأمم تسبح الله عَزَّوَجَلَّ مثل بقية الحيوانات. فتأمل في سريان مبدأ العدالة في التشريعات الإسلامية حتى في أبسط الأشياء.

ومن شأن المؤمن أن يكون رحيمًا ومحسنًا. وقد تقدم أن مفهوم الإحسان في الإسلام لا يقف عند إحسان المرء لنفسه، ولغيره من أبناء جنسه، ولكنه يشمل عموم المخلوقات بما في ذلك: الإحسان إلى الحيوان، والعناية بالنبات.

ومن الإحسان والعدل: سن قوانين رادعة تلزم مالك الحيوان بالنفقة عليه ورعايته، وتعاقب من يعذِّب الحيوان، ويسيء ويعتدي.

ويقرر الفقهاء المسلمون من أحكام الرحمة بالحيوان ما لا يخطر بالبال، فهم يقررون أن النفقة على الحيوان واجبة على مالكه، فإن امتنع أجبر على بيعه أو الإنفاق عليه، أو تسييبه إلى مكان يجد فيه رزقه ومأمنه، أو ذبحه إذا كان مما يؤكل.

وهكذا كان طابَع حَضَارتنا: رفقًا بالحيوان، وعناية به من قبل الدولة والمؤسسات الاجتماعية.

أما عناية الدولة، فليس أدلُّ على ذلك من أن خلفاءها كانوا يُذيعون البلاغات العامة على الشَّعب، يُوصونهم فيها بالرِّفق بالحيوان، ومنع الأذى عنه، والإضرار به؛

فقد أذاع عمَر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إحدى رسائله إلى الولاة أن ينهوا الناس عن ركض الفرس في غير حقٍّ(١).

وكتب إلى صاحب السكك -وهي وظيفة تشبه مصلحة السير- ألاَّ يسمحوا لأحدٍ بإلجام دابَّته بلجام ثقيل، أو أن ينخسَها بمقرعة(٢) في أسفلها حديدة(٣).

وكان مِن وظيفة المحتسِب -وهي وظيفة تشبه في بعض صلاحياتها وظيفةَ الشرطي في عصرنا الحاضر-: أن يمنعَ الناس من تحميل الدوابِّ فوق ما تطيق، أو تعذيبها وضَرْبها أثناء السَّيْر، فمَن رآه يفعل ذلك أدَّبه وعاقَبه.

وأمَّا المؤسسات الاجتماعية، فقد كان للحيوان منها نصيبٌ كبيرٌ، وحسبنا أن نجدَ في ثبت الأوقاف القديمة أوقافًا خاصَّة لتطبيب الحيوانات المريضة، وأوقافًا لرَعْي الحيوانات المسِنَّة العاجِزة.

وهذا كلُّه يدلُّكَ على رُوح الشَّعب الذي بلغ منَ الرِّفق بالحيوان إلى هذا الحدِّ، وهو ما لا تجد له مثيلًا، ولعل أصدق مثالٍ عن رُوح الشَّعب في ظل حَضَارتنا، أن ترى صحابيًّا جليلًا كأبي الدَّرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان له بعيرٌ، فقال له عند الموت: يا أيها

---

(١) انظر: سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، لعبد الله بن عبد الحكم (ص:٥٤).

(٢) أصل (النَّخس): الدَّفع والحرَكة. يقال: نخس الدابة نخسا: طعن مؤخرها أو جنبها بالمنخاس؛ لتنشط. والقرع: مصدر قرعت الإنسان والدابة بالعصا أقرعه قرعا، وكل ما قرعت به فهو مقرعة.

(٣) وكتب عمر بن عبد العزيز إلى حَيَّان بمصر: إنه بلغني أن بمصر إبلًا نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل. سيرة عمر بن عبد العزيز (ص:١٤١).

البعير، لا تخاصمني إلى ربّك؛ فإنّي لم أكن أحملك فوق طاقتكَ[(١)]، وأن صحابيًّا كعدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يفتُّ الخبز للنمل، ويقول: إنهن جارات لنا، ولهنَّ علينا حقٌّ[(٢)]، وأن إمامًا كبيرًا كأبي إسحاق الشِّيرازي رَحِمَهُ اللَّهُ كان يمشي في طريق ومعه بعض أصحابه، فعرض له كلب، فزجره صاحبه، فنَهاه الشيخ، وقال له: "أما علمت أنَّ الطريق مشترك بيننا وبينه؟!"[(٣)][(٤)].

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ينبغي على المسلم أن يرفق بالدابة إن كان راكبًا فلا يحملها ما لا تطيق، ولا يضربها في وجهها؛ فإنه منهي عنه، ولا ينام عليها؛ فإنه يثقل بالنوم وتتأذى به الدابة. كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي**» [(٥)].

ويستحب أن ينزل عن الدابة غدوة وعشية يروحها بذلك [(٦)].

ويتعين وجود متخصصين في الطب البيطري، ومستشفيات ووحدات تعنى بمعالجة ما يصيب الحيوان من أمراض، وتَعيُّنُ ذلك في المجتمع الإسلامي: كفائي،

---

(١) انظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب (١٩٥/٢)، إحياء علوم الدين (٢٦٤/١).

(٢) شعب الإيمان [١٠٥٦٧]، تهذيب الأسماء واللغات (٣٢٨/١)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك (٧٨/٦)، الجزء المتمم لطبقات ابن سعد (ص:٦٥٩)، أسد الغابة (٧/٤).

(٣) انظر: المجموع شرح المهذب، للإمام النووي (١٤/١)، طبقات الشافعيين، لابن كثير (ص:٤٢٧)، (ص:٤٦٢).

(٤) بتصرف عن كتاب: (من روائع حضارتنا) د. مصطفى السباعي (ص:١٧٧-١٨٥).

(٥) تقدم.

(٦) إحياء علوم الدين (٢٥٥/٢).

وينبغي على المسؤولين: العناية بالطلبة في هذا التخصص وتشجيعهم، وتوفير احتياجاتهم، وتوفير الأجهزة الطبية الملائمة، ومواكبة المستجد من العلوم الطبية، والعلاج الطبي المناسب، والمراقبة الصحية من خلال الوحدات الطبية حتى لا يتفشى المرض، ويعظم الضرر؛ فإن ذلك كله من تمام الإحسان والعدل، وأسباب الرقي.

وينبغي الاحتراز عن قتل الحيوانات، إلا الصائل منها والمؤذي، فقد جاء في الحديث: النهي عن قَتْل أربعٍ من الدَّوابِّ: النَّمْلَة، والنَّحْلَة، والْهُدْهُد، والصُّرَد (١).

ويستثنى من الحيوانات التي لا يجوز قتلها: الفواسق الخمس؛ فإنهن يقتلن في الحلِّ والحرم. والفواسق الخمس -كما ورد في (الصحيح)-: «**الفأرة، والعقرب، والحُدَيَّا، والغراب، والكلب العقور**» (٢).

---

(١) ونص الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: نهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهدهد، والصرد. أخرجه عبد الرزاق [٨٤١٥]، وأحمد [٣٠٦٦]، وابن حميد [٦٥٠]، وابن ماجه [٣٢٢٤]، وأبو داود [٥٢٦٧]، والبزار [٥٢٨٩]، وابن حبان [٥٦٤٦]، والطبراني [٥٧٢٨]، والبيهقي [١٠٠٧٠]، والضياء [١٣٢]. قال الحافظ وصاحب (الإلمام): "رجاله رجال الصحيح". وقال البيهقي في (السنن الكبرى): " وحديث عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أقوى ما ورد في هذا الباب " وقال في (بلوغ المرام): "صححه ابن حبان". التلخيص الحبير (٥٨٤/٢)، الإلمام بأحاديث الأحكام، لابن دقيق العيد (٤٤٤/٢)، فتح الغفار الجامع لأحكام سنة نبينا المختار (١٩١٥/٤). و«الصرد» -بضم ففتح-: طائر فوق العصفور؛ لأنه يحرم أكله، ولا منفعة في قتله.

(٢) صحيح البخاري [٣٣١٤]، مسلم (٦٨- ٦٩) [١١٩٨].

وعند مسلم: «**الحيَّة، والغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور، والحُدَيَّا**» [(١)].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية، والغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور والحُدَيَّا**». وفي رواية: «**الحدأة**». وفي رواية: «**العقرب**» بدل: (الحيَّة). وفي الرواية الأولى أربع بحذف: (الحية والعقرب)، فالمنصوص عليه: الست، واتفق جماهير العلماء على جواز قتلهن في الحلِّ، والحرم، والإحرام.."[(٢)].

وقال الإمام أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (العارضة): "أمر بالقتل، وعلل بالفسق، فيتعدى الحكم إلى كل ما وجدت فيه العلة، ونبه بالخمسة على خمسة أنواع من الفسق. فنبه بالغراب على ما يجانسه من سباع الطير، وكذا بالحدأة، ويزيد الغراب بحل سفرة المسافر، ونقب جرابه، وبالحية على كل ما يلسع، والعقرب كذلك - والحية تلسع وتفترس، والعقرب تلدغ، ولا تفترس - وبالفأرة على ما يجانسها من هوام المنزل المؤذية، وبالكلب العقور على كل مفترس، قال: ومعنى فسقهن: خروجهن عن حد الكف إلى الأذية"[(٣)].

---

(١) صحيح مسلم (٦٧) [١١٩٨].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١١٣/٨).

(٣) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي (٦٣/٤-٦٤)، وانظر: شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (٤٣١/٢).

وقد أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علاوة على الفواسق الخمس بقتل الْوَزَغ، وسماه: فويسقًا [(١)].

وكذلك أمر بقتل الحيات إلا حياتِ البيوت، فلا تقتل حتى تؤذن ثلاثًا، فإن رؤيت بعد ذلك قتلت.. [(٢)]، واستثنى من ذلك نوعين من الحيات هما:

ومنها: الأبتر، وذو الطُّفْيَتَيْن؛ فإنهن يقتلن مطلقًا -ولو كن من سُكَّان البيوت-؛ فإنهما يلتمسان البصر، ويستسقطان الحَبَلَ [(٣)].

قال الزُّهْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: ونُرَى ذلك من سُمَّيْهِمَا -والله أعلم- [(٤)].

---

(١) صحيح البخاري [١٨٣١، ٣٣٠٧، ٣٣٥٩]، مسلم [٢٢٣٧، ٢٢٣٨].

(٢) ثبت في الأمر بقتل الحيات مطلقًا عدة أحاديث؛ منها: ما جاء في (الصحيحين) وغيرهما: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطب على المنبر يقول: «اقْتُلُوا الحيَّاتِ، واقْتُلُوا ذا الطُّفْيَتَيْنِ والأَبْتَرَ؛ فإنَّهما يطمسانِ البَصَر، ويستسقطان الحَبَلَ» صحيح البخاري [٣٢٩٧]، مسلم [٢٢٣٣]. أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقتل الحيات، وهذا عام في جميع الحيات، وفي أي مكان، إلا أن الحية إذا كانت داخل البيت فإنها لا تقتل حتى تنذر ثلاثًا، أي: ثلاث مرات، وفي بعض الأحاديث ثلاثة أيام وذلك لاحتمال أن تكون من الجن، فإن ظهرت بعد ذلك قتلت. وقد اختلف في المراد بتكرار الإنذار ثلاثًا. وعند مسلم [٢٢٣٦] من حديث: أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «إن لهذه البيوت عوامر، فإذا رأيتم شيئًا منها فحرجوا عليها ثلاثًا، فإن ذهب، وإلا فاقتلوه». واختلف في المراد بالثلاث؛ فقيل: ثلاث مرات. وقيل: ثلاثة أيام. انظر: إكمال المعْلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض (١٧٢/٧)، فتح الباري، لابن حجر (٣٤٩/٦)، طرح التثريب في شرح التقريب (١٣١/٨)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥٣٨/٥). ورجح ابن العربي في (أحكام القرآن) أنه يكون ثلاث مرات. انظر ذلك في (أحكام القرآن)، للقاضي أبي بكر بن العربي (٤/ ٣١٧-٣٢٠).

(٣) صحيح البخاري [٣٢٩٧، ٣٣٠٨]، مسلم [٢٢٣٢، ٢٢٣٣].

(٤) صحيح مسلم [٢٢٣٣].

ويستحب كذلك قتل كل ما فيه أذى من الحشرات كالبرغوث، والبق.. إلى غير ذلك.

*وقد جاء كذلك في (الإحسان إلى الحيوان، والعناية بالنبات): حديث: أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة**»(١).

وفي رواية: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السَّبُعُ منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يَرْزَؤُهُ أحد إلا كان له صدقة**»(٢). ففيه: حثٌّ على عمارة الأرض، ولو كان المنتفع من الزرع البهائم لنال الزارع الأجر.

٥ – الإحسان إلى النبات والبيئة:

أ. التحذير من الإفساد البيئي وبيان خطورته:

لا يخفى أن الاهتمام بالبيئة مظهر حضاري، وخلق إنساني، ومطلب تحثُّ عليه الشَّريعة، وتُحَرِّم ما يقابله من إفساد البيئة؛ لعموم ضرره، وعظيم أثره.

(١) صحيح البخاري [٢٣٢٠]، مسلم [١٥٥٣].

(٢) صحيح مسلم [١٥٥٢]، وقد تقدم.

إن إفســاد البيئة يتنافى مع الدين والأخلاق، وهو من الإيذاء والإضــرار الذي نهى الشارع عنه، فلا ضرر ولا ضرار.

ويتفاوت الإيذاء والإضــرار من حيث الأثر، ولا شــك أن إفســاد البيئة من مظاهر الإفساد العام الذي يتعدى ضرره إلى كثير من الناس والبهائم والزروع، فلذلك فهو من أعظم أنواع الإفساد الذي يعظم فيه الإثم.

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ الإنســان خليفة في الأرض، واســتعمره فيها، وأعطاه من النِّعم ما يعينه على القيام بهذه المهمة، فهيأ له فيها كل المقومات اللازمة، فسخر له: الأرض والماء والهواء والفضاء والأنعام.

وحث على عمارة الأرض واســتثمار ثرواتها، والاســتفادة من خيراتها، وإصلاحها، وحمايتها من إفساد المفسدين؛ فإن الفساد يظهر في البر والبحر بفعل الإنســان، وتلويث البيئة يُعتبر من الفســاد ويكون في البرّ والبحر. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

ومن أهم مقاصد بعثة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: الحث على عمارة الكون بالمحبة والرحمة والإصلاح والتعاون على البر والتقوى، والبعد عن العبث والإفساد.

ومن نعم الله عَزَّوَجَلَّ العظيمة أنه سخر للإنسان ما في الكون، وجعل ما فيه من المخلوقات مذللة له.

والمؤمن ينتفع مما سخر الله عَزَّوَجَلَّ له من غير اعتداء أو إفساد أو ظلم، وينفع الآخرين، ويتعاون معهم، ويشكر الله عَزَّوَجَلَّ على نعمه الوافرة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم:٣٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل:١٠-١٤].

ومن شأن المؤمن أن يكون رحيمًا ومحسنًا، ولا يقف مفهوم الإحسان في الإسلام عند إحسان المرء لنفسه ولغيره من أبناء جنسه، ولكنه يشمل عموم المخلوقات بما في ذلك الحيوان والنبات.

*وقد جاء في الحديث: **(التحذير من قطع السِّدر الذي يُظِلُّ النَّاس)**:

والسدر هو الشجر الذي ينبت في الفلاة، ويستظل به الناس، فيتقون به حرَّ الشمس، ويقيلون تحته في أثناء الطريق، وقد كان الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم يستظلون بالشجر.

وقد حذَّرنا الشارع من قطع السدر أو إتلافه؛ لما في ذلك من الإضرار بالناس والبهائم، ولأنه من العبث والظلم، ولا يخفى ما للزرع والأشجار من فائدة تدوم ما بقيت حية.

ومن الأحاديث التي فيها: الحثُّ على عمارة الأرض وتنميتها -حتى ولو كانت في آخر أيامها- قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها**»(1).

وهو مبالغة في الحثِّ على غرس الأشجار، وحفر الأنهار؛ لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعدود المعلوم عند خالقها عَزَّ وَجَلَّ، فكما غرس لك غيرُك فانتفعت به، فاغرس لمن يجيء بعدَك؛ لينتفعَ -وإن لم يبق من الدنيا صُبَابَة- (2).

وفي وصية الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "أوصيكم بتقوى الله عَزَّ وَجَلَّ، لا تعصوا، ولا تغلوا، ولا تجبنوا، ولا تغرقوا نخلًا، ولا تحرقوا زرعًا، ولا تحبسوا بهيمة، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تقتلوا شيخًا كبيرًا، ولا صبيًّا صغيرًا، وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم للذي حبسوها فذروهم وما حبسوا أنفسهم له.."(3).. إلى غير ذلك.

---

(1) تقدم.

(2) فيض القدير (٣/٣٠)، وقد تقدم.

(3) مسند أبي بكر الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، لأبي بكر أحمد بن علي المروزي، بتحقيق: شعيب الأرناؤوط (ص:٧١-٧٢)، و(ابن زنجويه) كما في (كنز العمال) [١٤١١]، وأخرجه ابن عساكر (٢/٥٠)، فوائد ابن أخي ميمي الدقاق [٥٤٩]، الكامل في التاريخ (٢/١٩٦).

ب. صور الإفساد البيئي:

إن الفساد البيئي له صور كثيرة لا تخفى على أولي البصائر، فمن هذه الصور:

الصورة الأولى: رمي الأوساخ والقاذورات وبقايا الطعام وسائر المخلَّفات في الشوارع.

الصورة الثانية: تلويث البيئة بالدخان الضار:

إن من مظاهر إفساد البيئة: أن يتجه دخان المصانع والمعامل إلى بيوت الناس، وما يترتب على ذلك من انتشار الأمراض والأوبئة، ولا يقتصر الضَّرر على ما يصيب الناس، بل كذلك ما يصيب الزروع والبهائم. ومن ذلك: الإسراف في إحراق وقود السيارات ووسائل النقل دون النظر إلى مدى تأثير ذلك على البيئة، وإلى ما يمكن استبداله منها بمصادر طاقة نظيفة.

الصورة الثالثة: قطع الأشجار النافعة وحرقها، وتلويث مياه البحار والأنهار، وردم الآبار وتلويثها.

الصورة الرابعة: إهمال سقي الزرع، والإضرار بالتربة من خلال إفسادها بنحو المواد الكيميائية.. إلى غير ذلك من الملوثات ومن صور الإضرار والإفساد.

الصورة الخامسة: قتل الحيوان وتعذيبه.

...إلى غير ذلك من صور الإفساد البيئي.

٦ – صنائع المعروف من المنجيات من مصارع السوء ومن العذاب في الآخرة:

إنَّ صنائع المعروف من الصدقة، وبرِّ الوالدين، وصلة الرحم، وإغاثة الملهوف، وغيرها من أعمال الخير والبرِّ والإحسان، مما يقي الإنسان من سوء العاقبة، ومصارع السوء، وهي من الأخلاق الجليلة التي حثَّ عليها القرآن العظيم، والتي أرشد إليها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصفةٌ من صفات أهل الفضل والإحسان، ومقصدٌ عام وثابتٌ من مقاصد الشريعة الغراء؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ٧٧﴾ [الحج:٧٧]، فإغاثة المنكوبين، بسبب ما أصابهم؛ من الفيضانات والزلازل والنوائب، ورعاية اللاجئين بسبب الحروب والفتن، وكفالة اليتامى من أعظم أبواب الخير، التي وعد الله عَزَّوَجَلَّ فاعلها بالثواب الجزيل في الدنيا والآخرة؛ ذلك أن أحبَّ الناس إلى الله عَزَّوَجَلَّ أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرورٌ تدخله على قلب مسلمٍ، أو تكشف عنه كربةً، أو تقضي عنه دينًا أو تطرد عنه جوعًا [(١)]، ومن مشى مع أخيه في حاجةٍ حتى يقضيها فاز بالأجر

---

(١) روي عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رجلًا جاء إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، أي الناس أحب إلى الله، وأي الأعمال أحب إلى الله؟ فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أحب الناس إلى الله عَزَّوَجَلَّ أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله سرور تدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخ لي في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في هذا المسجد شهرًا في مسجد المدينة، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غضبه ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رخاء يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تتهيأ له ثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام» أخرجه الطبراني في (الكبير) [١٣٦٤٦]، و(الأوسط) [٦٠٢٦]، و(الصغير) [٨٦١]، وقال: "لم يرو هذا الحديث عن عمرو بن دينار إلا سكين بن سراج، تفرد به عبد الرحمن بن قيس". قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٩١/٨): "رواه الطبراني في (الثلاثة)، وفيه: سكين بن سراج، وهو ضعيف". وروى ابن=

والثواب من العزيز الوهاب، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من نفس عن مسلمٍ كربةً من كرب الدنيا نفس الله عنه كربةً من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسرٍ يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر على مسلمٍ ستر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**»(١).

فمن صنع معروفًا لأحد من الخلق، وكان عمله خالصًا لوجه الله عَزَّوَجَلَّ؛ رحمة بالخلق، وطمعًا في الأجر والثواب والقرب من الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الله عَزَّوَجَلَّ سيكون في عونه في وقت الشدة، ولن يخذله، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة**» (٢).

وإنَّ لصنائع المعروف آثارًا عظيمةً تعود بالنفع على فاعلها في الدنيا والآخرة، أما منافعها في الآخرة، فهي الفوز بالجنان، ورضى الرحمن؛ ذلك أن أهل المعروف في الدنيا هم أحق الناس بعفو الله عَزَّوَجَلَّ وصفحه؛ كما جاء في الحديث: عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَلَقَّتِ الملائكة رُوْحَ رجلٍ ممن كان قبلكم، فقالوا:**

=أبي الدنيا في (قضاء الحوائج) [٣٦] نحوه عن محمد بن يزيد، عن بكر بن خنيس، عن عبد الله بن دينا. وبكر بن خنيس صدوق له أغلاط أفرط فيه ابن حبان، كما قال الحافظ. انظر: تقريب التهذيب (١/١٢٦)، تهذيب التهذيب (١/٤٨١).

(١) صحيح مسلم [٢٦٩٩].

(٢) صحيح البخاري [٢٤٤٢، ٦٩٥١]، مسلم [٢٥٨٠].

أعملتَ من الخير شيئًا؟ قال: لا، قالوا: تَذَكَّرْ، قال: كنتُ أُدَاينُ الناس، فَآمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا الْمُعْسِرَ، ويَتَجَوَّزُوا عن الْمُوسِرِ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: **تَجَوَّزُوا عَنْهُ»** (١). وكذلك أهل المعروف هم أحق الناس برحمة الله عَزَّوَجَلَّ ورضوانه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ [الأعراف:٥٦].

ومن ثمرات صنائع المعروف في الدنيا: أنها تقي مصارع السوء، وترد الآفات والهلكات عن أصحابها، فعن أبي أمامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر**» (٢).

ففي صنائع المعروف خلاصٌ من مصارع السوء، فكم من مسلمٍ نجاه الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم الشدائد التي لا يقدر على كشفها إلا الله عَزَّوَجَلَّ بسبب فعله للخير!

وكم من مسلمٍ حفظ الله عَزَّوَجَلَّ عليه ماله بسبب إحسانه!

وكم من مسلمٍ كشف الله عَزَّوَجَلَّ عنه ضره، وعافاه من مرضه بسبب معروفٍ أداه للناس!

وكم من مسلمٍ حفظ الله عَزَّوَجَلَّ عليه أولاده وأهله من المهلكات؛ لدفعه ضرًا عن غيره.

---

(١) صحيح مسلم [١٥٦٠].

(٢) أخرجه الطبراني في (الكبير) [٨٠١٤]، قال المنذري في (الترغيب والترهيب) (١٥/٢): "رواه الطبراني في (الكبير)، وإسناده حسن"، ونحوه قول الهيثمي في (مجمع الزوائد) (١١٥/٣)، والسخاوي في (المقاصد) (ص:٤١٩).

وقد أدركت أم المؤمنين خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هذا المعنى، فقالت لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما رجع إليها من غار حراءٍ بعد لقائه الأول مع جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ: كلا والله ما يُخْزِيكَ الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعْدُومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ على نوائب الحق (١).

فمن أعظم ما ينفع العبد في حياته وبعد مماته، ويدفع عنه من السوء: بذل المعروف للناس، ومحبة الخير لهم، والإحسان إليهم، والله عَزَّوَجَلَّ يحب أصحاب القلوب الرحيمة، قال نبي الرحمة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ**» (٢)، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وإنما يرحم الله من عباده الرُّحَمَاءَ**» (٣).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف:٥٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [التوبة:١٢٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحج:٣٧]، ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الزمر:٣٤].

ويتحسر من لم يكن محسنًا يوم لا ينفع الندم، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك بقوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزمر:٥٦-٥٨].

---

(١) صحيح البخاري [٣، ٤٩٥٣]، مسلم [١٦٠].

(٢) تقدم.

(٣) صحيح البخاري [١٢٨٤، ٦٦٥٥، ٧٣٧٧، ٧٤٤٨]، مسلم [٩٢٣].

قال ابن باديس رَحِمَهُ اللَّهُ: "تكسب مودة الناس بأسباب متعارفة بينهم منها: القرابة، ومنها: الصداقة، ومنها: صنائع المعروف، ومآثر الإحسان"(١).

وقد حثَّ الإسلام على صنع المعروف، وفعله، وبذله، بالأقوال والأفعال، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة:٢٦٣].

فقوله: ﴿۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾: أي: قولٌ جميل طيب من غير مَنٍّ، ولا إيذاء. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾، أي: ستر ما ظهر منه من سوء حالته وفقره، وما وقع منه من الإلحاف في المسألة وغيره مما يثقل على النفوس، فذلك ﴿خَيْرٌ﴾ له عند الله عَزَّوَجَلَّ. ﴿مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾، أي: من صدقة يتصدق بها وهو يمنُّ على المتصدق عليه بها، ويؤذيه بسببها، فهو يستحق عليها العقاب من حيث يرجو الثواب.

وفي (المنار): "إن هذه الآية مقررة لقاعدة: (**درء المفاسد مقدم على جلب المصالح**) التي هي من أعظم قواعد الشريعة، ومبينة أن الخير لا يكون طريقًا ووسيلة إلى الشر، ومرشدة إلى وجوب العناية بجعل العمل الصالح خاليًا من الشوائب التي تفسده، وتذهب بفائدته، كلها أو بعضها، وإلى أنه ينبغي لمن عجز عن إحسان عمل من أعمال البرِّ، وجعله خالصًا نقيًا أن يجتهد في إحسان عمل آخر يؤدي إلى غايته، حتى لا يحرم من فائدته بالمرَّة، كمن شق عليه أن يتصدق لا يمن ولا يؤذي، فحث على الصدقة أو جبر الفقير بقول المعروف. ومن البديهي أن أعمال البر والخير لا

(١) آثار ابن باديس (ص:٣٤٢)، تفسير ابن باديس (ص:٣٤٠).

يغني بعضها عن بعض، فكيف يغني ترك الشرك واتقاء المفاسد عن عمل الخير، والقيام بالمصالح"[1].

ففعل المعروف من خصال الإسلام العظيمة، ولا يكون مثمرًا ونافعًا إلا فيما أخلص فيه العبد القصد لله عَزَّوَجَلَّ.

والمعروف كلمة جامعة تجمع بذل الخير والإحسان للناس بالقول أو بالفعل.

فمن معروف القول: طِيبُ الكلام، والتَّوَدُّدُ بجميل اللفظ. وهذا يَبْعَثُ عليه: حُسْنُ الْخُلُقِ، ورِقَّةُ الطَّبْعِ. وَمن معروف الفعل: إغاثة الملهوف، وإعانة المحتاج، ونصرة المظلوم بالمال والنفس، من خلال ما يبذل من الجهد والسعي في سبيل ذلك.

٧ – نماذج من بذل المعروف:

وقد جاء في الآيات القرآنية، والحديث النبوي ذكر نماذج كثيرة من بذل المعروف، فمنها: ما جمع أكثر من وجه من وجوه صناعة المعروف، ومنها: ما نبَّه على نوع من الأنواع؛ لبيان أهميته، فمن ذلك:

أ. العفو والصفح والمسامحة، ومقابلة الإساءة بالإحسان:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف:١٩٩].

(١) تفسير المنار (٣/٥٣-٥٤).

وفي (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "العرف: المعروف [(١)]. وروَى عن عبد الله بن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ قال: «**ما أَنْزَلَ اللَّهُ إلَّا في أخلاقِ النَّاسِ**» [(٢)].

وفي رواية: «**أَمَرَ الله** عَزَّوَجَلَّ **نَبِيَّهُ** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **أن يأخذَ العفوَ من أخلاق الناس، أو كما قال**» [(٣)]. وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾: الخطاب للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ويدخل في حكمه: أمته، إلا ما قام الدليل على اختصاصه به.

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: أن يأخذ العفو من أخلاق الناس، أي: أمره أن يتسامح مع الناس، ويتساهل في معاملتهم، ويتغاضى عن هفواتهم.

كما دلت الآية الكريمة على وجوب التناصح والتواصي بالحقِّ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الإعراض عن الجهلاء، والحمقى والسفهاء، وعدم مجاراتهم أو مجازاتهم، والصفح عنهم، والتغاضي عن زلاتهم، وهو معنى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾. ولا شك أن هذه الأمور الثلاثة -المذكورة في الآية الكريمة- هي دعائم الخُلُقِ الكامل، الذي تكتسب به محبة الناس، وتجمع به القلوب المتنافرة، وتتوثق به الروابط الاجتماعية [(٤)].

---

(١) صحيح البخاري (٦/٦٠).

(٢) صحيح البخاري [٤٦٤٣].

(٣) صحيح البخاري [٤٦٤٤].

(٤) انظر: منار القاري (٥/٥٦).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى في وصف عباده الصالحين، أرباب البصائر، وأولي النهى والألباب: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان:٦٣]. قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "جعل جزاء من تلطف في الكلام الغرفة، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ [الفرقان:٧٥]، بعد قوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان:٦٣]. وفيه تلويح إلى أن لين الكلام من صفات عباد الله عَزَّوَجَلَّ الصالحين، الذين خضعوا لبارئهم جَلَّوَعَلَا، وعاملوا الخلق بالرفق في الفعل والقول"(١).

وفي الحديث: «**إِنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرْفَةً يُرَى ظَاهِرُهَا من بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا من ظَاهِرِهَا أَعَدَّهَا اللهُ لِمَنْ أَطْعَمَ الطَّعَامَ، وأَلَانَ الْكَلَامَ، وتَابَعَ الصِّيَامَ، وصَلَّى والنَّاسُ نِيَامٌ**» (٢).

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٢٠٩/٤).

(٢) الحديث مروي عن أبي مالك الأشعري، وعن علي بن أبي طالب، وعن عبد الله بن عمرو. حديث أبي مالك الأشعري: أخرجه معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي في (جامعه) [٢٠٨٨٣]، وأحمد [٢٢٩٠٥]، قال الهيثمي (١٩٢/٣): "رجاله ثقات"، كما أخرجه: ابن خزيمة [٢١٣٦، ٢١٣٧]، والخرائطي في (مكارم الأخلاق) [١٥٥]، وابن حبان [٥٠٩]، والطبراني [٣٤٦٦]، قال الهيثمي (٢٥٤/٢): "رجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن) [٨٤٧٩]، وفي (شعب الإيمان) [٣٦٠٩]. حديث عليٍّ: أخرجه ابن أبي شيبة [٢٥٧٤٣]، وأحمد [١٣٣٨]، وهناد في (الزهد) [١٢٣]، والترمذي [١٩٨٤]، وقال: "غريب"، كما أخرجه: البزار [٧٠٢]، أبو يعلى [٤٢٨]، وابن السني في (عمل يوم وليلة) [٣١٩]، وأخرجه أيضًا: وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٣٠٨٩]. حديث ابن عمرو: أخرجه أحمد [٦٦١٥]، والطبراني [١٠٣]، قال الهيثمي (٢٥٤/٢):=

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣﴾ [المائدة:١٣].

إنَّ دوامَ الودِّ والمحبة يقتضي تجاوز الهفوات وستر الزلات.. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ﴾ [يوسف: ٧٧]. وقليل من الصبر وضبط الأعصاب حين تقع الخصومة يدفع كثيرًا من الشر. بل يجلب الخير والنفع في كثير من الأحوال، قال الله عَزَّوَجَلَّ -مثلًا- عن النساء: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النساء:١٩].

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ مقابلةَ الإساءة بالإحسان، وحُسْنَ الخُلق سببًا يكون به العدوُّ صديقًا، وتتمكَّنُ فيه صداقةُ الصديق، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤﴾ [فصلت:٣٤]. إن كل إساءة تقابل بالإحسان سوف يكون له من الأثر الطيب ما يمحو أثرها، ويعالج ما أحدثته من صدع وجفاء. يعني: أنك إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إلى مصافاتك ومحبتك. ومقابلة السيئة بالحسنة مرتبة عظيمة لا يرتقي إليها من عباد الله عَزَّوَجَلَّ إلَّا من امتلك زمام نفسه.

ولم يكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح. وقد سئلت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كيف كان خلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقالت: لم يكن فاحشًا

="إسناده حسن". كما أخرجه: الحاكم [٢٧٠] وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٢٨٢٥].

ولا متفحشًا (١)، ولا صَخَّابًا (٢) في الأسـواق، ولا يجزي بالسـيئة السيئة (٣)، ولكن يعفو (٤) ويصفح (٥).

ب. الابتسامة وطلاقة الوجه:

جاء في الحديث: عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَبَسُّمُكَ في وجه أخيك لك صدقة، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة،**

---

(1) قال ابن العربي: "والفحش: الكلام بما يكره سماعه مما يتعلق بالدين. وفي (الصحيح) ولم يكن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاحشًا؛ يعني: لطهارة أخلاقه وأفعاله، ولا متفحشًا، يعني: لم يكن يكتسب ذلك بقول ولا فعل" عارضة الأحوذي (١٤٤/٨).

(٢) أي: صياحًا.

(٣) بل بالحسنة.

(٤) أي: في الباطن.

(٥) أي: في الظاهر؛ عملًا بقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة:١٣]، فقد كان خلقه القرآن. والحديث أخرجه أحمد [٢٥٤١٧]، والترمذي [٢٠١٦]، وقال: "هذا حديث حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: الخرائطي في (مكارم الأخلاق) [٦٨]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٩٤٤].

وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق لك صدقة، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة»[1] .

وفي (صحيح مسلم): عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**» [2].

قال أبو حاتم رَحِمَهُ اللَّهُ: "البشاشة إدام العلماء، وسجية الحكماء؛ لأن البِشر يطفئ نار المعاندة، ويحرق هيجان المباغضة، وفيه تحصين من الباغي، ومنجاة من الساعي"[3].

وقال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن لقاء الناس بالتبسم وطلاقة الوجه من أخلاق النبوة، وهو مناف للتكبر وجالب للمودة"[4].

و(طلاقة الوجه): فَرِحٌ ظَاهِرُ الْبِشْرِ. يقال: هو طَلْقَ الْوَجْهِ وطَلِيقُه، وقال أبو زيد: طلق الوجه: مُتَهَلِّلٌ بَسَّامٌ، أو ذُو بِشْرٍ حَسَن [5].

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) [٨٩١]، والترمذي [١٩٥٦]، واللفظ له، وقال: "حسن غريب". كما أخرجه: البزار [٤٠٧٠]، ومحمد بن نصر المرْوَزِي [٨١٣]، وابن حبان [٥٢٩].

(٢) صحيح مسلم [٢٦٢٦]. (بوجه طلق) ضد العبوس، وهو الذي فيه البشاشة والسرور.

(٣) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، محمد بن حبان أبو حاتم الدارمي البستي (ص:٧٥).

(٤) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٩٣/٥).

(٥) انظر: المصباح المنير، مادة: (طلق) (٣٧٦/٢)، تهذيب اللغة (١٩/٩)، فيض القدير (٢٨٨/٢)، دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٨٦/٥).

ج. **الكلمة الطيبة، والقول الحسن، والتواضع، والمداراة:**

جاء في (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ): في باب: (طيب الكلام): قال أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الكلمة الطيبة صدقة**»(١).

وعن عدي بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: ذكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النار، فتعوَّذ منها، وأشاح بوجهه، ثم ذكر النار فتعوَّذ منها وأشاح بوجهه، -قال شعبة: أما مرتين فلا أشك- ثم قال: «**اتَّقُوا النَّارَ ولو بِشِقِّ تمرة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة**»(٢).

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الكلام الطيب مندوب إليه، وهو من جليل أفعال البر؛ لأنَّ النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جعله كالصدقة بالمال. ووجه تشبيهه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ الكلمة الطيبة بالصدقة بالمال هو أن الصدقة بالمال تحيا بها نفس المتصدق عليه ويفرح بها، والكلمة الطيبة يفرح بها المؤمن، ويحسن موقعها من قلبه، فاشتبها من هذه الجهة. ألا ترى أنها تذهب الشحناء، وتجلي السخيمة، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت:٣٤].

والدفع بالتي هي أحسن قد يكون بالقول كما يكون بالفعل"(٣).

وصناعة المعروف تكون بالقول والفعل، فمن صناعة المعروف: القول الحسن:

---

(١) صحيح البخاري (٨/١١).

(٢) صحيح البخاري [٦٠٢٣، ٦٥٤٠]، مسلم [١٠١٦].

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٩/٢٢٥).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء:٥٣]، ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر:١٨].

إنَّ اللسان أداة البيان، وترجمان القلب والوجدان. والكلام السيء قاطع لأواصر الأخوة، باعث على البغضاء والنفرة، يبعد بين العقول فتحرم الاسترشاد والاستعداد والتعاون، وبين القلوب فتفقد عواطف المحبة وحنان الرحمة، وهما أشرف ما تتحلى به القلوب، وإذا بطلت الرحمة والمحبة بطلت الألفة والتعاون، وحلت القساوة والعداوة، وتبعهما التخاصم والتقاتل(١).

وإنَّ التواضع، والمداراة، ولين الكلام من الأسباب التي تؤلّف بين القلوب.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]، فهذا وصف المؤمنين الذين يحبهم الله عَزَّوَجَلَّ ويحبونه، ومن أحبه الله عَزَّوَجَلَّ أحبه الناس؛ ولذلك جاء عقب قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة:٥٤]: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الحجر:٨٨].

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المدارة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس، ولين الكلمة، وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة، وسل السخيمة"(٢)؛ ولهذا قيل: من لانت كلمته وجبت محبته، وحسنت أحدوثته، وظمئت

---

(١) انظر: تفسير ابن باديس (ص:١١٢-١١٣).

(٢) شرح صحيح البخارى، لابن بطال (٩/٣٠٥)، وانظر: فتح الباري، للحافظ ابن حجر (١٠/٥٢٨). و(السَّخِيمة): الحِقْدُ والضَّغينة.

القلوب إلى لقائه، وتنافست في مودته. والمداراة تجمع الأهواء المتفرقة، وتؤلف الآراء المشتتة، وهي غير المداهنة المنهي عنها"(١).

فالكلام اللَّين والطَّيب من الأسباب التي تؤلِّف بين القلوب، وهو من صنيعة المعروف بالقول الحسن. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ۝٥٣﴾ [الإسراء:٥٣]. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ [آل عمران:١٥٩].

(١) فيض القدير (٣/٢٠٣). قال ابن بطال: "ظن بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط؛ لأن المداراة مندوب إليها والمداهنة محرمة. والفرق أن (المداهنة) من الدهان، وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه. وفسرها العلماء بأنها: معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحو ذلك" فتح الباري، لابن حجر (١٠/٥٢٨). وقال القرطبي في الفرق بينهما: "إنَّ المدَارَاة: بذل الدنيا؛ لصلاح الدنيا، أو الدين، أو هما معًا، وهي مباحة وربما استحبت. والمداهنة: ترك الدين؛ لصلاح الدنيا". فتح الباري، لابن حجر (١٠/٤٥٤). وقال الإمام الغزالي: "الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء؛ فإن أغضيت لسلامة دينك، ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء، فأنت مدار، وإن أغضيت لحظِّ نفسك، واجتلاب شهواتك، وسلامة جاهك فأنت مداهن" إحياء علوم الدين (٢/١٨٢). وقال ابن القيم: "المداراة صفة مدح والمداهنة صفة ذم، والفرق بينهما أن المداري يتلطف بصاحبه حتى يستخرج منه الحق أو يرده عن الباطل، والمداهن يتلطف به؛ ليقره على باطله ويتركه على هواه فالمداراة لأهل الإيمان والمداهنة لأهل النفاق" الروح، لابن القيم (ص:٢٣١).

د. الرفق:

إنَّ الرفق بالخلق، والرحمة، والحلم والأناة، وسعة الصدر، من صنائع المعروف، ومن الأخلاق الفاضلة التي تنبثق من مشكاة العقيدة، ومن أسباب المحبة التي حثَّ عليها الشارع، جاء في الحديث: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ففهمتها، فقلت: وعليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مهلًا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله**»، فقلت: يا رسول الله، أولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قد قلت: وعليكم**» (١).

وفي رواية: «**مه يا عائشة، فإن الله لا يحب الفحش والتفحش**» (٢).

وفي رواية: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يا عائشة: إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه**» (٣).

وفي الحديث: «**ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء**» (٤).

---

(١) صحيح البخاري [٦٠٢٤، ٦٠٣٠، ٦٤٠١]، مسلم [٢١٦٤، ٢١٦٥].

(٢) صحيح مسلم [٢١٦٥].

(٣) صحيح مسلم [٢٥٩٣].

(٤) أخرجه الترمذي [٢٠٠٢]، وقال: "حسن صحيح" عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما أخرجه الخرائطي في (مساوئ الأخلاق) [٤٩]، وابن حبان [٥٦٩٣]، والبيهقي [٢٠٧٩٨]. وللحديث أطراف.

وفي رواية: «**إن الله يبغض الفاحش المتفحش**»[1].

قال القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أصل الفحش: الزيادة والخروج عن الحد. قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الفاحش: البذيء. قال ابن عرفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الفواحش عند العرب: القبائح. وقال الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الفاحش: ذو الفحش، والمتفحش: الذي يتكلف الفحش ويتعمده؛ لفساد حاله. وقد يكون المتفحش الذي يأتي الفاحشة[2] أو يجاهر بها.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(الفاحش): المجبول على الفحش، وهو: الجفاء في الأقوال والأفعال. و(المتفحش): هو المتعاطي لذلك، والمستعمل له"[3].

وقيل: "الفاحش: المتبلس بالفحش، والمتفحش المتظاهر به؛ لأنه الله جَلَّ وَعَلَا طيب جميل فيبغض من لم يكن كذلك. قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١]"[4].

قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والفحش: الكلام بما يكره سماعه مما يتعلق بالدين. وفي (الصحيح): «**ولم يكن النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **فاحشًا**»؛ يعني: لطهارة أخلاقه وأفعاله، «**ولا متفحشًا**»، يعني: لم يكن يكتسب ذلك بقول ولا فعل"[5].

---

(١) الحديث مروي عن أسامة بن زيد. قال الهيثمي (٨/٦٤): "رواه أحمد والطبراني في (الكبير) و(الأوسط) بأسانيد، وأحد أسانيد الطبراني رجاله ثقات". والحديث مروي كذلك عن أبي هريرة، وعائشة، وعن عبد الله بن عمرو، وله أطراف كثيرة.

(٢) إكمال المعلم، للقاضي عياض (٧/١٤٤)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/٧٨).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي (٦/١١٦).

(٤) فيض القدير (٢/٢٨٥).

(٥) عارضة الأحوذي (٨/١٤٤).

و(البذي) "الفاحش في منطقه -وإن كان الكلام صدقًا-"(١).

وقال المنذري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "البذيء -بالذال المعجمة ممدودًا- هو المتكلم بالفحش ورديء الكلام"(٢).

وفي (النهاية): "البذاء -بالمد-: الفحش في القول. وفلان بذي اللسان. تقول منه: بذوت على القوم وأبذيت أبذو بذاء. وقد يقال بالهمز وليس بالكثير"(٣).

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إن الله ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخرق**(٤)، **وإذا أحبَّ الله عبدًا أعطاه الرفق، ما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا قد حرموا**»(٥).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن أعرابيًّا بال في المسجد، فقاموا إليه، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تزرموه**»، ثم دعا بدلو من ماء فصب عليه(٦).

---

(١) فيض القدير (٣٦٠/٥).

(٢) الترغيب والترهيب (٢٧١/٣).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، مادة: (بذا) (١١١/١)، وانظر: الصحاح، للجوهري (٢٢٧٩/٦)، المخصص، لابن سيده (٣٨٦/٣).

(٤) بضم أوله المعجم وسكون الراء ضد الرفق. و(الخرق) -بفتحتين- مصدر، و(الأخرق) وهو ضد الرفيق وبابه طرب، والاسم (الخرق) -بالضم-.

(٥) أخرجه الطبراني في (الكبير) [٢٢٧٤]، قال الهيثمي (١٨/٨): "رواه الطبراني، ورجاله ثقات". وضعفه العراقي في (تخريج الإحياء) (ص:١٠٨٣).

(٦) صحيح البخاري [٦٠٢٥]. «لا تزرموه»: لا تقطعوا عليه بوله.

فمن الصفات التي يحبها الله عَزَّوَجَلَّ: الرفق واللين، والحلم والأناة؛ لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأشج -أشج عبد القيس-: «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة**» (١).

هـ. كل معروف صدقة:

روى الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في (صحيحه): باب: (كل معروف صدقة): عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كل معروف صدقة**» (٢).

قال: حدثنا سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه، عن جده، قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**على كل مسلم صدقة**»، قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «**فيعمل بيديه، فينفع نفسه، ويتصدق**» قالوا: فإن لم يستطع أو لم يفعل؟ قال: «**فيعين ذا الحاجة الملهوف**»، قالوا: فإن لم يفعل؟ قال: «**فيأمر بالخير**»، أو قال: «**بالمعروف**»، قال: فإن لم يفعل؟ قال: «**فيمسك عن الشر؛ فإنه له صدقة**» (٣).

وفي (صحيح الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ): باب: (بيان أن اسم: الصدقة يقع على كل نوع من المعروف): عن رِبْعِيّ بْنِ حِرَاشٍ، عن حُذَيْفَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال نَبِيُّكُم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ معروفٍ صدقة**» (٤).

---

(١) صحيح مسلم [١٧].

(٢) صحيح البخاري [٦٠٢١].

(٣) صحيح البخاري [١٤٤٥، ٦٠٢٢]، مسلم [١٠٠٨].

(٤) صحيح مسلم [١٠٠٥].

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ناسًا من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسول الله، ذهب أهل الدُّثُورِ [١] بالأجور، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، ويصومون كما نصوم، ويَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أموالهم، قال: «**أوليس قد جعل الله لكم ما تَصَّدَّقُونَ؟ إنَّ بِكُلِّ تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بُضْعِ أحدكم صدقة**»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**» [٢].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إنسانٍ من بني آدَمَ على سِتِّينَ وثَلَاثِمِائَةِ مَفْصِلٍ، فمن كَبَّرَ الله، وحَمِدَ الله، وهَلَّلَ الله، وسَبَّحَ الله، واسْتَغْفَرَ الله، وَعَزَلَ حَجَرًا عن طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ شَوْكَةً، أَوْ عَظْمًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ، وأَمَرَ بِمَعْرُوفٍ، أو نَهَى عن مُنْكَرٍ، عَدَدَ تِلْكَ السِّتِّينَ والثَّلَاثِمِائَةِ السُّلَامَى، فَإِنَّهُ يَمْشِي يَوْمَئِذٍ، وقد زَحْزَحَ نفسَهُ عن النَّار**»، قال أبو توبة: وربما قال: «**يُمْسِي**» [٣].

---

(١) «الدثور» جمع: دثر، وهو المال الكثير.

(٢) صحيح مسلم [١٠٠٦]، وستأتي رواية: أبي هريرة لنحو هذا الحديث في (صحيح البخاري ومسلم).

(٣) صحيح مسلم [١٠٠٧].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمان بضع وسبعون -أو بضع وستون- شعبة، فأفضلها: قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»(١).

وفي (الصحيحين): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كل سُلاَمَى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة**»(٢).

وفي (مسند الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ): أن رجلًا سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن المعروف؟ فقال: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تُعْطِيَ صِلَةَ الْحَبْلِ، ولو أن تُعْطِيَ شِسْعَ النَّعْلِ**(٣)**، ولو أن تُفْرِغَ من دَلْوِكَ في إناء الْمُسْتَسْقِي، ولو أن تُنَحِّيَ الشَّيء**

(١) صحيح مسلم [٣٥].

(٢) أخرجه البخاري [٢٩٨٩]، ومسلم [١٠٠٩]. و«سلامى» قال الإمام النووي: "هو بضم السين وتخفيف اللام، وأصله: عظام الأصابع وسائر الكف، ثم استعمل في جميع عظام البدن ومفاصله" شرح النووي على صحيح مسلم (٥/٢٣٣).

(٣) (شسع) -بكسر الشين المعجمة وسكون المهملة-: أحد سيور النعل، وهو الذي يدخل بين الأصبعين ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام، والزمام هو السير الذي يعقد فيه الشسع قال الجوهري: "(الشِّسْعُ): واحد (شُسُوعِ) النَّعْلِ الَّذي تُشَدُّ إِلَى زِمَامِهَا"، وَجمعه: شُسوع. انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (شسع) (٣/١٢٣٧)، تهذيب اللغة (١/٢٥٧)، عمدة القاري=

من طريق النَّاس يُؤْذِيهِمْ، ولو أن تَلْقَى أَخَاكَ، وَوَجْهُكَ إليه مُنْطَلِقٌ، ولو أن تَلْقَى أَخَاكَ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِ، ولو أن تُؤْنِسَ الْوَحْشَانَ في الْأَرْضِ، وإن سَبَّكَ رَجُلٌ بشيءٍ يَعْلَمُهُ فِيكَ، وأنْتَ تَعْلَمُ فيه نَحْوَهُ، فلا تَسُبَّهُ فيكونَ أَجْرُهُ لك، وَوِزْرُهُ عليه، وما سَرَّ أُذُنَكَ أن تَسْمَعَهُ فَاعْمَلْ به، وما ساءَ أُذُنَكَ أن تَسْمَعَهُ فَاجْتَنِبْهُ»(١).

وفي (مسند الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ): مَرَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْمٍ جُلُوسٍ في الطريق، قال: «**إن كنتم لا بدَّ فاعلين، فاهدوا السبيل، وردوا السلام، وأغيثوا المظلوم أو أعينوا المظلوم**» (٢).

وعند أبي داود رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسند صحيح: «**وتغيثوا الملهوف، وتهدوا الضَّال**» (٣).

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ؟ قال: «**إِيمَانٌ باللَّه، وجِهَادٌ في سَبِيلِه**»، قلتُ: فَأَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ؟ قال: «**أَعْلَاهَا ثَمَنًا،**

=شرح صحيح البخاري (٢٢/٢٦)، الديباج على صحيح مسلم (٥/١٤٠)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٥/١٧١٨)، مرقاة المفاتيح (٣/١٢٥٤).

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٥٩٥٥]، وأبو عبد الله محمد بن المرْوَزِي في (تعظيم قدر الصلاة): عن أبي تميمة الهجيمي، عن رجل، من قومه. وروى نحوه: الطيالسي [١٣٠٤]، وابن حبان [٥٢١]، عن جابر بن سليم الهجيمي.

(٢) أخرجه الطيالسي [٧٤٦]، وابن أبي شيبة [٢٦٥٤٩]، وأحمد بسند صحيح، في مواضع، وأخرجه أيضًا: الدارمي [٢٦٩٧]، والترمذي [٢٧٢٦]، وقال: "حسن". كما أخرجه كذلك: وابن حبان [٥٩٧]، وأبو يعلى [١٧١٧]، والروياني [٣٢٣]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٢١٦].

(٣) أخرجه أبو داود [٤٨١٧] عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وأخرجه أيضا: الضياء [٣٠٨] وقال: "إسناده حسن".

وَأَنْفَسُهَا عند أهلها»، قُلْتُ: فإن لم أَفْعَلْ؟ قال: «**تُعِينُ ضَايِعًا، أو تَصْنَعُ لِأَخْرَقَ**»، قال: فإن لم أَفْعَلْ؟ قال: «**تَدَعُ النَّاسَ من الشَّرِّ؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بها على نَفْسِكَ**»(1).

وقوله: «**ضائعًا**»: روي -بالضاد المعجمة-، هكذا رواية هشام التي رواها البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ من جهته؛ أي: ذا ضَياع؛ من فقر، أو عيال، أو حال قصر عن القيام بها.

وروي -بالصاد المهملة والنون-. وقال الدارقطني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه الصواب؛ لمقابلته: الأخرق، وهو الذي لا يحسن العمل.

وقال معمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان الزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: صَحَّفَ هشام، إنما هو الصانع وقوله «**أو تصنعُ لأخرقَ**»: أي: جاهل بما يجب أن يعملَه، ولم يكن في يده صنعة يكتسب بها(٢).

قال ابن المنير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي الحديث: إشارة إلى أن إعانة الصانع أفضل من إعانة غير الصانع؛ لأن غير الصانع مظنة الإعانة، فكل أحد يعينه غالبًا، بخلاف الصانع؛ فإنه لشهرته بصنعته يغفل عن إعانته، فهي من جنس الصدقة على المستور"(٣).

---

(1) صحيح البخاري [٢٥١٨]، ومسلم [٨٤].

(٢) انظر: مصابيح الجامع (٤١٧/٥)، مرقاة المفاتيح (٢٢١٤/٦-٢٢١٥)، وانظر: ذلك مفصلًا في (شرح النووي على صحيح مسلم) (٧٥/٢)، فتح الباري، لابن حجر (١٤٩/٥).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (١٥٠/٥)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٨٠/١٣).

و. التعاون على البرِّ والتقوى:

إنَّ البرَّ من أسباب الألفة؛ لأنَّه يوصل إلى القلوب ألطافًا، ويثنيها محبَّة وانعطافًا؛ ولذلك ندب الله عَزَّوَجَلَّ إلى التعاون عليه، وقرنه بالتَّقوى له، فقال: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ﴾ [المائدة:٢]؛ لأنَّ له في التَّقوى: رضا الله عَزَّوَجَلَّ، وفي البرِّ: رضا النَّاس، ومن جمع بين رضا الله عَزَّوَجَلَّ ورضا النَّاس، فقد تمَّت سعادته، وعمَّت نعمته (١).

ز. الإهداء:

الهدية خلق من أخلاق الإسلام، وهي من صنائع المعروف التي تؤلف القلوب، وتنفي سخائم الصدور، تؤنس المهدَى إليه، وتؤكد الصحبة، وتجلب المودة، وتزرع المحبة.

وفي الحديث: «**تهادوا تحابوا**» (٢).

---

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي (١/١٨٢).

(٢) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) [٥٩٤]، وأبو يعلى [٦١٤٨]، والدولابي في (الكنى) [٨٤٢]، وأبو الشيخ في (الأمثال) [٢٤٥]، وتمام في (الفوائد) [١٥٧٧]، والشهاب [٦٥٧]، والبيهقي في (الآداب) [٨١]، و(السنن الصغير) [٢٢٣٠]، و(الكبرى) [١١٩٤٦]، و(شعب الإيمان) [٨٥٦٨]. قال الحافظ العراقي: "أخرجه البخاري في كتاب: (الأدب المفرد)، والبيهقي من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسند جيد". المغني عن حمل الأسفار (ص:٤٧٨). وقال الحافظ ابن حجر في (التلخيص الحبير) (٣/١٦٣): "رواه البخاري في (الأدب المفرد)، والبيهقي. وأورده ابن طاهر في (مسند الشهاب) من طريق محمد بن بكير عن ضمام بن إسماعيل عن موسى بن وردان عن أبي هريرة، وإسناده حسن".

وعن ثابت رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: كان أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: يا بني تباذلوا بينكم، فإنه أود لما بينكم(١).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أما الهدية فلا بأس بقبولها؛ فإن قبولها سنة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن ينبغي أن لا يكون فيها مِنَّة، فإن كان فيها منة فالأولى تركها. فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنة فليرد البعض دون البعض"(٢).

ح. الزيارة في الله عَزَّوَجَلَّ:

إنَّ من صنائع المعروف ووسائل استمالة القلوب: الزيارة في الله عَزَّوَجَلَّ. ففي الحديث: «**زر غبًّا تزدد حبًّا**»(٣).

وقد ذكر أهل العلم أنَّ هناك آدابًا للزيارة ينبغي أن يحرص عليها المسلم حتى تتحقق مقاصد الزيارة من الألفة والتعاضد والتعاون على البر والتقوى.

ومن هذه الآداب: إخلاص النية، ومحبة الخير، والنصح بالمعروف للمزور. ومنها: عدم الإكثار من الزيارة لدرجة الإفراط بحيث يسأم المزور من كثرة التردد عليه. ومنها:

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) [٥٩٥] بإسناد صحيح.

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٢٠٧).

(٣) قال الحافظ في (الفتح) (١٠/٤٩٨): "قد ورد من طرق أكثرها غرائب لا يخلو واحد منها من مقال". ومن هذه الطرق حديث ابن عمرو: وقد أخرجه ابن أبي الدنيا في (كتاب الإخوان) [١٠٤]، والطبراني في (الكبير) [١٧٣]. قال الهيثمي في (مجمع الزوائد) (٨/١٧٥): "رواه الطبراني، وإسناده حسن". وأخرجه أيضًا: أبو الشيخ [١٨]، وتمام [٢٢٨]. و(غبًا): أي: يومًا بعد يوم.

عدم إطالة الزيارة. ومنها: تحري الأوقات المناسبة. ومنها: الالتزام بآداب الاستئذان. ومنها: أن يغض بصره عن محارم أهل البيت. ومنها: أن يشغل وقت الزيارة بالكلام النافع، وأن يحترز عن اللغو، وكثرة المزاح، ويتجنب الغيبة والنميمة، ورفع الصوت، وأن يحترز عن التجسس. ومنها: أن يضبط أولاده فلا يعيثون في بيوت الناس. ومنها: أن يشكر أهل البيت على استضافتهم له.. إلى غير ذلك، فهذه الآداب تحقق مقاصد الزيارة، وأهمها كما تقدم: المحبة، بمعنى أن يكون الباعث الأقوى على الزيارة: المحبة.

ط. إجابة الدعوة وأداء الحقوق:

إنَّ إجابة الدعوة في الإسلام من لوازم الأخوة، وهي من صنائع المعروف التي تزيد الود، وتصفِّي النفوس؛ ولذلك جعلها الإسلام من الحقوق والخصال الواجبة؛ لحديث: هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**حق المسلم على المسلم خمس: رد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس**»(١).

فهذه الحقوق التي بيَّنها النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا قام بها النَّاس حصل بذلك الألفة والمودَّة، وزال ما في القلوب والنُّفوس مِن الضَّغائن والأحقاد.

(١) صحيح البخاري [١٢٤٠]، مسلم [٢١٦٢].

وفي رواية: «**حق المسلم على المسلم ست**»، قيل: ما هن يا رسول الله؟ قال: «**إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه**» (١).

وحديث: «**إذا دعي أحدكم إلى طعام، فليجب، فإن شاء طعم، وإن شاء ترك**» (٢). ففي الحديث: التأكيد على الإجابة واللقاء الذي يحقق المودة والمحبة والتفاهم، ما لم يكن في الإجابة منكر أو ما يجر إلى منكر.

وفي الحديث: «**من استعاذكم بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**» (٣).

---

(١) أخرجه أحمد [٨٨٤٥، ٩٣٤١]، وهو في (صحيح مسلم) [٢١٦٢] مع اختلاف في بعض الألفاظ. وتشميت العاطس أن يقول له: يرحمك الله. ويقال بالسين المهملة والمعجمة لغتان مشهورتان، والمعجمة أفصح. قال ثعلب: معناه بالمعجمة: أبعد الله عنك الشماتة، وبالمهملة هو من السمت، وهو القصد والهدى. وفي الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: عطس عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلان، فشمت أحدهما ولم يشمت الآخر، فقال الذي لم يشمته: عطس فلان فشمته، وعطست أنا فلم تشمتني، قال: «إن هذا حمد الله، وإنك لم تحمد الله» صحيح مسلم [٢٩٩١].

(٢) صحيح مسلم [١٤٣٠].

(٣) أخرجه الطيالسي [٢٠٠٧]، وأحمد [٥٣٦٥]، وابن حميد [٨٠٦]، وأبو داود [١٦٧٢]، والنسائي في (الكبرى) [٢٣٤٨]، وابن الأعرابي [٣٦٧]، وابن حبان [٣٣٧٥]، والطبراني في (الكبير) [٣٣٧٥]، و(الأوسط) [٤٠٣١]، والحاكم [١٥٠٢]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين". كما أخرجه الشهاب [٣٢٦٠]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٢٦٠]، عن ابن عمر. قال الإمام النووي في (الرياض) (ص:٤٨٠): "حديث صحيح، رواه أبو داود، والنسائي بأسانيد الصحيحين".

فكل ما ذكر في الحديث من الأسباب الجالبة للمحبة، ومن حقوق المسلمين بعضهم على بعض.

وفي الحديث: «**فكوا العاني، وأجيبوا الداعي، وعودوا المريض**»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**لو دعيت إلى كراع لأجبت**»(٢).

ي. إفشاء السلام:

إنَّ إفشاء السلام من أقوى الأسباب التي تجلب المحبة والمودة.

وفي الحديث: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**»(٣).

وفي رواية: «**أفشوا السلام بينكم تحابوا**»(٤).

قال الإمام النووي رحمه الله: "والسلام أول أسباب التآلف، ومفتاح استجلاب المودة. وفي إفشائه تمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض، وإظهار شعارهم المميز لهم من

---

(١) صحيح البخاري [٥١٧٤]. و«العاني»: الأسير، وكل من وقع في ذل واستكانة وخضوع.

(٢) صحيح البخاري [٥١٧٨]، مسلم [١٤٢٩]. و«الكراع» عند جماهير العلماء: كراع الشاة. وذكر أهل اللغة أن الكراع وزان: غراب من الغنم والبقر، بمنزلة الوظيف من الفرس والبعير، وهو مستدق الساق.

(٣) صحيح مسلم [٥٤].

(٤) أخرجه الحاكم [٧٣١٠]، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي.

غيرهم من أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النفس، ولزوم التواضع، وإعظام حرمات المسلمين"(١).

والسلام من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، والبداءة بذكره مما لا ريب في فضله ومزيته.

وقد أجمع العلماء على أن الابتداء بالسلام سنة مرغب فيها، ورده فريضة؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ [النساء:٨٦].

ويندب تحسين ردِّ السلام؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾ [النساء:٨٦]، فإذا قيل لكم: (السلام عليكم) فقولوا: (وعليكم السلام ورحمة الله)، فالتحية التي هي أحسن منها هي: (وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته). ويقال: لكل شيء منتهى، ومنتهى السلام كلمة: (وبركاته).

أما ابتداء تحية غير المسلم بالسلام فمنعها أكثر أهل العلم؛ لحديث: أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق، فاضطروه إلى أضيقه**» (٢).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال بعض أصحابنا: يكره ابتداؤهم بالسلام، ولا يحرم، وهذا ضعيف؛ لأن النهي للتحريم، فالصواب تحريم ابتدائهم. وحكى القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن جماعة أنه يجوز ابتداؤهم؛ للضرورة والحاجة. وهو قول علقمة والنخعي رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ. وقال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن سلَّمت فقد سلَّم الصالحون، وإن تركت

(١) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٢/٣٦).
(2) صحيح مسلم [٢١٦٧].

فقد ترك الصالحون. وأما المبتدع، فالمختار أن لا يبدأ بالسلام إلا لعذر وخوف من مفسدة"(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واختلفوا في وجوب الرد على أهل الكتاب، فالجمهور على وجوبه، وهو الصواب، وقالت طائفة: لا يجب الرد عليهم، كما لا يجب على أهل البدع وأولى، والصواب الأول، والفرق أنا مأمورون بهجر أهل البدع؛ تعزيرًا لهم، وتحذيرًا منهم، بخلاف أهل الذمة"(٢).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا كله إذا تحقق أنه قال: (السام عليكم)، أو شك فيما قال، فلو تحقق السامع أن الذمي قال له: (سلام عليكم) لا شك فيه، فهل له أن يقول: وعليك السلام، أو يقتصر على قوله: (وعليك؟)، فالذي تقتضيه الأدلة الشرعية وقواعد الشريعة أن يقال له: (وعليك السلام)؛ فإن هذا من باب: (العدل)، والله جَلَّ وَعَلَا يأمر بالعدل والإحسان.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ﴾، فندب إلى الفضل، وأوجب العدل، ولا ينافي هذا شيئًا من أحاديث الباب بوجه ما؛ فإنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إنما أمر بالاقتصار على قول الراد: (وعليكم)؛ بناء على السبب المذكور الذي كانوا يعتمدونه في تحيتهم، وأشار إليه في حديث: عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا فقال: «**ألا**

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٠٣٩/١٠)، وانظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم (٥٣/٧-٥٤)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٤٤/١٤-١٤٥)، زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (٣٨٨/٢).

(2) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (٣٨٩/٢).

تريني قلت: وعليكم، لما قالوا: السام عليكم؟» (١). ثم قال: «**إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم**» (٢)، والاعتبار وإن كان لعموم اللفظ فإنما يعتبر عمومه في نظير المذكور لا فيما يخالفه.

قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ [المجادلة:٨]، فإذا زال هذا السبب، وقال الكتابي: (سلام عليكم ورحمة الله) فالعدل في التحية يقتضي أن يرد عليه نظير سلامه -وبالله التوفيق-"(٣).

والرد والإيناس حسن إذا كانت المصلحة تقتضي ذلك، كترغيبه في الإسلام، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ الآية [العنكبوت:٤٦].

---

(١) تقدم حديث: عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(2) جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا سلم عليكم اليهود، فإنما يقول أحدهم: السام عليك، فقل: وعليك» صحيح البخاري [٦٢٥٧]، مسلم [٢١٦٤]. وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم» صحيح البخاري [٦٢٥٨]، مسلم [٢١٦٣]. وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: مرَّ يهودي برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: السام عليك، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وعليك»، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أتدرون ما يقول؟ قال: السام عليك»، قالوا: يا رسول الله، ألا نقتله؟ قال: «لا، إذا سلم عليكم أهل الكتاب، فقولوا: وعليكم» صحيح البخاري [٦٩٢٦].

(٣) أحكام أهل الذمة (١/٤٢٥-٤٢٦).

ك. حسن الخلق:

إن من صنائع المعروف التي تؤلف بين القلوب، وتوثق الصلة بين الناس: حسن الخلق.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن الألفة ثمرة حسن الخلق، والتفرق ثمرة سوء الخلق، فحسن الخلق يوجب: التحاب والتآلف والتوافق، وسوء الخلق يثمر: التباغض والتحاسد والتدابر، ومهما كان المثمر محمودًا كانت الثمرة محمودة"(١).

وإنَّ قدوتنا في الأخلاقِ الفاضلة، والسِّيرة الطَّيبة رسولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. كيف لا؟ وقد مدحه الله عَزَّ وَجَلَّ في القرآن فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم:٤]، وقد وصفته السيدة عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا بأن القرآنَ خُلُقُهُ(٢)، بمعنى أن امتثال القرآن أمرًا ونهيًا، وانقيادًا وعملًا، وظاهرًا وباطنًا، كان له سجية وطبعًا. ومعنى ذلك أنَّه قد ألزم نفسه ألا يفعل إلا ما أمره به القرآن، ولا يترك إلا ما نهاه عنه القرآن، فصار امتثال أمر ربه خُلُقًا له وسجية، صلوات الله وسلامه عليه(٣).

قال عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: لم يكن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاحشًا ولا متفحشًا، وكان يقول: «**إنَّ من خياركم أحسنكم أخلاقًا**»(٤).

---

(١) إحياء علوم الدين (٢/١٥٧).

(٢) سئلت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عن خُلق رسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت للسائل: «ألست تقرأ القرآن؟»، قال: بلى، قالت: «فإن خلق نبي الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان القرآن» صحيح مسلم [٧٤٦].

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٨/١٨٩).

(٤) صحيح البخاري [٣٥٥٩].

وفي رواية: قال عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، وقال: «**إنَّ من أحَبِّكُم إليَّ أحْسَنَكُم أخلاقًا**»(١).

وقد سئلت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كيف كان خلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقالت: لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا ولا صَخَّابًا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح(٢).

وفي رواية: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة: أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسًا يوم القيامة: الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون**»، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: «**المتكبرون**»(٣).

---

(١) صحيح البخاري [٣٧٥٩]. وقد تقدم.

(٢) تقدم.

(٣) الحديث مروي عن جابر، وعن أبي ثعلبة الخشني، وعن أبي هريرة. حديث جابر: أخرجه الترمذي [٢٠١٨] وقال: "حسن غريب". كما أخرجه الخرائطي في (مكارم الأخلاق) [٢٤]، وأخرج بقيته في (مساوئ الأخلاق) [٦٣]، و[٥٨٣]، وابن عساكر (٣٩٧/٣٧). حديث أبي ثعلبة الخشني: أخرجه ابن أبي شيبة [٢٥٣٢٠]، وأحمد [١٧٧٣٢]، قال الهيثمي (٢١/٨): "رجاله رجال الصحيح". وأخرجه أيضًا: هناد في (الزهد) [١٢٥٥]، والحارث كما في (بغية الباحث) [٨٥٢]، والخرائطي في (مكارم الأخلاق) [٢٣]، وأخرج بقيته في (مساوئ الأخلاق) [٦٢]، وابن حبان [٤٨٢، ٥٥٥٧]، والطبراني [٥٨٨]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٨٨/٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٦١٦]، والبيهقي [٢٠٥٨٨] وله أطراف أخرى.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "و(الثرثار): هو الكثير الكلام. و(المتشدق): من يتطاول على الناس في الكلام ويَبْذُو عليهم[1].

واعلم أنه لا يدخل في الذم: تحسين ألفاظ الخطب والمواعظ إذا لم يكن فيها إفراط وإغراب؛ لأن المقصود منها تهييج القلوب إلى طاعة الله عز وجل، ولحسن اللفظ في هذا أثر ظاهر"[2].

وعن عبد الله بن سلام، قال: لما قدم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة انجفل الناس إليه[3]، وقيل: قدم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبنت وجه رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: «**يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام، تدخلون الجنة بسلام**»[4]. فما ذكر في الحديث من صنائع المعروف، ومن الأخلاق السامية الجالبة للمحبة.

---

(١) (البَذَاء): الفحش في القول. يقال: "بذا على القوم يبذو بذاء بالفتح والمد: سفه وأفحش في منطقه – وإن كان كلامه صدقًا– فهو بذي على فعيل، وامرأة بذية كذلك، وأبذى بالألف وبذي وبذو من بابي: تعب وقرب لغات فيه. وبذأ يبذأ مهموز بفتحهما بذاء وبذاءة بالمد وفتح الأول كذلك، وبذأته العين: ازدرته واستخفت به" المصباح المنير، مادة: (بذو) (٤١/١).

(٢) الأذكار (ص:٣٧٢).

(٣) أي: ذهبوا مسرعين.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٥٨٤٧]، وأحمد [٢٣٧٨٤]، وعبد بن حميد [٤٩٦]، والدارمي [١٥٠١]، وابن ماجه [١٣٣٤]، والترمذي [٢٤٨٥]، وقال: "هذا حديث صحيح"، كما أخرجه الطبراني في=

وقد تقدم أن حسن الخلق ولين الجانب من المنجيات من العذاب في الآخرة، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا أخبركُم بمن يَحْرُمُ على النَّار، أو بمن تَحْرُمُ عليه النَّار، على كلِّ قريبٍ هَيّنٍ سَهْلٍ**»[1].

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير مثال تطبيقي للأخلاق الفاضلة. وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تحت عنوان: (فائدة جليلة): "جمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين تقوى الله عَزَّ وَجَلَّ وحسن الخلق؛ لأن تقوى الله يصلح ما بين العبد وبين ربه عَزَّ وَجَلَّ، وحسن الخلق يصلح ما بينه وبين خلقه، فتقوى الله توجب له محبة الله، وحسن الخلق يدعو إلى محبته"[2].

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثير الدعاء لله عَزَّ وَجَلَّ، دائم الابتهال إلى الله عَزَّ وَجَلَّ أن يزينه بمكارم الأخلاق، فكان يقول في دعائه: «**اللهم كما أحسنت خَلْقِي فأحسن خُلُقِي**»[3]. فاستجاب الله عَزَّ وَجَلَّ دعائه، وأنزل عليه القرآن الكريم وأدبه به، فكان خُلُقُه القرآن.

=(الكبير) [٣٨٥]، والحاكم [٤٢٨٣]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: تمام [١٠٦٦]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٠٩٠]، والضياء [٤٠٤].

(١) تقدم.

(٢) الفوائد، لابن القيم (ص:٥٤).

(٣) أخرجه أحمد عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا [٢٤٣٩٢]. قال الهيثمي (١٠/١٧٣): "رجاله رجال الصحيح". وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٨١٨٤].

ل. إصلاح ذات البين:

ومن صنائع المعروف: إصلاح ذات البين في النزاع والخصومات بين الأفراد، وبين الجماعات من القبائل والطوائف، وبين الإخوة، وبين الزوجين، وبين الأقارب والأرحام:

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بإصلاح ذات البين فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ﴾ [الأنفال:١]. قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ﴾، أي: ما بينكم من الأحوال، حق تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق (١).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ﴾ [الحجرات:٩-١٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآۗ﴾ [النساء:٣٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝١٢٨ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝١٢٩﴾ [النساء:١٢٨-١٢٩].

---

(١) الكشاف (٢/١٩٥).

والاشتغال بالصلح بين المتخاصمين أفضل من الاشتغال بنوافل العبادات؛ لما في الإصلاح بين الناس من نفع يتعدى إلى غير واحد فيكون سببًا في وصل أرحام قطعت، وإلى تآلفِ قلوبٍ بين إخوان أو جماعات يؤول إلى وصل بعد هجر وخصام، وذلك يؤدي إلى متانة المجتمع وقوته بتآلف أفراده وتماسكهم.

وقد جاء في الحديث: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟**»، قالوا: بلى، يا رسول الله قال: «**إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين الحالقة**» (١).

وفي رواية: «**وإن البغضة هي الحالقة**» (٢).

وفي (المرقاة): "قال الأشْرَف: المراد بهذه المذكورات النوافل دون الفرائض. قلت: -والله أعلم بالمراد- إذ قد يتصور أن يكون الإصلاح في فساد يَتَفَرَّعُ عليه سفك الدماء، ونهب الأموال، وهَتْكُ الْحُرُم أَفْضَلُ من فَرَائِض هذه العبادات الْقَاصِرَةِ مع إمكانِ قَضَائِهَا على فَرْضِ تركها، فهي من حقوق الله عَزَّوَجَلَّ التي هي أهون عنده جَلَّوَعَلَا من حقوق العباد، فإذا كان كذلك، فيصح أن يقال هذا الجنس من العمل

(١) أخرجه أحمد [٢٧٥٠٨]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٣٩١]، وأبو داود [٤٩١٩]، والترمذي [٢٥٠٩]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: البزار [٤١٠٩]، وقال: "إسناده صحيح". كما أخرجه: الخرائطي في (مكارم الأخلاق) [٣٨٥]، وابن حبان [٥٠٩٢]، والطبراني في (مكارم الأخلاق) [٧٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٠٥٧٨].

(٢) الأدب المفرد [٤١٢].

أفضل من هذا الجنس، لكون بعض أفراده أَفْضَلَ كَالْبَشَرِ خَيْرٌ من الْمَلَكِ، والرَّجُلُ خَيْرٌ من المرأة"(١).

وقوله: «**وإن البغضة هي الحالقة**»؛ لأن في تباغضهم افتراق كلمتهم وتشتت أمرهم، وفى ذلك ظهور عدوهم عليهم ودروس دينهم (٢).

وفي (المرقاة): قوله: «**هي الحالقة**»، أي: الماحية والمزيلة للمثوبات والخيرات، والمعنى: يمنعه شؤم هذا الفعل عن تحصيل الطاعات والعبادات.

وقيل: المهلكة من حَلَقَ بعضُهُم بَعْضًا، أي: قَتْلٌ مأخوذٌ من حَلْقِ الشَّعْر.

وفي (النهاية) (٣) هي الخصلة التي من شأنها أن تحلق، أي: تهلك، وتستأصل الدين كما يستأصل الموس الشعر.

وقيل: هي قطيعة الرحم والتظالم (٤).

وقال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٥): فيه حث وترغيب في إصلاح ذات البين واجتناب عن الإفساد فيها؛ لأن الإصلاح سبب للاعتصام بحبل الله عَزَّوَجَلَّ، وعدم التفرق بين المسلمين، وفساد ذات البين ثُلْمَةٌ في الدين، فمن تعاطى إصلاحها ورفع فسادها نال

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣١٥٣/٨).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢٥٩/٩).

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (حَلَقَ) (٤٢٨/١).

(٤) قال الزمخشري: "«الحالقة»: قطيعة الرحم والتظالم؛ لأنها تجتاح الناس وتهلكهم كما يحلق الشعر يقال: وقعت فيهم حالقة لم تدع شيئًا إلا أهلكته". الفائق في غريب الحديث والأثر (٣١٣/١)، وانظر: فيض القدير (١٢٦/٣).

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن) (٣٢١٤/١٠).

درجة فوق ما يناله الصائم القائم المشتغل بِخُوَيْصَةِ نفسه، فعلى هذا ينبغي أن يحمل الصلاة والصيام على الإطلاق، والحالقة على ما يَحْتَاجُ إليه أَمْرُ الدِّينِ"(١).

والإصلاح بين الناس معدود من الصدقات، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كل سُلاَمَى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة**» (٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "«**يعدل بين الاثنين صدقة**»، أي: يصلح بينهما بالعدل"(٣).

وينبغي الاحتراز عما يفسد ذات البين، ومن ذلك: المجادلة الباطلة (٤).. إلى غير ذلك.

---

(١) مرقاة المفاتيح (٨/٣١٥٤).

(٢) أخرجه البخاري [٢٩٨٩]، ومسلم [١٠٠٩]. و«سلامى» قال الإمام النووي: "هو بضم السين وتخفيف اللام، وأصله: عظام الأصابع وسائر الكف، ثم استعمل في جميع عظام البدن ومفاصله" شرح النووي على صحيح مسلم (٥/٢٣٣).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٩٥).

(٤) انظر: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (٩/٣١٦).

م. الشفاعة الحسنة:

إنَّ من صنائع المعروف، ومن أعظم ما ينفع الناس وقت شدتهم، ويرفع عنهم الظلم والشر، ويحق الحق، ويجلب لهم الخير والنفع: الشفاعة الحسنة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ [النساء:٨٥].

قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾، أي: يتوسط في أمر فيترتب عليه خير من دفع ضر، أو جلب نفع؛ ابتغاء لوجه الله عَزَّوَجَلَّ. ﴿يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ﴾ وهو ثواب الشفاعة، والتسبب إلى الخير الواقع بها. ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً﴾ وهي ما كانت بخلاف الحسنة، بأن كانت في أمر غير مشروع. ﴿يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ أي: نصيب من وزرها الذي ترتب على سعيه، مساو لها في المقدار من غير أن ينقص منه شيء.

وقد تكون الشفاعة الحسنة أو الوجاهة في الخير سببًا في رفع ظلم، ودفع الشر، أو إيصال الخير.

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشفاعة الحسنة: هي التي روعي بها حق مسلم، ودفع بها عنه شر، أو جلب إليه خير. وابتغى بها وجه اللَّه عَزَّوَجَلَّ، ولم تؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائز لا في حدّ من حدود اللَّه ولا في حق من الحقوق.

والسيئة: ما كان بخلاف ذلك"(١).

---

(١) الكشاف (٥٤٣/١).

قال الإمام السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيه: مدح الشفاعة، وذم السعاية، وهي: الشفاعة السيئة وذكر الناس عند السلطان بالسوء وهي معدودة من الكبائر"(١).

وقال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشفاعة: الوساطة في إيصال خير أو دفع شر، سواء كانت بطلب من المنتفع أم لا. ووصفها بالحسنة وصف كاشف؛ لأن الشفاعة لا تطلق إلا على الوساطة في الخير، وأما إطلاق الشفاعة على السعي في جلب شر فهو مشاكلة، وقرينتها وصفها بسيئة"(٢).

وقد جاء في الحديث: عن أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أتاه طالب حاجة، أقبل على جلسائه فقال: «**اشفعوا فَلْتُؤْجَرُوا، وليقضِ الله على لسان نَبِيِّهِ ما أَحَبَّ**» (٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيه استحباب الشفاعة لأصحاب الحوائج المباحة، سواء كانت الشفاعة إلى سلطان ووال ونحوهما، أم إلى واحد من الناس، وسواء كانت الشفاعة إلى سلطان في كفِّ ظلم، أو إسقاط تعزير، أو في تخليص عطاء لمحتاج، أو نحو ذلك. وأما الشفاعة في الحدود فحرام، وكذا الشفاعة في تتميم باطل، أو إبطال حق، ونحو ذلك فهي حرام"(٤).

---

(١) الإكليل في استنباط التنزيل (ص:٩٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٤٣/٥-١٤٤).

(٣) صحيح البخاري [١٤٣٢، ٦٠٢٦، ٦٠٢٧، ٧٤٧٦]، مسلم [٢٦٢٧].

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧٧/١٦-١٧٨).

قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذه الشفاعة المذكورة في الحديث هي في الحوائج والرغبات للسلطان، وذوي الأمر والجاه، كما شهد به صدر الحديث ومساقه، ولا يخفى ما فيها من الأجر والثواب؛ لأنها من باب: (صنائع المعروف، وكشف الكرب ومعونة الضعيف)؛ إذ ليس كل أحد يقدر على الوصول إلى السلطان وذوي الأمر"(١).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشفاعة لأصحاب الحوائج والرغبات عند السلطان وغيره مشروعة محمودة، مأجور عليها صاحبها، بشهادة هذا الحديث، وشهادة كتاب الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً﴾ [النساء:٨٥] على أحد التأويلين.

وفيه: أن معونة المسلم فى كل حال بفعل أو قول فيها أجر، وفيه: عموم الشفاعة للمذنبين، وهى جائزة فيما لا حدَّ فيه عند السلطان وغيره، وله قبول الشفاعة فيه والعفو عنه إذا رأى ذلك، كما له العفو عنه ابتداء، وهذا فيمن كانت منه الذلة والفلتة، وفي أهل الستر والعفاف، ومن طمع بوقوعه عند السلطان والعفو عنه من العقوبة أن يكون له توبة، وأما المصِرُّون على فسادهم، المستهزئون فى باطلهم، فلا تجوز الشفاعة لأمثالهم، ولا ترك السلطان عقوبتهم؛ ليزدجروا عن ذلك، وليرتدع غيرهم بما يفعل بهم، وقد جاء الوعيد في الشفاعة في الحدود"(٢).

قوله: (وقد جاء الوعيد في الشفاعة في الحدود)، يعني: ما جاء في حديث: عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**من حالت شفاعته**

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦٣٣/٦).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (١٠٧/٨).

دون حد من حدود الله، فقد ضاد الله، ومن خاصم في باطل وهو يعلمه، لم يزل في سخط الله حتى ينزع عنه، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال»[(١)]. و«**ردغة الخبال**»، وهي صديد أهل النار.

في الحديث: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن قريشًا أَهَمَّهُمْ شأنُ المرأة المخْزُومِيَّة التي سرقت، فقالوا: ومن يُكَلِّمُ فيها رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حِبُّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ من حدود الله، ثم قام فَاخْتَطَبَ، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وَايْمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»**[(٢)].

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "ذهب جماعة العلماء إلى أن الحدَّ إذا بلغ الإمام أنه يجب عليه إقامته؛ لأنه قد تعلق بذلك حق لله عَزَّوَجَلَّ، ولا تجوز الشفاعة فيه؛ لإنكاره ذلك على أسامة، وذلك من أبلغ النهي"[(٣)]، ولحديث: صفوان بن أمية أن رجلًا سرق بُرْدَةً

---

(١) أخرجه أحمد [٥٣٨٥]، وأبو داود [٣٥٩٧]، والطبراني [١٣٤٣٥]، والحاكم [٢٢٢٢] وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن) [١١٤٤١]، وفي (شعب الإيمان) [٦٣٠٩].

(٢) صحيح البخاري [٣٤٧٥، ٤٣٠٤، ٦٧٨٧، ٦٧٨٨]، مسلم [١٦٨٨].

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨/ ٤٠٨).

فرفعه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمر بقطعه فقال: يا رسول الله، قد تَجَاوَزْتُ عنه. قال: «**فلولا كان هذا قبل أن تأتيني به يا أبا وهب**»، فقطعه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

وفي رواية: عن صفوان بن أمية، قال: كنت نائمًا في المسجد عَلَيَّ خَمِيصَةٌ لِي ثَمَنُهَا ثَلَاثُون درهمًا، فجاء رجل فَاخْتَلَسَهَا مِنِّي، فَأُخِذَ الرَّجُلُ، فَأُتِيَ به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَ به لِيُقْطَع، قال: فَأَتَيْتُه، فقلت: أَتَقْطَعُه من أجل ثلاثين درهمًا، أنا أَبِيعُه وَأُنْسِئُه ثمنها؟ قال: «**فَهَلَّا كان هذا قبل أن تأتيني به**» (٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ذكر مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ في الباب الأحاديث في النهي عن الشفاعة في الحدود، وأن ذلك هو سبب هلاك بني إسرائيل، وقد أجمع العلماء على تحريم الشفاعة في الحد بعد بلوغه إلى الإمام لهذه الأحاديث. وعلى أنه يحرم التَّشْفِيع

---

(١) أخرجه أحمد [١٥٣٠٥]، والنسائي في (السنن) [٤٨٧٩]، وفي (الكبرى) [٧٣٢٤]، والطبراني [٧٣٣٧]، والضياء [٧]. وهو صحيح بالمتابعة.

(٢) أخرجه أبو داود [٤٣٩٤]، والنسائي في (السنن) [٤٨٨٣]، وفي (الكبرى) [٧٣٢٨]، وابن الجارود [٨٢٨]، والدارقطني [٣٤٦٥]، والحاكم [٨١٤٩]، والبيهقي [١٧٢١٨]. قال ابن الملقن: "هذا الحديث صحيح، رواه مالك في (الموطأ)، والشافعي عنه، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والبيهقي في (سننهم)، والحاكم في (مستدركه) بألفاظ متغايرة.." البدر المنير (٦٥٢/٨). وقال الحافظ في (التلخيص الحبير) (١١٩/٤-١٢٠): "أخرجه مالك، والشافعي، وأصحاب السنن، والحاكم من طرق: منها: عن طاوس، عن صفوان، ورجحها ابن عبد البر، وقال: إن سماع طاوس من صفوان ممكن؛ لأنه أدرك زمن عثمان، وقال البيهقي: روي عن طاوس، عن ابن عباس، وليس بصحيح، ورواه مالك، عن الزهري، عن عبد الله بن صفوان، عن أبيه: أنه طاف بالبيت وصلى، ثم لف رداء له من برد، فوضعه تحت رأسه، فنام، فأتاه لص فاستله من تحت رأسه، فأخذه. فذكر الحديث أخرجه ابن ماجه، وله شاهد في (الدارقطني) من حديث: عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، وسنده ضعيف".

فيه، فأما قبل بلوغه إلى الإمام فقد أجاز الشفاعة فيه أكثر العلماء إذا لم يكن المشفوع فيه صاحب شَرٍّ وَأَذًى للناس، فإن كان لم يُشْفَعْ فيه. وأما المعاصي التي لا حَدَّ فيها وواجبها التعزير فتجوز الشفاعة والتشفيع فيها سواء بلغت الإمام أم لا؛ لأنها أهون، ثم الشفاعة فيها مستحبة إذا لم يكن المشفوع فيه صاحب أذى ونحوه"(١).

قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي هذا الحديث: دليل على امتناع الشفاعة في الحدِّ بعد بلوغه السلطان، وفيه تعظيم أمر المحاباة للأشراف في حقوق الله جَلَّ وَعَلَا"(٢).

ن. الزهد في الدنيا، والتَّعفُّف عن سؤال النَّاس:

إن الزهد في الدنيا والتَّعفُّف عن سؤال النَّاس من الأسباب تجلب المحبة، وتوثق الصِّلة مع الله عَزَّوَجَلَّ، ومع الناس، كما جاء في الحديث: «**ازهد في الدنيا يحبَّك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس**» (٣)؛ لأن قلوبهم مجبولة على حبِّها مطبوعة

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١١/١٨٦)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٦/٢٣٦٧).

(٢) إحكام الإحكام (٢/٢٤٨).

(٣) الحديث مروي عن سهل بن سعد وقد أخرجه ابن ماجه [٤١٠٢]، والطبراني [٥٩٧٢]، والحاكم [٧٨٧٣]، وقال: "صحيح الإسناد". قال الذهبي: "خالد بن عمرو القرشي وضاع". ولكنه لم يتفرد به. وأخرجه أيضًا: القضاعي [٦٤٣]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٠٠٤٣]. وأورده ابن أبي حاتم في (العلل) [١٨١٥]، وابن الجوزي في (العلل المتناهية) [١٣٥٢]. قال المنذري: "رواه ابن ماجه، وقد حسن بعض مشايخنا إسناده، وفيه بعد؛ لأنه من رواية خالد بن عمرو القرشي الأموي السعيدي، وخالد هذا قد ترك، واتهم ولم أر من وثقه؛ لكن على هذا الحديث لامعة من أنوار النبوة، ولا يمنع كونه رواه الضعفاء أن يكون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاله اهـ". الترغيب والترهيب (٤/٧٤-٧٥). قال=

عليها، ومن نازع إنسانًا في محبوبه كرهه وقلاه، ومن لم يعارضه فيه أحبه واصطفاه؛ ولهذا قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يزال الرجل كريمًا على الناس حتى يطمع في دنياهم فيستخفون به ويكرهون حديثه. وقيل لبعض أهل البصرة: من سيدكم؟ قال: الحسن، قال: بم سادكم؟ قال: احتجنا لعلمه، واستغنى عن دنيانا (١).

وكتب أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إلى بعض إخوانه: أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله، والزهد في الدنيا، والرغبة فيما عند الله، فإنك إذا فعلت ذلك أحبك الله؛ لرغبتك فيما عنده، وأحبك الناس؛ لتركك لهم دنياهم والسلام (٢).

س. المحبة في الله عَزَّ وَجَلَّ**، وإرادة الخير:**

جاء في فضل الحُبِّ في الله عَزَّ وَجَلَّ: ما رواه أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله يقول يوم القيامة: أين الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي، اليومَ أُظِلُّهُمْ في ظِلِّي يوم لا ظِلَّ إلَّا ظِلِّي**» (٣).

=الإمام النووي: "حديث حسن، رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنة" رياض الصالحين (ص:١٧٥)، الأذكار (ص:٤٠٧)، وانظر: فيض القدير (٤٨١/١)، مصباح الزجاجة (٢١٠/٤).

(١) فيض القدير (٤٨١/١).

(٢) شعب الإيمان [١٠١٧٩].

(٣) صحيح مسلم [٢٥٦٦].

إنَّ الأخوة في الله عَزَّوَجَلَّ ركيزة من ركائز هذا الدين، ورابطة وثيقة تسمو على سائر العلاقات التي تربط بين الناس؛ لأنها مبنية على العقيدة، وهي أوثق الروابط وأقواها.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

وفي الحديث: «**لا يؤمن أحدكم، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**»(١)، وفي رواية: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن عبد حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير**»(٢). فهذا الحديث أصل عظيم في محبة المسلمين، والنصح لهم وإيثارهم؛ فإنَّ من كمال إيمان العبد: أن يحب لأخيه المسلم من الخير ما يحب لنفسه، وأن يكره لأخيه المسلم من الشر ما يكره لنفسه، وأن يرشد إخوانه إلى ما ينفعهم، ويحذرهم عما يضرهم.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المؤمن يسره ما يسر أخاه المؤمن، ويريد لأخيه المؤمن ما يريده لنفسه من الخير، وهذا كله إنما يأتي من كمال سلامة الصدر من الغل والغش والحسد"(٣).

(١) صحيح البخاري [١٣]، مسلم [٧١].

(٢) أخرجه وأحمد [١٣٦٢٩]، النسائي في (السنن) [٥٠١٧]، وأبو يعلى [٢٨٨٧]، والشهاب [٨٨٨].
وفي رواية: «لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يحب للناس ما يحب لنفسه من الخير» أخرجه أبو يعلى [٣٠٨١]، وابن حبان [٢٣٥]، والضياء [٢٥٢٥].

(٣) جامع العلوم والحكم (٣٠٦/١).

وفي الحديث: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**» (١).

وفي الحديث: «**ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضوًا تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى**» (٢).

وفي الحديث: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة**» (٣).

فقوله: «**ولا يسلمه**» أي: لا يتركه مع من يؤذيه، ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه (٤).

وفي رواية: «**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا (٥)، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره التقوى هاهنا**»، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، «**بحسب امرئ**

---

(١) صحيح البخاري [٤٨١، ٢٤٤٦، ٦٠٢٦]، مسلم [٢٥٨٥].

(٢) صحيح البخاري [٦٠١١]، واللفظ له، ومسلم [٦٦، ٦٧].

(٣) صحيح البخاري [٢٤٤٢، ٦٩٥١] عن عبد الله بن عمر، وأخرجه مسلم [٢٥٨٠] عن الزهري، عن سالم، عن أبيه.

(٤) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٥/ ٩٧).

(٥) قال الإمام أبو العباس القرطبي في (شرحه لصحيح مسلم): "أي: كونوا كإخوان النسب في الشفقة والمحبة والرحمة والمواساة والمعاونة والنصيحة" المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٥٣٢)، وانظر: طرح التثريب، للعراقي (٨/٩٧)، فتح الباري، لابن حجر (١٠/٤٨٣).

من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه» [1].

وفي رواية: «**المسلم أخو المسلم، لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام، عرضه وماله ودمه»** [2].

فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يعيبه، ولا يخذله، ولا يتطاول عليه في البنيان، فيستر عليه الريح إلَّا بإذنه، ولا يؤذيه بِقُتَارِ قدره [3] إلَّا أن يَغْرِفَ له، ولا يشتري لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره، ولا يطعمونهم منها.. إلى غير ذلك.

قال يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا حقيقة الحب في الله عَزَّوَجَلَّ: "حقيقة الحب في الله جَلَّوَعَلَا أن لا يزيد بالبر، ولا ينقص بالجفاء"[4].

والمودة والرحمة رباط وثيق أساسه الإيمان والعقيدة، وقد امتنَّ الله عَزَّوَجَلَّ على عباده فألَّف بينهم، وجعل بينهم مودة ورحمة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءً فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنًا﴾ [آل عمران:١٠٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدًّا ٩٦﴾ [مريم:٩٦]، ففيه إشارة إلى ما أوقع بينهم من الألفة المذكورة في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الأنفال:٦٣].

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٦٤].

(٢) أخرجه الترمذي [١٩٢٧]، وقال: "حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: البزار [٨٨٩١].

(٣) القتار: الدخان المنبعث من المطبوخ ونحوه.

(٤) انظر: فتح الباري (٦٢/١)، فيض القدير (١٦٧/١).

والإخوة في الدين رابطة متينة توجب على المرء السعي في خير أخيه من خلال النصح والإرشاد والتعاون على البر والتقوى والعمل الصالح، وتحذيره من الظلم والبغي والشر، ومنعه من ذلك إن سلك طريقه، أو سعى إليه. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾ [الحجرات:٩-١٠].

والأخوَّة الحقيقيَّة هي التي تقوم على الإيمان والمحبة في الله عَزَّوَجَلَّ ولله، وليس من أجل منفعةٍ دنيويَّة، أو مصلحةٍ شخصيَّة، أو عصبيَّة قبليَّة، أو غير ذلك من الماديَّات، فما كان لله عَزَّوَجَلَّ دام واتَّصل، وما كان لغيره انقطع وانفصل.

وقد قيل: إنَّ الكلمة منفردة وحيدة لا تعدو أن تكون رسمًا، قد تُفهمك معنى، ولكن فيضَ معانيها، وجمال قدرها لا يدرك إلَّا باتساقها مع غيرها من الكلمات، وكذلك هو حال المؤمن مع إخوانه وأحبابه..

قال ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: "القرابة الدينية أعظم من القرابة الطينية، والقرب بين القلوب والأرواح أعظم من القرب بين الأبدان"(١).

(١) منهاج السنة النبوية (٧/٧٨).

ع. **مقابلة الإحسان بالإحسان:**

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن:٦٠].

فالإحسان الأول: العمل، والإحسان الثاني: الثواب والجزاء الجميل الكريم على فعل الخير.

وجزاء الإحسان في كلِّ شيء بحسبه.

وفي الحديث: «**من استعاذكم بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**» (١).

قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ومن صنع إليكم معروفًا**» "أي: أحسن إليكم إحسانًا قوليًا أو فعليًا. «**فكافئوه**» من المكافأة، أي: أحسنوا إليه مثل ما أحسن إليكم، لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن:٦٠]. وقوله: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧].

قوله: «**فإن لم تجدوا ما تكافئونه**»، أي: بالمال. «**فادعوا له**» أي: للمحسن، يعني: فكافئوه بالدعاء له. «**حتى تروا**» -بضم التاء- أي: تظنوا، -وبفتحها- أي: تعلموا أو تحسبوا. «**أنكم قد كافأتموه**» أي: كرروا الدعاء حتى تظنوا قد أدَّيتُم حقَّه (٢).

---

(١) تقدم.

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح (١٣٥٥/٤)، المفاتيح في شرح المصابيح (٥٥٣/٢).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المعنى: أن من أحسن إليكم أيَّ إحسان فكافئوه بمثله، فإن لم تقدروا على ذلك، فبالغوا في الدعاء له جهدكم حتى تحصل المثيلة، ووجه المبالغة: أنه رأى من نفسه تقصيرًا في المجازاة، فأحالها إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ونعم المجازي هو. وقد جاء في حديث آخر: عن أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من صنع إليه معروف، فقال: جزاك الله خيراً، فقد أبلغ في الثناء**»"(١). وقال في موضع آخر: "وذلك أنه اعترف بالتقصير، وأنه ممن عجز عن جزائه وثنائه، ففوض جزاءه إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ليجزيه الجزاء الأوفى"(٢).

قال بعضهم: إذا قصرت يداك بالمكافأة فليطل لسانك بالشكر والدعاء.

وعن عبد الله بن أبي ربيعة، عن أبيه، عن جده، قال: استقرض مني النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربعين ألفًا، فجاءه مال فدفعه إليَّ، وقال: «**بارك الله لك في أهلك ومالك، إنما جزاء السَّلف: الحمدُ والأداء**»(٣).

وقوله: «**إنما جزاء السلف**»: أي: القرض. «**الحمد**»: أي: الشكر والثناء. «**والأداء**»: أي: أداء حقه بحسن الوفاء.

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٥٦٦/٥). والحديث أخرجه: الترمذي [٢٠٣٥] وقال: "حسن جيد غريب". كما أخرجه: البزار [٢٦٠١]، والنسائي في (الكبرى) [٩٩٣٧]، وابن حبان [٣٤١٣]، والطبراني في (الصغير) [١١٨٣]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٨٧١٣]، والضياء [١٣٢٢].

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٢٢٣١/٧).

(٣) أخرجه أحمد [١٦٤١٠]، وابن ماجه [٢٤٢٤]، والنسائي [٤٦٨٣]، وأبو نعيم في (الحلية) (١١١/٧)، والبيهقي [٦٢٣٦]. قال الحافظ العراقي: "أخرجه النسائي من حديث: عبد الله بن أبي ربيعة قال: استقرض مني النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أربعين ألفًا، فجاءه مال فدفعه إلي.. قال: فذكره. وإسناده حسن".

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيستحب للمدين عند قضاء الدين أن يحمد المقضي له بأن يقول: (بارك الله لك في أهلك ومالك) انتهى"[(١)]. وما اقتضاه وضع «**إنما**» من ثبوت الحكم المذكور، ونفيه عما عداه من أن الزيادة على الدين زيادة غير جائزة غير مراد، وإنما هو على سبيل الوجوب؛ لأن شكر المنعم وأداء حقه واجبان، والزيادة فضل -ذكره الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ- [(٢)].

وقد قالوا: لا مانع من ردِّ المبلغ مع زيادة، لكن بدون شرط، ولا تواطؤ على الزيادة؛ لحديث: أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رجلًا أتى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتقاضاه بعيرًا، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أعطوه**»، فقالوا: ما نجد إلا سِنًّا أفضل من سِنِّه، فقال الرجل: أوفيتني أوفاك الله، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أعطوه؛ فإن من خيار الناس: أحسنهم قضاء**» [(٣)].

وعند مسلم: عن أبي رافع أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استسلف من رجل بَكْرًا، فقدمت عليه إبل من إبل الصدقة، فأمر أبا رافع أن يقضي الرجل بكره، فرجع إليه أبو رافع، فقال: لم أجد فيها إلا خيارًا رباعيًّا، فقال: «**أعطه إياه، إن خيار الناس أحسنهم قضاء**» [(٤)].

---

(١) إحياء علوم الدين (١/٣٢٨).

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٧/٢١٨٢)، وانظر: فيض القدير (٢/٥٧٣).

(٣) صحيح البخاري [٢٣٩٢].

(٤) صحيح مسلم [١٦٠٠].

وعبارة الفقهاء: (كل شرط جرَّ نفعًا للمقرض فهو ربًا) فقالوا: (كل شرط)، ولم يقولوا: (كل زيادة).

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكل قرض شرط فيه أن يزيده، فهو حرام، بغير خلاف. قال ابن المنذر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أجمعوا على أن المسلف إذا شرط على المستسلف زيادة أو هدية، فأسلف على ذلك، أن أخذ الزيادة على ذلك ربًا"(١).

قالوا: وأما إذا كانت الزيادة المفروضة على أصل الدين بدل خدمات ومصاريف للقرض، فلا مانع شرعًا من فرضها، شريطة أن تكون حقيقية، وعلى قدر التكلفة الفعلية.

والمسألة مبسوطة في كتب الفقه.

رابعًا: الحرصُ على أعمال البرِّ:

تعريف البر:

١ - البر لغة:

تدور مادة: (البر) في اللغة: على الصدق، والطاعة، والصلة، والإصلاح، والخير، والاتساع في الإحسان إلى الخلق.

يقال: بر يبر: إذا صلح. وبر في يمينه: إذا صدق، والبر: الصادق.

---

(١) المغني، لابن قدامة (٤/٢٤٠)، الإجماع، لابن المنذر (ص:١٠٩).

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "البِرُّ: خلاف العُقوقِ، والمبَرَّةُ مثْله. تقول: بَرِرْتُ والدي بالكسر، أَبَرُّهُ بِرًّا، فأنا بَرٌّ به وبارٌّ. وجمع البَرَّ: أَبْرارٌ، وجمع البار: البررة. وفلان يبر خالقه ويَتَبَرَّرُه، أي: يطيعه، والأمُّ بَرَّةٌ بولدها. وبَرَّ فلانٌ في يمينه، أي: صَدَقَ. وبَرَّ حَجُّهُ، وبُرَّ حجه، وبر الله عَزَّوَجَلَّ حجه، براء -بالكسر- في هذا كلِّه"[(١)]، أي: قَبِله.

وقال الليثُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: البَرُّ: خلاف البَحْر. والبَرِّية: الصَّحْراء. والبَرّ: نَقِيض الكِنّ.

قال: والعرب تستعمله في النَّكرة. تَقُول: جلستُ بَرًّا، وخَرَجْتُ بَرًّا[(٢)].

قال أبو منصور الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا من كلام المولَّدين، وما سمعْتُه من فُصحاء العرب البادية.

ويقال: أَفْصَح العرب أَبَرُّهم.

معناه: أبعدهم في البَرِّ والبَدْو دارًا.

وقال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم:٤١].

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معناه: ظهر الجَدْبُ في البَرّ، والقَحْطُ في البَحْر، أي: في مُدُن البَحْر، أي: في المدُن التي على الأنْهَار[(٣)].

وقال شَمِر: البَرّية: الأرض المنْسوبة إلى البَرِّ، وهي بُرِّيَّة، إذا كانت إلى البَرّ أقرب منها إلى الماء.

---

(١) الصحاح، مادة: (برر) (٢/٥٨٨)، وانظر: مقاييس اللغة (١/١٧٩).

(٢) العين، مادة: (بر) (١٥/١٣٤).

(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق الزجاج (٤/١٨٨).

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٥٩]. قال: البَرّ: القِفَار. والبَحْر: كل قَرْية فيها ماء.

وقال شِمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تَفْسِير قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عليكم بالصدق؛ فإنَّ الصدق يهدي إلى البر**»(١). اختلف العلماء في تفسير البر، فقال بعضهم: البر: الصلاح. وقال بعضهم: البر: الخير. قال: ولا أعلم تفسيراً أجمع منه؛ لأنه يحيط بجميع ما قالوا. الحج المبرور: الذي لا يخالطه شيء من المآثم. والبيع المبرور: الذي لا شبهة فيه، ولا كذب، ولا خيانة..

ويقال: بَرَّ فُلانٌ ذا قرابته، يَبَرّ بِرًّا.

وقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]. قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال بعضهم: إن كل ما يتقرب به إلى الله عَزَّوَجَلَّ من عمل خير فهو إنفاق(٢).

قال أبو منصور الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: البِرُّ: خير الدنيا والآخرة، فخير الدنيا: ما ييسره الله عَزَّوَجَلَّ للعبد من الهدى والنعمة والخيرات، وخير الآخرة: الفوز بالنعيم الدائم في الجنة. والبر من صفات الله عَزَّوَجَلَّ العطوف الرحيم اللطيف الكريم"(٣).

(١) أخرجه البخاري [٦٠٩٤]، ومسلم [٢٦٠٧].
(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق الزجاج (١/٤٤٣).
(٣) تهذيب اللغة، مادة: (بر) (١٥/١٣٤).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "البَرُّ خلاف البحر، وتصور منه: التوسع، فاشتق منه البِرُّ، أي: التوسع في فعل الخير.."[(١)].. وسيأتيك تمام قوله.

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في أسماء الله عَزَّوَجَلَّ: (البر) هو العطوف على عباده ببره ولطفه. والبر والبار بمعنى، وإنما جاء في أسماء الله عَزَّوَجَلَّ: (البر) دون (البار). و(البر) -بالكسر-: الإحسان.

ومنه الحديث في (بر الوالدين)، وهو في حقهما، وحق الأقربين من الأهل، ضد العقوق، وهو الإساءة إليهم، والتضييع لحقهم. يقال: بر يبر فهو بار، وجمعه: بررة، وجمع البر: أبرار، وهو كثيرًا ما يخص بالأولياء والزهاد والعباد"[(٢)].

٢ - تعريف البر في الاصطلاح، وبيان أنواعه، ومكانته:

بناء على ما تقدم من معنى: (البر) في اللغة يقال: إن (البر) في الاصطلاح: هو اسم جامع لكل ما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ ويرضاه، من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة.

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الْبِرَّ: اسم للخير، ولكل فعل مرضيٍّ"[(٣)].

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (بر) (ص:١١٤-١١٥)، وانظر: تفسير الراغب الأصفهاني (٣٧٦/١).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (برر) (١١٦/١).

(٣) الكشاف (٢١٧/١).

والفعل المرضي الذي هو في تزكية النفس، كالبر في تغذية البدن (١).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "البر -بالكسر-: الزيادة في الإحسان والاتساع فيه، وسميت البرية برية؛ لاتساعها"(٢).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآية [النساء:٣٦]، وقال: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال جَلَّوَعَلَا عن يحيى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم:١٤]، وقال جَلَّوَعَلَا عن عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم:٣٢]. فبر الوالدين: التوسع في الاحسان إليهما، وضده العقوق.

فالبر في الاصطلاح: اسم جامع لكل خير، كما أن الإثم اسم جامع لكل شر.

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "البر اسم جامع للطاعات، وأعمال الخير المقربة إلى الله عَزَّوَجَلَّ"(٣).

فيشمل البر: الإيمان، والتقوى، والطاعة، والصدق، والوفاء، والإحسان.. إلى ذلك مما يعم خير الدنيا والآخرة.

والبر من أسباب طول العمر، والبركة في العمر، كما في الحديث لا يزيد في العمر إلا البر.

---

(١) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي (١/٣)، التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي (ص:٧٤).

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٢١٠٧/٧).

(٣) مفاتيح الغيب (٢١٣/٥).

وفي الحديث: «**من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه**» (١).

فهذه ثلاث فوائد لصلة الرحم:

الأولى: المحبة بين الأهل.

والثانية: الزيادة في المال.

والثالثة: التأخير في الأجل.

فبر الوالدين، وصلة الرحم من أسباب طول العمر، والبركة في العمر.

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(البَرُّ) خلاف البحر، وتصور منه: التوسع، فاشتق منه البِرُّ، أي: التوسع في فعل الخير، وينسب ذلك إلى الله عَزَّوَجَلَّ تارة نحو: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٨﴾ [الطور:٢٨]، وإلى العبد تارة، فيقال: بَرَّ العبد ربه جَلَّوَعَلَا، أي: توسَّع في طاعته، فمن الله عَزَّوَجَلَّ الثواب، ومن العبد الطاعة. وذلك ضربان:

الأول: ضرب في الاعتقاد.

والثاني: وضرب في الأعمال، وقد اشتمل عليه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ الآية [البقرة:١٧٧].

فإن الآية متضمنة للاعتقاد، والأعمال -الفرائض والنوافل-.

---

(١) صحيح البخاري [٢٠٦٧، ٥٩٨٥، ٥٩٨٦]، مسلم [٢٥٥٧]. و(بسط الرزق): توسيعه وكثرته. وقيل: البركة فيه. و«ينسأ»: يؤخر. و«أثره»: بقية عمره.

وبِرُّ الوالدين: التوسع في الإحسان إليهما، وضده العقوق، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ [الممتحنة:٨]. ويستعمل البِرُّ في الصدق؛ لكونه بعض الخير المتوسع فيه، يقال: بَرَّ في قوله، وبرَّ في يمينه. ويقال: بَرَّ أباه فهو بَارٌّ وبَرٌّ مثل: صائف وصيف، وطائف وطيف، وعلى ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ [مريم:٣٢].

وجمع البارِّ: أَبْرَار وبَرَرَة، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار:١٣]، وقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾﴾ [المطففين:١٨]، وقال في صفة الملائكة: ﴿كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عبس:١٦]، فَبَرَرَةٌ خصَّ بها الملائكة في القرآن من حيث إنه أبلغ من أبرار؛ فإنه جمع: برٍّ، وأبرار جمع: بار، وبَرٌّ أبلغ من بَارٍّ، كما أنَّ عدلًا أبلغ من عادل"(١).

وقد تقدم في تلخيص (شعب الإيمان)، وما تتفرع عنه ذكر جملة من أعمال البرّ.

كما تقدم في (الإحسان وصنائع المعروف) ذكر كثير من أعمال البرِّ.

وباب: (البر والصلة) من أعظم الأبواب التي ينبغي أن يُعنى بها، وقد اهتم العلماء بهذا الباب، وذكروا ما فيه من النصوص، وبينوا ذلك للناس؛ ليكونوا على بينة وبصيرة، فقد صنف ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابًا سماه: (كتاب البر والصلة)، وكذلك في (صحيح البخاري)، و(صحيح مسلم)، و(جامع الترمذي)، وكذا عند: ابن حبان

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (بر) (ص:١١٤-١١٥)، وانظر: تفسير الراغب الأصفهاني (٣٧٦/١).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ، والحاكم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المستدرك)، والبغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح السنة)، والمنذري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الترغيب والترهيب).

ومن أعمال البرِّ والإحسان التي تورث المحبة والتآلف: إعانة الصَّانع، والصنعة لأخرق، وإعطاء شِسْع النعل، والستر على المسلم، والذبُّ عن عرضه، وإدخال السرور عليه، والتفسح له في المجلس، والدلالة على الخير، والتعاون على البرِّ والتقوى، والكلام الطيب، والغرس والزرع، والشفاعة الحسنة، والمصافحة، والمحبة في الله عَزَّوَجَلَّ، والبغض لأجله، والمجالسة، والتزاور، والنصح، والرحمة، ومقابلة الإساءة بالإحسان، والزهد والتعفف عن سؤال الناس، وإفشاء السلام، وحسن النية، وحسن الظن، وحسن الخلق، والإنصاف، والصدق، والعفو، والتسامح، والرفق واللين، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس، والبعد عن الحسد والكبر والأخلاق الذميمة، والزهد في الدنيا، والتَّعفُّف عن سؤال النَّاس، وكلها في الآيات والأحاديث الصحيحة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة:١٧٧].

والخطاب لأهل الكتاب فإنهم أكثروا الخوض في أمر القبلة حين حولت، وادعى كل طائفة أن البرَّ هو التوجه إلى قبلته، فرد الله عَزَّوَجَلَّ عليهم وقال: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ ما

أنتم عليه؛ فإنه منسوخ. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ﴾ ما بينه الله عَزَّوَجَلَّ واتبعه المؤمنون، وهو تحقيقٌ للحق بعد بيان بطلان الباطلِ، وتفصيلٌ لخِصال البِر مما لا يختلف باختلاف الشرائع، أي: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ﴾ المعهود الذي ينبغي أن يُهتَمَّ به، ويُجَدَّ في تحصيله: بِرُّ ﴿مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ وحده، إيمانًا بريئًا من شائبة الإشراكِ، لا كإيمان اليهود والنصارى والمشركين.....الخ.

وقيل: عام لهم وللمسلمين، أي: ليس البر مقصورًا بأمر القبلة.

وقد اشـتملت هذه الآية الكريمة، على جمل عظيمة، وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة. -كما ذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ-(١).

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فتضمنت الآية: أن أنواع البر ستة أنواع، من استكملها فقد استكمل البر:

أولها: الإيمان بأصول الإيمان الخمسة.

وثانيها: إيتاء المال المحبوب لذوي القربى، واليتامى، والمساكين، وابن السبيل، والسائلين، وفي الرقاب.

وثالثها: إقام الصلاة.

ورابعها: إيتاء الزكاة.

وخامسها: الوفاء بالعهد.

وسادسها: الصبر على البأساء والضراء وحين البأس.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/٤٨٥).

وكلها يحتاج الحاج إليها؛ فإنه لا يصح حجه بدون الإيمان، ولا يكمل حجه ويكون مبرورًا بدون إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ فإن أركان الإسلام بعضها مرتبطة ببعض، فلا يكمل الإيمان والإسلام حتى يؤتي بها كلها، ولا يكمل بر الحج بدون الوفاء بالعهود في المعاقدات والمشاركات المحتاج إليها في سفر الحج، وإيتاء المال المحبوب لمن يحب الله عَزَّوَجَلَّ إيتاءه، ويحتاج مع ذلك إلى الصبر على ما يصيبه من المشاق في السفر، فهذه خصال البر"(١).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فذكر جملة أفعال الخير -فرائضها، ونوافلها-، ومكارم الأخلاق كلها.

فالبر في ثلاث:

أ. بر في معاملة الله عَزَّوَجَلَّ وعبادته.

ب. وبر في معاملة الأقارب ومراعاة حقوقهم.

ج. وبر في معاملة الأجانب وإنصافهم.

واشتقاقه من (البر)، وهو الفضاء والسعة؛ ولهذا وصف المؤمن بسعة الصدر، والكافر بضده، نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ الآية [الأنعام:١٢٥] ..."(٢).

(١) لطائف المعارف (ص:٢٣٣).

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني (١/١٧٤-١٧٥).

وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ﴾ الآية "فيها من شعب الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ واليوم الآخر، والملائكة والكتب والأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ وصلة الأرحام والأيتام والمساكين وابن السبيل والسائلين -ولو أغنياء-، والعتق، وفك الأسرى، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهود، والصبر على الفقر والضر، والجهاد"[(١)].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾ [البقرة:١٨٩]، أي: بِرَّ من اتقى المحارمَ والشهواتِ، فأخبر أن البر جامع للتقوى.

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ﴾ هو تحري التقوى، وذلك يكون بالعلم والعمل المختصين بالدين"[(٢)].

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واعلم أنه جَلَّ وَعَلَا لما أمر بالإيمان والشرائع بناء على ما خصهم به من النعم، ورغبهم في ذلك بناء على مأخذ آخر، وهو أن التغافل عن أعمال البر مع حث الناس عليها مستقبح في العقول؛ إذ المقصود من أمر الناس بذلك إما النصيحة أو الشفقة، وليس من العقل أن يشفق الإنسان على غيره، أو أن ينصح غيره ويهمل نفسه، فحذرهم الله عَزَّوَجَلَّ من ذلك، بأن قرعهم بهذا الكلام.."[(٣)].

فلا ينبغي لمؤمن أن يامر الناس بالبر وينسى نفسه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة:٤٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا

(١) الإكليل في استنباط التنزيل (ص:٢٧).
(٢) تفسير الراغب الأصفهاني (٤٠٣/١).
(٣) مفاتيح الغيب (٤٨٧/٣).

عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف:٢-٣]، وقال مخبرًا عن قيل شعيب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ [هود:٨٨].

وفي (المنار): "إن البر هو تقوى الله عَزَّوَجَلَّ بالتخلي عن المعاصي والرذائل، وعمل الخير والتحلي بالفضائل، واتباع الحق واجتناب الباطل"(١).

*وقد جعل المولى جَلَّوَعَلَا البر في مقابلة الإثم في قوله: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة:٢].

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فجعل البر ضد الإثم، فدل على أنه اسم عام لجميع ما يؤجر عليه الإنسان"(٢).

وفي (المنار): "فمجموع ما ورد في البر مصداق لما فسره به الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ من أنه التوسع في فعل الخير إذا أريد به ما يشمل الأفعال النفسية والأخلاق الحسنة باعتبار ما ينشأ عنها من الأعمال. وقد قال: إنه مشتق من (البر) -بالفتح- الذي هو مقابل البحر بتصور سعته، وإلا قلنا: إن البر اسم لمجموع ما يتقرب به إلى الله عَزَّوَجَلَّ، من الإيمان والأخلاق والآداب والأعمال، وكل واحد منها يعد خصلة أو شعبة من البر.

أما الأمر بالتعاون على البر والتقوى، فهو من أركان الهداية الاجتماعية في القرآن؛ لأنه يوجب على الناس إيجابًا دينيًا أن يعين بعضهم بعضًا على كل عمل من أعمال البر التي تنفع الناس -أفرادًا وأقوامًا- في دينهم ودنياهم، وكل عمل من أعمال

---

(١) تفسير المنار (١٦٧/٢).

(٢) انظر: مفاتيح الغيب (٢١٣/٥)، تفسير البيضاوي (١٢١/١).

التقوى التي يدفعون بها المفاسد والمضار عن أنفسهم، فجمع بذلك بين التحلية والتخلية، ولكنه قدم التحلية بالبر، وأكد هذا الأمر بالنهي عن ضده، وهو التعاون على الإثم بالمعاصي، وكل ما يعوق عن البر والخير، وعلى العدوان الذي يغري الناس بعضهم ببعض، ويجعلهم أعداء متباغضين يتربص بعضهم الدوائر ببعض"(١).

وفي (الأشباه والنظائر)، للدامغاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "البر على ثلاثة أوجه: (الصلة، الطاعة، التقوى):

فالأول منها: البر بمعنى: الصلة، في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ﴾ [البقرة:٢٢٤]، أي: لئلا تصلوا القرابة، وفي قوله: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ﴾ [الممتحنة:٨]، يعني: تصلوهم.

والوجه الثاني: البر: بمعنى الطاعة: فذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ﴾ [المائدة:٢] أراد بالبر: الطاعة، وترك المعصية، وقال في سورة مريم: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ [مريم:١٤]، ومثلها في قصة عيسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾ [مريم:٣٢]، أي: مطيعًا لوالدتي، وقال: ﴿كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾ [عبس:١٦]، يعني: مطيعين لله عَزَّ وَجَلَّ، وكقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾ [المطففين:١٨]، يعني: المطيعين.

(١) المنار (١٠٨/٦).

والوجه الثالث: البر: التقوى كلها. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران:٩٢]، يعني: حتى تبلغوا في الصدقة ما تحبون، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ﴾ [البقرة:١٧٧]، أي: التقوى، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾ [البقرة:٤٤]..."(١).

ونقل عن بعض أحد الأدباء:

بُنيَّ إنَّ البرَّ شيءٌ هَيِّن ... وجهٌ طليقٌ ولسانٌ ليّنُ(٢)

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والبر يطلق بمعنيين:

أحدهما: بمعنى: الإحسان إلى الناس، كما يقال: البر والصلة، وضده: العقوق. وفي (صحيح مسلم) أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سئل عن البر، فقال: «**البر: حسن الخلق**» (٣).

وإذا قرن البر بالتقوى، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ﴾ [المائدة:٢]، فقد يكون المراد بالبر: معاملة الخلق بالإحسان، وبالتقوى: معاملة الحق بفعل طاعته، واجتناب محرماته، وقد يكون أريد بالبر فعل الواجبات، وبالتقوى: اجتناب المحرمات، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ﴾ [المائدة:٢] قد يراد بالإثم: المعاصي،

---

(١) الأشباه والنظائر لألفاظ الكتاب العزيز، لأبي عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني (ص:١٢٩-١٣٠).

(2) وروي عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «البر شيء هين: وجه طليق، وكلام لين» أخرجه الخرائطي في (مكارم الأخلاق) [١٤٨]، والدينوري في (المجالسة) [١٤٩٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٧٠٢]، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (١٧٦/٣١).

(٣) تقدم.

وبالعدوان: ظلم الخلق، وقد يراد بالإثم: ما هو محرم في نفسه كالزنا، والسرقة، وشرب الخمر، وبالعدوان: تجاوز ما أذن فيه إلى ما نهي عنه مما جنسه مأذون فيه، كقتل ما أبيح قتله لقصاص ومن لا يباح، وأخذ زيادة على الواجب من الناس في الزكاة ونحوها، ومجاوزة الجلد في الذي أمر به في الحدود، ونحو ذلك.

المعنى الثاني: فعل الطاعات كلها (الظاهرة والباطنة)، وضده: الإثم، وقد فسر الله عَزَّوَجَلَّ البر بذلك في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة:١٧٧].

فتضمنت الآية: أن أنواع البر ستة أنواع، من استكملها فقد استكمل البر"[١].

وقال: "وهذا يدل على أن الخصال المذكورة فيها هي خصال الإيمان المطلق، فإذا أطلق الإيمان دخل فيه كل ما ذكر في هذه الآية.

وإذا قرن الإيمان بالعمل فقد يكون من باب عطف الخاص على العام، وقد يكون المراد بالإيمان -حينئذ-: التصديق بالقلب، وبالعمل: عمل الجوارح، كما ذكر في هذه الآية: الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، واليوم الآخر، والملائكة، والكتاب، والنبيين، ثم عطف عليه أعمال الجوارح"[٢].

---

(١) انظر: لطائف المعارف (ص:٢٣٠-٢٣٣)، جامع العلوم والحكم (٢/٩٧-١٠٨).

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب (١/٢٩-٣٠).

والبر مرتبة عالية لا تنال إلا بالصدق، والإخلاص في الأعمال. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ [آل عمران:٩٢].

ومن أعلى مراتب البر: الشهادة في سبيل لله عَزَّوَجَلَّ؛ لما فيها من بذل النفس في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، في نصرة دينه، ولما فيها من المقاصد السامية، من إحقاق الحق، ونشر العدل، ورفع الظلم والجور. وفي الحديث: عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة**»(١).

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا الحديث أجل ما جاء في فضل الشهادة، والحض عليها، والترغيب فيها، وإنما يتمنى أن يقتل عشر مرات –والله أعلم–؛ لعلمه بأن ذلك مما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، ويقرب منه؛ لأن من بذل نفسه ودمه في إعزاز دين الله عَزَّوَجَلَّ ونصرة دينه ونبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم تبق غاية وراء ذلك، وليس في أعمال البر ما تبذل فيه النفس غير الجهاد؛ فلذلك عظم الثواب عليه –والله أعلم–"(٢).

ومن أعظم أنواع البر: بر الوالدين والأرحام –كما تقدم–.

وفي الحديث: عن عمرو بن عبسة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: أتيت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أول ما بعث، وهو بمكة، وهو حينئذ مستخف، فقلت: ما أنت؟ قال: «**أنا نبي**»،

---

(١) صحيح البخاري [٢٧٩٥، ٢٨١٧]، مسلم [١٨٧٧].

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٥/٣٠).

قلت: وما النبي؟ قال: «**رسول الله**» قلت: بما أرسلك؟ قال: «**بأن يعبد الله، وتكسر الأوثان، وتوصل الأرحام بالبر والصلة**»(١).

وقد فسر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البر في كل من حديث: النَّواسِ بنِ سمعان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحديث: وابِصَةَ بن مَعْبَد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحديث: أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

أ. **حديث: النَّواسِ بنِ سمعان** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قال: سألت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عن البر والإثم فقال: «**الْبِرُّ: حُسْنُ الْخُلُقِ، والإثمُ ما حَاكَ في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس**»(٢).

"قال العلماء: البر يكون بمعنى: الصلة، وبمعنى: اللطف والمبرة، وحسن الصحبة والعشرة، وبمعنى: الطاعة، وهذه الأمور هي مجامع حسن الخلق. ومعنى: «**حاك في صدرك**»، أي: تحرك فيه وتردد، ولم ينشرح له الصدر، وحصل في القلب منه الشك وخوف كونه ذنبًا"(٣).

وقوله: «**الْبِرُّ: حُسْنُ الْخُلُقِ**» قال بعض المحققين: تلخيص الكلام في هذا المقام أن يقال: البر اسم جامع لأنواع الطاعات والأعمال الخير المقربة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ(٤).

---

(١) أخرجه أحمد [١٧٠١٦]، والطبراني في (الشاميين) [٨٦٣]، والآجُرّيُّ في (الشريعة) [٩٧٧]، والحاكم، واللفظ له، وقال: "صحيح على شرط الشيخين" ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح مسلم [٢٥٥٣].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١١١/١٦)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (١٨/٨).

(٤) انظر: مفاتيح الغيب (٢١٣/٥)، مرقاة المفاتيح (٣١٧٣/٨).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فسر البر في الحديث بمعان شتى: ففسره في موضع بما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، وفسره في موضع بالإيمان[١]، وفي موضع بما يقربك إلى الله عَزَّوَجَلَّ[٢]، وهنا بحسن الخلق. وفسر حسن الخلق باحتمال الأذى، وقلة الغضب، وبسط الوجه، وطيب الكلام، وكلها متقاربة في المعنى.

قال: ومراعاة المطابقة تقتضي أن يفسر حسن الخلق بما يقابل ما حاك في الصدر، وهو قوله: «**ما اطمأنت إليه النفس والقلب**»، كما في حديث: وابصة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فوضع موضعه: حسن الخلق؛ ليؤذن أن حسن لخلق هو ما اطمأنت إليه النفوس الشريفة الطاهرة من أوضار الذنوب، ومساوئ الأخلاق، المتحلية بمكارم الأخلاق، من الصدق في المقال، واللطف في الأحوال والأفعال، وحسن معاملته مع الرحمن، ومعاشرته مع الإخوان، وصلة الرحم، والسخاء، والشجاعة"[٣].

ب. **حديث: وابصة بن معبد** رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قال: جئت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأنا لا أريد أن أدع من البر والإثم شيئًا إلا سألته عنه، فأتيته وهو في عصابة من المسلمين حوله، فجعلت أتخطاهم لأدنو منه، فانتهرني بعضهم فقال: إليك يا وابصة عن رسول

---

(١) أخذًا من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة:١٧٧].

(٢) وهو كذلك أخذًا من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ الآية [البقرة:١٧٧].

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٠/٣٢٣٢-٣٢٣٣).

الله ﷺ فقلت: إني أحب أن أدنو منه، فقال رسول الله ﷺ: «**دعوا وابصة، ادن مني يا وابصة**»، فأدناني حيث كنت بين يديه، فقال: أتسألني أم أخبرك؟ فقلت: لا، بل تخبرني، فقال: «**جئت تسأل عن البر والإثم**»، قلت: نعم، فجمع أنامله، فجعل ينكث بهن في صدري، وقال: «**الْبِرُّ ما اطْمَأَنَّتْ إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك**»[1].

وفي (المفاتيح): قوله: «**ما حاك في صدرك**» أي أثر في قلبك؛؛ لكونه قبيحًا، أوهمك أنه ذنب [2]. ويؤيده الحديث الآنف الذكر: «**إن الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس**».

«**وإن أفتاك الناس**» أي: "وإن قالوا لك إنه حق، فلا تأخذ بقولهم فإنه قد يوقع في الغلط وأكل الشبهة، كأن ترى من له مال حلال وحرام، فلا تأخذ منه شيئًا، وإن أفتاك المفتي؛ مخافة أن تأكل الحرام؛ لأن الفتوى غير التقوى، وهو شرطية قطعت عن الجزاء؛ تتميمًا للكلام السابق، وتقريرًا له، على سبيل المبالغة" [3].

---

(١) قال المنذري (٣٥١/٢): "رواه أحمد بإسناد حسن". وقال الهيثمي (٢٩٤/١٠): "رواه الطبراني، وأحمد باختصار عنه، ورجال أحد إسنادي الطبراني ثقات". وقال الإمام النووي: "حديث حسن، رويناه في مسندي أحمد والدارمي وغيرهما" الأذكار (ص:٤٠٨)، الأربعون النووية (ص:٨٨)، رياض الصالحين (ص:٢٠٨).

(٢) انظر: المفاتيح في شرح المصابيح (٢٥١/٥)، مرقاة المفاتيح (١٩٠١/٥).

(٣) مرقاة المفاتيح (١٩٠١/٥).

ج. **حديث: أبي ثعلبة الخشني** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني بما يحل لي وما يحرم علي. قال: فصعد النبي عَزَّوَجَلَّ وصوب في البصر، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**البر: ما سكنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم ما لم تسكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أفتاك المفتون**»(١).

وهذا محمول على الأمر المشتبه، وإلا فما ثبت الأمر به في الشرع بلا معارض فهو بر، وما ثبت النهي عنه كذلك فهو إثم، والمراد أن قلب المؤمن ينظر بنور الله عَزَّوَجَلَّ إذا كان قوي الإيمان، وهذا يقتضي أنه ينبغي الرجوع إلى الأصول المعلومة الثابتة من الدين فيما اشتبه حكمه.

قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمعنى: أن الشيء إذا أشكل عليك والتبس ولم تتبين أنه من أي القبيلين هو؟ فليتأمل فيه إن كان من أهل الاجتهاد، وليسأل المجتهدين إن كان من المقلدين، فإن وجد ما تسكن إليه نفسه، ويطمئن به قلبه، وينشرح به صدره، فليأخذ به، وليختر لنفسه، وإلا فليدعه، وليأخذ بما لا شبهة فيه ولا ريبة، هذا طريقة الورع والاحتياط، وحاصله راجع إلى حديث: الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا(٢)، ولعله إنما

---

(١) قال المنذري (٣٥١/٢): "رواه أحمد بإسناد جيد"، وقال الهيثمي (١٧٦/١): "رواه أحمد والطبراني، وفي الصحيح طرف من أوله، ورجاله ثقات".

(٢(يعني حديث: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» رواه جمع من الصحابة منهم: الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. أخرجه عنه: الطيالسي [١٢٧٤]، وعبد الرزاق في (مصنفه) [٤٩٨٤]، وأحمد [١٧٢٣]، والدارمي [٢٥٧٤]، والترمذي [٢٥١٨]، وقال: "حديث صحيح". كما أخرجه البزار [١٣٣٦]، والنسائي [٥٧١١]، وأبو يعلى [٦٧٦٢]، وابن خزيمة [٢٣٤٨]، وابن حبان [٧٢٢]، والطبراني في (الكبير)=

عطف اطمئنان القلب علي اطمئنان النفس؛ للتقرير والتأكيد؛ فإن النفس إذا ترددت في أمر وتحيرت فيه وزال عنها القرار، استتبع ذلك العلاقة التي بينها وبين القلب، الذي هو المتعلق الأول لها، فتنقل العلاقة إليه من تلك الهيئة أثرًا فيحدث فيه خفقان واضطراب، ثم ربما يسري هذا الأثر إلى سائر القوى، فيحسن بها الحلال والحرام، فإذا زال ذلك عن النفس، وحدث لها قرار وطمإنينة، انعكس الأثر، وتبدلت الحال علي مالها من الفروع والأعضاء.

وقيل: المعني بهذا الأمر: أرباب البصائر من أهل النظر، والفكر المستقيم، وأصحاب الفراسات من ذوي النفوس المرتاضة والقلوب السليمة؛ فإن نفوسهم بالطبع تصبو إلى الخير وتنبو عن الشر؛ فإن الشيء ينجذب إلى ما يلائمه وينفر عما يخالفه، ويكون ملهمة للصواب في أكثر الأحوال"[(١)].

قال التوربشتي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا القول وإن كان غير مستبعد؛ فإن القول بحمل على العموم فيمن تجمعهم كلمة: (التقوى)، وتحيط بهم دائرة الدين أحق وأهدى، ولا ضرورة بنا إلى صرف قوله إلى الخصوص، ونحن نجد لحمله على العموم مساغًا"[(٢)].

وقيل في قوله: «**وإن أفتاك الناس**» أي: غير أهل الاجتهاد من أولي الجهل والفساد، وقالوا لك: إنه حق، فلا تأخذ بقولهم؛ لأنه قد يوقع في الغلط، وأكل

=[٢٧٠٨]، والحاكم [٢١٦٩]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٨/٢٦٤)، والبيهقي في (الكبرى) [١٠٨١٩].

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٧/٢١٠٨)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٥/١٩٠٠-١٩٠١).

(2) الميسر في شرح مصابيح السنة، للتوربشتي (٢/٦٦٠).

الشبهة، أو مطلق الناس، فيشمل ما أفتى فيه المفتي بالحلِّ في ظاهر الحكم الشرعي، والورع تركه، وذلك كمعاملة من أكثر ماله حرام، فلا يأخذ منه شيئًا ولا يعامله، وإن أباح المفتي معاملته[1].

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما أحاله النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ على هذا الإدراك القلبي؛ لما علم من جودة فهمه، وحسن قريحته، وتنوير قلبه، وأنه يدرك ذلك من نفسه. قال: وهذا الجواب لا يصلح لغليظ الطبع، قليل الفهم، فإذا سأل عن ذلك من قل فهمه فصلت له الأوامر والنواهي الشرعية. وقد قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «**أمرنا رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **أن ننزل الناس منازلهم**»[2]"[3].

وفي (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ)، باب: (تفسير المشبهات) قال حسان بن أبي سنان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما رأيت شيئًا أهون من الورع، دع ما يريبك إلى ما لا يريبك[4]. وقوله: (أهون) أي: أسهل، وأكثر راحة وطمأنينة للنفس.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذكره لجملة من الأحاديث الواردة في البر، ومنها ما تقدم ذكره: "وقد صح: عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: «**الإثم حواز القلوب**». واحتج به الإمام أحمد، ورواه عن جرير، عن منصور، عن محمد بن عبد

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٥/٣٤).

(٢) انظر: مقدمة صحيح مسلم (١/٦).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٥٢٣).

(٤) صحيح البخاري (١/٥٣).

الرحمن، عن أبيه قال: قال عبد الله: «**إياكم وحزاز القلوب، وما حز في قلبك من شيء فدعه**»(١).

وقال أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الخير في طمأنينة، والشر في ريبة.

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: ويتضمن هذا الكتاب الإحسان إلى الخلق عمومًا، ويقدم فيه: بر الوالدين على غيرهما.

---

(١) قال الهيثمي: وفي رواية: «حواز الصدور». وفي رواية: «ما كان من نظرة فللشيطان فيها مطمع، والإثم حواز القلوب» رواه الطبراني كله بأسانيد رجالها ثقات. قلت: وقد ذكر ابن الأثير في (النهاية) فيها ثلاث لغات: حواز، وحواز، وحزاز. مجمع الزوائد (١/١٧٦). وقال العراقي: حديث: «الإثم حزاز القلوب» أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) من حديث: ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورواه العدني في (مسنده) موقوفًا عليه" المغني عن حمل الأسفار (ص:٢٧). قال الحافظ المنذري (٣/٢٥): "رواه البيهقي وغيره، ورواته لا أعلم فيهم مجروحًا، لكن قيل: صوابه الوقوف. «حواز القلوب» بفتح الحاء المهملة وتشديد الواو، وهو ما يحوزها ويغلب عليها حتى ترتكب ما لا يحسن. وقيل: بتخفيف الواو وتشديد الزاي، جمع: (حازة)، وهي الأمور التي تحز في القلوب وتحك وتؤثر، وتتخالج في القلوب أن تكون معاصي، وهذا أشهر اهـ". قال مجد الدين ابن الأثير: "حديث: ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الإثم حواز القلوب» هي الأمور التي تحز فيها، أي: تؤثر كما يؤثر الحز في الشيء، وهو ما يخطر فيها من أن تكون معاصي؛ لفقد الطمأنينة إليها، وهي بتشديد الزاي: جمع حاز. يقال إذا أصاب مرفق البعير طرف كركرته فقطعه وأدماه: قيل به حاز. ورواه شمر: «الإثم حواز القلوب» بتشديد الواو: أي: يحوزها ويتملكها ويغلب عليها، ويروى: «الإثم حزاز القلوب» بزايين الأولى مشددة، وهي فعال من الحز. وفيه: «وفلان آخذ بحزته» أي: بعنقه. قال الجوهري: هو على التشبيه بالحزة، وهو القطعة من اللحم قطعت طولًا. وقيل: أراد بحجزته وهي لغة فيها...انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (حزز) (١/٣٧٧-٣٧٧)، الصحاح، للجوهري، مادة: (حذا) (٦/٢٣١١).

وفي حديث: بهز بن حكيم عن أبيه، عن جده، أنه قال: قلت: يا رسول الله، من أَبَرُّ؟ قال: «**أُمَّكَ**»، قال: قلت: ثم من؟ قال: «**أُمَّكَ**»، قال: قلت: ثم من؟ قال: «**أُمَّكَ**»، قال: قلت: ثم من؟ قال: «**ثم أباك، ثم الأقرب فالأقرب**»(١).

ومن هذا المعنى: قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحَجُّ المبرور ليس له جزاءٌ إلَّا الجنَّة**» (٢).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، قيل: وما بره؟ قال: إطعام الطعام وطيب الكلام**»(٣)، "أي: إطعام الطعام

---

(١) حديث بهز بن حكيم: أخرجه أحمد [٢٠٠٢٨]، وأبو داود [٥١٣٩]، والترمذي [١٨٩٧]، وقال: "وفي الباب: عن أبي هريرة، وعبد الله بن عمرو، وعائشة، وأبي الدرداء. وبهز بن حكيم هو ابن معاوية بن حيدة القشيري. وهذا حديث حسن، وقد تكلم شعبة في بهز بن حكيم، وهو ثقة عند أهل الحديث، وروى عنه معمر، وسفيان الثوري، وحماد بن سلمة، وغير واحد من الأئمة" كما أخرجه: الطبراني في (الكبير) [٩٥٧]، و(الأوسط) [٤٤٨٢]، والحاكم [٧٢٤٢]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: تمام [١٧٣٦]، والبيهقي [٧٧٦٣]، وابن عساكر في (معجمه) [١٥٨٩].

(٢) صحيح البخاري [١٧٧٣]، مسلم [١٣٤٩].

(٣) أخرجه الطيالسي [١٨٢٤]، وأحمد [١٤٤٨٢]، وعبد بن حميد [١٠٩١]، والعقيلي (١٤١/١) ترجمة [١٧٣] بشر بن المنذر، وقال: "في حديثه وهم". والخرائطي في (مكارم الأخلاق) [١٦٨]، والطبراني في (الأوسط) [٦٦١٨، ٨٤٠٥]، والحاكم [١٧٧٨]، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه؛ لأنهما لم يحتجا بأيوب بن سويد، لكنه حديث له شواهد كثيرة". وأبو نعيم في (الحلية) (١٥٦/٣)، والبيهقي في (الكبرى) [١٠٣٩٠]، وفي (شعب الإيمان) [٣٨٢٤] قال المنذري (١٠٦/٢): "رواه أحمد، والطبراني في (الأوسط) بإسناد حسن، وابن خزيمة، في (صحيحه)،=

للمسافرين، ومخاطبتهم باللين، والتلطف، وترك الشح والتعسف؛ فإن ذلك من مكارم.."[1].

وعن عائشة -أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، أنها قالت: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: «**لا، لكن أفضل الجهاد: حج مبرور**»[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أي الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمان بالله**»، قال: ثم ماذا؟ قال: «**الجهاد في سبيل الله**» قال: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**»، وفي رواية محمد بن جعفر قال: «**إيمان بالله ورسوله**»[3].

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: «**حج مبرور**»: قال شمر: هو الذي لا يخالطه شيء من المأثم، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧]، ومنه: برَّت يمينه: إذا سلم من الحنث، وبرَّ بيْعهُ: إذا سلم من الخداع والخلابة. وقال الحربي رَحِمَهُ اللَّهُ: بُرَّ حَجُّك -بضم الباء-[4] وبَرَّ اللهُ حجَّك -بفتحها-[5]: إذا رجع مبرورًا مأجورًا.

=والبيهقي، والحاكم مختصرًا، وقال صحيح الإسناد، وفي رواية لأحمد والبيهقي: «إطعام الطعام، وإفشاء السلام»". وانظر: إتحاف الخيرة المهرة (١٤١/٣)، وقال الهيثمي (٢٠٧/٣): "رواه أحمد، وفيه: محمد بن ثابت، وهو ضعيف، ورواه الطبراني في (الأوسط) وإسناده حسن".

(١) فيض القدير (١٩٩/٣).

(2) صحيح البخاري [١٥٢٠، ١٨٦١، ٢٧٨٤].

(٣) صحيح البخاري [٢٦، ١٥١٩]، مسلم [٨٣].

(٤) بضم الباء مبنيًا للمفعول.

(٥) بفتح الباء مبنيًا للفاعل.

وقيل: المبرور: المتقبل، وفى الحديث: سئل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما بَرّ الحج؟ قال: «**إطعام الطعام، وطيب الكلام**» فعل هذا يكون من (البر) الذي هو فعل الجميل فيه، والبذل منه، ومنه: بر الوالدين والمؤمنين، ويكون -أيضًا- في هذا كله بمعنى: الطاعة، ويكون بمعنى: الصدق، وضده: الفجور، ومنه: برَّت يمينه، فيكون (الحجُّ المبرور): الصادق، الخالص لله عَزَّوَجَلَّ على هذا"(١).

قيل: ومن علامة القبول: أنه إذا رجع يكون حاله خيرًا من الحال الذي قبله.

وقيل: الذي لا رياء فيه.

وقيل هو الذي لا يعقبه بمعصية(٢).

خامسًا: آثار صنائع المعروف وأعمال البر:

أ. استدامة النعم.

ب. الوقاية من سوء العاقبة ومصارع السوء في النفس والأهل والولد والمال.

ج. تفريج الكروب في الدنيا والآخرة.

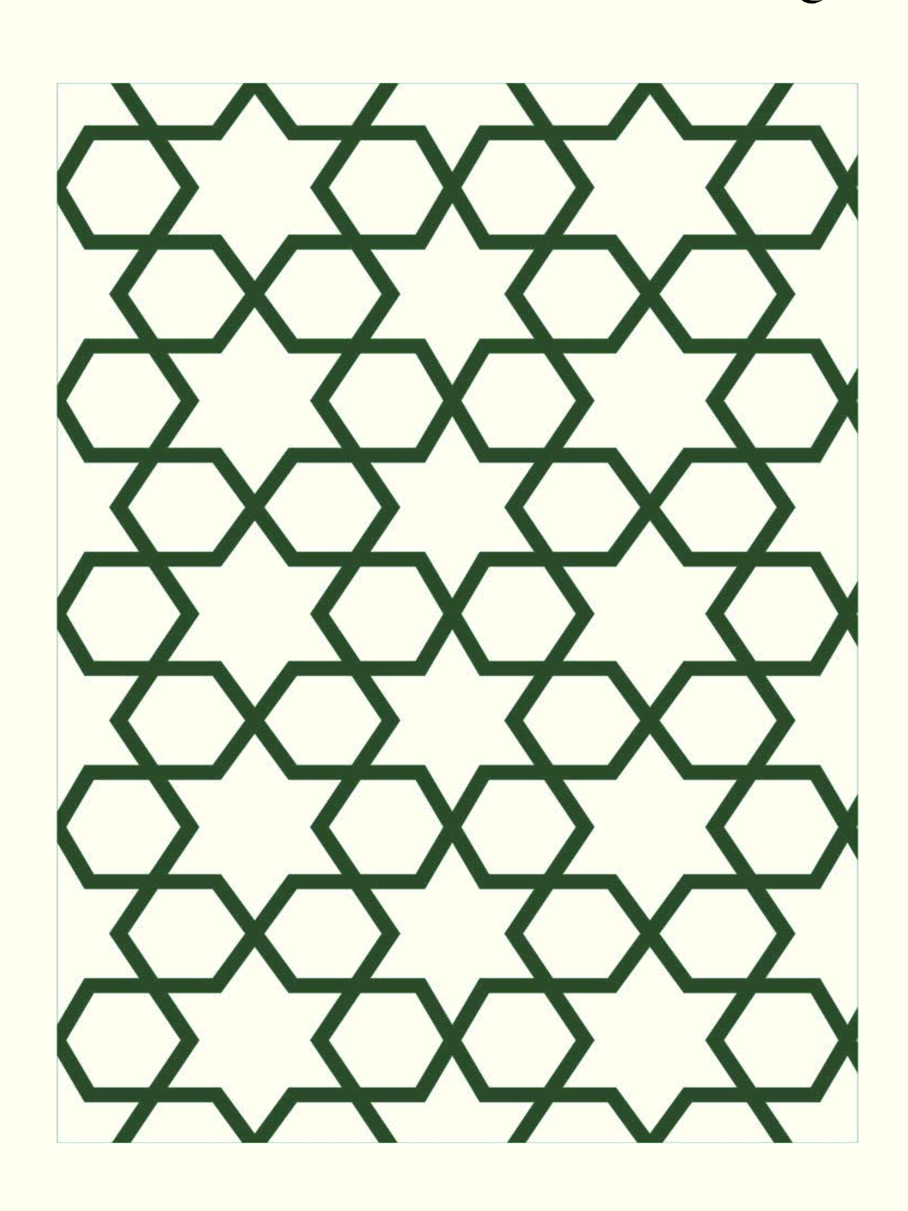
د. كسبُ محبَّةِ النَّاس وثقتِهم وثنائهم على فعل الخير، ودعاؤهم لصاحب المعروف، وحسن تعاملهم، وتبادل المنافع فيما بينهم.

هـ. تماسك المجتمع وتآلفه.

(١) إكمال المعلم، للقاضي عياض (٣٤٧/١)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٧٥/٢).

(2) انظر: الكواكب الدراري (١٢٦/١).

و. شيوع ثقافة الأخلاق الفاضلة المنبثة من العقيدة.

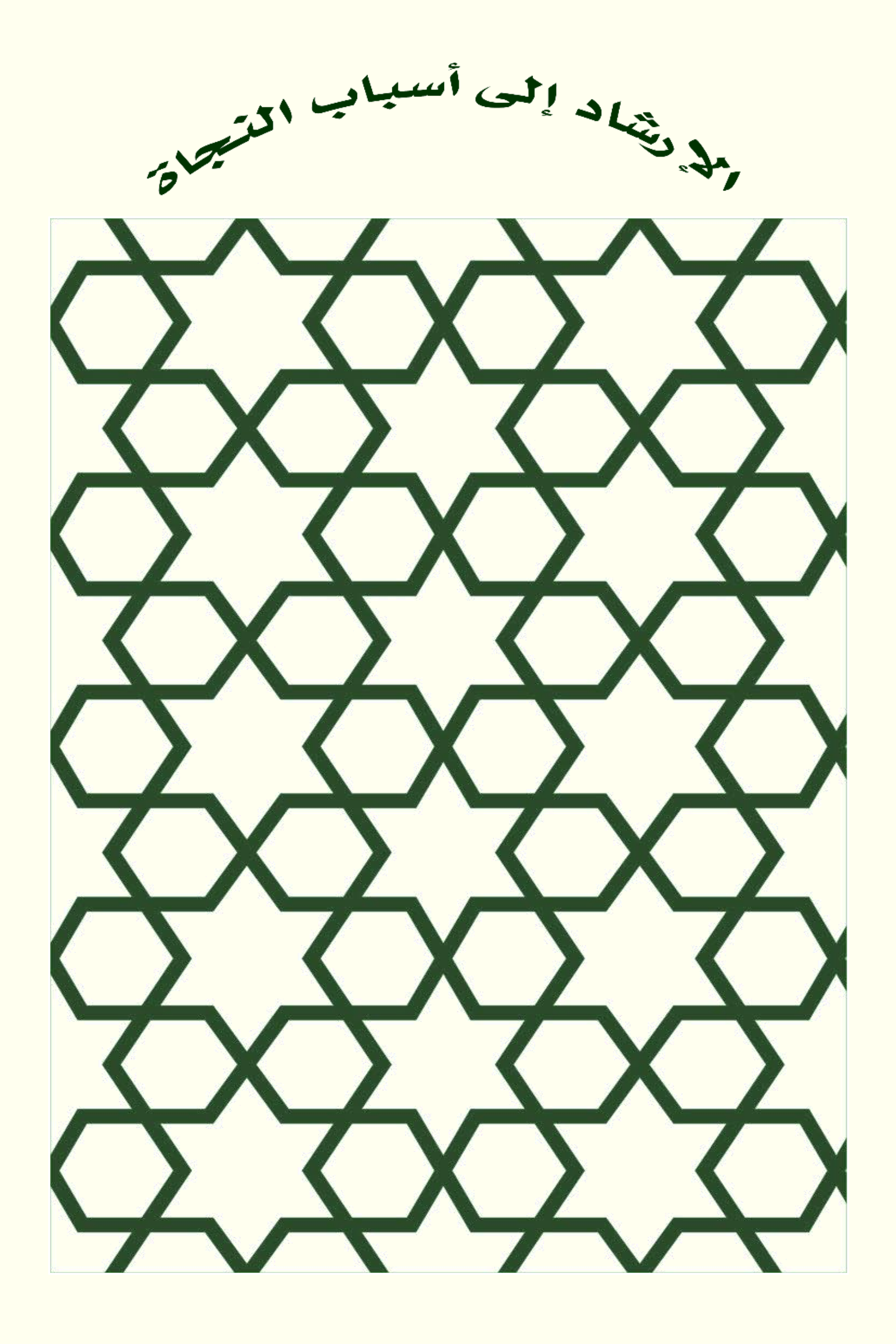




المبحث الثامن:

التوبة والاستغفار

الإرشاد إلى أسباب النجاة



أولًا: تعريف التوبة:

١ - التوبة لغة:

التَّوبُ: مصدر تاب يتوب توبًا، يقال: تُبْتُ إلى الله تَوْبةً ومَتابًا، وأنا أَتوبُ إلى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ ليَتُوبَ عليَّ قابلُ التَّوْب، أي: قابل التَّوْبةِ، وقد تطرَح الهاءَ.

والله عَزَّوَجَلَّ التَّوابُ، يتوبُ على عَبده، والعبد تائبٌ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وقال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ [غافر:٣]، أراد: التَّوْبة. قال أبو منصور الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أصل (تَابَ): عاد إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ورجع، وأناب، وتَابَ الله عَزَّوَجَلَّ عليه، أي: عاد عليه بالمغفرة، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور:٣١]، أي: عودوا إلى طاعته وأنيبوا، وَالله عَزَّوَجَلَّ التوَّاب، يتوب على عبده بفضله إذا تاب إليه من ذنبه، و(استتبْتُ فلانًا)، أي: عَرَضْتُ عليه التوبةَ ممَّا اقْتَرَف، أي: الرُّجُوع والنَّدم على ما فَرَط منه.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ [المزمل:٢٠]، أي: رَجَعَ بكم إلى التَّخْفِيف، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة:١٨٧]، أي: أَبَاحَ لكم ما كان حُظِر عليكم فتوبوا إلى بارئكم، أي: ارْجعُوا إلى خالقكم. والتواب من صِفَات الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يَتُوب على عباده، والتواب من النَّاس هو الذي يَتُوب إلى ربه جَلَّوَعَلَا"[١].

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التوبة: الرجوع من الذنب.

---

(١) العين، مادة: (توب) (١٣٨/٨)، تهذيب اللغة (٢٣٦/١٤-٢٣٧).

وفي الحديث: «**النَدمُ توبَةٌ**»(١)، وكذلك التَوْبُ مثله. وقال الأخفش: (التَّوْبُ): جمع توبة، مثل: عَوْمة وعَوْم(٢).

وتاب إلى الله توبةً ومتابًا. وقد تاب الله عَزَّوَجَلَّ عليه: وفقه لها. وفي كتاب سيبويه: التوبة على تفعلة: التوبة(٣). و(استتابه): سأله أن يتوب. و(التابوت) أصله: تابوة، مثل: ترقوة، وهو فعلوة، فلما سكنت الواو انقلبت هاء التأنيث تاء. قال القاسم بن معن: لم تختلف لغة قريش والأنصار في شيء من القرآن إلا في (التابوت)، فلغة قريش بالتاء، ولغة الأنصار بالهاء"(٤).

(١) الحديث مروي عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٠٤٤]، والطيالسي [٣٨٠]، والحميدي [١٠٥]، وابن الجعد [١٧٣٨]، وابن أبي شيبة [١٧٩]، وأحمد [٣٥٦٨]، والبخاري في (التاريخ الكبير) (٣/٣٧٣)، وابن ماجه [٤٢٥٢]، قال البوصيري (٤/٢٤٨): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات"، وأخرجه أيضًا: البزار [٣٥٦٨]، وأبو يعلى [٤٩٦٩]، والشاشي [٢٦٩]، وابن حبان [٦١٢]، والطبراني في (الأوسط) [٦٧٩٩]، والحاكم [٧٦١٢]، وصححه، ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي [٢٠٥٥٨]. والحديث مروي كذلك عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد رواه ابن حبان والحاكم وغيرهما. قال الحافظ في (الفتح) (١٣/٤٧١): "صححه الحاكم، وأخرجه ابن حبان من حديث: أنس وصححه".

(٢) انظر: معاني القرآن، للأخفش (٢/٤٩٨). قال في (مختار الصحاح) (ص:٤٧): "لم يذكر الجوهري في (عوم) معنى: العومة، ولا وجدته في غير (الصحاح) من أصول اللغة التي عندي، ولكن له نظير أشهر من هذا، وهو دَوْمَةٌ ودَوْمٌ، وهو شَجَرُ الْمُقْل".

(٣) انظر: الكتاب، لسيبويه (٤/٢٧١)، (٤/٣٥٢).

(٤) الصحاح، مادة: (توب) (١/٩١).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(التوب): ترك الذنب على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار، فإن الاعتذار على ثلاثة أوجه: إما أن يقول المعتذر: لم أفعل، أو يقول: فعلت لأجل كذا، أو فعلت وأسأت وقد أقلعت، ولا رابع لذلك، وهذا الأخير هو التوبة"(١).

"قال القفال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أصل التوبة: الرجوع كالأبوة. يقال: توب كما يقال: أوب. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر:٣]، فقولهم: تاب يتوب توبًا وتوبة ومتابًا، فهو تائب وتواب، كقولهم: آب يؤوب أوبًا وأوبة، فهو آئب وأواب"(٢).

وسيأتيك أن التوبة لفظة يشترك فيها الرب جَلَّ وَعَلَا والعبد.

٢ - تعريف التوبة في الاصطلاح:

ذكر أهل العلم والتحقيق تعريفاتٍ كثيرة للتوبة يكمل بعضها بعضًا، وما ذكروه في التعريف منه: ما يدخل في الحد، ومنه: ما هو من الشروط، ومنه: ما هو من المكملات؛ ولذلك فإن من أهل العلم -كما سيأتيك- قد اهتم بتحرير التعريف؛ ليكون جامعًا مانعًا.

وهاك أهم ما ذكروه في هذا الباب

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (توب) (ص:١٦٩).

(٢) مفاتيح الغيب (٣/٤٦٨).

ومن تعريفات التوبة: ما ذكره القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (رسالته)، حيث قال: "التوبة: **(الرجوع عما كان مذمومًا في الشرع إلى ما هو محمود فيه)**"[1].

قال: "وأقوى أركان التوبة: حلُّ عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بجميع حقِّ الأمر على وجه الاستقصاء"[2].

وقد سئل الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن التوبة فقال: **(هو أن تنسى ذنبك)**. قال أبو نصر السَّراج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أشار الجنيد إلى توبة المحققين؛ فإنهم لا يذكرون ذنوبهم بما غلب على قلوبهم، من عظمة الله عَزَّوَجَلَّ، ودوام ذكره.

قال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: دخلت يومًا على سري السقطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فرأيت عليه همًّا، فقلت: أيها الشيخ: أرى عليك همًّا، فقال: الساعة دقَّ عليَّ داق الباب، فقلت: ادخل. فدخل عليَّ شابٌّ في حدود الإرادة، فسألني عن معنى التوبة، فأخبرته، وسألني عن شرط التوبة، فأنبأته. فقال: هذا معنى التوبة، وهذا شرطها، فما حقيقتها؟ فقلت: حقيقة التوبة عندكم: ألَّا تنسى ما من أجله كانت التوبة، فقال: ليس هو كذلك عندنا، فقلت له: فما حقيقة التوبة عندكم؟ فقال: حقيقة التوبة ألَّا تذكر ما من أجله كانت التوبة. وأنا أفكر في كلامه، قال الجنيد: فقلت: ما أحسن ما قال! قال: فقال لي: يا جنيد، وما معنى هذا الكلام؟ فقال: يا أستاذ، إذا كنت معك في حال الجفاء، ونقلتني من حال الجفاء إلى حال الصفاء، فذكري للجفاء في حال الصفاء غفلة.

---

(١) الرسالة القشيرية (١/٢٠٧).

(٢) لطائف الإشارات (٢/٤٧).

وقال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معنى قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**استغفروا الله وتوبوا إليه؛ فإني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة**»، أو كما قال؛ قالوا: كان حال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الله عَزَّ وَجَلَّ: زيادة في كلِّ نَفَس وطرفة عين، فكان إذا رقى به إلى زيادة حال أشرف من زيادته على حالته في النَّفَس الماضي، استغفر الله من ذلك وتاب إليه"(١).

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**(التوبة: عقد في ترك متوب منه، يتقدمها علم بفساد المتوب منه، وصلاح ما يرجع إليه، ويقترن بها ندم على فارط المتوب منه، لا ينفك منه، وهو من شروطها)**"(٢).

وقال الشريف الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "**(التوبة: الرجوع إلى الله** عَزَّ وَجَلَّ **بحلِّ عقدة الإصرار عن القلب، ثم القيام بكل حقوق الرب** جَلَّ وَعَلَا)"(٣).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التوبة في الشرع: (**ترك الذنب؛ لقبحه، والندم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كملت شرائط التوبة، وتاب إلى الله** عَزَّ وَجَلَّ)، فذكر: (إلى الله) يقتضي الإنابة، و(تاب الله عَزَّ وَجَلَّ عليه)، أي: قبل توبته،

---

(١) انظر: الأعمال الكاملة للجنيد البغدادي، طبعة دار الشروق (ص:٩٤-٩٦)، وانظر: الرسالة القشيرية (٢١١/١)، التعريفات (ص:٧٠).

(٢) المحرر الوجيز (١٨٠/٣).

(٣) التعريفات (ص:٧٠).

والتائب يقال لباذل التوبة. ولقابل التوبة: التواب، ويقال ذلك لله عَزَّوَجَلَّ؛ لكثرة قبوله التوبة من العباد"(١).

وزاد الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كما سيأتي-: إن كان الذنب متعلقًا ببني آدم، فلها شرط آخر، وهو ردُّ المظلمة إلى صاحبها، أو تحصيل البراءة منه.

قال الأستاذ أبو علي الدقاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التوبة على ثلاثة أقسام أولها: التوبة، وأوسطها: الإنابة، وآخرها: الأوبة. قال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فجعل التوبة بداية، والأوبة نهاية، والإنابة واسطتهما، فكل من تاب لخوف العقوبة فهو صاحب توبة، ومن تاب طمعًا في الثواب فهو صاحب إنابة، ومن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة في الثواب، أو رهبة من العقاب فهو صاحب أوبة، ويقال أيضًا: التوبة صفة المؤمنين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور:٣١]، والإنابة صفة الأولياء والمقربين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٖ مُّنِيبٍ ٣٣﴾ [ق:٣٣]، والأوبة صفة الأنبياء والمرسلين عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ٣٠﴾ [ص:٣٠].

وقال سهل بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التوبة: ترك التسويف.

وسئل ذو النون المصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن التوبة، فقال: توبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص من الغفلة.

وقال: الاستغفار من غير إقلاع توبة الكاذبين.

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (توب) (ص:١٦٩).

وقال: حقيقة التوبة: أن تضيق عليك الأرض بما رحبت، حتى لا يكون لك قرار، ثم تضيق عليك نفسك، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه بقوله: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة:١١٨].

وقال ابن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التوبة توبتان: توبة الإنابة، وتوبة الاستجابة، فتوبة الإنابة: أن يتوب العبد خوفًا من عقوبته، وتوبة الاستجابة أن يتوب حياءً من كرمه.

وقيل لأبي حفص رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم يبغض التائب الدنيا؟ قال لأنها دار باشر فيها الذنوب فقيل له أيضا هي دار أكرمه الله فيها بالتوبة فقال: إنه من الذنب على يقين، ومن قبول توبته على خطر.

إلى غير ذلك مما نقل عن السلف الصالح رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ(١).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن التوبة معنى ينتظم من ثلاثة أمور: (علم، وحال، وفعل)، والأول موجب للثاني، والثاني موجب للثالث إيجابًا اقتضاه سنة الله عَزَّوَجَلَّ في الملك والملكوت.

أما العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب، وكونها حجابًا بين العبد وبين كل محبوب. فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب؛ فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه: ندمًا، فإذا

(١) انظر: الرسالة القشيرية (١/٢٠٧-٢١٥).

غلب هذا الألم على القلب، واستولى انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى: إرادة وقصدًا إلى فعل له تعلق بالحال وبالماضي وبالاستقبال.

أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابسًا.

وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر.

وأما بالماضي فبتلاقي ما فات بالخير والقضاء إن كان قابلًا للخير.

فالعلم، والندم، والقصد المتعلق بالترك، يطلق اسم: (التوبة) على مجموعها. وكثيرًا ما يطلق اسم: (التوبة) على معنى: الندم وحده، ويجعل العلم كالمقدمة، والترك كالثمرة، وبهذا الاعتبار قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**الندم توبة**» [1]؛ إذ لا يخلو الندم من علم أوجبه وأثمره، وعن عزم يتبعه ويتلوه.

وبهذا الاعتبار قيل في حدِّ التوبة إنه: (**ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ**)؛ فإن هذا يعرض لمجرد الألم؛ ولذلك قيل: (**هو نار في القلب تلتهب، وصدع في الكبد لا ينشعب**).

وباعتبار معنى: (الترك) قيل في حدِّ التوبة: (**إنه خلع لباس الجفاء، ونشر بساط الوفاء**).

(١) تقدم.

قال: والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر. وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة، وتلازمها، وترتيبها، عرفت أن جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها، وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة"[1].

وحيث إن بعض ما ذكر في بيان حقيقة التوبة، يعد من المكملات، أو من البواعث، أو من الشروط، كما أن الحكم قد يختلف باختلاف الاعتبار والنظر، فيكون لكل اعتبار وجهة.

وقد اهتم أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بتحرر الحد من بين تلك الأقوال الكثيرة حيث قال في (المفهم)، حيث قال: "قد اختلفت عبارات العلماء والمشايخ فيها، فقائل يقول: إنها الندم، وآخر يقول: إنها العزم على ألا يعود، والآخر يقول: إنها الإقلاع عن الذنب، ورابع يجمع بين تلك الأمور الثلاثة، فيقول: إنها الندم على ذنب وقع، والإقلاع عنه في الحال، والعزم على ألا يعود إليه، وهذا أكملها، غير أنه مع ما فيه من التركيب المحذور في الحدود غير مانع، ولا جامع.

بيان الأول: أنه قد يندم، ويقلع، ويعزم، ولا يكون تائبًا شرعًا؛ إذ قد يفعل ذلك شحًّا على ماله، أو لئلا يعيره الناس من ذلك. ولا تصح التوبة الشرعية إلا بالنية والإخلاص؛ فإنها من أعظم العبادات الواجبات، ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨].

(١) انظر ذلك في (إحياء علوم الدين) (٤/٣-٤).

وأما الثاني: فبيانه أنه يخرج منه من زنى -مثلًا-، ثم قطع ذكره؛ فإنه لا يتأتى منه غير الندم على ما مضى من الزنى، وأما العزم والإقلاع فغير متصورين منه، ومع ذلك فالتوبة من الزنى صحيحة في حقِّه إجماعًا، وبهذا اغتر من قال: إن الندم يكفي في حدِّ التوبة، وليس بصحيح؛ لأنه لو ندم ولم يقلع، وعزم على العود، لم يكن تائبًا اتفاقًا، ولما فهم بعض المحققين هذا حد التوبة بحد آخر، فقال: هي: (**ترك اختيار ذنب سبق منك مثله، حقيقةً أو تقديرًا؛ لأجل الله** عَزَّوَجَلَّ)، وهذا أسد العبارات وأجمعها.

وبيان ذلك: أن التائب لا بد أن يكون تاركًا للذنب، غير أن ذلك الذنب الماضي قد وقع، وفرغ منه، فلا يصح تركه؛ إذ هو غير متمكن من عينه لا تركًا ولا فعلًا، وإنما هو متمكن من مثله حقيقة، وهو زنى آخر -مثلًا-، فلو جبَّ لم تصح منه حقيقة الزنى، بل: الذي يصح منه أن يقدر أنه لو كان متمكنًا من الزنى لتركه. فلو قدرنا من لم يقع منه ذنب لم يصح منه إلا اتقاء ما يمكن أن يقع، لا ترك مثل ما وقع، فيكون متقيًا لا تائبًا، فتدبر هذا.

وقوله: (**لأجل الله** عَزَّوَجَلَّ) تحرز من ترك ذلك لغير الله جَلَّوَعَلَا؛ إذ ذلك لا يكون تائبًا اتفاقًا، فلا يكون فعله ذلك توبة، وهذا واضح، وإذا تقرر هذا فاعلم أن الباعث على التوبة: تنبيه إلهي ينبه به من أراد سعادته لقبح الذنوب وضررها؛ فإنها سموم مهلكة تفوت على الإنسان سعادة الدنيا والآخرة، وتحجبه عن معرفة الله عَزَّوَجَلَّ في الدنيا، وعن تقريبه وكرامته في الدار الآخرة. ومن انكشف له هذا، وتفقد نفسه وجد نفسه مشحونة بهذا السم، ومملوءة بهذه الآفات، فلا شك في أن من حصل له علم ذلك، انبعث منه

خوف هجوم الهلاك، فتتعين عليه المبادرة لطلب أمر يدفع به عن نفسه ضرر ما يتوقعه ويخافه. فحينئذ ينبعث منه الندم على ما فرط، وترك مثل ما سبق؛ مخافة عقوبة الله عَزَّوَجَلَّ، فيصدق عليه أنه تائب، فإن لم يكن كذلك كان مصرا على المعصية، وملازمًا لأسباب الهلكة.

ثم اعلم بعد هذا: أن الذنوب إما كفر، وإما غيره، فتوبة الكافر عند موته مقطوع بعدم قبولها، وما عداها فمقبولة إن شاء الله، بوعده الصدق، وقوله الحق.

وأعني بالقبول: الخلاص من ضرر الذنوب حتى يرجع كمن لم يعمل ذنبًا، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»(١).

ثم إن الذنب الذي يتاب منه إما حق لله عَزَّوَجَلَّ، وإما حق لغيره، فحق الله عَزَّوَجَلَّ يكفي في التوبة منه: الترك الذي ذكرناه، غير أن منها: ما لم يكتف الشرع منه بمجرد الترك، بل: أضاف إلى ذلك في بعضها قضاء، كالصلاة والصوم، ومنها: ما أضاف إليها كفارة، كالحنث في الأيمان والظهار، وغير ذلك، فلا يرتفع ضرر ذلك الذنب إلا بتركه، وفعل ما أمره الله عَزَّوَجَلَّ به من القضاء والكفارة. وأما حقوق الآدميين، فلا بد من إيصالها إلى مستحقيها، فإن لم توصل إلى أربابها لم يتخلص من ضرر ذلك الذنب إلا بتركه، وفعل ما أمره الله عَزَّوَجَلَّ به، ومن اجتهد في الخروج عن الحقوق، فلم يقدر على الخروج منها، فعفو الله جَلَّ وَعَلَا مأمول، وفضله مبذول، وكم ضمن من التبعات،

---

(١) أخرجه ابن ماجة [٤٢٥٠]، وأبو نعيم في (الحلية) (٤/٢١٠)، والشهاب القضاعي [١٠٨]، والطبراني في (الكبير) [١٠٢٨١]، والبيهقي في (الكبرى) [٢٠٥٦١]. قال الشيخ شمس الدين السخاوي في (المقاصد): "رجال إسناده ثقات. وقد حسنه شيخنا؛ لشواهده" انظر: المقاصد الحسنة (ص:٢٤٩).

وكم بذل من السيئات بالحسنات، وتفصيل ما أجملناه موجود في كتب مشايخ الإسلام رَحِمَهُمُ اللَّهُ"(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "وكثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على أن لا يعاود الذنب، وبالإقلاع عنه في الحال، وبالندم عليه في الماضي، وإن كان في حق آدمي فلا بد من أمر رابع، وهو التحلل منه.

وهذا الذي ذكروه بعض مسمى التوبة، بل شرطها، وإلا فالتوبة في كلام الله عَزَّوَجَلَّ، ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما تتضمن ذلك، تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه، فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائبًا، حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور، والإتيان به، هذا حقيقة التوبة، وهي اسم لمجموع الأمرين، لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكروه، فإذا أفردت تضمنت الأمرين، وهي كلفظة: (التقوى) التي تقتضي عند إفرادها: فعل ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به، وترك ما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه، وتقتضي عند اقترانها بفعل المأمور: الانتهاء عن المحظور.

فإن حقيقة التوبة: (**الرجوع إلى الله** عَزَّوَجَلَّ **بالتزام فعل ما يحب، وترك ما يكره، فهي رجوع من مكروه إلى محبوب**)، فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها، والرجوع عن المكروه الجزء الآخر؛ ولهذا علق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١]، فكل تائب مفلح، ولا يكون مفلحًا إلا من فعل ما أمر به، وترك ما

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٦٩-٧١).

نهي عنه، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجرات:١١]. وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحظور ظالم، وزوال اسم الظلم عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين، فالناس قسمان: تائب وظالم ليس إلا، فالتائبون هم: ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:١١٢]، فحفظ حدود الله عَزَّوَجَلَّ جزء التوبة، والتوبة هي مجموع هذه الأمور، وإنما سمي تائبًا؛ لرجوعه إلى أمر الله عَزَّوَجَلَّ من نهيه، وإلى طاعته من معصيته.

فإذا التوبة هي حقيقة دين الإسلام، والدين كله داخل في مسمى: (التوبة)، وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة:٢٢٢]، وإنما يحب الله عَزَّوَجَلَّ من فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه.

فإذًا التوبة هي: الرجوع مما يكرهه الله عَزَّوَجَلَّ ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا. ويدخل في مسماها: (الإسلام، والإيمان، والإحسان)، وتتناول: جميع المقامات، ولهذا كانت غاية كل مؤمن، وبداية الأمر وخاتمته، وهي الغاية التي وجد لأجلها الخلق، والأمر والتوحيد جزء منها، بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها.

وأكثر الناس لا يعرفون قدر التوبة، ولا حقيقتها، فضلًا عن القيام بها علمًا وعملًا وحالًا، ولم يجعل الله جَلَّ وَعَلَا محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه.

ولولا أن (التوبة) اسم جامع لشرائع الإسلام، وحقائق الإيمان لم يكن الرب جَلَّ وَعَلَا يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم، فجميع ما يتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل التوبة وآثارها"(١).

وهذا التحرير والبيان من العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومن قبله الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلاهما جد نفيس، مما لا يستغنى عنه في هذا المقام.

ويقال -بالإضافة إلى ما تقدم-: إن الباعث على التوبة: إدامة الفكر في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وما ذكره من تفاصيل الجنة، ووعد به المطيعين، ومن عذاب النار الذي أوعد به العاصين، فمن أدام ذلك قوي خوفه ورجاؤه، فدعا الله عَزَّوَجَلَّ؛ رغبًا ورهبًا، والرغبة والرهبة ثمرة: الرجاء والخوف.

وقيل الباعث على ذلك: تنبيه إلهي ينبه الله عَزَّوَجَلَّ من أراد سعادته بقبح الذنب وضرره؛ إذ هو سم مهلك.

ولا مخالفة في الحقيقة؛ فإن الإنسان لا يتفكر في الوعد والوعيد إلا بالتنبيه الإلهي، فإذا نظر بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ إلى نفسه فوجدها مشحونة بذنوب اكتسبها، وسيئات اقترفها، وانبعث منه: الندم على ما فرط، وترك مثل ما سبق؛ مخافة عقوبته جَلَّ وَعَلَا صدق عليه أنه تائب، فإن لم يكن كذلك فهو مصر على المعصية ملازم لأسباب الهلكة(٢).

---

(١) مدارج السالكين (١/٣١٢-٣١٤).

(٢) انظر: الفتوحات الربانية (٧/٢٧٣-٢٧٤).

ثانيًا: التوبة لفظة يشترك فيها الرب جَلَّوَعَلَا والعبد:

و"التوبة لفظة يشترك فيها الرب جَلَّوَعَلَا والعبد، فإذا وصف بها العبد فالمعنى: رجع إلى ربه؛ لأن كل عاص فهو في معنى: الهارب من ربه، فإذا تاب فقد رجع عن هربه إلى ربه، فيقال: تاب إلى ربه، والرب في هذه الحالة كالمعرض عن عبده. وإذا وصف بها الرب جَلَّوَعَلَا فالمعنى أنه رجع على عبده برحمته وفضله؛ ولهذا السبب وقع الاختلاف في الصلة، فقيل في العبد: تاب إلى ربه. وفي الرب على عبده. وقد يفارق الرجل خدمة رئيس فيقطع الرئيس معروفه عنه، ثم يراجع خدمته، فيقال: فلان عاد إلى الأمير، والأمير عاد عليه بإحسانه ومعروفه.

وإذا عرفت هذا فنقول: قبول التوبة يكون بوجهين:

أحدهما: أن يثيب عليها الثواب العظيم، كما أن قبول الطاعة يراد به ذلك.

والثاني: أنه جَلَّوَعَلَا يغفر ذنوبه بسبب التوبة.

والمراد من وصف الله عَزَّوَجَلَّ بالتواب: المبالغة في قبول التوبة، وذلك من وجهين:

الأول: أن واحدًا من ملوك الدنيا متى جنى عليه إنسان ثم اعتذر إليه فإنه يقبل الاعتذار، ثم إذا عاد إلى الجناية وإلى الاعتذار مرة أخرى فإنه لا يقبله لأن طبعه يمنعه من قبول العذر، أما الله عَزَّوَجَلَّ فإنه بخلاف ذلك، فإنه إنما يقبل التوبة لا لأمر يرجع إلى رقة طبع، أو جلب نفع، أو دفع ضرر، بل إنما يقبلها لمحض الإحسان والتفضل.

فلو عصى المكلف كل ساعة ثم تاب وبقي على هذه الحالة العمر الطويل لكان الله عَزَّوَجَلَّ يغفر له ما قد سلف، ويقبل توبته، فصار جَلَّوَعَلَا مستحقًّا للمبالغة في قبول التوبة، فوصف بأنه جَلَّوَعَلَا توَّاب.

الثاني: أن الذين يتوبون إلى الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يكثر عددهم، فإذا قبل توبة الجميع استحقَّ المبالغة في ذلك، ولما كان قبول التوبة مع إزالة العقاب يقتضي حصول الثواب، وكان الثواب من جهته نعمة ورحمة وصف نفسه مع كونه توَّابًا بأنه رحيم"(١).

وفي (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "باب قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر:٣]: تَوَّابٌ على العباد، والتَّوَّابُ من النَّاس: التَّائِبُ من الذَّنْب"(٢).

وقال الحليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير (التواب) في الأسماء الحسنى: "إنه العائد على عبده بفضل رحمته، كلما رجع لطاعته، وندم على معصيته، فلا يحبط عنه ما قدمه من خير، ولا يحرمه ما وعد به الطائع من الإحسان.

وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (التواب): الذي يعود إلى القبول، كلما عاد العبد إلى الذنب وتاب"(٣).

ووصف العبد بأنه (تواب)، يعني: أنه كثير الرجوع إلى الطاعة، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۝٢٢٢﴾ [البقرة:٢٢٢]"(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (٣/٤٦٨)، وانظر: غرائب القرآن (١/٢٦٣-٢٦٤).

(٢) صحيح البخاري (٦/١٧٩).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (١١/١٠٤).

(٤) المنهاج في شعب الإيمان، لأبي عبد الله الحَلِيمي (٣/١٢٠).

ثالثًا: التوبة النصوح:

قال الشريف الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(التوبة النصوح): هي توثيق بالعزم على ألا يعود لمثله.

وقيل: (التوبة النصوح): ألا يبقي على عمله أثرًا من المعصية سرًّا وجهرًا.

وقيل: هي التي تورث صاحبها الفلاح عاجلًا وآجلًا"(١).

"قال صاحب العين: التوبة النصوحة: الصادقة. وقيل: إنما سمى الله عَزَّوَجَلَّ التوبة نصوحًا؛ لأن العبد ينصح فيها نفسه، ويقيها النار؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم:٦]، وأصل قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨]: توبة منصوحًا فيها، إلا أن أخبر عنها باسم الفاعل للنصح على ما ذكره سيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الخليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١﴾ [الحاقة:٢١]، أي: ذات رضا، وذكر أمثلة لهذا كثيرة عن العرب، كقولهم: ليل نائم، وهم ناصب، أي: ينام فيه وينصب(٢)، فكذلك: ﴿تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾، أي: ينصح فيها"(٣).

قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨]، أي: بالغة في النصح، فهو من أمثلة المبالغة، كضروب، وصفت التوبة به على الإسناد المجازي، وهو وصف التائبين، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسهم فيأتوا بها على طريقها.

---

(١) التعريفات (ص:٧٠).

(٢) انظر هذه المسألة في كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن)، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان (ص:٦٤٠-٦٤٧).

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٧٩).

قيل: التوبة النصوح: أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب، فيعتذر إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضرع. ورُوِيَ عن عمر، وابن مسعود، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، والحسن، ومجاهد، وغيرهم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ"[١].

وقيل: ﴿نَّصُوحًا﴾ من نصاحة الثوب، أي: خياطته، أي: توبة ترفو خروقك في دينك، وترم خللك. وقيل: خالصته من قولهم: (عسل ناصح): إذا خلص من الشمع. وجوز أن يراد توبة تنصح الناس، أي: تدعوهم إلى مثلها؛ لظهور أثرها في صاحبها، واستعمال الجد والعزيمة في العمل بمقتضياتها. وفي المراد بها أقوال كثيرة أوصلها بعضهم إلى نيف وعشرين قولا: منها ما سمعت"[٢].

وقال القشيري رَحِمَهُٱللَّهُ: "(التوبة النصوح): هي التي لا يعقبها نقض.

ويقال: هي التي لا تراها من نفسك، ولا ترى نجاتك بها، وإنما تراها بربّك.

ويقال: هي أن تجد المرارة في قلبك عند ذكر الزِّلَّة، كما كنت تجد الراحة لنفسك عند فعلها"[٣].

---

(١) انظر: الدر المنثور (٨/٢٢٧)، انظر: التفسير المسند، للإمام أبي بكر بن موسى بن مردويه (٢/١٩٨)، وانظر: الكشف والبيان (٤/٢٠٩)، (٩/٣٥٠)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن الواحدي (٤/٣٢٢)، تفسير القرطبي (١٨/١٩٧)، البحر المحيط في التفسير (١٠/٢١٣).

(٢) روح المعاني (١٤/٣٥٢)، بتصرف.

(٣) لطائف الإشارات (٣/٦٠٨).

وعن أبي بكر الورَّاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه سئل عن (التوبة النصوح)، فقال: أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه، كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه [(١)].

وعن النعمان بن بشير: أن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ سئل عن التوبة النصوح، قال: «**أن يتوب الرجل من العمل السيء، ثم لا يعود إليه أبدًا**» [(٢)].

وسئل الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن التوبة النصوح، فقال: ندم بالقلب، واستغفار باللسان، وترك بالجوارح، وإضمار أن لا يعود [(٣)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(النصوح) على وزن: (فعول) المعدول به عن (فاعل)؛ قصدًا للمبالغة، كالشكور والصبور، وأصل مادة: (نصح) لخلاص الشيء من الغش

---

(١) انظر: الكشف والبيان (١٠٨/٥)، الكشاف (٣٢٠/٢)، المحرر الوجيز (٣٣٤/٥)، تفسير القرطبي (٢٨٧/٨)، غرائب القرآن (٥٤٢/٣)، تفسير أبي السعود (١١٠/٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٤٩١]، وهناد في (الزهد) [٩٠١]، وأبو داود في (الزهد) [٥٩]، وابن جرير في (التفسير) (٤٩٣/٢٣)، وابن أبي حاتم في (التفسير) [١٨٩٢٥]، والحاكم [٣٨٣٠]، وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي، كما أخرجه: البيهقي في (الكبرى) [٢٠٥٦٥]، وفي (شعب الإيمان) [٦٦٣٤]. قال السيوطي: "أخرجه عبد الرزاق، والفريابي، وسعيد بن منصور، وابن أبي شيبة، وهناد، وابن منيع، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، وابن مردويه، والبيهقي في (شعب الإيمان): عن النعمان بن بشير عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ" الدر المنثور (٢٢٧/٨)، وانظر: (كنز العمال) [١٠٤٢٣]. وقد أخرجه ابن جرير (٤٩٣/٢٣): عن أبي الأحوص، وعن سفيان كلاهما عن سماك بن حرب... وانظر: تفسير ابن كثير (١٦٨/٨).

(٣) غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب، لمحمد بن عُزير السجستاني (ص:٤٧٠)، قوت القلوب (٣٠٣/١)، زاد المسير (٣١١/٤)، التبصرة، لابن الجوزي (ص:٣٦٩).

والشوائب الغريبة، وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لنصح إذا خلص، فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش، ونقص، وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه، والنصح ضد الغش.

قال: والنصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب، واستغراقها، بها بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوم، ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله عَزَّوَجَلَّ وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عَزَّوَجَلَّ.

فالأول يتعلق بما يتوب منه، والثالث يتعلق بمن يتوب إليه، والأوسط يتعلق بذات التائب ونفسه، فنصح التوبة الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه، وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة"[١].

---

(١) مدارج السالكين (١/٣١٦-٣١٧)، وانظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (١/٩٤).

رابعًا: مكانة التوبة وفضلها والترغيب فيها:

التوبةُ هي أهمُّ قواعد الإسلام، وهي أول مقامات سالكي طريق الآخرة، وهي باب الأمل في النَّجاة لمن أسرف في المعاصي، فمهما كثرت الذنوب وعظمت فإن الله عَزَّوَجَلَّ قد فتح باب التوبة للعبد الذي يقبل على الله تائبًا قبل أن يحضره الموت؛ فلا ييأس العبد من عفو الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن التوبة الصالحة النصوح تجبُّ ما قبلها، فهي طيٌّ لسجل الماضي بما فيه، وفتح لصفحة جديدة، وبدء لحياة تختلف بالكلية عن التي قبلها، يسارع العبد فيها إلى الأعمال الصالحة، ويرد الحقوق إلى أصحابها، ويطلب العفو والسماح، ممن أساء إليه، أو لحقه منه ضرر أو ظلم أو إيذاء، ويحسن التعامل مع الخلق، ويتخلق بأحسن الأخلاق، ويعمل جاهدًا على تدارك ما فاته من التقصير.

فباب التوبة مفتوح ما لم يحضر العبد الموت، أو تطلع الشمس من مغربها، فمهما وقع المؤمن في شيء مما يقع فيه العتب من جهة الشرع، فهو مخاطب بالمبادرة إلى التوبة الشرعية، فإذا أوقعها بشروطها المعتبرة شرعًا وجد الباب مفتوحًا، لا يرد عنه، ولا يغلق دونه، بكرم من المولى جَلَّوَعَلَا.

والتوبة فرض من الله عَزَّوَجَلَّ على كلِّ من علم من نفسه ذنبًا صغيرًا أو كبيرًا.

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ عباده بالتوبة فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود:٣]، وقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨].

ووعد عباده التائبين بقبول التوبة، والتجاوز عن السيئات في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ

عَلَيْهِمْۗ﴾ [النساء:١٧]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٠٤﴾ [التوبة:١٠٤]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ٢٥﴾ [الشورى:٢٥]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١١٠﴾ [النساء:١١٠]، أي: من يتب توبة صادقة، ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾ يجد الله عَزَّوَجَلَّ ساترًا عليه ذنبه، بصفحه له عن عقوبة جرمه، ﴿رَّحِيمًا ١١٠﴾ به.

ووعدهم كذلك بالمغفرة وحسن الجزاء في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ٦٨ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ٧١﴾ [الفرقان:٦٨-٧١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ٨٢﴾ [طه:٨٢]، وقال: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر:٣]، وقال: ﴿إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ٢٥﴾ [الإسراء:٢٥]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ٦٤﴾ [النساء:٦٤].

وذكر الله عَزَّوَجَلَّ أنه يحبُّ العبد الذي يتوب، ويطهر نفسه من أدران الظاهر والباطن في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة:٢٢٢].

وبشر التائبين بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [التوبة:١١٢].

فالتائبون هم الراجعون مما كرهه الله عَزَّوَجَلَّ وسخطه إلى ما يحبُّه ويرضاه.

والتوبة على الفور خيرٌ للعبد في حاله ومآله، فلا يأمنُ من أخَّرَ التوبة أن ينزل به عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، ويحل به عقابه، فيندم حين لا ينفعه الندم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣﴾ [التوبة:٣].

وتوعد الله عَزَّوَجَلَّ من لم يتب بسوء العاقبة فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾ [النساء:١٨]، وقال: ﴿فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾ [التوبة:٧٤]، وقال: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحجرات:١١]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠﴾ [البروج:١٠].

وأمر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الناس بالتوبة، كما جاء في الحديث: عن أبي بُرْدَةَ، قال: سمعت الْأَغَرَّ، وكان من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يحدث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا

قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله، فإني أتوب، في اليوم إليه مائة مرة**»[(١)].

والحديث دليلٌ على أنَّ كلَّ عبدٍ مهما كانت مرتبته ودرجته في الإيمان، فإنَّه يحتاج إلى الرجوع إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وإلى تكميل نفسه بالتوبة، فيتوب مما علم ومما لم يعلم، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع علو مرتبته، وكمال عُبوديته لله عَزَّ وَجَلَّ، ومع أن الله عَزَّ وَجَلَّ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فإنه كان يتوب في اليوم مائة مرة، وفي ذلك تعليم لأمته بأن يحاسب كل إنسان نفسه، ويجدد توبة عن كل ذنبٍ، أو تقصيرٍ، أو غفلة، ويعقد مع الله عَزَّ وَجَلَّ عهدًا جديدًا على أن يسيرَ على صراطه المستقيم، وأن لا ينحرفَ عنه، ثم يتجهَ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بشتى القُرُباتِ والطاعاتِ التي تتسنى له، إذن فلسوفَ يكرمُه الله عَزَّ وَجَلَّ، ويرزقه من خيري الدنيا والآخرة.

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[(٢)].

وعن الْأَغَرِّ الْمُزَنِيِّ، وكانت له صحبة، أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ على قلْبِي، وإِنِّي لأستَغْفِرُ اللهَ، في اليوم مائة مَرَّة**»[(٣)].

قال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ: يعني: أنه يتغشى القلب ما يلبسه. وكذلك كل شيء تغشى شيئًا حتى يلبسه فقد غين عليه، ويقال: غينت السماء غينًا، وهو إطباق الغيم

---

(١) صحيح مسلم [٢٧٠٢].

(٢) صحيح البخاري [٦٣٠٧].

(٣) صحيح مسلم [٢٧٠٢].

السماء. و(الغين) -بالغين المعجمة-، و(الغيم) بمعنى واحد، والمراد هنا: ما يتغشى القلب [(١)].

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "قيل: المراد: الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان دأبه، فيستغفر منه؛ إذ كان أبدًا فيمن يدمن ذلك، فرأى الغفلة عنه ذنبًا، واستغفر منه.

وقيل: ذلك الغين: همه بسبب أمته، وما اطلع عليه من أحوالها بعده، فيستغفر لهم.

وقيل: إن ذلك لما يشغله عن عظيم مقامه، من النظر في أمور أمته ومصالحهم، ومجاهدة عدوه، ومداراتهم؛ للاستئلاف، فيرى شغله لذلك -وإن كان من أعظم الطاعات، وأفضل الأعمال- نزولًا عن عليِّ درجته، ورفيع مقامه، من حضوره بهمه كله مع الله عَزَّوَجَلَّ، ومشاهدته عنده، وفراغه عن غيره إليه، وخلوصه له عمن سواه، فيستغفر لذلك.

وقيل: قد يكون هذا الغين: السكينة التي تغشى قلبه؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ﴾ [التوبة:٤٠]، واستغفاره: إظهار للعبودية والافتقار، وملازمة الخضوع؛ شكرًا لما أولاه به.

قال المحاسبي رَحِمَهُ اللَّهُ: خوف الملائكة والأنبياء عَلَيۡهِمُ السَّلَامُ خوف إعظام، وإن كانوا آمنين من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، فخوفهم تعبد لله عَزَّوَجَلَّ؛ إجلالًا وإعظامًا.

---

(١) انظر: غريب الحديث، لأبي عُبيد القاسم بن سلام، مادة: (غين) (١/١٣٦-١٣٧)، تهذيب اللغة (٨/١٧٤)، المعْلم بفوائد مسلم (٣/٣٣٠)، إكمال المعلم (٨/١٩٧).

وعلى من يجيز الصغائر على الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فيجعل استغفاره لما عساه يتوقعه أن يجرى على لسانه أو جوارحه فيها، وإن كان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فاستغفاره لذلك شكر لله عَزَّ وَجَلَّ، وإعظام لجلاله.

وقيل: هو شيء يعتري القلوب الصافية، مما يحدث في النفس من اللمم وحديثها، أو الغفلة فيشوشها -والله أعلم-"[1].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ويحتمل معنيين:

أحدهما: أن معرفة الله عَزَّ وَجَلَّ عند العارف كل لحظة تزيد لما يستفيده من العلم به جَلَّ وَعَلَا، فهو في صعود دائم، فكأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان كلما ارتقى عن مقام بما يستفيده من العلم بالله عَزَّ وَجَلَّ حين قال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه:١١٤] يرى ذلك الذي كان فيه نقصًا وغطاء، فيستغفر من الحالة الأولى، ومن هذا المعنى قيل: حسنات الأبرار ذنوب المقربين. هذا واقع وقع لي.

ثم رأيت ابن عقيل رَحِمَهُ اللَّهُ قد ذكر مثل ذلك فقال: كان يترقى من حال إلى حال، فتصير الحالة الأولى بالإضافة إلى الثانية من التقصير كالذنب، فيقع الاستغفار لما يبدو له من عظمة الرب جَلَّ وَعَلَا، وتتلاشى الحال الأولى بما يتجدد من الحال الثانية.

والمعنى الثاني: أن التغطية على قلبه كانت لتقوية الطبع على ما يلاقي، فيصير بمثابة النوم الذي تستريح فيه الأعضاء من تعب اليقظة، وذلك أن الطاعة على الحقائق، ومواصلة الوحي تضعف قلبه، وتوهن بدنه، وقد أشار عَزَّ وَجَلَّ إلى هذا في قوله:

---

(١) انظر: إكمال المعلم (٨/١٩٧-١٩٨)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/٢٣).

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل:٥]، وقوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].."[١].

وقال أبو العباس القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وليس معناه: أنه يذنب في اليوم مائة مرة، بل ذكره لما هو بالنسبة إلى علو منصبه ذنب؛ لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين. وذكره له صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اليوم مائة مرة يدل على فرط استعظامه لأمر ربه عَزَّ وَجَلَّ، فشتان ما بين من لا ينسى الحقير من أمر ربه جَلَّ وَعَلَا حتى يذكره في اليوم مائة مرة، وبين من ينسى العظيم من ذنوبه، فلا يمر على باله؛ احتقارًا لذنوبه، وجهلًا بعظمة ربه عَزَّ وَجَلَّ.

وقد ذم الله عَزَّ وَجَلَّ من وعظ فأعرض عن الموعظة، ونسي ما قدمت يداه. وإذا كانت التوبة واجبة على الفور، فمن أخرها زمانًا عصى بتأخيرها، فيتكرر عصيانه بتكرر الأزمنة، فيحتاج إلى توبة من تأخير التوبة، وكذلك تأخير كل ما يجب تقديمه من الطاعات"[٢].

وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله: «**فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة**»: "هذا يدل على التوبة، وأن الإنسان مهما ذكر ذنبه جدد التوبة؛ لأنَّه من حصول الذنب على يقين، ومن الخروج عن عقوبته على شك، فحق التائب أن يجعل ذنبه نصب عينيه، وينوح دائمًا عليه، حتى يتحقق أنه قد غفر له ذنبه، ولا يتحقق أمثالنا ذلك إلا بلقاء الله عَزَّ وَجَلَّ، فواجب عليه ملازمة الخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ، والرجوع

(١) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢٣١/٤-٢٣٢).

(٢) الذخيرة في فروع المالكية (٣٥٧/١٣).

إلى الله جَلَّ وَعَلَا بالندم على ما فعل، وبالعزم على ألا يعود إليه، والإقلاع عنه. ثم لو قدرنا أنه تحقق أنه غفر له ذلك الذنب تعينت عليه وظيفة الشكر، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا؟**»[(1)].

وإنَّما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه يكرر توبته كل يوم مع كونه مغفورًا له؛ ليُلحق به غيرُه نفسَه بطريق الأولى؛ لأنَّ غيره يقول: إذا كانت حال من تحقق مغفرة ذنوبه هكذا، كانت حال من هو من ذلك في شك أحرى وأولى، وكذلك القول في الاستغفار والتوبة يقتضي شيئًا يتاب منه؛ إلا أن ذلك منقسم بحسب حال من صدر منه ذلك الشيء، فتوبة العوام من السيئات، وتوبة الخواص من الغفلات، وتوبة خواص الخواص من الالتفات إلى الحسنات، هكذا قاله بعض أرباب القلوب، وهو كلام حسن في نفسه، بالغ في فنه"[(2)].

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "ويحتمل أن يكون لاشتغاله بالأمور المباحة من أكل، أو شرب، أو جماع، أو نوم، أو راحة، أو لمخاطبة الناس والنظر في مصالحهم، ومحاربة عدوهم تارة، ومداراته أخرى، وتأليف المؤلفة، وغير ذلك مما يحجبه عن الاشتغال بذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، والتضرع إليه ومشاهدته ومراقبته، فيرى ذلك ذنبًا بالنسبة إلى المقام العلي، وهو الحضور في حظيرة القدس ومنها أن استغفاره تشريع لأمته أو من ذنوب الأمة فهو كالشفاعة لهم"[(3)].

---

(١) صحيح البخاري [١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١]، مسلم [٢٨١٩].

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢٨/٧).

(٣) فتح الباري (١٠٢/١١).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان تُعَدُّ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المجلس الواحد مائة مرة من قبل أن يقوم: «**رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الغفور**» (١).

ومن أسباب العافية والسلامة لمن ابتلي بشيء من المعاصي: أن يستتر، ويستغفر الله عَزَّ وَجَلَّ، ويتوب إليه توبة نصوحًا، وأن يعمل جاهدًا على اجتناب المعاصي كلها، وإذا ألم بشيء منها فليجتهد في إخفائه وستره، وليتضرع إلى الله عَزَّ وَجَلَّ في سجوده أن يتوب عليه من ذنبه.

ولأهمية التوبة فإن الله عَزَّ وَجَلَّ يفرح بتوبة العبد، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بتوبة عبده المؤمن، من رَجُلٍ في أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلِكَةٍ، معه رَاحِلَتُهُ، عليها طعامُهُ وشرابُهُ، فنام فاستيقظ وقد ذهبت، فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضعَ رَأْسَهُ على سَاعِدِه ليمُوتَ، فاستيقظ**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٤٤٣]، بلفظ: «.. إنك أنت التواب الغفور»، وكذا عند أحمد [٤٧٢٦]، وعبد بن حميد [٧٨٦]، والترمذي [٣٤٣٤]، وقال: "حسن صحيح غريب" كما أخرجه: البزار [٥٩٠٦]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٢١٩]، وفي (عمل ليوم والليلة) [٤٥٨]. وقد جاء أيضًا بلفظ: «إنك أنت التواب الرحيم»، وهو كذلك عند البخاري في (الأدب المفرد) [٦١٨]، وابن ماجة [٣٨١٤]، وأبو داود [١٥١٦]، وابن حبان [٩٢٧]، وابن السني في (عمل ليوم والليلة) [٤٤٨]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٢/٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٣٢]، والبغوي في (شرح السنة) [١٢٨٩]، وابن عساكر في (معجمه) [٢٤٠]. وذكر محمد بن نصر المَرْوَزِي اللفظين في (مختصر قيام الليل) (ص:٩٨) فقال: «إنك أنت التواب الغفور أو التواب الرحيم».

وعنده راحلته وعليها زاده وطعامه وشرابه، فاللهُ أَشَدُّ فَرَحًا بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته وزاده» [1].

وفي رواية: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم، سقط على بعيره، وقد أَضَلَّهُ في أرض فلاة**» [2].

زاد مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ في رواية: «**فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها، قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**» [3].

---

(١) صحيح البخاري [٦٣٠٨]، مسلم [٢٧٤٤]، واللفظ له. "أما دَوِّيَّةٍ فاتفق العلماء على أنها بفتح الدال، وتشديد الواو والياء جميعًا. وذكر مسلم في الرواية التي بعد هذه رواية أبي بكر بن أبي شيبة: «أرض دَاوِيَّةٍ» بزيادة ألف، وهي بتشديد الياء أيضًا، وكلاهما صحيح. قال أهل اللغة: الدوية الأرض القفر، والفلاة الخالية. قال الخليل: هي المفازة. قالوا: ويقال: دوية وداوية، فأما الدوية فمنسوب إلى (الدو) بتشديد الواو، وهي البرية التي لا نبات بها، وأما (الداوية) فهي على إبدال إحدى الواوين ألفًا، كما قيل في النسب إلى طي: (طائي). وأما (المهلكة) فهي بفتح الميم وبفتح اللام وكسرها، وهي: موضع خوف الهلاك. ويقال لها: (مفازة). قيل: إنه من قولهم فَوَّزَ الرجل: إذا هلك. وقيل: على سبيل التفاؤل بفوزه ونجاته منها، كما يقال للديغ: سليم" شرح النووي على صحيح مسلم (٦١/١٧)، وانظر: إكمال المعلم (٢٤٢/٨)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧٢/٧-٧٣).

(٢) صحيح البخاري [٦٣٠٩]، مسلم (٨) [٢٧٤٧].

(٣) مسلم (٧) [٢٧٤٧].

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**قال الله عَزَّوَجَلَّ: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة، ومن تقرب إلي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إليه ذراعًا، ومن تقرب إليَّ ذراعًا، تقرَّبت إليه باعًا، وإذا أقبل إلي يمشي، أقبلت إليه أهرول**»[(١)]. وروي في (الصحيحين): «**وأنا معه حين يذكرني**» بالنون، وفي هذه الرواية: «**حيث**» بالثاء، وكلاهما صحيح.

قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: «**لله أفرح**» "معناه: أَرْضَى بالتوبة، وأَقْبَلُ لها، والفرحُ الذي يتعارفه الناس في نعوت بني آدم غير جائز على الله عَزَّوَجَلَّ، إنما معناه: الرضا، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كُلُّ حِزْبِۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون:٥٣]، أي: راضون"[(٢)].

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "والفرح وراء القبول، فهو دليل على القبول وزيادة"[(٣)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذه فرحة إحسان وبر ولطف، لا فرحة محتاج إلى توبة عبده، منتفع بها، وكذلك موالاته لعبده؛ إحسانًا إليه، ومحبة له وبرًّا به، لا يتكثَّر به من قِلَّة، ولا يتعزَّز به من ذلَّة، ولا ينتصر به من غلبة، ولا يعده لنائبة، ولا يستعين به في أمر. ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

---

(١) صحيح البخاري [٧٤٠٥]، صحيح مسلم [٢٦٧٥] واللفظ له.

(٢) أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري)، للخطابي (٢٢٣٨/٣)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (١٠٦/١١).

(٣) إحياء علوم الدين (١٣/٤).

وَلِيٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾ [الإسراء:١١١]، فنفى أن يكون له ولي من الذل، والله ولي الذين آمنوا، وهم أولياؤه"(١).

قال: "وفي الحديث من قواعد العلم: أن اللفظ الذي يجري على لسان العبد خطأ من فرح شديد، أو غيظ شديد، ونحوه، لا يؤاخذ به؛ ولهذا لم يكن هذا كافرًا بقوله: «**أنت عبدي وأنا ربك**». ومعلوم أن تأثير الغضب في عدم القصد يصل إلى هذه الحال، أو أعظم منها، فلا ينبغي مؤاخذة الغضبان بما صدر منه في حال شدة غضبه من نحو هذا الكلام"(٢).

فتأمل سائرًا وحده بأرض مفازة معطشة، لا ماء بها ولا زاد، ضلت راحلته فيها، فاشتد جوعه وظمأه، فأيس من الحياة، فاضطجع في أصل شجرة ينتظر الموت، ثم استيقظ فإذا الراحلة قائمة على رأسه، وعليها طعامه وشرابه، كما جاء ذلك مصرَّحًا به في بعض طرق هذا الحديث، فهل في الفرح قط أعظم من هذا؟ ولهذا الفرح بتوبة العبد سر أكثر الخلق محجوبون عنه، لا تبلغه عقولهم، وبه يعرف سر تقدير ما يثاب منه على العبد؛ لأنه يترتب عليه ما هو أحب إلى الرب جَلَّ وَعَلَا من عدمه، فلو لم يكن في تقدير الذنب من الحكم إلا هذه وحدها لكانت كافية، فكيف وفيه من الحكم ما لا يحصيه إلا الله عَزَّ وَجَلَّ مما ليس هذا موضعه؟!"(٣).

---

(١) مدارج السالكين (١/٢١٢-٢١٣).

(٢) المصدر السابق (١/٢٢٦).

(٣) الصواعق المرسلة (٤/١٤٦١-١٤٦٢).

وفي الحديث: عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله** عَزَّ وَجَلَّ **يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**»(١)، أي: إن الله عَزَّ وَجَلَّ يقبل التوبة من العاصي في أي وقت كانت منه، ليلًا ونهارًا، ما لم يحضره الموت، أو تطلع الشمس من مغربها.

وفيه: تنبيه على سعة رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ، وكثرة تجاوزه عن الذنوب، ولا يزال كذلك جَلَّ وَعَلَا.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء، ثم تبتم، لتاب الله عليكم**»(٢).

وعند أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**والذي نفسي بيده -أو والذي نفس محمد بيده- لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله لغفر لكم، والذي نفس محمد بيده -أو والذي نفسي بيده- لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون، ثم يستغفرون الله، فيغفر لهم**»(٣).

---

(١) صحيح مسلم [٢٧٥٩].

(٢) أخرجه ابن ماجه [٤٢٤٨]، قال في (الزوائد) (٤/٢٤٦): "هذا إسناد حسن". وقال العراقي: "أخرجه ابن ماجه من حديث: أبي هريرة، وإسناده حسن" المغني عن حمل الأسفار (ص:١٣٤٧).

(٣) أخرجه أحمد [١٣٤٩٣]، وأبو يعلى [٤٢٢٦]، والطبراني في (الدعاء) [١٨٠٥]، والديلمي [٧٠٩٥]، والضياء [١٥٤٤]. قال الهيثمي (١٠/٢١٥): "رواه أحمد، وأبو يعلى، ورجاله ثقات".

وعن أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال حين حضرته الوفاة: كنت كتمت عنكم شيئًا سمعته من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقًا يذنبون يغفر لهم**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم**»(٢).

وهذا لأن الذنب يوجب الذل، والخشية، والخوف، وصدق اللجأ، وبذلك يبين ذل العبودية، وانفراد عز الربوبية. وفيه: تقوية لرجاء المذنب في العفو(٣). فلا يفهم من الحديث: التساهُل في الوُقوع في الذنب، ثم الاستغفار بعد ذلك، وإنما جاء الحديث لبيان حال الإنسان وأنه قد ينزع إلى الذنب أو الشر، فإذا وقع في الخطأ والذنب فقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ له مخرجًا بالتوبة والاستغفار.

قال الشيخ عبد العزيز الدريني رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأول التوبة يقظة من الله عَزَّوَجَلَّ تقع في القلب، فيتذكر العبد تفريطه وإساءته، وكثرة جناياته، مع دوام نعم الله عَزَّوَجَلَّ عليه، فيعلم أن الذنوب سموم قاتلة يخاف منها حصول المكروه، وفوات المحبوب في الدنيا والآخرة، فإذا حصل هذا العلم أثمر حالًا، وهو الندم على تضييع حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ، ثم

---

(١) صحيح مسلم [٢٧٤٨].

(٢) صحيح مسلم [٢٧٤٩].

(٣) كشف المشكل (٢/٩٢)، (٣/٥٩٠).

يثمر الندم عملًا، وهو المبادرة إلى الخيرات، وقضاء الواجبات، ورد الظلامات، والعزم على إصلاح ما هو آت، فهذه الأمور الثلاث إذا انتظمت فهي التوبة"(١).

وقد ذكروا أن وقوع العبد في بعض المعاصي، معترفًا بذنبه، نادمًا على فعله، عازمًا على عدم العود إليها، ومجددًا على ذلك التوبة، فيه فوائد ترجع إلى العبد إذا أحسن العودة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومن هذه الفوائد:

- اعترافه بالذنب والضعف، وتذلله لله عَزَّوَجَلَّ.
- ومنها: تنكيس رأسه عن الكبر والعجب.

فمن أراد السلامة والعافية فينبغي أن لا يغترَّ بطاعته؛ فإن الذي يبكي ندمًا على معصيته خير من المغرور بطاعته، كما قال ابن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، وقضى عليك بالذنب وكان سببًا للوصول، رب معصية أورثت ذلًّا وافتقارًا خير من طاعة أورثت عزًّا واستكبارًا اهـ. قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا كله ليس تنويهًا لارتكاب الخطايا، بل المراد أنه إذا أذنب فندم بذله وانكساره نفعه ذلك"(٢).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم**» (٣).

---

(١) طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب (ص:٧٧-٧٨).

(٢) انظر: فيض القدير (٢/٢٦٤)، وانظر: الفتاوى الحديثية (ص:٢١١).

(3) صحيح مسلم [٢٧٤٩].

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لم يورد هذا الحديث مورد تسلية للمنهمكين في الذنوب، وقلة احتفال منهم بمواقعة الذنوب، على ما يتوهم الغرة؛ فإن الأنبياء صلوات الله عليهم إنما بعثوا؛ ليردعوا الناس عن غشيان الذنوب، بل ورد مورد البيان لعفو الله عَزَّوَجَلَّ عن المذنبين، وحسن التجاوز عنهم؛ ليعظموا الرغبة في التوبة والاستغفار.

والمعنى المراد من الحديث هو أن الله عَزَّوَجَلَّ كما أحب أن يحسن إلي المحسن، أحب أن يتجاوز عن المسيء، وقد دل علي ذلك غير واحد من أسمائه: (الغفار، الحليم، التواب، العفو)، ولم يكن ليجعل العباد شأنًا واحدًا كالملائكة مجبولين علي التنزه من الذنوب، بل يخلق فيهم من يكون بطبعه ميَّالًا إلي الهوى، متفتنًا بما يقتضيه، ثم يكلفه التوقي عنه، ويحذره من مداناته، ويعرفه التوبة بعد الابتلاء؛ فإن وفى فأجره علي الله عَزَّوَجَلَّ، وإن أخطأ الطريق فالتوبة بين يديه، فأراد النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ به أنكم لو كنتم مجبولين علي ما جبلت عليه الملائكة، لجاء الله بقوم يتأتى منهم الذنب، فيتجلي عليهم بتلك الصفات علي مقتضى الحكمة؛ فإن الغفار يستدعي مغفورًا، كما أن الرزاق يستدعي مرزوقًا.

تصدير الحديث بالقسم رد لمن ينكر صدور الذنب عن العباد، ويعده نقصًا فيهم مطلقًا، وأن الله عَزَّوَجَلَّ لم يرد من العباد صدوره، كالمعتزلة ومن سلك مسلكهم، فنظروا إلى ظاهره، وأنه مفسدة صرفة، ولم يقفوا علي سره أنه مستجلب للتوبة والاستغفار الذي هو موقع محبة الله جَلَّوَعَلَا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة:٢٢٢]، و«**إن الله يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار**»، و«**الله أشد فرحا بتوبة عبده**» الحديث.

ولعل السر في إظهار صفة الكرم، والحلم، والغفران، ولو لم يوجد لانثلم طرف من صفات الألوهية، والإنسان إنما هو خليفة الله عَزَّوَجَلَّ في أرضه، يتجلى له بصفات الجلال والإكرام، والقهر واللطف والإنعام، والملائكة لما نظروا إلي الجلال والقهر، قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة:٣٠]، والله عَزَّوَجَلَّ حين نظر إلى صفة الإكرام واللطف: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة:٣٠]، وإلى هذا الموضوع يلمح قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لذهب الله بكم**»، ولم يكتف بقوله: «**لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون**» -والله أعلم-"(١).

وفي الحديث: «**لو لم تكونوا تذنبون لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك: العجب**» (٢).

قال الشيخ الديريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما كان العجب أشد؛ لأن العاصي معترف بنقصه، فيرجى له العفو به، والمعجب مغرور بعمله؛ فتوبته بعيدة -انتهى-، قال

---

(1) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٦/١٨٤٠-١٨٤١).

(٢) أخرجه البزار [٦٩٣٦]، والخرائطي في (مساوئ الأخلاق) [٥٦٨]، والشهاب القضاعي [١٤٤٧]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٨٦٨] عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. قال العراقي: "أخرجه البزار، وابن حبان في (الضعفاء)، والبيهقي في (الشعب) من حديث: أنس. وفيه: سلام بن أبي الصهباء، قال البخاري: منكر الحديث. وقال أحمد: حسن. ورواه أبو منصور الديلمي في (مسند الفردوس) من حديث: أبي سعيد بسند ضعيف جدًّا" المغني عن حمل الأسفار (ص:١٢٨٦). قال المناوي: "طرقه كله ضعيفة؛ ولهذا قال في (الميزان) (٢/١٨٠) عند إيراده: ما أحسنه من حديث لو صح. وكان ينبغي للمصنف تقويتها بتعددها الذي رقاه إلى رتبة الحسن؛ ولهذا قال في (المنار): هو حسن بها، بل قال المنذري (٣/٣٥٨): رواه البزار بإسناد جيد" فيض القدير (٥/٣٣١).

العلامة السخاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويشير إليه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف:١٠٤]"(١).

وقال الشيخ الديريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا: "وينبغي لمن أذنب ذنبًا: أن يبادر إلى التوبة، ويعمل في قطع الأسباب الباعثة على الذنب، ويهجر من كان يصحبه على تلك الحالة، ويتدارك ما أفسده؛ ليمحوه بصالح الأعمال"(٢).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود:١١٤]، وقال: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان:٧٠].

التوبة الصادقة تقطع آثار الذنب، إذا صدق التائب أنسى الله عَزَّوَجَلَّ الملائكة ذنوبه، وأنسى بقاع الأرض عيوبه، ومحا من أمِّ الكتاب زلاته، ولا يحاسب يوم القيامة عليها(٣).

وعن عيسى بن يونس قال: كنا عند محمد بن كعب القرظي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله، ما تقول في التوبة؟ قال: ما أحسنها! قال: أفرأيت إن أعطيت الله عَزَّوَجَلَّ عهدًا أن لا أعصيه أبدًا، قال فقال له محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فمن حينئذ أعظم جرمًا منك، تتألى على الله عَزَّوَجَلَّ أن لا ينفذ فيك أمره(٤).

(١) المقاصد الحسنة (ص:٥٥٤)، وانظر: فيض القدير (٥/ ٣٣١).

(٢) طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب (ص:٧٨).

(٣) المصدر السابق (ص:١١٥).

(٤) تاريخ دمشق، لابن عساكر (١٤٦/٥٥)، الطبقات الكبرى، للشعراني (٣٣/١)، صفة الصفوة، لابن الجوزي (٣٧٥/١).

وإن الشعور بالكمال والرضا عن النفس من الآفات التي تصيب النفس بالعجب والغرور؛ لأنَّ الرِّضا عن النفس يعني: الانقياد والإذعان لما تحبه وترضاه، وذلك يوجب تغطية عيوبها ومساوئها وقبائحها، ولا بدَّ أن تورد صاحبها عندئذ المهالك، وأول هذه المهالك: إعجاب العبد بنفسه الأمارة بالسوء، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ [يوسف:٥٣]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم:٣٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [النساء:٤٩]؛ لأنه الله عَزَّوَجَلَّ عالم بخفيات النفوس وكمائنها، وما انطوت عليه من قبيح أو حسن، فيزكي من يستحق التزكية، ويفضح المدَّعين، ولا يظلم أحدًا.

كما أن الشعور بالكمال والرضا عن النفس من أسباب الكبر والعجب وغرور العلم، وهو مما يصرف عن الحق، كما قال الحق جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣].

ونقل الثعالبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن صاحب (الكلم الفارقية)[1] قوله: "أعرف الناس بنفسه أشدهم إيقاعًا للتهمة بها في كل ما يبدو ويظهر له منها، وأجهلهم بمعرفتها وخفايا

---

(١) الكلم الفارقية في الحكم الحقيقية، محمد بن عبد الملك الفارقي، ولد سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وتوفي في رجب سنة أربع وستين وخمسمائة. انظر: إيضاح المكنون (٣٧٩/٤)، العبر في خبر من غبر (٤٤/٣)، سير أعلام النبلاء (٢١٥/١٥)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي (٢٠٨/٣٩)، تاريخ بغداد، للخطيب (٣٩/١٥)، تاريخ إربل (٢٩٩/٢)، الوافي بالوفيات (٣٤/٤)، طبقات الشافعية الكبرى (١٣٦/٦).

آفاتها وكوامن مكرها من زكاها، وأحسن ظنه بها؛ لأنها مقبلة على عاجل حظوظها، معرضة عن الاستعداد لآخرتها"(١).

قال بعض أهل العلم: اصحب من ينهضك حاله إلى الكمال، ويدلك على الله عَزَّوَجَلَّ مقاله، واحذر من صحبة من يرضى عن نفسه، ويتبع هواه؛ لأن الصاحب ساحب، والمرء على دين خليله.

قال ابن عطاء الله رَحِمَهُ اللَّهُ: "أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضا منك عنها. ولأَن تصحب جاهلًا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه، فأي علم لعالمٍ يرضى عن نفسه؟ وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟ اهـ"(٢)؛ لأن الجاهل الذي لا يرضى عن حاله لا يبقى جاهلًا، بل يبحث وينقب ويجتهد إلى أن يتحرر من الجهل. والعالم الذي يرضى عن نفسه لا يبقى عالما.

وقال: "الرضا عن النفس أصل جميع الصفات المذمومة، وعدم الرضا عنها أصل الصفات المحمودة، وقد اتفق على هذا جميع العارفين، وأرباب القلوب؛ وذلك لأن الرضا عن النفس يوجب تغطية عيوبها ومساويها، ويصيِّرُ قبيحها حسنًا، كما قيل:

وعَينُ الرضا عن كُلِّ عيبٍ كليلةٌ***(٣)

---

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي (٣٢٩/٥).

(٢) انظر: تفسير الثعالبي (٣٢٩/٥)، شرح ابن عباد على الحكم (ص:١٧٣)، البحر المديد (٥١٢/١).

(٣) البيت ينسب لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر. انظر: ديوان عبد الله بن معاوية (ص:٩٠)، الحيوان (٢٣٦/٣)، عيون الأخبار (١٦/٣)، العقد الفريد (١٩٤/٢)، الأمثال المولدة (ص:٤٠٤)،=

وعدم الرضا عن النفس على عكس هذا؛ لأنَّ العبد إذ ذاك يتهم نفسه، ويتطلب عيوبها، ولا يغتر بما يظهر من الطاعة والانقياد، كما قيل في الشطر الأخير:

***كما أنَّ عينَ السّخط تبدي المساويا [١]

فمن رضي عن نفسه استحسن حالها، وسكن إليها، ومن استحسن حال نفسه، وسكن إليها استولت عليه الغفلة، وبالغفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره، فتثور حينئذ دواعي الشهوة على العبد، وليس عنده من المراقبة والتذكير ما يدفعها ويقهرها، فتصير الشهوة غالبة له بسبب ذلك. ومن غلبته شهوته وقع في المعاصي لا محالة. وأصل ذلك رضاه عن نفسه، ومن لم يرض عن نفسه لم يستحسن حالها، ولم يسكن إليها"[٢].

قال الشاعر:

إذا ما أطعتَ النَّفْسَ في كل لذة نُسِبْتَ إلى غير الحِجَا والتَّكرُّمِ
إذا ما أجبتَ النَّفْسَ في كل دعوة دَعَتْكَ إلى الأمر القبيح المحرَّمِ [٣]

=الحماسة المغربية (٢/١٢٤٠-١٢٤١)، الحماسة البصرية (٢/٥٥)، الأغاني (١٢/٢١٤-٢٣٣). ونسب في (التمثيل والمحاضرة) (ص:٣١٠) إلى المتنبي.

(١) والشطر الأول منه: (وعين الرضا عن كل عيب كليلة***)" -كما تقدم-.

(٢) شرح ابن عباد على الحكم (ص:١٧٣-١٧٤).

(٣) قال ابن الجوزي: "أخبرنا عبد الله بن محمد، قال: أنبأنا أحمد بن علي بن ثابت، قال: أنشدني أبو عبد الله محمد بن أحمد الشيرازي الواعظ: إذا ما أطعت النفس..الخ" ذم الهوى (ص:٥٢)، وانظر: البداية والنهاية (١٥/٧٠٤)، تاريخ بغداد (١/٣٧٧)، تاريخ دمشق (٥١/١٤٠). وانظر في بيان آفة الرضا=

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقا يذنبون يغفر لهم**»: "هذا من فضل الله عَزَّ وَجَلَّ العظيم، وكرمه الجسيم. وكتمه [1]؛ مخافة الاتكال، وغلبة الرجاء، والأماني، وتعطيل العمل. ثم خاف الحرج بكتمانه جملة قبل موته، فأنبأ به؛ ليزول عنه الحرج، مع ما فيه لنفسه من الرجاء عند حضور موته.

وهكذا يجب لمذكر الناس وواعظهم، ألا يكثر عليهم من أحاديث الرجاء؛ لئلا ينهمكوا فى المعاصي، والتعطيل للأعمال، والاتكال، ويكون وعظه يغلب عليه: التخويف والتحذير، ولكن على حد لا يؤيس ولا يقنط، والإمام في ذلك كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ ووعظه. واستحبوا لمن حضر حضور ميت وتلقينه، أو من اشتد عليه المرض: أن يكون الغالب على ذكر من يكون حينئذ عنده آيات الوعد والغفران، وأحاديث الرجاء؛ لتطيب نفس الميت بلقاء ربه جَلَّ وَعَلَا، وبلقائه على ما مات عليه من حسن ظنه برحمته" [2].

والإنسان لا يخلو عن خطأ أو تقصير، فهذه طبيعة الإنسان التي خلقه الله عَزَّ وَجَلَّ عليها، والموفَّقون من عباد الله عَزَّ وَجَلَّ هم الذين يعترفون بالتقصير، ويجددون التوبة في كل وقت.

=عن النفس: عقبات في طريق الهداية، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، العقبة الثانية والثلاثون: (الرضا عن النفس)، وإجمال أسباب الوقاية من آفة: (الرضا عن النفس) (٢/١٧-٢٦).

(١) يعني: قول أبي أيوب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الآنف الذكر: كنت كتمت عنكم شيئًا سمعته من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) إكمال المعلم (٨/٢٤٧-٢٤٨).

ومن الدعاء الذي حرص النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تعليمه لأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأمته؛ لما فيه من الخير العظيم: ما جاء في (الصحيحين): عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه قال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**» (١).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفيه: دليل أن الواجب على العبد أن يكون على حذر من ربه جَلَّ وَعَلَا في كل أحواله، وإن كان من أهل الاجتهاد في عبادته، في أقصى غاياته؛ إذ كان الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع موضعه من الدين لم يسلم مما يحتاج إلى استغفار ربه جَلَّ وَعَلَا منه"(٢).

وقال الإمام ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقوله: «**إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا**» دليل على أن الإنسان لا يعرى من ذنب وتقصير، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**استقيموا، ولن تحصوا**» (٣).

---

(١) صحيح البخاري [٨٣٤، ٦٣٢٦، ٧٣٨٧]، مسلم [٢٧٠٥].

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٩٣/١٠).

(٣) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٠٤٠]، والطيالسي [١٠٨٩]، وأحمد [٢٢٣٧٨]، والدارمي [٦٨١]، وابن ماجه [٢٧٧]، وابن حبان [٨]، والطبراني [١٤٤٤]، والحاكم [٤٤٧]، والبيهقي [٣٨٤] عن ثوبان، وله طرق أخرى. قال الإمام الزيلعي: "روي من حديث: ثوبان، ومن حديث: جابر، ومن حديث: عبد الله بن عمرو بن العاص، ومن حديث: سلمة بن الأكوع، ومن حديث: أبي أمامة" تخريج أحاديث الكشاف (٢٣٢/٢)، وفي (الزوائد) (٤١/١): "رجاله ثقات أثبات، إلا أنه منقطع بين سالم وثوبان؛ فإنه لم يسمع منه بلا خلاف، لكن له طرق أخرى متصلة". وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:=

وفي الحديث: «**كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين: التوابون**»[(١)].

وربما أخذوا ذلك من حيث الأمر بهذا القول مطلقا من غير تقييد وتخصيص بحالة، فلو كان ثمة حالة لا يكون فيها ظلم ولا تقصير، لما كان هذا الإخبار مطابقًا للواقع فلا يؤمر به.

وقوله ﷺ: «**ولا يغفر الذنوب إلا أنت**» إقرار بوحدانية الباري جَلَّ وَعَلَا، واستجلاب لمغفرته بهذا الإقرار، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: «**عَلِمَ أنَّ له رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ**»[(٢)]، وقد وقع في هذا الحديث امتثال لما أثنى الله عَزَّ وَجَلَّ عليه في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥]، وقوله ﷺ: «**ولا يغفر الذنوب إلا أنت**» كقوله جَلَّ وَعَلَا:

=«استقيموا ولن تحصوا»، أي: وجوه الاستقامة، فغاية الأمر: أن تقدروا على مقاربة الاستقامة. انظر: نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان (٦٧٤/١).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٢١٦]، وأحمد [٣٠٤٩]، وعبد بن حميد [١١٩٧]، والدارمي [٢٧٢٧]، وابن ماجه [٤٢٥١]، والترمذي [٢٤٩٩]، وقال: "غريب"، كما أخرجه: البزار [٧٢٣٦]، وأبو يعلى [٢٩٢٢]، والروياني [١٣٦٦]، والحاكم [٧٦١٧]، وقال: "صحيح الإسناد" قال الذهبي: "علي بن مسعدة لين" وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٧٢٥]. والحديث: قيل: سنده قوي، وقال: ابن الغرس وابن القطان: صحيح. وقيل: ضعيف. انظر: كشف الخفاء (١٤١/٢)، قال ابن القطان في (الوهم والإيهام) (٤١٤/٤): "هو عندي صحيح؛ قال: وعلي بن مسعدة صالح الحديث، قاله: ابن معين، وغرابته هي أن علي ابن مسعدة، ينفرد به عن قتادة -انتهى-". وقد تعقبه الذهبي بقوله: "بل ضعيف، وعلي بن مسعدة فيه نظر" الرد على ابن القطان في كتابه بيان الوهم والإيهام (ص:٥٨-٥٩).

(٢) صحيح البخاري [٧٥٠٧]، مسلم [٢٧٥٨].

﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥].."(١). وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه أن الإنسان لا يَعْرَى عن تَقْصِيرٍ ولو كان صِدِّيقًا"(٢). وقال السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "بل فيه أن الإنسان كثير التقصير وان كان صِدِّيقًا، لأن النعم عليه غير متناهية، وقوته لا تطيق بأداء أقل قليل من شكرها، بل شكره من جملة النعم أيضًا، فيحتاج إلى شكر هو أيضًا كذلك، فما بقي له إلا العجز والاعتراف بالتقصير الكثير.."(٣).

وقوله: «**ظلمًا كثيرًا**» يروى بالمثلثة وبالموحدة(٤)، فيخير الداعي بين اللفظين، ولا يجمع بينهما؛ لأنه لم يرو إلا أحدهما. وقيل: يأتي مرة بالمثلثة، ومرة بالموحدة، فإذا أتى بالدعاء مرتين فقد نطق بما نطق به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيقين.

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنه كان إذا قام إلى الصلاة، قال: «**وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا، وما أنا من المشركين، إن صلاتي، ونسكي، ومحياي، ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربي، وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني**

---

(١) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام (٣١٣/١).

(٢) فتح الباري (٣٢٠/٢).

(٣) حاشية السندي على سنن النسائي (٥٣/٣).

(٤) أي: كبيرًا.

سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك» الحديث[1].

ومن دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«اللهم لك الحمد أنت قَيِّمُ السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد لك ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبيون حق، ومحمد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم، وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت -أو: لا إله غيرك-»** قال سفيان: وزاد عبد الكريم أبو أمية: **«ولا حول ولا قوة إلا بالله»**[2].

وعن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يدعو بهذا الدعاء: **«اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي،**

---

(١) صحيح مسلم [٧٧١].

(٢) صحيح البخاري [١١٢٠، ٦٣١٧، ٧٣٨٥، ٧٤٤٢، ٧٤٩٩].

اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير» [1].

وإن الله عَزَّوَجَلَّ لذو صفح وعفو وستر عمن تاب وأناب وعمل صالحًا فهو يقبل التوبة، ويُقِيل العَثْرة، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه:٨٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان:٧١]، أي: ومن يترك المعاصي، ويندم عليها، ويدخل في العمل الصالح، فإنه بذلك تائب إلى الله عَزَّوَجَلَّ. ﴿مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ مرضيًا عنده، مكفرًا للخطايا، محصِّلًا للثواب. أو فإنه تائب ﴿مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ إلى الله عَزَّوَجَلَّ الذي يعرف حق التائبين ويفعل بهم ما يستوجبون، والذي يحب التوابين ويحب المتطهرين [2].

وعن صفوان بنِ مُحْرِزٍ المازِنِيّ، قال: بينما أنا أَمْشِي، مع ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا آخِذٌ بِيَدِهِ، إذ عَرَضَ رَجُلٌ، فقال: كَيْفَ سَمِعْتَ رسولَ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقولُ في النَّجْوَى؟ فقال: سمعتُ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**إنَّ اللَّهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عليه كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فيقولُ: أَتَعرِفُ ذَنْبَ كذا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كذا؟ فيقولُ: نعم أَيْ رَبِّ، حَتَّى إذا قَرَّرَهُ بِذُنُوبه، ورأى في نفسه أنَّهُ هَلَكَ، قال: سَتَرْتُهَا عليكَ في الدُّنْيَا، وأنا أَغْفِرُهَا لك اليومَ، فَيُعْطَى كتابَ حسناته، وأَمَّا الكَافِرُ والمنافقون، فيقول الأشهاد:**

(١) صحيح البخاري [٦٣٩٨]، مسلم [٢٧١٩]، واللفظ له.

(٢) انظر: الكشاف (٣/٢٩٥).

﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود:١٨]» (١). فانظر إلى عظيم فضل الله عَزَّوَجَلَّ، ورحمته، وتجاوزه عن عباده، فمهما كثرت ذنوب العاصي وتكررت فإن المؤمن لا يقنط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾ [الزمر:٥٣]، ولكن لا بد من الإنابة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وحسن القصد، والعمل الصالح؛ ولذلك قال عقب تلك الآية جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥ أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٥٧ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾ [الزمر:٥٤-٥٨]. ولكن ليس من شرط التقوى النجاة: عدم الوقوع في المعاصي؛ فإن كل ابن آدم خطاء، وأصحاب البصائر كلما أصاب أحدهم ذنب أحدث توبة صادقة، فندم واستغفر، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف المتقين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف:٢٠١].

فلا يخلو إنسان من فعل الذنوب والخطايا؛ لما جبل عليه من الضعف، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ بلطفه ومنه وكرمه قد فتح باب التوبة لعباده، وبين أن خير الخطائين: التوابون،

(١) صحيح البخاري [٢٤٤١]، مسلم [٢٧٦٨].

المكثرون للتوبة على قدر كثرة الخطأ، فلا يؤتى العبد من فعل المعصية وإن عظمت، وإنما يؤتى من ترك التوبة وتأخيرها، فإن الله عَزَّوَجَلَّ غفور يحب التوابين.

وعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه**» فقال به هكذا، قال أبو شهاب: بيده فوق أنفه[1]. قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "فينبغي لمن أراد أن يكون من جملة المؤمنين: أن يخشى ذنوبه، ويعظم خوفه منها، ولا يأمن عقاب الله عليها فيستصغرها، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يعذب على القليل وله الحجة البالغة في ذلك"[2].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنما كانت هذه صفة المؤمن لشدة خوفه من العقوبة، لأنه على يقين من الذنب، وليس على يقين من المغفرة، والفاجر قليل المعرفة بالله، فلذلك قل خوفه فاستهان بالمعاصي"[3]. قال في (المفهم): "فهذا هو الذي حدثه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن نفسه، لا أنه رفعه للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو صحيح المعنى، يشهد له ما في الوجود من خوف المؤمن، وتهاون الفاجر والمنافق"[4].

نهاية الجزء الأول، وأول الجزء الثاني في بيان شروط التوبة.

---

(١) صحيح البخاري [٦٣٠٨].

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٨١).

(٣) كشف المشكل من حديث الصحيحين (١/٢٨٧).

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٧٣).

نهاية الجزء الأول

من كتاب:

الإرشاد إلى أسباب النجاة

والوسائل الناجعة لحياة طيبة نافعة

فهرس موضوعات الجزء الأول

مُقَدِّمَة.. ٥
المبحث الأول: الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ.................................. ١٣
أولًا: الإيمان بنير بصيرة المؤمن، ويحقق الطمأنينة ١٥
ثانيًا: تعريف الإيمان وبيان أركانه وشعبه.................................. ١٧
ثالثًا: الإيمان ينجي العبد من الأهوال والآفات والعذاب في الآخرة......... ٢٢
رابعًا: توحيد الله عَزَّوَجَلَّ... ٢٥
خامسًا: صيانة الإيمان.. ٣٠
سادسًا: طاعة الله عَزَّوَجَلَّ سببٌ للفوز والنَّجاة والحياة الطيبة.......... ٣٤
سابعًا: محبة الإيمان وكراهية الكفر والفسوق والعصيان..................... ٤٣
ثامنًا: وسائل تقوية الإيمان... ٤٧
المبحث الثاني: حقيقة دار الفناء والاستعداد لدار البقاء......... ٦٥
المبحث الثالث: لباس التقوى.. ٨٩
أولًا: تعريف التقوى.. ٩١
ثانيًا: بيان مراتب التقوى.. ٩٢

ثالثًا: بيان مكانة التقوى.. ٩٤

رابعًا: ثمرات التقوى.. ١١٢

خامسًا: صيانة النفس والجسد.. ١٢١

المبحث الرابع: الاستقامة والثبات وملازمة الصراط........... ١٢٧

المبحث الخامس: العبادات.. ١٤٣

توطئة.. ١٤٥

أولًا: تعريف العبادة.. ١٤٥

١ – تعريف العبادة في اللغة.. ١٤٥

٢ – تعريف العبادة في الاصطلاح.. ١٤٧

ثانيًا: درجات العبادة ١٥٣

ثالثًا: مقام العبودية.. ١٦٩

رابعًا: أنواع العبادة.. ١٧٤

١ – عبادة التسخير وعبادة الاختيار.. ١٧٤

٢ – الدعاء بمعنى: العبادة.. ١٧٥

٣ – العبادة والتوحيد.. ١٨٢

٤ – العبادة بمعنى: الطاعة، والخضوع لله عَزَّوَجَلَّ، والتزام أمره.............. ١٨٤

خامسًا: العبادة علم وعمل.. ١٨٩

سادسًا: أقسام العبادات.. ١٩٢

١ – العبادات القلبية....................................... ١٩٢
٢ — العبادات القولية....................................... ١٩٣
٣ — العبادات الذاتية الشخصية........................... ١٩٣
٤ – العبادات المالية... ١٩٤
٥ — عبادات بدنية ومالية معًا.............................. ١٩٤
سابعًا: العبادات: شخصية ومتعدية......................... ١٩٥
ثامنًا: مقصد العبادة... ١٩٥
تاسعًا: بيان أركان الإسلام................................... ٢٠٤
الركن الأول: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله............. ٢٠٨
١ – بيان أعظم أركان الإسلام................................ ٢٠٨
٢ – حديث البطاقة.. ٢٢٠
٣ – شروط شهادة: لا إله إلا الله، محمد رسول الله...................... ٢٢٥
٤ – الطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله عَزَّوَجَلَّ.......................... ٢٣٦
الركن الثاني: الصلاة.. ٢٣٨
١ – بيان مكانة الصلاة.. ٢٣٨
٢ – الوقاية من آفات ترك الصلاة والعلاج........................ ٢٤٧
الركن الثالث: الزكاة... ٢٥٧
١ – بيان مكانة الزكاة وما جاء في فضلها وعقوبة تاركها.............. ٢٥٧
٢ – الوقاية من آفات ترك الزكاة والعلاج.......................... ٢٦٩

الركن الرابع: صوم رمضان..٢٨٣
١ – تعريف الصوم..٢٨٣
٢ – مكانة صيام رمضان وما جاء في فضله..٢٨٥
إنَّ من بين أركان الإسلام العظيمة: ركن الصيام..٢٨٥
أ. نزول القرآن الكريم..٢٨٩
ب. غفران الذُّنوب، وتكفير السيئات..٢٨٩
ج. استجابة الدعاء..٢٩٠
د. فيه ليلة القدر..٢٩٠
هـ. تُصَفَّدُ فيه الشياطين..٢٩٠
و. العمرة فيه يعدل ثوابها ثواب حجة مع النبي..٢٩١
ز. الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة..٢٩١
ح. الصيام وقاية من الذنوب والمعاصي، وسبب في التوبة، ووقاية من عذاب النار، ووقاية من عذاب البرزخ..٢٩١
٣ – عقوبة من أفطر في رمضان من غير عذر..٣٠٢
٤ – الوقاية والعلاج من آفات الإفطار من غير عذر..٣٠٧
الركن الخامس: حج البيت من استطاع إليه سبيلًا..٣١٠
١ – مكانة الحج وما جاء في فضله..٣١٠
٢ – الوقاية من آفات التسويف في أداء ركن الحج..٣٢١
عاشرًا: مكانة العبادات القلبية..٣٢٩

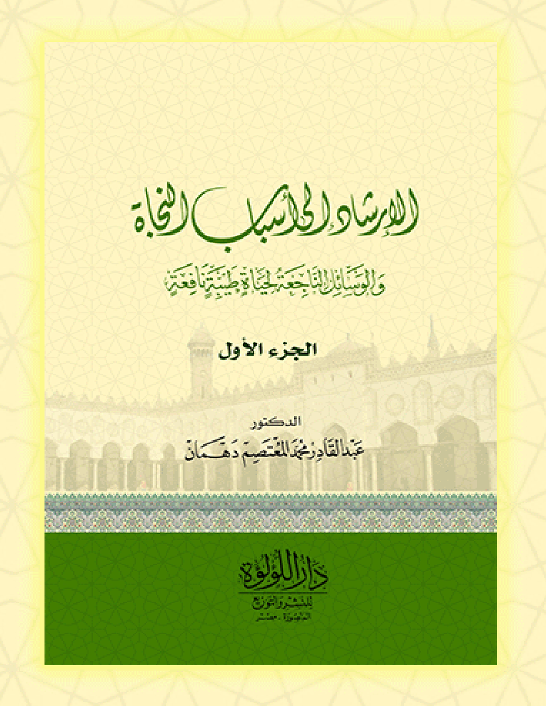
حادي عشر: تنوع العبادات القلبية.................................٣٤٢
ثاني عشر: أركان العبادات القلبية.................................٣٤٤
ثالث عشر: المحافظة على عبادة الخفاء والعزلة في وقت تشرع فيه........٣٥٦
المبحث السادس: إخلاص العمل والقصد والنية..............٣٩٣
أولًا: تعريف الإخلاص...٣٩٥
١ - الإخلاص لغة..٣٩٥
٢ - تعريف الإخلاص في الاصطلاح.................................٣٩٨
ثانيًا: علامات الإخلاص...٤٠٦
ثالثًا: فضيلته الإخلاص وحقيقته.....................................٤١١
١ – الإخلاص أساس قبول الأعمال.................................٤١١
٢ - الإخلاص في الدعاء..٤٣٤
أ. دعاء المظلوم والمضطر...٤٤٢
ب. دعوةُ الوالد على ولده، ودعوة الصائم، ودعوةُ المسافر، ودعوة الإمام العادل...٤٥٠
ج. دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب...................................٤٥٧
رابعًا: رتب الإخلاص...٤٥٩
خامسًا: ثمرات الإخلاص...٤٦٢
١ - رضا الله عَزَّوَجَلَّ، وقبول العمل، والنجاة والفلاح يوم القيامة...........٤٦٢
٢ - النجاة من الشدائد والكروب في الحياة الدنيا، وإجابة الدعاء.......٤٦٦

٣ – الحفظ والإعانة عند وقوع الابتلاء.................٤٧٠
٤ – طهارة القلب من الصفات الذميمة، كالحقد والغل والخيانة.........٤٧١
٥ – مغفرة الذنوب، ومضاعفة الحسنات، ورفعة الدرجات............٤٧١
٦ – قوة الأمة ونصرها على أعدائها، وحفظها من كيد الأعداء ومكرهم..٤٧٥
سادسًا: بيان خطر الرياء..............................٤٧٦
سابعًا: إجمال مضار الرياء..............................٤٩٢
ثامنًا: أسباب الوقاية من الرياء والعلاج..........................٤٩٤
المبحث السابع: الإحسان وصنائع المعروف وأعمال البر........٥٠٧
أولًا: الإحسان من المنجيات من سوء العاقبة......................٥٠٩
ثانيًا: إجمال بيان مراتب الإحسان وذكر صوره.....................٥١٣
١ – الإحسان في العبادة..................................٥١٣
٢ – الإحسان إلى النفس..................................٥١٤
٣ – الإحسان إلى الوالدين والأقربين والزوجة والأولاد والجار............٥١٤
٤ – الإحسان إلى الناس جميعًا...............................٥١٤
ثالثًا: تفصيل ما جاء في بعض صور الإحسان العالية.................٥١٨
١ – الإيثار...٥١٨
٢ – الإحسان إلى الوالدين.................................٥٢٠
إجمال مقتضيات الإحسان إلى الوالدين في حياتهما......................٥٢٨

إجمال مقتضيات الإحسان إلى الوالدين بعد موتهما.................. ٥٢٩
٣ - الإحسان إلى الأرحام.................................... ٥٣٠
٤ - الإحسان إلى الحيوان..................................... ٥٣٨
٥ — الإحسان إلى النبات والبيئة................................ ٥٥٧
أ. التحذير من الإفساد البيئي وبيان خطورته........................ ٥٥٧
ب. صور الإفساد البيئي...................................... ٥٦١
٦ - صنائع المعروف من المنجيات من مصارع السوء ومن العذاب في الآخرة... ٥٦٢
٧ - نماذج من بذل المعروف.................................. ٥٦٧
أ. العفو والصفح والمسامحة، ومقابلة الإساءة بالإحسان................ ٥٦٧
ب. الابتسامة وطلاقة الوجه................................... ٥٧١
ج. الكلمة الطيبة والقول الحسن والتواضع، والمداراة.................... ٥٧٣
د. الرفق.. ٥٧٦
هـ. كل معروف صدقة.. ٥٧٩
و. التعاون على البرِّ والتقوى.................................. ٥٨٤
ز. الإهداء.. ٥٨٤
ح. الزيارة في الله عَزَّوَجَلَّ.. ٥٨٥
ط. إجابة الدعوة وأداء الحقوق................................. ٥٨٦
ي. إفشاء السلام.. ٥٨٨

ك. حسن الخلق.. ٥٩٢
ل. إصلاح ذات البين................................... ٥٩٦
م. الشفاعة الحسنة.................................... ٦٠٠
ن. الزهد في الدنيا، والتَّعفُّف عن سؤال النَّاس.................... ٦٠٥
س. المحبة في الله عَزَّوَجَلَّ، وإرادة الخير.......................... ٦٠٦
ع. مقابلة الإحسان بالإحسان............................. ٦١١
رابعًا: الحرصُ على أعمال البرِّ............................ ٦١٤
تعريف البر.. ٦١٤
١ - البر لغة.. ٦١٤
٢ - تعريف البر في الاصطلاح، وبيان أنواعه، ومكانته.............. ٦١٧
أ. حديث: النَّواسِ بنِ سمعان في البر......................... ٦٣٠
ب. حديث: وابصة بن معبد في البر......................... ٦٣١
ج. حديث: أبي ثعلبة الخشني في البر......................... ٦٣٣
خامسًا: آثار صنائع المعروف وأعمال البر...................... ٦٣٩
المبحث الثامن: التوبة والاستغفار........................... ٦٤١
أولًا: تعريف التوبة.................................... ٦٤٣
١ - التوبة لغة.. ٦٤٣
٢ - تعريف التوبة في الاصطلاح............................ ٦٤٥
ثانيًا: التوبة لفظة يشترك فيها الرب جَلَّوَعَلَا والعبد.................. ٦٥٧

ثالثًا: التوبة النصوح.......................................٦٥٩
رابعًا: مكانة التوبة وفضلها والترغيب فيها..............................٦٦٣



لا بدّ لطالب النّجاة والسّعادة من سلوكِ سبيلِ الأبرار، من الصّالحين الأطهار، في اجتنابِ أعمال أهل النّار، والاحترازِ عن نهج المفسدين الفجار، واتخاذِ أسباب الوقاية من المزالق والمضلّات، ومن الخوض في فتن عاتيات. ولزوم نهج المصلحين من أرباب البصائر والصلاح، في الاستقامة والثبات على صراط الله تعالى المستقيم، وشرعه الحكيم، من الفعل والتّرك، والتحلي والتخلي، والفقه والعمل، حتى يحيا في الدُّنيا حياةً طيبةً نافعة، ويجازى في الآخرة بأحسن ما كان يعمل، فيكون من الفائزين بخيري الدنيا والآخرة. وقد حذّرنا الشّارع من أعمال أهل النّار، وأرشد العباد إلى أعمال تصلح أحوالهم، وتنجيهم من الأهوال والآفات، وسوء العاقبة، وتقيهم في الآخرة من عذاب النار. وقد كنت قد أفردت بالبحث: ما تُوعد عليه بالنار مع بيان أسباب الوقاية والنجاة، كما أفردت ذكر العقبات التي تَصُدُّ عن الهداية، مع بيان سبل الوقاية والعلاج منها، وجاء هذا الكتاب متممًا لأسباب النجاة العامة، ومذكّرًا بالأعمال الجليلة التي خصت بمزيد من الفضل، والتي هي من أسباب النجاة، وحسن العاقبة، ورفعة الدرجات في الآخرة. وقد كنتُ قد كتبتُ شيئًا من بعض موضوعاته قديمًا، فرأيت أن أتمه؛ لما رأيت من كونه مكملًا لتلك الأعمال السابقة، والله تعالى أسأل أن يكون نافعًا، ومثمرًا، وأن يكون أثرًا باقيًا.

وبناء على ما ذكرت فإن هذا المصنف يكون متقدّمًا ومتأخّرًا على اعتبار اللاحق مما أضيف، والسابق مما تقدم..

د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان



الإرشاد إلى أسباب النجاة

والوسائل الناجعة لحياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

الدكتور
عبد القادر محمد المعتصم دهمان

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر

الإرشاد إلى أسباب النجاة

والوسائل الناجعة لحياة طيبة نافعة

الطبعة الأولى : ١٤٤٥ هـ، ٢٠٢٣م

رقم الإيداع : ٢٣١٦٦٦١

الرقم الدولي : ٥ - ٦٥٢ - ٩٩٧ - ٩٧٧ - ٩٧٨



@DarElollaa
Dar_Elollaa@hotmail.com
الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .
01050144505 - 0225117747
المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .
01007868983 -0502357979




الإرشاد إلى أسباب النجاة

والوسائل الناجعة لحياة طيبة نافعة

الجزء الثاني

الدكتور

عبد القادر محمد المعتصم دهمان



فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨

وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ١٨

خامسًا: شروط التوبة:

قال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التوبة على ثلاثة معان:

أولها: الندم.

والثاني: العزم على ترك المعاودة إلى ما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه.

والثالث: السعي في أداء المظالم"[١].

وقال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فأرباب الأصول من أهل السنة قالوا: شرط التوبة حتى تصح ثلاثة أشياء: الندم على ما عمل من المخالفات، وترك الزلة في الحال، والعزم على أن لا يعود إلى مثل ما عمل من المعاصي فهذه الأركان لا بدَّ منها حتى تصح توبته. قال هؤلاء: وما في الخبر: «**إن الندم توبة**» إنما نص على معظمه، كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الحج عرفة**»[٢]، أي: ركنه الأكبر.

فلا يحصل الندم حتى يتقدمه الركن الأول، وهو العلم بضرر الذنوب، وإذا حصل الندم تبعه الركن الثالث، وهو العمل في الإصلاح. قاله الشيخ عبد العزيز الدريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٣].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرحه لصحيح مسلم): "قال أصحابنا وغيرهم من العلماء: للتوبة ثلاثة شروط:

---

(١) انظر: الأعمال الكاملة للجنيد البغدادي، طبعة دار الشروق (ص:٩٤-٩٦)، وانظر: الرسالة القشيرية (٢١١/١)، التعريفات (ص:٧٠).

(٢) الرسالة القشيرية (٢٠٧/١-٢٠٨). وقد تقدم تخريج الحديث.

(٣) انظر: طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب (ص:٧٨).

١ – أن يقلع عن المعصية.

٢ – وأن يندم على فعلها.

٣ – وأن يعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود إلى مثلها أبدًا.

٤ – فإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فلها شرط رابع، وهو رد الظلامة إلى صاحبها، أو تحصيل البراءة منه، يعني: التحلل من صاحب ذلك الحق.

والتوبة أهم قواعد الإسلام، وهي أول مقامات سالكي طريق الآخرة"(١).

٥ – ولا بد من زيادة قيد أن تكون توبته لأجل الله عَزَّوَجَلَّ، كما تقرر في كلام كل من الفخر الرازي، وأبي العباس القرطبي رَحِمَهُمَاٱللَّهُ فيما حرَّرا من تعريف التوبة.

إلا إذا قلنا: إن كلًّا من الإقلاع عن المعصية والندم على فعلها، والعزم على عدم العود لمثلها مما يتضمنه معنى التوبة، فأغنى عن التصريح بقيد: أن يكون ذلك لأجل الله عَزَّوَجَلَّ.

كما يقال جاء الحديث الآنف الذكر: «**الندم توبة**»، ولا يخفى أن مجرد الاعتراف بالذنب لا يكون توبة. وفي الحديث: «.. **إن العبد إذا اعترف بذنب، ثم تاب تاب الله عليه**» الحديث(٢). فدلَّ أن مجرد الاعتراف لا يغني عن التوبة –كما سيأتي–.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/٢٥).

(٢) صحيح مسلم [٢٧٧٠].

ويضاف إلى الشروط:

٦ - أن تكون التوبة في زمن الإمكان، فلا تصح بعد فوات الأوان:

وفوات الأوان خاص وعام، فالخاص: حضور الموت، والعام: طلوع الشمس من مغربها.

و"حُكى عن عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شروط التوبة زيادة، فقال: الندم، والعزم على عدم العود، ورد المظلمة، وأداء ما ضيع من الفرائض، وأن يعمد إلى البدن الذي رَبَّاهُ بِالسُّحْتِ، فَيُذِيبُهُ بِالْهَمِّ والْحَزَن، حتى ينشأ له لحم طيب، وأن يذيق نفسه ألم الطاعة، كما أذاقها لذة المعصية"(١).

وقال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والتوبة فرض على المؤمنين باتفاق المسلمين؛ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٣١﴾ [النور:٣١]، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم:٨].

ولها شروط أربعة: الندم بالقلب، وترك المعصية في الحال، والعزم على أن لا يعود إلى مثلها، وأن يكون ذلك حياء من الله عَزَّوَجَلَّ، وخوفًا منه لا من غَيْرِه، فإذا اختل شرط من هذه الشروط لم تصح التوبة.

وقد قيل: من شروطها: الاعتراف بالذنب، وكثرة الاستغفار الذي يَحُلُّ عُقَدَ الإِصْرَارِ ويَثْبُتُ معناه في الْجَنَانِ، لا التَّلَفُّظُ باللِّسان. فأمَّا من قال بلسانه: أستغفر

(١) فتح الباري، لابن حجر (١١/١٠٣)، إرشاد الساري (٩/١٧٧).

اللَّه، وقَلْبُهُ مُصِرٌّ على مَعْصِيَتِهِ فَاسْتِغْفَارُهُ ذلك يحتاجُ إِلى اسْتِغْفَار، وصغيرتُهُ لَاحِقَةٌ بالكبائر.

فأما من قال بلسانه: أستغفر الله جَلَّ وَعَلَا، وقلبه مصر على معصيته فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار، وصغيرته لاحقة بالكبائر.

وروي عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: استغفارنا يحتاج إلى استغفار. قال: أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا مقوله في زمانه فكيف في زماننا هذا الذي يرى فيه الإنسان مكبًا على الظلم، حريصًا عليه، لا يقلع، والسُّبْحَةُ في يده في يده، زاعمًا أنه يستغفر من ذنبه، وذلك استهزاء منه واستخفاف. وهو ممن اتخذ آيات الله عَزَّ وَجَلَّ هزوًا. وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ [البقرة:٢٣١]"(١).

مسألة: هل الاعتراف بالذنب يكون توبة أم لا؟

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٠٢﴾ [التوبة:١٠٢]: فإن قيل: الاعتراف بالذنب هل يكون توبة أم لا؟

قلنا: مجرد الاعتراف بالذنب لا يكون توبة، فأما إذا اقترن به الندم على الماضي، والعزم على تركه في المستقبل، وكان هذا الندم والتوبة لأجل كونه منهيًا عنه من قبل

---

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص:٢١٤-٢١٥)، وانظر: تفسير القرطبي (٤/٢١٠-٢١١)، (٥/٩١)، وانظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي (٧/٨٥-٨٦).

الله عَزَّوَجَلَّ كان هذا المجموع توبة، إلا أنه دلَّ الدليل على أن هؤلاء قد تابوا بدليل قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ والمفسرون قالوا: إن (عسى) من الله عَزَّوَجَلَّ يدل على الوجوب (١).

وقال الشيخ أحمد بن علي الجصاص رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما ذكر الاعتراف بالخطيئة عند التوبة؛ لأن تذكر قبح الذنب أدعى إلى إخلاص التوبة منه، وأبعد من حال ما يُدْعَى إلى التوبة ممن لا يدري ما هو، ولا يعرف موقعه من الضرر، فأصح ما يكون من التوبة: أن تقع مع الاعتراف بالذنب؛ ولذلك حكى الله عَزَّوَجَلَّ عن آدم وحواء عَلَيۡهِمَاٱلسَّلَامُ عند توبتهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [الأعراف:٢٣]"(٢).

وفي الحديث: «.. **إن العبد إذا اعترف بذنب، ثم تاب تاب الله عليه**» الحديث(٣). قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "دليل على أن مجرد الاعتراف لا يغني عن التوبة، بل إذا اعترف به متصلًا نادمًا"(٤).

---

(١) مفاتيح الغيب (١٣٢/١٦)، وانظر: غرائب القرآن (٥٢٥/٣).

(٢) أحكام القرآن (٣٥٤/٤).

(٣) صحيح مسلم [٢٧٧٠]، وقد تقدم.

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣٧٣/٧).

وقال الحافظ العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيه: قبول التوبة، والحث عليها، وفيه: أن مجرد الاعتراف لا يغني عن التوبة، بل إذا اعترف به متفصلًا نادمًا، وليس المراد: الاعتراف بذلك للناس، بل الاعتراف لله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن الإنسان مأمور بالستر"(١).

وقال أبو هلال العسكري في (الفروق): "الفرق بين الندم والتوبة: أن التوبة أخص من الندم وذلك أنك قد تندم على الشيء ولا تعتقد قبحه، ولا تكون التوبة من غير قبح، فكل توبة ندم وليس كل ندم توبة"(٢).

وقد فصَّل العلامةُ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ القول في تعريف التوبة، وبيان شروطها، وأحكامها، في كتابه الحافل: (مدارج السالكين).

سادسًا: علامات قبول التوبة والأسباب التي تعين عليها:

ومن علامات قبول التوبة: استقامة حال التائب، بأن يتحقق بشروط التوبة، وأن يكون الباعث إليها: ما استقرَّ في قلبه من: (المحبة، والخوف، والرجاء)، وأن رأس الأمر: المحبة، مع اعتدال جانبي الخوف والرجاء في حال الصحة والقوة -كما تقرر في أركان العبادات القلبية، فالتائب محبٌّ لما يقرّبه من الله عَزَّوَجَلَّ، وهو يرجو قبول التوبة، ويخاف من عقاب الله عَزَّوَجَلَّ، فذلك أدعى لأن يغفر له.

ومنها: أن يكون كارهًا للمعاصي، نائيًا بنفسه عن مواطنها ومسبباتها.

---

(١) طرح التثريب في شرح التقريب (٨/٦٦).

(٢) الفروق اللغوية (١/٢٣٥).

ومنها: تجريد التوبة لله عَزَّوَجَلَّ من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه، فإن الله جَلَّوَعَلَا يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى:٣٠]، فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب، يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره، وفي الدعاء المشهور: «**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**»(١)، فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه، فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب، وليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عوفي من الذنوب عوفي من موجباتها، فليس للعبد إذا بغي عليه وأوذي وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح من الذنوب التي كانت سببًا لتسلط عدوه عليه.

ومنها: أن يدرك العبد أنه لن يطيع الله عَزَّوَجَلَّ إلا بفضله وتوفيقه، ولن يحجم عن المعصية إلا بإعانته.

ومنها: مجاهدة النفس والهوى والشيطان.

ومنها: أن يحذر السالك خطوات الشيطان وتزينه للمعاصي.

ومنها: الاستقامة على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والحرص على أداء الفرائض والإكثار من النوافل.

ومنها: الإكثار من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وتوحيده وشكره على نعمه، ومن الدعاء والاستغفار.

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) [٧١٦]، عن معقل بن يسار.

وإن كثرة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم أسباب الحفظ من المعصية؛ لأن الذِّكرَ يُذَكِّرُ العبدَ بالله عَزَّوَجَلَّ وصفاته، وعظمته، فيكون حاضرًا مع الله جَلَّوَعَلَا، ومستحضرًا لما يعتقده عن الله، فيحجزه ذلك عن المعصية.

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**خُذُوا جُنَّتَكُمْ**» قالوا: يا رسول الله، أَمِنْ عَدُوٍّ قد حَضَرَ؟ قال: «**لا، وَلَكِنْ جُنَّتُكُمْ من النَّارِ قَوْلُ: سُبْحَانَ اللهِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ، فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يومَ الْقِيَامَةِ مُجَنِّبَاتٍ ومُعَقِّبَاتٍ، وهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ**»(١).

قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: "«**خُذُوا جُنَّتَكُمْ**» -بضم الجيم-، أي: وقايتكم من نار جهنم، ومنه قيل للترس: جنة ومجنة؛ لأن صاحبه يتستر به. وقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**وهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ**» المشار إليهن في القرآن الكريم(٢)، سميت معقبات؛ لأنها عادت

---

(١) أخرجه النسائي في (الكبرى) [١٠٦١٧]، واللفظ له، وفي (عمل اليوم والليلة) [٨٤٨]، والطبراني في (الأوسط) [٤٠٢٧]، وفي (الصغير) [٤٠٧]، والحاكم [١٩٨٥]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، وأقره الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٥٩٨]، وفي (الدعوات الكبير) [١٣١]، والديلمي [٢٨٢٩]. قال المنذري (٢/٢٨١): "إسناده جيد قوي". وقال الهيثمي (١٠/٨٩): "رجاله في الصغير رجال الصحيح، غير داود بن بلال وهو ثقة" وللحديث شواهد. انظر: الدر المنثور (٥/٣٩٧).

(٢) قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [مريم:٧٦]، فالإكثار من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من خير الأعمال الباقية التي تنفع العبد في مآله.

مرة بعد أخرى وكل من عمل عملًا ثم عاد إليه فقد عقب. وقيل: المعقب من كل شيء ما خلف لعقب ما قبله"(١).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (جواهر القرآن): "لا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات: صفاء القلب، أعني: طهارته من أدناس الدنيا؛ وأُنسه بذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وحبه لله جَلَّوَعَلَا. وطهارة القلب لا تحصل إلا بالكفِّ عن شهوات الدنيا. والأُنس لا يحصل إلا بكثرة الذكر، والحُب لا يحصل إلا بالمعرفة، ولا تحصل معرفة الله عَزَّوَجَلَّ إلا بدوام الفكر"(٢).

وإن الإكثار من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من خير الأعمال النافعة للعبد، والباقية.

ومن جوامع دعاء النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«رَبِّ أَعِنِّي ولا تُعِنْ عَلَيَّ، وانْصُرْنِي ولا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وامْكُرْ لي ولا تَمْكُرْ عَلَيَّ، واهْدِنِي ويَسِّرِ الهُدَى لي، وانْصُرْنِي على من بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لك شَكَّارًا، لك ذَكَّارًا، لك رَهَّابًا، لك مِطْوَاعًا، لك مُخْبِتًا، إليكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، واغْسِلْ حَوْبَتِي، وأَجِبْ دَعْوَتِي، وثَبِّتْ حُجَّتِي، وسَدِّدْ لسَانِي، واهْدِ قَلْبِي، واسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي»** (٣).

---

(١) فيض القدير (٣/٤٣٥).

(٢) جواهر القرآن (ص:١٢).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٣٩٠]، وأحمد [١٩٩٧]، وعبد بن حميد [٧١٧]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٦٥]، وابن ماجه [٣٨٣٠]، وأبو داود [١٥١٠]، والترمذي [٣٥٥١]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه: النسائي في (الكبرى) [١٠٣٦٨]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٦٠٧]، وابن حبان [٩٤٧]، والطبراني في (الدعاء) [١٤١١]، والحاكم [١٩١٠]، وقال: "صحيح الإسناد"، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (الدعوات) [١٩٥]، والبغوي في (شرح السنة) [١٣٧٥]، والضياء=

فتأمل ما جمع هذا الدعاء من المعاني الجليلة، وما فيه من خيري: الدنيا والآخرة.

ومنها: التأمل في عاقبة كل فعل يقدم عليه، والآثار المترتبة عليه، ومن ذلك: أن يتفكر في آثار المعصية، وما يترتب عليها من العقاب في الآخرة، ومن الآثار غير المرضية في السلوك والعلاقات الاجتماعية.

ومنها: أن يتخير العلاج المناسب لكل ما يعتلج في نفسه من محفزات الشهوة، والبواعث على المعصية.

ومنها: الإكثار من ذكر الموت، ومن سماع المواعظ التي ترغب في الآخرة، والتزود من الحياة الدنيا للآخرة.

ومنها: أن يعقد العزم على ترك المعاصي، وأن يمسي على نية صالحة، وأن يصبح على نية صالحة.

ومنها: مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ في السِّر والعلن، والمحافظة على قراءة القرآن، ونوافلِ الصلواتِ، والصَّومِ، وغيرِهما، والتعويل على الله عَزَّوَجَلَّ في كلِّ أمر، والتفويض إليه في كل حال.

وإنما تضعف المراقبة في قلب العبد إذا لم يوقِّر الله عَزَّوَجَلَّ، ولم يعظمه كما يجب، ولذا قيل: من راقب الله في خواطره، عصمه في حركات جوارحه (١)، فعلى المسلم إذا

=[٦٥]. وقوله: «حوبتى»: الحوبة: الإثم. و«اسلل»: أخرج. و«سخيمة»: ما يسكن فى القلب من مساوئ الأخلاق.

(١) قاله أبو العباس بن مسروق. انظر: ذم الهوى، لابن الجوزي (ص:١٤٥)، صفة الصفوة (٢/٣١٩)، مدارج السالكين (٢/٦٥).

حدثته نفسه بمعصية أن يتقي الله، وأن يشعر أن الله ينظر إليه، ويطلع على حاله، فلا يجعل الله أهون الناظرين إليه، وكيف يستحي من الناس ولا يستحي من الله؟! ويخشى الناس ولا يخاف من الله؟!

فمن راقب الله عَزَّوَجَلَّ حسن عمله. وقد قيل: "شجرة المعرفة تُسْقَى بماء الفكرة وشجرة الغفلة تسقى بماء الجهل، وشجرة التوبة تسقى بماء الندامة، وشجرة المحبة تسقى بماء الإنفاق والموافقة والإيثار، ومتى طَمِعْتَ في المعرفة ولم تُحْكِمْ قبلها مدارج الإرادة فأنت في جهل، ومتى ما طلبت الإرادة قبل تصحيح مقام التوبة فأنت في غفلة مما تطلبه"(١).

ومنها: صحبة أهل الفضل والخير والصلاح، وأرباب الهمم العالية، الذين يذكِّرونَ الإنسانَ كلما غَفَل، ويعينونه على طاعة الله جَلَّوَعَلَا، والتفقه في دينه، وعلى تحري الحلال، واجتناب الحرام، والبيئة الصالحة في البيت، والحي، والمدرسة، والمسجد.

ومنها: البعد عن أصدقاء السوء، وأئمة الضلال، ودعاة الفتنة، والابتعاد عن مواطن الفتن والشُّبهات، وأسباب الشَّرِّ، ودواعي المعصية، وعن المفسدين والغلاة.

وقد وردت الأحاديث التي تحثُّ المسلم على مفارقة الأرض التي يعمل فيها بالمعاصي إلى أرض يطاع الله عَزَّوَجَلَّ فيها؛ لأنه إذا بقي في أرض السوء ربما فعل ما يفعله أهلها، لأن الغالب أن الإنسان يتأثر بمن حوله وبما عليه أهل البلد من عقائد وأخلاق وعادات.

---

(١) قاله أبو العباس بن مسروق كما في (حلية الأولياء)، لأبي نعيم (١٣/٢١٤).

ومع ازدياد الفساد والطغيان في بعض البلاد العربية والإسلامية اضطر كثير من الناس إلى الهجرة إلى بلاد غير مسلمة ترعى حقوق الإنسان، وتعنى بالمهاجرين، وسافر آخرون من غير اضطرار.

وقد أصابت آثار الهجرة الكثيرين، فمنهم من خسر نفسه، ومنهم من خسر أولاده أو بعضهم.

والأصل في دخول المسلم بلدًا غير مسلم التحريم، ويقع الاستثناء في حالات تبرر الهجرة والإقامة في تلك الديار، فإذا زال المبرر الشرعي وجب الخروج إن أمكن، ولم تكن حاجة أو ضرورة للبقاء.

وحيث إن اللاجئ مستضعف، ومحتاج إلى الإقامة، فهو يحرص على الاندماج، ويخضع في الغالب لإرادة الآخرين، وإلى السير على وفق ما هو مقرر له، وعلى النحو الذي يحقق له الحصول الإقامة في تلك البلاد، ورضا أهلها عنه.

والأولاد هم الجانب الأضعف حيث يتشربون في المدارس وأماكن العمل والتنزه: العادات والتقاليد والمعتقدات بعيدًا رقابة الأهل.

وقد تسري إلى عقولهم مفاهيم وأغاليط ومعتقدات يعسر اتقاء آثارها، أو الاستدراك بالعلاج؛ قد يخرج الأمر شيئًا فشيئًا عن زمام الوالدين.

قال الشاعر:

متى يبلغ البنيان يومًا تمامه　　　　إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟!

وتبقى ثلة من المهاجرين محترزة عن مخاطر الهجرة، ومنتفعة من محاسن في تلك البلاد تذكر، وإيجابيات لا تنكر، فلم تصبها تلك الآثار، وكانت ثابتة على الحق،

وملتزمة بالأخلاق الكريمة، ودعاة خير وعدل وإصـــلاح، فكانوا هادين مهديين، ونافعين ومنتفعين، لا يضرهم من خالفهم، ولا تغريهم زينة الحياة الدنيا.

وقد وردت أحاديث تحثُّ المسلم على مفارقة الأرض التي يعمل فيها بالمعاصي إلى أرض يطاع الله عَزَّوَجَلَّ فيها؛ لأنه إذا بقي في أرض السوء ربما فعل ما يفعله أهلها، لأن الغالب أن الإنسان يتأثر بمن حوله وبما عليه أهل البلد من عقائد وأخلاق وعادات، وقد فصلت القول في ذلك في كل من كتاب: (عقبات في طريق الهداية)، وكتاب: (التربية الوقائية من آفات التفكك الأسري).

وسيأتيك في (توبة القاتل) حديث: الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا، وأراد التوبة.. وفيه: «**انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء**» الحديث [(١)].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه فضل التحول من الأرض التي يصيب الإنسان فيها المعصية لما يغلب بحكم العادة على مثل ذلك إما لِتَذَكُّرِهِ لأفعاله الصادرة قبل ذلك والفتنة بها وإما لوجود من كان يعينه على ذلك ويَحُضُّهُ عليه؛ ولهذا قال له الأخير: «**ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء**» ففيه إشارة إلى أن التائب ينبغي له مفارقة الأحوال التي اعتادها في زمن المعصية والتحول منها كلها"[(٢)].

وقد أوجب الحق عَزَّوَجَلَّ الهجرة –على القادر– من البلد الذي يفتن فيه المسلم في دينه، ولا يَتَسَنَّى له إقامة الشعائر الإسلامية. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ

---

(١) صحيح البخاري [٣٤٧٠]، مسلم، [٢٧٦٦]، واللفظ له

(٢) فتح الباري (٦/ ٥١٨).

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [النساء:٩٧].

قال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في الآية دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن فيه الرجل من إقامة دينه"(١).

فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾، يعني: من أرض الكفر إلى بلد أخرى كما فعل غيركم من المهاجرين إلى المدينة والحبشة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾، أي: لتركهم هذا الواجب مع تمكنهم منه. وفي الآية: دليل على وجوب الهجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من إقامة دينه -كما تقدم-. ثم استثنى أهل العذر منهم فقال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ [النساء:٩٨]، أي: لا قوَّة لهم على الهجرة ولا نفقة لهم. ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء:٩٨]، أي: طريقًا إلى أرض الهجرة.

قال الإمام السيوطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الإكليل): "استدل بالآية على وجوب الهجرة من دار الكفر، إلَّا على من لم يطقها. وعن مالك: الآية تقتضي أن كل من كان في بلد تغيَّر فيه السنن، فينبغي أن يخرج منه"(٢).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في هذه الآيات دليل على هجران الأرض التي يعمل فيها بالمعاصي.

---

(١) تفسير البيضاوي (٩٢/٢)، وانظر: السراج المنير، للخطيب الشربيني (٣٢٦/١)، تفسير النسفي (٣٨٨/١)، البحر المحيط في التفسير (٤١/٤).

(٢) الإكليل في استنباط التنزيل (ص:٩٩).

وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا عمل بالمعاصي في أرض فاخرج منها. وتلا: ﴿أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾. وقال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذه الآيات دالة على أنه ليس لأحد المقام في أرض يُسبُّ فيها السلف، ويعمل فيها بغير الحق"(١).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واستنبط سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذه الآية: وجوب الهجرة من الأرض التي يعمل فيها بالمعصية"(٢).

"ولذلك كان من مسائل الإجماع: وجوب الهجرة على المسلم من المكان الذي يخاف فيه من إظهار دينه، ويضطر فيه إلى التقية، ومن علامة المؤمن الكامل ألا يخاف في الله جَلَّ وَعَلَا لومة لائم. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ﴾ [المائدة:٤٤]، وقال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾ [آل عمران:١٧٥]. وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وأصحابه يتحملون الأذى في ذات الله عَزَّ وَجَلَّ ويصبرون. وأما المدارة فيما لا يهدم حقًّا، ولا يبني باطلًا فهي كَيَاسَةٌ(٣) مستحبة، يقتضيها: أدبُ المجالسة، ما لم تنته إلى حدِّ النفاق، ويُستَجزْ فيها: الدهان والاختلاق، وتكون مؤكدة في خطاب السفهاء؛ تَصَوُّنًا من سفههم، واتقاءً لفحشهم"(٤).

---

(١) تفسير القرطبي (٥/٣٤٦).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٨/٢٦٣).

(٣) (الكَيْس) -بوزن الكيل- ضد الحمق، والرجل (كَيِّسٌ مُكَيَّس)، أي: ظريف، وبابه: باع. و(كِيَاسَة) أيضا: بالكسر. انظر: مختار الصحاح، مادة: (كيس) (ص:٢٧٦)، الصحاح، للجوهري (٣/٩٧٢).

(٤) تفسير المنار (٣/٢٣١).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الفتح): "الهجرة: الترك. والهجرة إلى الشيء: الانتقال إليه عن غيره. وفي الشرع: ترك ما نهى الله عنه"[1]. قال الشيخ جمال الدين القاسمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد وقعت في الإسلام على وجهين:

الأول: الانتقال من دار الخوف إلى دار الأمن. كما في هجرتي: الحبشة، وابتداء الهجرة من مكة إلى المدينة.

الثاني: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإيمان. وذلك بعد أن استقرَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة، وهاجر إليه من أمكنه ذلك من المسلمين. وكانت الهجرة إذ ذاك تختص بالمدينة إلى أن فتحت مكة، فانقطع الاختصاص، وبقي عموم الانتقال من دار الكفر لمن قدر عليه باقيًا"[2].

وقد ذكر القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الهجرة تنقسم إلى ستة أقسام:

"**الأول**: الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام.

الثاني: الخروج من أرض البدعة، قال ابن القاسم: سمعت مالكًا يقول: لا يحل لأحدٍ أن يقيم ببلد يُسب فيها السلف.

وهذا صحيح؛ فإن المنكر إذا لم يُقدر على تغييره نزل عنه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنعام:٦٨].

---

(١) فتح الباري (١/١٦)، وانظر: عمدة القاري (١/٢٣)، نيل الأوطار، للشوكاني (١/١٧٠).

(٢) تفسير القاسمي (محاسن التأويل) (٣/٢٩٢).

الثالث: الخروج عن أرض غلب عليها الحرام؛ فإن طلب الحلال فرض على كل مسلم.

الرابع: الفرار من الأذية في البدن، وذلك فَضْلٌ من الله عَزَّوَجَلَّ أَرْخَصَ فيه، فإذا خشي المرء على نفسه في موضع فقد أذن الله عَزَّوَجَلَّ له في الخروج عنه والفرار بنفسه؛ لِيُخَلِّصَهَا من ذلك المحذور.

وأول من حَفِظْنَاهُ فيه الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لما خاف من قومه قال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت:٢٦]، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩﴾ [الصافات:٩٩]، وموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ قال الله عَزَّوَجَلَّ فيه: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢١﴾ [القصص:٢١].

الخامس: خوف المرض في البلاد الْوَخِمَةِ، والخروج منها إلى الأرض النَّزِهَة، وقد أذن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلرِّعَاءِ حين اسْتَوْخَمُوا الْمَدِينَةَ أن يَتَنَزَّهُوا إلى الْمَسْرَح، فيكونوا فيه حتى يَصِحُّوا(١). وقد استثنى من ذلك الخروج من الطاعون؛ فمنع الله جَلَّ وَعَلَا منه بالحديث الصحيح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢). بيد أني رأيت علماءنا قالوا: هو مكروه.

---

(١) يعني: حديث: عكل وعرينة لما قدموا المدينة على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتكلموا بالإسلام، فقالوا يا نبي الله: إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذود وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها. الحديث. صحيح البخاري [٤١٩٢، ٥٧٢٧]، أي: أن يخرجوا خارج البلد مع الإبل فيشربوا من ألبانها وأبوالها حتى يصحوا.

(٢) يعني: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها» صحيح البخاري [٣٤٧٣، ٥٧٢٨، ٥٧٢٩، ٥٧٣٠، ٦٩٧٣]، مسلم [٢٢١٨، ٢٢١٩].

السادس: الفرار خوف الأذية في المال؛ فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، والأهل مثله أو آكد"(١).

*وأخيرًا ينبغي على من أراد السلامة والعافية والنجاة: أن يبادر إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة -كما سيأتي بيان ذلك في (الفتن)-.

سابعًا: حكم التوبة:

١ - التوبة واجبة على الفور:

التوبة من جميع المعاصي واجبة على الفور، ولا يجوز تأخيرها سواء، كانت المعصية صغيرة أو كبيرة بالاتفاق؛ لما في تأخيرها من الإصرار المحرم، ولأن العاصي لا يضمن أجلًا، فقد يعاجله الموت قبل التوبة، فإن أخرها عصى بالتأخير فيحتاج إلى توبتين، أو إلى توبة عامة مما علم ومما لم يعلم، كما حرَّر ذلك كلٌّ من الإمام عز الدين بن عبد السلام، وابن القيم رَحِمَهُمَاٱللَّهُ.

قال الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُٱللَّهُ: "والتوبة واجبة على الفور، فمن أخرَّها زمانًا صار عاصيًا بتأخيرها، وكذلك يتكرر عصيانه بتكرر الأزمنة المتسعة لها، فيحتاج إلى توبة من تأخيرها، وهذا جار في تأخير كل ما يجب تقديمه من

---

(١) بتصرف واختصار عن (أحكام القرآن)، لابن العربي (٦١١/١) ونقل قوله القرطبي في (تفسيره) (٣٥٠/٥).

الطاعات"(١). وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور، ولا يجوز تأخيرها، فمتى أخرها عصى بالتأخير، فإذا تاب من الذنب بقي عليه توبة أخرى، وهي توبته من تأخير التوبة، وقل أن تخطر هذه ببال التائب، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شيء آخر، وقد بقي عليه التوبة من تأخير التوبة، ولا ينجي من هذا إلا توبة عامة، مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم، فإن ما لا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه، ولا ينفعه في عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكنا من العلم، فإنه عاص بترك العلم والعمل، فالمعصية في حقه أشد"(٢).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته، وشرح الله عَزَّوَجَلَّ بنور الإيمان صدره"، وقال: "التوبة على الفور، أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه؛ إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان، وهو واجب على الفور، والعلم بضرر الذنوب إنما أريد؛ ليكون باعثًا على تركها، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»(٣)؛ وذلك لكون الزنا مبعدًا عن الله عَزَّوَجَلَّ، موجبًا للمقت، كسائر المعاصي؛ لأنها للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان، فكما أنها تغير مزاج الإنسان، ولا تزال تجتمع حتى

---

(١) قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/٢٢١).

(٢) مدارج السالكين (١/٢٨٣).

(٣) صحيح البخاري [٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢، ٦٧٨٢، ٦٨١٠]، مسلم [٥٧].

تفسده، فيموت دفعة، كذلك تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملًا تحق الكلمة عليه بأنه من الهالكين.."[1].

وقال الشريف الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التوبة واجبة على الفور عند عامة العلماء؛ أما الوجوب؛ فلقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور:٣١]. وأما الفورية؛ فلما في تأخيرها من الإصرار المحرم، والإنابة قريبة من التوبة لغةً وشرعًا"[2].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التوبة من أصول الإسلام المهمة، وقواعد الدين، وأول منازل السالكين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور:٣١]. فالتوبة من المعصية واجبة على الفور بالاتفاق"[3]. و"أصلها: الندم، وهو ركنها الأعظم. واتفقوا على أن التوبة من جميع المعاصي واجبة، وأنها واجبة على الفور لا يجوز تأخيرها سواء، كانت المعصية صغيرة أو كبيرة"[4].

وقال الإمام الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التوبة واجبة في نفسها على الفور، ومن أخرها تكرر عصيانه بتكرر الأزمنة، كما صرح به الشيخ عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ"[5].

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التوبة فرض لازم على كل من علم من نفسه مخالفة لله عَزَّوَجَلَّ، صغرت أو كبرت، وهي من جملة أمهات الفرائض اللازمة. ووجوبها

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٤/٤-٧).

(٢) التعريفات (ص:٧٠).

(٣) انظر: روضة الطالبين وعمدة المفتين (١١/٢٤٩-٢٥٠).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/٥٩)، وانظر: حاشية البجيرمي على الخطيب (٢/٢٣٦).

(٥) روح المعاني (٦/٣٥٣).

عند أهل السنة شرعًا لا عقلًا، خلافًا للمعتزلة، وليس بواجب قبولها على الله عَزَّوَجَلَّ عقلًا، وإنما علمنا ذلك بالشرع والإجماع، خلافًا للمعتزلة في حتمهم ذلك على الله عَزَّوَجَلَّ عقلًا، على أصلهم الفاسد في التحسين والتقبيح، وإيجاب العقل ما يوجب من ذلك.

والتوبة نعمة أنعم الله عَزَّوَجَلَّ بها على هذه الأمة دون غيرها من الأمم، قاله سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكانت توبة بنى إسرائيل قتل أنفسهم، كما نص الله عَزَّوَجَلَّ عليه"(١).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التوبة من مهمات الإسلام، وقواعده المتأكدة، ووجوبها عند أهل السنة بالشرع، وعند المعتزلة بالعقل. ولا يجب على الله عَزَّوَجَلَّ قبولها إذا وجدت بشروطها عقلًا عند أهل السنة، لكنه جَلَّوَعَلَا يقبلها كرمًا وفضلًا. وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع، خلافًا لهم"(٢).

وإذا تقرَّر أن التوبة واجبة على الفور فإن تسويف التوبة وتأخيرها يعد مذمومًا، ويترتب عليه آثار خطيرة، وقد لا يدرك العبد التوبة؛ إذ إنه لا يضمن أجلًا -كما تقدم-. قال سهل بن عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإصرار: التسويف، أي: يقول: أتوب غدًا، وهذا دعوى النفس، كيف يتوب غدًا وغدًا لا يملكه؟!(٣).

وقد بين الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ علاج تسويف التوبة، حيث قال: "وأما تسويف التوبة فيعالجه بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف؛ لأن المسوف يبني

---

(١) إكمال المعلم (٢٤٢/٨).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٥٩/١٧).

(٣) انظر: الفتوحات الربانية، لابن علان (٢٧٣/٧)، وقد تقدم قول: سهل بن عبد الله.

الأمر على ما ليس إليه، وهو البقاء، فلعله لا يبقى، وإن بقي فلا يقدر على الترك غدًا، كما لا يقدر عليه اليوم، فليت شعري هل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة؟! والشهوة ليست تفارقه غدًا، بل تتضاعف؛ إذ تتأكد بالاعتياد، فليست الشهوة التي أكدها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكدها، وعن هذا هلك المسوفون؛ لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين، ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبدًا شاق، وما مثال المسوف إلا كمثل من احتاج إلى قلع شجرة، فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة، فقال: أؤخرها سنة ثم أعود إليها، وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقته؛ إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف، فأخذ ينتظر الغلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه، وقوي الضعيف"(١).

٢ – التوبة من الذنب وإن تكرر:

جاء في (صحيح مسلم)، باب: (قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب والتوبة): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيما يحكي عن ربه عَزَّ وَجَلَّ، قال: «**أذنب عبد ذنبًا، فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال** تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال** تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **عبدي أذنب ذنبا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ**

---

(١) إحياء علوم الدين (٥٨/٤).

بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال: أي رب اغفر لي ذنبي، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت فقد غفرت لك»**، قال عبد الأعلى: لا أدري أقال في الثالثة أو الرابعة: «**اعمل ما شئت**».

وفي رواية: يقول: «**إن عبدًا أذنب ذنبًا**» وذكر ثلاث مرات: «**أذنب ذنبًا**»، وفي الثالثة: «**قد غفرت لعبدي فليعمل ما شاء**» (١).

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله** عَزَّ وَجَلَّ **يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**» (٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "والأحاديث ظاهرة في الدلالة على أنه لو تكرر الذنب مائة مرة، أو ألف مرة، أو أكثر، وتاب في كلِّ مرة قبلت توبته، وسقطت ذنوبه، ولو تاب عن الجميع توبة واحدة صحت توبته.

وقوله جَلَّ وَعَلَا للذي تكرر ذنبه: «**اعمل ما شئت فقد غفرت لك**» معناه: ما دمت تذنب ثم تتوب غفرت لك"(٣).

وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: «**أذنب عبد ذنبًا فقال: اللهم اغفر لي ذنبي، فقال** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **أذنب عبدي ذنبًا، علم أن له ربًّا يغفر الذنب،**

---

(١) صحيح مسلم [٢٧٥٨].

(٢) صحيح مسلم [٢٧٥٩]، وقد تقدم.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/٧٥-٧٦)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (١٣/٤٧٢)، عمدة القاري (٢٥/١٦٣).

ويأخذ بالذنب» يدلُّ على عظيم فائدة الاستغفار، وعلى عظيم فضل الله عَزَّوَجَلَّ، وسعة رحمته، وحلمه وكرمه، ولا شك في أن هذا الاستغفار ليس هو الذي ينطق به اللسان، بل الذي يثبت معناه في الجنان، فيحل به عقد الإصرار، ويندم معه على ما سلف من الأوزار.

قال: وأما من قال بلسانه: أستغفر الله، وقلبه مصر على معصيته، فاستغفاره ذلك يحتاج إلى استغفار، وصغيرته لاحقة بالكبار؛ إذ لا صغيرة مع إصرار، ولا كبيرة مع استغفار. وفائدة هذا الحديث: أن العود إلى الذنب، وإن كان أقبح من ابتدائه؛ لأنه انضاف إلى الذنب نقض التوبة، فالعود إلى التوبة أحسن من ابتدائها؛ لأنها انضاف إليها: ملازمة الإلحاح بباب الكريم، وأنه لا غافر للذنوب سواه.

وقوله: «**اعمل ما شئت فقد غفرت لك**» قد تقدَّم القول فيه، ونزيد هنا نكتة، وهي: أن هذا الأمر يحتمل أن يكون معناه: الإكرام، فيكون من باب قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحجر:٤٦]. وآخر الكلام خبر عن حال المخاطب؛ لأنَّه مغفور له ما سلف من ذنبه، ومحفوظ -إن شاء الله- فيما يستقبل من شأنه"(١).

وقال ابن بطَّال رَحِمَهُٱللَّهُ: "وأما حديث: أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في الرجل الذي واقع الذنب مرة بعد مرة، ثم استغفر ربه جَلَّوَعَلَا، فغفر له، ففيه: دليل على أن المصر فى مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له؛ لحسنته التي جاء بها، وهي اعتقاده أن له ربًّا خالقًا يعذِّبه ويغفرُ له، واستغفاره إيَّاه على ذلك، يدلُّ عليه قوله جَلَّوَعَلَا:

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٨٥-٨٦).

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾ [الأنعام:١٦٠]، ولا حسنة أعظم من توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، والإقرار بوجوده، والتضرع إليه في المغفرة.

فإن قيل: فإنَّ استغفاره ربِّه جَلَّوَعَلَا توبةٌ منه. قيل له: ليس الاستغفار أكثر من طلب غفرانه، وقد يطلب الغفران: المصرُّ والتَّائب، ولا دليل في الحديث على أنَّه تاب ممَّا سألَ الغفران منه؛ لأنَّ حدَّ التَّوبة: الرُّجوع عن الذَّنب، والعزم على أن لا يعودَ إليه، والإقلاع عنه، والاستغفار بمجرَّده لا يفهم منه ذلك"(١).

وقال السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الحلبيات): "الاستغفار: طلب المغفرة إما باللسان، أو بالقلب، أو بهما، فالأول فيه نفع؛ لأنه خير من السكوت، ولأنه يعتاد قول الخير، والثاني: نافع جدًّا، والثالث: أبلغ منه لكن لا يمحصان الذنب حتى توجد التوبة منه؛ فإن العاصي المصر يطلب المغفرة، ولا يستلزم ذلك وجود التوبة.. إلى أن قال: والذي ذكرته من أن معنى الاستغفار غير معنى التوبة هو بحسب وضع اللفظ، لكنه غلب عند كثير من الناس أن لفظ: (أستغفر الله) معناه: التوبة، فمن كان ذلك معتقده فهو يريد التوبة لا محالة، ثم قال: وذكر بعضهم أن التوبة لا تتم إلا بالاستغفار؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ [هود:٣]، والمشهور أنه لا يشترط"(٢).

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٥٠٣-٥٠٤).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١٣/٤٧٢)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (١٠/٤٣٩).

وفي الحديث: عن الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من أَحَبَّ أَنْ تَسُرَّهُ صَحِيفَتُهُ فَلْيُكْثِرْ فيها من الاستغفار**»(1).

٣ – الفرق بين التوبة والاستغفار:

بناء على ما تقدم فقد قيل في الفرق بين التوبة والاستغفار: إنَّ الاستغفار إنما يكون عن ذنبٍ مضى، والتوبة لما يستقبل، فالاستغفار بهذا الاعتبار مقدم على التوبة، وهو بمثابة المقدمة للتوبة.

وقيل: إن الاستغفار عبارة عن طلب المغفرة بعد رؤية قبيح المعصية، والإعراض عنها، فالتوبة بهذا الاعتبار مقدَّمة على الاستغفار؛ فإن الاستغفار لا يكون توبة بالإجماع ما لم يقل معه: تبت، واسأت، ولا أعود إليه أبدًا فاغفر لي يا رب.

فإن قيل: كيف قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود:٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود:٥٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ [هود:٩٠].. مع أن التوبة مقدمة على الاستغفار؟

(١) أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٨٣٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٣٩]، والضياء في (المختارة) [٨٩٢]. قال الهيثمي (١٠/٢٠٨) "رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله ثقات".

وقد قيل في الجواب:

أ. معناه: استغفروا من الشرك والمعاصي، ثم ارجعوا إليه بالطاعة، وتوبوا من الأعمال الباطلة:

فعلى هذا فإن: ﴿ثُمَّ﴾ هنا للتراخي في الحال، وليس معناها: التراخي في الوقت، كما تقول في قوله جَلَّ وَعَلَا في أول (سورة هود): ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود:١]؛ فإن: ﴿ثُمَّ﴾ ليس معناها التراخي في الوقت، ولكن في الحال، كما تقول: هي محكمة أحسن الأحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل، وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل. كذا في (الكشاف) (١).

وقيل: إن قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ [هود:٣]: من قبيل ما يسمى: بالترتيب الرتبي، وبترتب الإخبار.

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال صاحب: (الفرائد): يمكن أن يقال: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ﴾ [هود:٣]، مما قدمتم من الشرك، والاستغفار لا يتحقق إلا بعد التوبة، لأن الاستغفار باللسان توبة الكذابين. ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ [هود:٣]، أي: داوموا على التوبة، نحو قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ۝٨٢﴾ [طه:٨٢]، والتراخي في الرتبة.

---

(١) انظر: الكشاف (٢/٣٧٧)، (٢/٣٧٨)، حاشية الطيبي على الكشاف (٨/١١)، أنموذج جليل (ص:١٩٦). وقد حرَّر هذه المسألة تحريرًا دقيقًا: العلامة الألوسي في تفسيره: (روح المعاني) (٦/١٩١-١٩٢).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا معنى الوجه الثاني"[1]، يعني: من قول الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ -كما سيأتيك-.

وقال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن (ثم) للترتيب الرتبي؛ لأن الاعتراف بفساد ما هم فيه من عبادة الأصنام أهم من طلب المغفرة؛ فإن تصحيح العزم على عدم العودة إليها هو مسمى: (التوبة)، وهذا ترغيب في نبذ عبادة الأصنام، وبيان لما في ذلك من الفوائد في الدنيا والآخرة"[2]. وعلى هذا فإنه تدرج في الارتقاء، فهذا التراخي يفيد أن مضمون الجملة المعطوفة بحرف: (ثم) أهم من مضمون الجملة المعطوف عليها أهمية الغرض على المقدمة، والنتيجة على الدليل، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد: ١١-١٧].

والقول بأن (ثم) للترتيب الرتبي في هذه المواضع أظهر وأبين في بيان الحكمة، ونظائره في القرآن كثيرة.

ب. وقيل: استغفروا، والاستغفار توبة، ثم أخلصوا التوبة، واستقيموا عليها:

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (١٢/٨).

(٢) التحرير والتنوير (٣١٧/١١).

وقيل: إن (ثم) هنا بمعنى: الواو، أي: وتوبوا إليه؛ لأن الاستغفار هو التوبة، والتوبة هي الاستغفار [1].

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا معنى الوجه الثاني: [يعني: من قول الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ]: (أو استغفروا، فالاستغفار توبة، ثم أخلصوا التوبة، واستقيموا عليها) [2]، ومعنى الاستقامة: الدوام على التوبة، ولا شك أن الاستقامة على التوبة أعلى من التوبة نفسها"[3]، يعني: أن (ثم) على هذا الوجه كذلك للترتيب الرتبي.

ج. وقيل: إن معنى قوله: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [هود:٣]، أي: اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم. ثم بين الشيء الذي يطلب به ذلك، وهو التوبة، فقال: ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ [هود:٣]؛ لأن الدَّاعي إلى التوبة، والمحرض عليها هو الاستغفار، الذي هو عبارة عن طلب المغفرة وهذا يدل على أنه لا سبيل إلى طلب المغفرة من عند الله عَزَّوَجَلَّ إلا بإظهار التوبة، والأمر في الحقيقة كذلك؛ لأن المذنب معرض عن طريق الحق، والمعرض والمتمادي في التباعد ما لم يرجع عن ذلك الإعراض لا يمكنه التوجه إلى المقصود بالذات، فالمقصود بالذات هو التوجه إلى المطلوب، إلا أن ذلك لا يمكن إلا بالإعراض

---

(١) انظر: التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (٣٤٥/١١)، تفسير البغوي (٤/ ١٥٦)، تفسير القرطبي (٣/٩). قال الألوسي: "وقيل: لا نسلم أن الاستغفار هو التوبة، بل هو ترك المعصية، والتوبة هي: الرجوع إلى الطاعة. ولئن سلم أنهما بمعنى- ف: (ثم) للتراخي في الرتبة، والمراد بالتوبة: الإخلاص فيها، والاستمرار عليها، وإلى هذا ذهب صاحب: (الفرائد)" انظر ذلك في (روح المعاني) (١٩٤/٦).

(٢) الكشاف (٣٧٨/٢).

(٣) حاشية الطيبي على الكشاف (١٢/٨).

عما يضاده، فثبت أن الاستغفار مطلوب بالذَّات، وأن التوبة مطلوبة؛ لكونها من متممات الاستغفار، وما كان آخرًا في الحصول كان أوَّلًا في الطلب؛ فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة.

وقال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾: ثم توصلوا إلى مطلوبكم بالتوبة؛ فإن المعرض عن طريق الحق لا بدَّ له من الرجوع. وقيل: استغفروا من الشرك، ثم توبوا إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالطاعة"[١].

د. وقيل: إن المراد: استغفروا من سالف الذنوب، ثم توبوا إليه في المستأنف.

هـ. الاستغفار: طلب من الله عَزَّوَجَلَّ؛ لإزالة ما لا ينبغي. والتوبة: سعي من الإنسان في إزالة ما لا ينبغي، فقدَّم الاستغفار؛ ليدل على أن المرء يجب أن لا يطلب الشيء إلا من مولاه جَلَّوَعَلَا؛ فإنه هو الذي يقدر على تحصيله، ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة؛ لأنها عمل يأتي به الإنسان، ويتوسل به إلى دفع المكروه، والاستعانة بفضل الله عَزَّوَجَلَّ مقدمة على الاستعانة بسعي النفس. قاله الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢].

و. قيل: إنما قدم ذكر الاستغفار؛ لأن المغفرة هي الغرض المطلوب، والتوبة هي السبب إليها، فالمغفرة أول في المطلوب وآخر في السبب [٣].

---

(١) تفسير البيضاوي (١٢٧/٣)، وانظر: حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (٦٨/٥)، حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (١١/١٠)، التفسير البسيط (١١/ ٣٤٥).

(٢) مفاتيح الغيب (٣١٥/١٧)، وانظر: غرائب القرآن (٦/٤).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٣/٩).

قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال بعض المحققين: الاستغفار هو التوبة إلا أن المراد بالتوبة في جانب المعطوف: التوصل إلى المطلوب مجازًا من إطلاق السبب على المسبب، و(ثُمَّ) على ظاهرها، وهي قرينة على ذلك"(١).

ز. قيل: ويحتمل أن يكون المعنى استغفروه من الصغائر، وتوبوا إليه من الكبائر.

وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاستغفارُ يردُ مجرَّدًا، ويردُ مقرونًا بالتوبة، فإن ورد مجرَّدًا دخل فيه: طلب وقاية شرِّ الذنب الماضي بالدعاء، والندم عليه، ووقاية شر الذنب المتوقع بالعزم على الإقلاع عنه، وهذا الذي يمنع الإصرار.

والمقرون بالتوبة مختص بالنوع الأول، فإن لم يصحبه الندم على الذنب الماضي فهو دعاء محض، وإن صحبه ندم فهو توبة"(٢).

وفي كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إيضاح وتحرير، حيث قال: "وأما الاستغفار فهو نوعان: مفرد، ومقرون بالتوبة، فالمفرد: كقول نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١﴾ [نوح:١٠-١١]، وكقول صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٤٦﴾ [النمل:٤٦]، وكقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٩٩﴾ [البقرة:١٩٩]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال:٣٣].

(١) انظر ذلك في (روح المعاني) (١٩٤/٦).

(٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (٥٢٣/٢-٥٢٤)، وانظر: روح المعاني، للألوسي (٤٩٥/١٥).

والمقرون كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود:٣]، وقول هود عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود:٥٢]، وقول صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١﴾ [هود:٦١]، وقول شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ [هود:٩٠]، فالاستغفار المفرد كالتوبة، بل هو التوبة بعينها، مع تضمنه طلب المغفرة من الله عَزَّوَجَلَّ، وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره، لا كما ظنه بعض الناس أنها الستر؛ فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له، ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه، فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم.

وحقيقتها: وقاية شر الذنب، ومنه: (المغفر)، لما يقي الرأس من الأذى، والستر لازم لهذا المعنى، وإلا فالعمامة لا تسمى مغفرًا، ولا القبع ونحوه مع ستره، فلا بد في لفظ المغفر من الوقاية، وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال:٣٣]؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يعذب مستغفرًا، وأما من أصر على الذنب، وطلب من الله عَزَّوَجَلَّ مغفرته، فهذا ليس باستغفار مطلق؛ ولهذا لا يمنع العذاب، فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق.

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

فهاهنا ذنبان: ذنب قد مضى، فالاستغفار منه: طلب وقاية شره، وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على أن لا يفعله، والرجوع إلى الله عَزَّوَجَلَّ يتناول النوعين: رجوع إليه؛ ليقيه شر ما مضى، ورجوع إليه؛ ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

وأيضًا فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقًا تؤديه إلى هلاكه، ولا توصله إلى المقصود، فهو مأمور أن يوليها ظهره، ويرجع إلى الطريق التي فيها نجاته، والتي توصله إلى مقصوده، وفيها فلاحه.

فهاهنا أمران لا بد منهما: مفارقة شيء، والرجوع إلى غيره، فخصت التوبة بالرجوع، والاستغفار بالمفارقة، وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين؛ ولهذا جاء -والله أعلم- الأمر بهما مرتبًا بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ [هود:٣]؛ فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل.

وأيضا فالاستغفار من باب: إزالة الضرر، والتوبة: طلب جلب المنفعة، فالمغفرة: أن يقيه شر الذنب، والتوبة: أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه، وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده -والله أعلم-"(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: "إن الاستغفار هو طلب المغفرة، وهو من جنس الدعاء والسؤال، وهو مقرون بالتوبة في الغالب، ومأمور به، لكن قد يتوب الإنسان ولا يدعو، وقد يدعو ولا يتوب"(٢).

---

(١) مدارج السالكين (١/٣١٤-٣١٥).

(٢) منهاج السنة النبوية (٦/٢١٠-٢١١).

فعلى هذا القول فبين التوبة والاستغفار عموم وخصوص من وجه، وبين الاستغفار والدعاء عموم وخصوص مطلق.

وقال أبو هلال العسكري في (الفروق): "الفرق بين الاستغفار والتوبة: أن الاستغفار طلب المغفرة بالدعاء والتوبة، أو بغيرهما من الطاعة. والتوبة: الندم على الخطيئة مع العزم على ترك المعاودة، فلا يجوز الاستغفار مع الإصرار؛ لأنه مسلبة لله عَزَّوَجَلَّ ما ليس من حكمه ومشيئة ما لا تفعله مما قد نصب الدليل فيه، وهو تحكم عليه، كما يتحكم المتأمر المتعظم على غيره، بأن يأمره بفعل ما أخره أنه لا يفعله"(١).

٤ – الفرق بين الدعاء والاستغفار:

إن الدعاء أعم من الاستغفار، فالمؤمن يدعو لنفسه بالرزق، ويدعو لنفسه بالعافية، ويدعو بالمغفرة.. وغير ذلك.

وهو يستغفر الله عَزَّوَجَلَّ من الذنوب والتقصير. فالاستغفار: كلُّ دعاء فيه سؤال الغفران.

فعلى هذا فإن بين الاستغفار والدعاء عمومًا وخصوصًا من وجه، يجتمعان في طلب المغفرة، وينفرد الاستغفار بأنه قد يكون بالفعل كما يكون بالقول، كذا قيل.

وينفرد الدعاء إن كان بطلب غير المغفرة.

---

(١) الفروق اللغوية (١/٢٣٥).

وعلى القول بأن الاستغفار من جنس الدعاء والسؤال فإنه يكون بينه وبين الدعاء عموم وخصوص مطلق -كما تقدم-.

ومحل الخلاف في الاستغفار بالفعل على قول من قال به، والتحقيق أن الاستغفار هو طلب المغفرة، وهو من جنس الدعاء والسؤال -على ما تقدم- وأن الاستغفار هو طلب المغفرة، وهو لا يخلو إما أن يكون باللسان، أو بالقلب.

فإن أطلق على الفعل فهو باعتبار القصد منه وما تضمَّنه من الاستغفار، فيقال عن صلاة التوبة: إنها استغفار بهذا الاعتبار، وهو لا يخرجها عن مسماها الحقيقي.

٥ - صلاة التوبة والاستغفار:

إن صلاة التوبة هي فعل يتضمن الاستغفار؛ ولذلك تسمى: صلاة الاستغفار، يتوسل بها العبد المذنب إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ رجاء قبول توبته.

وقد أجمع أهل العلم على مشروعية صلاة التوبة، ويدل على مشروعيتها: حديث: أسماء بن الحكم الفزاري، قال: سمعت عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: كنت رجلًا إذا سمعت من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثًا نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، قال: وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ما من عبد يذنب ذنبًا، فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله، إلا غفر الله له**»،

ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران:١٣٥] إلى آخر الآية (١)

وعند أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن يوسف بن عبد الله بن سلام، قال: أتيت أبا الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في مرضه الذي قبض فيه فقال لي: يا ابن أخي ما أعمدك في هذا البلد –أو ما جاء بك–؟ قال: قلت: لا إلا صلة ما كان بينك وبين والدي عبد الله بن سلام فقال: أبو الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: بئس ساعة الكذب هذه سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من توضأ فأحسن وضوءه، ثم قام فصلى ركعتين، أو أربعًا –شك سهل– يحسن فيهما الذكر، والخشوع، ثم استغفر الله عَزَّ وَجَلَّ غفر له**» (٢).

وصلاة التوبة ركعتان، كما جاء في حديث: أبي بكر الصديق رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ -الآنف الذكر-.

---

(١) أخرجه الطيالسي [١]، والحميدي [١]، وابن أبي شيبة [٧٦٤٢]، وأحمد [٤٧]، وابن ماجه [١٣٩٥]، وأبو داود [١٥٢١]، والترمذي [٤٠٦]، وقال: "حسن"، كما أخرجه: النسائي في (الكبرى) [١٠١٧٥]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٤١٤]، وأبو يعلى [١٣]، وابن حبان [٦٢٣]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٦٧٥]، والضياء [٩] وقال: "إسناده صحيح".

(2) أخرجه أحمد [٢٧٥٤٦]، والطبراني في (الأوسط) [٥٠٢٦]، وفي (الدعاء) [١٨٤٨]. قال الهيثمي (٢/٢٧٨-٢٧٩): "رواه أحمد والطبراني في (الكبير) إلا أنه قال: «ثم قام فصلى ركعتين أو أربعًا مكتوبة أو غير مكتوبة، يحسن فيها الركوع والسجود» وإسناده حسن". وقال الحافظ ابن حجر في (نتائج الأفكار) (٢/٣١٦): "أخرجه أحمد والطبراني، وسنده حسن". وقوله: (بئس ساعة الكذب هذه)، أي: لا يمكن أن أكذب هذه الساعة، وأنا على فراش الموت.

وتشرع عند توبة المسلم من أي ذنب، سواء كان من الكبائر أم من الصغائر، وسواء كانت هذه التوبة بعد اقتراف المعصية مباشرة، أم بعد مضي زمن.

وهل تؤدى في جميع الأوقات، بما في ذلك أوقات النهي؟ قولان.

والقول بأنها تؤدى في أوقات النهي على اعتبار أنها من الصلوات ذوات السبب.

ولم يرد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يستحب تخصيص هاتين الركعتين بقراءة معينة، فيقرأ المصلي فيهما ما شاء، ويصليها منفردًا.

ويندب له بعدها أن يستغفر الله عَزَّوَجَلَّ.

ويستحب للتائب مع هذه الصلاة فعل بعض القربات، كالصدقة وغيرها.

فالصدقة إن كانت خالصة لله عَزَّوَجَلَّ فهي من خير الأعمال التي يقوم بها التائب، فهي من أسباب تكفير الذنوب التي تتأكد فيها التوبة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٢٧١﴾ [البقرة:٢٧١].

وفي الحديث: عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك**»، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر [1].

وصلاة التوبة ركعتان قبلها -أي: قبل التوبة- ينوي بهما سنة التوبة.

(١) صحيح البخاري [٢٧٥٧، ٤٤١٨، ٤٦٧٦، ٦٦٩٠]، مسلم [٢٧٦٩].

وقيل: تصحان بعدها [1].

وقيل: يصح أن يصليها قبل التوبة أو بعدها.

والراجح أنها قبل التوبة؛ لما يفيد ذكر الصلاة، ثم عطف الاستغفار عليها بحرف: (ثم) الذي يدل على الترتيب، في كلٍّ من حديث: أبي بكر، وحديث: أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وقد حقق هذه المسألة الشيخ سليمان البجيرمي رَحِمَهُ اللَّهُ في (حاشيته على الخطيب)، حيث جاء فيها: "قوله: (وركعتا التوبة) [2] أي: من الذنب -ولو صغيره- كما هو ظاهر، ثم يستغفر الله عَزَّوَجَلَّ عقبها، والمراد بقوله: (وركعتا التوبة)، أي: من يريدها، فهو على حذف مضاف، كما قاله ق ل على التحرير. ويؤخذ منه: أن الصلاة هذه تكون قبل التوبة؟ ويسن أيضًا: ركعتان بعدها؛ لما ذكره ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: أنه يسن لمن أذنب ذنبًا، وتاب منه أن يصلي عقب توبته ركعتين؛ شكرًا على حصولها، وطلبًا لقبولها ودوامها. نقله م د على التحرير. وعبارة العناني رَحِمَهُ اللَّهُ: الصلاة قبل التوبة بدليل قوله: «**ثم يستغفر الله**». وأيضًا: فإن الصلاة وسيلة لقبول التوبة، والوسيلة مقدمة على المقصد، فاندفع ما يقال: إن المبادرة إلى التوبة واجبة فكيف يقدم الصلاة عليها؟!

وحاصل الجواب: أن الصلاة لما كانت وسيلة كان المصلي شارعًا فيها اهـ. قلت: فالحاصل أن صلاة التوبة ركعتان قبلها، أما الركعتان اللتان بعدها وإن سنت، فلا يقال

---

(١) انظر: نهاية الزين (ص:١٠٦).

(٢) انظر: الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (١/١١٨)، مغني المحتاج (١/٤٥٨).

لها: صلاة التوبة. وفائدة التوبة: أنها حيث صحت كفرت الذنب قطعًا في الكفر، وظنًّا في غيره -ولو كبيرة-، نعم الصغيرة يكفرها غير التوبة من فعل نحو: وضوء، وهي واجبة -ولو من صغيرة- ومن تأخيرها، أي: التوبة فتأخير التوبة يجب فيه التوبة.."(١).

وتكفي صلاة واحدة عن جملة الذنوب مع صدق النية وتحقق شروط التوبة.

٦ - تجديد الندم عند ذكر الذَّنب:

وإذا تاب من ذنب ثم ذكره، هل يجب تجديد الندم؟

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد اختلف أئمتنا هل من شرطه متى ذكر الذنب تجديد الندم؟ أو لا يلزمه تكرار ذلك؟"(٢).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فيه خلاف لأصحابنا وغيرهم من أهل السنة. قال ابن الأنباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يجب. وقال إمام الحرمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يجب"(٣). "ولو تكررت التوبة، ومعاودة الذنب، صحت، هذا مذهب الحق في المسلمين، خلافًا للمعتزلة"(٤).

قال إمام الحرمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الإرشاد): "القتل الموجب للقود، فيصح الندم عليه، من غير تسليم القاتل نفسه؛ ليستقاد منه. فإذا ندم صحت توبته في حق الله عَزَّوَجَلَّ،

---

(١) حاشية البجيرمي على الخطيب (٤٢٨/١-٤٢٩).

(٢) إكمال المعلم (٢٤٢/٨).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٥٩/١٧).

(٤) روضة الطالبين وعمدة المفتين (٢٥٠/١١).

وكان منعه من القصاص من مستحقه معصيه معصيه متجددة لا تقدح في التوبة، بل تستدعى في نفسها خروجًا عنها، وتوبة منها.

وربما تتعلق التوبة بحق الآدميين، ولا تصح دون الخروج منها، وذلك كاغتصاب شيء من مال الغير، فلا يصح الندم عليه، مع إدامة شدِّ اليد عليه، فلا تتمسكوا بالصور، وارعوا الندم لحق الله عَزَّوَجَلَّ نفيًا وإثباتًا"(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن تاب عن معصية ثم ذكرها قال الإمام القاضي أبو بكر بن الباقلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يجب عليه تجديد الندم عليها كلما ذكرها؛ إذ لو لم يندم، لكان مستهينًا بها، وذلك ينافي الندم. واختار إمام الحرمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يجب، ولا يلزم من ذكرها بلا ندم الاستهانة، بل قد يذكر، ويعرض عنها.

قال القاضي: وإذا لم يجدد التوبة كان ذلك معصية جديدة، والتوبة الأولى صحيحة؛ لأن العبادة الماضية لا ينقضها شيء بعد فراغها، قال: فيجب تجديد توبة عن تلك المعصية، وتجب توبة من ترك التوبة إذا حكمنا بوجوبها. قال الإمام: وإذا أسلم الكافر، فليس إسلامه توبة عن كفره، وإنما توبته ندمه على كفره، ولا يتصور أن يؤمن ولا يندم على كفره، بل تجب مقارنة الإيمان للندم على الكفر، ثم وزر الكفر يسقط بالإيمان، والندم على الكفر بالإجماع، هذا مقطوع، وما سواه من ضروب التوبة، فقبوله مظنون غير مقطوع به. وقد أجمعت الأمة على أن الكافر إذا أسلم

(١) الإرشاد الى قواطع الأدلة (ص:٤٢٤).

وتاب عن كفره، صحت توبته، وإن استدام معاصي أخر. هذا كلام الإمام، وهذا الذي قاله أن القبول مظنون هو الصحيح.

وقال جماعة من متكلمي أصحابنا: هو مقطوع -والله أعلم-"(١).

وقال إمام الحرمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (في توبة العائد للذنب): "من تاب وصحت توبته، ثم عاود الذنب فالتوبة الماضية صحيحة، والغرض مما ذكرناه: أن تعلموا أن التوبة عبادة من العبادات يقضى بصحتها وفسادها، فإذا سيقت على شرائطها، لم يقدح في صحتها ما يقع بعد مُضيِّها، وعلى معاود الذنب: تجديد التوبة؛ ثم هذه التوبة عبادة أخرى سوى التي ذكرناها"(٢).

٧ - التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره:

تصح التوبة من ذنب وإن كان مصرًا على ذنب آخر؛ لأنَّ الأعمال تتبعَّض، والإيمان يتفاضل. قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ووجوب التوبة عند أهل السنة بالشرع، وعند المعتزلة بالعقل، ولا يجب على الله عَزَّوَجَلَّ قبولها إذا وجدت بشروطها عقلًا عند أهل السنة، لكنه جَلَّوَعَلَا يقبلها كرمًا وفضلًا، وعرفنا قبولها بالشرع والإجماع، خلافًا

(١) روضة الطالبين وعمدة المفتين (٢٥٠/١١)، وانظر: الإرشاد الى قواطع الأدلة، لإمام الحرمين (ص:٤٢٦)، الآداب الشرعية، لابن مفلح (٨٥/١)، غذاء الألباب، للسفاريني (٥٦٩/٢)، أسنى المطالب في شرح روض الطالب (٣٥٩/٤)، تحفة المحتاج في شرح المنهاج (٢٤٥/١٠)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (٣٦٠/٢-٣٦١).

(٢) الإرشاد الى قواطع الأدلة (ص:٤٢٨).

لهم. وإذا تاب من ذنب ثم ذكره هل يجب تجديد الندم فيه؟ خلاف لأصحابنا وغيرهم من أهل السنة، قال ابن الأنباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يجب، وقال إمام الحرمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يجب، وتصح التوبة من ذنب وإن كان ملابسًا ذنبًا آخر، مصرًا عليه، ولو تاب من ذنب، ثم فعله مرة أخرى، لم تبطل التوبة"(١). وقال في (شرحه لصحيح مسلم): "وتصح التوبة من ذنب وإن كان مصرًّا على ذنب آخر، وإذا تاب توبة صحيحة بشروطها، ثم عاود ذلك الذنب كتب عليه ذلك الذنب الثاني، ولم تبطل توبته. هذا مذهب أهل السنة في المسألتين. وخالفت المعتزلة فيهما.."(٢).

وقال القاضي أبو محمد ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والتوبة من ذنب تصح مع الإقامة على غيره، وهي توبة مقيدة، وإذا تاب المرء ثم عاود الذنب بعد مدة فيحتمل عند حذاق أهل السنة أن لا يعيد الله عَزَّوَجَلَّ عليه الذنب الأول؛ لأن التوبة قد كانت مجبة، ويحتمل أن يعيده؛ لأنها توبة لم يواف بها"(٣).

وقال عبد الله بن سميط رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما دام قلب العبد مصرًّا على ذنب واحد، فعمله معلق في الهواء، فإن تاب من ذلك الذنب وإلا بقي عمله أبدًا معلقًا"(٤).

قال إمام الحرمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "من احتقب أوزارًا، وقارف ذنوبًا صحت توبته عن بعضها، مع الإصرار على بعضها، وذهب أبو هاشم ومتبعوه إلى أن التوبة لا تصح

---

(١) انظر: روضة الطالبين وعمدة المفتين (١١/٢٤٩-٢٥٠).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/٥٩-٦٠).
(٣) المحرر الوجيز (٤/٥٦)، وانظر: تفسير القرطبي (٥/٩٠).
(٤) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٨١).

دون الانكفاف عن جميع الذنوب. وهذا الذي ذكروه خروج عن المعقول، وموجب الشرع المنقول.."[1].

وللعلماء في هذا ثلاثة أقوال:

الأول: تجوز التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره؛ وإلى هذا ذهب جمهور أهل السنَّة والجماعة.

الثاني: لا تجوز التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره.

وقد نقل ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قولًا بعدم قبول التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره، وهو رواية عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

الثالث: أن التوبة لا تصح من ذنب مع الإصرار على غيره من نوعه، وأما التوبة من ذنب، مع مباشرة آخر لا تعلق له به، ولا هو من نوعه فتصح، كما إذا تاب من الربا، ولم يتب من شرب الخمر -مثلًا-؛ فإن توبته من الربا صحيحة، وأما إذا تاب من ربا الفضل، ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليه، أو بالعكس، أو تاب من تناول الحشيشة وأصر على شرب الخمر، أو بالعكس فهذا لا تصح توبته، وهو كمن يتوب عن الزنا بامرأة، وهو مصر على الزنا بغيرها غير تائب منها، أو تاب من شرب عصير العنب المسكر، وهو مصر على شرب غيره من الأشربة المسكرة، فهذا في الحقيقة لم يتب من الذنب، وإنما عدل عن نوع منه إلى نوع آخر، بخلاف من عدل عن معصية إلى معصية أخرى غيرها في الجنس، إما لأن وزرها أخف، وإما لغلبة دواعي الطبع

(١) انظر: الإرشاد الى قواطع الأدلة (ص:٤٢٤-٤٢٥).

إليها، وقهر سلطان شهوتها له، وإما لأن أسبابها حاضرة لديه عتيدة، لا يحتاج إلى استدعائها، بخلاف معصية يحتاج إلى استدعاء أسبابها، وإما لاستحواذ قرنائه وخلطائه عليه، فلا يدعونه يتوب منها، وله بينهم حظوة بها وجاه، فلا تطاوعه نفسه على إفساد جاهه بالتوبة.."[1].

٨ – مسألة: من تاب من ذنب ثم عاد إليه، هل يعود عليه إثم الذنب الأول؟ وهل يشترط في صحة التوبة: أن لا يعود إلى الذنب أبدًا؟

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: شرط بعض الناس عدم معاودة الذنب.

والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط، وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب، والندم عليه، والعزم الجازم على ترك معاودته. فإذا عاوده، مع عزمه حال التوبة على أن لا يعاوده، صار كمن ابتدأ المعصية، ولم تبطل توبته المتقدمة.

والمسألة مبنية على أصل، وهو أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده، فهل يعود إليه إثم الذنب الذي قد تاب منه ثم عاوده، بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر إن مات مصرًا؟ أو أن ذلك قد بطل بالكلية، فلا يعود إليه إثمه، وإنما يعاقب على هذا الأخير؟

وفي هذا الأصل قولان:

(١) مدارج السالكين (١/٢٨٥-٢٨٦)، وانظر: الآداب الشرعية، لابن مفلح (١/٥٦-٥٧).

فقالت طائفة: يعود إليه إثم الذنب الأول، لفساد التوبة، وبطلانها بالمعاودة. قالوا: لأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر، والكافر إذا أسلم هدم إسلامه ما قبله من إثم الكفر وتوابعه، فإذا ارتد عاد إليه الإثم الأول مع إثم الردة..

وقالوا: والتوبة واجبة وجوبًا مضيقًا مدى العمر، فوقتها مدة العمر؛ إذ يجب عليه استصحاب حكمها في مدة عمره، فهي بالنسبة إلى العمر كالإمساك عن المفطرات في صوم اليوم، فإذا أمسك معظم النهار، ثم نقض إمساكه بالمفطرات بطل ما تقدم من صيامه، ولم يعتد به، وكان بمنزلة من لم يمسك شيئًا من يومه.

واحتج الفريق الآخر - وهم القائلون بأنه لا يعود إليه إثم الذنب الذي تاب منه بنقض التوبة - بأن ذلك الإثم قد ارتفع بالتوبة، وصار بمنزلة ما لم يعمله، وكأنه لم يكن، فلا يعود إليه بعد ذلك، وإنما العائد إثم المستأنف لا الماضي.

قالوا: ولا يشترط في صحة التوبة العصمة إلى الممات، بل إذا ندم وأقلع وعزم على الترك محي عنه إثم الذنب بمجرد ذلك، فإذا استأنفه استأنف إثمه.

قالوا: فليس هذا كالكفر الذي يحبط الأعمال، فإن الكفر له شأن آخر، ولهذا يحبط جميع الحسنات، ومعاودة الذنب لا تحبط ما تقدمه من الحسنات.

قالوا: والتوبة من أكبر الحسنات، فلو أبطلتها معاودة الذنب لأبطلت غيرها من الحسنات، وهذا باطل قطعًا.

قالوا: وقد علق الله عَزَّوَجَلَّ قبول التوبة بالاستغفار، وعدم الإصرار، دون المعاودة، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن

يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران:١٣٥]. والإصرار عقد القلب على ارتكاب الذنب متى ظفر به، فهذا الذي يمنع مغفرته.

قالوا: وأما استمرار التوبة فشرط في صحة كمالها ونفعها، لا شرط في صحة ما مضى منها، وليس كذلك العبادات، كصيام اليوم، وعدد ركعات الصلاة؛ فإن تلك عبادة واحدة، لا تكون مقبولة إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها، وأما التوبة فهي عبادات متعددة بتعدد الذنوب، فكل ذنب له توبة تخصه، فإذا أتى بعبادة وترك أخرى لم يكن ما ترك موجبًا لبطلان ما فعل.

بل نظير هذا: أن يصوم من رمضان ويفطر منه بلا عذر، فهل يكون ما أفطره منه مبطلًا لأجر ما صامه منه؟ بل نظير من صلى ولم يصم، أو زكى ولم يحج.

ونكتة المسألة: أن التوبة المتقدمة حسنة، ومعاودة الذنب سيئة، فلا تبطل معاودته هذه الحسنة، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات.

قالوا: وهذا على أصول أهل السنة أظهر، فإنهم متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين، ويكون محبوبًا لله عَزَّوَجَلَّ، مبغوضًا له من وجهين أيضًا، بل يكون فيه إيمان ونفاق، وإيمان وكفر، ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر، فيكون من أهله، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ﴾ [آل عمران:١٦٧]، وقال: ﴿وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف:١٠٦] أثبت لهم الإيمان به مع مقارنة الشرك، فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله عَلَيۡهِمُ‌ٱلسَّلَامُ لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، وإن كان معه

تصديق لرسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وباليوم الآخر، فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أرباب الكبائر.

وشركهم قسمان: شرك خفي، وشرك جلي، فالخفي قد يغفر، وأما الجلي فلا يغفره الله عَزَّوَجَلَّ إلا بالتوبة منه؛ فإن الله لا يغفر أن يشرك به.

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة، لما قام بهم من السببين"(١).

وفي (الفواكه الدواني): "إذا أذنب التائب هل تعود عليه ذنوبه أم لا؟ الصحيح: لا تعود، وظاهره: ولو عاد بمجلس التوبة، ولكن يجدد توبة لما اقترف، وإذا تاب من بعض الذنوب دون بعضها فصحح بعض الشيوخ قبول توبته مع الإصرار على البعض الآخر، بدليل صحة إيمان الكافر مع إدامته شرب الخمر أو الزنا.

ولا يشترط في صحة التوبة: تعيين الذنب إذا تاب من البعض، وتصح التوبة من الذنوب إجمالًا، ولو لم يشق عليه التعيين، خلافًا للبعض، وما قدمناه من وجوب تعيين ما اغتابه به إذا بلغه على وجه أفحش منه، وإن ذكره بعض الشراح ليس مذهبًا للمالكية، بل عندهم لا يجب التفصيل مع الإبراء مطلقًا، كما أن مذهبهم أن التوبة لا تسقط الحدود ولا التعازير، إلا حد الحرابة من حيث هو حدها. ويستحب التفصيل للمغتاب من غير وجوب عليه، وليس في ذلك: تحليل حرام، بل إسقاط لحق المبرئ"(٢).

---

(١) مدارج السالكين (١/٢٩١-٢٩٣).

(٢) انظر: الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (١/٧٦).

٩ - توبة الكافر:

وتقبل توبة الكافر؛ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا عن المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦].

وقد روى (مسلم): عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «**ما لك يا عمرو؟**» قال: قلت: أردت أن أشترط، قال: «**تشترط بماذا؟**»، قلت: أن يغفر لي، قال: «**أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟**» (١).

قوله: «**إن الإسلام يهدم ما كان قبله**» أي: يسقطه، ويمحو أثره (٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ثم توبة الكافر من كفره مقطوع بقبولها، وما سواها من أنواع التوبة هل قبولها مقطوع به أم مظنون فيه؟ خلاف لأهل السنة، واختار إمام الحرمين رَحِمَهُ اللَّهُ أنه مظنون، هو الأصح -والله أعلم-"(٣). قال إمام الحرمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "الكافر إذا آمن بالله عَزَّ وَجَلَّ، فليس إيمانه توبة عن كفره، وإنما ندم على كفره.

(١) صحيح مسلم [١٢١].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ١٣٨).

(٣) المصدر السابق (١٧/٦٠)، وانظر: طرح التثريب في شرح التقريب (٨/٢٣٩-٢٤٠).

فإن قيل: فلو آمن ولم يندم على كفره؟ قلنا: ذلك عندنا غير ممكن، بل يجب مقارنة الإيمان الندم على الكفر.

ثم وزر الكفر ينحط بالإيمان والندم على الكفر إجماعًا، وهذا موضع قطع؛ وما عداه، من ضروب التوبة، فقبوله مظنون غير مقطوع به -كما ذكرناه-"[1].

١٠ - توبة العاصي:

وأما توبة المؤمن العاصي، فقيل: تقبل قطعًا، وقيل: ظنًّا، مع الاتفاق على قبولها شرعًا؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:٢٥].

قال الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المنقول عن السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: إن قبول التوبة عن الكفر مقطوع به تفضلًا، وفي القطع بقبول توبة العاصي قولان لأهل السنة، والمختار عند إمام الحرمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن تكفير التوبة للذنب مظنون، وادعى النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه الأصح. وفي (شرح البرهان): الصحيح عندنا القطع بالتكفير، وقال الحليمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يجب على الله عَزَّوَجَلَّ قبول التوبة، لكنه لما أخبر عن نفسه أنه يقبل التوبة عن عباده ولم يجز أن يخلف وعده علمنا أنه جَلَّوَعَلَا لا يرد التوبة الصحيحة فضلًا منه جَلَّوَعَلَا"[2].

وقال القاضي أبو محمد ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والعقيدة: أنه لا يجب على الله عَزَّوَجَلَّ شيء عقلًا، لكن إخباره جَلَّوَعَلَا عن أشياء أوجبها على نفسه يقتضي وجوب تلك

---

(١) الإرشاد الى قواطع الأدلة (ص:٤٢٧-٤٢٨).

(٢) روح المعاني (٣٥٢/٦)، المنهاج في شعب الإيمان، لأبي عبد الله الحَلِيمي (١٣٣/٣)، وانظر: تشنيف المسامع بجمع الجوامع (٩٥٠/٤)، الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (٧٦/١).

الأشياء سمعًا، فمن ذلك: تخليد الكفار في النار، ومن ذلك قبول إيمان الكافر. والتوبة لا يجب قبولها على الله عَزَّوَجَلَّ عقلًا، فأما السمع فظاهره قبول توبة التائب. قال أبو المعالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره: فهذه الظواهر إنما تعطي غلبة ظن، لا قطعًا على الله عَزَّوَجَلَّ بقبول التوبة. قال القاضي أبو محمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد خولف أبو المعالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره في هذا المعنى، فإذا فرضنا رجلا قد تاب توبة نصوحا تامة الشروط، فقول أبي المعالي يغلب على الظن قبول توبته، وقال غيره: يقطع على الله عَزَّوَجَلَّ بقبول توبته، كما أخبر عن نفسه جَلَّوَعَلَا.

قال القاضي أبو محمد: وكان أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عليه يميل إلى هذا القول ويرجحه، وبه أقول، والله جَلَّوَعَلَا أرحم بعباده من أن ينخرم في هذا التائب المفروض معنى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:٢٥]، وقوله: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ [طه:٨٢]. والسُّوءَ في هذه الآية [١]، يعم الكفر والمعاصي"[٢].

قال أبو القاسم القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التائب من الذنب على يقين، ومن قبول التوبة على خطر فينبغي أن يكون دائم الحذر"[٣].

وقال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن الذنوب إما كفر، وإما غيره، فتوبة الكافر عند موته مقطوع بعدم قبولها، وما عداها فمقبولة إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ، بوعده الصدق،

(١) يعني: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ﴾ [النساء:١٧].

(٢) المحرر الوجيز (٢/٢٤).

(٣) الرسالة القشيرية (١/٢١٣)، وانظر: طرح التثريب في شرح التقريب (٨/٢٤٠).

وقوله الحق. وأعني بالقبول: الخلاص من ضرر الذنوب، حتى يرجع كمن لم يعمل ذنبًا، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»(١)..."(٢). وقد تقدم قوله.

١١ – توبة القاتل:

جاء في الحديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن نبي الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةً وتسعين نفسًا، فسأل عن أَعْلم أهل الأرض، فدُلَّ على راهبٍ، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمَّل به مائة، ثم سأل عن أَعْلم أهل الأرض، فدُلَّ على رجلٍ عالم، فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن بها أناسًا يعبدون الله** عَزَّ وَجَلَّ، **فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نَصَفَ الطريقَ**(٣) **أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمة، وملاكة العذاب. فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله** عَزَّ وَجَلَّ، **وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قَطُّ، فأتاهم مَلَكٌ في صورة آدميٍّ فجعلوه بينهم** [أي: حكمًا]، **فقال: قيسوا ما بين**

---

(١) تقدم.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧١/٧)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (١٠٣/١١).

(٣) أي: بلغ نصفه.

الأرضين، فإلى أيتهِما كان أدنى فهو له، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة»، والحديث متفق عليه [1].

وفي رواية في (الصحيح): «**فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر، فجعل من أهلها**».

وفي رواية في (الصحيح): «**فأوحى الله إلى هذه أن تَقَرَّبِي، وأوحى الله إلى هذه أن تَبَاعَدِي، وقال: قيسوا ما بينهما، فوجد إلى هذه أقرب بِشِبْرٍ، فَغُفِرَ له**».

وفي رواية: «**فنأى**» أو «**فناء بصدره نحوها**».

و«**نأى بصدره**» أي: نهض به مع ثقل ما أصابه من الموت، وذلك دليل على صحة توبته وصدق رغبته [2].

وقوله: «**فناء**» على وزن: (قال) بمعنى: نهض بجهد ومشقة، أو على وزن (رمى) بمعنى: بَعُد. وقد روي في (المصابيح) بهما، والأول أوجه. وقيل: هما بمعنًى، كقولهم: رأى وراء، كذا قال التُّورِبِشْتِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ [3].

---

(١) صحيح البخاري [٣٤٧٠]، مسلم [٢٧٦٦].

(٢) انظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٩١). وقيل: قوله فناء بصدره مدرج، والدليل عليه أنه قال في آخر الحديث: قال قتادة: قال الحسن: ذكر لنا أنه لما أتاه الموت ناء بصدره. انظر: عمدة القاري (١٦/٥٦)، فتح الباري، لابن حجر (٦/٥١٧)، نجاح القاري (ص:١٢٨٨٣).

(٣) انظر: الميسر في شرح مصابيح السنة، للتُّورِبِشْتِي (٢/٥٤١)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٦/١٨٤٠)، لمعات التنقيح (٥/١٥١).

والمراد من الحديث: "أنه لما صدق في التوبة اجتهد في القرب إلى أهل الخير، فأعين على اجتهاده بالوحي إلى الأرض الصالحة: «**أن تقربي**»، وإلى الخبيثة: «**أن تباعدي**»، وهذا من جنس قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]"(١).

قال شمس الدين الكرماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن قلت حقوق الآدميين لا تسقط بالتوبة، بل لا بد من الاسترضاء، قلت: إن الله عَزَّوَجَلَّ إذا قبل توبته أرضى خصمه"(٢).

وقال العلامة المظهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا تحريض للمذنبين على التوبة، ومَنْعُهم عن اليأس عن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، بل لا مرجع ولا مآب للمطيعين والعاصين إلا باب مولاهم الكريم؛ فإنه لا مولى سواه، ولا نصيرَ ولا مُخلِّصَ من العذاب سواه، ولا مجير سواه، ولا تظننَّ أن الله عَزَّوَجَلَّ إذا غفر له أضاع ما عليه من حقوق الآدميين، بل سيُرضي يومَ القيامة خصماءَه بفضله ورحمته"(٣).

وقال الحافظ في (الفتح): "وفي الحديث: مشروعية التوبة من جميع الكبائر، حتى من قتل الأنفس، ويحمل على أن الله عَزَّوَجَلَّ إذا قبل توبة القاتل تكفل برضا خصمه. وفيه: أن المفتي قد يجيب بالخطأ.."(٤).

---

(١) كشف المشكل (٣/١٥٩).

(٢) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (١٤/١٠١-١٠٢).

(٣) المفاتيح في شرح المصابيح (٣/١٧٦)، وانظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٦/١٨٤٠).

(٤) فتح الباري، لابن حجر (٦/٥١٧).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مذهب أهل السنة والجماعة: أنَّ التوبة تكفِّر القتل، كسائر الذُّنوب، وهو قول كافة السلف. وما روى عن بعضهم من خلاف ذلك فشديد في الزجر، وتورية في القول؛ لئلا يجترئ الناس على الدماء.

وقد اختلف في تأويل قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء:٩٣]. قيل: معناه: قتله مستحلًّا، أي: فيخلد؛ لاستحلاله القتل؛ لأنه يكفر بذلك. ويقوي هذا: أنها إنما نزلت في حقِّ مسلم ارتد عن الإسلام، وقتل مسلمًا. قيل: نزلت في هذا الرجل بعينه.

وقيل معناه: جزاؤه جهنم إن جازاه، فيكون الخلود: طول الإقامة، لا التأبيد"(١).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١]. وقد جاء في الحديث: عن عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف،**

(١) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/٢٦٩)، كشف المشكل (٢/ ٣٥٩).

فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له، ومن أصاب منها شيئًا من ذلك فستره الله، فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له» (١).

وقد تقرر في النصوص أنه لا يخلد في النَّار من مات موحدًا لله عَزَّوَجَلَّ، ولكن قد يعفي عنه فلا يدخل النار أصلًا، وقد لا يعفي عنه، بل يعذب كسائر العصاة الموحدين، ثم يخرج معهم إلى الجنة، ولا يلزم من كونه يستحق أن يجازى بعقوبة مخصوصة: أن يتحتم ذلك الجزاء -والله أعلم-، والله عَزَّوَجَلَّ حكيم عليم، لا يظلم أحدًا من الخلق مثقال ذرة.

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما قياسه إلى إحدى القريتين والحكم بذلك له بعد اختصام ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فيه فذلك -والله أعلم- علامة جعلها الله عَزَّوَجَلَّ لهم عند اختلافهم مع عدم معرفة حقيقة باطنه التي اطلع الله عَزَّوَجَلَّ عليها؛ لأنه عليم بذات الصدور، ولو تحققوا توبته لم يختلفوا ولا احتاجوا للمقايسة بالأرض، ألا ترى كيف قال: «**فأوحى الله إلى هذه الأرض أن تباعدى، وإلى هذه أن تقربى**»؛ إذ كان جَلَّوَعَلَا قد عَلِمَ ما لم تعلم الملائكة (٢).

وقد تعقبه القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المفهم) بقوله: "وهذه غفلة منه عن قول ملائكة الرحمة: جاء تائبًا مقبلًا بقلبه إلى الله عَزَّوَجَلَّ. وهذا نص في أن ملائكة الرحمة علمت ما في قلبه، فلو علمت ملائكة العذاب ما في قلبه لما تنازعوا؛ لأن الملائكة كلهم لا يخفى

---

(١) صحيح البخاري [١٨، ٣٨٩٢، ٦٨٠١، ٧٢١٣، ٧٤٦٨]، مسلم [١٧٠٩].

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/٢٦٩-٢٧٠).

عليهم أن التوبة إذا صحت في القلب، وعمل على مقتضاها بالجوارح بالقدر الممكن، مقبولة بفضل الله عَزَّوَجَلَّ، ووعده الصادق، والأحسن ما ذكرناه -إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ-، وإنما جعل الله عَزَّوَجَلَّ قرب تلك الأرض سببًا مرجحًا لحجَّة ملائكة الرحمة، ومصدقًا لصحة التوبة، وفيه دليل على أن أعمال الظاهر عنوان على الباطن.

وقوله: «**فأوحى الله إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقربي**». إنما كان ذلك لما حكم الحاكم بقياس الأرض. ويفهم منه: أن الرجل كان أقرب إلى الأرض التي خرج منها، فلو ترك الله عَزَّوَجَلَّ الأرض على حالها لقبضته ملائكة العذاب، لكن غمرته الألطاف الإلهية، وسبقت له العناية الأزلية، فقربت البعيد، وألانت الحديد. ويستفاد منه: أن الذنوب وإن عظمت، فعفو الله عَزَّوَجَلَّ أعظم منها، وأن من ألهم صدق التوبة فقد سلك به طريق اللطف والقربة"(١).

١٢ – توبة السارق:

إن السرقة الذنوب العظيمة التي حرَّمها الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ورتب عليها الحد في الدنيا، والعقوبة في الآخرة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٣٨﴾ [المائدة:٣٨].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٩١-٩٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لعن الله السارق، يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده**»[1].

ولا يخفى أن السرقة تتفاوت، ويختلف الحكم فيها باختلاف المقدار والأحوال، وللحدود الشرعية موانع تمنع من إقامتها، فليس كل سرقة يكون فيها القطع، كمن سرق في حال المجاعة والاضطرار، فهي شبهة تدرأ الحد، والحدود لم تشرع إلَّا لصيانة الضرورات الخمس: (الدِّين، والنَّفس، والنَّسب، والعقل، والمال)، وحماية هذه الحقوق الإنسانية كلها، كما هو مقرر في أصول التشريع الإسلامي.

وقد علم أن السارق في حال المجاعة مضطر إلى ما يحفظ به نفسه، وأن من الواجب على المسلمين إطعامه.

وقد رُوِيَ عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه لم يقم حد السرقة عام الرمادة؛ لأنه جعل من المجاعة العامة قرينة على الاضطرار، والاضطرار شبهة في السرقة تمنع الحد عن السارق، بل تبيح له السرقة في حدود الضرورة.

وقد ذكر الأئمة أن من أخذ من مال أبيه خفية ظنًّا منه أنه يباح له ذلك لا حد عليه.. إلى غير ذلك مما أفاض الفقهاء في بيانه.

والإسلام لا يقيم حد السرقة إلا بعد إقامة البينة القاطعة، والتثبت من وقوعها.

وقد ذكر الفقهاء شروطًا وضوابطَ لإقامة حدِّ السرقة تتناول: (السارق، والمسروق، والموضع المسروق منه، وكيفية السرقة).

---

(١) صحيح البخاري [٦٧٨٣، ٦٧٩٩]، مسلم [١٦٨٧].

فلا بد أن يستجمع السارق، والمسروق منه، والمال المسروق، وكيفية السرقة أوصافًا محددة ذكرها الفقهاء متى اختل وصف منها؛ انتفى القطع.

وقد بيت ذلك في كل من كتاب: (نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار)، وكتاب: (الإفساد في الأرض، صوره، وأسبابه، وسبل الوقاية منه).

أما توبة السارق فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾ [المائدة:٣٩].

وجاء في (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ)، باب: (توبة السارق): عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**قطع يد امرأة**»، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا: وكانت تأتي بعد ذلك، فأرفع حاجتها إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فتابت، وحسنت توبتها [(١)].

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، قال: بايعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ في رهط، فقال: «**أبايعكم على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فأخذ به في الدنيا فهو كفارة له وطهور، ومن ستره الله، فذلك إلى الله إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له**»، قال أبو عبد الله: إذا تاب السارق بعد ما قطع يده قبلت شهادته، وكل محدود كذلك إذا تاب قبلت شهادته [(٢)].

---

(١) صحيح البخاري [٦٨٠٠].

(٢) صحيح البخاري [٦٨٠١].

وتوبة السارق هي: أن يندم على ما مضى، ويُقْلِعَ فيما يستقبل، ويردَّ ما سرق إلى مَنْ يستحقُّه.

وقد اختلف إذا تاب قبل أن يصل إلى الحاكم، هل يسقط عنه القَطْع أو لا يسقط، كما اختلف في قبول شهادته.

فذهب الحنفية، والمالكية، والشافعية في أحد القولين، والحنابلة في إحدى الروايتين، وجماعة: إلى أن التوبة لا تسقط حد السرقة.

وذهب الشافعية -في أصح القولين- والحنابلة -في الرواية الأخرى- إلى أن التوبة تسقط حد السرقة.

وقد ذهب جمهور العلماء على أن توبة السارق -ولو جاء تائبًا قبل القدرة عليه- لا تسقط عنه القطع، وقد دلَّ على ذلك: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قطع يد المخزومية ولا شك أنها تائبة.

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا تاب السارق قبل أن يتلبس الحاكم بأخذه فتوبته ترفع عنه حكم القطع، قياسًا على توبة المحارب [1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد نص الله عَزَّوَجَلَّ على سقوط الحد عن المحاربين بالتوبة التي وقعت قبل القدرة عليهم مع عظيم جرمهم، وذلك تنبيه على سقوط ما دون الحراب بالتوبة الصحيحة بطريق الأولى.."[2].

(١) انظر: المحرر الوجيز (٢/١٩٠)، أحكام القرآن، لابن الفرس (٢/٤٢٣)، الجواهر الحسان (٢/٣٨٢).

(٢) انظر في ذلك: ما حرره العلامة ابن القيم في كتابه: (إعلام الموقعين عن رب العالمين) (٣/١٥-١٧).

وقال عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجماعة: يسقط بالتوبة قبل القدرة على السارق. وقاله بعض الشافعية وعزاه إلى الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قولًا، وتعلَّقوا بقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ﴾ [المائدة:٣٤]، وذلك استثناء من الوجوب، فوجب حمل جميع الحدود عليه. وقال علماؤنا: هذا بعينه هو دليلنا؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ لما ذكر حد المحارب قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ﴾ [المائدة:٣٤]، وعطف عليه حد السارق، وقال فيه: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِۗ﴾ [المائدة:٣٩]، فلو كان ظلمه في الحكم ما غاير الحكم بينهما.

قال القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ويا معشر الشافعية سبحان الله! أين الدقائق الفقهية، والحكم الشرعية، التي تستنبطونها من غوامض المسائل؟! ألم تروا إلى المحارب المستبد بنفسه، المعتدي بسلاحه، الذي يفتقر الإمام معه إلى الإيجاف بالخيل والرِّكاب كيف أسقط جزاءه بالتوبة؛ استنزالًا عن تلك الحالة، كما فعل بالكافر في مغفرة جميع ما سلف؛ استئلافًا على الإسلام؛ فأما السارق والزاني وهما في قبضة المسلمين، وتحت حكم الإمام، فما الذي يسقط عنهم حكم ما وجب عليهم؟ أو كيف يجوز أن يقال: يقاس على المحارب، وقد فرَّقت بينهما الحكمة والحالة! هذا ما لا يليق بمثلكم يا معشر المحققين. وإذا ثبت أن الحدَّ لا يسقط بالتوبة فالتوبة مقبولة والقطع كفارة له. ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: كما تاب عن السرقة تاب عن كل ذنب. وقيل: ﴿وَأَصْلَحَ﴾ أي: ترك المعصية بالكلية، فأما من ترك السرقة بالزنى أو التهود بالتنصر

فهذا ليس بتوبة، وتوبة الله عَزَّوَجَلَّ على العبد أن يوفقه للتوبة. وقيل: أن تقبل منه التوبة"(١).

وحيث إن المسألة قد قوي فيها الخلاف، فالأولى أن تدرأ الحدود بالشبهات.

وقد بينت السنة أنه إن عفي عنه قبل الرفع إلى الإمام، سقط القطع.

وقد جاء في الحديث: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن قريشًا أَهَمَّهُمْ شأنُ المرأة المخْزُومِيَّة التي سرقت، فقالوا: ومن يُكَلِّمُ فيها رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حِبُّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكلمه أسامة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ من حدود الله، ثم قام فَاخْتَطَبَ، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وَايْمُ الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**» (٢).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "ذهب جماعة العلماء إلى أن الحدَّ إذا بلغ الإمام أنه يجب عليه إقامته؛ لأنه قد تعلق بذلك حق لله عَزَّوَجَلَّ، ولا تجوز الشفاعة فيه؛ لإنكاره ذلك على أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذلك من أبلغ النهي"(٣)، ولحديث صفوان بن أمية أن رجلًا سرق بُرْدَةً فرفعه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأمر بقطعه فقال: يا رسول الله، قد تَجَاوَزْتُ عنه.

---

(١) أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي (٢/١١٥)، تفسير القرطبي (٦/١٧٤-١٧٥).

(٢) صحيح البخاري [٣٤٧٥، ٤٣٠٤، ٦٧٨٧، ٦٧٨٨]، مسلم [١٦٨٨].

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨/ ٤٠٨).

قال: «**فلولا كان هذا قبل أن تأتيني به يا أبا وهب**»، فقطعه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[(١)].

وفي رواية: عن صفوان بن أمية، قال: كنت نائمًا في المسجد عَلَيَّ خَمِيصَةٌ لِي ثَمَنُهَا ثَلَاثُون درهمًا، فجاء رجل فَاخْتَلَسَهَا مِنِّي، فَأُخِذَ الرَّجُلُ، فَأُتِيَ به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَ به لِيُقْطَع، قال: فَأَتَيْتُه، فقلت: أَتَقْطَعُه من أجل ثلاثين درهمًا، أنا أَبِيعُه وَأُنْسِئُه ثمنها؟ قال: «**فَهَلَّا كان هذا قبل أن تأتيني به**»[(٢)].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "ذكر مسلم رَحِمَهُ اللهُ في الباب الأحاديث في النهي عن الشفاعة في الحدود، وأن ذلك هو سبب هلاك بني إسرائيل، وقد أجمع العلماء على تحريم الشفاعة في الحد بعد بلوغه إلى الإمام لهذه الأحاديث. وعلى أنه يحرم التَّشْفِيع فيه، فأما قبل بلوغه إلى الإمام فقد أجاز الشفاعة فيه أكثر العلماء إذا لم يكن المشفوع فيه صاحب شَرٍّ وَأَذًى للناس، فإن كان لم يُشْفَعْ فيه. وأما المعاصي التي لا حَدَّ فيها وواجبها التعزير فتجوز الشفاعة والتشفيع فيها سواء بلغت الإمام أم لا؛ لأنها أهون، ثم الشفاعة فيها مستحبة إذا لم يكن المشفوع فيه صاحب أذى ونحوه"[(٣)].

---

(١) أخرجه أحمد [١٥٣٠٥]، والنسائي في (السنن) [٤٨٧٩]، وفي (الكبرى) [٧٣٢٤]، والطبراني [٧٣٣٧]، والضياء [٧]. وهو صحيح بالمتابعة.

(٢) أخرجه أبو داود [٤٣٩٤]، والنسائي في (السنن) [٤٨٨٣]، وفي (الكبرى) [٧٣٢٨]، وابن الجارود [٨٢٨]، والدارقطني [٣٤٦٥]، والحاكم [٨١٤٩]، والبيهقي [١٧٢١٨].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١١/١٨٦)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٦/٢٣٦٧).

وقال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي هذا الحديث: دليل على امتناع الشفاعة في الحدِّ بعد بلوغه السلطان، وفيه: تعظيم أمر المحاباة للأشراف في حقوق الله جَلَّ وَعَلَا"(١).

وقال أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قالوا: فقد دل هذا على أنه لو وهبه منه أو أبرأه من ذلك قبل أن يرفعه إلى الإمام سقط عنه القطع. واختلف الفقهاء في هذا فقال مالك والشافعي وأحمد بن حنبل رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: لا يسقط عنه القطع، وإن وهب منه المتاع أو باعه منه أو أبرأه.

وقال أبو حنيفة وأصحابه رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إذا رد السرقة إلى أهلها قبل أن يرفع إلى الإمام، ثم أتي به الإمام فشهد عليه الشهود لم يقطع.

وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا وهب له السرقة لم يقطع. وأحسبه لا يفرق بين ذلك كان قبل رفعه إلى الإمام أو بعده"(٢).

١٣ – توبة المحاربين وقطاع الطريق:

إن من أعظم صور (الإفساد في الأرض) المنكرة: قطع الطريق، وسلب الأموال، وانتهاك الأعراض، وإتلاف النفوس محرَّم، وعقوبة ذلك الإفساد منصوص عليها في القرآن الكريم، ومتوعد عليها بالعذاب في الآخرة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ

---

(١) إحكام الإحكام (٢/٢٤٨).

(٢) معالم السنن (٣/ ٣٠٧-٣٠٨).

عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة:٣٣-٣٤].

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمجرد إخافته السبيل هو مرتكبٌ الكبيرة، فكيف إذا أخذ المال؟! وكيف إذا جرح أو قتل أو فعل عدة كبائر؟! مع ما غالبهم عليه من ترك الصلاة، وإنفاق ما يأخذونه في الخمر والزنا؟!"(١).

وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا بيان من الله عز ذكره عن حكم (الفساد في الأرض)، الذي ذكره في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [المائدة:٣٢]. أعلم عباده: ما الذي يستحق المفسدُ في الأرض من العقوبة والنكال، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: لا جزاء له في الدنيا إلا القتلُ، والصلب، وقطعُ اليد والرِّجل من خلافٍ، أو النفي من الأرضِ، خزيًا لهم. وأما في الآخرة إن لم يتبْ في الدنيا، فعذاب عظيم"(٢).

(١) الكبائر، للذهبي (ص:٢٢٧)، بتحقيق: مشهور بن حسن.
(٢) المصدر السابق (١٠/٢٤٣).

و(الحرابة): البروز لأخذ مال أو لقتل أو لإرعاب على سبيل المجاهرة [1] مكابرة اعتمادًا على الشوكة [2]، مع البعد عن الغوث [3]، من كل مكلف ملتزم للأحكام، ولو كان ذميًّا أو مرتدًا [4].

وتسمى: قطع الطريق، والسرقة الكبرى.

ويدخل في التعريف: العبد، والمرأة، والسكران المتعدي بسكره؛ لأنهم جميعًا مكلفون.

ويدخل في ذلك أيضًا: الواحد والجماعة، إذا تحققت بهم بقية الصفات.

---

(١) يسمى: الأخذ على سبيل المجاهرة مغالبة أو نهبة، أو خلسة، أو غصبًا، أو انتهابًا واختلاسًا لا سرقة؛ لأن ركن السرقة الأخذ على سبيل الاستخفاء. انظر: بدائع الصنائع، للكاساني (٧/٦٥)، والإغارة في باب السرقة غير لائقة؛ لأن السرقة أخذ مال في خفاء وحيلة فلذلك سمى السارق به؛ لأنه يسارق عين المسروق منه، أو عين أعوانه على الحفظ، والإغارة أخذ في المجاهرة مكابرة ومغالبة. انظر: المبسوط (٩/١٣٣)، وانظر: البناية شرح الهداية (٧/٤٣)، العناية (٥/٣٨٧)، البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٥/٥٤).

(٢) خرج بقيد: (اعتمادًا على الشوكة): ما لو كان الاعتماد على المغافلة والهرب، أو على ضعف المجني عليه، فلا يسمي ذلك في الاصطلاح الشرعي حرابة، وإنما هو من قبيل النهبة ونحوها، وله حكمه الخاص به.

(٣) خرج بقيد: (البعد عن مسافة الغوث) وهي المسافة القريبة من المدينة أو القرية، بحيث لو استغاث الإنسان منها لبلغ صوته أهلها: ما لو كانت المسافة داخلة في حدود الغوث، فلا يسمي العدوان حينئذ حرابة.

(٤) خرج بقيد: (ملتزم للأحكام): الكافر الحربي، فهو وإن قتل وأخذ المال، لا يدخل في هذا الباب، وإنما هو كافر حربي مهدر الدم على كل حال، فإن دخل في الإسلام لم يؤاخذ بجناية جناها من قبل؛ لأن الإسلام يجب ما قبله.

ويطلق على أرباب هذا الشأن: قطاع الطريق، وسموا بذلك؛ لأن الناس يمتنعون من سلوك الطريق التي يكون بها هؤلاء، فكأنهم قد قطعوها حقيقة [1].

ويفرق بينها وبين السرقة بأن الحرابة هي البروز لأخذ مال أو لقتل أو إرعاب مكابرة اعتمادًا على الشوكة مع البعد عن الغوث، أما السرقة فهي أخذ المال خفية. فالحرابة تكتمل بالخروج على سبيل المغالبة وإن لم يؤخذ مال، أما السرقة فلا بد فيها من أخذ المال على وجه الخفية [2].

والحرابة مأخوذة من حارب يحارب محاربة وحرابة.

وعبر الحنفية والشافعية والحنابلة عن الحرابة: بقطع الطريق، وقالوا: إنه الخروج على المارة لأخذ المال على سبيل المغالبة، على وجه يمنع المارة من المرور، فينقطع الطريق، سواء أكان القطع من جماعة أم واحد، بعد أن يكون له قوة القطع، وسواء أكان القطع بسلاح أم بغيره من العصا والحجر ونحو ذلك. وتسمى الحرابة بالسرقة الكبرى.

---

(١) انظر: الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي (٨٢/٨-٨٣).

(٢) انظر: أسنى المطالب في شرح روض الطالب (١٥٤/٤)، الغرر البهية (١٠١/٥)، فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب (١٩٩/٢)، الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (٥٤١/٢)، مغني المحتاج (٤٩٨/٥)، غاية البيان شرح زبد ابن رسلان (ص:٣٠٢)، نهاية المحتاج (٣/٨)، حاشيتا قليوبي وعميرة (٢٠٠/٤)، فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب (١٥٢/٥)، حاشية البجيرمي على الخطيب (٢١١/٤-٢١٢)، إعانة الطالبين (١٨٦/٤)، السراج الوهاج على متن المنهاج (ص:٥٣١).

أما كونها سرقة؛ فباعتبار أن قاطع الطريق يأخذ المال خفية عن عين الإمام الذي عليه حفظ الأمن. وأما كونها كبرى؛ فلأن ضرره يعم، حيث يقطع الطريق على الجماعة بزوال الأمن[1]. فالسرقة التي عقوبتها الحد نوعان:

الأول: سرقة صغرى: وهي التي يجب فيها قطع اليد.

الثاني: سرقة كبرى: وهي أخذ المال على سبيل المغالبة.

ويسمى: الحرابة.

والفرق بين الحرابة والبغي هو أن البغي يستلزم وجود تأويل، أما الحرابة فالغرض منها: الإفساد في الأرض.

ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء في ذهابهم إلى أن المحاربة في الأمصار وفي السبلان على السواء؛ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾. وهذا مذهب مالك، والأوزاعي، والليث بن سعد، والشافعي، أحمد بن حنبل رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، حتى قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ -في الذي يغتال الرجل فيخدعه حتى يدخله بيتا فيقتله، ويأخذ ما معه-: إن هذا محاربة، ودمه إلى السلطان، لا إلى ولي المقتول، ولا اعتبار بعفوه عنه في إنفاذ القتل.

---

(١) انظر: بدائع الصنائع (٧/٩٠)، حاشية الشلبي على تبيين الحقائق (٣/٢٣٥)، البناية شرح الهداية (٧/٨٠)، مواهب الجليل (٦/٩١٤)، الشرح الصغير (٤/٤٩١).

وقال أبو حنيفة وأصحابه رَحِمَهُمُ اللَّهُ: لا تكون المحاربة إلا في الطرقات، فأما في الأمصار فلا؛ لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث، بخلاف الطريق؛ لبعده ممن يغيثه ويعينه -والله أعلم-"(١).

قال ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾، يعني: شرٌّ وعار وذلةٌ، ونكال وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾، أي: إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا في الآخرة، مع الخزي الذي جازيتهم به في الدنيا، والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها. ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾، يعني: عذاب جهنم(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٩٩). قال شمس الأئمة السرخسي: "لو كابر إنسانًا ليلًا حتى سرق متاعه ليلًا فعليه القطع؛ لأن سرقته قد تمت حين كابره ليلًا؛ فإن الغوث بالليل قل ما يلحق صاحب البيت، وهو عاجز عن دفعه بنفسه، فيكون تمكنه من ذلك بالناس والسارق قد استخفى فعله من الناس بخلاف ما إذا كابره في المصر نهارًا حتى أخذ منه مالًا فإنه لا يلزمه القطع استحسانًا؛ لأن الغوث في المصر بالنهار يلحقه عادة، فالآخذ مجاهر بفعله غير مستخف له، وذلك يمكن نقصانًا في السرقة". المبسوط (٩/١٥١). فمن شروط الحرابة: المجاهرة بأن يأخذوا المال جهرًا، فإن أخذوه مختفين فهم سراق، وإن اختطفوه وهربوا، فهم منتهبون، لا قطع عليهم، وكذلك إن خرج الواحد والاثنان على آخر قافلة، فسلبوا منها شيئًا؛ لأنه لا يرجعون إلى منعة وقوة، وإن خرجوا على عدد يسير فقهروهم، فهم قطاع طريق. وهذا مذهب الحنفية والشافعية والحنابلة. وخالف في ذلك المالكية والظاهرية. قال ابن العربي المالكي: والذي نختاره أن الحرابة عامة في المصر والقفر، وإن كان بعضها أفحش من بعض، ولكن اسم الحرابة يتناولها، ومعنى الحرابة موجود فيها. انظر: المغني، لابن قدامة (٩/١٤٥)، تحفة المحتاج (٩/٢٣٣)، الشرح الكبير على متن المقنع (١٠/٣٠٤)، الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل (٤/٢٨٧)، كشاف القناع عن متن الإقناع (٦/١٥٠)، أحكام القرآن، للقاضي أبي بكر بن العربي (٢/٩٥)، فقه السنة (٢/٤٦٨- ٤٦٩).

(٢) تفسير الطبري (١٠/٢٧٦-٢٧٧)، تفسير ابن كثير (٣/١٠١).

قال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معنى يحاربون الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يعصونهما ولا يطيعونهما. كل من عصاك فهو محارب لك. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾، أي: بالقتل والسرقة وأخذ الأموال، فكل من أخذ السلاح على المسلمين فهو محارب لله ورسوله، وإن كان في بلد كالمكابر في البلاد [(١)]، وهذا قول مالك، والأوزاعي، ومذهب الشافعي رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ"[(٢)].

وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في الآية: من شهر السلاح في فئة الإسلام، وأخاف السبيل، ثم ظفر به وقدر عليه، فإمام المسلمين فيه بالخيار إن شاء قتله وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله[(٣)]، وكذا قال سعيد بن المسيب ومجاهد والضحاك رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، ومستند هذا القول أن ظاهر (أو) للتخيير كما في نظائر ذلك في القرآن، كقوله في كفارة الفدية: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦]، وكقوله في كفارة اليمين: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة:٨٩]. وهذه كلها على التخيير، فكذلك فلتكن هذه الآية.

وقال الجمهور: هذه الآية منزلة على أحوال، كما قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا في قطاع الطريق:

---

(١) تأخذ المكابرة حكم الحرابة باعتبارها وصفًا من أوصاف الحرابة.

(٢) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (١٨١/٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٦٣/١٠)، تفسير ابن كثير (١٠٠/٣)، الناسخ والمنسوخ، لأبي جعفر النحاس (ص:٣٩٢). قال السيوطي: "أخرجه: ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في (ناسخه) عن ابن عباس" الدر المنثور (٦٨/٣).

أ. إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا.

ب. وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا.

ج. وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف.

د. وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض. وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة. واختلفوا، هل يصلب حيًّا ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب، أو يقتله برمح أو نحوه، أو يقتل أوَّلًا ثم يصلب، تنكيلًا وتشديدًا لغيره من المفسدين؟ في ذلك كله خلاف محرر في موضعه، وبالله عَزَّوَجَلَّ الثقة، وعليه التكلان. وأما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ﴾ فقد قال بعضهم: هو أن يطلب حتى يقدر عليه فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام[1].

وقال آخرون: هو أن ينفى من بلده إلى بلد آخر، أو يخرجه السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية.

وقال عطاء الخراساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ينفى من جند إلى جند سنين ولا يخرج من دار الإسلام، وكذا قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ: إنه ينفى ولا يخرج من أرض الإسلام. وقال آخرون: المراد بالنفي ههنا السجن، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، واختار ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن المراد بالنفي ههنا: أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه[2]. وقد بسط الفقهاء الأحكام ذات الصلة في مصنفاتهم.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/٢٦٨).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/١٠٠-١٠١).

ويسقط حد الحرابة عن المحاربين بالتوبة قبل القدرة عليهم، وذلك في شأن ما وجب عليهم حقًّا لله جَلَّ وَعَلَا، وهو تحتم القتل، والصلب، والقطع من خلاف، والنفي، وهذا محل اتفاق بين أصحاب المذاهب الأربعة.

واستدلوا بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ﴾، فالله عَزَّوَجَلَّ قد أوجب عليهم الحد، ثم استثنى التائبين قبل القدرة عليهم.

أما حقوق الآدميين فلا تسقط بالتوبة. فيغرمون ما أخذوه من المال عند الجمهور. قالوا: فأما المسلم إذا حارب المسلمين أو المعاهدين، وأتى بعض ما يجب عليه العقوبة، فلن تضع توبته عنه عقوبة ذنبه، بل توبته فيما بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى الإمام إقامة الحد الذي أوجبه الله عَزَّوَجَلَّ عليه، وأخذه بحقوق الناس [(١)].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أما القصاص وحقوق الآدميين فلا تسقط"[(٢)].

وقال شيخ الإسلام أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ﴾ استثناء مخصوص بما هو من حقوق الله عَزَّوَجَلَّ، كما ينبيء عنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٤﴾. أما ما هو من من حقوق العباد- كحقوق الأولياء من القصاص ونحوه- فيسقط بالتوبة وجوبه على الإمام من حيث كونه حدًّا، ولا يسقط جوازه بالنظر إلى الأولياء من حيث كونه قصاصًا؛ فإنهم إن شاءوا عفوا، وإن أحبوا استوفوا"[(٣)].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (١٠/٢٧٧).

(٢) تفسير القرطبي (٦/١٥٨).

(٣) تفسير أبي السعود (٣/٣٢)، روح المعاني (٣/٢٩٠).

ويرى ابن جرير وابن كثير رَحِمَهُمَاٱللَّهُ أن توبة المحاربين قبل القدرة عليهم تسقط عنهم جميع الحدود.

قال ابن جرير رَحِمَهُٱللَّهُ: "وأولى هذه الأقوال في ذلك بالصواب عندي، قولُ من قال: توبة المحارب الممتنع بنفسه أو بجماعة معه قبل القُدرة عليه، تضع عنه تَبِعات الدنيا التي كانت لزمته في أيام حربه وحِرَابته، من حدود الله عَزَّوَجَلَّ، وغُرْم لازم، وقَوَدٍ وقصاص، إلا ما كان قائمًا في يده من أموال المسلمين والمعاهدين بعينه، فيردّ على أهله؛ لإجماع الجميع على أن ذلك حكم الجماعة الممتنعة، المحاربة لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، الساعيةِ في الأرض فسادًا على وجه الردة عن الإسلام. فكذلك حكم كل ممتنع سَعَى في الأرض فسادًا، جماعةً كانوا أو واحدًا"(١).

وقال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ﴾ أما على قول من قال: إنها في أهل الشرك فظاهر، أي: إذا آمنوا قبل القدرة عليهم سقطت عنهم جميع الحدود المذكورة-: وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم فإنه يسقط عنهم انْحِتَامُ القتل والصلب وقطع الرِّجْلِ.

وهل يسقط قطع اليد؟ فيه قولان للعلماء. وظاهر الآية يقتضي سقوط الجميع، وعليه عمل الصحابة رَضِوَٱللَّهُعَنْهُمْ"(٢).

---

(١) تفسير الطبري (١٠/٢٨٧-٢٨٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/١٠٢).

١٤ - التوبة الباطنة والظاهرة:

صرح بعض فقهاء الشافعية والحنابلة أن التوبة نوعان: توبة في الباطن، وتوبة في الظاهر.

فأما التوبة في الباطن: فهي ما بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ، فينظر في المعصية، فإن لم تتعلق بها مظلمة لآدمي، ولا حد لله جَلَّوَعَلَا، كالاستمتاع بالأجنبية فيما دون الفرج، فالتوبة منها: أن يقلع عنها، ويندم على فعل ما فعل، ويعزم على أن لا يعود إلى مثلها. والدليل على ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران:١٣٥-١٣٦].

وإن تعلق بها حق آدمي، فالتوبة منها: أن يقلع عنها، ويندم على ما فعل، ويعزم على أن لا يعود إلى مثلها، وأن يبرأ من حقِّ الآدمي، إما بأن يؤديه، أو يسأله حتى يبرئه منه.

وإن لم يقدر على صاحب الحق نوى أنه إن قدر أوفاه حقه.

وإن تعلق بالمعصية حد لله عَزَّوَجَلَّ، كحد: الزنى، والشرب، فإن لم يظهر ذلك، فالأولى أن يستره على نفسه؛ لقوله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**من أصاب من هذه القاذورات شيئًا فليستتر بستر الله؛ فإن من أبدى لنا صفحته أقمنا عليه حد الله**». وإن أظهره لم يأثم؛ لأن ماعزًا والغامدية اعترفا عند رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالزنا، فرجمهما، ولم ينكر عليهما.

وأما التوبة في الظاهر -وهي: التي تعود بها العدالة، والولاية، وقبول الشهادة- فإن كانت المعصية فعلًا كالزنى، والسرقة، لم يحكم بصحة التوبة عند الشافعية حتى يصلح عمله مدة؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾ [آل عمران:٨٩]، وقدروها بسنة أو ستة أشهر، أو حتى ظهور علامات الصلاح على اختلاف أقوالهم، خلافا لجمهور الفقهاء؛ فإنهم لم يشترطوا إصلاح العمل بعد التوبة، وإن كانت المعصية بالقول، فإن كانت ردة فالتوبة منها: أن يظهر الشهادتين، وإن كانت المعصية قذفًا، أو شهادة زور فلا بدَّ من إكذاب نفسه، والتوبة واجبة على الفور من الغصب، وهي لا تحصل إلا برد المغصوب.. إلى غير ذلك مما هو مفصل في مظانه من كتب الفقه[1].

وإن كانت توجب عليه حقًّا لله عَزَّوَجَلَّ، أو لآدمي؛ كمنع الزكاة والغصب، فالتوبة منه بما ذكرنا، وترك المظلمة حسب إمكانه، بأن يؤدي الزكاة، ويرد المغصوب، أو مثله إن كان مثليًا، وإلا قيمته. وإن عجز عن ذلك، نوى رده متى قدر عليه.

فإن كان عليه فيها حق في البدن، فإن كان حقًّا لآدمي، كالقصاص، وحد القذف، اشترط في التوبة: التمكن من نفسه، وبذلها للمستحق، وإن كان حقا لله عَزَّوَجَلَّ، كحد الزنى، وشرب الخمر، فتوبته أيضًا بالندم، والعزم على ترك العود، ولا

(١) المهذب في فقه الإمام الشافعي، لأبي إسحاق الشيرازي (٣/٤٤٨-٤٤٩)، وانظر: المجموع شرح المهذب (٢٠/٢٣٦-٢٣٧)، الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، لأبي الحسن الماوردي (١٧/٣١-٣٢)، البيان في مذهب الإمام الشافعي، لأبي الحسين العمراني (١٣/٣١٨-٣١٩)، المغني، لابن قدامة (١٠/١٨٠-١٨١)، الشرح الكبير على متن المقنع (١٢/٥٨)، (١٢/٦٤)، شرح الزركشي على مختصر الخرقي (٧/٣٥٦-٣٥٧).

يشترط الإقرار به، فإن كان ذلك لم يشتهر عنه، فالأولى له ستر نفسه. والتوبة فيما بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**اجتنبوا هذه القاذورة**[1] **التي نهى الله عنها، فمن ألم فليستتر بستر الله، وليتب إلى الله، فإنه من يُبْدِ لَنَا صفحته نقم عليه كتاب الله** عَزَّوَجَلَّ»[2].

فإن الغامدية حين أقرت بالزنى، لم ينكر عليها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ذلك[3]. وإن كانت معصية مشهورة، فذكر القاضي أن الأولى الإقرار به، ليقام عليه الحد؛ لأنه إذا كان مشهورًا، فلا فائدة في ترك إقامة الحد عليه. والصحيح أن ترك الإقرار أولى؛ لأن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عرض للمقر عنده بالرجوع عن الإقرار؛ فعرض لماعز، وللمقر عنده بالسرقة بالرجوع، مع اشتهاره عنه بإقراره، وكره الإقرار، حتى إنه قيل: لما قطع السارق: كأنما أُسِفَّ وجهه رمادًا[4].

---

(١) «القاذورة» هي: الفاحشة، يعني: الزنا؛ لأن حقها أن تتقذر، فوصفت بما يوصف به صاحبها. الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشري (١٦٩/٣)، وانظر: الكليات (ص:٧٠٢).

(٢) أخرجه الحاكم [٧٦١٥]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. قال العراقي (ص:١٠٣٠): "إسناده حسن". وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٧٦٠١].

(٣) حديث الغامدية أخرجه مسلم في (صحيحه) [١٦٩٥].

(٤) جاء في الحديث: أن أول رجل قطع في الإسلام -أو من المسلمين- رجل أتي به النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقيل: يا رسول الله، إن هذا سرق، فكأنما أُسِفَّ وَجْهُ رَسُولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رمادًا، فقال بعضهم: يا رسول الله، أي يقول: ما لك؟ فقال: «وما يمنعني؟ وأنتم أعوان الشيطان على صاحبكم، والله عَزَّوَجَلَّ عَفُوٌّ يُحِبُّ الْعَفْوَ، ولا ينبغي لوالي أمر أن يؤتى بِحَدٍّ إلا أقامه»، ثم قرأ: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ [النور:٢٢]، قال يحيى: أملاه علينا سفيان، إملاء. والحديث=

ولم يرد الأمر بالإقرار، ولا الحث عليه في كتاب ولا سنة، ولا يصح له قياس، إنما ورد الشرع بالستر، والاستتار، والتعريض للمقر بالرجوع عن الإقرار. وقال لهزال، وكان هو الذي أمر ماعزًا بالإقرار: «**يا هَزَّالُ، لو سترته بثوبك، كان خيرًا لك**» (١).

=أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) [١٣٥١٩]، وأحمد [٣٩٧٧]، واللفظ له، وأبو يعلى [٥١٥٥]، والخرائطي في (مكارم الأخلاق) [٤٤٤]، والشاشي [٧٨١]، والطبراني [٨٥٧٢]، والحاكم [٨١٥٥]، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه" وسكت عنه الذهبي في (التلخيص). كما أخرجه البيهقي في (الكبرى) [١٧٦١٢]. قال الهيثمي (٦/٢٤٧): "رجاله ثقات، إلا أن أبا عبيدة لم يسمع من أبيه". وقال في (٦/٢٧٥): "رواه كله أحمد، وأبو يعلى باختصار المرأة، وأبو ماجد الحنفي ضعيف".

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٦٤٨]، وأحمد [٢١٨٩٢]، وأبو داود [٤٣٧٧]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٢٣٩٣]، والنسائي في (الكبرى) [٧٢٣٤]، والطبراني [٥٣٠، ٥٣١]، والحاكم [٨٠٨٠]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (الكبرى) [١٦٩٥٨]، وفي (شعب الإيمان) [٩٢٠٨]. قال الحافظ العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:٦٦٠): "رواه أبو داود، والنسائي من حديث: نعيم بن الهزال، والحاكم من حديث: هزال نفسه، وقال: "صحيح الإسناد" و(نعيم) مختلف في صحبته". قال الحافظ المنذري: "و(نعيم) هو ابن هزال وقيل: لا صحبة له، وإنما الصحبة لأبيه هزال. وسبب قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهزال: «لو سترته بثوبك»: ما رواه أبو داود وغيره عن محمد بن المنكدر أن هزالًا أمر ماعزًا أن يأتي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وروى في موضع آخر: عن يزيد بن نعيم بن هزال عن أبيه، قال: كان ماعز بن مالك يتيمًا في حجر أبي، فأصاب جارية من الحي، فقال له أبي: ائت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره بما صنعت؛ لعله يستغفر لك، وذكر الحديث في قصة رجمه، واسم المرأة التي وقع عليها ماعز: فاطمة. وقيل غير ذلك، وكانت أمة لهزال" الترغيب والترهيب [٣٥٢٤].

وقال أصحاب الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: توبة هذا إقراره؛ ليقام عليه الحد، وليس بصحيح؛ لما ذكرنا، ولأن التوبة توجد حقيقتها بدون الإقرار، وهي تجب ما قبلها، كما ورد في الأخبار، مع ما دلت عليه الآيات في مغفرة الذنوب بالاستغفار، وترك الإصرار. وأما البدعة، فالتوبة منها بالاعتراف بها، والرجوع عنها، واعتقاد ضد ما كان يعتقد منها [1].

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اجتنبوا هذه القاذورة التي نهى الله عنها، فمن ألم فليستتر بستر الله، وليتب إلى الله** عَزَّ وَجَلَّ» الحديث: "وفي هذا الحديث من الفقه: أن ستر المسلم على نفسه ما وقع فيه من الكبائر الموجبة للحدود، والتوبة منها، والندم عليها، والإقلاع عنها أولى به من الإقرار بذلك على نفسه. ألا ترى أن أبا بكر أشار بذلك على الرجل الذي اعترف عنده بالزنى، وكذلك فعل عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. وهو ماعز الأسلمي. لا خلاف في ذلك بين أهل العلم وذلك مشهور في الآثار.

وكذلك إعراض رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنه حين أقر على نفسه بالزنى حتى أكثر عليه كان -والله أعلم- رجاء ألا يتمادى في الإقرار، وأن ينتبه ويرعوي، ثم ينصرف فيعقد التوبة مما وقع فيه"[2].

"ويدل الحديث على أن ارتكاب المعصية مع سترها أهون وأخف من المجاهرة بها؛ لأن المعصية مع الستر تقبل العفو الإلهي، أما مع المجاهرة فإنه لا يعفى عنها،

---

(١) المغني، لابن قدامة (١٠/١٨١-١٨٢).

(٢) الاستذكار (٧/٤٦٦).

لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلا المجاهرون**»؛ وذلك لأن المجاهرة وقاحة، وجرأة، وانتهاك لحدود الله عَزَّ وَجَلَّ، واستخفاف بالشريعة"(١).

وفي (سبل السلام): "وفي الحديث دليل على أنه يجب على من ألم بمعصية أن يستتر ولا يفضح نفسه بالإقرار، ويبادر إلى التوبة، فإن أبدى صفحته للإمام -والمراد بها هنا حقيقة أمره- وجب على الإمام إقامة الحد.

وقد أخرج أبو داود رَحِمَهُ اللَّهُ مرفوعًا: «**تَعَافُّوا الْحُدُودَ فيما بينكم، فما بَلَغَنِي من حَدٍّ فقد وَجَبَ**»"(٢).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفي المجاهرة بالمعاصي استخفاف بحق الله عَزَّ وَجَلَّ، وحق رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وضرب من العناد لهما؛ فلذلك قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**كلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلا المجاهرون**» (٣).

---

(١) منار القاري (٥/٢٥٢).

(٢) سبل السلام (٢/٤٢٣). والحديث أخرجه عبد الرزاق [١٨٩٣٧]، وأبو داود [٤٣٧٦]، والنسائي في (السنن) [٤٨٨٥]، وفي (الكبرى) [٧٣٣١]، والطبراني في (الأوسط) [٦٢١٢]، والدارقطني [٣١٩٦]، والحاكم [٨١٥٦]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٧٦١١]، قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) (١٢/٨٧): "صححه الحاكم، وسنده إلى عمرو بن شعيب صحيح".

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٩/٢٦٣). قوله: «إلا المجاهرين» كذا للأكثر بالنصب، وفي رواية مسلم: «المجاهرين» -بالنصب-، ويجوز الرفع فيه على مذهب الكوفيين، وتكون (إلَّا) في هذه الحالة بمعنى: (لكن) كما قال ابن مالك. قال الحافظ: والمعنى، لكن المجاهرون بالمعاصي لا يعافون، والمجاهر الفاسق المعلن بفسقه الذي يأتي بالفاحشة ثم يشيعها بين الناس تفاخرًا وتهورًا ووقاحة. منار القاري=

"وفي الستر بها السلامة من الاستخفاف؛ لأن المعاصي فاعلها، من إقامة الحد عليه إن كان فيه حد، ومن التعزير إن لم يوجب حدًّا. وإذا تَمَحَّضَ حَقُّ الله عَزَّوَجَلَّ فهو أكرم الأكرمين، ورحمته سبقت غضبه؛ فلذلك إذا ستره في الدنيا لم يفضحه في الآخرة، والذي يجاهر يفوته جميع ذلك"(١).

ثامنًا: إجمال ذكر فرائض التوبة، وآدابها، ومراتبها، والبواعث عليها:

وقد أجمل ذلك: أبو القاسم ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التسهيل)، حيث قال: "التوبة واجبة على كل مؤمن مكلف، بدليل: الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة.

وفرائضها ثلاثة:

١ - الندم على الذنب من حيث عصي به ذو الجلال، لا من حيث أضر ببدن أو مال.

٢ - والإقلاع عن الذنب في أول أوقات الإمكان من غير تأخير ولا توان.

٣ - والعزم أن لا يعود إليها أبدًا، ومهما قضى عليه بالعود أحدث عزمًا مجدَّدًا.

وآدابها ثلاثة:

١ - الاعتراف بالذنب مقرونا بالانكسار.

٢ - والإكثار من التضرع والاستغفار.

=(٢٥١/٥)، انظر: فتح الباري (٤٨٦/١٠-٤٨٧)، عمدة القاري (١٧٣/١٠)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٢٠٣٤/٦)، مرقاة المفاتيح (٣٠٣٤/٧).

(١) فتح الباري، لابن حجر (٤٨٧/١٠)، وانظر: دليل الفالحين (٣٤/٣).

٣ – والإكثار من الحسنات لمحو ما تقدم من السيئات.

ومراتبها سبع:

١ – فتوبة الكفار من الكفر.

٢ – وتوبة المخلطين من الذنوب الكبائر (١).

٣ – وتوبة العدول من الصغائر.

٤ – وتوبة العابدين من الفترات.

٥ – وتوبة السالكين من علل القلوب والآفات.

٦ – وتوبة أهل الورع من الشبهات.

٧ – وتوبة أهل المشاهدة من الغفلات.

والبواعث على التوبة سبعة:

١ – خوف العقاب.

٢ – ورجاء الثواب.

---

(١) قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة:١٠٢]. قال ابن كثير: "هذه الآية، وإن كانت نزلت في أناس معينين، إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين" تفسير ابن كثير (٤/٢٠٦). وقد نبه غير واحد على أن المخلط ينبغي أن يكون على حذر ووجل؛ ف: «إنما الأعمال بالخواتيم» صحيح البخاري [٦٦٠٧]. قال القاضي أبو محمد ابن عطية: "أما المخلط فينبغي أن يكون أبدًا تحت خوف من أن يكون ينفذ عليه الوعيد بتخليطه. وأما التقي والتائب فخوفه أمر الخاتمة وما يطلع عليه بعد الموت. قال أصحاب الخواطر: وجل العارف من طاعته أكثر من وجله من مخالفته؛ لأن المخالفة تمحوها التوبة، والطاعة تطلب بتصحيح الغرض" المحرر الوجيز (٤/١٤٨)، تفسير القرطبي (١٢/١٣٣).

٣ - والخجل من الحساب.

٤ - ومحبة الحبيب.

٥ - ومراقبة الرقيب القريب.

٦ - وتعظيم بالمقام.

٧ - وشكر الإنعام"[(١)].

تاسعًا: وقت التوبة:

إنما وقت ممتد طوال العمر، يبدأ من بداية التكليف، وينتهي عند رفعه وحضور الموت، أو عند طلوع الشمس من المغرب -كما سيأتي-.

قال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا وقت التوبة النافعة: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء:١٧].

وأخبر المولى جَلَّوَعَلَا عن الوقت الذي لا تنفع فيه التوبة في قوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء:١٨].

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/٦٨).

وقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ [الأنعام:١٥٨].

والعبد بحاجة في كل يوم إلى أن يجدد التوبة؛ لأنه لا يدري متى يأتيه الأجل.

فمن أنفع الأسباب التي تقي الإنسان الذي ينشد النجاة والعافية من سوء العاقبة: أن يجدد التوبة في كل وقت مما عسى أن يكون قد اجترح من الذنوب والهفوات؛ فإن كلَّ ابنِ آدم خطَّاء، وخير الخطائين: التوابون [(١)]، وأن يعقد العزم على ترك المعاصي، وأن يمسي على نية صالحة، وأن يصبح على نية صالحة، وأن يقف المرء في كلِّ يومٍ مع نفسه وقفة محاسبة، ولا سيما عندما يريدُ النومَ، يستحضر ما مضى منه من قول أو فعل، فيتدراك ما قصر، ويعزم بنية صادقة على الوفاء لمن كان له عليه حق، ويستغفر ويسامح، وينقي قلبه من أدران الحقد والحسد، والصفات الذميمة، مجددًا توبةً بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ، فينامُ على تلك التوبة، ويعزم أن لا يعاودَ الذَّنبَ إذا استيقظ، ويفعلُ هذا كلَّ ليلة، فإذا ماتَ من ليلته مات على توبة، وإن استيقظَ استقبلَ يومَه بنيةٍ صالحة. وليس للعبد أنفع من هذه النومة، ولا سيما إذا أكثرَ من ذكرِ الله عَزَّوَجَلَّ، واستعملَ السنن الواردة قبل النوم، فمن أراد الله عَزَّوَجَلَّ به خيرًا وفَّقه لذلك.

---

(١) سيأتي تخريج حديث: «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين: التوابون».

وفي المأثور عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: "أيعجز أحدكم أن يكون مثل أبي ضَيْغَمٍ أو ضَمْضَمٍ -شك ابن عبيد-، كان إذا أصبح قال: اللهم إني قد تَصَدَّقْتُ بعرضي على عبادك"(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الذنب بمنزلة شرب السم، والتوبة ترياقه ودواؤه، والطاعة هي الصحة والعافية"(٢).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، والتَّوْبَةُ مَعْرُوضَةٌ بَعْدُ**» (٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والتَّوبَة معروضةٌ بَعْدُ**» فظاهر، وقد أجمع العلماء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ على قبول التوبة ما لم يغرغر، كما جاء في الحديث"(٤): عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**» (٥).

---

(١) أخرجه أبو داود [٤٨٨٦] بسند صحيح مقطوع إلى قتادة، وقد روي مرفوعًا بسند ضعيف. انظر: نتائج الأفكار، لابن حجر (٢/٤١٦-٤١٧)، الإصابة في تمييز الصحابة (٧/١٩١-١٩٢)، المغني عن حمل الأسفار (ص:١٠٤٧).

(٢) مدارج السالكين (١/٣٠٤).

(٣) صحيح البخاري [٦٨١٠]، مسلم [٥٧].

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٤٥).

(٥) أخرجه ابن الجعد في (مسنده) [٣٤٠٤]، وأحمد [٦١٦٠]، وعبد بن حميد [٨٤٧]، وابن ماجه [٤٢٥٣]، والترمذي [٣٥٣٧]، وحسنه، كما أخرجه: أبو يعلى [٥٦٠٩]، وابن حبان [٦٢٨]،=

وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: «**والتَّوبَة معروضةٌ بَعْدُ**» هذا منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إرشادٌ لمن وقَعَ في كبيرة، أو كبائرَ، إلى الطريقِ التي بها يتخلَّصُ، وهي: التوبةُ. ومعنى كونها معروضةً، أي: عرَضَهَا الله عَزَّوَجَلَّ على العباد، حيثُ أمرهم بها، وأوجَبَهَا عليهم، وأخبَرَ عن نفسه أنَّه جَلَّوَعَلَا يقبلُهَا؛ كلُّ ذلك فَضلٌ من الله عَزَّوَجَلَّ، ولُطفٌ بالعبد؛ لِمَا عَلِمَ الله جَلَّوَعَلَا مِن ضَعفِهِ عن مقاومةِ الحواملِ على المخالفاتِ، التي هي: النفسُ والهوَى، والشيطانُ الإنسيُّ والجنِّيُّ، فلمَّا عَلِمَ الله عَزَّوَجَلَّ أنَّه يقع في المخالفات، رحمه بِأَن أرشدَهُ إلى التوبة، فعرَضَهَا عليه وأوجبها، وأخبَرَ بِقَبُولها. وأيضًا: فإنَّه يجبُ على النُصَحاءِ أن يعرضوها على أهل المعاصي ويُعرِّفوهم بها، ويوجبوها عليهم، وبعقوبةِ الله عَزَّوَجَلَّ لِمَن تركها، وذلك كلُّه لطفٌ مُتَّصِلٌ إلى طلوع الشمس مِن مغربها، أو إلى أن يُغَرغِرَ العبدُ.

و(بَعدُ): ظرفٌ مبنيٌّ على الضمِّ؛ لقطعِهِ عن الإضافة لفظًا، وإرادةِ المضافِ ضِمنًا، ويقابلها (قَبلُ)، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ [الروم:٤]"[(١)].

وحديث: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» الحديث[(٢)]. قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا الحديث مما اختلف العلماء في معناه، فالقول الصحيح الذي قاله المحققون أن معناه: لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على

=والطبراني [١٤١٠٧]، والحاكم [٧٦٥٩]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: أبو نعيم في (الحلية) (١٩٠/٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٦٦١]، والضياء [٢٤٠].

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢٤٨/١).

(٢) أخرجه البخاري [٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢]، ومسلم [٥٧].

نفي الشيء، ويراد نفي كماله، كما يقال: لا علم إلا ما نفع، ولا مال إلا الإبل، ولا عيش إلا عيش الآخرة. وإنما تأولناه على ما ذكرناه لحديث: أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره: «**من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق**»[١]، وحديث: عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الصحيح المشهور أنهم بايعوه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن لا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يعصوا.. إلى آخره. ثم قال: لهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن فعل شيئًا من ذلك فعوقب في الدنيا فهو كفارته، ومن فعل ولم يعاقب فهو إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه**»[٢]، فهذان الحديثان مع نظائرهما في (الصحيح) مع قوله الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء:٤٨]، مع إجماع أهل الحق على أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك لا يكفرون بذلك، بل هم مؤمنون ناقصوا الإيمان إن تابوا سقطت عقوبتهم، وإن ماتوا مصرِّين على الكبائر كانوا في المشيئة، فإن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ عفا عنهم وأدخلهم الجنة أوَّلًا، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة"[٣].

---

(١) صحيح البخاري [٥٨٢٧]، مسلم [٩٤]. وفي لفظ: «من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق» وهو في (الصحيحين).

(٢) حديث عبادة أخرجه البخاري [١٨، ٣٨٩٢، ٤٨٩٤، ٦٧٨٤، ٦٨٠١، ٧٢١٣، ٧٤٦٨]، ومسلم [١٧٠٩]. و«وفى»: ثبت على العهد.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٤١-٤٢)، وانظر: فتح الباري (١٢/٦٠)، عمدة القاري (١٣/٢٧)، طرح التثريب (٧/٢٦٠).

ونحوه: قول ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التمهيد) أنه يريد من قوله: «**وهو مؤمن**»: "مستكمل الإيمان، ولم يرد به نفي جميع الإيمان عن فاعل ذلك، بدليل الإجماع على توريث الزاني والسارق وشارب الخمر إذا صلوا للقبلة، وانتحلوا دعوة الإسلام من قرابتهم المؤمنين الذين آمنوا بتلك الأحوال. وفي إجماعهم على ذلك مع إجماعهم على أن الكافر لا يرث المسلم أوضح الدلائل على صحة قولنا: إن مرتكب الذنوب ناقص الإيمان بفعله ذلك، وليس بكافر كما زعمت الخوارج في تكفيرهم المذنبين. وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ في ارتكاب الكبائر حدودًا جعلها كفارة وتطهيرًا"[(١)].

وقال الإمام ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأولى الأقوال بالصواب في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧]: قولُ من قال: تأويله: ثم يتوبون قبل مماتهم، في الحال التي يفهمون فيها أمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ونهيَه، وقبل أن يُغلبوا على أنفسهم وعقولهم، وقبل حال اشتغالهم بكرب الحَشْرجة وغمّ الغرغرة، فلا يعرفوا أمر الله ونهيه، ولا يعقلوا التوبة؛ لأن التوبة لا تكون توبة إلا ممن ندمٍ على ما سلف منه، وعزمٍ منه على ترك المعاودة، وهو يعقل الندم، ويختار ترك المعاودة: فأما إذا كان بكرب الموت مشغولا وبغمّ الحشرجة مغمورًا، فلا إخالُه إلا عن الندم على ذنوبه مغلوبًا. ولذلك قال من قال: إن التوبة مقبولة، ما لم يغرغر العبد بنفسه[(٢)]، فإن كان المرء في تلك الحال يعقل عقلَ الصحيح، ويفهم فهم العاقل الأريب، فأحدث إنابة من ذنوبه، ورجعةً من شروده عن ربه جَلَّوَعَلَا إلى طاعته، كان

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٩/ ٢٤٣-٢٤٤).

(٢) تقدم حديث: «إنَّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

إن شاء الله عَزَّوَجَلَّ ممن دخل في وعد الله عَزَّوَجَلَّ، الذي وعد التائبين إليه من إجرامهم ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ و"سماه: قريبًا؛ لأن أمد الحياة قريب؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾ [النساء:٧٧]. أو قبل أن يشرب في قلوبهم حبَّه، فيطبع عليها، فيتعذر عليهم الرجوع.

و﴿مِن﴾ للتبعيض، أي: ﴿يَتُوبُونَ﴾ في أي جزء من الزمان القريب الذي هو ما قبل أن ينزل بهم سلطان الموت، أو يزين السوء. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ وعد بالوفاء بما وعد به، وكتب على نفسه بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ فهو يعلم بإخلاصهم في التوبة. ﴿حَكِيمٗا ١٧﴾ والحكيم لا يعاقب التائب"(١).

وعد الله عَزَّوَجَلَّ المخلصين في التوبة والإنابة إليه بأنه سيتوب عليهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، ويغفر لهم ما قد سلف من ذنوبهم، فقال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ [النساء:١٧]، وقال في آية أخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥].

فهؤلاء ﴿يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾، ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ يتوب الله عَزَّوَجَلَّ عليهم، دون من لم يتب حتى غُلب على عقله، وغمرته حشرجة ميتته، فقال وهو لا يفقه ما يقول: ﴿إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ﴾ [النساء:١٨]، خداعًا لربه جَلَّوَعَلَا، ونفاقًا في دينه. فليست التوبة للذين يعملون السيئات من أهل الإصرار على معاصي الله عَزَّوَجَلَّ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ

---

(١) تفسير البيضاوي (٦٥/٢).

﴿أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾، يقول: إذا حشرج أحدهم بنفسه، وعاين ملائكة ربه جَلَّوَعَلَا قد أقبلوا إليه لقبض روحه، ﴿قَالَ﴾ وقد غُلب على نفسه، وحيل بينه وبين فهمه، بشغله بكرب حشرجته وغرغرته: ﴿إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾، يقول: فليس لهذا عند الله عَزَّوَجَلَّ توبة؛ لأنه قال ما قال في غير حال توبة"(١).

فبين أنَّ وقت الاحتضار هو الوقت الذي لا تقبل فيه التوبة، فبقي ما وراء ذلك في حكم القريب.. (٢). فلا يقبل من كافر إيمان، ولا من عاص توبة، إذا تيقن الموت، وذلك حين تساق روحه (٣).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء:١٨] عطف على الذين ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، وهذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أن المراد بهم الذين قرب موتهم، فبين بهذا أن الإيمان لا يقبل من الكافر عند حضور الموت.

والثاني: أن يكون المراد أنَّ الكفار إذا ماتوا على الكفر لا تقبل توبتهم.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨﴾ الإشارة بـ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إلى الفريقين.

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وحضور الموت: معاينة مَلَكِ الموت. بيَّنَ الله عَزَّوَجَلَّ أن التوبة تفوت إذا أُخِّرت إلى ذلك؛ ولذلك لم ينفع إيمان من آمن عند رؤية العذاب"(٤).

---

(١) تفسير الطبري (٨/٩٦-٩٩).

(٢) انظر: الكشاف (١/٤٨٩)، تفسير أبي السعود (٢/١٥٦)،

(٣) انظر: معالم التنزيل (٢/١٨٥)، المفاتيح في شرح المصابيح (٣/١٨٧-١٨٨).

(٤) تفسير الراغب الأصفهاني (٢/١١٤٨-١١٤٩).

قال القاضي أبو محمد ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واختلف المتأولون في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ فقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا والسدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معنى ذلك: قبل المرض والموت.

وقال أبو مِجْلَز، ومحمد بن قيس، والضحاك، وعكرمة، وابن زيد رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وغيرهم: معنى ذلك: قبل المعاينة للملائكة والسَّوْق، و[قبل] أن يُغْلَبَ الْمَرْءُ على نَفْسِه.

وروى أبو قلابة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الله عَزَّ وَجَلَّ لما خلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فرآه إبليس أجوف، ثم جرى له ما جرى ولعن وأنظر، قال: وعزتك لا برحت من قلبه ما دام فيه الروح، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: وعزتي لا أحجب عنه التوبة ما دام فيه الروح.

قال القاضي أبو محمد: فابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا ذكر أحسن أوقات التوبة، والجمهور حددوا آخر وقتها.

وقال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان يقال: التوبة مبسوطة لأحدكم ما لم يؤخذ بكظمه.

وروى بشير بن كعب والحسن رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله** عَزَّ وَجَلَّ **يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ويغلب على عقله**»[1].

قال القاضي أبو محمد: لأن الرجاء فيه باق، ويصح منه الندم والعزم على ترك الفعل في المستأنف، فإذا غلب تعذرت التوبة؛ لعدم الندم والعزم على الترك، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ إنما معناه: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ إلى وقت الذنب، ومدة الحياة كلها

(١) تقدم حديث: «إنَّ الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

قريب، والمبادر في الصحة أفضل، وألحق لأمله من العمل الصالح، والبعد كل البعد الموت (١).

ومنه قول مالك بن الريب: [الطويل]:

***وأين مكان البعد إلَّا مكانيا (٢).

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ١٧﴾ أي: بمن يتوب وييسره هو للتوبة، ﴿حَكِيمًا ١٧﴾ فيما ينفذه من ذلك، وفي تأخير من يؤخر حتى يهلك.

ثم نفى بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ﴾ الآية: أن يدخل في حكم التائبين من حضره موته وصار في حيز اليأس، وحضور الموت هو غاية قربه، كما كان فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق، فلم ينفعه ما أظهر من الإيمان، وبهذا قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وابن زيد رَحِمَهُ اللَّهُ، وجماعة المفسرين.."(٣).

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ٨٤ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ﴾ [غافر:٨٤-٨٥]،

(١) فالعمر كله قريب، والدنيا كلها قريب، فمن تاب قبل الموت فقد تاب من قريب، ومن مات ولم يتب فقد بعد كل البعد.. كذا قال غير واحد من المفسرين. انظر: لطائف المعارف، لابن رجب (ص:٣٣٥).

(٢) هذا عجز بيت لمالك بن الريب المازني. وصدره: (يقولون لا تبعد وهم يدفنونني***). ديوان مالك بن الريب [٣٨]، (ص:٩٣)، مستل من مجلة معهد المخطوطات العربية. وانظر: شرح شواهد المغني، للسيوطي (٦٣٠/٢)، الحماسة البصرية (٢٨٠/١)، التذكرة الحمدونية (١٢٩/٨)، جمهرة أشعار العرب (ص:٦١٢).

(٣) المحرر الوجيز (٢٤/٢-٢٥)، وانظر: تفسير القرطبي (٩٢/٥-٩٣).

أي: فلم يفدهم إيمانهم وتصديقهم عند معاينة عقاب الله عَزَّوَجَلَّ، وحين نزل بهم العذاب؛ لأنهم صدقوا حين لا ينفع التصديق مصدقًا، وقد مضى حكم الله عَزَّوَجَلَّ فيهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٠-٩٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾ [آل عمران: ٩٠]، أي: إيمانهم عند إشرافهم على الهلاك؛ لأنهم لا يتوبون إلا عند حُضور الموت.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: "وقد دلت هذه الأحاديث على أن من تاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ وهو يرجو الحياة، فإن توبته مقبولة منه؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١٧﴾﴾ [النساء:١٧]، فأما متى وقع الإياس من الحياة، وعاين الملك، وحشرجت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلقوم، وغرغرت النفس صاعدة في الغلاصم -فلا توبة متقبلة حينئذ"(١).

فلا تقبل عند حضور الموت من العاصين توبة، وليس للكفار رجوع إلى الدنيا، وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن تحسرهم على التفريط وفوات التوبة، فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٣٨).

أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزمر:٥٤-٥٨].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن حال المجرمين الذين كانوا يستعجلون العذاب: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يونس:٥٠-٥١]، فقد كانوا يطلبون في الدنيا: تعجيل العذاب؛ استهزاء، وإمعانًا في العناد؛ إذ إن العذاب الذي يستعجلونه أمر مكروه، لا يلائم الاستعجال، ومحذور لا يطلب إلا على سبيل العناد، ولكنه إذا حلَّ بهم، وعاينوه، آمنوا، وندموا، وتحسروا، في وقت لا ينفع فيه الإيمان، ولا الندم، ولا تقبل فيه التوبة.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم:٣٨-٣٩]، أي: ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة حين لا ينفعهم السمع والبصر، فأخبر جَلَّوَعَلَا أنهم سمعوا حين لم ينفعهم السمع، وأبصروا حين لم ينفعهم البصر.

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٣١﴾ [الأنعام:٣١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٥﴾ [الأعراف:٤-٥]، أي: فما كان قولهم عند مجيء العذاب إلا أن اعترفوا بذنوبهم، وأنهم حقيقون بهذا. قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي هذه الآية الدلالةُ الواضحة على صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من قوله: «**ما هلك قوم حتى يُعْذِرُوا من أنفسهم**» [(١)].

---

(١) تفسير الطبري (٣٠٤/١٢). والحديث: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٢٨]، وابن الجعد في (مسنده) [١٢٨]، وأحمد [١٨٢٨٩] بإسناد حسن، وأبو داود [٤٣٤٧]، والشهاب القضاعي [٨٨٦].
وقوله: «حتى يعذروا». قيل إنه من (أعذر فلان): إذا كثر ذنبه، فكأنه سلب عذره بكثرة اقتراف الذنوب، أو من (أعذر غيره) إذا جعله معذورًا، فكأنهم أعذروا من يعاقبهم بكثرة ذنوبهم، أو من (أعذر) أي: صار ذا عذر. والمعنى: حتى يذنبوا فيعذرون أنفسهم بتأويلات زائغة، وأعذار فاسدة من قبل أنفسهم، ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا. قال العلامة الطيبي: والوجه الثالث أنسب بباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كأن الناهي ينكر عليه ذنبه، وهو يتبرأ من الذنب، ويعذر لنفسه ولإقدامه عليه. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٢٦٧/١٠). وقال ابن الملك: "هو من (أعذر الرجل): إذا صار ذا ذنب كثير، أي: حتى تكثر ذنوبهم وعيوبهم، فيستوجبوا العقوبة، ويقيموا لمن عاقبهم العذر في ذلك.." مرقاة المفاتيح (٣٢١٩/٨)، وانظر: فيض القدير (٣٠٤/٥).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء:١١-١٥]. قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾، أي: فما زالوا يرددون تلك الكلمة، وهي قولهم: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾ أي: حتى أخذتهم السيوف وحصدتهم كما يحصد الزرع بالمنجل، فصاروا ﴿خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾، أي: ميتين، فخمدت حركاتهم وأصواتهم، فلم يك ينفعهم ذلك مع مجيء وعيد الله عَزَّوَجَلَّ، ومعاينتهم العذاب.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾﴾ [ص:٣]، أي: كم أهلك الله عَزَّوَجَلَّ من أمم كانوا ينادون عند معاينة العذاب، ولكن ذلك الوقت ليس وقت توبة، فلا ينفع فيه النداء، فلا ملجأ لهم فيه، ولا مفر، ولا مناص من وقوع أمر الله عَزَّوَجَلَّ بهم، كما حكم الله عَزَّوَجَلَّ بعدم توبة أهل الأرض إذا عاينوا الشمس طالعة من مغربها، فقال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ [الأنعام:١٥٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنبياء:٩٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة:١٢]، أي: يقولون ذلك حين لا ينفعهم ولا يجدي عنهم شيئًا، ولو كان هذا في الحياة الدنيا قبل معاينة العذاب، لكان نافعًا لهم ومنقذًا من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ.

وتبشر الملائكة في وقت الاحتضار، المجرمين والفجار، بغضب الجبار، وبعذاب النار، كما جاء في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الفرقان:٢٢]، أي: هم لا يرون الملائكة في يوم خير لهم، بل يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ لهم. قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وذلك يصدق على وقت الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار، وغضب الجبار، فتقول الملائكة للكافر عند خروج روحه: اخرجي أيتها النفس الخبيثة في الجسد الخبيث، اخرجي إلى سموم وحميم، وظل من يحموم. فتأبى الخروج وتتفرق في البدن، فيضربونه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال:٥٠]. وقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: بالضرب، ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام:٩٣]؛ ولهذا قال في هذه الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾، وهذا بخلاف حال المؤمنين في وقت احتضارهم، فإنهم يبشرون بالخيرات، وحصول المسرات. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ

أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢]"(١).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح، قالوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح، وريحان، ورب غير غضبان**»، قال: «**فلا يزال يقال ذلك حتى تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقولون: مرحبًا بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح، وريحان، ورب غير غضبان**» قال: «**فلا يزال يقال لها حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله** عَزَّ وَجَلَّ، **وإذا كان الرجل السوء، قالوا: اخرجي أيتها النفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فلا تزال تخرج، ثم يعرج بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان، فيقال: لا مرحبا بالنفس الخبيثة، كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء، فترسل من السماء، ثم تصير إلى القبر**» (٢).

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/١٠١-١٠٢).

(٢) أخرجه أحمد [٨٧٦٩]، وابن ماجة [٤٢٦٢]، وفي (الزوائد) (٤/٢٥٠): "إسناده صحيح رجاله ثقات"، كما أخرجه: البزار [٨٢١٩]، والنسائي في (الكبرى) [١١٣٧٨]. وقد روى ما يقرب منه: الطيالسي [٧٨٩] بسنده، قال: حدثنا أبو عوانة، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب، قال أبو داود: وحدثناه: عمرو بن ثابت، سمعه من المنهال بن عمرو، عن زاذان، عن=

"وقال آخرون: بل المراد جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ [الفرقان:٢٢]، يعني: يوم القيامة. قاله مجاهد، والضحاك رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، وغيرهما.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم؛ فإن الملائكة في هذين اليومين يوم الممات ويوم المعاد تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان، وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران، فلا بشرى يومئذ للمجرمين"(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ۗ﴾ [الأنعام:١٥٨].

وقد جاء في الحديث: عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها، تاب الله عليه**» (٢).

=البراء بن عازب، وحديث: أبي عوانة، أتمهما قال البراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: خرجنا مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في جنازة رجل من الأنصار...الحديث. وقد أخرجه أيضًا: الروياني [٣٩٢]، والحاكم [١٠٧].

(١) تفسير ابن كثير (٦/١٠٢).

(٢) صحيح مسلم [٢٧٠٣].

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا حد للتوبة جعله الله عَزَّوَجَلَّ، ولها باب يسد عند هذه الآية، كما جاء في الحديث (١)، وقد جاء في (التفسير) أنه معنى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام:١٥٨]"(٢).

وعن أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله** عَزَّوَجَلَّ **يبسط يده بالليل؛ ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار؛ ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها**» (٣).

وعن أبي حازم، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل، أو كسبت في إيمانها خيرا: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض**» (٤).

وعن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بادروا بالأعمال سِتًّا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم أو أمر العامة**» (٥).

وعن حذيفة بن أسيد الغفاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: اطلع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «**ما تذاكرون؟**»، قالوا: نذكر الساعة، قال: «**إنها لن تقوم حتى ترون**

---

(١) انظر: ما جاء في باب: (بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان) من شرحه لـ: (صحيح مسلم).

(٢) إكمال المعلم بفوائد مسلم (١٩٨/٨).

(٣) صحيح مسلم [٢٧٥٩] وقد تقدم.

(٤) صحيح مسلم [١٥٨].

(٥) صحيح مسلم [٢٩٤٧].

قبلها عشر آيات» -فذكر-: «**الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن، تطرد الناس إلى محشرهم**»(١).

وفي (الصحيحين): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن من عليها، فذاك حين:** ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام:١٥٨]»(٢).

وقد دلت الأحاديث أن المراد ببعض آيات الله عَزَّ وَجَلَّ: طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم، ويُغلق حينئذ بابُ التوبة.

وقيل: إنها إحدى ثلاث: إما طلوع الشمس من مغربها، وإما خروج الدابة، وإما خروج يأجوج ومأجوج.

قال القاضي أبو محمد ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا فيه نظر؛ لأن الأحاديث ترده، وتخصص الشمس"(٣)، يعني: باعتبار أنها أول الآيات المؤذنة برفع التوبة، والدالة على قيام الساعة، وتغير نظام العالم، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: حفظت من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثًا لم أَنْسَهُ بَعْدُ، سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن أول الآيات خروجًا: طلوع الشمس من مغربها، وخروج**

---

(١) صحيح مسلم [٢٩٠١].

(٢) صحيح البخاري [٤٦٣٥، ٤٦٣٦، ٦٥٠٦، ٧١٢١]، مسلم [١٥٧].

(٣) المحرر الوجيز (٢/٣٦٧).

الدابة على الناس ضُحًى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها، فالأخرى على إِثْرِهَا قريبًا» [(١)].

والآيات إما أمارات دالة على قرب الساعة، فأولها: بعث نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو أمارات متوالية دالة على وقوعها، والكلام هنا فيها؛ فإن الكفار يؤمنون في زمن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: أول الآيات التي ليست مألوفة، وإن كان الدجال، ونزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويأجوج قبلها؛ لأنها أمور مألوفة؛ إذ هم مثلهم بشر، مشاهدتهم وأمثالهم معروفة مألوفة، فأما خروج الدابة على شكل غير مألوف، ومخاطبتها الناس، ووسمها إياهم بالإيمان والكفر، فأمر خارج عن مجاري العادات، وذلك أول الآيات الأرضية، كما أن طلوع الشمس من مغربها أول الآيات السماوية؛ فإنها تطلع على خلاف عادتها المألوفة"[(٢)].

وقال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فإن قيل: طلوع الشمس ليس بأول الآيات: لأن الدخان، والدجال قبله؟

أجيب: بأن الآيات إما أمارات دالة على قرب قيام الساعة، وإما أمارات دالة على وجود قيام الساعة وحصولها.

ومن الأول: الدخان، وخروج الدجال، ونحوهما.

---

(١) صحيح مسلم [٢٩٤١].

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير (٢٥٤/١٩).

ومن الثاني: ما نحن فيه من طلوع الشمس من مغربها، والرجفة، وبس الجبال، وخروج النار وطردها الناس إلى المحشر. وإنما سمي أوَّلًا؛ لأنه مبدأ القسم الثاني، ويؤيده حديث: أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعده: «**لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها**» حيث جعل طلوع الشمس من مغربها غاية لعدم قيام الساعة. قال: وذلك أن الكفار يسلمون في زمان عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ حتى تكون الدعوة واحدة، ولو كان طلوع الشمس من مغربها قبل خروج الدجال ونزول عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، لم ينفع الكفار إيمانهم أيام عيسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، ولو لم ينفعهم لما صار الدين واحدًا"(١).

وقال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ: "قوله: «**إن أول الآيات خروجًا: طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى**» يعني -والله أعلم-: أول الآيات الكائنة في زمان ارتفاع التوبة والطبع على كل قلب بما فيه؛ لأنَّ ما قبل طلوع الشمس من مغربها التوبة فيه مقبولة، وإيمان الكافر يصح فيه

قال: وإنما كان طلوع الشمس مخصوصًا بذلك؛ لأنَّه أول تغيير هذا العالم العلوي الذي لم يشاهد فيه تغيير منذ خلقه الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى ذلك الوقت، وأما ما قبله من الآيات فقد شوهد ما يقرب من نوعه، فإذا كان ذلك وطبع على كل قلب بما فيه من كفر أو إيمان، أخرج الله عَزَّوَجَلَّ الدابة معرفة لما في بواطن الناس من إيمان أو كفر، فتكلمهم بذلك. أي: تعرف المؤمن من الكافر بالكلام، وتسم وجوه الفريقين بالنفح، فينتقش وصفه في جبهته مؤمن أو كافر، حتى يتعارف الناس بذلك، فيقول المؤمن

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١١/٣٤٤٩).

للكافر: بكم سلعتك يا كافر؟ ويقول الكافر: بكذا يا مؤمن، ثم يبقى الناس على ذلك ما شاء الله، ثم يرسل الله عَزَّوَجَلَّ ريحًا باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد على وجه الأرض في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته.."(١).

قيل: وحكمة جعل طلوعها من مغربها آية مقاربة لقيام الساعة: الإيماء إلى قرب طلوع جميع الأرواح من الأبدان. ذكره الْحَرَالِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد قال في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة:٢٥٨]، أي: إن الله عَزَّوَجَلَّ بما له من صفات العظمة، والجلال باستجماع صفات الكمال. ﴿يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ﴾، أي: وهو الذي أوجدها ﴿مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾، أي: في كل يوم من قبل أن توجد أنت بدهور. ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ ولو يومًا واحدًا. قال الْحَرَالِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إظهارًا لمرجع العالم بكليته إلى واحد، وأن قيوم الإنسان في الإحياء والإماتة هو قيوم الآفاق في طلوع الشمس وغروبها، وفي لحنه إشعار بأن الله عَزَّوَجَلَّ، لا بدَّ وأن يأتي بالشمس من المغرب؛ ليكون في ذلك إظهار تصريفه لها حيث شاء، حتى يطلعها من حيث غربت، كما يطلع الروح من حيث قبضت؛ ليكون طلوع الشمس من مغربها آية مقاربة قيام الساعة وطلوع الأرواح من أبدانها"(٢).

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٢٤٢-٢٤٣).

(٢) تراث أبي الحسن الْحَرَالِّي المراكشي في التفسير (ص:٤٤٨-٤٤٩)، وانظر: فيض القدير (٢/٤٤٢)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤/٥١-٥٢).

ولا ينبغي للعبد المذنب أن يؤخر التوبة؛ فإنه لا يأمن صحة ولا أجلًا، فإذا أخرها فإن كان يؤمل حياة فإن توبته مقبولة –وإن كان قريبًا من الموت– عند جمهور الفقهاء.

وإن كان في حالة يأس من الحياة، قد قطع الأمل عند حضور الموت، وظهور دلائله فقد اختلف في حاله:

وفي المسألة خلاف فقد قيل: إن توبة اليائس مقبولة دون إيمانه، وهو المختار عند الحنفية؛ لأن الرجاء باق ويصح معه الندم، والعزم على الترك [1].

وأيضًا: التوبة تجديد عهد مع الرب جَلَّوَعَلَا، والإيمان إنشاء عهد لم يكن وفرق بين الأمرين. وفي (البزازية): أن الصحيح أنها تقبل بخلاف إيمان اليائس، وإذا قبلت الشفاعة في القيامة وهي حالة يائس، فهذا أولى [2].

---

(١) المحرر الوجيز (٢/٢٥)، وقد تقدم قول القاضي ابن عطية، وانظر: روح المعاني (٢/ ٤٤٩)، تفسير القرطبي (٥/٩٢)، وانظر: البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٨/٢٠٥)، لسان الحكام في معرفة الأحكام (ص:٤١٤).

(٢) روح المعاني (٢/٤٤٩). قال الشهاب الخفاجي: "لكن هذه الآية صريحة في خلافه" حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (٣/١١٦). إلا أن ذلك باعتبار ما قيل في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [النساء:١٨]، فقد قيل: ما لم يعاين الملك، أو أيس من الحياة –كما تقرر–.

وقالوا: المختار قبول توبة اليائس دون إيمانه؛ لإطلاق قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى:٢٥]، بخلاف الكافر؛ لعدم الإيمان بالغيب؛ لأنه قد شاهد ملائكة العذاب، فيكون الإيمان منه قهريًا بسبب المعاينة [(١)].

قال في (جامع الفتاوى): وذكر في بعض كتب الكلام أن توبة اليائس هل تعتبر؟ اختلف فيه، والأصح أنها تعتبر، حتى إن من تاب عن شيء لا يقدر عليه، كالمجبوب يتوب عن الزنا؛ فإنه يعتبر، فليتأمل فيها"[(٢)].

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا تقبل؛ فإن الآية دالة على أن من حضره الموت، وشاهد أهواله فإن توبته غير مقبولة، واستدل على ذلك من وجوه.

إلا أنه قال عقب ذلك: قال المحققون: قرب الموت لا يمنع من قبول التوبة، بل المانع من قبول التوبة مشاهدة الأحوال التي عندها يحصل العلم بالله عَزَّوَجَلَّ على سبيل الاضطرار، واستدل على ذلك من وجوه [(٣)].

وقد ذهب الحنفية في المختار -كما تقدم- والحنابلة في المذهب، وبعض المالكية إلى أن المؤمن العاصي تقبل توبته -ولو في حال الغرغرة-، بخلاف إيمان اليائس، فإنه لا يقبل لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى:٢٥].

---

(١) حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح (١/٥٦٠).

(٢) غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر (١/٩٥-٩٦).

(٣) انظر: مفاتيح الغيب (١٠/٨-٩).

وقال الحنابلة في قول آخر: تقبل توبته ما دام مكلفًا.

قال في (الفروع): ولنا خلاف هل تقبل التوبة ما لم يعاين الملك أو ما دام مكلفًا أو ما لم يغرغر، أي تبلغ روحه حلقومه؟ قال في (تصحيح الفروع): والأقوال الثلاثة متقاربة، والصواب: تقبل ما دام عقله ثابتًا [١].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: «**أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر، وَتَأْمُلُ الغنى، ولا تُمْهِلُ حتى إذا بلغت الحلقوم، قلت: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان**» [٢].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومعنى: «**بلغت الحلقوم**»: بلغت الروح، والمراد: قاربت بلوغ الحلقوم؛ إذ لو بلغته حقيقة لم تصح وصيته، ولا صدقته ولا شيء من تصرفاته باتفاق الفقهاء"[٣].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في (اللطائف): "فمن تاب قبل أن يغرغر قبلت توبته؛ لأن الروح تفارق القلب عند الغرغرة فلا يبقى له نية ولا قصد [٤].

---

(١) مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (٤/٤٤٣)، الفروع ومعه تصحيح الفروع (٧/٤٢٩)، دقائق أولي النهى (٢/٤٥٣-٤٥٤)، منار السبيل في شرح الدليل (٢/٣٥).

(٢) صحيح البخاري [١٤١٩]، مسلم [١٠٣٢].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٧/١٢٣).

(٤) كذا في (التصحيح).

قال: وأفضل أوقات التوبة: أن يبادر الإنسان بالتوبة في صحته قبل نزول المرض به؛ حتى يتمكن حينئذ من العمل الصالح؛ ولذلك قرن الله عَزَّوَجَلَّ التوبة بالعمل الصالح في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

وأيضًا فالتوبة في الصِّحة ورجاء الحياة تشبه الصدقة بالمال في الصحة، ورجاء البقاء.

والتوبة في المرض عند حضور إمارات الموت يشبه الصدقة بالمال عند الموت، فكأن من لا يتوب إلا في مرضه قد استفرغ صحته وقوته في شهوات نفسه وهواه، ولذة دنياه، فإذا أيس من الدنيا والحياة فيها تاب حينئذ، وترك ما كان عليه، فأين توبة هذا من توبة من يتوب من قريب، وهو صحيح قوي قادر على عمل المعاصي فيتركها؛ خوفًا من الله عَزَّوَجَلَّ، ورجاء لثوابه، وإيثارًا لطاعته على معصيته؟!"(١).

قال في (التصحيح): "والقول الثاني: تقبل التوبة ما لم يعاين الملك، وهو قول الحسن ومجاهد رَحِمَهُمَاٱللَّهُ وغيرهما"(٢).

وعن صفوان بن عسال رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الله** عَزَّوَجَلَّ **جعل بالمغرب بابًا عرضه مسيرة سبعين عامًا للتوبة، لا يغلق ما لم تطلع عليه**

---

(١) لطائف المعارف، لابن رجب (١/٣٣٥-٣٣٦)، وانظر: كتاب الفروع ومعه تصحيح الفروع (٧/٤٢٩)، الآداب الشرعية والمنح المرعية (١/١١١)، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٢/٥٨٦).

(٢) تصحيح الفروع (٧/٤٢٩).

الشمس من قبله وذلك قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام:١٥٨]»(١).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المعنى أن باب التوبة مفتوح على الناس، وهم في فسحة وسعة منها، ما لم تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت انسد عليهم، فلم يقبل منهم إيمان ولا توبة؛ لأنهم إذا عاينوا ذلك، واضطروا إلى الإيمان والتوبة، فلا ينفعهم ذلك، كما لا ينفع المحتضر. ولعله لما رأي أن سد الباب إنما هو من قبل المغرب، جعل فتح الباب أيضًا من ذلك الجانب. وقوله: «**مسيرة سبعين عامًا**» مبالغة في التوسعة، أو تقدير لعرض الباب بمقدار ما يسده من جرم الشمس الطالع من الغرب"(٢).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا حد للتوبة جعله الله عَزَّوَجَلَّ، ولها باب يسد عند هذه الآية، كما جاء في الحديث(٣)، وقد جاء في (التفسير) أنه معنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا﴾ [الأنعام:١٥٨]"(٤).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) [٧٩٣]، والحميدي في (مسنده) [٩٠٥]، وسعيد بن منصور في (التفسير) [٩٤٠]، وأحمد [١٨٠٩٣]، والترمذي [٣٥٣٦]، وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه: ابن خزيمة [١٩٣]، وابن الأعرابي [١٤٠٧]، وابن حبان [١٣٢١]، والطبراني في (الكبير) [٧٣٥٢]، و(الأوسط) [٣٤٤٦]، والدارقطني [٧٦١]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٨٥/٦)، والبيهقي في (الكبرى) [١٣٤١]، والضياء في (المختارة) [٢٤] بإسناده حسن.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٨٥٠/٦).

(٣) انظر: ما جاء في باب: (بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان) من شرحه لـ: (صحيح مسلم).

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم (١٩٨/٨).

و"ليس معنى هذا الدعوة إلى التسويف بالتوبة، بل هو إخبار عن الواقع في شأن العباد، وأن باب التوبة مفتوح حتى تظهر هذه العلامة التي لا ندري متى تظهر"[(١)].

فباب التوبة مفتوح لكل استيقظ ضميره، وراجع نفسه، فاستلها من تيه الضلال، بعد الزيغ والشرود، فعمل صالحًا، وندم على ما فات، وعقد مع الله عَزَّوَجَلَّ عهدًا أن لا يحيد عن صراطه المستقيم، وهذا إن كان لا يزال في فسحة الحياة قبل يأتي يوم: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًاۗ﴾ [الأنعام:١٥٨].

فمتى آيس من الحياة، وعاين ملك الموت، وحشرجت الروح في الحلق، فقد فات أوان التوبة -كما تقدم-.

عاشرًا: ثمرات الاستغفار:

إن الاستغفار مفتاح من مفاتيح الرزق والخير والبركة، وهو من أسباب الفرج والمغفرة، فهو يجلب النِّعَم، ويدفَع النِّقَم، فإذا نزلت بك نازلة، وتزاحمت عليك الهموم والأحزان، وخذلك صديق أو قريب، أو ظلمك إنسان، فضاقت عليك السبل، وسُدَّت في وجهك الأبواب، فأكثر من الاستغفار؛ فإنه من أسباب الفرج، والله عَزَّوَجَلَّ قريب من عباده الصالحين، الذين يجأرون إليه بالدعاء والاستغفار، فيكشف عنهم الهم، ويرفع البلاء، ويجزيهم في أخراهم بأحسن الجزاء.

---

(١) مكفرات الذنوب وموجبات الجنة (ص:٢٣).

إن الاستغفار مَفزَع الصالحين، وزاد الأبرار، به تنجلي الهموم، وتُثقل الموازين، وتُرفَع الدرجات، وتُحَط الخطيئات، وتُفرَّج الكُرُبات، فكم جلب الاستغفارُ لأهله من الخيرات، وكم صرف عنهم من البلايا والملِمَّات!

والاعتراف بالتقصير، وإدامة الاستغفار هو خلق من أخلاق الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحين.

ولكونه مستجمعًا لعظيم الخصال، ومثمرًا لتلك الثمار اليانعة، من خيري الدنيا والآخرة فقد حرص الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على الدعوة إليه، والتذكير به.

قال الله عَزَّوَجَلَّ عن آدم وحواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بعد أن أكلا من الشجرة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف:٢٣].

وذكر لنا عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود:٤٧]، وقال: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [نوح:٢٨].

ومن ذلك: ما تضمنته دعوة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه من الحرص على تذكيرهم بالتوبة والاستغفار مرات ومرات، مبينًا لهم أن الاستغفار من أسباب الفرج والخير، كما أخبر المولى جَلَّ وَعَلَا حكاية عنه عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَـٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:٥-١٢]، "أي:

إذا تبتم إلى الله عَزَّوَجَلَّ، واستغفرتموه وأطعتموه، كَثُرَ الرِّزْقُ عليكم، وأسقاكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأَدَرَّ لكم الضَّرْعَ، وأَمَدَّكُمْ بأموالٍ وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخَلَّلَهَا بالأنهار الجارية بينها"(١). فكلُّ هذه النِّعَم تُستَجلب بالاستغفار.

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ ذكره مخبرًا عن قيل هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ [هود:٥٢].

والمدرار: الكثير الدرور، كالمغزار. وإنما قصد استمالتهم إلى الإيمان، وترغيبهم فيه، بكثرة المطر وزيادة القوّة؛ لأنَّ القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات، حرَّاصًا عليها أشد الحرص، فكانوا أحوج شيء إلى الماء، وكانوا مدلين (٢) بما أوتوا من شدة القوة والبطش، والبأس والنجدة، ممنوعين بها من العدو، مهيبين في كلِّ ناحية (٣).

و"قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ إشارة إلى تكثير النعم؛ لأن مادة حصول النعم هي الأمطار النافعة الموافقة.

وقوله: ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ إشارة إلى كمال حال القوى التي بها يمكن الانتفاع بتلك النعمة. ولا شك أن هذه الكلمة جامعة في البشارة بتحصيل السعادات.

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٢٣٣).

(٢) قوله: (وكانوا مدلين) من الدَّل. قال أبو عبيد: (الدَّلُّ) قريبُ المعنى من الْهَدْيِ، وهما من السكينة والوقار في الهيئة، والمنظر، والشمائل، وغير ذلك. الصحاح، للجوهري، مادة: (دلل) (٤/١٦٩٩).

(٣) انظر: الكشاف (٢/٤٠٢)، حاشية الطيبي على الكشاف (٨/١٠٢-١٠٤).

وقد قيل: إنهم كانوا مخصوصين في الدنيا بنوعين من الكمال:

أحدهما: أن بساتينهم ومزارعهم كانت في غاية الطيب والبهجة، والدليل عليه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾ [الفجر:٧-٨].

والثاني: أنهم كانوا في غاية القوة والبطش؛ ولذلك قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، ولما كان القوم مفتخرين على سائر الخلق بهذين الأمرين وعدهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ أنهم لو تركوا عبادة الأصنام، واشتغلوا بالاستغفار والتوبة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقوي حالهم في هذين المطلوبين، ويزيدهم فيها درجات كثيرة.

وقيل: إن الله عَزَّوَجَلَّ لما بعث هودًا عَلَيْهِ السَّلَامُ إليهم، وكذبوه حبس الله عَزَّوَجَلَّ عنهم المطر سنين، وأعقم أرحام نسائهم فقال لهم هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن آمنتم بالله عَزَّوَجَلَّ أحيا الله بلادكم، ورزقكم المال والولد، فذلك قوله: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود:٥٢]. و(المدرار): الكثير الدر، وهو من أبنية المبالغة. وقوله: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ ففسروا هذه القوة بالمال والولد، والشدة في الأعضاء؛ لأن كل ذلكم ما يتقوى به الإنسان"(١).

وقد جاء عن الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: خرج عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يستسقي، فما زاد على الاستغفار، ثم رجع فقالوا: يا أمير المؤمنين ما رأيناك استسقيت! فقال: «**لقد طلبت المطر بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر**»، ثم قرأ: ﴿ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ [هود:٥٢]، وقرأ الآية التي في (سورة

---

(١) مفاتيح الغيب (١٨/٣٦٣-٣٦٤).

هود) حتى بلغ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود:٥٢] (١). وقوله: «**بمجاديح السماء**» بجيم ثم دال مهملة، ثم حاء مهملة أيضًا، جمع: مجدح كمنبر، وهو نجم من النجوم، وهو عند العرب من الأنواء الدالة على المطر، فجعل الاستغفار مشبهًا بالأنواء، مخاطبة لهم بما يعرفونه، لا قولا بالأنواء. وجاء بلفظ الجمع؛ لأنه أراد: الأنواء جميعها التي يزعمون أن من شأنها المطر (٢).

وفيه: استحباب الاستكثار من الاستغفار؛ لأن منع القطر متسبب عن المعاصي، والاستغفار يمحوها، فيزول بزوالها المانع من القطر. وقد استدل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالآيتين على أن الاستغفار من أعظم الأسباب التي يحصل عندها المطر والخصب؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ قد وعد عباده بذلك، وهو لا يخلف الوعد، ولكن إذا كان الاستغفار واقعًا من صميم القلب، وتطابق عليه الظاهر والباطن، وذلك مما يقل وقوعه، ولذلك شرع الاستغفار في الاستسقاء، والإخلاص فيه.

ويروى عن الحسن بن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه وفد على معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما خرج تبعه بعض حجابه فقال: إني رجل ذو مال، ولا يولد لي، فعلمني شيئًا لعلَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يرزقني

---

(١) أخرجه عبد الرزاق [٤٩٠٢]، وسعيد بن منصور [١٠٩٥]، وابن أبي شيبة [٨٣٤٣]، وابن جرير (٦٣٣/٢٣)، وابن أبي حاتم [١٠٩٦٠]، والطبراني في (الدعاء) [٩٦٤]، والبيهقي في (الكبرى) [٦٤٢٣]. قال الإمام النووي في (خلاصة الأحكام) (٨٨٠/٢): "رواه سعيد بن منصور، والبيهقي بإسناد صحيح، لكنه مرسل، لم يدرك الشعبي عمر"، وانظر: تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف، للزيلعي (٩٣/٤).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (جدح) (٢٤٣/١).

ولدًا، فقال: عليك بالاستغفار، فكان يكثر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعمائة مرة، فولد له عشرة بنين، فبلغ ذلك معاوية، فقال: هلَّا سألته ممَّ قال ذلك؟ فوفد وفدة أخرى، فسأله الرجل فقال: ألم تسمع قول هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود:٥٢]، وقول نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح:١٢] (١).

وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كثيرًا ما يقول: الحمد لله، وأستغفر الله، فقيل له في ذلك، فقال: إنما هي نعمة فأحمد الله عَزَّ وَجَلَّ عليها، أو خطيئة فأستغفر الله منها (٢).

وشكا رجلٌ إلى الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ الجُدُوبَةَ فقال له: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ. وشكا آخر إليه الفقر فقال له: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ. وقال له آخر: ادع الله أن يرزقني ولدًا، فقال له: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ. وشكا إليه آخر جفاف بستانه، فقال له: اسْتَغْفِرِ اللَّهَ. فقلنا له في ذلك؟ فقال: ما قلت من عندي شيئًا، إن الله جَلَّ وَعَلَا يقول في (سورة نوح): ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾ [نوح:١٠-١٢] (٣).

ويقول الله عَزَّ وَجَلَّ ذكره مخبرًا عن قيل صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝٦١﴾ [هود:٦١]، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٤٦﴾ [النمل:٤٦].

---

(١) الكشاف (٢/٤٠٢).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٧٨).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١٨/٣٠٢)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٩/١٧٤).

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ ذكره مخبرًا عن قيل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيه: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم:٤٧].

ويقول: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ﴾ [الممتحنة:٤].

ويقول: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة:١١٣-١١٤].

وقال أبناء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ لأبيهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾﴾ [يوسف:٩٧]، فقال يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف:٩٨].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ ذكره مخبرًا عن قيل شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود:٩٠]، أي: استغفروه من سالف الذنوب، وتوبوا فيما تستقبلونه من الأعمال السيئة. ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ لمن تاب وأناب.

وقال حكاية عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن قتل القبطي خطأً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص:١٦].

وقال حكاية عن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص:٢٤].

وذكر عن نبيه سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [النمل:١٩]، وقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ٣٥﴾ [ص:٣٥].

وقال عن توبة بلقيس: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٤٤﴾ [النمل:٤٤].

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ لنبيه محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ١٠٥ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٠٦﴾ [النساء:١٠٥-١٠٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ٥٥﴾ [غافر:٥٥].

وقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ﴾ [محمد:١٩].

وبعد أن فتحت مكة، وتم أمر الله عَزَّوَجَلَّ، ودخل الناس في دين الله عَزَّوَجَلَّ أفواجًا، أمره الله بحمد الله عَزَّوَجَلَّ واستغفاره، فقال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ٣﴾ [النصر:١-٣].

فهو أمر بالدَّوام على الاستغفار؛ هضمًا للنفس، وتقرُّبًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وشكرًا على جليل نعمه.

وفي (الصحيح): عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن**» (1).

فقولها: «**يتأول القرآن**»، يعني: أنه يمتثل ما أمره الله عَزَّ وَجَلَّ به بقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر:٣].

ورواه أحمد بلفظ: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر في آخر أمره من قول: «**سبحان الله وبحمده أستغفر الله، وأتوب إليه**»، قالت: فقلت يا رسول الله: ما لي أراك تكثر من قول: سبحان الله، وبحمده أستغفر الله، وأتوب إليه؟ قال: «**إن ربي** عَزَّ وَجَلَّ **كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره، إنه كان توابًا، فقد رأيتها:** ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر:١-٣]"(2).

وأمر الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأن يأمر الناس بالاستقامة والاستغفار، فما أعظمها وأنفعها من وصية جامعة نافعة، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦].

(١) صحيح البخاري [٧٩٤، ٨١٧، ٤٢٩٣، ٤٩٦٨]، مسلم [٤٨٤].

(٢) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١١٣٠]، وأحمد [٢٤٠٦٥]، وأبو عوانة في (مستخرجه) [١٨٨٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن:١٦]. فلا بدَّ من ملازمة الاستغفار، ومن الإخلاص، والصدق، والاستقامة حتى يكون الاستغفار نافعًا للعبد، ومثمرًا للخير.

وقد حثَّ الله عَزَّوَجَلَّ العباد على التوبة والاستغفار، فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة:٧٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود:٣].

وقد فتح الله عَزَّوَجَلَّ باب التوبة للمذنبين المستغفرين، المعترفين بالذنب، والصادقين في الإنابة فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء:١١٠].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء:٦٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ [المزمل:٢٠].

وقال جَلَّ وَعَلَا في بيان وصف المؤمنين الذين يساعون إلى الخير، وما يؤهلهم لمغفرة الله عَزَّوَجَلَّ، فيستحقون على عملهم، وعلى تلك الصفات جنة عرضها السموات والأرض: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ

لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٦].

وقد تقدَّم ذكر استغفار النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، حيث قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»، وقوله: «**إنَّهُ لَيُغَانُ على قلْبِي، وإِنِّي لأستَغْفِرُ اللهَ، في اليوم مائةَ مَرَّة**».

وقد وعد الله عَزَّوَجَلَّ المستغفر بالمغفرة إذا كان مخلصًا في إنابته إلى الله عَزَّوَجَلَّ، كما جاء في الحديث: عن أبي ذَرٍّ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فيما روى عن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أنه قال: «**يا عبادي إني حَرَّمْتُ الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تَظَالموا، يا عبادي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم..**» الحديث (١).

وعن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**قال الله** تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: **يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا**

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٧٧].

أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عَنَانَ السماء ثم استغفرتني غفرت لك، ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بِقُرَابِ الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بِقُرَابِهَا مغفرة» (١).

وقد تقدم حديث: «**والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله فيغفر لهم**»، كما تقدم بيان المعاني المحتفَّة به.

حادي عشر: إجمال ذكر ثمرات الاستغفار:

وهاك إجمال ذكر ثمرات الاستغفار:

١ - المستغفر مستجيب لله عَزَّوَجَلَّ ومتبع لنهج الأنبياء عَلَيْهِمُ‌السَّلَامُ والصالحين.

٢ - الاستغفار من أسباب محبة الله عَزَّوَجَلَّ للعبد:

ومن النصوص الدالة على محبة الله عَزَّوَجَلَّ لمن أناب إليه: قوله جَلَّ‌وَعَلَا مخبرًا عن قيل شعيب عَلَيْهِ‌السَّلَامُ لقومه: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ۝٩٠﴾ [هود:٩٠]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾ [البروج:١٤]. قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ: (ودود): "ذو محبة لمن أناب وتاب إليه، يوده ويحبه"(٢).

٣ - الاستغفار مفتاح من مفاتيح الرزق، والخير، والبركة -كما تقدم-.

---

(١) أخرجه الترمذي [٣٥٤٠]، وقال: "حسن غريب"، كما أخرجه: الضياء [١٥٧١]، وقال: "إسناده صحيح" وقد روي كذلك عن ابن عباس، كما روي عن أبي ذر، وأبي هريرة.

(٢) تفسير الطبري (٤٥٦/١٠)، وانظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، لمكي بن أبي طالب (٣٤٥٥/٥)، وانظر ذلك في (المحبة: صورها وأحكامها)، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان (ص:٤٧).

٤ – الاستغفار من أسباب زيادة القوّة –كما تقدم–، وهو من أسباب النصر على الأعداء:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤٨﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٨].

٥ – الاستغفار من أسباب الفرج، وجلب النعم، ودفع النقم، وبه يتيسر العسير، ويرفع البلاء والعذاب –كما تقدم–، وهو من أسباب الحياة الطيبة في الدنيا، والنجاة من النار، والجزاء الحسن في الآخرة، ومضاعفة الأجور، ورفعة الدرجات.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ٣٣﴾ [الأنفال: ٣٣]. دلت الآية على الاستغفار سببٌ لدفع العَذاب، أي: وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر، وهم المسلمون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ من المستضعفين.

قال أهل المعاني: دلت هذه الآية على أن الاستغفار أمان وسلامة من العذاب.

قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: كان فيهم أمانان: نبي الله، والاستغفار، أما النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ فقد مضى، وأما الاستغفار فهو باق إلى يوم القيامة [١].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (٤٨٠/١٥)، تفسير الطبري (٥١١/١٣-٥١٢)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١٦٩١/٥)، السنن الكبرى، للبيهقي [٩٠٣٧]. قال السيوطي: "حديث: ابن عباس أخرجه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والبيهقي في (سننه)" الدر المنثور (٥٥/٤).

ومن لَزِمَ الاستغفار جعل الله عَزَّوَجَلَّ له من كُلِّ همٍّ فرجًا، ومن كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، ورزقهُ من حيثُ لا يحتسب.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود:٣]. قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُمَتِّعْكُم﴾، "أي: يطوّل نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية، من عيشة واسعة، ونعمة متتابعة. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى أن يتوفاكم، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾: ويعط في الآخرة كل من كان له فضل في العمل وزيادة فيه جزاء فضله لا يبخس منه. أو فضله في الثواب، والدرجات تتفاضل في الجنة على قدر تفاضل الطاعات"[(١)].

وقيل: إن ثمرة الاستغفار والتوبة: أن يمتعكم الله عَزَّوَجَلَّ بالمنافع في الدنيا، من سعة الرزق، ورغد العيش، ولا يستأصلكم بالعذاب، كما فعل بمن قبلكم.

والمتاع الحسن: قيل: هو ترك الخلق، والإقبال على الخالق جَلَّوَعَلَا.

وقيل: هو القناعة بالموجود، وترك الحزن على المفقود.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾:

قيل: هو الموت.

وقيل: القيامة.

(١) الكشاف (٢/٣٧٨).

وقيل: دخول الجنة، والمتاع الحسن على هذا وقاية كل مكروه، وأمن كل مخوف مما يكون في القبر وغيره من أهوال يوم القيامة وكربها.

قال في (الفتوحات): والأول أظهر؛ لقوله في الآية الأخرى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ الآية [هود:٥٢]، وهذا منقطع بالموت، وهو الأجل المسمى"(١).

والاستغفار سبب لدخول الجنة: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران:١٣٥-١٣٦].

والاستغفار سبب لرفعة الدرجات، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الرجل لترفع درجته في الجنة فيقول: أنى هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك**»(٢).

---

(١) الفتوحات الربانية (٧/٢٧٥-٢٧٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [١٢٠٨١]، وأحمد [١٠٦١٠]، وابن ماجه [٣٦٦٠]، وفي (الزوائد) (٤/٩٨): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات" كما أخرجه: الطبراني في (الأوسط) [٥١٠٨]، أبو نعيم في (الحلية) (٦/٢٥٥)، والأصبهاني في (الترغيب) [٤٣٨]. قال العراقي: "رواه أحمد بإسناد حسن" المغني عن حمل الأسفار (ص: ٣٧٠)، وقال الهيثمي (١٠/٢١٠): "رواه أحمد، والطبراني في (الأوسط)، ورجالهما رجال الصحيح غير عاصم بن بهدلة، وقد وثق".

وعند الطبراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يتبع الرجل من الحسنات يوم القيامة أمثال الجبال، فيقول: أنى هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك**» (١).

والمستغفرُ مبشَّرٌ بالمغفرة، وعظيم الفضل، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن بُسْرٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيرًا**» (٢).

وعن الزبير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من أحب أن تسره صحيفته؛ فليكثر فيها من الاستغفار**» (٣).

ومن الأحاديث التي تدل على أن الاستغفار من أسباب النجاة من عذاب النار: ما جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) أخرجه الطبراني في (الأوسط) [١٨٩٤]، قال الهيثمي (٢١٠/١٠): "رواه الطبراني في (الأوسط)، وفيه ضعفاء قد وثقوا" مجمع الزوائد (٢١٠/١٠).

(٢) أخرجه ابن ماجه [٣٨١٨]، قال البوصيري في (الزوائد) (١٣٥/٤): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: البزار [٣٥٠٨]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٢١٦]، وفي (عمل اليوم والليلة [٤٥٥]، والطبراني في (الدعاء) [٣٥٠٨]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٣٨]، والضياء [٧٩].

(٣) أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٨٣٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٣٩]، والضياء في (المختارة) [٨٩٢]، وقال: "إسناده حسن". قال الهيثمي (٢٠٨/١٠): "رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله ثقات".

أنه قال: «**يا معشر النساء، تصدقن، وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكن أكثر أهل النار**»[1].

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت رجلًا ذَرِبَ اللسان على أهلي، فقلت: يا رسول الله، قد خشيت أن يدخلني لساني النار، قال: «**فأين أنت من الاستغفار؟ إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة**»، قال أبو إسحاق: فذكرته لأبي بردة فقال: «**وأتوب إليه**»[2].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «**إن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب الله عليه**»[3].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قلت: يا رسول الله، ابْنُ جُدْعَانَ كان في الجاهليَّة يصِلُ الرَّحِم، ويُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فهل ذاك نَافِعُه؟ قال: «**لا يَنْفَعُهُ، إنَّهُ لم يقل يومًا: ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدِّين**»[4]

---

(١) صحيح مسلم [٧٩].

(٢) أخرجه أحمد [٢٣٣٧١]، والبزار [٣١٢٠]، والنسائي في الكبرى [١٠٢١٢]، وفي (عمل اليوم والليلة [٤٥١]، وابن حبان [٩٢٦]، والحاكم [١٨٨٢، ٣٧٠٦]، وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٣٤]، وفي (الدعوات) [١٦٧]. يقال: ذرب الرجل ذربًا وذرابة: إذا صار حاد اللسان.

(٣) صحيح البخاري [٢٦٦١، ٤١٤١، ٤٦٩٠، ٤٧٥٠]، مسلم [٢٧٧٠].

(٤) صحيح مسلم [٢١٤]، وقد تقدم.

وعن أبي العالية رَحِمَهُ اللَّهُ قال: إني لأرجو ألَّا يَهلِك عبدٌ بين نعمتين: نعمة يحمَدُ الله عليها، وذنب يستغفِرُ الله عَزَّوَجَلَّ منه (١).

وعن بكر بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لَحِقَ حَمَّالًا عليه حَمْلُهُ وهو يقول: الحمد لله، أستغفر الله قال: فانتظرته حتى وضع ما على ظهره، وقلت له: أما تحسن غير هذا؟ قال: بلى، أحسن خيرًا كثيرًا، أقرأ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، غير أن العبد بين نعمة وذنب، فأحمد الله عَزَّوَجَلَّ على نعمائه السابغة وأستغفره لذنوبي، فقلت: الحمال فيها أفقه من بكر (٢).

٦ – الاستغفار من أسباب قبول الطاعات.

٧ – الاستغفار من أسباب رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، ومغفرته:

قال الله عَزَّوَجَلَّ حكاية عن قيل صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِۖ لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝٤٦﴾ [النمل:٤٦].

وقد وعد الله عَزَّوَجَلَّ المستغفر بالمغفرة إذا كان مخلصًا في إنابته إلى الله عَزَّوَجَلَّ – كما تقدم –.

٨ – الاستغفار من أسباب إجابة الدعاء:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ۝٦١﴾ [هود:٦١]. ودل كذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ

(1) انظر: الشكر، لابن ابي الدنيا [٨٨]، حلية الأولياء (٢/ ٢١٩)، شعب الإيمان [٤١٩٥]، تاريخ دمشق (١٨/١٨٤–١٨٥)، تهذيب الكمال (٩/٢١٧)، سير أعلام النبلاء (٤/٢١٠).

(2) شعب الإيمان [٤١٩٦].

ﵟٱلۡمُجِيبُونَ ۝٧٥ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٧٦ﵞ [الصافات:٧٥-٧٦]، ونوح عَلَيْهِ السَّلَامُ كان يكثر من الاستغفار، ومن تذكير قومه به -كما تقدم-.

٩ — الاستغفار من أسباب التغلب على نزعات النفس إلى الشر والمعاصي، ويعين على دفع وساوس الشيطان ونزغه:

وقد جاء في الحديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال له الله: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني**»، وفي لفظ: «**لا أزال أغفر لهم ما استغفروني**»[(١)].

١٠ - الاستغفار من أسباب السكينة والاطمئنان، وانشراح الصدر:

ويدل عليه: ما تقدم من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ على قلْبِي، وإِنِّي لأَستَغْفِرُ اللهَ، في اليوم مائةَ مَرَّة**»، وقد تقدم بيانه مفصلًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما تأثير الاستغفار في دفع الْهَمِّ وَالْغَمِّ وَالضِّيقِ، فلما اشترك في العلم به أهل الملل، وعقلاءُ كلِّ أمة أنَّ المعاصي والفسادَ توجب الهمَّ، والغمَّ، والخوف، والحُزْنَ، وضيق الصدر، وأمراض القلب، حتى إن أهلها إذا قضوا منها

(١) أخرجه أحمد [١١٢٤٤]، وعبد بن حميد [٩٣٢]، ونحوه عند أبي يعلى [١٢٧٣]، كما أخرجه: أبو نعيم في (الحلية) (٣٣٢/٨)، والطبراني في (الأوسط) [٨٧٨٨]، والحاكم، وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي. قال الهيثمي (٢٠٧/١٠): "رواه أحمد، وأبو يعلى بنحوه، وقال: «لا أبرح أغوي عبادك». والطبراني في (الأوسط)، وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادي أبي يعلى".

أوطارهم، وسئمتها نفوسهم، ارتكبوها؛ دفعًا لما يجدونه في صدورهم من الضيقِ والهمِّ والغمِّ، كما قال شيخ الْفُسُوقِ:

وَكَأْسٍ شَــرِبْتُ عــلى لَــذَّةٍ   وأُخْـرَى تَـدَاوَيْتُ مـنـها بهـا

وإذا كان هذا تأثير الذنوب والآثام في القلوب، فلا دواء لها إلا التوبة والاستغفار"(١).

١١ - الاستغفار من أسباب صفاء القلوب ونقائها:

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صقل قلبه، وإن زاد زادت، حتى يعلو قلبه ذاك الران الذي ذكر الله** عَزَّ وَجَلَّ **في القرآن:** ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين:١٤]»(٢).

١٢ – الاستغفار خير دواء للذنوب:

وقد بين ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كلامه الآنف الذكر. ويدل عليه ما تقدم من كون الاستغفار سببًا في مغفرة الذنوب.

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/١٩١)، الطب النبوي (ص:١٥٥).

(٢) أخرجه أحمد [٧٩٥٢]، وابن ماجه [٤٢٤٤]، والترمذي [٣٣٣٤]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه: النسائي في (الكبرى) [١٠١٧٩]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٤١٨]، وابن حبان [٩٣٠]، والحاكم [٦]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٨٠٨]. وقوله: (صقل) جاء في نسخة: (سقل) بسين مهملة، أي: رفع الله عَزَّ وَجَلَّ تلك النكتة، فينجلي قلبه بنوره كشمس خرجت عن كسوفها، فتجلت. «وإن عاد» إلى ذلك الذنب أو غيره. فيض القدير (٢/٣٧١).

قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم: فالذنوب، وأما دواؤكم: فالاستغفار [(١)]. وقال بعضهم: إنما معول المذنبين البكاء والاستغفار، فمن أهمته ذنوبه، أكثر لها من الاستغفار [(٢)].

وفي الحديث: عن أسماء بن الحكم الفزاري، قال: سمعت عليًّا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: كنت رجلًا إذا سمعت من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثًا نفعني الله منه بما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني أحد من أصحابه استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، قال: وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ما من عبد يذنب ذنبًا، فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله، إلا غفر الله له**»، ثم قرأ هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران:١٣٥] إلى آخر الآية [(٣)].

---

(١) رواه البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٧٤٥]، من قول قتادة، قال: "وقد روي هذا بإسناد مجهول مرفوعًا". وقد ذكره كذلك مرفوعًا في (شعب الإيمان) [٦٧٤٦]، كما رواه: الديلمي [٤٧٨]. قال المنذري (٢٠٩/٢): "رواه البيهقي، وقد روي عن قتادة من قوله، وهو أشبه بالصواب".

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (٤١٥/٢)، إحياء علوم الدين (٣١٣/١).

(٣) أخرجه الطيالسي [١]، والحميدي [١]، وابن أبي شيبة [٧٦٤٢]، وأحمد [٤٧]، وابن ماجه [١٣٩٥]، وأبو داود [١٥٢١]، والترمذي [٤٠٦]، وقال: "حسن"، كما أخرجه: النسائي في (الكبرى) [١٠١٧٥]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٤١٤]، وأبو يعلى [١٣]، وابن حبان [٦٢٣]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٦٧٥]، والضياء [٩] وقال: "إسناده صحيح".

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قلت لابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يومًا: سئل بعض أهل العلم أيهما أنفع للعبد التسبيح أو الاستغفار؟ فقال: إذا كان الثوب نقيًّا فالبخور وماء الورد أنفع له، وإذا كان دنسًا فالصابون والماء الحار أنفع له [١].

ثاني عشر: أفضل أنواع الاستغفار:

وأفضل أنواع الاستغفار: أن يبدأ العبد بالثناء على ربه جَلَّ وَعَلَا، ثم يثني بالاعتراف بذنبه، ثم يسأل الله عَزَّ وَجَلَّ المغفرة، كما في حديث: شداد بن أوس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سيد الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»، قال: «**ومن قالها من النهار موقنا بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة**»[٢].

(1) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص:٩٢).
(٢) صحيح البخاري [٦٣٠٦، ٦٣٢٣].

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لما كان هذا الدعاء جامعًا لمعاني التوبة كلها استعير له اسم: (السيد)، وهو في الأصل الرئيس الذي يقصد في الحوائج ويرجع إليه في الأمور، وقد سبق أن التوبة غاية الاعتذار"[١]، وتبعه الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ[٢].

وتُعقب من الشيخ ملا علي القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المرقاة): "بأن كلام العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ومن وافقه إنما يفيد أن المراد بالاستغفار إنما هو التوبة، والظاهر من الحديث الإطلاق، مع أن جامعيته لمعاني التوبة ممنوعة -كما لا يخفى-؛ إذ ليس فيه إلا الاعتراف بالذنب الناشئ عن الندامة، وأما العزم على أن لا يعود وأداء الحقوق لله عَزَّوَجَلَّ والعباد، فلا يفهم منه أصلًا"[٣].

ويجاب بأن الحديث متضمن لشروط التوبة؛ إذ إن التزام العبد بالدخول تحت عهد الله عَزَّوَجَلَّ إلى عباده بقدر استطاعته، وعهد الله عَزَّوَجَلَّ هو الاستقامة على صراطه المستقيم، والتزام أمره ونهيه، وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بأداء الحقوق، ورد الأمانات، كما أمر بالصدق والوفاء، ومن صدق في توبته فلا ريب أن في نيته أن لا يعود إلى ما تاب منه، وأن يرد الحقوق؛ ولذلك قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تضمن هذا الاستغفار: الاعتراف من العبد بربوبية الله عَزَّوَجَلَّ، وإلهيته وتوحيده، والاعتراف بأنه خالقه، العالم به؛ إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه، والاعتراف بأنه عبده الذي ناصيته بيده وفي قبضته، لا مهرب له منه، ولا ولي به سواه، ثم التزام الدخول

---

(١) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٦/١٨٤٤).

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر (١١/٩٩).

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/١٦١٩).

تحت عهده -وهو أمره ونهيه- الذي عهده إليه على لسان رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن ذلك بحسب استطاعتي، لا بحسب أداء حقك؛ فإنه غير مقدور للبشر، وإنما هو جهد المقل، وقدر الطاقة، ومع ذلك فأنا مصدق بوعدك الذي وعدته لأهل طاعتك بالثواب، ولأهل معصيتك بالعقاب، فأنا مقيم على عهدك، مصدق بوعدك، ثم أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شر ما فرطت فيه من أمرك ونهيك.. قال: فلهذا كان هذا الدعاء سيد الاستغفار، وهو متضمن لمحض العبودية، فأي حسنة تبقى للبصير الصادق، مع مشاهدته عيوب نفسه وعمله، ومنة الله عَزَّ وَجَلَّ عليه؟ فهذا الذي يعطيه نظره إلى نفسه ونقصه"[1].

وقال ابن أبي جمرة رَحِمَهُ اللهُ: "جمع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث من بديع المعاني، وحسن الألفاظ ما يحق له أنه يسمى: (سيد الاستغفار) ففيه: الإقرار لله عَزَّ وَجَلَّ وحده بالإلهية، والعبودية، والاعتراف بأنه الخالق، والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه، والرجاء بما وعده به، والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه، وإضافة النعماء إلى موجدها، وإضافة الذنب إلى نفسه، ورغبته في المغفرة، واعترافه بأنه لا يقدر أحد على ذلك إلا هو..

وقال أيضًا: من شروط الاستغفار: صحة النية، والتوجه، والأدب، فلو أن أحدًا حصل الشروط واستغفر بغير هذا اللفظ الوارد، واستغفر آخر بهذا اللفظ الوارد لكن

(١) مدارج السالكين (١/٢٣٦-٢٣٧).

أخلَّ بالشروط هل يستويان؟ فالجواب: أن الذي يظهر أن اللفظ المذكور إنما يكون سيد الاستغفار إذا جمع الشروط المذكورة -والله اعلم-"(١).

ومن أفضل أنواع الاستغفار قول العبد: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه، كما جاء في الحديث: عن بلال بن يسار بن زيد عن أبيه عن جده أنه سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأتوب إليه، غفر له، وإن كان قد فرَّ من الزَّحف**»(٢).

وعن أبي الأحوص، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأتوب إليه، ثلاثًا غفرت ذنوبه، وإن كان فارًّا من الزَّحف**»(٣).

---

(١) فتح الباري، لابن حجر (١١/١٠٠)، بهجة النفوس شرح مختصر البخاري، لابن أبي جمرة (٢/١٩٨).

(٢) أخرجه أبو داود [١٥١٧]، والترمذي [٣٥٧٧]، والطبراني [٤٦٧٠]. قال الحافظ المنذري: "وإسناده جيد متصل، فقد ذكر البخاري في (تاريخه) الكبير أن بلال سمع من أبيه يسار، وأن يسارًا سمع من أبيه زيد مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وقد اختلف في يسار والد بلال، هل هو بالباء الموحدة، أو بالياء المثناة تحت، وذكر البخاري في (تاريخه) أنه بالموحدة -والله أعلم-" الترغيب والترهيب (٢/٣١١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٤٥٠]، والطبراني في (الدعوات الكبير) [١٦١]، والحاكم [١٨٨٤، ٢٥٥٠]، وقال: "صحيح على شرط مسلم" ووافقه الذهبي.

ثالث عشر: الأوقات التي يشرع فيها الاستغفار:

إنَّ الاستغفارَ مشروعٌ في كلِّ وقت، ومن أَكْثَرَ من الاستغفار في جُلِّ أوقاته، ومختلف حالاته، فقد وفِّقَ للخير، وهُدِي للرشاد، ولكن الأوقات تتفاضل، فقد خصَّ بعض الأزمنة وشرفها بمزايا وفضائل دائمة، وخصَّها بقرب تؤدى فيها، وضاعف لعباده الأجر فيها، وهي التي ينبغي أن يوليها العبد بمزيد اهتمام، ويحرص على اغتنام الفضل فيها، وأن لا يغفل عنها.

روي عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه كان يقول: أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طرقكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم، وأينما كنتم؛ فإنكم لا تدرون متى تنزل المغفرة (١).

إنَّ أخطرَ شيءٍ في حياةِ الإنسانِ هو الغفلةُ، والغفلةُ عن ماذا؟ الغفلةُ عن أعظمِ شيءٍ في الوجود، ألا وهو الصِّلة بالله عَزَّوَجَلَّ، وطاعته والتقرُّب إليه، فالغفلةُ عن الله عَزَّوَجَلَّ مُهلكةٌ للإنسان، فكم من غافلٍ عن مولاه لم يستفق إلا وهو صريعٌ بين الأموات، فما ينفعُه وقتَها النَّدمُ، ولا تنفعُهُ الحَسَرات!

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾ [الزمر:٥٦-٥٨].

---

(١) انظر: سير السلف الصالحين، لإسماعيل بن محمد الأصبهاني (ص:٧٣٩)، جامع العلوم والحكم (٤٠٨/٢).

إن الغفلة تورد صاحبها المهالك، فإذا دهم الغافلَ الموتُ فإنه يتحسر على التَّفريط في الطاعة، ثم يتمنى الرجعة إلى الدنيا؛ لتدارك ما فاته، فيأتيه الجواب: ﴿كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وقد خصَّ الشارع بعض أوقات الاستغفار بمزيد فضل، وهاك بيان أوقات الاستغفار الفاضلة:

١ – الاستغفار عند وقوع الذنب:

يكون الاستغفار واجبًا عند وقوع الذنب من العبد إذا أريد منه: التوبة:

وقد تقدَّم أن التوبة واجبة من جميع المعاصي واجبة على الفور، أما إذا أريد منه: سؤال الغفران فإنه يكون مندوبًا –على ما تقدم–.

٢ – الاستغفار عقب الصلوات وفيها، وعقب سائر العبادات:

يستحب الاستغفار عقب الصلوات وفيها، وعقب سائر العبادات.

إن الاستغفار كما يكون للعصاة، فكذلك يكون لأصحاب الطاعات، فيحرص عليه الموفقون من أصحاب الطاعات؛ خوفًا من نقص، أو زلل، أو رياء، وهضمًا للنفس، وزيادة في رجاء القبول.

أ. الاستغفار عقب الصلاة:

وقد كان من هدي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ختمُ الأعمال الصالحة بالاستغفار، فكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ إذا انصرف من صلاته يدعو ويستغفر، كما جاء في الحديث: عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا، وقال: «**اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت ذا الجلال والإكرام**»، قال الوليد: فقلت للأوزاعي: كيف الاستغفار؟ قال: تقول: أستغفر الله، أستغفر الله (١).

فيستحب الاستغفار عقب الصلوات والعبادات؛ ليكون كفَّارة لِمَا قد يقع فيها من خَللٍ أو تقصير، وإن لَم يكن هناك تقصيرٌ ولا خَلل، كان هذا الاستغفار كالخَتم والطابع لتلك الأعمال.

وقد تقدم حديث: «**ما من عبد يذنب ذنبًا، فيحسن الطهور، ثم يقوم فيصلي ركعتين، ثم يستغفر الله، إلا غفر الله له**» (٢).

ب. الاستغفار في الصلاة وغيرها من العبادات:

تقدم أن الاستغفار: كلُّ دعاء فيه سؤال الغفران، فيدخل في هذا: كل دعاء في الصلاة فيه سؤال الغفران، كالدعاء في الركوع والسجود، والقنوت، وعند الأذان، وبينه وبين الإقامة، وقيل: في افتتاح الصلاة، وقيل: في الجلوس بين السجدتين، ويندب بعد

---

(١) صحيح مسلم [٥٩١].

(٢) تقدم.

التشهد الأخير، وفي وقت الإفطار من الصيام، وعند دخول المسجد، والخروج منه، وعند النوم، وإذا مضى شطر الليل، وفي وقت الأسحار، وعقب كل عبادة، ويسن للعاطس أن يدعو بالمغفرة لمن شمته، ويندب الاستغفار بعد قضاء الحاجة، وعند الخروج من الخلاء، كما يندب الإكثار منه في الاستسقاء. وعند اقتراب الأجل، كما هو مفصل في مظانه. فهذه أوقات مخصوصة يتأكد فيها الاستغفار، ويعظم فيها الأجر، مع مشروعيته في كل وقت.

وقد تقدم ما يدل على ذلك من حديث: أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه قال لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: علمني دعاء أدعو به في صلاتي، قال: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**» (١)، وقد أورده الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في باب: (الدعاء قبل السلام)، وباب: (الدعاء في الصلاة).

وفي رواية: «**أدعو به في صلاتي، وفي بيتي**» (٢).

وفي (الصحيح): عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن**» (٣).

---

(١) صحيح البخاري [٨٣٤، ٦٣٢٦، ٧٣٨٧]، مسلم [٢٧٠٥]، وقد تقدم.

(٢) صحيح مسلم [٢٧٠٥].

(٣) صحيح البخاري [٧٩٤، ٨١٧، ٤٢٩٣، ٤٩٦٨]، مسلم [٤٨٤]، وقد تقدم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في سجوده: «**اللهم اغفر لي ذنبي كله، دِقَّهُ، وَجِلَّهُ، وأوله وآخره، وعلانيته وسره**» (١).

قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**دقه**»: -بالكسر- أي: دقيقه وصغيره. «**وَجِلَّهُ**»: -بكسر الجيم-، وقد تضم، أي: جليله وكبيره. وفسرهما الإمام النووي بالقليل والكثير (٢). قيل: إنما قُدِّمَ الدِّقُّ على الجِلِّ؛ لأن السائل يتصاعد في مسألته، أي: يَتَرَقَّى؛ ولأن الكبائر تنشأ غالبًا من الإصرار على الصغائر وعدم المبالاة بها، فكأنها وسائل إلى الكبائر، ومن حقِّ الوسيلة أن تُقَدَّمَ إثباتًا ورفعًا (٣).

والأحاديث في ذلك كثيرة.

ج. الاستغفار بعد الفراغ من الوضوء:

جاء في الحديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من تَوَضَّأَ فقال: سبحانك اللهُمَّ، وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ، كُتِبَ فِي رَقٍّ ثُمَّ طُبِعَ بِطَابَعٍ فلم يُكْسَرْ إلى يوم القيامة**» (٤).

---

(١) صحيح مسلم [٤٨٣].

(2) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٤/٢٠١).

(3) انظر: مرقاة المفاتيح مصابيح (٢/٧٢١)، مرعاة المفاتيح (٣/٢١٠)، عون المعبود (٣/٩٣).

(٤) أخرجه النسائي في (الكبرى) [٩٨٢٩]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٨١]، قال الحافظ ابن حجر: "واختلف في وقفه ورفعه، وصحح النسائي الموقوف، وضعف الحازمي الرواية المرفوعة؛ لأن الطبراني قال في (الأوسط): لم يرفعه عن شعبة؛ إلا يحيى بن كثير، قلت: رواه أبو إسحاق المزكي في الجزء الثاني تخريج الدارقطني له، من طريق روح بن القاسم، عن شعبة، وقال: تفرد به عيسى بن شعيب، عن=

د. الاستغفار في الحجِّ وعقب إكمال أعماله:

إن الحج ركن عظيم من أركان الإسلام، ورحلة الحج ما أعظمها من رحلة، يحرص المؤمن أن تكون خالصة لله عَزَّوَجَلَّ، ويستغفر الله عَزَّوَجَلَّ من أيِّ تقصير أو نقص، وهو ما أرشد الله عَزَّوَجَلَّ العباد إليه في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٩٩].

=روح بن القاسم، قلت: ورجح الدارقطني في (العلل): الرواية الموقوفة أيضًا...". انظر: التلخيص الحبير (١٧٦/١-١٧٧). ورواية الطبراني في (الأوسط) [١٤٥٥] بلفظ: «من قرأ سورة الكهف كانت له نورًا يوم القيامة من مقامه إلى مكة، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يضره، ومن توضأ فقال: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، كتب في رق، ثم جعل في طابع فلم يكسر إلى يوم القيامة». قال المنذري في (الترغيب والترهيب) (١٠٥/١): "رواه الطبراني في (الأوسط) ورواته رواة الصحيح واللفظ له، ورواه النسائي، وقال في آخره: «ختم عليها بخاتم فوضعت تحت العرش فلم تكسر إلى يوم القيامة»، وصوب وقفه على أبي سعيد". وقال الهيثمي: (٢٣٩/١) "رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله رجال الصحيح، إلا أن النسائي قال بعد تخرجه في (اليوم والليلة): هذا خطأ، والصواب موقوفًا. ثم رواه من رواية الثوري وغندر عن شعبة موقوفًا". وقال ابن الملقن: "رواه النسائي في (اليوم والليلة) هكذا من حديث: يحي بن كثير أبي غسان عن شعبة عن أبي هاشم، عن أبي مجلز، عن قيس بن عباد، عن أبي سعيد. ثم رواه عن محمد بن بشار عن محمد عن شعبة عن أبي هاشم قال: سمعت أبا مجلز يحدث عن قيس بن عباد، عن أبي سعيد قال: «ما من مسلم يتوضأ ويقول: سبحانك وبحمدك...» ذكره موقوفًا. وإسناد هاتين الروايتين -أعني: المرفوعة والموقوفة- صحيح على شرط البخاري ومسلم لا نعلم طعنًا في واحد من رجاله، بل هم أئمة أعلام ثقات" البدر المنير (٢٨٩/٢).

قال أهل التفسير: كانت قريش وحلفاؤها ومن دان بدينها، وهم الحُمْسُ، يقفون بالمزدلفة ويقولون: نحن أهل الله، وقطان حرمه، فَلَا نُخَلِّفُ الْحَرَمَ، ولا نخرج منه، ويتعظمون أن يقفوا مع سائر العرب بعرفات، وسائر الناس كانوا يقفون بعرفات، فإذا أفاض الناس من عرفات أفاض الحمس من المزدلفة، فأمرهم الله أن يقفوا بعرفات ويفيضوا منها إلى جمع مع سائر الناس، وأخبرهم أنه سنة إبراهيم وإسماعيل عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ. وقال بعضهم: خاطب به جميع المسلمين.

وقيل: المراد بالإفاضة هنا، أي: من (المزدلفة) إلى (منى) بعد الإفاضة من عرفات، وقالوا: لأن الإفاضة من (عرفات) قبل الإفاضة من (المزدلفة) فكيف يسوغ أن يقول: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة:١٩٨]، ثم أفيضوا من عرفات؟ والأول قول أكثر أهل التفسير، كذا قال: محيي السنة رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1].

٣ – الاستغفار في نصف الليل وفي وقت الأسحار:

قال جَلَّوَعَلَا في وصف المؤمنين المسارعين إلى الخيرات، وفي بيان فضل الاستغفار في وقت الأسحار: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران:١٦-١٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات:١٨].

---

(١) انظر: معالم التنزيل (١/٢٣٠).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ينزل ربنا** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني، فأستجيب له من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له**» (١).

وفي رواية: «**إذا مضى شطر الليل، أو ثلثاه، ينزل الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى **إلى السماء الدنيا، فيقول: هل من سائل يعطى؟ هل من داع يستجاب له؟ هل من مستغفر يغفر له؟ حتى ينفجر الصبح**» (٢).

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من تَعَارَّ** (٣) **من الليل، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على**

---

(١) صحيح البخاري [١١٤٥، ٧٤٩٤]، مسلم [٧٥٨].

(٢) صحيح مسلم [٧٥٨].

(٣) «تعَارَّ»: بمهملة وراء مشددة. و«تعار من الليل»: إذا هب من نومه. ولعله مأخوذ من (عِرارِ الظليم)، وهو صوته. و(عرار الظليم) صوت ذكر النعام، ويقال لصوت الأنثى زمار. قال أبو عبيد: ولا أدري أهو من ذلك أم لا. قال ابن التِّين: ظاهر الحديث أنَّ تعارَّ معناه: استيقظ؛ لأنَّه قال: «مَن تعارَّ فقال»، فعطف القول بالفاء على «تعارَّ». ويحتمل أن تكون الفاء تفسيريَّة لما يصوت به المستيقظ؛ لأنَّه قد يصوِّت بغير ذكر، فخصَّ الفضل المذكور في الحديث بمن صوَّت بما ذكر من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ. وهذا هو السرُّ في اختيار لفظ: «تعارَّ» دون استيقظ أو انتبه، وإنَّما يتَّفق ذلك لمن تعوَّد الذكر، واستأنس به وغلب عليه حتَّى صار حديث نفسه في نومه ويقظتهِ، فأكرم من اتَّصف بذلك بإجابة دعوته وقبول صلاته. وقيل: تعارَّ تقلَّب في فراشه، ولا يكون إلَّا يقظةً مع كلام يرفع به صوته عند انتباهه وتمطِّيه، وقيل غير ذلك. انظر: فتح الباري، لابن حجر (٤٠/٣)، معالم السنن (١٤٣/٤)، غريب الحديث، لأبي عُبيد، مادة: (عرر) (١٣٤/٤-١٣٥)، تهذيب اللغة (٧٦/١)، مقاييس اللغة (٣٥/٤)، مشارق الأنوار (٧٢/٢).

كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا، استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته» (١).

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حديث: عبادة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ شريف عظيم القدر، وفيه: ما وعد الله عَزَّوَجَلَّ عباده على التيقظ من نومهم، لهجة ألسنتهم بشهادة التوحيد له والربوبية، والإذعان له بالملك، والاعتراف له بالحمد على جزيل نعمه التى لا تحصى، رطبة أفواهم بالإقرار له بالقدرة التى لا تتناهى، مطمئنة قلوبهم بحمده وتسبيحه، وتنزيهه عما لا يليق بالإلهية من صفات النقص، والتسليم له بالعجز عن القدرة عن نيل شيء إلا به جَلَّوَعَلَا؛ فإنه وعد بإجابة دعاء من بهذا دعاه، وقبول صلاة من بعد ذلك صلى، وهو جَلَّوَعَلَا لا يخلف الميعاد، وهو الكريم الوهاب، فينبغي لكلِّ مؤمن بلغه هذا الحديث: أن يغتنم العمل به، ويخلص نيته لربه العظيم جَلَّوَعَلَا أن يرزقه حظًّا من قيام الليل، فلا عون إلا به، ويسأله فكاك رقبته من النار، وأن يوفقه لعمل الأبرار، ويتوفاه على الإسلام. قد سأل ذلك الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ الذين هم خيرة الله عَزَّوَجَلَّ، وصفوه من خلقه، فمن رزقه الله عَزَّوَجَلَّ حظًّا من قيام الليل فليكثر شكره على ذلك، ويسأله أن يديم له ما رزقه، وأن يختم له بفوز العاقبة، وجميل الخاتمة"(٢).

---

(١) صحيح البخاري [١١٥٤].

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣/١٤٧-١٤٨).

وأخرج ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه كان يحيي الليل صلاةً، ثم يقول: يا نافع أسحَرْنا؟ فيقول: لا، فيعاود الصلاة، فإذا قلتُ: نعم قعد يستغفر ويدعو حتى يُصْبح (١).

وقد قيل: خُصَّ السحر، وهو آخر الليل بالذكر؛ لأنه وقت الغفلة، ولذة النوم، ولأنه أرجى في القبول، فهو وقت إجابة الدعاء لمن توجه إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالدعاء بصدق وإخلاص.

وقد قيل: إن يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، لما قال لبنيه: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٩٨] أنه أخرهم إلى وقت السحر؛ ولذلك فإن الذكر والدعاء في هذا الوقت من أفضل الأعمال.

وقيل: إلى ليلة الجمعة؛ ليتعمد به وقت الإجابة. وقيل: ليتعرَّف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها. وقيل: أراد الدوام على الاستغفار لهم.

ومن دأب الصالحين أنهم لا يغفلون عن الأوقات الفاضلة، وقد جاء: عن يحي بن أيوب المقابري، قال: حدثني بعض أصحاب وكيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذين كانوا يلزمونه، قال: كان لا ينام -يعني: وكيعًا- حتى يقرأ جزءه في كل ليلة ثلث القرآن، ثم يقوم في آخر الليل فيقرأ المفصل، ثم يجلس فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر، فيصلي الركعتين (٢).

---

(١) تفسير الطبري (٦/٢٦٦)، وانظر: مختصر قيام الليل، لأبي عبد الله محمد بن نصر المرْوَزي (ص:٩٦).

(٢) انظر: تاريخ بغداد (١٥/٦٤٧)، تاريخ دمشق (٦٣/٧٧)، صفة الصفوة (٢/٩٩)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٣٠/٤٨١)، سير أعلام النبلاء (٩/١٤٨).

٤ - الاستغفار في ختم المجالس:

يشرع الاستغفار في ختم المجالس، فإن كان مجلس خير كان كالطابع عليه، وإن كان غير ذلك كان كفارة له، كما جاء في الحديث: عن نافع بن جبير، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال: سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، فقالها في مجلس ذكر كانت كالطابع يطبع عليه، ومن قالها في مجلس لغو كانت كفارته**»(١).

وعن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر، قال: بلغني أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من إنسان يكون في مجلس فيقول حين يريد أن يقوم: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في ذلك المجلس**»(٢).

وعن رافع بن خديج رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ لا يقوم من مجلس حتى يقول: «**سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك**»، ثم يقول: «**إنها كفارة لما يكون في المجلس**»(٣).

---

(١) أخرجه النسائي في (الكبرى) [١٠١٨٥]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٤٢٤]، والطبراني في (الكبير) [١٥٨٦]، قال الهيثمي (٤٢٣/١٠): "رجاله رجال الصحيح"، كما أخرجه: الحاكم [١٩٧٠]، وقال: "صحيح على شرط مسلم".

(٢) أخرجه أحمد [١٥٧٢٩]، والطحاوي في (معاني الآثار) [٦٩٥٨]، والطبراني في (الكبير) [٦٦٧٣] قال الهيثمي (١٤١/١٠): "رواه أحمد والطبراني، ورجالهما رجال الصحيح".

(٣) أخرجه الطبراني، واللفظ له، في (الكبير) [٤٤٤٥]، و(الأوسط) [٤٤٦٧]، و(الصغير) [٦٢٠]. قال الهيثمي (١٤١/١٠): "رواه الطبراني في (الثلاثة)، ورجاله ثقات"، وقال الحافظ العراقي: "أخرجه=

وعن أبي بَرْزَةَ الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول بِأَخَرَةٍ[1] إذا أراد أن يقوم من المجلس: «**سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك**»، فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولًا ما كنت تقوله فيما مضى، فقال: «**كفارة لما يكون في المجلس**»[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من جلس في مجلس كثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم: سبحانك ربنا وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك ثم أتوب إليك، إلا غفر الله له ما كان في مجلسه ذلك**» [3].

=النسائي من حديث: رافع بن خديج بإسناد حسن". وقال المنذري: "رواه النسائي، والحاكم وصححه، ورواه الطبراني في (الثلاثة) باختصار بإسناد جيد" الترغيب والترهيب (٢/٢٦٥).

(١) بفتح الهمزة والخاء المعجمة، أي: في آخر جلوسه، ويجوز أن يكون في آخر عمره، قاله في (النهاية) (١/٢٩)، وانظر: الأذكار، للنووي (ص:٢٩٨-٢٩٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٣٢٥]، وأبو داود [٤٨٥٩]، واللفظ له، وأبو يعلى [٧٤٢٦]، والطبراني في (الدعاء) [١٩١٧]، والحاكم [١٩٧١]، ورواه الحاكم [١٨٢٧] من رواية: عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقال: "صحيح الإسناد".

(٣) أخرجه أحمد بإسناد صحيح [١٠٤١٥]، والترمذي [٣٤٣٣]، وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه: النسائي في (الكبرى) [١٠١٥٧]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٣٩٧]، والطحاوي في (معاني الآثار) [٦٩٥٦]، وابن حبان [٥٩٤]، والطبراني في (الأوسط) [٧٧]، وابن السني في (عمل اليوم والليلة) [٤٤٧]، وتمام [١٧١٥].

٥ – كثرة الاستغفار في ختام العمر وفي حالة الكبر والشيخوخة:

ومن الأوقات التي يتأكد فيها الاستغفار: عند اقتراب الأجل، وفي حالة الكبر والشيخوخة، ويدل على ذلك: ما جاء في الحديث: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقول قبل أن يموت: «**سبحانك وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك**»، قالت: قلت يا رسول الله، ما هذه الكلمات التي أراك أحدثتها تقولها؟ قال: «**جُعِلَتْ لِي عَلَامَةٌ فِي أُمَّتِي إِذَا رَأَيْتُهَا قُلْتُهَا**: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر:١]» إلى آخر السورة (١).

ورواه الطبراني رَحِمَهُ اللَّهُ عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بلفظ: عن أم سلمة، قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يموت يكثر أن يقول: «**سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك**»، قلت: يا رسول الله، إني أراك تكثر قول: «**سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك**»، قال: «**إني أمرت بأمر**»، فقرأ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر:١] (٢).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: ما صلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة بعد أن نزلت عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر:١] إلا يقول فيها: «**سبحانك ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي**» (٣).

---

(١) صحيح مسلم [٤٨٤].

(٢) قال الهيثمي (٩/٢٣) (١٠/١٤٢): "رواه الطبراني في (الصغير) [٦٧٧]، و(الأوسط) [٤٧٣٤]، ورجاله رجال الصحيح".

(٣) صحيح البخاري [٤٩٦٧]، مسلم [٤٨٤].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدخلني مع أشياخ بدر، فقال بعضهم: لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال: «**إنه ممن قد علمتم**»، قال: فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم قال: وما رئيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني، فقال: ما تقولون في: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ [النصر:١-٢]، حتى ختم السورة، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وقال بعضهم: لا ندري، أو لم يقل بعضهم شيئًا، فقال لي: يا ابن عباس أكذاك تقول؟ قلت: لا، قال: فما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعلمه الله له: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر:١] فتح مكة، فذاك علامة أجلك. ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر:٣]، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**ما أعلم منها إلا ما تعلم**» [(١)].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفر لي، يتأول القرآن**» [(٢)].

و«**يتأول القرآن**»، يعني: أنه يمتثل ما أمره الله عَزَّ وَجَلَّ به بقوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر:٣].

ورواه أحمد بلفظ: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر في آخر أمره من قول: «**سبحان الله وبحمده أستغفر الله، وأتوب إليه**»، قالت: فقلت يا رسول الله: ما لي

---

(١) صحيح البخاري [٤٢٩٤، ٤٩٧٠].

(٢) صحيح البخاري [٧٩٤، ٨١٧، ٤٢٩٣، ٤٩٦٨]، مسلم [٤٨٤]، وقد تقدم.

أراك تكثر من قول: سبحان الله، وبحمده أستغفر الله، وأتوب إليه؟ قال: «**إن ربي** عَزَّوَجَلَّ **كان أخبرني أني سأرى علامة في أمتي، وأمرني إذا رأيتها أن أسبح بحمده وأستغفره، إنه كان توابًا، فقد رأيتها**: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾ [النصر:١-٣]"[(١)].

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا أنها سمعت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وأصغت إليه قبل أن يموت، وهو مسند إلي ظهره يقول: «**اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق**» [(٢)].

وفي رواية: عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهَا قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا اشتكى منا إنسان، مسحه بيمينه، ثم قال: «**أذهب الباس، رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا**»، فلما مرض رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وثقل، أخذت بيده لأصنع به نحو ما كان يصنع، فانتزع يده من يدي، ثم قال: «**اللهم اغفر لي واجعلني مع الرفيق الأعلى**» قالت: فذهبت أنظر، فإذا هو قد قضى [(٣)].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١١٣٠]، وأحمد [٢٤٠٦٥]، وأبو عوانة في (مستخرجه) [١٨٨٥]، وقد تقدم

(٢) صحيح البخاري [٤٤٤٠، ٥٦٧٤]، مسلم [٢٤٤٤].

(٣) صحيح مسلم [٢١٩١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن التوبة نهاية كل عارف، وغاية كل سالك، وكما أنها بداية فهي نهاية، والحاجة إليها في النهاية أشد من الحاجة إليها في البداية، بل هي في النهاية في محل الضرورة"(١).

٦ – الاستغفار للأموات:

قال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان مشروعية الدعاء للأموات، والاستغفار لهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر:١٠].

ويشرع للمسلم أن يستغفر لنفسه ولإخوانه المؤمنين، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩].

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: نعى لنا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ النجاشي –صاحب الحبشة–، في اليوم الذي مات فيه، فقال: «**استغفروا لأخيكم**» (٢).

وعن عثمان بن عفان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال: «**استغفروا لأخيكم، وسلوا له بالتثبيت؛ فإنه الآن يسأل**» (٣).

(١) مدارج السالكين (٣/٤٠٢).

(٢) صحيح البخاري [١٣٢٧، ٣٨٨٠]، مسلم [٩٥١].

(٣) أخرجه أبو داود [٣٢٢١]، والبزار [٤٤٥]، وقال: "لا نعلم لهذا إسنادًا عن عثمان إلا هذا الإسناد"، كما أخرجه: ابن السني في (عمل اليوم والليلة) [٥٨٥]، والحاكم [١٣٧٢]، وقال: "صحيح=

وهذا الحديثُ يدل على انتفاع الميت باستغفار الحي له، وعلى أنه يُستحبُّ للأحياء أن يدعوا للأموات، وعلى أن سائر المسلمين بعضُهم أخو بعضٍ (١).

والميت أحوج ما يكون إلى الدعاء والاستغفار في هذا الموقف الذي يسأل فيه.

ويستحسن طلب المسامحة والصفح من كل يعرفه، فإن كان قد أساء إلى أحدهم أو قصَّر معه فلعل ذلك ينفعه في هذا الموقف، كما يستحسن التصدق عنه.

ومن أفضل القربات التي ينتفع بها الميت: الحج والعمرة عنه (٢).

=الإسناد". وأخرجه أيضًا: والبيهقي في (الدعوات الكبير) [٦٣٦]، والضياء [٣٨٨] وقال: "إسناده حسن".

(١) انظر: المفاتيح في شرح المصابيح (١/٢٣٥)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٢/٥٩٨)، سبل السلام (١/٥٠٠).

(٢) وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمع رجلًا يقول: لبيك عن شبرمة، قال: «من شبرمة؟» قال: أخ لي –أو قريب لي– قال: «حججت عن نفسك؟» قال: لا، قال: «حج عن نفسك ثم حج عن شبرمة». أخرجه ابن ماجه [٢٩٠٣]، وأبو داود [١٨١١]، وأبو يعلى [٢٤٤٠]، وابن الجارود [٤٩٩]، وابن خزيمة [٣٠٣٩]، وابن حبان [٣٩٨٨]، والطبراني [٣٩٨٨]، والدارقطني [٢٦٥٨]، والبيهقي [٨٦٧٥]، والضياء [٢٦١]. قال ابن الملقن في (خلاصة البدر المنير) (١/٣٤٥): "رواه أو داود وابن ماجه بإسناد على شرط مسلم، والدارقطني، وابن حبان، والبيهقي. قال البيهقي: إسناده صحيح ليس في الباب أصح منه". وللحديث طرق تنظر في مظانها، وقد روي نحوه عن عائشة بإسناد فيه ضعف، وكذا عن جابر.

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من استغفر للمؤمنين والمؤمنات كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة**»(١).

وعن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: جاء ماعز بن مالك إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال: «**ويحك، ارجع فاستغفر الله وتب إليه**»، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ويحك، ارجع فاستغفر الله، وتب إليه**»، قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهرني، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثل ذلك، حتى إذا كانت الرابعة، قال له رسول الله: «**فيم أطهرك؟**»، فقال: من الزنى، فسأل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أبه جنون؟**»، فأخبر أنه ليس بمجنون، فقال: «**أشرب خمرًا؟**» فقام رجل فَاسْتَنْكَهَهُ، فلم يجد منه ريح خمر، قال، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أزنيت؟**»، فقال: نعم، فأمر به فرجم، فكان الناس فيه فرقتين، قائل يقول: لقد هلك، لقد أحاطت به خطيئته، وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز، إنه جاء إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة، قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهم جلوس، فسلم ثم جلس، فقال: «**استغفروا لماعز بن مالك**»، قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك، قال، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم**»، قال: ثم جاءته امرأة من غَامِدٍ من الْأَزْدِ، فقالت: يا

---

(١) أخرجه الطبراني في (مسند الشاميين) [٢١٥٥]، قال الهيثمي (٢١٠/١٠): "رواه الطبراني، وإسناده جيد".

رسول الله، طهرني، فقال: «**ويحك ارجعي فاستغفري الله وتوبي إليه**»، فقالت: أراك تريد أن تُرَدِّدَنِي كما رَدَّدْتَ ماعز بن مالك، قال: «**وما ذاك؟**»، قالت: إنها حبلى من الزنى، فقال: «**آنْتِ؟**»، قالت: نعم، فقال لها: «**حتى تضعي ما في بطنك**»، قال: فكفلها رجل من الأنصار حتى وضعت، قال: فأتى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «**قد وضعت الغامدية**»، فقال: «**إذًا لا نرجمها وندع ولدها صغيرًا ليس له من يرضعه**»، فقام رجل من الأنصار، فقال: إلي رضاعه يا نبي الله، قال: فرجمها[(١)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**» [(٢)].

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللهُ: "هذه الثلاثُ الخصال إنما جرى عملها بعد الموت على من نسبت إليه؛ لأنه تسبب في ذلك، وحرص عليه، ونواه. ثم إن فوائدها متجددة بعده دائمةٌ، فصار كأنَّه باشرها بالفعل، وكذلك حكم كل ما سنَّه الإنسان من الخير، فتكرر بعده.." [(٣)].

---

(١) صحيح مسلم [١٦٩٥].

(٢) صحيح مسلم [١٦٣١].

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٤/ ٥٥٤).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وذلك لأن عمل الميت منقطع بموته، لكن هذه الأشياء لما كان هو سببها؛ من اكتسابه الولد، وبثه العلم عند من حمله فيه، أو إيداعه تاليفًا بقي بعده، وإيقافه هذه الصدقة بقيت له أجورها ما بقيت ووجدت" (١).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه: أن الدعاء يصل ثوابه إلى الميت، وكذلك الصدقة، وهما مجمع عليهما، وكذلك قضاء الدين، وأما الحج فيجزي عن الميت عند الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وموافقيه. وهذا داخل في قضاء الدين، إن كان حجًّا واجبًا وإن كان تطوُّعًا وصَّى به فهو من باب: (الوصايا).." (٢).

وينظر الخلاف في مظانه.

وقد تقدم حديث: أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الرجل لترفع درجته في الجنة فيقول: أنى هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك**» (٣).

ويتبين مما تقدم أن الميت كما ينتفع بدعاء الولد، فهو كذلك ينتفع بدعاء أخ، أو قريب، أو صديق، أو مسلم -على ما تقدم-.

أما الاستغفار للمشركين فهو محرم؛ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾ [التوبة:١١٣-١١٤].

---

(١) إكمال المعلم (٥/٣٧٣).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١١/٨٥).

(٣) تقدم.

ومهما استُغْفِرَ له فلن يغفر الله عَزَّوَجَلَّ له مع شركه، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ﴾ [التوبة:٨٠].

فإن قيل: كيف خفي على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن الاستغفار للكافر غير جائز حتى وعده؟ فالجواب: أنه يجوز أن يظن أنه ما دام يرجى منه الإيمان جاز الاستغفار له، فلما تبين له من جهة الوحي أنه لن يؤمن، وأنه يموت كافرًا وانقطع رجاؤه عنه، قطع استغفاره، فهو كقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾ [التوبة:١١٣]. قاله في (الكشاف) [١].

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "والدليل على وقوع هذا الاحتمال قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾ [التوبة:١١٣]، فبين أن المنع من الاستغفار إنما يحصل بعد أن يعرفوا أنهم من أصحاب الجحيم.

ثم قال بعد ذلك: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ [التوبة:١١٤]. فدلت الآية على أنه وعده بالاستغفار لو آمن، فلما لم يؤمن لم يستغفر له بل تبرأ منه.. [٢].

(١) الكشاف (٢/٣١٥).

(٢) مفاتيح الغيب (١٦/١٥٧).

وقال: "اعلم أنه جَلَّوَعَلَا لما بين من أول هذه السورة إلى هذا الموضع: وجوب إظهار البراءة عن الكفار والمنافقين من جميع الوجوه، بين في هذه الآية: أنه تجب البراءة عن أمواتهم، وإن كانوا في غاية القرب من الإنسان كالأب والأم، كما أوجبت البراءة عن أحيائهم، والمقصود منه: بيان وجوب مقاطعتهم على أقصى الغايات، والمنع من مواصلتهم"[1].

وقد صرح الحنفية بإجازة الاستغفار للكافر الحي؛ رجاء أن يؤمن فيغفر له.

وجوز الحنابلة الدعاء بالهداية، ولا يستبعد ذلك من غيرهم، كذلك استظهر بعضهم جواز الدعاء لأطفال الكفار بالمغفرة؛ لأن هذا من أحكام الآخرة -والمسألة مبسوطة في مظانها-.

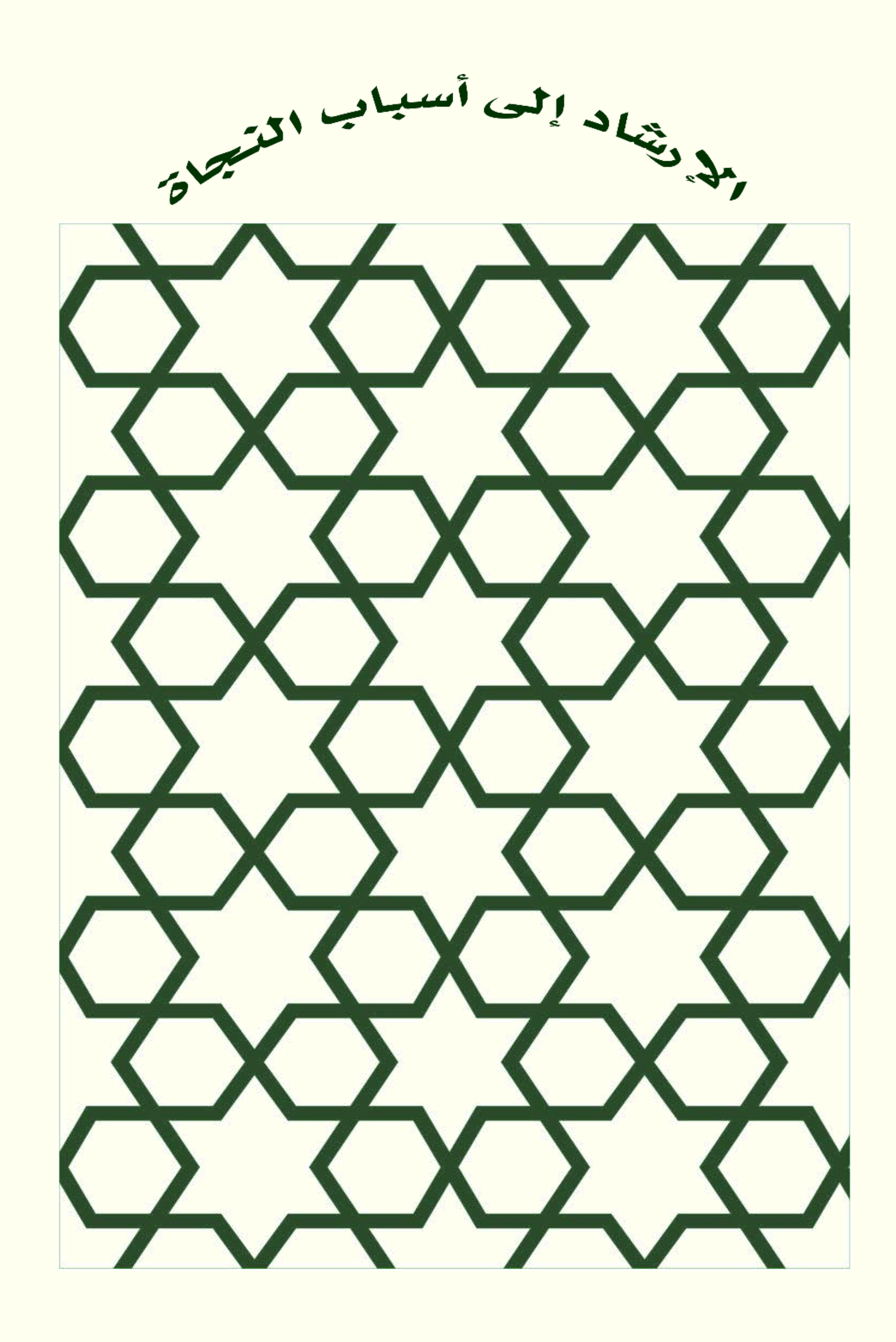
---

(١) المصدر السابق (٢١/٥٤٧).

المبحث التاسع:

الصبر والشكر

الإرشاد إلى أسباب النجاة



أولًا: تعريف الصبر وبيان أركانه وأقسامه:

١ - تعريف الصبر:

قال أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأصل الصَّبر: الحبس، وكل من حبس شيئًا فقد صبره"(١).

وقال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصَّبر: حبس النفس عن الجزع. وقد صبر فلان عند المصيبة يصبر صبرًا. وصبرته أنا: حبسته. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ [الكهف:٢٨].."(٢).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصَّبْرُ: الإمساك في ضيق، يقال: صَبَرْتُ الدَّابَّة: حبستها بلا علف، وصَبَرْتُ فلانًا: خلفته خلفة لا خروج له منها.

والصَّبْر: حبس النَّفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عمَّا يقتضيان حبسها عنه، فالصَّبْر لفظ عامٌّ، وربّما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف مواقعه، فإن كان حبس النَّفس لمصيبة سمِّي صبرًا لا غير، ويُضادُّه: الجزع، وإن كان في محاربة سمِّي: شجاعة، ويضادُّه: الجبن، وإن كان في نائبة مضجرة سمِّي: رحب الصَّدر، ويضادُّه: الضَّجر، وإن كان في إمساك الكلام سمِّي: كتمانًا، ويضادُّه: المذل، وقد سمَّى الله عَزَّوَجَلَّ كلَّ ذلك: صبرًا، ونبَّه عليه بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [البقرة:١٧٧]، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ﴾ [الحج:٣٥]، ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]، وسمِّي الصَّوم: صبرًا؛ لكونه كالنَّوع له.."(٣).

---

(١) غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام، مادة: (صبر) (١/٢٥٤).

(٢) الصحاح، مادة: (صبر) (٢/٧٠٦).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (صبر) (ص:٤٧٤)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (١١/٣٠٣).

وفي أسماء الله عَزَّوَجَلَّ: "(الصبور) هو الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام، وهو من أبنية المبالغة، ومعناه: قريب من معنى: (الحليم)، والفرق بينهما أن المذنب لا يأمن العقوبة في صفة: (الصبور)، كما يأمنها في صفة: (الحليم).

ومنه الحديث: «**لا أحدَ أَصْبَرُ على أَذًى يَسْمَعُهُ من الله** عَزَّوَجَلَّ» (١)، أي: أشد حلمًا عن فاعل ذلك، وترك المعاقبة عليه"(٢). والمعنى: أن الله عَزَّوَجَلَّ واسع الحلم حتى على الكافر الذي ينسب إليه الولد والند، يمهله، ولا يعاجل عقوبته.

وقال أبو عبد الله المازري رَحِمَهُ اللَّهُ: "المراد بهذا أن الله جَلَّوَعَلَا واسع الحلم عن الكافر الذي يضيف إليه الولد. و(الصبر): منع النَّفس من التَّشَفِّي والانتقام، أو منعها من غير ذلك، فلما كان الامتناع نتيجة الصَّبر عبر عن تركِ الباري جَلَّوَعَلَا الانتقام بهذه العبارة.."(٣).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "و(الصبور) من أسماء الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام، وهو بمعنى: (الحليم) فى أسمائه أيضًا جَلَّوَعَلَا، إلا أن الفرق بينهما أن (الصبور) يخشى عاقبة أخذه (٤)، و(الحليم) هو العفو الصفوح مع القدرة

---

(١) وتمامه: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عَزَّوَجَلَّ؛ إنه يشرك به، ويجعل له الولد، ثم هو يعافيهم ويرزقهم»، والحديث أخرجه البخاري [٦٠٩٩، ٧٣٧٨]، ومسلم [٢٨٠٤]، بألفاظ متقاربة.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (صبر) (٣/٧).

(٣) المعلم بفوائد مسلم (٣/٣٤٨).

(٤) أي: أخذه للعبد، بمعنى: تعجيل العقوبة، كما تقدم في كلام ابن الأثير: أن الفرق بينهما أن المذنب لا يأمن العقوبة في صفة: (الصبور)، كما يأمنها في صفة: (الحليم).

على الانتقام. قالوا: و(الصبور) قريب من معنى: (الحليم)، والحليم أبلغ في السلامة من العقوبة"(١).

قال ابن الأنباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنما سمي الصوم صبرًا؛ لأنه حَبْسٌ للنفس عن المطاعم والمشارب والمناكح والشهوات (٢).

قال أبو عمر ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "من الدليل على أن الصوم يسمى: (صبرًا): قول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من صام شهر الصبر، وثلاثة أيام من كل شهر فكأنه صام الدهر**» (٣)، يعني بشهر الصبر: شهر رمضان (٤).

قال القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصبر: حبس النفس عن مكروهها المختص بها. والمصابرة: حمل مكروه يكون بها وبغيرها؛ الأول كالمرض، والثاني كالجهاد"(٥).

---

(١) انظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (٣٣٦/٨)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٤٦/١٧)، فتح الباري، لابن حجر (٣٦١/١٣)، الديباج (١٥٩/٦).

(٢) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس (٢٠١/٢)، وانظر: معالم السنن، للخطابي (١٣٠/٢).

(٣) حديث: «صوم شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر صوم الدهر» أخرجه الطيالسي [٢٥١٥]، وإسحاق بن راهويه [١٢]، أخرجه أحمد [٧٥٧٧]، والبزار [٩٥٢٢]، والنسائي في (السنن) [٢٤٠٨]، وفي (الكبرى) [٢٧٢٩]، والبيهقي في (الكبرى) [٨٤٣٧]، وفي (شعب الإيمان) [٣٢٩٦].

(٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر (٦٠/١٩-٦١)، وانظر: الاستذكار، (٣٧٦/٣).

(5) أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي (٣٩٩/١).

وقال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "الصبر في لسان العرب: حبس النفس عن المطلوب حتى يدرك، ومنه نهيه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عن صبر البهائم، يعني: أنه نهى عن حبسها على التمثيل بها، ورميها كما ترمى الأغراض، ومنه قولهم: صبر الحاكم يمين فلان، يعني: حبسه على حلفه"(١).

وسئل عنه الجنيد رَحِمَهُ اللَّهُ عن الصبر فقال: هو تجرع المرارة من غير تعبس (٢).

وقيل: الصبر: حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها (٣).

وقيل: الصبر هو حبس النفس عما تتمنى من الشهوات، وعلى ما يشق عليها من العبادات، وفيما يصعب عليها من النائبات.

وقيل: المراد به الصبر عن الدنيا ولذاتها الدنية، وعن المعاصي، وعلى التكاليف الشرعية، وفي المصيبات والمحن الكونية، فيخرج العبد عن عهدتها فتكون ضياء؛ لأن بترك الصبر عليها يدخل في ظلمة المعاصي (٤).

وقال إبراهيم الخواص رَحِمَهُ اللَّهُ: الصبر هو الثبات على الكتاب والسنة.

وقال ذو النون رَحِمَهُ اللَّهُ: الصبر التباعد عن المخالفات، والسكون عند تجرع غصص البلية، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة.

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٩/٢٨٥).

(٢) انظر: الأعمال الكاملة، للجنيد البغدادي (ص:١٤٢)، وانظر: تسلية أهل المصائب (ص:١٤٠).

(٣) ذكره ابن فورك في غير موضع من (تفسيره)، وانظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٣/٥٧)، (٣/١٠٤)، الكشاف (٤/٣٥٩).

(٤) انظر: مرقاة المفاتيح (١/٣٤٢).

وقال ابن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب(١).

وقال الأستاذ أبو علي الدقاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حقيقة الصبر أن لا يعترض على المقدور. قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فأما إظهار البلاء لا على وجه الشكوى فلا ينافي الصبر، قال الله عَزَّوَجَلَّ في أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [ص:٤٤] مع أنه قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء:٨٣] -والله أعلم-"(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصبر: حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش"(٣).

وفي (تفسير المنار): "قال الأستاذ الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أمر بالصبر، وهو كما قال المفسر: حبس النفس على ما تكره.

ونقول بعبارة أوضح: هو احتمال المكروه بنوع من الرضى والاختيار والتسليم؛ لأنه لو لم يكن كذلك لكان كما يقول العامة في أمثالهم... وذكر مثلًا بمعنى قول الشاعر:

صبرت ولا والله ما لي طاقة ... على الصبر، ولكني صبرت على الرغم

والصبر الحقيقي المبني على التسليم يحصل بتذكر وعد الله عَزَّوَجَلَّ بالجزاء الحسن للصابرين على أعمال البر التي تشق على النفس، وعن الشهوات المحرمة التي تصبو

---

(١) انظر: الرسالة القشيرية (٣٢٣/١)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٠١/٣-١٠٢)، بصائر ذوي التمييز (٣٧٧/٣).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٠٢/٣).

(٣) انظر: مدارج السالكين (١٥٥/٢-١٥٦).

إليها، وبتذكر أن المصائب من فعل الله عَزَّوَجَلَّ، وتصرفه في خلقه؛ فيجب الخضوع له والتسليم لأمره، ومن عجيب أمر هذا الصبر أنه يقي الإنسان من الخسران متى حسن في كل شيء كما تفيده سورة (العصر)، ويؤيده الاختبار، وقد اشتهر أن (من صبر ظفر)"(١).

وقال المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وعلامة الصبر: ألا تشكو من جميع المصائب إلى أحد من المخلوقين شيئًا"(٢).

٢ - أركان الصبر:

لا يكون الصبر مثمرًا للخير إلا إذا كان قائمًا على أركان، منها: أن يكون الباعث على الصبر: الوصول إلى مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ، من امتثال الأمر، وتحصيل الأجر، والرضا بما قضى وقدَّر.

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن أركان الصبر ثلاثة:

الأول: حبس النفس عن التسخط بالمقدور.

والثاني: حبس اللسان عن الشكوى.

والثالث: حبس الجوارح عن المعصية، كاللطم، وشق الثياب، ونتف الشعر، ونحوه.

---

(١) المنار (٢٤٨/١).

(٢) آداب النفوس (ص:١٥١).

قال: فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة، فإذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوبًا.

فإن الله جَلَّ وَعَلَا لم يبتله؛ ليهلكه، وإنما ابتلاه؛ ليمتحن صبره وعبوديته؛ فإن لله عَزَّ وَجَلَّ على العبد عبودية الضراء، وله عبودية عليه فيما يكره، كما له عبودية فيما يحب، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون.

والشأن في إعطاء العبودية في المكاره، ففيه تفاوت مراتب العباد، وبحسبه كانت منازلهم عند الله عَزَّ وَجَلَّ، فالوضوء بالماء البارد في شدة الحر عبودية، ومباشرة زوجته الحسناء التي يحبها عبودية، ونفقته عليها وعلى عياله ونفسه عبودية.

هذا والوضوء بالماء البارد في شدة البرد عبودية، وتركه المعصية التي اشتدت دواعي نفسه إليها من غير خوف من الناس عبودية، ونفقته في الضراء عبودية، ولكن فرق عظيم بين العبودتين.

فمن كان عبدًا لله في الحالتين، قائمًا بحقه في المكروه والمحبوب فذلك الذي تناوله قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر:٣٦].."[(١)].

٣ - أقسام الصبر ومقاماته:

الصبر أقسام -كما ذكر الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره-، وهي:

الأول: الصبر على الطاعة.

---

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص:٥-٦).

والثاني: الصبر عن المعصية.

والثالث: الصبر على كتمان المصيبة، قال: وهو من كنوز البر.

والرابع: الصبر على كتمان الطاعة.

قال: والصبر حبس النفس عن ذلك كله (١).

وذكر الشيخ القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الصبر على أقسام:

"**الأول**: صبر على ما هو كسب للعبد.

والثاني: صبر على ما ليس بكسب.

فالصبر على المكتسب على قسمين:

الأول: صبر على ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به.

والثاني: صبر على ما نهى عنه.

وأما الصبر على ما ليس بمكتسب للعبد، فصبره على مقاساة ما يتصل به من حكم الله عَزَّوَجَلَّ فيما يناله فيه مشقة..."(٢).

وفي (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "باب الصبر عن محارم الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر:١٠]، وقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**وجدنا خير عيشنا بالصبر**».

---

(١) انظر: آداب النفوس (ص:١٥١).

(٢) الرسالة القشيرية (ص:٣٢٢).

وذكر حديث: «**ما يكن عندي من خير لا أدخره عنكم، وإنه من يستعف يعفه الله، ومن يتصبر يصبره الله، ومن يستغن يغنه الله، ولن تعطوا عطاء خيرًا وأوسع من الصبر**»[(١)].

وحديث: المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يصلي حتى ترم، أو تنتفخ قدماه، فيقال له، فيقول: «**أفلا أكون عبدا شكورا**»"[(٢)].

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "أرفع الصابرين منزلة عند الله عَزَّوَجَلَّ: من صبر عن محارم الله جَلَّ وَعَلَا، وصبر على العمل بطاعة الله جَلَّ وَعَلَا، ومن فعل ذلك فهو من خالص عباد الله عَزَّوَجَلَّ وصفوته"[(٣)].

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "والصبر المحمود أنواع: منه: صبر على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، ومنه: صبر عن معاصي الله عَزَّوَجَلَّ، ومنه: صبر على أقدار الله عَزَّوَجَلَّ.

والصبر على الطاعات، وعن المحرمات أفضل من الصبر على الأقدار المؤلمة، صرَّح بذلك السَّلف، منهم: سعيد بن جبير، وميمون بن مهران رَحِمَهُمَا اللَّهُ وغيرهما"[(٤)].

وقال ميمون بن مهران رَحِمَهُ اللَّهُ: الصبر صبران: فالصبر على المصيبة حسن، وأفضل منه الصبر عن المعصية.

---

(١) صحيح البخاري [١٤٦٩، ٦٤٧٠]، مسلم [١٠٥٣].
(٢) صحيح البخاري (٨/٩٩) [٦٤٧٠، ٦٤٧١].
(3) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/١٨٢).
(٤) جامع العلوم والحكم (٢/٢٥).

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد:٢٤]. ثم قال: صبروا على ما أمروا به، وصبروا عما نهوا عنه. انتهى كلامه، فكأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل الصبر عن المعصية داخلاً في قسم المأمور به [(١)].

وقد قيل في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]، أي: الصابرين على الطاعة، والصابرين عن المعصية، وكذلك معنى: الصابرات.

قال بعض أهل العلم: الصبر عن المعصية أفضل من الصبر على الطاعة، قال السمعاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وعليه الأكثرون [(٢)].

وأخرج ابن أبي حاتم: "عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه: الصبر عن محارم الله عَزَّ وَجَلَّ. وروي عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ نحو: قول عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ" [(٣)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ورجحت طائفة الصبر على الطاعة؛ بناءً منها على أن فعل المأمور أَفضل من ترك المنهيات، واحتجت على ذلك بنحو من عشرين حجة.

ولا ريب أن فعل المأمورات إنما يتم بالصبر عليها، فإذا كان فعلها أفضل كان الصبر عليها أفضل، وفصل النزاع فى ذلك: أن هذا يختلف باختلاف الطاعة والمعصية: فالصبر على الطاعة العظيمة الكبيرة أفضل من الصبر عن المعصية الصغيرة الدنية،

---

(١) تسلية أهل المصائب (ص:١٤٠)، عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص:٧١).

(٢) انظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٢٨٣/٤).

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١٠٢/١)، (١٥٣٩/٥)، وانظر: تفسير ابن كثير (٢٥١/١)، الدر المنثور (١٥٩/١)، المجالسة وجواهر العلم (٥٣٥/٣).

والصبر عن المعصية الكبيرة أفضل من الصبر على الطاعة الصغيرة، وصبر العبد على الجهاد -مثلًا- أفضل وأعظم من صبره عن كثير من الصغائر، وصبره عن كبائر الإثم والفواحش أعظم من صبره على صلاة الضحى.

وصوم يوم تطوعًا ونحوه، فهذا فصل النزاع في المسألة -والله أعلم-"[1].

وذكر الشيخ عبد الله الأنصاري الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الصبر على ثلاث درجات:

"**الدرجة الأولى**: **الصبر عن المعصية**: بمطالعة الوعيد؛ إبقاء على الإيمان، وحذرًا من الجزاء. وأحسن منها الصبر عن المعصية؛ حياء.

والدرجة الثانية: **الصبر على الطاعة**: بالمحافظة عليها دوامًا، وبرعايتها إخلاصًا، وبتحسينها علمًا.

والدرجة الثالثة: **الصبر في البلاء**: بملاحظة حسن الجزاء، وانتظار روح الفرج، وتهوين البلية بعد أيادي المنن، وتذكر سوالف النعم.

وفي هذه الدرجات الثلاث من الصبر نزلت: ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾ [آل عمران:٢٠٠]، يعني: في البلاء ﴿وَصَابِرُواْ﴾، يعني: عن المعصية، ﴿وَرَابِطُواْ﴾، يعني: على الطاعة..."[2].

وقد فصل القول في ذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المدارج)، وقال في بيان (الدرجة الثانية): "هذا يدل على أن عنده: أن فعل الطاعة آكد من ترك المعصية، فيكون الصبر عليها فوق الصبر عن ترك المعصية في الدرجة.

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٧٦)، وانظر: مدارج السالكين (٢/١٦٥).

(٢) منازل السائرين (ص:٤٩-٥٠).

وهذا هو الصواب -كما تقدم-؛ فإن ترك المعصية إنما كان لتكميل الطاعة. والنهي مقصود للأمر. فالمنهي عنه لما كان يضعف المأمور به وينقصه: نُهي عنه؛ حماية، وصيانة لجانب الأمر، فجانب الأمر أقوى وآكد، وهو بمنزلة الصحة والحياة، والنهي بمنزلة الحمية التي تراد لحفظ الصحة وأسباب الحياة"(١).

فعلى هذا فالصبر على الطاعة أفضل من الصبر عن المعصية، والصبر عن المعصية أفضل من الصبر على أقدار الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه لا اختيار للإنسان في دفع أقدار الله جَلَّوَعَلَا.

ولكن اختلاف شدة الصبر في أنواع المعاصي وآحادها يكون باختلاف داعيه إلى تلك المعصية في قوتها وضعفها -كما حرَّر ذلك العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ- (٢).

وقد أوجز الإمام ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التفسير) ما تقدم ذكره، حيث قال: "والصابرون على أربعة أوجه:

أ. **صبر على البلاء**: وهو منع النفس من التسخيط، والهلع، والجزع.

ب. **وصبر على النعم**: وهو تقييدها بالشكر، وعدم الطغيان، وعدم التكبر بها.

ج. **وصبر على الطاعة**: بالمحافظة والدوام عليها.

د. **وصبر عن المعاصي**: بكف النفس عنها.

---

(١) مدارج السالكين (٢/١٦٥)، وانظر: بصائر ذوي التمييز (٣/٣٨١)، نجاح القاري لصحيح البخارِي (١/٢٢٢٨١).

(٢) انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص:٧١).

قال: وفوق الصبر: التسليم، وهو ترك الاعتراض والتسخيط ظاهرًا، وترك الكراهة باطنا، وفوق التسليم: الرضا بالقضاء، وهو سرور النفس بفعل الله عَزَّوَجَلَّ، وهو صادر عن المحبة، وكل ما يفعل المحبوب محبوب"[1] وهو إيجاز من النفاسة بمكان.

وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) في بيان مقامات الصبر: "قال بعضهم: الصبر تارة يكون لله عَزَّوَجَلَّ، وتارة يكون بالله:

فالأول: الصابر لأمر الله جَلَّوَعَلَا؛ طلبًا لمرضاته، فيصبر على الطاعة، ويصبر عن المعصية.

والثاني: المفوض لله عَزَّوَجَلَّ، بأن يبرأ من الحول والقوة ويضيف ذلك إلى ربه جَلَّوَعَلَا.

وزاد بعضهم: الصبر على الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الرضا بالمقدور.

فالصبر لله عَزَّوَجَلَّ يتعلق بإلهيته، ومحبته.

والصبر به يتعلق بمشيئته وإرادته.

والثالث: يرجع إلى القسمين الأولين عند التحقيق؛ فإنه لا يخرج عن الصبر على أحكامه الدينية، وهي أوامره ونواهيه، والصبر على ابتلائه وهو أحكامه الكونية -والله اعلم-"[2].

(١) التسهيل لعلوم التنزيل (١/١٠٣).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١١/٣٠٥).

وقال بعض أهل العلم: إن الصبر يكون لله عَزَّوَجَلَّ، وفي الله، ومع الله، وعن الله، وبالله، وينظر ذلك في مظانه (١).

والصبر يكون من حيث الابتلاء به عند النعمة، وعند المصيبة.

والصبر على البلاء من حيث وقوعه على العبد والتأثر به صبران: صبر عند الغضب، وصبر عند المصيبة، كما قيل: ما تجرع عبد جرعة أعظم من جرعة حلم عند الغضب، وجرعة صبر عند المصيبة؛ قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وذلك لأن أصل ذلك هو الصبر على المؤلم. وهذا هو الشجاع الشديد الذي يصبر على المؤلم. والمؤلم إن كان مما يمكن دفعه أثار الغضب وإن كان مما لا يمكن دفعه أثار الحزن؛ ولهذا يحمر الوجه عند الغضب؛ لثوران الدم عند استشعار القدرة، ويصفر عند الحزن؛ لغور الدم عند استشعار العجز؛ ولهذا جمع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في الحديث)الصحيح(الذي رواه مسلم: عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**ما تَعُدُّونَ الرَّقُوبَ فيكم؟**» قال قلنا: الذي لا يولد له، قال: «**ليس ذاك بِالرَّقُوبِ، ولكنَّهُ الرَّجُلُ الَّذي لم يُقَدِّمْ من وَلَدِهِ شيئًا**» قال: «**فما تعدون الصُّرَعَةَ فيكم؟**»، قال قلنا: الذي لا يَصْرَعُهُ الرجال، قال: «**ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب**» (٢). فذكر ما يتضمن الصبر

---

(١) انظر: روح المعاني، للألوسي (٧/٤٩٤-٤٩٥)، وانظر: منازل السائرين (ص:٥٠-٥١)، مدارج السالكين (٢/١٦٧)، بصائر ذوي التمييز (٣/٣٨٢).

(٢) صحيح مسلم [٢٦٠٨]. قال الإمام النووي: "أما (الرقوب) فبفتح الراء، وتخفيف القاف. و(الصرعة) بضم الصاد، وفتح الراء، وأصله في كلام العرب: الذي يصرع الناس كثيرًا. وأصل الرقوب في كلام العرب: الذي لا يعيش له ولد. ومعنى الحديث: أنكم تعتقدون أن الرقوب المحزون هو: المصاب بموت=

عند المصيبة والصبر عند الغضب، قال الله عَزَّوَجَلَّ في المصيبة: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٦]. وقال جَلَّوَعَلَا في الغضب: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٣٥﴾ [فصلت:٣٥]. وهذا الجمع بين صبر المصيبة، وصبر الغضب نظير الجمع بين صبر النعمة، وصبر المصيبة، كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ ثُمَّ نَزَعۡنَٰهَا مِنۡهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٞ كَفُورٞ ٩ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١١﴾ [هود:٩-١١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الحديد:٢٣]"(١).

وقد قسم ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الصبر باعتبار محله، وبحسب اختلاف قوته وضعفه، وباعتبار متعلقه، وباعتبار تعلق الأحكام الخمسة به.

فقال: هو باعتبار محلة ضربان: ضرب بدني، وضرب نفساني، وكل منهما نوعان اختياري واضطراري.

=أولاده، وليس هو كذلك شرعًا، بل هو من لم يمت أحد من أولاده في حياته، فيحتسبه، يكتب له ثواب مصيبته به، وثواب صبره عليه، ويكون له فرطًا وسلفًا، وكذلك تعتقدون أن الصرعة الممدوح القوي الفاضل هو: القوي الذي لا يصرعه الرجال، بل يصرعهم، وليس هو كذلك شرعًا، بل هو من يملك نفسه عند الغضب، فهذا هو الفاضل الممدوح الذي قلَّ من يقدر على التخلق بخلقه، ومشاركته في فضيلته، بخلاف الأول" شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/١٦٢).

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/١٥٨-١٦٠)، الاستقامة (٢/٢٧١-٢٧٢)، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (ص:٤٢).

وله بحسب اختلاف قوته وضعفه ومقاومته لجيش الهوى ثلاثة أحوال:

إحداها: أن يكون القهر والغلبة لداعي الدين فيرد جيش الهوى مغلولًا.

الحالة الثانية: أن تكون القوة والغلبة لداعي الهوى.

الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجالًا.

وهو باعتبار متعلقه ثلاثة أقسام: صبر على الأوامر والطاعات حتى يؤديها، وصبر عن المناهي والمخالفات حتى لا يقع فيها، وصبر على الأقدار والأقضية حتى لا يتسخطها.

وهذه الثلاثة قد وقعت الإشارة إليها بآية: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ [لقمان:١٧].

وهو ينقسم بهذا باعتبار تعلق الأحكام الخمسة به إلى واجب، ومندوب، ومحظور، ومكروه، ومباح:

فالصبر الواجب ثلاثة أنواع:

أحدها: الصبر عن المحرمات.

والثاني: الصبر على أداء الواجبات.

والثالث: الصبر على المصائب التي لا صنع للعبد فيها، كالأمراض، والفقر وغيرها.

وأما الصبر المندوب فهو الصبر عن المكروهات، والصبر على المستحبات، والصبر على مقابلة الجاني بمثل فعله.

وأما المحظور فأنواع:

أحدها: الصبر عن الطعام والشراب حتى يموت، وكذلك الصبر عن الميتة، والدم، ولحم الخنزير عند المخمصة حرام إذا خاف بتركه الموت.

ومن الصبر المحظور: صبر الإنسان على ما يقصد هلاكه، من سبع، أو حيات، أو حريق، أو ماء، أو كافر يريد قتله، بخلاف استسلامه وصبره في الفتنة، وقتال المسلمين؛ فإنه مباح له، بل يستحب كما دلت عليه النصوص الكثيرة.

وأما الصبر المكروه فله أمثلة:

أحدها: أن يصبر عن الطعام، والشراب، واللبس، وجماع أهله، حتى يتضرر بذلك بدنه.

الثاني: صبره عن جماع زوجته إذا احتاجت إلى ذلك، ولم يتضرر به.

الثالث: صبره على المكروه.

الرابع: صبره عن فعل المستحب.

وأما الصبر المباح فهو الصبر عن كل فعل مستوى الطرفين، خير بين فعله وتركه والصبر عليه.

وبالجملة فالصبر على الواجب واجب، وعن الواجب حرام، والصبر عن الحرام واجب، وعليه حرام، والصبر على المستحب مستحب، وعنه مكروه، والصبر عن المكروه مستحب، وعليه مكروه، والصبر عن المباح مباح -والله أعلم-"[1].

---

(١) انظر ذلك مفصلًا في (عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين) (ص:٢٢-٣٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان مراتب الصابرين: "هي خمسة: صابر، ومصطبر، ومتصبر، وصبور، وصبار، فالصابر: أعمها، والمصطبر: المكتسب الصبر المليء به. والمتصبر: المتكلف حامل نفسه عليه. والصبور: العظيم الصبر الذي صبره أشد من صبر غيره. والصبار: الكثير الصبر. فهذا في القدر والكم، والذي قبله في الوصف والكيف.

قال: وقف رجل على الشبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال: أي صبر أشد على الصابرين؟ فقال: الصبر في الله جَلَّ وَعَلَا، قال السائل: لا، فقال: الصبر لله، فقال: لا، فقال: الصبر مع الله، فقال: لا، قال الشبلي: فإيش هو؟ قال: الصبر عن الله. فصرخ الشبلي صرخة كادت روحه تتلف.

وقال الجريري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الصبر أن لا يفرق بين حال النعمة وحال المحنة، مع سكون الخاطر فيهما. والتصبر: هو السكون مع البلاء، مع وجدان أثقال المحنة.

قال أبو علي الدقاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فاز الصابرون بعز الدارين؛ لأنهم نالوا من الله عَزَّوَجَلَّ معيته؛ فإن الله جَلَّ وَعَلَا مع الصابرين.

وقيل في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾ [آل عمران:٢٠٠]: إنه انتقال من الأدنى إلى الأعلى، فالصبر دون المصابرة، والمصابرة دون المرابطة، والمرابطة مفاعلة من الربط، وهو الشد. وسمي المرابط مرابطًا؛ لأن المرابطين يربطون خيولهم ينتظرون الفزع. ثم قيل لكل منتظر قد ربط نفسه لطاعة ينتظرها: مرابط..."[١].

---

(١) مدارج السالكين (٢/١٥٨)، وانظر: عدة الصابرين (ص:١٦).

وقيل: "إنه على ثلاث مقامات مرتبة بعضها فوق بعض:

فالأول: التصبر، وهو تحمل مشقة، وتجرع غصة، والثبات على ما يجرى من الحكم. وهذا هو التصبر لله عَزَّوَجَلَّ، وهو صبر العوام.

والثاني: الصبر، وهو نوع سهولة تخفف عن المبتلى بعض الثقل، وتسهل عليه صعوبة المراد، وهو الصبر لله جَلَّوَعَلَا، وهو نوع سهولة، وهو صبر المريدين.

والثالث: الاصطبار وهو التلذذ بالبلوى والاستبشار باختيار المولى، وهذا هو الصبر على الله عَزَّوَجَلَّ، وهو صبر العارفين"(١).

وللصبر على ما يصب المسلم من الشدة والبلاء والكوارث صور كثيرة، وقد ورد أن الصبر فيها من أسباب تكفير الذنوب، ورفعة الدرجات.

وسيأتي بيان ذلك في (أفضل الصبر).

ثانيًا: بيان مكانة الصبر وأنه من أعظم المنجيات من سوء العاقبة:

١ – الصبر من أعظم المنجيات من الفتن وسوء العاقبة:

إن من أعظم المنجيات من الفتن وسوء العاقبة: صبر المؤمن على ما يقع عليه من البلاء في الحياة الدنيا.

فيحتاج المؤمن إلى الصبر في جميع أحواله، ولا سيما إذا نزل به ضُرٌّ، من نحو: فقر، أو مرض، أو محنة، أو بلية.

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن القيم (ص:٢٦٤-٢٦٥).

وفي الحديث: عن صهيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمره كُلَّهُ خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سَرَّاءُ شَكَرَ، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضَرَّاءُ، صَبَرَ فكان خيرًا له**»(١).

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ أمره كُلَّهُ خيرٌ**» أي: خير له في المآل وإن كان بعضه شرًّا صوريًّا في الحال.

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "المؤمن هنا هو العالم بالله عَزَّ وَجَلَّ، الراضي بأحكامه، العامل على تصديق موعوده، وذلك أن المؤمن المذكور إما أن يبتلى بما يضره، أو بما يسره، فإن كان الأول صبر واحتسب ورضي، فحصل على خير الدنيا والآخرة وراحتهما، وإن كان الثاني، عرف نعمة الله عَزَّ وَجَلَّ عليه، ومنَّته فيها، فشكرها وعمل بها، فحصل على نعيم الدنيا ونعيم الآخرة.

وقوله: «**وليس ذلك إلا للمؤمن**» أي: المؤمن الموصوف بما ذكرته؛ لأنه إن لم يكن كذلك لم يصبر على المصيبة، ولم يحتسبها، بل يتضجر ويتسخط، فينضاف إلى مصيبته الدنيوية مصيبته في دينه، وكذلك لا يعرف النعمة، ولا يقوم بحقها، ولا يشكرها، فتنقلب النعمة نقمة والحسنة سيئة -نعوذ بالله من ذلك-"(٢).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: لما حُضِرَتْ بِنْتٌ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَغِيرَةٌ، فأخذها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضمَّها إلى صدره، ثم وضع يده عليها، فقضت وهي

---

(١) صحيح مسلم [٢٩٩٩]، وقد تقدم.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٦٣٠).

بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فبكت أم أيمن، فقال لها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أم أيمن، أتبكين ورسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عندك**»، فقالت: ما لي لا أبكي ورسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يبكي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني لست أبكي، ولكنها رحمة**»، ثم قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المؤمنُ بِخَيْرٍ على كُلِّ حالٍ تُنْزَعُ نَفْسُهُ من بين جَنْبَيْهِ وهو يَحْمَدُ اللَّهَ** عَزَّ وَجَلَّ»(1)، يعني: أن أحوال المؤمن كلها خير له، سواء كانت سرَّاء، أم ضرَّاء؛ إذ يُثاب على كلِّ أحواله، ففي السرَّاء يُثاب على شكره، وفي الضرَّاء يثاب على صبره.

وقوله: «**تُنْزَعُ نَفْسُهُ**» ببناء الفعل للمفعول، أي: تخرُج روحه. «**من بين جَنْبَيْهِ، وهو يَحْمَدُ اللهَ** عَزَّ وَجَلَّ»، أي: فهو في هذه الحالة في ثواب عظيم، حيث رضي بقضاء ربِّه، ولم يَجزَع، بل حمده على ما أصابه، فوَفَّاه أجرَه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠].

والمصائبُ التي يُبْتلى بها المؤمنُ في الدنيا من أسباب تكفير السيئات، ورفعة الدرجات، كما جاء في الحديث: عن أبي سعيد، وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنهما سمعا رسول

(1) أخرجه أحمد [٢٧٠٤]، وهناد [١٣٢٨]، وعبد بن حميد [٥٩٣]، والنسائي [١٨٤٣]، واللفظ له. وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٢٩١٤]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٦٨٢]، والضياء [١٨١]، ورمز السيوطي في (جامعه) لحسنه.

الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: «**ما يصيب المؤمن من وَصَبٍ، ولا نَصَبٍ، ولا سَقَمٍ، ولا حَزَنٍ حتَّى الْهَمّ يُهَمُّهُ، إلَّا كُفِّرَ من سيئاته**»(١).

وإنَّ من أوهنِ ما يتعلَّلُ به أهلُ الغواية في سلوكِ طريق الضَّلال: ما يقعُ على المرء من الابتلاءات، وتبدُّلِ الأحوال، وهو أمرٌ يشترك فيه جميعُ الناس في الدنيا؛ لأنها محلُّ ابتلاء. والله عَزَّوَجَلَّ يبتلي العباد في الدنيا؛ ليميزَ الخبيث من الطيب، والصادق في دعواه من الكاذب، فَيُبْتَلى العبدُ بما يقع عليه من ظُلْمٍ، وبالفقرِ والمرضِ، والخوفِ، وفَقْدِ الأحباب، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧].

إنها سنَّةُ الله عَزَّوَجَلَّ في تمحيصِ المؤمنين، وإعدادِهم؛ ليدخلوا الجنة، وليكونوا أهلًا لها.

فالمهتدون هم الموَفَّقُون إلى ما يَنْبَغِي عَمَلُهُ في أَوْقَاتِ الْمَصَائِبِ والشَّدَائِدِ، فلا ينحرفونَ عن الجادَّةِ، ولكن يصبرون على ما أصابهم من البلاء، بل يزيدهم ما أصابَهم من البلاء إيمانًا واحتسابًا؛ إِذْ لَا يَسْتَحْوِذُ الْجَزَعُ عَلَى نُفُوسِهِمْ، ولَا يَذْهَبُ الْبَلَاءُ بِالْأَمَلِ مِنْ قُلُوبِهِمْ، فَيَكُونُونَ من الفائزين بخيرِ الدنيا، وسعادةِ الآخرة.

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٧٣].

وأمَّا الَّذِينَ لم يَهْتَدُوا فَهُمْ يَجْعَلُونَ الْمَصَائِبَ سَبَبًا في اعْتِرَاضِهِمْ على اللهِ عَزَّوَجَلَّ، أو كُفْرِهِمْ به، أو قَوْلِ ما لا يَلِيقُ، أو شَكِّهِمْ في صِحَّةِ ما هم عليه من الإسلام، يقولُونَ: لو كان هذا هو الدِّينَ الْمَرْضِيَّ لِلَّهِ عَزَّوَجَلَّ لَمَا لَحِقَنَا عَذَابٌ وَمُصِيبَةٌ، وهذا شَأْنُ أَهْلِ الضَّلَالِ الَّذِينَ حَذَّرَنَا اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ أَمْرَهُمْ، وسلوك نهجهم، بقوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف:١٣١]، ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣]، ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١﴾ [التغابن:١١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "جَمَعَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لأهلِ هدايته بين الهدى، والرحمةِ، والصَّلاةِ عليهم، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة:١٥٧].

قال عمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**نِعْمَ العِدْلان، ونِعْمَ العِلاوَة**»[1]. و(العِدْلان) أي: المثلان، قيل: العِدْلَان: الصلواتُ والرحمة، والعلاوةُ: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾.

وقيل: [العِدْلان]: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾، والعلاوة: التي يثاب عليها.

(١) صحيح البخاري (٢/٨٣).

فبالهدى خَلَصُوا من الضلال، وبالرحمة نَجَوا من الشقاءِ والعذاب، وبالصلاةِ عليهم نالوا منزلةَ القُرْب والكرامة"(١).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الفتح) والصبر سبب في حصول كل كمال، وإلى ذلك أشار صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**إن الصبر خير ما أعطيه العبد**»"(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن الصبر سبب فى حصول كل كمال، فأكمل الخلق أصبرهم، ولم يتخلف عن أحد كماله الممكن إلا من ضعف صبره؛ فإن كمال العبد بالعزيمة والثبات، فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص، ومن كانت له عزيمة ولكن لا ثبات له عليها فهو ناقص.

فإذا انضم الثبات إلى العزيمة أثمر كل مقام شريف وحال كامل؛ ولهذا جاء في دعاء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي رواه الإمام أحمد، وابن حبان فى (صحيحه): «**اللَّهم إنى أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد**» (٣)، ومعلوم أن شجرة الثبات والعزيمة

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/١٧٢-١٧٣).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١١/٣٠٥)، والحديث تقدم.

(3) قال ابن رجب: "أخرجه الترمذي مختصرًا، وابن حبان في (صحيحه)، والحاكم، وصححه، وله طرق متعددة عن شداد" مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (١/٣٣٥). وقال الحافظ العراقي: "أخرجه الترمذي، والنسائي، والحاكم وصححه من حديث: شداد بن أوس. قلت: بل هو منقطع وضعيف" المغني عن حمل الأسفار (ص:٣٧٩). وأخرجه الطبراني في (الكبير) و(الأوسط) عن البراء. قال الهيثمي (١٠/١٧٣): "فيه موسى بن مطير، وهو متروك".

لا تقوم إلا على ساق الصبر، فلو علم العبد الكنز الذي تحت هذه الأحرف الثلاثة، أعني: اسم (الصبر) لما تخلف عنه"[1].

وقال: "قيام عبودية الأمر والنهي والقدر على ساق الصبر لا تستوي إلا عليه، كما لا تستوي السنبلة إلا على ساقها"[2].

وقال: "ولا تقوم التقوى إلا على ساق الصبر"[3].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما أهل الإيمان: فيؤمنون بالقضاء والقدر، والأمر والنهي، ويفعلون المأمور، ويتركون المحظور، ويصبرون على المقدور، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٠﴾ [يوسف:٩٠]، فـ: (التقوى) تتناول: فعل المأمور، وترك المحظور، و(الصبر) يتضمن: الصبر على المقدور. وهؤلاء إذا أصابتهم مصيبة في الأرض، أو في أنفسهم علموا أن ذلك في كتاب، وأن ما أصابهم لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، فسلموا الأمر لله عَزَّوَجَلَّ، وصبروا على ما ابتلاهم به. وأما إذا جاء أمر الله عَزَّوَجَلَّ فإنهم يسارعون في الخيرات، ويسابقون إلى الطاعات، ويدعون ربهم رغبًا ورهبًا، ويجتنبون محارمه، ويحفظون حدوده، ويستغفرون الله عَزَّوَجَلَّ، ويتوبون إليه من تقصيرهم فيما أمر، وتعديهم لحدوده"[4].

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص:٢٦٦).

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص:٢٨-٢٩)، وانظر: فيض القدير (٤/٢٣٤).

(٣) الجواب الكافي (ص:٩٧).

(٤) مجموع الفتاوى (٢/٣٠٣-٣٠٤).

وقال في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٨٦﴾ [آل عمران:١٨٦]: "إن (التقوى) تتضمن: فعل المأمور، وترك المحظور، و(الصبر) يتضمن: الصبر على المقدور. فالثلاثة ترجع إلى هذين الأصلين، والثلاثة في الحقيقة ترجع إلى امتثال الأمر، وهو طاعة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ"(١).

وقد وَعَدَ الله عَزَّوَجَلَّ الصابرينَ بثلاثة أشياء كلٌّ واحدٍ خيرٌ من الدنيا وما عليها، وهي: صلواتُه عَزَّوَجَلَّ عليهم، ورحمتُه لهم، وتخصيصُهم بالهداية في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾، وهذا مفهمٌ لحصر الهدى فيهم(٢)، فهم الموفقون المهتدون.

وأخبرَ أن الصَّبرَ من عزم الأمور: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ۝١٨٦﴾ [آل عمران:١٨٦].

وقد نقدم أن أشد الناس بلاء الأنبياء عَلَيْهِمُالسَّلَامُ، ثم الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ(٣)، وقد صبروا على ما أصابهم من البلاء، وأخلصوا لله عَزَّوَجَلَّ في العبادة والدعاء، ففرج الله عَزَّوَجَلَّ عنهم ما أصابهم، فكانوا على العهد، صابرين على ما أصابهم، وشاكرين لله عَزَّوَجَلَّ في كل حال، وهم خيرة عباده الذين هداهم الله عَزَّوَجَلَّ، فكانوا قدوة لكل من اقتفى أثرهم، وسار على هديهم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام:٩٠].

وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن صبرهم وإخلاصهم في الدعاء، فقال عن نوح عَلَيْهِالسَّلَامُ: ﴿وَنُوحًا

(١) المصدر السابق (١٠/٤٥٦).

(٢) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين (ص:١١٣).

(٣) سيأتي ذكر ما جاء في ذلك من الحديث وتخريجه.

إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧٦-٧٧].

وقال عن أيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وزكريا عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٣-٩٠]. فهؤلاء الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وصفهم الله عَزَّ وَجَلَّ بالصبر، ووصفهم كذلك بالصلاح، وهو يشمل: صلاح القلب، بمعرفة الله عَزَّ وَجَلَّ ومحبته، والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان، بأن يكون رطبًا من ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، وصلاح الجوارح، باشتغالها بطاعة الله جَلَّ وَعَلَا، وكفها عن المعاصي. فبصبرهم وصلاحهم، أدخلهم الله في رحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والآجل، ونوه بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، فكفى بذلك شرفًا وفضلًا.

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ عن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ أيضًا: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا

تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ [ص:٤١-٤٤]، "يذكر الله عَزَّوَجَلَّ عن أيوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، ما كان أصابه من البلاء، في ماله، وولده، وجسده، وذلك أنه كان له من الدواب والأنعام والحرث شيء كثير، وأولاد كثيرة، ومنازل مرضية. فابتلي في ذلك كله، وذهب عن آخره، ثم ابتلي في جسده، يقال: بالجذام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر بهما الله عَزَّوَجَلَّ، حتى عافه الجليس، وأُفْرِدَ في ناحية من البلد، ولم يبق من الناس أحد يَحْنُو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بأمره. ويقال: إنها احتاجت فصارت تخدم الناس من أجله، وقد كان نبي الله عَزَّوَجَلَّ أيوب عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ غاية في الصبر، وبه يضرب المثل في ذلك"(١).

وفي الحديث: عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وإن كان في دينه رِقَّةٌ ابْتُلِيَ على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة**»(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/٣٥٩).

(2) أخرجه الطيالسي [٢١٢]، وأحمد [١٤٨١]، وعبد بن حميد [١٤٦]، والدارمي [٢٢٥]، وابن ماجه [٤٠٢٣]، والترمذي [٢٣٩٨]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه: البزار [١١٥٤]، والنسائي في (الكبرى) [٧٤٣٩]، وأبو يعلى [٨٣٠]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٢٢٠٢]، والشاشي [٦٧]، وابن حبان [٢٩٠٠]، والحاكم [١٢١]، وأبو نعيم في (الحلية) (١/٣٦٨)، والبيهقي في (الكبرى) [٦٥٣٤]، وفي (شعب الإيمان) [٩٣١٨]، والبغوي في (شرح السنة) [١٤٣٤]، والضياء [١٠٥٦]، وقال: "إسناده صحيح".

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: دخلت على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو يُوعَكُ، فَوَضَعْتُ يَدِي عليه فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بين يَدَيَّ فوقَ اللِّحَاف، فقلتُ: يا رسول اللهِ ما أَشَدَّهَا عليكَ قال: «**إِنَّا كذلكَ يُضَعَّفُ لنا الْبَلَاءُ، وَيُضَعَّفُ لنا الْأَجْرُ**»، قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قال: «**الْأَنْبِيَاءُ**»، قلتُ: يا رسول الله ثُمَّ مَنْ؟ قال: «**ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ، حَتَّى ما يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا الْعَبَاءَةَ يَحُوبُهَا، وإِنْ كان أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلَاءِ، كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ**»(١).

وفي (الصحيحين): عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: دخلت على النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فَمَسِسْتُهُ بِيَدِي فقلتُ: يا رسول الله، إِنَّكَ لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا؟ فقال رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَجَلْ، إِنِّي أُوعَكُ كما يُوعَكُ رجلانِ منكم**»، فقلتُ: ذلك أنَّ لك أَجْرَيْنِ؟ فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**أَجَلْ**»، ثُمَّ قال رسولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما من مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى، مَرَضٌ فما سِوَاهُ، إِلَّا حَطَّ اللَّهُ له سَيِّئَاتِهِ، كما تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا**»(٢).

وعن أبي عبيدة بن حذيفة، عن عمته فاطمة أنها قالت: أتينا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نَعُودُهُ فِي نِسَاءٍ، فَإِذَا سِقَاءٌ مُعَلَّقٌ نَحْوَهُ يَقْطُرُ مَاؤُهُ عَلَيْهِ مِنْ شِدَّةِ مَا يَجِدُ

---

(١) أخرجه ابن سعد (٢/٢٠٨)، ابن ماجه [٤٠٢٤]، واللفظ له، قال في (الزوائد) (٤/١٨٨): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات، وله شاهد من حديث: مصعب بن سعد عن أبيه، رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [١٠٤٥]، والحاكم [١١٩]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، قال الذهبي: "على شرط مسلم، وله شواهد كثيرة"، كما أخرجه: أبو نعيم في الحلية (١/٣٧٠).

(2) صحيح البخاري [٥٦٤٨، ٥٦٦٠، ٥٦٦٧]، مسلم [٢٥٧١].

مِنْ حَرِّ الْحُمَّى، قلنا: يا رسول الله، لو دعوت الله فشفاك، فقال: رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن من أشد الناس: بلاء الأنبياء، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**»(١).

وعن عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: دخل عليه بعض أصحابه وقد كان ابتلي في جسده، فقال له بعضهم: إنَّا لَنَبْتَئِسُ لك لِمَا نَزَلَ فِيكَ. قال: فلا تَبْتَئِسْ لِمَا تَرَى، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِذَنْبٍ وما يَعْفُو اللَّهُ عنه أَكْثَرُ، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى:٣٠] (٢).

وفي وصية لقمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان:١٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى:٤٣].

---

(١) أخرجه أحمد [٢٧٠٧٩]، واللفظ له، والنسائي في (الكبرى) [٧٤٥٤]، والحاكم [٨٢٣١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣١٩]. قال الهيثمي (٢/٢٩٢): "رواه أحمد، والطبراني في (الكبير) بنحوه، وقال فيه: «إنا معاشر الأنبياء يضاعف علينا البلاء»، وإسناد أحمد حسن".

(2) أخرجه ابن أبي الدنيا في (المرض والكفارات) [٢٤٩]، وابن أبي حاتم في (التفسير) [١٨٤٨٢]، (٣٢٧٨/١٠)، والحاكم [٣٦٦٥]، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣٥٦]. قال السيوطي: "أخرجه عبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في (الكفارات)، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والبيهقي في (شعب الإيمان)" الدر المنثور (٣٥٥/٧).

٢ – أفضل الصبر: ما كان عند الصَّدْمَة الأولى:

إن أفضل الصبر ما كان عند الصَّدْمَة الأولى، كما جاء في الحديث: قال ﷺ: «**الصَّبْرُ عند الصَّدْمة الأولَى**» (١)، أي: إنما الصَّبر الشَّاقُّ على النَّفس الذي يَعْظُمُ الثواب عليه إنما هو عند هجوم المصيبة وحرارتها؛ فإنه يدل على قوة القلب، وتثبته في مقام الصبر، وأما إذا بردت حرارة المصيبة فكل أحد يصبر إذ ذاك. ثم قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة:١٥٦-١٥٧]. جعل الله جَلَّ وَعَلَا هذه الكلمات ملجأ لذوي المصائب؛ لما جمعت من المعاني المباركة، فإنَّ قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ توحيد وإقرار بالعبودية والملك. وقوله: ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ إقرار بالهلاك في الدنيا، ثم الْبَعْثِ من القُبُور.

قال سعيد ابن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم تعط هذه الكلمات نبيا قبل نبينا ﷺ، ولو عرفها يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما قال: يا أسفى على يوسف.

وروى مسلم: عن أمِّ سَلَمَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله:** ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾، **اللهُمَّ أْجُرْنِي في مصيبتي، وَأَخْلِفْ لي خيرًا منها، إلا أَخْلَفَ الله له خيرًا منها**» (٢).

فهذا تنبيه على قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ إما بالخلف، كما أَخْلَفَ الله لأمّ

---

(١) صحيح البخاري [١٢٨٣، ١٣٠٢]، مسلم [٩٢٦].

(٢) صحيح مسلم [٩١٨].

سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رسولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه تزوجها لما مات أبو سلمة زوجها، وإما بالثَّواب الجزيل في الآخرة.

وقيل: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبَشِّرِ الصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة:١٥٥] يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: وبشر الصابرين على الجهاد بالنصر.

والثاني: وبشر الصابرين على الطاعة بالجزاء.

والثالث: وبشر الصابرين على المصائب بالثواب. قال الإمام أبو الحسن الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهو أشبه؛ لقوله من بعد: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ [البقرة:١٥٦]، يعني: إذا أصابتهم مصيبة في نفس، أو أهل، أو مال قالوا: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾: أي: نفوسنا وأهلونا وأموالنا لله عَزَّ وَجَلَّ، لا يظلمنا فيما يصنعه بنا. ﴿وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ يعني: بالبعث في ثواب المحسن، ومعاقبة المسيء"(١).

وقد جاء في الحديث: عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أرسلت ابنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه إن ابنًا لي قبض، فأتنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول: «**إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل عنده بأجل مسمى، فلتصبر، ولتحتسب**» (٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا الحديث من أعظم قواعد الإسلام، المشتملة على مهمات كثيرة من أصول الدين وفروعه، والآداب، والصبر على النوازل كلِّها،

---

(١) تفسير الماوردي (النكت والعيون) (١/٢١٠).

(٢) صحيح البخاري [١٢٨٤، ٦٦٠٢، ٧٤٤٨]، مسلم [٩٢٣].

والهموم والأسقام وغير ذلك من الأعراض، ومعنى: «**إن لله ما أخذ**»: أن العالم كله ملك لله جَلَّ وَعَلَا، فلم يأخذ ما هو لكم، بل أخذ ما هو له عندكم في معنى العارية.

ومعنى: «**وله ما أعطى**»: أن ما وهبه لكم ليس خارجًا عن ملكه، بل هو له جَلَّ وَعَلَا يفعل فيه ما يشاء. «**وكل شيء عنده بأجلٍ مسمًّى**»، فلا تجزعوا؛ فإن من قبضه قد انقضى أجَله المسمى فمُحال تأخره أو تقدمه عنه، فإذا علمتم هذا كله، فاصبروا واحتسبوا ما نزل بكم -والله أعلم-"[1].

٣ - صور من الصبر على الشدة والبلاء والكوارث:

وللصبر على ما يصب المسلم من الشدة والبلاء والكوارث صور كثيرة، وقد ورد أن الصبر فيها من أسباب تكفير الذنوب، ورفعة الدرجات، ومن هذه الصور:

أ. الصبر على موت الولد:

وقد ورد في فضل من صبر على فَقْد ولده أو صفيه جملة من الأحاديث: فمن ذلك: ما رواه معاوية بن قُرَّةَ، عن أبيه، قال: كان نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا جلس يجلس إليه نفر من أصحابه، وفيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره، فيقعده بين يديه، فهلك فامتنع الرجل أن يحضر الحلقة لذكر ابنه، فحزن عليه، ففقده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**مالي لا أرى فلانًا؟**»، قالوا: يا رسول الله، بُنَيُّهُ الذي رأيته هلك،

---

(١) الأذكار (ص:١٥٠)، شرح النووي على صحيح مسلم (٦/٢٢٥).

فلقيه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسأله عن بُنَيِّه، فأخبره أنه هلك، فعزَّاه عليه، ثم قال: «**أيُّمَا كان أَحَبُّ إليك: أَنْ تمَتَّعَ به عُمُرَكَ، أو لا تأتِي غدًا إلى بابٍ من أبواب الجنَّة إلا وَجَدْتَهُ قد سَبَقَكَ إليه يَفْتَحُهُ لك**»، قال: يا نَبِيَّ الله، بل يَسْبِقُنِي إلى باب الجنَّة فيفْتَحُهَا لي لَهُو أَحَبُّ إِلَيَّ، قال: «**فذاكَ لَكَ**»، فقال رجل يا رسول الله أله خاصة أم لكلنا؟ قال: «**بل لكلكم**» (١).

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النساء قلن للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اجعل لنا يوما فوعظهن، وقال: «**أيُّمَا امْرَأَةٍ مات لها ثلاثةٌ من الولد** (٢)**، كانوا حجابًا من النَّار**»،...

---

(١) أخرجه أحمد [١٥٥٩٥]، والنسائي [٢٠٨٨]، وابن حبان [٢٩٤٧]، والطبراني [٦٦]، والحاكم [١٤١٧]، والبيهقي [٧٠٨٩]. في بعضها دون: «فقال رجل..». قال الإمام النووي: "أخرجه النسائي بإسناد حسن" الأذكار (ص:١٥٠). قال الحافظ ابن حجر: "سنده على شرط الصحيح، وقد صححه ابن حبان، والحاكم" فتح الباري (١١/٢٤٣).

(٢) وفي رواية عند مسلم [٢٦٣٢] زيادة: «فتحتسبه». ونصه: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لنسوة من الأنصار: «لا يموت لإحداكن ثلاثة من الولد فتحتسبه، إلا دخلت الجنة»، فقالت امرأة منهن: أو اثنين يا رسول الله؟ قال: «أو اثنين». قال في (المرقاة) (٣/١٢٣٦): "قوله: «فتحتسبه» بالرفع، لا غير. أي: تطلب إحداكن بموته ثوابًا عند الله عَزَّ وَجَلَّ بالصبر عليه، وتعتده فيما يدخر لها في الآخرة". قال الطيبي: "أي: فتصبر راجية لرحمة الله وغفرانه". شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٤/١٤٢٠). قال العراقي: "وأما التقييد في رواية مسلم من رواية: سهيل بن أبي صالح عن أبيه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقوله: «فتحتسبه» فلعله إنما ذكر ذلك للنساء؛ لقلة الصبر عندهن، وكثرة الجزع فيهن، مع إظهار التفجيع بفعل ما لا يجوز من كثير منهن، فردعهن عن ذلك بهذا الكلام؛ ليحصل انكفافهن عما يتعاطينه من الأمور المحرمة. فكان فائدة هذا التقييد: ارتداعهن=

...قالت امرأة: واثنان؟ قال: «**واثنان**» (١).

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يموت لمسلمٍ ثلاثةٌ من الولد، فَيَلِجَ النَّار، إلا تَحِلَّةَ الْقَسَم**» (٢).

وعن أبي النضر السلمي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم، إلا كانوا له جنة من النار**» (٣).

و"قوله «**فيحتسبهم**» بيان لصفة من يؤجر بمصابه في ولده وهو أن يحتسبهم، وأما من لم يحتسبهم ولم يرض بأمر الله عَزَّوَجَلَّ فيهم فإنه غير داخل في هذا الوجه"(٤).

وعن عمرو بن عبسة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت له: حدثنا حديثا سمعته من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس فيه انتقاص ولا وهم. قال: سمعته يقول: «**من ولد له ثلاثة أولاد في الإسلام فماتوا قبل أن يبلغوا الحنث أدخله الله عَزَّوَجَلَّ الجنة برحمته إياهم، ومن**

=عن ذلك لا تخصيص الحكم به. وقد عرف في الأصول أن شرط العمل بالمفهوم أن لا يظهر له فائدة سوى تخصيص الحكم به" طرح التثريب في شرح التقريب (٣/٢٤٨- ٢٤٩).

(١) صحيح البخاري [١٠١،١٢٤٩، ٧٣١٠]، مسلم [٢٦٣٣].

(٢) صحيح البخاري [١٢٥١، ٦٦٥٦]، مسلم [٢٦٣٢]. ومعنى: «تحله القسم» أي: يرد عليها ورودًا سريعًا بقدر يبرُّ الله عَزَّوَجَلَّ به قسمه في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١].

(٣) أخرجه الإمام مالك في (الموطأ) [٨٠٦]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٢١٦٦]. قال ابن عبد البر: "هذا الحديث قد اضطرب فيه رواة الموطأ، وبين ذلك الاضطراب، ثم قال: وقد روي معنى هذا الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وجوه -والحمد لله- من حديث: أبي هريرة، وأبي سعيد، ومعاذ بن جبل، وغيرهم في كتاب: ابن أبي شيبة، وغيره" الاستذكار (٣/ ٧٨).

(٤) المنتقى شرح الموطأ، للباجي (٢/٢٨).

أنفق زوجين في سبيل الله فإن للجنة ثمانية أبواب يدخله الله من أي باب شاء منها الجنة» (١).

وقد ورد هذا المعنى في أحاديث متعددة، وعن غير واحد من الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ(٢).

وعن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: مات ابن لأبي طلحة، من أم سليم، فقالت لأهلها: لا تحدثوا أبا طلحة بابنه حتى أكون أنا أحدثه، قال: فجاء فقربت إليه عشاء، فأكل وشرب، فقال: ثم تصنعت له أحسن ما كان تصنع قبل ذلك، فوقع بها، فلما رأت أنه قد شبع وأصاب منها، قالت: يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوما أعاروا عاريتهم أهل بيت، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم؟ قال: لا، قالت: فاحتسب ابنك، قال: فغضب، وقال: تركتني حتى تلطخت، ثم أخبرتني بابني فانطلق حتى أتى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فأخبره بما كان، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**بارك الله لكما في غابر ليلتكما**» (٣).

---

(1) أحمد [١٩٤٣٧، ١٩٤٣٨]، والطبراني في (الأوسط) [٩٠٨٠]، و(الصغير) [١٠٩٥]، قال المنذري (٣/٥٥): "رواه أحمد بإسناد حسن" قال الهيثمي: "رواه أحمد، والطبراني في الكبير باختصار النفقة، إلا أنه قال: «أدخله الله برحمته هو وإياهم الجنة» وإسناده حسن".

(٢) انظر هذه الروايات في (الترغيب والترهيب)، للمنذري.

(٣) صحيح مسلم [٢١٤٤].

ب. حمد الله عَزَّوَجَلَّ عند فقد الولد:

*وقد ورد في فضل حمد الله عَزَّوَجَلَّ عند فقد الولد: ما رواه أبو موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته: قبضتم ولد عبدي، فيقولون: نعم، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده، فيقولون: نعم، فيقول: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله: ابنوا لعبدي بيتا في الجنة، وسموه: بيت الحمد**»(١).

ج. الصبر والاحتساب على فقد الصفيّ:

*وقد ورد فيمن صبر على فقد صفيّه واحتسبه: ما رواه أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**يقول الله** عَزَّوَجَلَّ: **ما لعبدي المؤمن عندي جزاء، إذا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ من أهل الدُّنيا ثم احْتَسَبَهُ إلا الجَنَّة**» (٢).

د. الصبر على تربية البنات، والإحسان إليهن:

*وقد ورد في الصبر على تربية البنات، والإحسان إليهن: ما رواه أبو سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قالت النساء للنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوما من نفسك، فوعدهن يوما لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال لهن:

---

(١) أخرجه أحمد [١٩٧٢٥]، والترمذي [١٠٢١]، واللفظ له، وقال: "حسن غريب"، كما أخرجه ابن حبان [٢٩٤٨]، وابن السني في (عمل اليوم والليلة) [٥٨١]، والبيهقي في (الكبرى) [٧١٤٦].

(٢) صحيح البخاري [٦٤٢٤]. وصفيه، أي: المصافي له، كالولد والأخ وكل من يحبه الإنسان ويتعلق به.

«ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها، إلا كان لها حجابًا من النار»، فقالت امرأة: واثنتين؟ فقال: **«واثنتين»** (١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دخلت امرأة معها ابنتان لها تسأل، فلم تجد عندي شيئًا غير تمرة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت، فخرجت، فدخل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علينا، فأخبرته فقال: **«من ابْتُلِيَ من البنات بشيء، فَأَحْسَنَ إليهنَّ كُنَّ له سِتْرًا من النَّار»** (٢).

وفي رواية: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: جاءتني مسكينة تحمل ابنتين لها، فأطعمتها ثلاث تمرات، فأعطت كل واحدة منهما تمرة، ورفعت إلى فيها تمرة لتأكلها، فاستطعمتها ابنتاها، فَشَقَّت التمرة، التي كانت تريد أن تأكلها بينهما، فأعجبني شأنها، فذكرت الذي صَنَعَتْ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: **«إنَّ اللهَ قد أَوْجَبَ لها بها الجَنَّة، أو أَعْتَقَهَا بها من النَّار»** (٣).

وعن أبي عُشَّانَةَ المعافِرِيِّ قال: سمعت عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يقول: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«من كانت** –وقال مرَّة: – **من كان له ثلاث**

---

(١) صحيح البخاري [١٠١، ١٢٤٩، ٧٣١٠]، مسلم [٢٦٣٣].

(٢) صحيح البخاري [١٤١٨، ٥٩٩٥]، مسلم [٢٦٢٩].

(٣) صحيح مسلم [٢٦٣٠].

بنات، فصبر عليهنَّ، وأَطْعَمَهُنَّ، وسقاهُنَّ، وكساهُنَّ من جِدَتِهِ كُنَّ له حجابًا من النار» (١).

هـ. الصبر على فقد البصر:

جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن الله قال: إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر، عوضته منهما الجنة**» يريد: عينيه، تابعه أشعث بن جابر، وأبو ظلال هلال، عن أنس، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢).

وفي رواية: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قال ربكم** عَزَّ وَجَلَّ: **من أذهبت كريمتيه، ثم صبر واحتسب، كان ثوابه الجنة**» (٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفعه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يقول الله** عَزَّ وَجَلَّ: **من أذهبت حبيبتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثوابًا دون الجنة**» (٤).

---

(١) أخرجه أحمد [١٧٤٠٣]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٧٦]، وابن ماجه [٣٦٦٩]، قال البوصيري (١٠١/٤): "هذا إسناد صحيح". كما أخرجه أبو يعلى [١٧٦٤]، والروياني [٢٢٩]، والطبراني في (الكبير) [٨٢٦]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٨٣١٧]. "قوله: «من جدته» -بكسر الجيم-، أي: غناه. ويقال: وجد يجد جدة: إذا استغنى" حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٣٩١/٢).

(٢) صحيح البخاري [٥٦٥٣].

(٣) أخرجه أحمد [١٤٠٢١]، وأبو يعلى [٤٢٨٥].

(4) أخرجه أحمد [٧٥٩٧]، والدارمي [٢٨٣٧]، والترمذي [٢٤٠١]، وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه البزار [٩١٨٤]. وهو عند هناد في (الزهد) [٣٨٠]، والنسائي في (الكبرى) [١١٣٨٢]، بلفظ: «من أَذْهَبْتُ كَرِيمَتَيْه» الحديث.

وعن العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعني عن ربه جَلَّ وَعَلَا قال: «**إذا سلبت من عبدي كريمتيه، وهو بهما ضنين لم أرض له ثوابًا دون الجنة إذا حمدني عليهما**»(١).

ووجه هذا الجزاء: أن فاقدهما حبيس، فالدنيا سجنه حتى يدخل الجنة.

تسمى العينان بالحبيبتين؛ لما فيهما من جلب المسار، ودفع المضار، وتوقي الأخطار.

وقيل: سماهما كريمتين؛ لكثرة منافعهما دينا ودنيا، ولأنهما أحب أعضاء الإنسان إليه؛ لما يحصل له بفقدهما من الأسف على فوت رؤية ما يريد رؤيته من خير فيسر به، أو شر فيجتنبه(٢).

وقوله: «**ثم صبر واحتسب**» بأن يستحضر ما وعد به الصابرون، ويعمل به.

قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "و«**ثم**» للتراخي في الرتبة؛ لأن ابتلاء الله عَزَّ وَجَلَّ العبد نعمة، وصبره عليه مقتض لتضاعف تلك النعمة لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]"(٣).

---

(١) أخرجه ابن حبان [٢٩٣١]، والطبراني في (الكبير) [٦٣٤]، وفي (الشاميين) [١٠٩٣]. وللحديث طريق آخر يقويه.

(٢) انظر: فيض القدير (٤/٤٨٨)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٤/١٣٤٣)، فتح الباري، لابن حجر (١٠/١١٦)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٨/٣٤٦).

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٤/١٣٤٣)، فيض القدير (٤/٤٨٨).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: «**عوضته منهما الجنة**»، وهذا أعظم العوض؛ لأن الالتذاذ بالبصر يفنى بفناء الدنيا، والالتذاذ بالجنة باق ببقائها، وهو شامل لكل من وقع له ذلك بالشرط المذكور. ووقع في حديث: أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيه قيد آخر أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) بلفظ: «**إذا أخذت كريمتيك، فصبرت عند الصدمة [الأولى] واحتسبت..**» (١) فأشار إلى أن الصبر النافع هو ما يكون في أول وقوع البلاء، فيفوض، ويسلم، وإلا فمتى تضجر وتقلق في أول وهلة ثم يئس يَئِسَ فَيَصْبِرِ لا يَكُونُ حَصَلَ الْمَقْصُودُ"(٢).

وقال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا الحديث أيضًا حجة في أن الصبر على البلاء ثوابه الجنة. قال: فمن ابتلى من المؤمنين بذهاب بصره فى الدنيا فلم يفعل الله عَزَّوَجَلَّ ذلك به لسخط منه عليه، وإنما أراد جَلَّوَعَلَا الإحسان إليه، إما بدفع مكروه عنه يكون سببه نظر عينيه، لا صبر له على عقابه في الآخرة، أو ليكفر عنه ذنوبًا سلفت لا يكفرها عنه إلا بأخذ أعظم جوارحه في الدنيا؛ ليلقى ربه جَلَّوَعَلَا طاهرًا من ذنوبه، أو ليبلغ به من الأجر إلى درجة لم يكن يبلغها بعمله وكذلك جميع أنواع البالء، فقد أخبر عليه السلام أن أشد الناس بلاء الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى

---

(١) أخرجه أحمد [٢٢٢٢٨]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٥٣٥]، والطبراني في (الشاميين) [٢٢٧٧]، قال الهيثمي (٣٠٨/٢): "رواه ابن ماجه باختصار. رواه أحمد، والطبراني في (الكبير)، وفيه: إسماعيل بن عياش، وفيه كلام". وحديث ابن ماجة بلفظ: «ابن آدم إن صبرت واحتسبت عند الصدمة الأولى، لم أرض لك ثوابا دون الجنة»، قال البوصيري (٤٩/٢): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات".

(٢) فتح الباري (١١٦/١٠).

الرجل على حسب دينه. وجاء عنه ﷺ: «**إن أهل العافية فى الدنيا يودون لو أن لحومهم قرضت بالمقاريض فى الدنيا؛ لما يرون من ثواب الله عَزَّوَجَلَّ لأهل البلاء**»(1). فمن ابتلى بذهاب بصره أو بفقد جارحه من جوارحه فليتلق ذلك بالصبر، والشكر، والاحتساب، وليرض باختبار الله عَزَّوَجَلَّ له ذلك؛ ليحصل على أفضل العوضين، وأعظم النعمتين، وهي: الجنة التي من صار إليها فقد ربحت تجارته، وكرمت صفقته، ولم يضره ما لقي من شدة البلاء فيما قاده إليها"(٢).

وللشيخ ملا القاري الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب بعنوان: (تسلية الأعمى عن بلية العمى)، ذكر فيه الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ في ثواب أهل البلاء عامة، وثواب بلية العمى خاصة.

و. الصبر على الصرع:

جاء في الحديث: عن عطاء بن أبي رباح، قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة؟ قلت: بلى، قال: هذه المرأة السوداء، أتت النبي ﷺ

---

(1) أخرجه الترمذي [٢٤٠٢]، وقال: "غريب"، وأخرجه أيضًا: ابن أبي الدنيا في (المرض والكفارات [٢٠٢]، والطبراني في (الصغير) [٢٤١]، والبيهقى في (الكبرى) [٦٥٥٣]، وفي (شعب الإيمان) [٩٤٥١]. قال المنذري (١٤٢/٤):"رواه الترمذي، وابن أبي الدنيا، من رواية: عبد الرحمن بن مغراء، وبقية رواته ثقات، وقال الترمذي: حديث غريب، ورواه الطبراني في (الكبير): عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ موقوفًا عليه، وفيه رجل لم يسم". وقال المناوي: "إسناده حسن" فيض القدير (٣٩٩/٥).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣٧٧/٩-٣٧٨).

فقالت: إني أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فادع الله لي، قال: «**إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك**» فقالت: أصبر، فقالت: إني أتكشف، فادع الله لي أن لا أتكشف، فدعا لها (١). زاد البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حدثنا محمد، أخبرنا مخلد، عن ابن جريج، أخبرني عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنه رأى أم زفر تلك امرأة طويلة سوداء، على ستر الكعبة».

وقوله: «**فادع الله أن لا أتكشف**» -بالتاء المثناة من فوق-، ويروى: «**فادع الله أن لا أنكشف**» -بالنون وبزيادة كلمة: «**لي**»، وفيه: فضيلة ما يترتب على الصبر على الصرع (٢).

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيه فضل الصرع، وفيه: أن اختيار البلاء والصبر عليه يورث الجنة، وأن الأخذ بالشدة أفضل من الأخذ بالرخصة لمن علم من نفسه أنه يطيق التمادي على الشدة، ولايضعف عن التزامها"(٣).

وقال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقوله للمرأة التي كانت تصرع: «**إن شئت صبرت ولك الجنة**» يشهد لما قلناه من أن الأجور على الأمراض، والمصائب لا تحصل إلا لمن صبر واحتسب"(٤).

---

(1) صحيح البخاري [٥٦٥٢]، مسلم [٢٥٧٦].

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢١/٢١٥).

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٩/٣٧٦).

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٥٤٩).

ز. الصبر على الحمى:

جاء في الحديث: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، على أُمِّ السَّائِب أو أُمِّ الْمُسَيِّبِ فقال: «**ما لَكِ؟ يا أُمَّ السَّائِب أو يا أُمَّ الْمُسَيِّبِ تُزَفْزِفِينَ؟**» قالت: الْحُمَّى، لا باركَ اللهُ فيها، فقال: «**لا تَسُبِّي الْحُمَّى؛ فإنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بنِي آدَمَ، كما يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيد**» (١).

وروي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ذُكِرَتِ الْحُمَّى عند رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَبَّهَا رَجُلٌ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَسُبَّهَا؛ فَإِنَّهَا تَنْفِي الذُّنُوبَ، كَمَا تَنْفِي النَّارُ، خَبَثَ الْحَدِيد**» (٢).

وقوله: «**تزفزفين**» ذكر كلٌّ من القاضي عياض، والإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُمَا اللَّهُ أن جميع رواة مسلم روى هذه الكلمة بالزاي والفاء فيهما بالزاي المعجمة.

ويقال: بضم التاء وفتحها من الزفزفة، وهي: صوت حفيف الريح. يقال: زفزفت الريح الحشيش، أي: حركته، وزفزف النعام في طيرانه: أي: حرك جناحيه.

وقد رواه بعض الرواة بالقاف والراء.

قال أبو مروان بن سراج: بالقاف والفاء معًا بمعنى واحد صحيحان، بمعنى: ترعدين (٣).

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٧٥].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [١٠٨١٠]، وابن ماجه [٣٤٦٩]، قال البوصيري (٤/٦٠): "هذا إسناد ضعيف؛ لضعف موسى بن عبيدة".

(٣) انظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم (٨/٤٤)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٥٤٨).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ووقع في بعض نسخ بلادنا بالراء والفاء، ورواه بعضهم في غير مسلم بالراء والقاف، معناه: تتحركين حركة شديدة، أي: ترعدين"[(١)].

وقال الإمام أبي العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: "ورواية الفاء أعرف رواية، وأصح معنى، وذلك أن الحمى تكون معها حركة ضعيفة، وحس صوت يشبه الزفزفة التي هي حركة الريح وصوتها في الشجر.

وقالوا: ريح زفزافة وزفزف.

وأما الرقرقة -بالراء والقاف- في التلألؤ واللمعان، ومنه: رقراق السراب، ورقراق الماء: ما ظهر من لمعانه، غير أنه لا يظهر لمعانه إلا إذا تحرك وجاء وذهب؛ فلهذا حسن أن يقال: مكان الرقراقة، لكن تفارق الزفزفة الرقرقة بأن الزفزفة معها صوت، وليس ذلك مع الرقرقة، فانفصلا.

و«**قوله: لا تسبي الحمى**» مع أنها لم تصرح بسب الحمى، وإنما دعت عليها بألا يبارك فيها، غير أن مثل هذا الدعاء تضمن تنقيص المدعو عليه وذمه، فصار ذلك كالتصريح بالذم والسب، ففيه ما يدل على أن التعريض والتضمين كالتصريح في الدلالة، فيحد كل من يفهم عنه القذف من لفظه؛ وإن لم يصرح به، وهو مذهب مالك رَحِمَهُ اللَّهُ - كما تقدم-.

وقوله: «**فإنها تذهب خطايا بني آدم**» هذا تعليل لمنع سب الحمى؛ لما يكون عنها من الثواب، فيتعدى ذلك لكل مشقة، أو شدة يرتجى عليها ثواب، فلا ينبغي

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣١/١٦).

أن يذم شيء من ذلك، ولا يسب. وحكمة ذلك: أن سب ذلك إنما يصدر في الغالب عن الضجر، وضعف الصبر، أو عدمه، وربما يفضي بصاحبه إلى السخط المحرم، مع أنه لا يفيد ذلك فائدة، ولا يخفف ألما"(١).

ح. الصبر على ما يصيب العبد من مرض، ويكون سببًا في موته:

ومن ذلك: من يموت بسبب الطاعون، والمرأة التي تموت بجُمْع، والنفساء، والمبطون، وصاحب ذات الجنب... إلى غير ذلك مما ما سيأتيك بيانه مفصلًا في (أسباب الوقاية من عذاب البرزخ).

ط. الصبر على الظلم:

لا يخفى أن الظلم من أعظم ما يقع على العبد من البلاء، فالصبر على الظلم والاحتساب من أجل ما يكفر عن المظلوم السيئات، ويرفع الدرجات؛ ولذلك كان المظلوم مستجاب الدعاء -كما تقدم بيان ذلك مفصلًا-.

وفي الحديث: «**ما يصيب المسلم، من نَصَبٍ ولا وَصَب، ولا هَمٍّ ولا حزن ولا أَذًى ولا غَمٍّ، حتى الشوكة يشاكها، إلا كَفَّرَ الله بها من خطاياه**»(٢)، وسيأتي.

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٥٤٨-٥٤٩).

(٢) صحيح البخاري [٥٦٤١]. و«نصب»: تعب، و«وصب»: مرض.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**أتدرون ما المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «**إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار**» [(١)].

ي. الصبر على مشاقِّ التكليف:

ويكون الصَّبر كذلك على مشاقِّ التَّكليف -كما تقدَّم-، ويكون على أداء الفرائض، كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ﴾ [مريم:٦٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ [طه:١٣٢]، ويكون كذلك على ترك المعاصي، وخاصَّة مع كثرة الدَّواعي، وغلبة الشَّهوات، وقوَّة البواعث على متابعة الهوى، فملازمةُ العبادة حينئذ أشد.

وقد قيل: الصَّبر صبران: صبر عن معصية الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا مجاهد، وصبر على طاعة الله جَلَّ وَعَلَا، فهذا عابد. فإذا صبر عن معصية الله، وصبر على طاعة الله أورثه الله

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٨١].

الرضا بقضائه، وعلامة الرضا: سكون القلب بما ورد على النفس من المكروهات والمحبوبات [1].

٤ – الصبر من خصال الإيمان وشعبه:

والصبر من خصال الإيمان، وشعبه العظيمة... -كما تقدم في بيان (شعب الإيمان) -، وقد جاء في الحديث: «**أفضلُ الإيمان: الصَّبْرُ والسَّماحَة**» [2]. قال أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: "يعني: بالصبر: الصبر عن محارم الله عَزَّوَجَلَّ، و(السماحة): أن يسمح بأداء ما افترض الله جَلَّوَعَلَا" [3].

وقد فسَّرَ الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ الصبر والسماحة، فقال هو الصبر عن محارم الله عَزَّوَجَلَّ، والسماحة بأداء فرائض الله عَزَّوَجَلَّ [4].

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢/١٧٤-١٧٦).

(٢) قال الحافظ العراقي: "أخرجه أبو يعلى، وابن حبان في (الضعفاء) بلفظ: سئل عن الإيمان. وفيه: يوسف بن محمد بن المنكدر ضعفه الجمهور، ورواه أحمد من حديث: عائشة، وعمرو بن عنبسة بلفظ: ما الإيمان؟ قال: «الصبر والسماحة» وفيه: شهر بن حوشب. ورواه البيهقي في (الزهد) بلفظ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «الصبر والسماحة وحسن الخلق» وإسناده صحيح" المغني عن حمل الأسفار (ص: ١١٤٨)، وانظر: فيض القدير (٢/٢٩).

(٣) شعب الإيمان (١٠/٣٧٤) [٧٦٥٠].

(٤) شعب الإيمان (١٢/١٨٩) [٩٢٥٩]، جامع العلوم والحكم (١/١٢١)، المجالسة وجواهر العلم (٣/٥٣٥).

وقيل: «**السماحة**»: السخاوة بالزهد في الدنيا، والإحسان والكرم للفقراء. وقيل: الصبر على المفقود، والسماحة بالموجود [(١)].

وقال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفضلُ الإيمان: الصَّبْرُ والسَّماحَة**»: "فسم الإيمان بهما؛ لأن الأول يدل على الترك، والثاني على الفعل"[(٢)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومقام الشكر جامع لجميع مقامات الإيمان؛ ولذلك كان أرفعها وأعلاها، وهو فوق الرضا، وهو يتضمن: الصبر من غير عكس، ويتضمن: التوكل، والإنابة، والحب، والإخبات، والخشوع، والرجاء، فجميع المقامات مندرجة فيه، لا يستحق صاحبه اسمه على الإطلاق إلا باستجماع المقامات له؛ ولهذا كان الإيمان نصفين: نصف صبر، ونصف شكر، والصبر داخل في الشكر، فرجع الإيمان كله شكرًا، والشاكرون هم أقل العباد، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ:١٣]"[(٣)].

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واعلم أن الصبر ملاك الإيمان، وذلك بأن التقوى أفضل البر، والتقوى بالصبر، والصبر مقام من مقامات الدين، ومنزل من منازل السالكين، وجميع مقامات الدين إنما تنتظم من ثلاثة أمور: (معارف، وأحوال، وأعمال)، فالمعارف هي الأصول، وهي تورث الأحوال، والأحوال تثمر الأعمال، فالمعارف كالأشجار، والأحوال كالأغصان، والأعمال كالثمار، وهذا مطرد في جميع

---

(١) مرقاة المفاتيح (١/١١٩).

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٢/٥٠٠).

(٣) مدارج السالكين (١/١٥٧).

منازل السالكين إلى الله عَزَّوَجَلَّ، واسم: (الإيمان) تارة يختص بالمعارف، وتارة يطلق على الكل، وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة، وبحالة قائمة، فالصبر على التحقيق عبارة عنهما.

ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين الملائكة والإنس والبهائم؛ فإن الصبر خاصية الإنس، ولا يتصور ذلك في البهائم والملائكة، أما في البهائم؛ فلنقصانها، وأما في الملائكة؛ فلكمالها.

وبيانه: أن البهائم سلطت عليها الشهوات، وصارت مسخرة لها، فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة، وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها، حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة: صبرًا.

وأما الملائكة فإنهم جردوا للأشواق إلى الحضرة الربوبية، والابتهاج بدرجة القرب منها، ولم يسلط عليها شهوة صادة صارفة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجند آخر، وأما الإنسان فقد تعارض فيه الأمران، فاحتاج إلى ثبات جند في مقابلة جند آخر، قام للقتال بينهما؛ لتضاربهما، وذلك هو حقيقة الصبر"(١).

وروي عن الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]: "هو الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها، وقد بلغني أن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد.

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/٦٢)، وانظر: فيض القدير (٣/١٨٦).

قال مكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والصبر على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وعن محارم الله جَلَّ وَعَلَا أفضل من الصبر على المصائب والفجائع.."(١).

وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**الصَّبر: نصف الإيمان، واليقين: الإيمان**» (٢). قالوا: "وذلك أن الإيمان: معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالجوارح، فمن لم يصبر على العمل بشرائع لم يستحق اسم: (الإيمان) بالإطلاق، والصبر على العمل بالشرائع نظير الرأس من جسد الإنسان الذي لا تمام له إلا به"(٣).

وقال القاضي ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الإيمان على قسمين: مأمور ومزجور، فالمأمور يتوصل إليه بالفعل، والمزجور امتثاله بالكف والدعة عن الاسترسال إليه، وهو الصبر، فأعلمنا ربنا جَلَّ وَعَلَا أن ثواب الأعمال الصالحة مقدر من حسنة إلى سبعمائة ضعف، وخبأ قدر الصَّبر منها تحت علمه، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية، لأبي محمد مكي بن أبي طالب (٨٨١/١)، وانظر: أحكام القرآن، لابن العربي (٧٦/٧)، تفسير القرطبي (٢٤١/١٥)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٦٤/٩).

(٢) حديث: «الصبر نصف الإيمان» أخرجه الطبراني في (الكبير) [٨٥٤٤] موقوفًا على ابن مسعود بلفظ: «الصبر نصف الإيمان: واليقين الإيمان»، كما أخرجه الحاكم [٣٦٦٦]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٤٧]، وقال: "وقد روي هذا من وجه آخر غير قوي مرفوعًا، وروينا عن ابن مسعود من أقواله في هذا المعنى شواهد". قال المنذري (١٤٠/٤): "رواه الطبراني في (الكبير)، ورواته رواة الصحيح، وهو موقوف، وقد رفعه بعضهم"، وقال الهيثمي (٥٧/١): "رواه الطبراني في (الكبير)، ورجاله رجال الصحيح".

(3) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢٨٤/٩)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن (٤٦٥/٢٨-٤٦٦).

حِسَابٍ ﴿١٠﴾ [الزمر:١٠]. ولما كان الصوم نوعًا من الصبر حين كان كفًّا عن الشهوات، قال الله جَلَّ وَعَلَا: «**كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي، وأنا أجزي به**»[1]. قال أهل العلم: كل أجر يوزن وزنًا، ويكال كيلًا إلا الصوم؛ فإنه يحثى حثيًا، ويغرف غرفًا؛ ولذلك قال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها. فلا شك أن كل من سلم فيما أصابه، وترك ما نهى عنه فلا مقدار لأجره، وأشار بالصوم إلى أنه من ذلك الباب، وإن لم يكن جميعه -والله أعلم-"[2].

٥ - الصبر خير ما يستعان به عند النوازل والبلاء:

قد جعلَ الله عَزَّوَجَلَّ الدنيا دارَ ابتلاءٍ وامتحان واختبار، وليست دارَ خلودٍ واستقرار، وإنما هي دارُ رحيلٍ وانتقال، يمتحن العبادُ فيها ويُختَبرُون؛ ليميز الله عَزَّوَجَلَّ الخبيث من الطيب.

والابتلاءُ سنَّةٌ من سننه الرَّبانيَّة الجارية، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت:١-٣]، والابتلاءُ يمحِّص الصَّادقين من الكاذبين، ويكفِّرُ الذُّنوب، ويرفعُ درجاتِ المؤمنين الصَّابرين والمخلصين.

---

(١) تقدم.

(٢) أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي (٤/٧٦-٧٧).

وقد أصاب البلاء سادات البشر، وهم الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحون، وأصاب كذلك شر البشر، وهم الكافرون والملحدون، فهو سنة كونية لا يكاد يسلم منها أحد.

فإذا أحسن المؤمن التعامل معها فصبر وشكر، ورجع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، واجتهد في العبادات والطاعات كانت عاقبة البلاء خيرًا له كما جاء في الحديث: عن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما يصيب المسلم، من نَصَبٍ ولا وَصَب، ولا هَمٍّ ولا حزن ولا أَذًى ولا غَمٍّ، حتى الشوكة يشاكها، إلا كَفَّرَ الله بها من خطاياه**» (١).

قال القشيري رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمحن تظهر جواهر الرجال، وهي تدلُّ على قيمهم وأقدارهم، فقدر كلِّ أحدٍ وقيمته تظهر عند محنته، فمن كانت محنته من فوات الدنيا، ونقصان نصيبه منها، أو كانت محنته بموت قريب من الناس، أو فقد حبيب من الخلق، فحقير قدره، وكثير في الناس مثله. ومن كانت محنته في الله عَزَّوَجَلَّ، ولله جَلَّ وَعَلَا فعزيز قدره، وقليل من كان مثله، فهم في العدد قليل، ولكن في القدر والخطر جليل.

وبقدر الوقوف في البلاء تظهر جواهر الرجال، وتصفو عن الخبث نفوسهم. والمؤمن من يكفُّ الأذى، ويتحمل من الخلق الأذى، ويتشرب ولا يترشح، بغير شكوى ولا إظهار، كالأرض يلقى عليها كلُّ خبيث فتنبت كلَّ خضرة، وكل نزهة"(٢).

---

(١) صحيح البخاري [٥٦٤١]. و«نصب»: تعب، و«وصب»: مرض.

(٢) لطائف الإشارات (٣/٨٩-٩٠).

والناس في الدِّين ثلاثة أقسام: مؤمن حسن الاعتقاد والعمل، وكافر مجاهر بالكفر والعناد، ومذبذب بينهما، يظهر الإيمان بلسانه، ويبطن الكفر في فؤاده، وهو المنافق الذي قال الله عَزَّوَجَلَّ في حقه: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ١٤٣﴾ [النساء:١٤٣]، وقال جَلَّوَعَلَا مبينًا حال الذين يؤمنون بألسنتهم، فإذا مسهم إيذاء جعلوا فتنة الناس كعذاب الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ١١﴾ [العنكبوت:١٠-١١]. فأخبر الحق جَلَّوَعَلَا عن هؤلاء بأنهم يؤمنون بألسنتهم، فإذا مسهم أذى من الكفار، وهو المراد بفتنة الناس، كان ذلك صارفًا لهم عن الإيمان، كما أن عذاب الله عَزَّوَجَلَّ صارف للمؤمنين عن الكفر، أو كما يجب أن يكون عذاب الله عَزَّوَجَلَّ صارفًا.

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فهؤلاء إن كانوا قد اعتقدوا البعث والجزاء، فمعنى هذا الجعل: أنهم سووا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، كما هو ظاهر التشبيه، فتوقوا فتنة الناس، وأهملوا جانب عذاب الله عَزَّوَجَلَّ، فلم يكترثوا به؛ إعمالًا لما هو عاجل، ونبذًا للآجل. وكان الأحق بهم أن يجعلوا عذاب الله عَزَّوَجَلَّ أعظم من أذى الناس، وإن كانوا نبذوا اعتقاد البعث تبعًا لنبذهم الإيمان، فمعنى الجعل: أنهم جعلوه كعذاب الله عَزَّوَجَلَّ عند المؤمنين الذين يؤمنون بالجزاء. فالخبر من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ﴾ مكنى به عن الذم والاستحماق على كلا

الاحتمالين، وإن كان الذم متفاوتًا. وبين الله عَزَّوَجَلَّ نيتهم في إظهارهم الإسلام بأنهم جعلوا إظهار الإسلام عدة لما يتوقع من نصر المسلمين"(١).

وهم ناس كانوا يؤمنون بألسنتهم، فإذا مسهم أذى من الكفار، وهو المراد بفتنة الناس، كان ذلك صارفًا لهم عن الإيمان، كما أن عذاب الله عَزَّوَجَلَّ صارف للمؤمنين عن الكفر. أو كما يجب أن يكون عذاب الله عَزَّوَجَلَّ صارفًا. وإذا نصر الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين وغنمهم اعترضوهم وقالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْۚ﴾، أي: مشايعين لكم في دينكم، ثابتين عليه ثباتكم، ما قدر أحد أن يفتننا، فأعطونا نصيبنا من المغنم. ثم أخبر عَزَّوَجَلَّ أنه أعلم ﴿بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ من العالمين بما في صدورهم، ومن ذلك ما تكنُّ صدور هؤلاء من النفاق، وهذا إطلاع منه للمؤمنين على ما أبطنوه (٢).

وإيذاء الكفار للمؤمنين من أنواع الابتلاء الذي هو الفتنة، كما قال غير واحد، كقوله جَلَّوَعَلَا في آية أخرى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ۝١١﴾ [الحج:١١].

والله عَزَّوَجَلَّ يبتلي العباد؛ ليمحصهم، وليميز الخبيث من الطيب، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾ [آل عمران:١٧٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ

---

(١) التحرير والتنوير (٢٠/٢١٦-٢١٧).
(٢) الكشاف (٣/٤٤٤).

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾ [آل عمران:١٤٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران:١٨٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٖ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٖ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ﴾ [البقرة:١٥٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٖ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ﴾ [الأنفال:٣٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُمۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة:٢١٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ﴾ [التوبة:١٦].

فمن الناس من يُفْتَن ويَضِل عن الحق؛ طمعًا في مكانة أو منصب أو جاه أو مال أو عمل، أو خوفًا على النفس أو المال أو الأهل أو المكانة أو العمل. ومنهم من يثبت على الحق ولا يزيغ، ويصبر على ما أصابه من البلاء، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ [إبراهيم:٢٧].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾: "الذين لم يتمسكوا بحجة في دينهم، وإنما اقتصروا على تقليد كبارهم وشيوخهم، كما قلد المشركون آباءهم

فقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢]. وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن، وتزل أقدامهم أول شيء، وهم في الآخرة أضل وأذل"(١).

وقال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾، أي: يضلهم عن حجتهم التي هي القول الثابت، فلا يقدرون على التكلم بها في قبورهم، ولا عند الحساب، كما أضلهم عن اتباع الحق في الدنيا"(٢).

والظالم يحمل أوزارًا مضاعفة، فهو يحمل إثم الظلم، وإثم الضلال، وإثم الإضلال.

ولا شك أن معاناة الكثيرين من الظلم والقهر والاستبداد، هو من ابتلاء الله عَزَّوَجَلَّ للعباد؛ ليميز الخبيث من الطيب، والظلم إنما يحمل ضعاف النفوس على الانقياد للباطل؛ طلبًا للسلامة، وإذعانًا لسلطان القوة، أو طمعًا في مكانة أو جاه أو مال، فيسقطون في أوحال الضلال، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ۗ﴾ [التوبة:٤٩].

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ نبيه الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالصبر واحتمال الأذى؛ حتى ينصر الله عَزَّوَجَلَّ عباده المؤمنين كما وعدهم، ويهلك الطغاة والظالمين.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس:١٠٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [هود:١١٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل:١٢٧-١٢٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱصْبِرْ

---

(١) الكشاف (٢/٥٥٤).

(٢) فتح القدير (٣/١٢٨).

لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ [الطور:٤٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾ [المزمل:١٠]، ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧﴾ [المدثر:٧].

كما أمر رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بأن يتشبَّهَ بصبر أولى العزم من الرسل عَلَيۡهِمُٱلسَّلَامُ، فقال: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وقال موسى عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ﴾ [الأعراف:١٢٨].

والصبر من وصايا لقمان عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ لابنه، حيث قال: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان:١٧].

وأمر عباده المؤمنين بالصبر، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال:٤٦].

وأرشدهم أن الصبر خير ما يستعان به عند الشدائد فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران:١٨٦].

ويستعان بالصبر والصلاة وسائر الطاعات على الشدائد والنوازل والبلاء والكوارث، حيث إنها تجعل العبد متصلًا بالله عَزَّوَجَلَّ، فيورثه ذلك إيمانًا راسخًا وثقة بوعد الله عَزَّوَجَلَّ، كما أخبر المولى جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦﴾ [البقرة:٤٥-٤٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة:١٥٣].

٦ - طلب الإعانة من الله عَزَّوَجَلَّ عند وقوع البلاء:

ومن يطلب الإعانة من الله عَزَّوَجَلَّ على ما أصابه فإن الله عَزَّوَجَلَّ يكون معه ويعينه، ومن يطلب العفة يعفه الله، ومن يَسْتَغْن يُغْنِهِ الله، ومن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله، كما جاء في الحديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعطاهم، ثم سألوه، فأعطاهم، ثم سألوه، فأعطاهم حتى نفد ما عنده، فقال: «**ما يكون عندي من خير فلن أَدَّخِرَهُ عنكم، ومن يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ الله، ومن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله، ومن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ الله، وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر**»[١].

٧ - المعونة قدر المؤونة:

جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن المعونة تأتي من الله على قدر المؤونة، وإن الصبر يأتي من الله على قدر البلاء**»[٢].

---

(١) صحيح البخاري [١٤٦٩، ٦٤٧٠]، مسلم [١٠٥٣].

(٢) أخرجه الحارث كما في (بغية الباحث) [٤٢٣]، والبزار [٨٨٧٨]، واللفظ له، والشهاب القضاعي [٩٩٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٤٨٣]. قال المنذري (٤٣/٣): "رواه البزار، ورواته محتج بهم في (الصحيح) إلا طارق بن عمار ففيه كلام قريب، ولم يترك، والحديث غريب". وقال الهيثمي (٣٢٤/٤): "رواه البزار، وفيه: طارق بن عمار قال البخاري: لا يتابع على حديثه، وبقية رجاله رجال الصحيح". وانظر: المقاصد الحسنة (ص:٢١٢-٢١٣)، فيض القدير (٣٩١/٢).

وفي (الصحيحين): عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالت: قلت: يا رسول الله يا رسول الله، يَصْدُرُ النَّاسُ بِنُسُكَيْنِ وأَصْدُرُ بِنُسُكٍ واحد؟ فقيل لها: «**انْتَظِرِي، فإذا طَهُرْتِ، فَاخْرُجِي إلى التَّنْعِيم، فَأَهِلِّي ثُمَّ ائْتِينَا بِمَكَانِ كذا، ولكِنَّهَا على قَدْرِ نَفَقَتِكِ أو نَصَبِكِ**» [1].

وعن ابن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ، عن سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ من قوله: إنما الأجر على قدر الصبر [2].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ولكنها على قدر نصبك، أو قال: نفقتك**» هذا ظاهر في أن الثواب والفضل في العبادة يكثر بكثرة النصب والنفقة، والمراد: النصب الذي لا يذمه الشرع، وكذا النفقة"[3]. وقال في موضع آخر: "واعلم أن الأجر على قدر النصب"[4].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهو كما قال، لكن ليس ذلك بمطرد، فقد يكون بعض العبادة أخف من بعض، وهو أكثر فضلًا وثوابًا بالنسبة إلى الزمان، كقيام ليلة القدر بالنسبة لقيام ليال من رمضان غيرها، وبالنسبة للمكان، كصلاة ركعتين في

---

(١) صحيح البخاري [١٧٨٧]، مسلم [١٢١١]. وقولها: (يصدر الناس بنسكين) يرجعون بعبادتين حج وعمرة. (بمكان كذا) والمكان الذي عينه لها: المحصب بمنى. وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ولكنها» أي: ثواب عمرتك. «على قدر نصبك» أي: تعبك.

(٢) حلية الأولياء، لأبي نعيم (٥٤/٧)، سير السلف الصالحين، لإسماعيل بن محمد الأصبهاني (ص:١٠٠٥)، كشف الخفاء (٥٩/١).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥٢/٨-١٥٣).

(٤) المصدر السابق (٢٤/٢).

المسجد الحرام بالنسبة لصلاة ركعات في غيره، وبالنسبة إلى شرف العبادة المالية والبدنية، كصلاة الفريضة بالنسبة إلى أكثر من عدد ركعاتها أو أطول من قراءتها، ونحو ذلك من صلاة النافلة، وكدرهم من الزكاة بالنسبة إلى أكثر منه من التطوع، أشار إلى ذلك: ابن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (القواعد)...، قال: وقد كانت الصلاة قرة عين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي شاقة على غيره، وليست صلاة غيره مع مشقتها مساوية لصلاته مطلقًا -والله أعلم-"(١).

وقد فصَّل الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ القول في ذلك، وذكر أمثلة كثيرة على ما قرره -كما أشار إلى ذلك الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ- (٢).

ومما قاله الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "رب عبادة خفيفة على اللسان ثقيلة في الميزان، وعبادة ثقيلة على الإنسان خفيفة في الميزان، بدليل أن التوحيد خفيف على الجنان واللسان، وهو أفضل ما أعطيه الإنسان، ومن به الرحمن، والتفوه به أفضل كل كلام، بدليل أنه يوجب الجنان، ويدرأ غضب الديان" ثم ذكر أمثلة كثيرة على ما قرره -كما قدمنا-.

قال البدر العيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا الذي ذكره لا يمنع الإطراد؛ لأن الكثرة الحاصلة في الأشياء المذكورة ليست من ذاتها، وإنما هي بحسب ما يعرض لها من الأمور المذكورة. فافهم؛ فإنه دقيق، وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المراد بالنصب الذي لا يذمه الشرع، وكذا النفقة. وفي (التوضيح): أفعال البر كلها على قدر المشقة والنفقة؛ ولهذا استحب

---

(١) فتح الباري، لابن حجر (٣/٦١١)، عمدة القاري، للبدر العيني (١٠/١٢٤).

(٢) انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، لابن عبد السلام (١/٣٤-٣٩).

الشافعي ومالك رَحِمَهُمَااللَّهُ الحج راكبًا، ومصداق ذلك في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [التوبة:٢٠]. وفي هذا: فضل الغنى وإنفاق المال في الطاعات، ولما في قمع النفس عن شهواتها من المشقة على النفس، ووعد الله عَزَّوَجَلَّ الصابرين فقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر:١٠] (١). وبظاهر الحديث المذكور استدل على أن الاعتمار لمن كان بمكة من جهة الحل القريبة أقل أجرًا من الاعتمار من جهته البعيدة..."(٢).

وعلى أية حال فقد وقع بحث، هل الأجر على قدر المشقة أم على قدر المنفعة؟ وبسط العلماء القول فيه، فقيل: على قدر المشقة، وقيل: على قدر المنفعة، وبه قال الإمام عز الدين بن عبد السلام في (قواعد الأحكام)، وابن تيمية في (الفتاوى) (٣)، وأبو عبد الله المقري في (القواعد) (٤)، والشاطبي في (الموافقات) (٥)، وابن حجر في (الفتح) رَحِمَهُمُاللَّهُ. وينظر ذلك في مظانه.

(١) انظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن، باب: (أجر العمرة على قدر النصب) (١٢/٢٤٣).

(٢) عمدة القاري (١٠/١٢٤).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/٦٢٠)، (١٠/٦٢٢)، (٢٥/٢٨١)، الزهد والورع والعبادة (ص:٥٣).

(٤) انظر: القواعد، للمقري (٢/٤١٠-٤١١).

(٥) انظر: الموافقات، للشاطبي (٢/٢٢٢).

٨ - صبر العبد دليل على محبة الله عَزَّوَجَلَّ له، ورضاه عنه أن وفقه للخير:

ومن علامة حب الله عَزَّوَجَلَّ للعبد المؤمن: صبره ورضاه على ما يصيبه من الكوارث، وما يقع عليه من الابتلاء؛ ففي الحديث: «**إنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مع عِظَمِ البَلَاء، وإنَّ الله إذا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَـهُ الرِّضَا، ومَنْ سَـخِطَ فَلَهُ السَّـخَط**»(١)، أي: من اللَّه عَزَّوَجَلَّ أَوَّلًا، والْغَضَبُ عليه آخِرًا. فالمصائبُ والبلاءُ امتحانٌ للعبد. فالمصائب والبلاء امتحانٌ للعبد، وهي علامة على حب الله عَزَّوَجَلَّ له.

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "«**وإن الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم**» بأنواع البلايا؛ حتى يمحصهم من الذنوب، ويفرغ قلوبهم من الشغل بالدنيا، غيرة منه عليهم أن يقعوا فيما يضرهم في الآخرة. وجميع ما يبتليهم به من ضنك المعيشة، وكدر الدنيا، وتسليط أهلها؛ ليشهد صدقهم معه، وصبرهم في المجاهدة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ٣١﴾ [محمد:٣١]"(٢). وفي الحديث: «**إذا أحبَّ الله قومًا ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع**»(٣).

(١) أخرجه ابن ماجه [٤٠٣١]، والترمذي [٢٣٩٦]، وقال: "حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: القضاعي [١١٢١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣٢٥].

(٢) فيض القدير (١/٢٤٦).

(٣) أخرجه أحمد في (مسنده) عن محمود بن لبيد [٢٣٦٢٣، ٢٣٦٣٣، ٢٣٦٤١]. قال الهيثمي (٢/٢٩١): "رواه أحمد ورجاله ثقات". كما أخرجه: البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣٢٧]. قال الحافظ في (الفتح) (١٠/١٠٨): "رواته ثقات إلَّا أن محمود بن لبيد اختلف في سماعه من النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد رآه وهو صغير، وله شاهد من حديث: أنس عند الترمذي وحسنه".

وفي الحديث: «**إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشر أمسك عنه بذَنْبه حتى يُوَافي به**[1] **يوم القيامة**»[2]، أي: حتى يأتي العبد بذنبه يوم القيامة حاملًا له على كاهله، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٢٧﴾ [طه:١٢٧].

والله جَلَّ وَعَلَا يعين العبد الصالح، ويصبره على ما أصابه من البلاء، كما جاء في الحديث: عن إبراهيم بن مهدي السلمي عن أبيه، عن جده -وكانت له صحبة من

---

(١) قال الطيبي: "أي: لا يجازيه بذنبه حتى يجيء في الآخرة متوفر الذنوب وافيها، فيستوفي حقه من العقاب" وفي لفظ: «حتى يوافيه» أي: يجازيه جزاء وافيًا. «به» أي: بذنبه. قال الطيبي: الضمير المرفوع راجع إلى الله تعالى، والمنصوص إلى العبد، ويجوز أن يعكس اهـ. قال القاري: ولعل الموافاة حينئذ بمعنى: الملاقاة. وهو في (الترمذي): «حتى يوافي به». انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٣٥٠/٤)، وانظر: مرقاة المفاتيح (١١٤٢/٣)، التيسير بشرح الجامع الصغير (٦٤/١).

(٢) الحديث مروي عن أنس، وأبي هريرة، وعبد الله بن مغفل، وعن عمار بن ياسر. حديث أنس: أخرجه الترمذي [٢٣٩٦]، وقال: "حسن غريب". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٤٢٥٤]، الحاكم [٨٧٩٩]، والبيهقي في (الأسماء والصفات) [٣١٦]. حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخرجه ابن عدي (١٨٨/٥)، ترجمة [١٣٤٦] علي بن ظبيان، وقال: "الضعف على حديثه بين". حديث عبد الله بن مغفل: أخرجه أحمد [١٦٨٠٦]. قال الهيثمي (١٩١/١٠): "رواه أحمد، والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادي الطبراني". كما أخرجه الروياني [٨٩٣]، وابن حبان [٢٩١١]، والحاكم [١٢٩١، ٨١٣٣] وصححه، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣٥٩]. حديث عمار بن ياسر: قال الهيثمي (١٩٢/١٠): "رواه الطبراني، وإسناده جيد". وقال العراقي: "أخرجه أحمد والطبراني بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل مرفوعًا ومتصلًا. ووصله الطبراني أيضًا من رواية: الحسن عن عمار بن ياسر، ورواه أيضًا من حديث: ابن عباس، وقد روى الترمذي وابن ماجه المرفوع منه من حديث: أنس، وحسنه الترمذي" المغني عن حمل الأسفار (ص:١٤٧٨).

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة، لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده، أو في ماله، أو في ولده**»، قال أبو داود: زاد ابن نفيل: «**ثم صبره على ذلك حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله** عَزَّوَجَلَّ» (١).

وفي الحديث: «**ومن ابتلاه الله ببلاء في جسده فهو له حِطَّةٌ**» (٢)، أي: يحط به منه ذنوبه.

والمقصود من البلاء هنا: ما يقع على المؤمن قدرًا بدون اختياره.

---

(١) الحديث مروي عن محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده. وقد أخرجه أحمد [٢٢٣٣٨]، وأبو داود [٣٠٩٠]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [١٤١٦]، وأبو يعلى [٩٢٣]، والطبراني في (الكبير) [٨٠١]، و(والأوسط) [١٠٨٥]، وأبو نعيم في (معرفة الصحابة) من طريق: الحسن بن سفيان [٦٧٦٢] والبيهقي في (السنن) [٦٥٤٥]. قال الهيثمي (٢/٢٩٢): "رواه الطبراني في (الكبير)، و(الأوسط)، وأحمد، ومحمد بن خالد، وأبوه لم أعرفهما -والله أعلم-". وللحديث شاهد عند أبي يعلى [٦٠٩٥] من طريق: يونس بن بكير، قال: حدثنا يحيى بن أيوب البجلي، قال: حدثنا أبو زرعة، قال: حدثنا أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة، فما يبلغها بعمل فما يزال الله يبتليه بما يكره، حتى يبلغه إياها»، وهو كذلك عند ابن حبان [٢٩٠٨]، والحاكم [١٢٧٤]، وصححه. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (الآداب) [٧٣٥].

(٢) أخرجه الطيالسي [٢٢٧]، وأحمد [١٦٩٠]، البخاري في (التاريخ الكبير) (٧/٢١)، وأبو يعلى [٨٧٨]، قال الهيثمي (٢/٣٠٠): "فيه يسار بن أبي سيف، ولم أر من وثقه ولا جرحه، وبقية رجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: الشاشي [٢٦٥]، والحاكم [٥١٥٣]، والبيهقي في (السنن الكبرى) [١٨٥٦٧]، والضياء [١١١٨]، وقال: "إسناده حسن".

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّ الله جَلَّ وَعَلَا يؤدِّب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده، بأدنى زلَّة وهَفْوَة، فلا يزال مستيقظًا حذرًا، وأما من سقط من عينه وهان عليه، فإنه يُخَلِّي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنبًا أحدث له نعمة، والمغرور يظن أن ذلك من كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة، وأنه يريد به العذاب الشديد والعقوبة التي لا عاقبة معها، كما في الحديث المشهور: «**إذا أراد الله بعبد خيرًا عَجَّلَ له عقوبته في الدنيا، وإذا أراد بعبد شَرًّا أَمْسَكَ عنه عقوبته في الدنيا حتى يُوافى به يوم القيامة**» [(١)].

فتبين أن ما يقع على المؤمن من الابتلاء بالمصائب والكوارث لا يعني أنه بعيد عن الله عَزَّوَجَلَّ، وما يغدق على العبد من النعم لا يعني أنه قريب من الله عَزَّوَجَلَّ، فقد يكون استدراجًا، فليست النعمة دائمًا دليل حب الله عَزَّوَجَلَّ للعبد، ولا النقمة دائمًا دليل بغض الله عَزَّوَجَلَّ.

قال بعض السلف: "مصيبة تقبل بها على الله عَزَّوَجَلَّ خير لك من نعمة تنسيك ذكر الله عَزَّوَجَلَّ"[(٢)].

وقال ابن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ما يكره العبد خير له مما يحب؛ لأن ما يكرهه يهيجه للدعاء، وما يحبه يلهيه"[(٣)].

---

(١) زاد المعاد (٣/٥٠٦). والحديث تقدم تخريجه.

(٢) انظر: تسلية أهل المصائب، لشمس الدين المنبجي (ص: ١٧٥).

(٣) شعب الإيمان [٩٥٥٩].

وفي الحديث: «**مثل المؤمن مثل السنبلة، تستقيم مرة، وتخر مرة، ومثل الكافر مثل الأرزة، لا تزال مستقيمة حتى تخر، ولا تشعر**»(١)، "أي: هو كثير الاسقام في بدنه وماله، فيمرض ويصاب، ويخلو من ذلك أحيانًا؛ ليكفر عنه ذنوبه"(٢).

"فمن ثم يميل يمنة ويسرة. والمنافق على حالة واحدة من دوام الصحة في نفسه وأهله، ويفعل الله عَزَّوَجَلَّ ذلك بالمؤمن؛ ليصرفه إليه في كل حال، فكلما سكنت نفسه إلى شيء أمالها عنه؛ ليدعوه بلسانه وجنانه؛ لأنه يحب صوته، فاختلاف الأحوال تميل بالمؤمن إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والمنافق وإن اختلفت عليه الأحوال لا يرده ذلك إلى ربه عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه أعماه وختم على قلبه، فنفسه كالخشب المسندة لا تميل لشيء، وقلبه كالحجر، بل أشد، ليس فيه رطوبة الإيمان، كالأرز لا تهتز حتى تحصد بمنجل الموت. ومقصود الحديث: أن يحذر المؤمن دوام السلامة؛ خشية الاستدراج، فيشتغل بالشكر، ويستبشر بالأمراض والرزايا"(٣).

والمعنى: أن المؤمن مِثْلَ السنبلة لا يكاد يمر عليه يوم بِلا بلاء، كما أن السنبلة لا تكاد تثبت؛ لتقليب الرياح لها، وكذلك شجرة الأرزة لا تكاد تهتز، وكذلك الكافر

---

(١) أخرجه البزار [٧٢١٧، ٧٢١٨]. قال الهيثمي (٢/٢٩٣): "رواه البزار بسند رجاله ثقات". وانظر: فيض القدير (٥/٥١٢). و«الأرزة» بفتح الهمزة وفتح الراء المهملة ثم زاي على ما ذكره أبو عمرو. وقال أبو عبيدة: بكسر الراء بوزن: فاعلة، وهي النابتة في الأرض. وقيل: بسكون الراء شجر معروف بالشام، وهو شجر الصنوبر والصنوبر ثمرها. فيض القدير (٥/٥١٢)، وانظر: مشارق الأنوار، للقاضي عياض، مادة: (أرز) (١/٢٧).

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/٣٧٢).

(٣) فيض القدير (٥/ ٥١٢).

لا يكاد يصيبه البلاء؛ حتى يهوي مرة واحدة، فينقلب من فيض النعم إلى سلبها، ومن الصحة إلى المرض، ومن الأمن إلى الخوف، ومن الانبساط إلى الضيق، ومن النعيم إلى العذاب، ومن الحياة إلى الموت. نسأل الله جَلَّ وَعَلَا السلامة والعافية.

وفي (الصحيح): «**مثل المؤمن كالخامة من الزرع، تُفَيِّئُهَا الريح مرة، وتعدلها مرة، ومثل المنافق كالأرزة، لا تزال حتى يكون انْجِعَافُهَا مرة واحدة**» (١)

وفي رواية: «**مثل المؤمن كمثل الخَامَة من الزرع، من حيث أتتها الريح كفأتها، فإذا اعتدلت تَكَفَّأُ بالبلاء، والفاجر كالأرزة، صَمَّاءَ معتدلة، حتى يقصمها الله إذا شاء**» (٢).

(١) صحيح البخاري [٥٦٤٣]، واللفظ له، مسلم [٢٨١٠]. قوله: «كالخامة»: بالخاء المعجمة وتخفيف الميم: الغض الرطب من النبات أول ما ينبت. «تفيئها»: أي: تحركها وتميلها يمنة ويسرة، وأصل التفيئة: إلقاء الفيء على الشيء، وهو الظل، فالريح إذا أمالتها إلى جانب ألقت ظلها عليه. ذكره القاضي. «تعدلها»: ترفعها. «لا تزال»: قائمة لا تلين. «انجعافها»: انقلاعها. والمعنى كما ذكر المناوي: أن المؤمن كثير الآلام في بدنه وأهله وماله، وذا مكفر لسيئاته رافع لدرجاته، والكافر قليلها، وإن حل به شيء لم يكفر، بل يأتي بها تامة يوم القيامة. فيض القدير (٥/٥١٢). وينظر المعنى مفصلًا في (فتح الباري)، لابن حجر (١٠/١٠٦)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٨/١٧٢).

(٢) صحيح البخاري [٥٦٤٤، ٧٤٦٦]. «كفأتها» بفتح الكاف والفاء والهمزة، أي: أمالتها. ونقل ابن التين أن منهم من رواه بغير همزة كأنه سهلها. «تكفأ بالبلاء»: تقلب بالمصيبة. أي: المؤمن إذا أصابه بلاء رضي بقدر الله جَلَّ وَعَلَا، فإذا زال عنه قام واعتدل بشكر الله عَزَّ وَجَلَّ، فانقلب البلاءُ خيرًا ورحمة. «صماء»: صلبة شديدة. «يقصمها»: من القصم، وهو الكسر مع الإبانة، أي: فصل الأجزاء عن بعضها. انظر المعنى مفصلًا في (فتح الباري) (١٠/١٠٧)، عمدة القاري (٢١/٢١٠).

قال أبو الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد دل الحديث على أن القويَّ يَحْمِلُ مَا حَمَل، وَالضَّعيف يُرْفَق به، إلا أنه كلما قويت المعرفة بالمبتلى هان البلاء الشديد. ومن أهل البلاء من يرى الأجر فَيَهُون البلاء عليه، وأعلى منه من يرى تصرف المبتلِي [(١)] في ملكه، وأرفع منه من تشغله محبة الحق عن وقع البلاء [(٢)]، ونهاية المراتب: التلذذ بضرب الحبيب؛ لأنه عن اختياره نشأ"[(٣)].

٩ – المسلم يتعوذ من البلاء، ويحمد الله عَزَّوَجَلَّ على العافية:

إن المسلم لا يتمنى البلاء، ولا يسعى اليه؛ لأنه قد يفتن ولا يصبر.

وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعوذ من جهد البلاء، ففي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: **«كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعوذ من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء»** [(٤)].

---

(١) المبتلِي –بصيغة اسم الفاعل– هو الله عَزَّوَجَلَّ، وقد قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة:١٥٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]. وفي (الفتح) (١٢/١٠)، و(فيض القدير) (٥١٩/١): "تصرف المالك في ملكه فيسلم ولا يعترض" مكان: "تصرف المبتلِي في ملكه" والمعنى واحد.

(٢) في المصادر السابقة: "من شغلته المحبة عن طلب رفع البلاء".

(٣) كشف المشكل، لابن الجوزي (٢٨٧/١).

(٤) صحيح البخاري [٦٣٤٧]، مسلم [٢٧٠٧].

وفي رواية: «**تعوذوا بالله من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء**»(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عاد رجلًا من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟**»، قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة، فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سبحان الله لا تطيقه -أو لا تستطيعه- أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار**»، قال: فدعا الله له، فشفاه(٢).

والمسلم يحمد الله عَزَّ وَجَلَّ على العافية، فإذا أصابه البلاء صبر وشكر.

١٠ – مسألة: الغني الشاكر، والفقير الصابر:

وفي هذه المسألة خلاف مشهور بين السلف والخلف، وهاك أهم ما قيل في ذلك:

أ. **القول الأول**: أن الْكَفَاف أفضل من الْفَقْر والْغِنَى؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قد أفلح من أسلم، ورُزِقَ كفافًا، وقَنَّعَهُ الله بما رزقه**»(٣). قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الكفاف: الكفاية بلا زيادة ولا نقص. وفيه فضيلة هذه الأوصاف، وقد يحتج به

(١) صحيح البخاري [٦٦١٦].

(٢) صحيح مسلم [٢٦٨٨].

(٣) أخرجه مسلم [١٠٥٤] عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لمذهب من يقول: الكفاف أفضل من الفقر ومن الغنى"[1]. وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(الكفاف) هو: ما يكف عن الحاجات، ويدفع الضرورات والفاقات، ولا يلحق بأهل الترفهات.

ومعنى هذا الحديث: أن من فعل تلك الأمور، واتصف بها، فقد حصل على مطلوبه، وظفر بمرغوبه في الدُّنيا والآخرة"[2].

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الفلاح هو الفوز بالبغية في الدارين، والحديث قد جمع بينهما. والمراد بالرزق: الحلال منه؛ لأنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مدح المرزوق، وأثبت له الفلاح. وذكر أمرين وقيد الثاني بـ: **(وقنع)** أي: رزق كفافًا، وقنعه الله عَزَّ وَجَلَّ بالكفاف فلم يطلب الزيادة، وأطلق الأول: ليشتمل جميع ما يتناوله الإسلام"[3].

قيل: وصاحب هذه الحالة معدود من الفقراء؛ لأنه لا يترفه في طيبات الدنيا، بل يجاهد نفسه في الصبر على القدر الزائد على الكفاف، فلم يفته من حال الفقراء إلا السلامة من قهر الرجال، وذل المسألة[4].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٧/١٤٥-١٤٦).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/٩٩)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (١١/٢٧٥).

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٠/٣٢٨٠).

(٤) فيض القدير (٤/٥٠٨).

وعن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**طوبى لمن هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافًا وقنع**»"[(١)].

وفي (الصحيحين): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم ارزق آل محمد قوتًا**»[(٢)]. و(القوت): ما يسد الرمق. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفيه فضيلة التقلل من الدنيا، والاقتصار على القوت منها، والدعاء بذلك"[(٣)]. وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا**»؛ أي: ما يقوتهم ويكفيهم، بحيث لا يشوشهم الجهد، ولا تُرهقهم الفاقة، ولا تذلهم المسألة والحاجة، ولا يكون أيضًا في ذلك فضول يخرج إلى الترف والتبسط في الدنيا، والركون إليها.

وهذا يدل على زهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدنيا، وعلى تقلله منها، وهو حجة لمن قال: إن الكفاف أفضل من الفقر والغنى"[(٤)].

وقال: "ووجه التمسك بهذا الحديث: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما يدعو لنفسه بأفضل الأحوال، وأيضًا: فإنَّ الكفاف حالة متوسطة بين الغنى والفقر، وقد قال

---

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [٥٥٣]، وأحمد [٢٣٩٤٤] والترمذي [٢٣٤٩] وقال: "حسن صحيح"، والنسائي في (الكبرى) [١١٧٩٣]، وابن حبان [٧٠٥]، والطبراني [٧٨٦]، والحاكم [٩٨]، وقال: "صحيح على شرط مسلم". ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح البخاري [٦٤٦٠]، مسلم [١٠٥٥].

(٣) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٤٦/٧).

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١٠٠/٣).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خير الأمور أوساطها**» (١). وأيضًا: فإنَّ هذه الحال سليمة من آفات الغنى، وآفات الفقر المدقع، فكانت أفضل منها، ثم إن حالة صاحب الكفاف حالة الفقير؛ إذ لا يترفه في طيبات الدنيا ولا في زهرتها، فكانت حاله إلى الفقر أقرب، فقد حصل له ما حصل للفقير من الثواب على الصبر، وكُفي مرارته وآفاته.

لا يقال: فقد كانت حالة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفقر الشديد المدقع، كما دلت عليه أحاديث هذا الباب وغيرها، ألا ترى أنه يطوي الأيام، ولا يشبع يومين متواليين، ويشد على بطنه الحجر من الجوع والحجرين، ولم يكن له سوى ثوب واحد، فإذا غسله انتظره إلى أن يجف، وربما خرج وفيه بقع الماء، ومات ودرعه مرهونة في شعير لأهله، ولم يخلف دينارا ولا درهما، ولا شاة، ولا بعيرًا، ولا حالة في الفقر أشد من هذه، وعلى هذا فلم يكن حاله الكفاف، بل: الفقر. فلم يجبه الله عَزَّ وَجَلَّ في الكفاف؛ لعلمه بأن الفقر أفضل له؛ لأنَّا نقول: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد جمع له حال الفقر والغنى والكفاف، فكانت أول أحواله الفقر؛ مبالغة في مجاهدة النفس وخطامها عن مألوفات عاداتها، فلما حصلت له ملكة ملكها، وتخلص له خلاصة سبكها،

(١) أخرجه البيهقي في (الكبرى) [٦١٠٢]، وفي (شعب الإيمان) [٥٨١٩]، وقال: "منقطع". وقال العراقي: " أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) من رواية: مطرف بن عبيد الله معضلًا" المغني عن حمل الأسفار (ص: ٩٣٩)، وقال السيوطي: "أخرجه ابن السمعاني في (تاريخه) من حديث: علي بسند فيه من لا يعرف حاله. وأخرجه ابن جرير في (تفسيره) من كلام: مطرف بن عبد الله، ومن كلام: يزيد بن مرة الجعفي. وروي أبو يعلى عن وهب بن منبه قال: إن لكل شيء طرفين ووسطًا، فإذا أمسك أحد الطرفين مال الآخر، وإذا أمسك الوسط اعتدل الطرفان، فعليكم بالأوساط من الأشياء" الدرر المنتثرة (ص:١١٦)، وانظر: المقاصد الحسنة (ص:٣٣٢).

خيره الله عَزَّوَجَلَّ في أن يجعل له جبال تهامة ذهبًا تسير معه حيث سار، فلم يلتفت إليها، وجاءته فتوحات الدنيا فلم يعرج عليها، بل صرفها وانصرف عنها، حتى قال: «**ما لي مما أفاء الله عليكم إلا الخمس، والخمس مردود فيكم**» (١)، وهذه حالة الغني الشاكر، ثم اقتصر من ذلك كله على قدر ما يرد ضروراته وضرورات عياله، ويرد حاجتهم، فاقتنى أرضه بخيبر، وكان يأخذ منها قوت عياله، ويدخره لهم سنة، فاندفع عنه الفقر المدقع، وحصل الكفاف الذي دعا به، ثم إنه لما احتضر وقف تلك الأرض على أهله؛ ليدوم لهم ذلك الكفاف الذي ارتضاه لنفسه، ولتظهر إجابة دعوته حتى في أهله من بعده، وعلى ذلك المنهج نهج الخلفاء الراشدون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ على ما تدل عليه سيرهم وأخبارهم. وعلى هذا فأهل الكفاف هم صدر كتيبة الفقراء الداخلين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام؛ لأنَّهم وسطهم، والوسط: العدل. وليسوا من الأغنياء كما قررناه، فاقتضى ذلك ما ذكرناه -والله تعالى أعلم-"(٢).

وفي (صحيح مسلم): عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا ابن آدم إنك أن تبذل الفضل خير لك، وأن تمسكه شر لك، ولا تلام على**

(١) أخرجه أحمد [٦٧٢٩]، وأبو داود [٢٦٩٤]، والنسائي [٣٦٨٨]، وابن الجارود [١٠٨٠]: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. قال الهيثمي (١٨٨/٦): "رواه أبو داود باختصار كثير، ورواه أحمد، ورجال أحد إسناديه ثقات"، وانظر: غاية المقصد فى زوائد المسند (٥٩/٣)، والحديث له طرق يتقوى بها.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١٣٠/٧-١٣٢).

كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى»(١). فقوله ﷺ: **«ولا تلام على كفاف»** أي: ولا يلحقك لوم من الشرع على إمساك ما تكف به الحاجة.

ب. القول الثاني: أن الفقر مع الصبر أفضل؛ لما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وهو خمسمائة عام»**(٢).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفًا»**(٣).

ج. القول الثالث: الغنى مع الشكر أفضل؛ لحديث: أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء الفقراء إلى النبي ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدُّثُورِ من الأموال بالدرجات العلا، والنعيم المقيم يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال يحجون بها، ويعتمرون، ويجاهدون، ويتصدقون، قال: **«ألا أحدثكم إن أخذتم أدركتم**

---

(١) أخرجه مسلم [١٠٣٦].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٣٩٢]، وأحمد [٩٨٢٣]، وابن ماجه [٤١٢٢]، والترمذي [٢٣٥٤]، وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه: البزار [٧٩٣١]، والنسائي في (الكبرى) [١١٢٨٥]، وأبو يعلى [٦٠٢٥]، وابن حبان [٦٧٦]. والطبراني في (الأوسط) [٨٨٦٥]، وأبو نعيم في (الحلية) (٨/٢١٢). قال الحافظ المنذري (٤/٦٤): "رواه الترمذي، وابن حبان في (صحيحه) وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح". قال الحافظ: ورواته محتج بهم في (الصحيح)، ورواه ابن ماجه بزيادة من حديث: موسى بن عبيدة عن عبد الله بن دينار عن عبد الله بن عمر".

(٣) أخرجه أحمد [١٤٤٧٦]، وعبد بن حميد [١١١٧]، والترمذي [٢٣٥٥]، وقال: "حديث حسن".

من سبقكم، ولم يدرككم أحد بعدكم، وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه إلا من عمل مثله: تسبحون، وتحمدون، وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثًا وثلاثين»، فاختلفنا بيننا، فقال بعضنا: نسبح ثلاثًا وثلاثين، ونحمد ثلاثًا وثلاثين، ونكبر أربعًا وثلاثين، فرجعت إليه، فقال: تقول: «**سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، حتى يكون منهن كلهن ثلاثًا وثلاثين**»(١).

ولحديث: أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن ناسًا من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسول الله، ذهب أهل الدُّثُورِ بالأجور، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، ويصومون كما نصوم، ويَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أموالهم، قال: «**أوليس قد جعل الله لكم ما تَصَّدَّقُونَ؟ إنَّ بِكُلِّ تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بُضْعِ أحدكم صدقة**»، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «**أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر**» (٢).

---

(١) صحيح البخاري [٨٤٣، ٦٣٢٩]، مسلم [٥٩٥].

(٢) صحيح مسلم [١٠٠٦].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "«**الدُّثُور**»: بالثاء المثلثة، واحدها: دثر، بفتح الدال وسكون الثاء المثلثة، وهو المال الكثير. وفي هذا الحديث دليل لمن فضل الغني الشاكر على الفقير الصابر، وفي المسألة خلاف مشهور بين السلف والخلف من الطوائف"(١).

وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "استدل به من يفضل الغنى على الفقر، وهي مسألة اختلف الناس فيها على خمسة أقوال: فمن قائل بتفضيل الغنى، ومن قائل بتفضيل الفقر، ومن قائل بتفضيل الكفاف، ومن قائل رابع: يَرُدُّ هذا التفضيل إلى اعتبار أحوال الناس في ذلك، ومن قائل خامس: توقف، ولم يفضل واحدًا منهما على الآخر"(٢).

د. القول الرابع: من العلماء من قال: كلاهما سواء، كما نقل أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التفسير): عن سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه سئل عن عبدين (٣) ابتلي أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر، فقال: كلاهما سواء؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أثنى على عبدين، أحدهما: صابر، والآخر: شاكر، ثناءً واحدًا، فقال في وصف أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص:٤٤]، وقال في وصف سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص:٣٠]. قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد رد هذا الكلام صاحب

---

(١) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٩٢/٥)، وانظر: إكمال المعلم (٥٤٦/٢)، إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام (٣٢٥/١-٣٢٦).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢١٣/٢-٢١٤).

(3) نسب أبو طالب المكي هذا القول إلى بعض القدماء، فقال: "سئل عنها بعض القدماء عن عبدين: ابتلي أحدهما فصبر، وأنعم على الآخر فشكر..." قوت القلوب في معاملة المحبوب (٣٣٨/١).

(القوت)[١] واستدل بقصة أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ في تفضيل الفقير على الغني، وذكر كلامًا كثيرًا شيد به كلامه. وخفي عليه أن أيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان أحد الأغنياء من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قبل البلاء وبعده، وإنما ابتلي بذهاب ماله، وولده، وعظيم الدَّاء في جسده. وكذلك الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ صبروا على ما به امتحنوا وفتنوا. فأيوب عَلَيْهِ السَّلَامُ دخل في البلاء على صفة، فخرج منه كما دخل فيه، وما تغير منه حال، ولا مقال، فقد اجتمع مع أيوب في المعنى المقصود، وهو عدم التغير الذي يفضل فيه بعض الناس بعضًا. وبهذا الاعتبار يكون الغني الشاكر والفقير الصابر سواء. وهو كما قال سفيان رَحِمَهُ اللَّهُ -والله أعلم-"[٢].

د. **القول الخامس:** التفصيل والتحرير:

ومن أفضل ما قيل في هذه المسألة: ما حرره الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ حيث قال: "والتحقيق عند أهل الحذق أن لا يجاب في ذلك بجواب كلي، بل يختلف الحال باختلاف الأشخاص والأحوال، نعم عند الاستواء من كل جهة، وفرض رفع العوارض بأسرها فالفقير أسلم عاقبة في الدار الآخرة، ولا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيء - والله أعلم-"[٣].

وسيأتي في (التلازم بين الصبر والشكر) ما حرَّره العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه المسألة، ومحصل قوله: "أن أفضلهما: أعظمهما شكرًا وصبرًا، فإن فضل أحدهما

---

(١) انظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب، لأبي طالب المكي (١/٣٣٨-٣٤٠).

(٢) تفسير القرطبي (١٥/٢١٥-٢١٦).

(3) فتح الباري (٩/٥٨٣)، وفصل القول في موضع آخر. انظر: فتح الباري (١١/٢٧٤-٢٧٧).

في ذلك فضل صاحبه. فالشكر مستلزم للصبر لا يتم إلا به، والصبر مستلزم للشكر لا يتم إلا به"(١).

والحاصل أن الذي يتقرر في هذه المسألة:

أ. لا ينبغي أن يجاب في ذلك بجواب كلي، بل يختلف الحال باختلاف الأشخاص والأحوال.

ب. أن الله عَزَّوَجَلَّ يحاسب كل عبد من العباد على حدة، على حسب ما عمل، وعلى قدر ما ابتلي به فصبر وشكر، أو زاغ وكفر، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم:٧٧-٨٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم:٩٥].

ج. إن ميزان التفاضل بين الخلق، وما يحدد مدى قربهم من الله عَزَّوَجَلَّ، وإكرام الله عَزَّوَجَلَّ لهم إنما هو بحسب تقواهم، وكل من الفقير الصابر والغني الشاكر محتاج إلى الشكر والصبر، وأفضلهما: أتقاهما وأعظمهما شكرًا وصبرًا. فأكرم الناس عند الله عَزَّوَجَلَّ منزلة، وخيرهم مكانة هم المتقون، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات:١٣].

وفي الحديث: عن أبي نَضْرَةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: حدثني من سمع خطبة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في وسط أيام التشريق فقال: «**يا أيها الناس، إن ربكم واحد وأباكم واحد، ألا لا**

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص:٢٦٥)، وسيأتي تمام قوله.

فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أسود على أحمر، ولا أحمر على أسود إلا بالتقوى، أَبَلَّغْتُ؟»، قالوا: بَلَّغَ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.." الحديث[١].

وفي (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قيل يا رسول الله: من أكرم الناس؟ قال: «**أتقاهم**» [٢].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قد أذهب الله عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية، وفخرها بالآباء، مؤمن تقي، وفاجر شقي، والناس بنو آدم وآدم من تراب**»[٣]. وقد تقدم بيانه.

فدلَّ الكتاب والسنة على أن أكرم الناس عند الله عَزَّ وَجَلَّ: أتقاهم.

فهذا هو مقياس التفاضل بين الناس، وليس بالحسب، ولا بالنسب، ولا بكثرة المال، ولا بالجاه.. وقد تقدم بيان ذلك في (التقوى).

١١ – التعوذ بالله عَزَّ وَجَلَّ من الغنى المطغي والفقر المنسي:

إذا أقصي الإيمان عن ميدان التربية، فإن سلوك الإنسان يتفاوت تفاوتًا كبيرًا حسب المؤثرات التالية:

أ. اختلاف معادن الناس.

ب. الغنى المطغي –كما سيأتي بيانه–.

---

(١) تقدم.

(٢) متفق عليه، وقد تقدم.

(3) تقدم.

ج. الفقر المنسي -كما سيأتي بيانه-.

د. الامتياز العلمي الذي يؤدي إلى غرور العلم ويصد عن الهداية.

هـ. الوضع السياسي.

و. المدرسة والمعهد والجامعة.

ز. الأقارب والأصدقاء.

ح. البيئة والحي.

ط. المدرسين والمحيط العلمي.

ي. الأسس التربوية والمنهج الدراسي.

وما يعنينا هنا: هو الحديث عن (**الفقر المنسي، والغنى المطغي**) من حيث افتقار كلٍّ منهما إلى الصبر والشكر، وقد فصلنا القول عن المؤثرات الأخرى من قبل في كتاب: (عقبات في طريق الهداية وسبل الوقاية والعلاج منها).

إنَّ من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ أنه خلق بعض الناس فقراء، وبعضهم أغنياء، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام:١٦٥]، "أي: فاوَتَ بينكم في الأرزاق، والأخلاق، والمحاسن والمساوئ، والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف:٣٢]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء:٢١].

وقوله: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ [الأنعام:١٦٥]، أي: ليختبركم في الذي أنعم به عليكم ويمتحنكم به؛ ليختبر الغني في غناه، ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره"(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥﴾ [الأنبياء:٣٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ١٦٨﴾ [الأعراف:١٦٨].

إنَّ الغِنى والفقر ابتلاءٌ من الله عَزَّوَجَلَّ لعبادِه، فيُوسّعُ على أقوامٍ، ويضيّقُ على آخرين؛ ليُبْتَلى الغنيُّ بغناه، والفقيرُ بفقره، فيشكرُ الغنيُّ مولاه على نعمه الوافرة، ويؤدِّي المالَ حقَّه، ويعينُ الفقير، فهذا الغنيُّ الشَّاكر. وفي المقابل فإن المالَ قد يكون سببًا لطغيانِ أقوامٍ وتجبرِهم، وانغماسِهم في الشهوات.

وأما الفقيرُ الصَّابر فإنه يقنع ويرضى، وفي المقابل فإن الفقر قد يكون من أسباب الجزع والتسخط، فيكون وبالًا على صاحبه.

وقد جاء في الحديث: عن صهيب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرًا له»** (٢). فالمؤمن يتقلب بين الشكر والصبر.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٣٨٥).

(٢) صحيح مسلم [٢٩٩٩]، وقد تقدم.

والعبد لا يعلم ما هو أنفع وأصلح له، فقد يكونُ الفقرُ هو الخيرَ للعبد، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى:٢٧]، أي: لشُغِلوا عن طاعته، وحملهم ذلك على البغي والطُّغيان والتجبُّر على الخلق، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى:٢٧].

إن الفقر المنسي يؤثر في سلوك الإنسان، وفكره، وطريقة حياته، ويختلف ذلك بمقدار تَأَثُّرِ الإنسان به، كما أنه قد يختلف من حيث مدى شدَّته، فقد يكون الفقر صارفًا حقيقيًّا عن الهداية، وعن طلب العلم والمعرفة، وعن التَّفقه في الدِّين، كما أنَّه قد يكون نعمة بالنِّسبة إلى طالب العلم -ولا سيما في بداية الطَّلب- حتى لا تشدَّه الدُّنيا إلى مشاغلها.

والحقيقة أنَّ ذلك يرجع إلى اعتباراتٍ تتعلَّقُ بالفقير ومدى تأثُّرِه، وبالفقر ومدى تأثيره، وقد يرجع ذلك إلى اعتباراتٍ تتعلق بالخوف على المكانة أو العمل، أو المصالح الاقتصادية التي توفر الرفاهية والتمتع بالمال.

وللفقر أسباب كثيرة، أذكر منها:

الضعف والعجز عن الكسب.

ومنها: إخفاق السعي.

ومنها: البطالة والكسل.

ومنها: الجهل بالطرق الموصلة إلى الكسب.

ومنها: ما تسوقه الأقدار من نحو حركات الرياح، واضطراب البحار، واحتباس الأمطار، وكساد التجارة، ورخص الأسعار.

وللفقر من الآثار ما قد يكون عائقًا عن الهداية بالنسبة لكثيرين، فالبحث عن السبب، والنظر في العلاج محل النظر.

يقول بعض أهل العلم: "إنَّ الفقر له حالان:

أ. حال تتبلبل فيها الخواطر من الهم والغم، وكثرة العيال، وانكسار النفس الناشئ عن ذلك، ولنعبر عن هذا بالفقر الأسود، وهو يبدد الذهن، ويقتل النبوغ والإبداع، ويورث الاكتئاب والإحباط، فيذوي صاحبه كما تذوي الشجرة الخضراء إذا انقطع عنها الماء.

ب. وحال ثانية يكون الإنسان فيها فقيرًا، ولكنه يكون خفيف المؤونة، راسخ الطمأنينة بالله عَزَّوَجَلَّ، لا يؤثر الفقر إلَّا على سطح جسده ومظهر لباسه، أما خاطره فمستقر مشرق، ولنسم هذا بالفقر الأبيض كما يقال، وهو نعمة بالنظر إلى طالب العلم في أول حياته حتى لا تشده الدنيا إلى مشاغلها وغمراتها ومفاتنها؛ فإنَّ التقلل من الدنيا أمكن لحفظ العلم وتحصيله"[١].

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أزين شيء بالعلماء الفقر مع القناعة. وقال: لا يطلب هذا العلم من يطلبه بِالتَّمَلُّل، وعِزِّ النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلة النفس

(١) صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل (ص:١٤٩-١٥٠).

وضيق العيش وذلة أفلح (١). وقال: ما أفلح في العلم إلَّا من طلبه في القلة، ولقد كنت أطلب القرطاس فيعسر علي (٢).

وقال: فقر العلماء فقر اختيار، وفقر الجهُّال فقر اضطرار. وقال: ما فزعت من الفقر قط (٣).

ويُستَدلُّ على ذلك: بفقر أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي دعاه إلى ملازمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على طمأنينة، وخفَّة مسؤولية، فكان فقره في مآله حسنة عليه وعلى الناس (٤).

والفقر المنسي هو الذي استعاذ منه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الفقر، والقلة، والذلة، وأعوذ بك من أن أظلم، أو أظلم**» (٥).

---

(١) شعب الإيمان [١٦٠٣]، الإلماع (ص:٥٢)، جامع بيان العلم [٤٤٩]، تهذيب الأسماء، للإمام النووي (٧٤/١)، الشذا الفياح (٤٠٤/١)، المحدث الفاصل، للرامهرمزي (ص:٢٠٢)، فتح المغيث (٣٥٥/٢).

(٢) تهذيب الأسماء، للإمام النووي (٧٤/١).

(٣) المصدر السابق (٧٥/١).

(٤) انظر: صفحات من صبر العلماء (ص:١٥١-١٥٢).

(٥) أخرجه أحمد [٨٠٥٣]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٧٨]، وابن ماجه [٣٨٤٢]، وأبو داود [١٥٤٤]، والبزار [٨٢١٦]، والنسائي [٥٤٦٠]، وابن حبان [١٠٣٠]، والحاكم [١٩٨٣]، وقال: "صحيح الإسناد على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٣١٥٠].

قوله: «**اللهم إني أعوذ بك من الفقر**». (الفقر): الاحتياج والطلب، وأراد به هنا: (فقر القلب)، وكل قلب يطلب شيئًا، ويحتاج إلى شيء، ويحرص على شيء، فهو فقير -وإن كان صاحبه كثير المال- يعني: من قلب حريص على جمع المال. وهذا مثل قوله: «**ونفس لا تشبع**»[(١)].

وقال بعض أهل العلم: الفقر المستعاذ منه إنما هو فقر النفس وجشعها الذي يفضي بصاحبه إلى كفران النعمة في المال، ونسيان ذكر المنعم المتعال. قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الفقر المذموم: فقر النفس، وهو الذي استعاذ منه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[(٢)].

وكما أن الفقر المنسي من المعوقات الشاغلة فكذلك الغنى المطغي؛ لأنَّ الغنى قد يكون من أسباب الطغيان الذي يؤدي إلى البطر والانغماس في الشهوات والملاهي، وإلى الانشغال عن طلب الهداية، وعن العمل للآخرة.

وقد بين الله عَزَّوَجَلَّ في بعض الآيات حكمةَ تضييقه للرزق على من ضيقه عليه من العباد. وذكر أن من حكم ذلك: أن بَسْطَ الرزق للإنسان قد يحمله على البغي والطغيان، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾ [الشورى:٢٧]، أي: بقدر ما يصلحهم ولو زاده

---

(١) صحيح مسلم [٢٧٢٢]. قال الإمام النووي في (شرحه لصحيح مسلم) (١٧/٤١): "معناه: استعاذة من الحرص والطمع والشره وتعلق النفس بالآمال البعيدة".

(٢) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١١/٣٦٤٨)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٤/١٧٠٩). قال العلامة المناوي: أراد "فقر النفس لا ما هو المتبادر من معناه من إطلاقه على الحاجة الضرورية؛ فإن ذلك يعم كل موجود: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر:١٥]" فيض القدير (٢/١٢٢).

لفسد حالهم[1]؛ فإن المال قد يكون سببًا للطغيان والهلاك، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عن قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ٢١﴾ [نوح:٢١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق:٦-٧].

والفقر والغنى هما من قدر الله عَزَّوَجَلَّ الذي قسَّم الأرزاق والآجال؛ ولذلك فإنهما لا يوصفان بالذم والمدح في ذاتهما، وإنما بآثار كلٍّ منهما على صاحبه، فالفقير إن صبر وشكر ورضي بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ، ولم يكن الفقر عائقًا عن طلب الحق والهداية، وعن أداء الحقوق والواجبات فهذا هو الفقر المحمود.

أما إذا وصل الفقر لدرجة أنست صاحبها مقام عبوديته لله عَزَّوَجَلَّ، فانشغل في طلب الرزق، وأعرض عن الطاعة والهداية، فهذا هو الحد المذموم الذي تعوَّذ منه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك الغنى إذا تجاوز الحد، وكان سببًا في طغيان صاحبه، وكفرانه لنعمة الله عَزَّوَجَلَّ، وانشغاله بالمال عن سلوك طريق الهداية، وعن طلبِ العلم النافع، وانغماسه في الشهوات والملذات، وتركه للحقوق والواجبات في المال، وما يندب فيه من البذل في سبل الخيرات، وإعانة المحتاجين، فهو الغنى المهلك لصاحبه.

وقد تعوَّذ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتنة الغنى، وفتنة الفقر، كما جاء في (الصحيح): عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم، والمأثم والمغرم، ومن فتنة القبر، وعذاب القبر، ومن فتنة النار وعذاب النار، ومن شر فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر..**» الحديث[2].

---

(١) انظر: أضواء البيان (٧/٦٠)، (٨/٢١٤).

(٢) صحيح البخاري [٦٣٦٨، ٦٣٧٥، ٦٣٧٧]، مسلم [٥٨٩].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والتقييد في الغنى والفقر بالشر لا بد منه؛ لأن كلا منهما فيه خير باعتبار، فالتقييد في الاستعاذة منه بالشر يخرج ما فيه من الخير سواء قل أم كثر. قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فتنة الغنى: الحرص على جمع المال وحبه حتى يكسبه من غير حله، ويمنعه من واجبات إنفاقه وحقوقه. وفتنة الفقر يراد به: الفقر الْمُدْقِع الذي لا يَصْحَبُهُ خَيْرٌ ولا وَرَعٌ حتَّى يَتَوَرَّطَ صَاحِبُهُ بسببه فيما لا يليق بأهل الدين والمروءة، ولا يبالي بسبب فاقته على أَيِّ حَرَامٍ وَثَبَ، ولا في أَيِّ حالة تَوَرَّط"(١).

وقال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واستعاذ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شر فتنة الغنى، وقد علم كل مؤمن أن الله تعالى قد أعاذه من شر كل فتنة، وإنما دعاؤه بذلك صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تواضعًا لله عَزَّوَجَلَّ، وتعليمًا لأمته، وحضًا لهم على إيثار الزهد فى الدنيا"(٢).

وقال بعض أهل العلم: قوله: «**ومن شر فتنة الغنى**»، وهي: البطر والطغيان، وتحصيل المال من الحرام، وصرفه في العصيان، والتفاخر بالمال والجاه، «**ومن شر فتنة الفقر**»، وهي: الحسد على الأغنياء، والطمع في أموالهم، والتذلل بما يُدَنِّسُ العرض، وَيَثْلِمُ الدين، وعدم الرضا بما قسم الله عَزَّوَجَلَّ له، وغير ذلك مما لا تحمد عاقبته.

ويمكن أن يقال: إن الفقر والغنى لذاتهما محمودان، وإن كان الجمهور على أن الفقر أسلم، وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ

---

(١) فتح الباري (١١/١٧٧).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/١٦٠).

خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ [الإسراء:٣٠]، ففي الآية إيماء إلى أن التسليم أفضل[1]، وأن بسط الرزق وتضييقه كل واحد يناسب بعض عباده دون بعض.

ومجمل الكلام: أن كل ما يقربك إلى الله عَزَّوَجَلَّ فهو مبارك عليك ومحمود، وكل ما يبعدك عن الله عَزَّوَجَلَّ فهو شؤم عليك، سواء كان فقرًا أو غنى[2].

فإذا منَّ الله عَزَّوَجَلَّ على العبد بغنىً لا يُطغِي، وبفقرٍ لا يُنسِي، وكانت حاله وسطًا، وعبادته مستقيمة، وأحواله قويمة، فهذه هي السعادة.

١٢ - الوقاية من آفات الفقر المنسي والغنى المطغي والعلاج:

وعلاج الأثر الاقتصادي إنما يكون بالاعتقاد الإيماني؛ فإن له من الأثر ما ينقل المؤمن من حال إلى حال.

ومن أسباب الوقاية من آفات الفقر المنسي: السعي في طلب الرزق، ومكافحة البطالة، وشغل الفراغ.

فعلى المسلم أن يسعى في طلب الرزق، بلا هلع، ولا ضجر، ولا قلق، وليعلم أن أهم عامل في تحقيق الاستقرار المادي والنفسي هو التقوى، والسلوك الواعي في حدود ما أحلَّ الله عَزَّوَجَلَّ، وفي نطاق ما شرع، بلا إسراف ولا تبذير، ولا بخل ولا تقتير، ومن غير ظلم أو أكل لأموال الناس بالباطل. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ﴾

---

(١) أي: التسليم والرضى بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره.

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١٧٠٥/٤).

[الطلاق:٢-٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

وإنَّ الإيمان يمنح الناس الأمن والأمان، ويورث القناعة والرضا.

والمعصية سببٌ في منع الرزق، أو سلب بركته، فقد يحرم المرء الرزق بالمعصية يرتكبها، أو قد يحرم البركة في الرزق، فيكون لديه المال الوفير ولا يحسن الانتفاع به، فيضيع المال في غير مصلحة، ويذهب من غير فائدة. قال الله عَزَّوَجَلَّ على لسان نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾ [نوح:١٠-١٢].

ولكن ينبغي أن نعلم أنَّ على الفقير آدابًا عليه أن يراعيها:

منها: أن لا يكون في نفسه كراهية لما ابتلاه الله عَزَّوَجَلَّ به من الفقر، أعني: أنه لا يكون كارهًا فعل الله جَلَّ وَعَلَا من حيث إنه فعله -وإن كان كارهًا للفقر- كالمحجوم يكون كارهًا للحجامة؛ لتألمه بها، ولا يكون كارهًا فعل الحجام، ولا كارهًا للحجام، بل يشكر الحجام على ما فعله؛ لأنه يعلم فائدة الحجامة وأثرها عليه.

وعليه أن لا يَفْتر بسبب الفقر عن عبادة، ولا يمنعه الفقر من بذل ما يفضل عنه، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ [الطلاق:٧].

وقد تقدم أن في قوله جَلَّ وَعَلَا في وصف المتقين المسارعين إلى الخيرات: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ [آل عمران:١٣٤]: إشارة إلى أن النفوس ينبغي أن تكون كريمة

مهما ألحَّ عليها الفقر، وأن تتعوَّدَ الإحسان بقدر الطاقة، كما قال جَلَّوَعَلَا في آية أخرى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الطلاق:٧].

وعلاج الغنى المطغي يكون بأداء الحقوق والواجبات في المال، وبذله في سبل الخيرات، وإعانة المحتاجين، وشكر الله عَزَّوَجَلَّ على نعمه الوافرة، وعدم الاسترسال والإغراق في الشهوات التي تحول بين المسلم وبين وبين أدائه للحقوق والواجبات تجاه نفسه، وتجاه الآخرين، ولا يخفى أن الاسترسال في الشهوات له مضار ظاهرة وباطنة، وحسية ومعنوية، وفردية واجتماعية.

وقد شاءت إرادة الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعل الإنسان خليفة في الأرض؛ ليقوم بعمارتها، وأعطاه من النِّعم ما يعينه على القيام بهذه المهمة. وحيث إنَّ الإنسان مدنيٌّ بالطَّبع لا يستطيع أن يعيش وحده، ولا بدَّ له من معاملة غيره، فقد أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ نعمة المال، يتبادل بواسطته المنافع، ويقضي الحوائج.

ولأن كل شيء -من النعم والمتاع- ابتلاء واختبار من الله عَزَّوَجَلَّ، فقد جعل الله جَلَّوَعَلَا المال من أعظم أنواع الابتلاء -كما تقدم بيان ذلك في أسباب (**الوقاية من آفات ترك الزكاة والعلاج**) -.

ومن أعظم أسباب الوقاية من مضارِّ الغنى المطغي والفقر المنسي: أن ينظرَ الإنسانُ في أمور الدُّنيا إلى من هو دونه، وأن يتطلَّع إلى من هو فوقه في البرِّ والطَّاعات، كما تقدم بيان ذلك في (**وسائل تقوية الإيمان**).

١٣ – بيان عاقبة الصبر، وبيان أنه مفتاح الفرج:

إن للصبر نتائج كثيرة، وثمرات عظيمة، تدل على رفعة مكانته، وعظيم منزلة الصابرين، وأن العاقبة الحسنة لكل صابر محتسب، كما جاء بيان ذلك في آيات وأحاديث كثيرة، وقد تقدم ذكر كثير من ثمرات الصبر، فقد وعد الله عَزَّوَجَلَّ الصابرين بأنه معهم بعنايته ورعايته، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣﴾ [البقرة:١٥٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٤٦﴾ [الأنفال:٤٦].

وبيَّنَ أن الصَّبر من أعظم أسباب النصر، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۗ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١٢٦﴾ [آل عمران:١٢٥-١٢٦].

وفي الحديث: عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا أنه قال: كنت رديف رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقال: «**يا غلام، أو يا غليم، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟**» فقلت: بلى، فقال: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء، يعرفك في الشدة، وإذا سألت، فاسأل الله، وإذا استعنت، فاستعن بالله، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك، لم يقدروا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك،**

لم يقدروا عليه، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرًا كثيرًا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا» (١).

(١) أخرجه أحمد [٢٨٠٣]، واللفظ له، بسند رجاله ثقات، وقد روي الحديث بأسانيد عن ابن عباس. كما روي عن أنس، وفيه: عبد الرحمن بن زاذان، وقد أورده الذهبي في (ميزان الاعتدال) (٥٦١/٢)، ترجمة [٤٨٦٤]، والحافظ في (لسان الميزان) (٤١٥/٣)، ترجمة [١٦٢٨]، كلاهما في ترجمة: عبد الرحمن بن زاذان، وقالا: متهم روى حديثًا باطلًا، وذكرا الحديث. ورواه الطبراني وغيره: عن عبد الله بن جعفر، قال الهيثمي (١٨٩/٧)، "وفيه علي بن أبي علي القرشي، وهو ضعيف". قال في (المقاصد): "حديث: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة»، [أخرجه] الطبراني في (الكبير) من حديث: عيسى بن محمد القرشي، والعسكري في (الأمثال) من حديث: حجاج بن فرافصة، كلاهما عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس، قال: كنت ردف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالتفت إلي فقال: «يا غلام! احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف..» الحديث، وفيه: «قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق كلهم جميعًا أرادوا أن ينفعوك بشيء لم يقضه الله لك لم يقدروا عليه، أو أرادوا أن يضروك بشيء، لم يقضه الله عليك، لم يقدروا عليه، وفيه: واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك. وما أخطاك لم يكن ليصيبك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا». ومن طريق الطبراني أورده الضياء في (المختارة)، وهو حسن، وله شاهد عند: عبد بن حميد من طريق: المثنى بن الصباح، عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس مرفوعًا: «يا ابن عباس! احفظ الله يحفظك، واحفظ الله تجده أمامك، وتعرف إلى الله في الرخاء، يعرفك في الشدة»، وذكره مطولًا، وسنده ضعيف، وأصل الحديث بدون لفظ الترجمة عند الترمذي، وصححه من حديث: حنش عن ابن عباس مرفوعًا، بل أخرجه أحمد، والطبراني، وغيرهما من هذا الوجه أيضًا بتمامه، وهو أصح وأقوى رجالًا، وقد بسطت الكلام عليه في (تخريج الأربعين)" المقاصد الحسنة (ص:٢٥٦-٢٥٧).

فبين النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن "«**النصر**» من الله عَزَّوَجَلَّ للعبد على أعداء دينه ودنياه إنما يكون «**مع الصبر**» على الطاعة، وعن المعصية، فهما أخوان شقيقان متلازمان، والثاني بسبب الأول. وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أنه مع الصابرين، أي: بهدايته ونصره المبين، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦﴾ [النحل:١٢٦]. ومن خيريته لهم: كونه سببًا لنصرهم على أعدائهم، وأنفسهم؛ ولهذا لا يحصل الظفر لمن انتصر لنفسه غالبًا. قال بعض العارفين: الصبر أنصر لصاحبه من الرجال، ومحله من الظفر محل الرأس من الجسد.

«**والفرج**» يحصل سريعًا. «**مع الكرب**» فلا يدوم معه الكرب، فعلى من نزل به أن يكون صابرًا، محتسبًا، راجيًا سرعة الفرج حسن الظن بربه جَلَّوَعَلَا؛ فإنه أرحم من كل راحم. «**وإن مع العسر يسرًا**» كما نطق به القرآن مرتين، ولن يغلب عسر يسرين؛ لأن النكرة إذا أعيدت تكون غير الأولى، والمعرفة عينها غالبًا. قال البعض: وجعل «**مع**» على بابها هو الظاهر؛ إذ أواخر أوقات الصبر والكرب والعسر أوائل أوقات مقابلها، فتحققت المقارنة.

وقيل: إن نظر للعلم الأزلي فهي متقارنة؛ إذ لا ترتب فيه أو للوجود الحقيقي فمع بمعنى بعد لأن بينهما تضادا فلا تتصور المقارنة"(١)، وقيل غير ذلك.

وأخبر أن الصبر من أسباب السلامة من شر الأشرار، وكيد الفجار، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠]. "فبين الحق جَلَّوَعَلَا

(١) فيض القدير (٦/٢٩٨).

أنه مع التقوى والصبر لا يضر المؤمنين كيد أعدائهم المنافقين. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾ [آل عمران:١٢٥]، فبين أنه مع الصبر والتقوى يمدهم بالملائكة. وينصرهم على أعدائهم الذين يقاتلونهم. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ [آل عمران:١٨٦]، فأخبرهم أن أعداءهم من المشركين، وأهل الكتاب لا بد أن يؤذوهم بألسنتهم، وأخبر أنهم إن يصبروا ويتقوا ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾. فالصبر والتقوى يدفع شر العدو المظهر للعداوة، المؤذين بألسنتهم، والمؤذين بأيديهم، وشر العدو المبطن للعداوة، وهم المنافقون.."(١).

وأخبر عن ثقة المؤمنين بنصر الله عَزَّوَجَلَّ الذي وعدهم إن استجابوا لأمره، وكانوا من الصابرين، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وبشر الصابرين بحسن العاقبة فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾ [البقرة:١٥٥].

وجمع للصابرين أمورًا لم يجمعها لغيرهم فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة:١٥٧].

فعاقبة الصبر جامعة لخيري الدنيا والآخرة.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان عاقبة الصبر:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٥٠٧-٥٠٨).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف:١٣٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد:٢٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد:٢٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود:١١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [النحل:٤١-٤٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل:٩٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ [النحل:١١٠].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المؤمنون:١١١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [الفرقان:٧٥-٧٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص:٦-٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [القصص:٥٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٥٩﴾ [العنكبوت:٥٨-٥٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ﴾ [السجدة:٢٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٣٥﴾ [فصلت:٣٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ [الإنسان:١٢].

"فلما كان في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوى خشونة وتضييق جازاهم على ذلك: نعومة الحرير، وسعة الجنة. وقال أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذه الآية: جزاهم بما صبروا عن الشهوات.."(١).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨﴾ [البلد:١٧-١٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح:٥-٦].

---

(١) روضة المحبين، لابن القيم (ص:٤٨٠).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:١-٣].

ومن أسباب الثبات: علم العبد بعاقبة الصبر وآثاره من جزيل الثواب، ومن محبة الله عَزَّوَجَلَّ للصابرين.

وفي الحديث: عن أبي ثعلبة الخشني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإن من ورائكم أيَّامَ الصبر فيهن مثل: القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلًا يعملون مثل عمله**»(١).

و(أيام الصبر) بالإضافة، هي الأيام يعظم فيها أجر الصبر؛ لكثرة الفتن، واختلاط الأمور، مع كثرة المفسدين والمضلّين، ووقوع البلاء والمحن.

---

(١) رواه ابن ماجه [٤٠١٤]، وأبو داود [٤٣٤١]، وزاد: قيل يا رسول الله: أجر خمسين رجلًا منا أو منهم، قال: «بل أجر خمسين منكم». كما أخرجه الترمذي [٣٠٥٨]، وقال: "حديث حسن غريب"، والحاكم [٧٩١٢]، وصححه، ووافقه الذهبي. قال السيوطي: "أخرج الترمذي، [وحسنه]، وابن ماجة، وابن جرير، والبغوي في (معجمه)، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبو الشيخ، وابن مردويه، والحاكم وصححه، والبيهقي في (الشعب): عن أبي أمية الشعباني، قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني، فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ قال: أَيَّةُ آيَةٍ؟ قال: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]، قال: أما والله لقد سألت عنها خبيرًا، سألت عنها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بِخَاصَّةِ نفسك، ودع عنك أمر العوام؛ فإن من ورائكم أيام الصبر، الصابر فيهن مثل: القابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلًا يعملون مثل: عملكم» الدر المنثور (٣/٢١٥).

قال الإمام أبو محمد الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهـذا زمـانُ الصَّبْرِ من لك بالَّتي ... كَقَبْضٍ على جَمْرٍ فَتَنْجُو من الْبلَا
ولو أنَّ عَيْنًا سـاعدتْ لتَوَكَّفتْ ... سحَائِبُها بالدَّمْعِ دِيمًا وَهُطَّلَا
ولكنَّها عن قَسْوَةِ القلبِ قَحْطُها ... فيا ضَيْعَةَ الأعمارِ تَمْشِي سَبَهْلَلَا

فإذا كان حال زمانه مع ما فيه من الخير والصلاح فما نقول في زماننا؟! نسأل الله السلامة والعافية.

والابتلاءُ سنَّةٌ من سننه الرَّبانيَّة الجارية -كما تقرر في غير موضع-، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ② وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ③﴾ [العنكبوت:١- ٣].

وفي وقت نزول البلاء، واشتداد الفتن يمحِّص الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين الصَّادقين من الكاذبين، ويرفعُ درجاتِ الصَّابرين والمخلصين منهم، ويعينهم على الثبات والاستقامة، ويكفِّرُ عنهم الذُّنوب.

وفي ذلك تعليم للعباد على الصبر واحتمال الإيذاء؛ فإن من سنن الله عَزَّوَجَلَّ في عباده الابتلاء؛ ليتحقق في المسلم معنى التكليف المتفرع عن عبوديته لله عَزَّوَجَلَّ.

وقد أوصى الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ أقوامهم بالصَّبر على أئمة الجور، وما يقع عليهم من الشدة والظلم؛ فإن العاقبة للمتقين، وسيهلك الله عَزَّوَجَلَّ أعدائهم.

ومن هذه الوصايا بالصبر على أئمة الجور: ما وقع لقوم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ من شدة وقهر، فأمرهم موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ بالصبر، والاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ، والثقة به، وبشرهم بالنصر وحسن العاقبة، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ

لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف:١٢٧-١٢٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [الأعراف:١٣٧].

وبشر الله عَزَّوَجَلَّ المؤمنين بحسن العاقبة أيضًا في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم:٤٧]، وقال: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة:٢١٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم:١٣-١٤].

وقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف:١١٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۝٥١﴾ [غافر:٥١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢١﴾ [المجادلة:٢١].. إلى غير ذلك من الآيات.

ومن هذه الوصايا بالصبر على أئمة الجور: ما جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات، إلا مات ميتة جاهلية**» (١).

وعن جنادة بن أبي أمية، قال: دخلنا على عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو مريض، فقلنا: حدثنا أصلحك الله، بحديث ينفع الله به سمعته من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: دعانا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فبايعناه، فكان فيما أَخَذَ علينا: «**أن بَايَعَنَا على السمع والطاعة في مَنْشَطِنَا ومَكْرَهِنَا، وعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وأَثَرَةٍ علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله**»، قال: «**إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان**» (٢).

قال ابن بطال رَحِمَهُٱللَّهُ: "في هذه الأحاديث حجة في ترك الخروج على أئمة الجور، ولزوم السمع والطاعة لهم. والفقهاء مجمعون على أن الإمام المتغلِّب طاعته لازمة، ما أقام الجمعات والجهاد، وأن طاعته خير من الخروج عليه؛ لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء، ألا ترى قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأصحابه: «**سترون بعدى أثرةً وأمورًا تنكروها**» فوصف أنهم سيكون عليهم أمراء يأخذون منهم الحقوق،

---

(١) صحيح البخاري [٧٠٥٣، ٧٠٥٤، ٧١٤٣]، مسلم [١٨٤٩].

(٢) صحيح البخاري [٧٠٥٥، ٧٠٥٦]، مسلم [١٧٠٩].

ويستأثرون بها، ويؤثرون بها من لا تجب له الأثرة، ولا يعدلون فيها، وأمرهم بالصبر عليهم، والتزام طاعتهم على ما فيهم من الجور"(١).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه: الحث على السمع والطاعة، وإن كان المتولي ظالما عسوفًا فيعطى حقه من الطاعة، ولا يخرج عليه، ولا يخلع، بل يتضرع إلى الله تعالى في كشف أذاه، ودفع شره وإصلاحه. والمراد بالأثرة: استئثار الأمراء بأموال بيت المال"(٢).

وقال العلامة السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يعني: أن الأمراء يفضلون عليكم غيركم في العطايا والولايات والحقوق"(٣).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [يونس:١٠٩]: "واصْبِرْ على دعوتهم واحتمال أذاهم وإعراضهم حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لك بالنصرة عليهم والغلبة. وروى أنها لما نزلت جمع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأنصار فقال: «**إنكم ستجدون بعدي أثرة**(٤)، ....

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٧-٨).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/٢٣٢).

(٣) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢/٢٠٣).

(٤) "«أثرة» بفتح الهمزة والمثلثة في جميع النسخ الموجودة. وفي (القاموس): «أثرة» بضم الهمزة وسكون الثاء وبفتحهما أيضًا. وفي (شرح مسلم للنووي): (الأثرة): بفتح الهمزة والثاء، ويقال: بضم الهمزة وإسكان الثاء، وبكسر الهمزة وإسكان الثاء، ثلاث لغات" مرقاة المفاتيح (٦/٢٣٩٧).

.... **فاصبروا حتى تلقوني»**[(١)]، يعني: أني أُمرت في هذه الآية بالصبر على ما سامتني الكفرة فصبرت فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة"[(٢)].

وفي رواية: عن عبد الله رَضِوَالِلَّهُعَنهُ، قال: قال لنا رسول الله صَلَّالِلَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: «**إنكم سترون بعدي أثرة وأمورًا تنكرونها**»، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: «**أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم**»[(٣)].

والصبر مفتاح الفرج، وخير ما يستعان به في النوازل، وهو أعظم أسباب النجاة، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ﴾ [يوسف:١١٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [يونس:١٠٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر:٥١].

قال عبد الله المكانسي رَحِمَهُاللَّهُ: كنت عند الجنيد، فأتت امرأة إليه، وقالت: ادع الله عَزَّوَجَلَّ أن يردَّ عليَّ ابني؛ لي فإن ابنًا لي ضاع، فقال: اذهبي واصبري، فمضت، ثم عادت، فقالت: مثل ذلك، فقال لها الجنيد: اذهبي واصبري، فمضت، ثم عادت، ففعلت مثل ذلك مرات، والجنيد يقول لها: اصبري، فقالت: عيل صبري، ولم يبق لي

---

(١) جاء في الحديث: عن أنس بن مالك، عن أسيد بن حضير أن رجلًا من الأنصار قال: يا رسول الله، ألا تستعملني كما استعملت فلانًا؟ قال: «ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» صحيح البخاري [٣٧٩٢]، مسلم [١٨٤٥].

(٢) الكشاف (٢/٣٧٥).

(٣) صحيح البخاري [٧٠٥٢].

طاقة عليه، فادع لي، فقال لها الجنيد: إن كان كما قلت: فاذهبي فقد رجع ابنك، فمضت فوجدته، ثم عادت تشكر له، فقيل للجنيد: لم عرفت ذلك؟ فقال: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل:٦٢]"(١).

١٤ – التلازم بين الصبر والشكر:

ذكر غير واحد من الأئمة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ وجه التلازم بين الصبر والشكر، فمن ذلك: قول الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشكر واجب، وترك الواجب حرام، وفي شغل النفس بفعل الواجب صبر على فعل الحرام، والحاصل أن الشكر يتضمن الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية. قال بعض الأئمة: الصبر يستلزم الشكر لا يتم إلا به، وبالعكس فمتى ذهب أحدهما ذهب الآخر، فمن كان في نعمة ففرضه: الشكر والصبر، أما الشكر فواضح، وأما الصبر فعن المعصية، ومن كان في بلية ففرضه: الصبر والشكر، أما الصبر فواضح، وأما الشكر فالقيام بحق الله عَزَّوَجَلَّ عليه في تلك البلية؛ فإن لله جَلَّوَعَلَا على العبد عبودية في البلاء، كما له عليه عبودية في النعماء"(٢).

ومن ذلك: قول الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصبر قد يكون على الطاعة وعن المعصية وفيهما يتحد الصبر والشكر؛ لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة؛ لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله عَزَّوَجَلَّ إلى ما هو المقصود منها بالحكمة، والصبر

(١) الأعمال الكاملة، للجنيد البغدادي (ص:١٤٢-١٤٣)، الرسالة القشيرية (ص:٤٢١-٤٢٢).
(٢) فتح الباري، لابن حجر (٣٠٥/١١)، وانظر: الكواكب الدراري (٢٢٨/٢٢).

يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى، فالصبر والشكر فيه اسمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين، فثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى: (صبرًا) بالإضافة إلى باعث الهوى، ويسمى: (شكرًا) بالإضافة إلى باعث الدين؛ إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة، وهو أن يصرع به باعث الشهوة، وقد صرفه إلى مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه؟!"[1].

ومن ذلك: قول العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن العبد لا يخلو قط من أن يكون فى نعمة أو بلية، فإن كان فى نعمة ففرضها: الشكر والصبر. أما الشكر فهو قيدها وثباتها، والكفيل بمزيدها، وأما الصبر فعن مباشرة الأسباب التى تسلبها، وعلى القيام بالأسباب التي تحفظها، فهو أحوج إلى الصبر فيها من حاجة المبتلى. ومن هنا يعلم سر مسألة الغنى الشاكر والفقير الصابر، وأن كلًّا منهما محتاج إلى الشكر والصبر، وأنه قد يكون صبر الغنى أكمل من صبر الفقير. كما قد يكون شر الفقير أكمل، فأفضلهما: أعظمهما شكرًا وصبرًا، فإن فضل أحدهما في ذلك فضل صاحبه.

فالشكر مستلزم للصبر لا يتم إلا به، والصبر مستلزم للشكر لا يتم إلا به. فمتى ذهب الشكر ذهب الصبر، ومتى ذهب الصبر ذهب الشكر، وإن كان فى بلية ففرضها الصبر والشكر أيضًا: أما الصبر فظاهر، وأما الشكر فللقيام بحق الله عَزَّوَجَلَّ عليه في تلك البلية؛ فإن لله جَلَّوَعَلَا على العبد عبودية فى البلاء كما له عليه عبودية في النعماء،

(١) إحياء علوم الدين (١٣٩/٤).

وعليه أن يقوم بعبوديته في هذا وهذا. فعلم أنه لا انفكاك له عن الصبر، ما دام سائرًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ"(١).

وأخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن الصبر والشكر من أسباب التدبر والاعتبار، والإنابة إلى الواحد القهار فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم:٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾ [لقمان:٣١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾ [سبأ:١٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى:٣٢-٣٣].

ثالثًا: تعريف الشكر وبيان مكانته ومنازله وأركانه وعاقبته:

١ – تعريف الشكر وبيان الفرق بينه وبين الحمد، وذكر درجاته ومراتبه:

أ. بيان حقيقة الشكر:

قال أهل اللغة: أصل الشكر: تصور النعمة، وإظهارها والتحدث بها.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى:١١].

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص:٢٦٥).

وذكر بعض أهل اللغة أن أصل الشكر: الظهور؛ ومنه قولهم: دابة شكور: إذا ظهر عليها من السمن على القليل من العلف، فالشكور من البهائم الذي يأكل قليلًا ويظهر به بدنه، وقد قيل: سمى الله عَزَّوَجَلَّ نفسه: ﴿شَاكِرًا﴾ [النساء:١٤٧]؛ لأنه يرضى ويتقبل القليل من العمل وينميه، وذلك، بعد رتبة التوحيد، فذلك شكر منه لعباده.

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشكر: الثناء على المحسن بما أولاكه من المعروف.

يقال: شكرته وشكرت له، وباللام أفصح، و(الشكران) خلاف الكفران. و(الشكر) -بالضم-: عرفان الإحسان، ومن الله عَزَّوَجَلَّ: المجازاة والثناء الجميل"[١].

وقال الإمام أبو القاسم الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كنت بين يدي سري السقطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأنا ابن سبع سنين، وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر، فقال لي: يا غلام ما الشكر؟ قلتُ: ألا تعصي الله عَزَّوَجَلَّ بنعمه، فقال لي: أخشى أن يكون حظك من الله عَزَّوَجَلَّ لسانك، قال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فما أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها لي السري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال سري رَحِمَهُ ٱللَّهُ للجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يا أبا القاسم ما الشكر؟ فقال: ألا يستعان بشيء من نعم الله عَزَّوَجَلَّ على معاصيه، فقال سري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من أين لك هذا؟ فقال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من مجالستك.

وقال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فرض الشكر: الاعتراف بالنعم بالقلب واللسان.

---

(١) انظر: الصحاح، مادة: (شكر) (٧٠٢/٢)، الكشف والبيان (٤٠٦/٣-٤٠٧)، الكليات (ص:٥٣٤)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢٦٠/١-٢٦١).

وقال: الشكر ألا ترى نفسك أهلًا للنعمة.

والشكر معه المزيد أبدًا. لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]، فمتى لم تر حالك في مزيد. فاستقبل الشكر"[١].

وقال الإمام أبو القاسم القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان حقيقة الشكر، وذلك في تفسيره لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ١٤٧﴾ [النساء:١٤٧]، "أي: والله شاكر عليم، ومعنى كونه ﴿شَاكِرًا﴾: أنه مادح للعبد، ومشهد عليه فيما يفعله[٢]؛ لأن حقيقة الشكر وحدَّه: الثناء على المحسن بذكر إحسانه، فالعبد يشكر الله عَزَّوَجَلَّ، أي: يثني عليه بذكر إحسانه إليه الذي هو نعمته عليه، والربُّ جَلَّوَعَلَا يشكر للعبد بأن يثني عليه بذكر إحسانه الذي هو طاعته له، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يثني عليه بما يفعله من الطاعة، مع علمه بأن له ذنوبًا كثيرة.

ويقال: يشكره -وإن علم أنه سيرجع في المستأنف إلى قبيح أعماله-"[٣].

وقال: وحقيقة الشكر -على لسان العلماء-: الاعتراف بنعمة المنعم على جهة الخضوع. والأحسن أن يقال: الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه، فيدخل في هذا: شكر الله عَزَّوَجَلَّ للعبد؛ لأنه ثناء منه على العبد بذكر إحسان العبد، وشكر

---

(١) الأعمال الكاملة، للجنيد البغدادي (ص:١٣٦-١٣٧)، طبعة دار الشروق، وانظر: مدارج السالكين (٢/٢٣٦)، الرسالة القشيرية (ص:٣١١-٣١٦)، بصائر ذوي التمييز (٣/٣٣٩).

(٢) أي: يشهد ملائكته على ما يقوم به العبد من الأفعال الجليلة التي تقربه من الله عَزَّوَجَلَّ، كما جاء في غير حديث.

(٣) تفسير القشيري (لطائف الإشارات) (١/٣٨٠).

العبد ثناء على الله عَزَّوَجَلَّ بذكر إحسانه، إلا أن إحسان الحق هو إنعامه، وإحسان العبد طاعته وخدمته لله عَزَّوَجَلَّ، وما هو الحميد من أفعاله.

فأمّا على طريق أهل المعاملة وبيان الإشارة: فالشكر صرف النعمة في وجه الخدمة.

ويقال: الشكر ألا تستعين بنعمته على معاصيه.

ويقال: الشكر شهود المنعم من غير مساكنة إلى النعمة.

ويقال: الشكر رؤية العجز عن الشكر.

ويقال: أعظم الشكر: الشكر على توفيق الشكر.

ويقال: الشكر على قسمين: شكر العوام على شهود المزيد، قال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]، وشكر الخواص يكون مجردًا عن طلب المزيد، غير متعرض لمنال العوض.

ويقال: حقيقة الشكر: قيد النعم وارتباطها؛ لأن بالشكر بقاءها ودوامها"(١).

وقال الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أصل الشكر: أن يعرف العبد أن ما به من نعمة فمن الله عَزَّوَجَلَّ بقلبه، علم يقين لا تخالطه الشكوك، فإذا عرف بقلبه ذلك ذكره بلسانه، فحمده عليه، ثم لم يستعن بشيء من نعم المنعم على شيء مما يكره المنعم.

(١) المصدر السابق (٣/٣٩-٤٠).

وأعلا من ذلك من الشكر: أن تعد كل بلاء نزل بك نعمة؛ لأن لله عَزَّوَجَلَّ من البلاء ما أنزله بغيرك أشد وأعظم من الذي أنزله بك، والناس يحتاجون عند ذلك إلى الصبر، وهو قائم بالشكر"[1].

وقال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أصل الشكر هو: الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له، والذل، والمحبة، فمن لم يعرف النعمة، بل كان جاهلًا بها لم يشكرها، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضًا، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها، ومن عرف النعمة والمنعم وأقر بها ولم يجحدها ولكن لم يخضع له ويحبه ويرض به وعنه لم يشكرها أيضًا، ومن عرفها وعرف المنعم بها، وأقر بها، وخضع للمنعم بها، وأحبه، ورضى به وعنه، واستعملها فى محابِّه وطاعته، فهذا هو الشاكر لها"[2].

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد اختلف السَّلف في حدِّ الشكر فقال بعضهم: شكر العبد لربه جَلَّوَعَلَا: رضاؤه بقضائه، وتسليمه لأمره فيما نابه من خير أو شر. ذكره الربيع بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بعض أصحابه.

وقال آخرون: الشكر لله عَزَّوَجَلَّ هو الإقرار بالنعم أنها منه، وأنه المتفضل بها، وقالوا: الحمد والشكر بمعنى واحد، روى ذلك عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وابن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) آداب النفوس، للحارث بن أسد المحاسبي (ص:٦٦-٦٧).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص:٩٥)، وانظر ما قيل في حدِّ الشكر في (مدارج السالكين ٢/٢٣٤-٢٣٦).

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والصواب في ذلك أن شكر العبد هو: إقراره بأن ذلك من الله عَزَّوَجَلَّ دون غيره، إقرارًا بحقيقة الفعل، ويصدقه العمل.

فأما الإقرار الذي يكذبه العمل؛ فإن صاحبه لا يستحق اسم: (الشاكر) بالإطلاق، ولكنه يقال: شكر باللسان، والدليل على صحة ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ [سبأ:١٣]، ومعلوم أنه لم يأمرهم؛ إذ قال لهم ذلك، بالإقرار بنعمه؛ لأنهم كانوا لا يجحدون أن يكون ذلك تفضلًا منه عليهم، وإنما أمرهم بالشكر على نعمه بالطاعة له بالعمل، وكذلك قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حين تفطرت قدماه في قيام الليل: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**».

فإن قال قائل: فأي المنزلتين أعلى درجة: الصبر أو الشكر؟

قيل: كلٌّ رفيع الدرجة، شريف المنزلة، وما ذو العافية والرَّخاء كذي الفاقة والبلاء، وفي قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ١٠﴾ [الزمر:١٠]، وخصوصه إياهم من الأجر على صبرهم دون سائر من ضمن له ثوابًا على عمله: ما يبين فضل الصبر.."(١).

ولكن ذلك الجزاء على الصَّبر لا يكون إلا إذا كان مقترنًا بالشكر، والأجر يعظم على قدر البلاء الذي يصيب العبد، وهو صابر شاكر.

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/١٨٣-١٨٤).

وروي عن الإمام مالك بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر:١٠]: "هو الصبر على فجائع الدنيا وأحزانها، وقد بلغني أن الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد"(١).

وقد قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**الصبر: نصف الإيمان، واليقين: الإيمان**» (٢). وقد تقدم بيانه.

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**الطَّاعم الشَّاكر بمنزلة الصَّائم الصَّابر**» (٣).

---

(١) تقدم.

(٢) تقدم.

(٣) الحديث رواه سعيد المقبري، عن أبي هريرة، وقد أخرجه: معمر بن أبي عمرو راشد في (جامعه) [١٩٥٧٣]، والترمذي [٢٤٨٦]، وقال: "حديث حسن غريب"، كما أخرجه: أبو يعلى [٦٥٨٢]، وابن خزيمة [١٨٩٨]، وابن حبان [٣١٥]، والحاكم [٧١٩٤]، وقال: " صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (الكبرى) [٨٥١٨]، والبغوي في (شرح السنة) [٢٨٣٢]. قال البيهقي: "ورويناه من حديث: المقبري، وحنظلة بن علي، عن أبي هريرة، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير شك" (شعب الإيمان)، للبيهقي [٤١٤٧] (٦/٢٦٣). قال الحافظ العراقي: "علقه البخاري، وأسنده الترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن حبان، من حديث: أبي هريرة، ورواه ابن ماجه من حديث: سنان بن سنة، وفي إسناده اختلاف" المغني عن حمل الأسفار (ص:١٤٢١). انظر طرق الحديث في (شعب الإيمان)، للبيهقي [٤١٤٧] (٦/٢٦٣)، وفي (تغليق التعليق على صحيح البخاري)، للحافظ ابن حجر (٤/٤٩١).

قال الشيخ الكرماني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: الذي يأكل ويشكر الله عَزَّوَجَلَّ ثوابه مثل ثواب الذي يصوم ويصبر على الجوع. قيل الشكر نتيجة النعماء، والصبر نتيجة البلاء، فكيف شبه الشاكر بالصابر؟ أجيب: بأن التشبيه في أصل الاستحقاق لا في الكمية والكيفية، ولا يلزم المماثلة في جميع الوجوه.

وقال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ربما توهم متوهم أن ثواب الشكر يقصر عن ثواب صبر الصائم، فأزيل توهمه به، يعني: هما سيان في الثواب، ولأن الشاكر لما رأى النعمة من الله عَزَّوَجَلَّ، وحبس نفسه على محبة المنعم بالقلب، وإظهارها باللسان نال درجة الصابر. ووجه الشبه: اشتراكها في حبس النفس، فالصابر يحبس نفسه على طاعة المنعم، والشاكر يحبس نفسه على محبته، وفيه: حث على شكر الله عَزَّوَجَلَّ على جميع نعمه؛ إذ لا يختص بالأكل، وتفضيل الفقير الصابر على الغني الشاكر؛ لأن الأصل أن المشبه به أعلى درجة"(١).

ب. معنى شكر الله عَزَّوَجَلَّ للعبد:

شكر الله عَزَّوَجَلَّ للعبد هو ثناؤه عليه، ومجازاته بأحسن الجزاء.

وقد تقدم حديث: الرجل الذي أخَّرَ غصن شوك عن الطَّريق فشكر الله له، فغفر له، وحديث: الذي سقى كلبًا يأكل الثرى من العطش فَشَكَرَ الله، فغفر له.

---

(١) الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (٢٠/٦٦)، وانظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٩/٢٨٥٣)، فيض القدير (٢/٥٠٠).

فمعنى: «**فشكر الله له**»؛ أي: رضي فعله ذلك، وأثابه عليه بالأجر، والثناء الجميل.

ج. الفرق بين الشكر والحمد:

ذكر الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن الفرق بين الحمد والمدح من وجوه:

الأول: أن المدح قد يحصل للحي ولغير الحي، ألا ترى أن من رأى لؤلؤة في غاية الحسن، أو ياقوتة في غاية الحسن فإنه قد يمدحها، ويستحيل أن يحمدها، فثبت أن المدح أعم من الحمد.

الوجه الثاني: في الفرق: أن المدح قد يكون قبل الإحسان، وقد يكون بعده، أما الحمد فإنه لا يكون إلا بعد الإحسان.

الوجه الثالث: في الفرق: أن المدح قد يكون منهيًا عنه،

قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**احثوا التراب في وجوه المداحين**»[1]. أما الحمد فإنه مأمور به مطلقًا.

(1) الحديث في (صحيح مسلم) [٣٠٠٢]: عن أبي معمر، قال: قام رجل يثني على أمير من الأمراء، فجعل المقداد يحثي عليه التراب، وقال: «أمرنا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن نحثي في وجوه المداحين التراب»، عن همام بن الحارث، أن رجلًا جعل يمدح عثمان، فعمد المقداد فجثا على ركبتيه، وكان رجلًا ضخمًا، فجعل يحثو في وجهه الحصباء، فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إذا رأيتم المداحين، فاحثوا في وجوههم التراب». والحديث ورد بلفظ: «احثوا التراب فى وجوه المداحين»، وهو مروي عن المقداد بن الأسود، وعن ابن عمر، وعن أبي هريرة. وورد كذلك بلفظ: «احثوا في أفواه المداحين التراب».

الوجه الرابع: أن المدح عبارة عن القول الدال على كونه مختصًّا بنوع من أنواع الفضائل، وأما الحمد فهو القول الدال على كونه مختصا بفضيلة معينة، وهي فضيلة الإنعام والإحسان، فثبت بما ذكرنا أن المدح أعم من الحمد.

وأما الفرق بين الحمد وبين الشكر، فهو أن الحمد يعم ما إذا وصل ذلك الإنعام إليك أو إلى غيرك، وأما الشكر فهو مختص بالإنعام الواصل إليك.

قالوا: المدح: عبارة عن القول الدال على أنه مختص بنوع من أنواع الفضائل باختياره وبغير اختياره، والحمد: قول دال على أنه مختص بفضيلة اختيارية معينة، وهي: فضيلة الإنعام إليك وإلى غيرك، ولا بد أن يكون على جهة التفضيل لا على سبيل التهكم والاستهزاء، والشكر على النعمة الواصلة إليك خاصة وهو باللسان، وقد يكون بالقلب والجوارح. قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

والحمد باللسان وحده فهو إحدى شعب الشكر [1].

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحمد: هو الثناء بالفضيلة. والشكر: مقابلة النعمة قولًا وعملًا.

ولما كانت النعمة لا تخرج من كونها فضيلة، صار الحمد منطويًا على معنى: الشكر.

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١/١٩٠-١٩١)، وانظر: الكشاف (١/٨)، غرائب القرآن (١/٩٣)، روح المعاني (١/٧٢)، حاشية الطيبي على الكشاف (١/٧١٧-٧٢٦)، حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي (١/ ١٥٧).

وعلى هذا فالحمد أخصُّ من المدح، وأعم من الشكر؛ فإنَّ المدح يقال فيما يكون من الإنسان باختياره، ومما يقال منه وفيه بالتسخير، فقد يمدح الإنسان بطول قامته، وصباحة وجهه، كما يمدح ببذل ماله، وسخائه، وعلمه، والحمد يكون في الثاني دون الأول، والشُّكر لا يقال إلا في مقابلة نعمة، فكلُّ شكر حمد، وليس كل حمد شكرًا، وكل حمد مدح، وليس كل مدح حمدًا"[(١)]؛ وعلى هذا جاز أن يمدح الله عَزَّوَجَلَّ على صفته، بأنه عالم قادر، ولم يجز أن يحمد به؛ لأن العلم والقدرة من صفات ذاته، لا من صفات أفعاله، ويجوز أن يمدح ويحمد على صفته، بأنه خالق رازق؛ لأن الخلق والرزق من صفات فعله، لا من صفات ذاته.

وقال الشيخ أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحمد: نوع، والشكر جنس، فكل حمد شكر، وليس كل شكر حمدًا.

قال: وهو على ثلاثة منازل:

١ – **(شكر القلب)**: وهو الاعتقاد بأن الله عَزَّوَجَلَّ ولي النعم، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (٥٢/١)، المفردات، مادة: (حمد) (ص:٢٥٦)، وانظر: التعريفات، للشريف الجرجاني (ص:١٢٨)، معجم الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري (ص:٣٠١).

٢ - و(**شكر اللسان**): وهو إظهار النعمة بالذكر لها، والثناء على مسديها. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى:١١]، وهو رأس الشكر المذكور في الحديث [١].

٣ - و(**شكر العمل**): وهو إدآب [٢] النفس بالطاعة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًاۚ﴾ [سبأ:١٣]. وقام رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى تفطرت قدماه فقيل له: يا رسول الله أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «**أفلا أكون عبدًا شكورًا**» [٣].

وقد جمع الشاعر أنواعه الثلاثة فقال:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

---

(١) يعني: ما روي عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبد لا يحمده» أخرجه معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي في (جامعه) [١٩٥٧٤]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٠٨٥]، والديلمي [٢٧٨٤]، والبغوي في (شرح السنة) [١٢٧١]، قال المناوي (٤١٨/٣): "قال المصنف (يعني: السيوطي) في (شرح التقريب): "رواه الخطابي في (غريبه)، والديلمي في (الفردوس)، بسند رجاله ثقات، لكنه منقطع".

(٢) قال الزجاج: "(الدَّأبُ): الملازمَةُ للشيء والعادة" معاني القرآن وإعرابه (١١٤/٣). وقال القاضي عياض: "و(الدأب): الملازمة للشيء، والاعتناء به. وقيل: (الدأب) مثل: الأمر والشأن" مشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢٥٢/١).

(٣) تقدم.

ويقال: إن الحمد ما كان على غير مقابلة، والشكر عن مقابلة"(١).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشكر والحمد بمعنى، لكن الحمد أعم، فكل شاكر حامد، وليس كل حامد شاكرًا"(٢).

قال بعضهم: (الشكر بالقلب)، وهو التسليم...، و(باللسان)، وهو الاعتراف..، و(شكر العمل)، هو الدوام على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.."(٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تكلم الناس في الفرق بين الحمد والشكر أيهما أعلى وأفضل؟ وفي الحديث: «**الحمد رأس الشكر، فمن لم يحمد الله لم يشكره**» (٤).

والفرق بينهما: أن الشكر أعم من جهة أنواعه وأسبابه، وأخص من جهة متعلقاته. والحمد أعم من جهة المتعلقات، وأخص من جهة الأسباب.

ومعنى هذا: أن الشكر يكون بالقلب خضوعًا واستكانة، وباللسان ثنًاء واعترافًا، وبالجوارح طاعةً وانقيادًا. ومتعلقه: النعم، دون الأوصاف الذاتية، فلا يقال: شكرنا الله عَزَّوَجَلَّ على حياته وسمعه وبصره وعلمه. وهو المحمود عليها، كما هو محمود على إحسانه وعدله، والشكر يكون على الإحسان والنعم.

---

(١) غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي (٣٤٦/١)، وانظر: التفسير البسيط، لأبي الحسن الواحدي (٤٧٠/١).

(2) "وربما جعل الحمد مكان: الشكر، ولا يجعل الشكر مكان الحمد" انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين، لأبي عبد الله الحَمِيدي (ص:٤٤٩-٤٥٠).

(٣) مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض (٢٥٢/٢).

(٤) تقدم تخريجه.

فكل ما يتعلق به الشكر يتعلق به الحمد من غير عكس، وكل ما يقع به الحمد يقع به الشكر من غير عكس؛ فإن الشكر يقع بالجوارح، والحمد يقع بالقلب واللسان"[١].

وفي أسماء الله عَزَّوَجَلَّ: (الحميد)، أي: المحمود على كل حال، فعيل بمعنى: مفعول.

قال مجد الدين ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والحمد والشكر متقاربان، والحمد أعمهما؛ لأنك تحمد الإنسان على صفاته الذاتية، وعلى عطائه، ولا تشكره على صفاته"[٢].

قالوا: "والحمد رأس الشكر[٣]، كما أن كلمة الإخلاص، وهي: (لا إله إلا الله) رأس الإيمان، وإنما كان رأس الشكر؛ لأن فيه: إظهار النعمة، والإشادة بها؛ ولأنه أعم منه، فهو شكر وزيادة"[٤]. وقال بعض الشراح: الحمد باللسان وحده، والشكر به وبالقلب والجوارح، فهو إحدى شعب الشكر، ورأس الشيء بعضه، فهو من هذه الجهة بعض الشكر، وجعل رأسه؛ لأن ذكر النعمة باللسان والثناء على موليها أشيع لها، وأدل على مكانها لخفاء الاعتقاد، ولما في أعمال الجوارح من الاحتمال، بخلاف عمل اللسان، وهو النطق الذي يفصح عن الكل[٥].

---

(١) مدارج السالكين (٢/٢٣٦-٢٣٧).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (حمد) (١/٤٣٦-٤٣٧).

(٣) لما روي من قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «الحمد رأس الشكر، ما شكر الله عبد لا يحمده»، وقد تقدم.

(٤) انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين، لأبي عبد الله الحَمِيدي (ص:٤٤٩-٤٥٠)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (حمد) (١/٤٣٦-٤٣٧)، شرح السنة، للبغوي (٥/٥٠-٥٢)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٦/١٨٢٦).

(5) انظر: مرقاة المفاتيح (٤/١٥٩٩).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرين أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته اللازمة والمتعدية، والشكر لا يكون إلا على المتعدية، ويكون بالجنان واللسان والأركان، كما قال الشاعر:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة   يدي ولساني والضمير المحجبا

ولكنهم اختلفوا: أيهما أعم، الحمد أو الشكر؟ على قولين، والتحقيق: أن بينهما عمومًا وخصوصًا، فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون على الصفات اللازمة والمتعدية، تقول: حمدته لفروسيته، وحمدته لكرمه. وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا بالقول، والشكر أعم من حيث ما يقعان عليه؛ لأنه يكون بالقول والعمل والنية -كما تقدم-، وهو أخص؛ لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعدية، لا يقال: شكرته لفروسيته، وتقول: شكرته على كرمه وإحسانه إلي. هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرين -والله أعلم-.

وأما المدح فهو أعم من الحمد؛ لأنه يكون للحي وللميت وللجماد، كما يمدح الطعام والمال ونحو ذلك، ويكون قبل الإحسان وبعده، وعلى الصفات المتعدية واللازمة أيضًا فهو أعم"(١).

وبيان ما ذكره بعض المتأخرين من قولهم: الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري، أي: الصفات والأفعال الاختيارية التي يفعلها الشخص، يعني: أن الإنسان له أفعال اختيارية، وأفعال اضطرارية، فالجمال -مثلًا- ليس اختياريًّا، فلا مدخلية

(١) تفسير ابن كثير (١/١٢٨-١٢٩).

للإنسان في جمال الوجه -مثلًا-. فلا أقول: أحمدك على جمالك، وإنما أحمدك على كرمك.

فالحمد في مقابلة الجميل الاختياري، ولا يكون في مقابلة الاضطراري.

أما الثناء على الاضطراري فيسمى: مدحًا، فيقال: أمدحك على جمالك وحسنك، وسواد شعرك...إلى غير ذلك.

فالحمد يكون على الجميل الاختياري، فيحمد الله عَزَّوَجَلَّ على لطفه، ورحمته، وإحسانه. وأما المدح فإنه يكون على الاختياري والاضطراري، كما يمدح الإنسان على جمال وجهه، وهو ليس فعله، وعلى إحسانه الذي هو عمله الاختياري، والثناء: المدح وتكراره مرة بعد مرة.

فالحمد يعمُّ الفضائل والفواضل دون الشكر؛ فإنه يختص بالفواضل.

والفضائل هي: المزايا الذاتية القاصرة التي لا يتوقف تعقلها على تعدي أثرها للغير، كالحُسنِ (الجمال) والعِلْم.

والفواضل هي: المزايا المتعدية، وهي: التي يتوقف تعقلها على تعدي أثرها للغير، كالإنعام والتعليم.

والمدح هو الثناء باللسان على الجميل مطلقًا، أي: سواء كان اختياريًّا أم اضطراريًّا، أي: سواء كان على العلم والكرم، أو على التعليم والإكرام.

والحمد يصدر من اللسان.

والشكر يكون من اللسان والأفعال والقلب، كما قال الشاعر:

أفـادتكم النعـمـاء مني ثـلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا

فالشكر أعم من حيث مورده، فهو يكون ثلاثة أماكن، من: (اللسان والأفعال والقلب).

وأما الحمد فهو من مكان واحد، وهو اللسان.

فالشكر أعم موردًا، وأخص من حيث المتعلق؛ لأن الشكر يختص بالفواضل، والحمد بالفواضل والفضائل، بمعنى: أن الشكر ينفرد في شيء، والحمد ينفرد في شيء، فبينهما عموم وخصوص من وجه. فهذا حاصل ما قيل.

د. منازل الشكر ودرجاته:

تقدم في كلام الشيخ أبي سليمان الخطابي، وكلام القاضي عياض رَحِمَهُمَاٱللَّهُ أن الشكر على ثلاث منازل: شكر القلب، وشكر اللسان، وشكر العمل.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ: "الشكر على درجتين:

إحداهما: واجب، وهو أن يأتي بالواجبات، ويتجنب المحارم، فهذا لا بدَّ منه.

والدرجة الثانية: الشكر المستحب، وهو أن يعمل العبد بعد أداء الفرائض واجتناب المحارم بنوافل الطاعات، وهذه درجة السابقين المقربين، وهي التي أرشد إليها النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ "(١).

قال الهروي رَحِمَهُٱللَّهُ: "الشكر على ثلاث درجات:

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/٨٣-٩٢).

الدرجة الأولى: الشكر في المحاب:

وهذا شكر شاركت المسلمين فيه: اليهود، والنصارى، والمجوس، ومن سعة برِّ الباري جَلَّوَعَلَا: أنه عدَّه شكرًا، ووعد عليه الزيادة، وأوجب له المثوبة.

والدرجة الثانية: الشكر في المكاره:

وهذا ممن تستوي عنده الحالات؛ إظهارًا للرضا، وممن يميز بين الأحوال، كظما للشكوى، ورعاية للأدب، وسلوك مسلك العلم، يعني: أن الشكر على المكاره: أشد وأصعب من الشكر على المحاب؛ ولهذا كان فوقه في الدرجة.

والدرجة الثالثة: أن لا يشهد العبد إلا المنعم:

فإذا شهد المنعم عبودية: استعظم منه النعمة، وإذا شهده حبًّا: استحلى منه الشدة، وإذا شهده تفريدًا: لم يشهد منه نعمة، ولا شدة، وإلى مقام مشاهدته حبًّا، واستحلاء الشدة منه.

وهذه الدرجة يستغرق صاحبها بشهود المنعم عن النعمة. فلا يتسع شهوده للمنعم ولغيره.

وقد فصَّل القول في ذلك وبينه العلامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (مدارج السالكين) (١).

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/٢٤٢-٢٤٣)، منازل السائرين (ص:٥٣-٥٤).

هـ. أركان الشكر:

قال الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومعاني الشكر ثلاثة أشياء: معرفة النعمة، ثم قبول النعمة، ثم الثناء بها"(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الوابل الصيب): "السعادة بثلاث: شكر النعمة، والصبر على البلاء، والتوبة من الذنب؛ فإن هذه الأمور الثلاثة عنوان سعادة العبد، وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه، ولا ينفك عبد عنها أبدًا.

قال: والشكر مبني على ثلاثة أركان:

١ - الاعتراف بها باطنًا.

٢ - والتَّحدُّث بها ظاهرًا.

٣ - وتصريفها في مرضاة وليها ومسديها ومعطيها جَلَّ وَعَلَا.

فإذا فعل ذلك فقد شكرها مع تقصيره في شكرها"(٢).

وقال في (المدارج): "والشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور، وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليه بها، وأن لا يستعملها فيما يكره.

فهذه الخمس: هي أساس الشكر، وبناؤه عليها، فمتى عدم منها واحدة: اختل من قواعد الشكر قاعدة.

وكل من تكلم في الشكر وحده، فكلامه إليها يرجع. وعليها يدور.

أما معرفتها: فهو إحضارها في الذهن ومشاهدتها وتمييزها.

---

(١) منازل السائرين (ص:٥٣).

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص:٥-٦).

وقبولها: هو تلقيها من المنعم بإظهار الفقر والفاقة إليها، وأن وصولها إليه بغير استحقاق منه"(١).

٢ – الشكر من أعظم المنجيات من سوء العاقبة:

تقدم أنَّ عاقبة المؤمن هي خير له على كل حال، سواء كان ما أصابه سرَّاء، أم ضرَّاء؛ إذ يُثاب على كلِّ أحواله، ففي السرَّاء يُثاب على شكره، وفي الضرَّاء يثاب على صبره، كما قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**المؤمنُ بِخَيْرٍ على كُلِّ حالٍ تُنْزَعُ نَفْسُهُ من بين جَنْبَيْهِ وهو يَحْمَدُ اللَّهَ** عَزَّوَجَلَّ» (٢)، وكما قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمره كُلَّهُ خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سَرَّاءُ شَكَرَ، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضَرَّاءُ، صَبَرَ فكان خيرًا له**» (٣).

إن من أسباب هلاك الأمم، وتحول العافية، وسوء العاقبة: كفران نعم الله عَزَّوَجَلَّ، وإن من أسباب النجاة، ودوام السلامة والعافية، وحسن العاقبة: شُكْرُ اللهِ عَلَى نِعَمِهِ، بالتزام أمره، والإحسان إلى خلقه.

إن من سنن الله عَزَّوَجَلَّ الكونيَّة التي لا تتبدل ولا تتغير: أنَّ العصيان يجلبُ الانتقام، وأنَّ الطَّاعة تجلبُ الرَّحمةَ والرِّضوان، وأنَّ من أكبر أسبابِ زوال

---

(١) مدارج السالكين (٢/٢٣٤)، وانظر: بصائر ذوي التمييز (٣/٣٣٧).

(٢) تقدم.

(٣) تقدم.

النعمة: كفرانها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم:٧]، ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ۝٨ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ۝٩﴾ [الطلاق:٨-٩]، وقال: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٢١١﴾ [البقرة:٢١١]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣].

وقال في بيان عاقبة من كفر نعمه: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۝٢٨ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ۝٢٩﴾ [إبراهيم:٢٨-٢٩].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان عاقبة الإعراض عن طاعته وكفران نعمه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ۝١١٢﴾ [النحل:١١٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۝١٧﴾ [سبأ:١٥-١٧].

وقد حذَّر الله عَزَّوَجَلَّ من الإعراض عن طاعته، وكفران نِعَمِه، وبيَّن عاقبة المعرضين، وذكَرَ نِعَمَه على عبيده في آياتٍ كثيرة، فمن ذلك: نعمتُه عليهم في حفظِه لهم بالليل والنَّهار، وكِلَاءَتِهِ وحِرَاسَتِهِ لهم بعينه التي لا تنام، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَن

يَكۡلَؤُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ بَلۡ هُمۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنبياء:٤٢]، فهؤلاء المعرضون لا يعترفون بنعمه عليهم، وإحسانه إليهم، بل يعرضون عن آياته وآلائه. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [التوبة:٧٦]، وقال: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴿٨٣﴾﴾ [الإسراء:٨٣].

وإنَّ نِعَمَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ على خَلْقِهِ كثيرةٌ لا تحصى، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم:٣٤]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل:٧٨].

وهي نِعَمٌ ظاهرةٌ وباطنةٌ، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان:٢٠]. وإنَّ من أَجَلِّ هذه النِّعَمِ: نعمة الهداية إلى الإيمان، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات:١٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌۚ أَفَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النحل:٧١-٧٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ۝٨١ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٣﴾ [النحل:٨٠-٨٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝٦٢﴾ [الفرقان:٦٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ۝٦٦﴾ [الحج:٦٥-٦٦]، وقال: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ [الزخرف:١٥].

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ عباده بالشكر على هذه النعم الوافرة، الظاهرة منها والباطنة، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ۝١٥٢﴾ [البقرة:١٥٢]، وقال: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾ [الزمر:٦٦]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١٧٢﴾ [البقرة:١٧٢]، وقال: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١٧﴾ [العنكبوت:١٧].

والمسلم يطلب من الله عَزَّوَجَلَّ الهداية والتوفيق، وأن يعينه على الشكر، وأن يجعله من الشاكرين، وهذا ما شرع في السنة، كما جاء في الحديث: عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ بيده، وقال: «**يا معاذ، والله إني لأحبك، والله إني لأحبك**»، فقال: «**أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول: اللهم**

أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك»، وأوصى بذلك معاذ الصنابحي، وأوصى به الصنابحي أبا عبد الرحمن[(١)].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**أتحبون أن تجتهدوا في الدعاء؟ قولوا: اللهم أعنا على شكرك، وذكرك، وحسن عبادتك**»[(٢)].

وعن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يقول: «**اللهم أعني على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك**»[(٣)].

والشكر سبب في دوام النعم وزيادتها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم:٧].

وقد كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ خير أسوة في الطاعة والشكر، كما جاء في الحديث: عن الْمُغيرَةِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قامَ النَّبِيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتَّى وَرِمَتْ قَدَمَاه، فقيلَ له: قد غَفَرَ اللهُ لك ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ، قال: «**أفلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا**»[(٤)].

---

(١) أخرجه أحمد [٢٢١١٩]، وعبد بن حميد [١٢٠]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٩٠]، وأبو داود [١٥٢٢]، والبزار [٢٦٦١]، والنسائي [١٣٠٣]، وابن خزيمة [٧٥١]، والشاشي [١٣٤٣]، والطبراني في (الكبير) [١١٠]، وابن حبان [٢٠٢١]، والحاكم [١٠١٠]، وقال: "صحيح الإسناد على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه أحمد [٧٩٨٢]، وابن الأعرابي [١١٤٩]، وأبو نعيم في (الحلية) (٩/٢٢٣). قال الهيثمي (١٠/١٧٢): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح غير موسى بن طارق، وهو ثقة".

(٣) أخرجه البزار [٢٠٧٥]، وقال: "وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن عبد الله بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد". قال الهيثمي (١٠/١٧٢): "رجاله رجال الصحيح غير عمرو بن عبد الله الأودي، وهو ثقة".

(٤) صحيح البخاري [١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١]، مسلم [٢٨١٩] واللفظ له.

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صلى قام حتى تَفَطَّرَ رجلاه، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا رسول الله أتصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: «**يا عائشة أفلا أكون عبدًا شكورًا**» (١).

وهكذا كان أنبياءُ الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فقد وصف الله عَزَّ وَجَلَّ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء:٣]، وأثنى على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٢١﴾ [النحل:١٢٠-١٢١].

والشكر من أسباب السلامة من العذاب، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ۝١٤٧﴾ [النساء:١٤٧].

قال أبو جعفر رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: ما يصنع الله جَلَّ وَعَلَا، أيها المنافقون، بعذابكم، إن أنتم تُبتم إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ورجعتم إلى الحق الواجب لله جَلَّ وَعَلَا عليكم، فشكرتموه على ما أنعم عليكم من نعمه في أنفسكم وأهاليكم وأولادِكم، بالإنابة إلى توحيده، والاعتصام به، وإخلاصكم أعمالكم لوجهه، وترك رياء الناس بها، وآمنتم برسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فصدَّقتموه، وأقررتم بما جاءكم به من عنده فعملتم به؟ يقول: لا حاجة بالله أن يجعلكم في الدَّرك الأسفل من النار، إن أنتم أنبتم إلى طاعته، وراجعتم العمل بما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه؛ لأنه لا يجتلب بعذابكم إلى نفسه نفعًا، ولا يدفع عنها ضُرًّا، وإنما عقوبته من عاقب من خلقه، جزاءٌ منه له على جرَاءته عليه، وعلى خلافه أمره ونهيه،

---

(١) صحيح البخاري [٤٨٣٧،]، مسلم [٢٨٢٠] واللفظ له.

وكفرانِه شكر نعمه عليه. فإن أنتم شكرتم له على نعمه، وأطعتموه في أمره ونهيه، فلا حاجة به إلى تعذيبكم، بل يشكر لكم ما يكون منكم من طاعةٍ له وشكر، بمجازاتكم على ذلك بما تقصر عنه أمانيكم، ولم تبلغه آمالكم.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا﴾ لكم ولعباده على طاعتهم إياه، بإجزاله لهم الثوابَ عليها، وإعظامه لهم العِوَض منها. ﴿عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ بما تعملون، أيها المنافقون، وغيركم من خير وشر، وصالِح وطالح، محصٍ ذلك كله عليكم، محيط بجميعه، حتى يجازيكم جزاءَكم يوم القيامة، المحسنَ بإحسانه، والمسيءَ بإساءته"(١).

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن قلت: لم قدم الشكر على الإيمان؟ قلت: لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه، وتعريضه للمنافع، فيشكر شكرًا مبهمًا، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم، آمن به، ثم شكر شكرًا مفصَّلًا، فكان الشكر متقدمًا على الإيمان، وكأنه أصل التكليف ومداره"(٢).

وقيل: هو من عطف الخاص على العام؛ لأن الإيمان من الشكر، وخص بالذكر؛ لشرفه.

---

(١) تفسير الطبري (٩/٣٤٢-٣٤٣).

(٢) الكشاف (١/٥٨١-٥٨٢). ولخصه القاضي البيضاوي حيث قال: وإنما قدم الشكر؛ لأن النظر يُدرك النعمة أولًا، فيشكر شكرًا مبهمًا، ثم يمعن النظر حتى يعرف المنعم فيؤمن به، وكذا عن الإمام. حاشية الطيبي (٥/٢٠٦)، وانظر: مفاتيح الغيب (١١/٢٥٢-٢٥٣)، تفسير البيضاوي (٢/١٠٥)، تفسير النسفي (١/٤٠٩)، غرائب القرآن (٢/٥٢١).

وعن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء:١٤٧]، قال: إن الله جل ثناؤه لا يُعذِّب شاكرًا ولا مؤمنًا (١).

والله جَلَّ وَعَلَا يبتلي العباد؛ ليميز الخبيث من الطيب، والشاكر من الكافر، وهو العليم بأحوال العباد، والخبير بما يعملون، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام:٥٣].

والله جَلَّ وَعَلَا يحبُّ الشاكرين، وقد وعدهم بالأجر الجزيل، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران:١٤٤]، وقال: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران:١٤٥].

وفي الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها**» (٢).

وقوله: «**يأكل الأكلة**»: بفتح الهمزة، أي: المرة من الأكل، ويروى بضم الهمزة، أي: اللقمة. وقد عبر بالمرة؛ إشعارًا بأن الأكل والشرب يستحق الحمد عليه وإن قل، وهذا تنويه عظيم بمقام الشكر (٣).

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٩/٣٤٣)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٤/١١٠٠)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٢/١٣٤)، الدر المنثور (٢/٧٢٤).

(2) صحيح مسلم [٢٧٣٤].

(٣) انظر: فيض القدير (٢/٢٦٢)، التيسير بشرح الجامع الصغير (١/٢٦١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه استحباب حمد الله عَزَّوَجَلَّ عقب الأكل والشرب. وقد جاء في (البخاري) صفة التحميد: [أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا رفع مائدته قال:] «**الحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، غَيْرَ مَكْفِيٍّ ولا مُوَدَّعٍ وَلاَ مُسْتَغْنًى عَنْهُ، رَبَّنَا**»[1]. وجاء غير ذلك ولو اقتصر على (الحمد لله) حصل أصل السنة"[2].

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والحمد هنا بمعنى: الشكر، وقد قدمنا: أن الحمد يوضع موضع الشكر، ولا يوضع الشكر موضع الحمد، وفيه دلالة على أن شكر النعمة -وإن قلَّت- سبب نيل رضا الله عَزَّوَجَلَّ، الذي هو أشرف أحوال أهل الجنة. قال: وإنما كان الشكر سببًا لذلك الإكرام العظيم؛ لأنَّه يتضمن معرفة المنعم، وانفراده بخلق تلك النعمة، وبإيصالها إلى المنعم عليه، تفضلًا من المنعم، وكرمًا ومنَّة، وإن المنعم عليه فقير محتاج إلى تلك النعم، ولا غنى به عنها، فقد تضمن ذلك معرفة حق الله عَزَّوَجَلَّ وفضله، وحق العبد وفاقته وفقره، فجعل الله عَزَّوَجَلَّ جزاء تلك المعرفة تلك الكرامة الشريفة"[3].

(١) صحيح البخاري [٥٤٥٨] عن أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وفي رواية: عن أبي أمامة: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا فرغ من طعامه – وقال مرة: إذا رفع مائدته قال: «الحمد لله الذي كفانا وأروانا، غير مَكْفِيٍّ وَلاَ مَكْفُورٍ» صحيح البخاري [٥٤٥٩]. وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «غير مكفي» أي: ما أكلناه ليس كافيًا عما بعده، بل نعمك مستمرة علينا غير منقطعة طول أعمارنا. «ولا مودع» من الوداع، أي: ليس آخر طعامنا.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/٥١).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٦٠-٦١).

قال أبو حازم رَحِمَهُ اللَّهُ: كل نعمة لا تقرب من الله عَزَّوَجَلَّ فهي بلية، فإذا وفَّق الله عَزَّوَجَلَّ عبده للشكر على نعمه الدنيوية بالحمد أو غيره من أنواع الشكر، كانت هذه النعمة خيرًا من تلك النعم، وأحب إلى الله عَزَّوَجَلَّ منها؛ فإن الله جَلَّوَعَلَا يحب المحامد، ويرضى عن عبده أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها، والثناء بالنعم، والحمد عليها وشكرها عند أهل الجود والكرم أحب إليهم من أموالهم، فهم يبذلونها طلبًا للثناء، والله عَزَّوَجَلَّ أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، فهو يبذل نعمه لعباده، ويطلب منهم الثناء بها وذكرها، والحمد عليها، ويرضى منهم بذلك شكرا عليها، وإن كان ذلك كله من فضله عليهم، وهو غير محتاج إلى شكرهم، لكنه يحب ذلك من عباده، حيث كان صلاح العبد وفلاحه وكماله فيه(١).

وقيل: من كتم النعمة فقد كفرها، ومن أظهرها ونشرها فقد شكرها.

وهذا مأخوذ من قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الله إذا أنعم على عبد بنعمة أحب أن يرى أثر نعمته على عبده**» (٢).

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/٨٢-٨٣).

(٢) مدارج السالكين (٢/٢٣٦). والحديث أخرجه الطيالسي [٢٣٧٥]، وأحمد [٦٦٩٥]، والترمذي [٢٨١٩]، وقال: "وفي الباب: عن أبي الأحوص، عن أبيه، وعمران بن حصين، وابن مسعود، وهذا حديث حسن"، كما أخرجه الحاكم [٧١٨٨]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: تمام [١٢٦٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٢٥١]: عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وفي لفظ: «كلوا، واشربوا، وتصدقوا، والبسوا في غير مخيلة ولا سرف؛ فإن الله يحب أن ترى أثر نعمته على عبده». ونحوه: عن عن عمران بن حصين. وقد أخرجه أحمد [١٩٩٣٤]، والروياني [٩١]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٣٠٣٧]، والطبراني في (الكبير) [٢٨١]، والقضاعي=

ومع ذكر المولى جَلَّوَعَلَا لهذه النعم الوافرة فقد أخبر أن القليل من عباده شكور لتلك النعم، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ:١٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾ [الأعراف:١٠]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [المؤمنون:٧٨]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة:٩]. وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٢٣﴾ [الملك:٢٣].

والله عَزَّوَجَلَّ رحيم حليم، يذكر العباد بما يستلزم الشكر، ويمهل العباد لعلهم يهتدون، وينيبون إلى خالقهم جَلَّوَعَلَا، والمنعم عليهم، فيأدون الحقوق الواجبة من الطاعة والشكر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢﴾ [البقرة:٥٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾ [البقرة:٥٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝١٨٥﴾ [البقرة:١٨٥].

=[١١٠٢]، والبيهقي في (الكبرى) [٦٠٩٣]، وفي (شعب الإيمان) [٥٧٨٩]، قال الهيثمي (١٣٢/٥): "رواه أحمد، والطبراني، ورجال أحمد ثقات". وعن أبي الأحوص، قال الهيثمي (١٣٣/٥): "رواه الطبراني في (الصغير)، ورجاله رجال الصحيح".

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ [آل عمران:١٢٣].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة:٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المائدة:٨٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال:٢٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ [النحل:١٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل:٧٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَـٰهَا لَكُم مِّن شَعَـٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَـٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحج:٣٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [القصص:٧٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الروم:٤٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [فاطر:١٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الجاثية:١٢].

وقد كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ من زوال النعمة، كما في الحديث: عن عن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: كان من دعاء رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ من زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وجَمِيعِ سَخَطِكَ**»(١).

والله جَلَّوَعَلَا قد أرشد العباد إلى سبيل النجاة، فمنهم اهتدى وشكر، ومنهم من ضل وكفر، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان:٣].

ولكن الإنسان كفور بنعم الله عَزَّوَجَلَّ، لا يعرف قدر الله عَزَّوَجَلَّ، ومدى ضعفه وحاجته إليه، إلا وقوع الملمات والشدائد، كما ذكر الله جَلَّوَعَلَا ذلك في آيات كثيرة، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ

(١) صحيح مسلم [٢٧٣٩].

ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس:١٢].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس:٢١-٢٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود:٩-١١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النحل:٥٣-٥٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء:٦٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [الإسراء:٨٣-٨٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝٦٥ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٦٦﴾ [العنكبوت:٦٥-٦٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۝٨﴾ [الزمر:٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٩ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٥٠ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥١ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ [الزمر:٤٩-٥٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٥٠ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ۝٥١﴾ [فصلت:٤٩-٥١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦

فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾ [عبس:١٧-٣٢].

وقد تقدم بيان ذلك في (الإخلاص في الدعاء).

٣ – كفران النعم من صور الكفر الأصغر:

ومن صور الكفر الأصغر –كما جاء مبينًا في كل من كتاب: (عقبات في طريق الهداية)، وكتاب: (نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار): كفر النعمة والإحسان والحقوق:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة:١٥٢]، فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ هو من كفر النعمة [1].

وفي الحديث: عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: مطر الناس على عهد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقال: النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر، قالوا: هذه رحمة الله، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، قال: فنزلت هذه الآية:**

---

(١) قال ابن عطية: "قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾ [البقرة:١٥٢]، أي: نعمي وأيادي، وانحذفت نون الجماعة للجزم، وهذه نون المتكلم، وحذفت الياء التي بعدها تخفيفًا؛ لأنها رأس آية لتناسب الفواصل، ولو كان نهيًا عن الكفر ضد الإيمان لكان: ولا تكفروا، بغير النون". المحرر الوجيز (١/٢٢٦-٢٢٧). "أو ولا تكفروا بي" البحر المحيط، لأبي حيان (٢/٥٠).

﴿* فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ [الواقعة:٧٥]، حتى بلغ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ [الواقعة:٨٢] (١).

قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أصل الشكر: الظهور؛ ومنه قولهم: دابة شكور: إذا ظهر عليها من السمن فوق ما تأكله من العلف. والشاكر: هو الذي يثني بالنعمة، ويظهرها، ويعترف بها للمنعم، وجحدها: كفرانها؛ فمن نسب المطر إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وعرف منته فيه، فقد شكر الله جَلَّوَعَلَا، ومن نسبه إلى غيره، فقد جحد نعمة الله عَزَّوَجَلَّ في ذلك، وظلم بنسبتها لغير المنعم بها، فإن كان ذلك عن اعتقاد، كان كافرًا ظالما حقيقة، وإن كان عن غير معتقد، فقد تشبه بأهل الكفر والظلم الحقيقي.

وقد قابل في هذا الحديث بين الشكر والكفر، فدل ظاهره على أن المراد بالكفر هاهنا: (كفران النعم)، لا الكفر بالله جَلَّوَعَلَا.

ويحتمل أن يكون المراد به: الكفر الحقيقي، ويؤيد ذلك استدلال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ [الواقعة:٨٢]، أي: تجعلون شكر رزقكم التكذيب؛ على حذف المضاف؛ قاله المفسرون.."(٢).

---

(1) صحيح مسلم [٧٣].

(٢) وذكر ما يؤيد ذلك مما روي عن علي بن أبي طالب صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قرأ: ﴿وَتَجۡعَلُونَ شُكۡرَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: حقيقة. قال: فعبر عن الرزق بالشكر، والرزق: الشكر بلغة أزد شنوءة، يقال: ما أرزقه! أي: ما أشكره! وما رزق فلان فلانًا، أي: ما شكره" المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١/٢٦٠-٢٦١)، وانظر: تفسير الطبري (٢٣/١٥٣)، الدر المنثور (٨/٣٠)، المحرر الوجيز (٥/٢٥٢)، تفسير أبي عبد الله القرطبي (١٧/٢٢٨).

وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُرِيتُ النَّارَ فإذا أكثَرُ أهلهَا النِّساءُ، يَكْفُرْنَ**»، قيل: أَيَكْفُرْنَ بالله؟ قال: «**يَكْفُرْنَ العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إِحْدَاهُنَّ الدَّهر، ثم رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيت منك خيرًا قط**»[1]. قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال المهلب رَحِمَهُ اللَّهُ: الكفر هاهنا هو كفر الإحسان، وكفر نعمة العشير، وهو الزوج، وتسخط حاله، وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشكر النعم، وجاء فى الحديث: «**من لا يشكر الله من لا يشكر الناس**»[2]، وشكر نعمة الزوج هو من باب شكر نعمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن كل نعمة فضل بها العشير أهله، فهى من نعمة الله عَزَّوَجَلَّ أجراها على يديه.

وقد دل الحديث على أن المعاصي تنقص الإيمان، ولا تخرج إلى الكفر الذي يوجب الخلود فى النار؛ لأنهم حين سمعوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يكفرن العشير**» ظنُّوا أنه كفر بالله عَزَّوَجَلَّ، فقالوا: أيكفرن بالله؟ قال: «**يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان**»، فبيَّن لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أراد كفرهن حق أزواجهن، وذلك لا محالة ينقص من إيمانهم، ودل ذلك أن إيمانهن يزيد بشكرهن العشير، وبأفعال البر كلها، فثبت أن الأعمال من الإيمان، وأنه قول وعمل؛ إذ بالعمل الصالح يزيد، وبالعمل السيء ينقص.

وفيه: دليل أن المرء يعذب على الجحد للفضل والإحسان وشكر المنعم.

(١) صحيح البخاري [٢٩، ١٠٥٢، ٥١٩٧]، مسلم [٩٠٧].
(٢) سيأتي.

وقيل: إن شكر المنعم فريضة"(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه جواز إطلاق الكفر على كفران الحقوق -وإن لم يكن ذلك الشخص كافرًا بالله عَزَّوَجَلَّ-"(٢).

قال القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرحه): "إن الطاعات كما تسمى: إيمانًا كذلك المعاصي تسمى: كفرًا، لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر المخرج من الملة.

وخص كفران العشير من بين أنواع الذنوب؛ لدقيقة بديعة، وهي قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**»(٣)، فقرن حق الزوج على الزوجة بحق الله جَلَّ وَعَلَا، فإذا كفرت المرأة حق زوجها -وقد بلغ من حقه عليها هذه الغاية- كان ذلك دليلًا على تهاونها بحق الله عَزَّوَجَلَّ، فلذلك يطلق عليها: الكفر، لكنه كفر لا يخرج عن الملة"(٤).

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/٨٨-٨٩).

(٢) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٦/٢١٣).

(٣) الحديث أخرجه غير واحد، منهم: الترمذي [١١٥٩]، وحسنه، عن أبي هريرة. قال العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:٤٩٨): "أخرجه الترمذي، وابن حبان، من حديث: أبي هريرة، وكذلك رواه أبو داود من حديث: قيس بن سعد، وابن ماجه من حديث: عائشة، وابن حبان من حديث: ابن أبي أوفى".

(٤) فتح الباري، لابن حجر (١/٨٣)، وانظر: عارضة الأحوذي، لابن العربي (١٠/٦١).

٤ - شُكْرُ النَّاس:

جاء في الحديث: عن الأشعث بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أشكركم لله عَزَّ وَجَلَّ أشكركم للناس**» (١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من لا يشكر الناس لا يشكر الله**» (٢).

قال القاضي أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أصل النعم من الله عَزَّ وَجَلَّ، والخلق كله على اختلاف أنواعه وسائط وأسباب مسخرة، من حيوان، وجماد، وعاقل، وغير عاقل، فالمنعم بالحقيقة هو الله عَزَّ وَجَلَّ وحده، فله الحمد في السماوات والأرض، وله الشكر فيهما، فالحمد خبر عن جلاله جَلَّ وَعَلَا. والشكر خبر عن إنعامه وإفضاله.

وقد أذن الله عَزَّ وَجَلَّ في شكر الناس خاصة؛ لما في ذلك من تأثير المحبة، والألفة، والتحريض على إسداء النعمة باستراحة قلب المنعم عليه.

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في (اصطناع المعروف) [١٣١]، والطبراني [٦٤٨]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٨٦٩٩]. قال الهيثمي (٨/١٨٠): "رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات". وأخرجه أيضًا: الضياء [١٤٩٢] وقال: "صحيح".

(٢) أخرجه الطيالسي [٢٦١٣]، وأحمد [٧٩٣٩]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٢١٨]، وأبو داود [٤٨١١]، والترمذي [١٩٥٤]، وقال: "حديث صحيح"، كما أخرجه: وابن أبي الدنيا في (اصطناع المعروف) [١٣٠]، وفي (قضاء الحوائج) [٧٢]، والبزار [٩٥٨٧]، وابن حبان [٣٤٠٧]، وأبو الشيخ في (الأمثال) [١١٠]، وأبو نعيم في (الحلية) (٧/١٦٥)، والقضاعي [٨٢٩]، والبيهقي في (الكبرى) [١٢٠٣٢]، وفي (شعب الإيمان) [٨٦٩٦]، والبغوي في (شرح السنة) [٣٦١٠].

قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: روي برفع الله والناس، ونصبهما، ورفع أحدهما ونصب الآخر"[1]. قال الزين العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمعروف المشهور في الرواية نصبهما.

والمعنى على رفع الله والناس: من لا يشكره الناس لا يشكره الله.

والمعنى على نصبهما: من لا يشكر الناس بالثناء بما أولوه لا يشكر الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإنه أمر بذلك عبيده، أو من لا يشكر الناس كمن لا يشكر الله عَزَّوَجَلَّ، ومن شكرهم كمن شكره.

والمعنى على رفع الناس ونصب الجلالة، وعلى رفع الجلالة ونصب الناس: لا يكون من الله عَزَّوَجَلَّ شاكرًا إلا من كان شاكرًا للناس، وشكر الله عَزَّوَجَلَّ: ثناؤه على المحسن، وإجراؤه النعم عليه بغير زوال.

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من لا يشكر الناس، لا يشكر الله، ومن لا يشكر القليل، لا يشكر الكثير، والتحدث بنعمة الله شكر، وتركها كفر، والجماعة بركة، والفرقة عذاب**»[2].

---

(١) عارضة الأحوذي (٨/١٣٢-١٣٣)، فيض القدير (٦/٢٢٤)، (٦/٢٤٠).

(٢) أخرجه أحمد [١٨٤٤٩]، وابن أبي الدنيا في (اصطناع المعروف) [١٣٦]، وفي (قضاء الحوائج) [٧٨]، والبزار [٣٢٨٢]، والطبراني في (الكبير) [٨٤]، وأبو الشيخ في (الأمثال) [١١١]، والقضاعي [٣٧٧]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤١٠٥]. قال الهيثمي (٥/٢١٧-٢١٨): "رواه عبد الله بن أحمد، والبزار، والطبراني ورجالهم ثقات". وللحديث أطراف كثيرة، فمن ذلك: ما جاء عن جرير قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من لم يشكر للناس لم يشكر لله»، قال الهيثمي (٨/١٨١): "رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح". وعن أبي سعيد قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله عَزَّوَجَلَّ»، قال الهيثمي (٨/١٨١): رواه الطبراني في (الأوسط)، وإسناده حسن".

قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله**»، قال الشيخ أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُٱللَّهُ: هذا الكلام يتأول على وجهين:

أحدهما: أن من كان طبعه وعادته كفران نعمة الناس وترك الشكر لمعروفهم كان من عادته كفران نعمة الله عَزَّوَجَلَّ، وترك الشكر له جَلَّوَعَلَا.

والوجه الآخر: أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان الناس، ويكفر معروفهم؛ لاتصال أحد الأمرين بالآخر"(١).

وقوله: «**التحدث بنعمة الله شكر**»، أي: إشاعتها من الشكر، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى:١١]، والشكر ثلاثة أقسام: شكر اللسان بالتحدث بالنعمة، وشكر الأركان بالقيام بالخدمة، وشكر الجنان بالاعتراف بأن كل نعمة منه جَلَّوَعَلَا.

«**ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير**» فاشكر لمن أعطى ولو سمسمة.

وقوله: «**وتركها كفر**» أي: ستر وتغطية لما حقه الإظهار والإذاعة.

قال بعض العارفين: ذكر النعم يورث الحب في الله عَزَّوَجَلَّ.

ثم هذا الخبر موضعه ما لم يترتب على التحدث بها ضرر، كحسد، وإلا فالكتمان أولى -كما يفيده قول الزمخشري رَحِمَهُٱللَّهُ-: وإنما يجوز مثل هذا إذا قصد أن يقتدى به، وأمن على نفسه الفتنة، وإلا فالستر أفضل (٢).

---

(١) معالم السنن (١١٣/٤).

(٢) جاء في (الكشاف) (٧٦٩/٤): "عن عبد الله بن غالب أنه كان إذا أصبح يقول: رزقني الله البارحة خيرًا: قرأت كذا، وصليت كذا، فإذا قيل له: يا أبا فراس مثلك يقول مثل هذا؟ قال: يقول الله عَزَّوَجَلَّ:=

ولو لم يكن فيه إلا التشبه بأهل السمعة والرياء لكفى.

«**والجماعة بركة والفرقة عذاب**» أي: اجتماع جماعة المسلمين، وانتظام شملهم زيادة خير، وتفرقهم يترتب عليه من الفتن، والحروب، والقتل، وغير ذلك مما هو أعظم من كل عذابٍ في الدنيا، وأَمْر الآخرة إلى الله عَزَّوَجَلَّ"(١).

ومن أعظم الشكر في هذا الباب: شكر الوالدين، فقد أكَّد القرآن الكريم على ضرورة الإحسان إلى الوالدين تأكيدًا لا تجد نظيرًا له في الديانات الأخرى، فقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بعبادته وتوحيده، وجعل برَّ الوالدين مقرونًا بذلك، كما قرن شكره بشكرهما. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان:١٤]، أي: وَصَّيْنَاه بشكرنا وبشُكْر والديه، وكفى بهذا دلالة على تعظيم حقِّهما، ووجوب برِّهما، والإحسان إليهما. فأوجب الله عَزَّوَجَلَّ شكر نفسه، وشكر الوالدين. ولما حصل الإجماع على أن شكر الوالدين بدوام طاعتهما، وألا يكتفى فيه بمجرد النطق بالثناء عليهما علم أنَّ شكر الحقِّ لا يكفي فيه مجرّد القول ما لم تكن فيه موافقه العمل، وذلك بالتزام الطاعة، واستعمال النعمة في وجه الطاعة... (٢).

=﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ [الضحى:١١]، وأنتم تقولون: لا تحدث بنعمة الله. وإنما يجوز مثل هذا: إذا قصد به اللطف، وأن يقتدى به غيره، وأمن على نفسه الفتنة. والستر أفضل. ولو لم يكن فيه إلا التشبه بأهل الرياء والسمعة: لكفى به. وانظر: غرائب القرآن (٥١٩/٦).

(١) فيض القدير (٢٧٩/٣)، وانظر: التيسير بشرح الجامع الصغير (٤٦٠/١).

(٢) انظر: لطائف الإشارات (١٣١/٣)، مفاتيح الغيب (٧٦/١٠).

ومن أنواع الشكر في هذا الباب والتي خصت بمزيد عناية: شكر الجار:

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يا نساء المسلمات**[1]**، لا تَحْقِرَنَّ جارة لجارتها، ولو فِرْسِنَ شَاةٍ**»[2].

قال ابن دريد: "والشاة لا فراسن لها، وإنما الفراسن للبعير. وفرسن البعير: خفه بعينه"[3]. و(فرسن) -بكسر الفاء والسين-: الظلف، وأصله في الإبل، وهو فيها كالقدم في الإنسان، ويطلق على الغنم استعارة. والمقصود من هذا الحديث: النهي عن احتقار القليل من الصدقة.

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "في هذا الحديث: الحض على مهاداة الجار وصلته، وإنما اشار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بفرسن الشاة إلى القليل من الهدية، لا إلى إعطاء الفرسن؛ لأنه لا فائدة فيه"[4].

---

(١) قال العلامة الطيبي: "في إعرابه ثلاثة أوجه: أصحها: نصب النساء وجر المسلمات على الإضافة، وهو من إضافة الموصوف إلى صفته، والعام إلى الخاص، كمسجد الجامع، وجانب الغربي، ولدار الآخرة. يجوزه الكوفيون. والبصريون يقدرون محذوفًا، أي: مسجد المكان الجامع، وجانب المكان الغربي، ولدار الحياة الآخرة، ويقدر هنا: يا نساء الطوائف المسلمات. وقيل: تقديره: يا فاضلات المسلمات، كما يقال: هؤلاء رجال القوم، أي: ساداتهم. والوجه الثاني: رفعهما، قال الباجي: هكذا يروى أهل بلدنا. [ضم النساء على النداء، ورفع المسلمات على لفظه]. الثالث: رفع نساء، وكسر المسلمات على أنه منصوب على الصفة على المحل، كما يقال: يا زيد العاقل والعاقل" شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٥٤٣/٥).

(٢) صحيح البخاري [٢٥٦٦، ٦٠١٧]، مسلم [١٠٣٠].

(٣) جمهرة اللغة (١٣١٣/٣).

(٤) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢٢٢/٩).

وفي (المرقاة): "أي: لا تستحقر إهداء شيء، ولو أن تهدي أو تصدق بفرسن شاة، وهو لحم بين ظلفي الشاة، وأريد به المبالغة، أي: ولو شيئًا يسيرًا، وأمرًا حقيرًا؛ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة:٧]، ولأمره عَزَّ وَجَلَّ بالإحسان إلى الجار بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء:٣٦]. والمعنى: لا تمتنع إحداكن من الهدية أو الصدقة لجارتها؛ احتقارًا للموجود عندها. وقيل: يجوز أن يكون الخطاب لمن أهدى إليهن، فالمعنى: لا تحقرن إحداكن هدية جارتها، بل تقبلها وإن كانت قليلة، وفيه: حث على الهدية، واستجلاب القلوب بالعطية"(١)؛ فالهدية خلق من الأخلاق التي حثَّ الإسلام، تؤلف القلوب، وتنفي سخائم الصدور، وتؤنس المهدَى إليه، وتؤكد الصحبة، وتجلب المودة، وتزرع المحبة.

وفي الحديث: «**تهادوا تحابوا**» (٢).

---

(١) مرقاة المفاتيح (١٣٣٦/٤)، وانظر: انظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (٥٦١/٣)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٢٠/٧)، الكواكب الدراري (١١٠/١١)، الديباج (١٠٦/٣).

(٢) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) [٥٩٤]، وأبو يعلى [٦١٤٨]، والدولابي في (الكنى) [٨٤٢]، وأبو الشيخ في (الأمثال) [٢٤٥]، وتمام في (الفوائد) [١٥٧٧]، والشهاب [٦٥٧]، والبيهقي في (الآداب) [٨١]، و(السنن الصغير) [٢٢٣٠]، و(الكبرى) [١١٩٤٦]، و(شعب الإيمان) [٨٥٦٨]. قال الحافظ العراقي: "أخرجه البخاري في كتاب: (الأدب المفرد)، والبيهقي من حديث: أبي هريرة بسند جيد". المغني عن حمل الأسفار (ص:٤٧٨). وقال الحافظ ابن حجر في (التلخيص الحبير) (١٦٣/٣): "رواه البخاري في (الأدب المفرد)، والبيهقي. وأورده ابن طاهر في (مسند الشهاب) من طريق: محمد بن بكير عن ضمام بن إسماعيل، عن موسى بن وردان، عن أبي هريرة، وإسناده حسن".

وعن ثابت رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: كان أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: يا بني تباذلوا بينكم، فإنه أود لما بينكم [(١)].

وصنائع المعروف هي خير ما يفعله الإنسان من شكر وإحسان إلى الناس -كما تقدم-:

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**» [(٢)].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق**» [(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) [٥٩٥] بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه الطيالسي [٢٠٠٧]، وأحمد [٥٣٦٥]، وابن حميد [٨٠٦]، وأبو داود [١٦٧٢]، والنسائي في (الكبرى) [٢٣٤٨]، وابن الأعرابي [٣٦٧]، وابن حبان [٣٣٧٥]، والطبراني في (الكبير) [٣٣٧٥]، و(الأوسط) [٤٠٣١]، والحاكم [١٥٠٢، ٢٣٦٩]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه الشهاب [٣٢٦٠]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٢٦٠]، عن ابن عمر. قال الإمام النووي في (الرياض) (ص:٤٨٠): "حديث صحيح، رواه أبو داود، والنسائي بأسانيد الصحيحين".

(٣) صحيح مسلم [٢٦٢٦].

وكما شرع الله عَزَّوَجَلَّ العدل فإنه ندب إلى الفضل، من العفو ومقابلة الإساءة بالإحسان، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة:١٧٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة:٤٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل:١٢٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشورى:٤٠].

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾، فندب إلى الفضل، وأوجب العدل.

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ مقابلةَ الإساءة بالإحسان، وحُسْنَ الخُلق سببًا يكون به العدوُّ صديقًا، وتتمكَّنُ فيه صداقةُ الصديق، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت:٣٤]. إن كل إساءة تقابل بالإحسان سوف يكون له من الأثر الطيب ما يمحو أثرها، ويعالج ما أحدثته من صدع وجفاء، يعني: أنك إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إلى مصافاتك ومحبتك. ومقابلة السيئة بالحسنة مرتبة عظيمة لا يرتقي إليها من عباد الله عَزَّوَجَلَّ إلَّا من امتلك زمام نفسه. والدفع بالتي هي أحسن قد يكون بالقول كما يكون بالفعل.

ومن أخلاق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه: «**لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح**»(١) فهو «**يعفو**»، أي: في الباطن. «**ويصفح**»، أي: في الظاهر عن صاحب السيئة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ۝٤٣﴾ [الشورى:٤٠-٤٣]: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة:١٩٤]، وكقوله: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦﴾ [النحل:١٢٦]، فشرع العدل، وهو القصاص، وندب إلى الفضل، وهو العفو، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ﴾ [المائدة:٤٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى:٤٠]، أي: لا يضيع ذلك عند الله عَزَّوَجَلَّ، كما صح في الحديث: «**وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا**»(٢)، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٠﴾ [الشورى:٤٠]، أي: المعتدين، وهو المبتدئ بالسيئة"(٣).

---

(١) صحيح البخاري [٤٨٣٨].

(٢) صحيح مسلم [٢٥٨٨].

(٣) تفسير ابن كثير (٧/٢١١-٢١٢).

فالإحسان يكون واجبًا وغير واجب، وأما الفضل فلا يكون واجبًا، فالإسلام لا يأمر بالعدل، وأداء الحقوق والواجبات فقط، بل يندب إلى الفضل، وإلى التسابق في عمل الخير، إلى الإيثار، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ١٤٩﴾ [النساء:١٤٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٤﴾ [التغابن:١٤].

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قواه جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧]: "فيه إشارة إلى أن الإحسان حسن، والتفضل أحسن، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فالإنسان إنما يكون محسنًا متفضلًا بعد أن يكون عادلًا منصفًا"(١).

ثالثًا: ذكر ما يعين العبد على الصبر والشكر:

١ – الإيمان بالقضاء والقدر، وأن الدنيا بقاؤها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، شبابها يهرم، وأنها دار ابتلاء واختبار، وليست دار إقامة، وأن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، وأن الإنسان مهما أصابه من شدة في هذه الحياة الفانية فهو منقلب إلى الدار الآخرة الباقية، فإن آمن وعمل صالحًا، وصبر وشكر، عاش حياة طيبة، وجوزي يوم القيامة بأحسن الجزاء.

---

(١) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (ص:٨٧).

إن المؤمن مهما تفاقم الشر، وتعاظم الضرر فإنه يعلم أن ما قضى الله عَزَّوَجَلَّ كائن، وما لم يشأ لم يكن، ولا يحكم به يحِق، لا رافع لما وضع، ولا واضع لما رفع، ولا معطي لما منع، ولا مضل لمن هدى، فلا جزع ولا هلع، وإنما صبر وشكر، وما عند الله عَزَّوَجَلَّ خير وأبقى.

ورُبَّ مِحْنَةٍ أورثت مِنْحَةً، وربَّ نورٍ يَشِعُّ من كَبِد الظَّلام؛ فإنَّ النصر مع الصبرِ، وإنَّ الفرج مع الكرب، وإنَّ مع العسر يسرًا، فما بعد دياجير الظلام إلَّا فلقُ الصبح المشرق.

وصيانة الإيمان تسهم في استئصال آفات اليأس والقنوط التي قد تصيب الإنسان بسبب ما يقع عليه من البلاء، ونورَ الإيمان يدفعُ عن المسلمِ ما ينتابُه من صنوفِ الوحشة، وما ينالُه من النوازل. وهو قائمٌ على ركائزَ من الثقةِ بالله عَزَّوَجَلَّ، والتوكلِ عليه.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ﴾ [الطلاق:٢-٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۝٤﴾ [الطلاق:٤]، وقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ۝٥﴾ [الطلاق:٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ۝٧﴾ [الطلاق:٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ۝٦﴾ [الشرح:٥-٦].

٢ – الإكثار من الدعاء:

وخير الدعاء وأنفعه للعبد: ما كان الرشيد الذي يستضاء فيه بأنوار الوحي، وهو الذي جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وفيما أرشد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته إليه من جوامع كلمه.

ومن ذلك في هذا الباب: دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الجامع للمعاني الجليلة، من خيري: الدنيا والآخرة: «**رَبِّ أَعِنِّي ولا تُعِنْ عَلَيَّ، وانْصُرْنِي ولا تَنْصُرْ عَلَيَّ**..» الحديث [(١)]، وقد تقدم.

ومن التوفيق أن يسأل العبد ربه جَلَّ وَعَلَا أن يبلغه منزلة الشاكرين، وهذا ما علمه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولأمته مما تقدم بيانه، وكما روى ذلك عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو هريرة، وعبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا –كما تقدم–.

فلا بد في الوصول إلى منزلة الشاكرين من الصدق والإخلاص في الالتجاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ بالدعاء، والاستعانة به في بلوغ هذه المنزلة الرفيعة، وهذا نهج الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصالحين، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن دعاء سليمان في قوله: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩﴾ [النمل:١٩].

ومن الأسباب التي توصل العبد إلى منزلة الشاكرين الرفيعة: أن يسجد لله عَزَّوَجَلَّ؛ شكرًا عند تجدد النعم، كما جاء في الحديث: عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي

(١) تقدم.

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه «**كان إذا جاءه أَمْرُ سُرُورٍ، أَوْ بُشِّرَ به، خَرَّ ساجدًا، شاكرًا لله**» (١).

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: «**خَرَّ ساجدًا، شاكرًا لله**» أي: سقط على الفور هاويًا إلى إيقاع سجدة؛ لشكر الله عَزَّوَجَلَّ على ما أحدث له من السرور.

ومن ثم ندب سجود الشكر عند حصول نعمة، واندفاع نقمة.

والسجود أقصى حالة العبد في التواضع لربه جَلَّ وَعَلَا، وهو أن يضع مكارم وجهه بالأرض، وينكس جوارحه، وهكذا يليق بالمؤمن كلما زاده ربه جَلَّ وَعَلَا محبوبًا ازداد له تذللًا وافتقارًا، وفيه ترتبط النعمة، ويجتلب المزيد، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

والمصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أشكر الخلق للحق جَلَّ وَعَلَا؛ لعظم يقينه، فكان يفزع إلى السجود.

وفيه حجة للشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في ندب سجود الشكر عند حدوث سرور، أو دفع بلية، وردَّ على أبي حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ في عدم ندبه"(٢).

---

(1) أخرجه أحمد [٢٠٤٥٥]، وابن ماجه [١٣٩٤]، واللفظ عنده: «كان إذا أتاه أمر يَسُرُّهُ أو بُشِّرَ به، خَرَّ سَاجِدًا؛ شُكْرًا لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» وأبو داود [٢٧٧٤]، واللفظ له، والترمذي [١٥٧٨]، وقال: "حديث حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: البزار [٣٦٨٢]، وأبو عبد الله محمد بن نصر المَرْوَزِي في (تعظيم قدر الصلاة) [٢٣١]، والطبراني في (الأوسط) [٤٢٥]، والدارقطني [١٥٢٩]، والحاكم [١٠٢٥] وصححه، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (الكبرى) [٣٩٣٤]، وفي (السنن الصغير) [٨٧٦].

(٢) فيض القدير (١١٨/٥).

قال التُّورِبِشْتِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ونضر الله وجه أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد بلغنا عنه أنه قال، وقد ألقى عليه هذه المسألة: لو ألزم العبد السجود عند كل نعمة متجددة عظيمة الموقع كان عليه أن لا يغفل عن السجود طرفة عين؛ لأنه لا يخلو منها أدنى ساعة؛ فإن من أعظم نعمة عند العباد نعمة الحياة، وهي متجددة بتجدد الأنفاس، أو كلامًا هذا معناه"(١).

وأجيب: بأن المراد بالسرور: هو سرور يحصل عند هجوم نعمة ينتظرها، أو يفاجأ بها من غير انتظار مما يندر وقوعها، لا ما استمر وقوعها، ومن ثم قدرها في الحديث بالمجيء على سبيل الاستعارة. ونكر «**أمر**»؛ للتفخيم وللتعظيم(٢).

وقد اختلف الفقهاء في مشروعية السجود؛ للشكر، فذهب الشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور، وابن المنذر، وأبو يوسف ومحمد وعليه الفتوى، وهو قول ابن حبيب من المالكية، وعزاه ابن القصار إلى مالك، وصححه البناني إلى أنه مشروع، والمسألة مبسوطة في مظانها.

وهي وصية الله عَزَّوَجَلَّ للقمان الحكيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولعباده الصالحين، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان:١٢].

---

(١) الميسر في شرح مصابيح السنة (٣٥٦/١).

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٣١٧/٤-١٣١٨)، وانظر: فيض القدير (١١٨/٥)، حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٤٢٣/١-٤٢٤).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف:١٥]... وكما تقدم في آيات الشكر.

٣ – الثقة بالله عَزَّوَجَلَّ، وبما أخبر من أن الشكر سبب في حفظ النعم ودوامها -كما تقدم-.

٤ – ملاحظة النعم التي تستوجب الشكر.

٥ – العلم بجليل نعم الله عَزَّوَجَلَّ على العبد، ونسبة تلك النعم إليه جَلَّ وَعَلَا:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الجاثية:١٣].

وفي الحديث: عن زيد بن خالد الجهني، أنه قال: صلى لنا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**أصبح من عبادي**

مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب» (١).

قال سليمان الواسطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذكر النعم تورث الحب لله عَزَّوَجَلَّ"(٢).

٦ - أن لا يفتر العبد عن الحمد والشكر في كل أحواله:

إن مداومة العبد على الحمد والشكر من أعظم الذِّكر، وأجلِّ الأعمال التي تقرب من الله عَزَّوَجَلَّ، والتي تثمر زيادة في الخير -كما تقدم-، وفي الحديث: عن شبيب بن بشر، عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«ما أنعم الله على عبد نعمة فقال: الحمد لله، إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ»**(٣)؛ "لأن قول: (الحمد لله) نعمة من الله عَزَّوَجَلَّ، والمحمود عليه نعمته أيضًا، وبعض النعم أجل من بعض، فنعمة الشكر أجل من نعمة مال، أو جاه، أو ولد، ولا يستلزم ذلك كون فعل العبد أفضل من فعل الله عَزَّوَجَلَّ، وإن دل على أن فعل العبد للشكر قد يكون أفضل من بعض مفعول الله جَلَّوَعَلَا، وفعل العبد هو مفعول الله عَزَّوَجَلَّ، ولا ريب أن بعض مفعولاته أفضل من بعض، كما بينه البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره، كابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤)، فما نقل عن الإمام الورع ابن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه عزى المتن إلى الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ثم قال هو خطأ؛ لأن فعل

---

(١) صحيح البخاري [٨٤٦، ١٠٣٨، ٤١٤٧]، مسلم [٧١].

(٢) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٣٣٤/٣٦).

(٣) أخرجه ابن ماجة [٣٨٠٥]، وفي (الزوائد) (١٣١/٤): "إسناده حسن. وشبيب بن بشر مختلف فيه"، كما أخرجه ابن المقرئ في (معجمه) [٨١١]، والضياء في (المختارة) [٢١٩٤].

(٤) انظر: عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن القيم (ص:١٣١-١٣٢).

العبد ليس بأفضل من فعل الرب جَلَّوَعَلَا، كما أنه ذهل عن كونه حديثًا مرفوعًا فقد غفل عن معناه المقرر -فتدبر-"(١).

وقال ابن أبي الدنيا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "بلغني عن بعض العلماء أنه قال: "ينبغي للعالم أن يحمد الله على ما أعطاه، وأين يقع ما أعطاه، والحسنات تأتي عليه إلى ما عافاه، فلم يبتله به فيشغل قلبه، ويتعب جوارحه، فيشكر الله عَزَّوَجَلَّ على سكون قلبه وجميع بدنه"(٢).

فيحمد الله عَزَّوَجَلَّ على ما زوى عنه من شهوات الدنيا، كما يحمده على ما أعطي من نعمة العافية، وعلى الاشتغال بما ينفعه.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**من رأى مبتلى، فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا، لم يصبه ذلك البلاء**» (٣).

---

(١) فيض القدير (٥/٤٢٨).

(٢) الشكر، لابن أبي الدنيا [١١٣]، وانظر: عدة الصابرين، لابن القيم (ص:١٣٢).

(3) أخرجه الترمذي: عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة [٣٤٣٢]، وقال: "حديث حسن غريب". وأخرجه أيضًا: البزار [٦٢١٧، ٩١٠٦]، والطبراني في (الدعاء) [٧٩٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤١٢٩]. قال الهيثمي (١٠/١٣٨): "حديث: أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «إذا رأى أحدكم أحدًا في بلاء فليقل: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا؛ فإنه إذا قال ذلك كان شاكرا لتلك النعمة»، قلت: رواه الترمذي باختصار، ورواه البزار، والطبراني في (الصغير) و(الأوسط) بنحوه، وإسناده

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا استيقظ فليقل: الحمد لله الذي عافاني في جسدي، وردَّ عليَّ روحي، وأَذِن لي بذكره**» (١).

وعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أوى إلى فراشه، قال: «**باسمك أموت وأحيا**»، وإذا قام قال: «**الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور**» (٢).

ونحوه: عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٣)، وعن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٤).

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا رفع مائدته قال: «**الحمد لله كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، غَيْرَ مَكْفِيٍّ ولا مُوَدَّعٍ وَلاَ مُسْتَغْنًى عَنْهُ، رَبَّنَا**» (٥).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا عطس أحدكم فليقل: الحمد لله، وليقل له أخوه أو صاحبه: يرحمك الله، فإذا قال له: يرحمك الله، فليقل: يهديكم الله ويصلح بالكم**» (٦).

---

(١) أخرجه الترمذي [٣٤٠١]، وقال: "حديث حسن"، كما أخرجه النسائي في (الكبرى) [١٠٦٣٦]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٨٦٦].

(٢) صحيح البخاري [٦٣١٢، ٦٣١٤، ٦٣٢٤، ٧٣٩٤].

(3) صحيح البخاري [٦٣٢٥، ٧٣٩٥].

(4) صحيح مسلم [٢٧١١].

(٥(صحيح البخاري [٥٤٥٨]، وقد تقدم.

(6) صحيح البخاري [٦٢٢٤].

والأحاديث في ذلك كثيرة، وهي تفيد أن الموفق من يحمد الله عَزَّوَجَلَّ في جميع أحواله.

٧ – التأمل في خلق الله جَلَّوَعَلَا وآياته في الخلق.

٨ – النظر إلى كل عطاء على أنه اختبار من الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل:٤٠].

وينبغي على المسلم أن يتذكر دائمًا أن التوسعة في ليست دليلًا على الرضا، فقد نفى القرآن الكريم أن تكون كثرة المال أو الولد دليلًا على رضى المولى جَلَّوَعَلَا، وإنما العمل الصالح هو الوسيلة للحصول على هذا الرضوان، والقرب من الله جَلَّوَعَلَا.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ:٣٧].

٨ – أن يحذر المؤمن دوام السلامة؛ خشية الاستدراج:

إنَّ من أسباب العافية في الدنيا والآخرة: أن يحذر المؤمن دوام السلامة؛ خشية الاستدراج، فيشتغل بالشُّكر، وذكر الله عَزَّوَجَلَّ وطاعته على الدَّوام. فيجازى في الآخرة بالحسنى جزاء لما عمل في أيامه الخالية. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحاقة:٢٤]، ويحيا في الدنيا حياة طيبة، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ

عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧].

٩ - الاعتبار بحال السابقين ممن جحد نعم الله عَزَّوَجَلَّ:

أخبرنا الحق عَزَّوَجَلَّ عن هلاك بعض الأمم بسبب المعاصي، وكفران النعم، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف:٩٦].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا﴾ يعني: وحدوا الله عَزَّوَجَلَّ وأطاعوه. ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني: المطر. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: النبات، وأصل البركة: المواظبة على الشيء، والثبات عليه، مأخوذ من بروك البعير [1]، أي: تابعنا عليهم بالمطر، وكثرة المواشي والأنعام، وزيادة الثمار والأرزاق، والأمن والسلامة، ورفعنا عنهم القحط والجدب.

وقال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب. وقيل: المراد: المطر والنبات" [2].

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم﴾: فجعلنا لهم العقوبات. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾: من الكفر، والمعصية، والأعمال الخبيثة.

---

(١) انظر: الكشف والبيان (٤/٢٦٥)، تفسير البغوي (٢/٢١٦)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٧/٤٥٣٢)، الخازن (٢/٢٣٠-٢٣١).

(٢) تفسير البيضاوي (٣/٢٥)، وانظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٢/٣٨٩).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل:١١٢]، فقد يحرم المرء الرزق بالمعصية يرتكبها، أو قد يحرم البركة في الرزق، فيكون لديه المال الوفير ولا يحسن الانتفاع به، فيضيع المال في غير مصلحة، ويذهب من غير فائدة.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحذر الحذر من المعاصي، فكم سلبت من نعم؟! وكم جلبت من نقم؟! وكم خربت من ديار؟!"(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المعاصي تُزيلُ النِّعَم، ومن عقوباتها أنها تُزيلُ النِّعَمَ الحاضرة، وتَقْطَعُ النِّعَمَ الواصِلَة، فَتُزِيلُ الحاصل، وتمنعُ الواصِل فإنَّ نِعَمَ اللهِ مَا حُفِظَ مَوْجُودُهَا بِمِثْلِ طاعته، وَلَا اسْتُجْلِبَ مَفْقُودُهَا بِمِثْل طَاعَتِهِ؛ فإن ما عنده لا ينال إلا بطاعته، وقد جَعَلَ الله عَزَّوَجَلَّ لكل شيء سببًا وآفة، سببًا يَجْلِبُهُ، وَآفَةً تُبْطِلُهُ، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته، وآفاتها المانعة منها معصيته، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها"(٢).

وقد تقدم ذكر الآيات في بيان عاقبة من كفر نعم الله عَزَّوَجَلَّ.

١٠ - أن يسجد العبد لله عَزَّوَجَلَّ شكرًا له عند تجدد النعمة -كما تقدم-.

(١) لطائف المعارف (ص:١٤٦-١٤٧).

(٢) الجواب الكافي (ص:١٠٦).

١١ – القيام بأركان الشكر: من الاعتراف بالنعمة الاعتراف بها باطنًا، والتَّحدُّث بها ظاهرًا، وتصريفها في مرضاة وليها ومسديها، وهو ما يستلزم بحقوق الله عَزَّوَجَلَّ، والوفاء بحقوق العباد.

١٢ – أن ينظرَ الإنسانُ في أمور الدُّنيا إلى من هو دونه، وأن يتطلَّع إلى من هو فوقه في البرِّ والطَّاعات، فيسلك سبيل المهتدين، من التَّبصر في أمور الدين، ومن التنافس في صالح الأعمال، ومن الصَّبر على البلاء، والنَّظر إلى ما أعدَّه الله عَزَّوَجَلَّ لعباده الصَّالحين. ففي أمور الدنيا وزخارفها ينظر إلى من هو أسفل منه؛ فإن ذلك حقيقٌ بأن يشكرَ نعمة الله عَزَّوَجَلَّ عليه، ولا يزدريها. وينظر إلى من هو أعلى منه في الدِّين، والعلمِ، والدَّعوة، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخصال الخير، والأخلاق الفاضلة، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا نَظَرَ أحدُكُم إلى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ في المال والخَلْق، فَلْيَنْظُرْ إلى مَنْ هو أَسْفَلَ منه**» (١).

وفي رواية: «**انْظُرُوا إلى مَنْ أَسْفَلَ منكم، ولا تَنْظُرُوا إلى مَنْ هو فَوْقَكُمْ، فهو أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ**» (٢).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا الحديث جامع لمعاني الخير؛ لأن المرء لا يكون بحال تتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهدًا فيها إلا وجد من هو فوقه، فمتى طلبت نفسه اللحاق به استقصر حاله، فيكون أبدًا في زيادةٍ تُقَرِّبُه من ربِّه، ولا يكون على حَالٍ

(١) صحيح البخاري [٦٤٩٠]، مسلم [٢٩٦٣].

(٢) صحيح مسلم [٢٩٦٣].

خَسِيسَةٍ من الدنيا إلا وجد من أهلها من هو أَخَسُّ حَالًا منه، فإذا تَفَكَّرَ في ذلك علم أن نعمة الله وصلت إليه دون كثير ممن فُضِّلَ عليه بذلك من غير أَمْرٍ أَوْجَبَهُ، فَيُلْزِمُ نفسه الشُّكْرَ، فَيَعْظُمُ اغتباطه بذلك في معاده"(١). وقال غيره: "في هذا الحديث دواء الداء؛ لأن الشخص إذا نظر إلى من هو فوقه لم يَأْمَنْ أن يُؤَثِّرَ ذلك فيه حَسَدًا. وَدَوَاؤُه: أن ينظر إلى من هو أسفل منه؛ ليكون ذلك داعيًا إلى الشُّكر"(٢).

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**أمرني خليلي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بِحُبِّ المساكين، وَالدُّنُوِّ منهم، وأمرني أن أَنْظُرَ إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي**» الحديث(٣).

١٣ - عدم معصية الله عَزَّ وَجَلَّ عند حصول النعمة:

وقد جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة: مزمار عند نعمة، ورنة عند مصيبة**»(٤).

١٤ - الاستعاذة بالله عَزَّ وَجَلَّ من خطر الاستدراج، ومن شرِّ الشيطان الرجيم الذي يوسوس في صدور الناس، ويزين لهم ما فيه هلاكهم.

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/١٩٩)، فتح الباري، لابن حجر (١١/٣٢٣).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١١/٣٢٣).

(٣) أخرجه أحمد [٢١٤١٥]، وابن حبان [٤٤٩]، والطبراني في (الصغير) [٧٥٨]، والبيهقي في (السنن) [٢٠١٨٦]. قال الهيثمي (٧/٢٦٥): "رجاله رجال الصحيح غير سلام أبي المنذر وهو ثقة".

(٤) أخرجه البزار [٧٥١٣]، والضياء في (المختارة) [٢٢٠٠]، وقال: "إسناده حسن"، قال المنذري في (الترغيب) (٤/١٨٤): "رواه البزار، ورجاله ثقات"، وتبعه الهيثمي (٣/١٣).

١٥ – الاستعانة على ما يصيب الإنسان من شدة وبلاء بالصبر، والإكثار من الطاعات:

وقد بيَّن الحق جَلَّوَعَلَا أن خير ما يستعان به عند الشدائد: الصبر والصلاة، فقال: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة:٤٥]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة:١٥٣]. وقد تقدم بيان ذلك.

١٦ – حسن ظنِّ المظلوم بالله عَزَّوَجَلَّ، وأن ينظر إلى ما أعده الله جَلَّوَعَلَا لعباده الصابرين من الأجر الجزيل، والثواب العظيم في الآخرة، وأن يدرك أن الجزع لا يرفع البلاء.

١٢ – المطالعة الدَّائمة لسيرة النَّبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وسيرة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، والسَّلف الصَّالح، وما كانوا عليه من الصبر، والزُّهد، والورع والتَّقوى.

١٣ – إن مما يعين على الصبر عن محارم الله عَزَّوَجَلَّ: علم العبد بقبحها، وحياء العبد من الله عَزَّوَجَلَّ، والخوف منه، ومراعاة نعمه، ومحبته جَلَّوَعَلَا:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: "الصبر عن محارم الله عَزَّوَجَلَّ: يدخل في هذا: المواظبة على فعل الواجبات، والكف عن المحرمات، وذلك ينشأ عن علم العبد بقبحها، وأن الله عَزَّوَجَلَّ حرمها؛ صيانة لعبده عن الرذائل، فيحمل ذلك العاقل على تركها، ولو لم يرد على فعلها وعيد.

ومنها: الحياء منه، والخوف منه أن يوقع وعيده فيتركها؛ لسوء عاقبتها، وأن العبد منه بمرأى ومسمع، فيبعثه ذلك على الكف عما نهي عنه.

ومنها: مراعاة النعم؛ فإن المعصية غالبًا تكون سببًا لزوال النعمة.

ومنها: محبة الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن المحب يصير نفسه على مراد من يحب وأحسن ما وصف به الصبر أنه حبس النفس عن المكروه، وعقد اللسان عن الشكوى والمكابدة في تحمله، وانتظار الفرج"[١].

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذلك مفصلًا، وزاد على ما ذكر في بيانه لقاعدة: (**الصبر عن المعصية ينشأُ من أسباب عديدة**) في كتابه: (طريق الهجرتين) [٢]، كما ذكر (**الأسباب التي تعين على الصبر على الطاعة**) [٣].

---

(1) فتح الباري (١١/٣٠٣).

(2) انظر: طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص:٢٧٠).

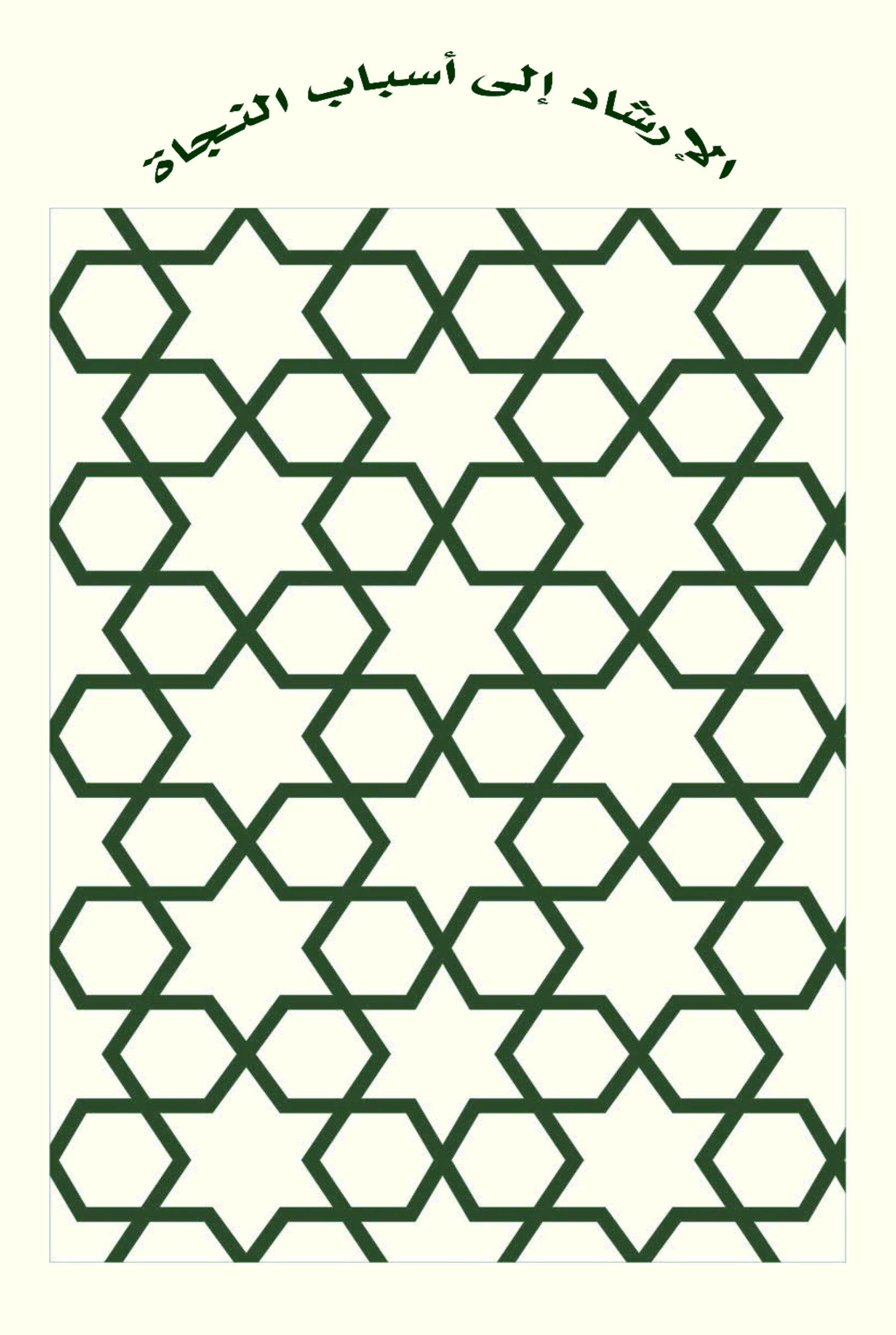
(3) انظر: المصدر السابق (ص:٢٧٥).

المبحث العاشر:

حياة البرزخ

وأسباب الوقاية من العذاب فيه

الإرشاد إلى أسباب النجاة



أوَّلًا: الإيمان بحياة البرزخ الخاصَّة:

وهي الفاصلة بين حياة فانية، وحياة باقية.

إن من الإيمان باليوم الآخر: إيمان المسلمين بما أخبر به الشارع مما يكون بعد الموت، كفتنة القبر، وعذابه ونعيمه، فأما الفتنة فيقال للرجل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ كما جاء في الحديث: عن أسماء أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنها قالت: أتيت عائشة -زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- حين خسفت الشمس، فإذا الناس قيام يصلون، وإذا هي قائمة تصلي، فقلت: ما للناس؟ فأشارت بيدها نحو السماء، وقالت: سبحان الله، فقلت: آية؟ فأشارت: أَيْ نعم، فقمت حتى تَجَلَّانِي الغَشْيُ، وَجَعَلْتُ أَصُبُّ فوق رأسي ماء، فلما انصرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَمِد الله عَزَّوَجَلَّ، وأثنى عليه، ثم قال: «**ما من شيء كنت لم أره إلا قد رأيته في مقامي هذا، حتى الجنة والنار، ولقد أوحي إليَّ أنكم تفتنون في القبور، مثل: -أو قريب من- فتنة الدجال**» -لا أدري أي ذلك قالت أسماء- «**يُؤْتَى أَحَدُكُمْ، فيقال له: ما علمك بهذا الرجل؟ فأما المؤمن أو الموقن**»، -لا أدري أي ذلك قالت: أسماء- «**فيقول: هو محمد رسول الله، جاءنا بالبينات والهدى، فأجبنا وآمنا واتبعنا، فيقال له: نم صالحا، فقد علمنا إن كنت لمؤمنًا، وأما المنافق أو المرتاب**» -لا أدري أي ذلك قالت أسماء- «**فيقول: لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته**»[(١)].

(١) أخرجه البخاري [٨٦، ١٨٤، ٩٢٢، ١٠٥٣، ٧٢٨٧].

إن أهل السنة يؤمنون بعذابِ القبر لمن كان أهلًا له، وسُؤَالِ مُنْكَرٍ وَنَكِير، وأنَّ القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، وأن كل من مات وهو مستحق العذاب ناله نصيبه منه، قبر أو لم يقبر، فلو أكلته السباع، أو أحرق حتى صار رمادًا، ونسف في الهواء، أو صلب، أو غرق في البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى أصحاب القبور.

وقد ظن بعض الأوائل أنه إذا أحرق جسده بالنار وصار رمادًا، وذري بعضه في البحر، وبعضه في البر في يوم شديد الريح أنه ينجو بذلك، كما في (صحيح البخاري): عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«إِنَّ رَجُلًا حَضَرَهُ المَوْتُ، فلمَّا يَئِسَ من الحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ: إذا أنا مُتُّ فَاجْمَعُوا لي حطبًا كثيرًا، وأوقِدُوا فيه نارًا، حَتَّى إذا أَكَلَتْ لَحْمِي وَخَلَصَتْ إلى عَظْمِي فَامْتُحِشَتْ**[1]**، فَخُذُوهَا فَاطْحَنُوهَا، ثُمَّ انْظُرُوا يومًا رَاحًا**[2]**، فَاذْرُوهُ**[3] **في اليَمِّ، فَفَعَلُوا، فَجَمَعَهُ اللَّهُ فقال له: لِمَ فَعَلْتَ ذلك؟ قال: مِنْ خَشْيَتِكَ، فَغَفَرَ اللَّهُ لَهُ»**[4].

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: **«كان رجل يُسْرِفُ على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه: إذا أنا مُتُّ فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذَرُّونِي في الريح، فوالله لئن قدر عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا ما عَذَّبَهُ أحدًا، فلما مات**

---

(١) أي: احترقت، أو احترق عظمي.

(٢) أي: شديد الريح.

(٣) أي: طيروه.

(٤) أخرجه البخاري [٣٤٥٢، ٣٤٧٩].

فعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك، فغفر له»، وقال غيره: **«مخافتك يا ربِّ»** (١).

وفي رواية: عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أن رجلًا كان قبلكم، رَغَسَهُ (٢) اللَّهُ مَالًا، فقال لبنيه لَمَّا حُضِرَ: أيَّ أَبٍ كُنْتُ لكم؟ قالوا: خيرَ أبٍ، قال: فإني لم أعمل خيرا قَطُّ، فإذا مُتُّ فأحرقوني، ثم اسحقوني (٣)، ثم ذَرُّوِني في يوم عاصفٍ، ففعلوا، فجمعه الله عَزَّ وَجَلَّ، فقال: على ما فعلت؟ قال: مخافتك، فَتَلَقَّاهُ برحمته»** (٤).

وفي لفظ: عن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ذكر رجلًا فيمن كان سلف، أو قبلكم، آتاه الله مالًا وولدًا -يعني: أعطاه- قال: فلما حضر قال لبنيه: أَيَّ أَبٍ كنتُ لكم؟ قالوا: خيرَ أبٍ، قال: فإنه لم يَبْتَئِرْ عند الله خيرًا -فسرها قتادة: لم يَدَّخِرْ- وإنْ يَقْدَمْ على اللَّهِ يُعَذِّبْهُ، فانظروا فإذا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، حتى إذا صرت فحمًا فاسحقوني -أو قال: فَاسْهَكُونِي-، فإذا كان يوم ريح عاصف فَأَذْرُونِي فيها، فقال: نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخذ مواثيقهم على ذلك وربي، ففعلوا، ثم أَذْرَوْهُ في يوم عاصف، فقال الله عَزَّ وَجَلَّ: كن، فإذا هو رجل قائم، قال الله: أي**

---

(١) صحيح البخاري [٣٤٨١]، مسلم [٢٧٥٦].

(٢) أي: أعطاه وبارك له فيه، من (الرغس)، وهو البركة والنماء والخير.

(٣) من (السحق)، وهو أشد الدق.

(٤) صحيح البخاري [٣٤٧٨، ٦٤٨١، ٧٥٠٨]، مسلم [٢٧٥٧].

عبدي ما حملك على أن فعلت ما فعلت؟ قال: مخافتك، -أو فَرَقٌ منك-، قال: فما تَلاَفَاهُ أن رَحِمَهُ عندها»، وقال مرة أخرى: «**فما تلافاه غيرها**»، فحدثت به أبا عثمان، فقال: سمعت هذا من سلمان غير أنه زاد فيه: «**أذروني في البحر**»، أو كما حدث (١).

فقوله: «**فلم يبتئر خيرًا**» أي: لم يقدم لنفسه خبيئة خير، ولم يدخر، فَسَّرَهَا قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: لَمْ يَدَّخِرْ، وقال أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قول: «**فلم يبتئر خيرًا**» أي: لم يقدم خيرًا، وهو من الشيء يخبأ، كأنه لم يقدم لنفسه شيئا خبأه لها. والأصمعي والكسائي رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ كانا يقولان فيه: لم يقدم خيرًا. وقال غيرهما: معناه: أنه لم يقدم لنفسه خيرًا خبأه لها. وقالوا: إن أصل الابتئار: الإخفاء، يقال منه: بأرت الشيء وابتأرته ابتئارًا، ومنه سميت الحفرة: البؤرة، وفيه لغتان، ابتأرت وابتيرت، ومصدره: ابتئارًا (٢).

ومن الأحاديث الدالة على حياة البرزخ: ما عن أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: دخل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أبي سلمة وقد شق بصره، فأغمضه، ثم قال: «**إن الروح إذا قبض تبعه البصر**»، فضج ناس من أهله، فقال: «**لا تدعوا على أنفسكم إلا**

---

(١) صحيح البخاري [٦٤٨١].

(٢) انظر: غريب الحديث، لأبي عُبيد القاسم بن سلام، مادة: (بأر) (١/١٤٦-١٤٧)، تهذيب اللغة (١٥/١٨٩)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/١٩٣)، غريب الحديث، لابن الجوزي (١/٥١)، كشف المشكل (٣/١٥٦)، المعلم بفوائد مسلم (٣/٣٣٥)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (بأر) (١/٨٩)، أساس البلاغة (١/٢٢٨).

بخير؛ **فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون**»، ثم قال: «**اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونور له فيه**»(١).

وسيأتي ذكر الآيات التي توجب الإيمان بحياة البرزخ بعد الموت، وذكر جملة من أصحِّ ما جاء من الأحاديث الدالة على عذاب البرزخ وفتنته ونعيمه.

ثانيًا: المراحل التي يمر بها الإنسان قبل ولادته وبعدها:

الإنسان قبل ولادته يكون جنينًا في بطن أمه، وله أطوار يمر بها في تكوينه، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج: ٥-٧].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ أيضًا في بيان المراحل التي يمر بها الإنسان من الخلق إلى البعث يوم القيامة: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ

(١) صحيح مسلم [٩٢٠].

لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١٢-١٦].

وفي الحديث: عن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: حدثنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو الصادق المصدوق: «**إن أحدكم يُجْمَعُ خَلْقُهُ في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك، ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها**»(١).

وقد تقدم أن الموت ليس نهاية لرحلة الإنسان -كما يظن الملاحدة- حيث قالوا: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنعام:٢٩]، ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية:٢٤]، فالموت ليس الخاتمة الأبدية لرحلة الإنسان، وإنما ينتقل الإنسان من حياة إلى أخرى، هذه هي الحقيقة عرفها المسلمون من كتاب ربهم جَلَّ وَعَلَا، ومن سنة نبيهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وغابت عن كثيرين، حتى عاينوا الحقيقة عند حضور الموت، وتمنوا الرجوع إلى الدنيا، كما أخبر الحق جَلَّ وَعَلَا عن عاقبتهم بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ

(١) صحيح البخاري [٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤]، مسلم [٢٦٤٣].

ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٤].

وأخبر عن تحسرهم بقوله: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزمر:٥٦-٥٩].

وينتقل الإنسان بعد الموت إلى دار البرزخ، وهي الدار الفاصلة بين الدنيا والآخرة، ينتقل من دار الزرع إلى دار الحصاد، من دار الفناء إلى دار البقاء، من دار التكليف إلى دار الثواب والعقاب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب (الروح): "إن الله عَزَّوَجَلَّ جعل الدور ثلاثًا: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار [1]. وجعل لكل دار أحكاما تختص بها، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس.

وجعل أحكام دار الدنيا على الأبدان، والأرواح تبع لها، ولهذا جعل أحكامه الشرعية مرتبة على ما يظهر من حركات اللسان والجوارح، وإن أضمرت النفوس خلافه.

(١) ومن أهل العلم من جعل الدور للإنسان أربعًا: فجعل الأولى: عندما يكون في بطن أمه.

وجعل أحكام البرزخ على الأرواح، والأبدان تبع لها. فكما تبعت الأرواح الأبدان في أحكام الدنيا، فتألمت بألمها، والتذَّت براحتها، وكانت هي التي باشرت أسباب النعيم والعذاب، تبعت الأبدان الأرواح في نعيمها وعذابها. والأرواح حينئذ هي التي تباشر العذاب والنعيم، فالأبدان هنا ظاهرة، والأرواح خفية، والأبدان كالقبور لها. والأرواح هناك ظاهرة، والأبدان خفية في قبورها، فتجري أحكام البرزخ على الأرواح، فتسري إلى أبدانها نعيمًا وعذابًا، كما جرى أحكام الدنيا على الأبدان، فتسري إلى أرواحها نعيمًا وعذابًا. فأحِطْ بهذا الموضع علمًا وأعرفه كما ينبغي، يزل عنك كل إشكال يورد عليك من داخل وخارج"(١).

قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الموت انتقال من دار ضيِّقة إلى دار واسعة.

قال العلماء: الموت ليس بعدم محض، ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقة وحيلولة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار.

فإن الله جَلَّ وَعَلَا خلق بني آدم للبقاء لا للفناء، وإنما ينقلهم بعد خلقهم من دار إلى دار، كما قال ذلك طائفة من السلف الأخيار منهم: بلال بن سعد، وعمر بن عبد العزيز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وقال ابن القاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: للنفس أربعة دور كل دار أعظم من التي قبلها:

الأولى: بطن الأم، وذلك محل الضيق والحصر والغم، والظلمات الثلاث.

والثانية: هي الدار التي أنشأتها وألفتها، واكتسبت فيها الشر والخير.

(١) الروح (ص:٦٣)، وانظر: تسلية أهل المصائب (ص:٢٠٤).

والثالثة: هي دار البرزخ، وهو أوسع من هذه الدار وأعظم، ونسبة هذا الدار إليها كنسبة البطن إلى هذه.

والرابعة: هي دار القرار الجنة أو النار، ولها في كل دار من هذه الدور حكم وشأن غير شأن الأخرى. انتهى"(١).

ويتبين مما سبق: أن يمر بمراحل: مرحلة الجنين، وله أطوار يمر بها، ثم مرحلة الولادة والرضاعة، ثم مرحلة الطفولة، ثم مرحلة المراهقة، ثم مرحلة الرشد، ثم مرحلة الشباب، ثم الكهولة، ثم الشيخوخة، ومن الناس من يرد بعد الشخوخة إلى أرذل العمر، نسأل الله جَلَّ وَعَلَا السلامة والعافية.

ومن أنفع الدعاء: ما ورد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جوامع الكلم -كما تقرر في غير موضع-، ومن ذلك: ما كان يستعيذ منه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من نحو قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وأعوذ بك أن أُرَدَّ إلى أرذل العمر**» الحديث(٢).

والمراحل الرئيسية التي يمر الإنسان بعد ولادته ثلاث:

الأولى: هذه الحياةُ الدنيا الفانية.

والثانية: مرحلةُ البرزخ الفاصلة بين الحياتين الفانية والباقية.

---

(١) بشرى الكئيب بلقاء الحبيب، لجلال الدين السيوطي (ص:١٨)، وانظر: أهوال القبور، لابن رجب (ص:٥).

(٢) صحيح البخاري [٢٨٢٢، ٦٣٦٥، ٦٣٧٠].

والثالثة: الحياة في الدار الأخرة حيث البقاء الأبدي الذي لا زوال له ولا انقضاء. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ﴾ [العنكبوت:٦٤]، أي: الحياة الدائمة التي لا موت فيها.

وأما (دار القرار) فهي إما الجنة أو النار، وسميت: (دار القرار)؛ لكونها دائمة لا تنقطع، ومستمرة لا تزول.

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في حالة الإنسان في دنياه وما يحتاج أن يتزود منها الإنسان مسافر، ومبدأ سفره من حيث ما أشار إليه جَلَّوَعَلَا بقوله: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾ [البقرة:٣٦].

قال: ومنتهى سفره: دار السلام، ودار القرار. وله بينهما منازل..."[(١)].

ثالثًا: حقيقة الحياة في دار البرزخ والعذاب والفتنة والنعيم فيه:

الحياة الأرواح في دار البرزخ من عالم الغيب، الذي لا سبيل إلى معرفتها إلا عن طريق النقل.

وقد دلَّ النقل على أن حياة النَّاس في دار البرزخ حياة خاصة، وفيها يفتنون، فينعمون أو يعذبون.

وهذا مذهب سَلَفِ الأمَّة وأئمَّتِهَا أنَّ الْمَيّتَ إذا مات يكون في نعيمٍ أو عذاب، على اختلاف في ماهية هذا العذاب، هل هو عذاب حسي، أم أنه من قبيل العرض،

(١) تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين (ص:٦٩-٧٠).

وأنه لا عذاب حسي إلا المحاسبة؟ قولان، ولا سبيل إلى القطع في ذلك؛ لكونه من الغيبيات التي لا سبيل إلى معرفتها إلا عن طريق النقل، وما دام النقل محتملًا للحمل على عذاب العرض النفسي، فالقطع بأنه بطبيعة العذاب الواقع دونه خرط القتاد، وعلى هذا فمن نفى العذاب فإنما يحمل قوله على نفي العذاب الحسي، دون نفي عذاب العرض الذي يصيب النفس بسبب رؤية منزلها، وما سينزل بها بعد المحاسبة من العقاب، ولا سيما في أعمال جاء فيها الوعيد الشديد، فهو يتقلب في عذاب على كلا القولين على مدار الزمان -والله أعلم-.

ولذلك قال ميمون بن محمد النسفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (بحر الكلام): "والدليل على أن عذاب القبر مما يقبله العقل: ألا ترى أن النائم تخرج روحه، وتكون متصلة بجسده حتى أنه يتألم في المنام، ويصل إليه الألم والاستراحة، وقد يتكلم في المنام؛ لأن روحه متصلة بجسده، والنوم أخو الموت، فيجوز أن يتألم ويستريح بعد الموت. والمعذِّب والمريح والراحم هو الله عَزَّوَجَلَّ، يعذِّب من يشاء، ويرحم من يشاء، كما يريد، وهو على كل شيء قدير"(١).

ثُمَّ إذا كان يومُ القيامة الكبرى قام الموتى من قبورهم لربِّ العالمين؛ للحساب على ما كل واحد منهم من عمل، وعلى ما فرط وترك، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ۝٧﴾ [الحج:٦-٧].

---

(١) بحر الكلام (ص:٢٥١-٢٥٢).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٥٢ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ۝٥٣ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٥٤﴾ [يس:٥١-٥٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨﴾ [القمر:٧-٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ۝٤٣ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ۝٤٤﴾ [المعارج:٤٢-٤٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ [الانفطار:٤-٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾ [العاديات:٦-١١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر:١-٨].

قال الإمام السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح الصدور): "باب: (فتنة القبر، وسؤال الملكين)

قد تواترت الأحاديث بذلك، مؤكدة من رواية: أنس، والبراء، وتميم الداري، وبشير بن الكمال، وثوبان، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن رواحة، وعبادة بن الصامت، وحذيفة، وضمرة بن حبيب، وابن عباس، وابن عمر، وابن مسعود، وعثمان بن عفان، وعمر بن الخطاب، وعمرو بن العاص، ومعاذ بن جبل، وأبي أمامة، وأبي الدرداء، وأبي رافع، وأبي سعيد الخدري، وأبي قتادة، وأبي هريرة، وأبي موسى، وأسماء، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ"(١).

وأخبر الله جَلَّ وَعَلَا عن حال من شغله المتاع العاجل، وغفل عن الدار الآخرة حتى باغته الموت بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر:١-٨]. ولم يذكر المتكاثر به؛ ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون، من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وقد خلا عن الإخلاص والشكر والطاعة.

فاستمرت غفلتكم ولهوتكم وتشاغلكم عن طاعة ربكم، وعما ينجيكم من سخطه عليكم. وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ يعني: حتى صرتم إلى المقابر، فدفنتم فيها.

(١) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص:١٢١).

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي هذا دليل على صحة القول بعذاب القبر؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ ذكره، أخبر عن هؤلاء القوم الذين ألهاهم التكاثر، أنهم سيعلمون ما يلقون إذا هم زاروا القبور وعيدًا منه لهم وتهدُّدًا"(١).

ودل جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ۝٢﴾ أن البرزخ دار فاصلة بين الدنيا الفانية والآخرة الباقية، فلا مستقر فيها؛ ولذلك الله عَزَّوَجَلَّ سماهم: زائرين.

و﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾ إذا زرتم المقابر، أيها الذين ألهاهم التكاثر، غبَّ فعلكم، واشتغالكم بالتكاثر في الدنيا عن طاعة الله ربكم جَلَّوَعَلَا.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٤﴾ قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول: ثم ما هكذا ينبغي أن تفعلوا أن يلهيكم التكاثر بالأموال، وكثرة العدد، سوف تعلمون إذا زرتم المقابر، ما تلقون إذا أنتم زرتموها، من مكروه اشتغالكم عن طاعة ربكم جَلَّوَعَلَا بالتكاثر. وكرَّر قوله: ﴿كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ مرتين؛ لأن العرب إذا أرادت التغليظ في التخويف والتهديد كرَّروا الكلمة مرتين.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ ۝٥﴾ يقول تعالى ذكره: ما هكذا ينبغي أن تفعلوا، أن يلهيكم التكاثر أيها الناس، لو تعلمون أيها الناس علمًا يقينًا، أن الله عَزَّوَجَلَّ باعثكم يوم القيامة من بعد مماتكم من قبوركم ما ألهاكم التكاثر عن طاعة الله

(١) تفسير الطبري (٢٤/٥٨٠).

ربكم عَزَّوَجَلَّ، ولسارعتم إلى عبادته، والانتهاء إلى أمره ونهيه، ورفض الدنيا؛ إشفاقًا على أنفسكم من عقوبته"(١).

وهاك جملة من أصح ما جاء من الأحاديث في هذا الباب من حيث الدلالة على عذاب البرزخ، وفتنته، ونعيمه.

رابعًا: النصوصِ الدالةِ على عذابِ البرزخ، وفتنته، ونعيمه:

استدل على عذابِ البرزخ بجملة من النصوص من الكتاب والسنة:

وقد استدلَّ من القرآن الكريم على عذابِ البرزخ بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر:٤٥-٤٦]. فالعطف يقتضي المغايرة، فعرض النار قبل يوم القيامة، وهو عذاب القبر.

وقد استدل بالآية الإمام البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ في (صحيحه) على عذاب البرزخ(٢).

وقال ابن قتيبة رَحِمَهُٱللَّهُ: "وأما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ﴾ [غافر:٤٦] فإنه لم يرد أن ذلك يكون في الآخرة، وإنما أراد أنهم يعرضون عليها بعد مماتهم في القبور.

(١) تفسير الطبري (٢٤/٥٨١).

(٢) انظر: صحيح البخاري، باب ما جاء في عذاب القبر (٢/٩٧).

وهذا شاهد من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ لعذاب القبر، يدلُّك على ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر:٤٦]، فهم في البرزخ يعرضون على النار غدوًّا وعشيًّا، وفي القيامة يدخلون أشد العذاب"(١).

وقال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ويستدل بهذه الآية على إثبات عذاب القبر"(٢).

وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فذلك عذابهم في البرزخ بين الدنيا والآخرة"(٣).

وقال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الآيات الدالة على عذاب القبر، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ [غافر:١١]، والموتتان لا تحصل إلا عند حصول الحياة في القبر، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ [نوح:٢٥]، والفاء للتعقيب.. وذكر قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦].

قال: وإذا ثبت عذاب القبر وجب القول بثواب القبر أيضًا..".. ثم دلل على ذلك(٤).

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّ فإن أرواحهم تعرض على النار صباحًا ومساء إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار؛ ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ۝٤٦﴾ [غافر:٤٦]، أي: أشده ألما

---

(١) تأويل مشكل القرآن (ص:٥٦).

(٢) الكشاف (١٧٠/٤)، وانظر: التسهيل لعلوم التنزيل (٢٣٢/٢)، تفسير القرطبي (١٥/٣١٨-٣١٩).

(٣) معالم التنزيل (٣٤١/١).

(٤) انظر: مفاتيح الغيب (١٢٦/٤).

وأعظمه نكالًا. وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور"(١).

ومن الأدلة على حياة النعيم الخاصة في البرزخ: قوله جَلَّ وَعَلَا عن الشهداء: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة:١٥٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا عن الشهداء أيضًا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧١].

فقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة:١٥٤]، "أي: بل هم أحياء، والجملة معطوفة على ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾ إضراب عنه، وليس من عطف المفرد على المفرد؛ ليكون في حيز القول، ويصير المعنى: بل قولوا: أحياء؛ لأن المقصود إثبات الحياة لهم، لا أمرهم بأن يقولوا في شأنهم: إنهم أحياء، وإن كان ذلك أيضًا صحيحًا.

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ أي: لا تحسون ولا تدركون ما حالهم بالمشاعر؛ لأنها من أحوال البرزخ التي لا يطلع عليها، ولا طريق للعلم بها إلا بالوحي.

واختلف في هذه الحياة، فذهب كثير من السلف إلى أنها حقيقية بالروح والجسد ولكنا لا ندركها في هذه النشأة، واستدلوا بسياق قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/١٤٦).

﴿١٦٩﴾ [آل عمران:١٦٩]، وبأن الحياة الروحانية التي ليست بالجسد ليست من خواصهم، فلا يكون لهم امتياز بذلك على من عداهم.

وذهب البعض إلى أنها روحانية، وكونهم يرزقون لا ينافي ذلك، فقد روي عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الشهداء أحياء عند الله عَزَّوَجَلَّ تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الرَّوْحُ (١) والفرح، كما تعرض النار على أرواح آل فرعون غدوًّا وعشيًا، فيصل إليهم الوجع (٢)، فوصول هذا الرَّوْح إلى الروح هو الرزق والامتياز ليس بمجرد الحياة، بل مع ما ينضم إليها من اختصاصهم بمزيد القرب من الله عز شأنه، ومزيد البهجة والكرامة.

وذهب البلخي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى نفي الحياة بالفعل عنهم مطلقًا -وأخرج الجملة الاسمية الدالة على الاستمرار المستوعب للأزمنة من وقت القتل إلى ما لا آخر له عن ظاهرها- وقال: معنى: ﴿بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾ إنهم يحيون يوم القيامة، فيجزون أحسن الجزاء، فالآية على حدِّ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار:١٣-١٤].

---

(١) الروح -بفتح الراء-: الراحة والسرور، و(الروح) -بالفتح- من (الاستراحة)، وكذا: (الراحة). و(الروح) أيضًا و(الريحان): الرحمة والرزق. انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (روح) (١/٣٧٠-٣٧١)، مختار الصحاح، (ص:١٣١)، جمهرة اللغة (١/٥٢٦)، تهذيب اللغة (٥/١٤٢).

(٢) انظر: الكشف والبيان (٢/٢٢)، تفسير البغوي (١/١٦٨)، الكشاف (١/٢٠٦)، تفسير البيضاوي (١/١١٤)، تفسير النسفي (١/١٤٤). ومما يستدل على ذلك: حديث: «الشهداء على بارق نهر بباب الجنة في قبة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا» وسيأتي.

وفائدة الإخبار بذلك: الرد على المشركين حيث قالوا: إن أصحاب محمد يقتلون أنفسهم، ويخرجون من الدنيا بلا فائدة، ويضيعون أعمارهم، فكأنه قيل: ليس الأمر كما زعمتم، بل يحيون ويخرجون.

وذهب بعضهم إلى إثبات الحياة الحكمية لهم بما نالوا من الذكر الجميل، والثناء الجليل"(١).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ١٥٤﴾ [البقرة:١٥٤]، أي: "كيف حالهم في حياتهم"(٢). قال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا تنبيه على أن حياتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يحس به من الحيوانات، وإنما هي أمر لا يدرك بالعقل، بل بالوحي، وفيها دلالة على أن الأرواح: جواهر قائمة بنفسها، وأنها تبقى بعد الموت داركة، وعليه جمهور الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين، وبه نطقت الآيات والسنن، وعلى هذا فتخصيص الشهداء؛ لاختصاصهم بالقرب من الله عَزَّ وَجَلَّ، ومزيد البهجة والكرامة"(٣).

وكلام الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ فيما يظهر أعم من أن تكون حياتهم بالروح فحسب، ولا ريب أنها أمر لا يدرك بالعقل، بل بالوحي، ولا وجه لنفي الحياة بالفعل عنهم مطلقًا، كما ذهب إليه البلخي رَحِمَهُ اللَّهُ، ولكن الله عَزَّ وَجَلَّ قد خصهم تختلف عن حياة غيرهم، حيث تعرض أرزاقهم على أرواحهم فيصل إليهم الرَّوْحُ والفرح -كما تقدم-.

(١) روح المعاني (١/٤١٨).

(٢) الكشاف (١/٢٠٦).

(٣) تفسير البيضاوي (١/١١٤).

والقول بأن المراد: إثبات الحياة الحكمية لهم، دون غيرها، وذلك بما نالوا من الذكر الجميل، والثناء الجليل، فقد أبعد النُّجْعة، وهو مما لا يتسق مع ظاهر النص ومفهومه، وكذلك مع غيره من النصوص الدالة على إكرام الله عَزَّوَجَلَّ للشهيد وحياته الخاصة في البرزخ، واختصاصه بالرزق، ومزيد من البهجة والكرامة، والحياة الحكمية قد شاركهم فيها غيرهم ممن ترك أثرًا طيبًا، وكلما ارتفع في ميزان الإنسانية وما قدم كان حياته الحكمية أطول.

والحاصل أن الشهداء أحياء عند ربهم جَلَّوَعَلَا، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ في القرآن الكريم -كما تقدم-، وكما سيأتي في الحديث.

أما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤﴾ [الانفطار:١٣-١٤]، فهو لما يكتبون لأجله، فالجملة مستأنفة مسوقة للإجابة عن سؤال مقدَّر، تقديره: لم يكتبون ذلك، فكأنه قيل: ليجازي الأبرار بالنعيم، والفجار بالجحيم.

أما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦﴾ [الانفطار:١٦] فهو كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة:٣٧] -كما ذكر الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ-.

وقيل: يجوز أن يراد: يصلون النار يوم الدين وما يغيبون عنها قبل ذلك، يعني: في قبورهم.. [(١)].

وعلى هذا القول فإن قوله: (يعني: في قبورهم)، "الواو: للعطف، فيقتضي المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، أي: إنهم الآن ليسوا بغائبين عن الجحيم، كما قال

---

(١) انظر: الكشاف (٤/٧١٧).

عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر:٤٦]. ذكره العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (حاشيته على الكشاف)[1].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وذكر عذاب القيامة والبرزخ معًا في غير موضع: ذكره في قصة آل فرعون فقال: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر:٤٥-٤٦]، وقال في قصة قوم نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٥﴾ [نوح:٢٥]، مع إخبار نوح عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لهم بالقيامة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨﴾ [نوح:١٧-١٨].

وقد ذكرنا في غير موضع: أن الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ قبل محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أنذروا بالقيامة الكبرى؛ تكذيبًا لمن نفى ذلك من المتفلسفة، وقال عن المنافقين: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١﴾ [التوبة:١٠١]، قال غير واحد من العلماء: المرة الأولى في الدنيا، والثانية في البرزخ، ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١﴾ في الآخرة[2].

---

(١) حاشية الطيبي على الكشاف (١٦/٣٣٠-٣٣١).

(٢) وقد استدل بالآية الإمام البخاري في (صحيحه) على عذاب البرزخ، باب ما جاء في عذاب القبر. انظر: صحيح البخاري (٢/٩٧). قال ابن بطال: "واختلف أهل التأويل في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ [التوبة:١٠١]، قال الحسن، وابن جريج: عذاب الدنيا وعذاب القبر، وقال مجاهد: القتل والسباء" شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣/٣٦٣)، وانظر: التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن (١٠/١٥١)، وقال الكرماني: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَّرَّتَيۡنِ﴾ هما: القتل في الدنيا، وعذاب القبر في الآخرة، والدليل عليه: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١﴾ وهو عذاب النار.

وقد ثبت في (الصحيحين) من غير وجه: «**أن النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لما أتى المشركين يوم بدر في القليب ناداهم: يا فلان يا فلان هل وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فقد وجدت ما وعدني ربي حقًّا**»(١). وهذا دليل على وجودهم، وسماعهم، وأنهم وجدوا ما وعدوه بعد الموت من العذاب، وأما نفس قتلهم فقد علمه الأحياء منهم..."، إلى غير ذلك من الآيات التي ذكرها، وبعضها محل نظر من حيث عدم القطع بما ذكر من التأويل، واحتمالها لغيره، مما ينظر في مظانه، ثم ذكر عقب ذلك جملة من الأحاديث ذات الصلة(٢).

وذكر أبو عبد الله القرطبي وابن القيم رَحِمَهُمَا اللَّهُ: أن مما يستدل به على العذاب في البرزخ: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤]، قالا: فسرها غير واحد من السلف: بعذاب القبر، وجعلوا هذه الآية من الأدلة على عذاب القبر؛ ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه:١٢٤-١٢٦]، أي: تترك في العذاب كما تركت العمل بآياتنا، فذكر عذاب البرزخ، وعذاب دار البوار.

ومن ذلك: ما قيل في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور:٤٧] بأن المراد منه: عذاب القبر؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ ذكره عقب قوله: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ

(١) انظر: صحيح البخاري [١٣٧٠، ٣٩٧٦، ٣٩٨٠، ٤٠٢٦]، مسلم [٢٨٧٣، ٢٨٧٤].
(٢) انظر: مجموع الفتاوى (٤/٢٦٦-٢٧٠).

يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الطور:٤٥]، وهذا اليوم هو اليوم الآخر من أيام الدنيا، فدل على أن العذاب الذي هم فيه هو عذاب القبر، وكذلك قال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الطور:٤٧]؛ لأنه غيب [(١)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور:٤٧] يحتمل أن يراد به: عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به: عذابهم في البرزخ، وهو أظهر؛ لأن كثيرًا منهم مات ولم يعذب في الدنيا. وقد يقال: وهو أظهر أن من مات منهم عذب في البرزخ، ومن بقي منهم عذب في الدنيا بالقتل وغيره، فهو وعيد بعذابهم في الدنيا، وفي البرزخ"[(٢)].

ومما استدل به على عذاب البرزخ: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأنعام:٩٣].

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "باب ما جاء في عذاب القبر، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣]، قال أبو عبد الله: الهون: هو الهوان، والهَوْنُ: الرِّفْق"[(٣)]، أي:

---

(١) انظر: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، لأبي عبد الله القرطبي (ص:٣٨٨-٣٨٩)، مفتاح دار السعادة، لابن القيم (١/٤٣-٤٤).

(٢) الروح، لابن القيم (ص:٧٥).

(٣) صحيح البخاري (٢/٩٧).

الهَوْنُ -بفتح الهاء- معناه: الرفق، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣]، أي: برفق وسكينة.

وقال جار الله الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾: خلصوها من أيدينا، أي: لا تقدرون على الخلاص. ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾ يجوز أن يريدوا: وقت الإماتة، وما يعذبون به من شدة النزع، وأن يريدوا الوقت الممتد المتطاول (١) الذي يلحقهم فيه العذاب في البرزخ والقيامة. والهون والهوان: الشديد، وإضافة (العذاب) إليه كقولك: رجل سوء (٢)، يريد: العراقة في الهوان، والتمكن فيه. ﴿وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾: فلا تؤمنون بها"(٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام:٩٣]: "هذا خطاب لهم عند الموت، وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون: أنهم حينئذ يجزون

(١) أي: "من الإماتة إلى ما لا نهاية له" كما ذكر القاضي البيضاوي (٢/ ١٧٣)؛ إذ مبدأ عذابهم وقت الإماتة، ثم يعذبون في البرزخ، وفي القيامة. انظر: حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي (١٩٧/٨).

(٢) "أي: عذابًا شديدًا، فأضيف؛ ليدل على أن العذاب ملك له؛ لأن نسبة الإضافة ألصق من نسبة الصفة بالموصوف. ومن ثم قال: "يريد العراقة في الهوان": أي: الأصالة. وفي (الأساس): فلان معرق في الكرم أو اللؤم، وهو عريق فيه، واعترقت الشجرة، واستعرقت: ضربت بعروقها" حاشية الطيبي على الكشاف (١٦٧/٦)، أساس البلاغة، مادة: (عرق) (٦٤٧/١).

(٣) الكشاف (٤٦/٢-٤٧).

عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾"(١).

ومن ذلك: ما جاء في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ﴾ [إبراهيم:٢٧]، فقد روى البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إذا أُقْعِدَ المُؤْمِنُ في قَبْرِهِ أُتِيَ، ثُمَّ شَهِدَ أن لا إله إلا الله وأن محمَّدا رسول الله، فذلك قوله:** ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾» قال أبو عبد الله: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة بهذا، وزاد: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ نزلت في عذاب القبر(٢).

ومن ذلك: ما قيل في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة:٢١].

قيل: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾: عذاب الدنيا من القتل والأسر، وما محنوا به من القحط والجدب.

وعن مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾: عذاب القبر. و﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾: عذاب الآخرة، أي: نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة(٣).

---

(١) الروح، لابن القيم (ص:٧٥).

(٢) صحيح البخاري [١٣٦٩]، واللفظ له، مسلم [٢٨٧١].

(٣) انظر ما قيل في تفسير الآية في: تفسير يحيى بن سلام (٢/٦٩٢-٦٩٣)، تفسير الطبري (٢٠/١٩١)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٩/٣١١٠)، الكشاف (٣/٥١٣)، الدر المنثور (٦/٥٥٤-٥٥٥)، الزهد، لهناد [٣٤٥]، وأورد الماوردي في (النكت والعيون) (٤/٣٦٥) ثمانية أقوال في تفسير:=

ومن ذلك: ما قيل في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [التكاثر:١-٤]، والمعنى: سوف تعلمون عاقبة تكاثركم وتفاخركم إذا نزل بكم الموت. وقيل: العلم الأول: يقع عند نزول الموت. والثاني: عند نزول القبر.

وقد رُوِيَ عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه فسَّرَ قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ أي: ما ينزل فيكم من العذاب في القبر. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ أي: في الآخرة إذا حل بكم العذاب فالأول: في القبر، والثاني: في الآخرة، فالتكرير للحالتين.

كما رُوِيَ عن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت هذه السورة: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣﴾ [التكاثر:١-٣]، يعني: في القبور [(١)].

=﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾، وأورد ابن الجوزي في (زاد المسير) (٤٤٢/٣) ستة أقوال. قال: وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾: "أي: قَبْل العذاب الأكبر وفيه قولان: أحدهما: أنه عذاب يوم القيامة، قاله ابن مسعود. والثاني: أنه القتل ببدر. قاله مقاتل". وقال الحافظ ابن كثير: "قال ابن عباس: يعني بالعذاب الأدنى: مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها، وما يحل بأهلها مما يبتلي الله عَزَّوَجَلَّ به عباده؛ ليتوبوا إليه. وروي مثله عن أبي بن كعب، وأبي العالية، والحسن، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وعلقمة، وعطية، ومجاهد، وقتادة، وعبد الكريم الجزري، وخصيف. وقال ابن عباس -في رواية عنه-: يعني به: إقامة الحدود عليهم. وقال البراء بن عازب، ومجاهد، وأبو عبيدة: يعني به: عذاب القبر" تفسير ابن كثير (٣٦٩/٦-٣٧٠)، وقيل غير ذلك.

(١) انظر: التذكرة، لأبي عبد الله القرطبي (ص:٣٨٨) أخرجه الترمذي [٣٣٥٥]، بإسناد فيه ضعف. وقال: "حديث غريب"، كما أخرجه ابن أبي عاصم في (السنة)، وقال: "ورَوَى في عذاب القبر: زيد بن=

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤﴾ [التكاثر:٣-٤] قيل: تأكيد لحصول العلم، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [النبأ:٤-٥] وقيل: ليس تأكيدًا، بل العلم الأول عند: المعاينة ونزول الموت. والعلم الثاني: في القبر، هذا قول الحسن، ومقاتل، ورواه عطاء: عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا. ثم ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يدل على صحة هذا القول من عدة أوجه"(١).

والأحاديث في إثباتِ عذابِ البرزخ كثيرة، وقد تقدم ذكر بعضها، ومن هذه الأحاديث: ما جاء في (الصحيح): عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا -زوج النبي- صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن يهودية جاءت تسألها، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا

=ثابت، وأبو أيوب، وعليٌّ، وأبو هريرة، وأنس، وعثمان بن أبي العاص، وأبو بكر، وابن عباس، وعائشة، وأسماء، وأم خالد، وأبو رافع، وجابر. كل هؤلاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال أبو بكر: وصحَّت الأخبار عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في استعاذته من عذاب القبر وتَعَوُّذِه منه، وثبت عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن أمته ستبتلى في قبورها، وهي أخبار ثابتة توجب العلم، وتنفي الريب والشك. والله عَزَّ وَجَلَّ نسأل أن يعيذنا من عذاب في قبورنا، وأن يجعلها علينا رياضًا خضراء تنور لنا فيها" اهـ. كما أخرجه ابن جرير الطبري في (التفسير) (٥٨٠/٢٤)، وأخرجه أيضًا: الطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٥١٧٧]، وقال: "سمعت محمد بن عبد الرحمن الهروي يقول: قال أحمد بن حنبل: ما حدث الفريابي بحديث أحسن من هذا الحديث، يعني: حديث قيس هذا، قال أبو جعفر: فكان هذا الحديث فيه إثبات عذاب القبر، وقد رويت عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آثار باستعاذته منه متواترة.. اهـ"، ثم أورد جملة من هذه الآثار. وأخرجه أيضًا: ابن أبي حاتم في (التفسير) [١٩٤٥٤]، وأخرجه كذلك: البيهقي في (شعب الإيمان) [٣٩٥]، وفي (إثبات عذاب القبر وسؤال الملكين) [٢٢٤].

(١) انظر: عدة الصابرين (ص:١٨٧-١٨٨)، وانظر: تفسير القرطبي (١٧٢/٢٠)، السراج المنير (٥٨٢/٤).

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أيعذب الناس في قبورهم؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَائِذًا بالله من ذلك**».

ثم ركب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات غداة مركبًا، فَخَسَفَتِ الشمس، فرجع ضحى، فمرَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بين ظَهْرَانَي الحُجَر[1]، ثم قام يصلي وقام الناس وراءه، فقام قيامًا طويلًا، ثم ركع ركوعًا طويلًا، ثم رفع فقام قيامًا طويلًا، وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعًا طويلًا، وهو دون الركوع الأول، ثم رفع، فسجد، ثم قام فقام قيامًا طويلًا، وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعًا طويلًا، وهو دون الركوع الأول، ثم قام قيامًا طويلًا وهو دون القيام الأول، ثم ركع ركوعًا طويلًا، وهو دون الركوع الأول، ثم رفع، فسجد وانصرف، فقال: ما شاء الله أن يقول، ثم «**أمرهم أن يتعوذوا من عذاب القبر**»[2].

وفي رواية: عن مسروق، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن يهودية دخلت عليها، فذكرت عذاب القبر، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عذاب القبر، فقال: «**نعم، عذاب القبر**»، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فما رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد صلى صلاة إلا تَعَوَّذَ من عذاب القبر. زاد غُنْدَرٌ: «**عذاب القبر حَقٌّ**» [3].

---

(١) (بين ظهراني الحجر) أي: بينها، وهي بيوت أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وفي رواية مسلم: قالت عائشة: فخرجْتُ في نِسْوَةٍ بين ظَهْرَي الْحُجَرِ في المسجد.." الحديث.

(٢) صحيح البخاري [١٠٤٩، ١٠٥٠، ١٠٥٥، ١٠٥٦]، واللفظ له، مسلم [٩٠٣].

(٣) صحيح البخاري [١٣٧٢].

وعن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، تقول: «**قام رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **خطيبًا، فذكر فتنة القبر التي يفتتن فيها المرء، فلما ذكر ذلك ضَجَّ المسلمون ضَجَّةً**»(١).

زاد النسائي رَحِمَهُ اللَّهُ من قول أسماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ضَجَّ المسلمون ضَجَّةً حالت بيني وبين أن أفهم كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلما سكنت ضجتهم قلت لرجل قريب مني: أي بارك الله لك، ماذا قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في آخر قوله؟ قال: «**قد أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّكُمْ تفتنون في القبور قريبًا من فتنة الدجال**»(٢).

وكذلك سماعُ الموتى قرعَ نعالِ دافنيهم، وكلامُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل القَلِيب -كما تقدم-، وسؤال الملكين، وإقعادهما للميت، وجوابه لهما.

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **فأما المؤمن، فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، فيراهما جميعًا**»، -قال قتادة رَحِمَهُ اللَّهُ: وذكر لنا: أنه يفسح له في قبره، ثم رجع إلى حديث أنس- قال: «**وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟**

---

(١) صحيح البخاري [١٣٧٣].

(٢) سنن النسائي [٢٠٦٢]، السنن الكبرى [٢٢٠٠]، وكذا في (مستخرج أبي عوانة) [٣٩٧]، والمخلصيات [١٨٢٢] (٢٤٦)، وفي (إثبات عذاب القبر) للبيهقي [١٠٢].

فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ويضرب بمطارق من حديد ضربة، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين» (١).

ومن الأحاديث التي نصَّتْ على عذاب البرزخ: ما جاء في (الصحيح): عن أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد وجبت الشمس، فسمع صوتًا، فقال: «**يَهُودُ تُعَذَّبُ فِي قُبُورِهَا**» وقال النضر: أخبرنا شعبة، حدثنا عون، سمعت أبي، سمعت البراء، عن أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٢).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: دخلت عَلَيَّ عَجُوزَانِ من عُجُزِ يهود المدينة، فقالتا لي: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، فكذبتهما، ولم أنعم أن أصدقهما، فخرجتا، ودخل علي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقلت له: يا رسول الله، إن عجوزين، وذكرت له، فقال: «**صدقتا، إنهم يعذَّبون عذابًا تسمعه البهائم كلها**»، فما رأيته بعد في صلاة إلا تعوَّذ من عذاب القبر (٣).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يدعو في الصلاة: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة**

---

(١) صحيح البخاري [١٣٣٨، ١٣٧٤]، مسلم [٢٨٧٠].

(٢) صحيح البخاري [١٣٧٥]، مسلم [٢٨٦٩]. و(وجبت الشمس)، أي: غربت. وفي رواية مسلم: «بعد ما غربت الشمس».

(٣) صحيح البخاري [٦٣٦٦]، مسلم [٥٨٦].

المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا، وفتنة الممات، اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم» (١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو ويقول: «**اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن عذاب النار، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال**» (٢).

وكان سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُعَلِّمُ بَنِيهِ هؤلاء الكلمات كما يُعَلِّمُ المعَلِّمُ الغلمان الكتابة، ويقول: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَتَعَوَّذُ مِنْهُنَّ دُبُرَ الصلاة: «**اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك أن أُرَدَّ إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر**» (٣).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ**

---

(١) صحيح البخاري [٨٣٢]، مسلم [٥٨٩]. و«المأثم» معناه: من الإثم والغرم، وهو الدين، أي: من الأمر الذي يوجب الإثم، فالمأثم ما يسبب الإثم، ويترتب عليه العقاب، و«المغرم» هو الدين. وقيل: الدين الذي لا يجد وفاءه. وقيل المراد الاستعاذة ممن جعل الاستدانة دأبه وعادته.

(٢) صحيح البخاري [١٣٧٧]، مسلم [٥٨٨]. وفي رواية عند مسلم: «إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال». وفي رواية عند مسلم: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وعذاب النار، وفتنة المحيا والممات، وشر المسيح الدجال».

(٣) صحيح البخاري [٢٨٢٢، ٦٣٦٥، ٦٣٧٠].

بك من عذاب القبر» (1). وفي لفظ: «**أعوذ بك من البخل والكسل، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات»** (2).

وفي (صحيح مسلم): عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال أبو سعيد: ولم أشهده من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولكن حدثنيه زيد بن ثابت، قال: بينما النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حائط لبني النجار، على بغلة له ونحن معه، إذ حادت به فكادت تلقيه، وإذا أقبر ستة أو خمسة أو أربعة -قال: كذا كان يقول الجريري- فقال: «**من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟**»، فقال رجل: أنا، قال: «**فمتى مات هؤلاء؟**»، قال: ماتوا في الإشراك، فقال: «**إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا، لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه**»، ثم أقبل علينا بوجهه، فقال: «**تعوذوا بالله من عذاب النار**»، قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار، فقال: «**تعوذوا بالله من عذاب القبر**»، قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر، قال: «**تعوذوا بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن**»، قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، قال: «**تعوذوا بالله من فتنة الدجال**»، قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال (3).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**لولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر»** (4).

(1) صحيح البخاري [٢٨٢٣، ٦٣٦٧]، مسلم [٢٧٠٦].
(2) صحيح البخاري [٤٧٠٧]، مسلم [٢٧٠٦].
(3) صحيح مسلم [٢٨٦٧].
(4) صحيح مسلم [٢٨٦٨].

وعن عوف بن مالك، يقول: صلَّى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على جنازة، فحفظت من دعائه، وهو يقول: «**اللهم، اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مدخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلًا خيرًا من أهله، وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر -أو من عذاب النار-**»، قال عوف: «**فتمنيت أن لو كنت أنا الميت، لدعاء رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **على ذلك الميت**»[(١)].

والأحاديث في الاستعاذة من عذاب القبر كثيرة.

وبما تقدم يتبين أن للناس في قبورهم حياةً أخرى لها خصوصياتُها، وتعلُّقُ الروحِ بالبدن فيها تعلقٌ خاصٌّ. والناس في تلك الحياة ينالهم من العذابِ أو النعيم على حسب أعمالهم في الدنيا، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ۞﴾ [الزلزلة:٧-٨]. كما أن ذلك العالم البرزخي من عالم الغيب الذي لا يستقل العقل بإدراكه، وينال العذاب أو النعيم الروح والجسد على قول الأكثر، وقيل: إن ذلك من قبيل العرض -كما تقدم-.

وقد ظن الملاحدة: أن الموت نهاية رحلة الإنسان في هذه الحياة، فلا حياة بعده ولا بعث، وهذا دأب الملحدين في كل زمان، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عنهم: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ۞﴾ [الأنعام:٢٩].

---

(١) صحيح مسلم [٩٦٣].

والحقيقة التي غابت عنهم بسبب إلحادهم، والتي عرفها المسلمون من كتاب ربهم جَلَّ وَعَلَا، وسنة نبيهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهذه النهاية: أنها انتقال من حياة إلى حياة، انتقال من دار الدنيا إلى دار البرزخ، من دار الزرع إلى دار الحصاد، من دار الفناء إلى دار البقاء، من دار التكليف، إلى دار الثواب والعقاب.

فنهاية الإنسان ليست العدم المحض، بل انتقال من دار الدنيا إلى دار البرزخ، كما أخبر الحق في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، أي: مهلة يمكثون بها، إلى أن ينتقلوا إلى الدار الآخرة.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان عاقبة الغافلين عن ذكره: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه:١٢٤-١٢٦].

قال أبو القاسم القشيري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الكافر إذا أعرض عن ذكره بالكلية فله المعيشة الضنك في الدنيا، وفي القبر، وفي النَّار، وبالقلب من حيث وحشة الكفر، وبالوقت من حيث انغلاق الأمور.

ويقال: من أعرض عن الانخراط في قضايا الوفاق انثالت (١) عليه فنون الخذلان، ومن أعرض عن استدامة ذكره سبحانه بالقلب توالت عليه من تفرقة القلب ما يسلب عنه كلّ روح.

---

(١) أي: انصبت، يقال: انْثال عليه التراب، أي: انصبَّ. وانْثالَ عليه الناس من كلِّ وجه، أي: انصبُّوا. انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (ثول) (١٦٤٩/٤).

ومن أعرض عن الاستئناس بذكره انفتحت عليه وساوس الشَّيطان وهواجس النَّفس بما يوجب له وحشة الضمير، وانسداد أبواب الراحة والبسط. ويقال: من أعرض عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فى الخلوة قيَّض الله عَزَّوَجَلَّ له فى الظَّاهر من القرين السوء ما توجب رؤيته له قبض القلوب، واستيلاء الوحشة"[١].

فعذاب القبر ونعيمه لا يفوت تلك الأجزاء التي صارت رمادًا، حتى لو علق الميت على رؤوس الأشجار في مهابِّ الريح لأصاب جَسَدَه وروحَه من عذاب القبر أو نعيمه حَظُّه ونصيبُه. ولَو دفن الرجل الصَّالح فِي أتونٍ من النَّار لأصاب جسدَه من نعيم البرزخ وروحَه نصِيبُه وحظُّه، فَيجْعَل الله عَزَّوَجَلَّ النَّار على هذا بردًا وَسلَامًا، والهواء على ذلك نارًا وسمومًا. فعناصرُ الْعَالم وموادُّه منقادةٌ لِرَبِّهَا وفاطِرِها وخالِقِها يصرِّفُهَا كيف يشاء، ولا يستعصي عليه منها شيء أرادَهُ، بل هي طُوعُ مشيئته، مذللةٌ منقادةٌ لقدرته، ومن أنكرَ هذا فقد جَحَدَ ربَّ الْعَالمين، وكفر به، وأنكر ربوبيته.

وقد وردت أحاديثُ كثيرة تدلُّ على أنَّ الناس في حياة البرزخ يكونون في نعيم أو عذاب على حسب الأعمال التي قدموها، فمن ذلك: ما جاء في (الصحيح): عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: مر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بحائط من حيطان المدينة، أو مكة، فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما، فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يعذبان، وما يعذبان في كبير**»، ثم قال: «**بلى، كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة**»، ثم دعا بجريدة، فكسرها كسرتين، فوضع على كل قبر منهما كسرة، فقيل

(١) لطائف الإشارات (٢/٤٨٦).

له: يا رسول الله، لم فعلت هذا؟ قال: «**لعله أن يخفف عنهما ما لم تيبسا**»، أو: «**إلى أن ييبسا**» (١).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وما يعذبان في كبير**» قد ذكر العلماء فيه تأويلين:

أحدهما: أنه ليس بكبير في زعمهما وفي اعتقادهما أو في اعتقاد المخاطبين، وهو عندَ الله كبيرٌ، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ١٥﴾ [النور: ١٥].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "كثيرٌ من الناس يتسامحون في أمور يظنونها قريبة، كإطلاق البصر؛ هوانًا بتلك الخطيئة، وكفتوى من لا يعلم؛ لئلَّا يقال: هو جاهل، ونحو ذلك مما يظنه صغيرًا، وهو عظيم"(٢).

والثاني: أنه ليس بكبير تركه عليهما، أي: كان لا يَشُقُّ عليهما الاحترازُ من ذلك.

وحكى القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ **تأويلًا ثالثًا**، أي: ليس بأكبر الكبائر -وإن كان كبيرًا-. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فعلى هذا يكون المراد بهذا: الزجر والتحذير لغيرهما، أي: لا يتوهم أحد أن التعذيب لا يكون إلا في أكبر الكبائر الموبقات؛ فإنه يكون في غيرها -والله أعلم-.

---

(١) صحيح البخاري [٢١٦، ٢١٨، ١٣٦١، ٦٠٥٢، ٦٠٥٥]، مسلم [٢٩٢].

(٢) صيد الخاطر (ص: ١٤٩).

وسبب كونهما كبيرين: أن عدم التنزه من البول يلزم منه: بطلان الصلاة، فتركه كبيرة بلا شك، والمشي بالنميمة والسعي بالفساد من أقبح القبائح، لا سيما مع قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كان يمشي**» بلفظ كان التي للحالة المستمرة غالبًا -والله أعلم-.

وقوله: «**لا يستتر**» روى ثلاث روايات: «**يستتر**»، و«**يستنزه**»، و«**يستبرئ**»، وكلها صحيحة، ومعناها: لا يتجنبه ويتحرز منه"(١).

ومن الأسباب الموجبة لعذاب البرزخ: ما جاء في (الصحيح) (٢): من حديث: سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما يكثر أن يقول لأصحابه: «**هل رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ من رُؤْيَا؟**» قال: فَيَقُصُّ عليه من شاء الله أن يَقُصَّ، وإِنَّهُ قال ذاتَ غَدَاةٍ: «**إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَان، وإِنَّهُمَا ابْتَعَثَانِي**»، أي: أتاه ملكان في المنام وأيقظاه، وهذا نوع من الوحي؛ لأن رؤيا الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وحي كما هو معلوم. ثم ذكر ما رأى في تلك الرؤيا في حديث طويل.

فمن ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وإنهما قالا لي انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع، وإذا آخر قائم عليه بصخرة، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه، فَيَثْلَغُ رأسَه**» أي: يشدخه ويكسره.

«**فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ ها هُنَا**» أي: يتدحرج.

«**فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأْخُذُهُ، فلا يَرْجِعُ إليه حتَّى يَصِحَّ**» أي: يصبح.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٣/٢٠١)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٢/١١٨).

(٢) صحيح البخاري [٧٠٤٧].

«**رأْسُهُ كما كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عليه فَيَفْعَلُ به مِثْلَ ما فَعَلَ المرَّةَ الأولى**».

وجاء في تمام الحديث بيان حال هذا الرجل، وهو الذي «**يَأْخُذُ القُرْآنَ فَيَرْفُضُهُ، وينامُ عن الصَّلاةِ المكتوبة**».

قال ابن هُبَيْرَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "رفض القرآن بعد حفظه جناية عظيمة؛ لأنه يوهم أنه رأى فيه ما يوجب رفضه، فلما رفض أشرف الأشياء، وهو القرآن عوقب في أشرف أعضائه، وهو الرأس" (١).

وفي قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وينامُ عن الصَّلاةِ المكتوبة**» ما يوجب الحذر من ترك الصلاة، أو تأخيرها عن وقتها دائمًا أو غالبًا.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون:٤-٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿سَاهُونَ ۝٥﴾ عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائمًا أو غالبًا، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل هذا كله" (٢).

---

(١) فتح الباري، لابن حجر (٤٤٤/١٢)، وانظر: دليل الفالحين (٣٨١/٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٦٨١/٢).

وقد جاء عن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنهما قالا: الحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥﴾، ولم يقل: (في صلاتهم)[1]. وقد تقدم بيان ذلك في (الصلاة).

ومما جاء في حديث المنام: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**فانطلقنا، فأتينا على نهر** -حسبت أنه كان يقول:- **أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جَمَعَ عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة، فَيَفْغَرُ له فاه**[2] **فيلقمه حجرًا فينطلق يسبح، ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فَغَرَ له فاه فألقمه حجرًا**». وجاء في تمام الحديث بيان حال هذا الرجل الذي يسبح في نهر الدم ويلقم الحجارة بأنه: آكل الربا.

قال ابن هُبَيْرَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنما عوقب آكل الربا بسباحته في النهر الأحمر وإلقامه الحجر؛ لأن أصل الربا يجري في الذهب، وهو أحمر. وأما إلقام الملك له الحجر فإنه إشارة إلى أنه لا يغني عنه شيئًا، وكذلك الربا، فإن صاحبه يتخيل أن ماله يزداد، والله عَزَّ وَجَلَّ من ورائه يمحقه"[3].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٦٣٣/٢٤)، الكشف والبيان (٣٠٥/١٠)، تفسير ابن كثير (٤٦٨/٨)، الدر المنثور (٦٤٣/٨)، الإتقان في علوم القرآن (١٦٧/٢).

(٢) أي: يفتح له فمه.

(٣) فتح الباري (٤٤٥/١٢)، وانظر: دليل الفالحين (٣٨١/٨).

ولئن كان هذا العذاب لآكل الربا في البرزخ فهو مستمرٌ معه حتى بعد أن يقومَ من قبره يوم البعثِ من القبور. فقد وصفَ الله عَزَّوَجَلَّ الذين يتعاملون بالربا، ويمتصون دماء الناس بأنهم لا يقومون من قبورهم يوم القيامة، ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥]، أي: إلا كما يقوم المصروع حال صرعه. قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما ألفاظ الآية فكانت تحتمل تشبيه حال القائم بحرص وجشع إلى تجارة الربا بقيام المجنون؛ لأن الطمع والرغبة تستفزه حتى تضطرب أعضاؤه، وهذا كما تقول لمسرع في مشيه، يَخْلِطُ في هيئة حركاته، إما من فزع أو غيره: قد جُنَّ هذا"(١).

وذلك أن الناس إذا قاموا من قبورهم يوم القيامة فإنهم يذهبون مسرعين إلى المحشر إلا آكلي الربا فإنهم يقومون ويسقطون؛ لأن الربا قد أثقل بطونهم، فعظمت وثقلت عليهم. ويقال: إنهم يبعثون يوم القيامة قد انتفخت بطونهم كالحبالى، وكلما قاموا سقطوا والناس يمشون عليهم. وقال بعض العلماء: إنما ذلك شعار لهم يعرفون به يوم القيامة، ثم العذاب من وراء ذلك(٢).

ومما جاء في حديث المنام: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فانطلقنا، فأتينا على مِثْل التَّنُّور، فإذا فيه لغط وأصوات**»، قال: «**فَاطَّلَعْنَا فيه، فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أَسْفَلَ منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضَوْا**» (٣)، أي: ضجوا

---

(١) المحرر الوجيز (٣٧٢/١).

(٢) انظر: تفسير أبي الليث السمرقندي (بحر العلوم) (١٨٢/١)، تفسير القرطبي (٣٥٤/٣).

(٣) صحيح البخاري [٧٠٤٧].

وصاحوا، وارتفعت أصواتهم متألمين. وفي رواية: «**فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور، أعلاه ضيق وأسفله واسع، يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كاد أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها**» (١).

وجاء في تمام الحديث بيان حال أولئك المعذبين أنهم الزناة من الرجال، والزواني من النساء. قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مناسبة العُرْي لهم؛ لاستحقاقهم أن يفضحوا؛ لأن عادتهم أن يستتروا في الخلوة، فعوقبوا بالهتك. والحكمة في إتيان العذاب من تحتهم: كون جنايتهم من أعضائهم السفلى"(٢).

وعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**بينا أنا نائم إذ أتاني رجلان فأخذا بِضَبْعَيَّ فأتيا بي جَبَلًا وَعْرًا، فقالا لي: اصْعَدْ حتى إذا كنتُ في سَوَاءِ الجَبَل، فإذا أنا بِصَوْتٍ شَدِيد، فقلتُ: ما هذه الأصواتُ؟ قال: هذا عُوَاءُ أهلِ النَّار، ثم انْطَلَقَ بي فإذا أنا بقوم مُعَلَّقِينَ بِعَرَاقِيبِهِمْ، مُشَقَّقَة أَشْدَاقُهُمْ، تَسِيلُ أَشْدَاقُهُمْ دَمًا، فقلتُ: من هؤلاء؟ فقيل: هؤلاء الذين يُفْطِرُونَ قَبْلَ تَحِلَّةِ صَوْمِهِمْ، ثم انْطَلَقَ بي، فإذا بِقَوْم أَشَدِّ شيءٍ انْتِفَاخًا، وأَنْتَنِهِ رِيحًا، وأَسْوَئِهِ مَنْظَرًا، فقلت: من هؤلاء؟ قِيلَ: الزَّانُونَ وَالزَّوَانِي، ثم انْطَلَقَ بي، فإذا بنسَاءٍ تَنْهَشُ ثَدْيَهُنَّ الْحَيَّاتُ، قلتُ: ما بال هؤلاء؟ قيل: هَؤُلَاءِ اللَّاتي يَمْنَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ أَلْبَانَهُنَّ، ثم انْطَلَقَ بي، فإذا أنا بِغِلْمَانٍ يَلْعَبُونَ بين نَهْرَيْن، فقلتُ: من هؤلاء؟ فقيل: هؤلاء ذَرَارِيُّ**

(١) صحيح البخاري [١٣٨٦].

(٢) فتح الباري (١٢/٤٤٥).

المؤمنين، ثم شَرَفَ بي شَرَفًا، فإذا أنا بثلاثةٍ يشربونَ من خَمْرٍ لهم، فقلتُ: من هؤلاء؟ قالوا: هذا إبراهيمُ، وموسى، وعيسى وهم ينتظرونكَ» (١).

ويمتد عذاب الزناة من الرجال والزواني من النساء بعد البرزخ، فينالهم العذاب في نار جنهم إذا لم تقع منهم التوبة النصوح، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَزۡنُونَۚ﴾، أي: لا يرتكبون جريمة الزنى. ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾، أي: ومن يقترف تلك الموبقات العظيمة من الشرك والقتل والزنى يجد في الآخرة النكال والعقوبة. ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، أي: يُضاعف عقابه ويُغلَّظ بسبب الشرك وبسبب المعاصي. ﴿وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾، أي: يُخلد في ذلك العذاب حقيرًا ذليلًا. ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾.

وذلك يوجب على كل مسلم الحذرَ غايةَ الحذرِ من هذا الذنب، وأن يحذرَ أسبابه وما يوصل إليه، كالخلوة المحرمة، أو تعاطي أسباب الفتنة، مثل: التبرج وإظهار مفاتن المرأة، والنظر إلى المحرمات، إلى غير ذلك من المحرضات على الفاحشة.

---

(١) أخرجه: ابن خزيمة [١٩٨٦]، والخرائطي في (اعتلال القلوب) [١٦٥]، وابن حبان [٧٤٩١]، والطبراني [٧٦٦٧]، والحاكم [٢٨٣٧]، وقال: "حديث صحيح على شرط مسلم" ووافقه الذهبي. كما أخرجه: البيهقي [٨٠٠٦].

وقد نهانا الله عَزَّوَجَلَّ عن الزنا وما يدعو إليه فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ۝٣٢﴾ [الإسراء:٣٢].

وإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ قد حذَّرنا من مقدمات الزنا فالتحذير من ارتكابه أولى وأشد؛ لأنه يفسد الأخلاق، ويهتك الأعراض، ويوقع البلايا والأمراض الخبيثة القاتلة.

ومما يدل كذلك على خطورة هذا الفعل المنكر: ما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظُّلَّة، فإذا خرج من ذلك العمل عاد إليه الإيمان**» (١).

وفي (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» (٢). وقد فصلت القول في ذلك في كتاب: (نهج الأبرار).

وجاء في (حديث المنام) الذي رواه: سَمُرَةُ بْنُ جُنْدُب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيان عاقبة الكذَّاب الذي تبلغ كذبته الآفاق، قال: «**فانطلقنا، فأتينا على رجل مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وإذا آخر قائم عليه بِكَلُّوبٍ من حديد** (٣)، **وإذا هو يأتي أحد شِقَّيْ وَجْهِه فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إلى قفاه، ومَنْخِرَه إلى قفاه، وعَيْنَه إلى قفاه، فَيَشُقُّ، ثم يَتَحَوَّلُ إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما**

---

(١) أخرجه أبو داود [٤٦٩٠]، والحاكم [٥٦]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٤٩٧٩].

(٢) صحيح البخاري [٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢، ٦٨١٠]، مسلم [٥٧].

(٣) حديدة معوجة الرأس.

من ذلك الجانب حتى يَصِحَّ ذلك الجانبُ كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى».

وجاء في تمامِ الحديث بيانُ حالِ ذلك الرَّجل بأنه الكذَّابُ الذي: «**يُحَدِّثُ بالكذْبَة**[١]، **فَتُحْمَلُ عنه حتى تَبْلُغَ الآفَاق**»[٢].

وذلك يوجب الحذر من هذه المعصية. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا تحذير من الكذب إلا أنه هنا بأمور الشريعة أخص"[٣]. وقد فصلت القول في ذلك في كتاب: (نهج الأبرار).

وقد شاهد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مرائي المعراج أناسًا يعذَّبون بسبب ذنوبٍ يخشى على من واقعها أن ينالَه من العذاب ما أصاب أولئك، فمن ذلك: الغيبة، ففي الحديث: وعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لما عرج بي**

---

(١) «بالكذبة» بكسر الكاف، ويقال بفتحها، وأنكر بعضهم الكسر إلا إذا أراد الحالة والهيئة. مشارق الأنوار على صحاح الآثار (١/٣٣٧). تقول: كَذَبَ كَذْبَة، كما تقول: رَكَعَ رَكْعَة. انظر: فتح الباري (٦/٣٩١)، مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٦٣٧)، فيض القدير (٥/١٠٦).

(٢) صحيح البخاري [١٣٨٦، ٦٠٩٦، ٧٠٤٧].

(٣)كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢/٣٨).

مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل، قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم» (١).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولما كان خمش الوجه والصدر من صفات النساء النائحات، جعلهما جزاء من يغتاب ويفري من أعراض المسلمين؛ إشعارًا بأنهما ليسا من صفات الرجال، بل هما من صفات النساء في أقبح حالة، وأشوه صورة"(٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأكل لحوم الناس يصدق على النميمة والغيبة"(٣).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ محذرًا من الغيبة، ومبينًا خطورتها وبشاعتها: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ﴾ [الحجرات:١٢].

وقد فصلت القول في ذلك في كتاب: (نهج الأبرار).

ومن مرائي المعراج: ما حدَّث به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما يصيب علماء السوء، وخطباء الفتنة، كما جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مررت ليلة أسرى بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار،**

---

(١) أخرجه أحمد [١٣٣٤٠]، وأبو داود [٤٨٧٨]، والخرائطي في (مساوئ الأخلاق) [١٨٧]، والطبراني في (الأوسط) [٨]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٢٩٠]، والضياء [٢٢٨٦]. قال العراقي (ص:١٠٣٣): "أخرجه أبو داود مسندًا ومرسلًا، والمسند أصح".

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣٢١٨/١٠).

(٣) فتح الباري (٤٧١/١٠).

قلت لجبريل: من هؤلاء؟ قال: خطباء من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون» [(١)].

وقد فصلت القول في ذلك في كتاب: (نهج الأبرار).

وما تقدم من أحوال أهل البرزخ هو من عالم الغيب الذي لا يستقل العقل بإدراكه، فلا سبيل إلى معرفة شيء من ذلك إلا عن طريق النقل.

وقد دلَّ النقل -كما تقدم- على أنَّ حياة النَّاس في دار البرزخ حياة خاصة، وفيها يفتنون، فينعمون أو يعذبون.

ولكن هل هو من قبيل العذاب الحقيقي الواقع على أولئك، أم أنه من قبيل العرض لما سيؤول إليه حالهم بعد المحاسبة، وحال من يقتفي أثرهم؟

يبقى أن تلك الذنوب التي ارتكبها أولئك الذين رآهم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعذبون يخشى على من وقع في ذنب منها أن يناله من العذاب ما أصاب أولئك، وذلك يوجب الحذر والتقوى، والعلم بالمنجيات، وأسباب الوقاية من تلك الذنوب.

---

(١) أخرجه الطيالسي [٢٠٦٠]، وابن أبي شيبة [٣٦٥٧٦]، وأحمد [١٢٢١١]، وعبد بن حميد [١٢٢٢]، والبزار [٧٢٣١]، وأبو يعلى [٣٩٩٢]، قال الهيثمي (٧/٢٧٦): "أحد أسانيد أبي يعلى رجاله رجال الصحيح". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٥٣]، والطبراني في (الأوسط) [٨٢٢٣]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢/٣٨٦)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٧]، والضياء [٢٦٤٦] وقال: "إسناده صحيح".

خامسًا: بشرى المؤمن بحسن العاقبة عند انتقاله إلى الدار الآخرة:

ومن أحب لقاء الله عَزَّوَجَلَّ، واستعد لذلك اليوم الذي يرحل فيه عن الحياة الدنيا، أحب الله عَزَّوَجَلَّ لقاءه، فجاءته البشائر عند خروجه من الدنيا بحسن العاقبة، كما جاء في الحديث: عن البراء بن عازب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولَمَّا يُلْحَدْ، فجلس رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وجلسنا حوله، وكأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود يَنْكُتُ به في الأرض، فرفع رأسه فقال: «**استعيذوا بالله من عذاب القبر**» -مرَّتين أو ثلاثًا-. ثم قال: «**إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحَنُوطٌ من حَنُوطِ الجنة، حتى يجلسوا منه مَدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت** عَلَيْهِٱلسَّلَامُ **حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان**»، قال: «**فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة في السِّقَاءِ، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحَنُوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض**»، قال: «**فيصعدون بها، فلا يمرون -يعني: بها- على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فيقولون: فلان بن فلان -بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا- حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله عز**

وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عِلِّيِّينَ، وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى» قال: «فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: ما عِلْمُكَ؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدَّقت، فينادي مناد من السماء: أن صَدَق عبدي فَأَفْرِشُوهُ من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة»، قال: «فيأتيه من رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، ويفسح له في قبره مدَّ بصره»، قال: «ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طَيِّبُ الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرُّك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت، فوجهك الوجه يجيء بالخير؟ فيقول: أنا عَمَلك الصالح، فيقول: ربِّ أقم الساعة، ربِّ أقم الساعة؛ حتى أرجع إلى أهلي ومالي»، قال: «وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل ملائكة سود الوجوه، معهم الْمُسُوحُ، فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سَخَط من الله وغضب»، قال: «فَتُفَرَّقُ في جسده، فَيَنْتَزِعُهَا كما يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ من الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك الْمُسُوحِ، ويخرج منها كأنتن جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرُّون بها على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الريح الخبيثة؟ فيقولون: فلان بن فلان -بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في

الدنيا– حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له». ثم قرأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠]، «**فيقول الله** عَزَّوَجَلَّ: **اكتبوا كتابه في سِجّينٍ في الأرض السفلى. ثم تطرح روحه طرحًا»**. ثم قرأ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج:٣١]، «**فيعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كَذَبَ، فَافْرِشُوا له من النار، وافتحوا له بابًا إلى النار، فيأتيه من حرِّها وسَمُومِها، ويُضَيَّقُ عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يَسُوءُكَ هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة»**(١).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت:٥].

---

(١) أخرجه أحمد [١٨٥٣٤] وغيره، قال الهيثمي (٣/٥٠): "هو في الصحيح وغيره باختصار، رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح".

ولما احتضر عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال اخرجوا عني فلا يبقى عندي أحد، قال: وكان عنده مسلمة بن عبد الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: فخرجوا، فقعد على الباب، هو وفاطمة رَحِمَهَا ٱللَّهُ، قال: فسمعوه يقول: مرحبًا بهذه الوجوه ليست بوجوه أنس ولا جان، ثم قال: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٨٣﴾ [القصص:٨٣]، قال: ثم هدأ الصوت، فقال مسلمة لفاطمة رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ قد قبض صاحبك، فدخلوا فوجدوه قد غُمِّضَ، وسُوِّيَ إلى الْقِبْلة، وقُبِض(١).

ومن كان يرجو لقاء الله عَزَّوَجَلَّ تمنى سرعة التخلص من الدار ذات الشوائب، والانتقال إلى جوار الله عَزَّوَجَلَّ، وجنته التي أعدها الله عَزَّوَجَلَّ لعباده الصالحين.

وهذا كان حال السلف عند الموت، كما روي عن حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه كان يتمنى الموت، فلما احتضر قال: حبيب جاء على فاقة(٢).

ونحوه عن معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(٣).

قال الإمام السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (حاشيته على البيضاوي): "قال الشيخ تاج الدين السبكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ –فيما قرأته بخطه– أراد بالحبيب: لقاء الله"(٤).

---

(١) تاريخ دمشق (٤٥/ ٢٥٥)، البداية والنهاية (٩/ ٢١٠)، سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٢)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (٣/ ١١٥)، الثبات عند الممات (ص: ١٥٠)، المجالس الوعظية (١/ ٣١٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٧٢٠٣]، والحاكم [٨٥٣٣] وصححه، ووافقه الذهبي. كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (١/ ٢٨٢)، وابن عساكر (١٢/ ٢٩٧).

(٣) أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (١/ ٢٣٩)، وانظر: جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (١/ ٢٢٦).

(٤) نواهد الأبكار وشوارد الأفكار (حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي) (٢/ ٢٨٤).

وقال عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في اليوم الذي مات فيه: «**اليوم نلقى الأحبة محمدًا وحزبه**» (١).

وفي الحديث: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**»، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أو بعض أزواجه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُنَّ: إنا لنكره الموت، قال: «**ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، كره لقاء الله وكره الله لقاءه**» (٢).

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قال الله** عَزَّ وَجَلَّ: **إذا أحب عبدي لقائي أحببت لقاءه، وإذا كره لقائي كرهت لقاءه**» (٣).

وقال العلماء: "إن محبة لقاء الله عَزَّ وَجَلَّ لا تدخل في النهي عن تمني الموت الوارد في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يتمنين أحد منكم الموت لضر نزل به، فإن كان لا بد متمنيًا للموت فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت**

---

(١) قال الهيثمي في (مجمع الزوائد): (٩/٢٩٦) "رواه الطبراني في (الأوسط)، وأحمد باختصار، ورجالهما رجال الصحيح، ورواه البزار بنحوه بإسناد ضعيف". كما أخرجه الحاكم [٥٦٦٨]، وقال: "صحيح على شرطهما، ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح البخاري [٦٥٠٧]، مسلم [٢٦٨٤].

(٣) صحيح البخاري [٧٥٠٤].

الوفاة خيرًا لي»[1]؛ لأن محبة لقاء الله عَزَّوَجَلَّ ممكنة مع عدم تمني الموت، كأن تكون المحبة حاصلة لا يفترق حاله فيها بحصول الموت، ولا بتأخره، وأن النهي محمول على حالة الحياة المستمرة، وأما عند الاحتضار والمعاينة فلا تدخل تحت النهي، بل هي مستحبة، ومثله إذا تمنى الموت لخوف فتنة في الدين، أو لتمني الشهادة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ[2]، أو لغرض أخروي آخر. وفيه أن في كراهة الموت في حال الصحة تفصيلًا فمن كرهه إيثارًا للحياة على ما بعد الموت من نعيم الآخرة كان مذمومًا، ومن كرهه خشية أن يفضي إلى المؤاخذة، كأن يكون مقصرًا في العمل لم يستعد له بالأهبة بأن يتخلص من التبعات ويقوم بأمر الله عَزَّوَجَلَّ كما يجب فهو معذور، لكن ينبغي لمن وجد ذلك أن يبادر إلى أخذ الأهبة حتى إذا حضره الموت لا يكرهه، بل يحبه لما يرجو بعده من لقاء الله عَزَّوَجَلَّ"[3].

وهذا كان حال السلف عند الموت، كما روي عن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه كان يتمنى الموت، فلما احتضر قال: حبيب جاء على فاقة[4].

---

(١) صحيح البخاري [٦٣٥١]، مسلم [٢٦٨٠].

(٢) قال ملا علي القاري: "وقد أفتى النووي: أنه لا يكره تمني الموت لخوف فتنة دينية، بل قال: إنه مندوب، ونقل عن الشافعي، وعمر بن عبد العزيز، وغيرهما. وكذا يندب تمني الشهادة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ" مرقاة المفاتيح (١١٥٧/٣).

(٣) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٣٦٠/١١)، إحياء علوم الدين (٣٣٠/٤)، مرقاة المفاتيح (١١٥٧/٣).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٧٢٠٣]، والحاكم [٨٥٣٣] وصححه، ووافقه الذهبي. كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٢٨٢/١)، وابن عساكر (٢٩٧/١٢).

ونحوه عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[1].

قال الإمام السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ في (حاشيته على البيضاوي): "قال الشيخ تاج الدين السبكي رَحِمَهُ اللَّهُ -فيما قرأته بخطه- أراد بالحبيب: لقاء الله"[2].

وقد قيل: إن الْمَوْت جسر يُوصل الحبيب إلى الحبيب [3].

"فأهل السعادة يحبون الموت ولقاء الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لينتقلوا إلى ما أعد لهم، ويحب الله عَزَّ وَجَلَّ لقاءهم، فيجزل لهم العطاء والكرامة، وأهل الشقاوة يكرهون لقاءه؛ لما علموا من سوء ما ينتقلون إليه، ويكره الله عَزَّ وَجَلَّ لقاءهم، أي: يبعدهم عن رحمته وكرامته، ولا يريد ذلك بهم، وهذا معنى كراهته جَلَّ وَعَلَا لقاءهم"[4].

ورُوِيَ عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول: «**ما من مؤمن إلا والموت خير له، وما من كافر إلا والموت خير له، ومن لم يصدقني فإن الله** عَزَّ وَجَلَّ **يقول:** ﴿وَمَا

(١) أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (١/٢٣٩)، وانظر: جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (١/٢٢٦).

(٢) حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي (٢/٢٨٤).

(٣) انظر: العاقبة في ذكر الموت، لعبد الحق بن عبد الأزدي، المعروف بابن الخراط (ص:٣٢)، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص:١١٦)، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٩/٢٩٥)، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص:٢٣).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٠/١٧).

عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٌ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾ [آل عمران: ١٩٨]، **ويقول:** ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٌ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ﴾ [آل عمران:١٧٨]» (١).

وفي الحديث: عن أبي قتادة بن ربعي الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان يحدث: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر عليه بجنازة، فقال: «**مستريح ومستراح منه**» قالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «**العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد، والشجر والدواب**» (٢).

وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا راحة للمؤمن إلا في لقاء الله جَلَّ وَعَلَا، ومن كانت راحته في لقاء الله عَزَّ وَجَلَّ فيوم الموت يوم سروره وفرحه، وأمنه، وعزه، وشرفه"(٣).

وقد أخبر الله عَزَّ وَجَلَّ عن حال المكذبين بلقائه جَلَّ وَعَلَا في آيات كثيرة، ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلۡ إِن كَانَتۡ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةٗ مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٤ وَلَن يَتَمَنَّوۡهُ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٩٥ وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ﴾ [البقرة:٩٤-٩٦].

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في (التفسير) [٥٤٧، ٥٤٧]، وابن جرير الطبري في (التفسير) (٧/٤٩٦). وانظر: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص:١١٥)، بشرى الكئيب بلقاء الحبيب، للسيوطي (ص:١٥)، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص:٢١).

(٢) صحيح البخاري [٦٥١٢، ٦٥١٣]، مسلم [٩٥٠].

(٣) إحياء علوم الدين (٤/٤٦٥).

كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن حالهم عند خروجهم من الدنيا فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأنعام: ٩٣-٩٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال: ٥٠-٥١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد: ٢٧-٢٨]. وقد تقدم ذكر ما جاء في تفسير الآيات.

وأخبر المولى جَلَّوَعَلَا عن حال عاقبة المكذبين بلقاءه في آيات كثيرة، فمن ذلك قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٥١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧﴾ [الأعراف:١٤٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨﴾ [يونس:٧-٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسۡتِعۡجَالَهُم بِٱلۡخَيۡرِ لَقُضِيَ إِلَيۡهِمۡ أَجَلُهُمۡۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١﴾ [يونس:١١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥﴾ [يونس:١٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ٢﴾ [الرعد:٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ٨﴾ [الروم:٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣ أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [فصلت:٥٣-٥٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون:٣٣-٣٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢١-٢٣].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم:١٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [السجدة:١٠].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [السجدة:١٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر:٧١-٧٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الجاثية:٣٤-٣٥].

سادسًا: حياة الشهداء في البرزخ:

جاء في الحديث بيان من يطلق عليه مسمى الشهيد حقيقة أو حكمًا:

فمن ذلك: حديث: أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضبًا، ويقاتل حَمِيَّةً، فرفع إليه رأسه، قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائما، فقال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله** عَزَّ وَجَلَّ»(١).

وفي لفظ: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال الرجل: يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل لِلذِّكْرِ، والرجل يقاتل لِيُرَى مكانه، فمن في سبيل الله؟ قال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله** عَزَّ وَجَلَّ» (٢).

وفي لفظ: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال الرجل: يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياء، فأي ذلك في سبيل الله؟ قال: «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله** عَزَّ وَجَلَّ» (٣).

(١) صحيح البخاري [١٢٣]، مسلم [١٩٠٤].
(٢) صحيح البخاري [٢٨١٠، ٣١٢٦]، مسلم [١٩٠٤].
(٣) صحيح البخاري [٧٤٥٨]، مسلم [١٩٠٤].

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من قُتِلَ دون ماله فهو شهيد**»(١).

وعن سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد**»(٢).

فمن الواجب: الدفاع عن النفس، والعرض، والمال، والوطن عند الاعتداء. وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ﴾ [البقرة:٢٤٦].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما تعدون الشهيد فيكم؟**» قالوا: يا رسول الله، من قتل في سبيل الله فهو شهيد، قال: «**إن شهداء أمتي إذا لقليل**»، قالوا: فمن هم يا رسول الله؟ قال: «**من قتل في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في سبيل الله فهو شهيد، ومن مات في الطاعون فهو شهيد،**

---

(١) صحيح البخاري [٢٤٨٠]، مسلم [١٤١].

(٢) أخرجه أحمد [١٦٥٢]، وعبد بن حميد [١٠٦]، وأبو داود [٤٧٧٢]، والترمذي [١٤٢١]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه النسائي [٤٠٩٥]، والبيهقي [٦٠٦٢]، والضياء [١٠٩٣]، وقال: "إسناده حسن".

ومن مات في البطن فهو شهيد»، قال ابن مقسم: أشهد على أبيك في هذا الحديث أنه قال: «**والغريق شهيد**»[(١)].

قال الإمام التُّورِبِشْتِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والشهيد في التعارف الشرعي: «**من قتل في سبيل الله** عَزَّوَجَلَّ»، وأما تسميته بذلك من حيث الاشتقاق اللفظي: فقد قيل: لأنه يشهد حينئذ الملائكة المبشرين بالفوز والكرامة، ويحتمل أنه سمي بذلك؛ لأنه يشاهد حينئذ ما أعد له من النعيم، أو لأنه يحضر عند ربه جَلَّوَعَلَا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الحديد:١٩]. وقد قيل: سمي شهيدًا؛ لأنه تبين مما بذله من نفسه في سبيل ربه جَلَّوَعَلَا استقامته على الإيمان، وإخلاصه في الطاعة.

والأصل في الشهادة: التبيين، يقال لشهادة الشهود: بينة. وقد قيل: لأنه يكون تلو الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ في الشهادة على الأمم، فيشهد بمثل ما يشهدون به، وكفى بذلك شرفًا ومنزلة. ومعنى قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**ومن مات في سبيل الله**..» إلى آخر الحديث: أنهم يشاركون الشهداء في نوع من أنواع المثوبات التي يستحقها الشهداء، ولم يرد به -والله أعلم- المساواة في سائر أنواع الفضيلة"[(٢)].

ونحوه قول العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشهيد فعيل من الشهود بمعنى: المفعول؛ لأن الملائكة تحضره، وتبشره بالفوز والكرامة، أو بمعنى فاعل؛ لأنه يلقى ربه جَلَّوَعَلَا، ويحضر عنده كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الحديد:١٩]، أو من الشهادة؛ فإنه

---

(١) صحيح مسلم [١٩١٥].

(٢) الميسر في شرح مصابيح السنة، للتُّورِبِشْتِي (٣/٨٧٨).

بين صدقة في الإيمان والإخلاص في الطاعة ببذل النفس في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، أو يكون تلو الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في الشهادة على الأمم يوم القيامة. ومن مات بالطاعون أم بوجع في البطن ملحق بمن قتل في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ؛ لمشاركته إياه في بعض ما ينال من الكرامة، بسبب ما كابده من الشدة، لا في جملة الأحكام والفضائل"(١).

ومما يدل على حياة البرزخ الخاصة: ما تقدَّم ذكره من الآيات التي تنص على أن الشهداء أحياء عند ربهم جَلَّ وَعَلَا، وأنهم يرزقون ويكرمون.

وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الشُّهَدَاءُ على بَارِقٍ -نَهْرٍ بِبَابِ الجَنَّة- في قُبَّةٍ خَضْرَاءَ، يَخْرُجُ عليهم رِزْقُهُمْ من الجَنَّةِ بُكْرَةً وعَشِيًّا**» (٢).

ولا يختلف أحدٌ على عظم مكانة الشَّهيد في الإسلام، الَّذي بذل نفسه وماله في سبيل الله جَلَّ وَعَلَا، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٨/٢٦٣٨-٢٦٣٩)، وانظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٥/٥٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [١٩٣٢١]، وأحمد [٢٣٩٠]، واللفظ له، قال الهيثمي (٥/٢٩٤): "رواه أحمد ورجاله ثقات، ورواه الطبراني في (الكبير) و(الأوسط) اهـ"، كما أخرجه: هناد في (الزهد) [١٦٦]، وعبد بن حميد [٧٢١]، وابن جرير في (تفسيره) (٣/٢١٦-٢١٧)، وابن حبان [٤٦٥٨]، والطبراني في (الكبير) [١٠٨٢٥]، و(الأوسط) [١٢٣]، والحاكم [٢٤٠٣]، وقال: "صحيح الإسناد على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٣٩٣٦]، وفي (إثبات عذاب القبر وسؤال الملكين) [٧٨]، والديلمي [٣٦١٢]، والضياء [١٠٠].

وَٱلْقُرْءَانِۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة: ١١١].

حيث مثَّل الله عَزَّوَجَلَّ إثابتهم بالجنَّة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشِّراء، وقَدَّمَ الأنفس على الأموال ابتداء بالأشرف وبما لا عِوَضَ له إذا فُقِدَ [(١)].

وهذا وعدٌ مؤكد أخبر اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله، وعد ثابت، وقد أثبته في التوراة، والإنجيل كما أثبته في القرآن. ناهيك من صفقة البائع فيها ربُّ العالمين، والثَّمن جنَّةُ المأوى. ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾، أي: لا أحد أوفى منه.

ولا شك أن بلوغَ الأهدافِ الكُبرى والنبيلة في الحياة يستلزم تضحياتٍ كبرى، ولا ريب أن سمو الأهداف، وشرف المقاصد، ونبل الغايات، تقتضي سموَّ التضحيات، وشرفها، ورُقِيَّ منازلها، وإذا كان أشرفُ التضحيات وأسماها ما كان ابتغاءَ رضوان الله تعالى ومحبته، ورجاءَ نيل النعيم المقيم في جنات النعيم؛ فإنَّ الذود عن حياض هذا الدين، والذَّبَّ عن حوذته، والمنافحة عن كتابه وشرعه ومقدساته يتبوأُ أرفع درجات هذا الرضوان. ثم إن للتضحيات ألوانًا كثيرة ودروبًا متعددة، لكن تأتي في الذروة منها: التضحية بالنفس، وبذل الروح رخيصة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ؛ لدحر أعداء الله جَلَّوَعَلَا، ونصر دينه، وهذا هو المراد من مصطلح الشهادة والاستشهاد في حقيقته؛ فإن من أعظم علامات الصدق في المحبة: بذل النفس في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وقول المسلم: أحب

---

(١) انظر: البحر المحيط في التفسير (٥/٥٠٩).

الله عَزَّوَجَلَّ هي دعوى ينبغي أن يصدقها العمل، ولا عمل فوق هذا. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ [الصف:٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٧٤﴾ [النساء:٧٤].

فتبين أن الجهاد في سبيل الله جَلَّوَعَلَا محمود في عاقبته، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ۝٥٢﴾ [التوبة:٥٢].

وفي السنة بيان دقيق لفضل الشهادة، ومنازل الشهداء وحالهم في دار الكرامة عند مليك مقتدر.

فعن مسروق، قال: سألنا عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩﴾ [آل عمران:١٦٩] قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: «**أرواحهم في جوف جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن تَرُدَّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا**» (١).

---

(١) صحيح مسلم [١٨٨٧].

قال الإمام التُّورِبِشْتِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أراد بقوله: «**أرواحهم في أجواف طير خضر**» أنَّ الروح الإنسانية المخصوصة المميزة بالإدراكات بعد مفارقتها البدن يهيأ لها طير أخضر فتنتقل إلى جوفه؛ ليلعق ذلك الطير من ثمر الجنة، فتجد الروح بواسطته ريح الجنة، ولذتها، والبهجة والسرور، ولعل الروح يحصل لها تلك الهيئة إذا تشكلت وتمثَّلَت بأمر الله عَزَّوَجَلَّ طيرًا أخضر، كتمثل الملَك بشرًا، وعلى أي حالة كانت فالتَّسليم واجب علينا؛ لورود البيان الواضح على ما أخبر عنه الكتاب والسنة، ورودًا صريحًا لا سبيل إلى خلافه" (١).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قلت -والله أعلم-: في الآية تشبيه؛ لأن باب: (علمت) و(حسبت) من دواخل المبتدأ والخبر، فالواجب حمل المفعول الثاني على الأول، ولا يصح ذلك في الآية إلا بالتشبيه، نحو: (حسبت زيدًا أسدًا)، على أن بعض الأصحاب عدَّ هذا الباب من أداة التشبيه، كأنه قيل: لا تحسبنهم كالأموات، بل احسبنهم كالأحياء، ثم بين ما به شبهوا بهم بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُرۡزَقُونَ ۝١٦٩ فَرِحِينَ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠]، فيكون حديث: الطير بيانًا لكيفية حياتهم، وإيصال الرزق إليهم، وإلى التشبيه أشار الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: ﴿يُرۡزَقُونَ﴾ مثل ما يرزق سائر الأحياء، يأكلون ويشربون اهـ). وهو تأكيد لكونهم أحياء، ووصف لحالهم التي هم عليها من التنعم برزق الله"، ومما يشد من عضد أن حكمهم خلاف حكم سائر الأموات ما روينا عن أبي

(١) الميسر في شرح مصابيح السنة، للتوربشتي (٣/٨٧٦).

داود والترمذي، عن فضالة بن عبيد، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله، فإنه يُنْمَى له عمله إلى يوم القيامة**»"(١).

وعن المقدام بن معدي كرب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه**» (٢).

ومن خصائص الشهيد: أنه يخفف عنه مس الموت حتى إنه لا يجد من ألمه إلا كما يجد أحدنا من مس القرصة، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال:

---

(1) حاشية الطيبي على الكشاف (٤/٣٤٣-٣٤٤)، الكشاف (١/٤٣٩). والحديث مروي عن فضالة بن عبيد، عن عقبة بن عامر. حديث: فضالة بن عبيد: أخرجه سعيد بن منصور في (السنن) [٢٤١٤]، وأحمد [٢٣٩٥١]، وأبو داود [٢٥٠٠]، الترمذي [١٦٢١]، وقال: "حديث حسن صحيح"، والبزار [٣٧٥٣]، وأبو عوانة [٧٤٦٣]، وابن حبان [٤٦٢٤]، والطبراني في (الكبير) [٨٠٣]، والحاكم [٢٤١٧]، وقال: " صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٣٩٨٢]، وفي (إثبات عذاب القبر) [١٤٣]. وحديث: عقبة بن عامر: أخرجه أحمد [١٧٣٥٩]، والدارمي [٢٤٦٩]، وأبو محمد الحارث [٦٢٨]. وفيه: ابن لهيعة. قال الهيثمي (٥/٢٨٩): "رواه أحمد والطبراني، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن". وفي (صحيح مسلم) [١٩١٣]: عن سلمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأمن الفتان».

(٢) أخرجه أحمد [١٧١٨٢]، وابن ماجه [٢٧٩٩]، والترمذي [١٦٦٣]، واللفظ له، وقال: "حديث صحيح غريب".

قال رسول الله ﷺ: **«ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مَسِّ القَرْصَة»** (١).

ودار الشهداء في الجنة أحسن الدُّور وأفضلها، كما جاء في الحديث: عن سَمُرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي ﷺ: **«رأيت الليلة رجلين أتياني، فَصَعِدَا بي الشجرة فأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل، لم أر قط أحسن منها، قالا: أما هذه الدار فدار الشهداء»** (٢).

ومن إكرام الله عَزَّوَجَلَّ للشهيد: أن الملائكةَ تُظِلُّه بأجنحتها، كما جاء في الحديث: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لما قتل أبي جعلت أكشف الثوب عن وجهه أبكي، ويَنْهَوْنِي عنه، والنبي ﷺ لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي، فقال النبي ﷺ: **«تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تُظِلُّه بأجنحتها حتى رفعتموه»** (٣).

وليس هناك أحد يتمنى ويرغب أن يفارق الجنة بعد دخولها، ويعود إلى الدنيا مرة أخرى. ولو أعطي الأرض كلها بما فيها من كنوز ونفائس، وما عليها من قصور عالية، وحدائق غناء إلا الشهيد، فإنه يحب العودة إلى الدنيا عشر مرات؛ لكي يجاهد كل مرة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، ويستشهد فيفوز بالشهادة عشر مرات بدل مرة واحدة،

---

(١) أخرجه أحمد [٧٩٥٣]، والترمذي [١٦٦٨]، وقال: "حديث حسن صحيح غريب"، وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٤٦٥٥].

(٢) صحيح البخاري [٢٧٩١].

(٣) صحيح البخاري [١٢٤٤، ١٢٩٣، ٢٨١٦، ٤٠٨٠]، مسلم [٢٤٧١].

وذلك لما يرى من الكرامة التي يلاقيها الشهداء (١) كما في حديث: أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة**» (٢).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا الحديث أجل ما جاء في فضل الشهادة، والحض عليها، والترغيب فيها، وإنما يتمنى أن يقتل عشر مرات -والله أعلم-؛ لعلمه بأن ذلك مما يرضي الله عَزَّوَجَلَّ، ويقرب منه؛ لأن من بذل نفسه ودمه في إعزاز دين الله عَزَّوَجَلَّ ونصرة دينه ونبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم تبق غاية وراء ذلك، وليس في أعمال البر ما تبذل فيه النفس غير الجهاد؛ فلذلك عظم الثواب عليه -والله أعلم-"(٣).

وقال المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخبرنا نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن رسالة ربنا: «**من قتل منا صار إلى الجنة**» (٤). وقال المغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**أخبرنا نبينا** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عن رسالة ربنا، أنه من قتل منا صـــار إلى الجنة في نعيم لم ير مثلها قط، ومن بقي منا ملك رقابكم**» (٥).

---

(١) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/٩١).

(٢) صحيح البخاري [٢٧٩٥، ٢٨١٧]، مسلم [١٨٧٧].

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٥/٣٠).

(4) صحيح البخاري [٧٥٣٠].

(٥) صحيح البخاري [٣١٥٩].

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أليس قتلانا في الجنة، وقتلاهم في النار؟ قال: «**بلى**» الحديث [(١)].

ومن نهج الأبرار: المسارعة إلى تلبية نداء الجهاد؛ لعلمهم بعظيم فضله، وهم يرغبون في النصر أو الشهادة في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقد جاء في الحديث: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: انطلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يُقَدِّمَنَّ أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه**»، فدنا المشركون، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**»، قال: -يقول عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَام الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:- يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «**نعم**»، قال: بخ بخ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما يحملك على قولك: بخ بخ؟**»، قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: «**فإنك من أهلها**»، فأخرج تمرات من قَرَنِه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري [٣١٨٢، ٤٨٤٤]، مسلم [١٧٨٥].

(٢) صحيح مسلم [١٩٠١].

وأحيل في بيان (فضل الشهادة وأحكام الشهيد) إلى تحقيقنا لشرح منظومتي الشهداء، (داعي الهدى بشرح منظومة الشهدا)، لأحمد بن عبد الرَّزاق المغربي الرَّشيدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، و(شرح منظومة الشهداء)، لعلي بن محمد الأجهوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١].

سابعًا: بيان المراد من الصِّدِّيقين وحياتهم في البرزخ:

١ – بيان المراد من الصدِّيقين:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والصِّدِّيقُ، مِثَالُ الفِسِّيق: الدائمُ التَّصْدِيقِ، وَيَكُونُ الَّذي يُصَدِّقُ قولَه بِالْعَمَل"[٢].

وفي (العين): "الصِّدِّيق: من يُصَدِّقُ بكل أمر الله عَزَّوَجَلَّ والنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يتخالجه شك في شيء"[٣].

وقال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصِّدِّيق: الكثيرُ الصدقِ، كما يقال: فِسِّيقٌ، وشِرِّيبٌ، وسِكِّيرٌ: إذا كثر ذلك منه"[٤].

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصِّدِّيق: من أبنية المبالغة. ونظيره: الضِّحيك والنِّطيق، والمراد: فرط صدقه، وكثرة ما صدَّق به من غيوب الله عَزَّوَجَلَّ، وآياته، وكتبه، ورسله

---

(1) وقد طبعا معًا في (دار الضياء)، الكويت، والتحقيق بالتعاون مع فضيلة الشيخ مصطفى محمود سليخ، الطبعة الأولى [١٤٣٤هـ].

(2) الصحاح، للجوهري، مادة: (صدق) (١٥٠٦/٤).

(3) العين (٥٦/٥).

(4) غريب القرآن، لابن قتيبة الدينوري (ص:٢١٨).

عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وكان الرجحان والغلبة في هذا التصديق للكتب والرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أي: كان مصدِّقًا بجميع الأنبياء وكتبهم، وكان نبيًّا في نفسه، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات:٣٧]، أو كان بليغًا في الصِّدق؛ لأنَّ ملاك أمر النبوة: الصدق، ومصدق الله بآياته ومعجزاته حري أن يكون كذلك"(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم:٤١].

وقال عن إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم:٥٤].

وقال عن إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ [مريم:٥٦].

وذكر القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أكثر من قول في وصف الصِّدِّيق، فقال: هو "الكثير الصِّدق، الذي لا يمازج صدقه شوب.

ويقال: هو الصادق في أقواله، وأعماله، وأحواله.

ويقال: الصِّدِّيق لا يناقض سرُّه علنه.

ويقال: هو الذي لا يشهد غير الله عَزَّوَجَلَّ مثبتًا ولا نافيًا.

ويقال: هو المستجيب لما يطالب به جملة وتفصيلًا.

ويقال: هو الواقف مع الله عَزَّوَجَلَّ في عموم الأوقات على حدِّ الصدق"(٢).

---

(١) الكشاف (١٠/٢٤).

(٢) لطائف الإشارات (٢/٤٣٠-٤٣١).

وقيل: "من صَدَّقَ اللَّهَ فِي وَحْدَانِيَّتِه، وَصَدَّقَ أنبياءه ورسله، وَصَدَّقَ بالبعث، وقام بالأوامر فعمل بها؛ فهو الصِّدِّيق"(١).

وفي (لطائف الأعلام)، للقاشاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصدِّيق: الكثير الصدق. كما يقال: سكِّيت وصرِّيع: إذا كثر منه ذلك.

والصديق من الناس من كان كاملًا في تصديقه لما جاءت به رسل الله عَزَّوَجَلَّ علمًا وعملًا، وقولًا وفعلًا، وليس يعلو على مقام الصديقيَّة إلَّا مقام النبوَّة، بحيث إن من تخطى مقام الصديقيَّة حصل في مقام النبوَّة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء:٦٩]، فلم يجعل الله عَزَّوَجَلَّ بين مرتبتي النبوة والصديقية مرتبة أخرى تتخللهما. قال: و(الصديقيَّة): كمال الصدق، وتماميته: تصديق الصادق في كلِّ ما أخبر به. ثم بيَّن القاشاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ المراد من صدق الأقوال، وصدق الأفعال، وصدق الأحوال (٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فأعلى مراتب الصدق: مرتبة الصديقية، وهي كمال الانقياد للرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع كمال الإخلاص للمرسل.

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق، فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء:٨٠].

---

(١) تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (٣/٢٩٤)، وانظر: تفسير البغوي (٥/٢٣٣).

(٢) انظر: لطائف الأعلام، للقاشاني (٢/٤٥٩).

وأخبر عن خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، أنه سأله أن يهب له لسان صدق في الآخرين، فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء:٨٤].

وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق، ومقعد صدق، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:٢]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر:٥٤-٥٥]. فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق. ولسان الصدق، وقدم الصدق، ومقعد الصدق"(١).

وفي الآخرة ينفع الصادقين صدقهم، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة:١١٩].

وقد بسط ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ القول في بيان مرتبة الصديقية، ومراتب المكلفين في الآخرة ودرجاتهم، فمما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ورثة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وخلفاؤهم في أممهم، وهم القائمون بما بعثوا به علمًا وعملاً ودعوة للخلق إلى الله عَزَّوَجَلَّ، على طرقهم ومنهاجهم؛ ولهذا أفضل مراتب الخلق بعد الرسالة والنبوة، وهي: (مرتبة الصديقية)؛ ولهذا قرنهم الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء:٦٩]، فجعل درجة: (الصديقية) معطوفة على درجة: (النبوة)، وهؤلاء هم الربانيون، وهم الراسخون في العلم، وهم الوسائط بين الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأمته،

(١) مدارج السالكين (٢/٢٥٨-٢٥٩).

فهم خلفاؤه، وأولياؤه، وحزبه، وخاصته، وحملة دينه، وهم المضمون لهم أنهم لا يزالون على الحقِّ، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأْتي أمر الله عَزَّوَجَلَّ وهم على ذلك، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ﴾ [الحديد:١٩]"(١).

ومن كان على نهج الصديقين من التقوى، والصلاح، والصدق، والإخلاص، رفع الله عَزَّوَجَلَّ مكانته، فكان مع اقتفى أثرهم، وسار على هديهم، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ۝٧٠﴾ [النساء:٦٩-٧٠].

فمن أراد أن يمن الله عَزَّوَجَلَّ بمنزلة: (الصديقية)، وأن يكون مع من أحبَّ أن يكون معهم، فسبيله إلى ذلك: طاعة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في السرِّ والعلن، واتباع هدي الرسل عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ الذين أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالاقتداء بهم، كما قال قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:٩٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الممتحنة:٤]، وقال: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ﴾ [الممتحنة:٦].

---

(١) انظر ذلك مفصلًا في (طريق الهجرتين وباب السعادتين) (ص:٣٥١).

وخير الهدي: هدي خاتم النبيين، وسيد المرسلين صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب:٢١].

وقد جاء في الحديث: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وعَلَا صَوْتُه، واشْتَدَّ غَضَبُه، حتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جيش، يَقُولُ: «**صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**»، ويقول: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»، ويقرن بين إصبعيه السبابة، والوسطى، ويقول: «**أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وَشَرُّ الْأُمُور: مُحْدَثَاتُهَا، وكلُّ بدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»، ثُمَّ يقول: «**أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مؤمنٍ من نَفْسِهِ، من تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ، ومن تَرَكَ دَيْنًا أو ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ**» (١). وقال عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إن أحسن الحديث: كتاب الله** عَزَّوَجَلَّ، **وأحسن الهدي: هدي محمد** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وشر الأمور: محدثاتها، وإن ما توعدون لآت، وما أنتم بمعجزين**» (٢).

والناس في بلوغ مرتبة: (الطاعة والاتباع) مراتب على حسب إخلاصهم واتباعهم.

قال الفخر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ليس المراد بكون من أطاع الله عَزَّوَجَلَّ وأطاع الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع النبيين والصديقين، كون الكل في درجة واحدة؛ لأن هذا يقتضي

(١) صحيح مسلم [٨٦٧].
(٢) صحيح البخاري [٧٢٧٧].

التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضول، وإنه لا يجوز، بل المراد: كونهم في الجنة بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر، وإن بعد المكان؛ لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضًا، وإذا أرادوا الزيارة والتلاقي قدروا عليه، فهذا هو المراد من هذه المعية.

قال: وقد دلت الآية على أنه لا مرتبة بعد النبوة في الفضل والعلم إلا هذا الوصف، وهو كون الإنسان صدّيقًا، وكما دلَّ الدَّليل عليه فقد دلَّ لفظُ القرآن عليه؛ فإنه أينما ذكر الصِّدِّيق والنَّبي لم يجعل بينهما واسطة، فقال في وصف إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم:٥٤]، وفي صفة إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦﴾ [مريم:٥٦]، وقال في هذه الآية: من النبيين والصديقين وقال في هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء:٦٩]، يعني: أنك إن ترقيت من الصديقية وصلت إلى النبوة، وإن نزلت من النبوة وصلت إلى الصديقية، ولا متوسط بينهما، وقال في آية أخرى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ [الزمر:٣٣]، فلم يجعل بينهما واسطة، وكما دلت هذه الدلائل على نفي الواسطة فقد وفق الله عَزَّوَجَلَّ هذه الأمة الموصوفة بأنها خير أمة حتى جعلوا الإمام بعد الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على سبيل الإجماع، ولما توفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دفنوه إلى جنب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما ذاك إلا أن الله عَزَّوَجَلَّ رفع الواسطة بين النبيين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ والصديقين في هذه الآية، فلا جرم ارتفعت الواسطة بينهما في الوجوه التي عددناها"[1].

(١) مفاتيح الغيب (١٠/١٣٣-١٣٥).

٢ – حياة الصِّدِّيقين في البرزخ:

قال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وإذا كان الشهيد لا يفتن فالصدِّيقُ أجلُّ خطرًا، وأعظم أجرًا، فهو أحرى أن لا يفتن؛ لأنه المقدم ذكره في التنزيل على الشهداء في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء:٦٩]، وقد جاء في المرابط الذي هو أقل مرتبة من الشهيد أنه لا يفتن، فكيف بمن هو أعلى مرتبة منه ومن الشهيد؟ –والله أعلم– فتأمله"(١).

وقد صرح الحكيم الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ بأن الصديقين لا يسألون فقال في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۝٢٧ *﴾ [إبراهيم:٢٧-٢٨]: "تأويله –والله أعلم– أن من مشيئته أن يرفع مرتبة أقوام عن السؤال، وهم الصديقون والشهداء.

وروي عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قيل له ما بال الشهداء لا يفتنون في قبورهم؟ فقال: «**كفى ببارقة السيوف عليهم فتنة**»(٢) معناه: أنه أظهر صدق ما في ضميره، حيث برز للحرب والقتل، فلماذا يعاد عليه السؤال في القبر؟ فإذا كان الشهيد لا يفتن فالصديق أحرى أن لا يفتن"(٣).

---

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص:٤٢٤).

(٢) أخرجه النسائي في (السنن) [٢٠٥٣]، وفي (الكبرى) [٢١٩١]، وذكره الردواني في (جمع الفوائد) [٦١٢٨]، وسنده صحيح. انظر: كنز العمال [١١٧٤١]، (٥٩٥/٤-٥٩٦)، البيان والتعريف (١٤٠/٢).

(٣) نوادر الأصول في أحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (١٦١/٤).

قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وما نقله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الحكيم في توجيه حديث: الشهيد يقتضي اختصاص ذلك بشهيد المعركة، لكن قضية أحاديث (الرباط) التعميم في كل شهيد. وقد جزم الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب: (بذل الماعون في فضل الطاعون) بأن الميت بالطعن لا يسأل؛ لأنه نظير المقتول في المعركة[1]، وبأن الصابر بالطاعون محتسبًا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله عَزَّوَجَلَّ له إذا مات فيه بغير الطعن لا يفتن أيضًا؛ لأنه نظير المرابط. وقد قال الحكيم في توجيه حديث: (المرابط): إنه قد ربط نفسه، وسجنها، وصيرها جيشًا لله عَزَّوَجَلَّ، في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ؛ لمحاربة أعدائه، فإذا مات على هذا فقد ظهر صدق ما في ضميره، فوقي فتنة القبر"[2].

ثامنًا: حياة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في البرزخ:

أما الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ فهم أحياء من باب أولى؛ فهم أرفع رتبة من الشهداء والصديقين.

---

(١) انظر ما ذكره الحافظ ابن حجر في (بذل الماعون في فضل الطاعون) من الدليل على أن شهيد الطاعون ملتحق بشهيد المعركة (ص:١٩٦-١٩٨).

(٢) حاشية السيوطي على سنن النسائي (٤/١٠٠-١٠١)، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (١٥٠-١٥١).

وقد جاء في الحديث: عن أنس رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الأنبياء أحياء يصلون في قبورهم**» وفي بعض الروايات زيادة: «**يُصَلُّونَ**» (١).

قال العلامة المناوي رَحِمَهُٱللَّهُ: "قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: "«**الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون**»؛ لأنهم كالشهداء، بل أفضل، والشهداء أحياء عند ربهم. وفائدة التقييد بالعندية: الإشارة إلى أن حياتهم ليست بظاهرة عندنا. قال: وقوله: «**يُصَلُّونَ**» قيل المراد به: التسبيح والذكر"(٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: "الأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ أحياء عند الله عَزَّوَجَلَّ، وإن كانوا في صورة الأموات بالنسبة إلى أهل الدنيا، وقد ثبت ذلك للشهداء، ولا شك أن الأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ أرفع رتبة من الشهداء"(٣).

وقال: "وقد أفرد البيهقي رَحِمَهُٱللَّهُ جزءًا لطيفًا في حياة الأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ في قبورهم، وأورد فيه عدة أحاديث تؤيد هذا، فيراجع منه، وقال في (دلائل النبوة): الأنبياء

---

(١) أخرجه البزار [٦٣٩١، ٦٨٨٨]، وأبو يعلى [٣٤٢٥]، وابن عدي (٣٢٧/٢)، ترجمة: الحسن بن قتيبة المدائني [٤٦٠]، كما أخرجه تمام [٥٨]، والديلمي [٤٠٣]، وابن عساكر (٣٢٦/١٣)، قال الهيثمي (٨/ ٢١١): "رواه أبو يعلى، والبزار، ورجال أبي يعلى ثقات". وقال الحافظ فى الفتح (٤٨٧/٦): أخرجه البيهقي في كتاب: (حياة الأنبياء في قبورهم) وصححه". وقال المناوي في (فيض القدير): (١٨٤/٣): "رواه أبو يعلى عن أنس بن مالك، وهو حديث صحيح".

(٢) فيض القدير (١٨٤/٣).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (٤٤٤/٦).

عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أحياء عند ربهم كالشهداء، وقال في كتاب: (الاعتقاد): والأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بعد ما قبضوا ردت إليهم أرواحهم فهم أحياء عند ربهم كالشهداء"(١).

وقال البدر العيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أحياء، فقد رآهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقيقة، وقد مر على موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وهو قائم يصلي في قبره، ورآه في السماء السادسة"(٢).

وقد ثبت أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلَّى بالأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ إمامًا في بيت المقدس في ليلة: (الإسراء والمعراج)، كما جاء في (الصحيح) من قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء.. فحانت الصلاة فَأَمَمْتُهُمْ**» الحديث (٣).

وفي (صحيح مسلم): عن أنس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**أتيت** - وفي رواية هداب: **مررت- على موسى ليلة أُسْرِيَ بي عند الْكَثِيبِ الأحمر، وهو قائم يُصَلِّي في قبره**» (٤).

قال العلامة المظهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وصلوات الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في قبورهم عبارةٌ عن زيادة درجاتهم بعد الموت؛ فإن الصلاة والسجدة فيها خاصَّةُ قُرْبٍ من الله عَزَّ وَجَلَّ، كما

(١) انظر: التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، لابن حجر (٢/٢٩٣-٢٩٤)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (٦/٤٨٧)، الاعتقاد، للبيهقي (ص:٣٠٥)، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، للبيهقي (٢/٣٨٨).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٤/٤٨).

(٣) صحيح مسلم [١٧٢].

(4) صحيح مسلم [٢٣٧٥].

قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ١٩﴾ [العلق:١٩]، وقال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**وقرة عيني في الصلاة**» (١).

ولا شك أن درجاتِ القربِ من الله عَزَّوَجَلَّ غيرُ متناهية، فهو المراد من الصلاة – والله أعلم–"(٢).

وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "«**الكثيب**»: هو الكوم من الرمل ويجمع: كثبًا، وهذا الكثيب هو بطريق بيت المقدس.. وهذا الحديث يدلُّ بظاهره على: أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ رأى موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ رؤية حقيقية في اليقظة، وأن موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ كان في قبره حيًّا، يصلي فيه الصلاة التي كان يصليها في الحياة، وهذا كله ممكن لا إحالة في شيء منه، وقد صحَّ أن الشهداء أحياء يرزقون، ووجد منهم من لم يتغير في قبره من السنين. وإذا كان هذا في الشهداء كان في الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ أحرى وأولى.

فإنَّ قيل: كيف يصلون بعد الموت، وليس تلك الحال حال تكليف؟

فالجواب: أن ذلك ليس بحكم التكليف، وإنَّما ذلك بحكم الإكرام لهم والتشريف؛ وذلك أنهم كانوا في الدنيا حبِّبت لهم عبادة الله عَزَّوَجَلَّ. والصلاة بحيث كانوا يلازمون ذلك، ثم توفوا وهم على ذلك، فشرَّفهم الله عَزَّوَجَلَّ بعد موتهم بأن أبقى عليهم ما كانوا يحبون، وما عُرفوا به، فتكون عبادتهم إلهاميّة كعبادة الملائكة، لا تكليفية.."(٣).

---

(١) تقدم.

(٢) المفاتيح في شرح المصابيح (٦/٦٦-٦٧).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/١٩٢)، وانظر: حاشية السندي على سنن النسائي (٣/٢١٥-٢١٧).

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد يكون الصلاة هنا بمعنى: الدعاء والذكر، وهي من أعمال الآخرة، ويؤكد أحد التأويلات فيه، وأنها الصلاة المعهودة: ما ذُكر من أنَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمَّ الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ"(١).

ومن المتفق عليه أنه لا تكليف بعد الموت، فتكون عبادتهم إلهاميّة كعبادة الملائكة، لا تكليفية -كما تقدم-، وذلك كما يلهم أهل الجنة التسبيح إلهامًا.

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن قيل: فكيف رأى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فى قبره يصلى، وكيف صلى بالأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ فى حديث الإسراء ببيت المقدس على ما جاء فى الحديث، وقد جاء فى الحديث نفسه أنه وجدهم على مراتبهم فى السماوات عليه ورحبوا به؟

قيل: يحتمل أن رؤيته لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في قبره عند الكثيب الأحمر كانت قبل صعوده إلى السماء، وفي طريقه إلى بيت المقدس، ثم وجد موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قد سبقه إلى السماء.

ويحتمل أنه رأى الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وصلَّى بهم على تلك الحال لأول ما رآهم، ثم سألوه ورحَّبوا به.

أو يكون اجتماعه بهم، وصلاتُه، ورؤيته موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد انصرافه ورجوعه عن سدرة المنتهى"(٢).

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم (٥٢٤/١).

(2) المصدر السابق (٥٢٤/١)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢٣٨/٢).

وتقدُّمُ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إمامًا بالصلاة فيه دلالة ظاهرة على فضل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعظيم مقامه ومكانته، وبلاغ بأن دين الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ واحد، وأنَّ أمر النبوة قد ختم. وفيه دلالة ودخول جميع الرسالاتِ الإلهية تحت رسالته، وانضواءِ جميع الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ تحت لوائه، وفيه دلالة على أن الإسلام هو كلمة الله عَزَّ وَجَلَّ الأخيرة إلى خلقه، ودليل على عالمية الإسلام، وعموم رسالة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه حامل لواء الهداية للخلق جميعًا، تحمَّلها بأمانة وقوة، وقام بحقها على خير وجه، ثم ورَّثها لأمته من بعده، وبذلك أصبحت خير أمة أخرجت للناس، ومسؤولة عن إقامة حُجَّة الله عَزَّ وَجَلَّ على خلقه جميعًا، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

وقد اجتمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في (رحلة المعراج) -كما في (الصحيحين) وغيرهما [١]، فرأى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في السماء الدنيا، ورأى عيسى ويحيى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ في السماء الثانية، وفي الثالثة: يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي الرابعة: إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي الخامسة: هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي السادسة: موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي السابعة: إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفي رواية الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ، والإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ وغيرهما: قال جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السماء الدنيا: «**هذا أبوك آدم فسلم عليه**..»، وقال له في السماء الثانية: «**هذا يحي وعيسى فسلم عليهما**»، وفي الثالثة: «**هذا يوسف فسلم عليه**»، وفي الرابعة: «**هذا إدريس فسلم عليه**»، وفي الخامسة: «**هذا هارون**

(١) صحيح البخاري [٣٨٨٧]، مسلم [١٦٢].

فسلم عليه»، وفي السادسة: «**هذا موسى فسلم عليه»**، وفي السابعة: «**فلما خلصت فإذا إبراهيم قال: هذا أبوك فسلم عليه»** (١).

قال التُّورِبِشْتِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأمر الملك -جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ- إياه بالتسليم عليهم، وأن في ذلك توقيف على تفاوت منازلهم، واختلاف مراتبهم ومنازعهم، وعلى أنه أعلى رتبة، وأقوى حالًا، وأتم عروجًا. وأمره بالتسليم عليهم؛ لأنه كان عابرًا عليهم، فكان في حكم القيام، وكانوا في حكم القعود، والقائم يسلم على القاعد، وإن كان أفضل منهم"(٢).

ومن إكرام الله عَزَّوَجَلَّ للأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ في عالم البرزخ، وما يدل على خصوصية حياتهم، وتميزها عن غيرهم: ما جاء في الحديث: عن أَوْسِ بن أَوْسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فيه خُلِقَ آدم، وفيه قُبِضَ، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا عَلَيَّ من الصلاة فيه؛ فإن صلاتكم معروضة عَلَيَّ» قال: قالوا: يا رسول الله، وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أَرِمْتَ** -يقولون: بَلِيتَ-؟ فقال: «**إن الله** عَزَّوَجَلَّ **حرَّم على الأرض أجساد الأنبياء»** (٣).

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل [١٧٨٣٥]، صحيح البخاري [٣٨٨٧]، مستخرج أبي عوانة [٣٣٨]، صحيح ابن حبان [٤٨].

(2) الميسر في شرح مصابيح السنة (١٢٧٢/٤)، وانظر: المفاتيح في شرح المصابيح، للمظهري (١٩١/٦)، مرقاة المفاتيح (٩/ ٣٧٦٠).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٨٦٩٧]، وأحمد [١٦١٦٢]، والدارمي [١٦١٣]، وابن ماجه [١٠٨٥]، وأبو داود [١٠٤٧]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [١٥٧٧] والنسائي [١٣٧٤]، وابن خزيمة [١٧٣٣]، وابن حبان [٩١٠]، والطبراني في (الكبير) [٥٨٩]، و(الأوسط) [٤٧٨٠]، والحاكم=

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما من أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ، إِلَّا رَدَّ الله** عَزَّ وَجَلَّ **إِلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عليه السلام**» (١).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِلَيَّ رُوحِي**» الحديث ظاهره: أن عود الروح إلى الجسد يقتضي انفصالها عنه، وهو الموت.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد أجاب العلماء عن ذلك بأجوبة:

وذكر منها: أن المراد بالروح الملك الموكل بذلك.

أو أن المراد بالروح: النطق، فيكون المعنى: أي: ردَّ عليَّ نطقي، فتجوز فيه من جهة خطابنا بما نفهمه.

قال: وقد استشكل ذلك من جهة أخرى، وهو أنه يستلزم استغراق الزمان كله في ذلك؛ لاتصال الصلاة والسلام عليه في أقطار الأرض ممن لا يحصى كثرة. وأجيب: بأن أمـور الآخرة لا تدرك بالعقل، وأحوال البرزخ أشبه بأحوال الآخرة"(٢).

=[١٠٢٩]، وقال: "صحيح على شرط البخاري"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (الكبرى) [٥٩٩٣] وغيره.

(١) أخرجه أحمد [١٠٨١٥]، وأبو داود [٢٠٤١]، والطبراني في (الأوسط) [٣٠٩٢]، وفي (الدعوات الكبير) [١٧٨]، والبيهقي في (الكبرى) [١٠٢٧٠]، وفي (شعب الإيمان) [١٤٧٩]، وابن عساكر في (معجمه) [١١٣٢]. قال الهيثمي (١٠/١٦٢): "رواه الطبراني في (الأوسط)، وفيه عبد الله بن يزيد الإسكندراني ولم أعرفه، ومهدي بن جعفر ثقة، وفيه خلاف، وبقية رجاله ثقات". قال الإمام النووي: "رواه أبو داود بإسناد صحيح" رياض الصالحين (ص:٣٩٦)، الأذكار (ص:١١٥)، وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) (٦/٤٨٨): "رواته ثقات".

(٢) فتح الباري (٦/٤٨٨).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لعل معناه: أن روحه المقدسة في شأن ما في الحضرة الإلهية، فإذا بلغه سلام أحد من الأمة ردَّ الله عَزَّوَجَلَّ روحه المطهرة من تلك الحالة إلى ردِّ من سلَّم عليه، وكذلك عادته في الدنيا يفيض على الأمة من سبحات الوحي الإلهي ما أفاضه الله عَزَّوَجَلَّ عليه، فهو صلوات الله عليه في الدنيا والبرزخ والآخرة في شأن أمته"(١).

وقال ابن الملك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "رد الروح كناية عن إعلام الله عَزَّوَجَلَّ إياه بأن فلانًا صلَّى عليه، وقد أجاب السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الإشكال بأجوبة أخرى في رسالة له"(٢).

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من أحد يسلم عليَّ إلا رَدَّ الله عليَّ**»، وفي رواية: «**إليَّ**» وهو ألطف وأنسب؛ إذ بين التعديتين فرق لطيف؛ فإنّ بين التَّعديتين فرقًا لطيفًا؛ فإنَّ: «**ردَّ**» يعدَّى بـ: (على) في الإهانة، وبـ: (إلى) في الإكرام.

قال في (الصحاح): ردَّ عليه الشَّيء: إذا لم يقبله، وكذا إذا خطأه، وتقول: ردَّه إلى منزله، وردَّ إليه جوابًا، أي: رجع.

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من الأول: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٤٩]، ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا﴾ [الأنعام:٧١].

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٠٤٣/٣).

(٢) مرقاة المفاتيح (٧٤٣/٢).

ومن الثاني: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ [القصص:١٣]، ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦﴾ [الكهف:٣٦]، ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [التوبة:٩٤]، ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٦٢]"(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبورا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلُّوا عليَّ؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**» (٢).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ لِلَّهِ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ، يُبَلِّغُونِي من أُمَّتِي السَّلَامَ**» (٣).

يعني: أن الله عَزَّ وَجَلَّ أرسلَ ملائكة على وجه الأرض؛ حتى يُخبروني عمَّن صلَّى أو سلَّم عليَّ (٤).

---

(١) انظر: سبل الهدى والرشاد، لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي (١٢/٣٦٥)، فيض القدير، للمناوي (٥/٤٦٧)، المفردات في غريب القرآن، للراغب، مادة: (رد) (ص:٣٤٨)، الصحاح، للجوهري، مادة: (ردد) (٢/٤٧٣).

(٢) أخرجه أحمد [٨٨٠٤]، وأبو داود [٢٠٤٢]، والطبراني في (الأوسط) [٨٠٣٠]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٨٦٥]، والحديث له شواهد. وقد حسنه الحافظ ابن حجر في (نتائج الأفكار) (٤/٢٢).

(3) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٠٢٨]، وعبد الرزاق [٣١١٦]، وابن أبي شيبة [٢٦٩]، وأحمد [٣٦٦٦]، والبزار كما في (كشف الأستار) [٨٤٥]، والنسائي [١٢٨٢]، وأبو يعلى [٥٢١٣]، والشاشي [٨٢٥]، وابن حبان [٩١٤]، والطبراني في (الكبير) [١٠٥٢٩]، وأبو الشيخ في (العظمة) [٥١٣]، والحاكم [٣٥٧٦]، وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي، كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٨/١٣٠)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٤٨٠]، وفي (الدعوات) [١٧٩]، والبغوي في (شرح السنة) [٦٨٧].

(٤) المفاتيح في شرح المصابيح (٢/١٦٣).

قال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفيه إشارة إلى حياته الدائمة، وفرحه ببلوغ سلام أمته الكاملة، وإيماء إلى قبول السلام، حيث قبلته الملائكة، وحملته إليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"(١).

وقال شمس الدين السخاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يؤخذ من هذه الأحاديث: أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيٌّ على الدَّوام؛ وذلك أنه محال عادة أن يخلو الوجود كله من واحد يسلِّم عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ليل ونهار، ونحن نؤمِنُ ونُصَدِّقُ بأنَّه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيٌّ يُرزَقُ في قبرِه، وأنَّ جَسَدَه الشَّريفَ لا تأكُلُه الأرضُ، والإجماعُ على هذا"(٢).

وقال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حياة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قبره هو وسائر الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ معلومة عندنا علمًا قطعيًّا؛ لما قام عندنا من الأدلة في ذلك، وتواترت به الأخبار"(٣).

وعن أبي هريرة: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**احْتَجَّ آدَمُ وموسى، فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمر قُدِّرَ عَلَيَّ قبل أن أُخْلَقَ**»، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى مَرَّتَيْنِ**» (٤).

---

(١) مرقاة المفاتيح (٢/٧٤٣).

(٢) القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع، لشمس الدين السخاوي (ص:٢٤٣)، ط: مكتبة المؤيد، الطائف، السعودية، ودار البيان، دمشق، وانظر: الدر المنضود في الصلاة والسلام على صاحب المقام المحمود، لابن حجر الهيتمي (ص:١٥٨-١٥٩).

(٣) الحاوي للفتاوي، لجلال الدين السيوطي (٢/١٧٨).

(٤) صحيح البخاري [٣٤٠٩، ٦٦١٤، ٧٥١٥]، مسلم [٢٦٥٢].

فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احْتَجَّ آدَمُ وموسى**» أي: طلب كل منهما الحجة من صاحبه على ما يقول.

وقد قيل: هذه المحاجة كانت روحانية في عالم الغيب.

قال أبو الحسن القابسي رَحِمَهُ اللَّهُ: التقت أرواحهما في السماء، فوقع الحجاج بينهما [1]. قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد جاءت الرواية بذلك"[2]، يعني: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عند ربهما**» أي: عند تجليه جَلَّ وَعَلَا عليهما حال تفاوضهما.

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "ويحتمل أنه على ظاهره، وأنهما اجتمعا بأشخاصهما، وقد جاء فى حديث الإسراء: أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اجتمع بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في السماوات، وفي بيت المقدس، وصلَّى بهم، ولا يبعد أن الله عَزَّ وَجَلَّ أحياهم، كما جاء في الشهداء.

وقيل: يحتمل أن ذلك كان في حياة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأنه سأل ربه جَلَّ وَعَلَا أن يريه آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ فحاجه بما ذكر" [3].

---

(١) انظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (١٣٧/٨)، شرح النووي على صحيح مسلم (٢٠٠/١٦)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٦٠/١٩)، طرح التثريب في شرح التقريب (٢٤٧/٨)، المفاتيح في شرح المصابيح (١٧٣/١).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣١٤/١٠).

(٣) إكمال المعلم، للقاضي عياض (١٣٧/٨).

قال أبو عمر ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التقاء آدم وموسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ يمكن أن يكون كما قال ابن وهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: يمكن أن يريه الله عَزَّوَجَلَّ إياه، وهو حي. ويمكن أن يكونا التقت أرواحهما، وعلم ذلك رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما يعلم به خبر السماء في غير ذلك. وهذا ومثله مما لا يطاق فيه التكييف، وإنما فيه التصديق والتسليم"[2].

فتقرر مما تقدم أن الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أحياء في قبورهم حياةً برزخيَّةً لا يَعْلَمُ كُنْهَها إلَّا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، وهي ليست كحياة أهل الدنيا.

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وذلك لأن النفوس القدسية إذا تجردت عن العلائق البدنية، عرجت واتصلت بالملأ الأعلى، ولم يبق لها حجاب، فترى الكل كالمشاهد بنفسها أو بأخبار الملك لها وفيه سر يطلع عليه من تيسر له"[3].

والحاصل أن الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ أموات بالنسبة لأهل الدنيا، أما عند الله عَزَّوَجَلَّ فهم أحياء -كما تقدم-.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ مخاطبًا خاتم النبيين وأفضلهم: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر:٣٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ۝٣٤﴾ [الأنبياء:٣٤].

(١) وذكر القاضي ابن العربي في (المسالك) أنه الصحيح من القولين. انظر: المسالِك في شرح موطَّأ مالك، لابن العربي (٢٢١/٧).

(٢) الاستذكار (٢٦٠/٨)، وانظر: مرقاة المفاتيح (١٤٩/١).

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٠٤٤/٣)، مرقاة المفاتيح (٧٤٤/٧)، فيض القدير (١٩٩/٤)، الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية، لابن علان (٣١٤/٣-٣١٥).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أخبرته، قالت: أقبل أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على فَرَسِهِ من مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ حتى نزل، فدخل المسجد، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَتَيَمَّمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو مُسَجًّى بِبُرْدِ حِبَرَةٍ، فَكَشَفَ عن وَجْهِهِ، ثُمَّ أَكَبَّ عليه، فَقَبَّلَهُ، ثم بكى، فقال: «**بأبي أنت يا نبي الله، لا يَجْمَعُ الله عليك مَوْتَتَيْنِ، أما المَوْتَةُ التي كتبت عليك فقد مُتَّهَا**»، قال أبو سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فأخبرني ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خرج، وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكلم الناس، فقال: «**اجلس**»، فأبى، فقال: «**اجلس**»، فأبى، فتشهد أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فمال إليه الناس، وتركوا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإن محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد مات، ومن كان يعبد الله عَزَّوَجَلَّ، فإن الله حي لا يموت، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران:١٤٤] إلى ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾ [آل عمران:١٤٤]، والله لكأن الناس لم يكونوا يعلمون أن الله عَزَّوَجَلَّ أنزلها حتى تلاها أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فتلقاها منه الناس، فما يسمع بشر إلا يتلوها(١)

وقد رُوِيَ: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، مَا حَلَّ لَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي**» (٢).

---

(١) صحيح البخاري [١٢٤١، ٣٦٦٧، ٣٦٦٨، ٣٦٦٩، ٣٦٧٠].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٦٤٢١]، وأحمد [١٤٦٣١]، والبزار كما في (كشف الأستار عن زوائد البزار) [١٢٤]، وأبو يعلى [٢١٣٥]، والبيهقى في (شعب الإيمان) [١٧٦]، والديلمي [٧٤٦٩]. قال الحافظ في (الفتح) (١٣/٣٣٤): "أخرجه أحمد، وابن أبي شيبة، والبزار من حديث: جابر، ورجاله موثوقون، إلا أن في مجالد ضعفًا" وقال في موضع آخر (١٣/٥٢٥): "وفي سنده: مجالد بن سعيد،=

أما عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فقد صعد إلى السماء بروحه وجسده، وكذلك قد قيل في إدريس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

وسينزل عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى الأرض في آخر الزمان، وسيكون نزوله عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، مُصَدِّقًا بمحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلى مِلَّتِه فيقتل الدجال، ويكسر الصليب، ويقتل الخنزير، كما جاء ذلك مبينًا في السنة. فعيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إنما ينزل مقررًا لهذه الشريعة، ومجدِّدًا لها؛ إذ هي آخر الشرائع.

تاسعًا: الأطفال في حياة البرزخ:

ظاهر الأحاديث والأدلة الشرعية أن الطفل لا يسأل؛ لأن السؤال إنما يكون للمكلفين، ولم يقع على الأطفال تكليف.

قال النسفي في (بحر الكلام): "ثم اعلم أن الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ليس عليهم حساب، ولا عذاب، ولا سؤال القبر، وكذلك أطفال المؤمنين ليس لهم حساب، ولا عذاب، ولا سؤال القبر، وكذلك العشرة الذين بشرهم الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالجنة، ليس عليهم حساب، هذا كله حساب المناقشة. وأما حساب العرض فالأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ والصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا، وهو أن يقال: فعلت كذا وعفوت عنك.

=وهو لين". وقال الهيثمي (١/١٧٤): "رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار، وفيه: مجالد بن سعيد، ضعفه أحمد، ويحيى بن سعيد، وغيرهما". ومن أهل العلم من حسنه باعتبار شواهده؛ فإنه قد روي عن غير مجالد فتقوى بذلك.

وحساب المناقشة أن يقال: لِمَ فعلت كذا؟"(١).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واختلف في الطفل غير المميز فجزم القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التذكرة) بأنه يسأل (٢)، وهو منقول عن الحنفية.

وجزم غير واحد من الشافعية بأنه لا يسأل، ومن ثم قالوا: لا يستحب أن يلقن"(٣). قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما الطفل ونحوه، فلا يلقن"(٤). قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الخادم): "وهو مبني على أن غير المكلف لا يسأل في قبره اهـ". فلا يسن تلقينه؛ لأنه لا يفتن في قبره. ومثله: المجنون -إن لم يسبق له تكليف وإلا لقن- وعبارة (النهاية): ولا يلقن طفل -ولو مراهقا- ومجنون لم يتقدمه تكليف -كما قيد به الأذرعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ-؛ لعدم افتتانهما (٥).

---

(١) بحر الكلام (ص:١٩٣-١٩٤).

(٢) قال القرطبي:"فإن قالوا: ما حكم الصغار عندكم؟ قلنا: هم كالبالغين وأن العقل يكمل لهم؛ ليعرفوا بذلك منزلتهم، وسعادتهم، ويلهمون الجواب عما يسألون عنه" التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص:٣٧٧).

(3) فتح الباري، لابن حجر (٣/ ٢٣٩)، وانظر: إرشاد الساري (٢/ ٤٦٥).

(4) روضة الطالبين وعمدة المفتين (١٣٨/٢).

(٥) انظر: الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (٢١٠/١)، وانظر: أسنى المطالب في شرح روض الطالب (٣٣٠/١)، الغرر البهية (١٢٢/٢)، حاشيتا قليوبي وعميرة (٤١٤/١)، حاشية البجيرمي على الخطيب (٢٩٨/٢)، إعانة الطالبين (١٥٩/٢)، نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج (٤١/٣)، حاشية الجمل على شرح المنهج (٢٠٥/٢).

قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد جزم أصحابنا الشافعية بأن الطفل لا يلقن بعد الدفن، وأن التلقين يختص بالبالغ، هكذا ذكره النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الروضة) وغيرها، وهو دليل على أن الأطفال لا يسألون، وقد أفتى به الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ"[١].

وعند الحنفية أن كل ذي روح من بني آدم، فإنه يسأل في القبر، لكن يلقن الرضيع الملك، وقيل: لا، بل يلهمه الله عَزَّوَجَلَّ كما ألهم عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في المهد [٢].

وعند الحنابلة فهل يلقن غير المكلف؟ وجهان، وهذا الخلاف مبني على نزول الملكين إليه [٣].

وقد فصل القول في هذه المسألة الإمام السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الحاوي)، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اختلف في الأطفال، هل يفتنون في قبورهم ويسألهم منكر ونكير أو لا؟ على قولين شهيرين حكاهما ابن القيم في كتاب: (الروح) [٤] عن أصحابه الحنابلة، ورأيتهما أيضًا للحنفية وللمالكية، ويخرجان من كلام أصحابنا الشافعية:

أحدهما: أنهم لا يسألون، وبه جزم النسفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الحنفية، وهو مقتضى كلام ابن الصلاح، والنووي، وابن الرفعة، والسبكي رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، وصرح به الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأفتى به الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

---

(١) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص:١٥٢).

(٢) انظر: رد المحتار على الدر المختار (٢/١٩١)، حاشية الشرنبلالي المسماة غنية ذوي الأحكام في بغية درر الحكام (١/١٦٠)، الجوهرة النيرة (١/١٠٢).

(٣) انظر: كشاف القناع (٢/١٣٦)، مطالب أولي النهى (١/٩٠٩)، الفروع (٢/٢١٦).

(4) انظر: الروح، لابن القيم (٨٧-٨٨).

والثاني: أنهم يسألون، رويناه عن الضحاك من التابعين، وجزم به من الحنفية البزازي، والبيكساري، والشيخ أكمل الدين رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وهو مقتضى كلام ابن فورك، والمتولي، وابن يونس رَحِمَهُمُ اللَّهُ من أصحابنا، ونقله الشيخ سعد الدين التفتازاني رَحِمَهُ اللَّهُ: عن أبي شجاع رَحِمَهُ اللَّهُ، وجزم به من المالكية: القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في (التذكرة)، والفاكهاني، وابن ناجي، والأقفهسي رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وصححه صاحب: (المصباح) في علم الكلام.

قال: ذكر نقول القول الأول: قال النسفي رَحِمَهُ اللَّهُ في بحر الكلام: الأنبياء وأطفال المؤمنين ليس عليهم حساب، ولا عذاب القبر، ولا سؤال منكر ونكير.

وقال النووي في (الروضة) من زوائده، وفي (شرح المهذب): إنما هو في حق الميت المكلف، أما الصبي ونحوه فلا يلقن. قال الزركشي في (الخادم): هذا تابع فيه ابن الصلاح رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فإنه قال: لا أصل لتلقينه -يعني: لأنه لا يفتن في قبره-. وقال في موضع آخر في (الخادم): ما قاله ابن الصلاح والنووي رَحِمَهُمَا اللَّهُ مبني على أنه لا يسأل في قبره. انتهى.

وقد تابعهما على ذلك ابن الرفعة في (الكفاية)، والسبكي في (شرح المنهاج)، وسئل الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ عن الأطفال هل يسألون؟ فأجاب بأن الذي يظهر اختصاص السؤال بمن يكون مكلفًا. ثم ذكر نقول القول الثاني..."[١].

---

(١) انظر ذلك مفصلًا في (الحاوي للفتاوي)، للسيوطي (٢/٢١٢-٢١٥).

عاشرًا: أسباب النجاة والوقاية من عذاب البرزخ:

ذكر السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح الصدور) في باب: (باب من لا يسأل في القبر) جملة من الأعمال التي هي من أسباب الوقاية من عذاب البرزخ، مما صحَّ، ومما قيل [(١)].

وقال: "قال أبو القاسم السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب: (الروح): ورد في الأخبار الصحاح أن بعض الموتى لا ينالهم فتنة القبر، ولا يأتيهم الفتانان، وذلك على ثلاثة أوجه: مضاف إلى عمل، ومضاف إلى حال بلاء نزل بالموت، ومضاف إلى زمان"[(٢)].

قال الشيخ شمس الدين السفاريني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وممن لا يسأل: الملائكة والأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ. وأما الجن فالأدلة تعمهم، ويسألون؛ لأنهم مكلفون في الجملة، كما نص عليه علماؤنا وغيرهم"[(٣)].

وأجمل هنا أهم أسباب الوقاية والنجاة من عذاب البرزخ، فمن هذه الأسباب:

١ – الحذر من المعاصي المنصوص على أنها من أسباب عذاب البرزخ:

وقد تقدم بيان ذلك.

---

(١) انظر: شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص:١٤٨-١٥٣).

(٢) المصدر السابق (ص:١٤٨)، وانظر: لوامع الأنوار البهية، للسفاريني الحنبلي (٢/١١-١٢).

(٣) لوامع الأنوار البهية (٢/١٢).

٢ – العلم بعاقبة كلِّ ذنبٍ وأسباب النَّجاة والوقاية منه:

وقد أرشدنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أسباب العافية والنجاة من عذاب البرزخ – كما سيأتي–.

٣ – محاسبة النفس والتنقيب عن عيوبها، وتجديد التوبة والإنابة إلى الله عَزَّوَجَلَّ:

فمن أنفع الأسباب التي تقي العبد من عذاب البرزخ وما بعده: أن يجلس المرء عندما يريدُ النومَ لله عَزَّوَجَلَّ ساعةً يحاسبُ نفسه فيها، ثم يجدِّدُ توبةً بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ، فينامُ على تلك التوبة، ويعزم ألا يعاودَ الذَّنبَ إذا استيقظ، ويفعلُ هذا كلَّ ليلة، فإذا ماتَ من ليلته مات على توبة، وإن استيقظَ استقبلَ يومَه بنيةٍ صالحة.

وليس للعبد أنفع من هذه النومة، ولا سيما إذا أكثرَ من ذكرِ الله عَزَّوَجَلَّ، واستعملَ السنن الواردة قبل النوم، فمن أراد الله عَزَّوَجَلَّ به خيرًا وفَّقه لذلك.

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خُذُوا جُنَّتَكُمْ**»، قالوا: يا رسول الله، أَمِنْ عَدُوٍّ قد حَضَرَ؟ قال: «**لا، وَلَكِنْ جُنَّتُكُم من النَّارِ قَوْلُ: سُبْحَانَ اللهِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ؛ فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يومَ الْقِيَامَةِ مُجَنِّبَاتٍ ومُعَقِّبَاتٍ، وهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ**» (١).

(١) أخرجه النسائي في (الكبرى) [١٠٦١٧]، واللفظ له، وفي (عمل اليوم والليلة) [٨٤٨]، والطبراني في (الأوسط) [٤٠٢٧]، وفي (الصغير) [٤٠٧]، والحاكم [١٩٨٥]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، وأقره الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٥٩٨]، وفي (الدعوات الكبير) [١٣١]،=

وقد تقدم أن الإكثار من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من خير الأعمال النافعة للعبد، والباقية.

٤ - الرباط في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ:

إن أسباب العافية والنجاة من عذاب البرزخ، فمن ذلك: الرباط في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، كما جاء في الحديث: عن سلمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**رباط يوم وليلة خير من صيام شهرٍ وقيامه، وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأُجْرِيَ عليه رزقه، وأَمِنَ الْفَتَّان**» (١).

قال القاضي عياض رَحِمَهُٱللَّهُ: "وقوله في فضل الرباط: «**وإن مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله فيه**»: فضيلةٌ مختصَّةٌ به، أي: لا يشاركُه فيها أحدٌ، وهي: أن عمله يجرى له أجره بعد موته. وقد جاء هذا مبينًا فى غير مسلم بسند صحيح: «**كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ على عمله إلا الذي مات مرابطًا في سبيل الله؛ فَإِنَّهُ يُنَمى لهُ عملُهُ إلى يوم القيامة**» (٢).

=والديلمي [٢٨٢٩]. قال المنذري (٢/٢٨١): "إسناده جيد قوي". وقال الهيثمي (١٠/٨٩): "رجاله فى الصغير رجال الصحيح، غير داود بن بلال وهو ثقة" وللحديث شواهد. انظر: الدر المنثور (٥/٣٩٧)، وقد تقدم.

(١) صحيح مسلم [١٩١٣].

(٢) الحديث مروي عن فضالة بن عبيد بسند صحيح. وعن عقبة بن عامر بإسناد حسن. حديث فضالة بن عبيد: أخرجه ابن المبارك في (الجهاد) [١٧٤]، وسعيد بن منصور في (السنن) [٢٤١٤]، وأحمد [٢٣٩٥١]، وأبو داود [٢٥٠٠]، والترمذي [١٦٢١]، وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه البزار [٣٧٥٣]، وأبو عوانة [٧٤٦٣]، وابن حبان [٤٦٢٤]، والطبراني في (الكبير) [٨٠٢]، والحاكم=

وقوله: «**وأجرى عليه رزقه**» [(١)] موافق لقوله عَزَّوَجَلَّ في الشهداء: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝١٦٩﴾ [آل عمران: ١٦٩]، والأحاديث السابقة أن أرواح الشهداء تأكل من ثمار الجنة.

وقد ضبطوا «**أمن**» بوجهين:

أحدهما: «**أمن**» بفتح الهمزة وكسر الميم من غير واو.

والثاني: «**أومن**» بضم الهمزة وبواو.

وأما «**الفتان**» فقال القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رواية الأكثرين بضم الفاء، جمع فاتن. قال: ورواية الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالفتح.

وفي رواية أبي داود في (سننه): «**أومن من فتاني القبر**» [(٢)]..

قال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وتكون للجنس، أي: يؤمن من كل ذي فتنة. ورواه الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بفتح الفاء؛ يعني به: فتان القبر. وكذلك رواه أبو داود مفسرًا بالإضافة إلى القبر"[(٣)].

=[٢٤١٧]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٣٩٨٢]. حديث: عقبة ابن عامر فيه ابن لهيعة. وهو بلفظ: «كل ميت يختم على عمله إلا المرابط في سبيل الله؛ فإنه يجري عليه أجر عمله حتى يبعثه الله»، وفي رواية: «ويؤمن من فتان القبر». أخرجه أحمد [١٧٣٥٩]، والدارمي [٢٤٦٩]، وأبو محمد الحارث [٦٢٨]، والطبراني في (الكبير) [٨٤٨]. قال الهيثمي: (٥/٢٨٩): "رواه أحمد والطبراني، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن".

(١) «وأجري عليه»: بصيغة المجهول، أي: أوصل إليه. «رزقه»، أي: من الجنة.

(٢) إكمال المعلم، للقاضي عياض (٦/٣٤٢)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/٦١).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/٧٥٥-٧٥٦).

قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أو المراد فتان القبر من إطلاق صيغة الجمع على اثنين، أو على انهم أكثر من اثنين، فقد ورد أن فتاني القبر ثلاثة أو أربعة، وقد استدل غير واحد بهذا الحديث على أن المرابط لا يسأل في قبره كالشهيد"(١).

وقيل: أراد الدجال. وقيل: الشيطان؛ فإنه يفتن الناس بخدعه إياهم وبتزيين المعاصي لهم(٢).

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومعنى: «**جرى عليه عمله**» كقوله: جرى عليه القضاء، أي: يقدر له من العمل بعد الموت، كما جرى منه قبل الممات، فجرى هنا بمعنى: قدر. ونحوه في المريض قوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة، ثم مرض قيل للملك الموكل به: اكتب له مثل عمله إذا كان طليقًا**» (٣).

قال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المرقاة): "وكذا ورد في المسافر، والشيخ الكبير"(٤).

---

(١) الديباج على صحيح مسلم (٤/٥٠٧).

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح (٦/٢٤٥٨).

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٨/٢٦٢٧). والحديث: بلفظ: «إن العبد إذا كان على طريقة حسنة من العبادة، ثم مرض، قيل للملك الموكل به: اكتب له مثل عمله إذا كان طليقًا، حتَّى أُطْلِقَهُ، أو أَكْفِتَهُ إِلَيَّ» وقد أخرجه: معمر بن أبي عمرو راشد في (جامعه) [٢٠٣٠٨]، وأحمد [٦٨٩٥] والبيهقي في (الكبرى) [٦٥٤٦]. قال الهيثمي (٢/٣٠٣): "رواه أحمد وإسناده صحيح". قال المنذري: "إسناده حسن. وقوله: «أكفته إلي» بكاف ثم فاء ثم تاء مثناة فوق، معناه: أضمه إلي وأقبضه"الترغيب والترهيب (٤/١٤٧).

(٤) مرقاة المفاتيح (٦/٢٤٥٨).

وعن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سَوْطِ أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والرَّوْحَةُ يروحها العبد في سبيل الله، أو الغَدْوَةُ خير من الدنيا وما عليها**» (١).

وعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**رباط شهر خير من صيام دهر، ومن مات مرابطًا في سبيل الله أمن من الفزع الأكبر، وَغُدِيَ عليه بِرِزْقِه وَرِيحَ من الجنة، ويجري عليه أجر المجاهد حتى يبعثه الله** عَزَّوَجَلَّ»(٢).

وعن العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كل عمل ينقطع عن صاحبه إذا مات، إلا المرابط في سبيل الله؛ فإنه ينمى له عمله، ويجرى عليه رزقه إلى يوم القيامة**» (٣).

قال العلامة الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "معناه: أن الرجل إذا مات لا يزاد عن ثواب ما عمل، ولا ينقص منه شيء إلا الغازي؛ فإن ثواب مرابطته ينمو ويتضاعف، وليس فيه

---

(١) صحيح البخاري [٢٨٩٢].

(2) قال الحافظ المنذري: "رواه الطبراني ورواته ثقات"، ونحوه قول الهيثمي في (مجمع الزوائد) (٥/٢٩٠).
وقوله: «وغدي عليه برزقه وريح من الجنة» ببناء: «غدي» و«ريح» إلى المفعول. «ويجري عليه أجر المرابط» ما دام في قبره «حتى يبعثه الله» يوم القيامة من الآمنين.

(3) أخرجه ابن أبي عاصم في (الجهاد) [٢٩٦]، وابن الأعرابي [١٩٧٠]، والطبراني في (الكبير) [٦٤١]، وأبو نعيم في (الحلية) (٥/١٥٦). قال الهيثمي (٥/٢٩٠): "رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات".

ما يدل على أن عمله يزاد بضم غيره إليه، أو لا يزاد، فاندفع قول البعض هذا الحديث يكاد يخل بالحصر المذكور في حديث: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث**»[1] يريد: أن الحصر يدل على أن الثواب بانضمام الغير يجري له، كأنه قيل: ينقطع عمله المنضم إلى عمل الغير إلا عن ثلاث، والمرابطة ليس بداخلة فيها، فلا يخل بالحصر. قال: ولا يبعد أن يدخل ذلك تحت جنس الصدقة الجارية..؛ إذ المقصود نصرة المسلمين"[2]. "قال في (المرقاة): وهو الأظهر"[3].

وعند ابن ماجه رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسند صحيح: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**من مات مرابطًا في سبيل الله أجرى عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وأمن من الفتان، وبعثه الله يوم القيامة آمنا من الفزع**»[4].

وقال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي هذا الحديث قيد ثان، وهو الموت حالة الرباط –والله أعلم–"[5].

---

(١) تقدم.

(٢) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٢/٦٦٤)، فيض القدير (٥/٢٧).

(٣) مرقاة المفاتيح (١/٢٨٥).

(٤) أخرجه ابن ماجه [٢٧٦٧]. قال الحافظ المنذري (٢/١٥٥): "رواه ابن ماجه بإسناد صحيح" وقال: البوصيري في (الزوائد) (٣/١٥٥): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات".

(٥) تفسير القرطبي (٤/٣٢٥)، وانظر: التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص:٤١٧).

وقال الإمام أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما تقدم من قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وإن مات**»: "يعني: في حالة الرِّباط «**جرى عليه عمله**»، أي: أجر عمله، «**الذي كان يعمله**» في حال رباطه، وأجر رباطه"(١).

ومعنى (الرباط): الإقامةُ بالثغرِ مقوّيًا للمسلمينَ على الكفار، والثغرُ كلُّ مكانٍ يخيفُ أهلُهُ العدوَّ.

قال القاضي أبو محمد ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والقول الصحيح هو أن الرباط هو الملازمة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، أصلها من ربط الخيل، ثم سمي كل ملازم لثغر من ثغور الإسلام: مرابطًا، فارسًا كان أو راجلًا. واللفظة مأخوذة من الربط، وقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فذلك الرباط**» (٢) إنما هو تشبيه بالرباط في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ؛ إذ انتظار الصلاة إنما هو سبيل من السبل المنجية، والرباط اللغوي هو الأول، وهذا كقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس الشديد بالصرعة**» (٣)، وكقوله: «**ليس المسكين بهذا الطواف**» (٤) إلى غير ذلك من الأمثلة، والمرابط في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ عند الفقهاء: هو

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣/٧٥٥).

(2) يعني: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا أَدُلُّكُمْ على ما يَمْحُو اللَّه به الْخَطَايَا، ويرفَعُ به الدَّرَجَاتِ؟»»، قالوا: بلى يا رسولَ اللَّه، قال: «إِسْبَاغُ الْوضوء على المكاره، وكثرةُ الْخُطَا إلى المساجِد، وانتظار الصَّلاة بعد الصَّلاة، فذلكم الرِّبَاط» صحيح مسلم [٢٥١]، وقد تقدم.

(٣) صحيح البخاري [٦١١٤]، مسلم [٢٦٠٩].

(4) وتمامه: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس، فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان» قالوا، فما المسكين؟ يا رسول الله، قال: «الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له، فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئًا» صحيح مسلم [١٠٣٩]، أي: أن المسكين الكامل المسكنة هو المتعفف الذي=

الذي يشخص إلى ثغر من الثغور؛ ليرابط فيه مدة ما، قاله ابن المواز رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورواه. فأما سكان الثغور دائما بأهليهم الذين يعتمرون ويكتسبون هنالك، فهم وإن كانوا حماة فليسوا بمرابطين"[١].

وقال ابن خويز منداد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وللرباط حالتان:

حالة يكون الثغر مأمونًا منيعًا يجوز سكناه بالأهل والولد.

وإن كان غير مأمون جاز أن يرابط فيه بنفسه إذا كان من أهل القتال، ولا ينقل إليه الأهل والولد؛ لئلا يظهر العدو فيسبي ويسترق -والله أعلم-"[٢].

وبناء على ما تقدم فقد أوجز السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعريف (الرباط) بقوله: "**هو ملازمة ثغور المسلمين مدة على نية الجهاد، فارسًا كان أو راجلًا، بخلاف سكان الثغور دائمًا بأهليهم الذين يعملون ويكتسبون هناك، فليسوا بمرابطين**"[٣].

والرباطُ فضلُه عظيمٌ، وأجرُه كبيرٌ، وأفضلُه ما كان في أشدِّ الثغورِ خوفًا. وهل يدخل في ذلك: مرابطةُ رجال الأمن لحفظِ أمنِ المسلمين، وحراسةِ مصالحهم في عمومِ

=لا يسأل، ولا يفطن له فيتصدق عليه. وأما الطواف فطوافه كالكسب له. وليس معناه نفي أصل المسكنة عن الطواف، بل معناه: نفي كمال المسكنة، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة:١٧٧]. انظر: إكمال المعلم، للقاض عياض (٣/٥٧٢)، شرح النووي على صحيح مسلم (٧/١٢٩).

(١) المحرر الوجيز (١/٥٦٠)، وانظر: تفسير القرطبي (٤/٣٢٣-٣٢٤)، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص:٤١٨).

(٢) تفسير القرطبي (٤/ ٣٢٤).

(٣) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للسيوطي (ص:١٤٨).

الجهات، الظاهرُ أن ذلك الفضل يشملهم، ولكن المطلوب منهم النيَّة، واحتسابُ الأجر. ومما يذكرُ في هذا السياقِ: قولُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللهِ**»(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مرشدًا العباد ما فيه الفلاح والصلاح لأحوالهم من الأعمال الجليلة التي تنفع العبد في حاله ومآله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

٥ – الشهادةُ في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ:

ومما ينجي من عذابِ البرزخ وفتنته: الشهادةُ في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، كما جاء في الحديث: عن راشد بن سعد، عن رجل من أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أن رجلًا قال: يا رسول الله، ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: «**كَفى بِبارِقَة السُّيُوفِ على رأسه فتْنَةً**»(٢).

---

(١) الحديث مروي عن ابن عباس، وعن أنس. حديث ابن عباس: أخرجه الترمذي [١٦٣٩] وقال: "حسن". حديث أنس: أخرجه أبو يعلى [٤٣٤٦]. قال الهيثمي (٥/٢٨٨): "رواه أبو يعلى والطبراني في (الأوسط) بنحوه، إلا أنه قال: «لا يريان النار». ورجال أبي يعلى ثقات". والحديث له طرق أخرى.

(٢) أخرجه النسائي في (السنن) [٢٠٥٣]، وفي (الكبرى) [٢١٩١]، وذكره الردواني في (جمع الفوائد) [٦١٢٨]، وسنده صحيح. انظر: كنز العمال [١١٧٤١]، (٤/٥٩٥-٥٩٦)، البيان والتعريف (٢/١٤٠)، وقد تقدم.

قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كفى ببارقة السيوف**» "أي: بلمعانها، قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: البارقة: لمعان السيف [١]. «**على رأسه**» يعني: الشهيد. «**فتنة**» فلا يفتن في قبره ولا يسأل؛ إذ لو كان فيه نفاق لفر عند التقاء الجمعين، فلما ربط نفسه لله عَزَّوَجَلَّ في سبيله، ظهر صدق ما في ضميره، وظاهره اختصاص ذلك بشهيد المعركة، لكن أخبار الرباط تؤذن بالتعميم.

وقد تقدم أن الصِّديق كذلك لا يفتن في قبره.

وعن المقدام بن معدي كرب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه**» [٢].

وقد تقدم أن من خصائص الشهيد: أن «**أرواحهم في جوف جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل**» الحديث [٣].

---

(١) قال الراغب: "والبارقة والأُبَيْرِق: السيف، للمعانه" المفردات في غريب القرآن، مادة: (برق) (ص:١١٩).

(٢) أخرجه أحمد [١٧١٨٢]، وابن ماجه [٢٧٩٩]، والترمذي [١٦٦٣]، واللفظ له، وقال: "حديث صحيح غريب"، وقد تقدم.

(٣) تقدم.

وجاء في الحديث: عن عتبة بن عبد السلمي -وكان من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يحدث، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**القتلى ثلاثة: رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله** عَزَّوَجَلَّ **حتى إذا لقي العدو قاتلهم حتى يقتل فذلك الشهيد الممتحن، في خيمة الله** عَزَّوَجَلَّ، **تحت عرشه، ولا يفضله النبيون إلا بفضل درجة النبوة، ورجل مؤمن قرف على نفسه من الذنوب والخطايا، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقي العدو قاتل حتى قتل، فتلك مَصْمَصَةٌ مَحَتْ ذنوبه وخطاياه، إن السيف مَحَّاءٌ للخطايا، وأدخل من أيِّ أبواب الجنة شاء؛ فإن لها ثمانية أبواب، ولجهنم سبعة أبواب، وبعضها أفضل من بعض، ورجل منافق جاهد بنفسه وماله في سبيل الله، حتى إذا لقي العدو قاتل حتى قتل فذلك في النار، إن السيف لا يمحو النفاق**»[1].

---

(1) أخرجه الطيالسي [١٣٦٣]، وأحمد [١٧٦٥٧]، والدارمي [٢٤٥٥]، وابن أبي عاصم في (الجهاد [١٣٢]، وابن حبان [٤٦٦٣]، واللفظ له، والطبراني في (الكبير) [٣١٠]، والبيهقي في (الكبرى) [١٨٥٢٣]، قال الهيثمي (٢٩١/٥): "رواه أحمد والطبراني إلا أنه قال: «وأدخل من أي أبواب الجنة شاء، ولها ثمانية أبواب وبعضها أفضل من بعض». ورجال أحمد رجال الصحيح خلا المثنى الأملوكي، وهو ثقة". وقال الحافظ المنذري (٢٠٨/٢): "رواه أحمد بإسناد جيد، والطبراني، وابن حبان في (صحيحه)، واللفظ له، والبيهقي. و«الممتحن» -بفتح الحاء المهملة- هو المشروح صدره، ومنه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الحجرات:٣]، أي: شرحها ووسعها، وفي رواية لأحمد: «فذلك المفتخر في خيمة الله تحت عرشه» ولعله تصحيف. و«فرق» -بكسر الراء- أي: خائف وجزع. و«المصمصة» -بضم الميم الأولى وفتح الثانية وكسر الثالثة وبصادين مهملتين- هي: الممحصة المكفرة".

٦ - من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة:

وهو من الأمور التي تقع قَدَرًا، لا كَسْبًا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝﴾ [الأعراف:٣٤]. وقد ورد أن الموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة من أسباب الوقاية من عذاب البرزخ، كما روي عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر»** (١).

---

(١) أخرجه أحمد [٦٥٨٢]، والترمذي [١٠٧٤]، وقال: "هذا حديث غريب، وليس إسناده بمتصل". قال الحافظ ابن حجر: "وفي إسناده ضعف، وأخرجه أبو يعلى من حديث: أنس نحوه، وإسناده أضعف" فتح الباري (٢٥٣/٣). ومن أهل العلم من حسن الحديث من مجموع طرقه. قال الإمام الزيلعي: "قلت: وصله الطبراني في (معجمه)، فرواه من حديث: ربيعة بن سيف، عن عياض ابن عقبة الفهري، عن عبد الله بن عمرو فذكره، وكذلك رواه أبو يعلى الموصلي في (مسنده)، وله طريق آخر: رواه أحمد وإسحاق بن راهويه في (مسنديهما)، والطبراني في (معجمه) من حديث: بقية، حدثني معاوية بن سعيد التجيبي، سمعت أبا قبيل، سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقي فتنة القبر» انتهى. وكذلك رواه عبد بن حميد في (مسنده) سواء، والحديث الذي أشار إليه الترمذي رواه: أبو داود والنسائي، في (الجنائز): عن ربيعة بن سيف، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لفاطمة: «لعلك بلغت معهم الكدا» الحديث. وليس لربيعة غير هذين الحديثين، مع أن فيه مقالًا". تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف (٢٠/٤-٢١)، وانظر: المقاصد الحسنة، للسخاوي (ص:٦٧١-٦٧٢)، المغني عن حمل الأسفار (ص:٢١١)، التذكرة، لأبي عبد الله القرطبي (ص:٤٢٢-٤٢٣). قال المناوي: "وصله الطبراني فرواه من حديث: ربيعة بن عياض عن عقبة بن ابن عمرو فذكره، وهكذا أخرجه أبو يعلى، والحكيم الترمذي متصلًا، وخرجه أبو نعيم متصلًا من=

قال في (المرقاة): "وهذا يدل على أن شرف الزمان له تأثير عظيم، كما أن فضل المكان له أثر جسيم"(١).

وقال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم رحمك الله أن هذا الباب لا يعارض ما تقدم من الأبواب، بل يخصصها، ويبين من لا يسأل في قبره، ولا يفتن فيه، ممن يجري عليه السؤال، ويقاسي تلك الأهوال، وهذا كله ليس فيه مدخل للقياس، ولا مجال للنظر فيه، وإنما فيه التسليم والانقياد لقول الصادق المرسل إلى العباد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"(٢).

وقد قيل: إذا قبض الله عَزَّوَجَلَّ عبدًا من عبيده، فوافق قبضه يوم الجمعة كان ذلك دليلًا لسعادته، وحسن مآبه"(٣).

قال الحكيم الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمن مات يوم الجمعة انكشف الغطاء عما له عند الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن يوم الجمعة لا تسجر فيه جهنم، وتغلق أبوابها، فإذا قبض الله عَزَّوَجَلَّ عبدًا من عبيده يوم الجمعة كان دليل سعادته، وحسن مآبه عند الله عَزَّوَجَلَّ، فيوم الجمعة يوم الله عَزَّوَجَلَّ الذي خلق فيه آدم وذريته، ويومه الذي تقوم فيه الساعة، فيميز بين الأحباب والأعداء، ويومه الذي يدعوهم إلى زيارته في جنات عدن، فلم يكن ليعطي

=حديث: جابر. فلو عزاه المؤلف -السيوطي- لهؤلاء كان أجود، ومع ذلك ضعفه المنذري" فيض القدير (٥/٤٩٩).

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/١٠٢١).

(٢) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، لأبي عبد الله القرطبي (ص:٤٢٣).

(٣) انظر: نوادر الأصول في أحاديث الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٤/١٦٢)، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، للسيوطي (ص:١٥١)، اللمعة في خصائص الجمعة، للسيوطي (ص:٦١)، مرقاة المفاتيح (٣/١٠٢١)، فيض القدير (٥/٤٩٩).

بركة هذا اليوم إلا من كتب له السعادة عنده؛ فلذلك يقيه فتنة القبر، على أن سبب فتنة القبر إنما هو لتمييز المنافق من المؤمن في البرزخ، من قبل أن يلقى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن كلا الصنفين صلَّى عليهما، وفعل بهما سنته في الموتى، من الغسل والتكفين، فامتحنا بالسؤال؛ ليهتك المنافق من ستره بقوله: «**لا أدري**»؛ إذ ستر الله عَزَّوَجَلَّ عليه نفاقه بحرمة ما أظهر من المنطق الجميل، فقال: لا إله إلا الله، محمد رسول الله.."(١).

قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن تتمة ذلك أن «**من مات يوم الجمعة له أجر شهيد**»(٢)، فكان على قاعدة الشهداء في عدم السؤال، فقد ورد النص بأن الشهيد لا يسأل، فكأنَّ الميت يوم الجمعة، أو ليلتها على منواله"(٣).

وقال اليافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (روض الرياحين): بلغنا أن الموتى لم يعذبوا ليلة الجمعة تشريفا لهذا الوقت.

قال: ويحتمل ذلك بعصاة المسلمين دون الكفار"(٤).

---

(١) نوادر الأصول في أحاديث الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٤/١٦٢).

(٢) ساق السيوطي في ذلك أحاديث، ولكن لا يخلو واحد منها من ضعف. انظر: شرح الصدرو (ص:١٥١-١٥٣)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٣/١٠٢١). فحديث: «من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووقى فتنة القبر» رواه الترمذي، وقال: غريب، ولم يذكر الشهادة، ورواه غيره بهذا اللفظ، وزاد بعضهم: وليلة الجمعة. وقد تقدم تخريجه. وينظر التفصيل في (تخريج أحاديث الكشاف)، للزيلعي [١٣٤٤] (٤/١٩-٢١)، وفي (المقاصد الحسنة) لشمس الدين السخاوي (ص:٦٧١-٦٧٢).

(٣) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص: ١٥١)، قوت المغتذي على جامع الترمذي (١/٣٢٤).

(٤) شرح الصدور (ص:١٨١)، اللمعة في خصائص الجمعة، للسيوطي (ص:٦٢).

وقد قيل - كما في (بحر الكلام) -: "إن المسلم العاصي يعذب في قبره، ولكن يرفع عنه يوم الجمعة وليلتها، ثم لا يعود إليه إلى يوم القيامة، وإن مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة يكون له العذاب ساعة واحدة وضغطة القبر كذلك، ثم ينقطع عنه العذاب ولا يعود إليه إلى يوم القيامة"(١).

٧ - المحافظة على قراءة سورة الملك والعمل بها:

ومما ينجي من العذابِ في البرزخ: ما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له، وهي سورة تبارك الذي بيده الملك**» (٢).

وقد روي أنها المانعة والمنجية من عذاب القبر (٣).

(١) بحر الكلام، لميمون بن محمد النسفي (ص:٢٥١)، شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور (ص:١٨١).

(2) أخرجه إسحاق بن راهويه في (مسنده) [١٢٢]، وأحمد [٧٩٧٥]، وعبد بن حميد [١٤٤٣]، وابن ماجه [٣٧٨٦]، وأبو داود [١٤٠٠]، والترمذي [٢٨٩١]، وقال: "حديث حسن"، والبزار [٩٥٠٤]، ومحمد بن نصر المرْوَزِي في (مختصر قيام الليل) (ص:١٦٣)، والنسائي في (الكبرى) [١٠٤٧٨]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٧١٠]، وابن حبان [٧٨٧]، وابن السني في (عمل يوم وليلة) [٦٨٣]، والحاكم [٢٠٧٥]، وقال: "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٢٢٧٦]، وفي (إثبات عذاب القبر) [١٥١].

(٣) انظر: نتائج الأفكار في تخريج أحاديث الأذكار، لابن حجر (٥٣/٥). تفسير ابن كثير (١٧٥/٨)، الدر المنثور (٢٣١/٨)، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (٣٠/٢)، تنوير الحوالك شرح موطأ مالك (١٦٤/١)، فيض القدير (٤٥٣/٢)، مسند عبد بن حميد [٦٠٣]، المستدرك [٢٠٧٦]، المعجم الكبير، للطبراني [١١٦١٦]، [١٢٨٠١].

وقد ورد ذلك في روايات متعددة ساقها السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الدر المنثور)، وقال: في (تنوير الحوالك): "وعرف من مجموعها" أنها تجادل عنه في القبر، وفي القيامة معًا؛ لتدفع عنه العذاب، وتدخله الجنة"[١].

و«**شفعت**» بمعنى: تشفع، وفي رواية أبي داود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**تشفع**»[٢].

وقال العلامة المظهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: «**شفعت لرجل**»، هذا يحتمل أن يكون قد مضى في القبر؛ يعني: كان رجل يقرأ سورة الملك، ويعظِّم قدرها، فلمَّا مات شَفِعت له حتَّى دُفعَ عنه عذابُ القبر.

ويحتمل أن يكون الماضي هنا بمعنى: المستقبل؛ أي: تشفعُ لمن قرأها"[٣].

وقد دلَّ هذا الحديثُ على أنَّ من حافظَ على قراءة (سورة الملك)، وداومَ على ذلك، وعَمِلَ بها فإن ذلك من أسباب النجاة من العذاب في البرزخ.

"وخصت بذلك؛ لافتتاحهما بخلق الحياة، وختمها بالماء الذي هو سبب الحياة، فأنتجت الشفاعة التي هي سبب الحياة الكاملة للمشفوع له، وأيضًا افتتاحها بعظائم عظمته، ثم بباهر قدرته وإتقان صنعته، ثم بذم من نازع في ذلك أو أعرض عنه، ثم بذكر عقابهم وما له عليهم من النعيم، ثم ختمها بما اختصها به من بين سائر السور،

---

(1) تنوير الحوالك شرح موطأ مالك (١/١٦٤)، الدر المنثور (٨/٢٣١).

(٢) سنن أبي داود [١٤٠٠].

(٣) المفاتيح في شرح المصابيح (٣/٩٢).

وهو الإنعام بالماء المعين الذي هو سبب الحياة المناسب لذلك، لكنه أثمر المعافاة عن سوء القطيعة بتشفيع هذه السورة في قارئها، وجعلها مانعة عنه منجية له"(١).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**كان رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لا ينام حتى يقرأ:** ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ **السجدة، و**﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾» (٢).

٨ – من أصيب بداءٍ في بطنه فكان سببًا في موته:

ومما ينجي من عذاب البرزخ: من يقتله بطنه، كما صحَّ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**من قتله بطنه لم يعذب في قبره**»، وفي لفظ: «**من يقتله بطنه، فلن يعذب في قبره**» (٣).

---

(١) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٦/٤٩٧).

(٢) أخرجه ابن الجعد [٢٦١١]، وابن أبي شيبة [٢٩٨١٦]، وأحمد [١٤٦٥٩]، وعبد بن حميد [١٠٤٠]، والدارمي [٣٤٥٤]، والبخاري في (الأدب المفرد) [١٢٠٧]، والترمذي [٢٨٩٢]، ومحمد بن نصر المرْوَزِي في (مختصر قيام الليل) (ص:١٦٣)، والنسائي في (الكبرى) [١٠٤٧٦]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٧٠٨]، والخرائطي في (مكارم الأخلاق) [٩٥١]، والطبراني في (الصغير) [٩٥٣]، والحاكم [٣٥٤٥]، وقال: "صحيح على شرط مسلم" ووافقه الذهبي، كما أخرجه تمام [١٥٣٢]، وأبو نعيم في (الحلية) (٨/١٢٩)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢٢٢٨]، والبغوي في (شرح السنة) [١٢٠٧].

(٣) الحديث أخرجه غير واحد عن خالد بن عرفطة وسليمان بن صرد. وقد أخرجه الطيالسي [١٣٨٤]، وابن أبي شيبة [٨٦٨]، وأحمد [١٨٣١٠]، والترمذي [١٠٦٤]، وقال: "حسن غريب في هذا الباب، وقد روي من غير هذا الوجه". كما أخرجه النسائي في (السنن) [٢٠٥٢]، وفي (الكبرى) [٢١٩٠]، وابن قانع (١/٢٨٩)، وابن حبان [٢٩٣٣]، والطبراني في (الكبير) [٤١٠١] وقد=

وهذا يحملُ من أصيبَ بداءٍ في بطنه على أن يصبرَ ولا يجزعَ، وأن يحتسبَ الأجر عند الله عَزَّوَجَلَّ. قال العلامة المظهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: «**من قتلَهُ بطنُهُ لم يُعذَّب**»، يعني: مَنْ مات لوجع البطن لم يعذَّب في القبر، ولعل سببه: أن وجع البطن شديد يكون كفارة لذنوبه، فلا يكون له عذاب في القبر"(١).

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإذا لم يعذب فيه لم يعذب في غيره؛ لأنه أول منازل الآخرة، فإن كان سهلًا فما بعده أسهل"(٢).

وقال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: «**من قتله بطنه**» هو من الاستعارة التبعية، كما في قول الشاعر:

***قتلَ البخلَ وأحيا السماحا (٣)

=أخرجه فيه من غير وجه، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٤١٧]، وفي (إثبات عذاب القبر) [١٥٢].

(١) المفاتيح في شرح المصابيح (٢/٤١١).

(٢) فيض القدير (٦/١٩٣).

(٣) وهو من قول ابن المعتز، والشطر الأول: (جُمِـعَ الحـقُّ لنـا في إمـامٍ***) ديوان ابن المعتز (ص:١٤١).
فقوله: (قتلَ البخلَ..) شبه البخل بالحي، فحذف المشبه به على سبيل المكنية، ونسبة القتل له قرينة. وقوله: (وأحيا السماحا) السماح: استعارة بالكناية، و(وأحيا) قرينة. والشاهد فيه: مدار قرينة الاستعارة التبعية على المفعول؛ فإن (القتل) و(الإحياء) الحقيقيين لا يتعلقان بالبخل والجود؛ لأنهما من المعاني لا روح لهما، والقتل والإحياء إنما يتعلقان بالجسم ذي الروح فعدم صحة تسلط القتل على البخل، والإحياء على الجود دليل على أن المراد بالقتل معنى يناسب البخل، وأن المراد بالإحياء معنى يناسب الجود، والمناسب للأول: الإزالة، أي: أزال البخل، فشبه إزالة البخل بالإماتة، بجامع: اقتضاء كل منهما إعدامًا لما تعلق به، بحيث لا يظهر ذلك المتعلق في كلٍّ، واستعير اسم المشبه به للمشبه، واشتق=

شبه ما يلحق المبطون من إزهاق نفسه به بما يزهق النفس بالمحددات ونحوها، والقرينة نسبة القتل إلى البطن"[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**الشهداء خمسة: المطعون، والمبطون، والغرق، وصاحب الهدم، والشهيد في سبيل الله** عَزَّ وَجَلَّ» [2].

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**خمس من قبض في شيء منهن فهو شهيد: المقتول في سبيل الله شهيد، والغرق في سبيل الله شهيد، والمبطون في سبيل الله شهيد، والمطعون في سبيل الله شهيد، والنفساء في سبيل الله شهيد**» [3].

وعن ربيع الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاد ابن أخي جبر الأنصاري، فجعل أهله يبكون عليه، فقال لهم جَبْرٌ: لا تؤذوا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصواتكم، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعْهُنَّ فَلْيَبْكِينَ مَا دَامَ حَيًّا، فَإِذَا وَجَبَ فَلْيَسْكُتْنَ**»، فقال بعضهم: ما كنَّا نرى أن يكون موتك على فراشك حتى تقتل في

=من (القتل): قتل بمعنى: أزال. والمناسب للثاني: الإكثار، أي: وأكثر السماحا، فشبه الإكثار بالإحياء بجامع ظهور المتعلق في كلٍّ، واستعير اسم المشبه به للمشبه، واشتق من (الإحياء): أحيا بمعنى: أكثر على طريق الاستعارة التصريحية التبعية" حاشية الدسوقي على مختصر المعاني (٣/٣٦٦).

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٤/١٣٥٣).

(٢) صحيح البخاري [٦٥٣، ٧٢٠، ٢٨٢٩]، مسلم [١٩١٤].

(٣) أخرجه ابن المبارك في (الجهاد) [١٩٨]، والنسائي في (السنن) [٣١٦٣]، وفي (الكبرى) [٤٣٥٦]، وأبو عوانة [٧٤٧٦]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٥١٠٥]، والطبراني في (الكبير) [٩٠٠].

سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**أَوَ مَا الشَّهَادَةُ إِلَّا في الْقَتْلِ في سبيل الله؟ إنَّ شهداءَ أُمَّتِي إذن لَقَلِيلٌ، إنَّ الطَّعْنَ وَالطَّاعُونَ شَهَادَةٌ، والْبَطْنَ شَهَادَةٌ، والنُّفَسَاءَ بِجُمُعٍ شَهَادَةٌ، وَالْحَرَقَ شَهَادَةٌ، وَالْغَرَقَ شَهَادَةٌ، وَالْهَدْمَ شَهَادَةٌ، وذَاتَ الْجَنْبِ شَهَادَةٌ**»(١).

وفي (موطأ الإمام مالك رَحِمَهُٱللَّهُ): عن جابر بن عتيك رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**الشهداء سبعة، سوى القتل في سبيل الله: المطعون شهيد، والغرق شهيد، وصاحب ذات الجنب شهيد، والمبطون شهيد، والحرق شهيد، والذي يموت تحت الهدم شهيد، والمرأة تموت بِجُمْعٍ شهيد**»(٢).

وأما المبطون فهو صاحب داء البطن، وهو الإسهال.

وقيل: هو الذي به الاستسقاء وانتفاخ البطن. وعبارة ابن التين رَحِمَهُٱللَّهُ: أنه الذي يكون به بطن منخرق، ويسمى: الاستسقاء

وقيل: هو الذي تشتكي بطنه.

وقيل هو الذي يموت بداء بطنه مطلقًا.

---

(١) أخرجه الطبراني في (الكبير) [٤٦٠٧]، قال الحافظ المنذري (٢١٩/٢): "رواه الطبراني، ورواته محتج بهم في الصحيح". وقال الهيثمي: (٣٠٠/٥): "رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح".

(٢) الموطأ، للإمام مالك [٨٠٢]. قال ابن عبد البر: "هكذا هو عند يحيى، وجماعة من رواة الموطأ في كتاب الجنائز، وليس عند القعنبي في كتاب الجنائز، وهو عنده في كتاب الجهاد" الاستذكار (٥٣٦/٢). وقال: " هكذا رواه جماعة الرواة عن مالك فيما علمت لم يختلفوا في إسناده ومتنه" التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢٠٣/١٩). قال الإمام النووي: "وهذا الحديث الذي رواه مالك صحيح بلا خلاف، وإن كان البخاري ومسلم لم يخرجاه" شرح النووي على صحيح مسلم (٦٢/١٣).

وأما الغرق فهو الذي يموت غريقًا في الماء.

وصاحب الهدم: من يموت تحته.

وصاحب ذات الجنب معروف، وهي: قرحة تكون في الجنب باطنًا.

والحريق: الذي يموت بحريق النار [١].

قال في (النهاية): "هو الذي يموت بمرض بطنه، كالاستسقاء [٢]، ونحوه" [٣].

وفي كتاب (الجنائز)، لأبي بكر المروزي عن شيخه شريح: أنه صاحب القولنج [٤].

وقال غيره: هو صاحب الإسهال [٥].

---

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/٦٢-٦٣)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٦/٣٤٤)، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، لابن الملقن (١٧/٤٥٩)

(٢) الاستسقاء قيل: "هو عبارة عن تجمع سائل مصلي في التجويف البريتوني لا يكاد يبرأ منه" المعجم الوسيط مادَّة: (سقى)، (١/٤٣٧)، و"(التجويف البريتوني): هو غشاء مصلي يبطن جوف البطن، ويتكون من طبقتين: جدارية وحشوية. وهو نسيج رابط. وعمله هو الحفاظ على الأحشاء الداخلية في البطن، وإيصال الدم والسائل اللمفي والأعصاب إليها. ويسمى (الصفاق)" انظر: الموسوعة العربية العالميَّة (التهاب الصفاق).

(٣) النهاية في غريب الحديث، مادة: (بطن) (١/١٣٦).

(٤) انظر: تنوير الحوالك (١/١٨٢)، شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (٢/١٠٤). و"(القولنج): مرض معوي مؤلم يصعب معه خروج البراز والريح، وسببه التهاب القولون. والقولون: المعي الغليظ الضيق الذي يتصل بالمستقيم" المعجم الوسيط (٢/٧٦٧).

(٥) انظر: تحقيقنا لمنظومتي الشهداء: (داعي الهدي)، لأحمد المغربي، و(شرح منظومة الشهداء)، للأجهوري (ص:٨٨-٩٨).

قال ابن عابدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واختلف فيه، هل المراد به الاستسقاء أو الإسهال؟ قولان، ولا مانع من الشمول"[1].

وقال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من يقتله بطنه**» فيه قولان:

أحدهما: أنه الذي يصيبه الذرب، وهو الإسهال، تقول العرب: أخذه البطن: إذا أصابه الداء، وذرب الجرح: إذا لم يقبل الدواء، وذربت معدته: فسدت.

الثاني: أنه الاستسقاء، وهو أظهر القولين فيه؛ لأن العرب تنسب موته إلى بطنه، تقول: قتله بطنه، يعنون: الداء الذي أصابه في جوفه، وصاحب الاستسقاء قلَّ أن يموت إلا بالذرب فكأنه قد جمع الوصفين وغيرهما من الأمراض، والوجود شاهد للميت بالبطن أن عقله لا يزال حاضرًا، وذهنه باقيًا إلى حين موته.

ومثل ذلك: صاحب السل.."[2].

وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بجمع**»: -بتثليث الجيم وإسكان الميم- قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما المرأة تموت بجمع، ففيه قولان:

أحدهما: المرأة تموت من الولادة وولدها فى بطنها قد تم خلقه.

وقيل: إذا ماتت من النفاس فهو شهيد، سواء ألقت ولدها وماتت، أو ماتت وهو فى بطنها.

(١) حاشية رد المحتار (٢/٢٥٢).

(٢) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص: ٤٢٥).

والقول الثاني: هى المرأة تموت عذراء قبل أن تحيض لم يمسها الرجال.
والأول أشهر فى اللغة"(١).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وحقيقة الجُمْع والجِمْع أنهما بمعنى: المفعول كالذخر والذبح. ومنه قولهم: ضربه بجمع كفه، أي: بمجموعها، وأخذ فلان بجمع ثياب فلان. فالمعنى: ماتت مع شيء مجموع فيها غير منفصل عنها: حملًا أو بكارة"(٢).

وقال ابن عابدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكسر الكسائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الجيم. وقد تفتح الجيم أيضا على قِلَّة"(٣).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما المرأة تموت بجمع فهو بضم الجيم وفتحها وكسرها، والضم أشهر. قيل: التي تموت حاملًا جامعة ولدها في بطنها. وقيل: هي البكر، والصحيح الأول"(٤).

وفي (أحكام الجنائز)، لإبراهيم بن يوسف البولوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن قيل فما وجه الجمع بين ما جاء في (الصحيحين)، وبين ما جاء في (موطأ الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ)؟

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٥/٤٤)، وانظر: الاستذكار (٣/٦٩)، التمهيد (١٩/٢٠٧)، الميسر في شرح مصابيح السنة (٢/٣٧٨)، وانظر: تحقيقنا لجامع الهدى بشرح منظومة الشهدا، لأحمد بن عبد الرزاق المغربي الرشيدي [٢-٣]، (ص:٣٧-٤٤).

(٢) الفائق في غريب الحديث والأثر (١/ ٢٣٢).

(٣) حاشية رد المحتار (٢/٢٥٢)، وانظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٤/١٣٤٨).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/٦٣).

فالجواب: أنه يحتمل أن يكون عدد الشهداء وقت صدور الحديث محصورًا على خمسة، ثم يتفضَّل الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بالزيادة.."[1]. أو يقال بأن ذلك لم يكن على سبيل الحصر.

وقد تقدم أن عدم السؤال في البرزخ لهؤلاء إنما هو من الجري على قاعدة أن الشهداء لا يسألون.

وقد تقدم قول الإمام التُّورِبِشْتِي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقول العلامة الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أن من تقدم ذكره ممن أطلق عليه مسمى: (الشهيد) حكمًا: أنه إنما يشارك الشهداء في نوع من أنواع المثوبات التي يستحقها الشهداء، ولم يرد به المساواة في سائر أنواع الفضيلة.

فمن مات بالطاعون أم بوجع في البطن -مثلًا- فإنه ملحق بمن قتل في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ؛ لمشاركته إياهم في بعض ما ينال من الكرامة، بسبب ما كابده من الشدة، لا في جملة الأحكام والفضائل.

٩ – المحافظة على أداء العبادت، وفعل الخيرات:

ومما ينجي من عذاب البرزخ: ما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الميت إذا وضع في قبره إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه فإن كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه، وكان الصيام عن يمينه، وكانت الزكاة عن شماله، وكان فعل الخيرات من الصدقة، والصلة، والمعروف، والإحسان إلى الناس عند رجليه.**

---

(١) انظر: تحقيقنا لأحكام الجنائز، لإبراهيم بن يوسف البولوي (ص:٣٤٦-٣٤٧).

فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يمينه فيقول الصيام: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى عن يساره فتقول الزكاة: ما قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه فتقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس: ما قبلي مدخل».

واللفظ عند الطبراني في (الأوسط): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«والذي نفسي بيده، إنه ليسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، فإن كان مؤمنًا كانت الصلاة عند رأسه، والزكاة عن يمينه، والصوم عن شماله، وفعل الخيرات والمعروف والإحسان إلى الناس من قبل رجليه، فيؤتى من قبل رأسه، فتقول الصلاة: ليس قبلي مدخل، فيؤتى عن يمينه، فتقول الزكاة: ليس من قبلي مدخل، ثم يؤتى عن شماله، فيقول الصوم: ليس من قبلي مدخل، ثم يؤتى من قبل رجليه، فيقول فعل الخيرات والمعروف والإحسان إلى الناس: ليس من قبلي مدخل»** (١).

وقد دلت الأحاديث على أنَّ الصلاة، والزكاة، والصيام، وفعل الخيرات: من الصدقة، والصلة، وصنائع المعروف، والبر، والإحسان إلى الناس من أسباب النجاة من عذابِ القبر وكربه وفتنه.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في (المصنف) [٦٧٠٣]، وابن أبي شيبة [١٢٠٦٢]، وابن حبان [٣١١٣]، والطبراني في (الأوسط) [٢٦٣٠]، والحاكم [١٤٠٣]، والبيهقي في (إثبات عذاب القبر) [٦٧]، قال الهيثمي (٥١/٣ -٥٢): "رواه الطبراني في (الأوسط)، وإسناده حسن"، وقد تقدم.

١٠ – تحقيقُ التقوى لله عَزَّوَجَلَّ:

والجامعُ لما تقدم من أسباب الوقاية والنجاة من عذاب البرزخ: تحقيقُ التقوى لله عَزَّوَجَلَّ، بأداءِ ما أوجبه، وتركِ ما حرَّمه، والإكثارِ من التوبة والاستغفارِ، والنوافل، وفضائلِ الأعمال؛ فإن التقوى: صيانة للمرء عما يضره في الآخرة.

١١ – الاستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ من عذاب القبر:

تقدَّم أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يكثر من الاستعاذة من عذاب القبر في الصلاة وخارجها، مبينًا لأمته أهمية هذا الدعاء، وأن الحرص على الدعاء، والالتجاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم الأسباب التي تنجي العبد من عذاب القبر وفتنته، ومن أعظم الأسباب المنجية من النوازل، والآفات، والأهوال.

وقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحرص بالغ الحرص على تعليم أمته الدعاء الجامع لخيري الدنيا والآخرة، وعلى الاستعاذة من شرور وآفات قد تصيب المسلم؛ ليعصمهم اللهُ عَزَّوَجَلَّ منها.

١٢ – خلاصة نافعة في ذكر أنواع الشهادة الحكمية:

قالوا: الشهيد على ثلاثة أقسام:

الأول: شهيد الدنيا والآخرة.

والثاني: شهيد الدنيا.

والثالث: شهيد الآخرة.

فشهيد الدنيا والآخرة هو الذي يقتل في قتال مع الكفار، مقبلًا غير مدبر؛ لتكون كلمة الله عَزَّوَجَلَّ هي العليا، وكلمة الذين كفروا هي السفلى، دون غرض من أغراض الدنيا.

قال في (المجموع): "واعلم أن الشهداء ثلاثة أقسام:

أحدها: شهيد في حكم الدنيا: وهو ترك الغسل والصلاة، وفي حكم الآخرة بمعنى: أن له ثوابًا خاصًّا، وهم أحياء عند ربهم يرزقون، وهذا هو الذي مات بسبب من أسباب قتال الكفار قبل انقضاء الحرب.

والثاني: شهيد في الآخرة دون الدنيا: وهو المبطون، والمطعون، والغريق، وأشباههم.

والثالث: شهيد في الدنيا دون الآخرة، وهو المقتول في حرب الكفار، وقد غلَّ من الغنيمة، أو قتل مدبرًا أو قاتل رياء ونحوه، فله حكم الشهداء في الدنيا دون الآخرة"(١).

وقال الخطيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المغني): وأما شهيد الآخرة: كالمقتول ظلمًا من غير قتال، والمبطون إذا مات بالبطن، والمطعون إذا مات بالطاعون، والغريق إذا مات

---

(١) المجموع شرح المهذب (٥/٢٦٤)، وانظر: الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري (٥/٤٢)، عمدة القاري (٥/١٧٢)، حاشية البجيرمي على الخطيب (٢/٢٨١)، فتح المعين (ص:٢٢٦)، نهاية الزين (ص:١٦١).

بالغرق، والغريب إذا مات في الغربة، وطالب العلم إذا مات على طلبه، أو مات عشقًا، أو بالطلق، أو بدار الحرب، أو نحو ذلك.

واستثنى بعضهم من الغريب: العاصي بغربته، كالآبق والناشزة.

ومن الغريق: العاصي بركوبه البحر، كأنه كان الغالب فيه عدم السلامة أو استوى الأمران أو ركبه لشرب خمر.

ومن الميتة بالطلق: الحامل بزنا.

والظاهر كما قال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما عدا الأخيرة، وفي الأخيرة أيضًا أن ما ذكر لا يمنع الشهادة"(١).

ومن أنواع الشهادة الحكمية: صاحب ذات الجنب -كما تقدم-، والحرق، والهدم، والموت بسبب السِّلِّ، ومن افترسه السبع، ومن صرع عن دابته في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، ومن وقصته فرسه أو بعيره وهو في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، ومن لدغته هامة وهو في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، ومن قتل دون أهله، ودون ماله، ودون دمه، ودون دينه، ودون مظلمته، والمائد في البحر، ومن سأل الشهادة بصدق، ومن قام إلى إمام جائر فأمره بمعروف، ونهاه عن منكر فقتله بسبب ذلك، والشريق، ومن تردى من رؤوس الجبال، والمتمسك بالسنة في وقت الفتن،ومن دعا بدعوة يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في مرضه، والموت بعد المواظبة على قيام رمضان، ومن قتله الخوارج.

(١) مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج (٢/٣٥)، وانظر: تحفة المحتاج، لابن حجر الهيتمي (٣/١٦٦).

والمرتث، وهو من حمل من المعركة مستقر الحياة، بأن تكلم، أو أكل أو شرب، أو نام، أو باع أو ابتاع، أو طال بقاؤه عرفا، ثم مات بعد ذلك.

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الرث: الشيء البالي، وجمعه: رثاث. وقد رث الحبل وغيره يرث رثاثة. وفلان رث الهيئة، وفي هيئته رَثاثةٌ، أي: بذاذَةٌ. وأَرَثُّ الثوبُ، أي: أَخْلَقَ. قال: وارْتُثَّ فلان، وهو افْتُعِل على ما لم يُسَمَّ فاعله، أي: حُمِلَ من المعركة رَثيثًا، أي: جريحًا وبه رمق"[١]. والارتثاث في اللغة من الإرث، وهو الشيء البالي، وسمي به مرتثًا؛ لأنه قد صار خَلِقًا في حكم الشهادة.

وقيل: مأخوذ من الترثيث، وهو الجرح.

وفي بعض كتب اللغة: ارتث فلان، أي حمل من المعركة رثيثًا، أي: جريحًا.

وسمي مرتثًا؛ لأنه صار خلقًا في حكم الشهادة بما كلف به من أحكام الدنيا، أو وصل إليه من منافعها بعد انقضاء الحرب، فسقط حكم الدنيا، وترك الغسل، فيغسل، وهو شهيد في حكم الآخرة له ثواب الموعود للشهداء.

قال في (البدائع): "ثم المرتث وإن لم يكن شهيدًا في حكم الدنيا فهو شهيد في حق الثواب حتى إنه ينال ثواب الشهداء كالغريق، والحريق، والمبطون، والغريب إنهم شهداء بشهادة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لهم بالشهادة، وإن لم يظهر حكم شهادتهم في الدنيا"[٢].

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (رثث) (١/٢٨٢-٢٨٣).

(2) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (١/٣٢٢)، وانظر: مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر (١/١٨٩)، العناية شرح الهداية (٢/١٤٨)، مراقي الفلاح (ص:٢٣١-٢٣٢)، حاشية الطحطاوي على مراقي=

وفي (الدر المختار): "فالمرتث شهيد الآخرة، وكذا الجنب ونحوه، ومن قصد العدو فأصاب نفسه، والغريق، والحريق، والغريب، والمهدوم عليه، والمبطون، والمطعون، والنفساء، والميت ليلة الجمعة، وصاحب ذات الجنب، ومن مات وهو يطلب العلم"(١).

وإذا استشهد الجنب غسل عند أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقالا: لا يغسل، وبه قال الشافعي وأشهب رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ(٢).

و"أطلق الشهيد بطريق الاتساع على الغريق، والحريق، والمبطون، وطالب العلم، والمطعون، والغريب، وذات الطلق، وذي ذات الجنب وغيرهم مما كان لهم ثواب المقتولين، كما أشير إليه في (المبسوط) وغيره، بَيَّنَ الشهيدَ الحقيقي شرعًا، وهو الشهيد في أحكام الدنيا"(٣).

وفي (المغني): "فأما من قتل ظلمًا، أو قتل دون ماله، أو دون نفسه وأهله، ففيه روايتان:

=الفلاح (ص:٦٢٦-٦٢٨)، العناية شرح الهداية (١٤٦/٢-١٤٧)، البناية على الهداية (٢٦٤/٣)، البحر الرائق (٢١٣/٢).

(١) رد المحتار على الدر المختار (٢٥٢/٢).

(٢) البناية شرح الهداية (٢٦٤/٣)، وانظر: العناية شرح الهداية (١٤٦/٢)، منحة الخالق، لابن عابدين (١٨٥/٢).

(3) مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر (١٨٨/١)، وانظر: المبسوط، لشمس الأئمة السرخسي (٥١/٢).

إحداهما: يغسل. اختارها الخلال رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو قول الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومذهب الشافعي ومالك رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ؛ لأن رتبته دون رتبة الشهيد في المعترك، فأشبه المبطون؛ ولأن هذا لا يكثر القتل فيه، فلم يجز إلحاقه بشهداء المعترك.

والثانية: لا يغسل، ولا يصلى عليه. وهو قول الشعبي والأوزاعي وإسحاق رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في الغسل؛ لأنه قتل شهيدًا، أشبه شهيد المعترك، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من قتل دون ماله فهو شهيد»** (١).

فأما الشهيد بغير قتل، كالمبطون، والمطعون، والغرق، وصاحب الهدم، والنفساء، فإنهم يغسلون، ويصلى عليهم، لا نعلم فيه خلافًا، إلا ما يحكى عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يصلى على النفساء؛ لأنها شهيدة.."(٢).

وفي (الإقناع): "ومن قتل مظلومًا حتى من قتله الكفار صبرًا في غير الحرب ألحق بشهيد المعركة، والشهداء غير شهيد المعركة بضعة وعشرون: المطعون، والمبطون، والغريق، والشريق، والحريق، وصاحب الهدم، وذات الجنب، والسل، وصاحب اللقوة (٣)، والصابر في الطاعون، والمتردي من رؤس الجبال، ومن مات في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، [كمن مات في الحج، ومن مات في طلب العلم].

---

(١) تقدم.

(٢) المغني، لابن قدامة (٣/٣٩٩).

(٣) -بلام مفتوحة، فقاف ساكنة-: داء يصيب الوجه، يعوج منه الشدق -كما في (العين)، مادة: (لقو) (٥/ ٢١٢)، وتهذيب اللغة (٩/ ٢٢٧). وفي (مقاييس اللغة) (٥/٢٦٠): "داء يأخذ في الوجه يَعْوَجُّ منه"، وقال المناوي: "مرض يعرض للوجه فيميله إلى أحد جانبيه، مرض ينحدب له شق الوجه إلى=

ومن طلب الشهادة بنية صادقة، وموت المرابط، وأمناء الله عَزَّوَجَلَّ في الأرض، والمجنون، والنفساء، واللديغ، ومن قتل دون ماله، أو أهله، أو دينه، أو دمه، أو مظلمته، وفريس السبع، ومن خرَّ عن دابته. ومن أغربها: موت الغريب، وأغرب منه: العاشق إذا عف وكتم..."[(١)]. فهم شهداء في ثواب الآخرة، لا في أحكام الغسل والصلاة. قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكلُّ متجرِّد لله عَزَّوَجَلَّ في جهاد نفسه فهو شهيد، مهما أدركه الموت، مقبلًا غير مدبر، فالمجاهد من جاهد نفسه وهواه، كما صرح به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والجهاد الأكبر: جهاد النفس، كما قال بعض الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر يعنون: جهاد النفس"[(٢)].

وقد جاء بسط ذلك في مظانه.

وقد ذكر الإمام جلال الدين السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالة له بعنوان: (أبواب السعادة، في أسباب الشهادة) أنواعًا كثيرة من الشهادة الحكمية[(٣)]، وجاء كذلك ذكر أنواع الشهادة الحكمية كذلك في تحقيقنا لشرح منظومتي الشهداء، (داعي الهدى

=جهة غير طبيعية، ولا يحسن التقاء الشفتين، ولا ينطبق إحدى العينين" التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٩١).

(١) الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل (٢١٩/١)، وانظر: كشاف القناع (١٠١/٢).

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٤٤) وانظر: مختصر منهاج القاصدين (ص:١١٨).

(٣) كتاب: أبواب السعادة في أسباب الشهادة، لجلال الدين السيوطي، طبع في المكتبة القيمة، القاهرة، ط:٢، سنة [١٤٠٧هـ].

بشرح منظومة الشهدا)، لأحمد بن عبد الرَّزاق المغربي الرَّشيدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، و(شرح منظومة الشهداء)، لعلي بن محمد الأجهوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ

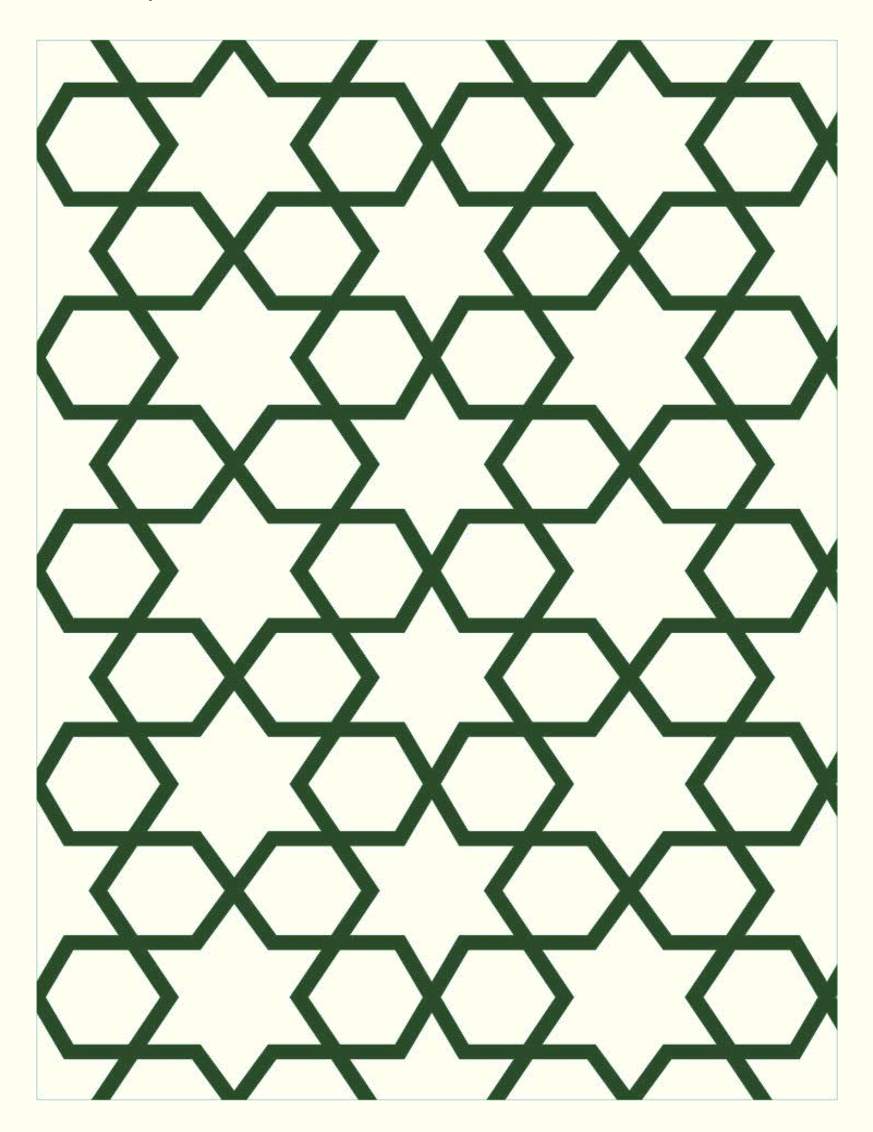
قال القاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المرقاة): "وقد جمع شيخ مشايخنا الحافظ جلال الدين السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ورد من أنواع الشهادة الحكمية في كراسة منهم: الغريق، والحريق، والمهدوم، والغريب، والمرابط، ومن مات يوم الجمعة، أو ليلته، وغير ذلك.."[1].

(١) مرقاة المفاتيح (٦/٢٤٦٩).

المبحث الحادي عشر:

أسباب السعادة
وتفاوت مراتبها

الإرشاد إلى أسباب النجاة



أولًا: الحياةَ الطَّيِّبَة، والسعادة الرضية مطلَبٌ يَنْشُدُهُ كلُّ البشر:

إنَّ الحياةَ الطَّيِّبَة، والسعادة الرضية مطلَبٌ يَنْشُدُهُ كلُّ البشر، وهي ثمرة من ثمار الاستقامة في الاعتقاد والعمل، المبني على نهج سليم.

وقليل من الملتمسين سبل السعادة، والساعين إلى الحياة الطيبة، من يسلك طريقها القويم، وينهج نهجها السليم، من الأخذ بأسبابها، دون زيغ أو تعثر.

ولقد ضلَّ كثير من النَّاس طريق السعادة، فسلكوا طرقًا ملتوية، فظلَّت نفوسهم حائرة، وانفضت أعمارهم في أوهام، ومتاهات، فباؤوا في دنياهم وفي الأخرة: بالصَّفْقة الكاسدة الخاسرة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [النور:٣٩].

وقد توهم كثير من الناس أن السعادة في كثرة المال والبنون، ومنهم من يرى أنها في الملك أو المنصب والشهرة والجاه.. إلى غير ذلك، فبذل في سبيل كل سعيه، فما أدرك من بعد ذلك إلا سعادة زائفة، أشبه بالسراب.

وفي كتاب الله عَزَّوَجَلَّ نماذج ممن ضل سعيهم في الحياة الدنيا، فكانوا من الخاسرين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤].

وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن فرعون وكيف أغواه ملكه، وعن قارون وكيف أشقاه ماله، وعن هامان وكيف أرداه جاهه وسلطانه.

وكم لنا في الآفاق من عبرة عن سوء خاتمة من بلغ من الشهرة منزلة عالية، ولكنه عاش في حياته مخذولًا، وظن كثيرون أنه من السعداء، وهو في غاية البؤس الشقاء، ثم مات ميتة سوء، فخسر الدنيا والآخرة.

أينَ الملوكُ ذوي التيجانِ من يَمَنٍ ... وأينَ منهم أكاليلٌ وتيجانُ

وأينَ ما شادَهُ شَدَّادُ في إرَمٍ ... وأين ما ساسَه في الفُرسِ ساسانُ

وأينَ ما حازَهُ قارونُ من ذهبٍ ... وأين عادٌ وَشَدَّادٌ وقحطانُ

أتى على الكُلِّ أمرٌ لا مَرَدَّ لهُ ... حتى قَضوا فكأنَّ القَوم ما كانوا

*** *** ***

النفس تبكي على الدنيا وقد علمت ... أن السعادة فيها ترك ما فيها

أين الملوك التي كانت مسلطنة ... حتى سقاها بكأس الموت ساقيها

أموالنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها

إن السعادة والنعيم مطلب وغاية لكل إنسان، فالكل يسعى ويحب من متاع الدنيا أن يكون له مسكن واسع، ومركب هنيء، ومال وافر، وطعام شهي، وملابس فاخرة، وزوجة حسناء جميلة.

وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم جملة من الشهوات والملذات التي يستمتع بها الناس في حياتهم الدنيا، وتتطلبها الغرائز الإنسانية على سبيل الامتنان والتذكير بها، إلَّا أنه بين أن هناك ما هو أولى منها، وهو ما عند الله عَزَّوَجَلَّ في الآخرة؛ حثًّا للإنسان

على عدم الاسترسال والإغراق في هذه الشهوات التي تحول بينه وبين ما هو أولى، كما أن الاسترسال في الشهوات له مضار ظاهرة وباطنة وحسية ومعنوية وفردية واجتماعية، فلا ينبغي لهم أن يجعلوا كل همهم في هذا المتاع القريب العاجل، بحيث يشغلهم عن الاستعداد لما هو خير منه في الآجل. قال عزَّ من قائل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران:١٤-١٥].

فهذا بيان لما فطر عليه الناس من حبِّ هذه الشهوات وتزينها في نفوسهم، وتمهيد لتذكيرهم بما هو خير منها، لا لبيان ذمِّها في نفسها كما قد يُتوهَّم؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ ما فطر الناس على شيء مذموم، ولا جعل دينه مخالفًا لفطرته، بل موافقًا لها كما قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم:٣٠].

وقد تعلقت قلوب كثير من الناس بالمتاع الدنيوي العاجل، إلى أن صار غاية عندهم، فأفنوا في سبيله أنفسهم، وضيَّعوا حقوقًا وواجبات. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة:٣٨]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف:٣٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف:٤٦].

فمن الناس من شغلهم النعيم الدنيوي العاجل، فأفنوا في سبيله أنفسهم، وضيَّعوا حقوقًا وواجبات. وقد توَّعد الله عَزَّوَجَلَّ هؤلاء فقال: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾ [النازعات:٣٧-٣٩].

وقال في المقابل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات:٤٠-٤١].

ثانيًا: السَّبيل الموصل إلى السَّعادة:

لا سعادة للعبد دون اتصاله بالله عَزَّوَجَلَّ، وسلوكه صرطًا مستقيمًا موصلًا إلى رضوان الله عَزَّوَجَلَّ ومحبته.

وقد بين الحقُّ جَلَّوَعَلَا أن الطريق إليه واحد لا تعدد فيه، وهو صراطه المستقيم الذي نصبه موصلًا لمن سلكه إليه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام:١٥٣]، فوحَّد سبيله؛ لأنه في نفسه واحد لا تعدد فيه، وجمع السبل المخالفة؛ لأنها كثيرة متعددة.

فالطَّريق الموصلُ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وإلى رضوانِه وجنَّتِه واحدٌ، وهذا مما اتفقت عليه الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. وأما طرق الجحيم فأكثر من أن تحصى.

فمن أراد الهداية فعليه أن يسلكَ طريقَ الحقِّ الواضحَ والمختصر، وأن ينأى بنفسه عن طرقٍ ومتاهاتٍ ملتوية قد يضلَّ بها ويشقى. ولا بدَّ لكلِّ سالك من الاستضاءة بنور الوحي، واتباع منهج الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يصون نفسه عمَّا يضر في الآخرة، بالوقوف

عند حدود الله عَزَّوَجَلَّ، والتزام ما أمر، واجتناب ما نهى، ولا يتحقق ذلك إلا بالعلم والفقه والتَّبصر، والتَّمسك بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وسُنَّةِ نبيِّه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وتفرق السبل من الآفات التي تصيب العقل، وتشتت الفكر، فيضِلُّ العقل، ويضيعُ الجهد، وينقضي العمرُ دون التبين والوضوح، كما تصيبُ هذه الآفة النفسَ بأمراض نفسيَّة وجسديَّة.

والحق الموصل إلى الهداية والسعادة طريقه واضح وميسر، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القمر:١٧].

وقال النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الحلال بين والحرام بين، وبينهما مشبهات**»(١)، أما طريق الباطل فهو شائك ومهلك ومعسر.

لكنَّ الوصول إلى الحقِّ لا يكون إلا بالإخلاص والتَّجرد، والاهتداء بأنوار الوحي، والاحتراز من التَّفرق في متاهاتٍ مُضِلَّة، ودروب ملتوية، حيث تنقضي الأعمال ولا يتبين للباحث الطريق الصحيح، بل يتيه في أقوال الفلاسفة والمفكرين الذين توسعوا في البحث، وهدم اللاحق ما أتى به السَّابق، فتشعَّبت الأقوال واختلفت، وانغمس الباحثون في لجة تلك الصراعات الفكريَّة، فسقطوا في أودية الضَّلال.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام:١٥٣].

---

(١) صحيح البخاري [٥٢، ١٩٤٦]، مسلم [٤١٨١].

وفي الحديث: خطَّ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطًّا، وخطَّ عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطًّا، ثم قال: «**هذا صراط ربك مستقيمًا، وهذه السبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**»، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾» (١).

وفي الحديث أيضًا: عن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «**يا معشر القُرَّاءِ استقيموا فقد سبقتم سبقًا بعيدًا، فإن أخذتم يمينًا وشمالًا، لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا**» (٢).

وقد فصلت القول في ذلك في كتاب: (عقبات في طريق الهداية).

ثالثًا: أسباب السعادة:

إن من أسباب السعادة:

١ - أن يُعْنى العاقلُ بسرورٍ لا ينقطع:

إن النعيم الحياة الدنيا يُرى ويُحَسُّ، ولكنَّه لا يدوم، ولا يكون إلا مشوبًا بالمنغصات، أما ما عند الله عَزَّ وَجَلَّ فهو أعظمُ وأبقى. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه [٢٩٣٨]، ووافقه الذهبي. قال الإمام الزيلعي: "رواه النسائي في (التفسير) أخبرنا يحيى بن حبيب ثنا حماد عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود.. الخ. ورواه ابن حبان في (صحيحه) في النوع الحادي عشر من القسم الثالث، والحاكم في (مستدركه) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواه أحمد، وأبو داود الطيالسي، وإسحاق بن راهويه، والبزار في (مسانيدهم). قال البزار: ورواه عن أبي وائل غير واحد. ورواه أبو يعلى الموصلي في (مسنده) وسنده عن حماد بن زيد عن عاصم ابن أبي النجود به. تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف، للزيلعي (١/٤٤٦).

(٢) صحيح البخاري [٧٢٨٢].

قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ [النساء:٧٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى:١٦-١٧].

قال الشاعر:

أشـــدُّ الغـمِّ عندي في ســـرورٍ ... تَيَـقَّن عـنـه صـاحبه انتقـالا [(١)]

يعني: أن السرور الذي تيقن صاحبه الانتقال عنه هو أشدُّ الغمِّ؛ لأنه يراعي وقت زواله، ولا يطيب له ذلك السرور، وهذا من أبلغ الكلام وأوعظه.

وإنما يُعْنى العاقلُ بسرورٍ لا ينقطع، فيعمل في الدنيا صالحًا؛ ليحيا حياة طيبة، ثم يوفى الأجر والثواب في الآخرة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل:٩٧].

٢ - مخالفة النفس، والهوى، والشيطان، وإصلاح النفس، والتخلق بالأخلاق الفاضلة:

من أراد أن يسلك طريق السعادة فعليه أن يخالف النفس والهوى والشيطان، وأن يتبع منهج الله عَزَّوَجَلَّ القويم، وشِرعته المباركة، التي أنزلها ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، فذلك السبيل الذي ينجو به الناس من الغواية، وسلطان الهوى، فلا سبيل إلا بالاتباع، ولا نجاة إلَّا بالانقياد.

---

(١) ديوان المتنبي (ص:١٤٠).

٣ – تغذية الروح بالإيمان الذي يورث القناعة والاطمئنان، وتطهيرها من الأَوْضَارِ والأَدْرَان التي تورث النكد والشقاء:

من أراد سلوك طريق السعادة فلا بدَّ له من تغذية روحه بالإيمان، وتطهيرها من الأَوْضَارِ والأَدْرَان، وصيانة نفسه، والعناية والارتقاء بها وفق منهج الله عَزَّوَجَلَّ الذي فيه صلاحها وسعادتها.

وغياب الإيمان هو سبب الشقاء والنكد، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه:١٢٣-١٢٧].

وفي الحديث: «**مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ**»(١).

---

(١) الحديث مروي عن أنس، وعن زيد بن ثابت. حديث أنس: أخرجه هناد (٣٥٥/٢)، والترمذي [٢٤٦٥]، وأبو نعيم في (الحلية) (٣٠٧/٦). حديث زيد بن ثابت: أخرجه الطيالسي [٦١٧]، وأحمد [٢١٥٩٠]، وابن ماجه [٤١٠٥]، وابن حبان [٦٨٠]، والطبراني في (الكبير) [٤٨٩١]، وتمام [١٤٦١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٥٥]. قال العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:١٧٣٢): "أخرجه ابن ماجه من حديث: زيد بن ثابت بإسناد جيد".

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قَالَ اللَّهُ** عَزَّ وَجَلَّ: **يَا بْنَ آدَمَ، تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي؛ أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ؛ مَلَأْتُ صَدْرَكَ شُغْلًا، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ**» (١).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ﴾ [الطلاق:٢-٣].

٤ – تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّ وَجَلَّ:

إن أعظم أسباب النَّجاة والأمن والسعادة: تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّ وَجَلَّ، الذي هو حَقُّ الله عَزَّ وَجَلَّ على العبيد، والبعد عن البدع والضَّلالات، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ [الأنعام:٨٢].

والمراد بالظلم ها هنا: الشرك؛ لما روي في (الصحيح): أن الآية لما نزلت شقَّ ذلك على الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقالوا: أَيُّنَا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس ما تَظُنُّونَ إنما هو ما قال لقمان** عَلَيْهِ السَّلَامُ **لابنه**: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان:١٣]» (٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٦٩٩]، وأحمد [٨٦٩٦]، وابن ماجه [٤١٠٧]، والترمذي [٢٤٦٦]، وقال: "حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٣٩٣]، والحاكم [٣٦٥٧]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي.

(٢) صحيح البخاري [٣٢، ٤٦٢٩، ٦٩٣٧].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قيل يا رسول الله: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة: من قال: لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه، أو نفسه**»(١).

وهذه الشفاعة إنما هي لمن وحَّدَ الله عَزَّوَجَلَّ، مخلصًا له الدين، ولا تكون لمن أشرك بالله عَزَّوَجَلَّ. ويتفضل الله عَزَّوَجَلَّ على أهل التوحيد والإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، وهو النبي الأكرم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ليكرمه الله عَزَّوَجَلَّ بهذه الشفاعة، ويكرم أمته، وينال المقام المحمود الذي وعده الله عَزَّوَجَلَّ إياه في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ٧٩﴾ [الإسراء:٧٩]. فمن وحَّد الله عَزَّوَجَلَّ توحيدًا خالصًا، وعمل عملًا صالحًا صادقًا: عاش عيشةً هنيَّة، ومات ميتةً سويَّة، ودخل الجنَّة راضيًا مرضيًّا.

٥ – رسوخ الإيمان بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره:

إن من أسباب النجاة والسعادة: رسوخ الإيمان بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره، وأن الدنيا بقاؤها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، شبابها يهرم، وحيها يموت، فالمغرور من اغتر بها، وهي دار ابتلاء واختبار، وليست دار إقامة، وأن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، وأن مع العسر يسرًا، وأن فرج الله عَزَّوَجَلَّ قريب. وفي الحديث:

---

(١) أخرجه البخاري [٩٩، ٦٥٧٠].

عن صهيبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إنَّ أمره كُلَّهُ خيرٌ، وليس ذاك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سَرَّاءُ شَكَرَ، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضَرَّاءُ، صَبَرَ فكان خيرًا له**» (١).

ومن يسلك طريق الهداية فإن الله عَزَّوَجَلَّ يعينه ويوفقه، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محمد:١٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [التغابن:١١]، أي: ومن يصدّق بالله عَزَّوَجَلَّ، فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، فهو بذلك ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾، أي: يوفِّق الله عَزَّوَجَلَّ قلبه إلى التسليم لأمره، والرضا بقضائه (٢).

وقيل: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

وعن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ﴾ [التغابن:١١]: «**هو الذي إذا أصابته مصيبة رضي، وعرف أنها من الله عَزَّوَجَلَّ**»(٣).

وقال الشيخ البقاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: يزده هداية بما يجدده له من التوفيق في كل وقت، حتى يرسخ إيمانه، فتنزاح عنه كل مصيبة؛ فإنه يتذكر أنها من الله عَزَّوَجَلَّ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فيسلم بقضائه، فيصبر له، ويفعل ويقول ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيخف عليه، ولا يعوقه عن شيء من

---

(١) صحيح مسلم [٢٩٩٩].

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٣/٤٢١).

(٣) صحيح البخاري (٦/١٥٥).

المنجيات في يوم التغابن، بل يحصل له بسببها عدة أرباح وفوائد، فتكون حياته طيبة بالعافية الشاملة في الدينيات والكونيات؛ لأن بالعافية في الكونيات تطيب الحياة في الدنيا، وبالعافية في الدينيات تطيب الحياة في الآخرة، فتكون العيشة راضية، وذلك بأن يصير عمله صوابًا في سرائه وضرائه، فيترك كل فاحشة دينية، بدنية، وباطنة قلبية، ويترك الهلع في المصائب الكونية، كالخوف، والجوع، ونقص الأموال، والأنفس، والثمرات.."(١).

٦ – أن يُثَمِّن العبد ما عنده من نعمٍ لا تعدُّ ولا تحصى:

وعلى من أراد السَّعادة أن يُثَمِّن ما عنده من نعمٍ لا تعدُّ ولا تحصى؛ إذ عند كل إنسانٍ نعمٌ كثيرة، وآلاءٌ وفيرة؛ غير أنه لا يلتفت إلى ما لديه من أمنٍ وإيمانٍ، وراحةٍ واطمئنانٍ، ومن عافيةٍ وصحَّةٍ وسترٍ، وسمعٍ وبصرٍ وفكرٍ، وحواسٍّ وأعضاءٍ لو عرضت عليه فيها ملايين لما رضي أن يقايضها بها، فمن ثمَّن ما عنده من آلاءٍ ونعمٍ، وقوَّم ما يدرأ عنه من كروبٍ ونقم: اطمأنَّت نفسه، وسكنت جوارحه، وارتاح قلبه. قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من أصبح منكم آمنًا في سِرْبِه، مُعَافًى في جسده، عنده قوت يومه؛ فكأنما حِيزَتْ له الدُّنيا**»(٢).

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٠/١٢٤-١٢٥).

(٢) أخرجه الحميدي في (مسنده) [٤٤٣]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٣٠٠]، وابن ماجه [٤١٤١]، والترمذي [٢٣٤٦]، وقال: "حسن غريب". وأخرجه أيضًا: الشهاب القضاعي [٥٤٠]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٧٨].

٧ – أن يضع العبد نصب عينيه مصير من سلك طريق الشقاء، وعاقبة من سلك طريق السعادة والهناء:

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا مصير من سلك طريق الشقاء، وعاقبة من سلك طريق السعادة والهناء: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمۡ فِيهَا زَفِيرٞ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧ ۞وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ ۝١٠٨﴾ [هود:١٠٦-١٠٨].

٨ – إخلاصُ النية في طلب الحقّ، والاهتداء بأنوار الوحي:

إنَّ من أسباب الضَّلال والغواية: عدم إخلاص النية في طلب الحق، كمن يسلك طريق الالتزام من أجل غايات أخرى، كتحصيل منفعة دنيوية، أو الدنو من صاحب سلطان، أو من محبوب؛ ولذلك فإنَّ أمثال هؤلاء لا يسلكون طريقًا مستقيمًا، بل يتقلَّبُون بحسبِ المصالح.

٩ – السعيُ إلى تكميلِ النَّفس بالعلمِ والمعرفة:

ويكون باتباع منهج من البحث سليم من الآفات؛ فإن المعرفة السليمة تُبصِّر السالك، وتنير له الدرب.

١٠ - السعي إلى المعالي في المجالات كافة:

والسعي إلى المعالي لا يكون إلا بتجنب ما يعيق سير المكلف، وقد يقتضي ذلك الهجرة والتضحية بالمحبب الآني من أجل هدف مرتقب، وغاية سامية.

١١ - اغتنام الوقت بما ينفع العبد:

إن من أنفع ما يشغل به العبد وقته: الإكثار من نوافل الطاعات، وتجنب المحظورات، والاشتغال بما ينفع المكلَّف في دنياه وآخرته من العلم والعمل.

١٢ - الإكثار من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد:٢٨].

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خُذُوا جُنَّتَكُمْ**» قالوا: يا رسول الله، أَمِنْ عَدُوٍّ قد حَضَرَ؟ قال: «**لا، وَلَكِنْ جُنَّتُكُمْ من النَّارِ قَوْلُ: سُبْحَانَ اللهِ، والْحَمْدُ لِلَّهِ، ولا إلهَ إِلَّا اللهُ، واللهُ أَكْبَرُ؛ فَإِنَّهُنَّ يأْتِينَ يومَ الْقِيَامَةِ مُجَنِّبَاتٍ ومُعَقِّبَاتٍ، وهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ**»(١).

---

(١) أخرجه النسائي في (الكبرى) [١٠٦١٧]، واللفظ له، وفي (عمل اليوم والليلة) [٨٤٨]، والطبراني في (الأوسط) [٤٠٢٧]، وفي (الصغير) [٤٠٧]، والحاكم [١٩٨٥]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، وأقره الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٥٩٨]، وفي (الدعوات الكبير) [١٣١]، والديلمي [٢٨٢٩]. قال المنذري (٢/٢٨١): "إسناده جيد قوي". وقال الهيثمي (١٠/٨٩):=

وقد تقدم أن الإكثار من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من خير الأعمال النافعة للعبد، والباقية.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات: صفاء القلب، أعني: طهارته من أدناس الدنيا؛ وأُنسه بذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وحبه لله جَلَّوَعَلَا. وطهارة القلب لا تحصل إلا بالكفِّ عن شهوات الدنيا. والأُنس لا يحصل إلا بكثرة الذكر، والحُب لا يحصل إلا بالمعرفة، ولا تحصل معرفة الله عَزَّوَجَلَّ إلا بدوام الفكر"(١).

١٣ – ملازمة العلماء والصالحين وأصحاب الهمم العالية.

١٤ – الإكثار من ذكر الموت.

١٥ – أن يتجنب السلك المهلكات المتوعد عليها بالعذاب، والعقبات التي تحول دون الهداية:

وقد أفردت من قبل بالبحث –كما تقرَّر غير مرَّة–، كما ذُكِر في هذا المصنف الكثير مما ينبغي على السالك تجنبه من المهلكات والعقبات.

ومن يحفظ جوارحه، وقلبه، ودينه فإن الله عَزَّوَجَلَّ يحفظه ويكون معه، قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحفيظ من العباد: من يحفظ جوارحه، وقلبه، ويحفظ دينه عن سطوة

="رجاله في الصغير رجال الصحيح، غير داود بن بلال وهو ثقة" وللحديث شواهد. انظر: الدر المنثور (٥/٣٩٧).

(١) جواهر القرآن (ص:١٢).

الغضب، وخلابة الشهوة، وخداع النفس، وغرور الشيطان؛ فإنه على شفا جرف هار، وقد اكتنفته هذه المهلكات المفضية إلى البوار"(١).

وقد عرف كلها من لسان الشارع صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فليسارع العبد إلى دفع الموبقات، وجلب المنجيات، بإصلاح النفس، والتخلق بالأخلاق الإلهية؛ فإن النفس طاغية، مؤدية إلى الإفلاس والخسار. وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال: «**أتدرون ما المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: «**إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار**» (٢).

فلا ينبغى للعاقل أن يبقى مع النفس؛ فإنه إذا نزل عليه العذاب غضبًا للنفس لا يجد وليًّا يتولاه، ولا نصيرًا ينصره، ولا ملجأ يفر إليه، فهذه حال المعرضين، وأما حال المقبلين القابلين للبلاغ والإرشاد فالله عَزَّوَجَلَّ يحفظهم مما يخافونه يوم المعاد"(٣).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُٱللَّهُ: "ولقد رأيت -والله- من أنفق عمره في العلم، إلى أن كبرت سنه، ثم تعدى الحدود، فهان عند الخلق، وكانوا لا يلتفتون إليه، مع غزارة علمه، وقوة مجاهدته.

---

(١) المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى (ص:١١٣).

(٢) صحيح مسلم [٢٥٨١].

(٣) روح البيان (٨/٣٤٠).

ولقد رأيت من كان يراقب الله عَزَّوَجَلَّ في صبوته -مع قصوره بالإضافة إلى ذلك العالم- فعظم الله عَزَّوَجَلَّ قدره في القلوب، حتى علقته النفوس، ووصفته بما يزيد على ما فيه من الخير"(١).

ومن أسباب السلامة والعافية: أن يتحرى العبد أسباب النجاة من العلم بالمنجيات، والحرص عليها، ومن ذلك: ما تقدم ذكره في هذا المصنف، وما جاء في الكتب السابقة، كنهج الأبرار، وعقبات في طريق الهداية وغيرهما، وقد ذكر الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ربع المنجيات أنه يشتمل على عشرة كتب: كتاب: التوبة، وكتاب: الصبر والشكر، وكتاب: الخوف والرجاء، وكتاب: الفقر والزهد، وكتاب: التوحيد، والتوكل، وكتاب: المحبة والشوق والأنس والرضا، وكتاب: النية والصدق والإخلاص، وكتاب: المراقبة والمحاسبة، وكتاب: التفكر وكتاب ذكر الموت.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما ربع المنجيات فأذكر فيه كل خلق محمود، وخصلة مرغوب فيها من خصال المقربين والصديقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين، وأذكر في كل خصلة حدها، وحقيقتها، وسببها الذي به تجتلب، وثمرتها التي منها تستفاد، وعلامتها التي بها تتعرف، وفضيلتها التي لأجلها فيها يرغب مع ما ورد فيها من شواهد الشرع والعقل"(٢).

وذكر في (جواهر القرآن) العلوم المهمة، والنافعة، والمنجية للمكلف في حاله ومآله، قال: "وأشرفها: العلم بالله عَزَّوَجَلَّ، واليوم الآخر؛ لأنه علم المقصد، ودونه: العلم

---

(١) صيد الخاطر (ص:٢٠٨).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/١).

بالصراط المستقيم، وطريق السلوك، وهو معرفة تزكية النفس، وقطع عقبات الصفات المهلكات، وتحليتها بالصفات المنجيات، وقد أودعنا هذه العلوم بكتب: (إحياء علوم الدين) ففي ربع المهلكات: ما تجب تزكية النفس منه، من الشره والغضب، والكبر والرياء والعجب، والحسد، وحب الجاه، وحب المال وغيرها.

وفي ربع المنجيات يظهر ما يتحلى به القلب من الصفات المحمودة، كالزهد، والتوكل، والرضا، والمحبة، والصدق، والإخلاص، وغيرها.

وبالجملة يشتمل كتاب: (الإحياء) على أربعين كتابًا، يرشدك كل كتاب إلى عقبة من عقبات النفس، وأنها كيف تقطع، وإلى حجاب من حجبها، وأنه كيف يرفع، وهذا العلم فوق علم الفقه والكلام وما قبله؛ لأنه علم طريق السلوك، وذلك علم آلة السلوك، وإصلاح منازله، ودفع مفسداته -كما يظهر-.

والعلم الأعلى الأشرف: علم معرفة الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن سائر العلوم تراد له ومن أجله، وهو لا يراد لغيره.. وذكر طريق التدرج والترقي فيه، ثم ذكر ما يتلوه في الشرف"(١).

وإن الله عَزَّوَجَلَّ قد أمر بجميع المحاسن الممدوحات المنجيات، ونهى عن جميع القبائح الموبقات المذمومات. والآيات في ذلك كثيرة، ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل:٩٠].

---

(١) انظر: جواهر القرآن (ص:٤١-٤٣).

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: هذه أجمع آية في القرآن لخير يمتثل، ولشر يجتنب [(١)].

وعن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ليس من خلق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسنونه إلا أمر الله عَزَّوَجَلَّ به في هذه الآية، وليس من خلق كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه وقدح فيه، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامها [(٢)].

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد قالت العلماء: إن أجمع آية للبر، والفضل، ومكارم الأخلاق: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ [النحل:٩٠]"[(٣)].

وقال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لو لم يكن في القرآن غير هذه الآية لصدق عليه أنه تبيان لكل شيء، وهدى ورحمة للعالمين"[(٤)].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) [٦٠٠٢]، وابن جرير الطبري في (التفسير) (٢٨٠/١٧)، والطبراني في (الكبير) [٨٦٥٨]، والحاكم [٣٣٥٨]، وقال: "على شرط الشيخين" ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في [٢١٧٣]. وانظر: تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني (١٩٧/٣)، تفسير القرطبي (١٦٥/١٠)، فضائل القرآن، لأبي العباس المستغفري (٧٦٢/٢)، أحكام القرآن، لابن العربي (١٥٥/٣)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢٥٨/٩).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٨٠/١٧-٢٨١)، بحر العلوم (٢٨٨/٢)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٧٩/٣)، تفسير ابن كثير (٥٩٦/٤)، الدر المنثور (١٦٠/٥)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٤٠٧٣/٦)، أحكام القرآن، لابن العربي (١٥٥/٣).

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٣٣٤/٢٤).

(٤) تفسير البيضاوي (٢٣٨/٣).

وسبل النجاة باطنة وظاهرة، قد بينها الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لأقوامهم، والعلماء والمصلحون في كل زمان. قال الله عَزَّوَجَلَّ حكاية عن المؤمن: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ۝٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ۝٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۝٤٣ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٤٤﴾ [غافر:٤١-٤٤][(١)].

١٦ - تحري أسباب المغفرة، والخصال المكفرة:

وستأتي الإشارة إلى جملة من الأسباب والخصال المكفرة.

رابعًا: التقوى تبلغ العبد أعلى درجات السعادة في الآخرة:

إن أعظم سعادة، وخير، وفوز، إنما هو في دخول جنة الله عَزَّوَجَلَّ، التي أعدها الله عَزَّوَجَلَّ لعباده الصالحين، والتي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ونعيم الله عَزَّوَجَلَّ مراتب، وأعظمها: رؤية الله عَزَّوَجَلَّ في الجنة، وهي الفوز الحقيقي، ومنتهى السعادة الكاملة للعبد، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ۝٢٣﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

---

(١) انظر: عنوان الدليل، لأبي العباس ابن البناء المراكشي (ص:٧٩).

فمن أحسن في هذه الحياة الدنيا فله الحسنى وزيادة، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾ [يونس:٢٦]، أي: الذين آمنوا بالله عَزَّوَجَلَّ ورسله عَلَيۡهِمُ‌السَّلَامُ، وأحسنوا بالقيام بما أوجبه الله عَزَّوَجَلَّ عليهم، وانتهوا عما حرمه عليهم، فإن الله عَزَّوَجَلَّ المثوبة الحسنى في الآخرة، وهي: الجنة، مع نعيم زائد يحصلون عليه وهم في الجنة، وهو رؤية الله عَزَّوَجَلَّ.

إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ خَلَقَ الجنَّة وأعدَّها لعباده المتقين، وخصَّهم فيها بمزيدٍ من الإحسان والفضل، وجعلَ لعبادِه أسبابًا للفوز برضوانه ورحمته، ودخولِ جنَّته، وليغنموا جوارَ أرحم الراحمين، وليسعدوا بالنَّظر إلى وجهه الكريم، وذلك من رحمته جَلَّوَعَلَا، وفضله، ومنِّه وكرمه.

فمحبَّةُ الجنَّة؛ لكونها غايةً للسَّعادة الكاملة، والنَّعيم الدَّائم، ومحبَّتُها كذلك؛ لكونها دارٌ يلتقي فيها المحبون لقاءً دائمًا لا فراق بعده، ويتحقَّقُ المقصودُ فيها من جوارِ أكرم الأكرمين، وأرحمِ الراحمين، وأعظمِ محبوب، ويغنمُ الصالحونَ بالنَّظر إلى وجهه الكريم جَلَّوَعَلَا، والفوز بغاية الغايات، وأرفع المقامات.

"ولا شكَّ أن سعادة المؤمنين لا تعادلها سعادة عندما يساقون معززين مكرَّمين زمرًا إلى جنَّات النَّعيم، حتى إذا ما وصلوا إليها فتحت أبوابها، واستقبلتهم الملائكة الكرام يهنِّئونهم بسلامة الوصول، بعدما عانوه من الكربات، وشاهدوه من الأهوال. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزمر:٧٣]، أي: طابت

أعمالكم وأقوالكم وعقائدكم، فأصبحت نفوسكم زاكية، وقلوبكم طاهرة؛ فبذلك استحققتم الجنات"[(١)].

"ونعيم الجنَّة يفوق الوصف، ويقصر دونه الخيال، ليس لنعيمها نظير فيما يعلمه أهل الدنيا، ومهما ترقى الناس في دنياهم، فسيبقى ما يبلغونه أمرًا هينًا بالنسبة لنعيم الآخرة.

وقد سأل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن بناء الجنة، فأسمعنا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الإجابة وصفًا عجبًا، يقول النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في صفة بنائها"[(٢)]: **«لَبِنَةٌ من ذهب، ولَبِنَةٌ من فضة، ومِلَاطُهَا المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران من يدخلها يَنْعَمُ لا يَبْؤُس، ويَخْلُدُ لا يَمُوت، لا تَبْلَى ثِيَابُهُ، ولا يَفْنَى شَبَابُه»** [(٣)].

---

(١) الجنة والنار، عمر بن سليمان الأشقر (ص:١١٩).

(٢) المصدر السابق (ص:١٤٧).

(٣) الحديث مروي عن أبي هريرة، وعن ابن عمر، وعن أبي سعيد، بألفاظ متقاربة. حديث أبي هريرة: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٠٧٥]، والطيالسي [٢٧٠٦]، وأحمد [٩٧٤٤]، والدارمي [٢٨٦٣]، وابن حبان [٧٣٨٧]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٦٩٩]، حديث ابن عمر: أخرجه الطبراني في (الكبير) [١٣٩٩٢]، قال الهيثمي (٣٩٧/١٠): "رواه الطبراني بإسناد حَسَّنَ الترمذي لرجاله. حديث أبي سعيد: عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «خلق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الجنة لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك». وفي رواية: «وحائط الجنة لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك وقال لها: تكلمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقالت الملائكة: طوباك منزل الملوك». قال الهيثمي (٣٩٧/١٠): "رواه البزار مرفوعًا وموقوفًا، والطبراني في (الأوسط)، إلا أنه قال: عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ=

قال الحافظ أبو نعيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحمد لله.. الذي رَغَّبَنا في كرامته وجَنَّته بعد أن حَلَّاهَا لنا ورَغَّبَنَا فيها، فهو السَّلام، وداره دار السَّلام، والسَّلام على من سارعَ إلى طاعته، وسابقَ إلى مرضاتِهِ؛ ليحظى بدخول داره التي يُؤْمَنُ فيها من الآفات، وَيُسْلَمُ فيها من العَاهَات، التي من دخلها أَمِنْ من البوار، وسَلِمَ من الدَّمار، وحَظِيَ بجوار المنعم الجبَّار.

وفي كتاب الله عَزَّوَجَلَّ: الحثُّ على المسابقة إلى جنَّته العريضة، وساحته الفسيحة، التي خلقها عُدَّةً لمن وَحَّدَه، وألْقَى الشِّرْكَ وعَبَدَه. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾ [آل عمران:١٣٣]، وقال: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢١﴾ [الحديد:٢١]"(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكيف يقدر قدر دار غرسها الله جَلَّوَعَلَا بيده، وجعلها مقرًّا لأحبابه، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم، وملكها بالملك الكبير، وأودعها جميع الخير بحذافيره، وطهَّرها من كل عيب وآفة ونقص.

فإن سألت عن أرضها وتربتها، فهي المسك والزعفران.

وإن سألت عن سقفها فهو عرش الرحمن.

=قال: «إن الله خلق جنة عدن بيده، لبنة من ذهب، ولبنة من فضة»، والباقي بنحوه، ورجال الموقوف رجال الصحيح، وأبو سعيد لا يقول هذا إلا بتوقيف".

(١) بتصرف عن (صفة الجنة) (ص:٢٩-٣٠).

وإن سألت عن بلاطها، فهو المسك الأذفر.

وإن سألت عن حصبائها، فهو اللؤلؤ والجوهر.

وإن سألت عن بنائها، فلبنة من فضة، ولبنة من ذهب.

وإن سألت عن أشجارها، فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب وفضة، لا من الحطب والخشب.

وإن سألت عن ثمرها، فأمثال القلال، ألين من الزبد، وأحلى من العسل.

وإن سألت عن ورقها، فأحسن ما يكون من رقائق الحلل.

وإن سألت عن أنهارها، فأنهار: ﴿مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد:١٥].

وإن سألت عن طعامهم، ففاكهة: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾ [الواقعة: ٢٠-٢١].

وإن سألت عن شرابهم، فالتسنيم، والزنجبيل والكافور.

وإن سألت عن آنيتهم فآنية الذهب والفضة في صفاء القوارير.

وإن سألت عن سعة أبوابها فبين المصراعين مسيرة أربعين من الأعوام، وليأتين عليه يوم، وهو كظيظ من الزحام.

وإن سألت عن تصفيق الرياح لأشجارها، فإنها تستفز بالطرب لمن يسمعها.

وإن سألت عن ظلها، ففيها شجرة واحدة يسير الراكب المجد السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها.

وإن سألت عن سعتها، فأدنى أهلها يسير في ملكه وسرره وقصوره وبساتينه مسيرة ألف عام.

وإن سألت عن خيامها وقبابها، فالخيمة الواحدة من درة مجوفة، طولها ستون ميلًا من تلك الخيام.

وان سألت عن علاليها وجواسقها[1] فهي: ﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠].

وإن سألت عن ارتفاعها، فانظر إلى الكوكب الطالع أو الغارب في الأفق الذي لا تكاد تناله الأبصار.

وإن سألت عن لباس أهلها، فهو الحرير والذهب.

وإن سألت عن فرشهم فبطائنها من استبرق مفروشة في أعلى الرتب.

وإن سألت عن وجوه أهلها وحسنهم، فعلى صورة القمر.

وإن سألت عن أسنانهم، فأبناء ثلاث وثلاثين، على صورة آدم عليه السلام أبي البشر.

وإن سألت عن أسماعهم، فغناء أزواجهم من الحور العين، وأعلى منه سماع أصوات الملائكة والنبيين، وأعلى منهما خطاب رب العالمين"[2].

وينبغي أن يعلم أنه لا يقاس شيء من أحوال الآخرة على الدنيا. ولكن ذكر لمحات عن الجنة وصفتها يدلل على النعيم المرجو، وما أعدَّه الله عَزَّوَجَلَّ لعباده الصالحين،

---

(١) (الجوسق): القصر.

(٢) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص: ٢٨٠-٥٧٨)، بتصرف يسير.

وأنه لا يقاس على نعيم الدنيا، فيبلغ المنعمون في الجنة غاية النعيم الذي لا ينقطع، وكمال السعادة. فلا يصلح القياس على نعيم الدنيا لا من حيث تركيب البدن، حيث يختلف عن الدنيا بما يتلاءم مع المنعم به، ولا من حيث ذات النَّعيم. وهذا معنى قول الله عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي: «**أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ذخرًا بَلْهَ ما أُطْلِعْتُمْ عليه، ثم قرأ:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة:١٧] »(١).

فما يخطر ببالك فإن الأمر في ذاته وحقيقته خلاف ذلك، وأرفع منه. أما ما في الدنيا من لمحاتِ نعيمٍ آنيٍّ فهو يُقرِّب ذلك؛ ليكون متقبلًا من حيث الإمكان، وإن اختلف في حقيقته عما في الدنيا.

والإنسانُ في الدنيا من حيث الخلق مركَّبٌ من كثيرٍ من الصِّفات التي هي على طرفي نقيضٍ بين الخير والشَّر، تتجاذبُهُ نوازعُ الخير ونوازعُ الشَّر، والعقيدةُ تُوجِّه الإنسانَ إلى الميول الخيرة، والشيطان يزِّينُ له الشَّهوات، ويغريه بنعيمٍ آنيٍّ سرعان ما ينقضي، وتبقى آثاره، فمن يتبعُ خطوات الشيطان فليس له من الملذات إلَّا ما حصل له في الدنيا على قلَّته وتكديره بالمنغصات، ثم يجني بعد ذلك جزاء ما قدمت يداه. أما في الجنة فيختلف الحال من حيث الخلق بما يتلاءم مع سعادة باقية لا تشوبها نوازع الشر، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الأعراف:٤٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ٤٥ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦ وَنَزَعْنَا مَا فِي

(١) صحيح البخاري [٤٧٨٠]، مسلم [٢٨٢٤]. «بله ما أطلعتم عليه» أي: دعوا ما أطلعتم عليه من نعيم الجنة وعرفتموه من لذاتها؛ فإنه سهل يسير في جانب ما ادَّخرته لكم.

صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: ٤٥-٤٨].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أول زمرة تَلِجُ الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يَبْصُقُونَ فيها، ولا يَمْتَخِطُون، ولا يَتَغَوَّطُون، آنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّة، وَرَشْحُهُمُ المِسْك، ولكل واحد منهم زوجتان، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبِّحون الله بكرة وعشيًا**»[(١)].

وقد وعد الله عَزَّوَجَلَّ عباده المتقين بسعادة كاملة، وتتحقق هذه السعادة لكلٍّ من الذكر والأنثى بالتساوي. أما الكيفية فيقتصر في ذلك على ما ورد في النص، ويبقى في علم الله عَزَّوَجَلَّ ما طوي ذكره، ولا شك أن ذلك من الغيب. فهناك ما هو مسكوت عنه، ولا سيما بالنسبة للأنثى؛ لأنها مكرَّمة في الخطاب بما يتلاءم مع حالها من العفَّة والحياء والستر. فمهما تكلم المتكلمون فقد جانبوا الصواب؛ لأن الأمر غيبي، وتبقى الغاية، وهي كمال السعادة والنعيم متحققة بوعد من الخالق جَلَّوَعَلَا، فما ذكر وراء ذلك فإنما هو تسور على الغيب، وحكم على أمر لم تتضح معالمه، وخفي منه ما

---

(١) صحيح البخاري [٣٢٤٥]، ونحوه في (مسلم) [٢٨٣٤]. «مجامرهم»: جمع مجمرة، وهي المبخرة سميت بذلك؛ لأنها يوضع فيها الجمر؛ ليفوح به ما يوضع فيها من البخور. «الألوة»: العود الهندي الذي يتبخر به. «رشحهم»: عرقهم كالمسك في طيب رائحته. «مخ سوقها»: ما داخل العظم من الساق. «قلب واحد» أي: كقلب رجل واحد. ولا تكليف في الجنة، ولكن أهلها يلهمون التسبيح والذكر.

خفي. وقد اختصر الحديث القدسي السابق ذلك: «**أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**».

والقرآن إنما يعنى بالمقاصد الشريفة والغايات النبيلة، ونحن بالنسبة للغيبيات إنما نقرأ النقل بالعقل، لكن ضمن ضوابط فهم النصوص من حيث عدم الخروج عن حدود اللغة أو التفسير فما دامت المقاصد متحققة فكفى.

أما الخوض فيما وراء ذلك فلا يثمر؛ لأنا لم نحط علمًا بمقومات السعادة في الآخرة، فما هو مطويٌّ أعظم في حقيقته مما لوَّحتْ به النُّصوص من الوصف، والنصوص تقرب ذلك وفي الوقت نفسه تذكر أنه فوق كل تصور.

فلا شك أن ما هو معدٌّ للمرأة -مثلًا- أعظم وأسمى مما يتصور، وهو يحقق لها من السعادة ما تصبو إليه كاملًا غير منقوص بما يتلاءم مع حالها. هذه الغاية التي تطلب بالنسبة للذكر والأنثى.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٣٢﴾ [الأنعام:٣٢]. "هذا خبر مؤكد بلام القسم، يفيد بمقابلته أن نعيم الآخرة ليس كنعيم الدنيا لعبًا ولهوًا يعبث به العابثون، أو يتشاغلون ويتسلون به عن الأكدار والهموم، بل هو مما يقصده العاقل لفوائده ومنافعه الثابتة الدائمة"(١).

وفي (الصحيحين): عن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إن الله** تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ **يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة؟ فيقولون: لبيك ربنا**

(١) تفسير المنار (٧/٣٠٤).

وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحِلُّ عليكم رضواني، فلا أَسْخَطُ عليكم بعده أبدًا» (١).

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٧٢﴾ [التوبة:٧٢].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٧٢﴾ [التوبة:٧٢]: أي: "دون ما يعده الناس فوزًا من حظوظ الدنيا؛ فإنها مع قطع النظر عن فنائها وتغيُّرها وتنغُّصِها وتكدُّرِها ليست بالنسبة إلى أدنى شيءٍ من نعيم الآخرة بمثابة جناحِ البعوض" (٢). قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«لو كانتِ الدُّنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سَقَى الكافرَ منها شربة ماء»** (٣).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان حال كثيرٍ من النَّاس الذين يقدِّمونَ الحياةَ الدُّنيا على الآخرة، ويؤثرونَ متاعها العاجل على ما فيه نفعهم وصلاحهم في معاشهم ومعادهم: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، "أي: ثواب الله عَزَّوَجَلَّ في الدار الآخرة خير من الدنيا وأبقى، فإن الدنيا دنية فانية، والآخرة شريفة

(١) صحيح البخاري [٦٥٤٩، ٧٥١٨]، مسلم [٢٨٢٩].
(٢) انظر: تفسير أبي السعود (٤/٨٤)، روح المعاني (٥/٣٢٧).
(٣) أخرجه الترمذي [٢٣٢٠] وصححه، كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٣/٢٥٣).

باقية، فكيف يؤثر عاقل ما يفنى على ما يبقى، ويهتم بما يزول عنه قريبًا، ويترك الاهتمام بدار البقاء والخلد؟!"(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإذا كانت اللذة مطلوبة لنفسها فهي إنما تذم إذا أعقبت ألما أعظم منها، أو منعت لذة خيرًا منها، وتحمد إذا أعانت على اللذة الدائمة المستقرة، وهي لذة الدار الآخرة ونعيمها الذي هو أفضل نعيم وأجله كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٥٧﴾ [يوسف:٥٦-٥٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٣٠﴾ [النحل:٣٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ۝١٧﴾ [الأعلى:١٦-١٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ۝٦٤﴾ [العنكبوت:٦٤]، وقال العارفون بتفاوت ما بين الأمرين لفرعون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝٧٣﴾ [طه:٧٢-٧٣]. والله عَزَّوَجَلَّ إنما خلق الخلق لدار القرار، وجعل اللذة كلها بأسرها فيها كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ﴾ [الزخرف:٧١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]. وقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يقول الله** تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: **أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»(٢)، بله ما اطلعتم، أي: غير ما اطلعتم عليه، وهذا هو الذي قصده الناصح لقومه الشفيق عليهم حيث قال: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ۝٣٨ يَٰقَوْمِ

(١) تفسير ابن كثير (٨/٣٨٢).

(٢) صحيح البخاري [٣٢٤٤، ٤٧٧٩، ٤٧٨٠، ٧٤٩٨]، مسلم [٢٨٢٤].

﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ۝٣٩﴾ [غافر:٣٨-٣٩] فأخبرهم أن الدنيا متاع يتمتع بها إلى غيرها، والآخرة هي المستقر والغاية"(١).

وتفيد النصوص أن هناك من اللذات ما يفوق بعضها الآخر، وأن العطاءَ الأكبر، والنعيمَ الأعظم الذي يتضاءَلُ أمامَه كلُّ نعيمٍ هو النَّظرُ إلى وجهِ الله الكريم؛ فعن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنَّا عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنظر إلى القمر ليلة –يعني البدر– فقال: «**إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته**»(٢). وهذا العطاء للذكر والأنثى على التساوي، وهو فوق كل عطاء. فالمعايير في الآخرة مختلفة عنها في الدنيا، والحكم على الشيء فرع تصوره، ولا نملك تصورًا كاملًا عن أحوال الآخرة، فلا مجال للعقل إلا فيما هو مذكور من النصوص. أما ما هو مطويٌّ أو مسكوت عنه فإنَّ الخوض فيه تسوُّرٌ على ضوابط التفسير واللغة والقواعد العامة وهو من الخوض في الغيبيات التي لا يستقل العقل بمعرفتها.

وفي (صحيح مسلم): عن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبَيِّضْ وجوهنا؟ ألم تُدْخِلْنَا الجنة، وتُنَجِّنَا من النَّار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أُعْطُوا شيئا أَحَبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل**»، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة،

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص:١٥٦- ١٥٧).

(٢) صحيح البخاري [٥٥٤، ٧٤٣٤]، مسلم [٦٣٣].

حدثنا يزيد بن هارون، عن حماد بن سلمة، بهذا الإسناد. وزاد: ثم تلا هذه الآية: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس:٢٦] (١).

ومن أفضل الدعاء ما جاء عمار بن ياسر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أنه صلَّى صلاة، فأوجز فيها، فقال له بعض القوم: لقد خففت أو أوجزت الصلاة، فقال: أما على ذلك، فقد دعوت فيها بدعوات سمعتهن من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، فلما قام تبعه رجل من القوم هو أبي غير أنه كنى عن نفسه، فسأله عن الدعاء، ثم جاء فأخبر به القوم: «**اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق، أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا علمت الوفاة خيرًا لي، اللهم وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضاء بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين**»(٢).

---

(١) صحيح مسلم [١٨١].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٤٤٢]، وأحمد [١٨٣٢٥]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٢٧٦]، والبزار [١٣٩٢]، والنسائي [١٣٠٥]، وابن حبان [١٩٧١]، والطبراني في (الدعاء) [٦٢٤]، والحاكم [١٩٢٣]، وقال: "صحيح الإسناد". وأخرجه أيضًا: تمام [١٣٨٧]، والبيهقي في (الدعوات الكبير) [٢٥١].

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قيد النظر باللذة، لأن النظر إلى الله تعالى إما نظر هيبة وجلال في عرصات القيامة، وإما نظر لطف وجمال في الجنة؛ ليؤذن بأن المطلوب هذا"(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن أفضل نعيم الآخرة وأجله وأعلاه على الإطلاق هو النظر إلى وجه الرب جل جلاله، وسماع خطابه، كما في (صحيح مسلم): عن صهيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: **تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم** عَزَّ وَجَلَّ»(٢). فبين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم ربهم في الجنة، لم يعطهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، وإنما كان ذلك أحب إليهم؛ لأن ما يحصل لهم به من اللذة والنعيم والفرح والسرور وقرة العين فوق ما يحصل لهم من التمتع بالأكل والشرب والحور العين، ولا نسبة بين اللذتين والنعيمين البتة. ولهذا قال الله عَزَّ وَجَلَّ في حق الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ۝١٦﴾ [المطففين:١٥-١٦]. فجمع عليهم نوعي العذاب: عذاب النار، وعذاب الحجاب عنه جَلَّ وَعَلَا، كما جمع لأوليائه نوعي النعيم: نعيم التمتع بما في الجنة. ونعيم التمتع برؤيته، وذكر الله عَزَّ وَجَلَّ هذه الأنواع الأربعة في هذه السورة فقال في حق الأبرار: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٩٣٣/٦)، وانظر: مرقاة المفاتيح (١٧٣٥/٥)، فيض القدير (١٤٦/٢).

(٢) صحيح مسلم [١٨١].

لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين:٢٢-٢٨].

ولقد هضم معنى الآية من قال: ينظرون إلى أعدائهم يعذبون، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم، أو ينظر بعضهم إلى بعض، وكل هذا عدول عن المقصود إلى غيره، وإنما المعنى ينظرون إلى وجه ربهم، ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم لمحجوبون. ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾ [المطففين:١٦].

وتأمل كيف قابل الحق جَلَّ وَعَلَا ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا وسخروا به منهم، بضده في القيامة، فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين:٣٢]، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المطففين:٣٤] مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم، ثم قال: فأطلق النظر، ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلى ما نظروا إليه وأجله وأعظمه هو الله عَزَّ وَجَلَّ. والنظر إليه أجل أنواع النظر وأفضلها، وهو أعلى مراتب الهداية، فقابل بذلك قولهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المطففين:٣٢]. فالنظر إلى الرب جَلَّ وَعَلَا مراد من هذين الموضعين ولا بد، إما بخصوصه، وإما بالعموم والإطلاق، ومن تأمل السياق لم يجد الآيتين تحتملان غير إرادة ذلك، خصوصًا أو عمومًا.

ثم قال: فصل: (في أن لذة النظر إلى وجه الله يوم القيامة تابعة للتلذذ بمعرفته ومحبته في الدنيا) وكما أنه لا نسبة لنعيم ما في الجنة إلى نعيم النظر إلى وجه الأعلى جَلَّ وَعَلَا، فلا نسبة لنعيم الدنيا إلى نعيم محبته ومعرفته والشوق إليه والأنس به، بل لذة

النظر إليه جَلَّ وَعَلَا تابعة لمعرفتهم به ومحبتهم له؛ فإن اللذة تتبع الشعور والمحبة. فكلما كان المحب أعرف بالمحبوب، وأشد محبة له كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم"(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان ما يستفاد من قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر:٢١]. قال: "إنه متضمن لكنز من الكنوز، وهو أن يطلب كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه، ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النجم:٤٢] متضمن لكنز عظيم، وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به وإلا فهو مضمحل منقطع، فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب، وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه، فاجتمع ما يراد منه كله في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر:٢١]، واجتمع ما يراد له كله في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النجم:٤٢]، فليس وراءه جَلَّ وَعَلَا غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى.

وتحت هذا سِرٌّ عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقرُّ ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره، وليس المراد المحبوب

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (ص:٣٢-٣٣)، بتصرف.

لذاته إلا واحد إليه المنتهى، ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك، وزال عنه، وفارقه أحوج ما كان إليه، ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو الله عَزَّوَجَلَّ ظفر بنعمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد.

العبد دائما متقلب بين أحكام الأوامر، وأحكام النوازل، فهو محتاج، بل مضطر إلى العون عند الأوامر، وإلى اللطف عند النوازل، وعلى قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل، فإن كمل القيام بالأوامر ظاهرًا وباطنًا ناله اللطف"(١).

فإذا تبين لك ذلك علمتَ أن الجنة هي الغاية المرجوة لكلِّ من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى، فإذا تحقَّقَ العبدُ بذلك أحبَّ الجنَّة وما يوصل إليها، وكره النَّار وما يوصل إليها، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحشر: ٢٠].

خامسًا: الأسباب التي تعين على التلذذ بالأعمال الصالحة:

وهناك من الأسباب ما يعين على التلذذ بالأعمال الصالحة:

(١) الفوائد، لابن القيم (ص: ٢٠٢).

١ – مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ وإخلاص العمل له:

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحق جَلَّوَعَلَا أقرب إلى عبده من حبل الوريد؛ لكنه عامل العبد معاملة الغائب عنه، البعيد منه، بِقَصْد نيته [(١)]، ورفع اليدين إليه، والسؤال له.

فقلوب الجُهَّال تستشعر البعد؛ ولذلك تقع منهم المعاصي؛ إذ لو تحققت مراقبتهم للحاضر الناظر لكفوا الأكف عن الخطايا، والمتيقظون علموا قربه، فحضرتهم المراقبة، وكفتهم عن الانبساط [(٢)].

ولولا نوع تغطية على عين المراقبة الحقيقية، لما انبسطت كف بأكل، ولا قدرت عين على نظر. ومن هذا الجنس: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلى قَلْبِي**» [(٣)].

---

(١) يعني: بإخلاص نيته في التوجه واللجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومن كان هذا حاله فإنه يعاين العناية واللطف، ويتحقق من قرب الله عَزَّوَجَلَّ منه، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة:١٨٦]. وخير مقام في العبادة هو مقام الإحسان المبين في الحديث، وهو «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» صحيح البخاري [٥٠، ٤٧٧٧]، مسلم [٨، ٩، ١٠]، فهو المقام الذي يتحقق فيه قرب المحب من محبوبه.

(٢) والمعنى: أن تحقق المراقبة قد حملهم على فعل الخيرات، والاجتهاد في الطاعات، وعلى ترك المعاصي والمنكرات.

(٣) صحيح مسلم [٢٧٠٢]، وتمامه: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله، في اليوم مائة مرة». «ليغان»: أي: يغطى عليه. وأصله من الغين، وهو الغطاء والحائل بينك وبين الشيء، ومنه قيل للغيم: غين. انظر: شرح السنة، للبغوي (٥/٧٠). قال القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قيل: المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه، فإذا فتر عنه أو غفل عد ذلك ذنبًا واستغفر منه. وقيل: سببه اشتغاله=

ومتى تحققت المراقبة حصل الأنس؛ وإنما يقع الأنس بتحقيق الطاعة؛ لأن المخالفة توجب الوحشة، والموافقة مبسطة المستأنسين، فيا لذَّة عيش المستأنسين! ويا خسارة المستوحشين!"(١).

٢ - مجاهدة النفس:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩﴾ [العنكبوت:٦٩].

قال ثابت البناني رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن الصلاة: كابدت (٢) الصلاة عشرين سنة، وتنعمت بها عشرين سنة.

وروي عن عتبة الغلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: كابدت الصلاة عشرين سنة، ثم تلذذت بها باقي عمري (٣).

=بالنظر في مصالح أمته وأمورهم ومحاربة العدو ونحو ذلك، فيشتغل بذلك فيراه ذنبًا، وإن كانت هذه الأمور من أعظم الطاعات، وأفضل الأعمال فهي نزول عن عالي درجته ورفيع مقامه من حضوره مع الله عَزَّوَجَلَّ ومراقبته وفراغه مما سواه، فيستغفر لذلك. وقيل غير ذلك. انظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (٩٦/٨)، شرح النووي على صحيح مسلم (٢٣/١٧-٢٤).

(١) صيد الخاطر (ص:٢١٣).

(٢) «كابدت» –بالموحدة– أي: كنت أفعل الصلاة بمشقة وتعب.

(٣) انظر: تاريخ الإسلام (٣٤٧/١٠)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٦٦/١)، صفة الصفوة (٢٢١/٢).

وكان أبو سليمان الداراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم [(١)].

وقال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من لذيذ العيش لجالدونا عليه بالسيوف [(٢)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذه اللذة والتنعم بالخدمة إنما تحصل بالمصابرة والتعب أوَّلًا، فإذا صبر عليه وصدق في صبره أفضى به إلى هذه اللذة. وقال أبو زيد: سقت نفسي إلى الله عَزَّوَجَلَّ وهي تبكي، فما زلت أسوقها حتى انساقت إليه وهي تضحك"[(٣)].

قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: "معنى حلاوة الإيمان: استلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات في رضى الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإيثار ذلك على عرض الدنيا"[(٤)].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كلما ذاق العبد حلاوة الصلاة كان انجذابه إليها أوكد، وهذا يكون بحسب قوة الإيمان"[(٥)].

---

(١) انظر: صفة الصفوة (٣٨٣/٢)، إحياء علوم الدين (٣٥٨/١)، لطائف المعارف، لابن رجب (٤٥/١، ٣٢٤)، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٥٠٣/٢)، تاريخ دمشق (١٤٦/٣٤).

(٢) انظر: صيد الخاطر (ص:٢٩٩)، و(ص:٤٥٧)، إغاثة اللهفان (١٩٧/٢)، الجواب الكافي (ص:١٢١)، و(ص:٢٣٣)، الزهد الكبير (ص:٨١).

(٣) طريق الهجرتين (ص:٣٢١).

(٤) انظر: شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٣/٢)، فتح الباري، لابن حجر (٦١/١).

(٥) مجموع الفتاوى (٦٠٦/٢٢).

ومجاهدة النفس والهوى تقرُّب العبد إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فيكون في حفظ الله عَزَّوَجَلَّ ورعايته. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مخالفة الهوى تقيم العبد في مقام من لو أقسم على الله لأبره، فيقضي له من الحوائج أضعاف أضعاف ما فاته من هواه". وقال: "إذا تأملت السبعة الذين يظلهم الله عَزَّوَجَلَّ في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى"(١).

٣ – تدبر آيات القرآن الكريم، ومعرفة أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته:

إنَّ تدبُّرَ آيات القرآن الكريم، والتعرُّفَ على أسماءِ الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته مما يحقق في المكلَّفِ أجلَّ المقاصد، فلا أنفع للعبد من العلم الصحيح بفاطر السَّموات والأرض والذي لا يتحقق إلا بمعرفة أسمائه وصفاته وتدبر آياته.

كما أنَّ العلم بأسماء الله جَلَّوَعَلَا وصفاته يستلزم عبادته ومحبته وخشيته، ويوجب تعظيمه وإجلاله؛ فكلما ازداد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته ازداد إيمانه، وقويَ يقينه.

والعلم بالله جَلَّوَعَلَا وأسمائه، وصفاته أشرف العلوم عند المسلمين، وأجلها على الإطلاق؛ لأن شرف العلم بشرف المعلوم، والمعلوم في هذا العلم هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وقد تقدم أن معرفة المكلف لأسماء الله جَلَّوَعَلَا وصفاته، وتدبرها وعقل معانيها من علامات محبة العبد لله عَزَّوَجَلَّ وتوفيقه له، فمن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين.

---

(١) روضة المحبين (١/٤٨٤-٤٨٥).

٤ – الإكثار من النوافل:

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته**»(١).

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "المراد بهذا الكلام أن من اجتهد بالتقرب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بالفرائض، ثم بالنوافل قربه إليه، ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد الله عَزَّ وَجَلَّ على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله عَزَّ وَجَلَّ ومحبته وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله والأنس به والشوق إليه، حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدًا له بعين البصيرة"(٢).

٥ – مجالسة العلماء، ومصاحبة الصالحين من أرباب العزائم والهمم، ومنافستهم في الأعمال الصالحة:

فإن رؤية المجدين تبعث في النفس الهمة لتقليدهم والتشبه بهم.

---

(١) صحيح البخاري [٦٥٠٢]، قوله: «ما ترددت»: كناية عن اللطف والشفقة وعدم الإسراع بقبض روحه. و«مساءته»: إساءته بفعل ما يكره.

(2) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (ص:٣٤٥-٣٤٦).

٦ – **التنويع في العبادات وفي صفاتها.**

....

٧ – **الذكر، والدعاء، والتضرع إلى الله** عَزَّوَجَلَّ:

وخير ذكر لله عَزَّوَجَلَّ: ما كان على الوجه الرشيد الذي يستضاء فيه بأنوار الوحي من الكتاب، وصحيح السنة.

وبذكر الله عَزَّوَجَلَّ تطمئن القلوب، وتنشرح الصدور، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد:٢٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة:١٥٢].

والدعاء يقرب العبد من مولاه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة:١٨٦].

وقد جاء بيان ذلك في غير موضع.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من أكبر العون على طاعته؛ فإنه يحببها إلى العبد ويسهلها عليه ويلذذها له، ويجعل قرة عينه فيها، ونعيمه وسروره بها بحيث لا يجد لها من الكلفة والمشقة والثقل ما يجد الغافل". وقال: "إن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ يسهل الصعب، وييسر العسير، ويخفف المشاق، فما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ على صعب إلا

هان، ولا على عسير إلا تيسر، ولا مشقة إلا خفت، ولا شدة إلا زالت، ولا كربة إلا انفرجت"(١).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (جواهر القرآن): "لا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات: صفاء القلب، أعني: طهارته من أدناس الدنيا؛ وأُنسه بذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وحبه لله جَلَّ وَعَلَا. وطهارة القلب لا تحصل إلا بالكفِّ عن شهوات الدنيا. والأُنس لا يحصل إلا بكثرة الذكر، والحُب لا يحصل إلا بالمعرفة، ولا تحصل معرفة الله عَزَّوَجَلَّ إلا بدوام الفكر"(٢).

وقد أرشد الله عَزَّوَجَلَّ العباد إلى خير الدعاء وأنفعه:

ومن ذلك: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة:٢٠١-٢٠٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا مرشدًا العباد إلى أن يقولوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ [البقرة:٢٨٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [آل عمران:١٦].

(١) الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص:٧٦-٧٧).

(٢) جواهر القرآن (ص:١٢).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران:١٩١-١٩٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [المؤمنون:١٠٩].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن قيل موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ﴾ [القصص:١٦].. إلى غير ذلك.

ومن الأذكار المحببة: ما بينه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده**» (١).

(١) صحيح البخاري [٦٤٠٦، ٦٦٨٢، ٧٥٦٣]، مسلم [٢٦٩٤]. قوله: «خفيفتان»: سهلتان. «ثقيلتان»: في وزن ثوابهما. «حبيبتان»: محبوبتان، أي: أن الله جَلَّوَعَلَا يقبلهما، ويوصل الخير لقائلهما ويكرمه.

ومن ذلك: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن أحب الكلام إلى الله: سبحان الله وبحمده**»[1].

وفي رواية: «**أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. لا يضرك بأيهن بدأت**»[2]...إلى غير ذلك.

ومن الخير: الدعاء بما أرشد إليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جوامع كلمه مما يعمُّ خير الدنيا والآخرة، ومن ذلك: ما تقدم: مما روته أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: دخل عَلَيَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنا أُصَلِّي، وله حاجة، فأبطأت عليه، قال: «**يا عائشة: بِجُمَلِ الدُّعَاء وجوامِعِه**»، فلما انصرفت قلت: يا رسول الله، وما جُمَلُ الدُّعاء وجوامعُهُ؟ قال: «**قولي: اللهم إني أسألك من الخير كله، عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله، ما علمت منه وما لم أعلم، وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل، وأسألك مما سألك به محمد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وأعوذ بك مما تعوذ منه محمد** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وما قضيت لي من قضاء فاجعل عاقبته رُشْدًا**»[3].

---

(١) صحيح مسلم [٢٧٣١].

(٢) صحيح مسلم [٢١٣٧].

(٣) أخرجه الطيالسي [١٦٧٤]، وابن أبي شيبة [٢٩٣٤٥]، وإسحاق بن راهويه [١١٦٥]، وأحمد [٢٥٠١٩]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٣٩] واللفظ له، وابن ماجه [٣٨٤٦]، وأبو يعلى [٤٤٧٣]، وابن حبان [٨٦٩]، والطبراني في (الدعاء) [١٣٤٧]، والحاكم [١٩١٤]، وصححه، والبيهقي في (الدعوات الكبير) [٢٠٢]، وقد تقدم.

وهذا من جوامع الكلم والدعاء.

وقيل: هو أجمع ما ورد في الدُّعاء؛ فإنَّ فيه سؤال كلِّ خير، والاستعاذة من كلِّ شرٍّ. وقد تقدَّم بيان ذلك.

فمن الخير العظيم الذي ينفع العبد في إصلاح حاله ومآله: الدعاء بما دعا به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والاستعاذة مما استعاذ منه، وقد تقدم ذكر جملة من الأحاديث من جوامع كلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كما تقدم أن الإكثار من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من خير الأعمال النافعة للعبد، والباقية.

ومن جوامع دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَبِّ أَعِنِّي ولا تُعِنْ عَلَيَّ، وانْصُرْنِي ولا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وامْكُرْ لي ولا تَمْكُرْ عَلَيَّ، واهْدِنِي ويَسِّرِ الهُدَى لي، وانْصُرْنِي على من بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لك شَكَّارًا، لك ذَكَّارًا، لك رَهَّابًا، لك مِطْوَاعًا، لك مُخْبِتًا، إليكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، واغْسِلْ حَوْبَتِي، وأَجِبْ دَعْوَتِي، وثَبِّتْ حُجَّتِي، وسَدِّدْ لسَانِي، واهْدِ قَلْبِي، واسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي**» (١).

ومن دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أعوذ بك من مُنْكراتِ الأخلاق، والأعمال، والأهواء**» (٢).

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه الترمذي [٣٥٩١] وحسنه، وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم في (السنة) [١٣]، وابن حبان [٩٦٠]، والطبراني [٣٦]، والحاكم [١٩٤٩] وصححه. كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٧/٢٣٧).
وفي بعض الروايات زيادة: «والأدواء».

وكان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يقول: «**اللهم أحسنتَ خَلْقِي، فأَحْسِنْ خُلُقِي**»[1].

ومن دعائه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**اللهم اجعل لي في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا**..» الحديث[2]...

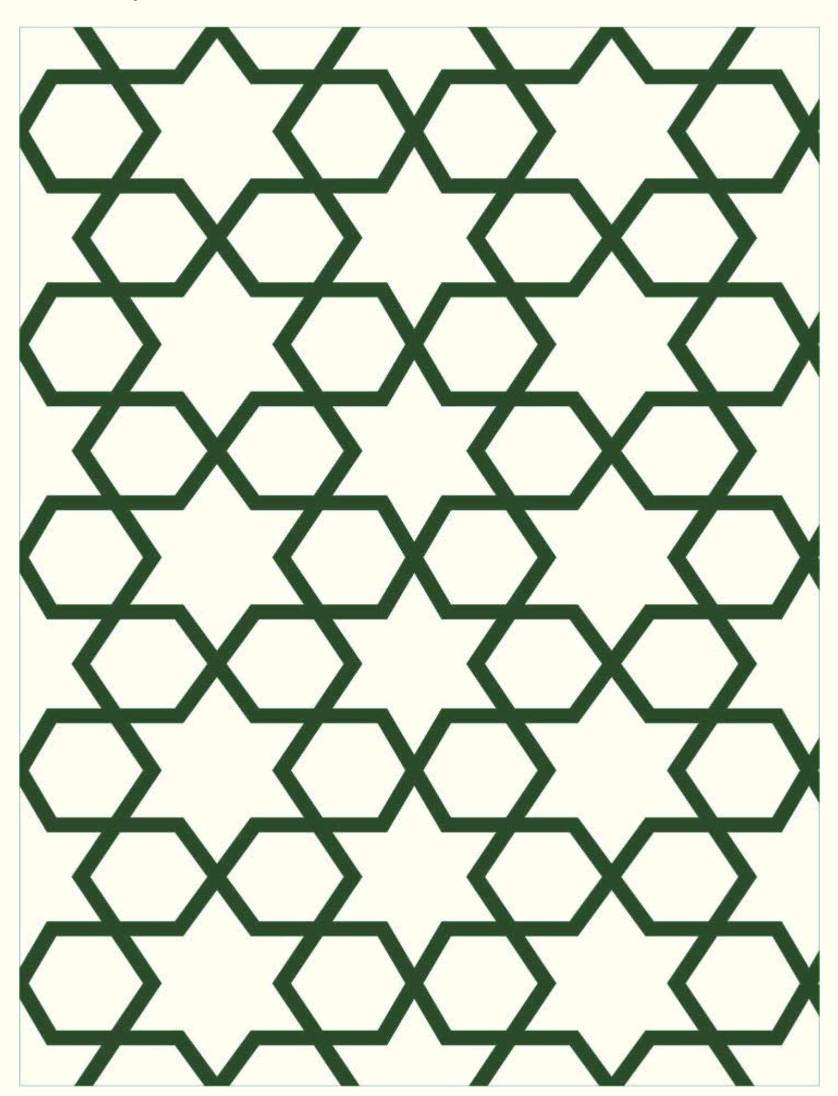
وجاء في الحديث: «**تعوَّذوا بالله من عذاب النَّار**»[3].. إلى غير ذلك.

(١) أخرجه أحمد: عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا [٢٤٣٩٢]، قال الهيثمي (٢٠/٨): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح".

(٢) صحيح مسلم [٧٦٣].

(٣) صحيح مسلم [٢٨٦٧].

الإرشاد إلى أسباب النجاة



ملحق في بيان

ما تقدم بسطه من المنجيات

وفي هذا الملحق:

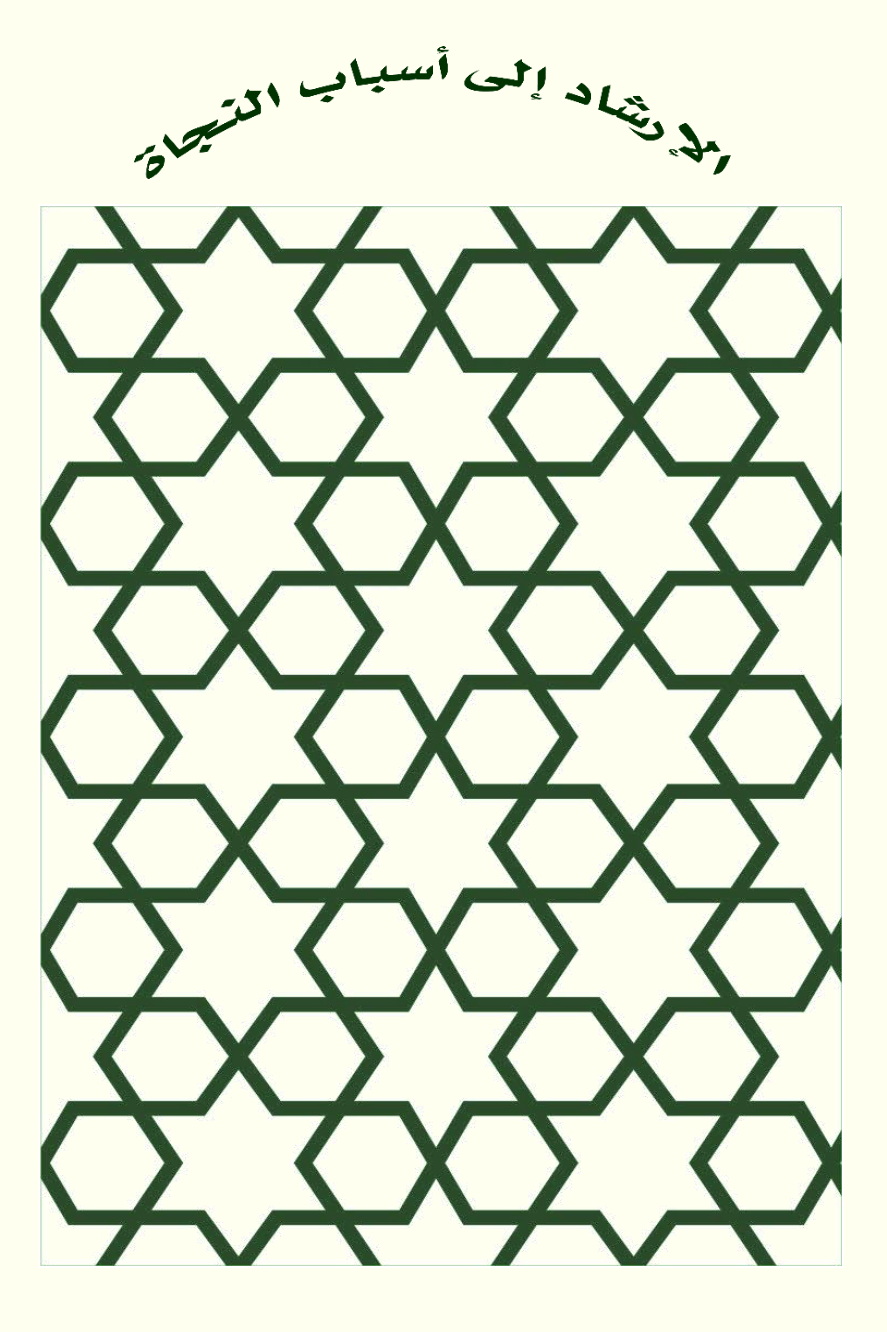
إجمال لما تقدم بسطه من المنجيات مع بعض الزيادات والفوائد؛ وذلك استكمالًا لجوانب البحث.



المبحث الثاني عشر:

تحري أسباب المغفرة، والعافية، والخصال المكفرة

الإرشاد إلى أسباب النجاة



إن الأسباب الموصلة إلى المغفرة، والخصال المكفرة كثيرة، وتحريها مستلزم للعلم بها، والحرص على العمل بها من أسباب النَّجاة والسَّعادة للعبد.

وقد أرشد الله عَزَّوَجَلَّ، ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ العباد إلى أعمال يسيرة وكثيرة؛ لنيل المغفرة، وحسن العاقبة.

وقد أفردت بالبحث قديمًا وحديثًا: ومن النافعة في هذا الباب:

أ. الخصال المكفرة للذنوب المقدمة والمؤخرة، للحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ:

رتبه على أربعة أبواب، مشتملة على الأحاديث الواردة فيه، والآثار.

ب. تمهيد الفرش في الخصال الموجبة لظل العرش، للسيوطي رَحِمَهُٱللَّهُ:

وذكر أنه بلغ فيه سبعين خصلة.

وهو مبسوط، و(بزوغ الهلال): مختصر منه.

ج. بزوغ الهلال، في الخصال الموجبة للظلال، للسيوطي رَحِمَهُٱللَّهُ:

وهو مختصر من السابق، تتبع فيه: الأحاديث الواردة في الخصال، الموجبة لظل العرش، واستوعب شواهدها، ثم لخص مرة بعد أخرى، واقتصر فيه على متن الحديث.

د. أسباب المغفرة: لأبي بكر، محمد بن منصور الفقيه، الحنفي رَحِمَهُٱللَّهُ:

رتب على: ثلاثة وثمانين بابًا [1].

هـ. المنهل العذب الزلال في الخصال الموجبة للظلال، لشمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر السخاوي رَحِمَهُٱللَّهُ.

---

(١) انظر: كشف الظنون (١/١).

و. **موجبات الرحمة، وعزائم المغفرة: لشهاب الدين، أبي العباس، أحمد بن أبي بكر بن محمد، الشهير بابن الرداد، الزبيدي، الشافعي** رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهو مرتب على: أحد وعشرين كتابًا في: الفضائل، والأذكار، والعبادات في عمل اليوم، والليلة (١).

ز. ومن الكتب النافعة في بيان أسباب المغفرة: كتاب: **(البحار الزاخرة في أسباب المغفرة)، للدكتور السيد بن حسين العفاني.**

ح. **ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله** عَزَّوَجَلَّ، **للدكتور السيد بن حسين العفاني.**

والنصوص في بيان أسباب المغفرة كثيرة في الكتاب والسنة، ومن ذلك: قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ﴾ [البقرة: ٢٧١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم

(١) انظر: المصدر السابق (٢/١٨٩٨).

مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [آل عمران:١٥٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ [النساء:٣١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النساء:٤٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ﴾ [النساء:٩٥-٩٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء:١١٠].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾ [المائدة:٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾﴾ [المائدة:٦٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال:٢-٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢٩﴾ [الأنفال:٢٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٧٤﴾ [الأنفال:٧٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝١١﴾ [هود:١٠-١١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ۝٣٥﴾ [الأحزاب:٣٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [يس:١١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحجرات:٣].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ﴾ [النجم:٣٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الحديد:٢٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [التغابن:٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التغابن:١٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾ [الطلاق:٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ﴾ [التحريم:٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾ [الملك:١٢].

ومن مكفرات الذنوب:

الإيمان والعمل الصالح، والتوحيد، ومحبة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والاتباع والبعد عن الابتداع، والتقوى، وأداء العبادات، والمحافظة على أركان الإسلام، والإخلاص في الأقوال والأفعال، واجتناب الكبائر، وترك الإصرار على الصغائر، والإكثار من فعل الحسنات.

والمحافظة على الصوات الخمس، وصلاة الجمعة، والمحافظة على صلاة الفجر والعصر، وصلاة أربعين يومًا في جماعة يدرك التكبيرة الأولى، وصلاة الفجر في جماعة، والذكر بعدها حتى تشرق الشمس، ثم صلاة ركعتين، والسجود لله عَزَّوَجَلَّ، والقنوت، والخشوع، والصلاة في الصف الأول، والصفوف المتقدمة، ووصل الصفوف، وغسل الجمعة، والإكثار من النوافل، ومن ذلك: صلاة ثنتي عشرة ركعة غير الفريضة في كل يوم، والمحافظة على أربع ركعات قبل الظهر وأربعٍ بعدها، والمحافظة على الوضوء بعد الحدث ثم الصلاة بعده ركعتين، والمحافظة على عبادة الخفاء، والعبادة في وقت الفتن.

ومن وافق تأمينه تأمين الملائكة.

وإسْبَاغُ الْوضوء على المكاره، وكثرةُ الْخُطَا إلى المساجِد، وانتظار الصَّلاة بعد الصَّلاة، والأذان، ومتابعة المؤذن، ومن قال حين يسمع المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، رضيت بالله ربًّا، وبمحمد رسولًا، وبالإسلام دينًا.

والإكثار من الذكر، وقراءة القرآن، والمحافظة على الأذكار أدبار الصلوات، ومن سبَّح الله عَزَّوَجَلَّ في دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين، وحمد الله عَزَّوَجَلَّ ثلاثًا وثلاثين، وكبَّر الله

عَزَّوَجَلَّ ثلاثًا وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون، وقال: تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر.

ومجالس الذكر، والمداومة على قراءة سورة الإخلاص، وقراءة آية الكرسي دبر كل صلاة، والذكر في السوق، وإذا أوى إلى فراشه، ودعاء الليل عند التَّعارِّ من النوم، وفي وقت التنزل الإلهي، وقراء سورة الملك، ومن الأذكار الواردة في ذلك: قول: لا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ومن قال: سبحان الله وبحمده، في يوم مائة مرة، حطت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر.

وقول: لا إله إلا الله وحدة لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، وقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ومن كان آخر كلامه: لا إله إلا الله، والبكاء من خشية الله عَزَّوَجَلَّ.

ومن أكل طعامًا فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة.

والدعاء، وخير الدعاء وأنفعه للعبد: ما كان الرشيد الذي يستضاء فيه بأنوار الوحي، وهو الذي جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وفيما أرشد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمته إليه من جوامع كلمه. فمن الخير العظيم الذي ينفع العبد في إصلاح حاله ومآله: الدعاء بما دعا به النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والاستعاذة مما استعاذ منه.

واغتنام الأوقات الفاضلة بالطاعات: ومن ذلك: صيام رمضان، وقيامه، وقيام ليلة القدر، وصوم يوم عرفة، وصوم عاشوراء، وصيام التطوع، ومن ختم له بصيام يوم، ومن فطر صائمًا، والسحور.

والصلاة في الحرمين، وبيت المقدس.

والحج المبرور، والعمرة، ورفع الصوت بالإهلال والتكبير في الحج، والطواف بالبيت، وشرب ماء زمزم بنية المغفرة.

والصدق، والقول السديد، ومجاهدة النفس والشيطان والهوى.

ومن حفظ ما بين لَحْيَيْه، وما بين رجليه، والتوكل، واليقين، والاستقامة، والحياء، وتعليم الناس الخير، والنصح لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

والصدقة والإنفاق في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

والأدب مع النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، والصلاة والسلام عليه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وبناء مسجد.

والصبر، ومن ذلك: صبر العبد على ما يصيبه من الابتلاء، والصبر على موت الولد، وحمد الله عَزَّوَجَلَّ عند فقد الولد، والصبر والاحتساب على فقد الصفيِّ، والصبر على تربية البنات، والإحسان إليهن، والصبر على فقد البصر، والصبر على الصرع، والصبر على الحمى، والصبر على ما يصيب العبد من مرض، ويكون سببًا في موته، والصبر على الظلم.

والثبات في زمن الفتن والمحن واختلاط الأمور، والثبات في زمن الدجال.

والعدل في الأمور كلها، والإمام المقسط، والقاضي العادل، والعامل بالحق على الصدقات، والخازن الأمين.

ومحبة المسلمين وإرداة الخير لهم، وعدم الإيذاء، وإفشاء السلام، ورده، والمصافحة بين المسلمين، وإجابة الدعوة، وبذل النصيحة، والتجاوز عن الناس، ومن ذلك: إنظار المعسرين، والتجاوز عنهم، والعفو والصفح، وحسن الخلق، ولين الجانب، والذب عن عرض المسلم، وكظم الغيظ، والبعد عن الغيبة والنميمة، ومن أقال مسلمًا، والرحمة بالخلق، والعفة، ومن ترك المراء وإن كان محقًّا، ومن ترك الكذب وإن كان مازحًا، وترك سؤال الناس، والبعد عن الغش، والحسد، والأخلاق الذميمة، والحب في الله عَزَّوَجَلَّ، والأمانة وعدم الخيانة، والوفاء بالوعد، والبراءة من الكبر، والغرور، والغلول، وسائر الصفات الذميمة، وأكل الحلال، والسماحة في البيع والشراء، والتقاضي والقضاء، وطلاقة الوجه، والكلمة الطيبة، والتحلل من المظالم، وصلة الرحم، والطاعم الشاكر.

ومن جمع بين صيام وإطعام مسكين، واتباع جنازة، وعيادة مريض في يوم واحد،

وبر الوالدين، وكفالة اليتيم، ومن عال جاريتين، والمرأة المطيعة لزوجها، والمرأة الولود الودود العئود، وتربية الأم لبناتها، وستر المسلم في الدنيا، وصحبة الصالحين، الهجرة إلى دار الإسلام، وترك أرض السوء الذي يجاهر فيها بالمعاصي، وصحبة الصالحين والذاكرين، وحضور مجالس العلم.

والجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، ومن ذلك: رمي العدو، والثبات عند الهزيمة، ومبادأة الكفار إذا التقى الجيشان، ومن جهَّز غازيًا، ومن خلف غازيًا في أهله،

والشهادة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، والرباط في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، والإعتاق.

والشيب في الإسلام مع صلاح العمل، وعيادةُ المريض، ومن غسَّلَ ميتًا فستره، ومن كفَّن ميتًا، وكذا الصلاة على الميت، واتباع الجنائز.

وسقي الماء لكل محتاج من الناس والحيوان، وغرس الأشجار.

والشكر، والإحسان، وأعمال البر، وصنائع المعروف، ومن ذلك: إسماع الأصم، وهداية الأعمى، ودلالة المستدل على حاجته، وإعانة الضعيف، وإرشاد الضال، والإحسان إلى الحيوان.

وحسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ، ومحبة لقاءه، وترك حسنات جارية من آثار باقية، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾ [يس:١٢]، وقد جاء في الحديث الشريف: «**من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**» (١).

وجاء في كتاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هرقل -عظيم الروم- يدعوه إلى الإسلام: «**سـلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسـلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسـيين..**» الحـديث (٢).

---

(١) صحيح مسلم [١٠١٧].

(٢) صحيح البخاري [٧، ٢٩٤١، ٤٥٥٣]، مسلم [١٧٧٣].

والتصدق عن الميت، والحج عنه.

والتوبة النصوح، والاستغفار.. إلى غير ذلك مما تقدم ذكره، ومما جاء بسطه في مظانه.

وقد تقدم من أحاديث الظلال: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سبعةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ في ظِلِّهِ، يوم لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه مُعَلَّقٌ في المساجد، ورجلان تَحَابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»(١).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -كما في (صحيح مسلم) -: «**من أَنْظَرَ مُعْسِرًا أو وَضَعَ عنه، أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّه**»(٢).

قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في (الفتح): "قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سبعةٌ**..» "ظاهره اختصاص المذكورين بالثواب المذكور، ووجَّهَهُ الكرماني رَحِمَهُ اللَّهُ بما مُحَصَّله: أن الطاعة إما أن تكون بين العبد وبين الرب جَلَّ وَعَلَا، أو بينه وبين الخلق، فالأولى باللسان، وهو الذكر، أو بالقلب، وهو المعلق بالمسجد، أو بالبدن، وهو الناشيء في العبادة، والثاني عام، وهو العادل، أو خاص بالقلب، وهو التحاب، أو بالمال، وهو الصدقة، أو بالبدن، وهو العفة.

---

(١) صحيح البخاري [٦٦٠، ١٤٢٣، ٦٤٧٩، ٦٨٠٦]، مسلم [١٠٣١]، وقد تقدم.

(٢) صحيح مسلم [٣٠٠٦].

وقد نظم السبعة العلامة أبو شامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عبد الرحمن بن إسماعيل، فيما أنشدناه أبو إسحاق التنوخي إذنًا، عن أبي الهدى أحمد بن أبي شامة، عن أبيه سماعًا منْ لفظه، قال [من الطويل]:

وقـال النَّبِيُّ الْمُصْطَفَى: إنَّ سَبْعَةً يُظِـلُّهُمُ اللَّهُ الْـكَـرِيمُ بِـظِـلِّهِ
مُحِـبٌّ عَفِيفٌ نَاشِيءٌ مُتَصَـدِّقٌ وبَـاكٍ مُصَـلٍّ وَالإِمَـامُ بِعَدْلِهِ

ووقع في (صحيح مسلم) من حديث: أبي اليسر مرفوعًا: «**من أنظر معسرًا أو وضع له أظلَّه الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه**»، وهاتان الخصلتان غير السبعة الماضية، فدلَّ على أن العدد المذكور لا مفهوم له، وقد ألقيت هذه المسألة على العالم شمس الدين بن عطاء الرازي المعروف بالهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما قدم القاهرة، وادعى أنه يحفظ صحيح مسلم فسألته بحضرة الملك المؤيد عن هذا وعن غيره فما استحضر في ذلك شيئًا، ثم تتبعت بعد ذلك الأحاديث الواردة في مثل ذلك فزادت على عشر خصال، وقد انتقيت منها سبعة وردت بأسانيد جياد، ونظمتها في بيتين تذييلًا على بيتي أبي شامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهما:

وزِدْ سَـبْعَةً: إظْلَالَ غَـازٍ وَعَوْنَهُ وإنْظَـارَ ذِي عُسْرٍ وَتَخْفِيفَ حَمْلِهِ
وإرْفَادَ ذِي غُـرْمٍ وَعَوْنَ مُكَـاتَبٍ وتَـاجِرُ صِـدْقٍ فِي الْمَقَالِ وفِعْلِهِ

فأما (**إظلال الغازي**) فرواه بن حبان وغيره من حديث: عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأما (**عون المجاهد**) فرواه أحمد والحاكم من حديث: سهل بن حنيف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأما (**إنظار المعسر**)، والوضيعة عنه ففي صحيح مسلم -كما ذكرنا-.

وأما (**إِرْفَادُ الغارم**)، و(**عون المكاتب**) فرواهما أحمد، والحاكم من حديث: سهل بن حنيف المذكور.

وأما (**التاجر الصدوق**) فرواه البغوي في (شرح السنة) من حديث: سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأبو القاسم التيمي من حديث: أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -والله أعلم-.

ونظمته مرة أخرى فقلت في السبعة الثانية:

وتَحْسِينُ خُلْقٍ، مَعْ إِعَانَةِ غَارِمٍ   خَفِيفُ يَدٍ حَتَّى مُكَاتَبُ أَهْلِهِ

وحديث: (**تحسين الخلق**) أخرجه الطبراني، من حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بإسناد ضعيف، ثم تتبعت ذلك فجمعت سبعة أخرى، ونظمتها في بيتين آخرين، وهما:

وزِدْ سَبْعَةً: حُزْنٌ، ومَشْيٌ لِمَسْجِدِ   وكُرْهُ وُضُوءٍ، ثُمَّ مُطْعِمُ فَضْلِهِ

وآخِذُ حَقٍّ، بَاذِلٌ، ثُمَّ كَافِلُ   وتَاجِرُ صِدْقٍ فِي الْمَقَالِ وَفِعْلِهِ

ثم تتبعت ذلك فجمعت سبعة أخرى، ولكن أحاديثها ضعيفة، وقلت في آخر البيت:

***تَرْبَعُ به السَّبْعَاتِ مِنْ فَيْضِ فَضْلِهِ

وقد أوردت الجميع في (الأمالي)، وقد أفردته في جزء سميته: (**معرفة الخصال الموصلة إلى الظلال**)"[1].

تنبيه: ذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ أن ذكر الرجال في هذا الحديث لا مفهوم له، بل يشترك النساء معهم فيما ذكر، إلا إن كان المراد بالإمام العادل: الإمامة

(1) فتح الباري، لابن حجر (٢/١٤٣-١٤٤).

العظمى، وإلا فيمكن دخول المرأة حيث تكون ذات عيال فتعدل فيهم، وتخرج: خصلة ملازمة المسجد؛ لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل من المسجد، وما عدا ذلك فالمشاركة حاصلة لهن حتى الرجل الذي دعته المرأة فإنه يتصور في امرأة دعاها ملك جميل -مثلًا- فامتنعت؛ خوفًا من الله عَزَّوَجَلَّ مع حاجتها، أو شاب جميل دعاه ملك إلى أن يزوجه ابنته -مثلًا- فخشي أن يرتكب منه الفاحشة فامتنع مع حاجته إليه"(١).

وجاء في فضل الْحُبِّ في الله عَزَّوَجَلَّ: ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله يقول يوم القيامة: أين الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي، اليومَ أُظِلُّهُمْ في ظِلِّي يوم لا ظِلَّ إلَّا ظِلِّي**»(٢).

وجاء في فضل الشهيد: ما رواه عتبة بن عبد السلمي -وكان من أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يحدث، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**القتلى ثلاثة: رجل مؤمن جاهد بنفسه وماله في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ حتى إذا لقي العدو قاتلهم حتى يقتل فذلك الشهيد الممتحن، في خيمة الله عَزَّوَجَلَّ تحت عرشه، ولا يفضله النبيون إلا بفضل درجة النبوة، ورجل مؤمن قرف على نفسه من الذنوب والخطايا، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقي العدو قاتل حتى قتل، فتلك مَصْمَصَةٌ مَحَتْ ذنوبه وخطاياه، إن السيف مَحَّاءٌ للخطايا، وأدخل من أَيِّ أبواب الجنة شاء؛ فإن لها ثمانية أبواب، ولجهنم سبعة أبواب، وبعضها أفضل من بعض، ورجل منافق جاهد بنفسه**

---

(١) فتح الباري، لابن حجر (٢/١٤٧).

(٢) صحيح مسلم [٢٥٦٦]، وقد تقدم.

وماله في سبيل الله، حتى إذا لقي العدو قاتل حتى قتل فذلك في النار، إن السيف لا يمحو النفاق»(1).

والتجاوز عن السيئات ورد في أعمال كثيرة، منها: ما جاء: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**كان تاجر يداين الناس، فإذا رأى معسرًا قال لفتيانه: تجاوزوا عنه، لعل الله أن يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه**» (2).

وعند مسلم: عن أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حوسب رجل ممن كان قبلكم، فلم يوجد له من الخير شيء، إلا أنه كان يخالط الناس، وكان موسرًا، فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر**»، قال: «**قال الله عَزَّ وَجَلَّ: نحن أحق بذلك منه، تجاوزوا عنه**» (3).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من أعتق رقبة مسلمة، أعتق الله بكلِّ عضو منه عضوًا من النار، حتى فرجه بفرجه**» (4).

وفي رواية عند مسلم: «**من أَعْتَقَ رَقَبَةً مُؤْمِنَةً، أَعْتَقَ اللهُ بِكُلِّ إِرْبٍ منها إِرْبًا منه من النَّار**»، و(الإرب) هو العضو.

وقد تقدم أن إخلاص النية في فعل الخير، ودفع الضر والشرِّ عن الخلق قد يكون سببًا لمغفرة الذنوب، كما في حديث: الرجل الذي أخَّرَ غصن شوك عن الطَّريق فشكر

(1) تقدم.

(2) صحيح البخاري [٢٠٧٨].

(3) صحيح مسلم [١٥٦١].

(4) صحيح البخاري [٦٧١٥]، مسلم [١٥٠٩].

الله له، فغفر له، وحديث: الذي سقى كلبًا يأكل الثرى من العطش فَشَكَرَ الله، فغفر له... إلى غير ذلك.

ومن أسباب العافية: النظر بعين البصيرة إلى العاقبة، فقد جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُؤْتَى بِأَنْعَم أهل الدُّنيا من أهل النَّار يوم القيامة، فَيُصْبَغُ في النَّار صَبْغَة، ثمَّ يقال: يا ابنَ آدم هل رأيتَ خيرًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فيقول: لا، والله يا ربِّ ويُؤْتَى بأشَدِّ النَّاس بُؤْسًا في الدُّنْيَا، من أهل الجَنَّة، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجَنَّة، فيقال له: يا ابْنَ آدَمَ هل رأيتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هل مرَّ بكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقول: لا، والله يا ربِّ ما مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، ولا رأيتُ شِدَّةً قَطُّ**»[(١)].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا الحديث يحث على مراعاة العواقب؛ فإن التعب إذا أعقب الراحة هان، والراحة إذا أثمرت النصب فليست راحة، فالعاقل من نظر في المآل لا في عاجل الحال. وقد قالت الحكماء: لا تنال الراحة بالراحة، وقل أن يلمع برق لذة إلا وتقع صاعقة ندم"[(٢)].

ومن أسباب العافية والهداية: الإيمان، والتوحيد، والثقة بالله عَزَّ وَجَلَّ، واجتناب الشرك.

---

(١) صحيح مسلم [٢٨٠٧].

(٢)كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/٣٠٩-٣١٠).

ومن أعظم أسباب العافية والهداية: محبة الله عَزَّوَجَلَّ، ورسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وامتثال ما أمرا به، واجتناب ما نهيا عنه.

ومن أسباب العافية والهداية: التوبة والإنابة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ [الرعد:٢٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر:١٧-١٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر:٥٤-٥٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر:١٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى:١٣].

ومن أسباب العافية والهداية والتوفيق: التَّمسكُ والاعتصامُ بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسُنَّة رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران:١٠١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران:١٠٣].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء:١٤٥-١٤٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء:١٧٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج:٧٨].

فالقرآن الكريم هو الهادي إلى الصراط المستقيم، وهو حبل الله المتين، من قال به صدق، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾﴾ [البقرة:١-٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الإسراء:٩].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى ذكره: إن هذا القرآن الذي أنزلناه على نبينا محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرشد ويسدد من اهتدى به. ﴿لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، يقول: للسبيل التي هي أقوم من غيرها من السبل، وذلك دين الله عَزَّوَجَلَّ الذي بعث به أنبياءه، وهو الإسلام، يقول جل ثناؤه: فهذا القرآن يهدي عباد الله المهتدين به إلى قصد السبيل التي ضل عنها سائر أهل الملل المكذبين به. كما حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾، قال:

التي هي أصوب: هو الصواب وهو الحق؛ قال: والمخالف هو الباطل. وقرأ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البينة:٣]، قال: فيها الحقُّ ليس فيها عوج. وقرأ: ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ۝١ قَيِّمًا﴾ [الكهف:١-٢] يقول: قيمًا مستقيمًا.

قوله: ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: ويبشر أيضًا مع هدايته من اهتدى به للسبيل الأقصد: الذين يؤمنون بالله ورسوله، ويعملون في دنياهم بما أمرهم الله عَزَّوَجَلَّ به، وينتهون عما نهاهم عنه. بأن ﴿لَهُمْ أَجْرًا﴾ من الله عَزَّوَجَلَّ على إيمانهم وعملهم الصالحات. ﴿كَبِيرًا ۝٩﴾، يعني: ثوابًا عظيمًا، وجزاء جزيلًا، وذلك هو الجنة التي أعدَّها الله تعالى لمن رضي عمله"[(١)].

وحفظ القرآن الكريم والعمل به من أعظم المنجيات يوم القيامة؛ فإن القرآن يرفع القارئ الحافظ لآياته، والمتمسك به، وينفع كذلك والديه.

قال الإمام أبو محمد الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]:

وإِنَّ كِتَابَ اللهِ أَوْثَقُ شَافِعٍ ... وأَغْنَى غَنَاءٍ وَاهِبًا مُتَفَضِّلَا
وخَيْرُ جَلِيسٍ لاَ يُمَلُّ حَدِيثُهُ ... وتَرْدَادُهُ يَزْدَادُ فِيهِ تَجَمُّلَا
وحَيْثُ الْفَتى يَرْتَاعُ فِي ظُلُمَاتِهِ ... مِنَ الْقبرِ يَلْقَاهُ سنًا مُتَهَلِّلَا
هُنَالِكَ يَهْنِيهِ مَقِيلًا وَرَوْضَةً ... وَمِنْ أَجْلِهِ فِي ذِرْوَةِ الْعِزِّ يُجْتُلَى
يُنَاشِدُ فِي إِرْضَائِهِ لحبِيبِهِ ... وأَجْدِرْ بِهِ سُؤْلًا إِلَيْهِ مُوَصَّلَا

---

(١) تفسير الطبري (١٧/٣٩٢-٣٩٣).

(٢) متن الشاطبية [١٠-١٩]، (ص:٢).

فَيَا أَيُّهَا الْقَارِي بِهِ مُتَمَسِّكًا مُجِلًّا لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ مُبَجِّلًا
هَنِيئًا مَرِيئًا وَالِدَاكَ عَلَيْهِمَا مَلَابِسُ أَنْوَارٍ مِنَ التَّاجِ وَالحُلَا
فَمَا ظَنُّكُمْ بالنَّجْلِ عِنْدَ جَزَائِهِ؟ أُولَئِكَ أَهْلُ اللهِ والصَّفْوَةُ المَلَا
أُولُو الْبِرِّ وَالإِحْسَانِ وَالصَّبْرِ وَالتُّقَى حُلاَهُمُ بِهَا جَاءَ الْقُرَانُ مُفَصَّلَا
عَلَيْكَ بِهَا مَا عِشْتَ فِيهَا مُنَافِسًا وَبِعْ نَفْسَكَ الدُّنْيَا بِأَنْفَاسِهَا الْعُلَا

وقد روي بإسناد فيه ضعف: عن زَبَّانِ بن فائد، عن سهل بن معاذ الجهني، عن أبيه، أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من قرأ القرآن وعمل بما فيه، أُلْبِسَ وَالِدَاهُ تَاجًا يوم القيامة، ضوءه أحسن من ضوء الشمس في بيوت الدنيا لو كانت فيكم، فما ظنكم بالذي عمل بهذا؟**» [(١)].

ومعناه صحيح، ويشهد له حديث: عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: كنت عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسمعته يقول: «**يلقى القرآن صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك؟ فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم وراء كل تجارة. فيعطى الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع**

(١) أخرجه أحمد [١٥٦٤٥]، وأبو داود [١٤٥٣]، وأبو يعلى [١٤٩٣]، والحاكم [٢٠٨٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٧٩٧]، والبغوي في (شرح السنة) [١١٧٩]. قال الهيثمي (١٦٢/٧): "روى أبو داود بعضه، ورواه أحمد، وفيه زبان بن فائد، وهو ضعيف".

على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان بم كسينا هذه؟ فيقال بأخذ ولدكما القرآن» (١).

والتَّمسكُ بكتابِ الله عَزَّوَجَلَّ وسُنَّةِ رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمانٌ من الزيغ والضَّلال.

قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله**» (٢).

وفي (موطأ الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ) «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله، وسنة نبيه**» (٣).

ومن أسباب العافية والهداية: الإكثار من الدعاء والاستغفار، فهذا دأب الصالحين المهتدين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف حالهم في سؤالهم الثبات على طاعته: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عمران:٨].

---

(1) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٠٠٤٥]، وأحمد [٢٢٩٥٠]، والدارمي [٣٤٣٤]، ومحمد بن نصر المرْوَزي في (قيام الليل) (ص:١٧١)، وابن الضريس في (فضائل القرآن) [٩٩]، والبغوي في (شرح السنة) [١١٩٠]، وقال: "حسن غريب". قال الهيثمي (١٥٩/٧): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح". وقد حسن إسناده كذلك الحافظ ابن كثير في (تفسيره) (١٥٢/١).

(٢) صحيح مسلم [١٢١٨].

(٣) موطأ الإمام مالك [٣٣٣٨]. قال ابن عبد البر: "وهذا الحديث محفوظ معروف مشهور عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند أهل العلم شهرة يكاد يستغنى بها عن الإسناد، وروي في ذلك من أخبار الآحاد أحاديث من أحاديث: أبي هريرة، وعمرو بن عوف.." انظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٣٣١/٢٤-٣٣٢).

وكان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أمَّةً، شاكرًا لأنعم الله عَزَّوَجَلَّ، سائلًا المولى جَلَّ وَعَلَا الثبات على طاعته، فكان يكثر من الدعاء ويقول كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عنه: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأنعام:٧٧]، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم:٣٩-٤١].

ومن دعاء نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم إني أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى**» (١).

وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت عائشة -أم المؤمنين- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، بأي شيء كان نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته: «**اللهم رب جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**» (٢).

وعن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قل: اللهم اهدني وسددني، واذكر، بالهدى هدايتك الطريق، والسداد، سداد السهم**»، وحدثنا ابن

---

(١) صحيح مسلم [٢٧٢١].

(٢) صحيح مسلم [٧٧٠].

نمير، حدثنا عبد الله يعني ابن إدريس، أخبرنا عاصم بن كليب، بهذا الإسناد قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**قل: اللهم إني أسألك الهدى والسداد**» ثم ذكر بمثله (١).

وقال الحسن بن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: علمني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلمات أقولهن في الوتر: «**اللهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت**.. الخ» الحديث (٢).

ومن دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت أنت ربي، وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعا، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت**» (٣).

وعند النسائي بسند صحيح: «**اللهم اهدني لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق**.. الخ» الحديث (٤).

---

(١) صحيح مسلم [٢٧٢٥].

(٢) حديث الحسن: أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٧٠٥]، وأحمد [١٧١٨]، والدارمي [١٦٣٤]، وأبو داود [١٤٢٥]، والترمذي وحسنه [٤٦٤]، والبزار [١٣٣٧]، والنسائي [١٧٤٥]، وأبو يعلى [٦٧٨٦]، وابن الجارود [٢٧٢]، وابن خزيمة [١٠٩٥]، وابن حبان [٩٤٥]، والطبراني في (الكبير) [٢٧٠١]، والحاكم [٤٨٠١]، والبيهقي في (السنن الكبرى) [٤٢٩٨]. قال العراقي: "أخرجه أبو داود، والترمذي وحسنه، والنسائي من حديث الحسن، وإسناده صحيح". المغني عن حمل الأسفار (ص:١٨٣).

(٣) صحيح مسلم [٧٧١].

(٤) سنن النسائي [٨٩٦]، وأخرجه أيضًا: الطبراني في (الدعاء) [٤٩٩]، وفي (مسند الشاميين) [٢٩٧٤].

ومن دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللهم زَيِّنَّا بزينة الإيمان، واجعلنا هداةً مهتدين**»(١).

ومن دعائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «.. **رَبِّ تَقَبَّلْ توبتي، واغسل حَوْبَتِي، وأَجِبْ دعوتي، واهدِ قلبي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وسدد لساني، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ قلبي**»(٢).

وعن معاذ بن رفاعة بن رافع الأنصاري، عن أبيه، رفاعة بن رافع، قال: سمعت أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول على منبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: فبكى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم سُرِّيَ عنه، ثم قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في هذا الْقَيْظِ عَامَ الْأَوَّلِ: «**سلوا الله العفو والعافية، واليقين في الآخرة والأولى**»(٣).

وعبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: لم يكن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسي: «**اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة،**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٤٤٢]، وأحمد [١٨٣٢٥]، والنسائي [١٣٠٥]، وابن حبان [١٩٧١]، والحاكم [١٩٢٣] وقال: "صحيح الإسناد". وأخرجه أيضًا: تمام [١٣٨٧]. وعند أحمد، وتمام بلفظ: «واجعلنا هداة مهديين».

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٣٩٠]، وأحمد [١٩٩٧]، وابن حميد [٧١٧]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٦٥]، وابن ماجه [٣٨٣٠]، وأبو داود [١٥١٠]، والترمذي [٣٥٥١] وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: الحاكم [١٩١٠] وقال: "صحيح الإسناد".

(٣) أخرجه أحمد [٦]، واللفظ له، والترمذي [٣٥٥٨]، وقال: "حسن غريب"، كما أخرجه البزار [٣٤]، وأبو يعلى [٨٦]، والبغوي في (شرح السنة) [١٣٧٧]. قال المنذري (١٣٧/٤): "رواه الترمذي من رواية: عبد الله بن محمد بن عقيل، وقال: حديث حسن غريب، ورواه النسائي من طرق، وعن جماعة من الصحابة، وأحد أسانيده صحيح".

اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي»، قال: يعني: الخسف (١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما من دعوة يدعو بها العبد أفضل من: اللهم إني أسألك المعافاة في الدنيا والآخرة**» (٢).

وعن أبي مالك الأشجعي عن أبيه أنه سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتاه رجل، فقال: يا رسول الله كيف أقول حين أسأل ربي؟ قال: «**قل: اللهم اغفر لي، وارحمني، وعافني، وارزقني**» -ويجمع أصابعه إلا الإبهام-؛ «**فإن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك**» (٣).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قلت: يا رسول الله أرأيت إن علمت أي ليلة ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: «**قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني**» (٤).

---

(١) أخرجه أحمد [٤٧٨٥]، واللفظ له، وعبد بن حميد [٨٣٧]، والبخاري في (الأدب المفرد) [١٢٠٠]، وأبو داود [٥٠٧٤]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٣٢٥]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٥٦٦]، وابن حبان [٩٦١]، والطبراني في (الكبير) [١٣٢٩٦]، وابن السني [٤٠]، والحاكم [١٩٠٢]، وقال: "صحيح الإسناد" كما أخرجه البيهقي في (الدعوات) [٣٢]، والضياء [٢٣٨].

(2) أخرجه ابن ماجة [٣٨٥١]، في (الزوائد) (١٤٣/٤): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات". قال المنذري (١٣٧/٤): "رواه ابن ماجه بإسناد جيد".

(٣) صحيح مسلم [٢٦٩٧].

(٤) أخرجه إسحاق بن راهويه [١٣٦١]، وأحمد [٢٥٣٨٤]، وابن ماجه [٣٨٥٠]، والترمذي [٣٥١٣]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه النسائي في (الكبرى) [٧٦٦٥]، وفي (عمل اليوم والليلة)=

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا قام أحدكم عن فراشه ثم رجع إليه فلينفضه بصنفة إزاره ثلاث مرات، فإنه لا يدري ما خلفه عليه بعد، فإذا اضطجع فليقل: باسمك ربي وضعت جنبي، وبك أرفعه، فإن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين، فإذا استيقظ فليقل: الحمد لله الذي عافاني في جسدي، ورد علي روحي وأذن لي بذكره**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من رأى مبتلى، فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلا، لم يصبه ذلك البلاء**»(٢).

وفي ثنايا هذا المصنف الكثير من الأدعية الجامعة والنافعة.

ومن أسباب العافية والهداية: شكر المنعم على نعمه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝١٩٨﴾ [البقرة:١٩٨].

=[٨٧٢]، وابن السني في (عمل اليوم والليلة) (١/٦٩٠)، والحاكم [١٩٤٢]، وقال: "صحيح على شرطهما" وأخرجه أيضًا: القضاعي [١٤٧٦]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٤٢٦].

(١) أخرجه الترمذي [٣٤٠١]، وقال: "وفي الباب عن جابر، وعائشة، وحديث: أبي هريرة حديث حسن، وروى بعضهم هذا الحديث، وقال: فلينفضه بداخلة إزاره". وقوله: «بصنفة إزاره» أي: جانبه الذي لا هدب له.

(٢) أخرجه الترمذي [٣٤٣٢]، وقال: "هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه"، كما أخرجه الطبراني في (الدعاء) [٧٩٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤١٢٩].

قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يعني بذلك جل ثناؤه: واذكروا الله أيها المؤمنون عند المشعر الحرام بالثناء عليه، والشكر له على أياديه عندكم، وليكن ذكركم إياه بالخضوع لأمره، والطاعة له والشكر على ما أنعم عليكم من التوفيق، لما وفقكم له من سُنَنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِه عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد الذي كنتم فيه من الشرك، والحيرة، والعمى عن طريق الحق، وبُعْد الضلالة، كذكره إياكم بالهدى، حتى استنقذكم من النار به بعد أن كنتم على شفا حفرة منها، فنجاكم منها.

وذلك هو معنى قوله: ﴿كَمَا هَدَاكُمْ﴾" [1].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٧﴾ [المائدة:٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [النمل:٦٢].

ومن أسباب العافية والهداية: ذكرُ الله عَزَّوَجَلَّ على الدَّوام، والاستعانةُ به، واللجوءُ إليه في كشف الضُّر والسوء، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ۝٢٤﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

ومن أسباب العافية والهداية: المسارعة إلى الاستجابة لله عَزَّوَجَلَّ، ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يحال بين المرء وقلبه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ

---

(١) تفسير الطبري (١٨٣/٤).

لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال:٢٤].

والمراد بالاستجابة: تزكية النفس بالعلم والطَّاعة والامتثال.

ومن أسباب العافية: الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ في الطاعات، ومجاهدة النفس والشيطان والهوى، والإكثار من النوافل التي تقرُّب من الله سبحانه.

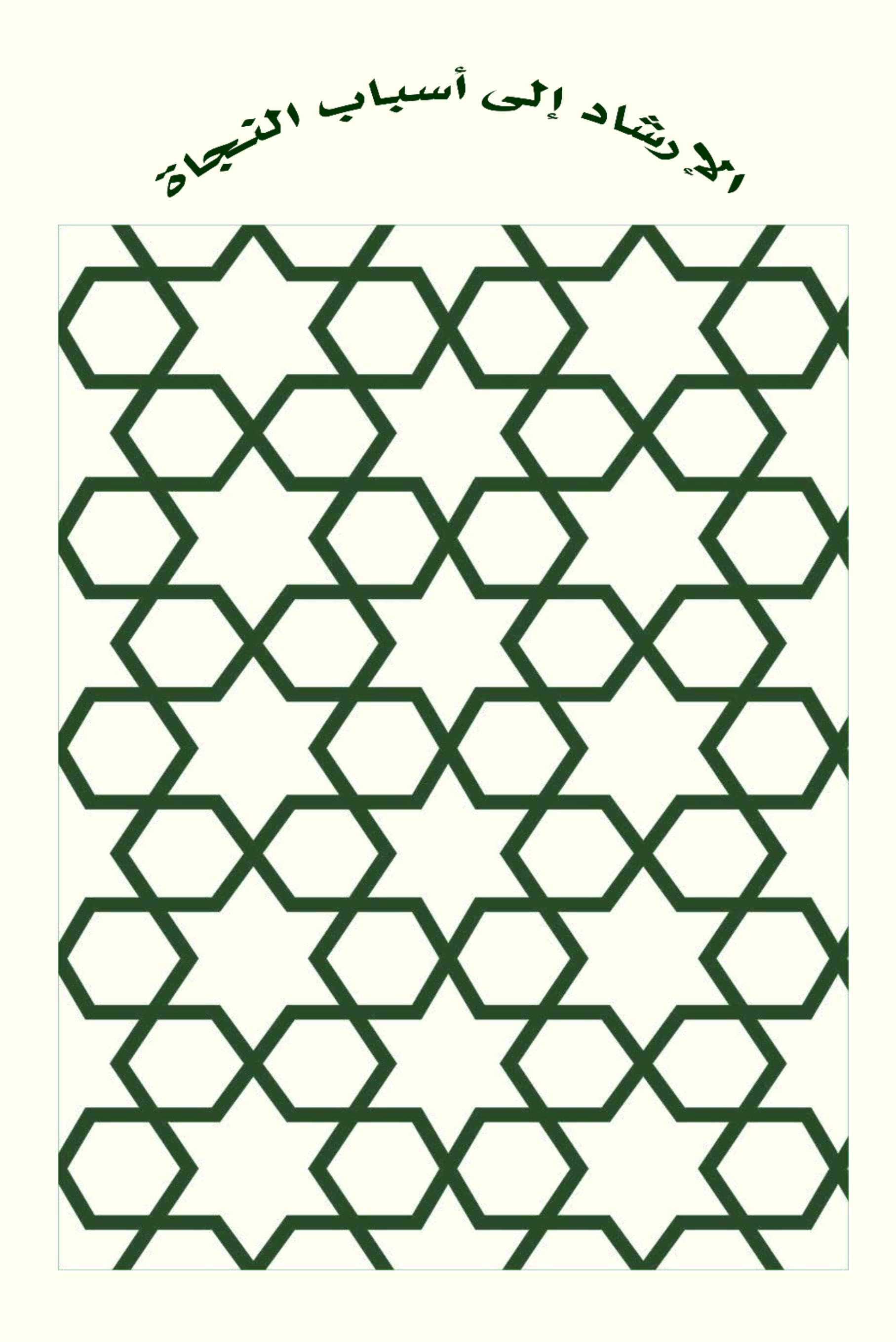
ومن أسباب العافية والهداية: الاحتراز عن مضلات الهداية، والحرص على اغتنام ما يقابلها من صالح الأعمال.... إلى غير ذلك مما تقدم بيانه.



المبحث الثالث عشر:

الابتلاء بالفتن
وأسباب النجاة منها

الإرشاد إلى أسباب النجاة



أوَّلًا: وقوع الفتن من الابتلاء الذي يمحص الصادق عن الكاذب:

إن من يتأمل واقع المسلمين يجد أنهم يمرون بفتن عظيمة، ومحن جسيمة، تعاظم خطرُها، وتطاير شَرَرُها، تنوَّعت أسبابها، واختلفت موضوعاتها.

إن الناظر في حال العالم اليوم، وخاصةً في بلاد المسلمين، على مستوى أفرادهم ومجتمعاتهم يجد أنهم يمرون بفتنٍ عظيمةٍ، ومحنٍ جسيمةٍ، تعاظم خطرها، وتطاير شررها، تنوعت أسبابها، واختلفت موضوعاتها.

وقد جاء الشارع الحكيم بالتحذير من غوائل الفتن، وشرورها ومدلهماتها.

ومن دلائل التوفيق: أن يستقيم المرء على دين الله، ويثبت عليه أيام حياته، وعلى كل حالاته: في حال السراء والضراء، وفي حال الشدة والرخاء، فيكون عابدًا شاكرًا لله في حال السراء، وصابرًا محتسبًا في حال الضراء.

والابتلاء -كما تقدم- سنة الله عَزَّوَجَلَّ في خلقه حتى يتحقق فيهم معنى التكليف المتفرع عن العبودية لله عَزَّوَجَلَّ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة:١٥٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد:٣١].

والفتنة بهذا المعنى هي الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال:٣٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت:١-٣].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾ [العنكبوت:١١].

ومن آثار الفتنة: ضلال الكثيرين:

فلا تظهر فتنةٌ إلا وينتكس رجال، ويسقطُ آخرون، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾ [النساء:٩١]، أي: كلما عرض لهم بلاء هلكوا فيه [(١)].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ﴾ [التوبة:٤٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ۝١١﴾ [الحج:١١].

ويثبت الله عَزَّوَجَلَّ الذين آمنوا، ويعصمهم من آفات تلك الفتن، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ [إبراهيم:٢٧].

ومن آثار الفتنة: الصدُّ والإضلال:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٧٧﴾ [المائدة:٧٧].

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٢٨)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٣/١٠٢٩).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ٢٥﴾ [النحل:٢٥].

ومن آثار الفتنة: اشتباه الحق بالباطل، وظهور الفساد:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٍۚ إِلَّا تَفۡعَلُوهُ تَكُن فِتۡنَةٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ٧٣﴾ [الأنفال:٧٣]، أي: شبهة في الحقِّ والباطل، وظهور الفساد في الأرض [(١)].

وأما ما جاء في التحذير من الفتن: فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥﴾ [الأنفال:٢٥]، وقال: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾ [الأنبياء:٣٥]، فهذا تنبيه بالغ في التحذير من الفتن.

وأما ما جاء في إقبال الفتن ونزولها كمواقع القطر: فقد أخرج مسلم: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**» [(٢)].

وقد تقدم بيان ذلك.

وعن زينب بنت جحش رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ دخل عليها فزعًا يقول: «**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج**

---

(١) تفسير الطبري (١٤/٨٦-٨٧)، وانظر: تفسير الرازي (١٥/٥١٨).

(٢) صحيح مسلم [١١٨]، وقد تقدم.

مثل هذه»، وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «**نعم إذا كثر الخبث**»[(1)].

وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أشرف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُطُمٍ من آطَام المدينة، فقال: «**هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر**»[(2)].

و(الْأُطُمُ) -بضم الهمزة والطاء- هو القصر والحصن، وجمعه: آطام، ومعنى: (أشرف): علا وارتفع. والتشبيه بمواقع القطر في الكثرة والعموم، أي: إنها كثيرة وتعم الناس لا تختص بها طائفة. وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بين المسلمين والتي يقتل بعضهم فيها بعضًا[(3)].

وعن كُرْزِ بن عَلْقَمَةَ الْخُزَاعِيِّ، قال: قال رجل: يا رسول الله، هل للإسلام من منتهى؟ قال: «**نعم، أيما أهل بيت من العرب أو العجم أراد الله بهم خيرًا أدخل عليهم الإسلام، ثم تقع الفتن كأنها الظُّلَلُ، ثم تعودون فيها أَسَاوِدَ صُبًّا، يضرب بعضكم رقاب بعض**»[(4)].

---

(1) صحيح البخاري [٣٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥]، مسلم [٢٨٨٠].

(2) صحيح البخاري [١٨٧٨، ٢٤٦٧]، مسلم [٢٨٨٥].

(3) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/٧-٨).

(4) أخرجه الطيالسي [١٣٨٦]، والحميدي [٥٨٤]، ونعيم بن حماد في (الفتن) [٧]، وابن أبي شيبة [٣٧١٢٦]، وأحمد [١٥٩١٧]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٢٣٠٥]، وابن حبان [٥٩٥٦]، والطبراني [٤٤٢]، والحاكم [٨٤٠٣]، وقال: "صحيح الإسناد". قال الهيثمي (٣٠٥/٧): "رواه أحمد، والبزار، والطبراني بأسانيد، وأحدها رجاله رجال الصحيح".

وقوله: «**أَسَاوِدَ صُبًّا**» (١)، يعني: الْحَيَّةَ السوداء إذا أراد أن ينْهَشَ ارتفعَ ثم انْصَبَّ، فهو يرتفع ثم يميل ويلتوي وقت النهش؛ ليكون أنكى في اللدغ، وأشد صبًّا للسم.

وقد أطلع الله عَزَّوَجَلَّ رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على كثير من البلايا والفتن التي ستبتلى بها الأمة الإسلامية في مُقْبِل الزمان؛ ولذلك فإنَّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أطال في تحديث الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عن تلك الفتن، وبيانِ المخرج منها، كما جاء في الحديث: عن أبي زيد عمرو بن أخطب، قال: «**صلَّى بنا رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **الفجر، وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت**

(١) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لتعوذن أساود صبًا»، أي: حيات. والأساود جمع أسود. قال أبو عبيد: هي حية فيها سواد، وهي أخبث الحيات. ويقال له: أَسْوَدُ سَالِخٌ؛ لأنه يَسْلُخُ جِلْدَهُ كُلَّ عام، وقال ابن الأعرابي: معناه: جماعات، جمع سواد من الناس، يعني: فرقًا مختلفين، وهي جمع: سوادٍ من النَّاس، أي: جماعة، ثم أَسْوِدَة، ثم أَساوِدُ جَمْعُ الْجَمع. و(الأسود): العظيم من الحيات، وقد غلب حتى اختلط بالأسماء، فقيل في جمعه: الأساود. وقد حكى الأصمعي كأنه من (السودان)، أي: من الحيات. وقيل: الصُّبُّ جمع: صَبُوب، على أن أصله: صُبُبٌ كرسول ورُسُل، ثم خفِّف كرُسْل، وذلك أن الأسود إذا أراد أن ينهش ارتفع، ثم انصبّ عَلَى الملدوغ. ويُروى: «صُبَّى» على وزن (حُبْلى). انظر في ذلك: الفائق في غريب الحديث والأثر (٢/٢٠٨)، مشارق الأنوار على صحاح الآثار (٢/٢٣٠)، فتح الباري، لابن رجب (١/١٠٩)، فتح الباري، لابن حجر (٦/٣٤٨)، تهذيب اللغة (١٣/٢٤)، النهاية في غريب الحديث (٣/٥).

العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن». فأعلمنا أحفظنا [1].

وعن حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**قام فينا رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **مقامًا، ما ترك شيئًا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة، إلا حدث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه»** [2].

وقد اجتهدَ كثيرٌ من الصحابة في التعرفِ على الفتن التي ستعصف بالأمةِ، وتبيَّنَ طريقَ النجاةِ منها، ومن هؤلاءِ، بل في مقدمتهم: حذيفةُ بن اليمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فقد صحَّ عنه أنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**أخبرني رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة»** [3].

وقال: والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة، فيما بيني وبين الساعة، وما بي إلا أن يكون رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَسَرَّ إلي في ذلك شيئا، لم يُحَدِّثْهُ غيري، ولكن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: وهو يُحَدِّثُ مجلسًا أنا فيه عن الفتن، فقال رسول الله

---

(١) صحيح مسلم [٢٨٩٢].

(٢) صحيح مسلم (٢٣) [٢٨٩١].

(٣) صحيح مسلم (٢٤) [٢٨٩١].

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يعد الفتن: «**منهن ثلاث لا يَكَدْنَ يَذَرْنَ شيئًا، وَمِنْهُنَّ فتن كرياح الصيف منها: صغار، ومنها: كبار**» (١).

وقد حذَّرنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مضلات الفتن ومسبباتها، فقال: «**إن مما أخشى عليكم: شهوات الغَيِّ في بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى** (٢).

وفي رواية: «**ومضلات الفتن** (٣).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لأحَدِّثَنَّكُم حديثًا لا يحدثكم أحد بعدي، سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**من أشراط الساعة: أن يَقِلَّ العلم، ويظهر الجهل، ويظهر الزنا، وتكثر النساء، وَيَقِلَّ الرجال، حتى يكون لخمسين امرأة القَيِّمُ الواحد**» (٤).

---

(١) صحيح مسلم (٢٢) [٢٨٩١]. قوله: «لا يكدن يذرن شيئا»، أي: لعظمهن، وقوله: «فتن كرياح الصيف»، أي: فيها بعض الشدة، وإنما خص الصيف؛ لأن رياح الشتاء أقوى. انظر: كشف المشكل (٣٩٩/١).

(٢) أخرجه أحمد [١٩٧٧٣]، والبزار [٣٨٤٤]، والطبراني في (الصغير) [٥١١]. قال المنذري (١٠١/٣): "بعض أسانيدهم رجاله ثقات". وقال الهيثمي (١٨٨/١): "رجاله رجال الصحيح؛ لأن أبا الحكم البناني الراوي عن أبي برزة بينه الطبراني فقال: عن أبي الحكم هو الحارث بن الحكم، وقد روى له البخاري وأصحاب السنن". كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٣٢/٢)، والبيهقي في (الزهد الكبير) [٣٧١].

(٣) أخرجه أحمد [١٩٧٧٢]. قال الهيثمي (٣٠٥/٧-٣٠٦): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح".

(٤) صحيح البخاري [٨١].

والسببُ في قلَّة الرجالِ، وكثرة النساء كما جاء ذلك مبنيًا في بعض الأحاديث: الحروبُ التي تقعُ في ذلكَ الزمان. وقد كَثُرَ في الأحاديث إخبارُ الرسول ﷺ بكثرة القتل في آخر الزمان، وليس المرادُ به قتلَ المسلمينَ للكفار، وإنما هو قتلُ بعض المسلمين لبعض، وفي كثيرٍ من الأحيان لا تُعْرفُ أسبابُ ذلك القتل ولا أهدافُه [1].

ففي الحديث: «**إن بين يدي الساعة لأيَّامًا، يَنْزِلُ فيها الجهلُ، ويُرْفَعُ فيها العلمُ، ويَكْثُرُ فيها الهَرْجُ، والهرج: القتل**» [2].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**إن بين يدي الساعة الهرج، قالوا: وما الهرج؟ قال: القتل، إنه ليس بقتلكم المشركين، ولكن قتل بعضكم بعضًا، حتى يقتل الرجل جاره، ويقتل أخاه، ويقتل عمه، ويقتل ابن عمه، قالوا: ومعنا عقولنا يومئذ؟ قال: إنه لتنزع عقول أهل ذلك الزمان، ويخلف له هباء من الناس؟ يحسب أكثرهم أنهم على شيء، وليسوا على شيء**» [3].

---

(١) انظر: القيامة الصغرى (ص:١٦٦-١٦٧).

(٢) صحيح البخاري [٧٠٦٢، ٧٠٦٤، ٧٠٦٦]، مسلم [٢٦٧٢].

(٣) أخرجه نعيم بن حماد في (الفتن) [٦٨]، وابن أبي شيبة [٣٧٣٨٤]، وأحمد [١٩٤٩٢]، وابن ماجه [٣٩٥٩]، والبزار [٣٧٣٨٤]: عن أسيد بن المتشمس قال: حدثنا أبو موسى حدثنا رسول الله ﷺ فذكره. قال البوصيري في (الزوائد) (٧٠/٨): "رواه أبو بكر ابن أبي شيبة ومسدد، ورواته ثقات". و«يخلف»: أي: يقوم، «هباء من النَّاس» أي: ناس بمنزلة الغبار، أي: حثالة من الناس وأراذلهم.

وفي رواية: «**فكسروا قسيَّكم، وقطِّعوا أوتاركم، واضربوا سيوفكم بالحجارة، فإن دخل على أحد منكم بيته فليكن كخير ابني آدم**» (١).

وعند الحاكم: عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «**إياك والفتن لا يَشْخَصْ لها أحد، فو الله ما شَخَصَ منها أحد إلا نسفته كما ينسف السَّيْلُ الدِّمَنَ، إنها مُشْبِهَةٌ مُقْبِلَةً، حتى يقول الجاهل: هذه تُشْبِهُ مُقْبِلَةً، وتَتَبَيَّنَ مُدْبِرَةً، فإذا رأيتموها، فاجتمعوا في بيوتكم، واكسروا سيوفكم، وقطعوا أوتاركم، وغطوا وجوهكم**» (٢).

قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: «**تُشْبِهُ مُقْبِلَة، وتَتَبَيَّنَ مُدْبِرَة**»: "أي: أنها إذا أقبلت شَبَّهَتْ على القوم وأَرَتْهُمْ أنهم على الحق حتى يدخلوا فيها ويركبوا منها ما لا يجوز، فإذا أدبرت وانقضت بان أمرها، فعلم من دخل فيها أنه كان على الخطأ"(٣).

والشبهة: الالتباس. وأمور مُشْتَبِهة ومُشَبِّهَة: مشكلة يشبه بعضها بعضًا (٤).

---

(١) أخرجه نعيم بن حماد في (الفتن) [٣٤٣]، وابن أبي شيبة [٣٧١٢٢]، وأحمد [١٩٦٦٣]، وابن ماجه [٣٩٦١]، وأبو داود [٤٢٥٩]، والترمذي [٢٢٠٤]، وقال: "حسن غريب". وأخرجه أيضًا: الروياني [٥٨٥]، وابن حبان [٥٩٦٢]، والطبراني في (الأوسط) [٨٥٦٣]، والحاكم [٨٣٦٠]، والبيهقي [١٦٨٠٠]: عن أبي موسى.

(٢) أخرجه معمر في (جامعه) [١٣٧٩]، ونعيم بن حماد في (الفتن) [١٣٧٩]، والحاكم [٨٣٨٥]، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: أبو نعيم في (الحلية) (١/٢٧٣). و«الدِّمن»: السماد المتلبد والبعر.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (شبه) (٢/٤٤٢).

(٤) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (شبه) (٤/١٩٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، ومن يُشْرِفْ لها تَسْتَشْرِفْه، ومن وجد ملجأ أو مَعَاذًا فليعذ به**» وفي لفظ: «**مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا**»(١). فقوله: «**مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا**»: بفتح المثناة والمعجمة وتشديد الراء، أي: تَطَلَّعَ لها بأن يَتَصَدَّى ويَتَعَرَّضَ لها ولا يُعْرِضُ عنها.

قوله: «**تستشرفه**» أي: تهلكه بأن يُشْرِفَ منها على الهلاك. يقال: اسْتَشْرَفْتُ الشَّيْءَ: عَلَوْتُهُ وَأَشْرَفْتُ عليه. يريد مَن انْتَصَبَ لها انْتَصَبَتْ له، ومن أعرض عنها أعرضت عنه. وحاصله أن من طَلَعَ فيها بِشَخْصِهِ قَابَلَتْهُ بِشَرِّهَا. ويحتمل أن يكون المراد: مَنْ خَاطَرَ فيها بنفسه أَهْلَكَتْهُ، ونحوه قول القائل: مَنْ غَالَبَهَا غَلَبَتْه(٢).

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا جلوسًا عند عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: أَيُّكُمْ يحفظ قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الفتنة؟ قلت أنا كما قاله: قال: إنك عليه أو عليها لجريء، قلت: «**فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره، تكفرها الصلاة والصوم والصدقة، والأمر والنهي**»، قال: ليس هذا أريد، ولكن الفتنة التي تموج كما يموج البحر، قال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها بابًا مغلقًا، قال: أيكسر أم يفتح؟ قال: يكسر، قال: إذًا لا يغلق أبدًا، قلنا: أكان عمر يعلم الباب؟ قال: نعم،

---

(١) صحيح البخاري [٣٦٠١، ٧٠٨١، ٧٠٨٢]، مسلم [٢٨٨٦].

(٢) فتح الباري، لابن حجر (٣١/١٣).

كما أن دون الغَدِ اللَّيْلَةَ، إني حدثته بحديث ليس بالأغاليط فهبنا أن نسأل حذيفة، فأمرنا مسروقًا فسأله، فقال: الباب عمر (١).

وكأنه مَثَّلَ الْفِتَنَ بِدَارٍ، ومَثَّلَ حياة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ببابٍ لها مغلق، ومَثَّلَ موته بفتح ذلك الباب، فما دامت حياة عمر موجودة فهي الباب المغلق، فإذا مات عصف بالناس رياحُ الفتن، وانفتح ذلك الباب فخرج ما في تلك الدَّار. وكأن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد علم أن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقتل شهيدًا، ولكنه كره أن يخاطبه بالقتل (٢).

وفي (المرقاة): "أن الكلام لم يكن من باب الصريح، بل من قبيل الرمز والتلويح، لكن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن لا يخفى عليه الإشارة فضلًا عن العبارة، بل هو أيضًا من أصحاب الأسرار، وأرباب الأنوار"(٣).

وقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**تُعْرَضُ الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فَأَيُّ قلب أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سوداء، وَأَيُّ قلب أنكرها، نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مِرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا ما أُشْرِبَ من هواه**» (٤).

---

(١) صحيح البخاري [٥٢٥، ١٤٣٥، ١٨٩٥، ٣٥٨٦، ٧٠٩٦]، مسلم [١٤٤].

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٧٥/٢)، فتح الباري، لابن حجر (٦٠٦/٦).

(٣) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣٤٢٧/٨).

(٤) صحيح مسلم [١٤٤]. و"«مربادًا»: -بكسر الميم وبالدال المشددة-: من ارْبَادَّ كَاحْمَارَّ، أي: صار كلون الرماد، من الرُّبْدَة لون بين السواد وَالْغَبَرَة، وهو حال أو منصوب على الذم. و«مجخيًا»: بضم ميم=

شَبَّهَ القلب الذي لا يَعِي خيرًا بالكوز الْمُنْحَرِفِ الذي لا يثبت الماء فيه. ذلك أن الرجل إذا تبع هواه، وارتكب المعاصي، دخل قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمةٌ، وإذا صار كذلك افْتُتِنَ وزال عنه نور الإسلام. والقلب مثلُ الكوز فإذا انْكَبَّ انْصَبَّ ما فيه ولم يدخله شيء بعد ذلك [1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ويل للعرب من شر قد اقترب، أفلح من كف يده**» [2].

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: "والإمساك في الفتنة سنة ماضية واجب لزومها، فإن ابتليت فقدم نفسك دون دينك، ولا تعن على فتنة بيد، ولا لسان، ولكن اكفف يدك ولسانك وهواك -والله المعين-"[3].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "والفتنة إذا وقعت عجز العقلاء فيها عن دفع السفهاء، فصار الأكابر رَحِمَهُمُ اللَّهُ عاجزين عن إطفاء الفتنة وكف أهلها. وهذا شأن الفتن كما

=وسكون جيم وخاء مكسورة وياء آخر الحروف مشددة، وقد تخفف. وفي (النهاية): وروي بتقديم الخاء على الجيم، أي: مائلًا منكوسًا" مرقاة المفاتيح (٣٣٧٨/٨)، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (خجى) (١٢/٢).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ١٧٣).

(٢) أخرجه نعيم بن حماد في (الفتن) [٣٤٤]، وابن أبي شيبة [٣٧٢٥٢]، وأحمد [٩٦٩١] بإسناد صحيح، وأبو داود [٤٢٤٩]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٦٥/٨)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٩٤٥]، والديلمي [٧١٤٢].

(٣) طبقات الحنابلة (٢٧/١)، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ص:٨٩).

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ﴾ [الأنفال:٢٥]. وإذا وقعت الفتنة لم يسلم من التلوث بها إلا من عصمه الله عَزَّوَجَلَّ"(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: بينما نحن حول رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، إذ ذكر الفتنة، فقال: «**إذا رأيتم الناس قد مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، وكانوا هكذا**» وشبك بين أصابعه، قال: فقمت إليه، فقلت: كيف أفعل عند ذلك، جعلني الله فداك؟ قال: «**الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ بما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة**»(٢).

وعند أبي داود رَحِمَهُٱللَّهُ بلفظ: «**كيف بكم وبزمان**» أو «**يوشك أن يأتي زمان يغربل الناس فيه غربلة، تبقى حثالة من الناس، قد مرجت عهودهم، وأماناتهم، واختلفوا، فكانوا هكذا**»، وشبك بين أصابعه، فقالوا: وكيف بنا يا رسول الله؟ قال: «**تأخذون ما تعرفون، وتذرون ما تنكرون، وتقبلون على أمر خاصتكم، وتذرون**

---

(١) منهاج السنة النبوية (٤/٣٤٣).

(٢) أخرجه أحمد من غير وجه، كما أخرجه ابن ماجة [٣٩٥٧]، وأبو داود [٤٣٤٣]، والنسائي في (الكبرى) [٩٩٦٢]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٢٠٥]، والطبراني (٩/١٣)، [٤]، وأخرجه أيضًا: الحاكم [٧٧٥٨] وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. والحديث قد روي عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، من غير وجه. قال العراقي (ص:٦٩٨): "أخرجه أبو داود، والنسائي في (اليوم والليلة) بإسناد حسن".

أمر عامتكم». قال أبو داود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هكذا روي عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير وجه (١).

وكذلك روي عن طائفة من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ [المائدة:١٠٥]، قالوا: لم يأت تأويلها بعد، إنما تأويلها في آخر الزمان (٢).

وروي عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة، ولم تُلبَسوا شيعًا، ولم يَذُق بعضكم بأس بعض، فأمروا وانهوا. فإذا اختلفت القلوب والأهواء، وأُلبستم شيعًا، وذاق بعضكم بأس بعض، فامرؤ ونفسه، فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية (٣).

وتحتاج الأمة في الفتن عندما يلتبس الحق بالباطل أن ترجع لأهل العلم الراسخ، والنظر الثاقب، وتحذر من خطيب مصقع (٤)، وواعظ جاهل يشوِّه الحقائق، ويغطي العقل بلهب العواطف.

---

(١) سنن أبي داود [٤٣٤٢].

(٢) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/٢٥٢).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١١/١٤٤)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٤/١٢٢٧)، تفسير ابن كثير (٣/٢١٤)، الدر المنثور (٣/٢١٦)، السنن الكبرى، للبيهقي [٢٠١٩٤].

(٤) يقال: (خطيب مِصْقَع) –بكسر الميم–، أي: بليغ ماهر بالخطبة. و(مسقع) –بالسين– مثل مصقع.

وقد روي عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: "الفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل"(١).

و"كان الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبصر من الفتنة إذا أقبلت كما نبصر نحن منها إذا أدبرت"(٢).

وقد جاء في الحديث: عن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان**»(٣).

وعند (أبي يعلى): عن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: «**كنا نتحدث أن ما يهلك هذه الأمة كل منافق عليم اللسان**»(٤).

وقوله: «**كل منافق عليم اللسان**» "أي: كثير علم اللسان، جاهل القلب والعمل، اتخذ العلم حرفة يتأكل بها، ذا هيبة وأبهة، يتعزز ويتعاظم بها، يدعو النَّاس إلى الله عَزَّوَجَلَّ ويفر هو منه، ويستقبح عيب غيره ويفعل ما هو أقبح منه، ويظهر للنَّاس

---

(١) أخرجه ابن سعد في (الطبقات) (١٢٢/٧)، والبخاري في (التاريخ الكبير) (٣٢١/٤)، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٤/٩).

(٢) المجالسة (٨٦/٦).

(٣) أخرجه أحمد [١٤٣]، وابن حميد [١١]، والبزار [٣٠٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٤١]، قال الهيثمي (١٨٧/١): "رواه البزار وأحمد وأبو يعلى، ورجاله موثقون" عن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وأخرجه البزار [٣٥١٤]، والطبراني في (الكبير) [٥٩٣]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٩] عن عبد الله بن بريدة، عن عمران بن حصين. قال الهيثمي (١٨٧/١): "رواه الطبراني في (الكبير) والبزار، ورجاله رجال الصحيح".

(٤) معجم أبي يعلى [٣٣٤].

التَّنسك والتَّعبد، ويسارر ربَّه بالعظائم إذا خلا به ذئب من الذئاب لكن عليه ثياب، فهذا هو الذي حذَّر منه الشَّارع صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هنا؛ حذرًا من أن يخطفك بحلاوة لسانه، ويحرقك بنار عصيانه، ويقتلك بنتن باطنه وجنانه. قال الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ: والمنافقون أخبثُ الكفرة وأبغضهم إلى الله تعالى وأمقتهم عنده؛ لأنهم خلطوا بالكفر تمويهًا وتدليسًا، وبالشُّكر استهزاء وخداعًا؛ ولذلك أنزل فيهم: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء:١٤٥] انتهى.

وكان يحي بن معاذ رَحِمَهُ اللهُ يقول لعلماء الدنيا: يا أصحاب القصور قصوركم قيصرية، وبيوتكم كسروية، وأبوابكم ظاهرية، وأخفافكم جالوتية، ومراكبكم قارونية، وأوانيكم فرعونية، ومآثمكم جاهلية، ومذاهبكم شيطانية، فأين المحمدية والعالمية؟! وأكثر علماء الزمان ضربان: ضرب منكبٌ على حطام الدنيا لا يمل من جمعه، وتراه شهره ودهره يتقلب في ذلك كالهج في المزابل يطير من عذرة إلى عذرة، وقد أخذت دنياه بمجامع قلبه، ولزمه خوف الفقر وحب الإكثار، واتخذ المال عدة للنوائب، لا يتنكر عليه تغلب الدنيا، وضرب هم أهل تصنع ودهاء وخداع وتزين للمخلوقين وتملق للحكام؛ شحًا على رئاستهم، يلتقطون الرخص، ويخادعون الله بالحيل، ديدنهم المداهنة وساكن قلوبهم المنى، طمأنينتهم إلى الدنيا، وسكونهم إلى أسبابها، اشتغلوا بالأقوال عن الأفعال، وسيكافئهم الجبار المتعال"[١].

---

(١) فيض القدير (٤١٩/٢)، الكشاف، للزمخشري (٥٤/١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم، فإذا كان العلماء فجرة، والعباد جهلة عمت المصيبة بهما، وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة"(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والفتنة إذا وقعت عجز العقلاء فيها عن دفع السفهاء"(٢).

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اتقوا فتنة العابد الجاهل والعالم الفاجر؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون"(٣).

"وقد كان يقال: إن مثل الفتنة كمثل الدرهم الزيف يأخذه الأعمى ويراه البصير"(٤).

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قد رأينا والله أقوامًا يسرعون إلى الفتن، وينزعون فيها، وأمسك أقوام عن ذلك هيبة لله عَزَّوَجَلَّ، ومخافة منه، فلما انكشفت إذ الذين أمسكوا أطيب نفسًا، وأثلج صدورًا، وأخف ظهورًا من الذين أسرعوا إليها، وينزعون فيها، وصارت أعمال أولئك حزازات على قلوبهم كلما ذكروها، وايم الله لو أن الناس يعرفون من الفتنة إذا أقبلت كما يعرفون منها إذا أدبرت لعقل فيها جيل من الناس كثير، والله ما

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٦٠).

(٢) منهاج السنة (٣/٣٤٣).

(٣) شعب الإيمان [١٧٥٢]، أخلاق العلماء (ص:٨٧)، الزهد والرقائق، لابن المبارك (٢/١٨)، المعجم، لابن المقرئ [٥٥]، أخبار الشيوخ وأخلاقهم (ص:١٨٦)، صفحات مشرقة من حياة السلف (ص:١١٤)، موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل [٤٢٤٢].

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٩/٣٠٣٣)، الدر المنثور، للسيوطي (٦/٤٥٠).

بعثت فتنة قط إلا في شبهة وريبة، إذا شبت رأيت صاحب الدنيا لها يفرح ولها يحزن ولها يرضى ولها يسخط، ووالله لئن تشبث بالدنيا وحدب عليها ليوشك أن تلفظه وتقضى منه"(١).

وقد كان حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكثر من سؤال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الفتن حتى لا يقع فيها، ففي الصحيح عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: كان الناس يسألون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله: إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «**نعم**» قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «**نعم، وفيه دَخَنٌ**»، قلت: وما دخنه؟ قال: «**قوم يهدون بغير هَدْيِي، تَعْرِفُ منهم وَتُنْكِرُ**»، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «**نعم، دعاة إلى أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**»، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا؟ فقال: «**هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا**»، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال «**فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تَعَضَّ بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**» (٢).

---

(١) حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني (٢/٣٣٦).

(٢) صحيح البخاري [٣٦٠٦، ٧٠٨٤]، مسلم [١٨٤٧].

و(الدَّخَنُ) أصله: أن تكون في لون الدَّابَّةِ كُدُورَةٌ إلى سواد. قالوا: والمراد هنا أن لا تصفو القلوب بعضها لبعض، ولا يزولُ خُبْثُهَا، ولا ترجع إلى ما كانت عليه من الصفاء (١).

وقوله: «**دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها**» قال العلماء: هؤلاء من كان من الأمراء يدعو إلى بدعة أو ضلال. وفي حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا: لزوم جماعة المسلمين وإمامهم، ووجوب طاعته وإن فسق وعمل المعاصي، من أخذ الأموال وغير ذلك، فتجب طاعته في غير معصية (٢).

وفي حديث: العِرْبَاض بن ساريةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أمرَ الرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتمسكِ بالإسلام، وطاعةِ الإمام، والتزامِ سنَّةِ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسنةِ خلفائِه الراشدينَ المهديينَ من بعده، فعن العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: وعظنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع؟ فماذا تعهد إلينا؟ فقال: «**أوصيكم بالسمع والطاعة؛ فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**» (٣).

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/٢٣٦- ٢٣٧).

(٢) انظر: المصدر السابق (١٢/٢٣٧).

(٣) أخرجه أحمد [١٧١٤٥]، والدارمي [٩٦]، وابن ماجه [٤٣]، وأبو داود [٤٦٠٧]، والترمذي [٢٦٧٦] وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه البزار [٤٢٠١]، وابن حبان [٥]، والطبراني في (الكبير)=

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول في خطبته: **«أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة»** (١).

فأرشدَ الرسولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمَّتَه إلى كيفيةِ التصرفِ في مثلِ هذه الفتن، حيث يخفى الحقُّ، وتضطربُ الأمور، فقد دعا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى اجتنابِ الصراعِ والقتالِ في مثلِ هذه الحال، والاعتزالِ في مكانٍ ناءٍ، يرعى الرجلُ الغنمَ في قممِ الجبال، فإن وصلت إليه سيوفُ المتحاربين، فقد أُمِرَ بأن يمتنعَ عن الدفاعِ عن نفسه، ولو كان في هذا هلاكُه (٢).

وقد جاء في الحديث: عن المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: ايم الله، لقد سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **«إن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، ولمن ابتلي فصبر فواها»** (٣).

وعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنها ستكون فتن: ألا ثم تكون فتنة القاعد فيها خير من الماشي فيها، والماشي فيها خير من الساعي**

=[٦١٨]، والحاكم [٣٢٩]، وقال: "صحيح ليس له علة"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن) [٢٠٣٣٨].

(١) صحيح مسلم [٨٦٧].

(٢) القيامة الصغرى (ص:١٧٢).

(٣) أخرجه أبو داود [٤٢٦٣]، والبزار [٢١١٢]، والطبراني [٥٩٨]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٧٥/١). قال البزار: "وإسناده إسناد حسن". و«واها» كلمة معناها التلهف، وقد توضع للإعجاب بالشيء.

إليها. **ألا، فإذا نزلت أو وقعت، فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه»**، قال فقال رجل: يا رسول الله أرأيت من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال: «**يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاء، اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟**» قال: فقال رجل: يا رسول الله أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بي إلى أحد الصفين، أو إحدى الفئتين، فضربني رجل بسيفه، أو يجيء سهم فيقتلني؟ قال: «**يبوء بإثمه وإثمك، ويكون من أصحاب النار**» (١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نفسي بيده لَيَأْتِيَنَّ على الناس زمان لا يدري القاتل في أَيِّ شيء قَتَلَ، ولا يدري المقتول على أَيِّ شيء قُتِلَ**» (٢).

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في الحديث الذي رواه أبو بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار**»، فقلت يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**» (٣). فهذا تحذير بالغ من حمل السلاح عند الفتنة واختلاط الحق.

---

(١) صحيح مسلم [٢٨٨٧].

(٢) صحيح مسلم [٢٩٠٨].

(٣) صحيح البخاري [٣١، ٦٨٧٥]، مسلم [٢٨٨٨].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد اختلف العلماء في قتال الفتنة، فقالت طائفة: لا يقاتل في فتن المسلمين، وإن دخلوا عليه بيته وطلبوا قتله فلا يجوز له المدافعة عن نفسه؛ لأن الطالب متأول، وهذا مذهب أبي بكرة الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره. وقال ابن عمر وعمران بن الحصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما: لا يدخل فيها، لكن إن قصد دفع عن نفسه فهذان المذهبان متفقان على ترك الدخول في جميع فتن الإسلام. وقال معظم الصحابة والتابعين وعامة علماء الإسلام: يجب نصر المحق في الفتن، والقيام معه بمقاتلة الباغين كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ الآية [الحجرات:٩]. وهذا هو الصحيح.

وتُتَأَوَّلُ الأحاديث على من لم يظهر له المحق، أو على طائفتين ظالمتين لا تأويل لواحدة منهما، ولو كان كما قال الأولون لظهر الفساد، واستطال أهل البغي والمبطلون -والله أعلم-"[(١)].

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "والصواب أن يقال: إن الفتنة أصلها: الابتلاء وإنكار المنكر واجب على كل من قدر عليه، فمن أعان المحق أصاب، ومن أعان المخطئ أخطأ، وإن أشكل الأمر فهي الحالة التي ورد النهي عن القتال فيها"[(٢)].

ولا شك أنَّ تبينَ الحقِ والصوابِ في مثلِ هذه الظروفِ التي تقعُ فيها الفتن، وتظهرُ فيها الأهواءُ صعبٌ جدًّا، والأقربُ إلى السلامةِ هو البعدُ والاعتزال؛ كيلا يصيبَ المسلمُ دمًا حرامًا، ولا يؤذي مسلمًا -والله أعلمُ بالصواب- [(٣)].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/١٠)، وانظر: نيل الأوطار (٥/٣٩٣).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١٣/٣١)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٤/١٩١).

(٣) القيامة الصغرى (ص:١٧٤).

ومن علاماتِ الساعة: كثرة الفتن، وتكالب أمم الكفر على هذه الأمة، ففي الحديث: عن ثوبان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**»، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وَلَيَنْزَعَنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الْوَهْنَ**»، فقال قائل: يا رسول الله، وما الْوَهْنُ؟ قَالَ: «**حُبُّ الدُّنيا، وكراهية الموت**»(١).

و«**الْوَهْنَ**»: الضعف، وكأنه أراد بالوهن ما يوجبه؛ ولذلك فسره بحب الدنيا وكراهة الموت، وهما متلازمان فكأنهما شيء واحد، يدعوهم إلى إعطاء الدنية في الدين من العدو المبين، ونسأل الله العافية فقد ابتلينا بذلك(٢)، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي الحديث: قال عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: «**إن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء، وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه**

(١) أخرجه الطيالسي [١٠٨٥]، وابن أبي شيبة [٣٧٢٤٧]، وأحمد [٢٢٣٩٧] بسند حسن، وأبو داود [٤٢٩٧]، والروياني [٦٥٤]، وأبو نعيم في (الحلية) (١/١٨٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٨٧]، والديلمي [٨٩٧٧].

(٢) مرقاة المفاتيح (٨/٣٣٦٦).

هذه، فمن أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فَلْتَأْتِه مَنِيَّتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يُؤْتَى إليه» (١).

إنَّ اعتصامَ هذه الأمة بدينها ووحدتها حاجزٌ يقفُ دون مطامعِ أعدائها، فمهما كان مكرُ الأعداء وقوتُهم فإنهم لن ينالوا من هذه الأمة نيلًا إذا كان أبناؤُها متحدين، ومتمسكين بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ﴾ [الأنفال:٤٦].

وواضحٌ من الحديثِ السابقِ أنَّ وحدة الأمة عِصمةٌ لها من أعدائها، فإذا أصبح بأسها بينها، ووقعت الفرقة والاختصام فيما بينها سلَّطَ الله عليها أعداءَها، وتلك نتيجةٌ حتميةٌ؛ لأن قوتها في هذه الحال لا تتجهُ إلى الأعداء، بل إلى نفسها، فتدمِّرُ نفسَها بنفسِها، مما يُطْمِعُ أعداءَها فيها (٢).

(١) صحيح مسلم [١٨٤٤]. قال الإمام النووي: قوله: "«وتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضا» هذه اللفظة رويت على أوجه، أحدها: وهو الذي نقله القاضي عن جمهور الرواة: «يرقق» بضم الياء وفتح الراء وبقافين، أي: يصير بعضها رقيقًا، أي: خفيفًا؛ لعظم ما بعده، فالثاني يجعل الأول رقيقًا. وقيل: معناه يشبه بعضها بعضًا. وقيل: يدور بعضها في بعض ويذهب ويجيء. وقيل: معناه: يسوق بعضها إلى بعض بتحسينها وتسويلها. والوجه الثاني: «فيرفق» بفتح الياء وإسكان الراء وبعدها فاء مضمومة. والثالث: «فيدفق» بالدال المهملة الساكنة وبالفاء المكسورة، أي: يدفع ويصب، والدفق: الصب. قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه» هذا من جوامع كلمه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبديع حكمه، وهذه قاعدة مهمة فينبغي الاعتناء بها، وأن الإنسان يلزم أن لا يفعل مع الناس إلا ما يحب أن يفعلوه معه". شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/٢٣٣).

(٢) انظر: القيامة الصغرى (ص:١٨٦).

ثانيًا: أسباب الوقاية والنجاة من الفتن:

١ - الاستقامة والثبات على دين الله عَزَّوَجَلَّ في سائر الأحوال: في حال السراء والضراء، وفي حال الشدة والرَّخاء -كما تقدم-.

وقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأل ربه عَزَّوَجَلَّ الثبات، كما جاء في الحديث: عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقول: «**يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك**»، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يُقَلِّبُهَا كيف يشاء**» (١).

وقد نجى الله عَزَّوَجَلَّ يوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من فتنة النساء بما حصَّن به نفسه من قبل من الإيمان والتقوى، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٢٤﴾ [يوسف:٢٤].

٢ - أن يستعيذ المسلم من الفتن ما ظهر منها وما بطن:

وقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيذ بالله جَلَّ وَعَلَا من الفتن، وأمر أمته باتخاذ أسباب الوقاية من الفتن، واللجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والإكثار من الدعاء.

والاستعاذة بالله جَلَّ وَعَلَا من الفتن من أعظم أسباب الوقاية من آفاتها وخطرها؛ ولذلك حرص النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على تذكير أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، وإرشاد أمته في مناسبات متعددة، إلى أهمية الاستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ من الفتن، ومن ذلك:

قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تَعَوَّذُوا بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن**» (٢).

---

(١) تقدم.

(٢) صحيح مسلم [٢٨٦٧].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**تَعَوَّذُوا بالله من جَهْدِ البلاء، ودَرَكِ الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء**» (١).

وعن مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: تعوذوا بكلمات كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعوذ بهن: «**اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وعذاب القبر**» (٢).

وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول في دعائه: «**اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون**» (٣).

٣ - غرس العقيدة الصحيحة في نفوس الناشئة، وتعليم الناس أصول الاعتقاد، وما حَدَّثَ به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أحاديث في الفتن، وتحذيره من الخوض فيها، وبيان صورها وآثارها، وكيفية التعامل مع كل حادثة، وإزالة اللبس والاشتباه عن العامة، والتحذير من دعاة الفتنة، ورد شبه أهل الباطل.

---

(١) صحيح البخاري [٦٦١٦].

(٢) صحيح البخاري [٦٣٧٤].

(٣) الحديث رواه غير واحد، وهو مروي عن ابن عباس، ومعاذ بن جبل وغيرهما. حديث ابن عباس: أخرجه أحمد [٣٤٨٤]، وعبد بن حميد [٦٨٢]، والترمذي [٣٢٣٣]، وقال: "حسن غريب". حديث معاذ بن جبل: أخرجه الترمذي [٣٢٣٥]، وقال: "حسن صحيح".

٤ - اعتقاد أن كل ما يصيب الإنسان من فتنةٍ وبلاءٍ إنما هو بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد:٢٢]، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن:١١]. فالإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وقضائه وقدره من أسباب هداية القلوب، ولا سيما في وقت تزيغ فيه قلوب كثير من الناس.

٥ - الوحدة والائتلاف، وترك التنازع والاختلاف، والاعتصام بالكتاب والسنة؛ ولزوم الجماعة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران:١٠٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال:٤٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور:٦٣].

وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله، وسنة نبيه**» (١) -كما تقدم في بيان أسباب العافية والهداية-.

٦ - تقوى الله عَزَّوَجَلَّ: قال طَلْقُ بْنُ حَبِيب رَحِمَهُٱللَّهُ: "اتَّقُوا الْفِتْنَةَ بالتَّقْوَى، فقال بكر بْنُ عَبْدِ اللَّه رَحِمَهُٱللَّهُ: "أَجْمِلْ لنا التَّقْوَى في يَسِيرٍ، فقال: التَّقْوَى: العملُ بطاعة الله

---

(١) تقدم.

على نُورٍ من اللَّه؛ رَجَاءَ رحمةِ اللَّه، والتَّقوى: رك معاصي الله على نور من الله مخافة عذاب الله"(١).

٧ - الحرصُ على العبادة أيَّام الفتن:

إن من الأمور التي يدفع بها المسلم الفتن: الحرص على العبادة، وقد بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضل العبادة أيَّام الفتنة، واختلاط الأمور فقال: «**العبادة في الْهَرْجِ كهجرة إِلَيَّ**» (٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "المراد بالهرج هنا: الفتنة، واختلاط أمور الناس. وسبب كثرة فضل العبادة فيه أن الناس يغفلون عنها ويشتغلون عنها، ولا يتفرغ لها إلا أفراد"(٣).

وقد جاء في الحديث: عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك**» (٤).

---

(1) الزهد الكبير، للبيهقي [٩٦٥] (٣٥١/١)، وانظر: الرسالة التبوكية (ص:١٣).

(2) صحيح مسلم [٢٩٤٨].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٨٨/١٨-٨٩).

(٤) صحيح البخاري [٣٦٤١]، مسلم [١٠٣٧]. وفي (صحيح مسلم) [١٩٢٠]: عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحوه.

وأخبر النبي ﷺ عن الغرباء في آخر الزمان الذين يصلحون إذا فسد الناس، وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للغرباء**»[(١)].

وإذا عمت الفتن اشتغلت القلوب، وإذا تعبد حينئذ متعبد دلَّ على قوة اشتغال قلبه بالله عز وجل فيكثر أجره[(٢)].

قال القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه الله: "وجهُ تمثيله بالهجرة: أنَّ الزمنَ الأوَّل كان الناسُ يفرونَ فيه من دار الكفر وأهله إلى دار الإيمان وأهله، فإذا وقعت الفتنُ تَعَيَّنَ على المرء أن يفرَّ بدينه من الفتنة إلى العبادة، ويهجرَ أولئك القوم، وتلك الحالة، وهو أحدُ أقسام الهجرة"[(٣)].

وقد قال رسول الله ﷺ حاثًّا أُمَّتَه على المبادرة والمسارعة إلى الخيرات قبل فوات الأوان: «**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**»[(٤)].

قال الإمام أبو العباس القرطبي رحمه الله: "فالمتمسك بالعبادة في ذلك الوقت، والمنقطع إليها، المعتزل عن الناس، أجره كأجر المهاجر إلى النبيِّ ﷺ؛ لأنه يناسبه من حيث إن المهاجر فرَّ بدينه عمن يصده عنه إلى الاعتصام بالنبيِّ ﷺ،

---

(١) صحيح مسلم [١٤٥].

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢/ ٤٢).

(٣) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي (٩/ ٥٣).

(٤) صحيح مسلم [١١٨]، وقد تقدم.

وكذلك هو المنقطع للعبادة فرَّ من الناس بدينه إلى الاعتصام بعبادة ربه جَلَّوَعَلَا، فهو على التحقيق قد هاجر إلى ربه، وفر من جميع خلقه"(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان ما ينبغي أن يحرص عليه المسلم وقت الفتن: "وليتخذ وردًا من (الأذكار) في النهار ووقت النوم، وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف، فإنه لا يلبث أن يؤيده الله عَزَّوَجَلَّ بروح منه، ويكتب الإيمان في قلبه. وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة؛ فإنها عمود الدين. وليكن هِجِّيراه (٢): (لا حول ولا قوة إلا بالله)؛ فإنها بها تحمل الأثقال، وتكابد الأهوال، وينال رفيع الأحوال. ولا يسأم من الدعاء والطلب؛ فإن العبد يستجاب له ما لم يعجل، فيقول: قد دعوت ودعوت فلم يستجب لي. وليعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، ولم ينل أحد شيئًا من خَتْمِ الخيْرِ نَبِيٌّ فمن دونه إلا بالصبر"(٣).

٨ - البعد عن الذنوب والمعاصي، وهجر مجالس اللهو واللغو والغيبة والنميمة، فما نزل بلاء إلا بذنب، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم:٤١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى:٣٠].

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٣٠٩).

(٢) أي: كلامه ودأبه وشأنه ودَيْدَنَه.

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/١٣٧)، أمراض القلب (ص:٢٧).

٩ - أن يحرص المسلم على الكسب الطيب وإن قل.

١٠ - التبين والتبصر في تحري الحق، والحلم والأناة، والصبر على البلاء:

قال حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «**إذا أحب أحدكم أن يعلم أصابته الفتنة أم لا، فلينظر فإن كان رأى حلالًا كان يراه حرامًا فقد أصابته الفتنة، وإن كان يرى حرامًا كان يراه حلالًا فقد أصابته**» (١).

وعند حلول الفتنِ تزيغ أبصارٌ عن الحقِ، وتبصره أخرى، وفيها تتبدل الأحوال، وتختبر عقول الرجال، ويمتحن الإيمانُ أيما امتحان. وفي زماننا فتنٌ كثيرةٌ عاصفةٌ لا يَسْلَمُ من شرها إلا من ثَبَّتَه اللهُ عَزَّوَجَلَّ، فرزقَهُ بصيرةً وفرقانًا، فأبصرَ الحقَّ، وأنصفَ الخلق، واحترز عن النفاق والمداهنة، كما جاء في الحديث: «**إن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، ولمن ابتلي فصبر فواها**» (٢).

وقال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٥٥﴾ [غافر:٥٥]. قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فأمره بالصبر، وأخبره أن وعد الله حق،

---

(١) أخرجه نعيم بن حماد في (الفتن) [١٣٠]، وابن أبي شيبة [٣٧٣٤٣]، والحاكم [٨٤٤٣]، وقال: "صحيح الإسناد على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: أبو نعيم في (الحلية) (٢٧٢/١).

(٢) تقدم.

وأمره أن يستغفر لذنبه. ولا تقع فتنة إلا من ترك ما أمر الله به، فإنه جَلَّوَعَلَا أمر بالحق، وأمر بالصبر، فالفتنة إما من ترك الحق، وإما من ترك الصبر" (١).

وفي الحديث: «**ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني**» (٢)، يعني: أن الأمراء يفضلون عليكم غيركم في العطايا والولايات والحقوق، فاصبروا على ما يسومكم به أمراء الجور، حتى تلقوني يوم القيامة على الحوض، فتنصفون ممن ظلمكم، وتجازون على صبركم.

إن التروي والأناة والتبصر كل ذلك مما يجعل المسلم يبصر حقائق الأمور، ويقفُ على أبعادها وعواقبها، كما قال عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصف الروم: «**إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك**»، قال ذلك عقب سماعه قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**تقوم الساعة والروم أكثر النَّاس**» (٣).

١١ - الحذرُ من الشائعات، والروايات الواهية، ونقل الأخبار المكذوبة، وقد حذَّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذلك فقال: «**كفى بالمرء كذبًا أن يُحَدِّثَ بكلِّ ما**

---

(١) الاستقامة (ص:٣٨-٣٩).

(٢) صحيح البخاري [٢٣٧٦، ٢٣٧٧، ٣١٤٧، ٣١٦٣، ٣٧٩٢، ٣٧٩٣، ٣٧٩٤، ٤٣٣٠، ٤٣٣١، ٧٠٥٧]، مسلم [١٠٥٩، ١٠٦١، ١٨٤٥].

(٣) صحيح مسلم [٢٨٩٨].

سَمِعَ»[1]، أي: إذا لم يتثبت؛ لأنه يسمع عادةً الصدقَ والكذب، فإذا حدَّثَ بكلِّ ما سمعَ لا محالةَ يكذب. وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالتثبُّت في النقل، ولا سيما في أخبار المجاهيل والفساق كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات:٦].

١٢ – البعد عن التعرض للفتن والخوض فيها حتى يأمن المسلم على نفسه من آفاتها وآثارها: وقد تقدم قول حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إياك والفتن، لا يَشْخَصْ لها أحد، فو الله ما شَخَصَ منها أحد إلا نسفته كما ينسف السَّيْلُ الدِّمَنَ**».

١٣ – ردُّ المسائل إلى التأصيل العلمي القائم على منهجٍ شرعي، والالتفاف حول العلماء الربانيين الراسخين؛ فإن الالتفاف حولهم يعد سبيلًا مهما من سبل النجاة من الفتن على مختلف أنواعها وأشكالها، كما يعين على الأمن من الزيغ والضلال، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء:٨٣].

فهذا تنبيه بالغ إلى العباد في عدم الخوض فيما لا علم لهم به، وما لا يدركون آثاره. فإذا جاءهم أمر من الأمور المهمة، ولا سيما في المصالح العامة المتصلة بالأمن أو الخوف، فينبغي أن لا يتعجلوا في حكم من غير تبين ولا تثبت، بل يردونه إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى العلماء الراسخين من أهل العلم والرأي والنصح والبصيرة والرزانة، الذين يعرفون المسائل ومقاصدها وأبعادها وآثارها، فيدركون المصالح وضدها.

---

(١) تقدم.

وفيه: النهي عن العجلة والتسرع في الحكم، وفي نشر الأخبار وإشاعتها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر.

ومن صفات مرضى القلوب: التعجل في النقل من غير تبين ولا تثبت ولا نظر، ومن صفاتهم: الإرجاف، والكذب أو التحريف. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٌ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ﴾ [النساء:٨٣].

وقد تقدم أن الفتنةُ إذا أقبلَت عرفَها العلماءُ، فإذا أدبَرَت عرفَها العامةُ ولكن بعد الفوات.

١٤ – التَّمييز بين العلماء الرَّبانيين العاملين وبين من سواهم من المضلِّين.

١٥ – أن يحرص العلماء على البيان عند حاجة الناس، وأن يحذروا العامة من الرؤساء الجهال، كما تقدم بيان ذلك في عقبة (كتمان الحق).

١٦ — مناصحة أئمة المسلمين وعامتهم:

جاء في (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "باب قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: الدين النصيحة: لله عَزَّوَجَلَّ، ولرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، ولأئمة المسلمين، وعامتهم، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ [التوبة:٩١]: حدثنا مسدد، قال: حدثنا يحيى، عن إسماعيل، قال: حدثني قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ قال: «**بايعت رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم**» [1].

---

(١) صحيح البخاري (١/٢١) [٥٧].

وعن تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الدين النصيحة**» قلنا: لمن؟ قال: «**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**»[(١)].

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "والنصيحة فرض يجزئ فيه من قام به، ويسقط عن الباقين، والنصيحة لازمة على قدر الطاقة إذا علم الناصح أنه يقبل نصحه ويطاع أمره، وأمن على نفسه المكروه. وأما إن خشي الأذى فهو في سعة منها.

قال أبو بكر الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ: ولا يكون ناصحًا لله عَزَّ وَجَلَّ، ولرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولأئمة المسلمين، وعامتهم، إلا من بدأ بالنصيحة لنفسه، واجتهد في طلب العلم والفقه؛ ليعرف به ما يجب عليه، ويعلم عداوة الشيطان له، وكيف الحذر منه، ويعلم قبيح ما تميل إليه النفس حتى يخالفها بعلم.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين: فهي على قدر الجاه والمنزلة عندهم، فإذا أمن من ضرهم فعليه أن ينصحهم، فإذا خشي على نفسه فحسبه أن يغير بقلبه، وإن علم أنه لا يقدر على نصحهم فلا يدخل عليهم، فإنه يغشهم ويزيدهم فتنة ويذهب دينه معهم.

وقد قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: ربما دخل العالم على الملك ومعه شيء من دينه فيخرج وليس معه شيء، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: يصدقه في كذبه، ويمدحه في وجهه"[(٢)].

---

(١) صحيح مسلم [٥٥].

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٢٩-١٣١).

وقد جاء في الحديث: عن كعب بن عُجْرَة أنه قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أُعِيذُكَ بالله يا كعب بن عُجْرَةَ من أمراء يكونون من بعدي، فمن غَشِيَ أبوابهم فَصَدَّقَهُمْ في كذبهم، وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ولا يرد علي الحوض، ومن غَشِيَ أبوابَهم أو لم يَغْشَ ولم يُصَدِّقْهُمْ في كذبهم، ولم يُعِنْهُمْ على ظلمهم، فهو مِنِّي وأنا منه، وسَيَرِدُ عَلَيَّ الحَوْضَ**»(١).

قوله: «**فمن دخل عليهم**»، أي: من العلماء وغيرهم، «**وأعانهم على ظلمهم**»، أي: بالإفتاء ونحوه. «**فليس مني ولست منه**»، أي: بيني وبينهم براءة ونقض ذمة.

قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: "(النصيحة): كلمة يعبر بها عن جملة هي: إرادة الخير للمنصوح له، قال: وأصل النصح في اللغة: الخلوص، يقال: نصحت العسل: إذا خلصته من الشمع. فمعنى النصيحة لله عَزَّوَجَلَّ: صحة الاعتقاد في وحدانيته، وإخلاص النية في عبادته، والنصيحة لكتاب الله جَلَّوَعَلَا: الإيمان به والعمل بما فيه.

والنصيحة لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: التصديق بنبوته، وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه.

والنصيحة لأئمة المؤمنين: أن يطيعهم في الحق، وأن لا يرى الخروج عليهم بالسيف إذا جاروا.

---

(١) أخرجه الترمذي [٦١٤]، وقال: "حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: الطبراني في (الكبير) [٢١٢]. قال الهيثمي (١٠/٢٣٠): "رواه الترمذي باختصار، ورواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله ثقات".

والنصيحة لعامة المسلمين: إرشادهم إلى مصالحهم"[(١)].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما النصيحة لأئمة المسلمين: فمعاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه، ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وَتَأَلُّفُ قلوب الناس لطاعتهم. قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن النصيحة لهم: الصلاة خلفهم، والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة، وأن لا يُغَرُّوا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يُدْعَى لهم بالصلاح"[(٢)].

وقد جاء في الحديث: عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إذا أراد الله بالأمير خيرًا جعل له وزير صدق، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد الله بـه غير ذلك جعل له وزير سـوء، إن نسـي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه»**[(٣)]. قال الحافظ أبو نُعَيْم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن نَصَحَ الولاة والأمراء اهْتَدَى، ومن غَشَّهُمْ غَوَى واعْتَدَى"[(٤)].

---

(١) معالم السنن (٤/ ١٢٦). وانظر المعنى مفصلًا في (تعظيم قدر الصلاة)، لأبي عبد الله محمد بن نصر المروزي (٢/٦٩١)، (جامع العلوم والحكم) (١/٢٢٠-٢٢٥).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٣٨).

(٣) أخرجه أحمد [٢٤٤١٤]، وأبو داود [٢٩٣٢]. قال الإمام النووي في (رياض الصالحين) (ص:٢٢٧): "رواه أبو داود بإسناد جيد على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: البزار [٢٦١]، قال الهيثمي (٥/٢١٠): "رواه أحمد، والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٤٤٩٤]، والبيهقي [٢٠٣٢٠].

(٤) فضيلة العادلين (ص:١٣٩).

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما مناصحة ولاة الأمر فلم يختلف العلماء في وجوبها إذا كان السلطان يسمعها ويقبلها. ولما رأى العلماء أنهم لا يقبلون نصيحًا، ولا يريدون من جلسائهم إلا ما وافق هواهم زاد البعد عنهم والفرار منهم"(١).

وفي الحديث: عن زيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ثلاث لا يُغِلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله** عَزَّ وَجَلَّ، **ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة**» (٢).

وعن طارق بن شهاب أن رجلًا سأل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد وضع رِجْلَهُ في الْغَرْز (٣)، أَيُّ: الجهاد أفضل قال: «**كلمة حق عند سلطان جائر**» (٤).

١٧ - الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ في سائر الأقوال والأعمال.

١٨ - البعد والحذر من دعاة الفتنة، وأئمة الضلال، وأصحاب البدع والأهواء ومناهجهم: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ

---

(١) الاستذكار (٨/٥٧٩).

(٢) تقدم.

(٣) «الغرز» هو بفتح الغين المعجمة ثم راء ساكنة ثم زاي، وهو ركاب كور البعير إذا كان من جلد أو خشب. وقيل: هو الكور مطلقًا، كالركاب للسرج. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٨/٩٧). قال ابن عبد البر: "الغرز لا يكون إلا في الرحال على الجمال، وهو بمنزلة الركاب من السروج من جمل وغيره" الاستذكار (٨/٥٢٧).

(٤) أخرجه أحمد [١٨٨٢٨]، والنسائي [٤٢٠٩]، والدولابي في (الكنى والأسماء) [٤٢٧]، والضياء في (المختارة) [١٢٢]. قال المنذري (٣/ ١٥٨) بعد عزوه للنسائي: "إسناده صحيح".

عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَلَا تَقۡعُدۡ بَعۡدَ ٱلذِّكۡرَىٰ مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ [الأنعام:٦٨].

وهذا لا بد منه وقت الفتن؛ لأن كثيرين يخوضون بغير علمٍ فيؤدي خوضهم الى أنواعٍ من البلاء، والتفرق، والتصرفات الطائشة، وقد يفضي إلى سفك الدماء، وقتل الناس بعضهم بعضًا بغير حقّ.

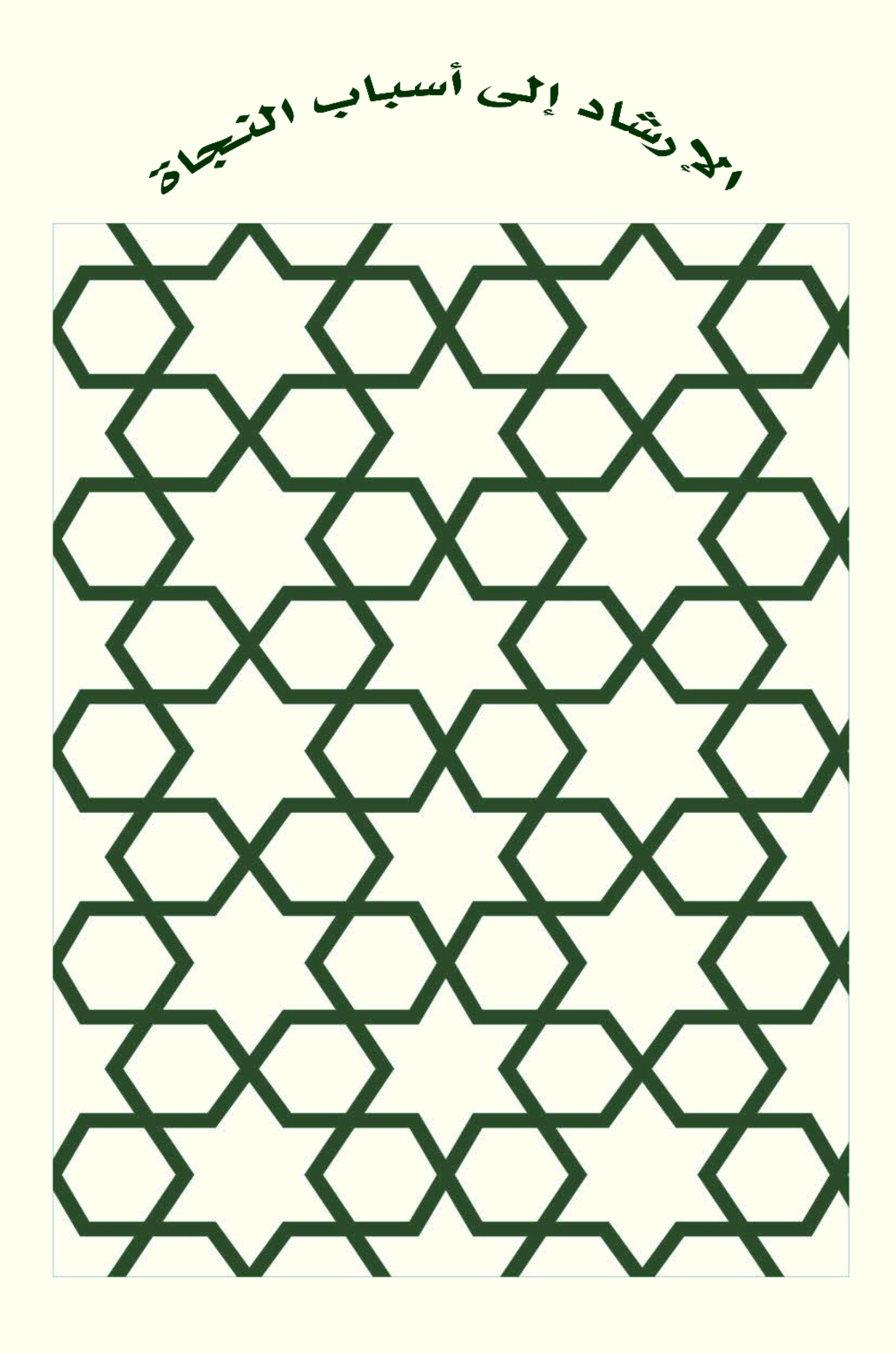
١٩ – البصيرة التامة بحقيقة الحياة الدنيا، وإيثار الحياة الباقية على الحياة الفانية.

٢٠ – البصيرة التامة بحقيقة الإنسان وضعفه وحاجته ومآله.

٢١ – التفقه في الدين، ومجالسة العلماء الربانيين؛ فإن الأخذ عنهم يورث استقامة في الفكر والسلوك.

٢٢ – تجنُّب صحبة المضلّين والمبطلين، والحرص على صحبة أهل الصلاح والعدل والاستقامة.

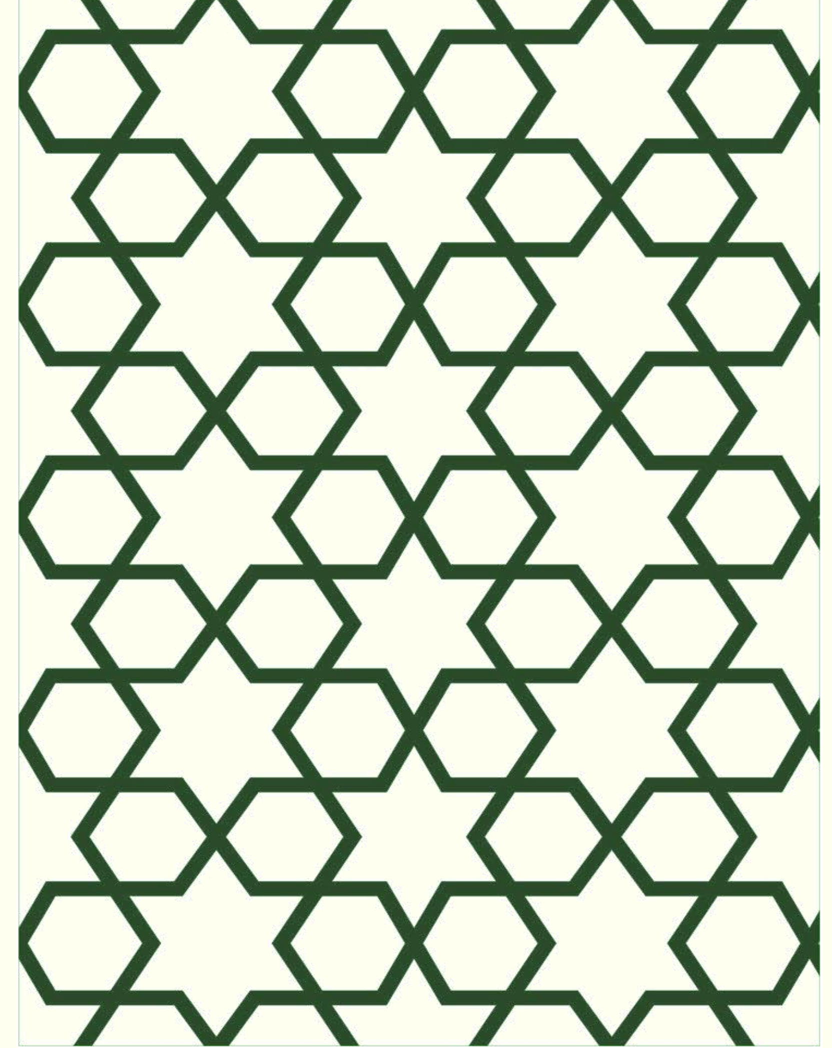
الإرشاد إلى أسباب النجاة



المبحث الرابع عشر:

اجتناب أعمال أهل النار

الإرشاد إلى أسباب النجاة



إنَّ من أسباب النجاة من أهوال يوم يوم القيامة: اجتناب أعمال أهل النار، وقد أفردتُ هذا الموضوع بالبحث؛ لأهميته، وقد ذكرتُ من قبل أن هذا الكتاب قد جاء مرشدًا لأسباب النجاة العامة، متتمًا لما تقدم إفراده بالبحث من الموضوعات ذات الصلة، ومذكِّرًا بالأعمال الجليلة التي خصت بمزيد من الفضل، والتي هي من أسباب النجاة، وحسن العاقبة، والتي ترفع العبد درجات في الآخرة.

وإنَّ ما تُوُعِّد عليه بالنَّار لا ينفكُّ عن أسباب النجاة، كما هو بين؛ ولذلك فإني أذكر بموضوعاته هنا، مع الإحالة في البيان والشرح إلى كتاب: (نهج الأبرار في اجتناب ما تُوُعِّد عليه بالنار).

وقد جاء في مقدمة الكتاب: أنَّ النَّاس يفزعون عندَ اشتداد الحرِّ إلى ظلٍّ ظليلٍ، أو مكانٍ بارد، ويهيئونَ ما يعينهم من الوسائلَ على تخفيف شِدَّةِ الحرِّ.

هذا حال النَّاس في اتخاذ أسبابِ الوقايةِ من حرِّ الشَّمس في الدُّنيا، وقد علموا أنَّ الدُّنيا ليست دارَ قرار، وأنهم راحلون منها، فهلَّا تفكَّروا في نارِ الآخرة، واتخذوا أسباب السَّلامة والوقاية منها؟ وقد علموا أنَّ الآخرةَ هي الدَّار الباقية.

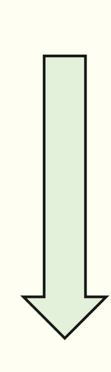
وقد حذَّرنا الله عَزَّوَجَلَّ من نارِ الآخرة، وأمرنا باتخاذ أسباب الوقاية منها، ولا تكون الوقاية إلَّا بالعلم والعمل، فلا بدَّ للمكلَّف من معرفة المهلكاتِ وآثارها، حتى يتجنبها ويحترز عنها.

وحيث إنَّ ما تُوعِّدَ عليه بالنَّار في نصوص الكتاب والسُّنَّة هو من الكبائر الموبقات، وهو سبيل العصاة والمفسدين الفُجَّار، وأن ما يقابله من نهج الأبرار في الاعتقاد والسلوك من المنجِّيات من النَّار، كان لزامًا على كل مكلَّف عاقل يطلبُ

الهدايةَ والنَّجاةَ أن يفقهَ ما قد يكون سببًا لشقائه فيتجنبه، وما يكون طريقًا لسعادته فيسلكه، وأن يتخذَ من الأسباب ما ينجيه من النَّار في الآخرة، ويبعده عنها، فمن أراد الله عَزَّوَجَلَّ به خيرًا وفقه لذلك، فرزقَهُ بصيرةً وفرقانًا، فأبصرَ الحقَّ، وأنصفَ الخلق، وتجاوزَ العقباتِ التي تحولُ دونَ الهداية؛ للارتقاءِ إلى يفاعِ الاستبصار، ولاستنقاذِ النَّفسِ من دَرَكَاتِ النَّار.

ومن أسباب النجاة والعافية: اجتنابُ كلِّ ما جاء فيه وعيد بالعذاب، مما جاء بيانه مفصلًا في كتاب: (نهج الأبرار في اجتناب ما تُوُعِّد عليه بالنار).

أما موضوعات الكتاب التي ينبغي التنبه لخطر وآثار مواقعة ذنب منها، فهي على النحو التالي:

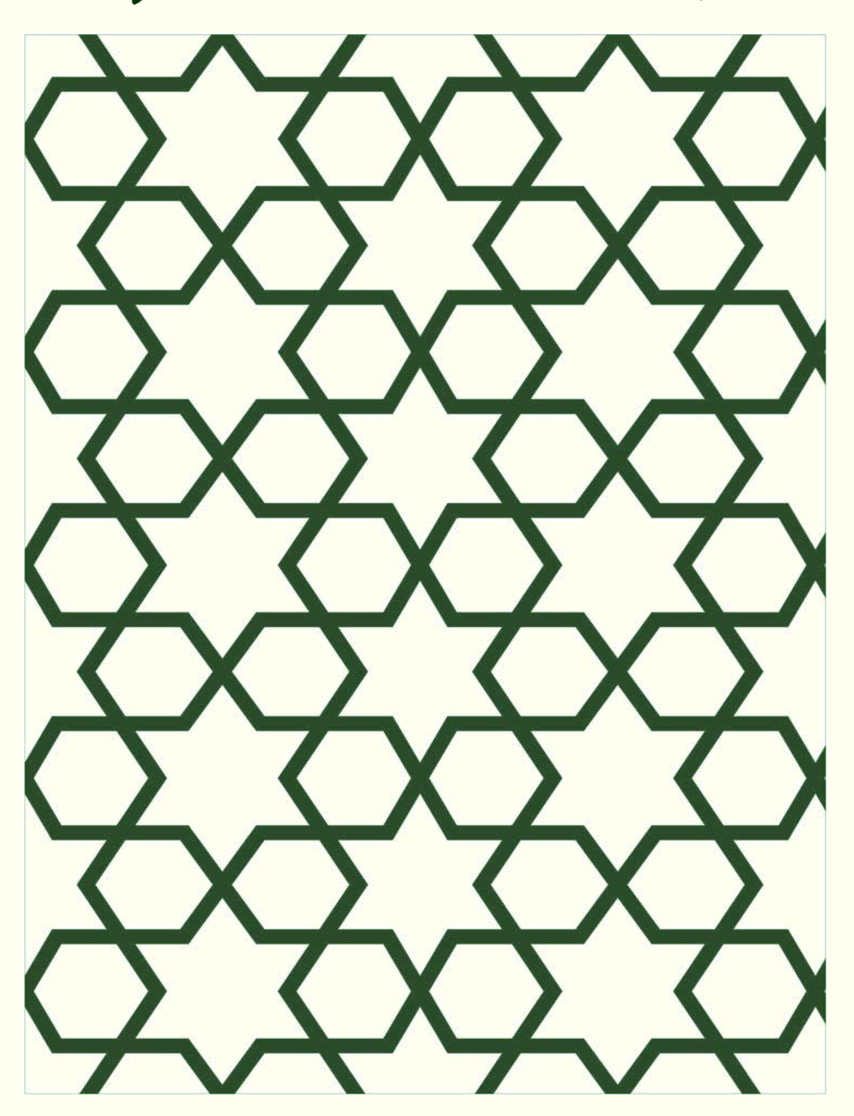


ما توعد عليه بالنار		
١ – الكفر.	٢ – الشرك.	٣ – النفاق.
٤ – السحر.	٥ – قاتل النفس بغير حق.	٦ – الاعتداء في القتل بعد العفو أو الصلح.
٧ – شرب الخمر.	٨ – الكِبْر.	٩ – ترك الصلاة..
١٠ – ترك الزكاة.	١١ – الإفطار في رمضان من غير عذر.	١٢ – الزنا.
١٣ – الربا.	١٤ – الفِرَار من الزَّحْف.	١٥ – ترك جهاد الأعداء عند تعينه.
١٦ – الانتحار.	١٧ – الرياء.	١٨ – ترك العمل بالعلم.
١٩ – كتمان الحق.	٢٠ – الغرور.	٢١ – الظلم.
٢٢ – أكل مال اليتيم.	٢٣ – قطع السِّدر الذي يُظِلُّ النَّاس.	٢٤ – تعذيب الحيوان.
٢٥ – المكر والخديعة.	٢٦ – الأمن من مكر الله واليأس من رحمته.	٢٧ – الإفساد في الأرض والحرابة وقطع الطريق.

٢٨ – السرقة.	٢٩ – الغلول.	٣٠ – التطفيف في الكيل والبخس في الميزان.
٣١ – الشرب في آنية الذهب والفضة.	٣٢ – المجاهرة بالمعاصي ومحبة الحمد من غير فعل.	٣٣ – الخيانة.
٣٤ – البخل.	٣٥ – الجلوس في المجالس التي يُكْفَر ويستهزأ فيها بالدين وأهله.	٣٦ – عقوق الوالدين.
٣٧ – قطيعة الأرحام.	٣٨ – النياحة على الميت.	٣٩ – التصوير الذي يقصد منه مضاهاة خلق الله عَزَّوَجَلَّ.
٤٠ – تغيير خلق الله عَزَّوَجَلَّ.	٤١ – سرور بعض الناس بالقيام له.	٤٢ – الممتنعون من الهجرة الواجبة.
٤٣ – الإضرار في الوصية.	٤٥ – الفرق الضالة.	٤٦ –طلب المرأة الطلاق أو الخلع من زوجها بدون بأس.
٤٧ – نقض العهود والمواثيق.	٤٨ – الكذب.	٤٩ – الغيبة والنميمة.

٥٠ – البهتان والإفك.	٥١ – قذف المحصنات.	٥٢ – المجادلة بالباطل.
٥٣ – السبُّ واللعن.	٥٤ – التألي على الله عَزَّوَجَلَّ.	٥٥ – عموم الذنوب والمعاصي، وتعدي حدود الله عَزَّوَجَلَّ.
٥٦ – اتباع الهوى.	٥٧ – الابتداع في الدين.	٥٨ – ترك ركن من أركان الإسلام من غير عذر.
٥٩ – اتباع خطوات الشيطان.	٦٠ – الإعراض عن الهدى، ومقابلة نعم الله عَزَّوَجَلَّ بالجحود والنكران.	٦١ — الغفلة.
٦٢ – التحايل لأخذ حق الغير.	٦٣ – أكل المال الحرام.	–

الإرشاد إلى أسباب النجاة





المبحث الخامس عشر:

تجاوز العقبات التي تحول دون الهداية

الإرشاد إلى أسباب النجاة

إنَّ من أعظم نِعَم الله عَزَّوَجَلَّ على العبد أن يوفِّقَه إلى استخلاص الحقّ من بين اضطرابِ الفرق، وتباينِ المسالك، وأن يتجاوزَ العقباتِ التي تحولُ دونَ الهداية؛ للارتقاءِ إلى يفاعِ الاستبصار، ولاستنقاذِ النَّفسِ من دَرَكَاتِ النَّار.

وإنَّ الهدايةَ أفضلُ مطلوبٍ، وأسمى مرغوب، ولكنَّ طريقها محفوفٌ بالمكاره، فلا ينالُ سِلْعَة الله جَلَّوَعَلَا الغالية إلَّا من جاهد نفسه، وخالفَ الشيطان والهوى، وتجاوزَ الصوارف والعقبات، وسلكَ طريق الفلاح والنَّجاة.

والتَّفريطُ أو التَّساهل في طلب الهداية مفضٍ إلى التَّحسر والنَّدم، حيثُ يكون المفرِّطُ من الخائبين الخاسرين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝٥٦ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨﴾ [الزمر:٥٦-٥٨]، فالعاقلُ من اختارَ طريق السَّعادة، واعتبرَ بغيره، والغافلُ من سلكَ طريق الشَّقاء، واعتبرَ به غيرُه.

والهدايةُ طريقُها واضحٌ، ولكن قد تحولُ دونه صوارف وعوائق وموانع تصرفُ المكلَّف عن الحقِ، أو تعيقُ الفكر عن سديد النَّظر، فلا تَسْلَمُ المعرفةُ -والحالة هذه- من الآفاتِ، وبالتالي لا يصلُ السالك إلى الاقتناع والهداية.

والآفاتُ أو العوائقُ قد تكون نفسيَّة كالعجب، والتَّكبر، والحسد، والرياء أو حبِّ الظُّهور، والغضب، والخجل أو الحياء المذموم المانع من السؤال عن المهمات، والتَّعصب، والحسد، والحقد، واتِّباع الهوى، والشُّعور بالكمال..إلى غير ذلك مما سيأتي بيانه.

وينبغي الاحتراز عن الآفات القلبية؛ فإنها من أهم أسباب الانتكاس بعد الهداية، والاعوجاج بعد الاستقامة. "فقد يكون الخطأ أو الجنوح الفكري عن الحقيقة ناشئًا عن الوهم الذي يحدثه الخوف أو الطمع أو الشهوة العارمة أو الغضب، أو حاجة من حاجات النفس، أو يحدثه عدم اتزان فكري؛ لخلل عارض أو دائم أو نحو ذلك من الأعراض والأمور النفسية. وقد ضرب الله عَزَّوَجَلَّ مثلًا لذلك بما حدث للمؤمنين في غزوة الأحزاب بسبب ما تعرضوا له من خوف شديد فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ١٠﴾ [الأحزاب:٩-١٠]. فالاضطراب النفسي الذي أحدثه الخوف الشديد جعل الأبصار تزيغ، والبصر متى زاغ فسدت رؤيته، فرأى غير الحقيقة، وجعل الأفكار تضطرب، ومع الاضطراب تأتي الأوهام. فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ١٠﴾ هي لا شك حالة نفسية عارضة جلبها اختلال وظائف النفس بسبب شدة الخوف الطارئ، وهي ما يشمله العفو للعذر القائم. وقد حمى الله عَزَّوَجَلَّ رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من زيغ البصر وطغيانه رغم عظم المشهد الذي رآه عند سدرة المنتهى فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾ [النجم:١٧]، فقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ﴾ أي: ما انحرف ولا اضطرب. وقوله: ﴿وَمَا طَغَىٰ ١٧﴾: زاد في الرؤية على الحقيقة شيئًا"[١].

---

(١) انظر: بصائر للمسلم المعاصر (ص:٩٦) فما بعد.

ومنها: عقبات وآفات خارجيَّة، كالإعلام المضلل، والبيئة الفاسدة والتربية السيئة.

ومن الآفاتِ: ما يظهرُ في سلوكِ المكلَّف كاتِّباع الهوى، والإسرافِ، والبطالةِ، والفتور، واتباع الظَّنِّ المنهي عنه، وصحبةِ أهل الباطل، وتعاطي المسكرات.. الخ.

ومنها: آفاتٌ في طريقِ الدعوة ينعكسُ أثرُها على المتلقِّي، كسوءِ التبليغ، وكتمانِ الحق.

ومنها: ما يكون دائرًا بين أمرين: أحـدُهما: محـمودٌ، والآخرُ: مـذمومٌ، كالحياءِ -مثلًا- فما يعنينا هنا: الشِّق الثاني من حيثُ كونه عائقًا عن الهداية.

وتحصَّل مما تقدَّم أن العقبات منها ما هو ماديٌّ محسوس، ومنها ما هو معقول.

ومن أرادَ الهدايةَ فإنَّ أمامه من العقبات والعوائق ما قد يعرفه، وما قد يجهله.

وهذه العقبات تتفاوت من حيث الأثر، فبعضها أصعبُ من بعض، وأعظم خطرًا، وهذا بالنَّظر إلى حقيقة هذه الصوارف.

أما أثرها بالنِّسبة للسَّالكين فقد تحول دون تحقيق المراد أو بلوغ الغاية، وهي الهداية، وهذا الضَّلال عن الهداية ناشئٌ عن ضعفِ البصيرة في الدِّين، والبعد عن تعاليمه، وضعف الهمَّة في طلب الهداية.

ولا يخفى أنَّ العلم بهذه العقبات ومآلاتها من سبل الوقاية من آفاتها وخطرها على المكلَّف في سيره إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهنا طرق ومتاهات لا يحصيها إلا رب العباد". وقال: "فإذا كان السير ضعيفًا، والهمة ضعيفة، والعلم بالطريق ضعيفًا، والقواطع الخارجة

والداخلة كثيرة شديدة فإنه جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، إلا أن يتداركه الله عَزَّوَجَلَّ برحمة منه من حيث لا يحتسب فيأخذ بيده، ويخلصه من أيدي القواطع"(١).

وقد فرّق ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين العوائق والعلائق، وأوضح أن كلًّا منهما قد يكون عقبةً في طريق المكلَّف وسيره إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ومن معوقات الهداية ما لم يتجاوز المكلَّف تلك العقبات، ويصحح المسار. فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما (العوائق) فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها، فإنها تعوق القلب عن سيره إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وتقطع عليه طريقه، وهي ثلاثة أمور: (شرك وبدعة ومعصية)، فيزول عائق الشرك: بتجريد التوحيد، وعائق البدعة: بتحقيق السنة، وعائق المعصية: بتصحيح التوبة. وهذه العوائق لا تتبين للعبد، يأخذ في أهبة السفر، ويتحقق بالسير إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والدار والآخرة، فحينئذ تظهر له هذه العوائق، ويحس بتعويقها له بحسب قوة سيره، وتجرده للسفر، وإلا فما دام قاعدًا لا يظهر له كوامنها وقواطعها.

وأما (العلائق) فهي كل ما تعلق به القلب دون الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من ملاذ الدنيا وشهواتها، ورياستها، وصحبة الناس والتعلق بهم. ولا سبيل له إلى قطع هذه الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلى، وإلا فقطعها عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع؛ فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحب إليها منه، وآثر عندها منه، وكلما قوي تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره، وكذا بالعكس،

---

(١) طريق الهجرتين (ص:١٨٥).

والتعلق بالمطلوب هو شدة الرغبة فيه، وذلك على قدر معرفته به، وشرفه وفضله على ما سواه"(١).

كما فرّق بين العوائق والعلائق بأن (العوائق) هي: (الحوادث الخارجية)، و(العلائق) هي التعلقات القلبية بالمباحات ونحوها (٢).

وهذه دراسةٌ أتناولُ فيها العقبات –ما كان منها من العوائق أو العلائق التي تكون في طريق الهداية–؛ ليكون كلُّ مسلمٍ على حذرٍ وبينةٍ وبرهانٍ من خطرها وآثارها، فيحترز عن مضلَّات الهداية، ويبصر طريقَ الحقِّ، ويعرض عن سُبُلِ الغواية، والذِّكرى تنفعُ المؤمنين، وتنيرُ بصائر السَّالكين.

وقد أرسلَ الله عَزَّوَجَلَّ الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لهداية النَّاس إلى طريق النَّجاة، وجعل للبشر من الحواس ما يهديهم في عالم المحسوسات، فجعل لهم أعينًا، وميزهم بالنُّطق، ثم أودع فيهم خصائص القدرة على إدراك الخير والشَّر، والهدى والضَّلال، والحقِّ والباطل، وبيَّن لهم طريقَ الخير وطريق الشَّر، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان:٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ [البلد:٨-١١].

وعقبة جمع: عَقَبَات، والعقبة، بالتحريك. أصلها: المرقى الصعب من الجبال. وعقبة الجبل: الطَّرف في أعلى الجبل، يقال: وقف حمار الشَّيخ في العقبة.

---

(١) الفوائد، لابن القيم (ص:١٥٤).

(٢) المصدر السابق (ص:١٤٥).

"ويقال: اقتحم فلان عقبة أو وهدة: رمى بنفسه على شدة يريد اجتيازها وتخطيها"(١).

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والاقتحام: الدخول والمجاوزة بشدة ومشقة. والْقُحْمَة: الشدة (٢).

وجعل الصَّالحة عقبة، وعملها اقتحامًا لها؛ لما في ذلك من معاناة المشقة ومجاهدة النفس"(٣).

وقال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاقتحام الدخول بشدَّة ومشقة، والعقبة عبارة عن الأعمال الصالحة المذكورة بعد، وجعلها عقبة استعارة من عقبة الجبل؛ لأنها تصعب ويشق صعودها على النفوس"(٤).

---

(١) المعجم الوسيط، مادة: (قحم) (٢/٧١٧).

(٢) "(الْقُحْمَة): الشِّدَّة" المغرب، مادة: (قحم) (ص:٣٧٣). "القُحْمة السَّنَة الشَّديدة. يقال: أَصابت الأعرابَ القُحْمةُ إذا أصابهم قحط" الصحاح، للجوهري (٥/٢٠٠٦). وقال الزمخشري: "ركب قحمةً من القحم، وهي عظام الأمور التي لا يركبها كل أحد. ووقعوا في القحمة وهي السنة الشديدة. وركب قحمة الطريق: ما صعب منها على سالكه، وللخصومة قحمٌ. وَاقْتَحَمَ عَقَبَة أو وَهْدَةً أو نهرًا: رمى بنفسه فيها على شدّة ومشقّة". أساس البلاغة (٢/٥٤).

(٣) الكشاف (٤/٧٥٦).

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل (٢/٤٨٤).

وقال ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي العقبات تظهر مقدرة السابرة[1]. و(الاقتحام): الدخول العسير في مكان أو جماعة كثيرين، يقال: اقتحم الصف، وهو افتعال للدلالة على التكلف مثل اكتسب، فشبه تكلف الأعمال الصالحة باقتحام العقبة في شدَّته على النفس ومشقته، قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [فصلت:٣٥].

والاقتحام: ترشيح لاستعارة العقبة لطريق الخير، وهو مع ذلك استعارة؛ لأنَّ تزاحم الناس إنما يكون في طلب المنافع كما قال:

***والمورد العذب كثير الزِّحام[2].

وأفاد نفي الاقتحام أنه عدل على الاهتداء؛ إيثارًا للعاجل على الآجل، ولو عزم وصبر لاقتحم العقبة"[3].

وبناء على ما تقدَّم فإنَّ المعنى الاصطلاحي المراد من العقبات هنا: ما يعترض السَّالكين من الصِّعَاب، والموانع، والعوائق التي قد تحول دون تحقيق المراد أو بلوغ الغاية، وهي الهداية.

ومن مسالك الهداية: فقه العقبات؛ لتجنبها والاحتراز عنها.

---

(١) يقال: سبر الشيء: استخرج كنهَ أمرِه، وسبر الشيء: قاس غوره؛ ليتعرف على عمقه ومقداره، وسبر قدرته: اختبره وجربه.

(٢) عجز لبيت من الشعر، لبشار بن برد في (ديوانه) (١٩٢/٤)، وصدره: (يزدحم الناس على بابه***).

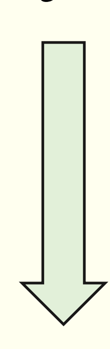
(٣) التحرير والتنوير (٣٥٦/٣٠).

ومن أراد سلوكَ طريق الهداية فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يُعِينُه على تجاوزِ العقبات؛ لأنَّ الهدايةَ من الهادي: الدِّلالة على الطريق الموصل إلى المطلوب، والتوفيق لسلوك ذلك الطريق، ومن العبد: معرفة الحقِّ والعمل به، والله جَلَّوَعَلَا هو الهادي، والعبد هو المهتدي.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة:٦]: "والصراط المستقيم يتضمن: معرفة الحق، والعمل به"[١].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والهداية معرفة الحق والعمل به، فمن لم يجعله الله عَزَّوَجَلَّ عالما بالحق عاملًا به لم يكن له سبيل إلى الاهتداء"[٢].

وهاك الإشارة إلى هذه العقبات التي تقدم بسط القول فيها في كتاب: (عقبات في طريق الهداية وسبل الوقاية والعلاج منها):



(١) منهاج السنة النبوية (١/١٩).

(٢) شفاء العليل (ص:٥٣).

عقبات في طريق الهداية		
١ – الشيطان.	٢ – الكفر بالله عَزَّوَجَلَّ.	٣ – الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.
٤ – النفاق.	٥ – البدعة.	٦ – اتباع الهوى.
٧ – الذنوب والمعاصي.	٨ – الإعراض عن الهدى.	٩ – الشَّك والحَيْرَة.
١٠ – حب الدُّنيا والتَّنازع على حطامها.	١١ – رفقاء السوء.	١٢ – الجهل.
١٣ – التقليد الأعمى.	١٤ – سوء التبليغ.	١٥ – القدوة السيئة.
١٦ – كتمان الحق.	١٧ – التفريط في تحري الحق.	١٨ – اشتباه الحقيقة.
١٩ – كثرة أهل الباطل.	٢٠ – التقديس (اعتقاد العصمة في غير المعصوم).	٢١ – المسكرات.
٢٢ – المجادلة بالباطل.	٢٣ – المفهوم الخاطئ للاستقامة.	٢٤ – الافتتان بعلوم الفلسفة.
٢٥ – اتباع الظن المنهي عنه.	٢٦ – العجب والكِبْر.	٢٧ – الغرور.

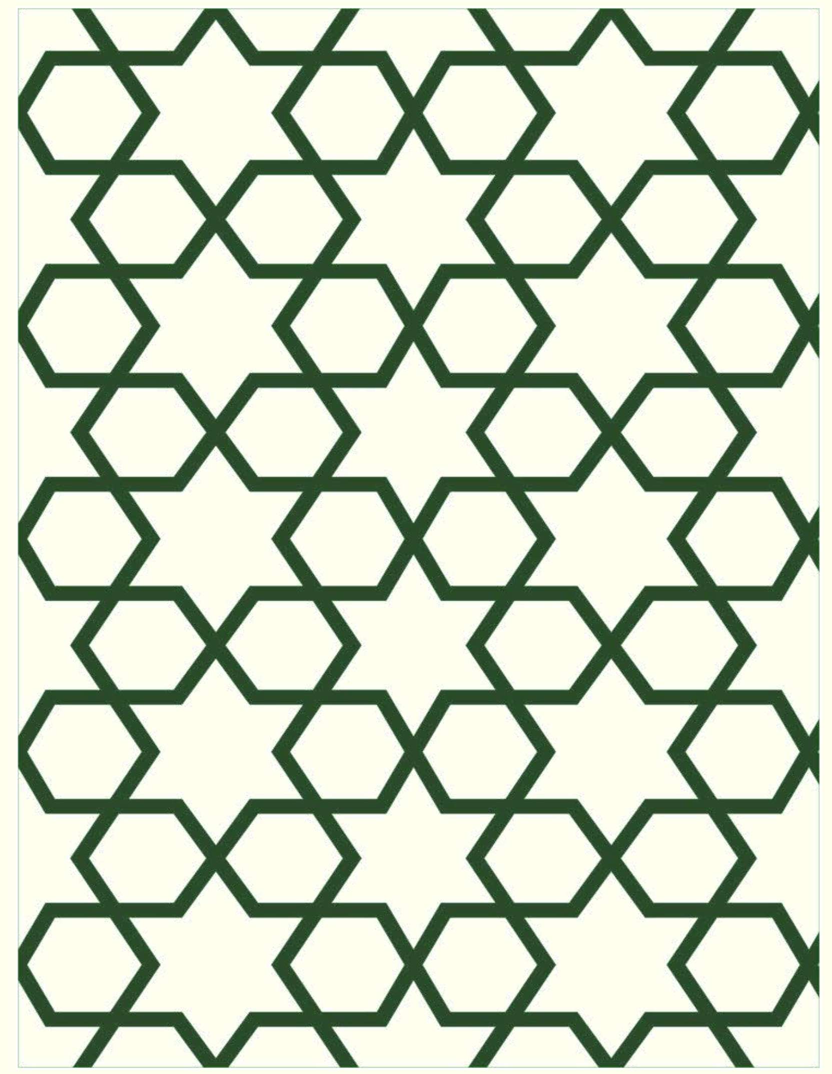
٢٨ – الحسد.	٢٩ – الغضب.	٣٠ – الخجل أو الحياء المذموم.
٣١ – فَقْد محبّة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.	٣٢ – الرضا عن النفس.	٣٣ – التعصب.
٣٤ – العشق المحرم.	٣٥ – الغفلة.	٣٦ – عدم الاعتراف بالخطأ.
٣٧ – اليأس والقنوط..	٣٨ – الخوف المذموم.	٣٩ – البيئة الفاسدة والتربية السيئة.
٤٠ – الإعلام المضلل.	٤١ – الفقر المنسي والغنى المطغي.	٤٢ – الفتور.
٤٣ – البطالة.	٤٤ – التسرع في الحكم على الأشياء.	٤٥ – ترك المشورة.
٤٦ – الطائفية والحزبية.	٤٧ – التعلل بالابتلاءات.	٤٨ – تفرق السبل.
٤٩ – الاشتغال بالمفضول عن الفاضل.	٥٠ – الإسراف في المباحات.	٥١ – الاستدراج.
٥٢ – آفات اللسان.	٥٣ – الظلم.	٥٤ – الفتن.
٥٥ – المكر والخداع	-----------	------------



المبحث السادس عشر:

التربية الوقائية

الإرشاد إلى أسباب النجاة



إن موضوع (التربية الوقائية) عام ومتنوع، يندرج تحته فروع كثيرة، وتكمن أهميته من حيث إنه ينذر بالخطر، ويحشد الكوادر كل على حسب طاقته واختصاصه؛ لتفادي وقوعه بالسبل الممكنة، والطرق المتاحة، وبحكمة وروية، وعلم وبصيرة.

فهو يعمل على تفادي خطر مرتقب قد لاحت نذر وقوعه، وهذا الخطر قد يصيب الفرد، أو يهدد وحدة الأسرة، أو حتى أمن المجتمع. فينبغي أخذ أسباب الوقاية من قبل عقلاء الأمة؛ لتجنب وقوعه؛ لأنه إذا وقع قد يستفحل خطره، ويعسر علاجه، فالوقاية من الخطر قبل وقوعه خير من التماس سبل العلاج بعد الوقوع.

ومن هنا فقد كان الاهتمام بهذه الموضوع جديًّا لأهميته؛ لأن مجتمعاتنا بحاجةٍ إلى العافيةِ من كثير من أمراض منها ما هو مصطنع ومعد من قبل أعداء الأمة، وأئمة الضلال والفساد، وهو مرتقب يأتي على النحو الذي قد أعد له، وفي الوقت المقرر، ويستهدف الفرد والأسرة والمجتمع، وقد يصرف البعض عن الهداية، ويعيق الفكر عن سديد النظر، ومن هذه الأمراض: سوء التبليغ، والغلو والتطرف، والتعصب، وتصدر كثير من الجهال منابر الدعوة، والمفاهيم الخاطئة للاستقامة والالتزام؛ ولذلك فقد نما التَّطرف إلى حدٍّ كبير، وأصاب الأمَّة ما أصابها من البلاء والركود. ومن الأمراض: الخمر وسائر المسكرات، والإعلام المضلل، إلى غير ذلك

ولا شك أن الوقاية خير من العلاج، فهي تحصن الإنسان الذي يسلك طريق الهداية من أن تناله الآفات أو ينحرف عن طريق الحق، كما أن (التربية الوقائية) لا تحصن الفرد فحسب، ولكنها تحصن الأسرة، وتحصن المجتمع.

وتكون التربية الوقائية بتحديد الخطر، وتعريفه، والتبصير بآثاره وعاقبته، وفي المقابل التوجيه إلى الطريق الصحيح.

وقد أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ باتخاذ أسباب الوقاية لأنفسنا ولأهلينا من نار الآخرة، ومن السبل الموصلة إليها، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا﴾ [التحريم:٦].

ومن وسائل تحقيق ذلك: تعزيز مفهوم مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ في نفوسهم، من خلال الترغيب والترهيب، والوعظ والتوجيه والإرشاد، حتى تكون مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ حاضرة في نفوسهم، وتكون الحصن الحصين لمواجهة المغريات، والملاذ الآمن لتجاوزها، والمعتصم لمجابهة نوازع النَّفس، وكبح شهواتها، والأمل في مقاومة وسائل الشَّيطان وأعوانه ومخالبه.

ومن وسائل تحقيق ذلك أيضًا: تطهير البيوت من المنكرات، والتربية السليمة التي تبنى على الاعتقاد الصحيح، وملاحظة المؤثرات الخارجية والنفسية والسلوكية.

ونقطة الارتكاز التي تنبعث منها هذه الاتجاهات الإصلاحية هي بناء سياج الأخلاق، وتربية السلوك، ويقظة الضمير.

تلك هي رسالة الدعاة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فبالأخلاق تستقيم السياسة، ويثمر الإصلاح، وينمو الاقتصاد، وتسعد النفس، ويحظى القانون بالاحترام والتقدير.

وحتى يظل المجتمع متماسكًا، ودور الأسرة فيه إيجابيًا يجب التَّصدي للتيارات الفكرية، والإمدادات السرطانية الزاحفة التي تعمل في دأب وعناء على التشكيك في ثوابت الأمة وعلمائها.

وتكون الوقاية من ذلك الخطر من خلال التبصير والتنوير بالمنهج الإصلاحي في التشريعات الإسلامية؛ حرصًا على كيان الأمة من التفكك والذوبان؛ وعلى أبنائها من الزيغ أو الانحراف.

وهذا البناء السليم إنما يرتكز على أسس ومقومات، من نحو: الرقابة الإيجابية والتوجيه والإرشاد.

وإنَّ النَّاس يفزعون عندَ اشتداد الحرِّ إلى ظلٍّ ظليلٍ، أو مكانٍ بارد، ويهيئونَ ما يعينهم من الوسائلَ على تخفيف شِدَّةِ الحرِّ. هذا حال النَّاس في اتخاذ أسبابِ الوقايةِ من حرِّ الشَّمس في الدُّنيا، وقد علموا أنَّ الدُّنيا ليست دارَ قرار، وأنهم راحلون منها، فهلَّا تفكَّروا في نارِ الآخرة، واتخذوا أسباب السَّلامة والوقاية منها؟ وقد علموا أنَّ الآخرةَ هي الدَّار الباقية.

وقد حذَّرنا الله عَزَّوَجَلَّ من نارِ الآخرة، وأمرنا باتخاذ أسباب الوقاية منها، ولا تكون الوقاية إلَّا بالعلم والعمل، والإنسان في الحياة الدنيا مكلَّف وراع مسؤول عن رعيته، والراعي هو الحافظ المؤتمن الملتزم صلاح ما قام عليه وما هو تحت نظره، وكل من كان تحت نظره شيء فهو مطالب بالعدل فيه، والقيام بمصالحه في دينه ودنياه ومتعلقاته، فإذا أراد السلامة والعافية في دينه ودنياه فينبغي أن يفقه الأخطار التي قد تكون سببًا لشقائه، وأن يكون على دراية بالمنجيات التي هي سبب سعادته ونجاته، وأن يتخذَ من الأسباب ما ينجيه من الآفات والأخطار، ويبعده عنها، فمن أراد الله عَزَّوَجَلَّ به خيرًا وفقه لذلك، فرزقَهُ بصيرةً وفرقانًا، فأبصرَ الحقَّ، وأنصفَ الخلق، وتحمل

الأمانة على وفق الشرع، وتجاوزَ الآفات التي تحولُ دونَ الهداية؛ للارتقاءِ إلى يفاعِ الاستبصار، ولاستنقاذِ النَّفسِ من دَرَكَاتِ النَّار.

والحديثَ عن الأسرة له جوانب متعددة يتحمل أمانةَ بيانها والتبصيرَ بها: العالم الناقد البصير، وخبير الاقتصاد، ورجل القانون..، فلكل من هؤلاء وغيرهم موقف ومقال..

فالأسرة هي المنطلق الحقيقي للبناء الحضاري والفكري للأمة. وتنمية المجتمع ليست بمعزل عن بناء الأسرة، وسعادة النفس رهن بالاستقرار الأسري.

وإنَّ صلاح البيوت أمانةٌ عظيمة، ومسؤوليةٌ جسيمة ينبغي على كلِّ مسلم ومسلمة أداؤها كما أمر الله عَزَّوَجَلَّ، والسير بها على وفق ما شرع.

وينبغي التَّنبه إلى الخطر الذي قد يهدد كيان الأسرة قبل حدوثه، وتحصين الأسرة من الآفات التي قد تصيبها أو قد تصيب آفة منها أحد أفرادها. وهذه الحصانة المسبقة هي ما نسميه بالتربية الوقائية.

وقد أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ باتخاذ أسباب الوقاية لأنفسنا ولأهلينا من نار الآخرة، ومن السبل الموصلة إليها، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم:٦].

وفي زمن كثرت فيه المغريات، وازدادت فيه سبل الانحراف، وفي عصر الأجهزة الذَّكيَّة والإنترنت والفضائيَّات، باتت نوازع الشَّرِّ والانفلات تتقاذف أبنائنا، فأصبح من الضَّروريِّ: تعزيزُ المراقبة الذَّاتيَّة لدى الأولاد والطلاب وترسيخها، واتِّباع أمثل

الأدوات والسُّبل لغرسها لديهم وتنميتها؛ حتى يتمكَّنوا من مواجهة طوفان الشَّرِّ، ولبناء منظومةٍ قيميَّةٍ تقوِّي يقينهم بدينهم وثقافتهم.

ومن وسائل تحقيق ذلك: تعزيز مفهوم مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ في نفوسهم، من خلال الترغيب والترهيب، والوعظ والتوجيه والإرشاد، حتى تكون مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ حاضرة في نفوسهم، وتكون الحصن الحصين لمواجهة المغريات، والملاذ الآمن لتجاوزها، والمعتصم لمجابهة نوازع النَّفس، وكبح شهواتها، والأمل في مقاومة وسائل الشَّيطان وأعوانه ومخالبه.

ومن وسائل تحقيق ذلك أيضًا: تطهير البيوت من المنكرات، والتربية السليمة التي تبنى على الاعتقاد الصحيح، وملاحظة المؤثرات الخارجية والنفسية والسلوكية.

ونقطة الارتكاز التي تنبعث منها هذه الاتجاهات الإصلاحية هي بناء سياج الأخلاق، وتربية السلوك، ويقظة الضمير.

تلك هي رسالة الدعاة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فبالأخلاق تستقيم السياسة، ويثمر الإصلاح، وينمو الاقتصاد، وتسعد النفس، ويحظى القانون بالاحترام والتقدير.

وحتى يظل المجتمع متماسكًا، ودور الأسرة فيه إيجابيًا يجب التَّصدي للتيارات الفكرية، والإمدادات السرطانية الزاحفة التي تعمل في دأب وعناء على التشكيك في الثوابت، وذلك من خلال التبصير والتنوير بالمنهج الإصلاحي في التشريعات الإسلامية؛ حرصًا على كيان الأمة من التفكك والذوبان؛ وعلى أبنائها من الزيغ أو الانحراف.

وهذا البناء السليم إنما يرتكز على أسس ومقومات، من نحو: الرقابة الإيجابية والتوجيه والإرشاد.

فموضوع (التربية الوقائية) من أهم الموضوعات التي ينبغي أن يُعْنى بها؛ لأنه يعالج الأخطار التي قد تصيب الفرد، أو تهدد وحدة الأسرة، وأمن المجتمع. ولا سيما ما يُروج له أو يخشى وقوعه في القريب، فينبغي أخذ أسباب الوقاية؛ لتجنب وقوعه؛ لأنه إذا وقع قد يستفحل خطره، ويعسر علاجه، فالوقاية من الخطر قبل وقوعه خير من العلاج بعد وقوعه.

ومن سُنَّة الله عَزَّوَجَلَّ في الأمم أنَّه لا يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧].

وموضوع (التربية الوقائية) عام، وقد أفردت بالبحث منه في كتاب مستقل موضوع: (التربية الوقائية من آفات التفكك الأسري)، مبينًا سبل الوقاية من الأخطار المحدقة التي يخشى وقوعها، وقد جاءت موضوعاته مرتبة على النحو التالي:

التربية الوقائية

الأسرة أنموذجًا

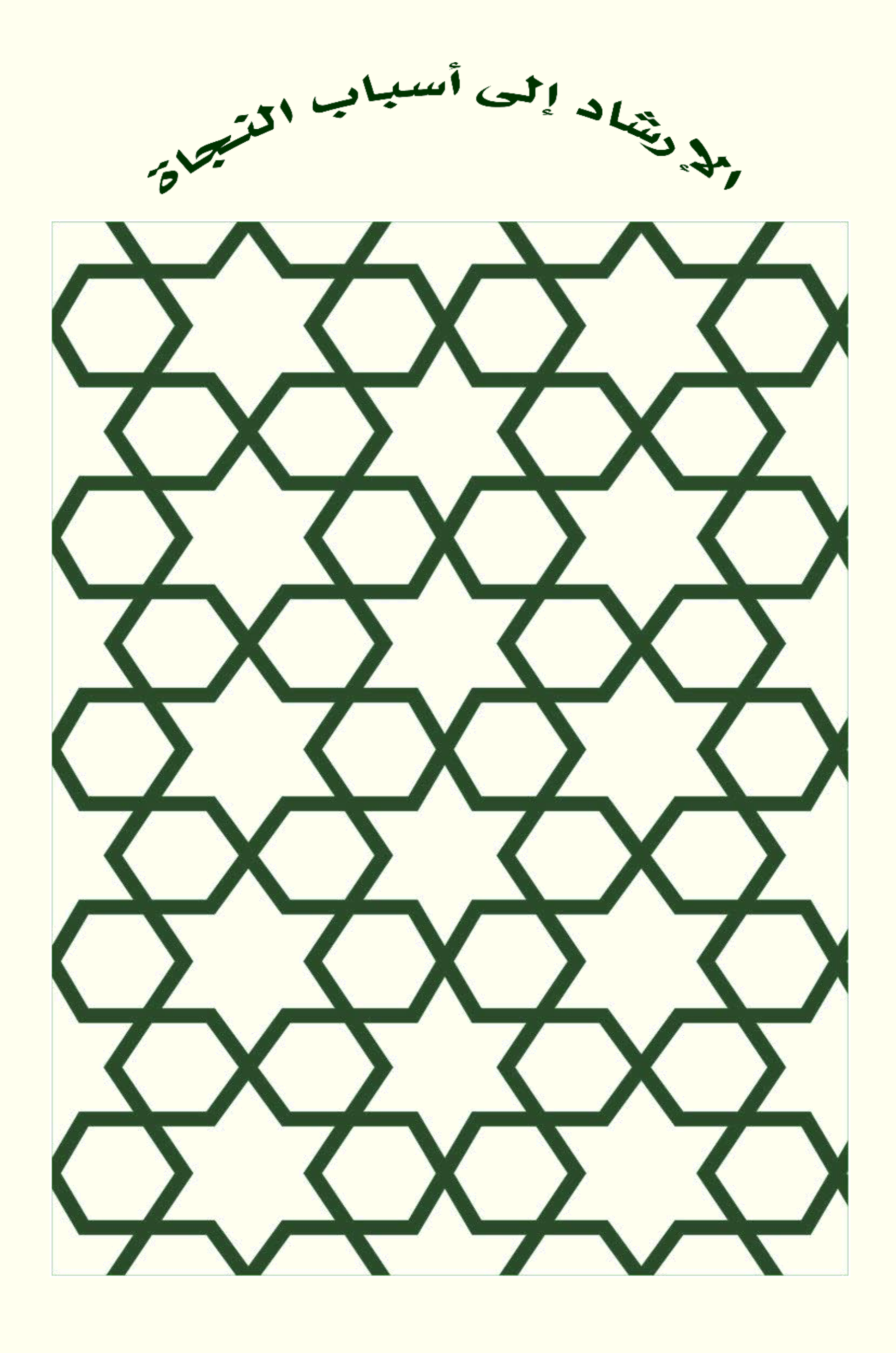
١ – البيئة الفاسدة والتربية السيئة.	٢ – القدوة السيئة.	٣ – خيانة أحد الزوجين.
٤ – انشغال أحد الزوجين عن الآخر.	٥ – الظلم والتسلط والعنف الأسري.	٦ – الفساد الأخلاقي من خلال وسائل الإعلام والتواصل.
٧ – فساد المحيط الاجتماعي.	٨ – شيوع المفاهيم الخاطئة.	٩ – سوء الاختيار.
١٠ – الجانب المادي والأثر الاقتصادي.	١١ – التعجل في حسم أي خلاف.	١٢ – التنبه لخطورة السائقين والخادمات في البيوت.
١٣ – إهمال العناية الشخصية.	١٤ – الطلاق.	١٥ – عدم التحرز من مخاطر الهجرة وآثارها.

الإرشاد إلى أسباب النجاة

المبحث السابع عشر:

طلب العلم وتحري الحق والتلازم بين العلم والعمل

الإرشاد إلى أسباب النجاة



إن أعظم أسباب السلامة والعافية وحسن العاقبة: العلم والعمل، فالعلم بالذنب وعاقبته سبيل لتفاده خطره وآثاره، والعلم بالفتن سبيل للوقاية من آثارها.. إلى غير ذلك، والعلم بالمنجيات، والتفقه في الدين سبيل لسلوك طريق الهداية، وسلامة الاعتقاد والعمل.

إن العلم من أفضل ما يكتسبه الإنسان، ومن أجل ما يتعبد به العبد ربه جَلَّ وَعَلَا، وهو ميراث الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وحلية الأولياء، ومن أعظم أسباب الرفعة في الدنيا والآخرة؛ قال الله عَزَّ وَجَلَّ في بيان فضل العلم والعلماء: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [المجادلة:١١]، أي: يرفع الله عَزَّ وَجَلَّ العالم على غير العالم إذا أخلص النية والقصد لله عَزَّ وَجَلَّ، فيحبب إلى الخلق، ويحمده الناس من غير أن يتعرض هو لذلك، أو يطلبه، أو يكون من قصده، فيكون مكرمًا في الدنيا والآخرة؛ لسلامته من غوائل الرياء.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يرفع الله عَزَّ وَجَلَّ المؤمن العالم على المؤمن غير العالم، ورفعة الدرجات تدل على الفضل؛ إذ المراد به كثرة الثواب، وبها ترتفع الدرجات، ورفعتها تشمل: الرفعة المعنوية في الدنيا: بعلو المنزلة، وحسن الصيت، والحسية في الآخرة: بعلو المنزلة في الجنة"[١].

---

(١) فتح الباري، لابن حجر (١/١٤١).

وعن زيد بن أسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ [يوسف:٧٦] قال: بالعلم (١).

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾ [طه:١١٤] واضح الدلالة في فضل العلم؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ لم يأمر نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بطلب الازدياد من شيءٍ إلا من العلم.

وأول كلمةٍ أنزلت من القرآن الكريم هي ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ [العلق:١].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة**» (٢).

وعن معاوية رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: سمعت النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله، لا يضرهم من خالفهم، حتى يأتي أمر الله**» (٣).

وفي لفظ: «**من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم، إلى يوم القيامة**».

---

(١) رواه ابن وهب: عن مالك. انظر: تفسير القرآن من الجامع، لابن وهب (١٣٦/١)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٢١٧٧/٧)، مسند الموطأ، للجوهري (ص:٨٣)، حديث الزهري (ص:٥٢٠)، جامع بيان العلم وفضله (٦١٩/١)، شرح السنة، للبغوي (٢٧٢/١)، فتح الباري، لابن حجر (١٤١/١)، الدر المنثور (٥٦١/٤).

(٢) صحيح مسلم [٢٦٩٩].

(٣) صحيح البخاري [٧١، ٣١١٦، ٧٣١٢]، مسلم [١٠٣٧].

وفي (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ): قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "باب: العلم قبل القول والعمل؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩]، فبدأ بالعلم، «**وأن العلماء هم ورثة الأنبياء، ورثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر، ومن سلك طريقًا يطلب به علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة**»، وقال جلَّ ذكره: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر:٢٨]، وقال: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت:٤٣]، ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠﴾ [الملك:١٠]، وقال: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر:٩]، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، وإنما العلم بالتعلم**»، وقال أبو ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ: «**لو وضعتم الصمصامة** (١) **على هذه** -وأشار إلى قفاه- **ثم ظننت أني أنفذ كلمة سمعتها من النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ **قبل أن تجيزوا علي لأنفذتها**»، وقال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران:٧٩]: **حلماء فقهاء**. ويقال: **الرباني: الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره**"(٢).

---

(١) بالمهملتين الأولى مفتوحة، أي: السيف الصارم الذي لا ينثني أو الذي له حد واحد. «وأشار إلى قفاه» وفي رواية: «إلى القفا» وهو مقصور: مؤخر العنق يذكر ويؤنث. «ثم ظننت أني أنفذ» بضم الهمزة وكسر الفاء؛ أي: أمضي «كلمة» نكرها؛ لتشمل القليل والكثير. «سمعتها من النبي». وفي رواية: «من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ» أي: ظننت أني أقدر على إنفاذها وتبليغها، «قبل أن تجيزوا» بضم التاء المثناة التحتية وكسر الجيم، أي: الصمصامة «علي» أي: على قفاي، أراد به قبل أن تقطعوا رأسي، «لأنفذتها» أي: لأمضيت تلك الكلمة.

(٢) صحيح البخاري (١/ ٢٤).

قال ابن المنير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أراد به أن العلم شرط في صحة القول والعمل فلا يعتبران إلا به فهو متقدم عليهما؛ لأنه مصحح للنية المصححة للعمل فنبه الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذلك حتى لا يسبق إلى الذهن من قولهم: إن العلم لا ينفع إلا بالعمل تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه. وقوله البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (فبدأ بالعلم) أي: حيث قال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ثم قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩]"(١).

يعني: أن الشيء يعلم أوَّلًا، ثم يقال ويعمل به، فالعلم مقدم عليهما بالذات، وكذا مقدم عليهما بالشرف؛ لأنه عمل القلب، وهو أشرف أعضاء البدن (٢).

قال المهلب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العمل لا يكون إلا مقصودًا لله عَزَّوَجَلَّ إلا بمعنى متقدم عليه، وهو علم ما وعد الله عليه من الثواب، وإخلاص العمل لله عَزَّوَجَلَّ، فحينئذ يكون العمل مرجو النفع؛ إذ تقدمه العلم، ومتى خلا العمل من النية، ورجاء الثواب عليه، وإخلاص العمل لله عَزَّوَجَلَّ فليس بعمل، وإنما هو كفعل المجنون الذي رفع عنه القلم. وقد بين ذلك صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «**إنما الأعمال بالنيات**»"(٣).

وبالعلم ارتقت أممٌ، وسادت قيمٌ، وبنيت أمجادٌ وصناعاتٌ، وشيدت ممالك وحضاراتٌ، فكم من أمةٍ فاقت بالعلم وسادت! وكم من أمةٍ تأخرت بالجهل وبادت! وهو يرفع صاحبه في الحياة، ويبقى له أجرًا وذخرًا بعد الوفاة؛ عن أبي هريرة، أن رسول

---

(١) فتح الباري، لابن حجر (١/١٦٠)، عمدة القاري (٢/٣٩)، مصابيح الجامع (١/١٩٠).

(٢) الكواكب الدراري، لشمس الدين الكرماني (٢/٢٩-٣٠).

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/١٥١).

الله صلى الله عليه وسلم، قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(١).

والعلماء الربانيين ورثة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وحراس الدين، والمبلغون الموقعون عن الله عَزَّوَجَلَّ في خلقه؛ فلهذا كان لهم أجر المجاهد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ(٢)، وأجر الحاج الذَّاهب إلى بيت الله عَزَّوَجَلَّ(٣)، ويستغفر لهم كل مخلوق على وجه الأرض(٤)، وحق لهم

---

(١) صحيح مسلم [١٦٣١].

(٢) جاء في الحديث: «من جاء مسجدي هذا، لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلمه، فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاء لغير ذلك، فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره» أخرجه ابن أبي شيبة [٧٥١٧]، وأحمد [٩٤١٩]، وابن ماجه [٢٢٧]. قال البوصيري في (في زوائد ابن ماجه) (٣١/١) "هذا إسناد صحيح احتج مسلم بجميع رواته". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٦٤٧٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٥٧٥]. قال السندي: "وجه مشابهة طلب العلم بالمجاهد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ: أنه إحياء للدين، وإذلال للشيطان، وإتعاب النفس، وكسر ذرى اللذة، كيف وقد أبيح له التخلف عن الجهاد فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾ [التوبة:١٢٢] الآية؟" حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١٠٠/١).

(٣) جاء في الحديث: «من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرًا أو يعلمه كان له كأجر حاج تامًّا حجته» أخرجه الطبراني [٧٤٧٣]. قال الهيثمي (١٢٣/١): "رجاله موثقون كلهم". وقال العراقي في تخريج أحاديث (الإحياء) (ص:١٧٤٠): "إسناده جيد" كما أخرجه الحاكم [٣١١]، قال الذهبي: "على شرط البخاري" كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٩٧/٦)، وابن عساكر (٤٥٦/١٦).

(٤) جاء في الحديث: «من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها؛ رضاء لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب. إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر» أخرجه أحمد=

ذلك؛ فلقد ورثوا هذا الدين، وبلغوه إلى الخلق أجمعين، وميزوا فيه الصحيح من السقيم، فهم أئمة الهدى، يدعون الناس إلى الخير والصلاح، ويبينون لهم أمر دينهم ودنياهم، ويدعونهم بالحجة والبيان، فيرشدون الأنام، وينشرون المحبة والسلام، ويرتقون بالمحب في مدراج الكمال، ويبصرونه بعقبات الطريق، فالعالم يدلُّ على الله عَزَّوَجَلَّ بمقاله وسلوكه، ويكون سببًا للظفر بالحق، والفلاح في الدنيا والآخرة، فكم من تائه عن الصراط المستقيم أرشدوه!

والعالم أكثر طاعة وخشية وإخلاصًا لله عَزَّوَجَلَّ، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر:٢٨].

فإذا كان كذلك أحبه الله عَزَّوَجَلَّ محبة تفوق محبة الطائع العابد غير العالم، فليس العالم كغير العالم، فإذا أحبه الله عَزَّوَجَلَّ حببه إلى عباده.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "باب: (توقير العلماء والكبار وأهل الفضل وتقديمهم على غيرهم، ورفع مجالسهم، وإظهار مرتبيهم): قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٩﴾ [الزمر:٩].

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو البدري الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**يَؤُمُّ القوم أقرؤهم لكتاب الله، وأقدمهم قراءة، فإن كانت قراءتهم**

=[٢١٧١٥]، والدارمي [٣٥٤]، وابن ماجه [٢٢٣]، وأبو داود [٣٦٤١]، والترمذي [٢٦٨٢] وقال: "لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة، وليس هو عندي بمتصل. ثم أورد له إسنادًا، وقال: هذا أصح". وأخرجه أيضًا: ابن الأعرابي [١٥٦٤]، وابن حبان [٨٨]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٥٧٤].

سواء، فَلْيَؤُمَّهُمْ أقدمهم هجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء، فَلْيَؤُمَّهُمْ أكبرهم سِنًّا، ولا تَؤُمَّنَّ الرجل في أهله، ولا في سلطانه، ولا تجلس على تَكْرِمَتِه في بيته إلا أن يأذن لك، أو بإذنه» [1].

وفي رواية له: «**فأقدمهم سِلمًا**» [بكسر السين وسكون اللام] بدل «**سِنًّا**»، [وفسر السلم بقوله:] أي: إسلامًا. والمراد «**بسلطانه**» محل ولايته، أو الموضع الذي يختص به. «**وتكرمته**» [بفتح التاء وكسر الراء]: وهي ما ينفرد به من فراش وسرير ونحوهما.

وعنه قال: كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يمسح مناكبنا في الصلاة، ويقول: «**استووا، ولا تختلفوا، فتختلف قلوبكم، ليلني منكم أولو الأحلام والنهى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم**» [2]"[3].

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ: "وإذا كان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لهم حق التبجيل والتعظيم والتكريم، فلمن ورثهم نصيب من ذلك، أن يبجل ويعظم ويكرم.

وبتوقير العلماء توقر الشريعة؛ لأنهم حاملوها، وبإهانة العلماء تهان الشريعة؛ لأن العلماء إذا ذلوا وسقطوا أمام أعين الناس؛ ذلت الشريعة التي يحملونها، ولم يبق لها قيمة عند الناس، وصار كل إنسان يحتقرهم ويزدريهم فتضيع الشريعة.

---

(١) صحيح مسلم [٦٧٣].

(٢) صحيح مسلم [٤٣٢].

(٣) رياض الصالحين، للإمام النووي (ص:١٣٩-١٤٠) بتصرف يسير.

كما أن ولاة الأمر من الأمراء والسلاطين يجب احترامهم وتوقيرهم تعظيمهم وطاعتهم، حسب ما جاءت به الشريعة؛ لأنهم إذا احتقروا أمام الناس، وأذلوا، وهون أمرهم؛ ضاع الأمن وصارت البلاد فوضى، ولم يكن للسلطان قوة ولا نفوذ.

فهذان الصنفان من الناس: العلماء والأمراء، إذا احتقروا أمام أعين الناس فسدت الشريعة، وفسدت الأمن، وضاعت الأمور، وصار كل إنسان يرى أنه هو العالم، وكل إنسان يرى أنه هو الأمير، فضاعت الشريعة وضاعت البلاد؛ ولهذا أمر الله عَزَّوَجَلَّ بطاعة ولاة الأمور من العلماء والأمراء فقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء:٥٩].

ونضرب لكم مثلًا: إذا لم يعظم العلماء والأمراء؛ فإن الناس إذا سمعوا من العالم شيئًا قالوا: هذا هين، قال فلان خلاف ذلك. أو قالوا: هذا هين هو يعرف ونحن نعرف، كما سمعنا عن بعض السفهاء الجهال، أنهم إذا جودلوا في مسألة من مسائل العلم، وقيل لهم: هذا قول الإمام أحمد بن حنبل، أو هذا قول الشافعي، أو قول مالك، أو قول أبي حنيفة، أو قول سفيان، أو ما أشبه ذلك قال: نعم، هم رجال ونحن رجال. لكن فرق بين رجولة هؤلاء ورجولة هؤلاء، من أنت حتى تصادم بقولك، وسوء فهمك، وقصور علمك، وتقصيرك في الاجتهاد، وحتى تجعل نفسك ندًّا لهؤلاء الأئمة رَحِمَهُمُاللَّهُ؟ فإذا استهان الناس بالعلماء كل واحد يقول: أنا العالم، أنا النحرير، أنا الفهامة، أنا العلامة، أنا البحر الذي لا ساحل له وصار كل يتكلم بما شاء، ويفتي بما شاء؛ لتمزقت الشريعة بسبب هذا الذي يحصل من بعض السفهاء.

وقال: فإذا لم يوقر العلماء ولم يوقر الأمراء؛ ضاع الدين والدنيا. نسأل الله العافية"[1].

ومنذ أكرم الله عَزَّوَجَلَّ هذه الأمة ببعثة نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأفواج الدعاة المصلحين يتعاقبون فيها، علماء ربانيون، ودعاة مصلحون، داعين إلى الحق، ومرشدين للخلق، حاكمين بالقسط، آمرين بالمعروف، وناهين عن المنكر. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت:٤٣]. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: "أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم، المتضلعون منه"[2]. وقال أبو السعود رَحِمَهُٱللَّهُ: "الراسخون في العلم: المتدبرون في الأشياء على ما ينبغي"[3].

إن العلماء الربانيين هم مصابيح الهدى، فكم كشف الله بهم من غمة! وكم أزاح بهم من ملمة! ولا عجب فهم خلفاء رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في أمته، والمُحْيُون لما مات من سنته. والناس إن خلو من العلماء الربانيين تخطَّفتهم شياطين الإنس والجن، وتقاذفتهم الضلالات والفتن.

قال الشيخ محمد بن محمد المختار الشنقيطي رَحِمَهُٱللَّهُ: "العلماء، وما أدراك ما العلماء؟ أئمة الهدى، ومصابيح الدجى، أهل الرحمة والرضا، بهم يُحتذى ويُهتدى ويُقتدى. كم طالب علم علموه! وتائه عن صراط الرشد أرشدوه! وحائر عن سبيل الله بصروه ودلوه! بقاؤهم في العباد نعمة ورحمة، وقبضهم وموتهم عذاب ونقمة قال

---

(١) شرح رياض الصالحين، لمحمد بن صالح العثيمين (٣/٢٢٩-٢٣٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٧٩).

(٣) تفسير أبي السعود (٧/٤١).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**»[١].

فما أقرب الطريق على العلماء إلى جنة الله عَزَّوَجَلَّ ورحمته، حملوا الكتاب والسنة، وأحيوا منارات الدين والملة، فالله أعلم كم بذلوا، وكم ضحوا من أجل هذا العلم المبارك، والخير الكبير!

وإذا أحب الله عبدًا من عباده حبب إلى قلبه العلماء، ومن أحب قومًا حشر معهم. جاء رجل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ -أي: ليس عنده كثير صلاة، ولا صلاح، ولا صيام، يحب الصالحين وليس عنده كثيرٌ من الصلاح، ويحب العلماء وليس عنده العلم، يحب القوم ولما يلحق بهم- فقال: «**المرء مع من أحب**»[٢].

فمن أحب العلماء حشر مع الأتقياء السعداء: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء:٦٩].

وإذا أحب الله عَزَّوَجَلَّ عبدًا حبب إلى قلبه أولياءه: العلماء فأحبهم في الله عَزَّوَجَلَّ، ودعا لهم، واعتقد فضلهم، وكان خير معين لهم.

---

(١) صحيح البخاري [١٠٠]، مسلم [٢٦٧٣].

(٢) صحيح البخاري [٦١٦٩، ٦١٧٠]، مسلم [٢٦٤٠].

ولكن ينبغي التمييز بين العلماء الربانيين العاملين، ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩]، فلا يداهنون ولا ينافقون، يصلحون ولا يفسدون، يجمعون ولا يفرقون، وبين من سواهم؛ فإن الأمة تحتاج في الفتن عندما يلتبس الحق بالباطل أن ترجع لأهل العلم الراسخين، وتحذر من خطيب مصقع، وواعظ جاهل يشوّهِ الحقائق، ويغطي العقل بلهب العواطف، كما تقدم بيان ذلك في (الفتن).

فإذا تخلى العالم عن الأمانة، وساء منه القصد والديانة، وكان جامعًا للعلم بلا عمل، مفارقًا للقيم الإنسانية، يكتم الحق، ويغش الخلق[1]، فمثل هذا قد توعده الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [البقرة:١٥٩].

وحذَّر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أولئك المضلين فقال: «**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**»[2].

---

(١) إنَّ كتمان العلم، وتقاعس أهله عن بيان الحق، والسكوت والمداهنة والنفاق -مع القدرة على البيان- صادٌّ عن الحق؛ لما في ذلك من التعمية والتلبيس على العامَّة.

(٢) أخرجه أحمد [٢٢٣٩٣]. قال الهيثمي (٢٣٩/٥): "رواه أحمد ورجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: الدارمي [٢١٥]، وأبو داود [٤٢٥٢]، والترمذي [٢٢٢٩]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه ابن أبي عاصم [٤٥٦]، وابن حبان [٧٢٣٨]، والحاكم [٨٣٩٠] وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: أبو نعيم في (الحلية) (٢٨٩/٢)، والشهاب [١١٦٦]. كما أخرجه البيهقي في (الكبرى) [١٨٦١٧].

ومن هنا حرص أسلافنا أن لا يأخذوا العلم إلا عن الثقات الأمناء، قال ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن هذا العلم دين، فانظروا عَمَّن تأخذون دينكم"(١).

والحاصل أن كتمان الحق في الدين محظور إذا أمكن إظهاره، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**» (٢).

والسكوت عن بيان الحق وإظهاره قد يكون سببًا في امتناع وصوله إلى كثيرين.

قال ابن الوزير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولو أنَّ العلماء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ تركوا الذبَّ عن الحق؛ خوفًا من كلام الخلق، لكانوا قد أضاعوا كثيرًا، وخافوا حقيرًا"(٣).

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومنهم من يترك التكلم بالحق والإرشاد إليه؛ مخافة الضرر من تلك الدولة وأهلها، بل وعامتها؛ فإنه لو تكلم بشيء خلاف ما قد علموا عليه ونشروه في الناس لخشى على نفسه وأهله وماله وعرضه، ومنهم من يترك التكلم بالحق؛ محافظة على حظ قد ظفر به من تلك الدولة من مال وجاه"(4).

وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ سبب رواج البدع "أن يعمل بها العوام وتشيع فيهم وتظهر، فلا ينكرها الخواص، ولا يرفعون لها رؤوسهم، وهم قادرون على الإنكار فلم

---

(١) مقدمة صحيح مسلم (١/ ١٤).

(٢) أخرجه الطيالسي [٢٦٥٧]، وابن أبي شيبة [٢٦٤٥٣]، وأحمد [٧٥٧١]، وأبو داود [٣٦٥٨]، والترمذي [٢٦٤٩]، وقال: "حسن". وأخرجه أيضًا: البزار [٩٢٩٧]، وأبو يعلى [٦٣٨٣]، وابن الأعرابي [٧٣]، وابن حبان [٩٥]، والطبراني في غير موضع، والحاكم [٣٤٤] وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: تمام [١٥٥٧]، والشهاب [٤٣٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦١٢].

(٣) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (١/ ٢٤) (١/ ٢٢٣).

(٤) أدب الطلب ومنتهى الأرب (ص:٦٢).

يفعلوا، فالعامي من شأنه إذا رأى أمرًا يجهل حكمه يعمل العامل به فلا ينكر عليه أحد، اعتقد أنه جائز وأنه حسن، أو أنه مشروع بخلاف ما إذا أنكر عليه فإنه يعتقد أنه عيب، أو أنه غير مشروع، أو أنه ليس من فعل المسلمين. هذا أمر يلزم من ليس بعالم بالشريعة؛ لأن مستنده الخواصّ والعلماء في الجائز أو غير الجائز. فإذا عَدِمَ الإنكار ممن شأنه الإنكار، مع ظهور العمل وانتشاره وعدم خوف المنكر ووجود القدرة عليه، فلم يفعل، دل عند العوام على أنه فعل جائز لا حرج فيه"(١).

والمداهنة أثرها عظيم في التلبيس على كثير من العامة، وفيها ما فيها من الغش والنفاق. والمداهنة هي أن ترى منكرًا وتقدر على دفعه ولم تدفعه؛ حفظًا لجانب مرتكبه، أو جانب غيره، أو لقلة مبالاة الدين(٢).

وقال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فقد –والله– عم الفساد، وظهرت البدع، وخفيت السنن، وقلَّ القوال بالحق، بل لو نطق العالم بصدق وإخلاص لعارضه عدة من علماء الوقت، ولمقتوه وجهلوه –فلا حول ولا قوة إلا بالله–"(٣).

وقال أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا هو ذلك الزمان الذي قد استولى فيه الباطل على الحق، وتغلب فيه العبيد على الأحرار من الخلق، فباعوا الأحكام، ورضي

---

(١) الاعتصام (٥٩٧/٢).

(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٦٤٥)، دستور العلماء (١٦٤/٣)، قواعد الفقه (ص:٤٧٤).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٠٢/١١).

بذلك منهم الحكام، فصار الحكم مكسًا، والحق عكسًا لا يوصل إليه ولا يقدر عليه. بدلوا دين الله، وغيروا حكم الله، سمَّاعون للكذب أكالون للسحت"(١).

فمن شأن دعاة الباطل: التلبيس على الناس، وإظهار الباطل في صورة الحقِّ، ومَزْجُ الحقِّ بالباطل بالكتمان والتعمية، لكن منهج أهل الحقِّ: العمل على بيانه وتمييزه عن الباطل، هذا هو منهجهم في تشخيص المرض، ثم المعالجة بالدواء الشافي؛ حيث يردون المخالف إلى أدلة واضحة، وحجج قاطعة، ومقدمات مسلمة. وأساس ذلك رسوخ العقيدة التي تحمل الباحث على الصدق والموضوعية والإنصاف، وعلى عموم الأخلاق الفاضلة، وعلى الالتزام بآداب الخطاب والمناظرة. وتحارب الغش والخداع والتزوير والتغرير والمكر والتلبيس والخيانة، وهذه الأوصاف القبيحة لا تكون خُلُقًا للمسلم بحالٍ؛ لأنَّ طهارة نفسِه المكتسبة من الإيمان والعمل الصالح تأبى أن تتجانسَ مع هذه الأخلاق الذَّميمة.

قال ابن النحاس الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإذا نظرنا إلى فساد الرعية وجدنا سببه: فساد الملوك، وإذا نظرنا إلى فساد الملوك وجدنا سببه: فساد العلماء والصالحين، وإذا نظرنا إلى فساد العلماء والصالحين وجدنا سببه: ما استولى عليهم من حب المال والجاه"(٢).

وفي (تفسير المنار): "وأما أعمال النفاق الدنيوية في أيام الملوك والأمراء الظالمين الفاسقين، فإنها تكون أكثر رواجًا ونتاجًا من أعمال الصادقين المخلصين. ولا دليل

---

(١) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص:١٢٢٨).

(٢) تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أفعال الجاهلين (ص:٦٨).

على فساد الملوك والأمراء والرؤساء أدل من تقريبهم للمنافقين المتملقين منهم، وإبعادهم للناصحين الصادقين عنهم"(١).

ومحبة العلماء لا تعني: التقديس، والاتباع من غير تبصر؛ فإن الشارع يقرر أن كل إنسان يؤخذ من قوله ويرد، وأنه لا عصمة لأحد إلَّا لمن عصمه الله عَزَّوَجَلَّ، وهو النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ ولذلك فإنَّ تعامل الباحث مع العلماء وأهل الفضل ينبغي أن يكون بمسلك صحيح، وبمنهج دقيق من النظر والبحث والنقد، فينبغي أن نفرق بين التقدير والتقديس، وأن نتعامل مع أهل العلم والفضل بالتقدير، مع إنزال كل منهم منزلته؛ لأنهم درجات، دون تقديس ودون تبخيس، فالتقدير يجعلك تقدر ذلك العالم؛ لعلمه، وذلك الفاضل؛ لفضله، وتنزله منزلته، فلا تقع في التبخيس، وإذا تكلم بخلاف الحق ترد قوله مع معرفتك لقدره.

والفتنة والابتلاء تجعل الكثيرين على المحك، فتسقط الأقنعة، وتبرز ما كان خفيًّا.. فكم أسقطت المحن أقوامًا، ورفعت آخرين؟! كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ۗ﴾ [التوبة:٤٩].

وينبغي للعالم والواعظ أن لا يخالف فعله قوله، ولقد أجاد من قال:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم(٢)

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) (١٠/٤٦٤).

(٢) وهذا البيت من (الطويل) يروى لأبي الأسود الدؤلي، ويروى للمتوكل الليثي، وقيل: للأخطل، وقيل للطرماح، وقيل: لسابق البربري، وقيل: لغيرهم. وهو من شواهد سيبويه (٣/٤٢)، وفي (ديوان أبي الأسود) (ص:٢٣٣). شركة النشر والطباعة العراقية المحدودة، بغداد [١٣٧٣هـ].

وقال الآخر:

وغير تقي يأمر النـــاس بالتقى   طبيب يداوي الناس وهو مريض [(١)]

وذكر الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (علامات) لعلماء الاخرة، منها:

١ – أن لا يطلب الدنيا بعلمه؛ فإن أقل درجات العالم: أن يدرك حقارة الدنيا وخستها، وكدورتها، وانصرامها، وعظم الآخرة، ودوامها، وصفاء نعيمها، وجلالة ملكها، ويعلم أنهما متضادتان، وأنهما كالضرتين، مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى، وأنهما ككفتي الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى، وأنهما كالمشرق والمغرب مهما قربت من أحدهما بعدت عن الآخر، وأنهما كقدحين أحدهما: مملوء، والآخر: فارغ، فبقدر ما تصب منه في الآخر حتى يمتلىء يفرغ الآخر؛ فإن من لا يعرف حقارة الدنيا، وكدورتها، وامتزاج لذاتها بألمها، ثم انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل؛ فإن المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك.

٢– ومنها: أن لا يخالف فعله قوله، بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أول عامل به. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤]، وقال

(١) أضواء البيان (٤٦٣/١). وفي بعض المصادر: (وهو عليل). وفي (شعب الإيمان) [١٧٨١، ٦٩٢١]: أخبرنا أبو حازم الحافظ، أخبرنا أبو عمرو بن مطر قال: حضرت مجلس أبي عثمان الحيري الزاهد، فسكت حتى طال سكوته، ثم أنشأ يقول: [من الطويل] (وغير تقي يأمر الناس بالتقى***طبيب يداوي والطبيب مريض). قال: فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج. وانظر: تفسير ابن كثير (٢٥٠/١)، وانظر: تفسير القرطبي (٣٦٧/١).

جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف:٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا في قصة شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود:٨٨].

٣ – ومنها: أن يكون منقبضًا عن السلاطين، فلا يدخل عليهم ألبتة ما دام يجد إلى الفرار عنهم سبيلًا، بل ينبغي أن يحترز عن مخالطتهم وإن جاءوا إليه؛ فإن الدنيا حلوة خضرة، وزمامها بأيدي السلاطين.

والمخالط لا يخلو عن تكلف في طيب مرضاتهم، واستمالة قلوبهم مع أنهم ظلمة...إلى غير ذلك (١).

وقد استخلف عمر بن عبد العزيز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فانقشع عنه الشعراء والخطباء، وثبت معه الزهاد والفقهاء، وقالوا: ما يسعنا فراقه حتى يخالف فعله قوله (٢).

إن الانتفاع بالعلم لا يكون إلا بالعمل به؛ لأنَّ السلاح لا ينفع الإنسان إن ملكه ولم يستخدمه، فإذا دهمه خطر، فإن كان جاهلًا ضرَّه جهله، وإن كان عالما لم ينفعه علمه؛ لأنه لم يعمل به، فلا خير في قول لا يصدقه العمل.

والعمل بالعلم هو أبلغُ وسائل الدعوة والتأثير، فهو أدعى لقبول الناس؛ لأن لسان العمل أنطق وأبلغ من لسان القول، والأعمال أعلى صوتًا من الأقوال؛ لأن القول يحسنه كثيرون، وإنما يتفاضل الناس بالأعمال، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١/٦٠...).

(٢) انظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر (٤٥)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (٢١/٤٤٢)، تذكرة الحفاظ (١/٩٠).

والعامل بعلمه يملك مجامع القلوب، ويكتب له القبول.

وقد امتدح اللهُ عَزَّوَجَلَّ مَنْ يُصَدِّقُ عَمَلُهُ قَوْلَه فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت:٣٣].

وذمَّ مَنْ لا يُصَدِّقُ عملُهُ قَوْلَه فقال: ﴿۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة:٤٤].

ومن الوعيد الشديد في علماء السوء الذين يخادعون الناس: ما جاء عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مررت ليلة أسرى بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت لجبريل: من هؤلاء؟ قال: خطباء من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون»** (١).

وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ:**

---

(١) أخرجه الطيالسي [٢٠٦٠]، وابن أبي شيبة [٣٦٥٧٦]، وأحمد [١٢٢١١]، وعبد بن حميد [١٢٢٢]، والبزار [٧٢٣١]، وأبو يعلى [٣٩٩٢]، قال الهيثمي (٢٧٦/٧): "أحد أسانيد أبي يعلى رجاله رجال الصحيح". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٥٣]، والطبراني في (الأوسط) [٨٢٢٣]، وأبو نعيم في (الحلية) (٣٨٦/٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٧]، والضياء [٢٦٤٦] وقال: "إسناده صحيح".

أَيْ فُلانُ مَا شَأْنُكَ؟! أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنْ الْمُنْكَرِ؟! قال: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلا آتِيه، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ» (١).

والعبد يسأل عن علمه فيم فعل فيه، كما جاء في الحديث: عن أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه**» (٢).

وكان أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: «**إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق، فيقول لي: يا عويمر، فأقول: لبيك ربي، فيقول لي: ما عملت فيما علمت؟**» (٣).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «**لا تكون عالمًا حتى تكون مُتَعَلِّمًا، ولا تكون بالعلم عالمًا حتى تكون به عاملًا**» (٤).

---

(١) صحيح الإمام البخاري [٣٠٩٤، ٦٦٨٥]، مسلم [٧٦٧٤]. و(الأقتاب): الأمعاء. و(الاندلاق): خروج الشيء من مكانه بسرعة.

(٢) أخرجه الترمذي [٢٤١٧]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه أبو يعلى [٧٤٣٤]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٠/٢٣٢).

(٣) شعب الإيمان [١٧١١]، تعظيم قدر الصلاة، للمروزي [٨٤٩]، جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر [١٢٠٤]، وسنده قوي.

(٤) سنن الدارمي [٣٠١]، جامع بيان العلم وفضله [١٢٣٩]، وأخرجه أيضًا: ابن عساكر (٤٧/١٤٧).

وقد كان رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيذُ بالله عَزَّ وَجَلَّ من علمٍ لا ينفع، فكان يقولُ في دعائِه معلِّمًا أمتَه هذا الدُّعاء: «**اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب، القبر اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**» (١).

وفيه: الحرصُ من كلِّ مسلمٍ على عِلْمٍ ينفعُه في دنياه وآخرتِه، ويصلحُ حالَه، والاحترازُ عن علمٍ لا ينفعُه، بل يضرُّه ويُضِلُّه.

والعلمُ النَّافع لا بدَّ فيه من الإخلاص، كما جاء في الحديث: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار**» (٢).

وعن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مثل العالم الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه**» (٣).

---

(١) صحيح مسلم [٢٧٢٢].

(٢) أخرجه ابن ماجه [٢٥٤]، قال البوصيري في (زوائده) (٣٧/١): "هذا إسناد رجاله ثقات على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٧٧]، والحاكم [٢٩٠]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٥].

(٣) أخرجه الطبراني في (الكبير) [١٦٨١]. قال الهيثمي (١٨٥/١): "رجاله موثقون". وأخرجه أيضًا: الديلمي [٦٤١٩].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ ذامًّا اليهود الذين علموا ولم يعملوا: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥﴾ [الجمعة:٥]، أي: مثل الذين حملوا التوراة، علموها وكلفوا العمل بها. ثم لم يعملوا بها أو لم ينتفعوا بما فيها كمثل الحمار يحمل أسفارًا، أي: كتبًا من العلم يتعب في حملها ولا ينتفع بها. وكذلك هؤلاء -اليهود- في حملهم الكتاب الذي أوتوه، ولم يعملوا بمقتضاه، بل أوَّلوه وحرَّفوه وبدَّلوه، فهم أسوأُ حالًا من الحمير؛ لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ۝١٧٩﴾ [الأعراف:١٧٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته"(١).

وقد شبَّه الله عَزَّوَجَلَّ عالمَ السوء الذي لم ينتفع بعلمه بالكلب فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمراد بهذا المثل: أن من لم يزجره علمُه عن القبيح، صار القبيحُ عادة له ولم يؤثر فيه علمُه شيئًا، فيصير حالُه كحال الكلب اللاهث؛ فإنه إن طُرد لهث، وإن تُرك لهث، فالحالتان عنده سواء. وهذا أخسُّ أحوال الكلب

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١٢٧).

وأبشعها، فكذلك من يرتكب القبائح مع جهله ومع علمه، فلا يؤثر علمُه شيئًا، وكذلك مثل من لا يرتدع عن القبيح بوعظ ولا زجر ولا غيره، فإن فعل القبيح يصير عادة، ولا ينزجر عنه بوعظ ولا تأديب ولا تعليم، بل هو متبع للهوى على كل حال، فهذا كل من اتبع هواه، ولم ينزجر عنه بوعظ ولا غيره"[١].

وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يحرصون على العلم والحفظ والفهم، ولكن اهتمامهم بالعمل أبلغ.

ويدل على ذلك: ما جاء في (صحيح مسلم): عن عمرو بن أَوْسٍ، قال: حدثني عَنْبَسَةُ بن أبي سفيان، في مرضه الذي مات فيه بِحَدِيثٍ يَتَسَارُّ إليه، قال: سمعت أُمَّ حَبِيبَةَ، تقول: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَنْ صَلَّى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، بُنِيَ لَهُ بِهِنَّ بَيْتٌ فِي الْجَنَّة**». وفي رواية: «**تَطَوُّعًا**»[٢]. قالت أُمُّ حبيبة: «**فما تَرَكْتُهُنَّ منذ سَمِعْتُهُنَّ من رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». وقال عَنْبَسَة: "فما تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ من أُمِّ حَبِيبَةَ". وقال عمرو بن أَوْسٍ: "ما تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ من عَنْبَسَةَ"، وقال النُّعْمَانُ بنُ سالم: "ما تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ من عَمْرِو بْنِ أَوْس"[٣].

ويدل على ذلك أيضًا: ما جاء عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن -كعثمان بن عفان وابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أنهم كانوا إذا تعلموا

---

(١) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (١/٢٠٤).

(٢) التطوع يخرج الفرض؛ يعني: من صلى ثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة تطوعًا بعد أدائه الفريضة حصل له هذا الوعد.

(٣) صحيح مسلم [٧٢٨].

عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا (١).

وذكر الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الموطأ): أن عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا مَكَثَ على سورة البقرة، ثَمَانِيَ سِنِينَ يَتَعَلَّمُهَا (٢).

فينبغي لطالب العلم والهداية والنجاة أن لا يترك العمل؛ لأن العبرة بالعمل، والعلمُ بلا عمَلٍ حجةٌ على صاحبِه، فكم من أناس يَعْلَمُون ولا يَعْمَلون، وقد غرَّهم ما عندهم من بعض العلوم والمعارف؟! فكان ذلك الغرور والعُجْب سببًا لضلالهم؛ لأن العُجْب قد يحمل صاحبه على تعظيم نفسه حتى تستولي عليه الغفلة، ويفرح بما هو عليه، ويستغني بما عنده، وربما يصل إلى (غرور العلم) الصَّارف عن الآيات والحجج، والصادِّ عن الهداية، وهو سببٌ في خلق نزعة الإلحاد والجحود، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣]، كما بينت ذلك في كتاب: (عقبات في طريق الهداية).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلَّت على أنهم أشد الخلق عذابًا يوم القيامة"(٣). وذلك بسبب متابعتهم للضلال، وتزينه، ونفاقهم ومداهنتهم، وإضلالهم للناس. وقال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد اندرس علم الدين

(١) انظر: تفسير الطبري (١/٨٠)، تفسير ابن كثير (١/٨)، المحرر الوجيز (١/٩)، الإكليل في المتشابه والتأويل (ص:٤٧)، مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية (ص:٩).

(٢) موطأ الإمام مالك [٦٩٥].

(٣) إحياء علوم الدين (١/٥٩).

بتلبيس العلماء السوء، فالله جَلَّ وَعَلَا المستعان، وإليه الملاذ في أن يعيذنا من هذا الغرور"(١).

وقال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فأما أهل العلم، فالمغترون منهم فرق: منهم فرق أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم، وظنوا أنهم عند الله بمكان، لعلموا أن العلم إنما يراد لمعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها، فهي علوم لا تراد إلا للعمل، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ [الشمس:٩]، ولم يقل: قد أفلح من تعلَّم كيف يزكيها، فإن تلا عليه الشيطان فضائل أهل العلم، فليذكر ما ورد في العالم الفاجر، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف:١٧٦]، وقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة:٥].

وفرقة أخرى أحكموا العلم والعمل، فواظبوا على الطاعات الظاهرة، وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم؛ ليمحوا عنها الصفات الذميمة، من الكبر، والحسد، والرياء، وطلب العلا، وإرادة السوء للأقران والنظراء، وطلب الشهرة في البلاد والعباد، فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا، ونسوا قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**» (٢).

---

(١) المصدر السابق (٢١/١).

(٢) صحيح مسلم [٢٥٦٤].

وفرقة أخرى: علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم"(١).

وقال في (بداية الهداية): "واعلم أن الناس في طلب العلم على ثلاثة أحوال: رجل طلب العلم ليتخذه زاده إلى المعاد، ولم يقصد به إلا وجه الله عَزَّوَجَلَّ والدار الآخرة؛ فهذا من الفائزين.

ورجل طلبه ليستعين به على حياته العاجلة، وينال به العز والجاه والمال، وهو عالم بذلك، مستشعر في قلب ركاكة حاله وخسة مقصده، فهذا من المخاطرين. فإن عاجله أجله قبل التوبة خيف عليه من سوء الخاتمة، وبقي أمره في خطر المشيئة؛ وإن وفق للتوبة قبل حلول الأجل، وأضاف إلى العلم العمل، وتدارك ما فرط به من الخلل التحق بالفائزين؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

ورجل ثالث استحوذ عليه الشيطان؛ فاتخذ علمه ذريعة إلى التكاثر بالمال، والتفاخر بالجاه، والتعزز بكثرة الأتباع، يدخل بعلمه كل مدخل رجاء أن يقضى من الدنيا وطره، وهو مع ذلك يضمر في نفسه أنه عند الله بمكانة؛ لاتسامه بسمة العلماء، وترسمه برسومهم في الزي والمنطق، مع تكالبه على الدنيا ظاهرًا وباطنًا، فهذا من الهالكين، ومن الحمقى المغرورين؛ إذ الرجاء منقطع عن توبته لظنه أنه من المحسنين"(٢).

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/٣٨٨)، بتصرف، موعظة المؤمنين (ص:٢٦٠)، مختصر منهاج القاصدين (ص:٢٣٩).

(٢) بداية الهداية، لأبي حامد الغزالي (ص:٢٦-٢٧).

ومن تأمل حال كثير من المسلمين في هذا العصر وجد أنهم قد ركنوا إلى الظلمة المستكبرين، ووثقوا بهم أكثر من ثقتهم بربهم عَزَّوَجَلَّ، ومالوا إليهم كل الميل، وتسابقوا على إرضائهم -ولو بسحق إخواهم-، وهذا من أعظم أسباب الذل والخذلان، وتخلف نصر الله عَزَّوَجَلَّ عن المسلمين، وتسلط أعدائهم عليهم؛ فإن من عادة الظلمة المستكبرين أن يزدادوا علوًّا وجورًا كلما زين لهم علماء السوء قبيح أفعالهم.

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد كان عبد الله بن علي ملكًا جبارًا، سفاكًا للدماء، صعب المراس، ومع هذا فالإمام الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يصدعه بمر الحق، لا كَخَلْق من علماء السوء الذين يُحَسِّنُون للأمراء ما يقتحمون به من الظلم والعَسْف، ويقلبون لهم الباطل حقًّا -قاتلهم الله- أو يسكتون مع القدرة على بيان الحق"(١).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إني رأيت كثيرًا ممن شغلتهم نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم عاد ذلك عليهم بالقدح في الأصول.

ولما رأيت رأي نفسي في العلم حسنًا، فهي تقدمه على كل شيء، إلا أني رأيت نفسي واقفة مع صورة التشاغل بالعلم، فصحت بها: فما الذي أفادك العلم؟! أين الخوف؟! أين القلق؟! أين الحذر؟! أو ما سمعت بأخبار أخيار الأحبار في تعبدهم واجتهادهم؟!

أما كان الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد الكل، ثم إنه قام حتى ورمت قدماه؟!(٢)

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٢٥/٧).

(٢) جاء في الحديث: عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أَتَكَلَّفُ هذا؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «أفلا أكون عبدا شكورًا»=

أما كان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شجي النشيج(١)، كثير البكاء؟!

أما كان في خد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطان من آثار الدموع؟!

أما كان عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يختم القرآن في ركعة؟!

أما كان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبكي بالليل في محرابه حتى تخضل لحيته بالدموع، ويقول: يا دنيا غري غيري؟!(٢).

وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: "العلمُ إن لم يَنْفَعْكَ يَضُرُّك"(٣).

وقال: "ليس العالم الذي يعرف الخير والشر، إنما العالم الذي يعرف الخير فيتبعه، ويعرف الشر فيجتنبه"(٤).

=صحيح البخاري [١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١]، مسلم [٢٨١٩]. وفي رواية: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صلى قام حتى تفطر رجلاه، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا رسول الله أتصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: «يا عائشة أفلا أكون عبدا شكورًا» صحيح البخاري [٤٨٣٧]، صحيح مسلم [٢٨٢٠].

(١) النشيج: صوت معه توجع وبكاء، كما يردد الصبي بكاءه في صدره. وقد نشج ينشج.

(٢) صيد الخاطر (ص:٨٥).

(٣) الزهد، لأحمد بن حنبل [٦١١]، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١١/١٩٢)، الطبقات الكبرى (٤٨/١).

(٤) حلية الأولياء (٧/ ٢٧٤)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١١/١٩١- ١٩٢).

وقال وكيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به، وكنا نستعين على طلبه بالصوم[1]. وعنه أيضًا أنه قال: استعينوا على الحفظ بترك المعصية[2].

وعن الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به[3].

وعن إبراهيم بن إسماعيل بن مُجَمِّع رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به[4].

وعن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: ما كتبت حديثًا إلا وقد عملت به حتى مَرَّ بي في الحديث أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احتجم وأعطى أبا طيبةَ دينارًا، فاحتجمتُ وأعطيتُ الحجَّامَ دينارًا[5].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله (١/٧٠٨)، (٢/١٠٣١)، المخلصيات (٢/٣١٠)، (٤/١٤٩)، فتح المغيث (٣/٢٨٢).

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص:٣٩).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (١/٧٠٨)، فتح المغيث (٣/ ٢٨٢).

(٤) شعب الإيمان [١٦٥٩، ١٧٤١]، اقتضاء العلم العمل، للخطيب (ص:٩٠)، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/٢٥٨)، الشذا الفياح (١/٤٠٦)، شرح التبصرة والتذكرة (٢/٤٣)، فتح المغيث (٢/٥٨٨). وزاد البيهقي والخطيب عن الحسن بن صالح أنه قال: كنا نستعين على طلبه بالصوم.

(٥) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/١٤٤)، سير أعلام النبلاء (١١/٢١٣)، (١١/٢٩٦)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (٥/١٠٢٣)، الشذا الفياح (١/٤٠٦)، شرح التبصرة والتذكرة (٢/٤٣)، فتح المغيث (٣/٢٨٣)، تدريب الراوي (٢/٥٨٨).

وقال بعض الحكماء: العلم خادم العمل، والعمل غاية العلم، فلولا العمل لم يطلب علم ولولا العلم لم يطلب عمل، ولأن أدع الحق جهلًا به أحب إلي من أن أدعه زهدًا فيه [١].

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العلم يهتف بالعمل فإن أجابه حل وإلا ارتحل [٢].

وقال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كانوا إذا أتوا الرَّجل ليأخذوا عنه نظروا إلى صلاته، وإلى سَمْتِهِ، وإلى هيئته، ثم يأخذون عنه [٣].

قال ابن السَّمَّاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كم من شيء إذا لم ينفع لم يضر، لكن العلم إذا لم ينفع ضر [٤].

وقال أبو عبد الله الروذباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من خرج إلى العلم يريد العلم لم ينفعه العلم، ومن خرج إلى العلم يريد العمل بالعلم نفعه قليل العلم [٥].

---

(١) اقتضاء العلم العمل (ص: ١٥).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/٧٠٦)، فتح المغيث (٣/٢٨٢). وفي (اقتضاء العلم العمل) (ص:٣٦)، وتاريخ دمشق (٥٦/٦٦) نحوه عن ابن المنكدر.

(٣) انظر: الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (٢/١٦)، صفة الصفوة (٢/٥٠)، التعديل والتجريح، لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، للباجي (١/٢٩١)، الآداب الشرعية، لابن مفلح (٢/١٤٩).

(٤) انظر: تاريخ بغداد (٧/٣٣٠)، سير أعلام النبلاء (٨/٣٢٩)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (٤/٩٥٩).

(٥) انظر: تاريخ بغداد (٥/٥٥٢)، تاريخ دمشق (٥/١٨).

وقال بعض العلماء: خير العلم ما نفع، وخير القول ما ردع. وقال بعض الأدباء: ثمرة العلوم العمل بالعلوم(١).

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والناس في العلم طبقات، موقعُهم من العلم بقدْر درجاتهم في العلم به. فحقَّ على طلبة العلم بلوغُ غاية جهدِهم في الاستكثار من علمه، والصبرُ على كل عارض دون طَلَبِه، وإخلاص النية لله عَزَّوَجَلَّ في استدراك علمه نصًّا واستنباطًا، والرغبة إلى الله في العون عليه؛ فإنه لا يُدرَك خيرٌ إلا بعونه. فإن من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصًّا واستدلالًا، ووفقه الله عَزَّوَجَلَّ للقول والعمل بما علِم منه: فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الرِّيَب، ونَوَّرت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة.

فنسأل اللهَ المبتدئَ لنا بنعمه قبل استحقاقها، المديمَها علينا مع تقصيرنا في الإتيان إلى ما أوجب به من شكره بها، الجاعِلَنا في خير أمة أخرجت للناس: أن يرزقنا فهمًا في كتابه، ثم سنة نبيه، وقولًا وعملًا يؤدي به عنا حقه، ويوجب لنا نافلة مزيدة"(٢).

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق: سفيان عن أبي حيان التيمي عن رجل قال: كان يقال العلماء ثلاثة: عالم بالله وعالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله، فالعالم بالله وبأمر الله: الذي يخشى الله جَلَّوَعَلَا ويعلم الحدود والفرائض. والعالم بالله عَزَّوَجَلَّ ليس بعالم بأمر الله: الذي يخشى الله، ولا يعلم الحدود ولا

---

(١) أدب الدنيا والدين (ص:٧٦).

(٢) الرسالة (ص:١٩).

الفرائض. والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله: الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله جَلَّ وَعَلَا(١).

وقد قيل: صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس: العلماء والأمراء.

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهـل أفسـد الدين إلا الملوك   وأحبـار سـوء ورهبـانها؟(٢)

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العلماء ثلاثة: عالم استنار بنوره واستنار به الناس، فهذا من خلفاء الرسل وورثة الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، وعالم استنار بنوره، ولم يستنر به غيره، فهذا إن لم يفرط كان نفعه قاصرًا على نفسه، فبينه وبين الأول ما بينهما، وعالم لم يستنر بنوره ولا استنار به غيره، فهذا علمه وبال عليه، وبسطته للناس فتنة لهم، وبسطة الأول رحمة لهم"(٣).

والحاصل أن العمل بالعلم من أعظم أسباب زيادة العلم وحفظه وثباته، وهو من التقوى، وهو أبلغُ وسائل الدعوة والتأثير في المدعوين. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾ [الأنفال:٢٩]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٣١٨٠/١٠)، وانظر: تفسير ابن كثير (٥٤٥/٦)، الدر المنثور (٢٠/٧)، تاريخ ابن معين (رواية الدوري) (٥٣٧/٣)، مجموع الفتاوى (٥٣٩/٧).

(٢) ديوان عبد الله بن المبارك (ص:٦٧).

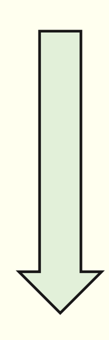
(٣) مدارج السالكين (٢٨٢/٣).

بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد:٢٨](١).

والعمل بالعلم من أسباب النجاة، وزيادة الحسنات، ورفعة الدرجات، ويقي الإنسان من سوء الخاتمة، ومن الخزي في الدنيا والآخرة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:١-٣]. وقد قرَنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بين الإيمانِ والعملِ في نصوص كثيرة. كما أن ترك العمل بالعلم إضاعه له، فما استدر العلم ولا استجلب بمثل العمل، فترك العمل من أسباب الضلال والإضلال، والعذاب في الآخرة.

وقد فصلت القول في ذلك في كتاب: (نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار).

وهذه إشارة إلى الموضوعات ذات الصلة مما تقدم تفصيل القول فيها:



(١) مفتاح دار السعادة (١/١٧٢).

طلب العلم وتحري الحق		
أهم الموضوعات ذات الصلة:		
محبة العلم والعلماء الربانيين.	ملازمة العلماء والأخذ عنهم.	اقتفاء أثر العلماء واتباع نهجهم في العلم والعمل.

الابتداع عقبة في طريق الهداية.	الوقاية من آفة الابتداع والعلاج.
المفاسد المترتبة على اتباع الهوى.	سبل الوقاية من هذا الداء والعلاج
مظاهر الإعراض عن الحق وأسبابه ومضاره.	الوقاية من خطر الإعراض والعلاج.
الشك من حيث كونه من المضلات عن الهداية.	الوقاية من هذا الداء والعلاج.
بيان خطورة الجهل وأقسامه.	الوقاية من آفات الجهل والعلاج.
التقليد وبيان المذموم منه.	الوقاية من آفة التقليد للآباء والأشياخ والعلاج.
أثر القدوة الحسنة في التبصير والهداية، وأثر القدوة السيئة في الإفساد والإضلال.	الوقاية من آفات القدوة السيئة والعلاج.
تبليغ العلم، وبيان آفات الكتمان ومضاره.	الوقاية من آفة الكتمان والعلاج.

التفريط في تحري الحق من المضلات عن الهداية.	الوقاية من آفات التفريط في تحري الحق والعلاج.
بيان خطورة الشُّبهات.	سبل الوقاية من الشبهات والعلاج.
خطورة الاغترار بكثرة دعاة الباطل وأهله.	سبل الوقاية من آفة الاغترار بكثرة أهل الباطل والعلاج.
مظاهر التقديس المذموم وآفاته وكونه من المضلات.	أسباب الوقاية من آفة التَّقديس المذموم والعلاج.
شيوع مفاهيم خاطئة للاستقامة.	الوقاية من آفات المفاهيم الخاطئة لمعنى الاستقامة والعلاج.
خطورة الافتتان بعلوم الفلسفة.	الوقاية من الافتتان بعلوم الفلسفة والعلاج.
اتباع الظن المنهي عنه.	الوقاية من آفات الظن المنهي عنه والعلاج.
السلامة من آفات النفس وأمراض القلوب.	الوقاية من من آفات النفس وأمراض القلوب.
فَقْد محبَّة الله تعالى ورسوله أو ضعفها أو تأخرها.	سبل الوقاية من آفات فَقْد محبَّة الله ورسوله والعلاج.
ضعف الهمة، والرضا عن النفس من حيث كونه عقبة.	أسباب الوقاية من آفة الرضا عن النفس والعلاج.

البيئة الصالحة.	الوقاية من آفات البيئة الفاسدة والتربية السيئة والعلاج.
الفتور من أسباب الضلال.	وسائل الوقاية والتحرر مما يعتري السالكين من الفتور.
التأني في الحكم على الأشياء.	سبل الوقاية من التسرع في الحكم دون تبصر وروية والعلاج.
تفرق السبل وبيان كونه عقبة في طريق الهداية.	الوقاية من آفة تفرق السبل والعلاج.
الغزو الفكري، وهيمنة ثقافاته على أكثر وسائل الإعلام.	الوقاية من آفة الغزو الفكري وإمداداته السرطانية والعلاج.
أهمية العمل بالعلم، وبيان خطورة ترك العمل.	الوقاية من الآفات في هذا الباب والعلاج.
من كتاب: ١ - المحبة صورها وأحكامها في ضوء الكتاب والسنة. ٢ – عقبات في طريق الهداية. ٣ – نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار.	

نهاية الجزء الثاني

والكتاب



فهرس المصادر والمراجع

١. أبواب السعادة في أسباب الشهادة، لجلال الدين السيوطي، ط:٢، المكتبة القيمة، القاهرة [١٤٠٧هـ].

٢. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، لأبي العباس شهاب الدين البوصيري، ط:١، دار الوطن، الرياض [١٤٢٠هـ].

٣. إتمام الدراية لقراء النقاية، للسيوطي، تحقيق: د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، د. عبد الرقيب صالح الشامي، وفضيلة الشيخ مصطفى محمود سليخ، دار الضياء، الكويت [١٤٣٧هـ].

٤. آثار ابن باديس، دار ومكتبة الشركة الجزائرية [١٣٨٨هـ].

٥. الاجتهاد، للجويني، دار القلم، دارة العلوم الثقافية، دمشق، بيروت [١٤٠٨هـ].

٦. الإجماع، لابن المنذر، ط:١، دار الآثار للنشر والتوزيع، القاهرة [١٤٢٥هـ].

٧. إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد، مطبعة السنة المحمدية، بدون تاريخ.

٨. أحكام الجنائز، لإبراهيم بن يوسف البولوي، ومعه: تنوير المستبصر الفائز ببيان أحكام الجنائز، تحقيق ودراسة وشرح: د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، مصطفى محمود سليخ، دار الضياء، الكويت [١٤٣٥هـ].

٩. الأحكام الشرعية الكبرى، لابن الخراط، ط:١، مكتبة الرشد، الرياض [١٤٢٢هـ].

١٠. أحكام القرآن، لابن الفرس الأندلسي، ط:١، دار ابن حزم، بيروت [١٤٢٧هـ].

١١. أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].

١٢. أحكام القرآن، للكيا الهراسي الشافعي، ط:٢، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].

١٣. أحكام أهل الذمة، لابن القيم، ط:١، رمادى للنشر، الدمام [١٤١٨هـ].

١٤. إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.

١٥. أخبار الشيوخ وأخلاقهم، لأبي بكر المرُّوذي، دار البشائر الإسلامية، بيروت [١٤٢٦هـ].

١٦. الاختيار لتعليل المختار، لعبد الله بن محمود الموصلي الحنفي مطبعة الحلبي، القاهرة [١٣٥٦هـ].

١٧. أخلاق العلماء، للآجري، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية.
١٨. الأخلاق والسير في مداواة النفوس، لابن حزم، ط:٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت [١٣٩٩هـ].
١٩. آداب الشافعي ومناقبه، لأبي محمد عبد الرحمن الرازي ابن أبي حاتم، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
٢٠. الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح، عالم الكتب.
٢١. آداب الفتوى والمفتي والمستفتي، للإمام النووي، دار الفكر، دمشق [١٤٠٨].
٢٢. آداب النفوس، للحارث المحاسبي، دار الجيل، بيروت.
٢٣. أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، دار مكتبة الحياة، بدون طبعة [١٩٨٦م].
٢٤. أدب الطلب ومنتهى الأرب، للشوكاني، دار ابن حزم، لبنان [١٤١٩هـ].
٢٥. أدب المفتي والمستفتي، لابن الصلاح، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة [١٤٢٣هـ].
٢٦. الأذكار، للإمام النووي، دار الفكر، بيروت [١٤١٤هـ].
٢٧. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، لأحمد بن محمد القسطلاني، المطبعة الأميرية، مصر [١٣٢٣هـ]
٢٨. إرشاد الفحول، محمد بن علي الشوكاني، دار الكتاب العربي [١٤١٩هـ].
٢٩. الإرشاد الى قواطع الادلة في أصول الاعتقاد، لإمام الحرمين الجويني، دار السعادة، مصر [١٣٦٩هـ].
٣٠. أساس البلاغة، للزمخشري، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٩هـ].
٣١. أساليب الخطاب في القرآن لكريم، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، وزارة الأوقاف، الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ].
٣٢. الاستذكار، لابن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢١هـ].
٣٣. الاستقامة، لابن تيمية، جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة [١٤٠٣هـ].
٣٤. استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس، لأبي الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي، دار الصحابة للتراث بطنطا [١٤١١هـ].
٣٥. أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].

٣٦. أسنى المطالب في شرح روض الطالب، لزكريا الأنصاري، دار الكتاب الإسلامي، بدون طبعة وبدون تاريخ.

٣٧. الأشباه والنظائر، لابن نجيم، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٩هـ].

٣٨. الأشباه والنظائر، لتاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، ط:١، دار الكتب العلمية [١٤١١هـ].

٣٩. الأشباه والنظائر، لجلال الدين السيوطي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١١هـ].

٤٠. الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].

٤١. أصناف المغرورين، لأبي حامد الغزالي، مكتبة القرآن للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.

٤٢. إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين، للدمياطي، دار الفكر [١٤١٨هـ].

٤٣. الاعتصام، للشاطبي، دار ابن عفان، السعودية [١٤١٢هـ].

٤٤. أعلام الحديث، لأبي سليمان الخطابي، ط:١، جامعة أم القرى، مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي [١٤٠٩هـ].

٤٥. إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١١هـ].

٤٦. الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملقن، ط:١، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية [١٤١٧هـ].

٤٧. الأعمال الكاملة للجنيد البغدادي (تاج العارفين)، ط:٢، دار الشروق، القاهرة [١٤٢٦هـ].

٤٨. الأعمال الكاملة لمحمد عبده وجمال الدين الأفغاني، للأستاذ الدكتور محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة [١٩٦٨م].

٤٩. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن قيم الجوزية، مكتبة المعارف، الرياض.

٥٠. آفات اللسان وسبل الوقاية والعلاج منها، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط:١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت [١٤٤٠هـ].

٥١. الإفساد في الأرض صوره وأسبابه وسبل الوقاية منه، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط:١، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ].

٥٢. اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي، ط:٤، المكتب الإسلامي، بيروت [١٣٩٧هـ].

٥٣. الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع، للخطيب الشربيني، دار الفكر، بيروت.
٥٤. الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل، لموسى بن أحمد الحجاوي المقدسي، ثم الصالحي، دار المعرفة، بيروت.
٥٥. الإكليل في استنباط التنزيل، للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠١هـ].
٥٦. الإكليل في المتشابه والتأويل، لابن تيمية، دار الإيمان للطبع والنشر، الإسكندرية، مصر.
٥٧. إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، للقاضي عياض، تحقيق: الأستاذ الدكتور يحيى إسماعيل، دار الوفاء، المنصورة، مصر [١٤١٩هـ].
٥٨. الإلماع، للقاضي عياض، دار التراث، المكتبة العتيقة، القاهرة/تونس [١٣٧٩هـ].
٥٩. أمراض القلب وشفاؤها، لابن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة [١٣٩٩هـ].
٦٠. أهوال القبور، لابن رجب، ط:١، دار الغد الجديد، المنصورة، مصر [١٤٢٦هـ].
٦١. إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، لإسماعيل بن محمد أمين البابابي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٦٢. الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة، لابن الجوزي، مكتبة مدبولي، القاهرة [١٤١٥هـ].
٦٣. إيقاظ الهمم في شرح الحكم، لابن عجيبة، دار المعارف، القاهرة.
٦٤. إيقاظ همم أولي الأبصار، لصالح بن محمد العمري المعروف بالفلاني المالكي، دار المعرفة، بيروت.
٦٥. الباعث على إنكار البدع والحوادث، لأبي شامة، دار الهدى، القاهرة.
٦٦. البحار الزاخرة في أسباب المغفرة، للدكتور السيد بن حسين العفاني، ط:١، مكتبة ابن تيمية، ومكتبة العلم بجدة [١٤١٧هـ].
٦٧. بحر الدموع، لابن الجوزي، دار الفجر للتراث [١٤٢٥هـ].
٦٨. البحر الرائق شرح كنز الدقائق، لابن نجيم، ط:٢، دار الكتاب الإسلامي، بدون تاريخ.
٦٩. بحر الكلام، لميمون بن محمد النسفي، ط:٢، مكتبة دار الفرفور، دمشق [١٤٢١هـ].
٧٠. البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي، ط:١، دار الكتبي [١٤١٤هـ].
٧١. بداية الهداية، لأبي حامد الغزالي، مكتبة مدبولي، القاهرة [١٤١٣هـ].
٧٢. البداية والنهاية، لابن كثير، دار إحياء التراث العربي [١٤٠٨هـ].

٧٣. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، علاء الدين، أبو بكر بن مسعود الكاساني، ط:٢، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٦هـ].

٧٤. بدائع الفوائد، لابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت.

٧٥. بذل الماعون في فضل الطاعون، لابن حجر العسقلاني، دار العاصمة، الرياض.

٧٦. البر والصلة، لأبي عبد الله المروزي، ط:١، دار الوطن، الرياض [١٤١٩هـ].

٧٧. بريقة محمودية، لأبي سعيد محمد بن محمد بن مصطفى الخادمي الحنفي، مطبعة الحلبي [١٣٤٨هـ].

٧٨. بستان العارفين، للإمام النووي، دار الريان للتراث.

٧٩. بشرى الكئيب بلقاء الحبيب، لجلال الدين السيوطي، ط١، دار يعرب للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق [١٤٢٥هـ].

٨٠. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزآبادي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة [١٣٩٣هـ].

٨١. بصائر للمسلم المعاصر، لعبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق.

٨٢. بلغة السالك لأقرب المسالك المعروف بحاشية الصاوي على الشرح الصغير، لأبي العباس أحمد بن محمد الخلوتي، الشهير بالصاوي، دار المعارف، بدون تاريخ.

٨٣. البناية شرح الهداية، لبدر الدين العيني، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان [١٤٢٠هـ].

٨٤. بهجة النفوس شرح مختصر البخاري، لابن أبي جمرة، ط:١، مطبعة الصدق الخيرية، القاهرة.

٨٥. البيان في مذهب الإمام الشافعي، لأبي الحسين يحيى بن أبي الخير العمراني، ط:١، دار المنهاج، جدة [١٤٢١هـ].

٨٦. البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، لأبي الوليد ابن رشد القرطبي، ط:٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٤٠٨هـ].

٨٧. التاج والإكليل لمختصر خليل، لأبي عبد الله محمد بن يوسف العبدري الغرناطي، المواق المالكي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٦هـ].

٨٨. تاريخ ابن معين (رواية الدوري)، لأبي زكريا يحيى بن معين، ط:١، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة [١٣٩٩هـ].

٨٩. تاريخ إربل، للمبارك بن أحمد اللخمي الإربلي، المعروف بابن المستوفي، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، العراق [١٩٨٠م].
٩٠. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤١٣هـ].
٩١. تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة [١٣٥٤هـ].
٩٢. التاريخ الكبير، لمحمد بن إسماعيل البخاري، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد.
٩٣. تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٤٢٢هـ].
٩٤. تاريخ دمشق، لابن عساكر، دار الفكر [١٤١٥هـ].
٩٥. تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت.
٩٦. تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، لإبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين، ط:١، مكتبة الكليات الأزهرية [١٤٠٦هـ].
٩٧. التبصرة، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٦هـ].
٩٨. التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، دار ابن حزم، بيروت [١٤١٤هـ].
٩٩. تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، للزيلعي، ط:١، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، القاهرة [١٣١٣هـ].
١٠٠. التحبير شرح التحرير في أصول الفقه، لعلاء الدين المرداوي، ط:١، مكتبة الرشد، الرياض [١٤٢١هـ].
١٠١. تحرير ألفاظ التنبيه، للإمام النووي، ط:١، دار القلم، دمشق [١٤٠٨هـ].
١٠٢. التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية [١٩٨٤هـ].
١٠٣. تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، للقاضي البيضاوي، ط: وزارة الأوقاف الكويت.
١٠٤. تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج، لابن الملقن، ط:١، دار حراء، مكة المكرمة [١٤٠٦هـ].
١٠٥. تحفة المحتاج في شرح المنهاج، لابن حجر الهيتمي، المكتبة التجارية الكبرى، بدون طبعة [١٣٥٧هـ].
١٠٦. تحفة المودود بأحكام المولود، لابن القيم، مكتبة دار البيان، دمشق [١٣٩١هـ].
١٠٧. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، لجلال الدين السيوطي، ط:١، دار طيبة، الرياض [١٤٢٧هـ].

١٠٨. تذكرة الحفاظ، للذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٩هـ].

١٠٩. التذكرة الحمدونية، لمحمد بن الحسن بن حمدون، دار صادر، بيروت [١٤١٧هـ].

١١٠. تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، للقاضي بدر الدين محمد بن إبراهيم ابن جماعة الكناني الشافعي، دار البشائر الإسلامية، بيروت [١٤٣٣هـ].

١١١. التذكرة الفخرية، للصاحب بهاء الدين الإربلي، ط١، دار البشائر، دمشق [١٤٢٥هـ].

١١٢. التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، لأبي عبد الله القرطبي، ط:١، دار المنهاج، الرياض [١٤٢٥هـ].

١١٣. التذكرة في الوعظ، لابن الجوزي، دار المعرفة، بيروت [١٤٠٦هـ].

١١٤. تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير، لأبي الحسن علي بن أحمد الحَرَالِّي الأندلسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط [١٤١٨هـ].

١١٥. الترغيب والترهيب، للمنذري، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٧هـ].

١١٦. تسلية أهل المصائب، لمحمد بن محمد، شمس الدين المنبجي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٦هـ].

١١٧. تشنيف المسامع بجمع الجوامع، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، ط:١، مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث، توزيع المكتبة المكية [١٤١٨هـ].

١١٨. التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه، ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، الشركة التونسية للتوزيع [١٩٧٩م].

١١٩. التعديل والتجريح، لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، لأبي الوليد الباجي، ط:١، دار اللواء للنشر والتوزيع، الرياض [١٤٠٦هـ].

١٢٠. التعريفات، للجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣هـ].

١٢١. تعظيم قدر الصلاة، لأبي عبد الله محمد بن نصر المَرْوَزِي، ط:١، مكتبة الدار، المدينة المنورة [١٤٠٦هـ].

١٢٢. تغليق التعليق، لابن حجر، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، عمان/الأردن [١٤٠٥هـ].

١٢٣. تفسير ابن أبي حاتم، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض [١٤١٩هـ].

١٢٤. تفسير ابن باديس، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٦هـ].

١٢٥. تفسير ابن عادل (اللباب في علوم الكتاب)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت [١٤١٩هـ].

١٢٦. تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، طبع دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٣هـ].
١٢٧. تفسير ابن فورك، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية [١٤٣٠هـ].
١٢٨. تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٢٩. تفسير البحر المحيط، لأبي حيان، دار الفكر، بيروت [١٤٢٠هـ].
١٣٠. تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٢٠هـ].
١٣١. تفسير البقاعي (نظم الدرر)، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].
١٣٢. تفسير البيضاوي، دار الفكر، بيروت [١٤١٦].
١٣٣. تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
١٣٤. تفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن)، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٢٢هـ].
١٣٥. تفسير الثوري، لأبي عبد الله سفيان بن سعيد الثوري الكوفي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣هـ].
١٣٦. تفسير الثوري، لأبي عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣هـ].
١٣٧. تفسير الراغب الأصفهاني، جزء:١، ط:١، كلية الآداب، جامعة طنطا [١٤٢٠هـ]، جزء:٢، ٣، ط:١، دار الوطن، الرياض [١٤٢٤هـ]، جزء:٤، ٥، ط:١، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى [١٤٢٢هـ].
١٣٨. تفسير الزمخشري (الكشاف)، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤٠٧هـ].
١٣٩. تفسير السيوطي (الدر المنثور)، دار الفكر، بيروت [١٩٩٣].
١٤٠. تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)، مؤسسة الرسالة [١٤٢٠هـ].
١٤١. تفسير القاسمي (محاسن التأويل)، دار الكتب العلميه، بيروت [١٤١٨هـ].
١٤٢. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع [١٤٢٠هـ].
١٤٣. التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة.
١٤٤. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، دار الشعب، القاهرة [١٣٧٢].

١٤٥. تفسير القشيري (لطائف الإشارات)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

١٤٦. التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، لفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مصورة عن النسخة الأصلية من المطبعة البهية المصرية [١٣٠٢هـ].

١٤٧. تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر [١٣٦٥هـ].

١٤٨. التفسير المسند، للإمام أبي بكر بن موسى بن مردويه، ط:١، دار ابن عساكر [١٤٤٢هـ].

١٤٩. تفسير المنار، لمحمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب [١٩٩٠م].

١٥٠. تفسير المهايمي (تبصير الرحمن وتيسير المنان)، طبعة بولاق بمصر.

١٥١. تفسير النسفي، دار الكلم الطيب، بيروت [١٤١٩هـ].

١٥٢. تفسير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، دار الكتب العلميه، بيروت [١٤١٦هـ]

١٥٣. تفسير آيات الأحكام، محمد علي السايس، المكتبة العصرية [٢٠٠٢].

١٥٤. تفسير غريب ما في الصحيحين، لأبي عبد الله الحَمِيدي، ط:١، مكتبة السنة، القاهرة [١٤١٥هـ].

١٥٥. تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، للراغب الأصفهاني، دار مكتبة الحياة، بيروت [١٩٨٣م].

١٥٦. تقريب التهذيب، لابن حجر، ط:١، دار الرشيد، سوريا [١٤٠٦هـ].

١٥٧. التقرير والتحبير لأبي عبد الله، شمس الدين ابن أمير حاج، ط:٢، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣هـ].

١٥٨. تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أفعال الجاهلين، لابن النحاس الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٧هـ].

١٥٩. التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح، لأبي عبد الله محمد بن بهادر الزركشي، ط:١، مكتبة الرشد، الرياض [١٤٢٤هـ].

١٦٠. تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، للسيوطي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر [١٣٨٩هـ].

١٦١. التنوير شرح الجامع الصغير، محمد بن إسماعيل الصنعاني، مكتبة دار السلام، الرياض [١٤٣٢هـ].

١٦٢. تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار، لابن جرير الطبري، مطبعة المدني، القاهرة.

١٦٣. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، لابن مسكويه، مكتبة الثقافة الدينية، مصر.

١٦٤. تهذيب الأسماء، للنووي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٦٥. تهذيب التهذيب، لابن حجر، دار الفكر، بيروت [١٤٠٤].

١٦٦. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٠هـ].

١٦٧. تهذيب اللغة، للأزهري، دار إحياء التراث العربي، بيروت [٢٠٠١م].

١٦٨. التوابين، لابن قدامة المقدسي، دار ابن حزم [١٤٢٤هـ].

١٦٩. التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، عالم الكتب، القاهرة [١٤١٠هـ].

١٧٠. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة [١٤٢٠هـ].

١٧١. الثبات عند الممات، لابن الجوزي، ط:١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت [١٤٠٦هـ].

١٧٢. جامع العلوم والحكم، لابن رجب، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٢٢هـ].

١٧٣. جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية [١٤١٤هـ].

١٧٤. الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم، مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند [١٢٧١هـ].

١٧٥. جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، دار نهضة مصر للطباعة، القاهرة.

١٧٦. الجنة والنار، لعمر بن سليمان الأشقر، دار النفائس، الأردن [١٤١٨هـ].

١٧٧. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية، دار العاصمة، السعودية [١٤١٩هـ].

١٧٨. الجواب الكافي، لابن قيم الجوزية، دار المعرفة، المغرب [١٤١٨هـ].

١٧٩. جواهر القرآن، لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، بيروت [١٤٠٦هـ].

١٨٠. الجوهرة النيرة، لأبي بكر بن علي الحدادي العبادي الزَّبِيدِي، ط:١، المطبعة الخيرية [١٣٢٢هـ].

١٨١. حاشية البجيرمي على الخطيب، دار الفكر [١٤١٥هـ].

١٨٢. حاشية الجمل على المنهج لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، سليمان الجمل، دار الفكر، بيروت، بلا تاريخ.

١٨٣. حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، لابن عرفة الدسوقي المالكي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

١٨٤. حاشية السندي على سنن ابن ماجه، دار الجيل، بيروت، بدون طبعة.

١٨٥. حاشية السندي على سنن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب [١٤٠٦هـ].

١٨٦. حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي (نواهد الأبكار وشوارد الأفكار)، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية [١٤٢٤هـ].

١٨٧. حاشية السيوطي على سنن النسائي، ط:٢، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب [١٤٠٦هـ].

١٨٨. حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت.

١٨٩. حاشية الشيخ محمد الشنواني على مختصر ابن أبي جمرة، مصطفى البابي الحلبي، مصر [١٣٥٣هـ].

١٩٠. حاشيتا قليوبي وعميرة، دار الفكر، بيروت [١٤١٥هـ].

١٩١. الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، لأبي الحسن الماوردي ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٩هـ].

١٩٢. الحاوي للفتاوي، للسيوطي، دار الفكر، بيروت [١٤٢٤هـ].

١٩٣. الحجة للقراء السبعة، لأبي علي الفارسي، ط:٢، دمشق/بيروت [١٤١٣هـ].

١٩٤. الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، لزكريا الأنصاري، ط:١، دار الفكر المعاصر، بيروت [١٤١١هـ].

١٩٥. الحدود في الأصول، لأبي الوليد الباجي، ط:١، مؤسسة الزعبي، بيروت، حمص [١٣٩٢هـ]

١٩٦. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني، دار السعادة، مصر [١٣٩٤هـ].

١٩٧. حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء، لأبي بكر الشاشي القفال، مؤسسة الرسالة، دار الأرقم، بيروت، عمان [١٩٨٠م].

١٩٨. الحماسة البصرية، لعلي بن أبي الفرج، عالم الكتب، بيروت.

١٩٩. الحوادث والبدع، لأبي شامة، مطبعة النهضة الحديثة بمكة [١٤٠١هـ].

٢٠٠. الحيوان، للجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].

٢٠١. خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي، دار ومكتبة الهلال، بيروت [٢٠٠٤م].

٢٠٢. الخيانة صورها وأحكامها وآثارها في ضوء الكتاب والسنة، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط:١، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]،

٢٠٣. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، دار القلم، دمشق.

٢٠٤. الدر المنضود في الصلاة والسلام على صاحب المقام المحمود، لابن حجر الهيتمي، ط:١، دار المنهاج، جدة [١٤٢٦هـ].

٢٠٥. درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، السعودية [١٤١١هـ].

٢٠٦. درر الحكام شرح غرر الأحكام، لملا خسرو، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، بدون طبعة، وبدون تاريخ.

٢٠٧. درر المعرفة من تفسير الإمام ابن عرفة، جمعها: نزار حمادي، دار الإمام ابن عرفة، تونس، ودار الضياء في الكويت [١٤٣٤هـ].

٢٠٨. دستور العلماء، دار الكتب العلمية، لبنان [١٤٢١هـ].

٢٠٩. دقائق أولي النهى لشرح المنتهى المعروف بشرح منتهى الإرادات، لمنصور بن البهوتي الحنبلي، عالم الكتب [١٤١٤هـ].

٢١٠. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، لأبي بكر البيهقي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].

٢١١. دلائل النبوة، للبيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].

٢١٢. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي بن علان البكري، دار المعرفة، بيروت [١٤٢٥هـ].

٢١٣. الديباج على صحيح مسلم، للسيوطي، دار ابن عفان، المملكة العربية السعودية [١٤١٦هـ].

٢١٤. ديوان ابن المعتز، دار صادر، بيروت، من غير تاريخ.

٢١٥. ديوان أبي الطيب المتنبي مع العرف الطيب، لليازجي، دار الأرقم، بيروت.

٢١٦. ديوان أبي العتاهية، ط:١، دار بيروت للطباعة والنشر [١٤٠٦هـ].

٢١٧. ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت [١٤٠٣هـ].

٢١٨. ديوان امرئ القيس، دار المعرفة، بيروت [١٤٢٥هـ].

٢١٩. ديوان بشار بن برد، مجمع اللغة العربية بمصر [١٣٧٣ هـ، ١٣٧٦هـ، ١٣٨٦هـ]، والجزء (١): صدر هذا الكتاب من وزارة الثقافة، بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية [٢٠٠٧]، والجزء (٢، ٣، ٤)، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

٢٢٠. ديوان طرفة بن العبد، ط:٣، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٣هـ].

٢٢١. ديوان مالك بن الريب، مستل من مجلة معهد المخطوطات العربية، مج ١٥، ج:١، تحقيق: د. نوري القيسي.

٢٢٢. الذخيرة، للقرافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٩٩٤م].
٢٢٣. الذريعة إلى مكارم الشريعة، لأبي القاسم الراغب الأصفهاني، دار السلام، القاهرة [١٤٢٨هـ].
٢٢٤. ذم الهوى، لابن الجوزي، نسخة مصطفى عبد الواحد.
٢٢٥. رد المحتار على الدر المختار، لابن عابدين، دار الفكر، بيروت [١٤١٢هـ].
٢٢٦. الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب، لمحمد بن محمود بن أحمد البابرتي، ط:١، مكتبة الرشد [١٤٢٦هـ].
٢٢٧. الرسالة القشيرية، لعبد الكريم بن هوازن القشيري، دار المعارف، القاهرة.
٢٢٨. الرسالة، للإمام الشافعي، مكتبه الحلبي، القاهرة [١٣٥٨هـ].
٢٢٩. رسائل الجنيد البغدادي، ط:١، دار اقرأ، دمشق/بيروت [١٤٢٥هـ].
٢٣٠. الرعاية لحقوق الله، لأبي عبد الله الحارث المحاسبي، ط:٤، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٣١. روح المعاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].
٢٣٢. الروح، لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٣٣. روضة الطالبين وعمدة المفتين، للإمام النووي، ط:٣، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان [١٤١٢هـ].
٢٣٤. روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لأبي حاتم محمد بن حبان، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٣٥. روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣هـ].
٢٣٦. زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤٢٢هـ].
٢٣٧. زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٥هـ].
٢٣٨. الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، لأبي منصور الأزهري الهروي، دار الطلائع.
٢٣٩. الزهد والرقائق، لابن المبارك، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٤٠. الزهد والورع والعبادة، لابن تيمية، مكتبة المنار، الأردن [١٤٠٧هـ].
٢٤١. زهر الأكم في الأمثال والحكم، للحسن بن مسعود بن محمد، نور الدين اليوسي، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب [١٤٠١هـ].
٢٤٢. الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي، دار الفكر [١٤٠٧هـ].

٢٤٣. سبل السلام، للصنعاني، دار الحديث، القاهرة، بدون طبعة وبدون تاريخ.
٢٤٤. سبل الهدى والرشاد، لمحمد بن يوسف الصالحي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٤هـ].
٢٤٥. سبيل الوصول إلى عنوان الأصول (في الأصول)، وهو شرح وتحقيق ودراسة لعنوان الأصول في أصول الفقه، لأبي حامد المطرزي. مطبوع في دار الضياء، الكويت، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ومصطفى محمود سليخ، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].
٢٤٦. السراج المنير، للخطيب الشربيني الشافعي، مطبعة بولاق (الأميرية)، القاهرة [١٢٨٥هـ].
٢٤٧. السراج الوهاج على متن المنهاج، لمحمد الزهري الغمراوي، دار المعرفة، بيروت.
٢٤٨. سير أعلام النبلاء، للذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٣هـ].
٢٤٩. سير السلف الصالحين، لإسماعيل بن محمد الأصبهاني، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.
٢٥٠. سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، لعبد الله بن عبد الحكم، ط:٦، عالم الكتب بيروت [١٤٠٤هـ].
٢٥١. شجرة المعارف، عز الدين بن عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
٢٥٢. الشذا الفياح، لإبراهيم بن موسى، مكتبة الرشد [١٤١٨هـ].
٢٥٣. شرح ابن عباد على الحكم، مركز الأهرام، القاهرة [١٤٠٨هـ].
٢٥٤. شرح ابن عباد على الحكم، مركز الأهرام، القاهرة [١٤٠٨هـ].
٢٥٥. شرح الأربعين النووية، لعبد الرؤوف الْمُناوي، رسالة: ماجستير في كلية الحديث الشريف والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة [١٤٣٦هـ].
٢٥٦. شرح التبصرة والتذكرة (ألفية العراقي)، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٣هـ].
٢٥٧. شرح التلويح على التوضيح، لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، مكتبة صبيح، القاهرة، بدون طبعة.
٢٥٨. شرح الحكم العطائية، للشرنوبي، ط:٢، دار ابن كثير، دمشق/بيروت [١٤١٠هـ].
٢٥٩. شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، ط:١، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة [١٤٢٤هـ].
٢٦٠. شرح الزركشي على مختصر الخرقي، ط:١، دار العبيكان، الرياض [١٤١٣هـ].
٢٦١. شرح السنة، للبغوي، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت [١٤٠٣هـ].

٢٦٢. شرح الشيخ زكريا الأنصاري للرسالة القشيرية مع حاشية نتائج الأفكار القدسية، للشيخ مصطفى العروسي، دار الطباعة، القاهرة أوائل رجب من سنة ألفو تسعين ومائتين من هجرة سيد الكونين.

٢٦٣. شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، لجلال الدين السيوطي، ط:١، دار المعرفة، بيروت [١٤١٧هـ].

٢٦٤. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن)، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة، الرياض) [١٤١٧هـ].

٢٦٥. شرح الكوكب المنير، لأبي البقاء محمد بن أحمد الفتوحي، مكتبة العبيكان [١٤١٨هـ].

٢٦٦. الشرح الممتع على زاد المستقنع، لمحمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي [١٤٢٢هـ].

٢٦٧. شرح رياض الصالحين، لمحمد بن صالح العثيمين، دار الوطن، الرياض [١٤٢٦هـ].

٢٦٨. شرح شعر المتنبي، لابن الإفليلي، ط:١، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٢هـ].

٢٦٩. شرح شواهد المغني، للسيوطي، منشورات دار الحياة، بيروت، بلا تاريخ.

٢٧٠. شرح صحيح البخاري، لابن بطال، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض [١٤٢٣هـ].

٢٧١. شرح مختصر خليل للخرشي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

٢٧٢. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، دار الفيحاء، عمان [١٤٠٧هـ].

٢٧٣. شفاء العليل، لابن القيم، دار المعرفة، بيروت، [١٣٩٨هـ].

٢٧٤. الصحاح، للجوهري الفارابي، ط:٤، دار العلم للملايين، بيروت [١٤٠٧هـ].

٢٧٥. صفة الجنة، لأبي نعيم الأصبهاني، دار المأمون، دمشق.

٢٧٦. صفة الصفوة، لابن الجوزي، دار الحديث، القاهرة [١٤٢١هـ].

٢٧٧. صفحات مشرقة من حياة السلف، سفيان الثوري، لأبي ياسر الزهراني، دار الخضيري، المدينة النبوية المنورة.

٢٧٨. صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، لعبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب.

٢٧٩. الصوم تربية وجهاد، د. محمد عبد الله دراز، ط١، تحقيق أحمد مصطفى فضيلة، تقديم حسنين محمد مخلوف، دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة.

٢٨٠. الصوم تربية وجهاد، د. محمد عبد الله دراز، ط١، تحقيق أحمد مصطفى فضيلة، تقديم حسنين محمد مخلوف، دار القلم للنشر والتوزيع، القاهرة.

٢٨١. صيد الخاطر، لابن الجوزي، دار القلم، دمشق [١٤٢٥هـ].

٢٨٢. طبقات الأولياء، لابن الملقن، ط:٢، مكتبة الخانجي، بالقاهرة [١٤١٥هـ].

٢٨٣. طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع [١٤١٣هـ].

٢٨٤. طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة، عالم الكتب، بيروت [١٤٠٧هـ].

٢٨٥. طبقات الشافعيين، لابن كثير، مكتبة الثقافة الدينية [١٤١٣هـ].

٢٨٦. الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٠هـ].

٢٨٧. الطبقات الكبرى، للشعراني، مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، مصر [١٣١٥هـ].

٢٨٨. طرح التثريب في شرح التقريب، لأبي الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي، وأكمله ابنه، الطبعة المصرية القديمة.

٢٨٩. طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب، لعبد العزيز الدريني، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].

٢٩٠. عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، لابن العربي المالكي، ودار الكتب العلمية، بيروت، من غير تاريخ.

٢٩١. عالم الجن والشياطين، للدكتور عمر بن سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت [١٤٠٤هـ].

٢٩٢. العبر في خبر من غبر، للذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٩٣. العبودية، لابن تيمية، ط:٧، المكتب الإسلامي، بيروت [١٤٢٦هـ].

٢٩٤. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن قيم الجوزية، دار ابن كثير، دمشق [١٤٠٩هـ].

٢٩٥. عقبات في طريق الهداية، وسبل الوقاية منها، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط:٢، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ].

٢٩٦. العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٤هـ].

٢٩٧. العلم، لمحمد بن صالح العثيمين، مكتبة نور الهدى، المملكة العربية السعودية.

٢٩٨. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٩٩. عنوان الدليل، لأبي العباس ابن البناء المراكشي، ط:١، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٩٩٠م].

٣٠٠. العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، لابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٥هـ].

٣٠١. عيون الأخبار، لابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].

٣٠٢. غاية البيان شرح زبد ابن رسلان، لشمس الدين الرملي، دار المعرفة، بيروت.

٣٠٣. غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، للسفاريني الحنبلي، مؤسسة قرطبة، مصر [١٤١٤هـ].

٣٠٤. الغرر البهية في شرح البهجة الوردية، لزكريا الأنصاري، المطبعة الميمنية، القاهرة، بدون تاريخ.

٣٠٥. غريب الحديث، لابن قتيبة الدينوري، مطبعة العاني، بغداد [١٣٩٧هـ].

٣٠٦. غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي، دار الفكر [١٤٠٢هـ].

٣٠٧. غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام، ط:١، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الدكن [١٣٨٤هـ].

٣٠٨. غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، لأبي العباس أحمد بن محمد مكي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].

٣٠٩. الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشري، ط:٢، دار المعرفة، لبنان.

٣١٠. الفتاوى الحديثية، لابن حجر الهيتمي، دار الفكر، من غير تاريخ.

٣١١. الفتاوى الفقهية الكبرى، لأحمد بن محمد بن حجر الهيتمي، المكتبة الإسلامية.

٣١٢. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، دار المعرفة، بيروت [١٣٧٩هـ].

٣١٣. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية [١٤١٧هـ].

٣١٤. فتح البيان في مقاصد القرآن، لمحمد صديق خان، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت [١٤١٢هـ].

٣١٥. فتح المغيث، للسخاوي، مكتبة السنة، مصر [١٤٢٤هـ].

٣١٦. الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية، لابن علان، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].

٣١٧. فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب المعروف بحاشية الجمل، دار الفكر، بدون تاريخ.

٣١٨. الفروع، لابن مفلح الحنبلي، مؤسسة الرسالة [١٤٢٤هـ].

٣١٩. الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق)، لأبي العباس شهاب الدين القرافي، عالم الكتب، بيروت، بدون طبعة.

٣٢٠. الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، طبعة دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.
٣٢١. فضائل القرآن، لأبي العباس المستغفري، ط:١، دار ابن حزم، بيروت [٢٠٠٨م].
٣٢٢. فضائل القرآن، لأبي عُبيد القاسم بن سلام، ط:١، دار ابن كثير، دمشق/بيروت [١٤١٥هـ].
٣٢٣. فضيلة العادلين من الولاة، لأبي نعيم، ط:١، دار الوطن، الرياض [١٤١٨هـ].
٣٢٤. الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، لأحمد بن غنيم النفراوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
٣٢٥. الفوائد، لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت [١٣٩٣هـ].
٣٢٦. فيض القدير شرح الجامع الصغير، لعبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر [١٣٥٦].
٣٢٧. قاعدة في المحبة، لابن تيمية، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.
٣٢٨. قصيدة عنوان الحكم، لأبي الفتح علي بن محمد البُسْتي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط:١، [١٤٠٤هـ].
٣٢٩. قواطع الأدلة في الأصول، لأبي المظفر السمعاني، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].
٣٣٠. قواعد الأحكام في مصالح الأنام، لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٣١. قواعد الفقه، للبركتي، الصدف ببلشرز، كراتشي [١٤٠٧هـ].
٣٣٢. القواعد والفوائد الأصولية، علاء الدين البعلي المعروف بابن اللحام، المكتبة العصرية [١٤٢٠هـ].
٣٣٣. قوت القلوب في معاملة المحبوب، لأبي طالب المكي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٦هـ].
٣٣٤. قوت المغتذي على جامع الترمذي، لجلال الدين السيوطي، رسالة الدكتوراة في جامعة أم القرى، مكة المكرمة، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة [١٤٢٤هـ].
٣٣٥. القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع، لشمس الدين السخاوي، ط: مكتبة المؤيد، الطائف، السعودية، ودار البيان، دمشق.
٣٣٦. القيامة الصغرى، لعمر بن سليمان الأشقر، ط:٤، دار النفائس، الأردن، مكتبة الفلاح، الكويت [١٤١١هـ].
٣٣٧. الكافي في فقه أهل المدينة، لابن عبد البر، مكتبة الرياض الحديثة، [١٤٠٠هـ].

٣٣٨. الكافية في الجدل، للجويني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة [١٣٩٩هـ].

٣٣٩. الكبائر، للذهبي، ط:٢، بتحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، مكتبة الفرقان [١٤٢٤هـ].

٣٤٠. الكتاب، لسيبويه، ط٣، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٤٠٨هـ].

٣٤١. الكسب، لأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، عبد الهادي حرصوني، دمشق [١٤٠٠].

٣٤٢. كشاف القناع عن متن الإقناع، لمنصور بن يونس البهوتي الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٤٣. كشف الأسرار شرح أصول البزدوي، لعبد العزيز بن أحمد بن محمد، علاء الدين البخاري الحنفي، دار الكتاب الإسلامي، بدون طبعة.

٣٤٤. كشف الظنون، لحاجي خليفة، مكتبة المثنى، بغداد [١٩٤١م].

٣٤٥. كشف المشكل من حديث الصحيحين لابن الجوزي دار الوطن، الرياض.

٣٤٦. الكشكول، لمحمد بن حسين الحارثي العاملي الهمذاني، بهاء الدين، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].

٣٤٧. الكليات، لأبي البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٣٤٨. كنز الدقائق، لأبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي، ط:١، دار البشائر الإسلامية، ودار السراج، بيروت، المدينة المنورة [١٤٣٢هـ].

٣٤٩. الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، لمحمد بن يوسف الكرماني، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٠١هـ].

٣٥٠. اللباب في شرح الكتاب، لعبد الغني الغنيمي الدمشقي الميداني، المكتبة العلمية، بيروت.

٣٥١. لسان الحكام في معرفة الأحكام، لأبي الوليد ابن الشِّحْنَة الثقفي الحلبي، ط:٢، البابي الحلبي، القاهرة [١٣٩٣هـ].

٣٥٢. لطائف المعارف، لابن رجب، ط:١، دار ابن حزم، بيروت [١٤٢٤هـ].

٣٥٣. لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح، لعبد الحق الدهلوي، دار النوادر، دمشق [١٤٣٥هـ]

٣٥٤. اللمعة في خصائص الجمعة، للسيوطي، ط:٢، دار الكتب العلمية [١٤٠٧هـ].

٣٥٥. لوامع الأنوار البهية لشمس الدين السفاريني، ط:٢، مؤسسة الخافقين، دمشق [١٤٠٢هـ].

٣٥٦. المبدع في شرح المقنع، لابن مفلح، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].
٣٥٧. المبسوط، لشمس الأئمة السرخسي، دار المعرفة، بيروت [١٤١٤هـ].
٣٥٨. متن الشاطبية، (حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع)، لأبي محمد القاسم بن فيره بن خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي، ط:٤، مكتبة دار الهدى، ودار الغوثاني للدراسات القرآنية [١٤٢٦هـ].
٣٥٩. متن القصيدة النونية، لابن القيم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة [١٤١٧هـ].
٣٦٠. متن بداية المبتدي في فقه الإمام أبي حنيفة، لبرهان الدين علي بن أبي بكر المرغيناني، مكتبة ومطبعة محمد علي صبح، القاهرة.
٣٦١. مجاز القرآن، لأبي عبيدة، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٣٨١هـ].
٣٦٢. المجالس الوعظية، لشمس الدين محمد بن عمر السفيري الشافعي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٥هـ].
٣٦٣. المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي، دار ابن حزم، بيروت [١٤١٩هـ].
٣٦٤. مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، عبد الرحمن بن محمد شيخ زاده، المعروف بداماد أفندي، دار إحياء التراث العربي، بدون طبعة وبدون تاريخ.
٣٦٥. مجمل اللغة، لابن فارس، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٦هـ].
٣٦٦. مجموع الفتاوى، لابن تيمية، مجمع الملك فهد، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية [١٤١٦].
٣٦٧. مجموع رسائل الحافظ ابن رجب، دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر [١٤٢٥هـ].
٣٦٨. المجموع شرح المهذب، للإمام النووي، دار الفكر.
٣٦٩. المحبة صورها وأحكامها، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط:٣، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ].
٣٧٠. المحدث الفاصل، للرامهرمزي، دار الفكر، بيروت [١٤٠٤هـ].
٣٧١. المحرر الوجيز، لابن عطية، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٢هـ].
٣٧٢. المحكم والمحيط الأعظم، لأبي الحسن ابن سيده المرسي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢١هـ].
٣٧٣. المحلى بالآثار، لابن حزم، دار الفكر، بيروت.

٣٧٤. المختصر الفقهي، لابن عرفة، ط:١، مؤسسة خلف أحمد الحبتور [١٤٣٥هـ].

٣٧٥. مختصر المزني (مطبوع ملحقًا بالأم للشافعي)، لإسماعيل بن يحيى بن إسماعيل، أبو إبراهيم المزني، دار المعرفة [١٤١٠هـ].

٣٧٦. مختصر المعاني (مختصر لشرح تلخيص المفتاح)، لسعد الدين التفتازاني، ط:١، دار الفكر، قم [١٤١١هـ].

٣٧٧. مختصر قيام الليل للمروزي، لأبي عبد الله محمد بن نصر المَرْوَزِي، ط:١، حديث أكاديمي، فيصل آباد، باكستان [١٤٠٨هـ].

٣٧٨. مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي، مكتبة دار البيان، دمشق [١٣٩٨هـ].

٣٧٩. المخصص، لابن سيده، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤١٧هـ].

٣٨٠. المخلصيات وأجزاء أخرى، لأبي طاهر المخلص، ط:١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر [١٤٢٩هـ].

٣٨١. مدارج السالكين، لابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤١٦هـ].

٣٨٢. المدخل، لابن الحاج، دار التراث، بدون طبعة وبدون تاريخ.

٣٨٣. مراقي الفلاح شرح متن نور الإيضاح، لحسن بن عمار بن علي الشرنبلالي، ط:١، المكتبة العصرية، بيروت [١٤٢٥هـ].

٣٨٤. المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، لأبي القاسم شهاب الدين المقدسي الدمشقي المعروف بأبي شامة، دار صادر، بيروت [١٣٩٥هـ].

٣٨٥. مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان الملا الهروي القاري، ط:١، دار الفكر، بيروت [١٤٢٢هـ].

٣٨٦. المسالك في شرح موطَّأ مالك، للقاضي أبي بكر بن العربي، ط:١، دَار الغَرب الإسلامي [١٤٢٨هـ].

٣٨٧. المستصفى، لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية [١٤١٣هـ].

٣٨٨. مسند الموطأ، للجوهري، ط:١، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٩٩٧م].

٣٨٩. المسودة في أصول الفقه، لآل تيمية، دار الكتاب العربي.

٣٩٠. مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض، الطبعة القديمة، المكتبة العتيقة ودار التراث، تونس، القاهرة [١٣٣٣هـ].

٣٩١. مصابيح الجامع، لمحمد بن أبي بكر، بدر الدين الدماميني، ط:١، دار النوادر، دمشق [١٤٣٠هـ].

٣٩٢. مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى بن سعد بن عبده السيوطي شهرة، الرحيباني مولدا، المكتب الإسلامي [١٤١٥هـ].

٣٩٣. المطلع على ألفاظ المقنع، لأبي عبد الله محمد بن أبي الفتح البعلي، ط:١، مكتبة السوادي للتوزيع [١٤٢٣هـ].

٣٩٤. المطول في شرح تلخيص المفتاح، لسعد الدبن التفتازاني، وبهامشه حاشية المير سيد شريف، ط١، المكتبة الأزهرية للتراث [١٣٣٠هـ].

٣٩٥. معارج القدس، لأبي حامد الغزالي، طبع دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٣٩٦. معالم السنن، لأبي سليمان الخطابي، المطبعة العلمية، حلب [١٣٥١هـ].

٣٩٧. معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، عالم الكتب، بيروت [١٤٠٨هـ].

٣٩٨. معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس، ط:١، جامعة أم القرى، مكة المكرمة [١٤٠٩هـ].

٣٩٩. معاني القرآن، للأخفش، سعيد بن مسعدة البلخي المجاشعي، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى [١٤٢٤هـ].

٤٠٠. معاني القرآن، للفراء، ط:١، دار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة.

٤٠١. معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، لأبي الفتح العباسي، عالم الكتب، بيروت

٤٠٢. معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، للسيوطي، مكتبة الآداب، القاهرة [١٤٢٤هـ].

٤٠٣. المعلم بفوائد مسلم، لأبي عبد الله المازري، ط:٢، الدار التونسية للنشر، والمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر، [١٩٩١م].

٤٠٤. مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، للخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية [١٤١٥هـ].

٤٠٥. المغني، لابن قدامة، مكتبة القاهرة، بدون طبعة [١٣٨٨هـ].

٤٠٦. المفاتيح في شرح المصابيح، للحسين بن محمود مظهر الدين بالمظهري، ط:١، دار النوادر، وهو من إصدارات إدارة الثقافة الإسلامية، وزارة الأوقاف الكويتية [١٤٣٣هـ].

٤٠٧. مفتاح دار السعادة، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٠٨. المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، دار القلم، الدار الشامية، دمشق/بيروت [١٤١٢هـ].
٤٠٩. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت [١٤١٧هـ].
٤١٠. المقاصد الحسنة، لشمس الدين السخاوي، ط:١، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤٠٥هـ].
٤١١. مقاصد الرعاية لحقوق الله، لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، ط:١، دار الفكر، دمشق [١٤١٦هـ].
٤١٢. مقالات الإسلاميين في الصيام، د. محمد بن حسن عقيل موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء، ط١، جدة [١٤٢٢هـ].
٤١٣. مقالات الإسلاميين في الصيام، د. محمد بن حسن عقيل موسى الشريف، دار الأندلس الخضراء، ط١، جدة [١٤٢٢هـ].
٤١٤. المقدمات الممهدات، لأبي الوليد ابن رشد، ط:١، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٤٠٨هـ].
٤١٥. مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، مكتبة الحياة، بيروت [١٤٩٠هـ].
٤١٦. المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، لأبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، ط:١، الجفان والجابي، قبرص [١٤٠٧هـ].
٤١٧. مكفرات الذنوب وموجبات الجنة، لعبد الرحمن بن علي الشيباني المعروف بابن الديبع، دار الاعتصام.
٤١٨. من روائع حضارتنا، لمصطفى السباعي، ط:١، دار الوراق، دار السلام، القاهرة [١٤١٨هـ].
٤١٩. منار السبيل منار السبيل في شرح الدليل، لابن ضويان، إبراهيم بن محمد بن سالم، ط:٧، المكتب الإسلامي، بيروت [١٤٠٩هـ].
٤٢٠. منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، لحمزة محمد قاسم، مكتبة دار البيان، دمشق، والمؤيد، السعودية [١٤١٠هـ].
٤٢١. منازل السائرين، لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٢٢. المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، لأبي الفرج جمال الدين ابن الجوزي، ط:١، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٢هـ].

٤٢٣. المنتقى شرح الموطأ، لأبي الوليد الباجي، مطبعة السعادة، مصر [١٣٣٢هـ].
٤٢٤. المنثور في القواعد الفقهية، للزركشي، ط:٢، وزارة الأوقاف الكويتية [١٤٠٥هـ].
٤٢٥. منجد المقرئين، لابن الجزري، ط:١، دار الكتب العلمية [١٤٢٠هـ].
٤٢٦. منحة الباري بشرح صحيح البخاري، المسمى، «تحفة الباري»، لزكريا الأنصاري، ط:١، مكتبة الرشد، الرياض [١٤٢٦هـ].
٤٢٧. المنفرجتان، لزكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنيكي، دار الفضيلة، القاهرة.
٤٢٨. منهاج السنة النبوية لابن تيمية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية [١٤٠٦هـ].
٤٢٩. منهاج الطالبين وعمدة المفتين في الفقه، للإمام النووي، ط:١، دار الفكر [١٤٢٥هـ].
٤٣٠. منهاج العابدين، لأبي حامد الغزالي، دار الطباعة الباهرة، القاهرة.
٤٣١. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للإمام النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٣٩٢هـ].
٤٣٢. المنهاج في شعب الإيمان، لأبي عبد الله الحَلِيمي، ط:١، دار الفكر [١٣٩٩هـ].
٤٣٣. المهذب في فقه الإمام الشافعي، لأبي اسحاق الشيرازي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٣٤. الموافقات، للشاطبي، دار ابن عفان، السعودية [١٤١٧هـ].
٤٣٥. مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، لشمس الدينا الحطاب الرُّعيني المالكي، دار الفكر [١٤١٢هـ].
٤٣٦. موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل في رجال الحديث وعلله، عالم الكتب [١٤١٧هـ].
٤٣٧. موسوعة الأعمال الكاملة، للعلامة محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: ابن أخيه: المحامي علي الرضا الحسيني، الطبعة الأولى، دار النوادر [١٤٣١هـ].
٤٣٨. الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت [١٤٢٧هـ].
٤٣٩. الميسر في شرح مصابيح السنة، لشهاب الدين التُّورِبِشتي، ط:٢، مكتبة نزار مصطفى الباز [١٤٢٩هـ].
٤٤٠. الناسخ والمنسوخ، لأبي جعفر النحاس، ط:١، مكتبة الفلاح، الكويت [١٤٠٨هـ].
٤٤١. الناسخ والمنسوخ، لأبي عُبيد القاسم بن سلام، مكتبة الرشد بالرياض [١٤١٨هـ].
٤٤٢. نتائج الأفكار في تخريج أحاديث، ط:٢، دار ابن كثير [١٤٢٩هـ].
٤٤٣. نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٤هـ].

٤٤٤. نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دار الوسيلة، جدة.

٤٤٥. نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، للرملي، دار الفكر، بيروت [١٤٠٤هـ].

٤٤٦. نهاية المطلب في دراية المذهب، لإمام الحرمين عبد الملك الجويني، ط:١، دار المنهاج [١٤٢٨هـ].

٤٤٧. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، المكتبة العلمية، بيروت [١٣٩٩هـ].

٤٤٨. نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ط:١، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ].

٤٤٩. نوادر الأصول في أحاديث الرسول، لأبي عبد الله، الحكيم الترمذي، دار الجيل، بيروت.

٤٥٠. نيل الأوطار، للشوكاني، ط:١، دار الحديث، القاهرة [١٤١٣هـ].

٤٥١. الهداية إلى بلوغ النهاية، لأبي محمد مكي بن أبي طالب، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة [١٤٢٩هـ].

٤٥٢. الهداية في شرح بداية المبتدي، لبرهان الدين علي بن أبي بكر المرغيناني، دار احياء التراث العربي، بيروت.

٤٥٣. الوابل الصيب من الكلم الطيب، دار الحديث، القاهرة [١٩٩٩م].

٤٥٤. وسائل الإقناع في القرآن الكريم، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن [٢٠١٦م].

٤٥٥. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن الواحدي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].

فهرس موضوعات الجزء الثاني

خامسًا: شروط التوبة..٥
مسألة: هل الاعتراف بالذنب يكون توبة أم لا؟ ٨
سادسًا: علامات قبول التوبة والأسباب التي تعين عليها...............١٠
سابعًا: حكم التوبة...٢٢
١ – التوبة واجبة على الفور...٢٢
٢ – التوبة من الذنب وإن تكرر...٢٦
٣ – الفرق بين التوبة والاستغفار...٣٠
٤ – الفرق بين الدعاء والاستغفار...٣٨
٥ – صلاة التوبة والاستغفار...٣٩
٦ – تجديد الندم عند ذكر الذَّنب...٤٣
٧ – التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره...٤٥
٨ – مسألة: من تاب من ذنب ثم عاد إليه...٤٨
٩ – توبة الكافر...٥٢
١٠ – توبة العاصي...٥٣
١١ – توبة القاتل...٥٥

١٢ – توبة السارق..٦٠
١٣ – توبة المحاربين وقطاع الطريق..........................٦٧
١٤ – التوبة الباطنة والظاهرة...............................٧٧
ثامنًا: إجمال ذكر فرائض التوبة، وآدابها، ومراتبها..............٨٣
تاسعًا: وقت التوبة.......................................٨٥
عاشرًا: ثمرات الاستغفار...................................١١٢
حادي عشر: إجمال ذكر ثمرات الاستغفار......................١٢٣
ثاني عشر: أفضل أنواع الاستغفار............................١٣٣
الثالث عشر: الأوقات التي يشرع فيها الاستغفار...............١٣٧
١ – الاستغفار عند وقوع الذنب................................١٣٨
٢ – الاستغفار عقب الصلوات وفيها، وعقب سائر العبادات.........١٣٨
أ. الاستغفار عقب الصلاة.....................................١٣٩
ب. الاستغفار في الصلاة وغيرها من العبادات......................١٣٩
ج. الاستغفار بعد الفراغ من الوضوء.............................١٤١
د. الاستغفار في الحجِّ وعقب إكمال أعماله........................١٤٢
٣ – الاستغفار في نصف الليل وفي وقت الأسحار..................١٤٣
٤ – الاستغفار في ختم المجالس................................١٤٧
٥ – كثرة الاستغفار في ختام العمر وفي حالة الكبر والشيخوخة.........١٤٩
٦ – الاستغفار للأموات..١٥٢

المبحث التاسع: الصبر والشكر.................................١٥٩
أولًا: تعريف الصبر وبيان أركانه وأقسامه...........................١٦١
١ - تعريف الصبر.....................................١٦١
٢ - أركان الصبر.....................................١٦٦
٣ - أقسام الصبر ومقاماته...............................١٦٧
ثانيًا: بيان مكانة الصبر وأنه من أعظم المنجيات من سوء العاقبة.........١٧٩
١ — الصبر من أعظم المنجيات من الفتن وسوء العاقبة.................١٧٩
٢ — أفضل الصبر: ما كان عند الصَّدْمَة الأولى......................١٩١
٣ - صور من الصبر على الشدة والبلاء والكوارث.....................١٩٣
أ. الصبر على موت الولد...................................١٩٣
ب. حمد الله عَزَّوَجَلَّ عند فقد الولد...............................١٩٧
ج. الصبر والاحتساب على فقد الصفيِّ...........................١٩٧
د. الصبر على تربية البنات، والإحسان إليهن.......................١٩٧
هـ. الصبر على فقد البصر.................................١٩٩
و. الصبر على الصرع.....................................٢٠٢
ز. الصبر على الحمى......................................٢٠٤
ح. الصبر على ما يصيب العبد من مرض، ويكون سببًا في موته.........٢٠٦
ط. الصبر على الظلم......................................٢٠٦
ي. الصبر على مشاقِّ التكليف...............................٢٠٧

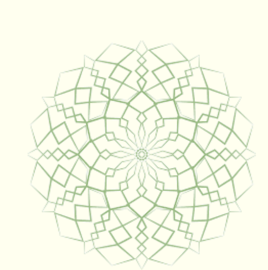
٤ – الصبر من خصال الإيمان وشعبه........................ ٢٠٨
٥ – الصبر خير ما يستعان به عند النوازل والبلاء..................... ٢١٢
٦ – طلب الإعانة من الله عَزَّوَجَلَّ عند وقوع البلاء..................... ٢١٩
٧ – المعونة قدر المؤونة.. ٢١٩
٨ – صبر العبد دليل على محبة الله عَزَّوَجَلَّ له، ورضاه عنه أن وفقه للخير.... ٢٢٣
٩ – المسلم يتعوذ من البلاء، ويحمد الله عَزَّوَجَلَّ على العافية.............. ٢٢٩
١٠ – مسألة: الغني الشاكر، والفقير الصابر......................... ٢٣٠
١١ – التعوذ بالله عَزَّوَجَلَّ من الغنى المطغي والفقر المنسي................ ٢٤٠
١٢ – الوقاية من آفات الفقر المنسي والغنى المطغي والعلاج............ ٢٤٩
١٣ – بيان عاقبة الصبر، وبيان أنه مفتاح الفرج...................... ٢٥٢
١٤ – التلازم بين الصبر والشكر................................. ٢٦٤
ثالثًا: تعريف الشكر وبيان مكانته ومنازله وأركانه وعاقبته............. ٢٦٦
١ – تعريف الشكر، وبيان الفرق بينه وبين الحمد، وذكر درجاته ومراتبه.. ٢٦٦
أ. بيان حقيقة الشكر...................................... ٢٦٦
ب. معنى شكر الله عَزَّوَجَلَّ للعبد.................................. ٢٧٣
ج. الفرق بين الشكر والحمد................................. ٢٧٤
د. منازل الشكر ودرجاته.................................... ٢٨٢
هـ. أركان الشكر.. ٢٨٤
٢ – الشكر من أعظم المنجيات من سوء العاقبة..................... ٢٨٥

٣ - كفران النعم من صور الكفر الأصغر........................... ٣٠٠
٤ - شُكْرُ النَّاس... ٣٠٤
رابعًا: ذكر ما يعين العبد على الصبر والشكر...................... ٣١٣
المبحث العاشر: حياة البرزخ وأسباب الوقاية من العذاب فيه.. ٣٢٩
أولًا: الإيمان بحياة البرزخ الخاصة.............................. ٣٣١
ثانيًا: المراحل التي يمر بها الإنسان قبل ولادته وبعدها.................. ٣٣٥
ثالثًا: حقيقة الحياة في دار البرزخ والعذاب والنعيم فيه.................. ٣٤٠
رابعًا: النصوصِ الدالةِ على عذابِ البرزخ ونعيمه...................... ٣٤٥
خامسًا: بشرى المؤمن بحسن العاقبة عند انتقاله إلى الدار الآخرة......... ٣٧٧
سادسًا: حياة الشهداء في البرزخ................................. ٣٨٨
سابعًا: بيان المراد من الصِّدِّيقين وحياتهم في البرزخ.................. ٣٩٩
١ - بيان المراد من الصدِّيقين....................................... ٣٩٩
٢ - حياة الصِّدِّيقين في البرزخ...................................... ٤٠٦
ثامنًا: حياة الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في البرزخ................................ ٤٠٧
تاسعًا: الأطفال في حياة البرزخ.................................. ٤٢١
عاشرًا: أسباب النجاة والوقاية من عذاب البرزخ...................... ٤٢٥
١ - الحذر من المعاصي المنصوص على أنها من أسباب عذاب البرزخ.... ٤٢٥
٢ - العلم بعاقبة كلِّ ذنبٍ وأسباب النَّجاة والوقاية منه.................... ٤٢٦

٣ – محاسبة النفس والتنقيب عن عيوبها، وتجديد التوبة................ ٤٢٦
٤ – الرباط في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.................................... ٤٢٧
٥ – الشهادةُ في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.................................... ٤٣٤
٦ – من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة........................... ٤٣٧
٧ – المحافظة على قراءة سورة الملك والعمل بها ٤٤٠
٨ – من أصيبَ بداءٍ في بطنه فكان سببًا في موته...................... ٤٤٢
٩ – المحافظة على أداء العبادت، وفعل الخيرات..................... ٤٤٩
١٠ – تحقيقُ التقوى لله عَزَّوَجَلَّ.................................... ٤٥١
١١ – الاستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ من عذاب القبر........................... ٤٥١
١٢ – خلاصة نافعة في ذكر أنواع الشهادة الحكمية..................... ٤٥١
المبحث الحادي عشر: أسباب السعادة وتفاوت مراتبها.......... ٤٥٩
أولًا: الحياةَ الطَّيِّبَة، والسعادة الرضية مطلَبٌ يَنْشُدُهُ كلُّ البشر............ ٤٦١
ثانيًا: السَّبيل الموصل إلى السَّعادة.................................. ٤٦٤
ثالثًا: أسباب السعادة.. ٤٦٦
١ – أن يُغْنى العاقلُ بسرورٍ لا ينقطع.................................. ٤٦٦
٢ – مخالفة النفس، والهوى، والشيطان، وإصلاح النفس................ ٤٦٧
٣ – تغذية الروح بالإيمان.. ٤٦٨
٤ – تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّوَجَلَّ.................................. ٤٦٩
٥ – رسوخ الإيمان بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره............................ ٤٧٠

٦ - أن يُثَمِّن العبد ما عنده من نعمٍ لا تعدُّ ولا تحصى................٤٧٢
٧ — أن يضع العبد نصب عينيه مصير من سلك طريق الشقاء، وعاقبة من سلك طريق السعادة والهناء.................................٤٧٣
٨ - إخلاصُ النية في طلب الحقِّ، والاهتداء بأنوار الوحي...............٤٧٣
٩ - السعيُ إلى تكميلِ النَّفس بالعلمِ والمعرفة.......................٤٧٣
١٠ - السعي إلى المعالي في المجالات كافة.........................٤٧٤
١١ - اغتنام الوقت بما ينفع العبد...................................٤٧٤
١٢ — الإكثار من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ....................................٤٧٤
١٣ — ملازمة العلماء والصالحين وأصحاب الهمم العالية...............٤٧٥
١٤ — الإكثار من ذكر الموت.....................................٤٧٥
١٥ — أن يتجنب السلك المهلكات المتوعد عليها بالعذاب، والعقبات التي تحول دون الهداية...٤٧٥
١٦ - تحري أسباب المغفرة، والخصال المكفرة........................٤٨٠
رابعًا: التقوى تبلغ العبد أعلى درجات السعادة في الآخرة...............٤٨٠
خامسًا: الأسباب التي تعين على التلذذ بالأعمال الصالحة...............٤٩٦
١ - مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ وإخلاص العمل له..............................٤٩٧
٢ - مجاهدة النفس...٤٩٨
٣ — تدبر آيات القرآن الكريم، ومعرفة أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته...........٥٠٠
٤ - الإكثار من النوافل.......................................٥٠١

٥ – مجالسة العلماء، ومصاحبة الصالحين من أرباب العزائم والهمم........٥٠١
٦ – التنويع في العبادات وفي صفاتها..............................٥٠٢
٧ – الذكر، والدعاء، والتضرع إلى الله عَزَّوَجَلَّ..............................٥٠٢
ملحق في بيان ما تقدم بسطه من المنجيات..........................٥٠٩
المبحث الثاني عشر: تحري أسباب المغفرة، والعافية، والخصال المكفرة..٥١١
المبحث الثالث عشر: الابتلاء بالفتن وأسباب النجاة منها..٥٤١
أوَّلًا: وقوع الفتن من الابتلاء الذي يمحص الصادق عن الكاذب........٥٤٣
ثانيًا: أسباب الوقاية والنجاة من الفتن..............................٥٦٧
المبحث الرابع عشر: اجتناب أعمال أهل النار................٥٨٣
المبحث الخامس عشر: تجاوز العقبات التي تحول دون الهداية..٥٩١
المبحث السادس عشر: التربية الوقائية...................٦٠٣
المبحث السابع عشر: طلب العلم وتحري الحق والتلازم بين العلم والعمل..٦١٣



المؤلف في سطور:

الاسم: عبد القادر محمد المعتصم دهمان.

الميلاد: من مواليد مدينة حمص في سوريا.

محل الإقامة: الكويت، محافظة الفروانية، ضاحية عبد الله المبارك الصباح.

المؤهل والخبرات:

١ - حاصل على شهادة المعهد العلمي الشَّرعي التابع لجمعيَّة العلماء في مدينة (حمص) بتاريخ (١٥/١٢/١٤١٣هـ)، بتقدير: (امتياز). وعلى شهادة الثَّانوية الأزهريَّة (القسم الأدبي) من (القاهرة).

٢ - حاصل على درجة الإجازة العالية (الليسانس) من كليَّة أصول الدين بجامعة الأزهر في (القاهرة)، بتاريخ (٢) من ربيع الآخر [١٤١٨هـ]، (٦/أغسطس/١٩٩٧م) بتقدير: جيد جدًّا، قسم التفسير وعلوم القرآن.

٣ - حاصل على درجة دبلوم الدِّراسات العليا (الماجستير) في التَّفسير وعلوم القرآن، وذلك بعد مناقشة رسالة بعنوان: (الإقناع بين طريقة القرآن وعرض المفسِّر)، وذلك يوم الأربعاء الواقع في (٧/ذي الحجة/١٤٢٤هـ)، الموافق (٢٩/١/٢٠٠٤م). وقد طبعت رسالة الماجستير مع تحقيقات وزيادات وتعديلات جديدة بعنوان (وسائل الإقناع في القرآن) في دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن [٢٠١٦م].

٤ - حاصل على درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، بعد مناقشة رسالة بعنوان: (أساليب الخطاب في القرآن الكريم). دراسة تحليلية شاملة لأساليب الخطاب والطلب في القرآن

الكريم. وذلك يوم السبت الواقع في (٣٠/٧/٢٠١١)، الموافق (٢٩/شعبان/١٤٣٢هـ). وقد طبعت رسالة الدكتوراه في مجلدين مع تحقيقات وزيادات وتعديلات جديدة في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، قطاع الشؤون الثقافية، مجلة الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ].

عمل إمامًا وخطيبًا ومدرّسًا في (سوريا)، وكذلك في (الكويت) ولا يزال. وعمل مُوَجِّهًا فنيًّا في المراقبة الثَّقافية في وزارة الأوقاف إدارة مساجد محافظة (الفروانيَّة)، ثمَّ باحثًا شرعيًّا [١٦] عامًا في (المراقبة الثقافية في إدارة مساجد محافظة الفروانية)، وإمامًا وخطيبًا في محافظة (الفروانيَّة) [٢٠] عامًا، ولا يزال.

ومدرسًا في كلية التربية الأساسية في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي، قسم الدراسات الإسلامية (الكويت - العارضية).

الكتب والمؤلفات:

١ - **(تذكرة وبيان من علوم القرآن)**، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر، الطبعة الأولى: [١٤٤٣هـ، ٢٠٢١م].

٢ - **(مَجَارِي الكِنَايَةِ في اللُّغَةِ وعِلْمِ البَيَانِ والتَّفْسِيْرِ والفِقْهِ وأُصُوْله)**.

جاء في مقدمة الكتاب: "وقد كنتُ قد بحثتُ من مقاصدِ علم البيان كلًّا من: (التشبيه، والاستعارة، والمجاز المرسل)، في كتاب: (تذكرة وبيان من علوم القرآن)، ووعدتُ بأن يكون مبحث الكناية في صدر الجزء الثاني من كتابي: (تذكرة وبيان من علوم القرآن).

ولما رأيت ما للكناية من تشعبات في علوم متنوعة رأيتُ إفرادها البحث؛ لحاجة طالب العلم، والباحث في علوم: (اللغة، والبلاغة، والتفسير، والفقه، وأصوله) لمعرفة مجاري الكناية في هذه العلوم".

٣ - **(الإرشادات المنهجية إلى تفسير الآيات الكونية)** (إضاءات على تعريف التفسير العلمي وضوابطه، ومبادئه العشرة)، العبيكان، [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

وقد طبع قسم منه في (جامعة النيلين)، السودان. بعنوان: (مبادئ التفسير العلمي لنصوص القرآن الكريم وضوابط التعريف)، كبحث (محكم).

٤ - **(وسائل الإقناع في القرآن الكريم)**، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن [٢٠١٦م].

٥ - **(أساليب الخطاب في القرآن الكريم)**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، قطاع الشؤون الثقافية، مجلة الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ].

٦ - **(التربية الوقائية من آفات التفكك الأسري)**، وقد كان طبع في وزارة الأوقاف، في إدارة مساجد محافظة الفروانية، في دولة الكويت سنة [١٤٣٥هـ]، الموافق [٢٠١٤م]، رقم الإيداع ٢٠١٤/٤١م. WWW.islam.gov.kw. بعنوان: (أخطار تهدد الأسرة). وأعيد طبعه في (دار اللؤلؤة)، مع إضافات وبعض التعديلات.

٧ - **(المحبة صورها وأحكامها، وزارة الأوقاف)**، دولة الكويت، إدارة مساجد محافظة الفروانية، مطبعة النظائر [١٤٣٧هـ]. أعيد طبع الكتاب بإصلاحات وإضافات وتحقيقات جديدة في (دار اللؤلؤة)، المنصورة، مصر [١٤٣٩هـ، الموافق ٢٠١٨م]، الإصدار الثالث بإصلاحات جديدة، العبيكان [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

٨ - **(عقبات في طريق الهداية، وسبل الوقاية منها)**، والكتاب يتناول خمسة وخمسين موضوعًا من حيث التعريف وبيان الخطر والتربية الوقائية. طبع في (دار اللؤلؤة)، المنصورة، مصر

[١٤٣٩هـ]، الموافق [٢٠١٨م]، الإصدار الثاني، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

٩ – **(دروس وعبر من رحلة سيد البشر** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ). كتيب. وزارة الأوقاف، دولة الكويت، إدارة مساجد محافظة الفروانية، الطبعة الأولى [١٤٣٩هـ]، [٢٠١٨م]، الإصدار الثاني، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

١٠ – **(نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار)**. والكتاب يتناول موضوعات كثيرة من حيث التعريف وبيان الخطر والتربية الوقائية. العبيكان، [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

١١ – **(سبيل الوصول إلى عنوان الأصول)** (في الأصول)، وهو شرح وتحقيق ودراسة لعنوان الأصول في أصول الفقه، لأبي حامد المطرزي. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].

١٢ – **(الْإِرْشَادُ إِلى أَسْبَابِ النَّجَاة، والوَسَائِلُ النَّاجِعَةُ لِحَيَاةٍ طَيْبَةٍ نَافِعَة)**.

١٣ – **(أساليب النداء في القرآن الكريم)**، دراسة تحليلية لآيات النداء تتناول (الأداة، والمنادَى، والمنادِي، وما ولي الأداة والمنادَى)، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

١٤ – **(تنوير المستبصر الفائز ببيان أحكام الجنائز)**، شرح وتحقيق كتاب الجنائز للفقير إلى رحمة ربِّه العلي إبراهيم بن يوسف البولوي، توفي سنه [١٠٤١هـ]. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٥هـ].

١٥ – **(آفات اللسان وسبل الوقاية والعلاج منها)**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت [١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م]، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

١٦ – **(كتب عليكم الصيام)**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت [١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م].

١٧ – **(ثلاث رسائل في الفقه)**، للعلامة حسن الشرنبلالي المتوفى سنة [١٠٦٩هـ]، وهي على النحو التالي:

أ. **(دُرُّ الكُنوز فمن عمل بها بالسعادة يفوز)**. وهي منظومة في أحكام الصلاة.

ب. **(سعادة الماجد بعمارة المساجد)**.

ج. **(إتحاف ذوي الإتقان بحكم الرهان)**. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].

١٨ – **(عنوان الأصول)**، لأبي حامد المطرزي. مع شرحنا له، مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].

١٩ – **(أحكام الجنائز)**، لإبراهيم بن يوسف البولوي، توفي سنه [١٠٤١هـ]. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٥هـ].

٢٠ – **(إتحاف المهتدين بمناقب أئمَّة الدِّين)** مختصر (تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمَّة المجتهدين) للعلاَّمة الشيخ مرعي الحنبلي، للعلامة الشيخ أحمد الدمنهوري المتوفى سنة [١١٠١هـ]، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٥هـ].

٢١ – تحقيق ودراسة وشرح منظومتي الشهداء:

أ. **(داعي الهدى بشرح منظومة الشهدا)**، للإمام أحمد بن عبد الرَّزاق المغربي الرَّشيدي.

ب. **(شرح منظومة الشهداء)**، للإمام علي بن محمَّد الأجهوري، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٤هـ].

٢٢ – **(تحقيق ودراسة رسالتان في الأصول)**، لإسماعيل بن غنيم الجوهري المتوفى سنة [١١٦٥ هـ]:

أ. (**رسالة في جواز النسخ**).

ب. (**الكلم الجوامع في مسألة الأصولي لجمع الجوامع**)، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٤هـ].

٢٣ – دراسة وتحقيق (**سورة الفاتحة**) من التيسير في التفسير المسمى ببحر علوم التفسير، لنجم الدين عمر بن محمد النسفي [٥٣٧ هـ]، لم يطبع.

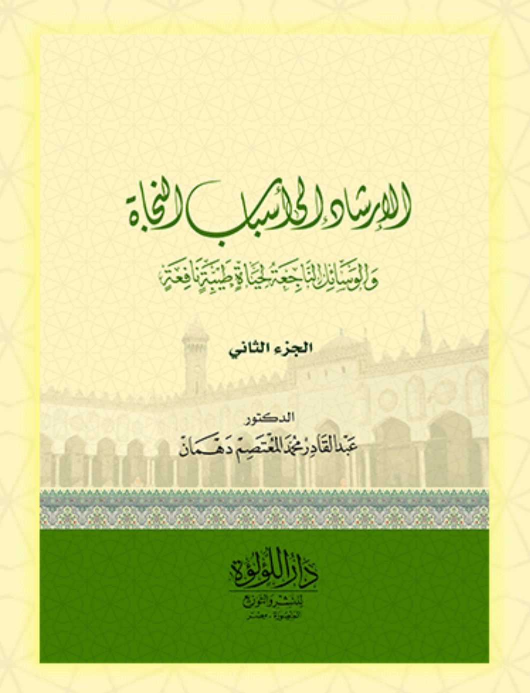
٢٤ – تحقيق ودراسة وشرح لكتاب: (**إتمام الدراية شرح نقاية العلوم**)، وهي خلاصة مختارة من أربعة عشر علمًا، للإمام جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة [٩١١هـ]، دار الضياء، الكويت، طبع في مجلدين، وقد شارك في تحقيق (إتمام الدراية) الدكتور عبد الرقيب صالح الشامي، وفضيلة الشيخ مصطفى محمود سليخ.

٢٥ – (**الإفساد في الأرض صوره وأسبابه وسبل الوقاية منه في ضوء الكتاب والسنة**)، العبيكان [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

٢٦ – (**الخيانة صورها وأحكامها وآثارها في ضوء الكتاب والسنة**)، العبيكان [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م]، دار اللؤلؤة، المنصورة، مصر [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

٢٧ – تحقيق ودراسة لكتاب: (**تبيين المحارم**)، لسنان الدين يوسف بن عبد الله الأماسي الرومي الحنفي، مقابل على سبع مخطوطات، بالاشتراك مع الدكتور عبد الرقيب صالح الشامي، وأ.د إقبال المطوع،، لم يطبع بعد.

٢٨ – (**مختارات من خطب الدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان**)، لم يطبع.



لا بدَّ لطالب النَّجاة والسَّعادة من سلوكِ سبيلِ الأبرار، من الصَّالحين الأطهار، في اجتنابِ أعمال أهل النَّار، والاحترازِ عن نهج المفسدين الفجار، واتخاذِ أسباب الوقاية من المزالق والمضلَّات، ومن الخوض في فتن عاتيات. ولزوم نهج المصلحين من أرباب البصائر والصلاح، في الاستقامة والثبات على صراط الله تعالى المستقيم، وشرعه الحكيم، من الفعل والتَّرك، والتحلي والتخلي، والفقه والعمل، حتى يحيا في الدُّنيا حياةً طيبةً نافعة، ويجازى في الآخرة بأحسن ما كان يعمل، فيكون من الفائزين بخيري الدنيا والآخرة. وقد حذَّرنا الشَّارع من أعمال أهل النَّار، وأرشد العباد إلى أعمال تصلح أحوالهم، وتنجيهم من الأهوال والآفات، وسوء العاقبة، وتقيهم في الآخرة من عذاب النار. وقد كنت قد أفردت بالبحث: ما تُوعد عليه بالنار مع بيان أسباب الوقاية والنجاة، كما أفردت ذكر العقبات التي تَصُدُّ عن الهداية، مع بيان سبل الوقاية والعلاج منها، وجاء هذا الكتاب متممًا لأسباب النجاة العامة، ومذكِّرًا بالأعمال الجليلة التي خصت بمزيد من الفضل، والتي هي من أسباب النجاة، وحسن العاقبة، ورفعة الدرجات في الآخرة. وقد كنتُ قد كتبتُ شيئًا من بعض موضوعاته قديمًا، فرأيت أن أتمه؛ لما رأيت من كونه مكملًا لتلك الأعمال السابقة، والله تعالى أسأل أن يكون نافعًا، ومثمرًا، وأن يكون أثرًا باقيًا.

وبناء على ما ذكرت فإن هذا المصنف يكون متقدِّمًا ومتأخِّرًا على اعتبار اللاحق مما أضيف، والسابق مما تقدم..

د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان

